الصراع بين الإسلام والوثنية

تأليف

عبد الله علي القصيمي

الجزء الثاني

الخميني يسمع

نداء ورجاء وتذكير مخلص للخميني ولأهل عقيدته :

كم هي خطيئة معاداة من نصروا الدين ونشروه بادعاء الانتصار والانتقام لمن ارادوا نصره ونشره

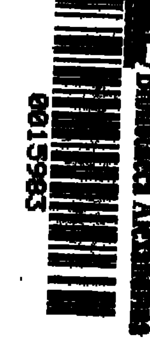
وكم هي خطيئة أن يشوه الدين بتحويله الى بغضاء وأحقاد وعداوات وعدوان وحروب بزعم تجميله ونصره ونشره

وكم هي خطيئة أن يسحب من النفوس المحبة للمحبة والسلام .. المحتاجة الى المحبة والسلام بحجة غرسه وتوكيده في النفوس بالرصاص والخناجر والسيوف

ما أنذل وأفجر وأكفر البغضاء والاحقاد والحروب باسم المحبة والسلام . باسم السلام .. باسم الاسلام

الطبعة الثانية

القاهرة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٢ م



الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٧ م

الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٢ / ٥٦٣١

﴿ تقريظ الجزء الأول من كتاب الصراع ﴾

ننشر فى ما يلى هذه القصيدة البارعة التى قرظ بها الاستاذ الجليل الشيخ عبد الظاهر أبو السمح إمام المسجد الحرام ، وخطيبه ، ومدير دار الحديث بمكة المكرمة الجزء الأولَ من كتاب « الصراع » قال حفظه الله :

ألا فى الله ما خط اليراع	لنصر الدين واحتدم الصراع
« صراع » لا يماثله صراع	تميد به الأباطح والتلاع
صراع بين إسلام وكفر	يقوم به القصيمىّ الشجاع
خبير بالبطولة عبقرى	له فى العلم والبرهان باع
يقول الحق لا يخشى ملاماً	وذلك عنده نعم المتاع
يريك «صراعه» أسداً هصوراً	له فى خصمه أمر مطاع
كأن بيانه سيل أتىّ	تفيض به المسالك والبقاع
تسايره جنود الحق حتى	لتخشاه الأساود والسباع
إلى صرعاه فانظر كيف أمسوا	عليهم من مذلتهم رقاع
فبعضهم أسير أو قتيل	وبعضهم يصيح ولا دفاع
أعبد الله مِنّ على الأسارى	وأطعمهم هدًى فهمو جياع
أبنت عوارهم وصرعت منهم	أكابرهم ، ولم ينج الرعاع
لقد أحسنت فى رد عليهم	وجئتهم بما لا يستطاع
لقد كنا نعد الرفض جرماً	فبين كفره هذا «الصراع»
كتاب قد حوى علماً غزيراً	له من نور صاحبه شعاع
يرد به على الضلال طراً	وينقض ماافتروه وما أذاعوا
ويصلى الرافضى به سعيراً	تلظى ، مالها عنه انقطاع

يخزى كل ذى رفض غوى ... خلاصة دينه السوءى خداع
يسبون الصحابة خير صحب ... وأزواجَ النبى ولم يراعوا
ومن شهد الرسول لهم بفوز ... بما ضحوا بأنفسهم وباعوا
ويحمل قلبهم بغضاً شنيعاً ... لخير الخلق ليس له قناع
يقولون : الأمين حبا بوحى ... وخان . ومالهم عن ذا ارتداع
فهل فى الأرض كفر بعد هذا ... وحرثهو لمن يهوى متاع
فما للقوم دين أو حياء ... بحسبهم من الخزى «الصراع»
ألا لله درك يا ابن «نجد» ... كبت الخصم، فانقطع النّزاع
وكم لك من مواقف خالدات ... بها للحق عز وارتفاع
«بروقك» فى سماء الحق تعلو ... وفيها للذى عمى اتضاع
«وفصلك» مايزال يشع نوراً ... وفى رأس العدى منه انصداع
«ونقدك» هيكلاً أحلى وأحلى ... به للناس ما مرضوا انتفاع
وكل ردودك الحسنى متاع ... تلذ لمن له فيها استماع
ومنها مادحرت به «شيوخاً» ... لهم فى الدين جهل وابتداع
لجاهد فى سبيل الله تؤجر ... من الرحمن إن قوم أضاعوا
لقد رابطت فى مصر فأغنى ... لعمرى منك عن جيش دفاع
وكم سيف لدى الهيجاء ينبو ... ولا يجدى بها إلا اليراع
وان يراعك السيال سيف ... إذا ما شمته اندكت قلاع
فدم واسلم لأهل الحق تقضى ... على من ليس عندهم اتباع

عبد الظاهر أبو السمح

حاجة المسلمين الى الكفاح

﴿ لماذا سميت هذا الكتاب : « الصراع » ؟ ﴾

الجواب أننى سميته هذا الاسم لأنى لم أجد المسلمين يحتاجون فى هذا العصر إلى شئ احتياجهم إلى الصراع و إلى ما للصراع من آثار ونتائج . فما نكبوا فى بلد من بلدانهم ، ولا فى حرمة من حرماتهم ، ولا فى مجد من أمجادهم ، ولا فى حق من حقوقهم ، ولا فى شئ من أشيائهم إلا بعد أن نسوا الصراع ، و بعد أن ملوه وهجروه ومالوا إلى الدعة والركود والهدوء الذليل الجبان . وما بلغ المسلمون الأولون ما بلغوا ، ولا نال الاسلام ما نال من ملك أذل كل ملك ، وسلطان صرع كل سلطان ، ومجد وطئ كل مجد إلا بالصراع ، و إنهم ـ اليوم و بعد اليوم وفى كل وقت ـ لن ينالوا حقا من حقوقهم ، أو يستردوا كرامة من كراماتهم ، أو يثأروا من عدو ظالم ، أو يجدوا فى هذا العالم الجياش بالمظالم إنصافا إلا بالصراع و بالخصومة العنيفة الحادة الملتهبة .

الصراع ضرورى لحياة الشعوب ولبقائها . وكل شعب فقد هذا الدواء فقد ـ ولا محالة ـ الحياة ، وأكلته الشعوب ، وطحنه تنازع البقاء ، وذهب أقساماً بين أشتات المطامع والأهواء ، ولقى مثل ما لقى الشرق الوديع المسالم من الغرب الهائج المحارب .

لقد صار اليوم أغبى الأغبياء من يحاول أن ينال حقه باسم العدالة والرحمة أو باسم القوانين الخاصة أوالعامة ، أو باسم المدنية والانسانية ! وصار المغبون حقاء المجنون حقا ذلك الضعيف المهزول المسالم ، الجاثى على ركبتيه الضعيفتين

المهزولتين أمام ذلك الجبار القوى الظالم ، يستجديه حقه ، و يسأله إنصافه و يطلب إليه بدمعه ، لا بدفعه ، أن يمسح الدم عن أظفاره الدامية ، و يطع فه من لحوم الضعفاء الأبرياء ، و يناديه باسم المدنية ، وباسم الحقوق الانسانية وصار لا يوجد العدل إلا حيث يوجد الجور ، ولا توجد السلم إلا حيث توج الحرب ، ولا يوجد الحب إلا حيث توجد الكراهية والبغضاء ، ولا يوجد القانو إلا حيث يوجد من يمزقه ، ولاتوجد الانسانية ولاالتحدث عن حقوقها إلاحيث يوجد من يضربونها الضربات القاتلة . وصار الأقوياء الباطشون لا يذكرو العدالة ، ولاالحقوق ، ولاالقوانين ، ولاالمعاهدات ، ولاالشرف ، ولاسائرهاتيك الفضائل النارية إلا إذا تحدثوا إلى الأقوياء الباطشين الظالمين أمثالهم . أ الضعيف العاجز عن الصراع ، الهارب إلى الدعة والسلم فماله عند هؤلاء الأقويا الشرفاء إلا التمدين ومعناه إفساد الأخلاق والأذواق والعقائد ، و إلا الاستعما ومعناه الجوع والجهل والذل والمرض وسائر ما للبؤس والشقاء من مظاهر ومعان والا الانتداب ومعناه مافى فلسطين .

كان فى الناس فى الزمان الأول من يظنون أن القتال هوالذى يحدث القتل وأن الشجاع المقاتل يقتل دون الجبان المسالم الراضى بالذلة ، المقر للخسف فى دينه و وطنه وشرفه ، وكانوا يحسبون أن الجبناء أطول آجالا من الشجعان فقالوا

يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول

وقالوا أيضاً :

فيم الشماتة إعلاناً بأسد وغى ؟ * أفنام الصبر إذ أبقاكم الجزع

وكانوا يظنون أن من كره الموت ففرمن وجهه ومن أسبابه نال الحياة الطويلة : لأنهم كانوا يظنون الأقوياء الظالمين لايقاتلون إلا المقاتلين ، ولا يحاربون إلا المقاومين ، وكانوا يحسبون الانسان يأنف من قتل المسالم المستسلم . ولهذا كا

مكان من يحرصون على الحياة يهرعون إلى السلم والاستسلام . وكان لا يقدم على الحرب والمقاومة إلا من رخصت لديهم الحياة وهان عليهم القتل . وعلى هذا كانت تكون الحرب ، وكانت تكون السلم . أما اليوم فقد تبين للناس كافة حتى للجبناء البلداء منهم أنه لا يقتل إلا الجبان ، ولا يقع فى الحرب إلا الهارب إلى السلم ، ولا ينال الشر إلا أهل الخير والدعة واللين والسلام ، وأنه لا ينجو من الموت إلا المقاومون المصارعون ، الموقدون الحرب بموقديها ، الجازون الشر أضعافه ، الطائرون إلى كل هيعة ، وعلموا أنه لا أمل لطالب الحياة فيها إلا أن يكون أبداً رجل حرب وكفاح وصراع وإقدام . إذن ليقل للجبناء : إنكم بالجبن تقتلون أنفسكم ، وبالهرب من الحرب تقعون فيها .

لقد سالم المسلمون وأخلصوا للسلم ، وأحبوا فبالغوا فى حبهم ، وكرهوا الحروب وأخلصوا فى كراهتهم حتى نفروا من كل حرب ومقاومة ، وتخلوا من كل بغضاء وحقد وكره لهذا الغرب الحقود الظالم المحارب قروناً طويلة ، وقد ظلوا يتقون الحروب ويتقون أسبابها حتى ذهبت بلادهم ، وزال ملكهم ، وتلاشت هيبتهم ، ومنوا بكل ما هم فيه اليوم من هوان وذلة وفقر وجهل وعجز وخزى حتى صاروا ، وهم يعدون بأربعمائة مليون ، لا يحسب لهم حساب ، ولا يقام لإرادتهم ورأيهم وزن ، ولا يذكرون حين تقتسم الأسلاب والمغانم ـ وليست الأسلاب ولا المغانم سواهم وسوى بلادهم وحقوقهم . وصارت أقل دولة وأذلها تأخذ منهم ماتريد ، وتنال من بلادهم ماتشتهى دون أن تستأذنهم أو تسألهم أو يخطر لهم حساب على بالها . وكان من أروع مظاهر هذا البلاء الذى أصاب المسلمين عامة أن استعمرت دويلة أوربية ضئيلة ، لايزيد عددها على خمسة ملايين شعبا من المسلمين يبلغ تعداده ستين مليوناً ، وهذه فى الغرب وهؤلاء فى الشرق . وكان من أبلغ هذا الخزى الذى شمل المسلمين أن تقدم هذه الدولة العجوز على فعلتها

المنكرة فى فلسطين ، هذه الفعلة التى لم يسبق لها نظير فى تاريخ الظالمين المتوحشين كلها ، ثم لا تهتز جنبات العالم الاسلامى اهتزازاً ترتفع به أمم وتسقط به أخرى .

إن المسلمين لو لم يصابوا بهذا الفشل الذى لا مثيل له ، ولو لم يملوا الصراع المقدس ما استطاعت بريطانيا أن تكشف سوءتها وحقارتها ومدنيتها الزائفة فى فلسطين على منظر العالم الاسلامى العربى ومسمعه ، وعلى رغمه ، ثم لا يغضب غضبة يتحطم بها أكبر عرش مرصع بالجواهر المنهوبة من خزائن المسلمين ومن عروشهم المحطمة ، الواحد تلو الآخر بدسائس هذه العجوز وطغيانها وكيدها .

هذا شعب عربى مسلم ، فى بلد عربى إسلامى ، يقع فى قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه دولة أوربية ، فتحكمه وتتحكم فيه أخبث أنواع الحكم والتحكم باسم الانتداب الملعون ، فتسلبه أولاً كل معانى السيادة والعزة ، ثم لا يكفيها هذا ، بل تمتد يداها إلى مكان العقائد والايمان والخلائق الفاضلة من أهله فتحاول إفساده وتخبيثه ليسهل عليها ما تريد ، ثم لا يكفيها هذا أيضاً بل تبسط يديها إلى القصور وإلى الأكواخ لتنزل فيهما الفقر والبؤس ، ولتملأهما من معانى الشقاء والفاقة ، وتبسطهما إلى الجيوب لتنتزع منها ما بقى فيها من مال قليل ، فتبلغ أقصى ما تريد ، ثم لا يكفيها — ويلها — كل ذلك ، بل تقوم تجر جيوشها وأساطيلها وطياراتها وسائر قواتها المزودة بأموال المسلمين وأموال العرب لتشرد هذا الشعب المنهوك بانتدابها — قاتله الله — من وطنه ووطن آبائه وأجداده ووطن دينه منذ القرون القصية ، وفيه مقدساته الدينية ، وفيه رفات أسلافه الأكرمين الأولين وفيه كم أراق دماءه وبذل مهجه لحمايته وصون حرماته من عدوان العادين ، وفيه كم ساد وحكم وذاد عنه المغيرين . . . لتشرده من وطنه كى تهبه التائهين المشردين المنبوذين من اليهود الممقوتين فى كل مكان وزمان ، ليزرعوا

فيه خبثهم وحقدهم وفسادهم الجبلى ، وليشروا فيه المعانى اليهودية المجرمة ، وليكونوا الجرثومة الفتاكة القتالة فى قلب الشعوب العربية الاسلامية حتى يغلبها الفناء ، وليكونوا فى وطنهم ذاك الموهوم المزعوم مصدراً خصباً لشقاء المسلمين وشقاء العرب ، ومصدراً لتهديد بلادهم بالمعانى الاسرائيلية الذميمة من كثب . . . فلما أن قام هذا الشعب العربى الباسل المنكوب بانتداب هذه الدولة العجوز قائلا : لا ، لن أخرج عن وطنى ليكون وطناً لبنى إسرائيل الأنذال و إن رغمت بريطانيا القوية ، و إن رغم كل ظالم على وجه الأرض ؛ وقائلا: إن وطناً قد حميته ودفعت عن سيادته وعن عروبته و إسلامه أربعة عشر قرناً من القرون القاسية العاصفة لا يمكن أن أتركه فى عام واحد ،ولا فى عشرين عاماً، ولا فى عشرين قرناً إن شاء الله ، ولو ساقت بريطانيا كل قواتها وأساطيلها وجيوشها وشياطينها لتحارب إرادة الله القوى ، ولتقاوم مشيئته . فإن شعباً لا يعرف إلا الله لن يغلبه من لا يعرف الله ، و إن من لا يعرف إلا الحق لن يذل لمن لا يعرف إلا الباطل ، وان شعباً تنميه آباؤه وجدوده إلى السلطان صلاح الدين ، ثم ترتفع به إلى المعتصم وعبد الملك بن مروان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ثم تسمو به صعداً إلى الصديق و إلى الفاروق و إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وطارق بن زياد وموسى بن نصير ، ثم تسمو به أكثر حتى تصله بسيدنا و سيد العالمين محمد بن عبد الله ﷺ ـ لن يقر هذا الظلم والخسف أبداً فى وطنه ودينه ، ولن يقبل هذا العقوق الفظيع لآبائه وسلفه — و إن شعباً دينه الاسلام ، وقد ثل عروش القيصرية والكسروية ، وأذل اليهودية والنصرانية والمجوسية وكل دين باطل أو محرف بحفنة من الأعراب والعرب الأميين الذين لم يفارقوا الصحراء الجرداء إلا إلى الفتح والملك ، والا إلى مدائن كسرى وخزائنه و إلى القصور البيضاء والجنات الخضراء فى الشام ومصر وفى الشرق والغرب — لن يترك وطنه الاسلامى

العربي يتهود ويتنصر ويصبح كهفاً للمجرمين من اليهود المشردين المطردين بقوة الانجليز وجبروتهم أو بقوة أوربا كلها .

فلما أن قام هذا الشعب الباسل وقال قولته هذه ، ورفعها على أطراف السنان بعد أن لم يجد رفعها على أطراف اللسان لم يكن من هذه الدولة القوية الموصوفة ـ كذبا وخداعاً ـ بالعدالة والتمدن ، إلا أن تسحب أصناف مكايدها ودسائسها وقواتها إلى هذا الشعب العربي الأبي ، تفعل به مالم يفعله شعب همجي منذ كانت الدنيا : تأتي المدينة فتهدمها بأسرها وتنسف مبانيها التاريخية وغير التاريخية فتجعلها في ساعات أو لحظات خرابا كأن لم تمسها يد العمران منذ آلاف السنين ، ثم تأتي المدينة الأخرى وتسوق جميع رجالها إلى السجن ، وفي السجن من العذاب والقسوة مالا يعرفه إلا زبانيته و إلا عرب فلسطين المساكين ، ثم تأتي المدينة الثالثة فتحشر جميع أهلها وتضع على أيديهم الأختام ، سمة الإجرام ، كأنهم بهائم توضع عليها المياسم ، ثم تأتي المدينة الرابعة وتطلب إلى سكانها أن يخرجوا كل مافي جيوبهم وأيديهم و بيوتهم من مال ، وكل مافي أفواههم من خبز ، وما على ظهورهم المحطمة من ثياب بالية ـ وماترك الانتداب ومراباة اليهود من ذلك شيئاً باسم الغرامات . وهذه أخبث سرقة يحلها القانون الانجليزى المتمدن ، وهي سرقة لاتماثلها سرقات اللصوص العاديين ، وهي سرقة بالقانون كما أن المنتدبين والمستعمرين قطاع طريق بالقانون السحرى الفظيع . ثم تأتي المدينة الخامسة فتجمع كل من فيها ، فتسدد إلى صدورهم ورؤوسهم المدافع والمسدسات ، تفنناً في الإرهاب ، ووحشية يقصر عنها إن شاء الله كل شعب شرقي و إن بلغ مابلغ من القسوة والاجرام ، ثم تأتي المدينة السادسة فتروح تقتل وتنهب بلا حساب ولا قانون . ثم بعد ذلك كله تبعث وزارة المستعمرات في لندن إلى حاكمها بأمره في فلسطين تهبه السلطة المطلقة في أعمال النهب والتقتيل والتخريب واللصوصية

المسماة بالغرامات . . . فيقتل العربى إذا وجد فى منزله أو فى أرضه رصاصة أو حديدة أو مدية أو بندقية صيد .

هذا شعب عربى مسلم فى بلد إسلامى عربى ، يقع فى قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه هذه الدولة الأوربية ، فتفعل به هذه الفعلات السوداء فى تاريخها وفى وجوه العرب والمسلمين ، ثم لاينتطح فيها عنزان ، ولا تقطع رقاب ، ولا تفنى جيوش ، ولا تحطم عروش ، بل ثم لانجد كلاماً فيه قوة ، وفيه جد ، وفيه صرامة ومرارة ، وفيه حسرة ولوعة ، بل ثم تبقى العلاقات والصداقات والمعاهدات والمحالفات مع هذه الدولة كما هى ، لاتصاب بالاختلال ولا بالانحلال ولا بالتخمة ، بل نذهب نصالحها بإحدى يديها ويدها الأخرى ممدودة جهاراً نهاراً إلى هذا القطر الإسلامى العربى لتسلخه من العروبة والاسلام لتصيره يهوديا انجليزياً لتماد نكبة الأندلس من جديد .

إننى أطلب إلى كل قارئ لهذه الكلمة أن يتذكر ما يأتى : فلسطين بلاد عربية وأهلها عرب ، والانجليز ليسوا عرباً ـ فلسطين بلاد إسلامية وأهلها مسلمون ، والانجليز مسيحيون أو ملحدون ـ فلسطين بلاد شرقية وأهلها شرقيون والانجليز غربيون أوربيون — أهل فلسطين لا يريدون الانجليز ولا يريدون تمدينهم ، والانجليز لايخافونهم على بلادهم ومستعمراتهم ـ أهل فلسطين لهم أخلاق وللانجليز أخلاق أخرى تخالف أخلاق أهل فلسطين وأخلاق العرب عامة — أهل فلسطين لايجدون فى حكم الانجليز إلا البؤس والفقر وكل ألوان الهوان ، والانجليز يعرفون هذه الحقيقة : — هذا كله صحيح ، إذن ما المسوغ لتحكم الانجليز فى فلسطين وفى أهلها ؟ وأى قانون بشرى عادل يحل هذا التحكم المقرون بهذه النكبات ؟ وما الفرق بين هذا العمل المسمى بالانتداب وبين عمل اللصوص المهاجمين لبيوت الآمنين المسالمين، ليأخذوا مافيها بقوة السلاح والارهاب ؟ نعم

إن بين العملين فرقا ، هو أن اللصوص لا يفعلون ذلك إلا تحت ضرورة الفاقة والحاجة ، أما الانجليز وغيرهم من المستعمرين والمنتدبين فانهم يفعلون ذلك عن غنى وثروة طائلة ، وفرقا آخر ، هو أن اللصوص لا يهاجمون غالباً إلا بيوت الأغنياء والمثرين ، أما الانجليز فلا يهجمون إلا على الفقراء العاجزين ، أما الأغنياء الأقوياء فانهم لا يجرءون عليهم بل يساعدونهم على التهام الضعفاء [1] وفرقا آخر ، هو أن اللصوص لا يقومون بعملهم إلا خفية وانسلالا ، أما الانجليز فانهم يفعلون ذلك فى وضح النهار بكل تبجح وافتخار، على سمع العالم كله ومرآه فيها وفرقاً آخر هو أن اللصوص لا يمتدحون إلا أنهم لصوص مذنبون . أما الانجليز فانهم يفعلون ذلك و يزعمون أنهم بفعلهم هذا يمدّنون الشعوب المنحطة ، و ينشرون فيها العلوم والثقافات ، و يهدون لها الخير والرحمة ، و ينزلون عليها المن والسلوى ، وفرقا آخر هو أن الانجليز يفعلون ذلك بالقانون ، أما اللصوص فلا يدعون أن لهم قانونا ، وفرقا آخر هو أن اللصوص لا تمتد أيديهم إلى غير المال ، أما هؤلاء فتمتد أيديهم الناعمة الصفراء إلى كل شئ حتى إلى مكان الايمان والاعتقاد لتحرقه وتمزقه

لنخل أيها القارئ بنفسك ساعات أو لحظات ، ولنتذكر فعل الانجليز فى فلسطين وفى غيرها من البلدان العربية الإسلامية ، وفعل غير الأنجليز بالعرب.

---

(١) ومن الغباوة ان يقوم قاسمون منا يمتدحون موقف الحكومة البريطانية من المشكلة الألمانية التشكوسلوفاكية، وقدسموا رئيس وزارتها رسول السلام ، لانه قام بعمل يعد من أكبر الخيانات الانجليزية، اذ أعان المانيا القوية على التهام تشكوسلوفاكيا الضعيفة خوفا على دولته من الوقوع فى الحرب . وهذا العمل الذى استحق به تشمبرلن ان يسمى رسول السلام هو عمل جدير بأن يعطيه لقب « رسول المتآمرين على الضعفاء » ، وغدا تطلب إيطاليا وفرنسا وأمريكا وألمانيا أيضا وغيرهن العدوان على الدول الضعيفة فيخرج رجل سلام اخر من لندن ليعطى القوى الضعيف خوفا من الحرب . فكيف تأمن الدول الصغيرة بعد الآن ؟ والا ان كانوا رسل سلام حقا فاين رسالتهم عن الحبشة والصين وعن فلسطين ؟

والمسلمين فى كل مكان ، ولتتذكر موقفك من هـذه النكبات الدينية الوطنية ، ولتفرض نفسك مع جماعة من أصدقائك وأقربيك و بنى دينك ولغتك فى فلاة من الارض، ففاجأهم اللصوص وقطاع الطريق، فأخذوا أموالهم وما يملكون، ثم أفسدوا أخلاقهم ، ثم أعملوا أسلحتهم فى رقابهم ومقاتلهم ، وكان ذلك على مسمع ومشهد منك وكان فى استطاعتك أن تعمل شيئاً لإنقاذهم فلم تفعل شيئاً ، بل ولم تقل شيئاً ولم تتعب نفسك . فما ترى موقفك هـذا ؟ ألا تود أن تبتلعك الأرض ولا تقف هـذا الموقف الذليـل الجبان ؟ فهـل ترى أيها القارىء فرقا بين موقفى وموقفك وموقف جميع المسلمين من فلسطين و بين ذاك الموقف الجبان المخزى ؟ و يزداد الموقف شـناعة إذا كان اللصوص غرباء يغيرون و يغزون من بعيـد ، ثم يزداد فظاعة إذا كان اللصوص أقل عدداً من خصومهم أضعافاً مضاعفة ، ثم يزداد فظاعة وشناعة إذا ظلت علاقاتنا بهؤلاء اللصوص « المقدسين » علاقة العبد الذليل بسيده الجبار ، بل أقل وأذل والله ، لأن العبد قد يطغى على سيادة سيده ، وقد يثور به و ينازعه البقاء إذا أمعن فى إذلاله وعذابه .

إن ألمانيا ـ وعددها ستون مليونا — قامت فى وجه العالم كله لتقاتله إذا لم يخضع لإرادتها من أجل ثلاثة ملايين من الألمان، محكومين بدولة أور بية مسيحية، متمتعين بأفضل ماتتمتع به « الأقليات » . وأخيراً انتصرت ألمانيا انتصاراً لا مثيل له ، وانهزم أمام إرادتها شيوخ الاستعمار الجشع ، واندكت فرقا منها هيا كل الدمقراطيات القائمة على غـير الحق . ونال الألمان ما أرادوا بالنحو المعلوم المخزى لفاعليه إلى الأبد . وأنتم أيها المسلمون ـ وعددكم أربعمائة مليون ـ وأنتم أيها العرب ـ وعددكم سبعون مليوناً ـ تقرون هذه المظالم التى لاتقرها البهائم فى أنفسكم ودينكم وأوطانكم . و والله لو كان عـددكم هذا لألمانيا أو لغيرها من الدول الحية لحاربت العالم كله بأيديها عزلاء من كل سلاح إلا من هـذا العـدد الهائل ، ثم لملكت

ناصية النصر . و والله لو لم تملوا الصراع « المقدس » لكان لكم ولهؤلاء شأن آخر . ولكن كرهتم الصراع فاجترأت على آسادكم وآجامكم ثعالب الامم ومن لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم . إنكم أيها المسلمون غالطون إذ تظنون أنكم تنجون من طغيان الغرب بالمسالمة والمجاملة والملاينة ، ولكن كلا والله ، لن تنجوا منهم إلا بالحرب والمخاشنة ، فان فلسطين لم تنج من الانجليز واليهود بمسالمتها ، وأن قطراً عربيا أو إسلاميا واحداً لم تنجه المسالمة والملاينة . بل لقد ذهبت البلدان العربية ، والممالك الاسلامية ضحايا اللين والركون إلى الدعة والسلم رغبة فى الحياة ، ولكن السلم لا تنال بالسلم ، والحياة لا تدرك بالرغبة فيها ، والحقوق لا تطلب بالنوم عنها .

و والله لو أنكم وقفتم من انجلترا موقفاً جريئاً حازماً ، و رفعتم فى وجه ظلمها عصاً لكان أجدى وأنفع من كل احتجاجاتكم وضراعاتكم الذليلة ! و والله لو علمت أنكم سوف تقابلون عدوانها بغير البكاء لوقفت هى منكم موقفكم اليوم منها : موقف المحتج المتوسل الضارع ! هذا مصطفى كمال ، قد زأر فى وجه فرنسا زأرة واحدة ، فتركت له لواء الاسكندرونة السورى العربى صاغرة هاربة رغم كل شئ . وأين مصطفى كمال وقومه الأتراك من أحفاد الأكرمين : العرب نجدة وشجاعة وأخلاقاً وعدداً ؟ ولكن مصطفى كمال زأر وأفهم فرنسا أنه يريد أن يهجم ، وأما أنتم فبكيتم وأفهمتم انجلترا أنكم لا تريدون إلا أن تبكوا ، و إلا أن يقال : إنكم قد أعذرتم بالبكاء

ماذا ترون لو كنتم أنتم فى مكان بريطانيا ، وكانت بريطانيا فى مكانكم ؟ أعنى لو كنتم تفعلون ببلدان انجليزية و بأهلها مثل ما تفعله انجلترا فى فلسطين وأهلها من العدوان الصارخ : أتظنون انجلترا تقبل ذلك منكم أو تنام عليه ؟ أو تظنونها إن عجزت عن حربكم العسكرية تحجم عن أن تعلن الحرب عليكم من

جهات أخرى ؟ أتظنونها تبقى على صداقتكم وعلاقاتها السلمية بكم ؟ لا تظنوا شيئا من ذلكم أبداً .

إنكم لن تخلصوا من عدوان هؤلاء الأعداء إلا بالكره العميق، و بالبغضاء الحادة . و إنكم لن تعزوا حتى تكونوا جرآء على أن تقولوا لأعظم فيلسوف فيهم : إنه أحمق جاهل، ولأبرع حكمة يأتون بها : إنها سفاهة ، ولأرقى مدنية يشيدونها : إنها همجية ، وحتى تقولوا للذهب الذى يمطر ونكم به من السماء : إنه طوب، إنه حجارة قاتلة ، إنه قنابل . . . . الغربيون لا يضمرون لكم إلا البغض والحقد والاحتقار. فمن الجهل أن تقابلوا هذه النفسيات بالحب والإخلاص والامتداح والتعظيم . . . الأوربيون مجردون من القلوب ومن العواطف الانسانية ، وهم إن لم يعدلوا خوفاً وقسراً ، فلن يعدلوا رحمة و إنسانية . . . لقد أخلصتم لهم وأحسنتم بهم الظن و بعدوانهم وطغيانهم حتى خضتم الحروب انتصاراً لهم . فماذا لقيتم عندهم وماذا كانت النتيجة ؟ لقد ذهبت بلادكم وكاد يذهب دينكم وأخلاقكم ، ثم هاهم الآن يحاولون إفناءكم . و إنهم لن يتأخروا عن ذلك إن استطاعوا . . . يجب عليكم أن تقابلوا الداء بالداء، والشر بالشر، والحقد بالحقد والبغضاء بمثلها . . . يجب أن تقولوا لهم :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نحبكمو ... ولا نلومكمو أن لا تحبونا
كل له نية فى بغض صاحبه ... فى ذمة الله نقليكم وتقلونا

إن كل إنسان فينا يحتاج إلى أن يكون شديد الكفاح ، شديد المقاومة . فالصانع عندنا يحتاج إلى الكفاح ، ليتماسك إزاء صناع أوربا وأمريكا واليهود ، والتاجر يحتاج إلى الكفاح لينجو بن تجار هؤلاء الغزاة المنافسين ، وسائر أصناف العمال يحتاجون إلى هذا الكفاح لئلا تقضى عليهم منافسة هؤلاء الأعداء المهرة ،

والعالم الديني يحتاج إلى هذا السلاح لئلا تطغى أفكار هؤلاء القوم وعقائدهم على عقيدته وعقله ، فيذهب يحرف دينه و ينسل منه انسلالاً خدعة وضلة ، والعالم المدني يحتاج إلى هذا السلاح لئلا يغلبوه و يصرعوه و ينسوه آباءه وسلفه ، وماجاؤا به من علوم ومعارف ، فيذهب يضيفها إلى هؤلاء الكذبة إن قبلوها واعتقدوها صحيحة ، و يذهب يردها و يسخر منها إن لم يقبلوها جهلاً أو حسداً وكراهة للعرب والمسلمين ، وللشرق والشرقيين ، والغني الثري يحتاج إلى هذا الصراع لينافس هؤلاء الذين قبضوا على زمام الثروات وأمسكوا بناصية الأسواق كلها بشركاتهم ومصانعهم ومعاملهم ومضارباتهم ومقامراتهم ، والزعيم عندنا يحتاج أيضاً إلى هذا الصراع لئلا تذوب زعامته في زعامات هؤلاء الأعداء المكرة ، ولئلا يكون لهم تابعاً ، وعلى أهوائهم ومشوراتهم الماكرة سائراً دائباً ، ولئلا يقود أمته وقومه بزعامته الرخوة الذائبة إلى الهاوية ، والهاوية هنا ليست سوى الركون إلى الغرب الظالم ، فان الغربيين لا يمكن أن يخلصوا لنا معشر المسلمين ، وإن أخلصوا للشياطين . بل هم أبداً يرون الاسلام والمسلم العدوين الواجب خربهما ما أمكنت الحرب . والصحفي والكاتب والمؤلف يحتاجون إلى هذه المقاومة ، لئلا يفنوا في رجال صحافة أوربا ومؤلفيها وكتابها . وكل مخلوق عندنا يحتاج إلى هذا السلاح .

ولو أننا لم نمل هذا النوع من الجهاد « المقدس » لما تقدم فينا أهل النفاق والخيانة والمروق والفسوق ، وتأخر أهل الصلاح والاستقامة والايمان والاخلاص والكفاية ، ولما أمكن أن يكون كل شئ لدينا في أيدي هؤلاء الأعداء من اليهود والأوربيين الخصوم غير الشرفاء ، ولما كان كل شئ سائراً طبق أهوائهم ومصالحهم ، ولما كانت مظاهر البلدان الاسلامية مظاهر إفرنجية أوربية خالصة : تنظر إلى الشركات القوية الرابحة فتجدها في أيدي هؤلاء الدخلاء ، وتنظر إلى المصانع والمعامل النشيطة النافقة فلا تحتاج إلى أن تسأل : لمن هذه ، إذ هي للقوم بلا

شك ، وتنظر إلى المتاجر الكبرى المزدحم عليها فلا تشك فى أنها ملك لهم ، وتنظر إلى الأحياء الحية المحاطة بمظاهر النعيم والغنى والترف فتجدها خاصة بهؤلاء الضيوف ، وتسمع بأصحاب الثروات الطائلة فلا تتردد فى أنهم منهم . وتنظر وتسمع كل شئ فلا تجد إلا ما يسوءك ويدمى شعورك إذا كنت من أولئك المتألمين الشاعرين . والذى يؤلم حقاً أن الذين ينمون هؤلاء المستعمرين وينمون ثرواتهم هم المسلمون والعرب ، ثم لا ينالون منهم إلا الاحتقار والازدراء والاحتكار الذى لا مثيل له ، حتى إن أصحاب المصانع والأعمال منهم يستعملون — إذا سمحوا — المسلمين الوطنيين العمال بما لا يشبعهم خبزاً حافا . ولهم على ذلك أن يسبوهم ويسبوا دينهم ووطنهم وزعماءهم ونبيهم ، وعلى العمال المسلمين أن يشكروهم على ذلك وأن يتقبلوه بالرضا والتسليم ، وإلا فالويل لهم ولوطنهم معهم ! وا عجباً من جريح لا يتألم من جراحته ! وياويلتاه للذليل لا يشعر بذلته ، وللمظلوم يتعبد ظالمه !

إن الأمر أيها الاخوان جد الجد ، إنه الحياة أو الموت ، وإن الخطاب إلى البقايا التى لما يقتلها هؤلاء الأعداء ، لعلهم يمدون أيدى الانقاذ والانتشال ، أو لعلهم يهربون ، على الأقل ، بأنفسهم من هذه الأشراك القاتلة ! أما هؤلاء الذين وقعوا فى أيدى هؤلاء الضيوف الظالمين لمضيفيهم السنين والأعوام فهم على بساط الموت ، قد فقدوا كل حول وقوة ، فلا يستطيعون شيئاً من الخير لأنفسهم ، وإنما هم فى انتظار الطبيب الرحيم الماهر المنقذ ! فهل يوجد فيكم أيها الاخوان ذلكم الطبيب ؟ وإذا لم يكن موجوداً أفلا تعملون لايجاده ؟

انظروا أيها الاخوان إلى حقائق الأشياء نظرات تتجاوز المظاهر لتشعروا أن الهاوية فى الانتظار ، وأنكم إن لم تستيقظوا فالويل للنائم تحت سياط الاعداء الذين لا يرحمون ! أليس من البلاء أيها الاخوان أن يستولى هؤلاء على كل شئ

فى بلاد المسلمين حتى على الماء وعلى النور وعلى النار، حتى إن الوطنى المتحمس لوطنيته لو أراد الاستغناء عما ليس وطنيا ، وأراد أن يعيش وطنيا فى ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، وضروريات حياته ما أمكنه ذلك ! أو ليس من المؤلم حقا ألا يوجد فى بلاد المسلمين أجنبى واحد فقير أو عاطل ، وأن يكون المسلمون كلهم فى بلادهم فقراء بؤساء ، لايظفرون بالكفاف من العيش المر إذا استثنينا الموظفين والوارثين وأمثالهم والقليل النزر من غيرهم . على أن هؤلاء أنفسهم منطلقون إلى الفاقة العامة بخطوات واسعة ، ومنطلق ما معهم إلى جيوب هؤلاء الأجانب بسرعة مدهشة و بطريقة تترك المحب لدينه ووطنه وقومه حيران مكبوتاً ، حتى صار المسلمون كلهم كما قيل :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا

لكن يمر عليها وهو منطلق (إلى الخواجات)

اذهب إلى المتاجر والشركات والمصالح الاجنبية، وانظر كيف يتدفق عليها الوطنيون المسلمون ، وكيف ينثرون بقايا مامعهم من مال قليل على موائد هؤلاء الأجانب بجود لا نظير له ، ثم عرج على المتاجر والمصالح الوطنية المسلمة إن كان شئ من ذلك ، وانظر كيف يخيم عليها الفقر والكساد والبؤس، وانظر كيف يهرب منها الوطنيون المسلمون ، وكيف يضنون عليها بالمعاملة ،ثم لك بعد ذلك أن تتألم ما وسعك الألم ، وأن تحزن ما شاء لك الحزن ، وأن تخشى كما خشى الأكثرون البصراء-أن تصبح البلاد الاسلامية — المستقلة وغير المستقلة— خالصة لهؤلاء الضيوف بكل مرافقها ومواردها ، وأن ينقرض المسلمون تحت عوامل الفاقة وما يلزم الفاقة من الأمراض والتشريد والشقاء العام القاتل .

ومن الحكايات المؤلمة أنى كنت يوماً أحادث أحد الاصدقاء فقال ذاك الصديق على سبيل الدعابة المرة : إننا معشر المسلمين الوطنيين نطلب

الاستقلال لبلادنا مع أن الجاليات الأجنبية أولى منا بهذا الطلب فى بلادنا نفسها لكثرة مصالحهم ولاستيلائهم على كل شىء فيها ! ! وما أصدق هذا القول ! وما أشد وقعه على ذوى الدين والوطنية وعلى ذوى النفوس اليقظة الشاعرة .

إذن ما أحوجنا إلى الصراع ! وما أحوج صراعنا إلى القوة والشدة ! وما أحوجنا إلى أن نكون من الحديد والفولاذ ، لا من اللحم والدم والعظام !

اللهم ايقظ قومى فانهم نائمون ! !

عبد الله على القصيمى
شعبان سنة ١٣٥٧
بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين . أما بعد فهذا هو الجزء الثانى من كتاب « الصراع بين الاسلام والوثنية » الذى ننقض به إن شاء الله كتاب الشيعة « كشف الارتياب فى اتباع محمد بن عبد الوهاب » وقبل الأخذ بموضوعه نقول :

ظنّ بعض الذين قرؤا الجزء الأول من كتابنا أننا قد نحلنا الشيعة ما لم يكن من قولهم ولا من اعتقادهم ، وأننا قد تكذبنا عليهم وعزونا إلى مذهبهم ما هم منه بريئون . وقد جاء هؤلاء الظانين ظنهم هذا من غرابة ما وجدوه هناك من عقائد القوم وأقوالهم التى لا يقولها مجتمعة من يؤمن بالله و برسوله . ونحن نقول لهؤلاء الظانين هذا الظن المستبعدين أن يكون كل ما ذكرناه فى الجزء الأول عن الشيعة صحيحا ثابت النسب إليهم : إننا قد كنا نحن مثلكم لا نصدق بعض هذا الصدق فضلا عن أن نصدقه كله . وكنا لا نشك فى أن مسلماً لا يمكن أن يذهب إلى القول بتلك الأباطيل التى قالتها الشيعة ، والتى نقلناها من كتبهم التى كتبوها بأيديهم وطبعوها بمطابعهم فى بلادهم . وكنا نحسب أن أمثال تلك المنكرات التى تضاف إلى هذه الجماعة لا منشأ لها فى الأكثر سوى الخصومة

وكذبها وهواها وزورها . وكنا نمر بما نجده فى كتب التاريخ والملل والكلام لأهل السنة من هذه الاعتقادات التى يقال إن قوماً من المسلمين يزعمونها ويعتقدونها ويكفرون منكرها ، فلا نحسب ذلك إلامن مبالغة الخلاف وإسراف الخصومة ولجاجة الهوى وشهوة الانتقام . وكنا نظن أن الخلاف وإن كان ذا دين وتقوى وحسب ونسب معرق فى الفضل والنبل لا يمكن أن يخلص من التزيد والافتعال ولا ينجو من التكذب والتقول : هكذا كنا نقول حتى لمسنا هذه. هذه الحقيقة المرة التى كتبناها بأيدينا ووجدناها سافرة مبتذلة فى كتب الطائفة قديمها وحديثها سفيهها وعاقلها فما وجدنا مناصاً من الاقتناع ولا مفرا من الايمان بأن الخبر قد كان دون المخبر وأن السماع دون العيان ، وأن الباطل فى كتب القوم لايحيط بأطرافه ولا يطل على جميع آفاقه باحث ولا عليم ما خلا الله وحده . وقد قرأت بعض كتب القوم قبل كتابة الجزء الأول من الصراع وقرأت بعضها فى أثناء كتابته وبعضا آخر بعد ذلك ، وكنت كلما قرأت لهم من هذه الكتب وجدت ما لم أجد ، وعلمت مالم أكن أعلم ، وما لم يكن يخطر لى على بال من عظيم المقالات وشنيع الآراء وغريب الزور .

جهل حقيقة الشيعة

وقد تبين لى بعد أن قرأت عدداً غير عديد من هذه الكتب أن جميع الذين كتبوا فى نقد الشيعة ونقد معتقداتها لم يكن فيهم كاتب واحد عرف الحقيقة كلها ولا علم ما كان يجب أن يعلم من مذاهبهم ونحلهم الغريبة . ولا قرأ ما كان يجب أن يقرأه من مؤلفاتهم وما سجلوه على أنفسهم وعلى أئمتهم من الباطل والعدوان ومن الحنث العظيم . بل جميع الذين كتبوا فى هذه الأبواب كانوا يجهلون الأمور الكثيرة من معتقدات هذه الفرقة وكانوا لا يعلمون منها إلا اليسير الأقل . والسبب فى هذا والله أعلم أن جماعة الشيعة كانوا فى أكثر الأعصار والأمصار لا يجرؤن على نشر كتبهم ولا إذاعة معتقداتهم كما هى ، بل كانوا أبداً

يفرون إلى التقية وإلى المصانعة والمداهنة . وكانوا يجدون فى الكتمان المكان المتسع الفسيح لإيواء هذه الكتب ولوضعها كما يشاءون ويريدون محملة بأخطر هذه الأفكار المنبوذة بين جميع الأملاء التى لا يستطاع البوح بها فى بلد يرعى أهله الإسلام والحق . ولهذا الكتمان وهذه التقية كانت كتب القوم المفعمة بعقائدهم الخطيرة بعيدة عن أيدى الناس بعيدة عن متناول العامة . فكان يعسر على من أراد كتبهم أن يظفر بها وعلى من أراد الرد عليهم أن يعرف حقيقتهم . فكانت الردود عليهم كلها حتى الردود المبالغ فيها المدفوعة بأعنف التعصب تقع دون المرمى وتقصر عن الغاية كما هى عندهم . وعلى هذا فكل ما يقرؤه القارىء فى نقد هذه الجماعة ونقد عقائدها فليعلم أن الحقيقة السافرة فى كتبهم أنفسهم فوق ذلك كله . .

كتاب فرق الشيعة

وبين يدى الساعة كتاب « فرق الشيعة » طبع النجف سنة ١٣٥٥ من الهجرة تأليف أبى محمد الحسن بن موسى النوبختى أحد علماء الشيعة الإمامية ومؤلفيها الكبار ، صححه وعلق عليه السيد محمد صادق آل بحر العلوم ، وكتب مقدمته هبة الدين الشهرستانى ، وقامت على طبعه المطبعة الحيدرية الإمامية . والكتاب كما يدل اسمه موضوع لبيان عقائد من يشملهم اسم الشيعة العام : الإثنا عشرية وغيرهم . وقد قال فى هذا الكتاب : « فلما قبض النبى افترقت الشيعة ثلاث فرق: فرقة قالت إن عليا امام مفترض الطاعة بعد رسول الله واجب على الناس القبول منه والأخذ عنه ولايجوزغيره . وقد وضع عنده النبى من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين والحلال والحرام وجميع منافع دينهم ودنياهم ومضارهم وجميع العلوم جليلها ودقيقها واستودعه ذلك كله واستحفظه إياه . ولذلك استحق الإمامة ، ومقام النبى لعصمته وطهارة مولده وسابقته . . . وقالوا إنه لابد مع ذلك من أن يقوم مقامه بعده رجل من

قول الشيعة فى الشيعة

من ولده من ولد فاطمة بنت محمد عليه السلام . معصوم من الذنوب طاهر من العيوب مبرأ من الآفات والعاهات فى كل من الدين والنسب والمولد ، يؤمن منه العمد والخطأ والزلل منصوص عليه من الإمام الذى قبله مشار إليه باسمه وعينه الموالى له ناج والمعادى له كافر هالك ، والمتخذ دونه وليجة ضال مشرك . وأن الإمامة جارية فى عقبه ما اتصلت أمور الله وأمره ونهيه . . وفرقة منهم يسمون الجارودية. قالوا بتفضيل على ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه . و زعموا أن من دفع عليا عن هذا المكان فهو كافر ، وأن الأمة كفرت وضلت فى تركها بيعته وجعلوا الإمامة بعده فى الحسن بن على ثم فى الحسين ثم هى شورى بين أولادهما. فلما قتل على عليه السلام افترقت التى ثبتت على إمامته وأنها فرض من الله ورسوله فصاروا فرقا ثلاثا : فرقة منهم قالت إن عليا لم يقتل ولم يمت ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه و يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلماً وجوراً . وهى أول فرقة قالت فى الاسلام بالوقف بعد النبى من هذه الأمة وأول من قال منها بالغلو . وهذه الفرقة تسمى السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ وكان ممن أظهر الطعن على أبى بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم ، وقال إن علياً أمره بذلك فأخذه على فسأله عن قوله هذا فأقر به فأمر بقتله فصاح عليه الناس : يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت و إلى ولايتكم والبراءة من أعدائكم ! افسيره إلى المدائن . وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب على أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ووالى عليا وكان يقول وهو على يهوديته فى يوشع بن نون بعد موسى بهذه المقالة فقال فى اسلامه بعد وفاة النبى فى على بمثل ذلك. وهو أول من شهر القول بفرض إمامة على وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه . ومن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية ولما بلغ ابن سبأ نعى على بالمدائن قال للذى نعاه كذبت لو جئتنا بدماغه فى

[margin: من قول الجارودية]

[margin: من قول عبدالله بن سبأ]

[margin: الرفض مأخوذ من اليهودية]

سبعين مرة وأقمت عـلى قتله سبعين عدلاً لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ولا يموت حتى يملك الأرض . . . وفرقة قالت بامامة محمـد بن الحنفية فسموا الـكيسانية و إنما سموا بذلك لأن المختار بن أبى عبيد الثقفى كان رئيسهم وكان يلقب كيسان وهو الذى طالب بدم الحسين وادعى أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الإمام بعد أبيه . و إنما لقب المختار كيسان لأن صاحب شرطته المكنى بأبى عمرة كان اسمه كيسان وكان أفرط فى القول والفعل والقتل من المختار جدا . وكان يقول إن ابن الحنفية وصى على بن أبى طالب وأنه الإمام وأن المختار قيمه وعامله و يكفر من تقدم عليا ويكفر أهـل صفين والجمل ، وكان يزعم أن جبريل يأتى المختار بالوحى من عند الله فيخبره ولا يراه . ثم قال النوبختى بعد كلام : « و بقى أصحاب الحسين عـلى القول الأول بإمامته حتى مضى ثم افترقوا بعده ثلاث فرق : فرقة قالت بإمامة ابن الحنفية . وفرقة قالت : إن ابن الحنفية هو الإمام المهدى وهو وصى على بن أبى طالب ليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا يخرج عن إمامته ولا يشهر سيفه إلا بإذنه . و إنما خرج الحسن بن عـلى إلى معاوية محاربا له بإذن محمـد ووادعه وصالحه بإذنه ، و إن الحسين إنما خرج لقتال يزيد بإذنه ولو خرجا بغـير إذنه هلـكا وضلا ، و إن من خالف ابن الحنفية كافر مشرك ، وأن محمداً استعمل المختار على العراقين بعد قتل الحسين وأمره بالطلب بدمه وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا . وسماه كيسان لـكيسه ولما عرف من قيامه ومذهبه فيهم . فهم يسمون المختارية و يدعون الـكيسانية . فلما توفى ابن الحنفية تفرق أصحابه فصاروا ثلاث فرق : فرقة قالت إن ابن الحنفية هو المهدى سماه على مهديا لم يمت ولا يموت ولا يجوز ذلك ، ولـكنه غاب ولا يدرى أين هو وسـيرجع و يملك الأرض ولا إمام بعـد غيبته إلى رجوعه . وهم أصحاب ابن كرب و يسمون الـكربية . وكان حمزة بن عمار البربرى منهـم ، وكان من أهل المدينة ففارقهم

الكيسانيا

وادعى أنه نبى وأن ابن الحنفية هو الله وأن حمزة هو الإمام وأنه ينزل عليه سبعة أسباب من السماء فيفتح بين الأرض و يملكها . فتبعه على ذلك ناس من أهل المدينة والكوفة فلعنه أبو جعفر و برىء منه وكذبه و برئت منه الشيعة . فاتبعه على رأيه رجلان يقال لأحدهما « صائد » وللآخر « بيان » وكان بيان تبانا بالكوفة ثم ادعى أن محمد بن على بن الحسين أوصى إليـه . وكان حمزة بن عمار نكح ابنته وأحل جميع المحارم . وقال : من عرف الإمام فليصنع ما شاء فلا إثم عليه . فأصحاب ابن كرب وأصحاب بيان وأصحاب صائد ينتظرون رجوعهم ورجوع أصحابه و يزعمون أن ابن الحنفية يظهر بنفسه بعـد الاستتار عن خلقه ينزل إلى الدنيا و يكون أمير المؤمنين وهذه آخرتهم . وفرقة قالت إن ابن الحنفية حى لم يمت وأنه مقيم بجبال رضوى بين مكة والمدينة تغـذوه الارام وعن يمينه أسد وعن يساره أسد يحفظانه إلى أوان خروجه ومجيئه وقيامه وهو عندهم الامام المنتظر الذى بشر به النبى وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطا . فثبتوا على ذلك حتى فنوا وانقرضوا إلا قليلا من أبنائهم . وهم إحدى فرق الكيسانية . ومن الكيسانية السيد الحميرى وهو الذى يقول :

إحلال جميع المحارم

ياشعب رضوى مالمن بك لايرى * حتى متى تخفى وأنت قريب
لو غاب عنا عمر نوح أيقنت * منا النفوس بأنه سيئوب

وفيه يقول أيضا :

ألا حى المقيم بشعب رضوى * وأهد له بمنزله السلاما
أضر بمعشر والوك منا * وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرا * مقامك عنهم سبعين عاما
لقد أمسى بجانب شعب رضوى * تراجعه الملائكة الكلاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت * ولا وارت له أرض عظاما

وإن له به لمقيل صدق * وأندية تحدثه كراماً

«وروى قوم أن السيد الحميرى رجع عن قوله هذا وقال بإمامة جعفر بن محمد وقالت فرقة مثل قول الكيسانية فى أبيه بأنه المهدى ، وأنه حى لم يمت وأنه يحيى الموتى وغلوا فيه» . وبعد هـذا ذكر فروعا للفرقة السابقة ثم قال : «فهم كلهم غلاة يقولون من عرف الامام فليصنع ما شاء. وفرقة قالت أوصى عبدالله بن محمد ابن الحنفية إلى محمد بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب لأنه مات عنده بأرض الشراة بالشام . ذلك أن محمـد بن على كان صغيرا عند وفاة أبى هاشم وأمره أن يدفعها إليه إذا بلغ فلما بلغ دفعها إليه . فهو الإمام وهو الله وهو العالم بكل شئ ومن عرفه فليصنع ما شاء . وهؤلاء غـلاة الروندية . وفرقة قالت إن الامام القائم المهدى هو أبو هاشم وولى الخلق ويرجع فيقوم بأمور الناس ويملك الأرض ولا وصى بعده وغلوا فيه وهم البيانية أصحاب بيان النهدى . وقالوا إن أبا هاشم نبىّ بيانا عن الله فبيان نبىّ وتأولوا فى ذلك قول الله «هـذا بيان للناس وهدى» وادعى بيان بعد وفاة أبى هاشم النبوة وكتب إلى أبى جعفر يدعوه إلى نفسه وإلى الإقرار بنبوته ويقول له أسلم تسلم . . . ولما قتل أبو مسلم عبـد الله بن معاوية افترقت فرقته بعده ثلاث فرق وقد كان مال إلى عبد الله بن معاوية شـذاذ من صنوف الشيعة برجل يقال له عبد الله بن الحارث وكان أبوه زنديقا من أهـل المدائن فأخرج من شيعة عبدالله جمعا فأدخلهم فى الغلو والقول بالتناسخ والأظلة والدور وأسند ذلك إلى جابر بن عبد الله الأنصارى ثم إلى جابر الجعفى فخدعهم بذلك حتى ردهم عن جميع الفرائض والشرائع والسنن . وفرقة منهم قالت إن عبد الله بن معاوية حى لم يمت وأنه مقيم فى جبال أصفهان . لا يموت أبدا حتى يقود نواصيها إلى رجـل من ولد فاطمة . وفرقة قالت إن عبد الله بن معاوية قد مات ولم يوص وليس بعـده إمام فتاهوا وصـاروا مذبذبين بين صنوف الشيعة

من عرف الامام فليصنع ما شاء

فرقة البيانية

المنكرة فى فلسطين ، هذه الفعلة التى لم يسبق لها نظير فى تاريخ الظالمين المتوحشين كلها ، ثم لا تهتز جنبات العالم الاسلامى اهتزازاً ترتفع به أمم وتسقط به أخرى .

إن المسلمين لو لم يصابوا بهذا الفشل الذى لا مثيل له ، ولو لم يملوا الصراع المقدس ما استطاعت بريطانيا أن تكشف سوءتها وحقارتها ومدنيتها الزائفة فى فلسطين على منظر العالم الاسلامى العربى ومسمعه ، وعلى رغمه ، ثم لا يغضب غضبة يتحطم بها أكبر عرش مرصع بالجواهر المنهوبة من خزائن المسلمين ومن عروشهم المحطمة ، الواحد تلو الآخر بدسائس هذه العجوز وطغيانها وكيدها .

هذا شعب عربى مسلم ، فى بلد عربى إسلامى ، يقع فى قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه دولة أوربية ، فتحكه وتتحكم فيه أخبث أنواع الحكم والتحكم باسم الانتداب الملعون ، فتسلبه أولاً كل معانى السيادة والعزة ، ثم لا يكفيها هذا ، بل تمتد يداها إلى مكان العقائد والايمان والأخلاق الفاضلة من أهله فتحاول إفساده وتخبيثه ليسهل عليها ما تريد ، ثم لا يكفيها هذا أيضاً بل تبسط يديها إلى القصور وإلى الأكواخ لتنزل فيهما الفقر والبؤس ، ولتملأهما من معانى الشقاء والفاقة ، وتبسطهما إلى الجيوب لتنتزع منها ما بقى فيها من مال قليل ، فتبلغ أقصى ما تريد ، ثم لا يكفيها — ويلها — كل ذلك ، بل تقوم بجيوشها وأساطيلها وطياراتها وسائر قواتها المزودة بأموال المسلمين وأموال العرب لتشرد هذا الشعب المنهوك بانتدابها — قاتله الله — من وطنه ووطن آبائه وأجداده ووطن دينه منذ القرون القصية ، وفيه مقدساته الدينية ، وفيه رفات أسلافه الأكرمين الأولين وفيه كم أراق دماءه و بذل مهجه لحمايته وصون حرماته من عدوان العادين ، وفيه كم ساد وحكم وذاد عنه المغيرين . . . لتشرده من وطنه كى تهبه التائهين المشردين المنبوذين من اليهود الممقوتين فى كل مكان وزمان ، ليزرعوا

بدن خبيث يعذبه فيه بالدنيا،وجعله فى أقبح صورة ورزقه أنتن رزق وأقذره. وتأولوا فى ذلك قول الله « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » فكذب الله هؤلاء ورد عليهم قولهم لمعصيتهم إياه فقال : « كلا بل لا تكرمون اليتيم » وهو النبى «ولا تحاضون على طعام المسكين» وهو الامام « وتأكلون التراث أكلا لماً » ولاتخرجون حق الامام كما رزقكم وأجراه عليكم ... ومنهم فرقة تسمى المنصورية وهم أصحاب أبى منصور وهو الذى ادعى أن الله عرج به إليه فأدناه منه وكلمه ومسح يده على رأسه وقال له بالسريانية : أى بنى . وذكر أنه نبى ورسول وأن الله اتخذه خليلا . وكان أبو منصور هذا من أهل الكوفة وكان لا يقرأ ولا يكتب فادعى بعد وفاة أبى جعفر أنه فوض إليه أمره وجعله وصيه من بعده ثم ترقى به الأمر إلى أن قال كان على بن أبى طالب نبيا ورسولاً وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وأنا نبى ورسول والنبوة فى ستة من ولدى يكونون من بعدى أنبياء آخرهم القائم . . . وكان يأمر أصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال ويقول من خالفكم فهو كافر مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفى وزعم أن جبريل يأتيه بالوحى من عند الله وأن الله بعث محمدا بالتنزيل وبعثه هو بالتأويل.ثم ظفر عمر الخناق بابنه الحسين بن أبى منصور، وقد تنبأ وادعى مرتبة أبيه وجبيت إليه الأموال وتابعه على مذهبه بشر كثير وقالوا بنبوته . قال النوبختى : « فهذه صنوف الغالية من أصحاب عبدالله بن معاوية والعباسية الروندية وغيرهم . غير أن أصحاب عبدالله بن معاوية يزعمون أنهم يتعارفون فى انتقالهم فى كل جثة صاروا فيه على ما كانوا فيه مع نوح عليه السلام فى السفينة ومع النبى عليه السلام . ويسمون أنفسم بأسماء أصحاب النبى ويزعمون أن أرواحهم فيهم ويتأولون فى ذلك قول على بن أبى طالب وقد روى عن النبى « إن الأرواح

فرقة المنصورية

قتل المخالفين

جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» فنحن نتعارف كما قال على عليه السلام . وقال بعضهم بالتناسخ وتنقل الأرواح . . وبعد هذا نقل النوبختى كلاما كثيرا فى التناسخ وفى تفصيله وتفصيل قولهم فيه قال بعده :

قول الكيسانية فى الرجعة

«وقالت الكيسانية يرجع الناس فى أجسامهم التى كانوا فيها ، ويرجع محمد وجميع الأنبياء فيؤمنون به ، ويرجع على بن أبى طالب فيقتل معاوية بن أبى سفيان وآل أبى سفيان ويهدم دمشق ويغرق البصرة . وأما أصحاب أبى الخطاب ومن قال بقولهم فإنهم افترقوا لما بلغهم أن أبا عبد الله لعنه وبرىء منه ومن أصحابه . . . فصاروا أربع فرق ففرقة منهم قالت إن أبا عبد الله جعفر بن محمد هو الله وأن أبا الخطاب نبى مرسل وأحلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض وقالوا من سأله أخوه ليشهد له على مخالفيه فليصدقه ويشهد له فإن ذلك فرض عليه واجب ، وجعلوا الفرائض رجالا سموهم والفواحش والمعاصى رجالاً وتأولوا على ما استحلوه قول الله (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا خفف عنا بأبى الخطاب ووضع عنا الأغلال والآصار يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج . . فمن عرف الرسول النبى الإمام فليصنع ما أحب . وفرقة قالت بزيغ نبى رسول مثل أبى الخطاب . وفرقة قالت «السرى» رسول مثل أبى الخطاب أرسله جعفر وقال إنه قوى أمين وهو موسى القوى الأمين وفيه تلك الروح وجعفر هو الاسلام والاسلام هو السلام وهو الله ونحن بنو الاسلام كما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه . وقد قال رسول الله « سلمان ابن الاسلام » فدعوا إلى نبوة السرى ورسالته وصلوا وصاموا وحجوا لجعفر بن محمد بن جعفر ولبوا له وقالوا لبيك ياجعفر . . وفرقة قالت جعفر هو الله وإنما هو نور يدخل فى أبدان الأوصياء فيحل فيها فكان ذلك النور فى جعفر ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب فصار جعفر من الملائكة ثم خرج

ترك جميع الفرائض والشرائع

من أبى الخطاب فدخل فى معمر وصار أبو الخطاب من الملائكة فمعمر هو الله ١
فخرج ابن اللبان يدعو إلى معمر وقال إنه الله وصلى له وصام وأحل الشهوات كلها
ما حل منها وما حرم . وليس عنده شىء محرم . وقال لم يخلق الله هذا إلا لخلقه
فكيف يكون محرما ؟ وأحل الزنا والسرقة والميتة ولحم الخنزير ونكاح الأمهات
والبنات ونكاح الرجال وزعم أن كل شىء أحله الله فى القرآن وحرمه فإنما هو
أسماء رجال . فخاصمه قوم من الشيعة » .

الى من يرجع الغلاة من الشيعة

و بعد هذا ساق كلاما كثيرا فى تأليه المخلوق قال بعده : « فهذه فرق الغلو
ممن انتحل التشيع . و إلى الحرمدينية والمزدكية والزنديقيــة والدهرية مرجعهم
جميعا . وكلهم متفقون على نفى الربوبية عن الخالق و إثباتها فى بدن مخلوق على
أن البدن مسكن لله وأن الله نور وروح ينتقل فى هذه الأبدان . ثم إن الشيعة
العباسية الروندية افترقت ثلاث فرق » وفصل أقوال هذه الفرق الثلاث ثم أخذ
فى بيان أقوال فرق الشيعة حتى ختم الـكتاب .

وهذا الذى نقلناه بنصه من الـكتاب نموذج صحيح للكتاب كله . وقد ذكر
عن طوائف منهم أن الامام يعلم كل شىء وأنه مثل النبى فى جميع أموره . وذكر
عن طائفة أنها زعمت أن المنصور هو الله وأنه يعلم سرهم ونجواهم . وذكر عن
طائفة أنها ادعت أن آل النبى وذريته صغارهم وكبارهم فى المعارف والعلوم سواء
وأن الطفل فى المهد يعلم ما يعلمه الكبير لايفضل عليه بشىء . وأن منهم من قال :
من زعم أن من كان فى المهد والخرق ليس علمه مثل علم الرسول فهو كافر بالله مشرك.
وأن منهم من قال ليس أحد من آل النبى يحتاج إلى أن يتعلم من أحد لامنهم ولا
من غيرهم بل العلم ينبت فى صدورهم كما ينبت الزرع بالمطر. وذكر عن طوائف منهم
أنهم ألهوا أشياخهم وأنهم زعموهم رسلاً وآلهة . وحكى عن طوائف القول بالتناسخ
و بالحلول وعن طوائف أخرى القول بالبداء وحكاه عن أئمتهم المعصومين . وحكى

عن طوائف أخرى أنهم قالوا الامام واحد وهو روح تنتقل فى سائر الأئمة ولكنه واحد لا يتعدد . وحكى عن فرقة أنها زعمت أن النبي انقطعت عنه الرسالة فى حياته فى اليوم الذى أعلن فيه إمامة على بن أبى طالب وهو يوم « غدير خم » قالوا وقد انتقلت الرسالة فى ذلك اليوم من النبى إلى على . واعتلوا لهذا بقول النبى « من كنت مولاه فعلى مولاه » قالوا وهذا القول خروج من النبوة والرسالة وتنازل عنهما لعلى . وحكى عن فرقة أنها ذهبت إلى أن الشريعة الاسلامية سوف تنسخ ينسخها القائم ، واعتلوا بالروايات التى نقلوها عن أئمتهم الذين زعموهم معصومين مثل قولهم لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا . وحكى عن طوائف أنهم ذهبوا إلى وجوب قتل أهل القبلة وأخذ أموالهم والشهادة عليهم بالكفر . واعتلوا بقول الله « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وذهبوا إلى سبى النساء وقتل الأطفال واعتلوا بقول الله (لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وزعموا أنه يجب البدء بقتل من قال بالامامة ممن ليس على قولهم . واحتجوا على ذلك بالقرآن . وحكى عن فريق احلال الفروج والغلمان وجميع المحرمات واحتج هذا الفريق بقول الله (أو يزوجهم ذكرانا و إناثا) وعن فريق آخر احلال نكاح الرجال زاعمين أن ذلك من التواضع . وحكى عن غير هؤلاء غير هذا البلاء . وما من فرقة من فرق الشيعة إلا وحكى لها آفة من هذه الآفات .

نسخ الشريعة الاسلامية

الاستدلال بالقرآن على احلال نكاح الرجال

وهذا الذى حكاه أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى فى كتابه « فرق الشيعة » يوافق ما حكاه عنهم جميع من كتبوا فى الملل والنحل كالأشعرى وابن حزم والشهرستانى والمقريزى وغيرهم من أهل السنة وغير أهل السنة . وهذا الذى نقلناه عن هذا الكتاب الشيعى الإمامى لهذا المؤلف الشيعى الامامى يصدق ما حكيناه عن الطائفة فى الجزء الأول ناقلين له من كتب أهل السنة . وكنا حين ذاك لم نر كتاب فرق الشيعة و إلا لنقلنا منه لا من كتب أهل السنة ليكون

ذلك أمكن فى اظهار الحجة وتقليم أظافر النزاع والعناد .

نعم قد يقولون إن هذه الفرق التى يحكى عنها النوبختى وغيره هذه الآفات الاعتقادية والآفات العقلية ليست موافقة لما تذهب إليه طائفة الامامية الاثناعشرية المحقة . بل هى تبرأ من هذه الفرق جميعا وتضللها جميعا وتحكم عليها بالزيغ فمن العدوان إذن ذكر هذه الفرق فى معرض الرد على طائفة الإمامية ، ومن العدوان أيضا مزج هـذه الفرق الضالة بها وهى تعوذ بالله منها . . . إذا قالوا هذه المقالة قلنا لهم : إن أئمتكم أنفسكم فعلوا هذا الذى فعلناه ، وذكروا هـذه الفرق التى يشملها لفظ الشيعة العام وإن لم يكونوا اثنا عشرية مع طائفة الاثنا عشرية كما فعل النوبختى وغيره من علماء الشيعة . وقلنا لهم إن الجامع بين هذه الفرق وبين فرقة الامامية هو الذهاب إلى التشيع والاستمساك به وإن كان بينهم فرق وخلاف فى التفصيل فلا يضر ولا يمنع هذا الذى فعلناه وفعله غـيرنا من أهـل السنة ومن الشيعة وممن كتبوا فى عقائد الناس وإن كانوا غـير مسلمين . ولهذا نجـد مؤلفى الشيعة عندما يريدون تعداد الشيعة وبيان كثرتهم وعظمتهم وشأنهم فى العالم الاسلامى يذكرون كل من يشمله لفظ الشيعة والتشيع ، فيذكرون الزيدية والاسماعيلية . ويذكرون أيضا غيرهم . وقـد فعل هذا الشيخ محسن الأمين العاملى فى كتابه « أعيان الشيعة » فى مواضع ، وهو وغـيره يشيدون بذكر الفاطميين ويفاخرون بهم ويعـدونهم منهم وإليهم مع أن الفاطميين ليسوا اثنا عشرية وإنما هم إسماعيلية . وقد وجدنا مؤلفى الامامية يذكرون حين الرد على أهل السنة كل من قابل الشيعة وإن كان من يذكرون بعيدين جدا عن أهـل السنة بالمعنى الخاص . فهم عندما يتعرضون لنقد أهل السنة والرد عليهم يذكرون أقوال الجهمية والجبرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة ويسبونهم بما تقوله إحدى هذه الطوائف من الاغلاط والمنكرات مع أن هذه الفرق ليست جميعا من أهل السنة

بل أهل السنة يبرؤن منها ومن باطلها ، بل بعض هذه الفرق أقرب إلى الشيعة منهم، إلى أهل السنة كالمعتزلة مثلا . فإن أصولهم تجنح إلى أصول الشيعة أكثر من جنوحها إلى أصول أهل السنة . فعد المعتزلة من الشيعة أصدق من عدهم فى أهل السنة ، ولكن كتاب الشيعة يعدون المعتزلة فى أهل السنة لأنهم يخالفونهم فى أصول الامامة . ومقياس الناس عند الشيعة مسألة الامامة والغلو فى على و ولده ، ثم القدح فى أعدائهم أو من زعموهم لهم أعداء و إن كانوا أصدقاء . و يصدق هذا الذى ذكرناه أننا وجدنا هؤلاء القوم مثل محسن الأمين فى كتابه « أعيان الشيعة » ومثل غيره يذكرون فى عداد الشيعة مثل محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى ومثل الحافظ أبى نعيم ومثل ابن اسحاق صاحب السيرة ومثل غيرهم بل يذكرون فى تعدادهم كل من قال كلمة غلو فى آل البيت من الشعراء والكتاب والعلماء والفقهاء وغيرهم . ولهذا يذكرون من شعراء الشيعة مثل كعب بن زهير وأبى الأسود الدؤلى وأمثال الفرزدق وأبى نواس الفاسق ومسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى والمتنبى وغيرهم من أهل الفسق والشعر والأدب ، لأنهم قالوا بيت شعر أو كلمة فيها ريح غلو أو ريح تفضيل لعلى . ومن غريب أمر هذا الرجل — أعنى صاحب كتاب أعيان الشيعة — أنه عمد إلى جميع الشعراء الفحول والكتاب البارزين وأصناف العلماء وحملة الأقلام فعدهم فى كتابه شيعة . ولو صدق هذا الذى فعل لكان أبو حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل والبخارى ومسلم وغيرهم وغيرهم من عيون الشيعة . بل لكان الوهابيون الذين يقدح فيهم و يستحل الوقيعة فى أعراضهم من متعصبى الشيعة . لأن هؤلاء جميعا يمتدحون عليا وذريته و يوالونهم و يعادون من يعاديهم و يقولون إن من الايمان ومن الاسلام حبهم وموالاتهم . ولا يشك مؤمن بالله و باليوم الآخر أن أئمة الحديث والفقه والسنة أمثال الأئمة الأربعة وأمثال شيوخ الحديث وغيرهم أقرب إلى

على وإلى حبه وإلى أهـل بيته وموالاتهم من أمثال أبى نواس والبحترى وأبى تمام وأبى الطيب المتنبئ . والقوم يعدون هؤلاء الشعراء جميعا شيعة ولا يعدون الأئمة الأربعة ولا غيرهم من شيوخ السنة شيعة ، بل يعدونهم من خصوم على وخصوم آل النبي ومن أعدائهم الفجار الكفار . ومن غريب أمر هذا الرجـل أنه أنكر فى كتابه على من عد هذه الفرق الزائغة غير الاثنا عشرية من الشيعة وزعم أن هذا من التضليل والتلبيس . ولكن ها نحن وجـدنا علماء الشيعة أنفسهم يعدون هذه الطوائف النائية عن الحق التى ذكرنا بعض عقائدها من فرق الشيعة وهو نفسه يفعـل ذلك أحياناً . ونحن لم ندع قط أن كل قول تقوله طائفة من طوائف الشيعة يكون قولا لجميع طوائفها ، ولـكن ندعى أن الباطل الموجود فى طوائفها كلها لا يوجد مجموعا فى أهل نحلة من النحل ولا ملة من الملل بل هم يفوقون العالم بأسره فى وفرة الأخطاء والخطايا والضلالات الـكبرى . ولم توجد هذه الآفات الشيعية التى ذكرها النوبختى فى فرق الشيعة مجتمعة فى فريق ولا فرق من خلق الله فيما نعلم . على أنه قد اجتمع فى طائفة الامامية الاثنا عشرية من ذلك ماطم الوادى . ونحن هنا نورد نماذج من هـذه الآفات ناقلين لها من كتبهم المطبوعة فى مطابعهم المسماة بأسماء أئمتهم :

﴿ النبي هو موجد العالم عند الشيعة ﴾

ايجاد الرسول للعالم اقل فواضله وفضائله

قال السيد محسن الأمين العامـلى فى كتاب أعيان الشيعة الجزء الخامس ص ٥٢٠ قال الشيخ ابراهيم بن يحيى الشيعى الاثنا عشرى فى امتـداح النبى عليه الصلاة والسلام :

ساد الورى بفضائل وفواضل * وأقلها ايجاد هذا العالم

أنا عبدك القن الذى لا يبتغى * إلا رضاك وأنت أرحم راحم

فأقل فواضل النبي وفواضله إيجاده العالم وهذا كفر بلا مرية .

﴿ رجوع الأمر كله إلى على ﴾

ثم ذكر السيد محسن فى هذا الجزء عن الشيخ ابراهيم بن صادق أحد علمائهم ص ٢٢٠ أنه قال فى على :

رجوع الامور كلها إلى على بن أبى طالب

يا مَنْ إليه الأمر يرجع فى غد * ولديه أعمال الخلائق ترفع
وله مآل ثوابها وعقابها * يعطى العطاء لمن يشاء ويمنع

﴿ على عندهم غير محدود الذات والصفات ﴾

وفى هذه القصيدة يقول :

وأرى الألى لصفات ذاتك حددوا * قد أخطأوا معنى علاك وضيعوا
ولأى مجدك يا عظيم المجد لم * يتدبروا وحديث قدسك لم يعوا
ولك الرمام تهب مِنْ أجداثها * والشمس بعد مغيبها لك ترجع
والشمس بعد مغيبها إن ردها * بالسر منك وصى موسى يوشع
فهى التى بك كل يوم لم تزل * من بدء خطرتها تغيب وتطلع
والدهر عبدك طائع لك لم يزل * وكذا القضا لك من يمينك أطوع
ولئن أطاع البحر موسى بالعصا * ضربا فموسى والعصا لك أطوع
ولئن نجت بالرسل قبلك أمة * فلقد نجت بك رسل ربك أجمع
وصفاتك الحسنى يقصر عن مدى * أدنى علاها كل مدح يصنع
والحمد مقصور عليه ثناؤه * وعلى سواك لواؤه لا يرفع

وهذا لا يقوله مسلم ولا مؤمن بالله وقوله « فموسى والعصا لك أطوع » وقوله « نجت بك رسل ربك أجمع » وقوله « بالسر منك » البيت ، هى أقوال لا يتفوه بها المؤمنون وهى تشير الى ألوهية على وقدمه ، ونعوذ بالله من هذا.

﴿ وجود على واسع كل الوجود ﴾

وقبل هذه الأبيات من هذه القصيدة يقول الشيخ إبراهيم هذا فى على :

وجود على بن أبى طالب فى كل مكان

ووجوده وسع الوجود وهل خلا * فى عالم الامكان منه موضع
كشاف داجية القضاء عن الورى * بعزائم منها القضاء يروع

﴿ آل النبي يملكون أمور العالمين ﴾

ونقل فى الجزء الخامس ص ٦٧٣ فى ترجمة الشيخ ابراهيم العاملى قوله فى آل النبي :

ملك آل النبي لأمور العالمين

العالمون بكل علم أحجمت * عنه الخواطر غير كنه الذات
ملكوا أمور العالمين فأمرهم * ماض على الأحياء والأموات

وفى ص ٦٨٧ من هذا الجزء عن هذا الشيخ بعد أن ذكر الرسول وفاطمة والحسن والحسين وجعفر وحمزة وعقيلاً وعبد مناف قال:

هم التسعة الغر الذين إليهم * أمور الورى فى النشأتين تئول
ولولاهم ما ساغ فعل لفاعل * ولا طاب منه القول حين يقول

﴿ الدنيا والأخرى أقل عطايا السيدة زينب ﴾

وذكر ص ٥٨٨ من الجزء الخامس للشيخ إبراهيم بن يحيى العاملى قوله فى السيدة زينب :

وكيف لا يطلب الدنيا وضرتها * مولاكم وهما أدنى عطاياك

﴿ مجاورة أحد قبور أهل البيت يعصم من سؤال القبر ﴾

وذكر فى ص ٣٥٠ من الجزء الخامس للشيخ إبراهيم الكفعمى أحد علمائهم قوله طالبا أن يدفن فى كربلاء :

سألتكم بالله أن تدفنونى * إذا مت فى قبر بأرض عقيرِ

فانى به جار الشهيد بكربلا * سليل رسول الله خير مجير
فانى به فى حفرتى غير خائف * بلا مرية من منكر ونكير

﴿ أحد ضربات على أفضل من عبادة الخلائق أجمع ﴾

قتل على لأحد المشركين أفضل من عبادة الخلائق أجمعين

ومن أقبح الغلو الذى يتخبطون فيه ماذكره السيد محسن الأمين فى كتاب « أعيان الشيعة » ص ٢٣٤ من الجزء الثانى وص ١١٣ من الجزء الثالث قال: إن قتل على بن أبى طالب لعمرو بن عبدود افضل من عبادة الجن والانس والملائكة وملايين العوالم أمثالهم إلى قيام الساعة ، قال ولولا هذه القتلة لما عبدالله فى الأرض . قال وفى قراءة « وكفى الله المؤمنين القتال بعلى »

ولا يخفى ما فى هذا من الإثم والباطل ومن التنقص للأنبياء والمرسلين والملائكة وللمؤمنين ، ومن التهوين لهم ولعبادتهم وطاعتهم لله . ولن يقول مسلم إن عليا كله بجهاده وأعماله وجميع أحواله أفضل من أحد الأنبياء فضلا عن أن يقول إن قتله لرجل من المشركين أفضل من عبادة جميع الأنبياء والمرسلين ومن عبادات الجن والانس والملائكة وملايين العوالم من أمثال الجن والانس والملائكة ، وفيهم الأنبياء والرسل ، وفيهم محمد وموسى وعيسى و إبراهيم ونوح وغيرهم ، وفيهم جبريل وميكائيل و إسرافيل وغيرهم . وقد ذكر هذا الرجل فى مواضع من كتابه أن عليا كان يقتل فى جميع غزوات المسلمين وحده أكثر من الشطر وأن المسلمين جميعا مع الملائكة يقتلون الباقى وهو مادون الشطر ، فجميع أبطال الصحابة مع الملائكة المسومين لا يستطيعون مجتمعين أن يقتلوا العدد الذى يقتله على وحده . وهذا ضرب من ضروب الجنة والهوس . وقد ذكر أيضا ص ٤٤٦ من الجزء الثانى أنه لا كفء لفاطمة غير على وأنه لولا على لما كان آدم ولا من بعده كفئا لها .

﴿ إنكارهم لبنات النبي ﴾

إنكار بنات النبي عليه السلام

ومن عجيب أمر القوم ومن لجاجتهم فى عداوة الخلفاء الراشدين وانحدارهم فى جحد فضائلهم أنهم ينكرون أن تكون رقية وأم كلثوم زوجا عثمان وابنتا النبي عليه السلام : ينكرون أن تكونا من بنات النبي ويزعمون أنهما ليستا ابنتين له . ذكر هذا الانكار أحد علمائهم وفقهائها وهو السيد محمد مهدى القزوينى الكاظمى فى كتابه منهاج الشريعة الجزء الثانى ص ٢٨٩ وص ١٩١ والقوم يريدون بهذا تجريد عثمان من فضائله التى قلده الله إياها حتى ألبسه فخر مصاهرة نبيه وتزويجه بابنتين من بناته،وهذا مجد لم ينله على نفسه . ولكن إنكارهم هذا يدل على استهتارهم بدينهم ونبيهم وبآله وذريته وأهل بيته . وولاؤهم للبيت النبوى هو أعظم مالديهم من المفاخر التى يدلون بها فيما يزعمون . فأين مايزعمون وأين ما به يفاخرون ويدلون ؟؟؟ ومما يلحق بهذا أن هذا الشيخ نفسه أعنى محمدمهدى القزوينى زعم فى هذا الجزء من كتابه ص ١١٨ أن التتار الذين هجموا على عاصمة الاسلام بغداد فخربوها وقتلوا خليفة المسلمين المستعصم كانوا مسلمين مؤمنين بالله . وفى الصفحة التى بعدها امتدح كل من أعان على قتل الخليفة وتمزيق خلافته ، وذكر أن ابن العلقمى إن كان حقا قد خامر ومالأ المغيرين على بغداد وصرع خليفتها فقد فعل حسنا وأتى جميلا يشكر عليه . وهم يريدون بهذا القول الثناء على التتار وامتداحهم لأنهم فى رأيهم قد أتوا بما يشكرون عليه وهو قتلهم الخليفة العباسى وقتل رجاله وعلمائه .

﴿ ذرية النبي جميعا محرمون على النار معصومون من كل سوء ﴾

أولاد النبي محرمون على النار وعلى العصيان

وفى الجزء الثانى صفحة ٣٢٧ من كتاب « منهاج الشريعة » المتقدم زعم مؤلفه أن الله قد حرم جميع أولاد فاطمة بنت النبي على النار . وأن من فاته الحق

منهم أولا فلا بد أن يوفق إليه قبل وفاته ، قال : ثم الشفاعة من وراء ذلك . وقال في «أعيان الشيعة» الجزء الثالث صفحة ٦٥ إن أولاد النبي عليه الصلاة والسلام لا يخطئون ولا يذنبون ولا يعصون الله إلى قيام الساعة .

بنو أمية من الروم لا من العرب

﴿ بنو أمية ليسوا من قريش ولا من العرب ﴾

ومن فظيع ماخطوه بأيديهم عداوة للعرب وخصومة لملوكهم وتحريفا لكتاب الله ما ذكروه في كتاب « ذخيرة الدارين في مايتعلق بالحسين » تأليف السيد عبدالمجيد الحسيني الحائري الأمامي . قال صفحة ٤٨ الجزء الأول (طبع النجف) بعنوان « نسب معاوية ويزيد وزياد وعمرو بن العاص » : « ذكر الحلي في كتاب « نهج الحق » عند نقل مثالب الصحابة أن معاوية كان لأربعة من الرجال قال السيد التستري في كتاب « احقاق الحق في بيان نسب بني أمية » إن نسبهم بطريق علماء أهل البيت أنهم ليسوا من قريش وإنما كانوا لعبد رومي اسمه «أمية» قال ونسبهم النسابون الجهلاء إلى قريش. وفي تفسير الصافي الفاضل القاشاني في سورة الروم قال وقرئ في الشواذ « غلبت الروم (بفتح الحرف الأول) وهم من بعد غلبهم سيغلبون » بضم حرف الياء . قال وقد روينا من طريق علماء أهل البيت في علومهم وأسرارهم التي خرجت منهم إلى علماء شيعتهم أن قوما ينسبون إلى قريش وأن أصلهم من الروم ، وفيهم تأويل هذه الآية ، « غلبت الروم» ومعناها أنهم غلبوا على الملك وسيغلبهم بنو العباس » انتهى كلامه ونحن نترك هذا الكلام بدون تعليق .

ملوك أهل السنة أولاد زنا عند الشيعة

﴿ ملوك أهل السنة أولاد زنا عند الشيعة ﴾

وفي هذا الجزء من هذا الكتاب صفحة ٥٠ قال : فبنوا أمية جميعهم ليسوا من صلب قريش وإنما هم ملحقون . . . والعجيب أنهم يشهدون على أئمتهم

بأنهم أولاد زنا وأولاد مخانيث ثم يقدمونهم على من ليس فيهم عيب ، ولا فى نسبهم ريب . انتهى كلامه .

وأهل السنة لم يقدموا على على وعلى الحسن والحسين وذريتهم الصالحين غير أبى بكر وعمر وعثمان . فكأن هؤلاء المخذولين يعنون بهذه المقادح الملعونة هؤلاء الخلفاء : الصديق والفاروق وعثمان . وقد ذكر صاحب كتاب أعيان الشيعة (الجزء الثالث صفحة ٣٦) هذا المعنى بعبارة لاأستطيع نقلها وحكايتها . وذكر صاحب «ذخيرة الدارين » أيضا أن عمرو بن العاص وطلحة بن عبيد الله وسعد ابن أبى وقاص وابنه عمر والزبير وابنه عبدالله : ذكر أن هؤلاء جميعا أولاد زنا

الباكى على الحسين محرم على النار

﴿ من بكى أو تباكى على الحسين حرم على النار ﴾

وفى « ذخيرة الدارين » صفحة١١٥ قال:من بكى أو تباكى على قتل الحسين حرم جسده على النار .

على بن أبى طالب قسيم النار

﴿ على قسيم النار وهو مخلص الخلائق يوم القيامة منها ﴾

وفى صفحة ١١٦ قال : إن عليا يذود الخلق يوم العطش فيسقى منه أولياءه ويذود عنه أعداءه ، وإنه قسيم النار وإنها تطيعه يخرج منها من يشاء ، وإنه هو الذى يخلص الخلائق يوم القيامة عند الله .

زيارة الحسين نجاة

﴿ زائر الحسين ناج وزيارته أفضل من الحج والاعتمار ﴾

وفى هذه الصفحة قال : «ومن أتى الحسين زائراً كان فى ضمان الله وكان بمنزلة من حج واعتمر ولم يخل من الرحمة طرفة عين وإن مات مات شهيدا وإن بقى لم يزل يحفظه حتى يفارق الدنيا » .

الشفاء وإجابة الدعاء فى قبر الحسين

﴿ الشفاء واجابة الدعاء فى قبر الحسين ﴾

وفى صفحة ١١٩ قال : « إن الله عوض الحسين من قتله أن جعل الامامة فى

ذريته والشفاء فى تربته و إجابة الدعاء عند قبره ، ولا تعد أيام زائره جائيا وذاهبا من عمره » .

الامام المنتظر يأتى بدين جديد

« الامام المنتظر يأتى بأمر جديد وكتاب جديد »

وفى كتاب « أعيان الشيعة » (الجزء الرابع القسم الثانى صفحة ٥٣٠) قال قال الصادق عليه السلام : إذا قام القائم دعا الناس إلى الاسلام جديدا وهداهم إلى أمر دثر وضل عنه الجمهور . و إنما سمى القائم مهديا لأنه يهدى إلى أمر مضلول عنه ، وسمى القائم لقيامه بالحق . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم هدم المسجد الحرام حتى يرده إلى أساسه ، وحول المقام إلى الموضع الذى كان فيه، وقطع أيدى بنى شيبة وعلقها بالكعبة و كتب عليها : هؤلاء سراق الكعبة . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم جاء بأمر جديد كما دعا رسول الله فى بدء الاسلام إلى أمر جديد . وعن الباقر نحوه . وعن الباقر أيضا قال : إذا خرج يقوم بأمر جديد وكتاب جديد وسنة جديدة وقضاء جديد على العرب شديد . ليس شأنه إلا القتل لا يستبقى أحدا ولا تأخذه فى الله لومة لائم . وعنه فى حديث : لكأنى أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس بأمر جديد وكتاب جديد وسلطان جديد من السماء . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم سار إلى الكوفة ، فيهدم بها أربعة مساجد . ولم يبق على وجه الأرض مسجد له شرف الاهدمه ، ووسع الطريق الأعظم وكسر كل جناح خارج فى الطريق ، وأبطل الكنف والميازيب إلى الطرقات .

هذه أقوال الأئمة المعصومين عند القوم ومقالاتهم . وهى صريحة فى أن هنالك كتابا صحيحا وقرآنا غير هذا القرآن وغير هذا الكتاب الذى بين أيدى المسلمين . و بعد هذا يحاول محاولون من مؤلفى هذه الطائفة التضليل على من لم

يعرف حقيقتهم وحقيقة دعاويهم فيذهبون يقولون : كلا ، إننا معشر الشيعة الاثنا عشرية لانقول بشيء من هذه المقالات بل نبرأ منها ومن قائليها. وهم يفرون إلى التقية والخداع والتضليل و إلا فهذه مقالات الأئمة الذين يزعمونهم معصومين كالأنبياء والمرسلين ، بل أعظم وأفضل وأصدق عندهم من أولى العزم من الأنبياء بينة فى هذا الأمر الذى يحاولون اخفاءه وكتمانه .

هدم الشيعة مساجد المسلمين

أما هدم المساجد و زعمهم أن القائم المنتظر يهدم كل مسجد له شرف فقد جاء عن هؤلاء الأئمة من طرقهم هم أن القائم إذا ظهر هدم مسجد النبى عليه الصلاة والسلام وأخرج أبا بكر وعمر منه طريين فصلبهما ثم حرقهما . وجاءت روايات كثيرة فى كتبهم أنه يهدم جميع المساجد . والشيعة أبداً هم أعداء المساجد ولهذا يقل أن يشاهد الضارب فى طول بلادهم وعرضها مسجدا .

وحسن لهم هم أن يهدموا مساجد المسلمين وأن يهدموا مسجد النبى والمسجد الحرام وكل مسجد له شرف ، وغير حسن من أتباع السنة المحمدية الصافية أن يهدموا القباب والبنايات المشيدة على الأموات ترغيبا فى عبادتهم وإشراكهم بالله

وقولهم فى الرواية : « وقضاء على العرب شديد » لا يدرى من لم يعرف مقدار حنقهم على العرب لماذا خصوهم دون سواهم من الأمم والشعوب بشدة ذلك القضاء المنتظر . ولحا الله هذه الجماعة ! فلقد غذيت بعداوة العرب و بغضائها منذ أن كانت إلى قيام منتظرها من غير ما سبب أتاه العرب المساكين سوى نشرهم هذا الدين . والله المطلع على ذات صدورهم .

بطلان الجهاد فى سبيل الله

﴿ كل جهاد فى سبيل الله باطل ومعصية عند الشيعة ﴾

ومن أشنع ما ذهبت إليه هذه الفرقة أنها زعمت أن الجهاد فى سبيل الله باطل موضوع، وأن المجاهدين فاسقون عاصون ان لم يكن ذلك تحت لواء على بن أبى طالب أو أحد أولاده المعصومين ! فعندهم أن جميع فتوح الاسلام التى

تمت فى عصر الخلفاء الراشـدين وفى عصور من بعدهم من الخلفاء والأمراء والملوك فتوح قائمة على عصيان الله ومخالفة أمره وشرعه . وعندهم أن كل من اشترك فى فتح بقعة من بلاد الكفر والشرك بعـد النبى آثم عاص لله ولرسوله سواء أكان قائداً أم كان مقوداً ، وسواء أكان أميراً أم كان مأموراً . وهم يذكرون روايات فى هذا الباطل و الاثم العظيم عن أئمة البيت النبوى. والروايات بلاريب مكذوبة . ولو كانت صحيحة عنهم لما كانوا عندنا ولا عند المسلمين من المرضيين.

وقد ذكرت هذه المسألة فى كتاب « أعيان الشيعة » (الجزء الرابع القسم الأول صفحة ١٣١) . وقد ذكر قول أحد الكتاب عن الحسين رضى الله عنه وعن جهاده مع المسلمين : « ويتنقل مع جيوش المسلمين إلى أقطار الأرض فى فتح افريقيـة وغزوة جرجان وطبرستان وقسطنطينية » . فقال الشيعى مؤلف « أعيان الشيعة » تعقيبا عـلى ما ذكر من جهاد الحسين : « ولا يخفى أن ذلك كله اختلاق . فالحسين لم يكن ليسير تحت تلك الرايات التى يراها رايات ضلالة ، وخصوصا راية يزيد بن معاوية . ولم يكن ليؤيد سلطنة الظلم والملك العضوض ، وأخوه الحسن الذى كان أقرب منه إلى المسالمة لم يرض أن يحارب الخوارج تحت رايةمعاوية ، وقد قال مامعناه : أنت أحق بأن أجاهدك من الخوارج . فالحسين الذى علم حاله فى إباء الضيم والمجاهرة بالحق هل يمكن أن يسير تحت مثل تلك الرايات وأمير المؤمنين عليه السلام قد قال : لا تحاربوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه . وأئمة أهل البيت كانوا يرون مسير أبى أيوب الأنصارى لمحاصرة القسطنطينية قلة فقه منـه . فهل يمكن أن يفعلوا ما عابوه على غيرهم ؟ » انتهى كلامه فض الله فاه .

فهل سمع المسلم بأعجب من هذا ؟ وهل يقول مثل هذا القول من يؤمن بالله وباليوم الآخر ومن يريد أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الكفر والشرك هى

السفلى ؟ وأبو أيوب الأنصارى مات غازيا مجاهدا فى بلاد الروم فى خلافة معاوية رضى الله عنهما . ومتى كان المجاهد فى سبيل الله الذاهب إلى ربه فى جهاده قليل الفقه ياقومنا ؟ هبوا أيها الناس معاوية شر الخليقة كلها فلماذا لاتجوز معاونته على الخير والطاعات . ولماذا لا يجوز جهاد الكفر والفساد والجهل والظلم معه وتحت رايته وفى إمرته ؟ إن المسلم — يامن يزعمون أنهم مسلمون — مأمور بأن ينصر الحق وأن يكون مع الحق وأن يجاهد فى سبيل الله وفى سبيل اعزاز دينه وكلمة الله أين كان وحيث كان ومع من كان . ولو أن المسلمين وجدوا كفارا يناصرون الاسلام وأهله لكانوا معهم .

والقوم يظنون أن قول على المذكور : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى » الحديث ، إبطال للجهاد فى سبيل الله ، ويحسبونه يعنى أن كل مسلم يجب عليه أن يغمد سيفه وأن يحطم رمحه فلا يجاهد ولا يقاتل لأن كل جهاد وقتال بعده باطل موضوع لأن الملوك والخلفاء القائمين بالجهاد بعده كلهم من غير المعصومين . وهذا باطل والرواية عن على باطلة ولو صحت لما أمكن أن يكون معناها مازعموا .

وقول الرافضى : « ولم يكن ليؤيد سلطنة الظلم والملك العضوض » قول غريب باطل . لأن الجهاد فى سبيل الله ليس تأييداً للظلم والملك العضوض وإنما هو تأييد لدين الله ونشر له . وإذا لزم الجهاد فى الحق أن يكون فيه إعزاز لدولة أحد الخلفاء الظالمين عند الشيعة لم يكن هذا الجهاد باطلا ولا تأييدا للظلم والملك العضوض . وهل يجوز للمسلم أن يترك الجهاد فى سبيل الله مع المسلمين المجاهدين خيفة أن يكون فى جهاده تقوية لخلافة أبى بكر أو عمر أو عثمان أو معاوية أوغيرهم من الخلفاء والملوك ؟ وهل ينهب من يؤمن بالله واليوم الآخر إلى أن إبقاء ديار الكفر والظلم والشرك تحت الكفار والمشركين والجاهلين أفضل وأولى من إدخالها

فى حوزة المسلمين والاسلام تحت سلطنة معاوية أو خلافة أبى بكر أو عمر أو عثمان لئلا يكون فى هذا توسيع لسلطان أحد هؤلاء الخلفاء والملوك الظالمين ؟ وهل يقول مؤمن بالله وباليوم الآخر إن عمرو بن العاص مثلا آثم فى غزواته فى سبيل الله وفى فتحه مصر وفتح غيرها من بلاد الكفار والمشركين ، أو يقول إن كل من اشتركوا فى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص أو فتح فارس أو الشام أو المغرب أو غير ذلك مما فتح فى سبيل الله : هل يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر إن كل من اشتركوا فى هذه الفتوحات الاسلامية عاصون آثمون لأنهم يجاهدون تحت رايات الملوك الظالمين ، ولأنهم بذلك يؤيدون سلطنات الخلفاء والملوك المعتدين المغيرين على حقوق غيرهم وعلى الخلافة والسلطان ؟ ألا جازى الله هذه الطائفة أعدل جزائه،فما أشد خصومتها لله ولدينه ولعباده المؤمنين .

إن المؤمن لا يشك فى أن هذه الاقاويل لا تصدر إلا من قلوب ترشح بغضا للاسلام وكراهة لله ولرسوله ولأنصاره الابرار المجاهدين .

الرجعة وحقيقتها

﴿ الرجعة ومعناها عندهم ﴾

تروى فرقة الشيعة الاثنا عشرية عن علماء أهل البيت النبوى روايات كثيرة فى الرجعة والايمان بها والحملة على من ينكرها أو يشك فيها حتى رووا عن أئمة البيت إكفار من لم يؤمن بها . ومن رواياتهم عنهم قولهم : « من لم يؤمن برجعتنا، ويقر بمتعتنا فليس منا » . وهم يزعمون أن مسألة الرجعة من ضروريات مذهبهم،ومنكر الضرورى لديهم كافر كما تقدم عن الشيخ محسن الأمين العاملى فى الجزء الأول من كتاب « الصراع ». فالقوم لا يختلفون فى الايمان بالرجعة ، ومن خالف فيها عندهم فليس إماميا اثنا عشريا أى فليس مسلما . وقد ألفوا فيها وفى اثباتها كتبا كثيرة قديمة وحديثة . وكلمة « الرجعة » تمر كثيرا بمن ينظر فى

كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل ، فيجدهم يقولون مثلا : «فلان يؤمن بالرجعة ، أو يقول بالرجعة» . وقد يخفى ماتريده الشيعة من هذه الكلمة على كثير من الناس وعلى الخاصة منهم . وقد كنت حينما كتبت الجزء الأول من الصراع أجهل مرادهم الحقيقى من هذه الكلمة ، وكنت أظنهم يمنون بذلك رجوع على ابن أبى طالب أو رجوع أحد الأئمة الاثنى عشر إلى الحياة الدنيا ، أو نحو ذلك . وما كنت أعرف غرضهم الحقيقى كما هو ، وقد ظهر لى بعد مايعنون حقيقة بالرجعة بعد أن راجعت شيئاً من كتبهم .

فالرجعة عندهم معناها رجوع جميع المؤمنين : الأنبياء فمن دونهم والأئمة المعصومين وغيرهم ليقاتلوا جميعا تحت راية على بن أبى طالب ، ورجوع جميع الكافرين : أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم من أتباعهم والموالين لهم ليثأر على وآله والمؤمنون منهم ، وليجازوهم ما فعلوه بهم من ظلم وعدوان وتغلب . فكل من محض الايمان يرجع ليكون تحت راية على ، وكل من محض الكفر يرجع للثأر والانتقام منه . فالرجعة ليست خاصة بعلى ولا بالأئمة ولا بالمؤمنين ولا بالكافرين . وأنا أورد هنا بعض رواياتهم عن علماء أهل البيت الذين هم عندهم معصومون :

رواياتهم فى الرجعة

١ — عن أبى عبد الله الصادق فى قول الله «ويوم نحشر من كل أمة فوجا» قال ليس أحد من المؤمنين قتل إلا يرجع حتى يموت ، ولا أحد من المؤمنين مات إلا يرجع حتى يقتل .

٢ — وعن موسى الحناط قال سمعت أبا عبد الله الصادق يقول : أيام الله ثلاثة يوم يقوم القائم ، ويوم الكرة ، ويوم القيامة .

٣ — وعن فيض بن أبى شيبة عن أبى عبد الله الصادق يقول وتلا هذه الآية « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم » الآية ، قلت ليؤمنن برسول الله

ولينصرن على بن أبى طالب ، قال والله من لدن آدم وهلم جرا . فلم يبعث الله نبيا ولا رسولا إلا أرجعهم جميعا إلى الدنيا حتى يقاتلوا بين يدى على بن أبى طالب

٤ — وعن جابر الجعفى عن أبى جعفر فى قول الله : « يا أيها المدثر قم فأنذر » يعنى محمدا وقيامه فى الرجعة فينذر فيها ، و فى قوله : « إنها لاحدى الكبر » يعنى محمدا نذيرا للبشر فى الرجعة ، و فى قوله « وما أرسلناك إلا كافة للناس » يعنى فى الرجعة .

٥ — وعن جابر الجعفى عن أبى جعفر قال سئل عن قول الله : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم » . فقال ياجابر أتدرى ماسبيل الله ؟ قلت : لا والله، فقال القتل فى سبيل على وذريته . فمن قتل فى ولايته قتل فى سبيل الله ، وليس أحد يؤمن بهذه الآية إلا وله قتلة وموتة . إنه من قتل نشر حتى يموت ، ومن مات نشر حتى يقتل .

٦ — وعن أبى عبد الرحمن القصير عن أبى جعفر قال قرأ هذه الآية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » فقال أتدرى من يعنى ؟ فقلت يقاتل المؤمنون فيقتلون ، فقال لا . ولكن من قتل من المؤمنين رد حتى يموت ، ومن مات رد حتى يقتل . وتلك القدرة .

٧ — وعن جميل بن دراج عن أبى عبد الله قال قلت له : قول الله : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد » فقال ذلك والله فى الرجعة . أما علمت أن أنبياء الله كثيرا لم ينصروا فى الدنيا وقتلوا ، وأئمة قتلوا ولم ينصروا . فذلك فى الرجعة . قلت : « واستمع يوم ينادى المنادى » الآية. قال : هى الرجعة .

٨ — وعن أحمد بن عقبة عن أبيه عن أبى عبد الله أنه سئل عن الرجعة أحق هى ؟ قيل له : من أول من يخرج ؟ قال الحسين يخرج على أثر القائم .

٩ — وعن حنان بن سدير عن ابيه قال سالت ابا جعفر عن الرجعه فقال : ينكرها القدرية ثلاثا .

١٠ — وعن داود البرقى قال قلت له عليه السلام : إنى قد كبرت ودق عظمى وأحب أن يختم عمرى بقتل فيكم ، فقال : وما من هذا بد ، إن لم يكن فى العاجلة يكون فى الآجلة .

١١ — وعن فضيل بن شاذان عن أبى جعفر قال : إذا ظهر القائم ودخل الكوفة بعث الله من ظهر الكوفة سبعين ألف صديق فيكونون فى أتباعه وأنصاره.

هذه الروايات قد نقلناها كلها من كتاب «النجعة فى الرجعة» طبع النجف صفحة ٢٧ وما بعدها ، تأليف محمد رضا الطبسى الخراسانى،وقد قال بعد أن ساق هذه الروايات : «ومن أراد أكثر من ذلك فليراجع فى مظانها.وقد ذكر المحدث الحر العاملى فى كتابه « الأيقاظ » أكثر من ستمائة حديث . وقال فى ذيل كلمة « مؤمن بإيابكم » : ان فيها دلالة واضحة على رجوع رسول الله وأوصيائه الأئمة . و إنى قد اطلعت على ستمائة وعشرين حديثا » انتهى قوله .

وقال صفحة ٢٥ ومابعدها : روى الشيخ حسن بن سليمان فى كتابه المختصر بإسناده عن سلمان الفارسى قال : دخلت يوما على رسول الله فنظر إلى ، إلى أن قال يا سلمان خلقنى الله من صفوة نوره وخلق من نورى عليا ، وخلق من نورى ونور على فاطمة ، وخلق منى ومن على وفاطمة الحسن والحسين فسمانا بخمسة أسماء من أسمائه ، ثم خلق منا ومن نور الحسين تسعة أئمة فدعاهم فأطاعوه قبل أن يخلق الله سماء ولا أرضا ولا هواء ولا ماء ولا ملكا ولا بشراً . وكنا بعلمه أنواراً نسبحه ونسمع له ونطيع . وهنا ذكر له أسماء الأئمة الاثنى عشر إلى آخرهم وهو القائم المهدى . قال سلمان فبكيت ثم قلت يا رسول الله وأنى لى بادرا كهم ؟ قال: ياسلمان إنك مدركهم وأمثالك . قلت يا رسول الله إنى مؤجل إلى عهدهم ؟ قال

خلق النبى وآله من صفو نور الله

يا سلمان اقرأ : « فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال و بنين وجعلنا كم أكثر نفيرا » قال سلمان فاشتد بكائى وشوقى وقلت : يارسول الله بعهد منك ؟ فقال إى والذى أرسل محمدا إنه لبعهد منى و بعلى وفاطمة والحسن والحسين وتسعة أئمة وكل من هو مظلوم منا وفينا ، إى والله ياسلمان ثم يحضر إبليس وجنوده وكل من محض الايمان ومحض الكفر محضا حتى يؤخذ بالقصاص والثارات ولايظلم ربك أحدا ، ونحن تأويل هذه الآية : « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض » الآية . قلت وقبح الله الكذابين .

وفى هذا الكتاب أيضا صفحة ٢٣ قال : كانت لمؤمن الطاق مع أبى حنيفة حكايات كثيرة منها أنه قال يوما ياأبا جعفر تقول بالرجعة ؟ قال نعم . قال أبو حنيفة أقرضنى خمسمائة دينار فاذا عدت أنا وأنت رددتها إليك . فقال له : أريد ضميناً أنك تعود إنسانا وإنى أخاف أن تعود قردا فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت . وقد ذكرت فى الكتاب روايات كثيرة من هذا النوع الشنيع . وقد أشار مرات إلى كفر من أنكر هذه الرجعة أو شك فيها . ونقل عن أحد شيوخهم ومؤلفيهم أنه قال : يقينى بالرجعة أشد من يقينى بالقيامة . وذكر فى مواضع أن الايمان بالرجعة من ضرورات مذهب الأمامية وأنها من أصول اعتقاداتهم ... ومن أشنع مازعموه فى هذه المسألة الشنيعة أنهم قد حددوا للرجعة ٨٠ ألف سنة .

هذا هو قولهم بالرجعة وهذا هو معناها لديهم ومايريدونه منها . ولينظر بعد هل هؤلاء ممن آمنوا بالله و برسوله و بالاسلام !

الهدى فى مخالفة المسلمين

بماذا يعرف الشيعي الحق ؟

الناس كلهم مؤمنوهم وكافروهم يستدلون على الأمر بدلائله العقلية والنقلية

إلا هذه الفرقة ، فانها تستدل على الأمر بغير ذلك وتعرف الحق من الباطل بما يخجل المسلم ذكره ونقله ... فأنا وأنت والعقلاء كافة نعرف أن هذا حق وأن ذاك باطل لأن هذا دلت عليه دلائل الحق وذاك دلت عليه دلائل الباطل، أما الشيعى الاثنا عشرى فيعرف الحق بانه ما اعتقده أهل السنة باطلا فتركوه ، ويعرف الباطل بأنه ما اعتقده أهل السنة حقا ففعلوه . فاذا أراد الشيعى أن يعرف أحلال هذا أم حرام ، أحق أم باطل، نظر إلى عمل أهل السنة ومن ليسوا شيعة فاعملوه وقبلوه فهو حرام وباطل بلا شك، وماهجروه وجانبوه فهو حلال وحق بلا ريب . هذا هو فيصل التفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام والاسلام وغير الاسلام عند طائفة الشيعة. ونحن ننقل رأيهم ورواياتهم فى هذا الباطل وهذا الخزى الفاضح.

لا يجوز التحاكم إلى المسلمين ولا الى محاكمهم وقضاتهم

روى المشايخ الثلاثة بالاسانيد عن عمر بن حنظلة قال سألت أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا تكون بينهما منازعة فى دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة ، أيحل ذلك ؟ قال : من تحاكم إليهم فى حق أو باطل فانما يتحاكم إلى الطاغوت ، وما يحكم له به فانما يأخذه سحتا وإن كان حقه الثابت لأنه أخذه بحكم الطاغوت وإنما أمر الله أن يكفر به قال : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » . قلت فكيف يصنعان؟ قال ينظران من كان منكم قد روى حديثنا ونظر فى حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به فانى قد جعلته عليكم حاكما، فاذا لم يقبل حكمنا فانما بحكم الله استخف وعلينا قد رد . والراد علينا راد على الله وهو على حد الشرك بالله ، إلى أن قال : ينظر ماوافق حكمه حكم الكتاب والسنة وخالف العامة فيأخذ به ويترك ما خالف الكتاب والسنة ووافق العامة. قلت أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكما من الكتاب والسنة فوجدنا أحد الخبرين موافقا للعامة والآخر مخالفا لهم بأى الخبرين يؤخذ ؟ قال بما خالف العامة فان الرشاد فيه . قلت فان وافقهم الخبران جميعا ؟ قال ينظر إلى

ماهم أميل إليه . قلت فان وافق حكامهم الخبرين جميعا ؟ قال إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك فان الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام فى الهلكات »

قال صاحب الكتاب الذى ننقل منه هذه الروايات بعد ذكره هذه الرواية : « كذا يوجه الجمع بين موافقة الكتاب والسنة ومخالفة العامة مع كفاية واحدة منهما إجماعا » . يريد أن مخالفة العامة مطلوبة على كل حال بلانظر إلى الكتاب والسنة فان فى خلافهم الرشاد والهداية إجماعا .

وعن زرارة قال سألت أبا جعفر قلت يأتى عنكم الخبران المتعارضان فبأيهما آخذ (إلى أن قال) أنظر ماوافق منهما العامة فاتركه وخذ بما خالف ، فان الحق فى خلافهم ، قلت ربما كانا موافقين لهم أو مخالفين فكيف أصنع ؟ قال اذن خذ بما فيه الحيطة لدينك .

وفى رسالة القطب الراوندى باسناده الصحيح عن الصادق قال إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فذروه فان لم تجدوه فى كتاب الله فاعرضوهما على أخبار العامة فما وافق أخبارهم فذروه ، وماخالف أخبارهم فخذوه . وروى بسنده أيضا عن ابن السرى قال قال أبو عبد الله : إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فخذوا بما خالف القوم. وروى بسنده أيضا قال خذ بماخالف القوم وماوافق القوم اجتنبه. وبسنده أيضا عن محمد بن عبدالله قال قلت للرضا كيف نصنع بالخبرين المختلفين؟ قال : إذا ورد عليكم خبران مختلفان فانظروا ماخالف منهما العامة فخذوه وانظروا ماوافق أخبارهم فذروه . وبسنده عن ابن مهران قال قلت لأبى عبد الله : يرد علينا حديثان واحد ينهانا وواحد يأمرنا قال لا تعمل بواحد منهما حتى تلقى صاحبك وتسأله . قلت لابد أن نعمل بواحد منهما. قال خذ بمافيه خلاف العامة. وعن على بن أسباط قال قلت للرضا يحدث الأمر لابد من معرفته وليس فى البلد

الذى أنا فيه أحد من مواليك أستفتيه ، قال اعط فقيه البلد واستفته فى أمرك فاذا أفتاك بشئ فخذ بخلافه فان الحق فيه . وعن أبى إسحاق الأرجانى قال قال أبو عبد الله : أتدرى لم أمرتم بالاخذ بخلاف ما يقوله العامة ؟ فقلت لا أدرى فقال إن عليا لم يكن يدين الله بشئ إلا خالف عليه العامة ، إرادة لابطال أمره ، وكانوا يسألونه عن الشئ الذى لا يعلمونه فاذا أفتاهم جعلوا له ضدا من عندهم ليلبسوا على الناس . وفى مرسلة ابن الحصين : أن من وافقنا خالف عـدونا فى قول أو عمل فليس منا ولا نحن منه . كذا الرواية والظاهر أنها محرفة . وفى رواية الحسين بن خالد قال : شيعتنا المسلمون لأمرنا ، الآخذون بقولنا ، المخالفون لأعدائنا . ومن لم يكن كذلك فليس منا ، ويكون حالهم حال اليهود الوارد فيهـم قوله ﷺ : « خالفوهم ما استطعتم » . وقال أبو عبـد الله الصادق أيضا : ماسمعته منى يشبه كلام الناس ففيه التقية ، وماسمعته منى لا يشبه كلام الناس فلا تقية فيـه . وعن أبى بصير عن أبى عبد الله قال ما أنتم والله على شئ مما هم فيه ولا هم على شئ مما أنتم فيه ، فخالفوهم فانهم ليسوا من الحنيفية على شئ .

روى هـذه الأخبار كلهـا الشيخ مرتضى الأنصارى التسترى الامامى الاثنا عشرى فى كتابه « فرائد الاصول » صفحة ٣٢٥ وما بعدها .

والشيعة إذا قالوا « العامة » أو « الجمهور » كانوا يعنون أهل السنـة ومن ليسوا شيعة . فهم يعرفون الحق بانه ماخالفه أهل السنة ، والباطل بانه ما كان عليه أهل السنة . وأهل السنة عندهم لا يمكن أن يكونوا على شئ من الرشاد والهدى والحنيفية بل كل أمرهم باطل وضلال وخـلاف على الدين . والتحاكم إليهم وإلى علمائهم وقضاتهم وسلاطينهم وخلفائهم من التحاكم إلى الطواغيت . وقد أمر الله بالكفر بهم لا بالتحاكم إليهم . والمتحاكمون إلى الطاغوت منافقون ضالون بلا ريب ، فمن تحاكم إلى قاض أو حاكم أو سلطان أو خليفة من أهـل السنة فقـد نافق وضل

وخالف نهى الله وشرعه . ولا يجوز استحلال شئ مابحكمهم وقضائهم ، حتى صاحب الحق نفسه لايجوز له أن يأخذ حقه المعلوم الواضح بحكم أهل السنة . ومن أخذ حقه بحكمهم وقضائهم فقد أخذه حراما وسحتا ! !

وما ندرى ماذا يقولون فى المتحاكمين إلى المحاكم الافرنجية والالحادية منهم ومن شيعتهم ، وماذا يقولون فى من أخذ حقه أو حاول أخذه بقضاء هذه المحاكم ؟ أظن هذا لابأس به عندهم ولا عقوبة فيه ولاحوب .

وقولهم إن عليا لم يكن يدين الله بشئ مما عليه العامة قول نعوذ بالله منه ومن قائليه . فان العامة يدينون بوجود الله و بانه واحد و بأن رسوله صادق ، و يدينون بالاسلام و بالجنة والنار ، و يؤمنون بالانبياء والملائكة والرسل و بالحساب والعقاب . فهل كان على يخالفهم فى شئ من هذا أولا يدين بشئ منه ؟

الحق أن القوم يسرفون على أنفسهم فى عداء أهل السنة وكراهتهم ، والحق أنهم بهذا أبعد عن المسلمين من غير المسلمين ، والحق أنهم ينحلون المسلمين من العداوة والشنآن مالا يستطيع أن ينحلهم إياه أعداء الشعوب والامم جميعا ! فاننا ما رأينا ولا سمعنا أن طائفة تعرف الحق والباطل بموافقة طائفة أخرى ومخالفتها غير طائفة الشيعة . ومهما عشت أراك الدهر عجبا !

المصاحف غير القرآن

﴿ مصحف فاطمة ، جامعة على ، الجفر ﴾

تزعم الشيعة فى ماتزعم أن لديها ولدى الأئمة من آل البيت كتبا ثلاثة غير القرآن ، فى كل كتاب من الكتب الثلاثة كل مايحتاج إليه الناس من أمور الدين وأمور الدنيا ، بل كل كتاب يشتمل على جميع الحلال والحرام ، وجميع الاحداث التى تقع إلى قيام الساعة : احد هذه الكتب الثلاثة مصحف فاطمة بل مصحفها ، فقد ذكروا فى جميع كتبهم الموضوعة لبيان هذه الشؤون أن

هنالك مصحفا لفاطمة كان عندها وكان الأئمة من ولدها يتوارثونه من بعدها .

وقد ذكر هذا المصحف فى الجزء الأول من كتاب « أعيان الشيعة » .

ومؤلف « أعيان الشيعة » هو مؤلف كتاب « كشف الارتياب » وقد أطال الكلام عليه صفحة ١٨٧ – ١٩٣ ، وذكر روايات عديدة عن الأئمة فيه : فنقل عن الصادق أنه قال : وعندنا مصحف فاطمة ومايدريهم مامصحف فاطمة ؟ قال فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، وليس فيه من قرآنكم حرف واحد، وإنما هو شئ أملاه الله عليها أو أوحى إليها. وعنه أيضا قال : وعندنا مصحف فاطمة وفيه مايكون من حادث وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة . وعن محمد بن مسلم قال كانوا يأتون أبا عبد الله الصادق يسألونه عما خلف رسول الله فقال لهم كلاما جاء فيه : وخلفت فاطمة مصحفا ماهو قرآن ولكنه كلام من كلام الله أنزله عليها باملاء رسول الله وخط على بن أبى طالب . وذكر روايات أخرى دل بعضها على أن المصحف أوحى إليها وأنزل عليها فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام وهو الذى أملاه وعلى كتبه . ودل بعضها على أنه أنزل عليها بعد وفاة رسول الله ، نزل به جبرئيل وأملاه عليها . . . فجمع صاحب الكتاب بين الروايات بأن زعم أن لفاطمة مصحفين لامصحفا واحدا ، أحدهما أوحى اليها فى حياة الرسول ، والثانى أوحى إليها بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فلفاطمة إذن مصحفان لامصحف واحد ، كلاهما قد أوحى إليها . وقد قدمنا فى الجزء الأول أن القوم يزعمون أن أئمة آل البيت يوحى إليهم ، وأن الملائكة تأتيهم بالوحى من الله ومن السماء . وتقدم قولهم إن الأئمة لايفعلون شيئا ولايقولونه إلا بوحى من الله ، وتقدم أن الفرق عندهم بين محمد رسول الله و بين الأئمة من ذريته أن محمدا كان يرى الملك النازل عليه بالوحى وأما الأئمة فيسمعون الوحى وصوت الملك وكلامه ولا يرون شخصه . وهذا هو الفرق لديهم بين النبى والامام وبين الرسل والأئمة . وهو فرق

لا فرق بين الامام والرسول عند الشيعة

لاحقيقة له . فالأئمة من آل البيت عندهم أنبياء ورسل بكل ما فى كلمة النبى والرسول من معنى . لان النبى الرسول هو إنسان أوحى الله إليه رسالة وكلفه تبليغها ونشرها ، سواء أكان وحى الله اليه بواسطة الملك أم بلا واسطة . وسواء أرى شخص تلك الواسطة أم لم يره بل سمع منه وعقل عنه . هذا هو النبى الرسول . ورؤية الملك لادخل لها فى حقيقة معنى النبى والرسول بالاجماع . ولهذا يقولون الرسول هو إنسان أوحى اليه وأمر بالبلاغ ، والنبى هو إنسان أوحى اليه ولم يؤمر بالبلاغ . ولم يجعلوا لرؤية الملك دخلا فى حقيقة النبى وحقيقة الرسول . وهذا لاينازع فيه أحد من الناس ، فالشيعة يزعمون لفاطمة وللأئمة من ولدها ما يزعمون للانبياء والرسل من المعانى والحقائق فهم يزعمون أنهم معصومون وأنهم يوحى اليهم وأن الملائكة تتنزل عليهم بالرسالات وأن لهم معجزات أقلها إحياؤهم الأموات كما يقولون فى أفضل كتبهم . ويزعمون أن طاعتهم مفترضة كالانبياء والمرسلين ، وأن كل مايجب للانبياء والرسل يجب لهم . بل يزعمون أنه يجب لهم أكثر مما يجب لأولى العزم من رسل الله . ولهذا يفضلون الأئمة عليهم . ولديهم أن على بن أبى طالب وأولاده المعصومين أفضل من إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وغيرهم . ومن ثمة يقولون إن هؤلاء الانبياء والمرسلين سوف يعادون فى الحياة الدنيا عند عودة على وعودة بنيه كى يقاتلوا بين يديه ، وكى يكونوا من أجناده . ففاطمة وعلى بن أبى طالب وأولادهما أنبياء رسل لدى هذه الفرقة بلا ريب ولا شك ، بل هم أفضل الرسل والانبياء . وهم وإن مانعوا فى شئ من ذلك فى التسمية والاسماء . أما الحقيقة فيسلمونها بكل مافيها . وهؤلاء المصابون يدعون أن الوحى الذى نزل على فاطمة أكثر من الوحى الذى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، فانهم يقولون إن فى مصحف فاطمة مثل القرآن ثلاث مرات ويقولون مع هذا إن لها مصحفا آخر . فاذا فرض أن المصحفين

متساويان كثرة كانا مثل القرآن ست مرات . فالوحي الذي أوحاه الله إلى فاطمة مثل القرآن الذي أوحاه إلى عبده محمد ست مرات وهذا غاية الخذلان والانملاص من الدين والعقل . . والعجيب أنهم يكفرون من قال بنزول الوحي أو بالنبوة بعد محمد عليه السلام كما يكفرون من ادعى النبوة . قال الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتاب « أصل الشيعة وأصولها » (الطبعة الثانية صفحة ١٠١) : « و يعتقد الامامية أن كل من اعتقد أو ادعى نبوة بعد محمد أو نزول وحي او كتاب فهو كافر يجب قتله » هذا نص كلام آل كاشف الغطاء في « أصل الشيعة وأصولها » وعلى هذا الذي ذكره فالامامية وأئمتهم المعصومون كفار كلهم يجب قتلهم والخلاص منهم لأنهم يدعون نزول الوحي بعد رسول الله على الأئمة جميعا إلا أنهم يدعون أنهم لا يرون الملك النازل بالوحي عليهم ، ويدعون نزول الوحي على فاطمة بعد وفاة والدها . وأنه قد أوحي اليها مثل قرآننا هذا ثلاث مرات وليس فيه من قرآننا حرف واحد ، وأنه قد أوحي إليها كتاب وهو المعروف بمصحف فاطمة عندهم ، بل كتابان هما مصحفاها ، و يدعون أن الأئمة المعصومين : عليا فمن بعده كانوا يتوارثون هذين المصحفين و يقولون للناس إنهما قد أوحيا إلى فاطمة بعد وفاة النبي و في حياته . وهذا لا يختلفون فيه ولا في نصوصه . وليراجع كتاب « أعيان الشيعة » الجزء الاول صفحة ١٨٧ـ١٩٣ ، بل لتراجع كتبهم كلها التي يسمونها الكتب الحديثية

تكفيرهم لأئمتهم وتكفير بعضهم لبعض

فمذهب الامامية الاثنا عشرية قائم على الكفر والالحاد ، وأئمتهم كفار يجب قتلهم وقتالهم على ماقال آل كاشف الغطاء . فماذا يقولون ؟ نحن نعرف أن هذا الذي قاله آل كاشف الغطاء وأمثاله من إنكارهم ماهم مجمعون عليه واخفائهم إياه انما يذهبون فيه إلى التقية والمداهنة التي هي أصل مذهبهم ومبناه . وقد نقلوا عن أئمتهم انهم قالوا : « ابى الله أن يعبد الاسرا » . و بهذه التقية لهم أن ينكروا

أبى الله ان يعبد الا سرا

كل شئ وأن يقروا كل شئ ولا يصح لى ولا لك أن نأخذ من انكارهم انكارا ولا من اقرارهم إقرارا مادام الذى انكروه أو أقروه يصح أن يدخل فى باب التقية وأن يكون منها، ولهذا يزعمو أن الأئمة من آل البيت كانوا يقولون لاتباعهم وشيعتهم هذا حرام وهم يرونه حلالا ، وهذا حلال وهم يرونه حراما وان لم يكن بينهم أحد ممن يتقون أو يخافون ولكنهم يفعلون ذلك لايقاع الخلاف بينهم كيلا يعرف انهم شيعة أو لاجل أن يظن انهم ليسوا من الشيعة . وقد استفتى أحد الشيعة إماما من أئمتهم ، لاأدرى اهو الصادق ام غيره ، فى مسئلة من المسائل فافتاه فيها ثم جاءه من قابل واستفتاه فى المسئلة نفسها فافتاه بخلاف ما أفتاه عام اول ، ولم يكن بينهما أحد حينما استفتاه فى المرتين ، فشك ذلك المستفتى فى إمامه وخرج من مذهب الشيعة وقال : ان كان الامام انما افتانى تقية فليس معنا من يتقى فى المرتين وقد كنت مخلصا لهم عاملا بما يقولون ، وإن كان مأتى هذا هو الغلط والنسيان فالأئمة ليسوا معصومين إذن والشيعة تدعى لهم العصمة . ففارقهم وانحاز إلى غير مذهبهم . وهذه الرواية مذكورة فى كتب القوم . وهكذا الأمر فى ماقال آل كاشف الغطاء فى « أصل الشيعة وأصولها ».هذا هو مصحف فاطمة أو مصحفاها .

جامعة على وما فيها من العلوم والمعارف

وأما الجامعة فهى كتاب من كتب على بن أبى طالب ، على مايقولون ، املاه رسول الله وكتبه على بيده ، طوله سبعون ذراعا ، وهو من الجلد ، يزعمون أن فيه كل شئ من الاحكام والحلال والحرام ومن الأحداث والحوادث . وفيه كل قضية وفيه مالا يحتاجون معه إلى غيره وغيرهم ، والناس يحتاجون اليه و إليهم. عن أبى مريم قال قال أبو جعفر : عندنا الجامعة وهى سبعون ذراعا ، فيها كل شئ حتى أرش الخدشة ، أملاه رسول الله وخطه على بن أبى طالب . وعن أبى عبد الله الصادق أنه سئل عن الجامعة : فقال تلك صحيفة طولها سبعون ذراعا

فيها كل مايحتاج الناس اليه ، وليس من قضية الا و هى فيها حتى أرش الخدش . وعن أبى بصير عن أبى عبد الله قال : ان عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة ؟ هى صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ، فيها كل حلال وحرام وكل شئ يحتاج الناس اليه حتى الأرش فى الخدش . وفى البصائر بعدة أسانيدعن الصادق: ولـكن عندنا الجامعة فيها الحلال والحرام . وعنـه أيضا وعندنا الجامعة كتاب طوله سبعون ذراعاً ، أملاه رسول الله وخطه على بن أبى طالب فيه والله جميع مايحتاج اليه الناس إلى يوم القيامة حتى إن فيه أرش الخـدش والجلدة ونصف الجلدة . وعن الباقر قال فى كتاب على كل مايحتاج اليه حتى أرش الخدش. وعن الصادق قال اما والله إن عندنا مالا نحتاج إلى أحد والناس يحتاجون الينا ، أن عندنا لـكتابا املاه رسول الله و كتبه على بن أبى طالب ، على صحيفة فيها كل حـلال وحرام . وعن الفضيل قال قال الباقر : عندنا كتاب على سبعون ذراعاً ، ما على الأرض شئ يحتاج اليه إلا وهو فيـه حتى أرش الخدش . وعن محمد بن مسلم عن الباقر قال : إن عندنا صحيفة من كتب على فنحن نتبع مافيها لا نعدوها ، وقال إن علياً كتب العلم كله : القضاء والفرائض والحديث . وعن الصادق قال : أما والله ان عندنا مالا نحتاج معه الى الناس و إن الناس ليحتاجون إلينا .

ذكر هذه الروايات كلها الشيخ محسن الأمين العاملى فى كتاب « أعيان الشيعة » صفحة ١٦٦ ـ ١٧٣ من الجزء الأول . وقد ذكر روايات أخرى كثيرة فى هذا المعنى . كلها تنص على وجود هذه الجامعة عند على ، وتنص على أنها من إملاء رسول الله وكتابة على ، وعلى أن فيها كل شئ وكل الحـلال والحرام ، وكل العـلوم على اختـلافها واختلاف أصنافها ، وتنص على أنها تغنى عن كل شئ وأنها لا يغنى عنها شئ وأنهـم لايحتاجون معها الى شئ . فهى تغنى عن القرآن وعن السـنة وعن كل مامع المسلمين من نصوص وعلوم وقرآن وحديث ، لأنهم

يذكرون أن فيها أصغر المسائل وأكبرها وبيان مايحتاج اليه البشر إلى قيام الساعة من العلوم والمعارف . وإذا كان ذلك كذلك فما حاجتهم إلى القرآن وإلى الحديث وإلى مامع المسلمين من ذلك . ولهذا تجد القوم لايبالون بالقرآن ولا بقراءته أو حفظه ، ويقل جدا أن يقتنوا المصاحف أو يعنوا بطبعها ، لأنهم فى غنى عن ذلك : تغنيهم الجامعة ويغنيهم مصحف فاطمة ، ثم يغنيهم الجفر ، فما حاجتهم إلى كتاب الله ! ومن نظر فى كتب القوم علم أنهم لايرفعون بكتاب الله رأسا . وذلك أنه يقل جدا أن يستشهدوا بآية من القرآن فتأتى صحيحة غير ملحونة مغلوطة . ولا يصيب منهم فى إيراد الآيات الا المخالطون لاهل السنة العائشون بين أظهرهم . على أن إصابة هؤلاء لابد أن تكون مصابة . أما البعيدون منهم عن أهل السنة فلا يكاد أحد منهم يورد آية فتسلم من التحريف والغلط . وقد قال من طافوا فى بلادهم : إنه لايوجد فيهم من يحفظون القرآن . وقالوا إنه يندر جداً أن توجد بينهم المصاحف . وقد قالوا فى الرواية المتقدمة : « إننا لانعدو العمل بما فى الجامعة » وقالوا : إننا لا نحتاج إلى أحد ومعنا الجامعة . ومرادهم أنهم لايحتاجون إلى مافى أيدى الناس من قرآن وحديث وسنة . وقد سموها الجامعة ويعنون أنها قد جمعت كل شئ . ومن عندهم علم كل شئ عن الله وعن رسوله كيف يحتاجون إلى القرآن أو إلى الحديث ؟ وإنما يحتاج اليهما الظمآن إلى المعرفة وإلى ورود الحقيقة ، أما من خصه الله بعلم كل شئ فلن يحتاج إلى شئ من العلوم والتعليم . هذه هى الجامعة أو الكتاب الذى يسمونه الجامعة ، وهذا هو رأيهم وقولهم فيها .

الكلام على الجفر ومعناه

وأما الجفر فقد قالوا : إنه أحد مؤلفات على بن أبى طالب . وقد زعموا أيضا أن فى الجفر كل شئ وكل العلوم حلالها وحرامها ، أحداثها وحوادثها . ما كان وما سيكون فى غابر الزمان وحاضره وآتيه . قال المحقق الشريف : « الجفر والجامعة

كتابان من كتب على ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث إلى انقراض العالم. وكان الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونهما ويحكمون بهما » . وعن أبى مريم قال قال أبو جعفر الباقر : وعندنا الجفر وهو أديم عكاظى قد كتب فيه حتى امتلأت أكارعه فيه ما كان وما هو كائن إلى قيام الساعة . وقال الصادق : هو جلد ثور مدبوغ كالجراب فيه علم مايحتاج اليه الناس إلى يوم القيامة من حلال وحرام . وقال : إنما هو جلد شاة ليست بالصغيرة ولا بالكبيرة ، فيها خط على و إملاء رسول الله ، مامن شىء يحتاج اليه إلا وهو فيه حتى أرش الخدش وفى رواية أخرى قال : فيه كل ما يحتاج اليه حتى أرش الخدش والظفر ، و فى رواية أخرى عنه قال : عندى الجفر الأبيض ، قلنا وأى شىء فيه ؟ قال زبور داود ، وتوراة موسى ، و إنجيل عيسى ، وصحف إبراهيم والحلال والحرام ومصحف فاطمة . وفيه مايحتاج اليه الناس الينا ولانحتاج إلى أحد ، حتى إن فيه الجلدة بالجلدة ونصف الجلدة وثلث الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش . قال وعندى الجفر الأحمر ، قلنا : وأى شىء فى الجفر الأحمر ؟ قال السلاح ، وذلك أنه يفتح للدم ، يفتحه صاحب السيف للقتل . وهذه الرواية نص فى أن عندهم فى مايدعون جفرين أبيض وأحمر ، أحدهما للعلوم كلها وللكتب كلها ، والآخر للدم والقتال والسلاح . ونعوذ بوجه الله من الجفرين : الأبيض والأحمر . و فى رواية أخرى عنه : وفيه علم الانبياء والاوصياء .

لدى القوم جفران

ذكر هذه الروايات وكثيرا غيرها الشيخ محسن الأمين العاملى فى كتاب « أعيان الشيعة » صفحة ١٧٣ ـ ١٨٤ من الجزء الأول . وقد قال بعد ذكره الروايات : « والظاهر من الاخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال وحرام وقضايا وأصول ما يحتاج اليه الناس فى أحكام دينهم وما يصلحهم فى دنياهم » قال وما أحسن ما قال المعرى :

لقد عجبوا لآل البيت لما * أروهم علمهم فى جلد جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى * أرته كل عامرة وقفر

اشتمال الجفر على جميع العلوم وعلى علم الله

فالجفر عند القوم جلد فيه جميع العلوم النبوية وفيه علوم الانبياء كلهم وعلوم الأوصياء كلهم وفيه الكتب المقدسة وفيه جميع الحلال والحرام ، وفيه باختصار وايجاز علم الله كله . لأنهم يزعمون أن فيه ما كان وما يكون . وهذا يعنى كل العلوم . ففيه علم الله كما هو . وهذه المزاعم تنحط عن أن تناقش مناقشة علمية أو أن توضع تحت امتحان البرهان أو فى كفة الحجج ، وإنما هى مزاعم أشنع سب لها ورد عليها أن تقدم للقراء وأن تساق اليهم على علاتها وبألفاظها ، وهكذا نصنع نحن بها .

والذى لا يمكن أن يعقله أحد مهما تخرق عقله زعمهم أن جلد شاة يمكنه أن يحوى جميع العلوم والمعارف على اختلافها وكثرتها بالتفصيل حتى يذكر فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة وثلثها وربعها ، وهذا يكنى عن غاية التفصيل وغاية البيان . وما مثل هذا إلا أن يقول قائل : إن الخلائق كلها من سموات وأرضين وشموس وأقمار ونجوم وكواكب وأفلاك وكل شئ موضوعة كلها فى جلد نملة أو جلد ذرة ! ومن يعقل هذا أو يصدقه سوى الشيعة الامامية الاثنا عشرية أهل العقول والمعارف ؟ !

والذى نريد أن نقوله للقوم هو : أين عزب هذا الجفر عن المسلمين ، وأين عزبت الجامعة ، وأين عزب مصحف فاطمة أيضا ، وأين عزبت مؤلفات على التى تدعون وتذكرون ؟ أين عزبت هذه عن المسلمين جميعا ولماذا لم يظهرها رسول الله ، ولماذا خص بها عليا وبنيه دون سائر الصحابة وسائر المسلمين ؟ أفما كان واجبا عليه البيان والبلاغ والتسوية بين الناس كافة فى أداء رسالة ربه التى بعثه بها ليكون بشيرا ونذيرا للخلق أجمع ؟ وليبلغ القاصى والدانى ، وإلا فما بلغ

رسالة ربه ولا بين البيان المفروض عليه وعلى كل رسول مثله ؟ ثم لماذا لم يظهر هذه الكتب على بن أبى طالب كما أظهر القرآن فى ماتدعون ، ولماذا تركها مكتومة خاصة به وبأولاده وذريته ، وهل يفعل ذلك إمام معصوم مثل على ، بل لماذا لم يظهرها سائر الأئمة المعصومين الوارثين لها ، ولماذا أجازوا لأنفسهم أن أن يحتازوها دون سائر المسلمين ، وأن يبخلوا بها على العالمين ، وهل يفعل هذا من يؤمن بالله وباليوم الآخر ؟؟ أجيبوا يامن يزعمون أنهم مسلمون ، وأنهم موالون لآل البيت محبون لهم قائمون بما يجب لهم من الموالاة والحب والتكريم دون أهل الاسلام قاطبة .

أيليق بالنبى وبعلى وبالأئمة المعصومين أن يكتموا هذه الكتب وأن يبالغوا فى كتمانها والاستئثار بها حتى يدركها الضياع والفناء ؟ أجيبوا أيها المسلمون . بل ولماذا ضاعت هذه الكتب من بيننا ومن بينكم كلها ولم يضع كتاب الله مع أن كتاب الله إذا صدق ما زعمتم ليس إلا نقطة من بحار بالنسبة إلى تلك الكتب الضائعة . وذلك أن مصحف فاطمة فيه مثل القرآن بضع مرات والجامعة فيها كل شئ بالتفصيل ، والجفر فيه جميع العلوم والكتب والاحداث والحوادث بالتفصيل الدقيق البالغ حتى الجلدة ونصفها وثلثها وربعها وأرش الخدش والظفر وليس كذلك القرآن بالاجماع ، بل هو فى بيان الحلال والحرام محتاج إلى السنة ، لايقوم بنفسه فى بيانها وبيان الحلال والحرام وسائر شرائع الهدى ، فضلا عن أن يدعى أن فيه كل شئ تفصيلا . فهذه الكتب إذن أولى بالمحافظة عليها وأولى بالرعاية والصيانة من القرآن ومن كل شئ إذا صدقتم فى مازعمتم . فلماذا ضاعت كلها ولم يضع القرآن ، بل ولم يضع منه حرف واحد والحمد لله على ذلك ؟؟

مؤلفات على بن أبى طالب

ومن البلاء ذكر عامر من أصنافه أنهم عددوا لعلى بن أبى طالب فى كتاب « أعيان الشيعة » من المؤلفات أحد عشر : أولها جمع القرآن وتأويله ، ثانيهما

كتاب أملى فيه ستين نوعا من أنواع العلوم ، ثالثها الجامعة ، رابعها الجفر ، خامسها صحيفة الفرائض ، سادسها كتاب فى زكاة الانعام ، سابعها كتاب فى أبواب الفقه ثامنها كتاب فى الفقه ، تاسعها كتاب عهده للاشتر ، عاشرها وصاته لمحمد ابن الحنفية ، الحادى عشر كتاب عجائب أحكامه . وقد ذكروها فى الكتاب المذكور صفحة ١٥٤ — ١٨٧ بعنوان مؤلفات أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد زعموا أن الأئمة من ولده كانوا يتوارثون هذه المؤلفات العلوية وكانت عندهم . فاين هى اليوم وأين ذهبت ؟

والحاصل أن دعاويهم هذه هى التى أفسدت عليهم الأمر وصرفتهم عن كتاب الله وعن سنة رسوله . لأنهم إذا زعموا أن لديهم من الكتب كالجامعة ومصحف فاطمة والجفر مافيه كل شئ من أمور الدنيا وأمور الدين على وجه التفصيل الدقيق والبيان التام فما حاجتهم إلى مامع المسلمين من القرآن والحديث والسنة ! وعلى هذا فما أخلقهم بالانصراف عن كتاب الله وعن السنة وعن كل علم وهدى .

مآتم عاشوراء

﴿ مواكب البكاء والعويل واللطم واللدم هى الدين عند الشيعة ﴾

سئل حجة الشيعة الامامية الاثنا عشرية فى هذا العصر الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء : « عن المواكب المشجية التى تقيمها الشيعة فى يوم عاشوراء تمثيلا لفاجعة الحسين ، وعما يصحب تلك المواكب من ندب ونداء ، وعويل وبكاء ، وضرب بالاكف على الصدور وبالسلاسل على الظهور : هل هذه الاعمال مباحة فى الشرع » فأجاب ، قال : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى » . ولاريب ان تلك المواكب المحزنة من أعظم شعائر الفرقة الجعفرية : وما أحسب التعرض للسؤال عن تلك الأعمال

التى استمرت عليها منذ مئات الأعوام ، وذلك بمشاهدة أعاظم العلماء مع عدم النكير مع انها بمرأى ومسمع منهم : ما أحسب وضعها فى مجال السؤال والتشكيك إلا دسيسة أموية ، أو نزعة وهابية ، يريدون أن يتوصلوا بذلك إلى اطفاء ذلك النور الذى أبى الله إلا أن يتمه ولو كره الكافرون . كما أنى لا أرتاب فى أنه لو تمت لهم هذه الحيلة وعطلت تلك المواكب سرى الداء واستفحل الخطب وجعلوا ذلك باباً إلى إماتة تلك المحافل التى باحيائها احياء الدين و بإماتتها إماتة ذكرى الأئمة الطاهرين (إلى أن قال) والرجاء ترك الخوض فى هذه الامور المتسالم عليها خلفا عن سلف والتى هى من أعظم الوسائل إلى نيل الشفاعة والدخول فى سفينة النجاة وأبواب الرحمة (الى أن قال) فلا إشكال فى أن اللطم على الصدور وضرب السلاسل على الظهور وخروج الجماعات فى الطرقات بالمشاعل والأعلام مباحة مشروعة ، بل راجحة مستحبة وهى وسيلة من الوسائل الحسينية و باب من أبواب سفينة النجاة . وأما الضرب بالسلاسل والخناجر والادماء فهو كسوابقه مباح بمقتضى أصل الإباحة بل راجح بقصد اعلان الشعار للاحزان الحسينية (إلى أن قال) وأما الشبيه فلا ريب فى أن أصل تشبيه شخص بآخر مباح جائز وقد ألقى الله شبه عيسى عليه السلام على أبغض خلقه وهو يهوذا الاسخر يوطى (إلى أن قال) بل فى ذلك (والاشارة إلى المواكب) من الحكم والاسرار السامية المقدسة ما يقصر عنه اللسان و يضيق به البيان . . . »

وجاء فى هذا الجواب أيضا قوله : « سألتم عن المواكب الحسينية زاد الله شرفها وعما يجرى فيها من ضرب الرؤوس والصدور بالسلاسل والسيوف والادماء وقرع الطوس والطبول والشبيه والخروج فى الشوارع بالهيئات المتعارفة ، ولعمرى ما كنت أحسب أن هذا الموضوع يعرض على النقد والتشكيك » .

ثم فصل الجواب وكان حاصله أنه لاشك أن أهل البيت قد لطموا خدودهم

ولدّموا صدورهم على الحسين ، ولا شك فى أنه يشرع التأسى بهـم . . . هذا فى بيان حسن اللطم واللدم . وأما خروج المواكب والزمات فقال فى بيان استحبابه أو بيان وجوبه : « ولولا خروج المواكب فى الطرقات لبطلت الغاية وفقدت الثمرة وانتفى الغرض من التذكار الحسينى بل ومن الشهادة الحسينية » هـذا هو لفظ الجواب . ولا ريب أنه إذا لزم ترك المواكب بطلان الغرض من استشهاد الحسين وشهادته كان القيام بها من أعظم الواجبات الدينية .

وقال عن ضرب الرءوس والظهور بالسيوف والسلاسل : « لاريب أن جرح الأنسان نفسه وإخراج دمه بيده فى حد ذاته من المباحات الأصلية ، ولـكنه قد يجب تارة وقد يحرم أخرى . وحسبك قصد مواساة الحسين وآل بيته واظهار التفجع عليهم وتمثيل شبح من حالتهم أمام عيون محبيهم . ناهيك بهذه الغايات والمقاصـد جهات محسنة وغايات شريفة ترتقى بتلك الأعمال إلى أعـلى مراتب الـكمال » . قال . « أما ترتب الضرر أحياناً بنزف الدم المؤدى إلى الموت أو إلى المرض المقتضى لتحريمه فذاك كلام لاينبغى صدوره من ذى لب . أما أولا فاننا مارأينا أحدا مات أو تضرر من تلك المحاشد الدموية . وأما ثانيا فعـلى فرض حصول تلك الأمور فانما هى عوارض وقتيـة .. » ثم تـكلم على ضرب الطبول ونفخ الأبواق وقرع الطوس فامتـدحها كلها . وكذا امتـدح إقامة « الشبيه » و « التمثيل » ثم قال : « ولعمر الله إن تعطيـل تلك المظاهرات لايلبث رويدا حتى يعود ذريعة إلى سد أبواب المآتم الحسينية ، وعندها لايبقى للشيعة أثر ولا عين ، ولتذهبن الشيعة ذهاب أمس الدابر . فان الجامعة الوحيدة والرابطة الوثيقة لهـا هى المنابر الحسينية . وما تلك المنابث والوساوس ، إلا من جراء هاتيك الدسائس ـ نزعة أموية ، ونزغة وهابية ، يريدون إحياء بنى أمية ، وإزهاق الحقيقة المحمدية ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون . . » إلى آخر جوابه.

هذه الفتوى نقلناها كلها من كتاب ألفه هذا الشيخ اسمه « الآيات البينات في قمع البدع والضلالات » طبع النجف فى المطبعة العلوية سنة ١٣٤٥ من الهجرة.

فعند القوم أن هـذه المواكب المخجلة الفاضحة التى يزعمون أن فيها تأسيا بالحسين وآله ومواساة له ولهم : يزعمون أن هـذه المواكب من شعائر الدين وأن تعظيمها من تقوى القلوب ، وأن فيها منافع لهم وللاسلام ، وأنها من أعظم شعائر الشيعة الامامية . وأن السؤال عنها ومحاولة التشكيك فيها من دسائس الوهابيين والأمويين ـ يشيرون بهذا إلى الكفر والشرك ، ويزعمون أن هـذه المواكب بصراخها وعويلها ومافيها من لطم ولدم ومنكرات ـ يزعمون أنها هى قوام الدين وحياته ويزعمون أن فى إحيائها احياءه وإن فى اماتتها اماتة الأئمة الطاهرين وإماتة ذكراهم . ولا شك أن هذا كفر صراح عندهم بل هو عندهم من شر أنواع الكفر . ويزعمون أن هذه المواكب من أعظم الوسائل إلى نيل الشفاعة وإلى النجاة من النار ، ويزعمون أن تمثل أشخاص بأنهم عداة الحسين وقاتلوه داخل فى هـذه الفضائل المزعومة المكذوبة . ويزعمون أن فى ذلك كله أسراراً وحكما سامية مقدسة يعجز عن بيانها اللسان والبيان . ويزعمون أن إقامة هـذه المآتم أو المآتم قيام بفرض الاستشهاد الحسينى ومحافظة على حكمة شهادته ، ويزعمون أن إبطال المآتم إبطال لشهادته ولحكمتها وغرضه منها : يزعمون هذا كله ويزعمون غيره مما ذكروه فى هذا الكتاب وفى غيره ومما يفعلونه فى أيام عاشوراء ..

سبة الانسانية

ولا ريب أن هذه المزاعم من أشنع المخازى الانسانية التى عرفها التاريخ فى كل أطواره وعصوره ، والتى وقع عليها بصر الوجود قديمه وحديثه ، وأنها عار وشنار يلحقان فصيلة الانسان أين كانت ومتى كانت ويلقيان بأنف كبريائها تحت الرغام !

أى شئ هذه المواكب والمآتم والمآتم ؟ وأى عقل أو دين يجيزها أو يرضاها ؟

ومتى أجاز الدين أو أجازت العقول أن يكون الناس العقلاء مثل النساء النوادب المعولات فى الطرقات : يضربن الصدور والخدود ، ويشققن الجيوب وينتفن الشعور ، وينادين بالويل والثبور ؟ أى شئ هذا وأى عقل أو دين يجيزه ؟

ذاك كله خزى بين ولكن أشد هذا الخزى زعمهم أن إقامته والقيام به من أعظم مظاهر الدين وأعلى مراتب الكمال وزعمهم أن فى إحيائه أحياء الدين وفى إماتته إماتته ، ثم زعمهم أن ذلك كله من أعظم شعائر الشيعة !! برأ الله خير الأديان من هذا الخزى .

هم يدعون أن هذه المآتم مظاهرات ، نعم ، مظاهرات ، ولكن يراد بها التظاهر على من ؟ إن كانوا يتظاهرون بها على يزيد وقاتلى الحسين فما أجهل من يتظاهرون على الأموات ! وإن كانوا يتظاهرون بها على المسلمين من أهل السنة فأهل السنة ينقمون من قاتلى الحسين أشد النقمة ويحملونهم تبعة ذلك ووزره . فما وجه التظاهر عليهم إذن وهم ينكرون قتل الحسين ويكرهون قاتليه ؟ فعلى من التظاهر إذن ؟

ثم هم يزعمون أيضا أن البكاء والعويل وضرب الخدود والصدور وسائر الجسم بالسيوف وبالخناجر والسلاسل والآلات الحادة وإن أفضى إلى الموت من دين الله ومما يرضى الله ويرضى النبى والحسين وآله . ونحن نقول لهم : إذا كان هذا كله من الدين وكان فيه مواساة للحسين وتأس به فما تقولون فى قتل المرء نفسه لهذا الغرض نفسه : تأسيا بالحسين ومواساة له وجزعاً عليه وعلى مانال من السوء والظلم والبلوى ؟ إن قلتم إن هذا جائز ودين مشروع قلنا ياليتكم صدقتم وفعلتم ، وإن قلتم : غير جائز وغير مشروع قلنا لكم : وكيف جاز جرح المرء نفسه بالسيف وبالحديد وإدماء جسمه ثم امتنع قتله نفسه والعلة فى الأمرين واحدة ؟ فان قلتم إن فى القتل إزهاقا وفناء وأما الضرب والجرح فليس فيهما شى من ذلك قلنا نعم ،

ولكن القتل أدل على المواساة وعلى التأسى وعلى قوة الجزع وغزارته من الضرب بلا قتل وأنتم تزعمون أن الحسين قتل نفسه تعمدا وتزعمون أن إظهار أقصى غايات الجزع عليه مطلوب مشروع مثاب عليه ، وأقصى غاياته هو القتل والفناء . و إذا كان من الجزع المشروع على الحسين ضرب الجسم والبدن بالسيف وبالحديد القاطع كان من الجزع المشروع عليه بلا شك قتل النفس . فانه إذا دل الضرب على الوفاء والجزع والتأسى كان القتل أدل على ذلك . ولا يوجد دليل واحد يدل على جواز ضرب الجسم والنفس بالحديد وبالسيوف والخناجر والسلاسل إلا ويدل على جواز قتل النفس وإزهاق الروح . . . وذلك أن القوم إذا سئلوا : ماالدليل على جواز ضربكم أجسامكم بالآلات الحادة القاتلة قالوا : الدليل أن هذا الفعل يدل على التأسى بالحسين والمواساة له والجزع عليه وهذه الأمور مطلوبة مثاب عليها وحينئذ يقال لهم قولوا إذن إن القتل جائز مشروع مثاب عليه لأنه أدل على هذه الأمور التى زعمتموها مطلوبة مشروعة . وهذا أظهر وأولى من ذلك لوجوه كثيرة مفهومة . فاذا قالوا: إن الله قد نهى عن قتل النفس وعن قتل المرء نفسه قلنا وكذلكم نهى عن الجزع والحزن وإيذاء النفس أو الجسم عند المصيبة وأمر بالصبر والتسليم له ولارادته وحكمه ورغب المصاب فى أن يقول عند مصيبته : إنا لله و إنا إليه راجعون . وقد قال تعالى: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون » وقال فى جزائهم : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » . وقد نهى نبيه وعباده المؤمنين كثيرا عن الحزن والجزع وحثهم على الاستمساك بعرا الصبر والاحتساب والتسليم لقضائه وقدره وقدرته . وهذا لايحصى فى كتاب الله . وقد قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا » الآية . وهذا باب

لايحاط به ولا يحتاج إلى بيانه لأنه معروف مشهور . أما الاحاديث فلا نذكرها للقوم فى هذه المسألة لأنهم يفاخرون بردها وتكذيبها .

والجزع لايمدح أبداً ولايؤمر به أبدا ، وكذا الحزن . والذى يجوز من ذلك لايجوز إلا لأنه اضطرارى قهرى خارج عن طاقة البشر ، ولكن لايؤمر بشىء منه ولايمتدح شىء منه أو يثاب عليه . أما القتل فقد قال الله فيه : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » الآية ، وقال « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم » الآية ، وقال : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم » الآية .

والقتل والقتال بالجملة مطلوبان ، أما الجزع والحزن فمكروهان منكران أبدا ، ولايجوز منهما إلا ماغلب عليه المرء . فمن جزع وحزن قسرا عذر لان ذلك فوق الطاقة والله لايكلف عبده فوق طاقته وصبره ولكن لايؤمر المرء بشىء من هذا . فما يستدلون به من ذلك على مايذهبون إليه لايدل على شىء من أمرهم ، فانه إذا فرض أن بعض علماء آل البيت بكى على الحسين وتوجع عليه أوحزن و أسف لم يدل هذا على أن شيئاً من هذه الانفعالات مطلوب مأمور به ، و إنما يدل على أن المؤمن القوى الصابر قد يجزع وقد يبكى ، فيكون معذوراً غير ملوم .

فلا ريب إذن أنه إذا جاز ضرب الجسم بالحديد و بالسيف ونحوه جزعا على شهيد كربلاء ومواساة له وتأسيا به جاز قتل المرء نفسه لهذه الأغراض نفسها ، فما يقولون ؟ ولا يدرى كيف تشرع هذه المآتم والمواكب بكاء على قتيل كربلاء ولاتشرع على سواه ! وقد قتل قبله الأنبياء ، وقتل الأولياء وقتل أصحاب الحسين وقتل أولاده المعصومون وقتل أخوه الحسن : قتل هؤلاء جميعا اغتيالا بالسم على ماتزعم الشيعة ، وقتل على بن أبى طالب وقتل حمزة ، وقتل من هم أفضل من

الحسين من أنبياء الله و رسـله ، فلماذا لايقيمون شيئاً من المآتم على أحـد من هؤلاء ولماذا خصوا الحسين بها ؟ بل قـد مات رسول الله عليه الصـلاة والسلام وموته أشد المصائب ولا شك عـلى المسلمين ، فلما ذالا يقيمون موا كب الجزع والحزن والبكاء عليه وعلى افتقاده . وهذا إن شرع على المقتول شرع على الميت فمن كان فقده رزءاً عظيما حزن عليـه الناس سواء أكان فقـده بالموت أم بالقتل ومن لافلا ، وآلة الموت لادخل لها فى جواز الجزع ولا فى منعه . فلا يحسن الجزع على مفقود لأنه فقد بالقتل ، ولا يقبح على آخر لأنه فقد بالموت . وهـذا واضح جلى ، فماجوابهم ؟ فانهم إذا جزعوا على الحسين ولم يجزعوا عـلى النبى ﷺ ولا على غيره من الأنبياء وأبطال الملة دل ذلك على أن جزعهم لم يكن على الحسين ولم يكن تأسيا به ولا مواساة له و إنما هو الجهـل والعناد والثورة على سـلاطين المسلمين وخلفائهم ومحاولة إضرام الفتن و إيقاظ النائم منها ، ولو لم يكن هـذا هو مايريدون و يعنون لما خصوا قتيل كربلاء بذلك دون العالمين جميعا . والدليل على أن هذا هو غرضهم ومايرمون إليه أنهم يسمون هذه المواكب مظاهرات كما تقدم والمظاهرات ظاهر مايعنى بها ومايراد منها . والدليل أيضا زعمهـم الآنف : أن ترك هذه المآتم تضييع لغرض استشهاد الحسين ولما أراده من وراء تقديمه نفسه ضحية . وقد ذكروا أن لهذه المواكب أسرارا وحكما سامية مقدسة يعجز عن بيانها اللسان والبيان . وماهـذه الأسرار والحـكم المزعومة سوى محاولة الثورة والفتن المحرقة وتغيير النفوس على أوائل المسلمين وعلى خلفائهم وملوكهم وسلاطينهم .

وكل هذا قـد يهون ولـكن الذى لايهون أبدا هو زعمهـم أن العويل فى الطرقات وضرب الخـدود والصدور بالحديد والآلات الجارحـة ونتف الشعور والمناداة بالويل والثبور ــ من أعظم شعائر الايمان وشعائر الاسـلام ومن أعظم ماتنال به الشفاعة ، يركب به فى سفينة النجاة ! وكيف يزعم مسلم أن شيئاً من هذا

فيه إعلاء للدين و إحياء له وأن فى تركه إماتته و إماتة الأئمة المعصومين الطاهرين ؟
وكيف يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر : إن إقامة إنسان لضربه وللتمثيل به
ولسبه ومحاولة الهجوم عليه على توهم أنه هو قاتل الحسين : كيف يدعى من يؤمن
بالله و باليوم الآخر أن ذلك من العقل أو من الدين فضلا عن أن يقال إنه من
أعلى مراتب الكمال وشعائر الدين ومشاعره ؟ هذه هى الفاضحة ، وهذه هى سبة
الانسانية أين ذهبت ووجدت .

ولقد كنا نظن أن هذه المواكب من أعمال جهال القوم ودهمائهم وحدهم
لا يرجعون فيها إلى رأى عالم منهم ولا مشورة مثقف من رجالهم ، وما كنا نحسب
أن علماءهم بل كبار علمائهم وفضلائهم يفتون بجواز شئ منها ، والآن علمنا أن
علماءهم وجهالهم سواء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

هذه شذرات من خطايا القوم أثبتناها على عجل ننتقل منها إلى موضوع
الكتاب ونقض ما فى « كشف الارتياب » .

لا بد من الغيرة لاصحاب النبى.

وقبل ترك هذه المقدمة أقول : ليتحطم هذا القلم ولتتناثر هذه الأنامل ،
وليودع رسيس هذه الحشاشة ، ولينطفئ هذا الشعاع إن لم أشف صدور المؤمنين
من هؤلاء الذين مازالوا يشفون صدر الشيطان وصدر الباطل والاثم من صحابة
النبى ومن خلفاء الأمة ومن أركان الملة وأبطال الاسلام ومجاهديه وفاتحيه . ولن
نحفل بمن لا يرضيهم هذا الصنيع ومن لا يعجبهم هذا السبيل ، فانه إذا حق
للناس أن يغاروا على مبادئهم الحزبية ، وأن يتقاتلوا حفاظا على رجالها أو من
زعموا من رجالها ، فما أخلق المسلم بأن يغار على أمثال الصديق والفاروق وخالد
وعمرو وأبى عبيدة وسائر أولئك الأبطال الذين علقوا الاسلام وفتوحه بقرص
الشمس مشرقة ومغربة . و إذا كان الناس اليوم يحطم بعضهم بعضا ، فيحطم
الأخ أخاه فى بلاد قيل فى وصفها : إنها مطلع النور ومصنع الحريات والعرفان —

غيرة على تلك الأحزاب المبسوطة على العدوان والظلم ، السائمة فى حقول الشهوات واللذاذات المحرمة ، فكيف لا يحق المسلم الصادق أن يدفع عن المسلمين وعن أبطال الاسلام ومفاخر الانسانية دفاعا موقوفاً على القلم والكلام !

لا يمكن تأليف الشيعة ولا يجدى لو أمكن

ولا يفكرن أحد فى الوحدة وفى التأليف بين المسلمين و بين هذه الجماعة ، فان مذاهبها ومبادئها لا تمكنها أبدا من الرضا عن المسلمين ومن الاقتراب اليهم و إلى ودهم و ولايتهم . و إذا كانت هذه القرون الطويلة التى مرت بهم لم تستطع أن تأكل من صدورهم ومن كتبهم العداوات التى يحملونها لأبى بكر وعمر وعثمان والآخرين ـ بل ظلت فى صدورهم وفى كتبهم حتى اليوم تزداد ذكاء واتقادا وتوهجا ـ فكيف نرجو نحن منهم محبة أو ولاية أو صداقة ؟ ! ثم ما الذى نرجوه من الاتحاد بهم والاقتراب اليهم ؟ إنهم لن ينفعونا شيئاً ، ولن يزيدونا إلا ضعفا وهونا وهوانا وخبالا !

انريد منهم أن يجاهدوا معنا أعداءنا وأعداء الاسلام ، وهم يقولون إن الجهاد باطل موضوع لا يجوز إلا تحت راية الامام المنتظر ، وهم يقولون أيضا : إن الذين فتحوا بلاد الكفر والشرك من المسلمين آثمون عاصون لانهم تحت إمرة غير معصوم أمثال عمرو وخالد وأبى عبيدة وأسامة ؟ بل أنريد منهم أن يجاهدوا معنا أعداءنا وهم يقولون إننا أحق بجهادهم من الكفار والمشركين كما تقدم ؟ إذن أنى نرجو شيئاً منهم ؟ أم نريد منهم العلوم والمعارف وقد وضعنا أمام القارئ نماذج من علومهم ومعارفهم ؟ أم نريد منهم القوة وهم مازالوا الضعف فى الاسلام والوهن فى صفوف المسلمين ؟ أم نريد منهم كثرة العدد ، وماذا نفعل بكثرة العدد ؟ والمسلمون لم يؤتوا من قلة العدد . إنه الغثاء والوباء والبلاء . ومسلم واحد مثل خالد بن الوليد خير للاسلام من الشيعة فى جميع عصورها . أم نريد منهم

أن يقيموا فى بلادنا تلك المواكب المحزنة فى أيام عاشوراء وتلك المآتم التى تقدم القول فيها ، فيصبحوا فينا نوادب متنقلة ، تصيح وتعول وتلطم وتلدم وتسب فى الطرقات . . . كأنهم نسوة فى زار ، أو عار فى نار ؟ أنحاول إرضاءهم كى يمثلوا هـذه الفضائح بين أعيننا وعلى مسامعنا فيربو فى الرجال معانى النساء الضعاف الجزعات التى لاسـلاح لهن إزاء المصائب سوى العويل وشق الجيوب ونتف الشعور واللطم واللدم والصراخ المفزع الرنان ؟

سائلوا التاريخ

أم ماذا نريد منهم وقـد كانوا أبدا حربا عـلى المسلمين ، وعونا لأعـداء المسلمين ، المريدين بهـم الفواقر ؟ سائلوا التاريخ قولوا له : فى أى عصر من عصورك كتبت فى صفحاتك لهذه الطائفة جهادا أو نصرا للاسلام أو دفاعا عنه بين صفوف المجاهدين من المسلمين ؟ بل قولوا له فى أى عصر من عصورك لم تـكتب على هـذه الطائفة انحيازها إلى غير المسلمين وانكفاءها شطر أخصام الاسلام فرارا من المسلمين ؟ قولوا للتاريخ وهو أصدق ناطق ومجيب : أما كانوا أعوانا وعيونا لطاغية التتار على المسلمين وعـلى خليفتهـم ، ثم أما حاولوا قتل البطل المجاهد السلطان صلاح الدين بينا هو يناجز عبـدة الصلبان ويحاربهـم ولـكن الله أنجاه منهم ومن عدوانهم ؟ وقد خصوا هذا البطل العظيم بمزيد العداوة وعنيف الخصومة . بل قولوا أى بطل من أبطال الاسلام وفاتحيه ومجاهـديه لم يكرهوه ويمقتوه ماخلا على بن أبى طالب ، وما ولاؤهم له بولاء ولـكنه البلاء ؟

إذن ماذا نريد منهم ومن الاقتراب اليهم وتألفهم لو كان ذلك ممكنا ميسورا ؟ إننا نريد مسلما واحدا سليما قويا ولا نريد ألف مريض هالك ، ونريد جيشا مؤلفا من ثلاثمائة بطل كأبطال بدر ولا نريد جيشا مؤلفا من أربعمائة مليون من أمثال هؤلاء المسلمين الذين يسبون أمثال أبى أيوب الأنصارى وخالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وغيرهم لغزوهم بلاد الكفار وفتحهم إياها تحت رايات وصفوها بالظلم

والعدوان . لانريد صورا ولا أسماء ولاعددا ولكن نريد رجالا و إيمانا وقوة وتفانيا في نصرة الحق وفناء في خدمة الاسلام .

وأخيرا نقول : ألا أسخن الله عين من يحرص على إرضاء أعـداء الصديق والفاروق وعثمان وخالد وعمرو والمغيرة وأبي أيوب وأبي عبيـدة وطارق وموسى ابن نصير وصلاح الدين

ولن نسالم مرءاً كان حربهم   حتى يعود بياضاً حالك القار

كتبه في يوم ٤ شهر صفر سنة ١٣٥٧

عبد الله على القصيمى

بالقاهرة

﴿اعتقاد الوهابيين في النبي عليه السلام وفي الانبياء والصالحين في قبورهم﴾

ثم قال الرافضي في كتابه « كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب ». تحت العنوان المذكور : « واعتقادهم في النبي عليه الصلاة والسلام أن الاستغاثة به وطلب الشفاعة منه والتوسل به إلى الله والتبرك بقبره والصلاة والدعاء وتعظيمه كل ذلك شرك وعبادة للأوثان والاصنام محلة للمال والدم . . . وأنه يحرم السفر لزيارته ويجب هدم ضريحه وتقبيله وأن ضريحه صنم من الأصنام ووثن من الأوثان بل هو الصنم الأكبر والوثن الأعظم ، وكذلك سائر الانبياء والصالحين. وفي خلاصة الكلام : كان محمد بن عبد الوهاب يقول عن النبي إنه طارش، وإن بعض أتباعه كان يقول عصاي هذه خير من محمد لأنه ينتفع بها في قتل الحية ونحوها ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع وإنما هو طارش ومضى ، وكان يقال ذلك بحضرته ويبلغه فيرضى ، وكان يقول وجدت في قصة الحديبية كذا وكذا كذبة . » انتهى كلام الرافضي .

والجواب أن يقال ماصدق الرافضي ولا أنصف حيث زعم أن هذا الذي ذكره هو اعتقاد الوهابيين في النبي وفي الانبياء وفي الصالحين . وقاتل الله الكذابين وقتل هذه الفرقة فما يوجد على الأرض أكذب منها ولا من يستحل الكذب والظلم والزور مثلها . . . واعتقاد الوهابيين في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه يجب على كل مسلم أن يعظمهم التعظيم المشروع كله أحياء وأمواتا وأن يحبهم الحب الصادق العاقل أكثر من حبه لنفسه ولأهله وللناس أجمعين ، وأن يعلم أنه لانجاة له في أخراه وفي أولاه أيضا إلا بطاعتهم واتباعهم والأخذ بهديهم واقتفاء آثارهم أحياء وأمواتا ، وأن يعلم أنهم هم وحدهم — دون البشر جميعا — وساطات البلاغ والبيان بين الله وبين عباده ، بين الأرض والسماء ، وأن يعلم أنهم هم دون غيرهم المعصومون الذين افترض الله على البشر أن يطيعوهم

وأن يصدقوهم فى كل ماقالوا وما أخبروا .وفى كل مانهوا وأمروا،وأنه لايجب على إنسان واحد فى هذه الأرض أن يدع هواه واختياره وأمره إلا لأمرهم واختيارهم وأنه يجب حفظ عهودهم فى آلهـم الصـالحين وأولى قرباهم كأزواجهم وذرياتهم وأصولهم وفروعهم المؤمنة الصالحة . ولهـذا فانهم يتبرءون من الرافضة القادحين فى أزواج النبى عليه السلام وفى طوائف من أقربيه وآله وذوى وده وحبه ورضاه الغالين فى فريق آخر حتى أحلوهم غير محلهم المقدور لهم اللائق بهم .

ثم من عقيدة الوهابيين فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم أحياء فى قبورهم حياة برزخية غيبية روحية ليست كهذه الحياة الدنيوية ، بل حياة لايعلم حقيقتها وكنهها سوى من يعلم الغيب والشهادة ، ومن يعلم كل شئ ، وأن كل مايجب لهم أحياء من الحب والاجلال والتعظيم والطاعة يجب لهم أمواتا ولا فرق .

وبالاجمال فعقيدة الوهابيين فى الأنبياء لاتعدو مافى الكتاب والسنة نفيا وإثباتا . وكذلك عقيدتهم فى الصالحين من الأحياء والأموات:يحبونهم ولكن لايعبدونهم ، ويعظمونهم ولـكن لايتجاوزون الحدود ، ويعرفون فضلهم ولـكن لايجحدون فضل من هم أفضل منهم لأجل تخصيصهم بذلك ، كما فعلت الرافضة عادت خيار الصحابة ، وخيار الأمة ، زاعمة أنها بهذه المعاداة المجرمة تحافظ على ولاء آل النبى وعـلى فضائلهم وحقوقهم بحيث لا تشرك بهم غـيرهم فى الايمان بالفضائل والـكمالات

هذا كله من عقيدة الوهابيين فى الأنبياء والصالحين ، فعقيدتهم فيهم أنهم بشر ولـكن اختارهم الله لرسالته المقدسـة ففرض على الخلق طاعتهم واتباعهم والنهج منهاجهم ، وبالتالى فرض حبهم وموالاتهم وتوقيرهم فى المحيـا وفى الممات جزاءما أسدوا من هداية وشكر ماقدموا من رسالة عقباها رضا الله وجزاؤه الأوفى لمن أطاعهم وامتثل ماجاؤا به من الشرائع والآداب والاخلاق الفاضلة . فعقيدتهم

قائمة على التفريق بين الخالق والمخلوق وبين العبد والرب . فالرسل، مهما جلوا وعظموا وقربوا من الله ومن مكان الحظوة لديه ،لا يخرج أحد منهم عن منطقة التخليق ولا يعدو بساط العبودية العامة . فأعظم رسل الله مع سائر الخلق تحت بساط العبودية سواء ، لا عابد ومعبود ، ولا رب ومربوب . بل الجميع عابدون الها واحدا وربا واحدا . بل لاشك أن أفضل خلق الله وأقربهم إليه من الرسل والانبياء والصالحين هم أكثر العباد خضوعاً لفروض العبودية ، عبودية الله .

فضل الأنبياء ليس فى مقدرتهم ولكن فى عبادتهم

وفضل النبي ليس فى قدرته ونفوذ سلطانه ، ولا فى مقدرته على النفع والضر : كلا ليس فضل النبي فى شئ من ذلك وإنما فضله فى مايجئ به من الهدى والنور والآداب التى فيها سعادة متبعيها فى دنياهم وأخراهم ثم فى إخلاصه العبادة لله ، وفى دعوته الناس إلى خالقهم وخالق كل شئ ليعبدوه وحده كما خلقهم وحده .

وقد يكون شر خلق الله من الكفار والمشركين أقدر على شؤون الدنيا وإعطاء مايسألون منها من خير الخلق كالانبياء والمرسلين والصالحين . وإذا لم يكن فضل الأنبياء فى قدرتهم المادية لم يكن فى سؤالهم والانقطاع اليهم رغبة ورهبة شئ من تعظيمهم ولا شئ من عرفان أقدارهم والقيام بحقوقهم. بل قد يكون فى هذا إحراجهم وإيذاؤهم والتحدى لهم ، ولم يكن فى الاعراض عن سؤالهم النفع والضر والحاجات وشؤون الدنيا شئ من التنقص لهم والانكار لحقهم . . .

ليس فى سؤال الانبياء شئ من التعظيم لهم والقيام بحقوقهم

وإذن فليس الطالب للانبياء السائل لهم هو المعظم القائم بما يجب لهم ، وليس الداعى لله الراغب فيه وحده متنقصالهم ولا جاحدا شيئاً من فضلهم وكمالاتهم يقيناً . وعلى هذا دل الدين جملة وتفصيلاً وقد قال الله تعالى لرسوله : «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم اله واحد» .

وهذه اعتقادات صحيحة لا غبار عليها ولا نصيب للباطل فيها ، ولكن الاعتقاد الباطل الموبق هو اعتقاد الشيعة فى النبي وفى سائر الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام ، وفى الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين . وذلك أنهم قد ذهبوا إلى أن الأنبياء ليسوا وحدهم المخصوصين بالعصمة من الخطأ والزلل ، وليسوا وحدهم المخصوصين بالوحى وبنزول الملائكة . بل قد زعموا أن الأئمة معصومون من ذلك ومن أكثر منه مثل الأنبياء والرسل ، وأنهم يوحى إليهم كما يوحى إليهم. وذهبوا كما تقدم إلى أن الله قد أنزل بعد موت النبى وحيا ومصاحف على فاطمة وعلى غير فاطمة . وقد قدمنا أشياء من بيان ذلك . وذهبوا أيضا إلى أن الأئمة أفضل من الأنبياء ومن أولى العزم من المرسلين . فعندهم أن على بن أبى طالب وسائر ولده أفضل من إبراهيم ومن موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الانبياء والرسل. وذهبوا إلى أن الاسلام لم تقم له قائمة ولم يعبد الله فى الأرض إلا بعلى بن أبى طالب وبجهاده وسيفه . وقالوا إنه لولا على وجهاده ومقاماته لما اخضر للاسلام عود ولما قام له عمود . وقد أنشدوا :

ألا إنما الاسلام لولا حسامه * كعفطة عنز أو قلامة ظافر
يجل عن الاعراض والأين والمتى * ويكبر عن تشبيهه بالعناصر

وهذا من شر الهجاء لرسول الله ولصحابته وللمسلمين الذين ما بخلوا بشئ من أموالهم ولا أولادهم ولا أهليهم ولا أنفسهم على الله وعلى رسوله وعلى دينه حتى استطال عموده فى الآفاق وحتى سار الشمس مشرقة ومغربة ، وقد قالوا إن ضربة على بن أبى طالب لعمرو بن عبدود أفضل من عبادة الجن والانس والملائكة وجميع الخلائق وملايين العوالم أمثالهم وفيهم الأنبياء والرسل إلى قيام الساعة وهذا من أشنع التحقير والزراية بالأنبياء والملائكة وعباد الله الصالحين . وقد ذهبوا أيضا إلى أن خيار صحابة النبى عليه السلام كفروا وارتدوا بعد وفاة نبيهم فحرفوا القرآن وحرفوا السنة: زادوا فيهما ونقصوا منهما، وتكذبوا على النبى وجحدوا دينه ووصاياه وظلموا أهل بيته وسلبوهم حقوقهم كفرا وغدرا . وكذا زعموا فى خيار

زوجاته عليه الصلاة والسلام أمثال عائشة وحفصة . ثم ذهبوا إلى أن اتباع خيار الصحابة، المهتدين بهديهم كفار مارقون : هذا كله وغيره من اعتقادات شيعة هذا الرجل الهاجى لأهل السنة المتقول عليهم الأباطيل والأكاذيب بغيا من عند نفسه وظلما للحق وأهله . وهذا كله بلا ريب من شر الاعتقادات .

ما يمنع من التوسل والاستغاثة والاستشفاع .

أما ماذكره عن الوهابيين فبعضه كذب صريح لاشبهة له فيه ، و بعضه مجمل يحتمل حقا ويحتمل باطلا . فما ذكر بأنهم يقولون : إن الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام وطلب الشفاعة منه والتوسل به إلى الله كفر فمجمل يحتاج إلى البيان والتفصيل.وذلك أنهم لايرون الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام وطلب الشفاعة منه ، والتوسل به إلى الله ممنوعة مطلقا ، وعلى كل حال ، بل هم يرون أن الاستغاثة به فى الدنيا فيما يقدر عليه عادة جائزة لامنع فيها ، وكذلك يرون فى طلب الشفاعة التى هى الدعاء وكذلك يرون فى التوسـل الذى هو طاعته والايمان به واتباعه وتعظيمه وحبه وطلب الدعاء والاستغفار منه ، وغير ذلك من الأمور المشروعة التى هى أصل الايمان والاسلام . فهذه الأمور كلها وغيرها من المنقول والمعقول لا يأباها الوهابيون ولا يمانعون فيها ، بل هم يرون بعضها واجبا فرضا لا يتم الاسـلام والدين إلا به و بعضها مستحبا و بعضها جائزاً ، لايأبون شيئا من ذلك ألبتة . ولـكن الذى يأبونه و يمنعونه ولا يرضونه هو الاستغاثة به عليـه السلام وطلب الشفاعة منه فى قبره بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ! وهو أيضا التوسل العامى الجاهل القائم اليوم على قبور المشايخ والصالحين وقبور من هب ودب . هذا هو الممنوع المحرم ، وهذا هو ما يأباه الوهابيون وما يردونه على فاعليه . فهذه الأشياء لها جانبان ، جانب باطل وهو طلبها من الاموات ، سواء كانوا أنبياء أم كانوا غير أنبياء ، وجانب مشروع جائز . وهو طلبها ممن يقدر عليها عادة إذا لم يكن ثمة مانع شرعى . فزعم الرافضى أن الوهابيين يمنعون ذلك كله جملة زعم

يجازى عليه جزاء الكاذبين إن شاء الله .

وأما التبرك بقبره عليه السلام والدعاء عند القبر فأمور ممنوعة حقا وسوف تجئ الدلائل على ذلك .

وأما زعمه أنهم يمنعون تعظيمه عليه الصلاة والسلام ، وأنهم يرونه كفرا وعبادة للأصنام فمن الأكاذيب التى سيسود لها وجه مفتريها عند الله يوم تبلى السرائر . بل هم لا يشكون أن تعظيمه التعظيم المشروع هو أصل الايمان والاسلام . ولا يشكون أن من لم يعظمه صلى الله عليه وسلم هذا التعظيم فليس بمسلم ولا مؤمن .

وأما السفر لمجرد زيارة القبر فباطل ممنوع وسوف نذكر براهين ذلك والأصل فى هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث . وقد روى هذا الحديث من طرق عن جماعة من الصحابة ورواه صاحبا الصحيحين البخارى ومسلم ، وقد جاء بصيغة النهى و بصيغة الإخبار ، وقد استدل به جماعة من الصحابة وجماعات من بعدهم على امتناع السفر إلى آثار الأنبياء و زيارتها . و بحث هذا يجئ إن شاء الله فى فصل خاص فيما بعد .

وأما قوله : إن الوهابيين ذهبوا إلى وجوب هدم الضريح النبوى فمن أكذب الكذب وأفجر الفجور . وذلك أن الضريح الذى هو القبر لم يقل أحد من المسلمين بوجوب هدمه أو جوازه . والذى قيل إن الشرع يأمر بهدمه هو القباب والبنايات المشيدة جهلا وخلافا للرسول ولشريعته على القبر ، أما الضريح نفسه فلا خلاف فى وجوب بقائه . وفرق عظيم بين الضريح و بين البناء المقام على الضريح . ولا يقول عاقل ولا بصير بالاسلام و بدين الله إن فى هدم البناء المقام على القبر طاعة لله ولرسوله شيئاً من التنقص أو شيئاً من الاهانة لصاحب القبر ، ونترك تحقيق

هذا المقام إلى الفصل الخاص به الآتى .

وأما قوله : ويحرم التبرك بتربته ولمس ضريحه وتقبيله ، فالجواب أن يقال لاريب أن ذلك كله باطل وخلاف على الدين وأنه خلاف المأثور عن السلف الصالح قاطبة ، وخلاف ماعلم من الاسلام بالضرورة والتواتر ، ولا شك أن ذلك كله من بقايا الجاهلية الأولى التى جاء الاسلام لنقضها والقضاء على بنيانها وكيانها . ولا يرتاب العارفون بالاسلام ، المدون بأغراضه أن هذه الأفعال وأمثالها منافية لأفضل شئ دعا إليه الدين الحنيف وهو الاخلاص لله والانقطاع إليه وحده بالجملة والتفصيل ، بالقلب والقالب : ثم لا يرتابون فى أن ذلك من أعظم الفساد ، فساد العقل والدين والذوق .

وقد كان الصحابة الذين تلقوا الاسلام نصوصه ومعانيه ، أفعاله وأقواله ، من صاحب الرسالة كفاحاً بلا وسيط يحبونه عليه الصلاة والسلام حباً لم يحبه أحد أحداً من الخلق ، ويحرصون على الأخذ بأطراف الفضائل وأشتات الصالحات حرصا تفنى دون أدناه أشواط السابقين من الأولين والآخرين ، وكانوا يفهمون شرع الله فهما تنزو عن بلوغ حقيقته جياد الأفهام ، وكان هؤلاء الصحابة يزورون رسول الله ويدخلون مسجده فى اليوم والليلة مرات ، وكانوا يودون لو أبيح لهم أن يكتحلوا بتراب قبره وأن يسفوه حبا وإخلاصاً ، ولكنهم مع ذلك لم يقبلوا ولم يتمسحوا رجاء شئ مما زعمه هذا الشيعى لأنهم يعلمون أن ذلك خلاف على نبيهم ، ولأنهم يعلمون أن الخلاف عليه — بزعم حبه والقيام بحقه — هو الهلاك والجهل ، بل لقد خشوا هذا الذى يدعو إليه الرافضة وإخوانهم فحالوا بين الناس وبين الوصول إلى القبر بالبناء الذى أحاطوه به وبوضعه عليه الصلاة والسلام فى حجرة زوجه عائشة . ولو أرادوا هذا الذى أراده المخالفون الجاهلون لكشفوا قبره ولوضعوه فى العراء ليستطيع الناس الوصول إليه كى يقبلوه ويتمسحوا

بجدرانه وأركانه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها فى ذلك قولها المشهور : « ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشى أن يتخذ مسجدا » . وقد كانوا وكان السلف قاطبة ينهون عن اتباع آثار الأنبياء كما ذكرنا فى الجزء الأول ، وكان الخليفة النافذ البصيرة عمر بن الخطاب من أشد الناس نهيا عن ذلك حتى لقد نهى عن قصد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه رسول الله ، وأمر بقطع الشجرة ، شجرة الرضوان ، لما رأى فريقا يقصدونها . ولو كان ذلك من دين الله الاسلام لوجدنا المسلمين الأولين يتسابقون إلى مواطن النبوة وآثار الأنبياء ، أيهم السابق المستولى على الامد ، ولوجدنا هم يتنافسون فى قصد غار حراء وغار ثور وغيرهما من الأماكن التى وطئتها أقدام النبوة ، للتقبيل والتمسح والتبرك ، ولكان لهم مغدى ومراح إلى تلك الآثار وإلى حجر أزواجه ومواطن قدميه ومواقع وجهه الشريف ، فى مسجده وفى غير مسجده للفوز بتلك الفضيلة . ولكن لا نزاع بين أهل العلم البصراء بالآثار والروايات أنه لم يكن بشئ من ذلك .

تقبيل القبر ليس من الدين ولا من سنة المسلمين

على أن من العجيب فى الدين والنظر أن يكون تقبيل قبر النبى عليه الصلاة والسلام مشروعاً ودينا يثاب عليه فاعله فى حين أن تقبيله ذاته لأجل ذلك لم يكن معهودا ولا معروفاً بين أصحابه يوم كان حيا بين أظهرهم يرونه ويقدرون على تقبيله إذا كان مشروعاً جائزا .وماجاء ذلك إلا فى حوادث معلومة خاصة لأسباب كذلك خاصة معلومة غير مايذهب إليه هؤلاء القوم ، وما روى شئ من هذا فى كتب الصحاح كالبخارى ومسلم . فما جاء أن يهوديين أتيا رسول الله عليه السلام فسألاه عن عدة مسائل فأخبرهما فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد أنك نبى . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . وعن عبد الله بن عمر قال كنت فى سرية من سرايا رسول الله فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا :

لو عرضنا أنفسنا على رسول الله فان كانت لنا توبة و إلا ذهبنا فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج وقال : من الفرارون ؟ فقلنا نحن الفرارون ، قال بل أنتم العكارون ، قال فأتيناه حتى قبلنا يده . رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد . وقد ذكر شيئا من ذلك البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » . ولا تخلو رواية من هذه الروايات من مقال . على أنه واضح من السياق أن ذلك التقبيل لم يكن طلبا لما يزعمه الشيعى وأنه لم يكن عادة معهودة للقوم . و إنما كان ذلك للاعتراف بالشكر والاغتباط . و إلا لو كان الامر كما زعم القوم لـكان ذلك دأبا للصحابة وعملا من أعمالهم التى يواظبون عليها و يتسابقون اليها ، ولما وقف على الفرط النادر من الاحيان . و إننا نعلم بالتواتر الصامت أن الصحابة لم يكونوا يحاولون أن يقبلوا جسم النبي أو ثوبه أو شيئاً من آثاره ، أو يحاولون أن يتمسحوا ببعض ذلك كلما واتت الفرصة . ونعلم أيضا أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يدلهم لا تصريحاً ولا تلميحاً على أن هذا من الدين ومن أعمال البر والطاعات ، بل انه ﷺ كان ينهاهم عن هـذا النوع من الغلو أنواع النهى ، و يدلهـم أنواع الدلالات على أنه مأبى محرم . وكم ينهى عن ذلك أمثال قول الله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » وقوله : « إنما أنت منذر ولـكل قوم هاد » وقوله . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسـل » ، وأمثال قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . ومن العجيب فى هذا الحديث أنه قدم العبودية على الرسالة وهكذا جاء فى التشهد : « أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » ، وهكذا جاء فى غير ذلك.

تقديم وصف العبودية على وصف الرسالة

والـكتاب الـكريم حينما ذكر أوصاف النبوة والنبى لم يزد عـلى وصفه بالعبودية و بالرسالة و بما يلزمها من الهداية والانذار والبلاغ والبيان . والعبودية هى المذكورة

فى مواطن الامتداح والثناء فى مثل قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ، وقوله : « و إنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » . وما جاء وصفه ﷺ بالقدرة وسعة السلطان وامتلاك ناصية التصريف والضر والنفع ، بل لقد جاء نفى ذلك عنه وعن الخلق جميعاً ، قال تعالى : « ليس لك من الأمر شئ » وقال : « وما أنت عليهم بجبار » وقال : « ليس عليك هداهم » وقال : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير و بشير » وقال « قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » وقال : « ألا له الخلق والأمر » . وهكذا ينسق الكتاب الآيات نسقا فى حرمان الخلق كافة من أن يشاركوه فى ملكه أو فى خلقه أو أمره أو شأنه ، وهكذا ينسق الآيات نسقا فى تجريد الأنبياء ومن دون الأنبياء من القدرة والسلطان والضر والنفع والتصريف ، وهكذا يحصرهم جميعا فى منطقة العبودية ، و رواق الملكية ، لايعدو ذلك نبى مرسل ، ولا ملك مقرب « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »

وأما زعمه أن الوهابيين يقولون إن ضريح النبى عليه الصلاة والسلام صنم من الأصنام بل هو الصنم الأكبر ، و إنهم كذلك يقولون فى سائر قبور الانبياء والصالحين ـ فزعم كاذب . وقد قال ﷺ : « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد » وقد استجاب الله دعوة رسوله فأحيط قبره الشريف بالبناء الذى حال بين الجهلة و بين الوصول إليه ، فلم يقدروا على الوصول اليه كما وصلوا إلى قبور غيره من آله وغيرهم من الصالحين والطالحين فعبدوهم من دون الله وعبدوا قبورهم وعكفوا عليها عكوف أهل الجاهلية كلهم على أصنامهم وعلى أوثانهم : يدعون و يسألون

ويستغيثون ويستشفون ويرجون الدنيا والأخرى هناك ، ناسين أن فى السماء رباً له الخلق والأمر وإليه يرجع كل شئ . . . ولو فرض أن الجهال عبدوا الرسول أو عبدوا قبره ، كما عبد غيره من الأنبياء والصالحين ، فقيل إنه معبود أو إن قبره معبود أو مؤله لدى العامة الجهلاء لما كان ذلك نقصا فيه ولا عيباً أو ذما له يقيناً . والمسلمون يقولون : إن عيسى بن مريم وأمه إلهان معبودان لدى النصارى وليس فى هذا القول ماينقصهما أو يعيبهما . وكذلك يقولون إن الملائكة معبودة مؤلهة من دون الله ، وكذا يقولون فى على بن أبى طالب وفى ذريته لأن قوماً من الشيعة عبدوهم وزعموهم آلهة كما تقدم . وليس فى هذا مايضير أحدا من هؤلاء . فاذا عبد الرسول أو عبد قبره فقيل إنه معبود أو إن قبره معبود لم يكن فى هذه المقالة ماينقصه عليه الصلاة والسلام كالم ينقص الملائكة وعيسى بن مريم ومريم وعليا والمعبودين من ولده عبادة من عبدوهم . وهم يتبرؤون منهم ومن عبادتهم بين يدى الله .

لايضر الرسول ولا قبره عبادة من عبدوه

أما ماذكره عن خلاصة الكلام تأليف شيخ الكذب دحلان من أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يقول إن النبى طارش وأن بعض أتباعه كان يقول إن العصا خير من الرسول ، وإن ذلك كان يقال فى حضرة الشيخ فيسمعه ويرضاه. وأنه كان يقول إنى وجدت فى قصة الحديبية كذا وكذا كذبة ـ فهذا كله وأمثاله من أرذل الأكذوبات وأرخصها . وإننا نتحدى هذا الرافضى وإخوانه ونطلب إليهم جميعاً أن يسندوا شيئاً من هذه الأقوال عن أحد الوهابيين . لانطالبهم أن يسندوه عن الشيخ محمد ولا عن عالم من علمائهم ، فالمسألة أسمى من أن نطلب اليهم ذلك . بل إننا نطالبهم أن يسندوه عن جاهل من جهلائهم ، وإلا فالكذب يقدر عليه أقل الناس عقلا وعلما وفهما . وأجرأ الناس على الكذب هم أقلهم دينا وعلما وفهما وحيلة . وإذا استعان الخصم على خصمه بالكذب والاختلاق

فقد لجأ إلى ركن غير وثيق ، وأخذ بسبب مقطوع ، وباع نفسه وعلمه فى سوق الكاسب فيها خاسر . . . وأنا لا أشك أن هذا الرافضى لا يعتقد صحة ما يذكره هنا ، بل لا أشك فى أنه يعتقد كذبه وتزويره . ولكن خصومته للحق ولأهله أباحت له أن يروى الكذب وأن يقاتل به وأن يزعم للناس أنه جاد غير هازل ، وأنه صادق غير كاذب ، بل وأنه محرم على الكذب وقول الكذب . وطائفة يبلغ عشق الانتقام والظلم بكبار علمائها ومجتهديها أن يستجيزوا رواية مثل هذا الباطل وأن يدونوه فى كتبهم يحق أن يقال لها: لتسقط من السحاب ، أو ليسقط عليها السحاب ، فلن تضيرا الله والحق شيئاً .

ليسقطوا من السحاب

إنى أقول لهذا الرافضى ولغيره من الكذابين : إن من قال عن النبى عليه الصلاة والسلام هذه الأقاويل التى رواها عن شيخ الكذب دحلان فقد ضل ضلالا كبيرا ، واحتقب نكراء يثقل وزرها كاهل قائلها ، ثم أقول لهم إن كل وهابى على وجه الأرض يقول قولى هذا .

﴿ المسلمون فى نظر الوهابيين ﴾

ثم ذكر الشيعى تحت عنوان : « اعتقادهم فى عموم المسلمين » ما خلاصته : إن المسلمين فى نظر الوهابيين قد كفروا وأشركوا منذ ستمائة سنة قبل خروج الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وإنهم قد ابتدعوا فى الاسلام . قال : «وهذا محور مذهب الوهابية الذى يدور عليه . . . وفرع الوهابية على هذا الاعتقاد وجوب قتال المسلمين واستحلال دمائهم وجعل بلادهم دار حرب وأنه تجب الهجرة منها إلى بلاد الإسلام التى أهلها وهابية » قال : « وأما سبى ذرارى المسلمين فهو مقتضى قواعد مذهبهم » قال « وقسموا التوحيد إلى توحيد الربوبية وهو الاعتقاد بأن الخالق المدبر للأمر هو الله ، وتوحيد العبادة وهو صرف العبادة كلها إلى الله . قالوا ولا ينفع الأول دون الثانى . وقالوا الكفر نوعان : مطلق ومقيد . فالمطلق

أن يكفر بجميع ماجاء به الرسول ، والمقيد أن يكفر ببعض ذلك » .

هذا خلاصة ماذكر فى هذا الفصل . ثم بعد ذلك أخذ فى التفصيل وفى إيراد دلائله على دعاويه هذه دافعاً جميع شهادات العلماء وشهادات الوهابيين أنفسهم على تكذيب هـذا الـكذب وعلى أن المسلمين عندهم مسلمون لاشك ولاريب وعلى أن هذه الدعوى كاذبة افتجرها قوم آثروا جهلهم على علمهم وشهواتهم على دينهم ، وآثروا هوى المخلوق على رضا الخالق ، فقلدهم فيها فريقان : فريق الجهل وفريق الاثم فأخذ الفريقان بطرفيها يشدانهما حتى أوصلاها المشارق والمغارب ومازالت بأيديهـم تطوى وتنشر وتخفض وترفع حتى تلقفها هـذا الشيعى الظالم « بدوره » فراح يلوح بها يميناً وشمالا ، يبغى الفتنة ، ويبغى الشر ويريدما الله خاذله فيه هو وشيعته .

لايدل على عقيدة المرء سوى أقواله وأفعاله

ونحن نقول ردا على هـذ الدعوى إن عقيدة المرء تؤخـذ من أمرين : من أقواله ومن أفعاله . فالاقوال تدل على العقيدة وكذلك الأفعال . فاذا فعل المرء شيئاً يدل على عقيدة من العقائد قلنا إنه فى الظاهر يعتقد كذا ، وإذا قال إنى أعتقد كذا قيل إن عقيدته فى الظاهر على ما ذكر . ولا شئ يدل على عقيـدة المرء غير الاقوال والافعال لدينا . فمن ادعى على إنسان مابأنه يعتقد عقيدة لم تدل عليها أقواله ولا أفعاله أو دلت أقواله وأفعاله على أنه لايعتقدها كان ذلك المدعى غالطا كاذبا ظالماً . وكانت دعواه مرجوعة عليه ولا كرامة . فان الدعاوى بلا بينات أولادها أدعياء . ولو قبلت الدعاوى بلا بينات لـكان سهلا على كل من انقطعت الصلات بينه وبين الحياء والدين أن يتكذب وأن يتقول وأن يزعم على الشمس بأنها جرم مظلم أسود ، وعلى الليل الأسود بأنه نور مشرق ، وكان سهلا عليه أن يقول للسماء : ما أسفلك ، وللأرض ماأرفعك ، وكان سهلاعلى هذا الرافضى وغيره من المخالفين أن يقولوا إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم

وأموالهم ، وأن يدعوا عليهم مايريدون و يشتهون ، وكانت هذه الدعوى لذيذة المذاق فى أفواه أعـداء الحق والحقيقة ، ولـكن الله الذى خلق الحق والباطل أعز الأول ببراهينه وأذل الآخر ببراهينه أيضا و بيناته ووسم وجوه الكاذبين بسمات الكذب وطبع الكذب بطابع الكاذبين ، وأقام الحق له منه عليه شواهد تسم الباطل واهله عـلى الخرطوم . ومما يعزى صاحب الحق المكنوب على أثره أنه ما جاء صاحب حق ودعوة فاضلة نبيلة الا كثر الجناة عليه ، وأن جناة الكذب وفرسان الزور لا بد أن يفتضحوا وأن يتحطموا فوق صخرة الحق العتيدة التليدة و إن غالبوا الموت طو يلا .

إذا علم هذا قيل للرافضى : أى الأمر ين أعنى الاقوال والافعال ، دل على أن الوهابيين يكفرون المسلمين و يستحلون دماءهم وأموالهم بل أى الأمر ين لم يدل عـلى كذب هـذه الدعوى وكذب ناقليها ؟ لاشك أن الرافضى لن يجدفى أقوال هذه الطائفة ولا فى أفعالها مايؤيد ماقال و زعم كما سوف يعلم ذلك واضحا جليا .

الدلائل على أن الوهابيين لا يكفرون المسلمين

و بيان ذلك أن أفعال الحكومة الوهابية وأقوالها ، وأفعال أفراد الوهابيين وأقوالهم بينة صريحة فى أنهم بريئون من هـذه التهمة وهذه البهيتة وفى أنهم لا يكفرون المسلمين ولا يعدونهم إلا إخوانهم و إلا منهم و إليهم . وذلك أن الحكومة الوهابية تعامل سائر الحكومات الاسلامية وسائر أفراد المسلمين معاملة المسلمين الاخوة ، وتخاطبهم مخاطبة المسلمين الاخوة ، وتعطف عليهم عطفها على المسلمين الاخوة وتشعر إزاءهم شعورها إزاء المسلمين الاخوة ، وتتقرب إليهم تقربها إلى المسلمين الاخوة ، وتحنو عليهم حنو المسلم على أخيه المسلم . وهذا كله واضح فى كل موقف من مواقفها إزاء المسلمين حين الافراح والاتراح ، فى السراء والضراء ، فى السلب والايجاب . وهاهم المسلمون ينهبون عشرات الألوف كل عام إلى بيت الله يؤدون

فريضتهم فيتمتعون تحت الراية الوهابية بالامن الذى يتحدث اليوم عنه الناس وبالمعاملة الأخوية الممتازة حتى الشيعة منهم وهم أكثر الفرق الاسلامية انحرافاً عن الصراط المسلوك، وأكثرها ضراوة وولوعاً بالدخيل المدخول. فهل حالت دون بيت الله أو وقفت فى سبيل من يريدون الحج بحجة أنهم كفار مشركون، وأن الكفار والمشركين لايباح لهم أن يصلوا إلى بيت الله وإلى معقل الاسلام والمسلمين؟ أو هل سفكت دم أحد من أولئك الحجاج أو شامت عليهم سيفاً أو شرعت رمحاً بحجة أنهم مشركون، وأن المشركين حلال الدم والمال؟ أم هل استحلت مال أحد من أولئك الزوار بحجة أنه كافر وأن الكافر حلال المال؟ أو قالت كما نقل الرافضى الظالم لأحد من أولئك المسلمين: يامشرك أو يا كافر، أو أن بلدك بلد حرب وشرك يجب عليك الفرار منها، ويجب عليك بعد أن تسلم وأن تنطق بالشهادتين أن تقيم فى بلادنا بلاد الإسلام والمسلمين، وألا ترجع إلى بلدك أبدا: هل فعلت الحكومة الوهابية أو قالت شيئاً من ذلك أو قاله أو فعله أحد من أفرادها وعلمائها حتى يتجه لهذا الشيعى الظالم أن يقول وأن يطبع ما يقول: إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم وقتالهم وأنهم لاينادونهم إلا بيامشركون؟؟

بل هاهى الحكومة الوهابية تبعث البعوث العلمية دينية ومدنية إلى أنحاء البلاد الاسلامية وتنشئ المفوضيات فى تلك البلاد فيعامل هؤلاء كلهم المسلمين معاملة المسلم أخاه المسلم، فيجتمعون بهم فى العبادات الخاصة بالمسلمين فيصلون معهم فى مساجدهم ويأتمون بهم ويتلقون منهم العلوم الدينية وغيرها ويمتزجون بهم امتزاج الارحام: فيتزوجون منهم ويزوجونهم ويتصلون بهم الاتصال الذى لايكون إلا بين المسلمين وحدهم. ولا يرون فى شئ من ذلك مانعاولا حراما. ولا يعترض عليهم أحد من الوهابيين ولا يرون أنهم بذلك قدأتوا إثما أو ذنباً أو خالفوا مبدأ

من مبادى الاسلام التى يحافظون عليها ويذهبون إليها . فهل هؤلاء ياقوم يرون المسلمين غير مسلمين ، أو هل يمكن أن يكون أمثال هؤلاء يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وقتالهم ؟ ما أرخصها من دعوى وما أرخص مدعيها لدى نفسه ولدى الحق !

ولقد زار ولى عهد الحكومة السعودية مصر غير مرة فكان يؤدى الصلوات فى المساجد العامة وكان يأتم بالأئمة الذين يزعم الشيعى أن الوهابيين يرونهم غير مسلمين بل يرونهم مشركين كافرين .

بل أليست الحكومة الوهابية مازالت تستقدم الرجال من جميع الأقطار الاسلامية فتوليهم ماتوليهم من أعمال الدولة السياسية والعلمية وغيرها وتستعملهم فى كبريات المناصب وعظائم الوظائف ، وتوليهم من الثقة ماتولى رجالها و بنى وطنها ، وتعاملهم المعاملة التى لايعامل المسلم بها إلا أخاه المسلم . فهل حاولت الحكومة أن تطرد هؤلاء الموظفين أو أن تنالهم بسوء . أو هل حاول الشعب شيئاً من ذلك بحجة أنهم غير مسلمين و بحجة أن الكفار والمشركين حلال الدماء والاموال والأعراض ؟؟

بل أليست فى المملكة الوهابية السعودية ولاية شيعية — هى مقاطعة الاحساء والقطيف . والشيعة كما ذكرنا من أبعد الناس عن الاعتدال والحق ، وأكثرهم غلوا فى الاموات وعبادة لهم وعكوفاً على أجداثهم . وقد كان فى استطاعة الوهابيين أن يبيدوهم أو ينفوهم من تحت سلطانهم وسمائهم ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك ولم ينالوهم بسوءما ، ولم يفرقوا بينهم و بين غيرهم فى العدل والحكم والمعاملة وإنما منعوهم فقط من التظاهر بالمنكرات الخاصة بهم كسب الصحابة والسلف و إكفارهم ، وكمنكرات أيام عاشوراء ومآتمها ومآتمها .

أفلا يزال الشيعى بعد هذا مصرا على دعواه أن الوهابيين يكفرون المسلمين و يستحلون دماءهم وأموالهم وقتالهم ؟ ليعلم أنه هو نفسه لو ذهب هنالك ووقع تحت أيدى الوهابيين لما استحلوا دمه ولا ماله ولا قتاله ، بل لأضافوه

وأكرموه ورجعوه سالماً موفوراً .

هذه بعض أفعال الحكومة الوهابية مما يكذب هذه الدعوى التي تبرع بها لهم الرافضي وإخوته في الكذب والظلم .

الوهابيون لايباينون غيرهم من المسلمين في شيء

وأما أفعال أفراد الوهابيين فهي أنطق وأفصح في رد هذه الدعوى الكاذبة والأمر فيها أوضح وأظهر . وذلك أن الوهابيين ما زالوا ولا يزالون يسافرون إلى جميع الاقطار الاسلامية كمصر والعراق والشام وغيرها ، ولهم تجارات مختلفة في تلك الأقطار ، ولهم أصدقاء وأصهار وأرحام وذريات وعلاقات مختلفة قوية ، هي علاقة المسلم بأخيه المسلم . وجميع هؤلاء الوهابيين الذين يردون هذه البلدان يخالطون أهلها المسلمين مخالطتهم لأهل بلادهم الأولى،فيصاهرونهم : يتزوجون منهم ويزوجونهم ويشاركونهم في عباداتهم وعواطفهم ، فيصلون معهم ويأتمون بأئمتهم ولا يفارقونهم في شيء من أعمال المسلمين ، ولا يحسون بينهم وبينهم فرقا إلا مثل ما يكون بين أفراد الأمة الواحدة من الخلاف والفرق ، وما اختلفوا عليهم في أمر من أمور المسلمين : فما اتخذوا لهم مسجدا خاصاً ولا إماما خاصاً ولا حيا خاصا ولا زيا خاصا ولا بلدا خاصاً ، ولا شيئاً من الأشياء خاصاً بهم ، ولا قاضيا خاصاً بهم ولا غير ذلك مما يوهم أنهم يخالفون غيرهم من المسلمين ، أو أن لهم عقدا سيئا في عقائد المؤمنين ، ولا يشعر من يراهم ويرى أحوالهم وأعمالهم أنهم يذهبون إلى شيء يخالفون به غيرهم . ولو أنهم دخلوا بلدا إسلامياً وكان إمام الجماعة فيه هو هذا الرافضي نفسه الهاذي بهذه التهم لما تخلفوا عن الصلاة وراءه ولما استجازوا لأنفسهم التخلف عن الجماعة إلا أن يعلموا منه أمراً يمنع الاقتداء به عند جميع أهل السنة ، مثل أن يعلموا منه أنه يكفر الصحابة ويستحل الوقيعة في أعراض السلف والوقيعة في دينهم ، ومثل أن يعلموا منه أنه يقول بتحريف القرآن أو غلط جبريل في الرسالة ، أو نحو ذلك من عظائم ما ذهبت

إليه الشيعة ، أو غيره مما يمنع أهل السنة جميعا من الاقتداء بصاحبه والاحترام له .
ولا أظن مسلماً يستجيز الصلاة خلف من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان . فمثل هذا يأبون الاقتداء به ولا كرامة . ومن الصدف الطريفة أن قابلت فى هذه الأيام أحد رجال الشيعة الواردين على القاهرة لأسباب علمية ، وهو من بيت علم معروف فى النجف وفارس . وقد كانت المقابلة يوم جمعة . فسألته : أين صليت الجمعة ؟ فأخبرنى أنه لم يصل ، وأن لصلاة الجمعة عند الشيعة شرائط لم تجتمع لديه . هذا وكل يعلم أن فى مصر جماعات من النجديين الوهابيين ، وأنهم صلوا جميعاً ذلك اليوم فى مساجد مصر المختلفة ، وأنه لم يتخلف أحد منهم عن الصلاة محتجا بتلك الحجة الشيعية ولا بغيرها . وإننا كلنا نصلى فى مساجد القاهرة الجمع والجماعات وما خطر لنا أن ندع الصلوات الجامعة لأجل ما ذكر الشيعى . وهذا صاحب السعادة الشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية السعودية بمصر ، وهو من أتقى المسلمين ومن أعرفهم بالاسلام وحقائقه ، ومن أشدهم غيرة عليه واستمساكا به ، هذا هو يقيم الصلوات فى مساجد مصر ، ويحافظ على صلاة الجمعة فى مساجدها ويأتم بالأئمة المختلفين لا يرى فى ذلك حرجا ولا مانعاً وهو أكبر رجل للدولة السعودية بمصر ، وكذلك أخوه الشيخ عبد العزيز السابق وكذلك جميع أقاربهما ومن يمتون إليهما بالمعرفة اللازمة يصلون الجمع والجماعات فى المساجد العامة لا يتخلفون عنها لسبب من الأسباب التى يذكرها هذا الرافضى وشيعته. بل إن الشيخ فوزان إذا مازاره أحد العلماء فى مستقر عمله الحكومى أو فى بيته فحضرت الصلاة قدم العالم للصلاة به وبجماعته فأتموا به جميعاً — إلى غير ذلك مما يطول شرحه وبيانه . فهل بعد هذا يقول من يقيم للحق وللصدق وزناً وحرمة ومن يرعى لله وقاراً : إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم ؟؟

أكبر رجل سعودى فى مصر يصلى الجمع والجماعات فى المساجد العامة

هذه هى أعمال الحكومة الوهابية وأفعال أفرادها كلها شواهد ناطقة صادقة

على أن الشيعى لم يكن صادقا ولا ناطقا بالحق إذرماهم بإكفار المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم وقتالهم .

الوهابيون ينفون عن أنفسهم تكفير المسلمين

وأما أقوالهم فى تكذيب هذه الدعوى فهى أنطق وأشهر، فمازالوا يكذبون الدعوى ويكذبون مدعيها وزاعميها . والشيعى نفسه ذكر فى هذا الفصل المذكور عن علمائهم القدامى والمتأخرين أنهم يتبرأون من ذلك ومن قائليه ، ويهتفون بأنهم يتهمون به إتهاماً تنفيرا عنهم وعن دعوتهم الاصلاحية . ولكنه يصر على أنهم كاذبون فى ما نفوا عن أنفسهم ، وعلى أنهم ملطخون بما زعموا أنهم منه بريئون . وإذا كانوا يقولون ويذيعون ما يقولون فى كتب منشرة معروضة للخاصة والعامة: إنهم لا يكفرون مسلما ولا يستحلون دمه ولا ماله ولا عرضه ولا حرمة من حرماته فيقوم هذا الشيعى يقول لهم : كلا إنكم كاذبون غالطون فيما قلتم وذكرتم وأنكم تكفرون المسلمين وتستحلون أموالهم وقتالهم فماذا عساهم يذكرون من الدلالات لانتزاع هذه التهمة من رأسه ، وماذا عسى البراهين الصادقة تفعل لديه لتحرق هذه البهيتة فى رأسه !! قوم يقولون مختارين غير مكرهين : إن المسلم مسلم لا يحل دمه ولا ماله ولا عرضه فيقال لهم : لا ، إن المسلم لديكم كافر حلال الدم والمال والعرض ، فهل يستطيعون أن ينفوا عن أنفسهم هذه التهمة إلا بأن يقولوا : إن المسلم مسلم ، فاذا قالوا ذلك فقيل لهم : كلا ، إن المسلم عندكم كافر مشرك فقد بطل الكلام والحجاج ، وتحكم العناد واللجاج ، وإذا قلت إنى لا أحس ألما فقال لك قائل : بل إنك لتحس ألمًا مبرحا . فهل ترد على ذلك القائل بأصدق من أن تعيد ما قلت : فتقول إنى لا أحس ألمًا . وإذا قال الشيعى وغيره إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم فهل يردون عليه بأصدق من أن يقولوا : إننا لا نكفر المسلمين فلا نذهب إلى إكفارهم وهذا واضح ظاهر .

ومن أقرب الدلالات على ذلك أن علماء المملكة السعودية عقدوا فى هذه

الاسابيع المؤتمرات بمناسبة مشروع تقسيم فلسطين مستنكرين لذلك ، وقد أرسلوا إلى جلالة الملك الاحتجاجات الحارة الملتهبة غضبا ونقمة من الحكومة البريطانية ومن مشروعها الظالم الممقوت ... وقد نشرت تلك الاحتجاجات فى جريدة الحكومة الرسمية جريدة أم القرى وفى غيرها من الصحف المصرية وغير المصرية وقرأها الناس . وهذه الاحتجاجات كلها تصريحات بأن فلسطين بلد إسلامى وأن أهله إخوان مسلمون . ونعوذ بالله من الشك فى هذا وممن اضطرونا إلى الاحتجاج له . ولو أن الشيعى صادق فى دعواه أنهم يكفرون المسلمين لما استجاز علماء نجد وغير نجد من علماء المملكة السعودية أن يطالبوا جلالة الملك « بمناصرة إخواننا أهل فلسطين » و بمناصرة : « فلسطين المسلمة » و بالعمل لابقائها « بلدة إسلامية » و برفع لواء الجهاد على الظالمين المحاولين : « تهويد فلسطين المسلمة » ولوسعهم السكوت كما وسع غيرهم من علماء الشيعة وغيرهم . وأسكت الله أصوات من يسكتون على مأساة فلسطين ، ولا أقر أعين من يغمضون على نكبتها و بلواها .

شبهاتهم على أن الوهابيين يكفرون المسلمين

نعم ، إن الدلائل على كذب هذه الدعوى لا يستطاع إحصاؤها ولا حصرها فما شبهة هذا الرجل و إخوانه إذن على ذلك ؟ لهم شبهتان فعلية وقولية ، أما الاولى وهى الفعلية فهى أن حروبا قد شبت بين الوهابيين و بين طوائف من المسلمين أو أن الوهابيين قد شبوها بادئين على بعض البلاد الاسلامية ، وهذه الحروب هى الحروب التى قامت بينهم و بين الدولة التركية و بينهم و بين الجيوش المصرية و بينهم و بين أشراف الحجاز فى القديم وفى الحديث ، و بينهم و بين أعراب الجزيرة العربية و بينهم و بين غير هؤلاء مما هو معلوم لا شك فيه . وقد زعم هؤلاء أن هذه الحروب دلائل على أن الوهابيين يستحلون قتال المسلمين وأخذ أموالهم وافتتاح بلادهم ، وذلك لانهم لديهم كفار مشركون ، و إلا لولم يعتقدوا فيهم

هذه العقيدة لما استجازوا قتالهم ولما استجازوا أن تقوم بينهم وبينهم حرب .
هذه هى الشبهة الفعلية ، وقد أقام عليها الرافضى من التهم وسوء الرأى القصور والعلالى . والشبهة فى الواقع من أفسد الشبهات وأبطلها وأسخفها ، والرد عليها سهل ميسور وذلك أن يقال لصاحبها المسرور بها :

الحروب بين الناس لاتدل على نوع العقيدة

أولا أن الحرب بين طائفتين أو أمتين لم تكن يوما من الايام دليلا على أن إحدى الطائفتين أو الأمتين تكفر الأخرى وتستحل قتالها ودماءها وأموالها لأنها فى رأيها كافرة مشركة بالله ، بل أغلب الحروب تقوم بين الناس وبين الشعوب والأمم لغير ذلك من الأسباب ، لأسباب قد تكون صحيحة وقد تكون باطلة ، وقد تكون مجيزة الحرب وقد لاتكون كذلك . وهذا معروف مشهور فى جميع العصور . وقد شبت الحروب بين جيوش على بن أبى طالب وعساكر معاوية ، وبين على وعسكر الجمل . ونحن نوقن بان إحدى الطائفتين لم تكن تكفر الأخرى ، ونوقن بأن الباعث على الحرب لم يكن الكفر والشرك ، وإن زعم الشيعة خلاف هذا . وكذلك لم تزل الحروب تضطرم بين جماعات المسلمين منذ صدر الاسلام إلى اليوم ، أحيانا بشدة وقوة ، وأحيانا أخرى بلين وقلة . ولكن أحدا من الناس لم يزعم أن تلك الحروب بين المسلمين دليل على أن أحد الجيشين يكفر الجيش الآخر ، وأن الباعث على الحرب هو الكفر والشرك . والحرب كثيرا ماتقع بين المرء وأخيه حيث لاخلاف فى العقيدة ولا فى المذهب ولا فى شئ من ذلك . وقد شبت الحروب بين الايرانيين وهم من الشيعة وبين الخلافة التركية . فهل يقول الرافضى إن الشيعة يكفرون الترك ويستحلون قتالهم . أو يقول إن الخلافة التركية هى التى كانت تستحل ذلك من الشيعة ؟ وكذلك شبت بين العساكر المصرية وبين الجيش التركى ، وشبت بين الأتراك وأهل اليمن وهم زيدية ، والزيدية فرقة من فرق الشيعة ، وكذلك شبت بين الأتراك

و بين أشراف مكة ، وكذلك حارب العرب وغيرهم من المسلمين تركيا فى الحرب الكبرى وفى غيرها . . . فهل يدعى الشيعى أن الباعث على هذه الحروب هو الكفر والتكفير والطعن فى الاعتقاد ؟ هو يزعم أنه لا يزعم ذلك فلنا أن نأخذه وأن نحجه بما زعم ، ويقال له كيف ادعيت أن محاربة الوهابيين لغيرهم، أو محاربة غيرهم لهم لم تكن إلا لأن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم وأموالهم ؟ ؟ وهذا مالا جواب له عليه وهو مما يلقى شبهته فى الحضيض الأسفل

دلالة الحرب مشتركة بين المتحاربين

ثم يقال ثانيا — إن الحرب أمر مشترك بين الفريقين المتحاربين فالنجديون إذا حاربوا الأتراك والأشراف فقد حاربهم الأتراك والأشراف وهذا لابد منه . وإذا كان الأمر كذلك قيل لماذا زعمت أن الوهابيين، وهم أحد الفريقين المتحاربين يكفرون الفريق الآخر المحارب لهم ويستحلون قتاله وماله ، ولماذا لم تزعم العكس والعكس ممكن فى قضايا العقول وحقائق الواقع ، ولافرق بين الزعمين . فان كان الأول ممكنا كان الثانى كذلك ، وإن لم يكن ممكنا كان الثانى أيضا غير ممكن ؟ كيف والشيعى قد ذكر غير مرة فى كتابه هذا أن الأشراف والأتراك قد بدؤا الوهابيين بالحروب والقتال ، وأنهم قد غزوهم فى ديارهم مرات ، لأنهم — فى مازعم — قد جاؤا بأمر جديد يستحقون عليه التحطيم والابادة ، ويستحقون عليه أن يعاطوا حد الحسام وصدر القناة . وقد حشى كتابه بهذا الزعم وأعاده وأبداه مسرورا مغتبطا به كل السرور وكل الغبطة . بل لقد تأول مستيقناً صحة تأوله الاحاديث الواردة فى الخوارج فى الوهابيين ، وقد صدر عن هذا بأنه واجب على الناس قتالهم وإبادتهم ، وأن فى ذلك أجرا جزيلا لمن قام به من المسلمين لتخليص الناس فيما زعم من شرهم وبلائهم ومن عقائدهم الضالة الباطلة . فهو يقول : إن بدء الوهابيين بالقتال واجب وعمل صالح مبرور ، ويقول : إن المسلمين

كالأتراك والأشراف وغيرهم لم يزالوا يقاتلونهم ويتقربون إلى الله بقتالهم ويبعثونها عليهم وعلى عقائدهم وبلادهم شعواء عادية ... وإذاً فالوهابيون مبدوؤن بالتكفير والقتال والحرب والعدوان كما اعترف ، فماذا إذن ينقم ويريد منهم بعد هذا ؟ أيريد منهم أن يضعوا رقابهم تحت أسياف العادين عليهم الغازين لهم فى ديارهم وإلا كانوا عنده قوماً ضالين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم ودماءهم ؟ إن كان يريد هذا منهم ولهم فهم لا يريدونه منه لأنفسهم ولا الله يريده منهم ولا لهم ، وإن كان فى عملهم هذا ضلال فهو أحب إليهم وإلى الله من الهدى الذى يدعوهم اليه الشيعى ويعرضه عليهم

الباعث على الحروب فى غالب سياسى لا دينى

ليعلم هذا الشيعى الظالم أن الحروب التى تشب بين المسلمين ، وكذلك التى تكون أيضا بين الكافرين ، أكثرها سياسى محض لا باعث عليه من الدين ولا سلطان للعقيدة فيه . ولهذا فانها تقع كثيرا بين أهل الدين الواحد والملة الواحدة ، كما تقع بين أهل الأديان والنحل المختلفة ، وتقع بين المرء وأخيه وقريبه ، كما تقع بين الأباعد والأخلاط . ومن زعم أن الباعث على هذه الحروب النصرانية الأوروبية بين الأوربيين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم من الأمم الوثنية وغيرها هو الدين ، وهو إكفار كل أمة لأختها فهو كمن زعم أن الباعث للأتراك وللأشراف ولغيرهم على حرب الوهابيين هو الدين وعقيدة الكفر فيهم . ولكن أى عاقل يزعم شيئاً من هذا . فالحروب بمجردة لم تكن قط دليلا على الاكفار أو القدح فى الاعتقاد

تكفير المستغيث بالاموات

وأما الشبهة الثانية ، وهى القولية ، فهى أن علماء أهل السنة أو علماء الوهابية فى تعبيره هو ، يذكرون فى كثير من كتبهم المطبوعة المشهورة أن أشياء كثيرة مما يأتيه المسلمون الجهال وأمثالهم من الاشياخ الأغرار كفر وضرب التوحيد والايمان فى الصميم ، فيذكرون أن الاستغاثة بالأموات ، وسؤالهم

المطالب العليا التي لايقدر عليها إلا الله ، وأن الانقطاع إلى الاجداث وكتابة الرقاع ورفعها إلى سكانها : يذكرون أن ذلك كله وأمثاله هو من أعمال المشركين ومن المنكرات التى جاءت أديان الله كلها منادية ببطلانها وفسادها ومنافاتها للتوحيد وللايمان . ويذكرون أن هذا كله وثنية فى الصورة والمعنى ، وثنية كثيفة صريحة باطلة . هذا مايذكره هؤلاء العلماء وهذا مالا شك فيه لديهم ولدى جميع العارفين بحقائق الدين .

فقال هؤلاء المعارضون المخالفون الحريصون على هذه البدع والمنكرات : إن هذه الأقوال والآراء إكفار للمسلمين ظاهر لأن المسلمين كلهم يعملون تلك الأعمال و يمتدحونها و يدعون اليها و يرونها من الدين والاسلام . فالوهابيون إذن أصحاب هذه الاقوال والآراء يكفرون المسلمين و يستحلون قتالهم وأموالهم هذه هى الشبهة القولية .

والجواب أن يقال : لاريب أن العلماء يقولون ذلك ويدونونه فى كتبهم ويصرحون به ، ولاريب فى أن ذلك حق كله لاباطل فيه كما سوف ترى الدلائل عليه . ولكن هذا لايصدق ماقاله الرافضى وإخوانه لأمرين اثنين : أول الأمرين أن هذه الأشياء المنكرة المبتدعة لم يتفق المسلمون عليها فى عصر من العصور ، لا القريبة ولا البعيدة ، ولم يتفقوا على الرضا عنها ، ولا على أنها من الدين أومما يجوز فى الدين . بل مازال المسلمون العارفون بأسرار الاسلام وحقائق الدعوة المحمدية ينهون عنها و يوردون دلائل الله على بطلانها وخلافها على دينه وشرعته ، وقد وضعوا المؤلفات الكثيرة فى هذا . فالمسلمون لم يجمعوا إذن على تلك المنكرات الباطلة حتى يقال إنه يلزم القول بأنها كفر وشرك إكفار المسلمين والحكم عليهم جميعاً بالردة والضلال . ومارضى ذلك الزور الاعتقادى إلا الجهلاء الاغبياء كما سوف يجئ البيان . فبطلت الشبهة إذن .

قد يعذر الجاهل شرعاً

وثانى الأمرين أنه لايلزم حكمهم بان الأمر كفر وشرك ، أن يكون كل فاعل له مشركا كافرا . وذلك أنه قد يكون لقيام الوصف بالفرد المعين موانع ، والموانع كثيرة . ومثل هذا دخول العامل للمعصية الخاصة الموعد عليها تحت الوعيد الخاص . فاننا نعلم أن الشريعة قد أوعدت أصناف العصاة والمذنبين بالعذاب والنكال الشديد ، ففي الزناة وعيد وفى السارقين وعيد ، وفى القاتلين وعيد ، وهكذا ، ولكن لا يلزم أن يدخل تحت ذلك الوعيد كل من قارف إحدى هذه المعاصى ، إذ قد يكون لديه مانع فى نفسه أو فى غيره يمنع دخوله تحته . وذلك المانع قد يكون أعمالا صالحة كثيرة عملها ذلك العاصى كفرت سيئاته وغفر له ذنبه من أجلها . وقد يكون المانع مصائب مؤلمة أصابته فتلقاها بالصبر والرضا والتسليم فاستحق الغفران والصفح . وقد يكون المانع غير ذلك . وهكذا هؤلاء العاملون لهذه الأعمال الباطلة الوثنية من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والانقطاع إليهم ، وكتابة الرقاع ورفعها إلى اصحاب القبور ، وغير ذلك مما ابتلى به المسلمون فغيروا به معالم دينهم وحقائقه الأولى الناصعة ـ لعل الله يقيم لهم عذرا لجهلهم والجهل قد يكون عذرا مانعا من المؤاخذة والعقاب الأخروى إذا ما كان ذلك الجاهل حسن القصد نقى النية صادق الاتجاه إلى الله ، وإذا كان حريصا على الحق وعلى العمل به متى بان ووضح له ، ومتى بذل أقصى جهده فى تطلب الحقيقة والتماسها ومتى لم يكن للهوى عليه سلطان ولا للتعصب فى وجه الحق لديه مكان . . فمثل هذا المرء قد يعذره الله ويغفر له خطأ وقع فيه رغم أنفه وأنف رغبته الشديدة الاكيدة فى أن يكون أبدا مع الحق وأن يكون أبدا مجانبا الباطل والضلال ، والله أعلم بما فى قلوب خلقه من صدق وكذب وإخلاص له واتباع للاهواء والشهوات وأعلم بمن يليق به الغفران والعفو والصفح الجميل . ونحن عباده لا نتقدم بين يديه بحكم ولا نقول عليه مالم نعلم ومالا يدخل فى دائرة حقنا ، وربك الفعال لما يريد

ولهذا نظائر شرعية كثيرة لا يمكن نسيانها ولا نكرانها .

ومما يقرب إلينا فهم ذلك ويكشفه أننا نعلم أن الميتة محرمة على المسلم تحريما باتا صريحاً ، ونعلم أن من قارف المحرم فقد تعرض لغضب الله وعقابه . ولكن لو أكل مسلم لحم ميتة غير عالم بأنها ميتة لما قيل شرعاً : إنه أكل محرماً عليه ، وإنه تعرض لما يغضب الله عليه . بل لاشك أنه فى ذلك معذور بجهله غير ملوم ولا مؤاخذ ، وأنه لم يتعرض لغضب الله ولا لعقابه . وهذا لأنه جاهل ، ولانه لم يرد أن يقارف مانهاه الله عنه ولم يقصد محادته وعصيانه تعالى . ويقرب هذا أيضا أن الله قد أوعد من لم يحكم بما أنزل أشد الايعاد فقال : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وفى آية « الفاسقون » وفى أخرى « الكافرون ». ولكن لو حكم مسلم صالح بغير ما أنزل الله غير عالم بما أنزل وغير عالم بأنه خالف ما أنزل لم يدخل تحت هذا الوعيد الصارم ، ولم يصح إطلاق ذلك عليه ولا وسمه بتلك السمة الهائلة الرائعة من الكفر والظلم والفسق والحكم بغير ما أنزل الله . بل ذلك المسلم معذور إذ أخطأ مغفور له ذنبه شأن أئمة الاسلام ، إذ لا يسلم من أن يقع فى الخطأ إنسان عدا من عصم الله من الانبياء والمرسلين . هذا مع أن ظاهر الآيات دخول كل من أخطأ حكم الله تحت وعيدها . ومثله أن المسلمين يعلمون جميعاً بأن من ترك سنة النبى عليه الصلاة والسلام أو ترك حكم الله رغبة عنه وتفضيلا لسواه عليه فهو مرتد كافر بالاجماع . ولكن كثيرين من فضلاء المسلمين وخيارهم يقع ذلك منهم اجتهادا وخطأ كثيرا . وكل من رأى منهم رأيا واجتهد اجتهادا يخالف فى نفس الأمر ما أنزل الله وما أتى عن رسوله يعتقد ويقول إن ذلك الرأى وذلك الاجتهاد المخالفين لحكم الله هما أفضل من حكم الله الذى أخطأه وعزب عنه ، ولولا ذلك الاعتقاد لما أخذ بما رآه وبما أدى إليه اجتهاده . ولكن هؤلاء المسلمين المجتهدين المخالفين لسنة النبى ولحكم الله باجتهادهم لا باختيارهم وأهوائهم لا يتناولهم

وعيد من خالف حكم الله أو سنة نبيه رغبة عنهما وتفضيلا لغيرهما عليهما .
ونظائرهذا كثيرة معلومة . وهذا كله بناء على الفرق بين العالم والجاهل ، بين الذى ترك الحق جهلا وخطأ ، والذى تركه عنادا وكبرياء ، أو زهدا فيه وتقصيرا عن طلبه . وقدفرق الدين والعقل بين الفريقين ، فلا يستويان جزاء وعقبى ، لا عند الله ولا عندعباده ، لا فى قضايا العقول ولا فى أصول الدين .

إذن لا يلزم القول بان الاستغاثة بالأموات والانقطاع إلى القبور شرك و وثنية كثيفة سخيفة أن يكون كل من وقع منه ذلك كافرا مشركا صائرا إلى مقت الله ونقمته وناره ، لجواز أن يكون للحوق هذا الحكم وهذا الجزاء بالشخص المعين مانع أو موانع ، إذ مامن حكم من الأحكام إلا وقد يكون له موانع ، سواء فى ذلك الحكم الشرعى وغير الشرعى من الوضعى والعادى والعرفى . وهذا ما يقال له : تعارض المانع والمقتضى

و بهذا البيان تبطل الشبهتان و يضح أن الوهابيين بريئون من هذه التهمة التى هى إكفار المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم وقتالهم . وما كانت براءة هؤلاء من هذه البهيتة تحتاج إلى تأليف الحجج وصناعة البراهين لولا أنه مامن قول يقال ولا رأى يبدى ، مهما أعرقا فى أنساب الباطل والضلال ، إلا وجدا آذانا سميعة وقلوبا واعية مفتحة الابواب .. فان للكذب والكاذبين أنصارا مخلصين ، كما أن للصدق وللصادقين أنصارا كذلك مخلصين ، ولكن الله الذى جعل الكذب حلوا فى مذاق الباطل جعل الصدق أحلى فى مذاق الحق. هذاما يقال عن قوله : إنهم يكفرون المسلمين ،و إنهم فرعوا على ذلك وجوب قتالهم واستحلال دمائهم وأموالهم ، و إن دارهم دار حرب وشرك تجب الهجرة منها إلى ديار الوهابيين.

لا ريب أن المسلمين قد أحدثوا فى [illegible]

وأما قوله : « و إن المسلمين قد ابتدعوا فى الاسلام » فيقال عن ذلك : لا يشك مسلم ولا عاقل غير مسلم فى أن المسلمين وقع فيهم ومنهم ابتداع كثير فى

العبادات والاعتقادات ، وفى أصول الدين وفروعه ، ولا شك أن من اعتقد بأن جميع ما يأتيه المسلمون اليوم وقبل اليوم بقرون كثيرة من الإسلام ومن صميم الدعوة المحمدية فقد أساء إلى الله و إلى رسوله و إلى دينه إساءة بالغة منكرة يستحق عليها التأديب والعقوبة الرادعة الوجيعة . ومن زعم أن دين الاسلام هو هذا الذى صار إليه جمهور المسلمين وعامتهم ودهماؤهم من الغباوات والجهالات والترهات العملية والاعتقادية والقولية ، فقد أعظم الفرية على الله وبالغ فى هجاء خيرة الأديان . وما أبعدما عليه الناس اليوم وقبل اليوم بقرون كثيرة متقادمة عما كان عليه رسول الله وما كان عليه أصحابه ، وما أعظم الفرق بين الدين فى القرآن وفى السنة و بين الدين عند عامة المسلمين ، وما أكذب من زعم أن الاسلام لم يزل نقيا طاهرا خالصا ، كما جاء وكما نزل على خاتم الأنبياء لم ينله خطل فى القول ، ولا سخف فى الاعتقاد ، ولا فضيحة فى العمل ، وما أكذب من زعم أن جميع المسلمين لم يزالوا محافظين على حقائق الاسلام الأولى ، وعلى أقواله وعقائده وكل شئ فيه كما جاء منذ جاء ، لا انحراف ولا ميل . وما أسخف من زعم أن عامة المسلمين طيلة هذه العصور العجفاء لم ينالوا دينهم — ولم ينله غيرهم فيتبعوه — بالتبديل والتغيير والافساد والتشويه ! !

فماذا يريد الشيعى بما قال ؟ أيريد أن الوهابيين قد اخطأوا إذ قالوا إن المسلمين قد أصابوا دينهم بالابتداع والخلاف له ، أم يريد أنهم أصابوا إذ قالوا ذلك ؟ أمادح هو أم قادح ؟

ما أعجب أمر الشيعة !

ما أعجب أمر هؤلاء الشيعة ! هم يقولون إن المسلمين بعد وفاة نبيهم كفروا وارتدوا ، وهذا كان مصير كبار الصحابة كالخلفاء الثلاثة ومن ساروا سيرتهم ، و يقولون إن أهل السنة جميعاً كفار مرتدون ! و بعد هذه السوءاء يقومون يردون على من قالوا إن المسلمين المتأخرين قد ابتدعوا فى دينهم وأدخلوا فيه ماليس منه

خطأ وجهلا ! نعم ، ما أعجب أمر هؤلاء الشيعة ! يعتقدون أن أهل السنة لم يزالوا يتقلبون في البدع والمنكرات والضلالات ، ولم يزالوا يتخبطون في حضيض الغوايات ، و يعتقدون أن أمر أهل السنة أكثره ابتداع في ابتداع ، وأن أصل أمرهم قائم على الابتداع ، الابتداع الكافر الموبق ، وعندهم أن أمثال أبي حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل من شر المبتدعين المحرفين للشريعة الخارجين على الدين . ومع هذا كله يقومون يدافعون عن الجهال و يغضبون لهم إذا ما قيل إنهم ابتدعوا أو أحدثوا في الدين ماليس منه خطأ وجهلا ! !

و يحك ياهذا ! أما زعمتم أن بيعة الصديق والفاروق وعثمان وخلافتهم وماقام عليها بدع منكرة ، تقلدها المسلمون و باؤا بإثمها ؟ ثم أما زعمتم أن غسل الرجلين في الوضوء بدعة ، وأن المسح على الخفين بدعة ، وأن تحريم متعة النساء بدعة ، ابتدعها عمر فقلده المسلمون فيها ، وأن صلاة التراويح بدعة ، وأن صلاة الضحى بدعة ، وأن الدعاء للخلفاء فوق المنابر يوم الجمعة بدعة ، وأن القول بالقياس بدعة وأن المذاهب الأربعة بدعة ، وأن الأذان الأول يوم الجمعة بدعة ، ابتدعها عثمان فاتبعه الناس ، وأن الكثير الغالب من عقائد أهل السنة وأعمالهم بدع فاحشة ، وأن هذا الابتداع قد نال الأصول والفروع : الاعتقاديات والعمليات ، وأن كلامهم في النبوة وفي الخلافة والامامة والالهيات ابتداع في ابتداع : أما زعمتم أن أهل السنة قد ابتدعوا ذلك كله وأنهم مازالوا يبتدعون و يغالون في الابتداع حتى عددتموهم من الفرق الهالكة ، وعددتم فرقتكم وحدها الفرقة الناجية ؟ ؟ إذن كيف تستطيعون أن تنكروا قول من قال إن كثيرين من متأخري المسلمين وجهالهم قد صاروا إلى الابتداع في دينهم من حيث لايشعرون حتى شوهوه وابتذلوه ونسخوا محاسنه وألقوا عليها حجباً من المبتدعات الرخيصة النكراء حتى رمقته الإبصار بالزراية والاحتقار

ونحن لاندرى هـل الشيعى يريد امتـداح الوهابيين أم هجاءهم حينما حكى عنهم ماحكى . وذلك أنه لايشك أحد لامن المبتدعين ولامن المحافظين المتبعين فى أن طوائف من المسلمين قـد ابتدعوا فى دينهم وأسرفوا فى الابتداع . وكل فرقة تزعم أن الفرقة المخالفة لها هى الفرقة المبتدعة ، وتزعم لنفسها أنها هى الفرقة الراشـدة المتبعة. وأهل السنة جميعاً يقولون و يعتقـدون أن جميع ماخالفت به الشيعة واختصت به دونهم هو مبتدعات بلا ريب . فلا يوجد مسلم واحد يزعم أن المسلمين جميعاً سالمون من الابتداع والانحراف عن الصراط الأول ، صراط محمد رسـول الله عليـه الصلاة والسلام وصراط صحابته الأبرار . فما معنى إذن تخصيص الوهابيين بذلك ، ومامعنى الرد عليهم إذ قالوا ماقاله كل مسـلم ؟ إننا نعـلم بالضرورة أنه لا يمكن أن يظل جميع المسلمين فى جميع العصور محافظين بدقة ووفاء على دينهم : اعتقادياته وعملياته وقولياته ، بحيث لايخطئون ولا يضلون و بحيث لايزيدون ولا ينقصون ولايغيرون ؛ و بحيث لايقولون الا الحق لا عمدا ولا خطأ . فان هذا مما لايتقبله العقل ولاالعادة التى لاتختلف ولاتخطئ . فالقول بان الابتداع قد أصاب المسلمين أمر قد دل عليه العقل دلالة لاريب فيها ، وأمر قد قضت به العادة قضاء لامرد له . هذا من جانب النظر وحكم القياس . أمامن جانب الشرع وحكمه فان نصوصه المتواترة قد دلت دلالات مختلفة لاموضع للخلاف والنزاع فيها على أن جماهير من المسلمين صائرون ولا محالة إلى ماصارت اليه الأمم الغابرة الذاهبة . وهذه النصوص سوف نورد منها جملا فى الفصل الآتى فالعقل والنص والاجماع : كل ذلك قد دل على أن جماهير المسلمين سوف يقعون فى الابتداع ولامحالة . فماذا إذن يريدأن يقول هذا المصنف الظالم ؟ ؟ إن كان يريد أن الوهابيين يزعمون أن المسلمين جميعاً قد ابتدعوا فهذا كذب ، و إن كان يريد أنهم يقولون إن طوائف منهم صاروا إلى ذلك فهذا لاينكر . فماذا يريد أن يقول؟

وقوع الابتداع ضرورى

سبي ذريات المسلمين وكذب الرافضي

وقوله : « وأما سبي ذراري المسلمين فهو مقتضى قواعد المذهب الوهابي » فالجواب على هذا أن يقال : لقد علم الخاص والعام والقاصي والداني أن الوهابيين قد التحموا في حروب كثيرة معلومة في القديم والحديث : فحاربوا الأتراك وحاربوا الأشراف ، وحاربوا غيرهم في عصور مختلفة وحالات مختلفة بقيادة غير واحد من أئمتهم آل سعود ، و إمامة غير واحد من علمائهم آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب هذا الاصلاح القائم المنشور ، وبامامة غير آل الشيخ من علمائهم المعروفين . وقد ملكوا النصر في غير موقعة من حروبهم وشتتوا قوات محاربيهم وخصومهم أروع تشتيت . ولكنهم مع ذلك كله لم يفعلوا مرة واحدة الذي اتهمهم به الرافضي الظالم ... وحروبهم ومواقعهم ليست مما يخفى على الناس ولا مما يعرفه فريق دون فريق حتى يمكن أن تروج مثل هذه الاكذوبة أو أن يخفى على أحد أمرها . ولو أمكن أن يصدق كذبه أحد وقوله : إنهم يكفرون المسلمين و يستحلون دماءهم وقتالهم وأموالهم ، لما أمكن أن يصدق قوله : إنهم يسبون ذراري المسلمين ونساءهم . وذلك أن هذا كذب مكشوف مفضوح وهو مثل أن يقول إن الوهابيين حينما فتحوا الحجاز الفتح الأخير قتلوا جميع النساء والأطفال وحرقوا جميع البلاد ونهبوا جميع ما فيها من الأموال والمتاع ، وأنهم هدموا بيت الله الحرام وصدوا الناس عن أداء الحج . . . فان كان لا يجرؤ على اختلاق هذا الكذب لأنه لن يصدقه ديار فليعلم أن زعمه أنهم يسبون ذراري محاربيهم من المسلمين مثل ذلك . فليكذب إن شاء أو ليدع .

ياهذا ! إن الوهابيين ليسوا من سكان المريخ ولا من سكان الاجرام العلوية حتى يحتمل كل هذا الكذب عليهم ، بل هم سدنة بيت الله وجيرة حرمه ، يلتقي بهم المسلمون كل عام من كل فج وصوب ، و يعرفون عنهم وعن عقائدهم ودينهم مالا يعرفونه عن أهل بلادهم التي ولدوا و ربوا فيها . فالمسلمون لا يجهلون

أمر الوهابيين ولا يخفى عليهم ماهم عليه من الديانة واستقامة المذهب ونصاعة الاعتقاد . فالكاذب عليهم مسئ إلى نفسه لا إليهم ، محتقر لمن أراد منهم أن يقبلوا كذبه و إن أراد احتقارهم .

وأما زعمه أن سبي الذرية هو مايقضى به المذهب الوهابى ، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك كانوا متناقضين ، لأنهم يكفرون المسلمين وذريات الكفار المحاربين تسبي وتستحل ، فالجواب عن هذا الزعم أمران : أولهما أننا قد بينا أنهم بريئون من إكفار أحد من المسلمين ، وأن هذه دعوى كاذبة عليهم . وثانى الأمرين أن نذكر الشيعى بحروب على بن أبى طالب وحروب أئمة الشيعة الآخرين .. فان على بن أبى طالب قد حارب عسكر طلحة والزبير وعائشة وحارب جيش معاوية ابن أبى سفيان ، وحارب الخوارج .وهؤلاء الذين حاربهم على رضى الله عنه كلهم كفار مرتدون عند الشيعة لايشكون فى كفرهم ولافى ارتدادهم . ولكن عليا لم يسب ذرية هؤلاء الكفار المرتدين ولم يستبح شيئاً من ذلك ، مع أنه قاتلهم وتغلب عليهم أحيانا ، ومع أنه معصوم لدى هؤلاء القوم لا يقول ولا يفعل إلا الحق الصواب و إلا ما أراده الله . وهذا لاخلاف فيه عندهم ، فما جواب المعارض عنه وما رأيه فيه ؟ أيقول إن علياً كان متناقضا إذ لم يسب الذرية ، أم يقول إنه كان مخطئا ضالا ، أم يقول إن أولئك القوم كلهم ليسوا كافرين ولا مرتدين بل هم مسلمون مؤمنون ؟؟ إنه لايقول شيئاً من ذلك كله لأنه خلاف مذهبهم المجمع عليه . فماذا يقول و بماذا يجاوب ؟ ليفكر فى الجواب طويلا .

وماذا يقولونه فى حروب على بن أبى طالب ؟

وأما قوله : « إنهم قسموا التوحيد إلى نوعين توحيد الربوبية، وهو الاعتقاد أن الله هو الخالق المالك للأمر ، وتوحيد العبادة ، وهو صرف العبادة كلها لله » فالجواب أن نقول : ما كنا نظن أن مسلما يخالف فى أنه مطلوب من المسلم أن يؤمن بان الله هو الخالق لكل شئ وهو المالك المدبر لجميع الأمور ، لا شريك

توحيد الالوهية وتوحيد الربوبية

ولا مُعين له ، ثم مطلوب منه بعد ذلك أن يصرف عبادته كلها ظاهرها وباطنها ، صورها وحقيقتها إلى ذلك الخالق الرازق القابض على ناصية كل شئ ! ولاخلاف بين المسلمين فى أن هـذين الأمرين هما أول مايطالب به المسلم ليكون مسلما مؤمنا موحـدا ، ولا خلاف بينهـم فى أن المرء لا يكون مسلما ناجياً إلا إذا جمع الأمرين لله ثم أخلص فى جمعه لهما ظاهراً وباطناً ، ولاخلاف بينهم فى أن أحدهما لاينفع دون الثانى ولا ينجو به العبد من عذاب الله وعقابه ، ثم لاخـلاف بينهم فى أنهما أمران متباينان متغايران مفهوماً وحقيقة ، لفظا ومعنى . كل هذا لاخلاف فى شئ منه بين المسلمين وإن اختلفوا فى ماعـداه من الأصول والفروع . فماذا إذن يريد الشيعى بما قال ، أهو جاد أم هازل ؟

لا ينجو المرء الا بالتوحيدين معا

ولا يجهل أحد من الناس أن من آمن بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور صغيرها وكبيرها ، لا شريك له ولانديد ، ثم وقف عنـد هذا إزاء ربه وذهب يعبد غيره من الأموات أو من الأحياء : لا يجهل أحد أن مثل هذا المرء مشرك بالله العظيم كافر به ، مصيره إلى عذاب الله وأليم عقابه . ولايجهل أحـد من الناس أن هذا ممكن ، أى ممكن أن يؤمن العبد بأن الله هو الخالق وحـده ، الفاعل لكل شىء ثم بعد هـذا الايمان يظل يعبد خلقه تعالى عـلى اعتبار من الاعتبارات ووجـه من الوجوه التى تلقى بالانسان أحيانا كثـيرة فى حضيض الشرك وتحت أقـدام المخلوقين الضعفاء العاجزين ، يعبدهم ويرجوهم كما يعبـد ويرجو ربه العبد المؤمن الموحد الخالص من الشرك والضلال . ولا يجهل أحد أن المؤمن بالله حقا ، الموحد حقا ، هو من آمن بأن الخلق والأمر كله لله رب العالمين ، ثم خص صاحب الخلق والأمر بعبادته كلها . فان من خلقك وحـده كان من حقه عليك أن تعبده وحده ، ومن لم يخلق فيك شيئاً لم يكن من الحق أن تهبه من عبادتك شيئاً ، وإلا كنت من الجاهلين الظالمين المعتدين . ومن شر الجهل أن

تجهل حق من وهبك الوجود والحياة وكل شيء فيك وكل شيء لك ... ثم لا يجهل أحد أن هذين الأمرين ، أو التوحيدين ، أمران مختلفان متباينان حقيقة ومفهوماً واشتقاقاً ومادة ، وأن أكثر الذين نازعوا الرسل والأنبياء الطاعة والايمان كانوا مقرين بالتوحيد الأول منكرين للثاني لا غير . وقد دل على ذلك جملة القرآن وجملة الدين ، قال الله تعالى «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» قال المفسرون من السلف والخلف فى معنى الآية : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله ، ومع هذا يعبدون غيره من الأوثان والاصنام . والآيات فى هذا المعنى كثيرة معلومة ، وسوف نورد منها نماذج فيما يأتى وفى غضون الكتاب كله . وقد ذكر القرآن وجه الجمع بين هذا التوحيد وهذا الشرك عند المشركين فقال : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، وقال : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . فعقيدة المشركين والمؤمنين قائمة على التسليم بأن الله هو غاية الغايات ، المنفرد بصفات الخلق والرزق والايجاد وسائر معانى التكوين ، لا شريك له فى ذلك ولا معين . . . أما الآلهة المعبودة من دونه تعالى فغاية ما يرجونه منها جزاء عبادتها أن تقوم بوظيفة تقريبهم إلى الاله الأعظم ، غاية كل موجود ، ومصدر كل خير ولطف فى هذا الوجود ، وأن تؤدى وظيفة الوسيط الصادق المخاص بينهم وبين رب العالمين . فهم معترفون بتوحيد ، منكرون لتوحيد ، ولكن ذلك الاعتراف لم ينفعهم شيئاً مع ذلك الإنكار . فلم يجدهم توحيد الربوبية وهم مشركون فى توحيد الألوهية . فكان من أغراض ابتعاث الرسل أن يدعوا هؤلاء المشركين فى العبادة إلى التوحيد فيها . وكانت دعوتهم جميعاً لأقوامهم : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ، «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » . ولهذا لم يكلفوا دعوة أقوامهم إلى الايمان بوجود الله والايمان

إيمان المشركين بأن الله الخالق لكل شيء

بأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، إلا فى ما قل وشذ كفرعون ، وذلك الذى حاج إبراهيم فى ربه ـ على خلاف فى هذا ـ و إنما كلفوا أن يدعوا أقوامهم إلى إخلاص العبادة كلها لله . ولهذا يقل أن تجد فى القرآن إذ تقرأ قصص الأنبياء وقصص أقوامهم أن نبيا من الانبياء قال لقومه : آمنوا بأن الله الخالق لكم الخالق لكل شىء ، أو قال لهم : اعلموا أنه لا خالق إلا الله ، أو مالكم تعتقدون بأن مع الله خالقين آخرين متعددين أو نحو ذلك . ولاجاء أنهم أنكروا توحيد الربوبية أو نازعوا أنبياءهم فيه ، وما كان إنكارهم إلا مثل ماقالوا : « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب » . ولا خلاف فى أن الكلمة التى يطالب بها المشرك ليكون مسلما هى كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأنه لو قال : لا خالق إلا الله لما صار بهذه الكلمة مسلماً ولا مؤمناً . وهذا لأن الكلمتين مختلفتان ، ولأن المشركين كانوا مؤمنين بالثانية دون الأولى . ومن ثم كانت كلمة : « لا إله إلا الله » أفضل الكلام كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله . وقد جاءت هذه الكلمة فى مالا نقدر على إحصائه من الأذكار : والمسلمون يقولونها فى مواضع يعز احصاؤها وحصرها من مواضع عباداتهم اليومية وغير اليومية ، ويقولها المسلم فى يومه وليلته عشرات المرات ، بل مطلوب من كل مسلم أن تكون هذه الكلمة هى هجيراه وأنشودته المرتلة فى الليل والنهار ، وأن لايزال لسانه رطبا بها ، وقلبه محشوا بمعناها : يفزع إليها كلما حزبه حازب ، وكلما هم بالاقدام على أمر جسيم أو غير جسيم . وقد كان ﷺ يقول لما سأله عمه أبو طالب ما تريد من قومك يا ابن أخى ؟ فيقول : « أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية » قال كلمة واحدة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « كلمة واحدة . قولوا لا إله إلا الله » فيقولون «أجعل الآلهة إلها واحداً . إن هذا لشىء عجاب » .

الكلمة التى يصير بها المرء مسلما

كلمة لا خالق إلا الله ليست من الذكر المرغوب فيه

وأما كلمة لا خالق إلا الله فلم يرد على ما أذكر أنها من الذكر المرغوب فيه المثاب عليه . بل لا أذكر أنها من الأذكار الاسلامية مطلقا ، بل هى مثل أن يقال : الله موجود وأزلى وقديم وأبدى ، ونحو هذا مما يشترك فى الاقرار به ومعرفته المؤمن والكافر والموحد والمشرك ، ومما لا يدل على الاقرار لله بالعبودية التى عليها يقوم الحساب ، والثواب والعقاب . فالكلمتان مختلفتان معنى ولفظا ومادة واشتقاقاً . والتوحيد توحيدان : توحيد عبادة وتوحيد ربوبية ، والاسلام مؤلف من التوحيدين معاً ، والثواب لا ينال إلا بهما معاً ، والتوحيدان غير متلازمين ، فقد يوحد توحيد الربوبية من ينكر توحيد العبادة ، وهذا كان شأن المشركين ، وهذا هو مرض الانسانية فى كل عصورها ، وهذا هو المرض الذى أصاب جماهير من المسلمين كما أصاب سواهم من أهل الأديان الأخرى. فأصابهم غضب الله ومقته . . . وهذه أمور أولية لا يختلف فيها أهل العلم . ولو أردنا إيراد النقول فيها لطال بنا القول . وسوف تجئ أشياء من ذلك فى أثناء الكتاب وفى مواضع منه . فلا ندرى ماذا ينكر الرافضى وماذا يعيب على الوهابيين . والأفظع قوله : « وقالوا الكفر نوعان : مطلق ومقيد ، فالمطلق أن يكفر بجميع ما جاء به الرسول، والمقيد أن يكفر ببعضه . . . »

وما كنا نحسب أن إنساناً بلغ رتبة التأليف فى أصول الدين وكبريات المسائل الالهية يروح ينازع فى أن الكفر منه مطلق ومنه مقيد ، وأن الكافر قد يكفر بالكل وقد يكفر بالبعض و يؤمن بالبعض الآخر . وأن الناس منهم قوم خالصون للكفر والالحاد والانكار العام التام ليس فيهم للايمان شئ ، ومنهم فريق آخر آمن وكفر ، آمن بشىء وكفر بشىء . وقد قال الله فى هذا الفريق: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ، وقال : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا

للكافرين عذاباً مهيناً » .وقال : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»

الكفر المطلق والكفر المقيد

ومن ذا يشك فى أن من آمن بالقرآن كله خلا سورا أو آيات ، أو آمن بالقرآن كله ثم كفر بالسنة كلها ، أو آمن بفرائض الاسلام كلها ما عدا فريضة الصلاة أو الصيام أو الحج ، أو آمن بالجنة وكفر بالنار ، أو آمن بالثواب وكفر بالعقاب ، أو آمن بالغيب كله ثم كفر بالملائكة أو بالجان : من يشك فى أن من آمن كذلك فهو كافر ببعض مؤمن ببعض فهو كافر كفراً مقيدا ؟ ؟ ومن ذا يشك فى أن من كفر بذلك كله وبالأديان كلها وبالاله وبالانبياء والكتب كلها : من يشك فى أن ذلك كافر كفرا مطلقا ، كفرا تاماً خالصا ؟

وإذا كان هذا لا ينازع فيه إنسان فما ينكر الشيعى على الوهابيين إذ قالوا : إن الكفر منه مطلق ومنه مقيد ، ومنه الكفر بكل والكفر ببعض ، ومنه التام ومنه الناقص ، وهذا يقوله الناس جميعاً : يقوله المؤمن ويقوله الكافر ، لا يختلفون فيه لأنه بدهى ضرورى لدى الجميع ، لأن العلم به من العلم بأن للشىء المنقسم كلا وجزءاً وأن الكل أكبر من الجزء أبدا ؟

إذا كان مثل هذه المقالة من معايب الوهابيين وأخطائهم عند الشيعة فلا أقل الله معايبهم وأخطاءهم ، ولا أكثر من صواب مخالفيهم وفضائلهم ، إذا كانت هى ما يحدو به هذا الشيعى وإخوانه .

هذا ومن الأكاذيب التى ذكرها فى الفصل المذكور أنه روى نقلا عن شيخ الكذب دحلان أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان ينهى الناس عن الصلاة والسلام على النبى ليلة الجمعة ، وأنه قتل مؤذناً صالحا كان يجهر بذلك فوق المنارة بعد أن نهاه فلم يدع ، وأنه قال : إن صوت الربابة فى بيت الزانية لأقل إثما ممن ينادى بالصلاة فوق المنارات ، فهذا كله من الكذب المفضوح .

﴿ هل المسلمون فى أمان من الشرك ؟ ﴾

ثم قال الشيعى فى خاتمة هذا الفصل : « وحيث ذكرنا معتقدات الوهابية إجمالا فيناسب أن نذكر هنا بعض مايدل إجمالا على فساد شبهتهم بشرك جميع المسلمين وهو مارواه البخارى ومسلم أن النبى عليه الصلاة والسلام قال « إنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ولكن أخاف الدنيا أن تنافسوا فيها » وفى رواية لمسلم « أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من قبلكم » . ولو كان كما زعمت الوهابية من أن الناس أشركوا قبل ظهورهم وأنهم جاءوا ليدعوهم إلى التوحيد للزم تكذيب هذه الأحاديث كلها . وقوله ﷺ « إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلدكم هذا أبدا ولكن ستكون له طاعة فى بعض ماتحقرون من أعمالكم فيرضى بها » . رواه أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه . وهذا ينافى حكم الوهابيين بإشراك أهل مكة ، بل قالوا إنهم لم يروا بلدا تعبد فيه الأموات والقبور مثل مكة . وقوله عليه الصلاة والسلام « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن رضى منهم بما دون ذلك،بالمحقرات وهى الموبقات» رواه الحاكم وصححه وأبو يعلى والبيهقى . وفى رواية أنه عليه السلام قال : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب» ومكة والمدينة من جزيرة العرب قطعا بل قد حكى فى النهاية عن أنس بن مالك أنه قال أراد بجزيرة العرب المدينة نفسها.وهذا ينافى حكمهم بإشراك أهل الجزيرة بعبادة الأصنام عدا نجدا .وقال عليه السلام : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » ذكره ابن الأثير فى النهاية . وفيه من المبالغة فى ثبوت الإيمان ورسوخه فى المدينة مالا يخفى المنافى لما يدعيه الوهابية من رسوخ الكفر فيها وجعل بلادهم بلاد الايمان » انتهى كلام الرافضى . ونقول : يريد الشيعى أن يقول إن هذه الأحاديث نصوص صريحة فى أن المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا ، والوهابيون يزعمون أنهم قد

يأس الشيطان أن يعبد فى جزيرة العرب

كفروا وأشركوا ، أو قد أشرك وكفر طوائف منهم ، فالوهابيون كاذبون غالطون.

وعلى هذا يجب أن يقال إن كل مايقع من المسلمين مما يحاكى الشرك والكفر أو مما يقال إنه كفر أوشرك ليس كفرا وليس شركا . وذلك كالاستغاثة بالأموات والانقطاع إليهم والعكوف على أجداثهم رغبة ورهبة ، لأن هذا كله مما فعله المسلمون وأقروه ورضوه ، والمسلمون كلهم أعمالهم كلها إسلام وإيمان وهم لن يفعلوا ماهو شرك وماهو كفر ولن يرضوا ذلك أو يقروه للأحاديث السابقة . فهذا الذى يقع فى أضرحة المشايخ من عامة المسلمين وجهالهم ليس بمناف للاسلام ولا بمخالف لأصوله ولا لفروعه بل هو كله من الدين ومن عمل المسلمين . فما قال الوهابيون فى هذه المطالب وما كتبوه وذكروه وانتحلوه باطل باطل وخطأ خطأ.

هذا مايريد أن يقوله الشيعى ، والجواب أن نقول : إما أن يريد أن هذه النصوص دلائل على أن المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا كلهم ، أو يقول : إنها دلائل على أنه لن تقع طوائف منهم فى شئ من ذلك ، وعلى أنه لن يكفر ولن يشرك أحد من المسلمين ولا أحد من أهل مكة والمدينة والحجاز والجزيرة العربية . ولا انفكاك له من أن يريد أحد الأمرين .فان كان يريد الأول قلنا هذا حق وصدق فان المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا كلهم ، بل لن تزال طائفة منهم على الحق لايضرهم خاذلهم ولا مخالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، ولن يزال هذا الدين القيم قائما فى الأرض معروفا بين طوائف من أهله وإن قلوا وضعفوا . هذا حق لاريب فيه . وأما إن كان يريد الثانى أى يريد أنه لن يشرك أحد من المسلمين أو يكفر ، ولن يقع فى الحجاز أو بلاد العرب أو البلاد الاسلامية شئ من الشرك والكفر والخروج عن الاسلام الصحيح ، قلنا : هذا ممنوع باطل ، ليس صحيحاً لاعقلا ولا نقلا ولا نظرا . بل إن المسلمين كغيرهم من أهل الأديان الأخرى السابقة لابد أن يقع منهم التغيير والتبديل والخروج على دينهم الصحيح المأثور،

ولا بد أن تترامى طوائف منهم فيما ترامت به الامم الاولى من الشرك والكفر والجهل والخروج على أمهات الدين الجلية الواضحة ، وهذا ماتدل عليه النصوص والنظر : أما النصوص من الاسلام نفسه فانها متواترة فى أن جماعات من المسلمين سوف يصابون بداء الأمم وداء الانسانية العتيد التليد، بعبادة المخلوقين العاجزين الضعفاء ، و بعبادة الأموات من أهل الصلاح وأهل الفساد أيضا . وإذا دلت النصوص على ذلك دلالة واضحة لاريب فيها لم يصح هذا الاحتمال ولا ذلك التأويل.

﴿ بعض النصوص الدالة على أن طوائف من المسلمين يصيرون إلى الشرك ﴾

قال مسلم فى صحيحه بتبويب الامام النووى : باب ذهاب الايمان فى آخر الزمان . حدثنى زهير بن حرب ... عن أنس بن مالك أن رسول الله قال « لاتقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله » وفى رواية « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله . الله » وفى رواية غير مسلم « لا تقوم الساعة وفى الارض من يقول لا إله إلا الله » رواه الامام أحمد . وقال أيضا مسلم فى آخر الصحيح بتبويب النووى : باب اتباع سنن اليهود والنصارى . حدثنى سويد بن سعيد . . . عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله . قال « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا فى جحر ضب لا تبعتموهم » قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال « فمن؟؟» وهذا الحديث ينقله علماء الشيعة عن أئمتهم ويدعون أنه متواتر ويحتجون به على الرجعة والايمان بها ففى كتاب النجعة فى الرجعة « وقد روى الخبر المذكور بعينه و بمضمونه (يشير إلى هذا الحديث) فى كثير من أصول الشيعة وجوامعهم . ففى عيون أخبار الرضا فى رواية حسن بن الجهم وسؤال المأمون للرضا : ماقولك يا ابن رسول الله فى الرجعة فقال حق ، وكانت فى الأمم السابقة وقد نطق بها القرآن . وقال رسول الله « يكون فى هذه الامة كل ما كان فى الأمم السابقة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة » . وقد ورد أيضا فى الفقيه و إكمال الدين

اتباع المسلمين للامم الغابرة واعتراف الشيعة بذلك

الدين ، ومختصر البصائر ، والكافى ، وإعلام الورى ، والاعتقادات لابن بابويه[1]
ونقل نظيره الكشى والعياشى فى كتاب الاحتجاج والخرائج والجرائح فى ذيل
خطبة سلمان ، وذكره الطبرسى فى مجمع البيان ،وحسن بن خازن القمى وابن طاوس
فى كشف المهجة والمجلسى والقمى فى الاربعين ، والسيد بن طاوس أيضا فى كتاب
الفتن والملاحم بعدة طرق. وبالجملة الخبر من المتواترات ، وهو يصرح بأنه لابد
من أن يقع فى هذه الامة كل ماوقع فى الامم السالفة . ومنها إحياء الموتى ، فلا
بد من وقوعه فى هذه الامة . ونقل الميرزا محمد الاسترابادى خطبة سلمان فى ترجمته
وفيها ذكر ذلك الحديث عن عبد الله بن سنان عن الصادق قال : خطب سلمان
فقال : الحمد لله الذى هدانا لدينه بعد جحودى إلى أن قال : قال رسول الله فى حق
على : « وصيى وخليفتى » إلى أن قال : وقال « لتركبن طبقا عن طبق سنة بنى
إسرائيل القذة بالقذة » انتهى كلام النجعة . . ص ٢٥ . ثم قال مسلم بتبويب
النووى . باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة . حدثنى محمد بن رافع[1] . . .
عن أبى هريرة عن رسول الله قال : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء
دوس حول ذى الخلصة » وكانت صنما تعبدها دوس فى الجاهلية . حدثنا أبو
كامل الجحدرى . . . عن عائشة قالت سمعت رسول الله يقول: « لا يذهب الليل
والنهار حتى تعبد اللات والعزى » . وقال أيضا بتبويب النووى : باب رفع العلم
وقبضه وظهور الجهل والفتن فى آخر الزمان . حدثنا شيبان بن فروخ . . . عن
أنس بن مالك قال قال رسول الله : « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت
الجهل ، ويشرب الخمر ويظهر الزنا ». حدثنا محمد بن عبدالله . . . قال قال رسول الله :
« إن بين يدى الساعة أياما يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج ،
والهرج القتل » . حدثنى حرملة بن يحيى . . . أن أبا هريرة قال قال رسول الله: « يتقارب
الزمان ويقبض العلم وتظهر الفتن ويلقى الشح ويكثر الهرج » . قالوا : وما الهرج؟

بادة اللات والعزى والاصنام

قال القتل . حدثنا قتيبة بن سعيد ... سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول سمعت رسول الله يقول : « إن الله لايقبض العلم انتزاعا من الناس ولـكن يقبض العـلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير عـلم فضلوا وأضلوا » . وقالا أى مسـلم والنووى : باب فى خروج الدجال ومكثه فى الأرض ونزول عيسى وقتـله إياه وذهاب أهل الخير والايمان و بقاء شرار الناس وعبادتهم الاوثان . ثم ذكر مسـلم الأحاديث الدالة على أن أهل الخير والايمان يذهبون فلا يبقى إلا شرار الناس الذين لايعرفون معروفا ولا ينـكرون منـكراً ، وأن الشـيطان يتمثل لهـم ويدعوهم إلى عبادة الاوثان فيستجيبون . وذكر أحاديث الدجال وأتباعه وأنه يطأ كل البلاد ماخلا مكة والمدينة .

وقال البخارى فى الصحيـح : باب قول النبى عليه السلام : لتتبعن سنن من كان قبلـكم . حدثنا أحمد بن يونس . . . عن أبى هريرة أن النبى قال : « لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع » فقيل يارسول الله : كفارس والروم ؟ فقال « ومن الناس إلا أولئك » : !! حـدثنا محمـد بن عبدالعزيز... عن أبى سعيد الخدرى عن النبى عليه السلام قال :« لتتبعن سنن من كان قبلـكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لودخلوا جحر ضب تبعتموهم».قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ ! قال . « فمن » وقال البخارى : باب تغير الزمان حتى تعبد الاوثان . حدثنا أبو اليمان . . . أخبرنى أبو هريرة أن رسول الله قال « لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذى الخلصة» ، وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية . وقال فى باب علامات النبوة : حدثنا يحيى بن موسى . . أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافـة أن يدركنى فقلت يارسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعـد هذا الخير من شر ؟ قال نعم . قلت

وهل بعد هـذا الشر من خير ؟ قال نعم وفيـه دخن ، قلت ومادخنه ؟ قال قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنـكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال نعم ، دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها ، قلت يارسول الله صفهم لنا ، قال هم من جلدتنا و يتـكلمون بألسنتنا ، قلت فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين و إمامهم ، قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت عـلى ذلك . وروى هو ومسلم وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال ليذادن أقوام يوم القيامة عن حوضى فأقول يارب أصحابى أصحابى ، فيقال : إنك لاتدرى ما أحـدثوا بعدك ، إنهم مازالوا مرتدين على أعقابهم ، فأقول بعدا بعدا لمن بدل بعدى . ومن هـذا الباب حديث افتراق الامة المشهور الذى قيل فيه « وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة » . قيل من هى يارسول الله ؟ قال « هى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . ومن ذلك حديث الغربة المعروف الذى رواه مسلم فى الصحيح وهو قوله عليه الصلاة والسلام : بدأ الإسلام غريبا وسـيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء . وعن ثوبان قال قال رسول الله لاتقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان ، و إنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهـم يزعم أنه نبى وأنا خاتم النبيين لانبى بعدى . رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح . وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : لاتقوم الساعـة حتى يرجع ناس من أمتى إلى أوثان يعبدونها من دون الله . رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده . وقال الحافظ الهيثمى فى كتاب مجمع الزوائد : باب فى اتباع سـنن من مضى . عن سهل بن سعد الأنصارى عن النبى عليـه السلام قال « والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلـكم مثلا بمثل » وعن شداد بن أوس عن رسول الله قال : « ليحملن

شرار هذه الامة على سنن الذين خلوا من أهل الكتاب حذو القذة بالقذة » رواه أحمد والطبرانى ورجاله مختلف فيهم . وعن ابن عباس قال قال رسول الله : « لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعاً بباع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه لفعلتم » . رواه البزار ورجاله ثقات . وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله : « أنتم أشبه الأمم ببنى إسرائيل لتركبن طريقهم حذو القذة بالقذة حتى لايكون فيهم شئ إلا كان فيكم مثله ، حتى إن القوم لتمر عليهم المرأة فيقوم إليها بعضهم فيجامعها ثم يرجع إلى أصحابه يضحك لهم ويضحكون إليه » . رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه . وعن المستورد بن شداد أن رسول الله قال : « لاتترك هذه الأمة شيئا من سنن الأولين حتى تأتيه » . رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات . ثم قال الهيثمى : باب نقض عرى الاسلام . عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله قال « لتنتقض عرى الاسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » . رواه أحمد والطبرانى ورجالهما رجال الصحيح . وقد ذكر الهيثمى أحاديث كثيرة فى هذا المعنى .

إلى غير ذلك من الأخبار الصحاح الدالة على أن أهل الاسلام يغيرون كما غير من كانوا قبلهم . والأخبار فى هذا متواترة لايختلف أهل العلم فى صحتها وصحة دلالتها ، ولايختلفون فيما دلت عليه من أن طوائف من المدعين للاسلام يفسقون عن الاسلام الصحيح ويتنكبونه ويأخذون عنه ذات اليمين وذات الشمال ويقعون جهالة وضلالة فى الاشراك الجلى والخفى وفى الكفر الأصغر والأكبر ، بل وفى الالحاد والردة . وهذا كله مشهود مرئى يسمو على النزاع والخلاف سمو المحسوسات على ذلك . وقد وضع الفقهاء جميعا على اختلاف مذاهبهم أبوابا خاصة بأحكام المرتدين من المسلمين ، يقولون من قال كذا أو فعل كذا فقد ارتد ،

ويقولون : إن حكم المرتد المغير لدينه القتل الناجز لقوله عليه الصلاة والسلام : من بدل دينه فاقتلوه . وما اعترض أحد من أهل العلم على أبواب أحكام المرتدين ولا قال لماذا هـذا والمسلمون لايرتدون لقول النبى « إن الشيطان قـد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب » ولقوله « وإنما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى » ولم يكن شئ من هذا لأن المسألة أظهر من أن يتناولها هـذا الخلاف . فالمسلمون لايتنازعون فى أن طوائف من المنتسبين للاسـلام ارتدوا وكفروا .ولا يختلفون أن هذا يقع لها كل عصر ، كما لايختلفون أن جماعات من العرب ارتدوا بعد وفاة النبى عليه السلام فقاتلهم الصديق وقاتلهم الصحابة ، وقد قام متنبئون كاذبون فى جزيرة العرب فضـل بهم أقوام من المسلمين فقاتلهم الصحابة وقاتلهم الصديق فاجتثوا أصولهم ، وكل هذا معروف . وهنالك فى كتب الفقه والحـديث كتاب يسمى بكتاب قتال المرتدين أى المرتدين من المسلمين ،يذكر فيه أحكام الاسلام فيمن يكفرون ويشركون من أهل الاسلام وكيف يقاتلون . وكل هذا لاخلاف فيه كما قلنا ، ففيم خـلاف الشيعى وفيم لغطه ؟ ؟ ! كيف ونحن نرى أمما كانت عريقة فى الاسلام أثيلة النسب فى الدين المحمدى ، تنادى حكوماتها اليوم بحرب الإسـلام ومطاردة قرآنه ولسانه وتهـدم المساجـد وتتحدى المصلين والمتقين وتغذى نشأها وبنيها بعداء القرآن ومحمد والاسلام والمسلمين ومايتصل بذلك من لغة وأدب وعادات ؟ كيف ذلك وقـد تقلبت الامور بالاسـلام والمسلمين حتى صرنا نسمع جميع خطباء المساجد يلهجون بالخبر المشهور « إنه لم يبق من الاسلام إلا اسمه ، ولامن القرآن إلا رسمه » وقد شهدنا المستمعين يطربون لهذه الـكلمة لانهـم يجدون صدقها فى كل مكان وفى كل بلاد المسلمين وفى أنفسهم أيضا . ويناسب هذا أن نورد كلمة قالها أحد أئمة القرن الثامن الهجرى فى التفجع على غربة الاسلام وانطماس سننه وفشو البدع والمنكرات . ذلك هو ماذكره الامام

كلام الشاطبي في فساد الناس وفي فشو البدع والمحدثات

الشاطبي في كتابه « الاعتصام ». قال في أول ذاك الكتاب تعليقا على حديث بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ : « ثم استمر تزايد الاسلام واستقام طريقه مدة حياة النبي ومن بعد موته وأكثر قرن الصحابة إلى أن نبغت فيهم نوابغ في الخروج عن السنة وأصغوا إلى البدع المضلة كبدعة القدر وبدعة الخوارج ، ثم لم تزل الفرق تكثر حسبما وعد به الصادق عليه السلام في قوله : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » . وفي الحديث الآخر : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم » . . وكان الاسلام في أوله مقاوماً بل ظاهرا وأهله غالبين ، وسوادهم أعظم الأسودة . . . فسار على استقامة وجرى على اجتماع واتساق ، إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود ، وقوته إلى الضعف المنتظر ... وتكالبت على سواد السنة البدع والاهواء فتفرق أكثرهم شيعاً ، وهذه سنة الله في الخلق : أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل ، لقوله تعالى : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقوله : « وقليل من عبادي الشكور » . ولينجزن الله ماوعد به نبيه عليه الصلاة والسلام من عود وصف الغربة إليه ، فان الغربة لاتكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم وذلك حين يصير المعروف منكرا والمنكر معروفاً ، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة ، فيقام على أهل السنة بالتثريب والتعنيف كما كان أولا يقام على أهل البدعة طمعا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة ، فلا تجتمع الفرق كلها على كثرتها على مخالفة السنة عادة وسمعاً بل لابد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله ، غير أنهم لكثرة ماتناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة والبغضاء — إستدعاء إلى موافقتهم — لا يزالون في جهاد ونزاع ومدافعة وقراع ، فيضاعف الله لهم الأجر الجزيل ... فلما أردت الاستقامة على الطريق

وجدت نفسى غريباً فى جمهور أهل الوقت لكون خططهم قدغلبت عليها العوائد ودخلت على سننها الاصلية شوائب من المحدثات الزوائد ؛ ولم يكن ذلك بدعاً فى الازمنة المتقدمة فكيف فى زماننا هذا ؟ فقد روى عن السلف الصالح من التنبيه على ذلك كثير ، كما روى عن أبى الدرداء أنه قال : لو خرج رسول الله عليكم ماعرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة . قال الأوزاعى : فكيف لو كان اليوم ! قال عيسى بن يونس : فكيف لو أدرك الأوزاعى هذا الزمان ! وعن أم الدرداء قالت : دخل أبو الدرداء وهو غضبان ، فقلت : ما أغضبك ؟ فقال والله ما أعرف شيئاً فيهم من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعاً . وعن أنس ابن مالك قال : ما أعرف منكم ما كنت أعهده على عهد رسول الله غير قولكم : لا إله إلا الله . قلنا : بلى يا أبا حمزة . قال : صليتم حتى تغرب الشمس ، أفكانت تلك صلاة رسول الله ؟ وعن أنس قال : لو أن رجلا أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ماعرف من الاسلام شيئاً ، قال ووضع يده على خده ثم قال إلا هذه الصلاة . ثم قال : أما والله على ذلك لمن عاش فى هذا المنكر ولم يدرك ذلك السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فعصمه الله من ذلك وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح يسأل عن سبلهم ويقتص آثارهم ليعوض أجراً عظيما ، وكذلك فكونوا إن شاء الله . وعن ميمون ابن مهران قال : لو أن رجلا أنشر فيكم من السلف ماعرف غير هذه القبلة . وعن سهل بن مالك قال : ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة .. إلى ما أشبه هذا من الآثار الدالة على أن المحدثات تدخل فى المشروعات وأن ذلك قد كان قبل زماننا ، وإنما تتكاثر على توالى الدهور إلى الآن

« فتردد النظر بين أن اتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد ، فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفى العوائد ، لاسيما إذا ادعى أهلها أن ماهم عليه هو

السنة لاسواها ، إلا أن فى ذلك العبء الثقيل مافيه من الأجر الجزيل ، وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح فأدخل تحت ترجمة الضلال — عائذا بالله من ذلك . إلا أنى أوافق المعتاد وأعد من المؤالفين لامن المخالفين ، فرأيت أن الهلاك فى اتباع السنة هو النجاة ، وأن الناس لن يغنوا عنى من الله شيئاً . فأخذت فى ذلك على حكم التدريج فى بعض الأمور ، فقامت على القيامة ، وتواترت على الملامة ، وفوق العتاب سهامه ، ونسبت إلى البدعة والضلالة ، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة . . . »

هذا بعض ماذكره الامام الشاطبى فى مقدمة كتابه « الاعتصام » وقد أطال الكلام فى هذا النحو ، والكتاب كله موضوع للكشف عن البدع وأصولها ، وعما أصاب السنة والشريعة الغراء من أحداث ومبتدعات نكراء .

كلام ابن وضاح فى فشو البدع والمحدثات

وقد ألف محمد بن وضاح القرطبى الأندلسى أحد أئمة القرن الثالث الهجرى كتابا قيما فى هذا الموضوع سماه « البدع والنهى عنها » جاء فيه بالعجب العجيب من هذا النوع . وفى الكتاب فصل عنوانه « باب فى نقض عرى الاسلام ودفن الدين وإظهار البدع » ننقل منه بعض مايدخل فى بحثنا :

عن حذيفة بن اليمان أنه أخذ حجرين فوضع أحدهما على الآخر ثم قال لأصحابه : هل ترون مابين هذين الحجرين من النور ؟ قالوا : مانرى بينهما من النور إلا قليلا ، قال : والذى نفسى بيده لتظهرن البدع حتى لايرى من الحق إلا قدر ماترون بين هذين الحجرين من النور . والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شئ قالوا تركت السنة . وساق بسند آخر عن حذيفة أيضا رضى الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفه ثم قال : إن هذا الدين قد استضاء إضاءة هذه ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ، ثم قال والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين كما دفنت هذه الحصاة وليسلكن

طريق الذين كانوا قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل .

وعنه رضى الله عنه أنه قال أول ماتفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ماتفقدون الصلاة ولتنقضن عرى الاسلام عروة عروة ، ولتصلين نساؤكم حيضا ، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل ، لاتخطئون طريقهم ولايخطئ بكم ، وحتى تبقى فرقتان تقول إحداهما مابال الصلوات الخمس ؟ لقدضل من كان قبلنا ، إنما قال الله : « أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » ، لايصلون إلا ثلاثا . وتقول الأخرى : أيها المؤمنون بالله كايمان الملائكة ! مافينا كافر ولا منافق . حق على الله أن يحشرهم مع الدجال . قال ابن وضاح المؤلف : لم يعمل أحد من الأمم شيئا إلا ستعمله هذه الأمة ، والخير بعد الانبياء ينقص والشر يزداد ، وإنما هلكت بنو إسرائيل على أيدى قرائهم وفقهائهم ، وستهلك هذه الامة على أيدى قرائهم وفقهائهم . ثم بعد هذا أورد الحديث المتقدم الذى فيه : « إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك » .وعن غير واحد من أهل العلم أن رسول الله قال : « كيف بكم إذا فسق شبانكم ، وطغت نساؤكم ، وكثر جهالكم » ؟ قالوا : وإن ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : وأشد من ذلك . كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : وإن ذلك كائن يارسول الله ؟ قال : وأشد من ذلك . كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟

وعن محمد بن على قال قال رسول الله ﷺ : ويح هذه الأمة ماذا يلقى فيها من أطاع الله ! كيف يكذبونه ويضربونه . قال عمر بن الخطاب يارسول الله : الناس يومئذ على الاسلام ؟ قال : نعم يا عمر . قال عمر يارسول الله : ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله ؟ فقال ، ياعمر ترك القوم الطريق فركبوا الدواب ولبسوا لين الثياب وخدمهم أبناء فارس وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرجت النساء ، زيهم زى الملوك الجبابرة يتسمنون كالنساء فاذا تكلم أولياء الله

وأمروهم بطاعة الله قيل : أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة ، مكذب بالكتاب ، تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا به أولياء الله .

وعن أبي الدرداء قال : لو خرج إليكم اليوم رسول الله ماعرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة ، قال الأوزاعي : فكيف لو كان اليوم ؟ قال عيسى فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان ؟

وعن الحسن قال : أدركت عشرة آلاف من أصحاب النبي لو رأوكم لقالوا : مال هؤلاء مجانين ؟ ولو رأيتموهم لقلتم : هؤلاء مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب ، ولو رأوا شراركم لقالوا : مالهؤلاء عند الله من خلاق.
قال المؤلف ابن وضاح : يقال تخرج الفتن من عند أصحاب الكتب وإليهم تعود.

وعن أوفى بن دلهم العدوى قال : بلغنى عن على بن أبي طالب أنه قال : تعلموا العلم تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله . فانه سيأتى زمان من بعدكم ينكر الحق فيه تسعة أعشارهم ، لاينجو فيه إلا كل مؤمن نومة . أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم .

وعن عدى بن حاتم أنه قال : إنكم فى زمان معروفه منكر زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان آت . وقال الفضيل : فى آخر الزمان يمشى المؤمن بالتقية وبئس القوم قوم يمشى فيهم بالتقية .

وعن أبي حمضة عن أبي هريرة : قال كيف بك إذا كنت فى زمان لاينكر خياركم المنكر ؟ قلت : سبحان الله ما أولئك بخيار ، قال بلى ولكن يخاف أن يشتم عرضه وأن يضرب بشره .

وعن بكر بن عمرو المعافرى قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : طوبى للغرباء الذين يمسكون بكتاب الله حين يترك ، ويعملون بالسنة حين تطفأ . وقال

رسول الله : بدأ الاسلام غريباً ،ولاتقوم الساعة حتى يكون غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء حين يفسد الناس ، ثم طوبى للغرباء حين يفسد الناس . وعن ربيعة بن يزيد قال سمعت أبا إدريس الخولانى يقول : سمعت أن للاسلام عرى يتعلق الناس بها و إنما يمتلخ عروة عروة . فأول مايمتلخ منها الحلم ، وآخر مايمتلخ منها الصلاة . وعن عبد الله الديلمى قال : تذهب السنة سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة . وآخر الدين الصلاة ، وليصلين أقوام لا خلاق لهم . وعن مالك بن أنس عن عمه أبى سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال : ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة . وعن أنس بن مالك قال ما أعرف منكم شيئاً كنت أعهده على عهد رسول الله ليس قولكم : لا إله إلا الله . قلنا بلى يا أبا حمزة الصلاة ، فقال قد صليتم حين تغرب الشمس ، أفكانت تلك صلاة رسول الله؟

وعن الحسن قال : لو أن رجلا أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ماعرف من الاسلام شيئاً . ثم قال إلا هذه الصلاة . أما والله لمن عاش فى هذه النكراء ولم يدرك السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فعصمه الله وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح : يسأل عن سبيلهم و يقتص آثارهم و يتبع سبيلهم ليعوض أجراً عظيما . فكذلك فكونوا إن شاء الله .

وعن ميمون بن مهران قال : لو أن رجلا أنشر فيكم من السلف ماعرف فيكم غير هذه القبلة .

وعن أم الدرداء قالت : دخل على أبو الدرداء وهو غضبان فقلت له ما أغضبك؟ فقال : والله ما أعرف فيهم من أمر محمد شيئاً إلا أنهم يصلون جميعا . وعن سالم قال قال أبو الدرداء : لو أن رجلا تعلم الاسلام ثم تفقده ماعرف منه شيئاً وعن مالك بن أنس قال بلغنى أن أبا هريرة تلا : « إذا جاء نصر الله والفتح

ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا » ثم قال : والذى نفسى بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دين الله أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خليا بمصحفهما فى بعض هذه الأودية لأتيا الناس اليوم لايعرفان شيئاً مما كانا عليه .

وعن أبى وائل قال قال عبد الله : أتدرون كيف ينقض الاسلام ؟ قالوا نعم كما ينقض صبغ الثوب .

وعن حذيفة قال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا مايرون على مايعلمون ، أو يضلوا وهم يشعرون .

وعن سعيد أخى الحسن يرفعه قال : إنكم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى الله ولم تظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش . وستحولون عن ذلك فلا تأمرون بالمعروف ولاتنهون عن المنكر ولاتجاهدون فى الله وتظهر فيكم السكرتان ، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين .

وعن عطاء بن أبى رباح : قال مر بعلى بن أبى طالب رجل له سمت فقال من أهل خراسان أنت ؟ قال : لا ! قال من أهل فارس أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أنت ؟ قال أنا من أهل الأرض ، قال فانى سمعت رسول الله يقول : « لايزال الدين معتدلا صالحاً مالم يسلم نبط العراق ، فاذا أسلم نبط العراق أدغلوا فى الدين وقالوا فيه بغير علم فعند ذلك يهدم الاسلام وينثلم » .

وعن ابن مسعود قال كان عمر بن الخطاب حائطا حصيناً على الاسلام يدخل الناس فيه ولايخرجون منه ، فانثلم الحائط فالناس يخرجون منه ولايدخلون فيه .

وعن حذيفة قال كيف أنتم إذا انفرجتم عن دينكم انفراج المرأة عن قبلها لاتمنع من يأتيها ؟ فقال رجل : قبح العاجز . فقال بل قبحت أنت .

وعن على رضى الله عنه قال ينقض الدين حتى لايقول أحد لا إله إلا الله . قال بعضهم حتى لايقال : الله ، الله .

وعن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : لايأتى عليكم عام إلا والذى بعده شر منه ، ولا أعنى أن عاما أخصب من عام ولا أمطر من عام ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم . ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فيهدم الاسلام ويثلم .

وعن إسماعيل بن نافع القرشى عن عبد الله بن المبارك قال : اعلم أخى أن الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقى الله على السنة ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، و إلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الاخوان وقلة الأعوان وظهور البدع . و إلى الله نشكو ماحل بهذه الأمة من ذهاب العلماء أهل السنة وظهور البدع . وقد أصبحنا فى زمان شديد وهرج عظيم . إن رسول الله تخوف علينا ماقد أضلنا وماقد أصبحنا فيه لحذرنا وتقدم الينا بقول أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : أتتكم فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً و يمسى كافرا ، و يمسى مؤمنا و يصبح كافرا ، يبيع فيها أقوام دينهم بعرض الدنيا .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : يأتى على الناس زمان تكون السنة فيه بدعة والبدعة سنة ، والمعروف منكرا والمنكر معروفا . وذلك إذا اتبعوا واقتدوا بالملوك والسلاطين فى دنياهم .

وعن عمار بن ياسر قال : يأتى على الناس زمان خير دينهم دين الأعراب. قيل ، ومم ذاك ؟ قال تحدث أهواء و بدع يحضون عليها .

وعن الأعمش قال قال لى شقيق أبو وائل : حدثنا سليمان : ما شبهت قراء زمانك إلا بغنم رعت حمضاً ، فمن رآها ظن أنها سمان ، فاذا ذبحها لم يجد فيها شاة سمينة . وذكر عن ابن مسعود مثله .

وعن خلاد بن سليمان قال : سمعت دراجاً أبا السمح يقول : يأتى على الناس

زمان يسمن الرجل راحلته حتى تعقد شحما ثم يسير عليها فى الأمصار يلتمس من يفتيه بسنة قد عمل بها فلا يجــد من يفتيه إلا بالظن . قال ابن وضاح المؤلف : سمعت سحنونا يقول منذ خمسين سنة فى الحديث الذى جاء يسمن الرجل راحلته قال سحنون : إنى أظن أنا فى ذلك الزمان : فطلبت أهل السنة فى ذلك الزمان فكانوا كالكوكب المضئ فى ليلة مظلمـة . قال ابن وضاح : فاذا طلبت الشئ الخالص لاتجده و إذا كان مختلطا فهو الكامل . كتاب الله قـد بدل . وسـنة رسوله قد غيرت ، ودماء قد سفكت وكرائم قد سبيت وحدود قد عطلت وترأس أهل الباطل وتكلم فى الدين من ليس من أهـل الدين ، وخاف البرئ وأمن النطيف (أى المريب) وحكم فى أمر المسلمين وسود فيهم من هو مسخوط عليه فيهم

عبادة الاصنام فى المحاريب

وعن الحسن بن سمرة بن جنـدب قال : لا تقوم الساعة حتى تروا أمورا عظاما لم تكونوا ترونها ولا تحـدثون بهـا أنفسكم . قال ابن وضاح : أنا أقول لا تقوم الساعة حتى تعبد الأصنام فى المحاريب

وعن حذيفة قال : لا تقوم الساعة حتى تنصب فيها الأوثان وتعبد — يعنى فى المحاريب —

وقد وقع مصداق هذا فإن الأموات اليوم يعبدون فى المساجد وفى المحاريب ونعوذ بوجه الله من السوء ومن الشرك

وعن على بن أبى طالب قال : لا تقوم الساعة حتى تكون هـذه الأمة على بضع وسبعين ملة كلها فى الهاوية و واحدة فى الناجية

وعن ابن عمر عن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « لا تقوم الساعة حتى تنصب الأوثان وأول من ينصبها أهل حضر من تهامة »

وعن حذيفة قال قال رسول الله عليه السلام : « اقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها و إياكم ولحون أهل الفسق فإنه سيجئ من بعدى قوم يرجعون القرآن

ترجيع الغناء والرهبانية والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم

وعن عمر بن الخطاب قال : أخذ رسول الله بلحيتي وأنا أعرف الحزن في وجهه فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قلت أجل ، إنا لله وإنا إليه راجعون. فما ذاك يا رسول الله ؟ قال أتاني جبريل فأخبرني أن أمتك مفتتنة بعد قليل من الدهر غير كثير . قلت فتنة كفر أم فتنة ضلالة ؟ قال : كل سيكون . قلت : ومن أين يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله ؟ قال بكتاب الله يضلون من قبل قرائهم وأمرائهم . قال ابن وضاح : إن فتنة الكفر هي الردة يحل فيها السبي والأموال ، وفتنة الضلالة لا يحل فيها السبي ولا الأموال . وهذا الذي نحن فيه فتنة ضلال لا يحل فيها السبي ولا الأموال .

وعن عبد الله قال : كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة يجري عليها فاذا غير منها شيء قيل غيرت السنة . قيل متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم وكثرت أموالكم وقل أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الدين .

روى هذه الأخبار كلها محمد بن وضاح في كتابه « البدع والنهي عنها » . وفي الكتاب روايات كثيرة من هذا النوع . والروايات كلها بالاسناد .

حديث ذات الانواط

ومن أصرح النصوص في هذا الباب حديث ذات الأنواط المشهور . فروى الترمذي في جامعه عن أبي واقد الليثي ، واسمه الحارث بن عوف على ما ذكر الترمذي ، قال: خرجنا مع رسول الله إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى

« اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » لتركبن سنن من كان قبلكم قال الترمذى : حديث حسن صحيح . ورواه الطبرانى من حديث عمرو بن عوف قال : غزونا مع رسول الله عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائفة أبصر شجرة يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله ، فلما رآها رسول الله انصرف عنها فى يوم صائف إلى ظل هو أدنى منه ، فقال رجل : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال له رسول الله : انها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . قال فى مجمع الزوائد : فيه كثير بن عبد الله ضعفه الجمهور وحسن الترمذى حديثه .

وهذا الخبر صريح فى أن طوائف من أهل القبلة يصيرون ولا محالة مصاير الامم الأولى الواقعة فى الشرك وعبادة المخلوق . وذلك أنهم لما طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم شجرة يشركون بها ويعبدونها مع الله أنكر ذلك عليهم وأخبر أن طلبهم هذا كطلب بنى إسرائيل وكقولهم لموسى : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . ثم أخبر أن المسلمين سوف يركبون طرق الذين كانوا قبلهم من المشركين العابدين لغير الله من الأحجار والاشجار وأصناف المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع ولا تغنى شيئاً .

ومع هذا كله يجرأ الشيعى أن ينكر على الوهابيين أن قالوا : إن طوائف من المسلمين وقعوا فى الابتداع وفى مخالفة السنة ، ويزعم أنهم انفردوا بهذه المقالة وبذلك الاعتقاد دون عامة المسلمين وجماهيرهم .

الكتب الموضوعة فى انكار البدع

ومازال العلماء الأعلام يضعون المؤلفات القيمة الكثيرة فى تحذير المسلمين من المبتدعات ومن الوقوع فيها فى الأصول والفروع . وقد وضعت فى هذا الكتب الكثيرة المعلومة ، منها المطبوع ومنها غير المطبوع . وقد اشتهر من

هذه الكتب « الاعتصام » للشاطبي ، و « الباعث على إنكار البدع والحوادث » لأبي شامة ، و « الحوادث والبدع » لأبي بكر الطرطوشي . ومن أقدمها كتاب « البدع والنهي عنها » للأمام الأندلسي محمد بن وضاح ، وأفضل هذه الكتب « الاعتصام » بلا نزاع . وقد أكثر المتأخرون من التأليف في الموضوع . ومامن كتاب وضعه السلف أو الخلف إلا و يشكو مؤلفه من البدع ومن شيوعها وتغلبها على السنن ، ومن تهافت المسلمين عليها . وكلام السلف : الصحابة فمن بعدهم كثير مأثور في ذلك ، و يكفي الطالب للعلم والهدى أن يرجع إلى أحد الكتب التي ذكرناها .

هذه بعض دلالات السنة وكلام السلف على أن طوائف من المسلمين سوف ينحطون في أصناف الاشراك والكفر من حيث لا يعلمون ولا يريدون ، وقد قام على ذلك الإجماع ، سلفا وخلفا ، ودل عليه النظر والعادة والقياس الصحيح فانه من المحال الباطل عادة ونظراً وقياسا أن يظل جميع طوائف المسلمين في جميع العصور والأوقات والحالات محافظين على الاسلام : على أصوله وفروعه وحقائقه الصحيحة الأولى بحيث لا يضل ولا يزل منهم أحد ، وبحيث لا يكفر ولا يشرك منهم إنسان لاعمدا ولاجهلا، والناس هم ماهم من أصالة أنسابهم ورسوخ أعراقهم في الجهالات ، والناس هم الناس ، ما زالوا معمين مخولين في الانساب الوثنية والضلالات الانسانية . هذا ما يدفعه القياس والعادة والنظر . وقد دل على ذلك أيضا جملة القرآن الكريم دلالات مختلفة منها البين ومنها الخفي . وذلك أنه قد أنبأ في غير آية أن المسلمين ماداموا مسلمين هم الغالبون وهم الظاهرون في الأرض ، وهم أصحاب السلطان والشوكة والقوة المرهوبة المخشية . قال تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » وقال : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . وقال « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» . وقال

دلالة القرآن على ذلك

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وقال : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ». إلى غير ذلك من الآيات الناصة على أن نصيب المسلمين فى هذه الأرض خير الأنصبة من العزة والغلب والمجد الباذخ والشرف الشامخ والسلطان القاهر الظاهر. ولكننا نرى المسلمين اليوم أذل أمم الأرض وأهونها وأعجزها عن الزعامة والسيادة : مسبوقين إلى كل خير ، قاصرين عن كل مجد ، متأخرين عن جميع الأمم فى كل أمر محمود. فلماذا كل هذا ؟ أيكذب القرآن أهله ؟ كلا. أم يكذب الذين قالوا إنهم مسلمون وماهم بمسلمين ولا مؤمنين. لأن للمسلمين حقوقا مفروضة معلومة واجبة فى هذا العالم قد شاءها الله لهم ، وكل ما شاءه الله كائن ولا بد. ومن أعظم حقوقهم العزة وضخامة المجد. وما فقدوا العزة والمجد الا بعد أن فقدوا سببهما وهو الاسلام الصحيح والايمان القوى الملتهب. ولا ريب أننا لو زعمنا المسلمين اليوم مسلمين حقا وصدقا لكان زعمنا هذا قدحاً فى صدق كتاب الله. وجل الله وجل كتابه عن القادح ... فالكتاب والسنة والاجماع والقياس والنظر - كل أولئك - دال على أن المسلمين قد نالوا دينهم بالتغيير والتبديل ، وأنهم قد باينوه ، فاستحقوا ما لقوه ، فما هذا الخلاف وما هذا الشغب ، وما هذا الذى ينقمه الشيعى الظالم من هؤلاء الناس ؟ ؟

كيف ذلك وطوائف الشيعة هم أعظم الناس خلافا وتكذيبا لما قال هذا الشيعى ، فانهم يعتقدون أن الناس بعد رسول الله قد كفروا وارتدوا. ويستدلون على هذا الاثم العظيم والاعتقاد الموبق بآيات من كتاب الله وبأخبار ثابتة صحيحة. فمن الآيات قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ». ومن الاخبار قوله عليه الصلاة والسلام : « ليذادن يوم القيامة أقوام عن حوضى » الحديث. وطوائف من الشيعة - لارعاها الله - تدعى أن

جماهير الصحابة ما زالوا كافرين فى حياة النبى عليه السلام و بعد وفاته ، وتدعى أنهم كانوا منافقين مخادعين للنبى وللمؤمنين ، وأنهم كانوا يكفرون كفرهم وشركهم . . . وهؤلاء لا يشكون فى أن بنى أمية وولاتهم وعمالهم كانوا كفارا مارقين ، وكانوا ملحدين جاحدين لا يؤمنون بإيمان ولا يكفرون بكفر . ويصرح كثيرون من علمائهم المتقدمين والمتأخرين بأن معاوية و بأن أباه أبا سفيان كانا إمامين فى الالحاد وفى الكفران الخالص التام ، وكذلك يقولون فى عبد الملك ابن مروان ومن بعد هؤلاء ، وكذلك يقولون فى عمرو بن العاص وفى بنى العباس جميعاً ، وكذلك قولهم فى غير هؤلاء وهؤلاء ، وبالاجمال هم يعتقدون ، ويكتبون ما يعتقدون ، أن جماهير الصحابة وجماهير التابعين وجماهير المسلمين ــ أعنى كل من قاوموا خرافات الشيعة وغلوها وباطلها ــ يعتقدون أن هؤلاء جميعاً كفار مشركون ، وزنادقة ملحدون ، ينطوون على الالحاد والكفر الخالص الفاضح ، وقد يرشحون ذلك أحياناً . وهذا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وهو من أعقل القوم وأكثر الطائفة تزمتاً ، ومن أوسعهم صدرا وعطناً للخلاف والنزاع وأكثرهم تظاهراً بالتسامح إزاء الخلاف بينهم و بين أهل السنة ، يقول فى كتابه الموضوع للدعاية الشيعية الاثنا عشرية ، وهو كتاب « أصل الشيعة وأصولها » بعد أن ذكر بالسوء والضغينة المضطرمة معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء : « فهل هذه الاعمال تسيغ أن يكون صاحبها مسلما فضلا عن أن يكون خليفة المسلمين وأمير المؤمنين . ثم سارت المروانية كلها على تلك السيرة وماهو أشق وأشق منها عدا ما كان من العبد الصالح عمر بن عبد العزيز . ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت ، كما يقال ، فى الطنبور نغمات حتى قال أحد مخضرمى الدولتين :

ياليت جور بنى مروان دام لنا * وليت عدل بنى العباس فى النار . . . ».

وقال أيضا هذا الشيخ فى رسائل له سموها « الآيات البينات » فى قمع البدع والضـلالات » وهى مطبوعة فى النجف تحت عنوان « الزندقة فى الاسـلام » و زنادقة المسلمين » بعد أن ذ كر الملحدين والزنادقة فى المسلمين و فى الاسـلام وذ كر أصنافهـم وكثرتهم والباعث لهم على احتقاب هذا الداء القتال ، والمرض العضال ، وأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام و يبطنون شر أنواع الكفران وشر أنواع الالحاد والضلال ، قال هناك : « بيـد أن أكبر العوامل نفوذا وأشدها إنما هو أن المتغلبين على السلطة والآخذين على أزمة المسلمين بزعم الخلافة ، كانوا على ذلك الرأى و بتلك الصفة ، والناس ، كما قيل ، على دين ملوكهم . فأول المتغلبين على المسلمين بغـير رضا منهم الدولة السفيانية وماهى إلا معاوية ونغله يزيد . ثم تلاها الدولة المروانية ، وكلهم يضربون على ذلك الوتر و يطربون على تلك النغمات ـ اللهـم إلا الأشج والناقص (حنانيك بعض الشر أهون من بعض) . وحسبك بالوليد بن اليزيد بن عبد الملك أكبر زنديق متخاع فى الاسلام . وأقاصيصه فى ذلك مشهورة ، ور بما نأتى على بعضها فى غيرهـذا المـكان . وفى عصره تـكاثرت الزنادقة وانتشرت وأخـذت فى النمو والاتساع واتصل ذلك إلى زمان الخـلافة العباسـية ، واحتوت تلك البرهة اليسيرة على أكابر من علماء العربية ونوابغ فى الأدب والشعر ، اشتهروا بالزندقة بل جاهروا . . . وما حـمـل هؤلاء أجمع على الزندقة والالحاد ، وحببها اليهم إلا حب السراح لأنفسهم و إطلاقها فى مسارح الشهوات وفكها من قيود الشريعـة ونواميس الدين . فينـكح الرجـل كل أنثى أعجبته ولو كانت أمه وأختـه ، و يغدر فيقتل كل أحد ولو أعطاه ألف ألف عهد وميثاق كما فعل عبد الملك فى ابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق وغيره . . . »

وقال هذا الشيخ عينة فى هذه الرسائل عينها فى آخر الفصل الذى عقـده للـكشف عن مساوى البابية والبهائيـة وكفرهم و إلحادهم و زندقتهـم : « وتالله

ما ارتسم على لوح الوجود ، ولا انتظم على رقعة هذه الأرض أجهل وأضل وأمكر وأكفر وأدهى وأخبث من تلك الأمة الخبيثة والطغمة التى خنقت أنفاس الحقيقة وأزهقت روح شرف العلم والفضيلة . . . » ثم قال بعد هذا القول تحت عنوان : « الأموية الحديثة » : « ولكن ألا أدلك على أمكر وأكفر وأضل وأجهل وأشد صلفا ووقاحة وأقل حياء وصيانة وأضعف عقلا وحصانة — أولئك شرذمة من رعرعة الدمشقيين وزعانفهم فى هذا العصر من كل أف وقف ، وجورب وخف ، أحقر من قمامة ، وأقل من قلامة ، وأقذر من نخامة ، يريد هؤلاء الشذاذ التعصب والتحزب لبنى أمية وإحياء ذكرها الخامد ، واسمها البائد ، وما أدرى أغاب عن عقولهم السخيفة ، أنهم بذلك ينبشون عن جيفة ـ جيفة تملأ العالم نتنا وعفونة . . وهل ترك بنو أمية السفيانية والمروانية من غدر أو كفر أو مكر أو عهر أو فجور أو ظلم أو بغى أو عدوان . . . » .

من هدايا الشيعة لاهل السنة

إلى غير ذلك من أقوال علماء الشيعة وعقائدهم فى ملوك الاسلام والمسلمين فهم عندهم كما ترى ، من شر الكفار والملحدين والزنادقة الفاسقين ، فكيف يستطيعون بعد هذا ، أو كيف يحاولون ، الاستدلال على ان المسلمين لن يكفر منهم أحد ولن يضل منهم إنسان ؟ لو كانت هذه المحاولة من غير طائفة الشيعة لهان الأمر ، أما منهم فلن يهون .

﴿ الكلام على أخبار يأس الشيطان أن يعبد فى جزيرة العرب ﴾

بقى الكلام على الأخبار التى ذكرها الرافضى ، فنقول : إن عنها جوابين جوابا مجملا وجوابا مفصلا . أما المجمل فيقال : هذه الأخبار لاتقاوم الدلائل والنصوص التى ذكرناها فى الفصل السابق ، فان ما أوردناه أكثر وأظهر وأصح . ولا يصح أن يرد الأقوى بالاضعف أو يعارض الاكثر بالاقل .

جواب حديث والله ما أخاف أن تشركوا بعدى

أما الجواب المفصل فيقال أما الحديث الاول وهو قوله عليه الصلاة والسلام « والله ما اخاف عليكم ان تشركوا بعدى » الحديث فهو رد لما ذهبت إليه جماعة الشيعة ولزعمها أن صحابة النبى عليه الصلاة والسلام قد كفروا وارتدوا بعد وفاته ، أو أنهم كانوا كذلك فى حياته . وذلك أن الحديث خاص بالصحابة رضوان الله عليهم . فقد أعلم الله نبيه بأن أصحابه لن يكفروا ولن يشركوا بعده أبدا ، ولكن سوف يمتحنون بالدنيا و زهراتها ولذاذاتها بما يرغس لهم من النعم والآلاء ، وبما يفتح لهم من أبواب الممالك المترفة الخصبة . . . فتهفو إلى ذلك قلوب ونفوس ، ولكن سوف يعصم الله الأكثرين منهم و يغنيهم بايمانهم و إسلامهم وتقاهم عن الدنيا وعما فيها من لذات و زهرات وشهوات تستنزل أحيانا النفوس من أعلى سماء الكمالات . . . وهذا هو ما كان ، فقد عصم الله ، وله الحمد ، صحابة رسوله من شوائب الشرك وعقابيل الكفر ، فلم يحم حول ذلك منهم أحد . أما الدنيا فقد انغمست فيها بعض الأيدى ودحضت فى زلقها بعض الأقدام . فنالت تبعات ذلك عاجلا ، فكانت العبرة ، وكانت العظة البالغة . أما الخيار المصطفون منهم فقد حال بينهم و بين النهل والعلل من تلك المكارع أن كانت قلوبهم وعقولهم وشهواتهم ملأى بالله وحده ، فدافعت ما سواه من الأغيار فدفعته . فسروا بهذا الزاد ، ولا زاد غيره ، عابرين ، فأدركوا ساحل النجاة موفورين سالمين من كل خوف وتبعة . و يغفر الله للجميع كل ذلك .

فالحديث علم من أعلام النبوة الظاهرة إذ قد أنبأ بأن تلك النخبة المختارة من البشر ، وهم صحابة النبوة وأنصارها سيظلون معتصمين بالايمان ، لا يدفعهم عنه دافع ، ولا يحملهم على خلافه والخروج عليه حامل ، فكانوا كذلك كما أخبر فصدقت النبوة وتمت المعجزة وظهرت الآية . . . وقد أورد هذا الحديث لما ذكرناه فى علامات النبوة كما فعل الامام البخارى فى الصحيح . هذا وجه الحديث

وسبيله . فهو إنباء عن الصحابة خاصة كما هو ظاهر من لفظه وكما دل عليه الواقع وكما قضت به الدلائل الظاهرة السابقة المخبرة بأن طوائف من المسلمين ، ولا محالة ، سوف يكفرون و يشركون و يعبدون غير الله من الأصنام والأوثان والمخلوقات الأخرى العاجزة . ولا يمكن حمل الحديث على ما أراده الشيعى لأجل ما قدمنا من البراهين .

وجه آخر فى الحديث

وفى الحديث وجه آخر وهو أن يقال : لعل النبى عليه السلام قد قال ذلك قبل أن يعلم و يوحى إليه بأن طوائف من الأمة سوف يضلون و يشركون فيهلكون كما هلك من كانوا قبلهم . ولا مانع من هذا الوجه فى الحديث ، فان الدين ، بأعلامه ونصوصه ، لم ينزل مرة واحدة ولا جملة واحدة ، و إنما نزل نجوما مفرقة بمجموعها تم وكمل وكان الدين الاسلامى . والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما يعلمون باعلام الله إياهم و بما يوحى إليهم . و وحى الله لا يأتى جملة واحدة و إنما يأتى نجوماً مفرقا .

وجه ثالث فى الحديث

وفى الحديث وجه ثالث وهو أنه ﷺ يريد بقوله هذا أن هلاك أمته وضياع دولتها ومجدها وتلاشى سلطانها وملكها سيكون سببه القريب المباشر هو التنافس فى الدنيا والتغالب عليها وعلى ملكها ومافيها من متع ولذات وشهوات ... وهذا هو ما كان وحدث ، وهذا هو ما أصاب المسلمين فأودى بملكهم ودولتهم وثل عروشهم القائمة الفخمة ، وطاح بمجدهم الشامخ الباذخ ، فهبطوا من أعالى الذرى والغوارب إلى أعماق الحضيض الأوهد الذليل . . . فأصبحوا فى الهالكين الغابرين ، وأصبحوا فى هذه الضعة الشاملة المنكرة ، وصاروا نهبا مقسما بين حملان الأمم وذؤبانها .

فهذا البلاء الذى أصاب المسلمين يرجع كله مباشرة ، بسبب واحد أو بأسباب ذات عدد ، إلى التنافس فى الدنيا والتغالب عليها والرغبة الحادة المجرمة الفاسقة فيها وفى ما بين ثناياها من بروق كاذبة خالبة : وكل ما اصطدم به الاسلام والمسلمون

من جهل ونقص أو ضعف أو ذلة وهوان ، مرجعه الرغبة فى الدنيا والتقاتل عليها ولاجلها . فان هذه الرغبة فى هذه الحبيبة الغادرة أجرى بين القوم عقارب العداوات والسداوات دفعتهم إلى خوض غمار الحروب المفنية الطاحنة . فتحطم الفريقان : الظالم والمظلوم ، العزيز والذليل ، الغالب والمغلوب ، فنال الفريقان وضعفا . والضعف أبدا يلزمه الانحطاط والنقصان فى المدارك والآداب والعلوم وكل أسباب الكمال والعظمة ؛ فاذا ذلت أمة من الأمم وضعفت فقد جهلت وخرفت ونسيت ، ولامحالة ، مقوماتها الفاضلة الحية التى بها نالت ماحسدت عليه من مطارف الأمجاد وطرائف العلياء . . . فالضعف هو أول ما يصيب الامة المطلة على الهاوية ثم يتبعه كل أسباب الفشل والتأخر والسقوط . فالجهل والشرك الذى هو وليد الجهل ، نتيجتان من نتائج الضعف الذى هو وليد انقسام الأمة والانقسام هو وليد التنافس والرغبة فى الدنيا كما تقضى السلسلة الطبيعية... وإذن فأول هذه السلسلة ، الذى هو التنافس فى الدنيا والحرص عليها هو الذى يخاف على الأمة ويخشى بأسه على بأسها . وإذن فالتنافس فى الدنيا هو الذى خشية رسول الله على أمته وعلى سلطانها ومجدها ، لان كل ماعداه من أفنان البلاء نتائج لازمة له . فالشرك الذى وقع من الامة والذى سوف يقع هو إحدى نتائج التنافس فى الدنيا ولا شك . فاذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم » لم تكن الخشية من التنافس على الدنيا فقط دون الخشية من نتائج هذا التنافس ولوازمه بل لا بد أن تكون الخشية من التنافس ومن نتائجه الطبيعية اللازمة ، والتنافس على الدنيا لم يخش ويحذر إلا لأجل ماله من النتائج والآثار المحذورة المنكرة . . . فقوله عليه السلام : « ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » معناه أنى لا أخشى عليكم الشرك فقط ولكن أخشى الرغبة فى الدنيا وفى الحياة والحرص عليها ،

وأخشى عليكم ما يتولد عن هذا كله من الشرك والكفر والجهل والانحطاط العام. فى العقول والعقائد وفى كل شئ . فالخشية لم ترفع عن الشرك لأنه لن يقع أبدا كلا. وإنما رفعت عنه منفردا مخصوصا ، ولانه لن يقع لولا وقوع الرغبة الباطلة فى الحياة الدنيا الباطلة .فالخشية من الشرك واقعة لزوماً لا تخصيصاً . .. وفى الحديث وجه رابع ، وهو أن يقال : إن الحديث لم يرد لبيان ماسوف يقع ومالن يقع مما يخشى ويخاف على الامة ، وإنما ورد لبيان أعظم وأقرب ما سوف يهد مجد المسلمين وينسف سلطانهـم . والامة الاسلامية إنما نسف سلطانها وقوض دعائم مجدها الخلاف على الدنيا والشح عليها ، حتى قاتل المسلم أخاه المسلم صبوة إليها . وهذا هو ما أودى بالاسلام وبالمسلمين مباشرة ، وهذا أفظع ما أصابه وما أصابهم من أعاصير القضاء . أما الشرك وتبديل الدين وغير ذلك مما انكفأ فيه المسلمون فقد انتشر بينهم بعد ذلك بأزمان . ومثل هذا الاسلوب لهذا المعنى لا يدل على النفى الخالص البات ، وإنما هو مثل أن يقول القائل : أنا لا أخشى على الاسلام والمسلمين الاعداء وإنما أخشى عـلى المسلمين المسلمين . وهو مثل أن يقال إنما داء المسلمين من أنفسهم لا من أعدائهم ونحو ذلك من الاسلوب المألوف المعروف فى هذا المعنى ، وهو يشبه الحديث المشهور أعنى قوله ﷺ : « وسألت ربى ألا يسلط على أمتى عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم فأعطانى ذلك » . والأعـداء اليوم مسلطون على الامة الاسلامية المحمدية أفظع تسليط ، مستبيحون لبيضتها فى كل مكان ـ إلا ماشاء الله . ومع هذا فالحديث صحيح الاسناد والمعنى لان المراد منه أن أعداء الاسلام والمسلمين لن ينالوا منه ولا منهم ابتداء حتى يكون المسلمون هم الذين يمكنون لهـم من أنفسهم ومن دينهم وبلادهم . وهذا كما جاء فى روايات الحديث أن الله قد قال فى الخبر القدسى لنبيه : « ولا أسلط عليهـم (أى على المسلمين) عدوا من سـوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهـم من

وجه رابع فى الحديث

بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا و يسبى بعضهم بعضا » . ولا يراد بالنفى هنا النفى الخالص البات ، و إنما يراد تفضيل أمر على أمر فى القدم والعظم . فالتنافس فى الدنيا سوف يكون أسبق إلى تحطيم الامة الاسلامية من الشرك ومن الكفر ، اللذين هما ، ولا محالة ، واقعان من طوائف المسلمين ، ولهذا خشى على الامة وحدث عنه بالانذار والتحذير قبل سواه . فالحديث لا يدل يقيناً على أن الشرك لن يقع من المسلمين .

جواب يأس الشيطان من أن يعبد فى جزيرة العرب

وأما الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : : « إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب » إلى آخر رواياته فالجواب أن يقال : قد روى الحديث عن جماعة من الصحابة بطرق ولكن لايخلو طريق من كلام ونقد . وقد بين ذلك الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد . والحديث له ألفاظ بعضها يقول : « إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون » و بعضها يقول : « لقد برأ الله هذه الجزيرة من الشرك مالم تضلهم النجوم » . و بعضها يقول : « إن الشيطان أيس أن يعبد فى بلدكم هذا » و بعضها يقول : « إن الشياطين أيست » ولكن كل ذلك لايخلو سنده من النقد والكلام . فالخبر لايبلغ درجة الصحيح الذى يحتج به فى مثل هذه المطالب وهذه الخلافات إن صح أن فى هذا خلافا .

ثم يقال ثانيا : هذا الحديث إذا فرض فى غاية الصحة والقوة لا يصح أن يكون دليلا على ما أراده الشيعى الظالم . وذلك أنه قد قيل فيه : إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب . ولكن ليست الحجة فى أن يمتلئ الشيطان يأساً وقنوطاً ، و إنما الحجة فى أن يقول الصادق المصدوق : إن الشيطان لن يعبد فى بلاد العرب . أو لن يعبده المصلون أو نحو هذا . وذلك أنه يجوز أن يرى الشيطان من قوة الاسلام وسطوته ومن سلطانه ومن علو التوحيد وخذلان الشرك فى تلك الأحيان المختارة مايملأ نفسه يأساً وقنوطا من أن تعود للشرك والكفر

فى تلك الديار والأقطار دولة أو سلطان ، أو أن يحل للاسـلام والتوحيـد هناك بناء ، هـذا يجوز ، ولـكن يجوز أيضا معـه أن يكون الشيطان غالطا فى يأسه وقنوطه ، غير عالم بما جبلت عليه النفوس من الحنين إلى الاشراك والتعديد ، وما جبلت عليه من العراقة والأصالة فى الوثنية والجهالات ... فيخلف الانسان ظنه و يحقق طلبه فيعيد الشرك فى تلك الربوع المطهرة ، و يبعث الوثنية بعد الموت والشتات ، فيحى أمل الشـيطان ثانيا فيرجع له زهوه و رضاه وسروره فيطمئن على دولة الأصنام والأوثان و يجلس على عرشها مزهوا فخورا . . . هذا كله يجوز ولا ريب . وعليه لا يبقى للشيعى فيه رسيس من حجة ، ولا وميض من نور وهدى لأ ننا نقول له : سلمنا أن الشيطان قد أيس حقيقة من أن يعبد غير الله فى بلاد العرب وفى غيرها من البلدان الإسلامية ، ولـكن كيف تستطيع أن تقيم الحجة على أن الشيطان ما أيس من ذلك إلا لأ نه لن يقع ولن يكون ؟ ولماذا لا يكون الشيطان غالطا واهماً جاهلا فى يأسـه وقنوطه ؟ ولماذا لا يكون يأسه الغالط قـد جاء ، لما رأى من وثبات الاسلام وفعلاته ، فلما ان اختفت هذه الوثبات والفعلات عاد إليه رجاؤه وأمله فى غلبة الشرك والـكفر والهلاك فى الأرض وعلى البشر ؟ اننا إذا قلنا له هذا ، وهذا هو ما نقول ، فلن يظفر بجواب صحيح مقبول .

جواب آخر عن الحديث

ثم نقول ثالثا : إن الحديث يقول : إن الشيطان أيس أن يعبـد . وظاهر لفظه أنه أيس من أن يعبد هو نفسه لا من أن يعبد غيره من المخلوقات كالأنبياء والملائـكة والصالحين والأحجار والأشجار . و إذا كان ذلك كذلك قلنا لهذا الشـيعى : إن مخالفيك لم يزعموا أن الشيطان عبـد نفسه فى جزيرة العرب ، ولم يزعموا أن أحدا وجه إليه عبادته مباشرة وكفاحاً . لم يزعموا هذا و إنما زعموا أن جماهير من المسلمين عبـدوا كثيراً من الانبياء والصالحين وممن خالوهم صالحين وليسوا كذلك فى واقع أمرهم . والحديث لا يدل فى ظاهره على بطلان ما ذهبوا

إليه ، و إنما يدل على أنه لن يعبد هو عنـد نفسه . ومخالفو الشيعى لم يزعموا أنه عبد هو نفسه و إنما أطيع فى عبادة بعض المخلوقات ، وقد تضاف إليه هذه العبادة ولـكنها إضافة مجازية غـير حقيقية والعلاقة فى الاضافة كونه هو الآمر بها . وحقيقة عبادة الشيطان نفسه أن توجه إليه العبادة كفاحاً مباشرة . وهذا لم يزعم خصوم الشيعى ان الناس وصلوا إليـه فى جزيرة العرب . فلا يستطيع المخالف أن يأخذ من الحديث شيئاً .

اعتراض وجوابه

فان قيل هذا الوجه فى الحديث صحيح لولا أنه لم يعهد أن العرب المشركين فى جاهليتهم كانوا يعبدون الشيطان نفسه ، وانما عهد أنهـم أطاعوه فى عبادة الأصنام والأوثان التى عبدوها فى الجاهلية و فى دولة الشرك والضلال. والحديث يجب أن يوجه معناه ، نفيا و إثباتا ، إلى ما عهد وعلم لا إلى مالم يعهد ومالم يعلم ، فيجب أن يقال : إن هذه العبادة التى أيس الشيطان منها هى العبادة التى كان أهـل الجاهلية يقدمونها إليه وهى طاعته فى عبادة غـيره من المخلوقات ناطقها وصامتها . فالحديث بهذا يدل على أنه لن يعبد غير الله فى جزيرة العرب . وهذا هو قول الشيعى وغرضه واحتجاجه : إن قيل هذا ، وكان صحيحاً أن الشيطان لم يعبد حقيقة فى بلاد العرب ، وهـذا من المشكوك فيـه لدينا ، قلنا فى جوابه : لا مانع من أن الشيطان كان يسعى جهـده لايقاع المشركين ، عبـدة الأصنام والأوثان ، فى عبادته نفسه ، وأنه كان يأمل أن يعبدوه حقيقة مباشرة كما كانوا يعبـدون الأحجار والأشجار والإنسان والحيوان وغـير ذلك من أصناف المعبودات ، وأنه كان عظيم الرجاء فى أن يصل إلى هذه الغاية الشيطانية العظيمة ، وأنه كان يرى فى كل وقت تباشير نجاح ذاك الرجاء بما ينساق إليـه المشركون الضالون من أشتات الغوايات والجهالات ـــ والشيطان كما علم وعرف لا يقنع من عابديه ومطيعيه بشىء، ولايقف بهم عند غاية من غايات الضلال والخزى ـ : نعم

لامانع من ذلك كله ، ثم لامانع من أن يكون انتشار الاسلام هناك وتوثبه قد قطع على الشيطان رجاءه هذا ، وأفسد عليه أمنيته هذه ، وحال بينه وبين ذلك الأمل اللذيذ البسام ، وأراه الاسلام وارتفاع شأنه أنه قد ظن باطلا ورجا ما لن يكون أبدا ، فانقلب ذلك الرجاء يأسا والأمل قنوطاً والسعى خيبة . فأعلن يأسه وباح بإفلاسه ونادى بويله وثبوره . فأعلن رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الحقيقة وقال : إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب . فقام علما من أعلام النبوة الخاتمة. هذا كله لامانع منه وهو يفسد هذا الاعتراض .

معنى عبادة الاصنام

غير أنه يقال : إن هذا الجواب لا يصح إلا فى رواية « إن الشيطان قد أيس ان يعبد فى جزيرة العرب » أما الرواية الأخرى القائلة : « إن الشيطان أيس أن تعبد الأصنام فى جزيرة العرب » . فلا يستقيم لها هذا الجواب الأخير ، ولكن يقال إن لهذه الرواية جواباً آخر يخصها ، ذلك اننا نقول : «إن عبادة الأصنام » لا يراد بها مطلق الشرك ولا مطلق عبادة غير الله ، وإنما يراد بها الرجوع إلى الوثنية الخالصة ، والجاهلية الأولى المتجردة من الكتاب. ومن النبوة الخاصة كحال مشركى العرب وغيرهم من عبدة الأصنام والأوثان . ولهذا فانه لا يقال : إن اليهود والنصارى من « عبدة الأصنام » ،ولا يصدق عليهم هذا الاسم ، مع أنهم فى حقيقتهم مشركون يعبدون غير الله، ويعبدون الأحبار والرهبان ، ويعبدون عيسى ومريم وعزيراً . والمؤلفون فى الملل والنحل لايعدونهم فى عبدة الاصنام بل يضعون لهم باباً خاصاً بهم كما فعل الشهرستانى. وغيره من المؤلفين فى الملل والنحل .

فقوله ﷺ . « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الاصنام فى جزيرة العرب» معناه على ماذكرنا أن الشيطان قد أيس من أن يرجع العرب إلى حالهم الوثنية الأولى الخالصة ، فينكروا كتابهم ، وينكروا نبيهم، ويرجعوا إلى عبادة الاصنام

ن التماثيل والجثث المنحوتة من الذهب والفضة والنحاس ، ونحو ذلك كما هو لاصل فى معنى « الأصنام » على ماذكره الراغب فى غريب القرآن ، وغير لراغب . وهذا صحيح لانزاع فيه . فان الذى وقع فيه العرب من المسلمين هو لغلو فى الصالحين من الانبياء وغيرهم إلى حد العبادة والتأليه ، وإلى حد أن عطوهم حق الله الخالص كما فعل ذلك أهل الكتابين : اليهود والنصارى . ولهذا لما قال رسول الله فى الحديث الصحيح السابق : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » وقالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن القوم إلاهم ؟» فالمسلمون فعلوا مافعله أهل الكتاب قبلهم من الغلو فى الانبياء والصالحين وغير الصالحين أيضا . وقد كان النبى عليه السلام يحذر أمته الوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى ويقول كثيرا : إنهم فعلوا كيت وكيت ، يحذر فعلهم : ويقول : افترقت اليهود والنصارى على كذا وكذا فرقة وستفترق أمتى على كذا وكذا فرقة ، ويقول : لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله . وهنالك فرق معلوم معروف بين أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وبين عبدة الاصنام والأوثان فى الحقيقة والحكم وفى الشريعة الإسلامية . وقد فرق بين الفريقين بأشياء عديدة ، فأهل الكتاب يجوز الزواج منهم ويحل طعامهم وذبائحهم وتقبل منهم الجزية ، وعبدة الاصنام يحكم عليهم بخلاف ذلك . والتفريق بينهما فى الأحكام راجع إلى الفرق بينهما فى الحقيقة.

فالعرب بهذا الحديث لا يرجعون إلى الوثنية المعروفة الصريحة ، ولا إلى عبادة الأصنام بالمعنى المتبادر المفهوم ، وإنما يقعون فى الغلو الاشنع فى أنبيائهم وصالحيهم وعبادهم وفيما يتصل بهم من القبور والآثار ، وهذا هو ما كان ، والله المستعان .

أجوبة أخرى فى الحديث

وفى الحديث أجوبة أخرى غير ما ذكرنا ، كأن يقال مثلا : المراد أن

الشيطان قد أيس من أن يعبد أو تعبد الاصنام فى بلاد العرب فى كل وقت وزمان ،فهذا لن يكون إن شاء الله . وقد يشهد لهذا لفظة« أبداً » المذكورة فى الرواية التى ذكرها الشيعى . وكأن يقال أيضا : إنه أيس من أن يعبد فى ذلك العصر الذى هبط فيه الاسلام على العرب وعلى بلادهم . ويكون المعنى إن الشيطان كان إذ ذاك يصارع الدعوة المحمدية محاولا كبتها وخنقها ، وكان يرجو الظفر بها والنيل منها والقضاء عليها قبل اكتمالها وانتشارها . فصار حظه الغلب والهزيمة ، فصرعه الاسلام وصرع حيلته وكيده فأيس من النجاح فأعلن الافلاس . على أن هذا الحديث بلا ريب فيه امتداح للعرب ظاهر وامتداح لبلادهم عام . ففيه امتداح ضمناً للدعوة السلفية التى يسمونها بالوهابية إذ هى دعوة عربية إسلامية خالصة ، ظهرت وعزت، وانتشرت فى بلاد العرب وفى الجزيرة العربية . فالبلاد التى أنبتتها عربية ، والرجال الذين قاموا بنصرتها وتاييدها وإعلاء شأنها عرب . . . فالحديث اذن منطوٍ على امتداحها والثناء عليها من هذا السبيل . ولا يكون مادحها ذامها فى وقت واحد من وجه واحد . هذا وجه وجيه بلا ريب وعلى كل حال لا يمكن أن يدعى أنه لن يعبد غير الله فى بلاد العرب فى وقت من الأوقات ، فان هذا باطل كاذب بالإجماع والضرورة والنصوص المتواترة وقد كان فى بلاد العرب يهود ونصارى وهم يعبدون غير الله حينما قال رسول الله هذا الحديث إن صح أنه قاله . وإلى اليوم يوجدون فى بلاد اليمن وغير اليمن من بلاد العرب . وقد ارتد بعض العرب بعد موت النبى عليه السلام فقاتلهم الصديق والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . كيف والشيعة يزعمون أن خيار الصحابة وكبارهم ارتدوا وكفروا بعد موت نبيهم . وفريق منهم يزعمون أنهم ما زالوا كافرين مرتدين مضمرين لكفرهم ونفاقهم ، ويزعمون أن خلفاء بنى أمية وبنى العباس كانوا ملحدين زنادقة كما تقدم النقل عنهم ؟ ثم كيف وهم يزعمون أن

الخوارج وغيرهم ممن قاتلوا علياً كانوا من شر الكفار، وقد كانوا ، أو كانت طوائف منهم فى بلاد العرب ؟ بل كيف و فى الناس فى كل زمن من يعبد المرءة وفيهم من يعبد المال ، وفيهم من يعبد الشرف والجاه ، وفيهم من يعبد نفسه ، وفيهم من يعبد هواه ، وفيهم من يعبد غير ذلك من صنوف المعبودات الباطلة . . . كل هذا ينادى بفشل هذه الحجة وفسادها و ياتى بها فى الحضيض الأسفل .

حديث أروز الايمان إلى المدينة

وأما الحديث الذى ذكر الشيعى أن صاحب النهاية ذكره وهو قوله عليه السلام « إن الايمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » فهو حديث صحيح رواه الامامان البخارى ومسلم ، ولكن ما أبعد ما بينه وما بين حجة الشيعى وشبهته ، فإن هذا الحديث قد يكون رداً بيناً عليه ، وذلك أن معناه أن الايمان يلجأ و يندفع إلى المدينة حينما يطارد و يشرد من كل مكان . ومعلوم أن الوهابيين قد فتحوا الحجاز وفتحوا المدينة المنورة وطهروه من أوضار الضالين والظالمين والمبتدعين وأقاموا فيه سوق الصلاح والايمان والسنة أزمانا طويلة بعد تلاشى ذلك كله . . فلماذا لا يكون هذا الايمان الذى يأرز إلى المدينة هو هذا الايمان الملتهب المتقد الذى يسميه هؤلاء وهابية متطرفة مشددة ؟ هذا مالا يستطيع الرافضى دفعه بالحجة ، ونحن لو ذهبنا إليه وقلناه لما قلنا قولاً منكراً باطلا

وعلى كل حال فالحديث لم يقل إن المدينة لن يقع فيها نوع من أنواع الشرك والضلال فى وقت من الأوقات حتى يكون للشيعى فيه مستمسك إذ قد يأرز اليها الايمان حينا دون حين كما هو ظاهر الحديث ، وقد يأرز اليها مع وجود غيره فيها فيجتمع فيها الايمان والكفر ، والهدى والضلال ، والسنة والبدعة فى عصر واحد وقد قال تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم » وقد كانت فى زمن النبى عليه السلام مستقراً لجماعة من كبار المنافقين خصوم الاسلام والمسلمين وخصوم النبى الكريم ، ومع هذا يقول النبى عليه السلام إن الايمان ليأرز إلى

المدينة . أولسنا قد قدمنا أن أحد أئمة الشيعة ، على قول كتبهم ، سئل عن سكنى المدينة فنهى عن ذلك وقال : « أهل المدينة أخبث من أهل مكة سبعين ضعفا » فهذا الحديث على الشيعى لا له . وهكذا نجد أغلب حجج الرجل لاعقل ولا علم ولا عدل .

﴿ الباب الثانى من كتاب الرافضى ﴾

قال الرافضى : « الباب الثانى فى ذكر معتقدات الوهابية التى كفروا بها المسلمين وحججهم على ذلك وردها على وجه العموم ناقلين لها من كتبهم الموضوعة المشهورة » .

وهذا الباب خلاصة للباب الثالث الآتى بعد هذا كما سوف يجئ وكما سوف يجئ النقض عليه إن شاء الله . وهو فى هذا الباب لم يأت بمسألة خاصة من مسائل النزاع وإنما نقل جملا من كتب مخالفيه فرد عليها بقدر علمه وهواه . ونحن هنا نورد مافى هذا الباب من الأخطاء الكبرى مجملين الرد إجمالا ثم ننتقل إلى الباب الثالث مفصلين القول تفصيلا .

﴿ بماذا كان المشركون مشركين ؟ ﴾

ذكر الرافضى فى أول هذا الباب قول إمام الطائفة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إن المشركين الذين قاتلهم رسول الله كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرازق المدبر ولم يدخلهم ذلك فى الإسلام لأنهم كانوا مشركين فى العبادة . فقال الشيعى رداً عليه ماخلاصته : « إن ذلك لم يدخلهم فى الإسلام لأنهم كانوا مكذبين للرسول منكرين جميع شرائعه قادحين فيه دائنين بدين الجاهلية . . .

« فكيف يقاس بهم المسلمون المتوسلون المؤمنون بجميع ماجاء به النبى ﷺ » . هذا خلاصة الرد وخلاصة الفرق بين الفريقين لدى الشيعى .

والجواب أن يقال إذا ما كان القوم الذين بعث فيهم النبي من المشركين والكافرين من العرب وغير العرب إنما كانو غير مسلمين لأنهم كذبوا الرسول وقدحوا فيه وردوا ما جاءهم به فماذا يقول فيهم قبل ابتعاث الرسول وقبل أن ينكروا ما جاءهم به ، وقبل أن يكذبوه لأنهم ما كذبوه ولا قدحوا فيه إلا بعد ابتعاثه إليهم ؟ أيقول إنهم كانوا مسلمين وكانوا مؤمنين وموحدين ، وكانوا غير كافرين وغير مشركين ، وكانوا ناجين مرضيين ، ويقول : إن النقمة والغضب والسخط لم تنزل بهم إلا بعد إبتعاث النبي فيهم ، ويقول إنهم لم يكونوا مشركين ولا كافرين أو ضالين إلا بعد أن جاءهم كتاب الله يحمله رسول الله ؟ إن ماقاله هنا يقضى بأن يكون الجواب على هذه الأسئلة هو « نعم » ولكن هذا باطل بالاجماع والضرورة والبداهة . فان المسلمين لايختلفون فى أن العرب الذين ابتعث فيهم محمد عليه السلام كانوا مشركين وكافرين وضالين قبل أن يبتعث ، وأنه عليه السلام إنما بعث لاخراجهم من تلك الظلمات : ظلمات الشرك والكفر والانحطاط الاعتقادى العقلى الشنيع ، وأنهم ما كذبوه ولانازعوه ولاردوا ما جاءهم به إلا لأنه خلاف ما كانوا عليه وخلاف ما كان عليه الآباء والجدود والسادة والاشراف ولهذا كانو يقولون لما جاءهم بخلاف ماعرفوا وورثوا ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشئ عجاب ﴾ الآية ، وكان يقول لهم : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجوا وتدن لكم العرب وتؤد إليكم العجم الجزية . فكانوا ينكرون ذلك ويجحدونه ويعجبون منه ، لانه غريب بينهم مجهول لديهم . وكانت الدعوة المحمدية قائمة على أن أولئك الناس قد أشركوا بخالقهم وعبدوا المخلوقين العاجزين الضعفاء . فوجب إخراجهم من هذا النقصان ، وهذه الورطة الاعتقادية المنكرة ، وهذا الضعف العقلى الفظيع ، وكانوا هم لايرضون هذا ولا ينعمون به عينا ، ولا يقبلون النبوة هذه التى تريد منهم أن يفارقوا ماوجدوا عليه الآباء والجدود ، وماوجدوا عليه

الكبراء والاشراف الأقدمين الذين هم زين العشيرة ، وعماد القبيلة وكانوا يقولون « أأنزل عليه الذكر من بيننا » . ولهذا فانهم لو آمنوا بالرسول وبالكتاب وبالاسلام ثم بقوا على ما كانوا عليه من عبادة غير الله لما خرجوا بذلك عن الشرك والكفر ، ولما كانوا مسلمين ولا مؤمنين . وهذا لاخلاف فيه وهو يكشف غلط الشيعي ويفضحه

وتحقيق هذا أن أهل العلم قالوا : إن المشركين كانوا مقرين بأن الله هو الخالق لاخالق غيره ، وهو المدبر لجميع الأمور لامدبر غيره ، ومع هذا لم يكونوا مسلمين ولا مؤمنين لأنهم كانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا يشركون بالله : فجاء هذا الشيعي ورد على هؤلاء بأن قال : نعم إن أولئك المشركين المقرين لله بالربوبية لم يكونوا بذلك الاقرار مسلمين ولا ناجين لأنهم كانوا مكذبين للنبي وقادحين فيه ورادين ما جاءهم به . . . فرددنا نحن عليه بأن قلنا : لو كان هذا حقا لكانوا قبل مجيء الرسول إليهم وقبل تكذيبهم إياه مؤمنين مسلمين مهتدين . لأن تكذيبهم الرسول وقدحهم فيه وردهم ما جاءهم به ـ وذلك هو موجب كفرهم وإشراكهم فيما زعموا ـ لم يكن إلا بعد البعثة والدعوة النبوية، وبعد أن أعلن دعوتهم ومجاهرتهم بالتضليل والتجهيل . وقلنا أيضا رداً على الشيعي : لو كان هذا حقا لكانوا مسلمين مؤمنين ناجين لو أنهم آمنوا بالنبي وما جاءهم به ثم ظلوا بعد هذا الايمان على ما كانوا عليه من العقائد الخرقاء . وقلنا : لو كان هذا حقا لم يدعهم الرسول الكريم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده ، وإلى أن يقولوا لا إله إلا الله لاشريك له ، بل لاقتصر على دعوتهم إلى الايمان والتصديق بما جاء به . وقلنا أيضا : إن المشركين لم يأبوا دعوة الاسلام فى الأكثر ويردوها إلا لأنها كانت تطالبهم بأن يتركوا معتقداتهم التى ورثوها عن الأسلاف ، ولو أنها لم تطالبهم بذلك، بل كانت تريد إقرارهم على ما كانوا عليه، لما لجوا هذا اللجاج

فى عنادها و إبائها ومطاردتها . ولكن الله جل شأنه إنما بعث رسوله ، و بعث سائر رسله لأجل الدعوة إلى عبادته وتوحيده و إفراده بكل معانى العبودية كما قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله » وذكر الكتاب الكريم فى قصص الأنبياء والمرسلين أن كل رسول كان يبادىء قومه بقوله : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . فالأنبياء بعثوا لدعوة الخلق إلى الهدى الذى تركوه وجانبوه ، ولاخراجهم من الظلمات التى اركسوا فيها ، لا لأجل دعوتهم إلى الايمان بهم فقط . ولو أن الناس كانوا مهتدين راشدين قبل مجىء النبيين لما كانت هنالك ضرورة إلى إرسال الرسل وانزال الكتب . .

فالمشركون الذين قاتلهم الرسول عليه السلام وقاتلوه ، وطاردهم وطاردوه كانوا قبله ضالين مشركين هالكين كما قال تعالى فى الفريق الذى آمن منهم : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » ولو أنهم آمنوا به عليه السلام و بكل ماجاءهم به ، ولكنهم بقوا على عقائدهم الأولى ، لما كانوا بذلك مسلمين بلا ريب . فكيف يزعم الشيعى أن المشركين كانوا مشركين وغير مؤمنين لا لشىء إلا لأنهم كذبوا الرسول وقدحوا فيه وعابوه وعاندوه ؟ بل هم كافرون مشركون لعبادتهم غير الله من المخلوقين الضعفاء . وقد كذبوا الأنبياء وردوا ما جاءهم به لأنهم يدعونهم إلى النزوع عن عقائد ورثوها وألفوها يعز عليهم النزوع عنها والفراق لها . فماذا يقول هذا المؤلف أم أين يفر و يهرب ؟

و إننا نعيد هذه المعانى بعبارات الأسئلة إيضاحا و زيادة بيان فنقول لهذا المصنف : بماذا كان العرب الجاهليون مشركين كافرين ؟ فان قال بتكذيبهم الرسول و ردهم ماجاء به ، قيل له : كلا ، لانه لو كان هذا هو موجب كفرهم و إشراكهم لكانوا قبل مجىء الرسول غير مشركين وغير كافرين ، لأنهم قبل مجيئه لم يكذبوه يقينيا ، ولانهم لو آمنوا به وظلوا على عقائدهم لكانوا أيضا مشركين كافرين بلا

خلاف بين الناس . . . وإن قال. إنهم كانوا كافرين مشركين لانكارهم البعث والحياة الأخروية ، قيل له أيضا : كلا ، لانه لاخلاف فى أنهم كانوا مشركين كافرين فوق انكارهم البعث والحياة الأخرى ، ولانهم لو آمنوا بالبعث بل وبكل ماجاءهم به الرسول ثم لم ينزعوا عن أعمالهم وعقائدهم ما كانوا مسلمين ولامؤمنين يقينا . وإن قال : إنهم كانوا مشركين لانهم كانوا منكرين لله ، أو لانهم كانوا يرون معه شركاء فى الخلق والقدم والبقاء ، قيل له : كلا ، لانهم كانوا مؤمنين بالله وبانه خالق كل شئ وبأن بيده الامور كلها ، والدليل على ذلك الآيات المتكاثرة الصريحة القائلة : إنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ، ومن خلق كل شئ ومن بيده كل شئ . . يقولون : ذلك هو الله وحده لاشريك له . والمخالف معترف بهذا مقر به ، فليس محل خلاف بينه وبين مخالفيه ، ولانه لا خلاف أيضا بين المسلمين فى أنهم لو أقروا بذلك كله إلا أنهم بقوا على عقائدهم ما كانوا مسلمين ولاناجين . فهذا لايصح جوابا مطلقا .

وإن قال : إنهم كانوا مشركين لأنهم عبدوا غير الله ، ولانهم عبدوا الاصنام والأوثان ، قيل هذا هو سر المسألة ومضطرب الأذهان فيها . فما كانت عبادتهم للأصنام والاوثان ، وما هى الأصنام والأوثان ؟ وفى الجواب على هذين السؤالين جواب كاف عن جوهر المسألة وسرها . ولا مفر من أن يقول : إن عبادتهم الأصنام هى سجودهم وركوعهم ونذرهم وذبحهم لها ، وهى أيضا خشيتهم ودعاؤهم وخوفهم ورجاؤهم إياها ، وانقطاعهم إليها وما يصاقب هذه المعانى . فاذا قال ذلك قلنا له : انتهى إذن كل شىء فى المسألة ، وبهذا رجع إلينا كرها أو طوعا ، وقال بقولنا اختياراً أو اضطراراً . فاننا نحن نزعم أن هذه الأمور هى العبادة بصورها ومعانيها ، ونزعم أن كثيراً من المدعين للاسلام يفعلون ذلك كله فوق أضرحة الأموات لا ينقصون منه شيئاً إن لم نقل إنهم يزيدون عليه كثيراً . وبهذا

انحلت المسألة وانكشف غطاؤها . . . ثم لا مفر من أن يقول : إن الأصنام والأوثان هى كل ما عبد من دون الله إما حقيقة و إما حكما ومعنى فقط ، ولا مفر من أن يقول إن عبادة الأنبياء والأولياء والصالحين والأئمة لا تجوز كما أن عبادة الأحجار والاشجار والأصنام والأوثان لاتجوز ، وأن عبادة الصالح كفر بالله كما أن عبادة الحجر والصنم كفر كذلك ، لأننا لا نعلم خلافا فى أن عبادة غير الله شرك بالله سواء أكان المعبود أقرب الخلق إلى الله أم كان أبعدهم عنه . وهذه حقائق فى معزل عن الخلاف .

﴿ هل كان العرب المشركون ينكرون الله ﴾
﴿ أو يقولون إن الاصنام تضر وتنفع ؟؟ ﴾

عقيدة المشركين فى أصنامهم

بقى قول الشيعى فى هذا الباب : « إنه لاشئ يدلنا على أنهم (أى مشركى العرب) لايعتقدون فى الأصنام ومعبوداتهم من الجن والانس والملائكة أنه لاتأثير لها فى الكون ، وأن التأثير لله وحده ، إذ يجوز أن يعتقدوا أن لها تأثيرا بنفسها ، فتشفى المرضى ، وتنصر على الأعداء ، وتكشف الضر وغير ذلك ، وأنها تشفع عند الله حتما ولا يرد شفاعتها ، أو أن الله جعل لها قسطا من التأثير أو كله إليها ، بل ظاهر الآيات هو ذلك مثل قوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » . بل ظاهر قوله تعالى : « و إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً » أنهم كانوا يسجدون لغير الأصنام ، ولا يعتقدون إلها غيرها ، وظاهر قوله عن أهل جهنم « تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . . » اعتقادهم أنها مساوية لله و إن لم يكن من جميع الوجوه ، وذلك كاف فى الشرك والكفر ، وذلك أيضا ظاهر جميع الآيات الدالة على اتخاذهم إلها من دون الله وشركاء لله

ونحو ذلك مثل « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا » « أجعل الآلهة إلهاً واحداً »
ومنهم من كان ينكر الله وينكر البعث ، وهم الذين قالوا كما حكى الله عنهم : « ماهى
إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » انتهى كلام الرافضى .

المشركون لم ينكروا الله ولم ينكروا ربوبيته لكل شئ

والجواب أن يقال لا ريب أن المشركين من العرب كانوا مؤمنين بأن الله
وحده هو الخالق لكل شئ ، وهو المدبر لكل أمر ، وهو القاضى على كل حى ،
وهو المجير على كل كائن فى السماء وفى الارض ، ومؤمنين بأن أصنامهم مخلوقة لله
نافذ فيها قضاؤه وحكمه وأمره ، راجعة إليه خلقا وحكما وبداية ونهاية ، خاضعة له
خضوع العبيد الأرقاء الاذلاء ، لا تستطيع عما شاءه وأراده لها خروجا ولا مفرا .
والدلائل على ذلك متضافرة متكاثرة ، والقرآن بجملته دال عليه ضروب الدلالات
وقد نص فى غير ما آية على أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ، ومن خلق
كل شئ يقولون ذلك هو الله وحده كما قال تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات
والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر
هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبى الله
عليه يتوكل المتوكلون » وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم
من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى
ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » وقال « قل لمن الأرض ومن
فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات
السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت
كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى
تسحرون » إلى غير ذلك من الآيات البينات الدالات على أنهم مؤمنون بالله
وبأنه القابض على كل شىء ، القاضى على كل موجود ، الآخذ بناصية كل
حى ، ليس وراءه مذهب ، ولا عنه مهرب ، ولا إلى سواه منقلب ، لا إله إلا هو

الحق وما سواه الباطل ، الباقى وما سواه الفانى . . . وليس بعد هذه الآيات الواضحة بيان لمن أراد البيان ، وبرهان لمن طلب البرهان ، وإيمان لمن شاء الإيمان . . .

توحيد المشركين فى حالة الشدة

هذا ضرب من ضروب دلالات القرآن على إيمان المشركين بالله . وقد نص أيضاً على أنهم كانوا يدعون كل من سوى الله ، وينسون كل معبود سواه حينما تعضهم الشدائد ، وتلتحم بهم المصائب ، ويسمون إليه سبحانه وحده برغباتهم ورهباتهم ، ويجدون اليه المفزع والمنزع ، لامفزع ولا منزع إلا هو عز شأنه وتعالى سلطانه وعظم جده . وهذا فى غير ما آية قال تعالى : « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » وقال : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » وقال تعالى « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه ان شاء وتنسون ماتشركون » . وما انقطعوا الى الله وحده ولارغبوا عن كل من سواه فى تلك الساعات إلا لأنهم يعلمون أن كل شئ إليه يصير ، وأن كل من دونه باطل حقير ، وأن كل عزيز لديه ذليل ، وكل كبير لدى كبريائه صغير . فالله أكبر كلمة وسعت كل شىء ولكن لم يسعها شىء ، كلمة آمن بها المؤمن والكافر ، ونطق بها الناطق والصامت بلسانه أو كيانه وبنيانه ، فالله أكبر . ولو كان أولئك المشركون الكافرون يعتقدون ، على ما يقول الشيعى ، أن الله جعل لتلك الأصنام والاوثان بعض التأثير أو كله ، أو يعتقدون أنها تنفع وتضر وتشفى المرضى وتنصر على الأعداء وتزيل البلاء ، وأنها تشفع لديه حتما فيقبل شفاعتها حتما ، أو لو أنهم كانوا ينكرون الله : أقول لو أن المشركين كانوا يعتقدون ذلك للأصنام والأوثان لما نسوها فى شدتهم وضرائهم ، بل لتعلقوا بها حيئنذ أعظم التعلق ، ولكنهم أعرضوا عنها لأنهم

يعلمون عجزها وهوانها عند ما يغضب الله ، وعند ما يريد أن ينزل بعض عذابه وعقابه على بعض العصاة من خلقه .

احتجاجهم بمشيئة الله

وقد نص القرآن أيضاً فى غير ما آية على أن المشركين كانوا يحتجون لكفرهم وشركهم بمشيئة الله كما قال الله « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم » وقال : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » وقال : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ »

فهم يحتجون لمعاصيهم وخطاياهم وشركهم وكفرهم بارادة الله ومشيئته ، ويزعمون أن الله هو الذى ألجأهم واضطرهم إلى ذلك ، فأتوه مكرهين ، فهو يريد منهم مايعملون ويرضاه وإلا لحجزهم عنه وحال بينهم وبينه ، لأنه المتصرف المطلق ، والفاعل المطلق ، الكائن ما يريده ويشاؤه لاما يشاؤه ويريده غيره من الخلق والأصنام والأوثان والمعبودات الأخرى ، لامعقب لحكمه ولا راد لقضائه . أما الأصنام والأوثان ، أما كل ما دون الله فذلك كله لله يصرفه كما يشاء تصريف قهر وملك واضطرار . فهو وعابده فى الخضوع له سواء . ولا أدل من هذا على أن القوم مؤمنون بالله ومؤمنون بأن كل شيء يدين له بالعبودية الخالصة من جميع أطرافها .

الاصنام شافعة فقط

وقد نص القرآن أيضا على أنهم كانوا يريدون من أصنامهم ومعبوداتهم أن تقربهم إلى الله زلفى ، وأن تقوم لهم لديه تعالى مقام الشفعاء ، لأنه هو غايتهم وغاية كل شيء ، ولأنه هو الذى يعطى ويمنع ، أما الآلهة والاصنام فتدعو وتشفع . ومقام الداعى الشافع غير مقام المدعو المشفع ، ومقام الوسيلة غير مقام الغاية : فالله عند القوم هو المشفع والغاية ، والاصنام والمعبودات الاخرى هى الشافعة

والوسيلة . قال الله تعالى : « يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عنـد الله » وقال : «والذين اتخذوا من دونه أولياء ،مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، أى إنهم يقولون فى توجيه عبادتهم للاصنام ذلك . فهل هذه الاقوال ، ياقوم ،أقوال من ينكرون الله ، أو من يرون للأصنام التأثير كله أو بعضه أو من يقولون إنها مساوية لله و إنها مثـله ، أم هى أقوال قوم يؤمنون بالله و يعترفون له بكل معنى من معانى الربوبية والقوة ؟ وليفكر فى هذا أولو الالباب خالصين من عقابيل الاهواء وأدران الجهالات

ايمان المشركين وشركهم

وقال تعالى : « ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » . قال السلف والمفسرون : معنى ذلك أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم و رازقهم وخالق كل شئ من علوى وسفلى ومع هذا يعبدون غـيره تعالى . قال ابن جرير فى تفسـير الآية : « يقول تعالى وما يقر أكثر هؤلاء الذين وصف صفتهم بقوله : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » بالله أنه خالقهم و رازقهم وخالق كل شئ إلا وهم به مشركون فى عبادتهـم الأصنام والاوثان واتخاذهم من دونه أربابا و زعمهم أن له ولدا ، تعالى الله عما يقولون » . ثم روى عن عبد الله بن عباس قال : من إيمانهـم اذا قيل لهم : من خلق السماء ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال قالوا : الله وهم مشركون . وذكر عن عكرمة قال تسألهم من خلقهـم ومن خلق السموات والأرض فيقولون الله ، فذلك إيمانهـم بالله ، وهم يعبـدون غيره . وعن عكرمة وعمرو قالا يعلمون أنه ربهم وأنه خلقهم وهم به مشركون . وعن عكرمة وعامر ومجاهد أنهم قالوا فى هذه الآية : ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض . فهذا إيمانهم وهم يكفرون بما سوى ذلك . وعن قتادة قال : لست تلقى أحداً منهـم إلا نبأك أن الله ربه وهو الذى خلقه ورزقه ، وهو مشرك فى عبادته . وعن الضحاك قال : كانوا يشركون به فى

أقوال المفسرين

تلبيتهم . وعن عطاء قال : يعلمون أن الله ربهم وهم يشركون به بعد . وعن ابن زيد قال : ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ، ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به . قال : فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به ، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . نقل هذه الروايات كلها ابن جرير في تفسير الآية .

قول الرازي بعد ابن جرير

وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : « ... ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » من سورة يونس : « لما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بين أن الرسول إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون انه الله . وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به . وهم الذين قالوا في عبادتهم الأصنام : إنما تقربنا إلى الله زلفى ، وإنها شفعاؤنا عند الله ، وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر . فعند ذلك قال لرسوله : « فقل أفلا تتقون » يعني أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه ، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ألبتة » .

قول النيسابوري

وقال النيسابوري في تفسير قوله تعالى « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » « ورابعها أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله اتخذوا صنما على صورته وعبدوها على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون لهم شفيعاً يوم القيامة عند الله « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . وخامسها لعلهم اتخذوها قبلة لصلاتهم وطاعاتهم ، ويسجدون إليها لا لها كما أننا نسجد إلى القبلة لا للقبلة . ولما استمرت هذه الحال ظن جهالهم أنه يجب عبادتها . . . ولما تقربوا إليها وعظموها وسموها آلهة أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله ،

قادرة على مخالفته ومضادته ، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم ، وكما تهكم بهم بلفظ الند شنع عليهم واستفظع شأنهم بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصلح أن يكون له ند ، ولا يفيد فى طريق عبادته إلا الحنيفية والاخلاص و رفع الوسائط من البين » .

إيمان أكفر الناس بالله وبربوبيته

وقال أمثال هذه الأقوال سائر المفسرين من الأولين والآخرين . وقد حدث القرآن عن أطغى الخليقة بأنه كان مؤمنا بالله و بعظمته وسلطانه فقال تعالى حكاية عن رسوله موسى أنه قال لعدوه فرعون : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر و إنى لأظنك يافرعون مثبوراً » ، وقال تعالى فى فرعون وقومه الطاغين : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » بل حدث عن إبليس إمام الكافرين وزعيم طوائف المشركين أنه مؤمن بالله و بربوبيته وملكه وسلطانه المطلق . وهذا مذكور فى آيات معلومة . هذه بعض دلالات القرآن على إيمان المشركين بوجود الله و بربوبيته . ففيم الخلاف بعد هذا إذن ؟ .

دلالة السنة على ذلك

وقد دلت السنة أيضا على ذلك دلالات مختلفة ظاهرة . وهذا فيما لا يحصى من الأخبار الصحيحة الثوابت ، من ذلك حديث الصحيحين المشهور وهو أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم إذ هم حجاج : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » . وقد كان رسول الله يسمعهم يقولون ذلك فيقول عند قولهم «لا شريك لك» : « قط قط » أى حسب حسب . وكذلك دلت على ذلك أقوال جميع المفسرين من السلف والخلف من المحدثين والمتقدمين ، وتفاسير أمثال ابن جرير الطبري وابن كثير ، والبغوى ، والرازى ، وغيرهم طافحة بهذا . وهو غنى عن إيراد أفراد شواهده

دلالة كلام المشركين أنفسهم

وقد دل على ذلك أيضا كلام المشركين أنفسهم ، ودل عليه ما حفظ من

شعرهم ونثرهم دلالات قاطعة كل نزاع وخصام . وليتناول من شاء ما شاء من دواوين العرب وكتب آدابهم وعلومهم . ومن أبلغ ذلك قول لبيد :

ألا كل شيء ماخلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل

وقد أنشد هذا الشعر فى المسجد الحرام بين أظهر المشركين الكافرين بالله و بنبيه عليه الصلاة والسلام فأقروه جميعاً وهم يحاربون الاسلام ونبي الاسلام ودعوة الاسلام . وقد كان أحد المسلمين حاضراً لبيدا وهو ينشد شعره هذا فلما قال : « وكل نعيم لا محالة زائل » قال له : كذبت فإن نعيم الجنة لا يزول . وقال لبيد أيضا :

أرى الناس لايدرون ما قدر أمرهم * بلى كل ذى رأى إلى الله واسل

وقال أيضا فى هذا المعنى :

أحمد الله فلا ند له * بيده الخيرات ما شاء فعل

وقال النابغة الذبيانى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وقال حاتم طي :

كلوا الآن من رزق الاله وأيسروا * فان على الرحمن رزقكمو غدا

وقال عنترة العبسى :

ياعبل أين من المنية مهرب * إن كان ربى فى السماء قضاها

هذه قطرات من بحار والسير كلها ملأى بأمثال ذلك شعرا ونثرا . ومن العبث محاولة جمع دلائل إيمان القوم بالله و بأنه الآخذ بناصية كل حى وميت .

استحالة ذلك عقلا وعادة

على أن من الأمور البدهية العلم بأن عقلاء المشركين ودهاتهم وذوى الرأى والأرب منهم لم يكونوا يرون تلك الأحجار والأشجار والتماثيل والصور التى كانو يعبدونها و يعملونها بأيديهم ، والتى كانوا يأكلونها أحيانا متى جاعوا خالقا

لعبادها أو أنها قديمة مع الله أو شريكة له فى الملك والربوبية . ونحن ـ مهما أسأنا الظن بالمشركين والكافرين ، وبالغنا فى هجاء عقولهم وفطرهم ـ لا نحسب أن أمثال عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق وعثمان بن عفان وخالدبن الوليد وعمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة وأبى سفيان ومعاوية وأبى طالب وغيرهم من دهاة الرجال وذوى الرأى والأرب منهم ، كانوا ،حينما كانوا مشركين ،يعتقدون أن الاصنام والأوثان والصور والتماثيل التى كانوا يعبدون خالقة لهم أو خالقة السموات والأرض ، أو مساوية لله فى القوة والقدرة والسلطان والقدم والبقاء وسعة العلم وإحاطته ، أو نحو ذلك من صفات الربوبية وأوصاف الرب . إن العلم ببطلان هذا وفساده من العلوم الضرورية الجلية . ولكن القوم كانوا يتخذون تلك الأصنام والأوثان قرباناً إلى الله ربهم كما قال تعالى: « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ، بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون » وقال: « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله ».

هذه أمور وبراهين يكفى بعضها لرد ما قاله الشيعى من أن المشركين كانوا ينكرون الله ،أو كانوا يقولون ان الله أعطى الاصنام والأوثان التأثير كله أو بعضه.

﴿ الآيات التى احتج بها الشيعى ﴾

أما الآيات التى احتج بها هذا الرجل على هذه الدعوى فلا حجة فيها مطلقا

الجواب عن الآية الأولى

أما قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » فما أتاها عما رام منها ، فهى تقول خطابا للنبى عليه الصلاة والسلام : قل لأولئك المشركين بالله،العابدين معه ماخلق : قل ادعوا الذين زعمتوهم آلهة ، وزعمتموهم جديرين بالعبادة والتأليه ، وزعمتم أنهم يدعون ويستغاثون فيجدى دعاؤهم والاستغاثة بهم : ادعوهم فلن ينفعوكم شيئاً ، ولن

يستطيعوا أن يكشفوا عنكم ضرا نازلا بكم ، ولا أن يحولوه عنكم إلى غيركم لعجزهم عن ذلك، ولا نفرادا لله به دون من خلق ودون كل شئ فى الأرض وفى السموات . ثم قل لأولئك المشركين أيضا : إن هؤلاء الذين تدعونهم رجاء خير أو دفع ضير ، بشفاعتهم ووساطتهم ، هم يدعون الله ويرجونه ماترجونهم من الوسيلة إليه ، والقرب لديه ، والحظوة عنده . وهم يرجون رحمته لفقرهم وإحتياجهم ، ويخافون عذابه لضعفهم وعجزهم . فما أضعف من تدعون وترجون ، وما أضعف الطالب والمطلوب . . . وليس فى الآية أن أولئك العابدين المشركين كانوا يعتقدون أن أولئك المعبودين مساوون لله ، أو خالقون للسموات والأرض ، أو خالقون لأنفسهم أو لغيرهم ، أو يعتقدون أن الله أعطاهم تصريف هذا العالم كله أو تصريف بعضه : ليس فى الآية الكريمة شئ من هذا حتى يسوغ للشيعى الاحتجاج بها ، بل غاية ما يمكن أن يفهم منها أنهم كانوا يدعونهم ويعبدونهم أنواع العبادات ، من الخضوع والخشوع والخوف والرجاء، رجاء أن ينفعوهم عند الله ربهم وربهم بوساطتهم وشفاعتهم ومكانتهم . وسوف نبين إن شاء الله أن عبدة القبور هكذا يفعلون ويرجون ، وهكذا يضربون وينسجون . فان إنساناً واحدا عاقلا لا يمكن أن يدعو شيئاً ما وهو لا يرجو منه شيئاً لا بوساطته ولا بقدرته .

الجواب عن الآية الثانية

وأما قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ، وزادهم نفورا » فاحتجاج الشيعى بها مناقض لأقواله الكثيرة ، لأنه معترف فى غير مكان من هذا الباب ومن الأبواب الأخرى أن المشركين كانوا مؤمنين بالله وكانوا يعبدونه أيضا ، ولكنهم كانوا يعبدون غيره من الأصنام والأوثان ، وكانوا يكذبون الرسول وينكرون شرائعه وشرائع الإسلام، وينكرون البعث والحساب والثواب والعقاب . فالجواب عن الآية إذن مشترك بينه وبين مخالفيه . ومما لاريب فيه أن هذه الآية لا يمكن أن تقوى على معارضة الآيات

والدلائل الأخرى السابقة فى إيمان المشركين بالله وعبادتهم غيره

والآية لها معنى آخر غير ماذهب اليه الرافضى . وهذا المعنى مذكور فى كتب الحديث الصحاح وفى كتب التفسير وأقوال المفسرين من السلف والخلف ، وفى كتب اللغة ، وذلك أن المشركين من العرب كانوا ينكرون هذا الاسم الذى هو « الرحمن » لأنهم لم يكونوا يعرفون أنه من أسماء الله ، أو لأنهم لم يعتادوا إطلاقه على الله . فهم ينكرون هذا الاسم من الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه ، فيما زعموا ، ابتدعه وأحدثه ، ولاينكرون الله ذاته . وهذا معروف مذكور فى كتب الحديث والتفسير . وقد روى البخارى وغيره فى خبر صلح الحديبية بين المسلمين والمشركين أن الرسول عليه السلام لما أملى على الكاتب عبارات الصلح وقال له قل : بسم الله الرحمن الرحيم قال له سهيل بن عمر زعيم المشركين : أما الرحمن فلا نعرفه، ولكن اكتب باسمك اللهم . وهكذا ذكر المفسرون فى معنى الآية من المتقدمين والمتأخرين . فالذى أنكره المشركون هو الاسم لا المسمى . وهذا واضح . ولهذا فانهم كما حكى الله عنهم أنكروا الرحمن ولم ينكروا الله ولا الاله ولا الرب ولا غير ذلك من أسماء الله وأوصافه وصفاته المعروفة فى كلامهم .

معنى آخر فى الآية

على أن للآية الكريمة معنى آخر أراه قريبا وجيها . ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعو القوم إلى عبادة الله وحده لاشريك له فى نوع من أنواع العبادات ولا فى مظهر من مظاهرها . فكان يدعوهم إلى توحيده تعالى فى الدعاء والرجاء والخوف والرغبة والرهبة والسجود والركوع . . . وكانوا هم ينكرون ذلك التوحيد ويلجون فى الانكار أقبح اللجاج، وكانوا يتهكمون به عليه السلام إذا دعاهم إلى ذلك ، إلى الله وحده ضروب التهكم ، فكان رسول الله يقول لهم فيما يقول : اسجدوا للرحمن وحده ، فكانوا يردون عليه ساخرين هازئين :

« وما الرحمن » ، ماهذا الإله الذى تدعونا إلى عبادته والسجود له وحده ؟ صفه لنا ، وصف لنا حقيقته وحقيقة أمره وماتعرفه عنه مما نجهله نحن عنــه إن كنت صدقا عالمًا مالم نعلم، مطلعا على مالم نطلع عليه من شؤونه وصفاته وأوصافه ، وإن كنت حقا نبيه وصفيه من خليقته ورســوله الينا وإلى الخلق جميعا . . . وكانوا يريدون بذلك التعجيز والافحام والزراية ، لاالعـلم والمعرفة والدراية . وما كانوا يريدون حقيقة السؤال والعلم لانهم كانوا منـكرين عليه عليــه الصلاة والســلام الرسالة والصلة الالهية التى خصه الله بها دونهم. فكان المراد بقولهم: « وماالرحمن » التعجيز والافحام والعدوان . وما كانوا يعنون إنـكار الله أو إنكار وجوده تعالى ، فان لفظ الآية لا يعين عــلى إرادة هذا الانكار . ولو كانوا يريدون الانـكار والجحود حقاً لقالوا له : إنه لارحمن ولا إله ولا خالق ، فمن ذا الذى تدعونا إلى عبادته وحده والسجود له ؟ والقوم كانوا كل الحراص عــلى مجابهة نبيهم بالخلاف والاكذاب والـكفران ، وإنما قالوا : « وما الرحمن » . ومثل هــذا الاستفهام والـكلام يسأل به عن حقيقة الأمر وماهيته ، ولايراد به حقيقة الجحود إلا أن يكون القول ضرباً من ضروب المجازات المعـلومة الـكثيرة . ولـكن لاشىء هنا يحمل على تحميل الآية المجاز والخروج بها عن الحقيقة ، بل كل شىء يدل عــلى أنْلا مجاز ولا إنكار ولا جحود ، وإنما هنا الشرك والحرص الأصم الأعمى عليه.

آية تسوية لاصنام برب العالمين

وأما قوله تعالى . « تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين » فهى ليست بسبيل مما ذهب إليه المخالف ، ويتبين ذلك بايراد ماقبل الآية . قال تعالى من سورة الشعراء : « وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهـم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فـكبـكبوا فيهاهم والغاوون وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صـديق

حميم ...». فلينظر القارئ فى الآية يجد أنها خصام وحوار بين المشركين التابعين وبين رؤسائهم المضلين المتبوعين، ويجد أن هذه الآية مثل قوله تعالى من سورة الأحزاب : « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبداً لايجدون وليا ولا نصيرا، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا » ومثل قوله تعالى من سورة إبراهيم « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، مالنا من محيص » . فهذه الآيات كلها من نهر واحد، هى خصام وجدال بين فريقى الضالين المعذبين : بين أئمة الكفر والضلال ودعاة جهنم من الملوك والزعماء والعلماء وسائر الرؤساء الذين ملكوا عقول الجماهير وقلوبهم وعقائدهم وعواطفهم بخداعهم ومكرهم وسلطانهم ودرهمهم ودينارهم فاقتادوهم ، وهم ينظرون ، إلى جهنم بأمراس الزعامة والرئاسة التى قدموها إليهم عن طاعة ورضا وجهل وغباوة ، ليقودوهم بها إلى عذاب النكر والهون والجحيم فى حياتيهم : الدنيا والأخرى ــ وبين هذه الجماهير الضالة الغبية التى استعبد عقولها وقلوبها وعقائدها وعواطفها أناس مثلهم يلبسون الثياب خوف الحر والقر ويأكلون الطعام لطرد الجوع والإعياء والألم ... فالآية حوار قاس بين الرؤساء والمرؤسين من المشركين والمضلين ، لا بين المشركين وأصنامهم وأوثانهم التى ألهوها وعبدوها . وذلك أن الآية قد أنبأت بأن أولئك المعبودين المسوين برب العالمين لا ينصرون ولا هم ينتصرون ، وأنهم كبكبوا جميعاً فى الجحيم ، وأنبأت أن فريقى الاختصام والحوار هم المشركون والغاوون وجنود إبليس أجمعون . وهذا كله لا يكون إلا للرؤساء الضالين المضلين ، لا للأوثان الجامدة،

ولا للمعبودين من الأنبياء والصالحين .

والمراد هنا بتسوية المرؤسين للرؤساء برب العالمين أنهم قد أطاعوهم في عصيان الله وفي الخروج على شرعه ودينه وسننه ، وأنهم قد شرعوا لهم شرائع باطلة لم يأذن بها الله فأطاعوهم وأذعنوا لهم ، واستبدلوها بشرائع الله خالقهم ورازقهم ، وبشرائع أنبيائه وصفوة عباده . وفي هذا المعنى قال الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . وقد جاء في تفسير الآية عن النبي عليه الصلاة والسلام أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وفي تحريم الحلال ، فكانوا بذلك متخذيهم لهم أرباباً . وفي هذا المعنى أيضا قوله تعالى « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟ » وفي هذا المعنى أيضاً على بعد قول الله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

ولا ريب أن من أطاع الملوك الظالمين ، والزعماء الجاهلين ، في تحريم ا[illegible] ، وإحلال الحرام والخروج على شرع الله ، إرادة إرضائهم وكسب عطفهم ، ومودتهم ، فقد سواهم بالله بل فضلهم عليه تعالى وفضل رضاهم على رضاه . وهذا هو الخذلان المبين والجهل الفاضح . والله المرجو أن يحفظنا ويسددنا

ثم إذا فرض أن الآية نازلة في المشركين وفي أوثانهم وأصنامهم لم يمكن أن تفسر بأن المشركين كانوا يسوون الأصنام والأوثان بالله رب العالمين تسوية تامة من كل وجه ، فإنه لا يوجد عاقل مؤمن بالله يسوى بينه وبين معبوده من الاحجار والأشجار والحيوان والانسان ، وأكثف الخلق شركا وكفرا لا يمكن أن يبلغ به فساد الذوق والعقل والعقيدة إلى هذا المدى والانحطاط ، وإنما غاية المشرك أن يعبد مع الله آلهة أخرى لا أن يسوى هذه الآلهة بالله متى كان مؤمنا به . فالمراد بالتسوية هنا هي عبادة الأصنام مع الله وإشراكها في حقه على عبيده كما قال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله »

تفسير الانداد في القرآن

والنــد فى اللسان هو المثال . فمن أحب شيئا مثل حبه الله فقد سواه به ، وقــد قال تعالى « فلا تجعــلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » قال ابن عباس فى تفسيرها : لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه ربكم لا يرزقكم غيره . وقال قتادة ومجاهد : لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله . وقال ابن زيد : الأنداد هى الآلهة التى جعلوها معــه . وروى ابن أبى حاتم فى تفسير الآية عن عبد الله بن عباس أنه قال : هو أن تقول والله وحياتك يافلان وحياتى ، وتقول لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولولا الله وفلان . هذا كله من تفسير الآية عند عبــد الله بن عباس . ومثل هذا أن رجلا قال للنبى عليه السلام : ماشاء الله وشئت، فقال : « أجعلتنى لله ندا؟ بل ماشاء الله وحده ». ومثل الذى قلناه فى تفسير الآية قال سائر المفسرين ، وهــذا مالا شك فيــه . عــلى أن الدلائل المتقدمة فى إيمــان المشركين بالله و بأنه خالق كل شئ وخالق أصنامهم وما يعبدون كافٍ لصرف هذه الآية عن ظاهرها لو فرض أن ظاهرها هو ما ذكره المخالف .

ومما يرد على الشيعى

ثم إن هاهنا أمراً يجب أن يذكره الشيعى وألا ينساه ، هذا الأمر هو أنه ذكر فى كتابه فى غــير موضع أن من آمن بالله و بصفاته العلية كالاستواء والعلو والرفعة الحقيقية فهو مشــبه الله بخلقه ومسويه بهم و إن صرح بنفى التشبيه ونفى المماثلة والتسوية . وهو لهذا يعــد السلف الصالح الواقفين مع النصوص المثبتين لهذه الصفات النافين للمماثلة والتشبيه مجسمين ، و يدعوهم مشبهين ممثلين . وهو لا يراهم يقيناً قــد سووا الله بخلقه من جميع الجهات ، ولا اعتقدوا أنهــم مثله فى كل الخصائص والأوصاف . فالتسوية إذن باعترافه تطلق ولا يراد بها التسوية التامة الحقيقية . و بهذه التسوية الجزئية تفسر الآية إذاً ما بطل جميع ماذكرناه فى

تفسيرها . والقرآن يجب أن يذهب به حيث تذهب اللغة التي نزل بها ، واللغة لاتريد من التسوية ونحوها التسوية بين المسوى والموسوى به من كل وجه بالضرورة ، فاذا قلت : سويت بين فلان وفلان ، وسويت هذا بهذا ، لم ترد هذه التسوية التامة الدقيقة بلا خلاف . ولو كانت هذه التسوية التامة هي المرادة هنا لدلت الآية على أن جميع من في النار قد سووا معبوداتهم وأصنامهم بالله رب العالمين من جميع الوجوه ، وفي جميع الأشياء الثبوتية والسلبية تسوية تامة عامة ! ومن ذا يماري في بطلان هذا .

معنى الإله

أما الآيات التي فيها اتخاذ الآلهة مع الله فلا تدل مطلقا على شئ مما زعموه . وذلك أن الاله هو المعبود ، والمعبود ليس بلازم أن يعتقد فيه عابده أنه مثل الله أو أنه قديم معه ، أو أنه خالق السماء والأرض ، أو خالق العالم . وإنما الاله هو المعبود لاغير . ولهذا سمى الله الهوى المطاع إلها فقال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » قال السلف : الهوى معبود . ولا يمكن أن يقول إنسان إن هواه مثل الله ، أو أنه خالق أو متصرف في الكون . ومثل هذا قول الله : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وهم لم يعتقدوا في الأحبار والرهبان أنهم خالقون أو رازقون أو مساوون لله أو نحو ذلك ، كما جاء في تفسير الآية عن النبي عليه الصلاة والسلام . فزعم الشيعي أن اتخاذ المشركين مع الله آلهة أخرى يدل على أكثر من عبادتهم إياها زعم باطل .

لم يكن في العرب من ينكر الله

أما زعمه أن في العرب المشركين من كان ينكر الله بدلالة قوله تعالى حكاية عنهم « وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر » فزعم فيه نظر . ذلك أن الآية نازلة، على مايظهر ، في إنكار المشركين للبعث لافي إنكارهم الخالق ، وهذا ظاهر من سياق الآية ومن الآيات الأخرى المتكاثرة الدالة على إيمانهم بالله وعلى إنكارهم البعث والحساب . أما سياق الآية فهو

هكذا : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

تفسير : «وما يهلكنا إلا الدهر»

فقولهم « وما هى إلا حياتنا الدنيا » إنكار للبعث ولدار الجزاء . وقولهم « نموت ونحيا » لعلهم يعنون أن الدنيا خالدة باقية لا نهاية لها وسنظل هكذا أبداً فيها ، نتوالد ونتعاقب و يموت آباؤنا فنخلفهم ، ثم نموت نحن فيخلفنا أبناؤنا ، وهكذا دواليك ، لأنه لا حساب ولا عقاب ولا بعث ولا حياة سوى هذه الحياة الدنيا . وهذا نتيجة إنكار البعث و يوم الجزاء . وقولهم « ومايهلكنا إلا الدهر » لعلهم يعنون أننا لا نموت إلا بطول الزمان وتعاقب كراته ودولاته ، و بما يحدثه هذا التعاقب وما يلزم هذا الطول من أعراض وأمراض ومصيبات تقتلنا وتميتنا بما جبلنا عليه من صفة التغير وصفة الانفعال بالمؤثرات الجوية الزمنية على حد ما قالوا :

أشاب الصغير وأفنى الكبير * كر الغداة ومر العشى

ونظيره من كلامهم المعروف المشهور . ولكن ليس معنى هذا إنكار الله أو إنكار أن يكون الدهر مخلوقا للخلاق العظيم . كلا ، فان إضافة أمثال الاماتة والاحياء إلى بعض ماخلق الله لا يدل على إنكار الله . فالناس كلهم يقولون : سطا عليه سيف الهرم وطول العمر ، وهم لا يريدون بتلك الأقاويل والعبارات إنكار الله وجحده ، فان أشد الناس إيمانا ويقينا يقول ذلك . وأى إنسان يسمع قول الشاعر مثلا :

نعد المشرفية والعوالى * وتقتلنا المنون بلا قتال

فيقول : إن هذا القائل يريد إنكار الله بما قال هنا أو إنكار أن يكون

سبحانه هو وحده خالق الموت والحياة وخالق كل شئ . وان يدل قولهم « وما يهلكنا إلا الدهر » على إنكار الخالق حتى يدل على ذلك قولهم وقول الناس جميعا : أساء إلى الدهر وأحسن إلى فلان ، والدهر سلم الغبى الوضيع ، وحرب الذكى الرفيع . وقولهم : أخنى عليه الزمان وقتله الجديدان ، وقولهم :

رمى الحدثان نسوة آل حرب * بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا * ورد وجوههن البيض سودا

وهذا ، بلا خلاف ولا ريب ، لا يراد به جحد الخالق ولا إنكار أفعاله ، ولكن الناس المؤمنين بالله وغير المؤمنين قد يضيفون الحوادث إلى أسبابها القريبة الظاهرة المباشرة مع الاحتفاظ بسبب الأسباب ومسببها ، وغاية الغايات وخالقها وهذا معروف لهم ، ولو كانوا يريدون بقولهم : وما يهلكنا إلا الدهر جحد الخالق لقالوا : ماخلقنا ولا أحيانا ولا يهلكنا ولا يفنينا إلا الدهر أو نحو ذلك ، ولكنهم أضافوا الاهلاك فقط إلى الدهر . ولعلهم كانوا يريدون تنزيهه تعالى عن أن يضيفوا اليه الشرور والآفات ، مثل الاهلاك والموت . وقولهم بعد قولهم هذا : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » يشهد لما قلنا ، ويدل على أن الانكار كان للبعث والحساب فقط لا للخلاق ، وقوله تعالى بعد ذلك « قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » يدل على ما قلناه دلالة صادقة ناطقة .

فسياق الآية نفسه واضح فى أن الإنكار ليس للرب ولا للخالق ، وإنما هو للبعث وللحساب ، وأما الدلائل الأخرى على ذلك فلا تخفى ، وقد قدمنا جملا من دلالات القرآن على أن المشركين كانوا مؤمنين بالله ، وبأنه خالق السماء وخالق الأرض والعالم وخالق كل شئ ، وأن داءهم وبلاءهم هو الشرك وعبادة

المخلوقين العاجزين الضعفاء .

الالحاد لايكون في الشعوب الفطرية

ومشركو العرب الذين نزلت فيهم هذه الآية قوم أميون ساذجون فطريون تقريبا ، بعيدون عن البحث وأعماقه فى الالهيات وغير الالهيات . والأمم الأمية الفطرية من المستبعد أن تهتدى إلى الالحاد الذى هو إنكار الخالق ، وإنما يقع الالحاد فى الأمم الحضرية المدنية العريقة فى الفلسفات البشرية المغرورة المدخولة . وذلك أن الخالق قريب جداً من الفطرة الأولى، بعيد جداً من الفلسفة المتعمقة المتنطعة ، لأن هذه الفلسفة مصابة أبداً بداء الغرور والكبرياء . والكبرياء تأبى على صاحبها التسليم للحق والخضوع للقدرة الخفية القاهرة ، بل هى أبداً تجنح إلى التغلب على كل شئ ، والاستهتار بكل شئ ، والجحود لكل ما أعجزها وقهرها وحيرها . فمن البعيد القريب من المحال أن يصاب العرب بداء الالحاد ، ومن البعيد إذن أن يفسر قوله تعالى حكاية عن الكافرين المشركين منهم : « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر » بهذا الداء .

ولو فرض أن هذه المقالة لا يراد بها إلا الإلحاد لما كانت إلا مقالة طارئة اختطفها بعض المشركين من بعض الأمم المجاورة اختطافا ، فنقلها نقلا ، وقالها قولاً لا يلبث أن يرجع عنه وأن ينقاد لوحى فطرته الأولى المولودة فى الصحراء التى لا تعرف غير الإيمان بالله و بملكه وسلطانه الأعظم . ولا يصح أبداً أن تكون عقيدة راسخة دائما ، ولا أن تكون مذهب الجمهور المعروف الواضح . ومن يسر له أن يقرأ بعض ما خلفه العرب الغارقون فى الشرك من شعر ونثر لم يستطع أن يمارى فى إيمانهم بالله وإيمانهم بأنه رب السموات والأرضين ورب العالمين ، لا شريك له ولا معين .

﴿هل يرى المنقطعون إلى الاموات﴾
﴿أنهم ينفعون أو يضرون ؟﴾

أما قول الشيعي: « إنه لا شئ يدلنا على أن المشركين ما كانوا يعتقدون في أصنامهم ومعبوداتهم من الجن والإنس والملائكة أنها لاتأثير لها في الكون. إذ يجوز أن يعتقدوا لها تأثيرا بنفسها فتشفي المرضى وتنصر على الأعداء وتكشف الضر، وأنها تشفع عند الله حتما ولا يرد شفاعتها ، أو أن الله جعل لها قسطا من التأثير أو كله اليها » .

المرء لايدعو إلا من يعتقد أنه قادر على نفعه

فنقول في جوابه: لاشك أن المشركين مادعوا الأصنام والأوثان، ولارغبوا إلى الأولياء والأنبياء فعبدوهم ، إلا لاعتقادهم أنهم يستطيعون نفعهم وضرهم ، وأن لديهم شيئا من النفع والضر والاعطاء والمنع ، وأنهم قد يشفعون ، وقد ينصرون : كل ذلك بأمر الله وقدرته و إذنه وفضله . ولولا هذه العقيدة لما دعوهم ولا سألوهم ولا رغبوا إليهم ولا رهبوهم . فان الناس مجبولون على الانصراف إلى مايظنون أن لهم فيه فائدة ، والانصراف عما يعلمون أنه لاينفعهم ولا يجديهم شيئا . فمن دعا غير الله فلا بد من أن يكون قد اعتقد في قرارة نفسه أن ذلك المدعو قادر على شئ ، وأن له تأثيرا ما . وهذا هو الحامل له على الرغبة فيه والانقطاع إليه ، ولو فقد هذا الأمل لفقد ذاك العمل . وهذا مالا يصح الخلاف فيه .

أما دعاة الأموات المنقطعون إلى القبور من المسلمين فلا ريب أيضا في تحكم هذه العقيدة ، عقيدة نفع الأموات وضرهم في قرارات نفوسهم ومسارب أذهانهم وأبدانهم ، ولو أنهم اعتقدوا وعلموا أن أولئك المقبورين فاقدون مايطلبونه منهم عاجزون عنه وعن إيصال النفع إليهم ودفع الضر عنهم ، لما وجدتهم عاكفين

عليهم باسطين أكفهم إليهم ، تغشى وجوههم الذلة والمسكنة ، وتضطرم فى قلوبهم الرغبة وحب المنفعة ، ولما تحملوا المشاق واجتابوا الشقق المرهقة من كل فج عميق ، ومن كل مكان سحيق ، توضع بهم نجائب الأمل الحلو اللذيذ ليقفوا على تلك الأطلال والمعالم ، ليسكبوا على ترابها العبرات ، ويبثوا على أعتابها أنواع الشكايات ، وليقوموا بين الخوف والرجاء مقاماً يلطم شرف الانسان ويضرب مجد العبودية الموحدة فى المقتل — : نعم لولا رسوخ هذه العقيدة عقيدة نفع الأموات وضرهم فى نفوس هؤلاء الداعين ما فعلوا من ذلك شيئاً ولا هتفوا عند الشدائد بأسمائهم ، ولا قدموا لهم القرابين والهدايا من حر أموالهم وغاليها ، وهم يبخلون بأخسها وأقلها على الفقراء والمعوزين الذين أمرت الأديان والآداب جميعا ببرهم والاحسان إليهم والتصدق عليهم ، وإلا فللمسكين من الله أليم العذاب والعقاب . هذا ما لاريب فيه والشواهد عليه كثيرة منظورة : من ذلك أنهم يسمون الأموات «أهل التصريف» أى تصريف العالم ، ويسمونهم : «الأقطاب» أى أقطاب الكون ، ويدعون لواحد منهم «بالمتولى» أى متولى أمر الوجود .. ويقولون للشيخ من هؤلاء : « سقت ربك عليك » ، ومن ذلك أنهم يعزون إليهم حكايات كاذبة تدل دلالات قاطعة على أنهم يرونهم قادرين على أشياء لا يقدر عليها إلا الله : فيحكون أن البدوى فعل كذا ، وأن الدسوقى صنع كذا من غرائب الأفعال والحكايات الدالة على كامل القدرة والتصريف لو صحت عنهم . وقد ألفوا كتبا ضمنوها هذا الداء ونشروها على جهلاء الناس وعلمائهم .

دعاة الأموات يعتقدون فيهم النفع والضر

ومن ذلك أنهم يحتجون لدعوتهم والاستغاثة بهم بأمثال قول الله : « لهم ما يشاؤن عند ربهم » وقوله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » واحتجاجهم بهذه الآيات صريح فى أنهم يرون من يدعون من دون الله من الأشياخ الموتى يفعلون كل ما يشاءون ، وينالون ما يشاءون ، لأن لهم عند ربهم ما يشاءون ،

ولأن الله سوف يعطيهم حتى يرضيهم ، وهم لا يرضون أن يضام ، أو يعذب، أو يدخل النار، أو يخيب أحد ممن دعاهم ولاذ بهم من المريدين والمنقطعين، وهم يشاءون أيضا نفع السائلين لهم ، العائذين بهم و بأجداثهم . فطوبى إذاً لمن وقف بأبوابهم وعلى أطلالهم ، ولمن عاذ بحماهم ، والويل كله لمن أعرض عنهم ونأى بجانبه عن رحابهم وأعتابهم . . . وأنت إذا سألت أحد هؤلاء الهلكى عن ذلك وقلت له : كيف تدعو ميتا تحت أطباق التراب ؟ وكيف ترجو أن ينالك منه شيء ؟ قال لك : يا أخى « لهم ما يشاءون عند ربهم » « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فيضع هذه الآيات مواضع الحجج والبراهين على دعاء الأموات والانقطاع إليهم وتأميلهم . وهذا توكيد أى توكيد لاعتقادهم فيهم النفع والضر وسائر معانى الايجاد والقدرة . وأنت إذا ما وقفت بضريح من هذه الضرائح وسمعت الدعوات والهتافات ، ورأيت ما هنالك من الأكف المرفوعة ، والأدمع المذروفة ، والوجوه المصفرة ، والوجوه المعترة ، لم تشك فى أن للقوم فى تلك الحفر آمالا عراضا طوالا تتضاءل أمامها آمالهم فى الله رب العالمين . وهذا الشيعى المخالف لايخالف فى أن الأموات ينفعون ويضرون ويعطون ويمنعون ، ولكن يقول : إن ذلك كله من الأموات الصالحين يكون بدعائهم وشفاعتهم وساطتهم عند الله . ويقول : إن ذلك كله يكون منهم لكن لا على سبيل الاستقلال والاستبداد ، وإنما يكون بإذن الله وإقداره ورضاه . فهم يضرون وينفعون ويعطون ويمنعون بما ملكوا من الشفاعة والجاه ، وبما وهبوا من القدرة والسلطان . وقد تفوه بهذا فى غير موضع من كتابه تصريحا وتلويحا ، فهو يقول فى هذا الباب الثالث : « فإن المسلمين لايعنون بالسيد إلا أن له منزلة عند الله أوجبت امتيازه عن غيره ، وأن يقبل الله شفاعته ويسمع دعاء من تشفع به إليه كرما منه تعالى وفضلا . فهم لم يثبتوا له إلا ما أثبته الله . أما الوهابيون فنفوا

اعتراف المخالف بضر الاموات ونفعهم

ما جعله الله له » ثم قال فى هذا الباب أيضا : « والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم أحياء وأمواتا كما نصت عليه أحكام دينهم وأدلته التى ستعرفها ، والتى أثبتت لهم الشفاعة والدعاء ، و يضرون بترك ذلك وبالبعد عن نيل بركتهم ، وهو إعتقاد صحيح مطابق لأدلة الدين الاسلامى . فطلبوا منهم ما جعله الله لهم من دعائه والشفاعة لديه » ، ثم قال من هذا الباب أيضا « فهم تقربون - يعنى الموتى - إلى الله بدعائهم لنا و يشفعون لنا عنده » ، ثم يقول دفاعا عن هؤلاء الضلال : « فالظاهر أنهم لا يعتقدون فى مشايخهم الاستقلال فى التصرف » . وظاهر هذا القول أنهم إذا اعتقدوا أنهم يتصرفون لكن لا استقلالا بل مع الله و بقدرته و إذنه ، فلا شئ فى هذا الاعتقاد، بل ظاهر كلامه أن هذا هو اعتقادهم، ولهذا فإنه دافع فى هذا الباب عما روى عن الشعرانى أنه قال : إن الله وكل بقبر كل ولى ملكا يقضى حاجة من سأل ذلك الولى ، كما دافع عما روى أن امرأة كف بصرها فنادت وليها قائلة : أما الله فقد صنع ما ترى ولم يبق إلا حبك . و يقول فى آخر القصيدة التى وضعها فى آخر كتابه فى نفع القبور والمقبور :

الدعاء فى المساجد غير مقبول وفى القبور مقبول

إن القبور بساكنيها شرفت * فلساكنيها منزل لم يجحد
بركاتها ترجى لداع إنها * بركات شخص فى الضريح موسد
لا بدع إن كان الدعاء إليه فيهـا صاعداً و بغيرها لم يصعد
إن الأئمة من سلالة أحمد * نقل النبى وقدوة للمقتدى
قالوا : الصلاة لدى محل قبورنا * فى الفضل تعدل مثلها فى المسجد
عنهم روته لنا الثقات فبالهدى * منهم إذا شئت الهداية فاقتد

فدعاء العبد ربه فى بيوت الله فى الأسحار وفى سويعات الاجابة وسويعات الفيوضات الإلهية لن يتقبله الله من عبده ولن يعبأ به ولن ينظر إليه . أما الدعاء

فى القبور فهو الدعاء الذى لا يرد وهو الذى يعرج إليه تعـالى مخترقاً الأطباق والحجب والمسافات . والصـلاة فى القبور وعند أقدام الموتى تفضل الصـلاة فى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبى عليه السلام وجميع المساجد . ولا يختلف المسلمون البصراء بالاسلام أن هذا من شر الالحاد وشر الضلال ــ عياذا بالله . فيالله للاسلام من عدوان الشيعة وضلال الشيعة و بهتان الشيعة ! ألا لا أقر الله عينا تـكتحل بالرضا عن هذه أقوالهم ، ولا أثلج قلبا يحمل لهم المودة والحب ما داموا هكذا يقولون .

ذلك كله يدل عـلى أن القوم يعتقـدون فى أمواتهم أنهم ينفعون و يضرون و يتصرفون ، غير أن ذلك كما يدعى هذا الشيخ ، ليس استقلالا منهم و إنما هو بمشيئة الله وقدرته . . وهذا يضاهى قول المفوضة ، وهم جماعة من الشيعة يزعمون أن الله خلق ، أو ماخلق ، جماعة من آل البيت النبوى ، ففوض إليهم خلق العـالم وتدبيره والقيام به وعليه . ولهذا فان هذا المصنف كثيراً مايقول فى كتابه هذا : إن الفرق بين المشركين الأولين و بين هؤلاء المتوسلين : أن المشركين كانوا يدعون مالا ينفع ومالا يضر من الأحجار والأشجار ، ومن الصور والتماثيل ، و يدعون من لم يجعل الله فيهم نفعا ولا ضرا ولا شـفاعة ولا أمرا . وأما المسلمون فانهم يدعون من جعل الله لهم ذلك ووهبهم إياه تفضلا منه ونعمة . ومما يقوى أن هذا المصنف وطائفته من المفوضة أشياء ذكرها فى كتابه « أعيان الشـيعة » عن شـيوخهم الـكبار المجمع عـلى إمامتهم وجلالتهم عندهم ، فذكر فى الجزء الخامس من هذا الـكتاب ص ٥٢٠ من قول الشـيخ إبراهيم بن يحيى العاملى فى النبى ــ برأه الله مما قالوا ــ قوله :

الشيعة مفوضة ومعنى ذلك

ساد الورى بفضائل وفواضل * وأقلها إيجاد هذا العالم

أنا عبدك القن الذى لايبتغى * إلا رضاك وأنت أرحم راحم

وقوله أيضا فى مدحه :

وكان وسيلة الراجين منهم * ومفزع كل ملهوف مضام

وقوله فى مدح الحسن:

ذو المعجزات الواضحات أقلها * إحياؤه الموتى من الأحياء

وقولهم فى مدح آل النبى :

وحامى حمى الزوراء موسى بن جعفر * ملاذ بنى الأيام والدهر مجحف

ضامن دار الخلد للزائر الذى * أتاه يؤدى حقه ، لا يسوف

وقولهم فى امتداح على :

حاشاك أن تنسى ولياً ماله * إلاك ياغوث الورى من مفزع

وذكر ص ٥٨٨ من هذا الجزء قول أحد أشياخهم فى السيدة زينب :

وكيف لا يطلب الدنيا وضرتها * مولاكمو ، وهما أدنى عطاياك

وفى هذا الجزء أيضا ص ٢١٩ فى ترجمة الشيخ إبراهيم بن صادق أحد علمائهم فى امتداح على :

ووجوده وسع الوجود وهل خلا * فى عالم الامكان منه موضع

كشاف داجية القضاء عن الورى * بعزائم منها القضاء يروع

يامن إليه الأمر يرجع فى غد * ولديه أعمال الخلائق ترفع

وله مآل ثوابها وعقابها * يعطى العطاء لمن يشاء ويمنع

وأرى الألى لصفات ذاتك حددوا * قد أخطأوا معنى علاك وضيعوا

ولأى مجدك ياعظيم المجد لم * يتدبروا وحديث قدسك لم يعوا

ولك الرمام تهب من أجداثها * والشمس بعد مغيبها لك ترجع

والشمس بعد مغيبها إن ردها * بالسر منك وصى موسى يوشع

فهى التى بك كل يوم لم تزل * من بدء فطرتها تغيب وتطلع

والدهر عبدك طائع لك لم يزل * وكذا القضا لك من يمينك أطوع
ولئن أطاع البحر موسى بالعصا * ضربا فموسى والعصا لك أطوع
ولئن نجت بالرسل قبلك أمة * فلقد نجت بك رسل ربك أجمع
وصفاتك الحسنى يقصر عن مدى * أدنى علاها كل مدح يصنع
والحمد مقصور عليك ثناؤه * وعلى سواك لواؤه لا يرفع

وذكر ص ٦٧٣ من هذا الجزء فى ترجمة الشيخ إبراهيم العاملى قوله فى امتلاك العترة لأمور العالمين جميعا :

العالمون بكل علم أحجمت * عنه الخواطر غير كنه الذات
ملكوا أمور العالمين فأمرهم * ماض على الاحياء والأموات

ثم نقل عن هذا الشيخ أيضا ص ٦٨٧ قوله بعد أن ذكر النبى وعليا وفاطمة والحسن والحسين وجعفراً و حمزة وعقيلا وعبد مناف فى مصير أمور العالمين إليهم :

هم التسعة الغر الذين إليهمو * أمور الورى فى النشأتين تئول
فلولاهمو ماساغ فعل لفاعل * ولا طاب منه القول حين يقول

هذه نماذج من أقوال أئمة الشيعة وشيوخهم فى مذهب التفويض ، تفويض أمور العالم من خلق و إيجاد و إحياء و إماتة و تصريف إلى النبى وآله ، وهذه دلائل لا يختلف فيها على أن القوم لا يعتقدون فى موتاهم الضر والنفع والاعطاء والمنع فقط ، بل يعتقدون أنهم يخلقون ويحيون و يميتون ويتصرفون فى هذا العالم الزخار تصرفا كاملا تاما ، ويقدرون على كل شئ قدرة كاملة غير محدودة ولا معدودة ، بل مطلقة تامة ، وهذا شر الشرك وشر أنواع الكفر بالله العظيم . ولا خلاف أن هذا الكفر وهذا الشرك هما شر من كفر الكافرين و إشراك المشركين الأولين الذين تأبوا الدعوة المحمدية وحاربوها ، مريدين تحطيمها والوقوف فى

سبيلها ، فان أولئك الكفار وأولئك المشركين كانوا يعتقدون بأن خالق العالم وخالق كل شئ هو الله وحده لاشريك له ،وهؤلاء الضلال الحيرى يقولون إن آل النبي هم الخالقون الموجدون لكل شئ ، الصائرة إليهم جميع الأمور . وأين هذه الأشعار من قول أولئك المشركين :

أين إيمان هؤلاء من شرك أولئك

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وقولهم :

ألا كل شئ ماخلا الله باطل * وكل نعيم لامحالة زائل

وقولهم أيضا :

تعز فلا شئ على الأرض باقيا * ولا وزر مما قضى الله واقيا

وقولهم أيضا :

أحمد الله فلا ندله * بيده الخيرات ماشاء فعل

وقولهم أيضا :

يا عبل أين من المنية مهرب * إن كان ربى فى السماء قضاها

فأين هذه الأشعار التى قالها المشركون من تلك الأشعار التى قالها من قالوا : إنهم مسلمون ؟ فياليت كفر أولئك وشركهم كان إيمانا لهؤلاء وتوحيدا ، وياليت هؤلاء كانوا فداء لأولئك ، وياليت لنا رأسا واحدا من أولئك بألف رأس من هؤلاء ، وإننا نحن الرابحون إذن .

منهب الشيعة يقضى بأن يكون الأموات متصرفين

فلا ريب أن هؤلاء الهاتفين بأسماء الموتى يعتقدون أنهم ينفعون ويضرون ويعطون ويمنعون . ولولا هذا الاعتقاد لما هتفوا بأسمائهم ، ولما رجعوا إليهم عند اكفهرار الأقدار وتشعب الآمال . والشيعة لابد أن يعتقدوا ذلك ، ولابد أن يقولوه ، لأن من مذهبهم أن العباد خالقون موجدون لأعمالهم ،وهم يفارقون أهل السنة فى هذه القضية . فالأحياء خالقون لديهم موجدون متصرفون حقيقة ،

والأموات عنـدهم مثل الأحياء سواء ، بل هم أحياء عنـدهم حقيقـة . فالأحياء والأموات يقينا متصرفون ينفعون ويضرون ويعطون ويمنعون . فالشـيعي إذا ماسأل ميتا فلا بد أن يعتقد أنه قادر على ما يطلبه منه، وأن يعتقد أنه فاعل، وأنه معط مانع ، وضار نافع . وهـذا هو الاعتقاد الذي زعـم أنه يكون شركا وكفرا بصاحبه ، وهذا هو اعتقاد الـكفار والمشركين في أصنامهم وأوثانهـم ، على ماذكر في مواضع من الـكتاب ، وإن كان يزعم في مواضع أخرى أن الفرق بين هذا الاعتقاد الذي هو اعتقاد المتوسلين من المسلمين، وبين اعتقاد المشركين الغابرين أن المسلمين يعتقدون ذلك فيمن ينفعون ويضرون ويدعون ويشفعون من الأنبياء والصالحين . وأما المشركون فإنهم اعتقدوا فيمن ليس لهم ذلك من الأحجار والأشجار والصور والتماثيل . وهذا هو الفرق بين الفريقين ، ولكن يقال : إذا لم يكن هـذا الاعتقاد فيمن يقـدرون شركا وكفرا ، لم يكن فيمن لا يقـدرون لا شركا ولا كفرا ، عـلى ما ذهب إليه . وذلك أنه طالما قال لمخالفيه : لو فرضنا أن الأموات لا يقدرون على شيء ولا يسمعون شيئاً ، وأنهم لا يدعون ولا يشفعون فدعاهم داع على اعتقاد أنهم قادرون ، لما كان في ذلك بأس ولا شيء ولكان ذلك كمن طلب القيام من مقعد ظانا أنه غير مقعد ، وكمن طلب القراءة من أعمى ظانا أنه مبصر ، وكمن طلب من ميت حاجة ظانا أنه نائم . وحينئذ يقال: له لو لم تـكن الاسـتغاثة بالأموات شركا ولا خطأ ، لأنهم قادرون عـلى الاغاثة والشفاعه والدعاء ، وهذا كاف في تصحيح دعوتهم والاسـتغاثة بهم ، لما كانت الاستغاثة بالأحجار والأشجار والصور والتماثيل شركا ولا خطأ ، فمن استغاث بها ظانا أنها قادرة على الإغاثة والشفاعة والدعاء كان كمن طلب من أعمى القراءة ومن مقعد القيام ومن ميت حاجة ظانا أنهم ليسوا كذلك كما قال هو وكما قاس . وعلى هـذا لا يكون المستغيثون بالأحجار والأشـجار والصور والتماثيـل مشركين

الزام المخالف

ولا ضالين، وعليه فكفار قريش ومشركوهم ليسوا مشركين ولا كافرين ، وعليه فلا مشرك في هذه الدنيا .

﴿ ما الفرق بين العاكفين على الأصنام ﴾
﴿ والعاكفين على القبور؟ ﴾

حاول المخالف في هذا الباب أن يكثر الفروق بين أولئك المشركين العاكفين على الأصنام والأوثان، و بين هؤلاء العاكفين على الأجداث المنقطعين إلى الأموات . ونحن نلخص هذه الفروق هنا ، ونضع إن شاء الله كل شيء في نصابه .

الفرق بين المشركين العاكفين على القبور عند المخالف

قال : «أما عبادة المشركين للأصنام والأوثان فهي أنهم عمدوا إلى أصنام من حجر أو نحاس أو خشب أو غيرها على صور قوم صالحين متوهمة أو غير متوهمة عملوها بأيديهم ، و إلى أشجار فعبدوها من دون الله وسجدوا لها ونحروا وذبحوا وأهلوا بذبائحهم لها وذكروا أسماءها عليها دون اسم الله ، وطلوها بدمائها وطلبوا منها كل ما يطلب من الله ، وأعرضوا عن عبادة الله فكانوا يقولون : لا طاقة لنا على عبادة الله ، فنحن نعبدها لتقربنا إلى الله . وهذا صريح في أن عبادتهم لها غير طلبهم الشفاعة منها ، وتشفعوا بها وخالفوا أمر الله وأنبيائه في نهيهم عن عبادتها وطلب شيء منها ، وخالفوا مقتضى عقولهم الحاكمة بأنها جماد لا تضر ولا تنفع ، ولا تعقل ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع ، ولو كانت على صورة نبي أو صالح . فان الشافع هو النبي أو الصالح لا صورته المتوهمة ، ولا تدفع عن نفسها بول الثعالب ولا تروث الدواب فوقها . ومنهم من عمل صنماً من تمر فسجدوا له أول النهار فلما كان آخر النهار جاعوا فأكلوه . وكانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله ، وأشياء منها لآلهتهم . فاذا ما زكا ما جعلوه لله رجعوا

فجعلوه للآلهة، وإذا مازكا ما جعلوه للأصنام تركوه . وذلك قول الله : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله، بزعمهم ،وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون » . ولم يفعل أحد من المسلمين شيئاً من ذلك مع نبي ولا ولى ولا قبر ولا غيره . . . فهذه الاعتقادات والأعمال والتكذيب للرسول هى التى قاتلهم النبي عليها ودعاهم إلى تركها ، لا على مجرد التشفع بنبي أو صالح والتوسل به . وأما عبادتهم الملائكة فقد اتخذوهم أرباباً من دون الله كما يدل عليه قول الله : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ » . وفى هذا دليل على أنهم فعلوا واعتقدوا بالنسبة إليها ما هو من خصائص الربوبية من سجود ونحوه من أنواع العبادات والاعتقادات . وكانوا يقولون فى الملائكة : إنهم بنات الله . وبهذا ظهر أن كفرهم ليس بمجرد استغاثتهم بالملائكة وتشفعهم وتوسلهم بهم . فالمتشفع بهم ليس مخطئا فضلا عن أن يكون مشركا . . . » .

ثم قال : « مع أنهم (يعنى المشركين) كانوا يعبدون صور الأنبياء والصالحين لا أنفسهم » قال : « ولم يقاتلهم على مجرد التشفع بالصالحين بل على عدم قبولهم أحكام الإسلام وتكذيبهم للنبي مع ظهور المعجزات على يديه وارتكابهم الموبقات والعظائم حتى من يعبد صور الصالحين من الأحجار المنحوتة » قال : « وجميع هذه الأمور (يشير إلى الاستغاثات بالأموات وكل ما يعمل لدى القبور) سواء سميت عبادة أولا لا تعد شركا ولا كفرا ، لأن الممنوع منه الموجب للشرك هى عبادة خاصة وهى ما كان عن غير أمر الله ، أو عناداً له أو بقصد الاستحقاق الذاتى كاستحقاق الله .

« فالمشركون كذبوا الرسول وأنكروا ما جاء به ، ومنهم من قال عيسى هو

الله . والمسلمون أقروا بالله وبرسوله وبكل ما جاء به . فكيف يقاس أحدهما بالآخر ويجعل مساويا له ؟ والمشركون اعتقدوا فى أحجار وأشجار وجمادات لاتضر ولا تنفع ، ولا تعقل ولا تسمع ، ولا تغيث ولا تشفع ، سواء أكانت صور صالحين أو غيرهم ـ فالشافع الصالح لا صورته ـ أنها تضر وتنفع وتغيث وتشفع ، فتشفعوا بها واستغاثوا وعظموها ، ولم يجعل الله لها شيئاً من ذلك ، بل نهى عن التشفع والاستغاثة بها وتعظيمها . والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويضرون بترك ذلك . والمشركون عظموا مالا يستحق التعظيم سواء كان صورة صالح متوهمة أو غيره . فان الصور لا تستحق تعظيما . وطافوا وتبركوا بمالم يجعله الله مباركاً . والمسلمون عظموا من أمر الله بتعظيمه حيا وميتاً من الأنبياء والصالحين وقبورهم ، وطافوا وتمسحوا وتبركوا بها لتشرفها بأجسادهم الشريفة . فهل يسوى بين هؤلاء وهؤلاء إلا جاهل أو معاند ؟ والمشركون عبدوا تلك الأحجار والأشجار بأنواع العبادات التى نهاهم الله عنها ، فسجدوا لها وذبحوا ونحروا مهلين بأسمائها على ذبائحهم دون اسم الله ، وطلوها بدمائها وأعرضوا عن عبادة الله بالكلية ، وقالوا : لاقدرة لنا على عبادته ، فنحن نعبدها لتقربنا إليه ، واعتقدوا أن لها شرفاً ذاتيا واستحقاقا للعبادة بالاستقلال واختيارا وتدبيرا . وكانوا يقولون : «اعل هبل» قاصدين أن تكون كلمة الأصنام ودين الجاهلية هى العليا ، وكلمة الله ودين الاسلام هى السفلى . فأعرضوا عن ذكر الله واكتفوا بذكرها . وكذبوا الرسل الذين نهوهم عن عبادتها ولم يكتفوا بذلك بل بدلوا دين الله وغيروا أحكامه . والمسلمون لم يعبدوا نبيا ولا صالحا ولا قبره . فهل يسوى بين عمل المسلمين هذا وبين عمل المشركين إلا جاهل ؟» .

هذه خلاصة الفروق التى ذكرها فى هذا الباب بين العاكفين على الأصنام

الأوثان و بين العاكفين على القبور والأجداث . وهذه الأمور هى التى قضت عنده بكفر الكافرين وشركهم. وقضت بأن يغرى بهم الحسام إن لم يقبلوا الاسلام .

﴿ خلاصة هذه الفروق ﴾

وهذه الفروق تتلخص على ماذكر فيما يأتى

اجمال الفروق بين المشركين وبين العاكفين على القبور

أولا — : أن المشركين عمدوا إلى أحجار وأشجار وصور قوم صالحين فعبدوها من دون الله فسجدوا وذبحوا ونذروا وأهلوا بذبائحهم لها وذكروا أسماءها عليها دون اسم الله ، وطلوها بدمائها وطلبوا منها كل مايطلب من الله ، وأعرضوا عن عبادة الله ، وكانوا يقولون: لاقدرة لنا على عبادته وتشفعوا بها وخالفوا أمر الله وأمر أنبيائه فى نهيهم عن عبادتها وطلب شئ منها ،وخالفوا حكم عقولهم بأنها جماد لاتضر ولاتنفع ولاتشفع ولاتعقل شيئا، ولوكانت صورة نبى أو صالح ، فان الشافع هو النبى والصالح لاصورتاهما .وأما المسلمون فانهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ،فكيف يسوى بين الفريقين ؟

ثانيا — : أن منهم من عمل معبوده بيده فعبده كما صنع بعضهم له صنماً من تمر فسجدوا له أول النهار ثم أكلوه آخره . وهذا لم يفعله أحد من المسلمين، فكيف يسوى بين الفريقين ؟

ثالثا — : أنهم كانوا يجعلون أشياء مما خلق الله ومما رزقهم له تعالى وباسمه ، ويجعلون أشياء من ذلك لأصنامهم . وكانوا لايعدلون بين الله و بين خلقه فى هذه القسمة وذاك الصنيع ، بل كانوا يفضلون أصنامهم وأوثانهم عليه تعالى ، فكانوا إذا نما وزكا ماجعلوه لله عدلوا فصرفوه لأصنامهم ، و إذا مازكا ونما ماجعلوه لأصنامهم لم يجعلوا لله منه شيئاً ، و إلى هذا يشير قول الله : « وجعلوا لله مماذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » الآية . والمسلمون لم يفعلوا من ذلك شيئاً ، فهم لايستوون مثلا .

رابعا — : المشركون اتخذوا الملائكة أربابا وصرفوا لهم ما هو من خصائص الرب كالسجود وغيره من أنواع العبادات ، وكانوا يزعمون أنهم بنات الله . والمسلمون لم يصنعوا من ذلك شيئاً

خامسا — : المشركون كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام وردوا ما جاءهم به . والمسلمون مصدقون مؤمنون بما جاء به عليه الصلاة والسلام

سادسا — : المشركون اعتقدوا فى أحجار وأشجار أنها تنفع وتضر وتشفع وتغيث — وهى لا تقدر على شئ من هذا — فتشفعوا بها واستغاثوها وعظموها ، والله لم يجعل لها ذلك ، بل نهى عنه . والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويضرون بترك ذلك . فلاهم إذن سواء

سابعا — : المشركون عظموا مالا يستحق التعظيم سواء أكان صورة عبد صالح أم غيره ، فان الصورة لا تستحق تعظيما ، وطافوا وتبركوا بما لم يجعل الله فيه من البركة شيئاً . والمسلمون فعلوا ذلك بمن أمر الله بتعظيمه من الأنبياء والصالحين . وشتان ما بين الأمرين والفريقين !

ثامنا — : المشركون اعتقدوا أن للأصنام من الأحجار والأشجار شرفاً ذاتيا ، واستحقاقا للعبادة بالاستقلال ، واعتقدوا أن لها اختيارا وتدبيراً ، وقد كانوا يقولون لأصنامهم : « اعل هبل » يريدون أن يكون دين الجاهلية والشرك هو الظاهر الأعلى . ولم يكتفوا بذلك بل بدلوا دين الله وغيروا شرائعه وأحكامه . والمسلمون لم يفعلوا هذا فكيف تجوز التسوية بين الفريقين ؟ ؟

هـذا إجمال الفروق بين المشركين العابدين للأصنام والأوثان وبين المستغيثين بالأموات المنقطعين إلى القبور الطالبين من سكانها جميع حاجاتهم وآمالهم الدنيوية والأخروية .

﴿ لافرق بين الفريقين ﴾

وهـذه الفروق كلها فروق باطلة كاذبة فـلا فرق بين الحزبين فى الحقيقـة وبيان ذلك :

أما الفرق الأول وهو أن المشركين عبـدوا الأحجار والأشـجار وصور الصالحين ، فذبحوا ونذروا لها وتشفعوا بها ـ إلى آخر ماذكر فى الفرق الأول، فيقال : إذا سلم أن الاستشفاع والاسـتغاثة بالأحجار والأشجار والصور ، وأن الذبح والنذر لها ودعاءها ونداءها وسؤالها مايسأل الله من عظيم المطالب والحاجات إذا سلم أن ذلك شرك كله موجب غضب الله وسخطه ونقمته فقد سلم مانازع فيه وأقر ما كان أنكر ، ورجع إلى قول مخالفيه . وذلك أن نزاعه كله قائم على أن هذه الأعمال من الاستغاثات والاستعانات والضراعات والنذور والذبح ليست عبادة ما ، وليس صرفها إلى غير الله شركا بالله ولا خلافا له ، وليس التوجه إلى المخلوق بها موجباً كفرا ولا ضـلالا . وكان وجه هـذا القول ودليله لديه أن ذلك لو كان عبادة لما جاز أن يتوجه به إلى غير الله ، لا إلى الأحياء ولا إلى الأموات ، فى حالة من الحالات .ولكن لاخلاف فى أن هذه الأمور يجوز التوجه بها إلى المخلوقين فيجوز الاستغاثة والاسـتعانة بالاحياء فيما يقـدرون عليه عادة ، ويجوز سؤالهـم مافى طاقتهم فعله والقيام به .ويجوز نداؤهم إلى مايستطيعون أن يجيبوا إليه ، كما يجوز النذر للفقراء ، والذبح للعظماء ، على معنى الاحسان والاكرام ، وكان جوابه إذا قيل له : إن الاستغاثة بالأموات ضلال وخروج على الدين أن يقول : كلا ، فانه لو كان ذلك كذلك لما جازت الاسـتغاثة بالأحيـاء وهى جائزة بالاجمـاع فيما يقدرون عليه . فاذا قيل له : ليسوا سواء: الأحياء والأموات.لأن الأحياء يقدرون والأموات لايقدرون ، قال : إن الأموات مثل الأحياء سواء يقدرون عـلى مايقدرون عليه بلا فرق ، وقال : إذا فرض أن الأموات حقا لايقدرون

إبطال الفرق الاول

على شئ لم تكن الاستغاثة بهم شركا ولا ضلالا بل تكون كطلب القراءة من الأعمى على زعم أنه مبصر ، وطلب القيام من المقعد على ظن أنه غير مقعد ، وطلب الحاجات من الميت على ظن أنه نائم.فليس فى هذا ضلال ولا شرك ولا كفر وكان يأبى أن ينزع عن هذه الحجة أو يتهاون فيها . . . فنحن حينئذ نقول له : إذا أقررت أن الاستغاثة والاستعانة بالأحجار والأشجار والصور ، وأقررت أن النذر والذبح لها والاستشفاع بها من أعمال المشركين التى أكفرهم الله بها ، وقاتلهم رسوله عليها ،فلا بد أن تكون كذلك سواء أصرفت للأحجار والأشجار والصور والتماثيل ، أم صرفت للأنبياء والأولياء والصالحين . لأن عبادة الصالحين والانبياء لاتجوز ، كما أن عبادة الأحجار والأشجار والصور لاتجوز.و إذا كانت عبادةِ الجمادات من الأحجار والأشجار والصور كفرا وشركا بالله،فلابد أن تكون عبادة الانبياء والأولياء والصالحين كذلك كفرا وشركا بالله . إذ لا خلاف بين الناس أن عبادة المخلوق ، مهما كان ذلك المخلوق المعبود ، من العقلاء أو من غير العقلاء ، خروج على الدين وعلى التوحيد ،وإشراك لاريب فيه ولاخلاف . وذلك أن المطلوب من العباد ، المفروض عليهم أن يعبدوا الله وحده لاشريك له ولا ند وأن يصرفوا ذلك كله له لاإله إلا هو رب العالمين.وليس المطلوب منهم أن يعبدوا فريقا من الخلق دون فريق ، وأن يختاروا لعبادتهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، أو أن يختاروا لها عقلاء الخلق دون جمادهم.ولا يختلف الناس أن عابد النبى والولى ضال ، كما أن عابد الحجر والشجر ضال ، وأنه إذا لم يكن عابد الأنبياء والصالحين كافراً ولامشركا فعابد الاحجار والأشجار والجمادات كذلك ليس كافرا ولا مشركا . وما قال أحد منّ المسلمين : إنه تجوز عبادة مخلوق دون مخلوق .

الشرك شرع وجه إلى الأنبياء أم إلى الجمادات

فاذا قال هذا الشيعى : إنه لا تصح التسوية بين الأنبياء والصالحين والجمادات لأن الله أمر بالاستغاثة بالأنبياء والاستشفاع بهم ، وقد جعلهم أهلاً

لذلك قادرين عليه ، دون الجماد ، فإنه لا يشفع ولا يغيث ولا يدعى ، فكيف يسوى بينهما ! ؟ قيل: نحن لا نزعم التسوية بينهما ولا ندعيها ،ولكن نقول : إذاكانت الاستغاثة والاستعانة بالاحجار والصور عبادة لها وشركا بالله ،فلابد أن تكون الاستعانة والاستغاثة بالانبياء والصالحين كذلك: عبادةلهم وشركا بالله ، كما قال الشيعي نفسه فى غير ما موضع من كتابه : « لو كانت الاستغاثة بالأموات ضلالاً وكفرا لكانت كذلك بالأحياء ». وكما قال : «إذا لم يكن سؤال الأحياء الغوث والعون والمدد شركا بالله لم يكن سؤال الأموات ذلك شركا، لأن الشرك شرك سواء أوجه إلى الأحياء أم إلى الأموات ، وما ليس شركا ليس شركاوجه إلى الميت أم إلى الحى » . هذا معنى كلامه .

ثم نقول أيضا : هب الأموات ، من الانبياء والصالحين ، يقدرون على مايسألون ، وهب الأحجار والاشجار والصور لا تقدر على شيء من ذلك ، وهى حقا لا تقدر ، فهل يلزم هذا أن تكون دعوة الأموات والاستعانة بهم وسؤالهم ما يقدرون عليه جائزة ، ويكون سؤال الأحجار والأشجار والصور العون والغوث ، بزعم أنها تقدر على ذلك، شركا وضلالا ؟ إننا نقول هذا لا يمكن أن يصح على ماذهب إليه المخالف ،فإنه طالما زعم أن من ظن شيئاً قادراً على إغاثته وعونه فاستغاثه واستعانه لم يكن فى هذا الظن الخاطئ ، ولا فى دعائه واستعانته المبنيين على ظنه الخاطئ ، ضلال ولا كفر ، بل كان ذلك كمن طلب من أعمى القراءة ظانا أنه غير أعمى .وأمثال هذا . . وقد قال هذا القول ولجأ إليه فراراً من تخطئة دعاة الأموات ، لأن مخالفيه قالوا له : إن الأموات لا يقدرون ولا يسمعون ولا يشفعون ولايعملون لمن لاذ بهم شيئاً ، فقال مجاوباً :لو فرض أن هذ كله صحيح لم يوجب تضايل من دعاهم واستغاثهم حاسبا أنهم قادرون فاعلون ، بل هو كمن طلب من المقعد القيام حاسبا أن غير مقعد ، فليس فيه

ضلال ولا كفر ولا شئ من التأثيم . ونحن نقول : إذا كان هذا صحيحا كان رداً عليه هنا ، وإذا لم يكن صحيحا بطل قوله فى دعوة الأموات ودعائهم ، وبطل قياسه دعاة الموتى العاجزين بمن طلب من العميان القراءة ، ومن المقعدين القيام

إقراره أنه من الشرك دعوة المخلوق واستغاثته

والذى نريد أن نستخلصه من كلامه هذا إقراره أنه قد كان من إشراك المشركين وكفر الكافرين استغاثتهم واستعانتهم بالأحجار والأشجار ، وسؤالهم إياها كل مايسأل الله ، وكذا الاستشفاع بها والذبح والنذر لها ، فانه إذا أقر أن ذلك كله عبادة لتلك الحجارة ، ثم أقر بأن تلك العبادة شرك بالله ، قيل له : إن عبادة غير الله لاتجوز ألبتة ، فلا تجوز عبادة الأنبياء وأهل الصلاح ، كما لاتجوز عبادة الأحجار والأشجار . فاذا كان المستغيث المستشفع بالحجر ظانا أنه قادر كافرا وجب أن يكون المستغيث المستشفع بالأموات كذلك ، لأن العبادة عبادة ، ولأن الشرك شرك ، أين وضعا وحيث صرفا .

كلام الشهرستانى فى أن عبدة الاصنام لايعبدون جماداً وإنما يعبدون أحياء

على أننا نقول كما قال الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل : « وبالجملة وضع الأصنام حيث قدر إنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على هيئته وشكله وصورته نائبا منابه وقائما مقامه . وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلا ما لاينحت بيده خشباً صورة ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه وخالق الكل ، إذ كان وجوده مسبوقا بوجود صانعه ، وشكله محدثاً بصنعة صانعه . ولكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها وربطوا حوائجهم بها من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله كان عكوفهم ذلك عبادة ، وطلبهم الحوائج منها إثبات ألوهية لها . وعن هذا كانوا يقولون : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فلو كانوا مقتصرين على صورها فى اعتقاد الربوبية لما تعدوا عنها إلى رب الأرباب » انتهى قول الشهرستانى

ونقول حينئذ : إن المشركين عبدة الأصنام لم يكونوا يعبدون الأحجار والأشجار فيذبحون وينذرون لها ويدعونها ويستغيثونها ويستشفعون بها ، وهم

يعلمون انها أحجار وأشجار مجردة عن كل معنى وعن كل قصد ، فان هذا ظاهر البطلان ، ولكنهم عبدوها رامزين بها إلى معبودات أخرى أعظم وأرقى . فقد كانوا يصنعون تماثيل الأنبياء والصالحين فيعبدونها وهم يريدون عبادة أصحابها ، فيتوجهون إليها وهم يريدون التوجه إلى الأنبياء والصالحين أنفسهم ، كما يعبد النصارى صورة المسيح وصورة العذراء وصور القديسين ، وهم يريدون بلا شك عبادة نفس المسيح ونفس مريم ونفس القديسين ، لا عبادة صورهم التى عملوها بأيديهم والتى يحطمونها متى شاؤا بأيديهم أيضاً . ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام عند ماذكرت له كنيسة بأرض الحبشة وذكر له مافيها من الصور قال: « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » فان القوم يصورون صور الصالحين فى معابدهم فيتوجهون إليها بالعبادة وبأنواع الضراعات والاستغاثات وهم لا يعنون سوى التوجه إلى أصحاب الصور ، ولكنهم نصبوا صورهم بين أيديهم وتحت أبصارهم ليكون فى هذا لهم تحضيض وتنشيط على العبادة والتقوى كما قد يقصدون به الاحترام والاجلال. ولاجل ذلك كان نهى الاسلام شديداً صريحاً عن اتخاذ الصور والتماثيل ، ولاسيما إذا كانت صوراً وتماثيل لصالحين روحانيين من الأنبياء والمرسلين . فإن فى هذا الخطر الأكبر ، والبلاء الأحمر . وقد أتى المشركون — أكثر ما أتوا — من هذه الناحية ، ناحية التعلق بآثار الصالحين ومعالمهم وأطلالهم من صور وتماثيل ومعابد . وقد كان ضلال قوم نوح وفساد عقيدتهم آتيا من هذه الناحية ، كما ذكر أهل العلم . فقد حكوا أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كانوا رجالا صالحين فى قوم نوح ، يأمرون بالطاعات والمعروف ، وينهون عن المعاصى ، فكانوا مرضيين محبوبين فى قومهم . فلما أن ماتوا وأرادوا استبقاء ذكراهم ، استبقاء لما كانوا يأمرون به ويدعون إليه ، صور

مبدأ شرك المشركين من الصور والتماثيل

صورهم ونصبوها فى معابدهم وميادينهم لتذكرهم بهم وبما كانوا عليه من الخير والاستقامة: هكذا كانوا فى بدء الأمر ثم دب فيهم دبيب الغلو ثم طفر بهم الغلو حتى عبدوهم ، وقد كانوا يأمرونهم بعبادة الله وحده، وأشركوا بهم فى عبادة من كانوا ينهونهم عن أن يشركوا به شيئاً ، ونسوا عهود الحى ، ونسوا الغرض الأول ، ونسوا ما كان عليه أولئك وما كانوا يدعون إليه من التوحيد والإخلاص لله . وقد حكى أهل العلم وأهل السير أيضا أن هذه الأصنام كانت فى العرب من بعد قوم نوح: أما ود فكان فى كلب ،وأما سواع فكان لهذيل ، وأما يغوث فكان لمراد ، وأما يعوق فكان لهمدان ، وأما نسر فكان لحمير . ولاريب أن الذى بقى للعرب من هؤلاء هى تماثيلهم وصورهم . فكانوا يعبدون الصور ويتوجهون إليها بالأدعية والضراعات والمعنى بذلك هم أصحابها. وقد كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مصورين فى الكعبة فى العهد الجاهلى ، وكانت أصنام العرب كذلك تماثيل وصوراً . وقد كان أعظم أصنامهم «هبل» . وقد ذكر الكلبى فى كتاب الأصنام وغيره أن « هبل » هذا كان على صورة الانسان وكان من العقيق الأحمر . وذكر هو وابن إسحاق وغيرهما أن « أساف ونائلة » وهما من أصنام العرب ، رجل وامرأة مسخا حجرين . وكانا ، فيما ذكروا، عشيقين فسقا فى جوف الكعبة فمسخا حجرين فنصبوهما ليتعظ الناس بهما ، فلما طال لبثهما وعبدت الأصنام عبدا معها . وذكر الكلبى أيضا على وجه التعميم أن الأصنام معناها التماثيل ، وقال : ما صنع من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو صنم، وما صنع من حجارة فهو وثن . وهذا يدل على أن أصنام العرب وأوثانهم كلها ما كانت إلا صوراً وتماثيل لقوم صالحين أو طالحين ظنوا من الصالحين. وقد وجد حول الكعبة يوم الفتح ثلثمائة وستون صنما مرصعة بها فجعل رسول الله يطعنها بقوسه فى عيونها و وجوهها (وهذا يدل أيضا على ما قال الكلبى من أن الاصنام

أصنام العرب وصفتها

والأوثان لم تكن سوى صور وتماثيل) ويقول حين طعنها « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » فتساقطت على رؤسها ، ثم أمر بها فأخرجت منها وحرقت . وكل هذا يدل على أنها كانت صوراً وتماثيل ذوات رؤس وعيون ووجوه . وذكروا أن اللات، وهو من أعظم أصنامهم ، كان رجلا صالحاً يعمل الطعام للحجيج فلما مات عبدوه ، وكذلك ذكر فى العزى ثانية الأصنام الكبرى .

اللات والعزى وودوغيرها من الاصنام لم تكن الا رجالا

وقد قيل فى صفة « ود » وهو يعبد فى جاهلية العرب : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، عليه حلتان ، متزر بحلة مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجعبة فيها نبل » . وقد كان قوم إبراهيم مرضى بهذا الداء، داء عشق التماثيل ، فبعث الله خليله إبراهيم ليدعوهم إلى الله وحده ليدعوا تلك الآلهة التى عملوها بأيديهم . فدعاهم ليلاً ونهاراً فلما لم يسمعوا لدعوته ولم ينتهوا عن غيهم سطا على تماثيلهم فجعلها جذاذاً وترك لهم كبيرهم ليتحداهم بسؤاله واستنطاقه . ولكن القوم كانوا قد بلغوا حالة لا يسمعون معها صريف حجة ولا يصيخون إلى جاجلة برهان . وهكذا كان غيرهم من عبدة الصور والتماثيل فى أول الزمان إلى آخره . وبهذا قضت سنة الله . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

من أسباب عبادة الاصنام

وقد ذكر ابن إسحاق والكلبى أنه كان من أسباب عبادة الأصنام والأوثان فى العرب أن الواحد منهم كان إذا أراد سفرا حمل معه حجراً من حجارة البيت تبركا به وتعظيما ، فكان فى سفره يطوف بذلك الحجر ويتبرك به كلما طاف برأسه الشوق إلى البيت . فظلوا يتنقلون فى درجات الغلو والجهالات حتى بلغوا القمة ، وحتى صاروا إلى عبادة الأحجار والجماد . ولا ريب أنهم ما عظموا البيت وحجارته إلا تعظيماً لبانيه وواضع قواعده ، وإلا تعظيما لآثار الأنبياء .

وهذا الذى ذكرناه كله لاريب فيه ، وهو يدل على أن القوم ما كانوا يعبدون.

المشرك لم يعبد جماداً

حجارة مجردة ولا جماداً جامداً ، لا لشيء غير اعتقادهم أنه إله من حجر ، ورب من جماد . فإن هذا مستحيل فى بداهة العقول . . بل كانوا يعبدون تماثيل الصالحين وتماثيل الكواكب العلوية ويتوجهون إليها ، وهم يقصدون أصحابها .

فالمعبودون فى الحقيقة هم الأحياء المختارون . وعلى هذا لا فرق بين أولئك المشركين العاكفين على أصنامهم فى جاهليتهم ، وبين هؤلاء العاكفين على قبورهم وأجداثهم فى إسلامهم . فإن الجميع عبدوا الصالحين واستغاثوهم وضرعوا إليهم واستشفعوا بهم ، والجميع عكفوا على الجمادات ، إلا أن أولئك عكفوا على تماثيل وصور ، وهؤلاء عكفوا على قبور وأجداث ، ولكن الجميع جماد ، ولكن الجميع موات لا يضر ولا ينفع ، ولا يسمع أو يشفع

على أننا نقول : إن هؤلاء الضالين من المسلمين قد عبدوا الاحجار والأشجار ولم يقفوا عند عبادة الأنبياء والصالحين ، حتى لقد اختلقوا لذلك حديثا زعموه نبوياً ـ وقد كذبوا ـ وهذا الحديث هو ما شاع على أفواه العامة وأشباههم من علماء السوء ، وهو : «لو اعتقد أحدكم فى حجر لنفعه» وقالوا : إن الله قد وكل بقبر كل ولى ملكا يقضى حاجات من جاء ذلك القبر فدعا واستغاث . وقد افتتن هؤلاء بهذا الضلال وجنوا به حتى جاءوا بكل طريف ولون : فطوائف منهم عمدوا إلى باب صنعوه بأيديهم فاعتقدوا فيه سر الأسرار ومفتاح ما أغلق من الحاجات ، واعتقدوا أن ثم قطبا من أعاظم الأقطاب المتصرفين فى الوجود يقضى حوائج من جاؤا إلى ذلك الباب وطافوا به وتعلقوا وربطوا به الخرق والحبال فراحوا إليه من كل فج وصوب فتطوفوا وقبلوا وعلقوا وتعلقوا وخضعوا وضرعوا وجاءوا بكل إفك مبين . وهذا «كباب المتولى» فى القاهرة .

أنواع الآلهة المعبودة اليوم

وطوائف أخرى صنعوا جملة أضرحة لميت واحد فزخرفوها وغالوا فى تشييدها ورفع شأنها ، وحلوها بكل فن من الزينة وكل لون من طرائف المعلقات . فذهبوا

يطوفون بهذه القبور ويحجون إليها من كل مكان ، ويربطون بها حوائجهم وراحوا يستغيثون ويستشفعون ويسألون ويقدمون ألوان الهدايا والنذور من الأنعام والخبز والشموع والنيران .

ومنهم من اعتقدوا فى شجرة وزعموا فيها سرا ، وأنه لديها تنال المآرب والحاجات . فقصدوها فأملوا بركتها وشفاعتها وطلبوا حولها كل رغيبة . فأريقت تحتها المدامع ، ونثرت حولها الرغبات والشكايات .

ومنهم من اعتقدوا فى غار من الغيران ، لأنهم زعموا أن وليا من الأولياء أو نبيا من الأنبياء قد نزل ذلك الغار فوضع فيه أحد أسراره وإحدى بركاته فأصبح غارا مزورا معظما ترجى بركاته وتتعهد زياراته .

ومنهم من وجدوا حجرا مخدوشاً مثقوبا فزعموا أن ذلك الثقب أو الخدش أثر لأحد عباد الله الممتازين الذين تدرك بمجيء آثارهم المطالب وتنال بالطواف بها الآمال . فقدسوا ذلك الحجر وأموه ورجوه فغدا من الأحجار المزورة المقدسة .

ومنهم من وضعوا حيوانا مهينا كحمار أو كلب فى تربة من الترب وأعطوها هيئة المقام المقصود المزور ، فتهافت الناس إليه فزاروه ، واستغاثوه وطافوا به وقدموا له أصناف الهدايا حتى صار وليا من الأولياء الكبار . ولعل كثيرا من هذه المقامات لا تعدو حقيقتها هذا .

ومنهم غير هؤلاء وهؤلاء مما هو قائم فى كل مكان ، ماثل فى كل قطر إلا القليل النزر . وهؤلاء فى نفس الأمر إنما يدعون جمادات ويتعلقون بأحجار وخلقان وإن زعموا أنهم لا يقصدون غير أولياء الله المقربين ، وعباده الصالحين الذين لهم ما يشاؤن : بل نقول ، إن جميع هؤلاء المنقطعين إلى القبور والمقامات إنما يقصدون أحجاراً وبنايات ، ويتعلقون بجمادات من ستائر ومعلقات وشموع ونيران والدليل القاطع على ذلك أن هؤلاء الحيرى يعطون القبر ويلجؤن اليه ويتعلقون به

العاكفون على القبور لا يرجون إلى غير الجماد

من الدليل على ذلك

مافوقه وما حوله من الزينات والمعلقات ، و بقدر مايصل اليه من النذور والهدايا، و بقدر كثرة الطائفين به والمنقطعين إليه إن قليلا فقليـل و إن كثيرا فـكثير . ولهذا فانهم مثلا فى مصر يعظمون البـدوى أكثر من تعظيمهـم للامام الشافعى والليث بن سعد ، ومن تعظيمهم لأبى بكر وعمر وسائر الصحابة ، بل و يلهجون باسم هذا البدوى عندالشدائد والملمات أكثر من لهجتهم باسم النبى عليه السلام وأسماء الصحابة وكرام الأئمة ، بل لعلهم لايذكرون أحداً من هؤلاء عند احمرار الاقدار واتساع الآمال . وهـذا هو الشأن فى كل قطر و بلد : يعظم أهله صاحب المقام الرفيع الفاخر ، دون ذى الذكر الباهر ، و يدعون من شـيدت على قبره القباب والمعلقات ، دون من شيدت حياته وسيرته على الصالحات ، و ينقطعون إلى من كثرت حول تربته النذور ، و ينسون صاحب العمل المبرور . كل هـذا حق لا نزاع فيه . فاذا سـألت ماسر ذلك ، قلنا لك : إن السر فيـه أن هؤلاء الجماهير لايعبدون أشخاصا و رجالا،ولا أولياء وأنبياء و إنما يعبدون مايرونه من الزينات والمعلقات والقبور والقباب الضخمة الفخمة، والبنايات المشيدة على جهل الجهلاء . فهذا هو مايعبدون ، وهذا هو مايدعون و يرجون ، وهذا هو مايزورون وما يقصدون . أما الطلسم الذى من أجله عبدت هذه المشاهد فهو مايزعم فيها من الأسرار والبركات المتدفقة اليها من أولئك الأولياء والمشايخ المجهولين . فالمعبود هو الجماد والزخارف،وطلسم هذه العبادة هو أسرار قوم غائبين مجهولين . فمن قال إن ضلال المسلمين لم يعبدوا جمادا ولا حجرا كما عبد أهل الجاهلية : فقد كذب أو جهل .

لا يعبدون أشخاصا وإنما يعبدون قبابا وزينات

نعم نحن لا ننكر أن هؤلاء إنما تعلقوا بهذه الجمادات و بهذه القبور والاحجار لأجل مايظنون فيها من أسرار الصالحين ، ومايدعونه من بركاتهم الحالة فى هـذه الجمادات الماثلة فيها : نعم نحن لا ننكر هـذا ، ولـكن نقول : إن هذا عينه هو

بلاء المشركين وقصدهم فى كل عصر ومصر. فالمشرك لن يعبد الحجر وهو يعلم أنه حجر لا أكثر ولا أقل ، ولكنه يعبده و يضرع إليه لأن فيه بزعمه سرا إلهيا ومعنى روحيا من أسرار ومعانى عباد الله المقربين، لأنه مثلا صورة صالح أو تمثال نبى أو أثر من آثارهم ، و إلا فان عاقلا لا يمكن أن يلجأ إلى جماد مجرد من كل معنى.

وعباد الكواكب والأفلاك العلوية ما عبدوها إلا لظنهم أنها عاقلة متصرفة فاهمة، ولو علموا أنها جماد مجرد ما عبئوا بها ولا قصدوها بشىء من عباداتهم . ولا ريب فى هذا عند من أعمل النظر وأحكم الفكرة . فان العاقل لا يمكن أن يرغب فى غير العاقل . وما ضرع الحى إلا لحى أو لجماد يحسب أنه ينتسب إلى الأحياء ، أو إلى معنى معانيهم وسر من أسرارهم. والناس كافة مجبولون على الاعتراف بنقصان الميت وفاقد الحياة والشعور . فعابد الجماد إنما يعبد فى زعمه حيا عاقلا أكمل منه حياة وعقلا ، وهذا هو السر فى عبادته إياه . ولولا هذا الوهم الخاطىء لما استجاز لنفسه أن يعبده وأن يرغب إليه ولوجد فى نفسه و إنسانيته من الأنفة والكبرياء ما يسمو به على عبادة الجماد وعبادة فاقد الحياة. وقد كان العرب المشركون يقولون فى أصنامهم ومعبوداتهم من دون الله : إنما تقربنا إلى الله زلفى، و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، و يقولون : «تلك الغرانيق العلى، و إن شفاعتهن لترتجى» وهم يعلمون بداهة أن الأحجار والأشجار المجردة عاجزة عن أن تقرب أحداً إلى الله ، وعن أن تشفع لاحد لديه تعالى، وعن أن تعلم من أمر عابديها شيئاً. و يعلمون بالضرورة أن الذى يشفع و يقرب و يعلم هو العاقل الحى . وهذا علم يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم . فالمشركون العاكفون على الأصنام والاوثان يعبدون أصناماً وأوثانا يظنونها عاقلة فاهمة عالمة كحال عبدة القبور ولا فرق .

لا انسان لا يمكن ان يقصد بعبادته غير الحى

وقد اعترف الشيعى هنا أنه قد كان من شرك المشركين دعاؤهم صور الصالحين ، وسؤالها ما يسأل الله ، وذبحهم ونذرهم لها ، واستشفاعهم بها . ومما

لاشك فيه أنهم إذا دعوا الصور واستغاثوها واستشفعوا بها وسألوها فانما يريدون بذلك كله أصحابها أصالة وقصداً . أما الصور نفسها فلا ريب فى أنهم يعلمون أنها لاتستحق عبادة ولا شيئاً ، ويعلمون أنها عاجزة عن أن تعمل عملا وعن أن تقدم أو تؤخر ، أو تدعو وتشفع لمن دعاها واستشفع بها ورجع إليها كل وقته وحياته . فداعى الصورة لايدعو فى قصده صورة ولكن يدعو صاحبها . وهذا أمر لايجهله أحد ولايخفى مكانه على أبلد الناس طبعاً ، لا على أحد من المشركين ولا على أحد من المسلمين . فاذا كان داعى صورة الصالح ـ وهو لايدعو فى نفسه يقيناً غير الصالح نفسه ـ كافراً مشركا ، باعتراف المخالف ، فلا شك أن مثله العاكف على القبور ، الداعى لأصحابها ، المنقطع إليهم . فان الداعى للقبور العاكف عليها ، الفازع اليها لم ير صالحاً يدعوه ، ولا نبيا يرجوه ، وإنما رأى بناء مشيداً ، وقبرا مشرفاً مزخرفاً يدعى ويقصد ويؤمل ويرجى ، فراح يدعوه مع الداعين ، ويسأله مع السائلين ، ويضع على عاتقه آماله الطوال العراض ، على زعم أن الذى أمامه عبد من عباده تعالى ، أعطاه ربه التصرف المطلق أو المحدود ووهبه الدلال عليه ، حتى إن له مايشاء لديه ، وحتى خصه بالقدرة والكمال ، وبالقوة الفاعلة . ومثل هذا داعى الصورة سواء . ولا يمكن أن يوجد فرق بين داعى صورة الصالح المنقطع إليها ، وبين داعى قبره المنقطع اليه . ولهذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يجمع بين الصور والبناء على القبور فى النهى الشديد فيقول فى أصحاب الصور والقبور : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » . وقد قال على بن أبى طالب لأحد أصحابه : ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله ؟ ألا تدع قبرا مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته . رواه مسلم فى الصحيح . وقد نهى الاسلام أشد النهى عن هذين الأمرين ، أعنى الصور

داعى الصورة لا يدعو غير صاحبها

فتنة الصور والقبور

والبناء على القبور ، وذلك لما يؤديان اليه من الاضرار بالعقائد والافساد للنفوس وقد تجلت حكمة الاسلام فى النهى عنهما واضحة ظاهرة فى هذا العصر ، فان فتنة الصور والبناء على القبور أصبحت اليوم لاتخفى على أحد إلا هالك . أما الصور فقد أفسدت القلوب ، وأما القبور فقد أفسدت العقول . فالاولى مادة الشهوات الهوجاء ، والثانية مادة الشبهات على التوحيد وعلى عبادة الله وحده ، ومادة الاشراك والضلال الأبعد . والشهوات والشبهات ـ أو فالفسوق الذى مصدره الشهوة ، وضلال العقيدة الذى مصدره الشبهة ، هما غذاء ومثار مافى هذا الوجود من بلاء ومنكر عظيم . فالقبر المزخرف المشرف هو والصورة فرسارهان فى الدعوة الصامتة الندية الحارة إلى إضلال العباد ، وإمراض النفوس والفطر ، والاخلال بالتوحيد والايمان الصحيح فى هذه الأنفس المغبونة الحيرى . والله من وراء كل شئ .

فاعتراف الشيعى بان دعاء الصور والاستغاثة والاستعانة والاستشفاع بها شرك بالله ، اعتراف منه صريح بأن دعاء القبور والاستغاثة والاستعانة والاستشفاع بها كذلك أيضا شرك بالله .

زعمه أن المشركين لايعبدون الله

أما زعمه أن المشركين قد أعرضوا عن عبادة الله قائلين : إنه لاطاقة لنا بعبادته تعالى ، فزعم كاذب ، فان المشركين لم يعرضوا عن عبادة الله،ولم يقولوا : لاقدرة لنا على عبادته . بل كانوا يعبدونه تعالى أصناف العبادات ، ولكنهم كانوايشركون معه آلهة أخرى لابرهان لهم بها . وكانوا ـ كما قدمنا الدلائل ـ يخلصون الدعاء والعبادة حين الشدة والبلاء ، وينسون كل ماسواه تعالى ، ويخلصون اليه وحده لاشريك له كما قال تعالى : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » ، وكما قال : « وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » . والآيات فى هذا كثيرة معلومة .

وقد كانوا يحجون لله و يحافظون على كثير من شعائر الحج و يقولون فى تلبيتهم: «لبيك اللهم لبيك ،لاشريك لك إلاشريك هو لك تملكه وماملك »فالمشركون لم يعرضوا عن الله ودن عبادته ، ولم يقولوا إنه لاقدرة لنا على عبادته تعالى . فهذا الذى قاله المصنف الشيعى كذب لايقوم له ظل من الحق . وما كان بلاء المشركين إلا الشرك الذى هو بلاء هؤلاء العاكفين على القبور أيضا .

السجود للاصنام

أما مسألة سجود المشركين للاصنام والأوثان فلا أعرف أكانوا يسجدون لها حقيقة أم لا . والذى ذكره القرآن وأطنب فى ذكره ، ونعاه على المشركين ، وأطنب فى نعيه هو دعوتهم الأصنام وعبادتها . أما السجود فلا أذكر له دليلا ، على أنه لامانع من أن يكونوا فعلوه حقا ، فهم مشركون ضلال .

وقوع هذا من المسلمين

وقد وقع هذا من هؤلاء الضلال الحيرى ، العاكفين على القبور ، المسلمين فيما زعم المخالف وأنصاره ، فهم يرتمون على الأعتاب والأبواب بلا خلاف يقبلونها ،وهذا هو السجود عينه ، أو هذا مالا يكون الا بالسجود .فالسجود واقع من المسلمين أنفسهم . هذا من المسلمين غير الشيعة ، أما الشيعة فانهم يسجدون للقبور صراحة سجودا كاملا كسجود الصلاة . وكل الذين ذهبوا إلى بلادهم ، مثل النجف وكربلاء ، رأوا ذلك بأعينهم .

أما إهلال المشركين بذبائحهم للأصنام ، فالاهلال هو رفع الصوت فى أصل اللغة ، والمسلمون فعلوا ذلك كما سوف يجىء فانهم رفعوا عقائرهم وأصواتهم قائلين: هذا عجل البدوى ، هـذا عجل الدسوقى ، هـذا نذر فلان وفلانة ، وهذا مما لا ينكر ولايجحد

طلاء الأصنام بالدماء

وأما طلاء الأصنام بدماء الذبائح فالمسلمون قد طلوا القبور وأفنية القبور بدماء قرابينهم للأموات ، وهداياهم للقبور ، وقد قذروها بالفول والخبز والمأكولات الأخرى التى يهدونها و ينذرونها لها .

ذكر اسم المخلوق على الذبائح

وأما ذكر اسم غير الله على الذبائح ، فهذا إن كان قد فعله المشركون دون المسلمين ، فقد فعل المسلمون ماهو شر منـه ، فان سؤال الموتى غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وكل مالا يقدر عليه إلا الله ـ وهذا كله يجيزه الشيعى ويفعله هو وطائفته ـ شر من ذكر اسم الميت عـلى النحيرة بلا ريب ، كما لا ريب فى أن نذر البهائم وتقـديمها إلى الأموات ، ونحرها لدى قبورهم وفوقها ، وما يلازم ذلك من ضراعات وتوسلات واستغاثات ، أقبح عند الله وعند المؤمنين من ذكر اسم الميت عـلى النحيرة . على أننا لا نستبعد أن يكون ذلك قـد فعله هؤلاء الضالون الجاهلون ، ولا سيما ضلال الشيعة وجهالهم . فان لهم الأعاجيب فى هذا الباب . وقد قدمنا أن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام قد أخبر فى غير ماحديث أن طوائف من أمته سوف تقع فى جميع ماوقعت فيه الأمم الذاهبة من الضلالات والجهالات . وقد صدق الله وصدق رسوله عليه الصلوات والتسليمات.

إبطال الفرق الثانى

وأما الفرق الثانى ـ وهو أن منهـم من عمل معبوداً بيده فعبده ـ فالجواب أن يقال إن عبادة غـير الله قبيحة باطلة ، سواء أكان ذلك المعبود معمولا بيـد عابده أم بيـد خالقـه . وليست عبادة المخلوق قبيحة مذمومة لأن ذلك المخلوق صنع ذلك العابد ، بل لأن المعبود مخلوق عاجز لا يليق أن يعبده مخلوق عاجز مثله . فـكلما لا يصح أن يعبد هـذا المخلوق ذاك المخلوق لا يصح العـكس ، أعنى أن يكون المعبود عابدا ، والعابد معبوداً . فالمخـلوق يجب أن يكون أبداً عابداً لا معبوداً ، ومن الظلم والجهـل الخروج به عن منطقة العبودية إلى منطقة الألوهية . ومن الظلم والجهل أيضاً أن تعبد عبدا مثلك يعبد هو خالقك وخالقه وخالق كل شىء . فالاشراك بالله إثم عظيم سواء أصنعت ذلك الشريك بيـدك أم صنعه الله . فانه إذا كان من القبيح الباطل أن تعبد صنما عملته بيدك وقدرتك كان من الأقبح والأبطل أن تعبد عبدا خلقه الله تعالى لعبادته،وخلقه ليدعوك

ويدعو غيرك إلى عبادته وحده ، وإذا كان من الاثم والغباء أن تعبد جماداً لم يكن أقل منه غباء وإثماً أن تعبد نبياً بعثه الله للدعوة إلى التوحيد المطلق الخالص ولتحطيم الشرك وتحطيم أسبابه ووسائله وغاياته . فهذا الفرق لا حقيقة له البتة .

المسلمون يعبدون ما يعملون بأيديهم

على أننا نقول أيضا إن هؤلاء المسلمين قد صنعوا أشياء بأيديهم فعبدوها كما فعل المشركون قبلهم . فإن هؤلاء كما ذكرنا يعبدون القبور والقباب والأعتاب والأبواب التى صنعوها بأيديهم ، والتى قد يكون صانعها غير مسلم وغير مؤمن بالله . ولولا هذه البنايات والقباب والزخارف والمساجد والأشياء الأخرى القائمة على الموتى لما وجدت هؤلاء الطائفين المقبلين الباكين الخاشعين الشاكين . . .

فكل ما تراه اليوم فوق الاضرحة من الضلال والجهل هو فى الواقع موجه إلى هذه الزخارف المحمولة على القبور . فإنه لولا ذلك لما عرفوا ذلك الميت ولا حفلوا ولا تعلقوا به ، ولا بالوه أو عرفوه ، ولا طلبوا منه حاجة من الحاج . ولهذا فانه قد يكون ذلك الميت المقصود المعبود فاسقا أو غير مسلم ، من الكافرين بالله العظيم ، وقد يكون حيوانا قذرا ، وقد يكون قبرًا مجردًا ليس فيه شىء لا إنسان ولا حيوان ، ليس غير الوهم والزور والجهل الفاضح . وهذا كثير . وقد صح أن جماعة رأوا ما يكسبه سدنة القبور من الصدقات والهدايا والنذور فاحتالوا لذلك ، فجاؤا بحمار ميت فدفنوه وأقاموا عليه قبة ، وزعموا للناس أنه مقام يحوى شيخاً كبيرًا ، فأقبلوا على زيارته والطواف به ، وجادوا عليه بالصدقات والقرابين والهدايا . وراح المغفلون يتوسلون بذلك الشيخ الحمارى ويستغيثونه ويسألونه الشفاء وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ... ولعل أمثال هذا كثير ! ولعل الكثير من هؤلاء المشايخ والأولياء ـ فى زعم الجهلاء ـ حمير أو كلاب أو أقل من ذلك . وقد كان فريق من الناس إذا أرادوا أن يبقى ما حول دارهم نظيفاً غير ملوث بالقاذورات والنجاسات المتراكمة فى الأحياء القذرة ـ يقيمون بناية

عبادة الحيوان

تشبه الضريح ، ويكتبون عليها اسم شيخ مكذوب مزور لم يخلقه الله ، ثم يزعمون للناس أن تحت ذاك البناء شيخاً كبيراً وولياً خطيراً . . . فيتحاشى الناس تقذير ما حوله . وأخيرا يصير ذلك البناء ولياً عظيم القدر والجاه ، كثير الزوار والطائفين ،الراجين البركات والشفاعات .

فهؤلاء فى الحقيقة يعبدون مايعملون بأيديهم بل و يعبدون شراً مما عملوا .

بطال الفرق الثالث

وأما الفرق الثالث ــ وهو أن المشركين كانوا يجعلون لأصنامهم نصيباً مما خلق الله ، ولله نصيباً ، ثم لا يعدلون بين الله و بين أصنامهم فى قسمة تلك الأنصباء ــ فالجواب أن المسلمين قد فعلوا ذلك كله بلا شك ولا ريب . بل لعلهم فعلوه بشكل هو أفظع وأقبح مما فعله المشركون قبلهم . فلقد جعل القوم أكثر نذورهم وقرابينهم للمشايخ وأصحاب القبور : فسيبوا السوائب المنذورة للمقامات والأموات وتركوها كحمام مكة صيدهن حرام ، لا يصاد ولا يطارد ولا يؤذى . فعجل البدوى يذهب ويأكل ويرعى حيث شاء : لا يستطيع مالك أن يطرده من ملكه ، ولا صاحب أرض أن يخرجه منها وإلا نزل به أشد العذاب والعقاب من هلاك أولاد وذهاب أموال إلى ألوان من المصائب والآفات عائذين بالله وحده من السوء والبلاء . بل إن هؤلاء الحيرى يتهيبون التعرض لسوائب المشايخ ، ويفرون من وجوهها اتقاء غضبهم وحذار عقوبتهم ، فينذر بعضهم بعضاً ذلك قائلين : إياك وعجل الشيخ ، إياك وجاموس البدوى . وهذا معروف للناس جميعاً لا يخفى على أحد منهم . ويقل أن يوجد أحد من أهل طنطا المدينة التى فيها البدوى ، أو أحد من أهل القرى والكفور حولها ، لم يجعل لهذا البدوى شيئاً من ماله وحيواناً من حيواناته ، فيسميه باسمه ، فيقول عجل البدوى أو مال البدوى . وقد ينذرون البهيمة هى وما تلد للشيخ ، فيقولون فى نذورهم هذه البهيمة هى وأولادها ، أو نصف أولادها ، وقف على الشيخ أو على صندوق

السوائب للبدوى ولغيره من الأموات

الشيخ ، ولو قدر أن أحد هؤلاء لم يف بنذره أو تهاون فى الوفاء به ، فأصيب بمصيبة سماوية أو أرضية لما شك فى أن تلك المصيبة عقوبة من الشيخ جزاء غدره بنذره ، وجزاء تفريطه بحقه . ولأجل هذا تجد القوم يتحاشون الإخلال بما نذروه للمشايخ والأموات ، ويهابون ذلك أشد الهيبة . ولو أن أحدهم نذر لله نذرا خالصاً ونذر للشيخ نذراً آخر لاجترأ على الإخلال بنذر الله ، ولأحجم عن الإخلال بنذر الشيخ . ولو كان لا مندوحة له من الإخلال بأحد النذرين لما تردد فى أن يخل بنذر الله دون نذر الشيخ . وهذا ، وا أسفاه ، يعرفه الخاص والعام .

وقد من الله على أهل بيت من المؤمنين فعرفهم العقيدة الصحيحة السليمة من شوائب الاشراك والابتداع . وكان أهل هذا البيت قبل ذلك من المعتقدين فى البدوى : يقدمون إلى مقامه النذور والنحائر ، وإلى صندوقه الأموال والصدقات . . . فكفوا عن ذلك إيمانا بالله وتوحيداً وعبادة له وحده . وكان لأهل هذا البيت المؤمن الموحد قريب من العلماء الرسميين . فخال هذا العالم أن دنيا هؤلاء الأقارب قد نقصت ، ثم خال ثانياً أن ذلك النقصان مصدره ما طرأ على أهل البيت من العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص والانقطاع إلى الله والرغبة إليه وفيه وحده لا شريك له . فلم يستطع هذا العالم أن يكتم ذلك عن أقاربه ، فصرح لهم بأن ما طرأ عليهم من تحول الحال راجع إلى ما طرأ على عقيدتهم من الايمان بالله وإخلاص العبادة والدين له ، فنصح لهم بالرجوع إلى سيرتهم الأولى وإلى تقديم النذور والهدايا إلى البدوى ليرجع إليهم ما ظن أنهم فقدوه من رغد العيش ، ووفرة المادة . وإذا كان هذا رأى العلماء وقولهم فماذا عسى أن يكون رأى العامة وقولها ؟

تعبيد الاسماء لغير الله

وعندى أنه لا يقل عما فعله المشركون من جعلهم بعض ما خلق الله من الحرث

والانعام للأصنام والاوثان تعبيد الأسماء لغير الله ، بل لعل هذا من هذا . وذلك كأسمائهم عبد الحسين ، وعبد على ، وعبد النبي وأمثالها من التعبيد للمخلوق. فان هؤلاء قد جعلوا لغير الله نصيبا من أنفسهم ومن ذرياتهم وأهليهم . وهذا لايقل إثما وفظاعة عن جعل الحرث والأنعام التى خلقها الله للاصنام والاوثان .

ومن العجيب أن هذا الشيعى ذكر فى هذا الباب ماذكره بعض أهل العلم من أن بعض العوام يشترون أولادهم من المشايخ والأموات بأشياء من أموالهم يجرونها على الأضرحة والصناديق كل عام . فدافع الشيعى عن هذا الضلال وزعم أن له وجهاً صحيحاً إذا صح أن أحدا من المسلمين فعله . ولا ريب أن أحدا لايشترى من أحد شيئا إلا إذا اعتقد أنه مالكه وصاحبه . و إلا لو علم أن ذلك ملك لله وحده لاشريك له ماأمكن أن يشتريه من أحد غيره ... فهؤلاء الذين يشترون أولادهم أو أموالهم من المشايخ ومن الأموات يرون ـ ولا شك ـ أنهم مالكون لذلك متصرفون فيه وفى بيعه وشرائه . فقد جعلوا أولا ماخلق الله من الأنفس البشرية ، لامن الحرث والانعام فقط ، للاشياخ ثم اشتروا ذلك منهم ثانيا بنصيب آخر من أموالهم جعلوه لهم ثمن ماأخذوه منهم من الأولاد والذريات . فقد جعلوا ، كما ترى ، لغير الله من الموتى نصيباً من أولادهم وملكوهم إياهم بحيث يحق لهم أن يتصرفوا فيهم تصرف بيع وشراء ، ونصيباً آخر من الأموال ، ونصيباً ثالثا وهو حق التصرف بيعاً وشراءً ، ونصيباً رابعاً وهو القدرة على البيع والشراء ، ونصيباً خامساً وهو ملك الأحرار واسترقاقهم : هذا كله واقع من هؤلاء المسلمين الذين يزعم هذا الشيعى أنهم لم يجعلوا لغير الله نصيباً من الحرث والأنعام . وهب أن هذا لم يقع منه شئ فالمخالف يدافع عنه و يزعم أن له فى الأسلام وجهاً صحيحاً مقبولا سائغاً شرعاً وعقلا ، فلنا إذن أن نؤاخذه به ونحمله تبعته ومافيه من إثم وعناد لدين الله ومحادة له . ولن نجد من يقول لنا أخطأتم إذا

أنصبة المشايخ فى المعتقدين فيهم

ماقلنا إن هذا شر لم يصل إليه المشركون الذين جعلوا لشركائهم نصيباً من الحرث والانعام قائلين : هذا لشركائنا .

ولكن هؤلاء ينذرون للاموات دون الله

وأما زعمه أن المشركين ما كانوا يعدلون فى قسمتهم بين الله و بين الأصنام حتى صرفوا للأصنام ماجعلوه لله ، ولم يصرفوا شيئاً مما جعلوه للأصنام له تعالى ، فيقال : إن هـذا من القوم قائم على إرادتهم تعظيم الله وتنقص الأصنام . وذلك أنهـم زعموا أن الله غنى عن كل شئ فلا يضيره أن يجعلوا بعض ماجعلوه له لأصنامهم لأنها فقيرة محتاجة ، وأما ماجعلوه لها فلم يجعلوا منه شيئاً لله للسبب نفســه ، وهو غناه تعالى وفقرها هى . فكأن مراد القوم الاعظام من شأنه تعالى والحط من شأن الأصنام .

وهؤلاء المسلمون قدفعلوا ماهو شر من هذا كله وأفظع ، وذلك أنهم، فى الغالب الـكثير، يقدمون القرابين والهدايا والنذور للأموات دون الله، فينذرون للبدوى وللرفاعى والدسوقى مثلا ، ويقل جدا أن ينذروا لربهم من ذلك شيئاً ، و يجعلون للمشايخ ولمقاماتهم ومقاصيرهم ما يجعلون مما تزدحم به تلك الأضرحة ، وتضيق به أفنيتها كل عام ، ولـكنهـم لايجعلون لله شيئاً ، ولاتجود أنفسهم بشئ مخلصة له تعالى وحده لاشريك له . ولهذا فانك مهما دعوت هؤلاء القوم إلى فعل الخيرات و بسط أيديهـم إلى الانفاق على مافيـه رضا الله وطاعته ، وما فيه نفع الأمة والدولة كالتصدق على الجمعيات الخيرية ، وعلى بناء المصحات ودور العلم ، وعـلى المنكوبين من المسلمين ، وعـلى المجاهدين فى سبيل الله ، الذائدين عن حقائق الاسـلام ، وعن دياره ومقدساته ، فلن يولوك ، مهما دعوتهم إلى ذلك ، غير أقفائهم وهزأ كتافهم، ولن يسمعوك سوى ألوان التعلات الشحيحة البخيلة . أما الاضرحـة والمقامات فانهـم ينثرون عليها الأموال من كل جانب بسخاء وجود واغتباط ورضا ، وهم لايحتاجون إلى من يذكرهم بذلك . ولا إلى من

يدعوهم إليـه . وهم يعلمون أن ماينفق فى هـذا السبيل إنمـا يذهب إلى جيوب الأغنياء وشواتهـم ، وإلى جيوب الـكسالى البطالين من السـدنة الدجالين الكذابين ، والسائلين القذرين الذين يصدون الناس عن غشـيان بيوت الله وإجابة داعى الفلاح والصلاة ، هروباً من وقوفهـم لهم بالمرصاد وبسائر الأبواب يسـتجدون ويلحفون ، ويضرعون فيكادون يكفرون ويشركون ويبالغون فى استجدائهـم وسؤالهم ، حتى ليكادون يضعون أيديهـم فى جيوب الناس يستخرجون منها الصدقات والمـكوس التى فرضوها عـلى المصلين . وإن الجواد كل الجواد لهو الذى يستطيع أن يفلت من أيدى هؤلاء اللصوص الـكرماء الشرفاء المجاهرين بصنعتهم هذه قبل أن يسلبوه بعض مايملك قسرا وغلاباً.

وبسط هؤلاء أيديهم إلى الانفاق على القبور وسدنتها ، وكفها عما أوجب الله الانفاق فيه يشهد شهادة لاترد عـلى أن القوم قد بلغوا حالة من نسيان الله ونسيان أوامره ونواهيه قد قصر عن بلوغها أولئك الأبطال الذين قال الله فيهم : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا ، فقالوا : هـذا لله بزعمهـم وهذا لشركائنا » .

إبطال الفرق الرابع

وأما الفرق الرابع وهو أن المشركين قد اتخذوا الملائـكة أرباباً وعبـدوهم أنواع العبادات ، وزعموا أنهـم بنات الله ، فيقال : نعم ، إن المشركين قـد عبدوا الملائـكة كما عبـدوا الصالحين من البشر والأصنام والأوثان والجن . وليست عبادتهم الملائـكة بشر فى الشرع والعقل من عبادتهم الأموات والتماثيل والصور والأصنام والأوثان والجان . بل كل ذلك قبيح، ولـكن عبادة التماثيل والصور والأموات الغابرين أقبح . وليس الذين عبـدوا الملائـكة بأضل ولا أجهل من هؤلاء العاكفين على القبور الطائفين بها ، المنقطعين إليها ، الداعين لها ، الهاتفين بها . فإنه إذا كانت عبادة الملائـكة باطلة كانت عبادة الموتى أبطل

و إذا كان الداعى للملائكة المستغيث بهم ضالاً كان داعى أهل القبور المستغيث بهم أضل وأجهل ، و إذا كان السجود للملائكة شركاً بالله — كما يبدو من كلامه هنا — فلا ريب أن سؤالهم غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وكل ما يسأل الله من عظيم المطالب والحاجات — وهذا كله جائز عند المخالف — أعظم إشراكاً بالله . و إذا لم يكن السجود للملائكة ، وسؤالهم كل ما يسأل الله ، من أعظم الأشياء إلى أحقرها، عبادة لهم وشركاً بالله العظيم ، فماذا يمكن أن تكون عبادتهم؟ وماذا يمكن أن يكون الشرك بالله ؟

دعاء الملائكة والسجود لهم

وقد زعم الرافضى فى غير موضع من كتابه أنه تجوز الاستغاثة بالملائكة ، وسؤالهم ضروب الحاجات ، صغيراتها وكبيراتها ، والاستشفاع بهم والدعاء والنداء لهم كما زعم أن الله قد استعملهم فى تصريف الكون وتدبيره والقيام عليه و به وعلى سائر شؤونه التكوينية ، فالملائكة عنده يستغاثون و يدعون و ينادون ، و يهتف بأسمائهم عند الشدائد واللزبات ، و يضرع إليهم حين الرهبة والرغبة ، و يقدرون بأمر الله على ذلك كله . . . فمن زعم أن الملائكة قادرون على إغاثته، وعلى إعانته ، وعلى نفعه وضره ، وعلى إحيائه و إماتته ، وعلى إغنائه و إفقاره .. ثم بعد ذلك عكف على دعائهم ونداثهم وسؤالهم حاجاته ومطالبه الصغيرة والكبيرة صارخا ضارعاً — : فهو مؤمن حقا ، لم يزعم باطلا ، ولم يقل منكرا ، ولم يذهب إلى ما ينكره الدين أو يأباه التوحيد ، أو ينفيه النظر والعقل . و إذا كان هذا كله لدى المخالف من الاسلام الصحيح الذى جاء به محمد من لدن ربه ، فماذا يكون الاشراك بالله ، وماذا تكون عبادة الملائكة والمخلوقين ؟ ؟ أهو يحسب أن ذلك هو الاعتقاد بأنهم خالقو الوجود والعالم كله ؟ إن المشركين أنفسهم كانوا مقرين لله بأنه خالق كل شىء ، قائم على كل شىء فى الأرض أو فى السماء كما قدمنا الدلائل عليه من شهادات القرآن والسنة وكلام العلماء وأقوال المشركين أنفسهم.

على أن هذا أيضا ليس كفرا ولا شركا لدى الرافضة. فإننا قد قدمنا أنهم يعتقدون بأن النبي عليه الصلاة والسلام هو الخالق الموجد للعالم ، وهم مع ذلك يدعونه لكل شيء ويسألونه كل شيء ويطلبون منه كل ما يطلبون من الله ، وهم بعد ذلك لا يرون أنهم أشركوا ولا كفروا ولا ذهبوا إلى باطل . إذن هم لا يعتقدون أن دعاء المخلوق وسؤاله كل شيء مع اعتقاد أنه خالق كل شيء كفر ولا شرك ولاضلال . أم هو يحسب أن عبادة الملائكة وإشراكهم بالله هي السجود لهم فقط ؟ لاريب أن العبادة ليست هي السجود خاصة ، ولا ريب أن الاشراك بالله ليس هو السجود للمخلوق خاصة . ثم لاريب أن سؤال المخلوق كل ما يسأل الله من ضروب الحاج مع الخضوع والخشوع وألوان الضراعات أدخل في فنون الشرك بالله من السجود المجرد لغير الله . ثم لاريب أن المخالف لايستطيع أن يورد دليلا واحدا يدل دلالة صادقة ظاهرة على أن المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة كانوا يسجدون لهم . ثم لا ريب أن من زعم أن من الاسلام ودين الله الحق الاستغاثة بالملائكة وسؤالهم الحاجات والدعاء والنداء لهم ، فقد زعم ماترده الضرورة وماينفيه الاجماع ، وما يكذبه الدين جملة وتفصيلا بروحه ونصوصه ، ثم لاريب أن من زعم هذا قاضاه هذا الزعم أن يزعم أيضا أن من الاسلام والدين الصحيح الاستغاثة والاستعانة بالجان وبما خلق الله في الجنان ، من الحور والولدان ، وبكل ماخلقه تعالى ممن له بعض القدرة والقوة ، ومن بلغت به شبهاته وحججه أن يجوز الاستغاثة بالملائكة والجان وأهل السماء والأرض وأهل الجنة ، وسؤالهم كل مايسأل الله من غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، والتقريب إلى الجنة ، وإلى رضا الله ، والابعاد من النار ومن كل مايسخط الله — كما يزعم هذا الرافضي — فقد بلغ حالة يعسر معها العلاج ويذهب الدواء معها باطلا . فان من أعظم ضرورات الاسلام عند المسلمين بطلان القول بدعوة

دعاء الجن وأهل الجنة

الملائكة والجان والاستغاثة بهم ، ومن أعظم الضرورات عندهم أن الاستغاثة بهم هي عين الشرك بالله الذى أحل به على المشركين عذابه وعقابه . وقد حكى تعالى فى كتابه أن قوماً من العرب كانوا يعبدون الجن ، وأنه كان من عبادتهم إياهم ، أو أن عبادتهم إياهم كانت هى العوذ بهم . فقال تعالى : « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقد ذكروا فى تفسير الآية أن الرجل كان إذا هبط واديا مرهوبا قال عند ذلك . « أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه » يطلب إلى زعيم الجان أن يحجز شرار الجن عن أذاه ومسه بسوء ، فكان ذلك نفس الاشراك بالله . ولاشك أن الاستغاثة بالجن وسؤالهم ضروب المطالب والحاجات أبلغ فى الضلال من الاستعاذة بسيد الجن من شر سفهائهم . وقد قال تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولاتحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا » قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كان نفر من الانس يعبدون نفرا من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك هؤلاء بعبادتهم ، فأنزل الله الآية . وظاهر من الآية الكريمة أن عبادتهم إياهم كانت بدعائهم وندائهم كما كانوا يقولون حين هبوط الأودية المخيفة : « أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه » . وهذا ظاهر من ظاهر الآية ، فان قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه » دليل ظاهر على أن الأمر الذى أنكره الله عليهم هو دعاؤهم إياهم حاسبين أنهم يجيبونهم ويهبونهم مايسألونهم إياه ، أو يدعون الله لهم فيجيب ، ولهذا عجزهم وأبطل دعوتهم ودعواهم بقوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه » فليجيبوكم إلى ماتدعونهم إليه من الخير إن كنتم صادقين ، ولكن هيهات لما ترجون وتطلبون ، فان من تدعون عاجزون « فلا يملكون كشف الضر عنكم » كما لا يملكون

تحويله إلى سواكم ، فما أضلكم إذن ، وما أضل من يدعو من دون الله من لا ينفعه ولا يضره ولا يستجيب له إلى يوم القيامة « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » . ثم قوله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » الآية ، دليل آخر على أنهم كانوا يدعونهم يبتغون منهم أن يقربوهم إلى الله وأن يكونوا لهم وسيلة لديه تعالى لنيل رحمته والنجاة من عذابه ، فرد الله عليهم ذلك بأن الذين يدعونهم هم يدعون الله ويطلبون الوسيلة التي هي القرب منه ، وهم يرجون رحمته ويخافون عذابه : فهم يطلبون ماتطلبون ، ويرجون من الله ماترجون ، ويخافون ماتخافون . ومن ذا يطلب الري من صديان هو يطلب الري لنفسه ، أو من ذا يطلب الغنى من فقير هو يطلب ذاك الذي يطلب منه ؟ وهل تطلب من مقعد أن يعرج بك إلى عـلالي السموات وأعالي الملكوت ؟ فما أجهل الانسان ، وما أضعف الطالب والمطلوب ، والعابد والمعبود !

فلا ريب عندنا أن دعاء الملائكة والجان والاستغاثة بهم والانقطاع إليهم عبادة لهم صريحة ، وشرك بالله صريح ، كما لاريب عندنا أن الاستغاثة والاستعانة بالاموات شر من ذلك وأدخل منه في معاني الاشراك وفنون الضلال فهذا الفرق فرق باطل .

زعم المشركين أن الملائكة بنات الله غير عبادتهم

أما زعم المشركين أن الملائكة بنات الله فهذه مسألة أخرى غير الاشراك بهم ، وغير عبادتهم . فان الاعتقاد بانهم بنات الله ليس عبادة لهم ، فان العبادة شيء آخر غير ذلك . ولهذا فان من اعتقد بان الله هو رب العالمين ورب السموات والأرضين ثم لم يزد على هذا الاعتقاد فليس عابداً لله بلا ريب . وهـذا مثل الشيطان ، ومثل كثيرين من الكفار ، فانهم يؤمنون بالله وبأنه مصدر كل خير في هذا العالم ، وخالق جميع الموجودات ، ولكنهم لايعبدونه تعالى ، وليسوا

بذلك الاعتقاد المجرد بعابدين لله بلا نزاع .

والشئ الذى نقوله هنا ونذهب إليه هو أنه لافرق بين المشركين العاكفين على الاصنام ،و بين المسلمين العاكفين على القبور ، الطائفين بالأعتاب والأبواب من ناحية الإشراك بالله وعبادة العبيد . فالجميع اشركوا بالله وعبدوا سواه ولسنا نزعم أو نقول : إن الفريقين سواء فى جميع الاعتقادات ، كما لايزعم أحد أن المشركين لم يكونوا مشركين إلا بأن جمعوا بين جميع اعتقاداتهم وأعمالهم الباطلة الضالة . ولايختلف الناس أن قوماً كانوا يعبدون الملائكة و يشركونهم فى عبادة الله ولو لم يزعموا أنهم بنات الله . فعابد الملائكة مشرك بالله سواء اعتقد أنهم بنات الله أم لم يعتقد ذلك بل اعتقد أنهم مخلوقون مربوبون لرب العالمين ورب كل شئ .

إبطال الفرق الخامس

وأما الفرق الخامس ، وهو أن المشركين كانوا مكذبين للرسول والمسلمون مصدقون له ، فالجواب أن نقول : نحن لا ندعى التسوية بين الفريقين من كل وجه ، ولكن ندعى أن هؤلاء وهؤلاء عبدوا غير الله ، فالفريقان مشركان بالله عابدان للمخلوق ، فلا فرق بينهما من هذا الوجه ، وجه الاشراك به تعالى وعبادة غيره . . . وتكذيب الرسول عليه السلام ، وكذلك تصديقه ، غير الأشراك ، فهو مستقل عنه فقد يكون المصدق للرسول مشركا ، كما قد يكون المكذب له كذلك ، وقد يكون المكذب للرسول غير مشرك بل كافرا فقط ، والكافر غير المشرك ، كما يكون المصدق أيضاً . فلو أن يهوديا أو نصرانيا أو غيرهما انكف عن الشرك فعبد الله وحده ولم يصدق خاتم الأنبياء لكان كافرا غير مشرك ، لأن الشرك هو عبادة غير الله مع الله . ولو أن المشركين صدقوا الرسول وآمنوا بنبوته و بكتاب الله غير أنهم ظلوا على أصنامهم عاكفين ، لما كانوا مسلمين ولا ناجين ، بل لكانوا مشركين بعد هذا الإيمان والتصديق كما كانوا كذلك قبله .

المشرمشرك و إن آمن بالله و بأنبيائه

إذن فتصديق الرسول ليس معناه الخلاص من الشرك يقينا . ولهذا فان اليهود والنصارى مصدقون بنبوة أنبيائهم ، مؤمنون بهم ، ولكنهم مع ذلك مشركون عابدون للصنم ، وكذلك كان العرب مصدقين بنبوة إبراهيم وغيره من النبيين ، وكانوا مع هذا التصديق وهذا الايمان مشركين عابدين للأوثان هالكين بلا ريب . وإذا لم يكن التصديق بالله وبأنه خالق السماء والأرض ، وخالق كل شئ ، أمانا ولا ضمانا من الشرك والكفر ، فكيف يكون التصديق بالنبي عليه السلام أمانا وضمانا من ذلك ؟ هذا مالا يكون ، وهذا مالا يصح . فالمؤمن بالله وبجميع أنبيائه وكتبه قد يكون مشركا كافرا ، والمسلم المؤمن بمحمد وبكتاب الله قد يقع فى الاشراك وفى عبادة المخلوق من حيث لا يدرى ولا يريد ، كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق ، إذ حدث فى غير ماحديث بأن طوائف من أمته صائرون إلى الشرك وعبادة الأوثان والأصنام . فهذا الوجه لاطائل تحته .

الفريقان مشتركان فى صفة التكذيب

على أننا نقول : إن الفريقين أيضا مشتركون فى صفة التكذيب : تكذيب الرسول وتكذيب الحق ، وإن لم يقصدا معاً التكذيب . فإن هؤلاء العاكفين على القبور ، المنقطعين إلى الموتى مكذبون للرسول عليه السلام . وذلك أن الدين الذى جاء به من عند ربه كله نهى عن هذا البلاء الذى صاروا إليه واتخذوه دينا يتقربون به إلى الله ، ولكنهم لم يعبأوا بهذا النهى ، ولم يبالوه . فوضعوا كل نص عن الله وعن رسوله فى ذلك دبر آذانهم ، ووراء أهوائهم ، ولم يزدادوا بإيراد الدلائل والحجج إلا جماحا عنها، وفراراً منها ، وإصراراً على ما وجدوا عليه الآباء والأشياخ . . . فكذبوا الرسول من حيث لا يشعرون ، كما كذبه المشركون ، إلا أن الفرق بينهما أن هؤلاء لم يريدوا التكذيب ولا رد ماجاءهم به قصداً وتعمدا ، وأن أولئك أرادوا ذلك وتعمدوه . فالفريقان شركاء فى رد الحق ورد ما جاء به النبى ، وإن اختلفا نية وقصداً . على أنهما قد يشتركان فى أنهما

معاً لم يريدا رد الحق صراحة وهما يعلمان أنه حق ، ولكنهما جهلا أن الحق حق فكذبوه وردوه حاسبيه باطلاً . هذا قد يقال ، ثم قد يكون صحيحاً .

إبطال الفرق السادس

وأما الفرق السادس ، وهو أن المشركين اعتقدوا فى أحجار وأشجار أنها تنفع وتضر ، فتشفعوا بها واستغاثوها وعظموها ، وأن المسلمين إنما اعتقدوا فى الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويضرون بترك ذلك ، وهذا فرق ـ فالجواب أن يقال : قد قدمنا أن المشركين فى الواقع إنما دعوا واستغاثوا المقربين من عباد الله ، من الأنبياء والصالحين ، وقد قدمنا أنهم وجهوا عبادتهم ودعاءهم واستشفاعهم إلى صور الصالحين وتماثيلهم وآثارهم ، وهم لا يريدون سوى الصالحين أنفسهم ، كما فعل عبدة القبور ، فإنهم توجهوا بعبادتهم واستشفاعهم ودعائهم وسائر ضروب عباداتهم إلى القبور وإلى الأجداث والبنايات والزخارف المشيدة على رمم الصالحين والفاسقين أيضا . ولهذا فإنهم قد توجهوا إلى الأبواب والأحجار والأشجار للابسة زعموها بينها وبين بعض الصالحين ، ومن قد يكونون غير صالحين . وهذا مثل ما فعلوا لدى باب المتولى . فانه باب زعموا أن له اختصاصا وعلاقة بالمتولى كما سموا الباب به . والمتولى عندهم عبارة عن ولى عظيم وهبه الله التصرف فى جانب عظيم من الكون . وقد زعموا أن هذا المتولى يعطى من سأله واستغاثه ودعاه وضرع إليه لدى هذا الباب ، فتزاحموا على الباب يدعون ويستغيثون ويستشفعون ويشكون أصناف الشكايات ، ويطلبون أنواع الرغيبات ، ويربطون به الحبال والخرق والخيوط ، تعبيراً عن ارتباطهم وارتباط آمالهم وحاجاتهم بهذا المتولى . . . فأصبح هذا الباب معبدا من معابدهم ، وصنما من أصنامهم ، إن لم يكن شرا من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ومن هبل وأساف ونائلة ، فليس خيراً منها .

الفريقان قد عبدا الجماد

عبادة العمد

ومثل هذا مافعلوه لدى ماسموه عمود البدوي . وهو عمود منصوب فى الجامع

المنسوب للسيد الحسين فى القاهرة . زعموا أن البدوى قد جاء به من بلد سحيق مجهول فنصبه فى ذاك المكان ، أو نصبوه هم ، لسر عظيم خص به . فهم لذلك يطوفون به ويتمسحون ويقبلون ويرهبون ويرغبون ، ويسألون البدوى متوجهين إلى عموده جميع حاجاتهم ومآربهم . وهم يعلمون أن ضريح البدوى الكائن لرفاته فى بلد آخر قصى .

عبادة البهائم

وشر من هذا كله ما صنعوه من التوسلات والضراعات والطواف والدوران لدى بنايات زعموا أنها منصوبة على بعض بهائم بعض الأولياء والوليات ، كمقام حمار السيدة وغيره فى مصر . ومثل هذا مازعموه من مقامات « الأربعينات » ومثله الحجر المنصوب فى مصر القديمة الذى زعموا أن النبى عليه السلام قد وطئه بقدمه الشريفة فأثرت فيه . وهم يطوفون بهذا الحجر ويتبركون ويعتقدون عقائد المشركين الهالكين .

عبادة الشجيرات والمغارات

ولنظير هذا الذى ذكرناه شجيرات ومغارات يحج إليها المغفلون من المسلمين يقضون لديها أتفاتهم ، ويعلقون بها حاجاتهم ، وينثرون حولها شكاياتهم ، لأنهم خالوا أنها مهبط لأسرار بعض الأولياء . وهذه الشجيرات والمغارات كثيرة معروفة فى مصر ، من بقايا مخلفات الشيعة الفاطميين ، لا طيب الله ذكراهم .

مارى جرجس

وأشنع وأفظع من هذا الذى قدمناه اعتقادات القوم فى هياكل رفعت على بهائم زعمت أولياء متصرفين وعلى رمم قوم كافرين ، وفى مصر ضريح مشيد يسمى « مارى جرجس » وتسمى البلدة التى هو فيها هذا الاسم . يحج إليه المسلمون والمسيحيون معا ، ويعتقد فيه الفريقان عقائد الكافرين . واسم هذا الهالك يدل على أنه غير مسلم . وكذلك يوجد فى شبرا مصر كنيسة فيها امرأة نصرانية يعتقد فيها المسلمون كاعتقادهم فى الصالحين ، يحجون إليها ويتبركون بها . وهذا أفق لا حد لأبعاده .

إذن فهؤلاء المسلمون وأولئك المشركون كلاهما قد اعتقد فى أحجار وأشجار أنها تنفع وتضر ؛ وكلاهما قد عظمها ودعاها واستغاثها ؛ وكلاهما لا يريد بما فعل أصالة وقصداً إلا التوجه إلى الصالحين والارتباط بهم والاستشفاع . فالمتوجه إليه فى الظاهر لدى الفريقين هو الجماد ، والمقصود فى الواقع لدى الفريقين هم عباد الله الممتازون الذين لهم لدى الله ماليس لغيرهم من الجاه والمكانة والمكان . وما توجه العربى المشرك إلى الصنم لأنه جماد فحسب . ولا توجه المسلم الجاهل إلى القبر المكذوب أو إلى الباب أو الشجر والحجر لأنه جماد فقط . بل هذا وذاك توجها إلى حى ناطق قادر ممتاز زعما أن له بالله صلة خاصة ، ومكانة ممتازة ، وجاها نافذا ، وقربا قريبا . فالغاية واحدة وإن اختلفت الوسائل ، والغرض متحد وإن تعددت المظاهر . فلا فرق بين الفريقين .

المعبود فى الظاهر الجماد والمقصود الاحياء

وأما الفرق السابع ، وهو أن المشركين قد عظموا ما لا يستحق التعظيم وإن كان صورة صالح ، وأنهم طافوا وتبركوا بما لم يجعل الله فيه بركة ، وأن المسلمين فعلوا ذلك بمن أمر الله بتعظيمه من الأنبياء والصالحين وقبورهم .

إبطال الفرق السابع

فالجواب أن نقول : إن الفريقين كليهما قد عظم مالا يستحق التعظيم ، وتبرك بمالا بركة فيه : فالمسلمون الجاهلون قد عظموا الأبواب والأعتاب والاشجار والغيران والعمد ، وتبركوا بها وطافوا ، والمشركون فعلوا ذلك بالتماثيل تماثيل الصالحين وصورهم وآثارهم . وهذا كله لا يستحق التعظيم ، وهذا كله لا بركة فيه .

كلاهما قد عظم غير عظيم

وأى مسلم أو عاقل يستطيع أن يزعم أن الله أمر بتعظيم باب المتولى وعمود البدوى ، وتعظيم قبور الفسقة والكافرين ، وقبور البهائم ، أو يزعم أن الله جعل فى ذلك بركة ، وهذا كله قد عظمه المسلمون الجاهلون ، وتبركوا وطافوا به ؟ ؟ وأى فرق بين هذا وبين التماثيل والصور والأصنام والأوثان ، لو أن القوم كانوا يعقلون ؟

وإذا زعم الشيعى أن صورة الصالح والنبى لاتستحق التعظيم ، وزعم أنه لا بركة فيها ، فكيف يزعم أن الأجداث والأبواب والأحجار والأشجار تستحق ذلك ، أو يزعم أن فيها بركة وسرا ، وأنها تستحق أن يطاف بها وأن تحج ؟ إن كان ذلك عنده لأجل نسبتها إلى الصالحين وإضافتها إليهم ، فصورة الصالح وتمثال النبى أو الملك منسوبان ومضافان إليهما . فالحقيقة واحدة ، كما أن العلاقة واحدة أيضا . ولن يخالف هذا الشيعى ، مهما أكثر الخلاف ، فى أن طوائف من المسلمين عظموا قبور قوم لايستحقون التعظيم أنفسهم ، وأنهم قد اعتقدوا فى هذه القبور البركة ، والله لم يجعل فى أصحابها أنفسهم بركة . ولن يخالف فى أنهم قد عظموا أحجارا وأبوابا وطافوا بها وتبركوا ، وهى لاعلاقة لها بعبد من عباد الله الصالحين ، وأنها لذلك لاتستحق التعظيم ، ولايصح الطواف بها ، ولااعتقاد البركة فيها . والشيعة يكفرون أهل السنة كافة ، والمتهاونون منهم المعتدلون يفسقونهم ويضللونهم . وهم لذلك لايعتقدون أن فيهم بركة ، ولا أنهم يستحقون التعظيم ، لأنهم عندهم كفار أو فساق ظلمة . ومن لايستحق التعظيم ومن لابركة فيه نفسه ، لن يستحق قبره ومالابسه ذلك . ولكن الجهال من أهل السنة يعظمون قبور هؤلاء الكفار والفاسقين من أهل السنة ، ويطوفون بها ، ويتبركون . فهم بلا شك ولا ريب قد عظموا مالا يستحق التعظيم ، واعتقدوا البركة فى مالا بركة فيه ، وطافوا بمالا يصح الطواف به . وهذا لاشك فيه لدى الشيعة وهو لازم لمذهبهم لزوما لاخلاص منه . فهؤلاء لديهم مثل المشركين قد عظموا مالايستحق التعظيم وطلبوا البركة ممن لا بركة فيهم

الاعتقاد فى المجاذيب

وكثيرون من هؤلاء المسلمين الجهلاء قد اعتقدوا فى هؤلاء الجهلاء المجاذيب العراة الأقذار الأرجاس الانجاس ، الذين لايفعلون مأموراً به ، ولا ينتهون عن منهى عنه : فلا يأتون طاعة ولاينزعون عن معصية : اعتقدوا فيهم بأنهم من

كبار الأولياء المقربين المطلعين على الغيوب وعلى اللوح المحفوظ ، المتحكمين فى الله وفى أقداره وعباده ، القائلين للشئ كن فيكون . . . فعظموهم لذلك أجل التعظيم ، وحملوا عليهم حاجاتهم ورغباتهم ، وأفضوا إليهم بذوات صدورهم ، ودخائل أنفسهم ، وسألوهم التحكم فى مصايرهم ، والقضاء لهم بمايشاؤن ، وقاموا لهم بما يلزم ذلك من الطواف والتمسح واللثم لأيديهم وأثوابهم القذرة والانقطاع إليهم ، والرغبة فيهم ، والرهبة منهم . . . فلما أن هلكوا وصاروا إلى عذاب الله ، وإلى حسابه العسير ، شادوا قبورهم ، فعكف عليها القريب ، وحج إليها البعيد ، وقدموا إليها ما قدموا من النذور والقرابين ،وطافوا وتمسحوا وعظموا وفعلوا كل منكر . ولن يقول هذا الشيعى : إن هؤلاء المجاذيب المهابيل يستحقون شيئاً من ذلك ؛ ولا إن قبورهم تستحق شيئاً من التعظيم ، ولا إن فيهم أو فيها شيئاً من البركة والاسرار

ولاريب أن صور الأنبياء والصالحين أولى بالتعظيم والاجلال والانقطاع من هؤلاء المجاذيب ومن قبورهم وآثارهم . وهذا لاينازع فيه مسلم ، ولاعاقل غير مسلم . والمخالف معترف بأنه قد كان من عبادة المشركين المخلوق ، ومن ضلالهم الباطل ، تعظيم صور الصالحين ، لأنه زعم أن الصورة لاتستحق التعظيم ولا الاحترام . وإذا كانت صور الأنبياء لاتستحق التعظيم ، وكان تعظيمها من شرك المشركين وجهل الجاهلين ، أفيمكن أن يكون تعظيم هؤلاء العاكفين على الآثام من الايمان والاسلام ، أو يمكن ألا يكون ذلك من الخزى البين ، والضلال الاهوج الأحمق ؟ لسنا نشك أن الاحجار والاشجار الصماء البكماء أولى بالتعظيم والاحترام من هؤلاء العصاة الأولياء ، ولسنا نشك أن معظّم الجماد المجرد أعقل وأرشد من معظّم هؤلاء الاشقياء

إبطال الفرق الثامن

وأما الفرق الثامن و.. أن المشركين اعتقدوا أن لأصنامهم شرفا ذاتيا

واستحقاقا للعبادة بالاستقلال ، وأن لهم اختياراً وتدبيرا ، وأنهم لم يقفوا عند ذلك ، بل بدلوا دين الله وغيروا أحكامه ، وأما المسلمون فانهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً ـ فالجواب أن يقال: إن جهلاء المسلمين اعتقدوا فى أوليائهم ومشايخهم جميع ما اعتقده المشركون فى أصنامهم وأوثانهم . أما أن المشركين قد اعتقدوا أن لأصنامهم شرفا ذاتيا ، فهذا يحتمل أمرين : أحدهما أن يريد أنهم اعتقدوا أن الله شرفهم وميزهم واختارهم على غيرهم ، وقسم لهم من الشرف والعظمة مالم يقسم للآخرين . وثانيهما أن يريد أنهم اعتقدوا بأن لهم شرفا قديما واجب الوجود ، لم يخلقه الله ولا ينزعه عنهم إذا شاء ، بل هو شرف واجب للذات الواجبة الوجود ، التى وجودها من ذاتها لامن خالقها وخالق كل شئ . . . فان كان يريد المعنى الأول ، قيل له : إن المسلمين أيضا قد اعتقدوا ذلك فى أوليائهم ومشايخهم ، وهذا هو أصل الدعوى . وإن كان يريد الثانى قيل له : هذا كذب صريح ، فان المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق أصنامهم وخالق مالها من الشرف والاختصاص والجاه ، كما أنه خالقهم هم وخالق كل شئ . وقد تقدمت بعض الدلائل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال السلف . والقرآن الكريم ملآن باعترافات القوم لله بهذا . فهو لانزاع فيه بين أهل العلم والمعرفة . وأما أنهم اعتقدوا أن الاصنام تستحق العبادة بالاستقلال ، فهذا كذب أيضا ، فانهم ماعبدوها إلا على قصد أن تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده ، كما حكى الله عنهم ذلك وكما حكاه أهل العلم ، وكما دلت عليه أقوالهم الصحيحة . قال الله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ . » وقال « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ

لافرق بين الفريقين

نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ » وقالوا فى عبادتهم الملائكة « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » ومن ذلك حديث تلبيتهم المشهور . فالمشركون لم يزعموا أن الأصنام تستحق العبادة بالاستقلال ، بل عبدوها لتشفع لهم عند الله ، ولتقربهم لديه ، لأنه هو وحده غايتهم ، أما الاصنام وكل موجود غير الله فوسائل . وهذا هو مازعمه هؤلاء الجاهلون فى أوليائهم حذو القذة بالقذة .

وأما إن كان يريد باستحقاق الأصنام للعبادة بالاستقلال أنها تعبد وحدها دون الله ، وأنه لا يصح أن يعبد تعالى معها ، وأنهم فعلوا ذلك حقا ، فهذا هو الباطل عينه والكذب نفسه . فإن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرى. وهذا هو معنى تسميتهم «مشركين». وقد قال تعالى : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . » وقال : « وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » وقال : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه» إلى آخر الآيات والدلائل فى هذا المعنى .

فماذا يريد ؟

وأما أنهم اعتقدوا أن لها اختيارا وتدبيراً ، فهذا الاختيار وهذا التدبير إما أن يريد أنهما غالبان لاختيار الله وتدبيره وإذنه ومشيئته ، كائنان قسرا عليه تعالى . وإما أن يريد أن الله هو الذى جعل لها هذا الاختيار وهذا التدبير . فإن كان يريد الأول فهو باطل بالدلائل السابقة الناصة على أنهم كانوا يعتقدون أن الله خالق الأصنام والأوثان وكل شئ ، وأنه هو المسيطر المهيمن على هذا الكون كله ، عابديه ومعبوديه ، وأنه مالك الأصنام وما تملك . متصرف فيها وفى عابديها تصرفا غير محدود . وأما إن كان يريد المعنى الثانى فهذا هو مايعتقده المسلمون الجاهلون فى الأموات ، فلا فرق بين أولئك وهؤلاء .

من إيمان المشركين بالله

وللعرب المشركين كلمات قالوها فى الله وفى أصنامهم ، لا تدع للشك مكانا فى أنهم كانوا يعتقدون فى الله أفضل مما يعتقده كثيرون من هؤلاء الجاهلين ،

ويعتقدون فى أصنامهم دون ما يعتقده هؤلاء فى أوليائهم وأشياخهم . فقد حفظ من قول أولئك المشركين « ألا كل شئ ما خلا الله باطل » وقولهم « وليس وراء الله للمرء مذهب » وقولهم « بيده الخيرات ما شاء فعل » وقولهم « أين المفر والإله الطالب » وقولهم

من يسأل الناس يحرموه * وسائل الله لا يخيب

إلى غير ذلك من الأقوال المأثورة الدالة على إيمانهم بالله وبأنه الآخذ بكل ناصية . وقال بعضهم فى أحد أصنامهم ، ويقال له ذو الخلصة:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا * مثلى وكان شيخك المقبورا

* لم تنه عن قتل العداة زورا *

وكان هذا القائل قد قتل أبوه فجاء الصنم فاستقسم عنده بالأزلام فجاءت النتيجة نهيا . وقال آخر فى صنم آخر يقال له : « سعد » :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا * فشتتنا سعد ، فما نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة فى تنوفة * من الأرض،لايدعولخير ولايهدى

وكان هذا القائل قد جاء إلى هذا الصنم بإبل له فنفرت منه وذهبت فى كل وجه ، فغضب وتناول حجرا ورماه به وقال له : « لا بارك الله فيك إلها! نفرت على إبلى ! » . وقوله هذا يدل على أنه كان قاراً فى أذهان القوم على أن الذى يبارك فى الأصنام وفى غيرها هو ربها وربهم ورب كل شئ ، وأنه هو الذى يسلبها البركة والخير المزعوم متى شاء — إلى غير ذلك مما يدل على أن عقيدتهم فى الأصنام المعبودة لم تكن تزيد ، إن لم تكن تنقص ، عن عقيدة هؤلاء فى موتاهم ومشايخهم .

بدل دين الله — وأما قوله : « إن المشركين بدلوا دين الله وغيروا أحكامه » فالجواب أن نقول : ونحن لا نشك أيضا فى أن عبدة القبور فعلوا ذلك بدين الله بأبشع

الصور وأنباها عن الذوق والعقل والدين . وهذا هو أصل الدعوى ومثارها، وهذا هو أصل الخلاف والنزاع ، وهذا هو ماوضعنا له كتابنا هذا ، وماوضع له أهل العلم كتبهم المؤلفة فى هذه الأصول ، وهـذا هو ما دلت عليه النصوص المتواترة القائلة : بأن طوائف من المسلمين ، ولا محالة ، سوف يصـيرون مصاير الذين كانوا قبلهـم من الأمم الهالـكة تحت هيا كل الشرك والوثنية الهوجاء .

هـذا هو الرد التفصيلى عـلى الفروق التى ذكرها وزعمها بين العاكفين عـلى الأصنام ، والعاكفين على القبور والأجـداث .

الجواب الاجمالى

وأما الرد الإجمالى فنقول له : هب هؤلاء المسلمين الجاهلين لم يفعلوا جميع ما فعله المشركون الأولون من عبدة الأصنام والأوثان ، فهل يدل هذا على أن المسلمين العاكفين على القبور لم يقعوا فى الاشراك ، أو لم يقع منهم نوع من أنواع الاشراك ؟ كلا ، فان هذا لا يمكن زعمه ولا قوله حتى يمكن الزعم والقول بأن أولئك المشركين لم يكونوا مشركين ولا ضالين إلا لأنهـم عملوا جميع ماعملوه من الأعمال التى أنكرها الاسلام، أما لو نقصوا شيئا من أعمالهم فانهم لا يكونون حينئذ مشركين ولا ضالين . ولـكن هذا لا يمكن أن يزعمه ولا أن يقوله مسلم ولا عاقل غير مسلم، وذلك أن المشركين كان لديهم أنواع كثيرة من أنواع الشرك، وكان كل نوع كافيا للقضاء عليهم بالشرك والهلاك والضلال ، وإذن لن ينفع المخالف أن يجد فرقاً بين أولئك وهؤلاء ، ولن يجديه فى قضيته أن يجد هؤلاء الطائفين بالقبور لم يعملوا كل ما عمله المشركون الأولون ، ولم يعتقدوا جميع ما اعتقدوه .

من أسباب الشرك

﴿ كيف ، ولمـاذا عبد المخلوق ؟ ﴾

يجمل بنا هنا أن نذكر السبب الذى حمل المخلوق على أن يعبد المخلوق العاجز مثله . وذلك أن عبادة المخلوق للمخلوق من الأمور الغريبـة المدهشة التى قد لا يستطيع الـكثيرون تأويلها وفهمها . وهـذا لأن من الأشياء الضرورية

البدهية أن إنسانا قسم له من العقل ما صح به تكليفه لا يمكن أن يمد إلى مخلوق مثله مساو له فى البداية والنهاية والصورة، وفى الولادة وقبول الفناء والهلاك والانصهار بالأعراض البشرية الخلقية، فيعبده ويدين له بالالوهية والعبودية .
ولهذا يقوم هذا السؤال : لماذا إذن عبد الانسان الإنسان، وما هو دون الانسان من الحيوان والجماد، ومن الأحجار والأشجار ؟ وكيف أمكن أن يصنع التماثيل والصور بيديه ثم يعبدها، وهو يعلم بالضرورة أنه يستطيع نقضها وتحطيمها متى شاء، ويعلم بالضرورة أيضاً أنها جماد جامد لا تدفع عن نفسها من أراد السوء بها، ولا تسوق الخير إلى من رغب فيها وأمله منها، بل وهو يعلم أنه أقدر وأشرف منها ؟ هذا هو السؤال الذى يعسر فهمه وجوابه على الكثيرين، وغاية ما يمكن أن يقوله من لم يفهم الحقيقة : إن عبدة المخلوق، وعبدة الأصنام والأوثان، قوم لا يعقلون، فلا يقال : كيف فعلوا، ولا كيف تركوا، ولا كيف عبدوا ما صنعوا بأيديهم من الأحجار والأشجار والصور والتماثيل والبنايات . . . ولكن هذا جواب، ولا شك، ساذج باطل، لا يصح الاطمئنان إليه ولا التشبث به. وهذا لأن عبدة الاصنام والمخلوقين لم يبلغوا من الجنون والعته وضعف العقل مبلغاً يسقط معه تعليل أفعالهم وأعمالهم بحيث لا يقال : كيف فعلوا ذاك، ولا كيف تركوه، لأنهم لو كانوا كذلك لسقطت عنهم أعباء التكاليف، ولما كانوا مخاطبين ولا محاسبين . ولكن كلا، فان للقوم أفهاماً وعقولا وكيدا ومكرا عظيما، ودهاء مرا، وذكاء صاماً، مغرورا جبارا . . . ومما يبين ضعف هذا الجواب، بل بطلانه فى تعليل عبادة الانسان الأصنام، أننا لم نجد أحداً من هؤلاء المعاصرين الجهلاء عمد إلى عبادة جماد مجرد لا صلة له بغير المخلوقين، وإنما عبدوا مخلوقا زعموا أن له بالخالق صلة خاصة قوية لولاها ما التفتوا إليه ولا بالوه .
فلم نجد أحداً من هؤلاء الجاهلين الأغبياء عمد إلى عبادة شجرة مجردة، ولا عبادة

حجر مجرد من المعانى والأسرار الالهية التى يزعمونها لبعض الجماد لصلة زعموها لذلك الجماد . ولو أنك طلبت إلى أغبى هؤلاء الأغبياء أن يعبد حجراً ، لا يزيد فى أمره الظاهر والباطن عن كونه حجراً ، وطلبت إليه أن يطوف وأن يتبرك به، لما أجابك إلى ذلك أبدا حتى تروح تزعم أن هـذا الحجر أو تلك الشجرة مثلا تنطوى عـلى مخلوق له بالله رب العالمين صلة كبيرة متينة ، وله لديه جاه عظيم كبير . هذا ونحن نعلم ، ولا نشك ، أن هؤلاء الدوام أجهل وأغبى من كثيرين عبدوا الأصنام والأوثان ، ورفعوا إليها أفضل أنواع العبادة الخالصة . وهـذا لأنه باطل بالضرورة ، كما قلنا ، أن يعبد إنسان له عقل يصح به تكليفه مخلوقا يعلم أنه مثله مخلوق لا أكثر ولا أقل .

هذا كله صحيح لدينا ولدى جميع الباحثين، فكيف إذن عبد الانسان الانسان وماهو دون الانسـان كالجماد والحيوان ؟ والجواب أن نقول : إن غاية كل مخلوق متأله متدين، والانسان كما قيل فى إحدى تعاريفه « حيوان متديّن بالطبع » أن يتصل بأكبر قوة ، وأن يرضى عنه أعظم ضرار ونفاع فى هـذا الوجود المتلاطم بالأضرار والمنافع ، المتهالك تحت نواميس القوة والضعف ، والقوى والضعيف . وقد علم هذا الحيوان المتدين ، بما ورثه من رسالات الأنبياء ، وبما استلهمه فطرته الصحيحة السليمة الأولى ، أن أكبر كبير ، وأن أعظم ضرار نفاع فى هذا العالم هو الله خالق كل شئ وخالق الاقوياء والضعفاء ، وصنوف الضر والنفع ... فأراد الاتصال به عز شأنه ، وأراد أن يقيم بينه وبينه أسباب الرضا والمودة ، وعلاقات القربى والزلفى ، وصـلات العبادة والرعاية والحياطة ، وأراد أن يعطيه إخـلاصه وخضوعه وذله وكل معانى عبادته وعبوديته، كما أعطاه تعالى وجوده وحياته وكل مايتمتع به من متع الحياة وأسباب البقاء، ولكى يزيده تعالى من ذلك ويديمه عليه ويمنحه منه مالم يمنحه . . . ولـكن كيف يعطيه ذلك ، وكيف يعبده ويتصل به،

غاية كل إنسان أن يتصل بأقوى هـذا الوجود

و بأى أسلوب يرفع اليه ذلك كله؟ هذه هى المشكلة ، وهذه هى منطقة الخطر الخطير . . .
و إن مما ارتكز فى الفطر الانسانية كلها أن الرهب والرغب لا يكونان إلا فى القوى القادر ، و أن العبادة لا تكون إلا حيث تكون الرهبة والرغبة . فمن المسلم به إذن فى أوائل كل الفطر ألا يعبد فى هذا العالم إلا الموجد له القائم عليه و به ، المفنى له إذا شاء ، الواهب لكل شئ ماهو فيه ، القائل للشئ كن فيكون ، الآخذ بكل ناصية الأول الآخر ، الفعال لما يريد . . . هذا مما جبلت عليه جميع الفطر البشرية ، فكان المعقول المظنون إذن أن تكون النتيجة لهذه المعارف والعلوم المجمع عليها ألا يعبد إلا الله ، وأن يكون البشر جميعا موحدين ، وألا توجد فى قاموس البشرية كلمة « الاشراك » ولا كلمة « المشرك » ولكن شيئاً قابل هذه المعارف الفطرية فحول النتيجة الصحيحة المعقولة ، و وضع مكانها نتيجة أخرى فاسدة باطلة . وهذا الشئ الذى حول هذه المعارف البشرية عن أن تصل إلى نتيجتها الصحيحة هو أن الانسان قد خلق ماديا حسيا أكثر منه معنويا علميا ، فخلق نزاعاً إلى الرغبة فى المحسوس المشهود ، نزوعاً عن الرغبة فى المعلوم المفهوم . . . فأراد أن يرى الله ، وأراد أن يعبده عبادة مشاهدة وحضور و رؤية ، فأعجزه ذلك وحال بينه و بينه مابين الخالق والمخلوق من الفروق . فراح يحتال لعبادة الحضور والشهود ، وهب يقدح زناد عقله وفهمه فوقع فى الإشراك والضلال والجهل ، واهتدى إلى أن يقيم التماثيل والهياكل والأصنام والأوثان ، وأن يزعم أنها ترمز إلى الله وتشير إليه وتقوم مقامه وتنوب منابه فى الحضور والشهود ، واهتدى إلى أن يزعم أن لهذه التماثيل والهياكل والاصنام والأوثان صلات بالله مختلفة ، وأنها بهذه الصلات تمثله تعالى وتقوم مكانه ، كما تمثل حضوره وقربه وشهوده إذ لم يمكن قربه الحقيقى ولا حضوره الصحيح ، ولا شهوده المطلوب. و راح فى فهم هذه الصلات التى زعمها بين الأوثان و بين الله مذاهب أشتاتاً ، وذهب فى تأو يلها وتفسيرها طرائق أفناناً ، إلا أن

الرغبة فى عبادة الحضور من أسباب الشرك

الجميع قد أجمعوا على عبادتها، وأجمعوا على أن عبادتها عبادة لله. فبعضهم أقام هياكل للنجوم وللشمس والقمر والأجرام العلوية، فوجه اليها عبادته وزعم أن عبادتها عبادة للأجرام نفسها، كما زعم أن عبادة الأجرام عبادة لله تعالى، وقد زعم أن هذه الأجرام مخلوقات حية عاقلة فاهمة. فكان بذلك عند نفسه عابداً لله عبادة حضور وشهود. وبعضهم قصد إلى حجر أو شجر فزعم أن له ببعض عباد الله المقربين إليه، المختارين لديه، علائق وملابسات مختلفة، صار ذلك الحجر أو الشجر لأجلها محط أسرار أولئك العباد المقربين الممتازين. فتوجه إلى الحجر والشجر بعبادته، وزعم أن المتوجه إليه حقيقة بالعبادة هو ذلك العبد المقرب الممتاز، كما زعم أن التوجه إلى ذلك العبد بالعبادة هو فى الواقع توجه إلى الله. فالمعبود فى الظاهر الحجر والشجر، والمعبود فى الحقيقة هو رب العالمين.

من فلسفة الشرك

وبعضهم شاد القبور والضرائح وبالغ فى زخرفتها وتجميلها وتعميرها وانتيابها من كل مكان لأنها مراقد أقوام صالحين لهم عند الله الجاه العظيم والسر البالغ، الضار النافع - فى مازعموا - فقصدوا هذه القبور والضرائح بالعبادة، وربطوا بها حاجاتهم ورغائبهم، وزعموا أنهم مافعلوا ذلك إلا لأجل من فيها من الصالحين، وزعموا أنهم ماتوجهوا بذلك إلى الصالحين لا لقربهم من الله وحظوتهم لديه. فهم فى الحقيقة مارغبوا إلا فى الله، ولا انقطعوا إلا إليه تعالى، فهو الغاية، وهو المعبود، وهو المرجو المدعو. وإنما اتخذوا إليه الوسائل، وراموا القرب منه بالوساطات. والوسائل والوساطات إن هى إلا أسباب؛ وقد ربط الله كل الاشياء بأسبابها، فلا يمكن أن يدرك الشئ طالبه إلا بسببه، ولا يمكن أن ينال الحاجة مريدها إلا بوسيلتها. والاسباب، وإن كثرت وتعددت، ليست مقصودة بالذات. ليست إلا طريقاً وسبيلا إلى الغاية، والغاية هى المقصودة فى الحقيقة، وهى المطلوبة المرجوة. ولو أنها أدركت بدون أسبابها ووسائلها لما عبئ إلا بها،

ولأقصيت هذه الأسباب وتلك الوسائل إقصاء . فالراغب فى الوسيلة راغب فى الغاية حقا ، والعابد للوساطة عابد لما بعدها بلا شك ولا ريب . فالله وحده هو غاية هؤلاء المتوسلين المتخذين الوساطات والشفعاء لديه ، وهو معبودهم ، وكل مادونه آلات للحظوة به وعنده .

ومنهم عمد إلى بيوت أضيفت إلى الله فبالغوا فى إعظامها و إعظام بنائها حتى عبدوها وأسرفوا فى عبادتها ، وحتى عبدوا لذلك الحجارة وما استحسنوا من الجماد . وقد ذكر أهل العلم أنه كان مما ساخ بالمشركين إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم . فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة ووجدا وحبا . ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، وما كانوا يرمون إليه، ولم يكن تعظيمهم للحرم إلا لصلته بالله، أو لصلته بمن له صلة بالله

و بعضهم توجه إلى عبادة الملائكة لقربهم منه ومن الله ربهم . ومنهم غير هؤلاء وهؤلاء من أصناف المشركين الضالين . وكأن هؤلاء جميعاً ما صاروا إلى الشرك إلا لرغبتهم فى عبادة الحضور والشهود والقرب ، فلما أن عجزوا عن ذلك قصدوا إلى تحقيقها بعبادة أشياء حاضرة محسوسة لها اتصال بهم، ولها اتصال بالله فيما حسبوا و زعموا ، ولها حضور لديهم وحضور لدى الله . ولهذا فان طوائف من المتألهين المتدينين ذهبوا إلى القول بحلول الله فى مخلوقاته ، فعبدوا هذه المخلوقات لأنها مظهر لله . ولهذا أيضاً كانت الأمم تطالب أنبياءها ورسلها برؤية الله وكانت تقول كل أمة لرسولها : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وعيانا . وهذا لأن الأنسان ، كما قلنا ، خلق ماديا حسيا أكثر منه علميا معنويا. وقد سلخت هذه الجبلة الحسية الانسانية بطوائف من البشر حتى قاسوا الله عز شأنه وسلطانه بزعمائهم وكبرائهم الظالمين الباغين . فقد وجدوا ورأوا أن هؤلاء الكبراء

ما أشرك بالله إلا رغبة فى قربه

تشبيه الله بالظالمين من خلقه

الظالمين لا يستطيع الضعيف الفقير أن ينال رضاهم ولا عدلهم ولا رعايتهم ولا شيئاً مما بأيديهم إلا باتخاذ الوسائل والشفعاء لديهم ، و إلا بإتيانهم من طريق المقربين لديهم ، الذين لهم سلطان ودلال عليهم . ووجدوا أن من أراد إتيانهم وعدلهم ورضاهم من هؤلاء الضعفاء الفقراء بدون شفيع و وسيلة كبيرة، رهوبة فلن يصل إليهم ، ولن يلاقى إلا الحرمان والاقصاء والدفع والطرد . وقد ظنوا حينئذ لجبلتهم الحسية الناقصة أن الله أيضاً كذلك يؤتى و يطلب من طريق الوسائل والوساطات والشفعاء المقربين الممتازين ، وأنه بغير ذلك لا يمكن الوصول إليه ولا الظفر برضاه و قربه والحظوة عنده ، و بهذا صاروا إلى الشرك بالله وعبادة الاصنام والأوثان . والغريب فى هذا أنهم لم يقيسوا الله إلا بالظالم من خلقه ، فقد رأوا أن الظالمين من البشر لا تنال منهم الحقوق والحاجات والواجبات إلا بالوسائل والشفعاء . وقد رأوا أيضاً أن العادلين المنصفين من البشر يعطون الحقوق والواجبات من أنفسهم بلا وسيط ولا شفيع ، فشبهوا الله بالفريق الظالم الجاهل من عباده ، ولم يشبهوه ، إن كان لابد من التشبيه ، بالفريق العادل الذى يفعل الحق والواجب والجميل لأنه حق و واجب وجميل ، لا لأن فلاناً أو فلانة طلب إليه فعل ذلك ، ولا لأنه خاف إن لم يفعله من هو فوقه أو من هو مثله أو من هو دونه. فالمشركون شبهوا الله بخلقه ، بل شبهوه بأضعف خلقه وأظلمهم وأرذلهم . ولولا هذه الجبلة الحسية الناقصة لما أشرك المشركون ولا شبه المشبهون .

فعبادة المخلوق للمخلوق وللأصنام والأوثان قائمة على الرغبة فى عبادة الحضور والشهود وعبادة الحاضر الشاهد لأن الإنسان خلق حسياً مادياً أكثر منه علمياً برهانياً غيبياً . فعبدة الأصنام والمخلوقين إنما قصدوا الله وحده ولكنهم قصدوه من طريق ضال باطل جاهل. ولهذا فإنهم ما عبدوا ولا قصدوا إلا إلى المقربين لديه

وقد زعموهما ملكين عظيمين. وعبدوا الأنبياء والصالحين ، وعبدوا آثارهم ومخلفاتهم ، وعبدوا الحرم وحجارته ، وعبدوا الأحجار والأشجار والقبور والأجداث لما لها من الصلات الكبيرة المتينة، فما عبدوا إلا مقرباً إليه تعالى أو من ظنوه مقربا وإن لم يكن كذلك . فهم لم يعبدوا حجارة مجردة ولا جماداً مجرداً يقيناً . وإنما عبدوا أحياء عاقلين أو من زعموهم كذلك . وقد بين الله ذلك فى كتابه فى غير ما آية قال تعالى : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ولا شك أنه لا يمكن أن يتوهموا أن الجمادات المجردة يمكن أن تشفع لهم . وقال تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولن يظنوا أن الجمادات تقربهم إلى الله وتدنيهم منه ولا أنها تقدر على شىء من ذلك . وكلمة « نعبدهم » و « يقربونا » و « أولياء » صريحة فى أنهم قد عبدوا عقلاء . وإطلاق كلمة « أولياء » على معبودات المشركين جاء كثيرا فى كتاب الله كما فى هذه الآية وكما فى قوله من سورة « العنكبوت » : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » وقال تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون » ، وقال : « قل أغير الله أتخذ ولياً » إلى غير ذلك من الآيات المعلومة الواضحة الدلالة . فعبادة المخلوق قائمة على هذه الشبهة الفاسدة .

شركون
بدون من
الله أولياء

﴿ الباب الثالث من كتاب الرافضى ﴾

ثم قال الشيعي : « الباب الثالث فى تفصيل الأمور التى كفر بها الوهابية المسلمين ورد كل واحد منها بخصوصه . . . »

وفى هذا الباب ذكر الفصول الآتية : الفصل الأول فى الشفاعة . الثانى فى دعاء غير الله وطلب الحوائج منه . الثالث فى التوسل إلى الله بالأنبياء

والصالحين . الرابع فى الإقسام على الله بالمخلوق أو بحقه . الخامس فى الحلف بغير الله . السادس فى إطلاق السيد والمولى على غير الله . السابع فى الذبح والنحر لغير الله . الثامن فى النذر لغير الله . التاسع فى بناء القبور والبناء عليها . العاشر فى الكتابة على القبور . الحادى عشر فى اتخاذ المساجد على القبور ، واتخاذ القبور مساجد . الثانى عشر فى إسراج القبور . الثالث عشر فى الصلاة والدعاء عند القبور . الرابع عشر فى تعظيم القبور وتعظيم أصحابها والتبرك بها ومسها والطواف بها . الخامس عشر فى اتخاذ السدنة والخدام والحجاب لمقامات الأنبياء والصالحين واتخاذها أعياداً . السادس عشر فى تزيين المشاهد بالذهب والفضة والمعلقات والكسوة . السابع عشر فى زيارة القبور وشد الرحال إليها .
هذه هى فصول هذا الباب . وقد تكلم الشيعى على كل فصل منها ، وسوف نتكلم نحن عليها كلها ، وسوف يتكلم معنا، إن شاء الله ، الحق والصواب والهدى .

﴿ الاستشفاع بالأموات ﴾

حجة الرافضى على طلب الشفاعة من الأموات

ذكر الشيعى فى فصل الشفاعة ما خلاصته : إن الاستشفاع بالموتى جائز لا ريب فى جوازه ، قال : « ذلك أن الله قد أعطى عباده الصالحين ، كالأنبياء والأولياء والملائكة ، الشفاعة ، ولا مانع يمنع من أن نطلبهم ما أعطاهم الله » قال : « والشفاعة هى الدعاء ، فالذى يطلب ولياً أو نبياً أو ملكا أن يشفع له إنما يطلب منه أن يدعو له لأن الشفاعة هى الدعاء والدعاء يجوز طلبه ، بلا ريب ، من الصالحين : الأحياء منهم والأموات ولا فرق » قال « وقد ثبت أن الملائكة يدعون ويستغفرون للذين آمنوا كما قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم

إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز المبين » . ودعاؤهم هذا للمؤمنين هو عين شفاعتهم . . . وقد جاء أن الحجر الأسود يشفع ويشفّع كما صح عن علي بن أبي طالب أنه قال : اشهدوا هذا الحجر خيرا فانه يوم القيامة شافع مشفّع ، له لسان وشفتان يشهد لمن استلمه . ولا يمكن القول بأن الله أعطى عباده الشفاعة ثم منع من سؤالهم إياها. فان الشفاعة إذا كانت حقا لم يكن طلبها باطلا ، لأن طلب الحق لا يكون باطلا ولا شركاً ، ولكن طلب الباطل هو الذى لا يكون إلا باطلا ... وقد تشفع آدم برسول الله قبل خلقه ، وتشفع وتوسل رسول الله بمن قبله من الأنبياء، وتشفع الصحابة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وتشفع عمر بالعباس ، وأقر النبي أيضاً عليه السلام ذلك الأعرابي الذى قال : إنا نستشفع بك على الله . وقد طلبوا من النبي أيضاً بعد موته أن يستسقي لهم فسقوا . وقد روى أن الذين يصلون على الجنائز يشفعون . وقد روى الترمذي عن أنس بن مالك قال : سألت رسول الله أن يشفع لى يوم القيامة فقال ، « أنا فاعل » .وقد طلب سواد بن قارب وهو أحد الصحابة ، من الرسول الشفاعة وقال من قصيدة :

فكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

«وفى السيرة الحلبية أن تبعاً الحميرى آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل ولادته ، وكتب كتاباً فوصل للنبي بعد مبعثه ، وفى الكتاب « وإن لم أدركك فاشفع لى يوم القيامة ولا تنسنى » وأن النبي عليه السلام قال : : « مرحبا بتبع الأخ الصالح » ثلاث مرات . وقد علم ابن حنيف رجلا فى خلافة عثمان أن يقول فى دعائه : يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك أن تقضى حاجتى ،ويذكر حاجته . وأنه فعل ذلك فقضيت حاجته . وقد روى المفيد فى المجالس أن عليا لما فرغ من غسل النبي عليه السلام كشف الإزار عن وجهه وقال : بأبى أنت وأمى، اذكرنا عند

ربك واجعلنا من همك . ثم أكب عليه وقبله . وفى خلاصة الكلام أن أبا بكر قال وفعل مثل ذلك فى النبى بعد وفاته . وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال : اللهم إنى أستشفع إليك بنبيك يانبى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له . وقد ذكر العلماء فى باب آداب الزيارة أن من جملة مايخاطب به النبى ﷺ أن يقال : جئناك لقضاء حقك والاستشفاع بك ، فليس لنا يارسول الله شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا . . . » .

هذا جملة ماذكره فى هذا الفصل من التدليل على جواز الاستشفاع بالموتى و بالملائكة وسائر الصالحين. ونحن، إن شاء الله، نوردهنا مانرى إيراده من الدلائل على بطلان الاستشفاع بالاموات و بالملائكة ، ثم نثنى بالابطال والنقض لهذه الشبه التى أوردناها ـ ضارعين إلى الله وحده أن يفرغ علينا من عونه ومدده وتسديده ، وأن يقسم لنا ، فى مايقسم ، التوفيق والهداية والرشاد ، وأن يباعد بيننا و بين الهوى الظالم ، والعصبية لغير الحق كما باعد بين المشرق والمغرب ، وأن يغسل ألسنتنا من الهذر والزلل ، وقلوبنا من الغى والخطل ، وأن يجعلنا هادين مهديين ، لا ضالين ولا مضلين ، ولا فاتنين أو مفتونين ، فهو وحده مجيب السائلين ، ومعطى الراغبين ، وهو رب العالمين ، فنقول :

إبطال شبهات المخالف

لاريب أن الشفاعة نوع من الدعاء ، وأن الاستشفاع نوع من طلبه ، وأن الشافع يكون داعياً . ولا ريب أن طلب الدعاء من الحى الحاضر جائز مشروع بالجملة ، وأن الاستشفاع بالقادر على الشفاعة جائز مشروع أيضاً بالجملة. ثم لاريب أن الله قد ادخر لنبيه عليه الصلاة والسلام ، وكذلك لسائر أنبيائه ، ولسائر الصالحين من عباده ، أنواعاً من الشفاعات سوف يكرمهم الله بها و يعلن شرفهم وما لهم عنده من الزلفى وقرب المكان وعلو المكانة وسمو المراتب فى أيام مشهودة مشهورة . كما لاريب أنه تعالى قد أذن لهم فى أنواع من الشفاعات فى الدنيا ،

وأعنى بها الأدعية ، وأنهم قد شفعوا أنواعاً أيضا من الشفاعات نفع الله بها الكثير من عباده ، وأنزل بها الكثير من فضله وأنعمه ، وأن له تعالى عباداً لم يخلقوا بعد سوف يشفعون ، وسوف ينفع الله بشفاعتهم طوائف من خلقه . ثم لا ريب أن المسلمين كانوا يطلبون إلى نبيهم أن يدعو الله لهم ، وأنه كان يدعو لهم ، وأن الله كان يجيب دعاءه ويقبل شفاعته ويرحم عباده ، وأنه كان لغيره من الانبياء والصالحين أشياء كثيرة من ذلك . ثم لا ريب أيضا فى أن المسلمين يرجون شفاعة نبيهم ، ويرجون أن يرحمهم الله بها فى أشد يوم سوف يمر بالخليقة ، ويسألون الله أن يعظم نصيبهم من هذه الشفاعة العظمى فى ذلك اليوم الأعظم . كما لا ريب أنهم سوف يستشفعون ذلك اليوم الموعود بالأنبياء واحدا واحدا فلا يكون الشافع الأول لهم وللناس جميعاً سوى محمد عليه الصلاة والسلام خاتمهم وآخرهم : هذا كله لا ريب فى شئ منه ولا خلاف ، ولكن الذى فيه الخلاف والنزاع هو طلب الشفاعة من الأموات والاستشفاع بهم . وكل ماذكر هنا لا يدل شئ منه على ذلك . والدلائل على بطلان الاستشفاع بالموتى كثيرة ظاهرة ميسورة نورد منها هنا ما يتيسر :

دلائل بطلان الاستشفاع بالأموات

أولا — : المستشفعون بالموتى لابد أن يعتقدوا أنهم قد أعطوا من كمال السماع والاحاطة بالغيب ما لم يكن لهم وما لم يكن إلا لله وحده . ولا بد أن يعتقدوا فيهم أيضاً أنهم يعلمون الغيوب ويحيطون علماً بالقريب والبعيد ، ويسمعون جلجلة الهتاف أين كان الهاتفون الداعون ، ويفرقون بين مختلف النغمات والدعوات فى وقت واحد كما يفرقون بين مطالبها ومعانيها ، مهما كثرت وتعددت واختلفت . ولهذا يدعو النبى والولى والشيخ فى الوقت الواحد منهم الداعون الكثيرون المختلفون لغات ولهجات وحاجات وأماكن ومواضع ، ثم لا يشكون أن ذلك النبى أو الولى أو الشيخ المدعو المسئول يسمع دعاءهم واستشفاعهم ،

و يفهم مايريدون ومايعنون . ولهذا أيضاً يدعونه و يسألونه الشفاعة من كل مكان وفى كل مكان بكل لسان فى كل زمان . ولهذا أيضا يجتمعون على دعائه والاستشفاع به فى وقت واحد مهما كثروا واختلفوا أغراضاً وحاجات ولهجات ولغات .ولهذا أيضا يدعوه الفارسى والتركى والهندى والبربرى وغيرهم من أصناف العجم والعرب :كل بلسانه و بيانه ولهجته و أسلو به .ولا يرتاب أحد من هؤلاء الداعين الصارخين الطالبين فى أن ذلك كله مفهوم معلوم مسموع معقول فى وقت واحد وفى حالة واحدة . ولا يرتاب أحد منهم أيضا فى أن ذلك الشيخ المدعو المرجو لايعجزه ولا يفوته شئ من تلك الدعوات والاستشفاعات والضراعات .ولاشك أن ذلك المدعو لو كان حيا حاضراً قائماً بين أيديهم وتحت أبصارهم لما نحاوه كل هذه الاحاطة باللغات والحاجات والغائبات ، وأنه لو كان حيا سويا بينهم و بينه من الحجب والموانع والحوائل مابينهم و بين ذلك المقبور لما شكوا فى أنه لن يسمع دعوة داع ولا ضراعة ضارع . ولكن هاهم يقفون فوق كل ضريح من أولئك الضرائح و بينهم و بين الراقد فيه ماهو معلوم من الأبعاد والحجب والمسافات والحوائل والموانع ،فيناجونه خفى النجوى ، و يشكون إليه بألسنتهم وقلوبهم ونفوسهم أيضا ، كما يفعلون ذلك وهم فى المكان القصى منه ، و يرون أنه سامع فاهم شئ ، ولهذا أيضاً يقدمون إليه العرائض والشكايات المكتوبة بمختلف العبارات واللغات والحاجات ،التى لو كان حيا سويا لما فهم الكثير منها ،ولما طاف بمعناها ومرماها :هذا كله يفعلونه ، وهذا كله يدل على أن القوم ينحلون الاموات من كمال السماع والاحاطة بالغيوب ، ومن كمال القدرة والسلطان ما لم يكن ومالم يجعله الله لأحد سواه وحده لاشريك له . بل هذا كله يدل على أنهم يرونهم عالمين بكل غائبة ، محيطين بكل سر، عارفين بكل لسان ، سامعين كل صوت ، موجودين فى كل مكان . وقد جهر كثيرون من هؤلاء الضلال الحيرى بهذه

الاستشفاع بالأموات يلزمه علمهم بكل شئ

النتيجة بلا جمجمة ولا لجلجة ، فزعموا أن الولى والنبى موجودان فى كل مكان مع كل داع لهما ، هاتف بهما ، لا يغيبان ولا يبعدان ، وقد استدلوا ، فى ضمن دلائلهم ، بقول الشاعر الكاذب الجاهل :

كالبدر من حيث التفت رأيته * يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا
كالشمس فى كبد السماء وضوءها * يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

واحتجوا أيضا ، وقد كذبوا ، بوجود ملك الموت فى كل مكان واتساعه واتساع سلطانه بقدر اتساع الأرواح المقبوضة وانتشارها . وقد كذبوا وأخطئوا لأن قابض الأرواح ملائكة لا ملك واحد كما صرح به القرآن فى غير آية كقوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ » وقال : « توفته رسلنا » وقال : « والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » والآيات كثيرة . أما قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » فهو كقوله : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وأمثالها : كلاهما يراد به العدد لا الافراد ، لسر معروف فى لغة الضاد .

ملائكة لا ملك واحد

وأعظم دليل على أن القوم يعتقدون فى الأموات هذه العقيدة أنهم يلهجون بأسمائهم أين كانوا ، فى عرض البحار ومتون القفار ، ويفزعون إلى شفاعتهم ودعوتهم كلما رغبوا أو رهبوا ، لا يفكرون فى بعد الديار ، وتقطع الأسباب ، وفقدان الآلات . وهذا لا شك فيه .

وإذا كان المستشفعون بالأموات ينحلونهم هذه الصفات التى لا يمكن أن تعدو رب العالمين ، أو إذا كان الاستشفاع بهم يلزمه نحلهم إياها أو نحلهم بعضها فلا ريب فى بطلان هذا الاستشفاع وفساد عقائد القائلين به . فانه لا شك فى مصادمة هذا لأصول الاسلام وأصول الأديان السماوية كلها . فان من زعم أن مخلوقاً يعلم الغيوب فقد اغترف من منهل الضلال شر اغتراف ، وقاسم الغى شر

مقاممة . وأديان الله كلها قائمة على إفراد الله وحده بصفات الكمال ، فلا يقدر على كل شئ إلا هو ، ولا يدين كل شئ إلا له تعالى ، ولا يعلم الغيب سواه.وكل دين لله قائم على أمرين : على أن الله ليس كمثله شئ ، وعلى أن الكمال المحض له وحده لا يشاركه فيه مشارك . فمن نازع فى هذين الأمرين ،أو فى أحدهما ،فقد ضل ضلالا بعيدا وخالف كل دين لله يرضاه . ولهذا يطنب القرآن ، وتطنب السنة ،فى نفى علم الغيب عن المخلوقين ، بل عن أفضل المخلوقين ، ويبالغ الرسول عليه الصلاة والسلام فى نفى ذلك عن نفسه مبالغة شديدة واضحة ، ويجهر بها فى كل موطن من مواطن البلاغ والدعوة والانذار والبيان ، ويقرر ذلك تقريراً لا يخفى أن الغرض منه المحافظة على سلامة الاعتقاد وحفظ الايمان . بل كان ينفى عن نفسه الشريفة كل مايحوم حول هذا ،وما يمكن أن يمت إليه بصلة من الصلات قريبة أو بعيدة . فكان دائماً يقرر أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله اختصه برسالته وموضع نذارته ودعوته ، فجعله مكاناً لهدايته ، فكان يقول دائما : « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون » ويقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم.إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله» .ولما وفد عليه بعض أحياء العرب وقالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا ، أنكر هذا القيل عليهم وقال « قولوا ببعض قولكم ، ولا يغوينكم الشيطان . فما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى وضعنى الله بها » وقد غنت إحدى الجوارى فى حضرته عليه الصلاة والسلام وقالت فى غنائها : « وفينا نبى يعلم مافى غد » فأنكر هذا الغناء . وقد أنكر أيضاً على من سألوه عن قيام الساعة وميقاتها كما ذكر القرآن . وأنكر قيل من قال : ماشاء الله وشئت . وأنكر ماهو دون ذلك مما يمت إلى الغلو والمبالغة فى التقديس . وقد علم بالضرورة من دين الاسلام أنه لا الرسول ولا غيره من الرسل والصالحين والملائكة المقربين ،ولا الجن كانوا يعلمون الغيب ،أو يعلمون

لا يعلم الغيب إلا الله

شيئاً منه إلا باعلام الله ووحيه، كما قال تعالى : « ولا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » . وما يعلم الرسل والأنبياء من الغيب مايعلمون إلا باظهار الله ووحيه وبلاغه ، لاشيء غير ذلك . وقد كان رسول الله يسأل المسائل فينتظر الجواب من جبريل عليهما الصلاة والسلام . وكان أحيانا يفعل الفعل الذى لم ينزل عليه فيه وحى من الله اجتهاداً وطلباً لحكم الله ورضاه ،فينزل الله عتابه له وتنبيهه إلى ماخفى على طاقته البشرية من حكمه تعالى وشرعه أمثال قوله تعالى ، « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » ، وقوله : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » وقوله : « وما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . بل لقد نفى الله عنه عليه السلام علمه بحقيقة من كانوا يساكنونه فى المدينة المنورة ويراهم صباح مساء فقال : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم ،نحن نعلمهم » وقال : « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالكم » وقال : « عفا الله عنك » الآية ـ إلى أشياء أخر معلومة . ومن تحصيل الحاصل كما يقولون ، محاولة إقامة الدلائل على أن الرسول وغيره من المخلوقين ما كانوا يعلمون الغيب ولا كان يمكن أن يعلموه .

﴿ أحد العلماء يؤلف كتاباً يدعو فيه إلى عباده شخصه ﴾

عالم يدعو إلى عبادة ذاته

وبهذه المناسبة نذكر أمراً مؤسفاً مؤلماً ، ذلك أن أحد العلماء المشهورين لدى الجمهور بالصلاح واستقامة المذهب ، وطيب السيرة والسريرة ، وبالدعوة إلى السنة والعمل بها ، قد وضع كتاباً أسماه « العهد الوثيق. فيما يجب على سالك أحسن طريق » ضمنه أشياء منكرة منابذة لحقائق الاسلام وأصول أديان الله كلها ، بل ضمنه دعوة صريحة جاهرة إلى عبادة شخصه وعبادة أشخاص المشايخ

مثله . وقد زعم فى هذا الكتاب أنه هو وغيره من أشياخ الطريق يعلمون الغيوب ويطوفون بما يطوف فى زوايا الرؤوس والنفوس من الخطرات والخلجات والغدرات . . . فقد جاء فى الكتاب مالفظه : « وكان يقول (يعنى الشبلى) من علامة صدق المريد اعتقاده أن شيخه جاسوس قلبه ، يدخل فى قلبه يعلم ماعنده ويخرج من حيث لايحتسب . . . » هذا نص لفظه. وقد قال فى خطبة الكتاب : « . . . أما بعد فيقول محمود بن محمد بن أحمد خطاب السبكى : هذه كلمات دالة على بعض سنن سيد الكائنات سميتها « العهد الوثيق » لمن أراد سلوك أحسن طريق » فمن عمل بها فهو من إخواننا ، ومن أعرض عنها فلا علاقة له بنا . . » فكل مافى هذا الكتاب عند مؤلفه التقى الورع الشيخ فلان هو من سنة النبى عليه الصلاة والسلام ومن دين الاسلام ، ولهذا فان من عمل به فقد سلك أحسن طريق ! ولا أحسن طريقا من دين الله الاسلام . فما فى الكتاب ليس سوى الاسلام الحق لدى مؤلفه عفا الله عنه . ولهذا فان من عمل بما فيه فهو من هؤلاء الجماعة الذين يزعمون لأنفسهم أنهم هم المسلمون وحدهم دون المسلمين ، ومن لم يعمل به فهو منهم برئ ، وهم كذلك منه براء . فكل مافى الكتاب صواب حق لايمسه الخطأ ، ولا يقرب به الضلال ، ولايحوم حوله الفند ــ فى مازعم المؤلف ــ صفح الله عنه : كله من دين الاسلام ومن السنة المحمدية النقية

الشيخ جاسوس قلب مريده

والقول بأن الشيخ جاسوس قلب المريد ، أو جاسوس قلب غيره ، يدخل فيه ويعلم ماهنالك ، ثم يخرج منه من حيث لايدرى ولايحتسب ، قول لايمكن أن يوجد له وجه فى دين الله ، وقول لايستطاع أن يوفق بينه وبين أصل الاصول الاسلامية القائل : بان الذى يعلم مافى القلوب والنفوس والرؤوس ، ويعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، ويعلم غيب الضمائر ، هو الله وحده لا شريك له ولا مثيل . . . بل هذا القيل معدود عندنا من أقبح البدع الاعتقادية النكراء .

و إذا علم أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ماكان يعلم ما كانت تشتمل عليه قلوب أهل المدينة ونفوسهم من المؤمنين والمنافقين ، ولا كان يعلم ما كان يطوف برؤوسهم وقلوبهم من الخطرات والاعتقادات والخالجات ، علم حقا نكارة هذا القيل و بطلانه وعدوانه . وقد قدمنا الآيات الناصة على أن الرسول ما كان يعلم ما فى نفوس أهل بلده ولا ما كانوا يعتقدون فيه وفى الله وفى الاسلام ، مثل قوله تعالى « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم »وقوله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » وقوله : « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض » الآية ، وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا لله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم » — إلى غير ذلك الآى الواضحة .وهذا لاخلاف فيه بين أهل الاسلام ، ولا خلاف بينهم فى أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يعلم مافى صدور أصحابه ، ولا ما كانوا يكنونه من الهموم والهمم والخطرات والمسائل وغير ذلك ، وأنه لم يكن جاسوس قلوبهم ولا قلب أحـد منهم . وهذا كله معلوم بالضرورة والاجماع ، والدلائل عليـه من الكتاب والسنة لا تمكن الاحاطة بها فى هذا الفصل . وكذلك جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصـلاة والسلام ما كانوا يعلمون ما كانت تنطوى عليه قلوب أقوامهم ونفوسهم ، بل ولا ما كانت تنطوى عليـه قلوب أقرب الناس إليهـم وألصقهم بهـم من الأزواج والأبناء والآباء والأقارب . وقـد أنبأنا القرآن الكريم بأن بعض الأنبياء كانت أزواجهم تخونهم وتسعى فى أذاهم وكيدهم وهم لا يعلمون ، لأنهـم ما كانوا يعلمون ما فى القلوب والنفوس ، ولأنهـم لم يكونوا جواسيس القلوب يدخلون فيها ويخرجون منها ، و يعلمون كل شىء فيهـا من الخداع والمكر والضلال والاختيان . قال تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبـدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فـلم

مخالفة ذلك لقواطع الاسلام

يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .

وكذلك لم يكن أحد من صحابة رسول الله ـ وهم خير الأمة وأتقاها نفوساً وأنقاها قلوباً وعقولا ـ جاسوساً لقلوب المسلمين أو غير المسلمين من المشركين والكافرين . فما كان أحد منهم ، كأبى بكر الصديق أو عمر بن الخطاب ، يعلم ما كان يمر برؤوس خلاصة المؤمنين ونقاية المسلمين ، من المقربين إليه ، المتصلين به ، ولا كان يعلم ما كان يجول فى أنفسهم من الآراء والمعانى والخطرات ، بل كانوا لجهلهم ذلك كله يتساءلون فيما بينهم ، فيسأل بعضهم بعضاً عما لا يفهمه ، وعما يريد أن يعلمه ، وعن الروايات والأحاديث ، وعن غير ذلك من المسائل والشؤون . وإذا كان أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى لا يعلمون ما فى نفوس أصحابهم ولا ما فى صدور المسلمين . كان من أفظع المنكرات القول بأن الشيخ خطاباً وغيره من مشايخ الطريق يعلمون ما فى صدور مريديهم وأتباعهم ، والقول بأنهم يدخلون فى قلوبهم ويخرجون منها من حيث لا يشعرون . . . ولا ريب أنهم إذا استطاعوا أن يدخلوا قلوب أصحابهم وأن يعلموا ما فيها استطاعوا أن يدخلوا قلوب غير أصحابهم من المسلمين وغير المسلمين وأن يخرجوا منها من حيث لا يدرى ولا يشعر . وإذا استطاعوا أن يدخلوا قلوب جميع البشر ويعلموا كل شئ فيها ، استطاعوا أن يدخلوا قلوب غير البشر من الملائكة والجان وأن يدخلوا فى نفوس البهائم وأحشائها وحواياها وزواياها . وإذا استطاعوا هذا كله استطاعوا أن يدخلوا كل شئ ، ومعنى هذا علمهم بكل شىء فى الأرض أو فى السماء لأنه لا فرق بين ما فى قلب الانسان وما فى قلب الملك أو الشيطان أو ما فى نفس البهيمة . . . كما لا فرق بين ما فى القلوب والنفوس وبين ما فى أعلى السموات أو أقصى الأرضين أو ما فى اللوح المحفوظ . . . فمن يستطيع أن يعلم ذلك يستطيع أن يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وما فى اللوح المحفوظ . إذ

ومعنى هذا علمهم كل شئ

لافرق بين غيب وغيب بالنسبة إلى المخلوق وعجزه عن الاطلاع عليه والعلم به ... فهذا القول الذى ذكروه يقتضى بأن يكون الشيخ عالماً بكل شئ فى الأرض أو فى السماء . ونعوذ بالله من هذا القول ومن لوازمه .

على أن الذى لا يستطاع فهمه ولا الإيمان به القول بان الشيخ يدخل فى القلوب ويخرج منها ، وهذا غير القول بأنه يعلم ما فيها ، فانه يمكن أن يقال : إنه يعلم مافيها ، ولكنه مع ذلك لايدخلها ولايستطيع دخولها . وهذا أقرب إلى العقل والعلم من الزعم بأنه يدخلها ويخرج منها ، فان هذا لا يمكن أن يؤمن به إنسان يحترم عقله ويستعمله فيما خلق له . وأى إنسان يرضى لعقله ولدينه ولنفسه بأن يصدق بأن ذاك الشيخ يستطيع أن يدخل بأثوابه وجسمه وهيكله كله فى قلب مريده النحيل الضعيف الأفزم ؟ اللهم احفظ لنا قلوبنا ونفوسنا من دخول هذا الجاسوس الضار المؤذى .

شناعات الكتاب

وفى هذا الكتاب الذى هو « العهد الوثيق » شناعات أخرى لاتقل عما ذكرناه قبحا ومصادرة لدين الله وخروجاً عليه ، ففى صفحة ١٧ يقول : « وأما آدابك مع شيخك فكثيرة ، منها تعظيمه ظاهرا وباطنا، وهذا من أهم الواجبات عليك . وتبلغ من الكمال بقدر تعظيمك له . ومن تعظيمه ألا تجلس على فراشه الخاص ونحو ذلك . . . » فعند هذا الشيخ التقى الورع أن من أهم الواجبات

الآداب مع الشيخ

على أتباعه وأنصاره ـ وهم خلاصة المسلمين فيما يزعمون ـ تعظيم الشيخ فى الظاهر والباطن ، يعنى فى أنفسهم وفى أعمالهم ، وعنده أن من أوجب الواجبات عليهم هذا التعظيم ، وأن هذا التعظيم هو مقياس الكمال والايمان والفضل والتقى. وهذا كله باطل مخالف لأصول الدين وفروعه، مصادر لاجماع المسلمين فى جميع العصور فان المسلم يبلغ من الكمال والايمان بقدر صلاحه وتقواه وطاعته لربه واتباعه لنبيه ، لابقدر تعظيمه لانسان معين. والاسلام لم يطالب أهله بأن يعظموا إنساناً

معيناً ، بل الاسلام بجملته نهى عن تعظيم المخلوق والالتفات إليه . ولا يوجد فى كتاب الله حرف واحد يقول: عظموا فلانا أو فلانا و بالغوا فى تعظيمه،لأن كمالكم لايكون إلا بقدر تعظيمكم له، بل قد يكون تعظيم المشايخ والرؤساء حراما ممنوعاً و إنما باطلا موقعاً فى الشرك والضلال وعبادة غير الله . ولم يقل مسلم واحد بصير بالاسلام قبل هذا القائل: إن المبالغة فى تعظيم المشايخ مشروعة مطلوبة إطلاقا. بل تعظيم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس جائزا مشروعاً إطلاقا ، بل من تعظيمهم ماهو شرك بالله ممنوع ، وذلك مثل السجود والركوع لهم ، بل لقد كان رسول الله ، كما قدمنا ، يكره القيام له ويقول لمن قاموا وراءه : « لاتفعلوا فعل فارس والروم » وقد قدمنا أنه عليه السلام أنكر قيل من قالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا. وحذر القائلين مغبات الغلو الحرام . وكان يقول: « لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » . وأنكر على من استغاثوا به ، وعلى من قال له : ماشاء الله وشئت ، وكان كثيرا ما يقول: « إنما أنا بشر مثلكم » وأنكر على من سجد له تعظيما ، وأنكر غير ذلك من أنواع التعظيم . فكيف يزعم بعد هذا أن تعظيم المشايخ فى الظاهر والباطن من أهم الواجبات على المسلم ، وأنه يبلغ من الكمال بقدر مبلغ تعظيمه شيخه ؟؟ ولو أن مسلماً اتقى الله فقام بواجباته وفروضه وترك منهياته ولم يعظم هذا الشيخ نوعاً من أنواع التعظيم ولاغيره من هؤلاء الأشياخ ، بل ولم يمر واله ببال وفكرة لكان ذلك المسلم من الأتقياء الناجين ،ومن الكاملين ذلك الكمال النسبى البشرى ، ولما طعن جهله هذا الشيخ وجهله إخوانه أو إنكاره لهم فى دينه ولا فى إسلامه و إيمانه . ولو أن إنساناً منح هذا الشيخ أبلغ التعظيم وأنكره وأشده ولكنه ترك الواجبات ، وأقدم على المحرمات لكان من الهالكين الفاسقين ، ولما نفعه ذلك الشيخ ولا تعظيمه شيئاً ، ولما عبأ الله به ولا بشيخه ولا تعظيمه

بل لكان كجهلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . . .

فمقاس التقوى والكمال هو طاعة الله واتباع رسوله ، لا تعظيم فلان أو فلانة .. ولهذا يقول الله فى كتابه : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ولم يقل فعظموا فلانا أو فلانا . وقد علق الله سعادة البشر كافة بالايمان والأعمال الصالحة فى جملة القرآن . ودين الله قائم على هذا المعنى ، أمثال قوله تعالى : « والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقوله : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » والقرآن كله قائم على هذا الأساس المتين . فمن أعظم البدع المنكرة فى دين الله الزعم أن تعظيم الشيخ هو مقاس الكمال والسعادة ، والزعم أن ذلك من أهم الواجبات على المسلم .

وأما تحريم الجلوس على فراش الشيخ ونحوه فتحريم لما لم يحرمه الله ، وشرع لم يأذن به الله وغلو موبق .

ثم قال هذا الشيخ فى هذا الكتاب « ...ومنها ألا تكتم عنه شيئاً مما خطر لك من محمود ومذموم . . . »

الاعتراف للشيخ

وهذا تقرير لعقيدة الاعتراف النصرانية التى توجب الاعتراف على المذنبين بين أيدى القسس ورجال الدين . ولكن الاسلام برىء من هذه العقيدة ، زاجر عنها كل الزجر ، محذر منها أبلغ التحذير . والاسلام لا يجوز لمن قارف معصية أو فكر فى ركوب فاحشة من الفواحش ، كالزنا أو ما هو أقبح منه ، أن يخبر بذلك أحداً ، لا الشيخ ولا من هو فوق الشيخ . وهل يرى هذا القائل المؤلف أنه واجب أو مطلوب دون الواجب من المريد أن يخبره لو فكر فى إساءة منكرة إليه أو هم بإثم عظيم يؤذيه ويؤلمه ؟ اللهم إن هذا القول من شر الأقاويل المنكرة

المخالفة لجميع الأديان السماوية

التسليم للشيخ ظاهرا و باطنا

ثم يقول الشيخ: « ومنها أن تسلم لأوامره ظاهرا و باطناً . ولو اعترضت عليه ولو بقلبك لا تفلح!! قال الأشياخ: ما عدم المريد الفلاح إلا من عدم امتثال شيخه! »

وهذا أيضا باطل لأن التسليم ظاهرا و باطناً لا يكون إلا لله وللمبلغين عنه من الأنبياء والمرسلين المعصومين من الهوى والضلال والفند . ومن سلم لأوامر شيخ من المشايخ ظاهرا و باطناً فقد نأى عن دين الله ، وخرج عليه وعلى قواطعه نهارا .

وهذا القول أيضاً باطل لأن الذى لا يفلح هو الذى يعترض على الله وعلى رسله وأنبيائه . أما الأشياخ فلا بأس فى الاعتراض عليهم ، بل ذلك يجب أحياناً كثيرة . وقد كان المسلمون يعترضون على الصديق والفاروق وعثمان وعلى بن أبى طالب ،وكانوا جد مفلحين راشدين . بل كان هذا الاعتراض من معانى فلاحهم ورشادهم وهداهم . وقد قال حبر الأمة عبد الله بن عباس لقوم نازعوه ونازعهم : توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ! أقول قال رسول الله وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ ؟ وهذا الشيخ نفسه يعترض ظاهرا وباطناً بقلبه ولسانه على كبار أئمة الاسلام وأركان الملة الاسلامية ، وقد يكفر طوائف منهم، كما فعل فى كتاب «إتحاف الكائنات» وهو يرى لنفسه أنه قطب الفلاح والصلاح وأتباعه يعترضون بأقوالهم وقلوبهم وحالهم على شيوخ الاسلام بل و يسبونهم وهم يزعمون أنهم هم المسلمون حسب . وماذا يقول هذا الشيخ وخليفته وأتباعه فى شيخ من شيوخ الحديث الأفذاذ ، ومن رجال السنة البارزين ،ألف كتاباً ضمنه اعتراضات وانتقادات لأحد أئمة الفقه ،مثل الإمام الاكبر أبى حنيفة رضى الله عنه وأرضاه ، لأنه صح لدى ذلك المحدث المعترض أن أبا حنيفة خالف السنة وخالف مذهبه الأحاديث الصحاح ؟ أيقول إن هذا المحدث المعترض لا

يفلح أبداً لاعتراضه على إمام من أئمة الاسلام ؟ بل ما ذا يقول فى من اعترض على بعض أصحاب النبي عليه السلام فى بعض الآراء والاجتهادات : أيقول : إن هذا المعترض لايفلح أبداً ؟ أم يرى أن الذى لا يفلح هو المعترض عليه فقط ؟ بل ماذا يقول فى المسلمين جميعا فانهم لا يرتضون منه هذا الكتاب الذى هو كتاب « العهد الوثيق » و يعدونه من سقط التأليف ، و يوسعونه اعتراضا وتفنيدا لأجله ، أيرى أنهم لا يفلحون لأنهم اعترضوا عليه وعلى كتابه؟ وهذا باطل أيضا لأن المريد يعدم الفلاح إذا لم يمتثل أوامر الله وأوامر رسوله ، لا أوامر شيخه ، بل لابد أن يعدم الفلاح إذا امتثل هذه الأوامر الجائرة الصادرة إليه من الشيخ .

الجلوس بين يدى الشيخ كالجلوس للصلاة

ثم يقول : « ومنها ألا تجلس بحضرته إلا كجلوسك للصلاة إلا لضرورة » وهذا أمر صريح بعبادة الشيخ ، لأن الجلوس للصلاة جزء من الصلاة ، ولا يجوز صرف جزء الصلاة لغير الله كما لا يجوز صرفها كلها لغيره ، ولا يجوز أن يتوجه إلى مخلوق بجزء من العبادة كما لايجوز التوجه بها كلها إليه . ومن التناقض الغريب أن هذا الشيخ يقول هذا القول فى حين أنه يحرم القيام للقادم سواء أكان القادم هو الشيخ أم كان غيره . وهذا لأن الشيخ يريد أن يشتهر بالخلاف وبالامتياز على الآخرين لسياسة متبعة . ومثل هذا محافظتهم على العذبة دون غيرها من ملبوس الرسول وعاداته المحفوظة المعروفة ، لأن فى العذبة امتيازا واشتهارا قد لا يتحقق فى غيرها . والعذبة، بل والعمامة، لا تخرج عن أن تكون عادة من عادات العرب التى أقرها الرسول وجعلها من عاديات المسلمين لا من دينياتهم . ومن الدليل على أن محافظتهم على العذبة لم تكن إلا لحب تميزهم عن غيرهم، لأغراض قد لاتكون صحيحة، أن أصح حديث جاء فى العذبة هو الحديث الذى رواه مسلم فى الصحيح وهو أن النبي عليه السلام خطب يوم فتح مكة لابساً

عمامة سوداء قد سدل طرفيها بين كتفيه . هـذا هو أصح حديث فى لبس العمامة وسدل العذبة .والذى فيه، كما ترى ،أنه عليه السلام قد لبس عمامة سوداء لا بيضاء ، وسدل طرفيها لا طرفها . فكان الواجب على هؤلاء إذ كانوا من أهل السنة حقا أن يلبسوا عمائم سوداً ، ولو بعض الأحيان ، وأن يسدلوا طرفيها لا طرفها إذا كانوا يريدون الاقتداء بالرسول حقا ، و يريدون المحافظة على عاداته . ولكنهم قد حافظوا على العمائم البيض دون السود، وعلى إرخاء الطرف الواحد دون الطرفين. فكانوا بهذا الفعل الذى زعموه محافظة على زى الرسول مخالفين لزيه ولما حفظ عنه فيه . وقد حفظ عنه أيضا أنه لبس الإزار ولم يحفظ أنه لبس السراويل ، وهؤلاء يحافظون على لبس السراويل دون الإزار . . . والقول فى هذا الباب يطول ، ونحن نشير إشارات عجلى .

لايسمع فى الشيخ قول

ثم قال : « ومنها ألا تطيع فى شيخك قول قائل ،ولا تصاحب له عدوا، ولا تعادى له صديقا ، ولا تجالس من ليس محباله. ومن أدل دليل على عدم صدق المريد فى حبه شيخه أن يكره أحدا من أصحابه أو ينتقصه . وإن أمره شيخه أن يجانب أحدا من أصدقائه أوغيرهم وجب عليه اجتنابهم » .

وهذا أيضا قول لا يعرفه الاسلام ولا الحق ، لأن الشيخ ليس معصوما ، ولأن أصحابه ليسوا معصومين حتى لا تصح كراهتهم ، بل قد يكون فى أصحاب الشيخ وفى بطانته الخاصة من يستحقون المقت والطرد ، كما قد يأمر الشيخ بمجانبة من يجب الاتصال به والاقتراب إليه ، لأن الشيخ ليس محرما على الهوى والغرض والضلالة . وقد يخاصم الشيخ أبا المريد أو ابنه أو أخاه أو غيرهم من ذوى قرباه لأجل غرض دنيوى ، أو حاجة نفسية باطلة ، فيأمر مريده باجتنابه وهجره بغيا وعدوانا ، لأنه ليس محرماً ، كما قلنا على الهوى . فهل يجب على المريد ، يا أيها الناس ، حينئذ أن يهجر أباه وأخاه احتراما لهوى الشيخ ، وطاعة لشهوته الظالمة، أو

خطئه الآثم، وقد يأمر الشيخ أيضا باجتناب مسلم تقى فاضل، لأحد الأسباب المذكورة أو غيرها من الأسباب الباطلة، وقد يكرهه و يشنؤه، فهل يجب حينئذ على جميع مريديه مصارمة ذلكم المسلم الصالح الفاضل والورع التقى؟ وقد يكون هنالك عالم نبيل لايحب الشيخ لأنه رأى منه أشياء لاتجدر بمثله، ولا بمنصب مثل منصبه. فهل تجب معاداة ذلكم العالم الصالح النبيل وهو قد يكون على حق واضح اذكره الشيخ، وأقل أحواله أن يكون مخطئا خطأ يعذر فيه؟ هذا كله لا يعرفه الاسلام ولا غيره من أديان الله لأن فيه تقديساً لشخص معين، ولأن فيه رفعاً له عن أفق البشرية المعرض للخطأ والهوى والضلال وللقدح والمدح.

ثم كيف يجب على المريد ألا يقبل فى شيخه قول قائل؟ أو لا يمكن أن يكون قول ذلكم القائل حقا وصدقا؟ إن قالوا إنه لا يمكن أن يكون حقا، فقد ذهبوا إلى أن شيخهم معصوم لا يمكن أن يمر بساحته الخطأ والزلل، وإن قالوا إنه يمكن أن يكون قول ذلك القائل حقا وصوابا، ومع هذا يجب رد حقه وصوابه احتراما للشيخ، فقد زعموا أن الشيخ أكرم وأكبر من الحق، وأنه يجب رد الحق والصدق والدين، دين الله الذى لم يعرفه الشيخ أو لم يرضه و يقل به. ولا خلاص لهم من افتراض أحد الأمرين، وهما أمران أحلاهما مر، وكلاهما لا يعرفه الاسلام ولا المسلمون.

الشيخ ليس أكبر من الحق

إن هذه السرادقات من أفانين التبجيل التى يضربونها على الشيخ لم يضرب شئ منها على أفضل الخلق بعد الأنبياء: فما زعم هذا المسلمون لأصحاب نبيهم ولا لأتباعهم الذين نقلوا عنهم الدين، ولا زعموه للأئمة الذين فصلوا فقه الاسلام وحفظوا نصوصه من الضياع والالتباس بالمكذوب و بالباطل: فما زعموا أن أبا بكر الصديق أو عمر أو عثمان أو عليا أو أبا حنيفة أو مالكاً أو الشافعى أو ابن حنبل: ما زعموا أنه لا يصح أن يقبل فى هؤلاء قول قائل، ولو زعم هذا أحد

ماقيل هذا لأصحاب النبى

للاموه وآخذوه وخطاوه،بل لقد كانت النساء ، وكان صغار المسلمين ، يجرؤن على تخطئة كبار الصحابة وكبار الخلفاء الراشدين ، وكان هؤلاء يقبلون ذلك ويطيبون به أنفسا ويقرون به أعيناً . وكان المسلمون أيضـا يقبلونه وينعمون به . والله يقول فى كتابه للناس جميعاً للأشياخ ومن دونهم من المريدين والمرادين : « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، ويقول : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم ألو الألباب » ويقول فى أمثال هؤلاء الذين لا يقبلون فى أشياخهـم قول قائل: « وإذا قيل لهـم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » .

الدهاء فى هذه الأقوال

إن هذه الأقاويل فى هذا الـكتاب موضوعة بدهاء كريه مر ،وسياسة منظمة بارعة ،ولـكنها ضالة ظالمة . فهذه الأقاويل تريد أن يحاط الشيخ بأسلاك التبجيل والتقـديس ، وتريد ألا يكون فى أنفس أتباعه وأنصاره غـير ذينك التقديس والتبجيل . ولأجل الحصول على ذلك حرمت عـلى الأتباع والأنصار الاتصال والاقتراب إلى من لايحبون الشيخ ، ومن لاينعمون بتبجيله ، ومن قد يدلون على خطئه ومكان انحرافه ، وأوجبت عليهم معاداة الأهل والأصدقاء والناس جميعاً، وهجرانهم واجتنابهم ، خشية أن يقولوا قولة حكمة وصواب فتلمع فى ضمائرهم وتتقد ، فتحرق شيئاً من جلال الشيخ فى نفوسهم ، ومن قدره فى صـدورهم ، لأن الغاية كلها هى المحافظة عـلى قداسة الشيخ ومكانته والرباط فى سبيل هـذه المحافظة .

الغاية

ولضمان هذه الغاية حرم عـلى الأتباع والمريدين الاعتراض عليه ظاهرا أو باطنا وحرم عليهم الاقتراب إلى من لا يقدسونه ، وحرم عليهم أن يسمعوا فيه قيـل قائل ، وحرم عليهـم سؤاله بالحاح ، إذ قد لايكون عليما بما سـئل عنه فيفتضح وينـكشف الغطاء ، وحرم عليهـم النظر إليـه بعناية ، وحرم المبيت عنـده

والاتصال به كثيراً ، لأن المبيت عنده والاتصال به يعينان على معرفة حقيقته المرة ونقصه المحتوم . وحقيقته هى بلا شك تدفع الغلو فيه وتأباه . وحرم عليهم الحرص على معرفة مقدار نومه وأكله وشربه ووضوئه وإتيانه النساء ، وحرم عليهم التزوج بامرأته التى طلقها أو مات عنها ، لأن ذلك كله يعين على كشف مخبآته ، وإذا انكشف المخبأ فعلى الشيخ العفاء . وحرم عليهم معارضته والاحتجاج عليه بأقوال العلماء ، وحرم عليهم أن يقولوا لشئ فعله أو لشئ قاله : « لم » وأوجب عليهم أن يعتقدوا أن العبث لا يمر به مطلقا ، فلا يقول قولا عبثا ، ولا يفعل فعلا عبثا لأن مقامه يجل عن ذلك ، وأوجب عليهم أيضا أن يعتقدوا أن معصيته ورئاءه أفضل من طاعة المريد وإخلاصه ، وحرم عليهم وأوجب غير ذلك مما يرمى كله إلى أن يكون الشيخ فى منجى من النقد والذم والاعتراض ظاهرا ولا باطنا ، وأن يكون كالايمان : يبعد عن مواطن الشكوك والريب والكفران ، ويخشى عليه طيف الأذى . وهذا الذى ذكرناه مما حرم على المريدين وأوجب عليهم مذكور كله فى كتاب « العهد الوثيق » ومذكور فيه غيره .

حظ الشيخ من أوصاف الربوبية

ثم قال: « ومنها ألا تعمل عملا إلا باذنه ، وأن تسلم له فى جميع الأمور بأن تكون بين يديه كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء ولا يتحرك منه شيء إلا إذا حركه » .

وهذا أيضا أمر بالاشراك بالربوبية ، وإعطاء للمخلوق الحقير الزرى صفة الخالق تعالى جده . فان الذى لا يتحرك شئ إلا إذا حركه هو الله وحده ، والذى لا يعمل عمل إلا باذنه هو الله وحده أيضا . فهذا ليس للرسول ولا لأحد من الرسل فانه ليس واجبا على المسلم ألا يعمل عملا من الأعمال الدنيوية والعادية إلا باذن رسوله عليه الصلاة والسلام ، فليس بواجب عليه ألا يشرب وألا يقوم وألا يقعد وألا يتحرك وألا يأكل وألا يسافر إلا إذا أذن له النبى . كلا ليس هذا واجبا على

مسلم . ومن زعم أن هذا واجب فى دين الاسلام فقد أعظم على الله الفرية ، بل لقد كان رسول الله يقول للمسلمين: «أنتم أعلم بأمور دنياكم »وكان يشاورهم فى الشؤون الدنيوية و يقول الله له « وشاورهم فى الأمر » فكيف بعد هذا يجب على المسلم ألا يعمل عملا إلا باذن شيخ من الاشياخ : فلا يصلى ولا يصوم ولا يطيع الله ولا يسافر ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا إذا أذن له ؟ اللهم إنا نعوذ بك من العمى ومن العماية ، ومن عقابيل الغواية .

هبوا هذا الشيخ جن، فحرم على أنصاره ومريديه ذلكم كله ، أفيحرمونه على أنفسهم ؟ اللهم إنا نعوذ بك مرة أخرى من العمى والعماية، ومن عقابيل الغواية .

ثم من يكون هذا الشيخ الذى يجب أن يقع المسلم بين يديه كوقوع الميت بين يدى غاسله ، وألا يتحرك شئ منه إلا إذا حركه ؟ أليس هو إنسانا ضعيفا عاجزا يخضع للهوى ؛ و ينقاد لشهوة النفس الأمارة بالسوء ، ويجهل كثيرا من الدين فضلا عن الدنيا ، و يجهل كثيرا من ضروراتهما ؟ ؟ ؟ أإنسان هذا الذى لا يتحرك من مريديه عضو إلا باذنه وأمره؟ إن هذا ، ولا ريب ، إله كبير . فالاله هو الذى لا يتحرك عباده ولا يقومون ولا يقعدون ولا يستطيعون أن يعملوا عملا إلا إذا شاء وأذن . هذا على مذهب أهل السنة ،وأما المعتزلة ومن شايعهم من أصناف القدرية فعندهم أن العبد يفعل و يقول و يعمل و يترك و يأتى ما يريد و إن لم يشأ الله ويرد . فهذا الشيخ أعظم إذن من الله عند المعتزلة..اللهم إنا نعوذ بك مرة ثالثة من العمى والعماية ، ومن عقابيل الغواية .أما المخلوق فحقارا وصغارا له ولمن وهبه هذا الوصف

الشيخ أعظم من إله المعتزلة

أربٌ يبول الثعلبان برأسه ؟ * لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ياهؤلاء إن الله جلت قدرته يقول لنبيه فى غير ما خفاء ولا لبس « ليس لك من الأمر شئ »ويقول « إنك لا تهدى من أحببت » ويقول:«ليس عليك هداهم » ويقول « وما أنت عليهم بجبار » ويقول « قل إنما أنا بشر مثلكم »

ويقول « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون » ويقول « ألا له الخلق والأمر » . هذا بعض ما يقول الله لأكرم الخلق عليه ، وأنتم تزعمون أن الواجب على المسلم ألا يعمل عملا إلا بإذن الشيخ و بأمره .

أهذا جنون

وألا يتحرك منه عضو ولا شئ إلا إذا حركه . أهذا جنون أم ضلال هو شر من الجنون ؟؟ « ياقوم إنى برىء مما تشركون،إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . . . ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً، وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

نفاق الشيخ ونومه افضل من اخلاص غيره ومن عبادته

ثم قال « قالوا : وليعلم المريد أن كل ذرة من أعمال شيخه لايقاوم بها عبادته هو طول السنة لسلامتها من الموانع ،فنومه أشرف من عبادة المريد ، وقد أرسل ذوالنون المصرى يقول لأبى يزيد البسطامى : إلى متى الغفلة والراحة وقد أسارت القافلة ؟ فأرسل أبو يزيد يقول له : ليس الرجل الذى يسير مع القافلة،و إنما الرجل من ينام إلى الصباح و يصبح أمامها، فقال ذوالنون هذه درجة لم تبلغها أحوالنا». وقال فى موضع آخر : « قال أبو سعيد من علامات كذب المريد أن يرى قيامه أفضل من نوم شيخه ، ومن علامات صدقه أن يرى رئاء شيخه أفضل من إخلاص نفسه » انتهى .وهذه أقوال أيضاً باطلة مخالفة لأصول الدين ولفروعه ، فليست كل ذرة من أعمال الشيخ أفضل من عبادة المريد طول السنة . وليست عبادة الشيخ وأعماله سالمة من الموانع ، وليس نومه أفضل من عبادة المريد ، والنائم إلى الصباح لايمكن أن يكون أمام القافلة السارية كل الليل ورئاء الشيخ لايمكن أن يكون أفضل من إخلاص المريد . وأى شيخ هذا الذى يرائى ؟ لأن الرئاء

نفاق ، وأى شيخ هذا الذى ينافق ؟

الذرة من عمل الشيخ

أما الزعم بأن الذرة من عمل الشيخ تفضل عبادة غيره من المريدين كل السنة فمن أعظم الكذب على الدين وعلى الله وعلى عدله . فإن الله لا يظلم أحداً ، ولا يلت مخلوقا من عمله شيئا ، ولا ينقص عاملا مما عمل فتيلاً . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، سواء أكان شيخا أم مريداً . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره سواء أكان ذلك العامل الشيخ أم كان المريد . فإن كل نفس بما كسبت رهينة . وليس بين الله و بين أحد من خلقه نسب ولا قرابة . كما قال تعالى : «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا و إن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . فلا يمكن فى عدل الله أن تكون الذرة من أعمال الشيخ ، لأنه شيخ ، أفضل من عبادة المريد كل السنة ، لأنه مريد ، ولا شك أن المريد قد يكون أصلح وأورع وأنقى قلبا ونفسا وأقرب إلى الاخلاص من الشيخ ، وقد يتقن المريد عبادته وصلاته وسائر أعماله أكثر من الشيخ ، كما قد يكون لدى الشيخ من النفاق والهوى والحقد والحسد وحب الدنيا والحرص عليها ما ليس عند المريد . فالمريد بالجملة كثيرا ما يكون أقوم بالواجب وأنبا عن المحرم وعن أمراض النفس والقلب ، وأكثر صبابة بالاخلاص والطاعات من شيخه . وهذا كثير مشهود . وليس بممكن مع هذا الفرق العظيم أن تكون الذرة من أعمال الشيخ المسبوق إلى كل خير أفضل من عبادة المريد السابق إلى كل خير طول السنة فى عدل الله وحكمته وشرعته .

سلامة أعمال الشيخ من الموانع

أما الزعم بأن أعمال الشيخ سالمة من الموانع فزعم من أعظم الأخطاء أيضاً فقد . تجتمع جميع الموانع الظاهرة والباطنة لدى الشيخ ، وقد يعرف المريد اجتماعها لدى شيخه ، وقد لا يعرف لحرصه على إخفائها و إضمارها وكتمانها . فأعظم الموانع النفاق والرثاء ، وقد يكون نصيب الشيخ من هذا الداء أعظم نصيب . ومن

أعظم الموانع أن تكون العبادة على خلاف السنة ، وكثيرا ما تكون عبادة الشيخ لا نسب بينها وبين السنة . ومن أعظم هذه الموانع الخنوع للهوى والانجذاب إلى الدنيا . ولهؤلاء فى هذين المرضين تاريخ مذكور مشهور ، ولهم مغدى ومراح إلى اقتناصهما من لهوات التقى والورع . فأية موانع للعبادة أعظم من هذه الموانع ؟ وأى قوم أفلتوا من وثاقها ؟ وأى أشياخ هؤلاء الذين سلموا منها ؟ وأى مسلم يستطيع أن يشهد لله بأن شيخه قد سلم ظاهره وباطنه من العصيان والاثم ، ويشهد أن أعماله مقبولة خالصة لوجه الله ؟ وقد نهى الاسلام عن هذه الشهادة فقال « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وقال « ولا تقف ما ليس لك به علم » وباطن المرء وما تنطوى عليه حشاشته لا يعلمه إلا الله . فمن زعم أن ضمير شيخ من الأشياخ قد خلص من الاثم والمعصية فقد قفا ما ليس له به علم .

لا يعلم باطن الانسان غير الله

وقد مدح رجل رجلا عند النبى ﷺ فقال النبى عليه السلام : ويحك قطعت عنق صاحبك مراراً . إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة ، فليقل أحسبه كذا وكذا ولا أزكى على الله أحداً . وروى البخارى أن أم العلاء ، إحدى الانصاريات ، قالت : لما توفى عثمان بن مظعون دخل عليه رسول الله فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال النبى : « وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ والله إنى لأرجو له الخير ، والله وأنا رسول الله لا أدرى ما يفعل بى » . قالت : فوالله لا أزكى أحدا بعده أبداً . وقال عليه السلام « إن اكذب الحديث الظن » إلى غير ذلك من الدلائل الكثيرة الدالة على أن الله وحده هو العليم بحقائق عباده وبما طويت عليه نفوسهم وقلوبهم .

لا يستوى النائم والقائم

وأما الزعم أن نوم الشيخ أفضل من عبادة المريد ومن صلاته فى جوف الليل ، فمن أعظم الأكاذيب المناقضة لأصول الدين بل للأديان كلها . فإن أديان الله قائمة على أن الحسنة لا يساويها غير الحسنة ، وأن المحسن ليس كغير

[illegible] وأن [illegible] الطاعة ، وأن كل شىء عندالله بمقدار ونظام ، وأن السابق إلى الخيرات والطاعات ليس كالقاعد المعرض عن ذلك ، الراكن إلى الراحة والكسل ، وأن المنفق ليله نوما وراحة لا يمكن أن يكون كالمنفق ليله تسبيحا وقياما وقرآنا ، وأن المالىء عينيه رقاداً لايكون ، فى عدل الله وشرعته ، مثل المالىء عينيه بكاء من خشية الله وخوفا من غضبه ومن مقامه بين يديه ، ولا كالمالىء عينيه افتكارا فى مخلوقات الله وجلائل مصنوعاته . وعلى هذا الأساس الصحيح وجب على العقلاء جميعا أن يبادروا إلى الطاعات والخيرات ، وأن يهبوا أعمارهم وحياتهم وصحتهم وراحتهم للعبادة والطاعة . وأن يجافوا جنوبهم عن المضاجع وعن الحشايا الناعمة إلى السهر والنصب ابتغاء مرضاة الله وابتغاء ثوابه . أما لو أمكن أن يكون النوم أفضل من القيام ومن الصلاة ، وأن تكون الراحة أفضل من النصب والتعب ، ازدلافاً ، إلى الله لكان جاهلا ذاك الذى يقوم يصلى فى جوف الليل والعيون نائمة ، ولكان عابثا ضالا ذاك الذى يدع راحته ولذته إلى تعب العبادة ونصب الطاعة والناس فى لذاتهم يتفكهون .

لا شك أن هذا الزعم من المزاعم التى ينكرها الاسلام والمسلمون بشدة ، بل نحن لا نشك أن قيام المريد أحيانا كثيرة يكون أفضل من قيام الشيخ ، وأن طاعته وعبادته تكون أحيانا أبر من طاعات الشيخ وعباداته لما يمتاز به المريد أحيانا عن شيخه من الإخلاص وصدق النية وسلامة القصد من الأدواء النفسية . ولا شك أن ما ذكره عن ذى النون المصرى وأبى يزيد البسطامى باطل .

وأما الزعم أن رئاء الشيخ يجب أن يعتقد أنه أفضل من إخلاص المريد فزعم هو إحدى الكبر وإحدى الآثام المنكرة .

تحريم أزواج الشيخ

ثم قال : « ومنها ألا تتزوج امرأة رأيته مائلا إلى التزوج بها ، ولا امرأة طلقها أو مات عنها » .

يحاول هذا الشيخ ، عفا الله عنه ، أن يتم الشبه بينه و بين النبى عليه الصلاة والسلام . ولهذا فالتزوج بمطلقته و بأرملته وبالتى مال إلى الزواج بها باطل ممنوع كما منع التزوج بزوجات النبى عليه السلام . وفى ص ١٢ من هذا الكتاب يقول : « قال ابن مسروق من علامة المريد الصادق ألا يرى على وجه الأرض أحداً أحب إليه من شيخه . فان قدم عليه زوجة أو ولداً لم يشم من طريق الحق رائحة وهو كاذب . وفى الحديث لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين . وهو للأشياخ بحكم الارث » .

تشبيه الشيخ بالرسول

فعنده أنه إذا لم يؤمن من قدم أحداً فى حبه على رسول الله فكذلك ليس بمؤمن من قدم أحدا على شيخه فى حبه . وهذا بلا شك قول زور وخطأ باطل يستتاب قائله وناشره و بائعه ومقره و راضيه . ولا يرتاب مسلم يعرف ما الاسلام أنه يجب أحيانا كثيرة على المسلم أن يحب فقيرا زريا عاميا أكثر من حبه هذا الشيخ وغيره من أشياخ الطرق لما قد يمتاز به ذاك الفقير العامى على هؤلاء من التقوى والإخلاص والورع . ولايشك المسلمون أيضا فى أن من كره شيخا من هؤلاء لسبب من أسباب الكراهة الصحيحة فليس بناقص ذلك من دينه و إيمانه شيئاً وليس بضائره قليلا ولا كثيرا . ولو أن الناس جميعا لم يعرفوا هذا الشيخ الذى أوجب عليهم أن يحبوه أعظم من حبهم الناس جميعا لما ضارهم ذلك الجهل به شيئا عند الله . و إننا نقول لهذا الشيخ ، ونحن على يقين مما نقول : إن جميع أنصاره ومريديه يحبون أموالهم وأزواجهم وأولادهم أعظم من حبهم له بلا شك ، فهل يراهم جميعا بعيدين عن رائحة الحق غير صادقين فى دينهم وشأنهم .

المشايخ مشرعون

نعم يقول هذا ليقيم الشبه بينه و بين النبى عليه السلام . وفى ص ١٢ يقول ناقلا « فإنه ما دامت الأشياخ باقية فان الأمر والنهى باق ، والتحليل والتحريم مخاطب به » . فالأشياخ بهذا يحللون و يحرمون ، و يأمرون وينهون ، كما كان

الأنبياء والمرسلون . ويقول ص ١٤ : إن المعترض على الشيخ لا يفلح أبداً . ونص الكلمة المذكورة « من قال لأستاذه «لم» لا يفلح أبداً » فالاعتراض على الشيخ موجب الضلال والهلاك كالاعتراض على الأنبياء سواء . ويقول فى هذه الصفحة أيضا: إن التسليم للشيخ واجب فى كل شئ حتى فى ترك الطاعات، ويزعم أن الشيخ لو منع مريده من الصلاة والصيام والقرآن وطلبه العلم فأنكر المريد هذا المنع ،ولو فى نفسه، فهو عاص لله ولرسوله. ويقول ص١٨ كما تقدم : إنه لا يصح أن يطيع المريد فى شيخه قول قائل، وإنه يجب عليه أن يعادى جميع الناس لأجله إذا أراد ذلك منه.وهذا هو ما يجب على المسلمين إزاء نبيهم. ويزعم ص١٩ أن أفعال الاشياخ لا يدخلها العبث والباطل أبداً فهم فى هذا كالأنبياء .

طاعة الشيخ فى ترك الطاعة

وأما هنا فنقول : إن الزواج بمطلقة الشيخ وأرملته وبالتى مال إليها ممنوع كالزواج بنساء النبى عليه السلام.وقد ذكر فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن أحد المريدين فى مصر تزوج بامرأة شيخه بعد موته فجاءه الشيخ وهو نائم وطعنه بحربة فأرداه قتيلا. وفى الطبعة الثانية حذف هذه الخرافة بعد أن أحس جسامتها وفداحتها . وهذا الذى ذكر كله باطل فاسد لدى جميع المسلمين لا يختلفون فى بطلانه ومناقضته لأصول الاسلام وفروعه، ولا يختلفون أن قائله يجب أن يستتاب وأن يتوب . .

على أن الذى حرم على المسلمين من أزواج النبى عليه السلام هى أزواجه اللاتى مات عنهن لا اللاتى طلقهن أو مال إلى الزواج بهن فلم يتزوجهن فانهن يحرمن على المسلمين . فهو بهذا قد وضع لنفسه من الحقوق والواجبات مالم يمكن لرسول الله ﷺ . وأزواج النبى اللاتى مات عنهن حرمن على المسلمين بعده لأنهن أمهاتهم كما ذكر القرآن، ولأنهن أزواجه عليه السلام فى الجنة لا يصلحن لغيره ، ولأغراض أخرى عليا ليس لأحد منها شئ. أما أزواج الشيخ فلماذا حرمت على المريدين ؟

تفضيل الشيخ على الرسول

و بعد تحريمهن عليهم يحتمل أنه يريد أن يبقين حياتهن بلا أزواج ، ويحتمل أنهن محرمات على المريدين فقط دون غيرهم . أما الاحتمال الأول فمن أعظم الضلال والسوء . وأما الاحتمال الثانى ففاسد باطل لأن الواجب على الشيخ أن يرجح زواجهن بمريديه وأنصاره على زواجهن بالآخرين، لأن مريديه وأنصاره يقومون بحقوقهن وواجباتهن ويكرمونهن أكثر من الآخرين رعاية لحق شيخهم عليهم ، ولأنهن قد تخرجن على الشيخ وتأدبن بآدابه فكن لائقات بمريديه لأنهن طيبات وهم طيبون والطيبون للطيبات . فالمعقول أن يقدم المريدون على غيرهم لأجل ماذكرناه . ولكن كل شيء هنا يجرى على غير المعقول

دفاع أتباع الشيخ

وقد خاطبنا بعض أتباع هذا الشيخ فى هذه المسألة فوجدناهم مقرين لها راضين بها ، وقد دافعوا عنها بأن المراد الأدب مع الشيخ فقط ، ولكن فاتهم شئ بل أشياء ، إذ يقال لهم : هل يضع الشيخ لنفسه من الآداب مايحرم به الحلال ويحل به الحرام ؟ وهل من الأدب مع الشيخ أن يحرم ما أحل الله فى كتابه ودينه ؟ ؟ ؟ إنه يجب أن يكون الأدب مع الشيخ ،والأدب بين الشيخ وأتباعه ، هو اتباع الشرع تحليلا وتحريما . والمسلم الحق لا يمكن أن يزعم أن الأدب يكون فى تحريم الحلال أو فى إحلال الحرام إذا كانوا حقا مسلمين . وأى شيخ هذا الذى يرى لنفسه من الآداب مايرد به على الله وعلى كتابه، ومايحرم به طيبات ماأحل الله لعباده ، وأن يرى لنفسه من ذلك ماليس لرسول الله وماليس لأبى بكر وعمر ، وماليس للآخرين من سادة الأمة ؟ ولعمر الله إن هذا ليس من الأدب فى شئ . ولو كان الامتناع من أزواج الأموات فيه تأدب معهم مشروع مطلوب لكان من الواجب على المسلم ، أو من المستحب له ، ألا يتزوج أرملة مسلم ولا مطلقته أبدا ، لأن التأدب مع المسلمين عامة مطلوب مشروع .

فساد الدفاع

على أن هذا الدفاع الذى دافعوا به عن شيخهم غير صادق ، وذلك أن هذا

الشيخ قد ذكر فى مقدمة الكتاب أن جميع مافيه مأخوذ من سنة النبى ومن دين الاسلام ، وعنوان الكتاب « العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق » يدل على ذلك ، فان أحسن طريق ، بلاشك ، هو الطريق المحمدى ، فكل مافى الكتاب هو من الاسلام ، فيما يزعم كاتبه : فتحريم مطلقة الشيخ وأرملته والتى مال إلى الزواج بها أمر يقره الاسلام ويرضاه ، ويدعو إليه عند هذا المؤلف عفا الله عنه . ثم لو كان من الأدب فقط فلماذا ساغ لذلك الشيخ أن يقتل ذلك المريد الذى تزوج بأرملته ،وهل يحل قتل المسلم بغير ارتكابه إحدى الموبقات . وقد قال عليه السلام فى الحديث الصحيح : لايحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه يعنى المرتد .

أنانية

فلا ريب أن تحريم زوجة الشيخ راجع إلى الأنانية الحادة والغلو الممقوت فى تقديس النفس ، وراجع أيضا إلى الرغبة العنيفة فى إبعادمن يعرفون دخائل الشيخ ومخبآته عن أنصاره وأتباعه لئلا يعلموا من أمره شيئاً يزلزل مكانته فى قلوبهم ونفوسهم .

آثار الشيخ

ثم قال « ومنها أن تعظم ماأعطاه لك من ثوب ونحوه ولا تبيعه لأحد ، ولو أعطاك ماأعطاك ، إذ ربما يكون قدطوى لك فيه سرا ، وربما جمع لك فيه جملة من أخلاق الرجال كما طوى رسول الله لأبى هريرة ثوبا فما نسى بعد ذلك شيئا قط . والأشياخ ليس لهم فعل عبثا « كذا » لأن مقامهم يجل عن ذلك »

وهذا أيضا راجع إلى محاولة إتمام الشبه بينه وبين الرسول عليه السلام وإن كان كثيرا مايزيد فى قدره عن قدره ، ويعطيه من الفضائل والأحكام مالم يكن لرسول الله . وهذا عين البلاء . فهو هنا يأبى على الأتباع والمريدين أن يفرطوا فيما وصل إليهم من الشيخ : فلا يهبوه ولا يبيعوه ، مهما ثمن لهم ومهما بولغ فى

هـذا لم يكن لرسول الله

التثمين والقيمة . وهذا لم يكن لما أعطاه النبي عليه السلام ، فقد كان يعطى أصحابه ما يعطيهم وكان لا يأبى عليهم أن يبيعوا أو أن يهبوا ذلك ، وكانوا هم لا يفهمون هـذا المنع والغلو الباطـل . فكانوا يبيعون ذلك أحيانا ، و يهبونه أحيانا أخرى وأحيانا يستمتعون به . وما كانوا يقدرون ما أعطاهم هذا التقدير ، ولا يغلون فيه هذا الغلو ، ولا يفهمون ذلك السر الذى ربما كان أخلاق جملة من الرجال ، أو ربما كان أعظم من ذلك .

أسرار الشيخ

ثم أى سر هذا الذى قـد يضمه الشيخ فى ثوب أعطاه ، بل وأى سر لدى الشيخ ؟ وهل يستطيع أن يضع فى شئ سرا لم يضمه الله فيه ، وهل يجعل مباركا ماليس مباركا ؟ هذا مأخوذ من قول العامة فى الله عز وجل « يضع سره فى أضعف خلقه » . ولـكن قول العامة أصدق من قول هذا الشيخ ، لأن العامة يدركون أن الذى يضع السر هو الله لا المخلوق . أما الشيخ فهو أعجز من ذلك وأقـل . وأى شيخ هذا الذى يقدر أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال الفضلاء ، وكيف يمكن ذلك ؟ أليس هذا جنونا ؟ أو ليس هذا لم يكن لمخلوق قط لا للأنبياء ولا لغيرهم ، بل الله وحده هو الذى يضع الأسرار والبركات فيما يضع وما يخلق . أما المخلوق ، فكما لا يستطيع أن يخلق شيئا من العدم ، فكذلك لا يستطيع أن يوجد فى شئ سرا من الأسرار ، ولا بركة من البركات ، ولا معنى من المعانى . فخالق الأشياء هو خالق معانيها وصفاتها ، وموجد المخلوقات هو موجد البركات .

صفات الله فى الشيخ .

إن كثيرا من الأوصاف التى يخلعونها على هـذا الشيخ فى هذا الـكتاب هى صفات لله خالصـة لا يمكن أن يتصف بها غيره سبحانه . أولا يعلم هؤلاء أن الشيخ لو كان مستطيعا أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال أو يضع غير ذلك لـكان مستطيعا أن يغير الأحوال العامة و ينقلها من سوء إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، ومن كفر إلى إيمان . ولـكان فى قدرته أن يغير القلوب والنفوس ،

وأن يضع فيها الهدى والايمان ،وأن يحشوها صلاحا واستقامة وفضائل. فالذى يستطيع أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال الكاملين لن يعجزه أن يضع فى القلوب الكافرة والفاجرة الايمان والصلاح يقينا ؛والذى يستطيع ذلك كيف لا يستطيع أن يضع فى قلب مشرك كافر أخلاق رجل مؤمن ، ومن أخلاقه الايمان والدين ؟ وعلى كل حال فالذى يقدر أن يضع المعانى الفاضلة فى الجمادات كالأثواب يقدر ولا شك أن يضع هذه المعانى فى العقلاء من البشر وفى الحيوانات : فيقدر أن يعيد الكافرين والبهائم مؤمنين ومؤمنات . ولكن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لاشريك له و إن زعموا خلاف ذلك وكتبوا مازعموه وقالوا : إنه هو الايمان والعقل والذوق ، فأين يذهبون ؟ ؟ إن هذا الذى ذكروه منطو على شر أنواع الوثنية وسيكون مادة لاتنفد لهذا المرض الانسانى العتيد .

النهى عن اتباع الآثار

لقد كان الإسلام مبنيا على النهى عن اتباع آثار الأنبياء والصالحين ، وكان المسلمون ، أهل البصر بالاسلام ، ينهون عن اتباع هذه الآثار وعن الغلو فى تلك المخلفات كما قدمنا فى الجزء الأول . ومن أبلغ ذلك وأوضحه أن الخليفة عمر أمر بقطع شجرة الرضوان لما رأى أناساً يقصدونها . وقد نهى الناس أيضا عن قصد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه النبى عليه السلام ، وقال : إنما هلك من كان قبلكم باتباع آثار أنبيائهم .وقد جاء أن المسلمين لما فتحوا (تستر) من بلاد الفرس فى خلافة عمر بن الخطاب وجدوا ميتا على سرير وعند رأسه مصحف وهو النبى « دانيال » ، على ماذكروا ، فأمر عمر بحفر جملة قبور متفرقة وأمر بدفنه فى أحدها ليلا ،فدفن وسويت القبور لتعمية مكانه لئلا يعرف فيعظمه الجاهلون و يئول بهم إلى عبادته ،لأن الناس مجبولون على الغلو فى من كان فوقهم أو من ظنوه كذلك . وقد نهى الاسلام بشدة عن الصلاة إلى القبور ، وعن البناء عليها لئلا يوردهم ذلك موارد الهالكين . وكان الاسلام بالجملة يريد من أهله أن يقطعوا

قطع الرجاء فى غير الله

كل رجاء فى غير الله، وأن يحصروا رجاءهم فى الله وحده ، وأن يجمعوا رغبتهم عليه وأن يكون وحده المرجو المدعو كما كان هو وحده الخالق الموجد . فالزعم أن فيما وهب الشيخ أسراراً و بركات زعم يرده معنى الاسلام وتأباه نصوصه ، والزعم أنه يجب الاحتفاظ بما وهب والاستمساك به زعم مخالف لأساس الشريعة القائمة على الدعوة إلى الله والرغبة فيه وحده والرغبة عن كل ماسواه .

ب أبى هريرة

وأما ماذكر أن النبى طوى لأبى هريرة ثوبا فما نسى بعده شيئا فتحريف ، والصحيح أن الرسول قال يوماً ، وأبو هريرة حاضر ، : « من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئا سمعه منى » فبسط أبوهريرة ثوبه حتى قضى النبى حديثه قال أبوهريرة فما نسيت شيئا سمعته منه . فالثوب المبسوط هو ثوب أبى هريرة ، والباسط له هو أبو هريرة . والرسول عليه السلام لم يضع فى الثوب سراً ما . ولكن الله خص أبا هريرة بالحفظ الجيد إذ أطاع رسوله ولازمه لأجل حفظ السنة على الأمة والسنة نصف الدين . و بسط الثوب كناية عن الالتفات إلى رسول الله والانتباه لحديثه والرغبة فيه .

أما زعمه أن الأشياخ ليس لهم فعل عبث ، لأن مقامهم يجل عن العبث ، فهى شهادة يسأل عنها بين يدى الله و يتحمل هناك تبعتها و إثمها.

شيخ أن
فعل بالمريد
ل ما يريد

ثم قال : « ومنها ألا تتغير عليه إذا نقصك بين إخوانك أو فعل بك أى فعل ، لأنه لا يفعل معك ذلك إلا لمصلحة يقصر عن إدراكها عقلك ، بل يجب عليك أن تشكره زيادة على ما كنت عليه من قبل ، لأنه ما فعل معك ذلك إلا اعتناء بك ، بل لا يخاف على المريد إلا من مباسطة شيخه له . فمن تغير من زجر شيخه لا يفلح أبداً » .

كما يحاول مؤلف هذا الكتاب أن يقيم الشبه التام بينه و بين النبى يحاول كذلك أن يقطع على أصحابه ومريديه سبيل التفكير فيه وفيما يعمل ، وسبيل

الاعتراض على ما يأتى وما يذر ، فعنده أنه يجب أن يكون فى منجى من الاعتراض والقدح ، وأن يكون أتباعه فاقدى الارادة والاختيار والعقل ، أو كما يعبر هو ، يجب أن يكونوا كالأموات بين أيدى الغاسلين : لا يتحرك منهم شئ إلا إذا حركه هو : فله أن يسئ إليهم وأن يسبهم ، وأن يطردهم وأن يضربهم ، كما يفعل فى دروسه ومجالسه التى شهدها الناس جميعا ، وعليهم هم أن يسلموا وأن ينقادوا ظاهرا وباطنا لكل ما يريده منهم : فيسلّموا ظهورهم لعصاه ، وقلوبهم لهواه ، وله هو أن يكون كامل التصرف والاختيار فيهم ، وعليهم هم أن يفقدوا كل اختيارهم وتصرفهم فمن قال منهم لأمر فعله ، ولو فى نفسه : لم فعل أو لماذا ترك لم يفلح . ومن تغير عليه بقلبه لأنه نقصه بين إخوانه ، ولأنه آذاه ، فلن يفلح أيضا ، ومن ألح عليه فى السؤال فلن يفلح أيضا . ومن عارض قوله بأقوال العلماء وحجج الاسلام فلن يفلح أيضا ، وإذا منع أحدا منهم فعل الطاعات : فنهى عن الصلاة وعن الصيام ونحو ذلك فلم يطعه أو اعترض عليه ، ولو بقلبه ، فلن يفلح أيضا ، وعليهم جميعا أن يعتقدوا أن نوم الشيخ وعصيانه ، كالرثاء والنفاق ، أفضل من طاعتهم ومن قيامهم ، وإخلاصهم ، وعليهم أن يعتقدوا أيضا أن جميع أفعاله مبرأة من العبث ، فضلا عن العصيان والفسوق ، لأن الذى لا يمكن أن يعبث لا يمكن أن يعصى . وبالاجمال يجب أن يكونوا له أقل وأذل من العبيد ، بل كلا فان العبد يستعبد الظاهر فقط ، وتستعبد أفعاله دون قلبه وضميره وخطراته . أما المريدون ، عند هذا الشيخ التقى الصالح ، فيجب أن يستعبد قلوبهم ونفوسهم وضمائرهم قبل أفعالهم وأعمالهم . بل كلا ، فانه يجب عنده ألا تكون لهم قلوب ولا عقول ولا حياة بل كالأموات بين أيدى الغاسلين ! ! وليس فى الدنيا كلها استعباد أفظع من هذا الاستعباد ، وليس فيها كلها رق يماثل هذا الرق وذل كهذا الذل . ولو أن العباد أعطوا ربهم من قلوبهم وأبدانهم ما يريده هذا الشيخ

أفظع الرق

لنفسه من مريديه لكانوا من أعظم الأتقياء والأولياء ، ولكانوا عباده المخلصين الأبرار.

النتيجة

وقد أدت هذه الأقوال إلى النتيجة التى كان يرمى إليها واضع هذا الكتاب وهى أن تكون سيئاته لدى مريديه حسنات ، وأن يكون خطؤه صوابا وحكمة ، وأن يكون نقصه كمالا ، لأنهم ممنوعون من أن يفكروا فى غير الحسنات والصواب والكمال والحكمة ، وممنوعون من أن يبصروا حوله غير الدين والتقى والسنة والجلال والجمال : فهم لا يمكن أن يسلموا لك أن الشيخ غلط فى مسألة واحدة ، ولا أنه فاته علم من علوم الدنيا أو علوم الدين ، وقد يسلم لك بعضهم ، بالاجمال ، أن الشيخ ليس معصوما ولكن عند التفصيل يأبى إلا أن يكون معصوماً : فأنت تقول له : هل يمكن أن يخطئ الشيخ ؟ فيقول نعم قد يكون ذلك ، لأن المعصوم هو النبي فقط ، فترجع وتنازعه فى كل مسألة للشيخ فيها قول فلا يمكن أن يسلم لك أنه حاد عن الصواب والحق فى واحدة منها : فهو يقبل القول بأنه غير معصوم بالجملة و يرفضه بالتفصيل ، وهذا بلاء . أما الشيخ فهو يزعم فى هذا الكتاب لنفسه العصمة بالجملة والتفصيل ، لأنه يزعم أنه يجب التسليم له فى كل أمر ظاهرا وباطنا ، ولأنه يزعم أن الأشياخ ، وهو عند نفسه سيدهم ، مبرأون من العبث والباطل ، ولأنه يزعم أنه لا يفعل شيئا إلا لمصلحة يقصر عن إدراكها عقلى وعقلك وعقول العالمين جميعا . . . من السهل الذى لا يبالى به أن يدعى امرؤ لنفسه ما يشاء ، وأن يخلع عليها من أوصاف النبوة والألوهية والربوبية ما يريد . ومن السهل الذى لا يعبأ به أيضا ، والذى يسهل على الحق أن يقول له : ما أرخصه ، أن يختار قوم لأنفسهم من الهوان والعبودية أفظع ذلك وأذله . ومن السهل عليهم أن يبيعوا عقولهم ونفوسهم وضمائرهم فى سوق الجهل والخداع والتغرير : هذا كله من السهل الميسور ، ولكن من الصعب العسير أن يدعى مدع أن ذلك من الاسلام

عصمة الشيخ

من السهل الادعاء

أو أنه يقره الاسلام ، أو أحد من المسلمين ،فيقيم لدعواهما يجعلها محترمة مقبولة.

والأدهى والامر قوله « أو فعل بك أى فعل » فان إنسانا فى الدنيا لا يمكن أن يقر فى نفسه أى فعل يفعل به ، و إن إنسانا فى الدنيا لا يمكن أن يقر على كل فعل أراده . ومن هذا الذى يجب أن يسلم له المسلم جميع أفعاله فيه ؟ إنه لا يوجد فاعل واحد يجب على المسلم أن يسلم له نفسه يفعل فيها مايشاء و يختار حاشا الله ، فهو وحده الذى يجب على العباد أن يرضوا قضاءه وقدره وفعله ، وأن يسلموا نفوسهم له كذلك طوعا أو كرها . أما الخلق فلا . و إنسان يرضى بأن يقدم نفسه لانسان آخر يتحكم فيها و يفعل فيه مايشاء ليس إنسانا، بل وليس حيوانا ، بل لا يكون ذلك إلا جماداً أصم . كما أن من الأدهى والأمر قوله : إنه يجب عليك أن تشكره أكثر مما كنت تشكره على إساءته ، لأنه مافعل بك ذلك إلا اعتناء بك ! ! وهل يمكن أن تكون الاساءة والاهانة اعتناء ؟ أو هل من العقل والذوق والدين أن يسيء المرء إلى محبيه وأنصاره ؟ وهل يجازى العاقل الدّين الحسنة بالسيئة ؟ كلا إنما يفعل ذلك اللئيم الغادر ، أما العاقل والتقى فلا يفعلان ذلك أبداً ، بل يجازيان المحسن بالاحسان والكريم بالاكرام . وقد كان رسول الله يكرم أصحابه على حسب درجاتهم فى الفضل والتقى والعلم ، وعلى حسب حبه لهم : فكان لا يقدم على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى غيرهم فى الاكرام والاحسان والبر. ونحن نذكر هنا الرسول عليه السلام لأن القوم يزعمون أنهم بسنته مستمسكون . وقد تمكنت أقوال هذا الشيخ فى قلوب أتباعه وأنصاره فتراهم يتمنون أن يبسط لسانه إليهم بالاساءة والأذى، وعصاه إلى ظهورهم بالضرب والوكز : فتراهم يقدمون له ظهورهم وجنوبهم فيتلقون ضربات عصاه برضا وتسليم ، وشتائمه بسرور وابتهاج . وقد وجد هو فى هذا ملهاة وسلطة باردة سائغة تعز على الملوك والامراء ، سلطة لا تكلفه جندا ولا مخاطرة ولا شيئا من آلات السلطة والسلطان . فتراه يبسط عصاه و يده

لا تسلم النفس لغير الله

سلطة الشيخ

يد الشيخ ولسانه

ولسانه إلى القوم المساكين بالضرب والسباب المنكر فى مجالسه العامة ، وحلقات دروسه ، وفى كل مكان . ولعل بعضهم كان يهنئ بعضا بضربه وسبه ! ! ولعل الكثيرين يقربون مجالسهم منه رجاء أن يفوزوا بضرباته وشتماته التى هى عناية خاصة بهم كما زعم لهم فى هذا الكتاب العجيب . وتجده لهذا يخص كبار أصحابه بمزيد الضرب والسب والأذى ، وهم لا يحسبون ذلك ، فيما زعموا وزعم ، إلا عناية بهم وإكباراً لشأنهم .

العجب

وقد لا يكون هؤلاء القوم يعلمون أن الرسول عليه السلام لم يضرب أحداً بيده الشريفة فى حياته كلها : لا خادما ولا زوجاً ولا غيرهما ، فضلا عن خاصته وخلاصة أصحابه . والعجيب أن شأن هؤلاء الجماعة مخالف لما تواطأ عليه الناس جميعاً فى كل عصر ومصر . فان الناس عادة يبالغون فى إكرام خاصتهم وفى التودد إليهم وفى تبجيلهم وإظهارهم أمام الجماهير مظاهر التكريم والتعظيم ، وهذا شأن جميع العقلاء من بنى آدم ، أما هؤلاء فأمرهم عجب .

التشبه بالله

أما قوله : « بل لا يخاف المريد إلا من مباسطة شيخه » فيقال كلا بل لا يخاف المسلم الصحيح الاسلام إلا من غضب ربه ومن ذنبه . والمريد الذى لا يخاف إلا من مباسطة شيخه ليس مسلما ولا كرامة . وكأن الشيخ يريد بهذا التشبه بالله فيريد أن يقول إن الله أحيانا يملى لعباده ، ويغدق عليهم نعماءه وآلاءه وهو عليهم غاضب ، وهم بها وبه كافرون ، ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر ، فكأنه باسطهم أولا ثم أخذهم ثانيا . وكذا الشيخ يباسط المريدين ويبدى رضاه عنهم وسروره بهم وارتياحه إليهم وهو عليهم غاضب ناقم ، وهو يريد بهم الشر والمكر والكيد فهو فى هذا كالله عند نفسه . ونعوذ بوجه الله من هذا .

وقوله « ومن تغير من زجر شيخه لا يفلح أبداً » يقال فى جوابه: من لا يتغير ، ومن لا يغضب من سوء أدب شيخه وبذائه وإيذائه باليد واللسان فهو الحمار ، وحاشا

المسلم الصحيح الاسلام أن يكون كذلك ، وحاشا الاسلام أن يرضى للمسلم هذا الهوان . ومن يكون هذا الشيخ الذى لا يفلح أبدا من تغير عليه إذا أساء إليه ؟ إن الفلاح حقا لا يكون إلا فى رضا الله وفى طاعتـه وفى اتباع شريعته وقانونه السماوى ، و إن المفلح حقا هو من رضى الله عنـه ، ومن استمسك بهداه و بحبله المتين . أما هذا الشيخ وغيره من الأشياخ فلا وزن لهم فى هذا الميزان . ولو تقطع الشيخ وجميع الأشياخ غضبا على إنسان ، قد رضى الله عنه، لما ضاره ذلك شيئاً ، ولما استطاعوا ، متعاونين مجتمعين، أن يحولوا بينه و بين الفلاح . ولو أنهم رضوا جميعاً عن إنسان ، قد غضب الله عليه رضاهم عن أنفسهم، ثم أرادوا، جاهدين مجتمعين، أن يوصلوا إليه الخير والفلاح لما استطاعوا من ذلك شيئاً إلا أن يشاء الله

الفلاح بيد الله لا بيد الشيخ

ومن يكون هذا الشيخ الذى لا يفلح من تغير عليه إذا أساء إليـه ؟ إن الفلاح فى هـذا العالم ليسع كل من لم يغضب عليه ربه ، فمن غضب عليـه رب هذا العالم وأراد أن يخرجه منه وأن يحول بينه و بين الفلاح والسعادة فذاك هو الذى لا بد أن يشقى وأن يهلك. فعلى هؤلاء الناس أولا أن يقيموا للناس البراهين على أن شيخهم هو صاحب هذا العالم وربه وخالقه كى يستطيعوا أن يقنعوهم بأن من غضب عليـه لا يفلح أبداً . أما ماداموا يعلمون بأن شيخهم إنسان مخلوق فلن يصـدقوا ما يزعمونه له من تقسيمه الفلاح ، وتصريفه الخـير والشر والرشاد والضـلال ، ولن يصدقوا أنه يستطيع الحيلولة بين الناس و بين فلاحهم وهداهم فليثبتوا أولا هذه المخزية ، ثم ليدّعوا بعدها ما يشاءون وما يذكرون من تقسيم الشيخ للفـلاح وللرضا والغضب وللسعادة والشقاوة ، وللجنات والنيران أيضاً وليبعدوا بعـدها من شاءوا عن رحمة الله ، وليهبوا من شاءوا ما شاءوا من الرحـمة والفلاح والسعادة

يجب أولاً

لا يفعل شئ إلا بإذن الشيخ

ثم قال : « ومنها ألا تسافر ولا تتزوج ولا تفعل نحو ذلك إلا باذنه »

كنا قد سمعنا منذ بضع سنوات أن جماعة من أتباع هذا الشيخ ومريديه أرادوا أن يسافروا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فذهبوا إلى الشيخ أولا يستأذنونه ويستأمرونه ، كما أوجب وفرض عليهم فى هذا «العهد» فكان جواب الشيخ ألا يسافروا ولا يحجوا فى ذلك العام لحكمة له تدق على عقول المريدين وعقول جميع العالمين . والمريد ، كما تقدم ، لا يجوز له أن يواجه الشيخ بلفظة « لماذا » ولا كلمة « كيف » وإلا هلك وشقى ولو لم يتفوه بالاعتراض والسؤال : فكان من الشيخ الرفض ، وكان من أولئك المريدين المنكوبين التسليم .

وكنا سمعنا أيضا من بضع سنوات أن خطيب هذه الجماعة قال يوم الجمعة فوق المنبر ، وكان تحته الشيخ والمريدون ، ما معناه : إنه يجب على المريدين الصادقين أن يطيعوا شيخهم ولو أمرهم بعصيان الله وانتهاك حرماته . . . ثم أتم الخطبة والصلاة ولم ينبعث من جوانب تلك الجماعات صوت إنكار واعتراض لا من الشيخ ولا من غيره ، ولم ترتسم علامة سخط وغضب واشمئزاز على وجه من تلك الوجوه ، غير أن رجلا واحدا ، يدل مظهره ويشهد موقفه ، على أنه غريب فى الجماعة ، قام غاضبا وسأل عما سمع من الخطيب . . . فما أسمعوه جوابا .

روايتان

كنا سمعنا هاتين الروايتين من ثقات كنا لا نجرؤ على تكذيبهم ولا نجرؤ على تصديق ما أسمعونا لغرابته وقبحه وفظاعته ، ولكن جاء هذا الكتاب الذى كتبه الشيخ بيده فقطع الشك باليقين . فنحن اليوم نصدق ذلك ونعلم أنه يقع أمثاله كثير ، لأن إمام الجماعة قد صدقه فى كتابه الذى جعله عهدا بينه وبين مريديه . . . فهو يقول تصريحاً : لا يصح للمريد الصادق أن يسافر إلا بإذنه وأمره ، وقد يمنع من السفر ، ومن الاسفار السفر إلى الحج وإلى الطاعات المختلفة كالجهاد فى سبيل الله وكطلب العلم وغيرهما . وللشيخ بعد الاستئذان أن يمنع وأن يكون جوابه الرفض والإباء ، وإلا كان لا معنى للاستئذان ... ويقول أيضاً :

إنه لايصح للمريد الصادق أن يتزوج إلا بعد استئذانه و بعد إذنه ... والزواج أحياناً يكون واجباً فرضاً .وللشيخ بعد ذلك أن يمنع ويحرم ، وله أن يجيز و يبيح و إلا لما كان للاستئذان والاستئمار فائدة ولا معنى . .. ويقول أيضا :إنه لايصح للمريد أن يفعل نحو ذلك ، اى نحو الزواج والأسفار للحج وطلب العلم والجهاد فى سبيل الله، إلا باذنه ومشيئته أيضا، كما تقدم أنه ذكر، على وجه العموم، انه لايجوز للمريد ان يفعل فعلا ولا أن يعمل عملا إلا بعد استئذانه الشيخ و إذنه له ، وأنه يجب عليه أن يكون امامه مثل الميت البالى يقلبه كيف شاء لايتحرك منه عضو ولا شئ إلا إذا شاء وحركه .

لايتزوج إلا باذنه

فالذى على المريد بهذه الآداب والتعاليم ألا يطيع الله وألا يعبده ، وألا يقوم بالفروض والواجبات ، كالحج والجهاد فى سبيل الله وطلب العلم والواجبات الأخرى ، إلا إذا أراد ذلك شيخه فأذن له ،وله أن يمنعه من ذلك وأن ينهاه عنه وأن يأمره بضده . وعلى المريد حينئذ التسليم والانقياد والرضا ظاهراً وباطناً بحيث لايقول « لم » ولا كيف » لابلسانه ولابحاله ووجدانه ، و بحيث لايتحرك منه عضو ولا شئ إلا بتحريك الشيخ و إرادته وقدرته وقوته و إلا فالهلاك والشقاء مصيره فى دنياه وأخراه .

لايعبد الله الا باذنه

وقال فى صفحة ١٤ من الطبعة الثانية وصفحة ١٧ من الطبعة الأولى حاكيا : « كل مريد أمره شيخه بعبادة من صوم أوصلاة أو قراءة أواشتغال بعلم أو حرفة أو نحو ذلك أومنعه منها (أى من العبادة) فتكدر من ذلك فهو عاص لله ولرسوله »

اذا نهى عن العبادة

فللشيخ أن يمنع من الطاعات : من الصوم والصلاة والقيام وقراءة القرآن وعلى المريد أن يذعن للمنع و إلا كان عاصياً لله ولرسوله ، ولو أن المريد امتثل هذا المنع فى الظاهر الا أنه عارض فى قلبه فتكدر لكان أيضاً عاصياً آثما عند صاحب

الكتاب، وعند أتباعه ومريديه من أهل السنة المدعين أنهم أهل الحق دون العالمين جميعاً.

وقال فى صفحة ١٤ : « فمتى اختار شيخه شيئاً واختار هو خلافه فقد خرج عن صحبته ، والواجب عليه التوبة ثم إن شاء شيخه قبله وإن شاء رده . . . »

الله أكبر على هؤلاء القوم !! إن الله تعالت قدرته وعظمته ، ليقبل توبة التائبين جميعاً ، بل ويبدل سيئاتهم حسنات ويقبلهم إذا أقبلوا عليه وإن أدبروا عنه طويلاً ، بل ويأتيهم هرولة إذا أتوه مشيا ، ويتقرب إليهم باعاً إذا تقربوا إليه ذراعاً : هذا الله جلت قدرته وعظمته ، وهذا عفوه وسعة مغفرته ، وهؤلاء يزعمون أن الشيخ قد لا يقبل توبة التائب لديه ، وقد يرده ويقفل فى وجهه وسبيله باب المتاب وإن كان لم يعص الله قط

من تشريع المشايخ

وفى هذه الصفحة أيضا يقول : « قال شقيق لمريده : أفطر معنا اليوم ولك أجر يوم . فقال : لا ، فقال أجر جمعة . فقال : لا ، فقال أجر شهر ، فقال : لا ، فقال : أجر سنة فقال : لا . قال أبو يزيد دعوه فقد سقط من رعاية الله ، فخرج من عندهم فسرق وقطعت يده !! » . والعجيب الفظيع فى هذه الرواية أن الشيخ يقدر الثواب على حسب ما يريد ويحب ويرضى: فقد قدر أولا ثواب المريد بافطاره معهم بصيام يوم ، ثم بجمعة ثم بشهر ثم بسنة . فكان تقدير الثواب والأجر راجعاً إلى الشيخ وإلى إرادته واختياره . وهذا مثل قوله السابق : إن شرع التحليل والتحريم والنهى والأمر باق ومخاطب به ما دامت الأشياخ باقية . ويعنى بهذا أنهم يحلون ويحرمون ويشرعون كما يشاؤن ويرون . ونعوذ بالله من الضلال . ومن العجيب المنكر أيضاً أن يكون الافطار مع شيخ من الأشياخ ، مهما كان أمر ذلك الشيخ وشأنه ، يعدل صيام سنة !! وما كان هذا الثواب للافطار مع رسول الله ولا مع غيره من خيرة خلقه . ثم الأعجب الأغرب أن يسقط من رعاية

اللّٰه ممن أبى أن يأكل مع الشيخ مؤثراً اجر الصيام واجر الطاعة ! ! هذه عبودية ولكنها عبودية باطلة ظالمة، وهذا رق ولكنه من شر الرق الذى لا يقره دين من الأديان ولا قانون من القوانين ، وهذا عدوان ولكنه عدوان على حق الله ممن قالوا : إنهم هم وحدهم الدعاة إلى الله و إلى شريعته وعبادته . فيا ويل هؤلاء ، ويا ويل من كبلوه بهذه الأصفاد ! !

يتزوجون ولا يخبرون النبى

لقد كان أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام يسافرون ولا يستأذنونه ، وكانوا يتزوجون ولا يستأذنونه أيضاً ، وماجاء أنه عليه السلام أنكر ذلك على أحدمنهم أوأن أحداً منهم أنكره على فاعله . وقدجاء فى الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام رأى على عبد الرحمن بن عوف صفرة من آثار الزواج فقال له : ما هذا ؟ فقال : يارسول الله إنى تزوجت امرأة ، فقال عليه السلام : بارك الله لك ، أولم ولو بشاة . فقد تزوج ولم يعلم رسول الله حتى رأى آثار الزواج . وما قال له : كيف تزوجت ولم تستأذنى . وجاء أيضاً فى الحديث الصحيح أن على بن أبى طالب خطب بنت أبى جهل وعنده زوجه فاطمة بنت رسول الله، فلما سمعت ذلك أتت النبى عليه الصلاة والسلام وقالت له : إن قومك يتحدثون بأنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على ناكح ابنة أبى جهل، فقام النبى وخطب وقال : إن فاطمة بضعة منى و إنما أكره أن يفتنوها ، و إنها والله لا تجتمع بنت رسول الله و بنت عدو الله عند رجل واحد أبداً . فترك على الخطبة .

فقد خطب عبد الرحمن بن عوف وتزوج ولم يعلم النبى عليه السلام ؛ فلما علم لم ينكر، وخطب على بن أبى طالب، وهو ابن عمه وزوج ابنته والناشئ فى كنفه وعلى عينه ، ولم يعلم النبى عليه السلام فلما علم لم ينكر عليه إذ لم يستأذنه و إنما أنكر أن يجمع بين ابنته وابنة أبى جهل عدو الله وعدو رسوله ، لأن فى هذا الجمع خوفاً على فاطمة وعلى دينها كما ذكر نبى الله، ولهذا قال : إن كان ابن أبى طالب

مصرا على الزواج بابنة أبى جهل فليطلق ابنتى وليتزوج ابنتهم . ونظائر هذا كثيرة معلومة بالنقول المتواترة وبالضرورة وبالاجماع .

فالمسلمون كانوا يسافرون ، وكانوا يتزوجون ولا يستأذنون النبى عليه الصلاة والسلام ، وما كان يخطر على بال أحد منهم أن هذا الاستئذان واجب مطلوب ، وأنه من حقوق النبى على المؤمنين .

فرق عظيم بينهما

والعجيب أن هذا الشيخ يوجب على مريديه أن يستأذنوه فى شؤونهم الدنيوية الخاصة كلها والنبى عليه الصلاة والسلام كان يقول للمسلمين كما فى الحديث الصحيح المشهور الذى رواه مسلم فى الصحيح وغيره : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وقد كان ﷺ يستشير أصحابه فى شؤونه الدنيوية الخاصة ، كما استشارهم فى طلاق أم المؤمنين عائشة عند حديث الافك قبل نزول براءتها فى كتاب الله ، وكما استشارهم فى غير ذلك ، كما كان يستشيرهم فى شؤون الدولة وشؤون المسلمين العامة وشؤون الحرب ولقاء الأعداء . وقد أمره الله بمشاورتهم فقال : « وشاورهم فى الأمر » . وفرق عظيم بين من يقول : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ومن يقال له : « وشاورهم فى الأمر » ومن يستشير فى شؤونه الخاصة وشؤون الدولة العامة : فرق عظيم بين هذا النبى الكريم ، وبين من يجعل الأمر أمره وحده ، والقول قوله وحده ، والرأى رأيه وحده ، حتى تبلغ به المغالاة فى نفسه وفى تقديرها أن يحرم على الناس أن يسافروا وأن يتزوجوا أو يعملوا عملا ما إلا بعد استئذانه وإذنه . نحن لا نعجب من هذا الكاتب كيف كتب ما كتب لأننا نعلم لماذا كتبه ، ولكننا نعجب ممن يقبله ، وممن يقيم له وزنا ، وممن يحترمه وهو يؤمن بالله وبعقله

ثم قال : « ومنها أن تمتثل لأمره إذا منعك من فعل مباح لأن قصد الشيخ للمريد دائما الترقى ، وفعل المباح لا ترقى فيه لأنه لا ثواب فيه . قالوا إذا احتج

المريد على شيخه بأقاويل العلماء فى جواز فعل المباح لم يفلح أبداً ، وإذا تركه شيخه يحتج عليه ولم يزجره عن ذلك فقد مكر به وأخرجه عن صحبته . . . » .

وهذه أيضاً حلقة من هذه السلسلة الخاطئة التى أفرغ فيها هذا الكتاب ، وأسلوب منكر من هذه الأساليب المنكرة التى جرى عليها مؤلف هذه الرسالة الظالمة. فان الشيخ إذا منع مسلماً من تناول شىء أباحه الله له فى شرعه، وأباحه له رسوله فى وحيه ، فقد عارض الله و رسوله وخالفهما ، ومنع من تناول شىء أمرا بتناوله ، وحرم شيئاً أحلاه لعباده ، ومن أظلم ممن فعل ذلك ؟ وقد قال الله فى كتابه : « اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دو ن الله » وقال النبى عليه السلام فى تأويل هذه الآية « إنهم أحلوا لهم الحرام فأحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه » وقال هذه هى عبادتهم وهذا هو معنى اتخاذهم إياهم أرباباً . وقال تعالى « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله» فجعل الشارعين ما لم يشرعه الله شركاء له . وقال فى تحليل المخلوق وتحريمه « و إن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

تحريم المباح

فمن منع ما أباحه الله وما أحل فقد عانده تعالى فى شرعه ودينه وحكمته، ومن أطاع ذلك المانع فقد غوى وضل ، ومن منع فعل مباح ، زاعماً أن فى فعله نقصانا ، فقد طعن فى شرع الله وادعى أنه تعالى يشرع لعباده النقصان . والله لم يبح المباح لعباده إلا لأنه يعلم أن الحكمة والرحمة فى الاباحة ، ومن حال بين عباد الله و بين حكمة الله و رحمته فقد افترى ، وقد خاب من افترى ، وأعظم الذنب والخطيئة على الله . ولو علم الله بأن الصواب والكمال والحكمة فى تحريم المباح لحرمه ، لأنه تعالى لا يريد بخلقه إلا الخير والصلاح والكمال . فالمانع من المباح متعقب على الله زاعم أنه قد علم مالم يعلم ، وأنه أحاط بما لم يحط به من الأسرار والحكم البالغة ثم كيف يزعم بأن فعل المباح لا ترق فيه وقد قال النبى الكريم « إن الله

يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى محارمه » وفى رواية « كما يحب أن تؤتى عزائمه » وقد ذكر النبى الكريم فى الحديث الصحيح أن فى إتيان الأهل ثوابا ، مع أن إتيانهن بالجملة مباح . وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أنس بن مالك أنه جاء ثلاثةرهط إلى أزواج النبى يسألون عن عبادته عليه السلام، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : أين نحن من النبى قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، فقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء الرسول فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ». ووقع فى بعض روايات هذا الحديث أن بعضهم كان قد اعتزم الامتناع من أكل اللحوم ، وفى رواية أخرى اعتزم اجتناب الشهوات . وفى الصحيح أيضا أن بعض المسلمين استأذنوا النبى فى الاختصاء ، لأنهم كانوا يغزون فى سبيل الله فلا يجدون النساء فيلاقون المشقة ، فنهاهم النبى عن ذلك وقرأ عليهم قول الله « ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . فقطع آلة الشهوة ممنوع لأنه يؤدى إلى الامتناع من إتيان النساء ، والامتناع من إتيان النساء تحريم لما أحل الله ، كما ذكر النبى الكريم الآية عند سؤاله عن حكم الاختصاء . وقد قال عليه السلام لقوم رغبوا عن المباح فصاموا فى السفر فشق عليهم الصيام : « أولئك العصاة » .

فكيف يزعم هذا الشيخ أن المباح لا ترقى فيه ، أم كيف يزعم أنه يصح للشيخ أن يمنع المريدين فعل المباح ، ثم يزعم أنه تجب عليهم طاعته فى هذا المنع وإلا هلكوا وضلوا . ؟؟

احتجاجات على الشيخ هلاك

أما زعمه أن من احتج على الشيخ بأقاويل العلماء فى جواز فعل المباح لا يفلح

أبدا فن أبشع ما كتب ، و إذا كان المسلمون يجادلون النبى فكيف يكون جدال هذا الشيخ حائلا بين مجادله و بين الفلاح ؟ وقد قال الله تعالى « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها » وقال « و إن فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ماتبين » بل لقد سمح الله لعباده بأن يجادلوه فقال تعالى « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » وقال عن خليله إبراهيم « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط » .

فاذا كان الله و رسوله يجادلان فكيف لايجوز جدال هذا الشيخ ؟و إذا أجاز الله جداله وجدال رسوله فكيف يزعم من يؤمن بالله أن من احتج عليه لايفلح أبدا، مع أن الاحتجاج دون الجدال وأخف منه ؟ . .

مكر الشيخ

وأما قوله « و إذا تركه الشيخ يحتج عليه ولم يزجره عن ذلك فقد مكر به وأخرجه عن صحبته » فنحن قدمنا أن الشيخ ، كما يحاول التشبه بالرسول ، كذلك يحاول التشبه بالله ، فانه يزعم هنا أن الشيخ يملى لمريديه كما يملى الله لعباده الظالمين المجرمين ،و يمكر بهم كما يمكر الله بالماكرين ، و يباسطهم ثم يأخذهم أخذ عزيز. وقد قال فيما سبق « بل لايخاف المريد إلا من مباسطة شيخه له » كما قال هنا: «و إذا تركه الشيخ يحتج عليه ولم يزجره فقد مكر به » ونعوذ بالله من هذا كله .

عبوديات

ثم قال :« ومنها ألا تجلس فى المكان المعد لجلوسه . ومنها ألا تصافحه و يده مشغولة بقلم ونحوه . ومنها ألا تكثر الكلام بحضرته ، ولاتقرع باب المكان الذى هو فيه بشدة ، ولاتلح عليه فى أمر . ومنها أن تصبر على جفوته و إعراضه عنك ،ولاتقول لم فعل بفلان كذا ولم يفعل بى كذا و إلا خبت . ومنها ألا تديم النظر إلى وجهه ، فمن أدمن النظر إلى وجه شيخه فقد خلع ربقة الحياء من عنقه و ربما حرم بركته . ومنها ألا تبيت عنده إلا إذا دعاك ، ولاتبت معه قط حيث يبيت سفرا ولا حضرا إلالعذر . قالوا : ومتى غاب المريد عن شيخه ساعة واحدة

ولم يشتق إلى رؤيته فهو كاذب فى إرادته لايصلح للطريق أبدا . ومنها ألا تطأ سجادته بل اطوها أو امش على ركبتيك ، ولا تدخل له خلوة . ومنها ألا تغفل عن ملاحظته وملاحظة المكان الذى هو فيه ، فان حاجتك كلها عنده من حيث كونه دليلك فى الوصول إلى مولاك ، فالمقصود هو مولاك على كل حال » .

وهذه أيضا سلسلة من هذه السلاسل المجرمة ، وأصر من آصار العبودية التى يحاول هذا الشيخ أن يكبل بها أنصاره ومريديه و يعبدهم بها تعبيداً لايقره فى نفسه من يعلم أن الله ربه وأنه هو عبده ، ولامن خلقت الكرامة والنخوة والعزة فى قلبه وعقله : فعلى المريد ألا يجلس فى المكان المعد للشيخ المحترم ، فللشيخ مكان معد ، وعلى الناس ألا يجلسوا فى ذاك المكان و إلا ضلوا وشقوا ، وهذا باطل وغلو منكر ، فليس بجائز أن يكون للشيخ مكان خاص به إلا فى ملكه الخاص ، وهذا لافرق فيه بين الشيخ و بين غيره من المريدين ، من المؤمنين والكافرين . أما فى الأماكن العامة المشتركة كالمساجد وغيرها ، فلا يجوز أن يكون له فيهامكان خاص أبداً ، لأنها مشاعة بين الجميع والاختصاص بشئ منها ظلم وعدوان . وماكان لرسول الله ولا لغيره من خلفائه الراشدين أماكن معدة خاصة بهم ، و إذا فرض أن للشيخ مكانا خاصاً معداً لم يمتنع الجلوس فيه على العامة والمريدين إلا إذا كان فى ملكه ، وامتنع الجلوس فيه من ناحية الملكية لامن ناحية الخصوصية . و إذا كان الامتناع لأجل هذا لم يكن هناك فرق بين الشيخ والمريد ، فكما يمتنع على المريد أن يجلس فى ملك الشيخ إلا باذنه ، كذلك يمتنع على الشيخ أن يجلس فى ملك المريد إلا باذنه ، فلا معنى للتفريق بين الشيخ والمريد فى هذا . ولكن القوم يريدون تخصيص الشيخ وتعظيمه لمعنى يخصه دون المريدين ودون العالمين جميعا : يريدون أن يكون الناس له عبيداً .

لا يجلس فى مكان الشيخ

لا يصافح الشيخ

وعلى المريد أيضا ألا يصافح الشيخ وفى يده قلم أو نحوه من كتاب أو

غيره . وهذا خيفة على شعوره وخيفة من غضبه وانزعاجه و إقلاق راحته . وهذا الأدب من الآداب المضحكة ، فان الشيخ إذا كان فى يده قلم أو كتاب أو نحوه يستطيع عند مصافحته أن يضع ذلك فى اليد الأخرى أو فى الأرض أو فى مكان آخر ، ويصح أيضاً أن يصافح ، والقلم ونحوه بيده ، وهذا ممكن . وعند هؤلاء أن المصافحة عند اللقاء سنة ، وهم يزعمون أنهم حراص على السنة جدا ، فكيف يصح لهم أن يتركوا السنة لأجل المحافظة على شعور الشيخ وآدابه الباطلة . وكيف ساغ لهم ، وهم أهل السنة ، أن يرغبوا عنها لأن فى يد الشيخ قلما أو كتابا تمكن المصافحة معه ويمكن وضعه بعيدا أو قريبا ؟ وماذا يرون ويقولون فى إلقاء السلام على الشيخ إذا كان مشغولا بحديث أوكلام أوأكل أو راحة من راحاته ولذة من لذاته ،أو كان مفكرا فى شأن من شؤونه ؟ أيقولون إن إلقاء السلام عليه حينئذ ممنوع ، وإن على المريد ألا يسلم عليه وإلا خاب وأثم ؟ ؟ وسواء أجابوا بالسلب أم بالايجاب فالجواب الصحيح اللازم لمقالاتهم هذه أن يقولوا بامتناع السلام فى تلك الحالة . وإذا قالوا ذلك فقد خالفوا السنة الصحيحة بلا حجة ولا برهان . وهذا لا يفعله المحبون للسنة وللنبى والإسلام .

الكلام فى حضرة الشيخ

وعلى المريد أيضا ألا يكثر الكلام فى حضرته وألا يقرع باب المكان الذى هو فيه بشدة ، وألا يلح عليه فى سؤال ولا غيره . وهذا أيضا من الآداب المرغوب عنها ، لأن إكثار الكلام فى حضرة الشيخ أحيانا يكون مطلوباً مرغوباً فيه، لأنه مفيد، ولأنه كلام فى الخير وفى الدعوة إليه وفى تعليم الناس. أما إكثار الكلام فى الشر والباطل فممنوع فى حضرة الشيخ وفى غيبته وغيبوبته : فاكثار الكلام فى الخير مرغوب فيه فى حضرة الشيخ وفى غيبته وإكثاره فى الباطل والاثم مرغوب عنه فى حضرته وغيبته وغيبوبته ، فلا معنى لما ذكروه .وأما قرع باب المكان الذى هو فيه بشدة فهذا أيضا لامعنى له ،

قرع باب الشيخ

وذلك أن قرعه بشدة إما أن يكون مفيدا منتجا خيرا ، أو يكون ضاراً لا خير فيه . فان كان الأول فلا مانع من قرعه بشدة ، و إن كان الثانى فلا خير فيه سواء أكان الشيخ موجودا فيه أم كان غائبا ، ولا تأثير لوجوده وغيبته فى هذه المعانى لأنها من الآداب العامة ، وليس فيها معنى خلص به ، ولم توضع هذه التأديبات لرسول الله ولا لخلفائه . وأما الالحاح عليه بالسؤال فواجب أحياناً باعتباره معلماً مرشدا . فاذا كان المريد يجهل مسألة من دينه وكان فى حاجة إلى معرفتها وجب عليه أن يسأل الشيخ ، فان لم يجب ، وكان يعلم أنه عالم بالمسألة التى هو فى حاجة إليها ، وجب عليه أن يسأل ثانياً وأن يلح فى سؤاله حتى يجيب أو يعلم أنه جاهل المسألة لا علم له بها ، وحينئذ يجب عليه أن يقول : إنى لا أعرف جواب المسألة التى تسألنى عنها . وقول لا أعرف ، أو لا أعلم ، قد يكون من العلم ومن الأدب الاسلامى الرفيع . ولم يذم أحد من المسلمين الالحاح فى طلب العلم والالحاح فى سؤال أعلامه ، بل لقد أمر الله المسلمين كافة بالسؤال عما لا يعلمون فقال: « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . وقال عليه السلام فى حديث « ألا سألوا إذ لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال » وماذا يقول الشيخ وأنصاره ، فى مريد من المريدين احتاج إلى علم مسألة من مسائل الدين احتياجاً ضروريا فجاء وسأل شيخه عنها فأعرض عنه ولم يجبه ، أيسكت على الجهل و يعمل على غير علم ، والعمل بدون علم إثم ، أم يعيد السؤال على الشيخ مرة ومرة حتى يجيب ، أم يرون أن الواجب على هذا المريد أن يذهب إلى آخرين يعرفهم الشيخ أولا يعرفهم فيسألهم و يعمل بما قالوا وما أفتوا به ؟ ؟ ولكن هذا عند هؤلاء لا يجوز ولا يحل لأنهم يزعمون ، كما تقدم ، أنه لا يصح للمريد أن يعمل عملا ما إلا باذن الشيخ وأمره ، و يزعمون أنه يجب أن يكون أمامه مثل الميت أمام الغاسل لا يتحرك منه إلا ما حركه . على أنهم هم لا يجيزون

سؤال الشيخ

سؤال غير الشيخ وغير أتباعه الخاضعين له ، ولو سألوا عالما غيرهم فأفتاهم لم يركنوا إلى فتواه مهما كانت معززة بالحجج والبراهين .

لماذا حرم سؤال الشيخ

والذى نراه ، ولا نشك فيه ، أن الشيخ يحرم الالحاح فى سؤاله وسؤال غيره من الأشياخ ابعاداً لنفسه عن أن يقع يوما تحت طائلة أسئلة لايدان له بها وبجوابها فينكشف ساعتئذ المغطى وتسفر الحقيقة المرة متبدية كما هى مكتمة فيهون حينئذ عند الاتباع والأنصار والمريدين ، ويخف احترامهم وإعظامهم له فيقع المحذور ، ويتداعى الأساس الذى شيدت عليه هذه الرسالة وألفت من أجله وهو أن يكون الشيخ التعظيم والاجلال والحب والاحترام ، بل والعبودية الملتهبة . وقد صرح بهذا فى مواضع من رسالته فقال ص ١٨ : « ومنها ألا تطلب منه جوابا عن رؤيا رأيتها ، أو حادثة حدثت لك بل تذكر حاجتك وتسكت ، فان أجابك كان و إلا أعرضت بقلبك عن طلب الجواب ، لئلا يصير شيخك محكوما عليه بلزوم رد الجواب » وفى هذه الصفحة أيضا يقول « ومنها ألا تتشوق إلى معرفة مقدار نومه وأكله أو كم يتوضأ فى اليوم والليلة ، وهل يأتى النساء كثيرا أو قليلا ، فهذا ونحوه معدود من عقوق المريدين ، والعاق لايرفع له عمل إلى السماء إذ ربما كان اطلاع المريد على تلك الأحوال منتقصا لحال شيخه فى قلبه لجهله بأحوال الكمل ، فيهلك ويقع فى الخيانة لشيخه ويحل عقده الذى عقده معه » ، وقد حرم كما تقدم الاتصال بالذين ينتقدونه والذين لا يذوبون فى حبه وهواه ، وحرم على المريد أن يسمع فى شيخه قولا ما ، وذلك كله خيفة أن تتزعزع مكانة الشيخ فى الصدور والنفوس : هذا هو مايرمون اليه من وراء هذه القيود التى ضربوها على قوم من المسلمين ، والله من وراء كل قصد .

صبر المريد على جفاء الشيخ

وعلى المريد أيضا أن يصبر على جفاء شيخه له وإعراضه عنه ، وعليه أن يقبل ذلك ظاهرا وباطنا بحيث لايقول ، لابقلبه ولا بلسانه ، لم فعل بى

كذا وفعل بغيرى كيت و إلا خسر .

وهذا أيضا من الآداب الباطلة الممجوجة ، فانه ليس بواجب على مسلم أن يقبل من امرئ معين ــ ليس رسول الله والأنبياء ــ فى الظاهر والباطن كل شئ يتناوله به من اعراض والجفاء واهانات ، ولا يوجد إنسان اليوم على وجه الأرض مفروض على الناس أن يقبلوا منه كل شئ يريد أن يفعله بهم أو بغيرهم فى سرهم وعلانيتهم ، ومحرم عليهم أن يوجهوا إلى أفعاله وأقواله اعتراضا بحيث لايقولون لم ترك ولا لم فعل . ومن زعم أن إنساناً واحدا ، غير الأنبياء ، مفروض على الناس تقديسه هذا التقديس فقد خاب حقا .

النظر إلى وجه الشيخ

وعلى المريد أيضا ألا يديم النظر إلى وجه شيخه ، ومن فعل ذلك فلا حياء له وهو معرض للحرمان من بركات الشيخ ، وهذا أيضا من الآداب الباطلة . وقد كان المظنون المعقول أن يرغبوا فى النظر إلى وجه الشيخ ، وأن يزعموا أن النظر اليه عبادة و زلفى إلى الله ، لأنهم يبالغون فى إثبات بركات المشايخ وأسرارهم والمعروف أن النظر إلى وجه الحبيب المبارك لذة وسعادة وخير كما قيل (نظرى إلى وجه الحبيب نعيم). والذى يكره إدمان النظر إلى وجهه هو العدو الشانئ أو الخبيث الفاسق الظالم ، لا الحبيب الذى زعم أنه مادة الصلاح والدين والعلم .ولهذا كان المسلمون كلهم رغبة فى ملء أبصارهم من محيا النبى عليه السلام ، وما نهى أحدا عن ذلك ولا رغّب عنه . ولهذا كان النظر إلى وجه المولى لذة لاتساويها لذة ، لان حب عبده المؤمن له لايساويه حب . ولكن هؤلاء يريدون أن يكون الشيخ طلسما من الطلاسم ، وسرا مغلقا ، ولغزا من الألغاز المعقدة ، لتجل هيبته فى الصدور وفى النفوس التى لو عرفته لأنكرت منه ما كانت تعرف . أما البركة التى زعم أنها تفوت ذلك المدمن النظر إلى وجه شيخه فشئ لاحقيقة له ، وشئ

لايعرفه الاسلام . وأية بركة يشتمل عليها الشيخ ؟ فتشوه وفتشوا كل شئ يحيط به ، فانكم لن تجدوا شيئا يسركم . اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون .

المبيت مع الشيخ

وكذلك على المريد ألا يبيت عند شيخه فى حضر ولا سفر إلا لعذر ملح . وهذا تحريم لما أحل الله ، وتضييق لما وسع الله ، وشيء لم يأذن به الله . ولو أن الشيخ ومريديه ناموا فى مكان واحد لما زعم مسلم يعرف الاسلام أنهم ارتكبوا بذلك إثما . وقد قالوا هذا القول ليبقى الشيخ ، كما ذكرنا مرارا ، طلسما مجهولا محاطا بالأسرار و بالمعميات · لايعرف ماحوله ولا ماطوى عليه .

لاتوطأ سجادة الشيخ

وكذلك على المريد ألا يطأ سجادة الشيخ بل عليه أن يطويها أو يمشى على ركبتيه لئلا يطأها ، وكذلك عليه ألا يغفل عن ملاحظته وذكره وملاحظة المكان الذى هو فيه وقتا واحداً ، لأن حاجات المريد كلها ، من دنيوية ودينية ، عند الشيخ . ونحن لا نستطيع أن نعلق على هذا الكلام شيئا سوى أن نقدمه إلى من يعرفون الاسلام و يعرفون ما جاء به النبى عليه السلام من التوحيد ومن التجرد عن كل ما سواه « وما بكم من نعمة فمن الله »

الاشتياق إليه

وأما زعمه أن من غاب عن شيخه ساعة واحدة فلم يشتق إلى رؤيته فهو كاذب فى إرادته لا يصلح للطريق أبداً فزعم غير صحيح ، بل زعم منكر فى دين الاسلام ، لأن الذى يجب أن يذكره المسلم فى كل لحظة هو الله ، فالله هو الذى يجب أن تعمر به القلوب ، فان قلبا يخلو من ربه ساعة واحدة قلب خرب مظلم مخيف لا خير فيه . أما الشيخ وغيره من الأشياخ فلو نسيهم المسلم فى حياته كلها لما ضاره ذلك شيئا ولما نقص ملك الله ذرة ، ولما نقص إيمانه ودينه قليلا ولا كثيرا . ومما لا يرضاه الأسلام ولا يقبله توحيد الله أن يطوى قلب مسلم على شيخ أو على غيره من المخلوقين ، فان هذا وأمثاله من بذرات الوثنية وجراثيم الشرك . وقانا الله واخواننا هؤلاء القوم السوء والضلال .

قليل من كثير

ثم قال فى خاتمة هـذه الآداب : « ومنها غير ذلك . و بذكر القليل يتنبه العاقل للكثير . وهذه الآداب إنما يخاطب بها الصادق المجد الحاذق ، لا كل من تلقن الذكر » .

فعند الشيخ ، عفا الله عنــه ، أن هذه الآداب التى ضربها عـلى عقول مريديه وأنصاره ، فأذل بها نفوسهم وأخلاقهم وعقائدهم ، ليست إلا قليلا من كثير ، وليست إلا غيضا من فيض مما يجب له على الاتباع والعباد من التعظيم والتقديس ، و إنما ذكر هذا الذى ذكر تلويحا لا تصريحا ، و إشارة عاجلة لا حقيقة جامعـة . و إنما ذكر ما به يتنبه العاقل الحاذق و يعرف به ما وراءه من الأشياء الأخرى والآداب الـكاملة الكثيرة التى تجب للشيخ فى أعناق المريدين .

ونحن لا نعرف ما وراء هذا الذى ذكره فى هذه الرسالة من الخضوع له والهوان والهون لأوامره و إراداته ، وما الذى يمكن أن يقدمه المريد له غير ما أورد هنا ، وهـل ترك نوعا واحـدا من أنواع التعظيم والتقـديس لم يزعم أنه واجب تقديمه إليه ؟ ؟ وهـل يمكن أن يكون لدى المرء من الأدب والخشوع والذلة والمسكنة أعظم من أن يكون كالميت بين يدى الغاسل لا يتحرك منه شىء إلا إذا حركه ؟ وهل هناك خضوع أعظم من أن يجلس بين يدى الشيخ كجلوسه للصـلاة وأن يقبل منه كل شىء ظاهراً وباطنا ، وألا يقول له « لم » ولا « كيف » فى حالة من الحالات ، وأن يزداد له إخلاصا وعبودية وحبا وطاعة كلما زاده إهانة و إذلالا وتنقصاً وطرداً ، وألا يعمل عملا إلا من بعد إذنه وأمره ، وألا يتزوج ولا يسافر ولا يقطع أمرًا إلا بأمره ورضاه : هـل هناك تأدب مع الشيخ ، بل عبودية له أكثر من هـذا حتى يقال ، أو حتى يمكن أن يقال ، إن هذا الذى ذكر ليس إلا تنبيها لما بعده ومقدمة لـكتاب ؟ وهل يمكن أن يوجد تعظيم للشيخ أعظم من الاعتقاد بأن نفاقه ونومه أفضل من اخلاص المريد وصلاته ، وأن الذرة من

أعماله أفضل من عبادة المريد طول السنة ؟ أم هل هناك تعظيم أعظم من قوله : إنه يجب على المريد أن يحب الشيخ حبا لا يحبه أحداً فى هذه الدنيا ، لا زوجا ولا ولدا ولا نفسا ولا أهلا ولا مالا ، وأن من قدم على الشيخ أحـدا فى حبه لم يشم رائحة الحق؟ بل هل هنالك تقديس أكثر من الاعتقاد بأن الأشياخ ليس لهم فعل عبث أبداً ، بل كل أفعالهم وأقوالهم حكم بوالغ وعلم وصواب ؟؟

عقوق الاستاذ لا توبة له

وليس هنالك تقـديس للشيخ أكثر من قول ص ١٣ « وأجمع الاشـياخ كلهم على أن عقوق الاستاذية لا توبة عنه » فان المسلمين لا يختلفون فى أن من كفر بالله و بجميع الأنبياء والمرسـلين وجميع الـكتب ، بل و بكل حق ثم تاب تقبل الله تو بتـه وغفر له ذنبه وأبدل سيئاته حسنات ، ثم أدخله بعد ذلك جنته وألبسه رضوانه و رحمته ، هذا مصير من يكفر بالله ثم يتوب ، أما من عق الشيخ فيقول هذا الشيـخ : إنهـم أجمعوا على أنه لا توبة له ، فعقوق الأشياخ لدى هذا التقى الورع أعظم من الـكفر بالله و بأنبيائه وملائكته وكتبه و رسله!

عاق الشيخ لا يرفع عمله

وقد قال فى هذا المعنى : « والعاق (أى عاق الشيخ) لا يرفع له عمل إلى السماء » وقد تقدم هذا ، وقال أيضا فيما تقدم : « فمتى اختار شيخه شيئا واختار هو خلافه فقـد خرج عن صحبته ، والواجب عليـه التوبة ثم إن شاء شيخه قبله و إن شاء رده » فبالله هل يوجد تعظيم للشيخ أعظم وأجـل من هذا حتى يدعى أن كل ما ذكر لم يكن سوى قليل من كثير ؟

لا يجوز ذكر الله إلا بتلقين الشيخ

ومن التعظيم الفظيع قوله ص ٥ : « واحذر أن تستعمل أى اسم إلا بإذن من الشيخ وإلا أنت ربما هلكت » يعنى أنه لا يصح للمريد أن يذكر الله باسم من أسمائه تعالى لم يلقنه إياه الشيخ و إلا كان هدفاً للهلاك والخسران . وهذا القول لا يعرفه مسلم بل لا يعرفه غير مسلم .

و يقول ص ١١ « قال حمدون القصار: من علامة صدق المريد إذا دخل على

شيخه كأنه داخل على سلطان جائر يخاف سطوته »، وهذه الأقوال كلها مما جاءت الأديان السماوية كلها لمحاربتها وانتزاعها من النفوس والرؤوس ، ولا يوجد دين سماوى يقر شيئا منها أو يتهاون فى دفعه .

ومن أقبح ما جاء فى هذا « العهد الوثيق » قوله بعد أن قسم النفوس على حسب درجاتها وصفاتها سبعة أقسام بادئا بذكر الأدنى مترقيا إلى الأعلى قال :

النفس المرضية

« السادس المرضية . ذات مقام تجليات الأفعال ، فلا يرى صاحبها صدور الأفعال إلا من الله ، فلا يعترض على أحد بعين الحقيقة لمشاهدته أن الأمر كله منه وإليه سبحانه » . هذا ما ذكره عن صاحب النفس المرضية وليس فوق هذه النفس لديه إلا النفس الكاملة « ومقامها مقام تجليات الأسماء والصفات فهى بمعالى الفضائل والفواضل حافلة ، وذلك أنها فوق الفوق ومعارفها فى نهاية الشروق » .

وهذا الذى ذكره عن النفس المرضية مذهب مرغوب عنه مجمع على بطلانه وخلافه للدين بل وللأديان جميعا . ذلك بأنه يقضى بأن يكون كل مجرم معذوراً لا يصح الاعتراض عليه ، والاعتراض أقل المؤاخذة : فالقاتل والسارق والمشرك والكافر والفاعل لكل موبقة : كل هؤلاء معذور عند صاحب النفس المرضية لأنه يرى الافعال كلها صادرة من الله وحده لا من غيره . فالزنا والسرقة والقتل والكفر والإثم كله : جميع ذلك لا يصدر إلا من الله . وصاحب النفس المرضية لا يصح أن يلوم المخلوقين العاجزين على أفعال الله ، لأن هذا نهاية الظلم والجهل

عذر العصاة

وعلى هذا المذهب لا يصح أن يعترض على أحد من العصاة والمجرمين لأن الأمر كله من الله وإليه ، وهذا ماتقره وماتراه عين الحقيقة التى ينظر بها صاحب النفس المرضية . هذا معنى هذا الكلام ، وهو مذهب باطل قبيح قد قال به قائلون من الضالين فرد عليهم السلف الصالح وأدبوهم . وقد كانت نفس رسول الله ونفوس

سائر الرسل ونفوس أصحابهم من أرضى النفوس وأنظرها بعين الحقيقة الصادقة ، وكانوا مع هذا يعترضون على أصناف المذنبين و يؤاخـذونهم ،فكان رسول الله وأصحابه يقتلون القاتل و يرجمون، أو يجلدون، الزانى ، ويقتلون المرتد،ويقيمون الحدود . وكانوا يحملون الحسام والحديد فى يد ،والمصحف والحكمة فى أخرى ، فكانوا أرضى الناس نفوسا وأشدهم على المجرمين والمفسدين بأسا ، وأعظمهم قياما بالحدود والعقوبات الزاجرة الرادعة . فصاحب النفس المرضية هو الذى يفعل هـذا ومن لا فليس سوى صاحب نفس خبيثة . فلا ريب أن هذه المقالة معناها رد الأديان وتكذيبها ،ورد أوامر الله وشرائعه

تكذيب الاديان

ثم إذا كان هـذا صحيحا فلماذا كانت جماعة هـذا الشيخ من أشـد الناس اعتراضاً على الناس و إيذاء وسبا لهم وقدحا فيهم وفى عقائدهم لأسباب باطلة ؟ ولماذا لايحاولون أن يكونوا من ذوى النفوس المرضية الذين ينظرون بعين الحقيقة فيرون الأمر كله من الله و إليه ، و يرون الأفعال كلها أفعال الله فلا يعترضوا على أحد ولا يسبوا أحـداً ؟ فمن أى جانب يمكن أن يصح هـذا القول ؛ ومن أى وجه يؤخذ ؟؟

بلاء عظيم

وقال فى أول الرسالة فى صفة هيئة الذكر : « ثم تجرد من الشواغل الدنيوية وأنت جالس فى مكان مظلم طاهر معظم مطيب بالروائح الذكية . . . واضعاً يديك على فخذيك ـ مبعـداً الروائح الكريهة ، لأن الروحانيين لايقبلون الروائح الكريهة . وبانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد ، مستأذنا أهلَ الطريق ورسولَ الله والحضرة الآلهية فى دخول حضرة الذكر التى هى حضرة الله، جاعلا خيال شـيخك بين عينيك ليكون رفيقك فى السير إلى الله، لا لكونه مقصودا لذاته حتى يكون منافيا للتجرد عما سوى الله، أو يكون إشراكا فى العبادة، خلافا لما يتوهمه بعض القاصرين ، فالمقصود هو الله وحـده . واستحضار الشيخ إنما

هو لتحصل على مقصودك ، لأن الوصول عادة لا يكون إلا بدليل ، وإذا وجد الدليل لا يجد الشيطان له مدخلا معك حتى يحولك عن الطريق ، ولذا كان استحضار الشيخ من أهم الآداب . . . »

وثنية ظاهرة

وهذا كله وثنية ظاهرة لا ريب فيها ، فان المسلم الموحد لا يستأذن أحدا فى دخول حضرة الله ولا فى الاقبال على ذكره ونجواه ، كما لا يستأذن أحدا فى الصلاة والصيام وأنواع العبادات . . ومن استأذن أهل الطريق من الموتى ، أو استأذن رسول الله أو غيره من الرسل والصالحين عند صلاته أو صيامه أو ذكر ربه ومناجاته إياه ، فقد أساء وخرم توحيده وأصاب التجرد لله وأتى أمراً إمراً .
ومن هم أهل الطريق الذين يستأذنهم من أراد ذكر الله ودخول حضرته ؟ إنهم أقوام موتى لا يسمعون ولا يعلمون من حال مستأذنهم شيئا : فالمستأذن لهم مستأذن مالا يسمع ولا يعلم . ولكن هذا الاستئذان مبنى على مذهب فاسد قائل وهو الاعتقاد بأن الأشياخ ، من أهل الطريق ، حاضرون ذاكرهم ومستأذنهم موجودون معه حيث كان ، بل وموجودون فى كل مكان وزمان ، ونعوذ بالله من هذا المذهب . ويدل على أن هذا هو المعنى قوله « لأن الروحانيين لا يقبلون الروائح الكريهة ، وبانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد » وهذا نص من هذا القائل بأن مجالس الذكر محضورة بالروحانيين ، والذى يبدو ، بدليل سابق الكلام ولاحقه ، أنه لا يعنى بالروحانيين الملائكة ، وإنما يعنى أهل الطريق الذين يستأذنهم فى دخول حضرة الله . وزعمه أنه بانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد زعم لا يلاق الايمان والتوحيد أبداً ، لأن المدد من الله وحده لا من الروحانيين ، ومدد الله لا ينقطع عن عبده بانقطاع غيره عنه ، لأن المدد هنا يراد به المدد الروحى القلبى من التوفيق والتسديد والعناية الخفية ، والالهام الربانى المتدفق على الأرواح الصالحة المشرقة بشمس الايمان واليقين ، وهذا

مدد أهل الطريق

كله من الله ، وهذا لا يقطعه انقطاع الروحانيين ولا انقطاع غيرهم عن مجالس الذكر . وهذا المدعو الهدى والتوفيق والله هو الهادى الموفق وغيره لا يهدى أبداً بهذا المعنى « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً » .

خيال الشيخ

ومن البلاء قوله « جاعلا خيال شيخك بين عينيك » إلى آخره ، فان هذا شئ لا يقبله التوحيد مطلقا ، بل شئ يشرق به الايمان بالله و يمثر به التجرد له . وما طلب رسول الله من المسلمين أن يجعلوا خياله بين أعينهم حين ذكر الله ، بل طلب إليهم أن ينسوا كل ما سواه حين ذاك ، وطلب إليهم أن تكون قلوبهم ملأى به و بذكره ، وأن يقولوا فى أذكارهم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والدلائل على هذا مفهومة للجميع .

نسيان المخلوق

وقد كان المشركون يترفعون عن هذا الانحطاط فى حضيض المخلوق حين شدتهم و بلواهم كما قال تعالى « و إذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » وما أبلغ وأروع وأصدق قوله « ضل » فان المراد به أن كل شئ سوى الله، من الاصنام والأوثان والمخلوقات كلها ، يذهب و يتلاشى عن قلوب المشركين وخواطرهم وأوهامهم وأخيلتهم وعن ألسنتهم فى تلك الساعة : فلا يذكرون غيره تعالى بقلوبهم ونفوسهم ، ولا يدعون سواه بألسنتهم وأفواههم ، فلا يبقى فى قلوبهم ولا فى ألسنتهم غير الله : فلا خيال مخلوق ولا خيال شيخ ولا خيال صنم ولا خيال شئ من الأشياء غير الله . وهذا غاية التجرد والتوحيد . وأين هذا من هذا ؟ أين وضع خيال الشيخ فى القلب و فى العين حين مناجاة الله من الانقطاع إلى الله وحده ونسيان ما سواه ؟

محال باطل

وقوله « ليكون رفيقك فى السير » شئ لا معنى له، فان الشيخ إن كان قد مات فهو إما فى الجنة أو فى غيرها ، أو فى القبر ، فكيف يكون رفيق ذاكر الله الذاهب إليه ! و إن كان حيا لما يمت فهو ، حين ذكر المريد ، قد يكون مشغولا

بأحواله أو راحاته أو لذاته أو دنياه أو عبادته ، على أحسن تقدير ، فكيف يمكنه أن يكون رفيق الذاكر لله السائر إليه وهو لا يعلم من حاله شيئا ؟ هذا محال باطل . ثم كيف يحتاج الذاهب إلى الله المناجى له إلى من يسير معه وإلى دليل يدله ساعتئذ ؟؟ جل الله عن ذلك « ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع » « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » « ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع » « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض » قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

الدلالة على الله

وقوله « لان الوصول عادة لا يكون إلا بدليل » يقال نعم ، ولكن الدالون على الله هم رسل الله وأنبياؤه ببيناتهم ورسالاتهم ووحيهم وكتبهم ، لا خيال الشيخ ولا استحضاره ولا نصبه بين العينين ، فان هذا لا يهدى إلى الله بل يضل عنه ويشغل عن ذكره وعن مناجاته وعن جلاله . فهذه كلها آداب تنافى الاخلاص لله والتجرد لعبادته .

قوة المشايخ

ومن أفظع ماجاء فى هذا الكتاب قوله « وقال أبو على الدقاق : الفقراء ملوك وكل مريد صحبهم بغير صدق قتلوه » فانه قد أعطى المخلوقين بهذا القول القدرة على الاماتة والقتل ، فهو لا يريد أنهم يقتلون بالسيوف ولا بالرماح ولا بالسم ولا بالآلات العادية التى يقتل بها كل الناس ، وإنما يريد أنهم يقتلون بأسرارهم وقدرهم المعنوية الروحية الفاعلة ، وبما وهبوا من قوة التصريف والسلطان الروحانى . ونحن نقول كما قال خليل الله إبراهيم لذاك الذى حاجه فى ربه « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » .

هذا بعض مافى هذه الرسالة رسالة « العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن

طريق » من الاقوال المتجافية عن سبيل الله وعن العقل الصحيح . ولا شك أن القارئ سوف يأسف و يغضب معا ، وسوف يشتد غضبه وأسفه حينما يعلم أن هذا الشيخ الذى عرف بالسنة و بالدعوة إليها ، و بمجافاة البدع والحملة عليها كل حياته يدركه الحظ العاثر ،و يدركه عجز الانسان المطبوع ،و يدركه انحطاط المدارك الاسلامية فى العصور المتأخرة ، حتى يسجل على نفسه ما فى هذا الكتاب من آراء وعقائد لا يمكن أن تجتمع هى ودين الله وكتابه فى قلب، ولا يمكن أن يرضاها امرؤ عرف الاسلام .

عجز الانسان

نحن نعلم أن كثيرا من هذه الأقوال والأخطاء قد سبق الشيخ محمود خطاب إليها غيره ممن لم يقدر لهم أن يهدوا إلى حقيقة الايمان وحقيقة دين الله، ولكننا نعلم أن سبق المخطئ الأول إلى الخطأ لا يجعل ضرب الآخر على عقبه وانتهاجه منهاجه محمودا مشكورا ولا معفوا عنه مغفوراً، بل إن الخطأ قبيح ولكن أقبحه التقليد فيه ، كما نعلم أن أكثر هذه الأقاويل والأخطاء إنما هى بضاعات نصرانية وثنية وغلت فى دين الاسلام وتسللت بين المسلمين ، ورزىء بها الاسلام وأهله بطريق الدس والخداع تارة ، و بطريق الجهل والبلادة تارة أخرى. فإن هذه الأديان قائمة على المغالاة فى المخلوق إلى حد عبادته ، فهى التى تتقبل هذه العبودية الموصوفة فى رسالة العهد الوثيق ، وهى التى تسعها مبادئها الوثنية وأصولها الباطلة المعبّدة غير المعبود بحق ... أما الاسلام فإنه ينكر ذلك كله أشد الانكار ، و يلفظه لفظ المقلى المزدرى بلا هوادة ولا رفق . وما يوجد دين من الأديان يأبى عبادة المخلوق ، صوريها وحقيقيها ، و ينكر الاسراف فى تقديس الانسان ، مهما يكن ، و يحض على الانقطاع إلى الله مثل دين الاسلام . ولقد بالغ الاسلام وكتابه فى التزهيد فى المخلوق والصرف عن غير الله حتى حكم على كل شىء ، ما خلا الله، بالفناء المطلق و بالهلاك العام. فقال « كل من عليها فان » ،

بضاعات أجنبية

« كل شيء هالك إلا وجهه » وقد جعل كل ماسوى الله باطلا وجعلت هذه الكلمة أصدق كلمة قالها شاعر . فصح عن النبي الكريم أنه قال أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ماخلا الله باطل

ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم ، لا محالة ، زائل

وقد أنشد لبيد قوله هذا كفار مكة في المسجد الحرام وكان فيهم أحد أصحاب النبي فقال له في الشطرة الأولى : صدقت وفي الثانية كذبت ، فان نعيم الجنة لا يزول . هذا قول لبيد المشرك ، وهذا ماينشده العرب المشركين فيتقبل . وكم لهم من أمثال ذلك . فانظر كيف تشرق أنوار الحقيقة بين حنادس الباطل والشرك الحالكة المدلهمة . ومن أبلغ ذلك قول النابغة الذبياني.

ماوره الله مذهب

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وهذه الكلمات الصادقة وأمثالها إنما تصدر من معدن الفطرة الأولى. الصحيحة الربانية العتيدة التي يعجز الباطل الطريف أحيانا عن النفوذ إليها والاختلاط بها ، والتي لا يكون الباطل ، إن وصل إليها ، إلا فقاقيع طافحة كالفقاقيع التي تطفو على سطح المحيط ، ثم لا تلبث أن تتمزق وتتلاشى وتفنى .

فرق عظيم

وكم بين أقوال هؤلاء الشعراء الجاهليين وبين أقوال هذا الشيخ التقي الورع من الفرق والبون الشاسع ! وكم بين أشعارهم هذه وبين مقالاته في كتابه هذا من البعد في وصف الحقيقة وعرفان الحق : فهم يقولون : إن كل شيء ماخلا الله باطل لا يعبأ به ، ويقولون إنه ليس وراء الله للانسان مذهب . وكم في هذه الأقاويل من معاني التوحيد ومن عرفان الله . أما الشيخ فيقول : يجب على المسلم ليكون مسلما حقا أن يكون بين يدي الانسان الباطل الفاني مثل الميت بين يدي الغاسل يصرفه ويقلبه كما يشاء ، لا يرتفع منه عضو ولا يقع إلا بإذنه وأمره . ويقول : على المسلم ليكون مسلما حقا أن يدخل على شيخه وكأنه داخل على سلطان.

جائر يخشى سطوته و بأسه . و يقول : من قال للشيخ، وهو الباطل الفانى « لم » لم يفلح أبدا . ويقول : على المسلم ليكون حتما مسلما أن يسلم للشيخ ، والشيخ إنسان باطل فان، ظاهرا وباطنا بحيث لا يعترض عليه لا بقلبه و لا بلسانه إلا فلن يفلح . ويقول : على المسلم ليكون مسلماً حقا ألا يجلس بحضرة شيخه ، وهو الانسان الفانى ، إلا كجلوسه للصلاة . و يقول : على المسلم ليكون مسلما حقا ألا يعمل عملا : فلا يتزوج ولا يسافر ولا يصلى ولا يصوم ولا يعبد الله إلا باذن الشيخ ، ويقول عليه أيضا أن يقبل من الشيخ كل شئ يفعله به لا اعتراض ولا ممانعة لا ظاهراً ولا باطنا ، وعليه أن يتقبل كل إهاناته والتحكم فيه وطغيانه بالشكر والرضا والحمد الجزيل . ويقول كل ما نقلناه عن هذا الكتاب من العبادة الوضيعة لأنها عبادة لغير الله وكل عبادة لم تكن لله وحده هى عبادة وضيعة بلا ريب : فكم بين أقوال هذا الشيخ التقى الورع و بين أقوال أولئك الشعراء الجاهليين من بون وفرق .

مات الشيخ

لقد مات الشيخ مؤلف هذا الكتاب والتى ربه بخيره وشره بماله وما عليه ، وخلى الدنيا بحسناتها وسيئاتها ومفاتنها ومناعمها ، وأصبح لا يد له برفع هذا الكتاب من قائمة أعماله ولا رفع شئ مما فيه ، كما أصبح غير مستطيع أن ينكر منه شيئا و إن أحب أن ينكر ولا أن يمحو من صفحاته قولا قد كتبه و إن أحب أن يمحو : أجل لقد أصبح الشيخ فى قبضة العدم وفى ذمة التاريخ الحفيظ. لهذا لم يكن الرد عليه ذاته ممكنا ولا مطلوبا لولا أننا وجدنا أنصاره ومريديه

بيع الكتاب

يبيعون هذا الكتاب إلى اليوم على علم ومرأى ومسمع من خليفته الشيخ أمين خطاب ، وعلى علم ومرأى ومسمع من علماء مريديه بلا نكير ولا اعتراض . وقد وقعت بأيدينا من الكتاب جملة نسخ بطريق الشراء من مكتبتهم ، وهم الآن يبذلونه بيعا لمن يريدونه من جماعتهم ومن غيرهم . وقد طبعوا الكتاب

طبعتين ، فطبعوه الطبعة الثانية قبل أن تنفد الطبعة الأولى ، والنسخ موجودة فى المكتبة من الطبعتين . وقد اشترى بعض أصحابنا نسخا من الطبعتين وأحضرها لدى بقصد الاشارة إلى مافيها من الأخطاء . بل لقد كلمنا بعض الجماعة فى ذلك فوجدناهم راضين عن هذه الرسالة وعن جميع سيئاتها ، وما عددنا عليها ، وألفيناهم يدافعون عن كل ذاك بحماسة وصلابة بلا استثناء . وما وجدنا من أحد منهم انكاراً لشىء مما ذكرناه وأنكرناه ، بل لقد نوهوا بهذا « العهد الوثيق » وأعلنوا عنه فى آخر كتاب ألفوه وطبعوه ، وهو الكتاب الذى عرف وطبع الجزء الأول منه بعد وفاة الشيخ ، صفح الله عنه . وهذا الكتاب هو كتاب « الدين الخالص » ، وقد طالعت بعض أجزائه فوجدت الحق فيه منقولا نقلا من كتب الشوكانى . . . وهذا دليل على أن القوم راضون بالكتاب وبما فيه . على أنهم لو كانوا ينكرونه أو ينكرون شيئاً منه لوجب عليهم أن يطبعوا إنكارهم وينشروه كما طبعوا هذا المنكر ونشروه . والسكوت على الخطأ ليس مما يعذر عليه ، وليس مما يهون أمره عند الله وعند المتقين . فاذا زعم لنا زاعم أن القوم ينكرون هذه الأمور التى عددناها قلنا هذا غير صحيح والا لما باعوا الكتاب ونشروه ولما قرظوه وأعلنوا عنه فى أحدث كتبهم ولما وسعهم السكوت عليه . فهم يبيعونه ويقرظونه ولا ينكرونه . وهذه أمور ثلاثة يدل كل واحد منها على رضاهم بهذه الأغلوطات . فالواجب على الجماعة ، إذا كانوا من أهل السنة حقا ، ألا يبيعوا من الكتاب بعد اليوم نسخة واحدة ، بل عليهم أن يهبوه لألسنة النيران ؛ والواجب عليهم أيضا أن ينكروا ماعلق فى الأذهان منه وأن يتبرؤا من هذه الباطلات ، وأن يعلنوا براءتهم ليعلم ذلك من بقى فى رأسه أو داره منها شىء ، أما إذا لم يفعلوا فلا شك أنهم مصرون على الكتاب ، راضون عنه ، قائلون بما فيه ، عاملون به . ولو قدر أنهم ينكرون الكتاب ثم

رضاهم بالكتاب

يبيعونه لكان هذا من أكبر الآثام والخطايا .

من اليسير

ومن السهل عليهم أن يعترفوا بأن شيخهم لم يعرف الحق جملة واحدة ، ولم يجد الحقيقة منذ خلق . ومن غير العسير عليهم أن يحدثونا بأن الشيخ راجع عن هذا الكتاب ، راجع عما فيه ، لأنه قد ألفه فى أول حياته العلمية ، قبل أن تهبط عليه الحقيقة ، وقبل أن يخصه الله بمعرفة السنة ، وإحيائها وتجديدها . وليس من العار فى شىء أن يكون المرء تائها عن الحق فى أول حياته ، ولكن العار والسبة والبلاء فى أن يصر المرء على الباطل فى كل حياته ، ثم يلقى ربه مصرا على باطله ، ثم يورث هذا الباطل قوما يمسكون به ويعضون عليه بالنواجذ ، ويورثونه هم أولادهم وأحفادهم والآتين بعدهم ، وهكذا دواليك : هذا هو العار والسبة والبلاء ، وهذا مالا يرضاه المسلم الناصح لنفسه .

الأمل فى الشيخ أمين

وقد ترامت إلينا الأنباء بأن خليفة المؤلف وابنه الشيخ أمينا منير الذهن مستقيم التفكير ، هيوم بالحق ، محب للسنة ، لا يرضى الاصرار على الباطل ، وإن خلفه الأكابر الأوائل ، ولا رد الحق وإن كان قبوله مرا شاقا ، كما ترامى إلينا من أنبائه أنه بصير بالسنة وبالاسلام : هذا ماترامى إلينا من أخبار الشيخ أمين خليفة مؤلف هذه الرسالة ورئيس الجماعة اليوم . ونحن نرجو أن يكون هذا كله صحيحا ، ونرجو أن يكون لدى الشيخ من الخير والفضل أكثر من ذلك ولكننا نرجو أن يكون صارما قويا فى توجيه الجماعة وتهذيبها وتطهيرها من أشياء يعلمها الخليفة عنهم حق العلم وتؤلمه كثيرا ، ويود ألا يراها لا فى جماعته ولا فى غيرهم . ومن أول ما يجب عليه مصادرة هذه الرسالة وجمع نسخها لإبادتها وتحريقها فإن الله ورسوله أحب إلى المؤمن من والده وشيخه ومن الناس أجمعين. ونحن نعلم كما يعلم غيرنا وكما يعلم الشيخ نفسه أن لهؤلاء الجماعة، على دعواهم الاستمساك بالسنة ، وعلى تمسكهم الشديد ببعض مظاهرها ، هنات كثيرة يتمسكون

هنات الجماعة

بها أشد الاستمساك ، و يبالغون فيها مبالغة لا يرضاها الدين ولا العقل ولا الذوق، وقد وجدناهم يتحامون الصلاة فى المساجد العامة حتى صلاة الجمعة ولو اقتضى ذلك الفرد منهم أن يدع صلاة الجمعة ، ووجدنا الكثيرين منهم لا يلقون السلام على المسلم ، من يعرفون ومن لا يعرفون : حتى على أقاربهم ، ممن لا يوافقونهم على زيهم ، بل وجدنا أناسا منهم لا يردون السلام على من سلم عليهم ممن لم يتزيوا بزيهم . وقد بلغنا أن جماعات منهم ذهبوا إلى الحجاز ، شرفه الله ، فكانوا لا يصلون فى المسجد الحرام مع جماعات المسلمين ، وكانوا يصلون وحدهم لاسباب سخيفة كالاختلاف فى الزى . وقد خاطبت أحدهم ، ولكنه من العامة ، وأكثر القوم عوام ، فى هذه المسألة فأسمعنى مايصدق هذا عنهم . و إذا صح عنهم هذا ، والغالب أنه صحيح ، فالويل لهم . والقوم يبالغون فى شأن العذبة مبالغة شديدة وقد أخرجتها هذه المبالغة عن أن تكون سنة لو كانت سنة ، و يوجد بين أيديهم كتاب مطبوع من كتب شيخهم فيه عبارة عن هذه العذبة فظيعة . وقد كلمنا فريقا منهم فى هذه العبارة فوجدناهم يدافعون عنها إلا أن بعضهم يلجأ إلى تأويلها تأويلا بعيداً يأباه الظاهر ، ولا ندرى ما الذى اضطرهم إلى القول بهذه الأقوال التى يعترفون بأنها مؤولة ، و بأن ظاهرها باطل ، والمسلم والعاقل لا يقولان أقوالا تضطرهما إلى التأويل والتمحل المحال .

عداوتهم للناس

ومن البلاء المعروف عنهم أنهم يبالغون فى حمل العداوة والشنآن لمن خالفهم فى مسائلهم الصورية ، و يرون أن المؤمن القوى الايمان ، الصادق العقيدة ، الناصر للسنة ، هو الشديد فى عداء الناس المتلقى لهم بالجفاء والغلظة والفظاظة والمعاملة العنيفة القاسية . ولذلك فان الرجل منهم يكون وديعا سليم القلب واللسان عف المحضر والمغيب ، موطأ الاكناف ، سهل الخلائق ، فيقدر له أن ينضم إليهم ، وأن يصبح فرداً منهم فيصير حينئذ شيئا آخر ، وتتبدل خلائقه ، وتصير

إلى الفظاظة والشراسة والجفاء . فكأنهم يرون الدين ، وقد سبوه بذلك ، يقتضيهم أن ينشروا العداوة فى الأرض بين الناس ، وأن يصير الأخ حربا لأخيه وأبيه وذويه وأهليه وإلا لم يكن مسلما ولا سنيا . وهذا جهل بالدين وبالسنة ، فان أديان الله جميعا إنما جاءت لإلقاء السلام العام بين جميع الناس وكل الشعوب ، ومن أبلغ وأعظم دعوة دين الله للسلام العام قول الله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » وقوله « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين» وقوله « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» وقوله « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين » وقال فى الأبوين الكافرين الداعيين إلى الكفر بالله يوصى بهما ابنهما « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى السلام العام ، وإلى الآداب العامة الفاضلة ، وإلى البر بجميع الخلق . ولهذا الغرض سمى الدين المحمدى « بالاسلام» . وقد كان النبى عليه السلام أودع الناس وأسلمهم وأطيبهم خلقا ومعاملة للصديق والعدو والمسلم وغير المسلم ،حتى لقد كان يعود غلمان اليهود الكافرين به وبربه ودينه وكتابه إذا مامرضوا ، وكان يتلقى شر الناس خلقا وطبعا ودينا بالبشاشة واللين والرفق، ويقول :« إن الرفق لايدخل شيئا إلا زانه ، وإن العنف لا يدخل شيئا إلا شانه » ويقول « شر الناس من تركه الناس اتقاء شره » وقد حدث الله عن هذه الضرائب المحمدية الفنة فى كتابه فقال « وإنك لعلى خلق عظيم » وقال « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » وقد كان اليهود ، وهم شر الناس فى كل عصر ، يأتونه عليه السلام ويقولون : السام عليك يا محمد — والسام هو الموت — فلا يزيد على أن يقول « وعليكم » وقد أنكر عليه السلام على عائشة

السلام فى الاسلام

من الأدب المحمدى

إذ سبت اليهودى الذى قال للنبى عليه السلام ذلك . وبماذا تظن أن يلاقى جماعة هذا الشيخ إنسانا تاقى شيخهم بالاعتراض والنقد الهيّن فضلا عن سبه والدعاء عليه بالموت ؟ وقد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء فى خدرها كما جاء فى وصفه الصحيح . ومن كان أشد حياء من العذراء العربية لا يمكن أن يقابل أحدا من الموافقين والمخالفين إلا بأفضل الأخلاق وأسهل الطباع .

فرسول الله ، وكذا سائر رسله ، لم يكن فظا ولا فاحشا ولا بذيئا ، بل كانت معاملته كلها للناس كلهم ، حتى المشركين منهم ، وحتى اليهود ، أخبث الأمم ، المثل الأعلى الكامل فى الرفق واللين والحياء والأدب والتسامح . فعلى هؤلاء إذا كانوا من أهل السنة ، أن يقتبسوا من هذه الاخلاق المحمدية المرضية، وعليهم أن يدعوا الفظاظة والشراسة والجفوة التى نراها متحكمة طاغية على أخلاق الكثيرين منهم، حتى لقد فرقوا بين الاخوة وبين الأبناء والآباء ، لا لشىء إلا شىء لا وزن له فى معيار الدين والصلاح ، حتى لقد بعثوها على الجيران عداوة نكراء لا يرضاها امرؤ عرف الله وأنبياءه وماجاءوا به من الآداب والسلام والرفق. حتى لقد عرف « السنّى » :وهذا لقبهم بين الجمهور ، قرين الشدة والعنف وحدة الطبع ، وهذا من أعظم ما ينكر عليهم بل هذا من أعظم ما يرغب الناس ويصرفهم عما معهم من السنة والدين . ونعوذ بالله من أن نكون فتنة لأحد .

هذه كلمات وضعناها عَرَضاً فى هذا الكتاب، حملنا عليها الرغبة فى إصلاح هؤلاء الناس ، وإصلاح خلائقهم وطباعهم وعقائدهم مما لا يرضاه الله ولا دينه ، وأملنا فى رئيس الجماعة الشيخ أمين خطاب عظيم . والهالك من هلك بالحق .. ومع هذا الذى ذكرناه لا ننكر أن فى كثير من هؤلاء الجماعة خيرا ودينا . .

الرجوع إلى بحث الشفاعة

وبعد هذا نرجع إلى أصل بحثنا وهو بحث الشفاعة وطلبها من الأموات وإيراد الدلائل على امتناع ذلك . فنقول : إن اعتقاد المستشفعين بالموتى أنهم يعلمون

الغيب ، ولزوم هذا الاعتقاد لطلب الشفاعة منهم هو البرهان الأول على أن الاستشفاع بهم لايجوز ولايقره الاسلام ولا أهله .

البرهان الثاني

ثانيا : ، أى ثانى الدلائل على بطلان الاستشفاع بالموتى ، أنهم قد أفضوا إلى عالم آخر مجهول الكنه والحقيقة ، متقطع الأسباب والصلات ، بعيد المكان والمكانة عن عالمنا هذا : فهم غرباء بعداء عنا ، مجهولو المكانة والمكان ، ليس بيننا و بينهم من الصلات والاسباب إلا الايمان بالغيب و بما ذكره الله فى وحيه ورسالاته على ألسنة رسله وأنبيائه . فهم لن يسمعوا دعاء من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم ، بل لن يعلموا من حاله شيئاً : لا رغبته فيهم ولا انقطاعه إليهم ، ولا استشفاعه بهم ، لبعد مابينه وما بينهم ، ثم لو علموا من ذلك شيئاً لما فعلوا شيئاً .

استحالة سماع الأموات

و بيان ذلك أنه لاخلاف بين المؤمنين بالجزاء والثواب والعقاب والحساب ، المؤمنين باستقلال الأرواح وانفصالها عن الأشباح ، المؤمنين بعذاب القبر ونعيمه : لاخلاف بين هؤلاء جميعاً فى أن أرواح الموتى إما فى عالم النعيم والراحة والسعادة ، كالجنة وماحولها ، إن كانت أرواحاً صالحة مؤمنة طيبة ، و إما فى عالم الشقاء والعذاب والهوان ، كالجحيم وماحوله ، إن كانت أرواحاً كافرة فاسقة خبيثة : فأرواح الموتى إما فى أعلى عليين وهى أرواح المؤمنين الطيبين ، و إما فى أسفل سافلين ، وهذه هى أرواح الكافرين والأشقياء الظالمين : فلاشك أن عالمى النعيم والجحيم منفصلان عن عالمنا هذا مباينان له . و إذا كان هذا كله صحيحاً ، وهو صحيح بلا ريب ، فكيف يمكن لهؤلاء أن يسمعوا دعوة من دعاهم واستشفاع من استشفع بهم من أهل هذه الدنيا وسكانها وسكان عالم الأرض ؟ بل كيف يمكن أن يعلموا من أحواله وشؤونه شيئاً إلا شيئاً نص عليه الشرع لحكمة أرادها الله ؟ فكيف لايكون من أجهل الخلق وأغباهم وأضلهم من أمّل هؤلاء فانقطع إليهم

ورجا أن يسمعوه وأن ينفعوه ؟ وهم لو كانوا أحياء كاملى الحواس فى هـذه الدنيا فدعاهم داع من مكان قصى بعيد ، كأن يكون هو فى قطر وهم فى آخر ، من غير أن تكون هنالك آلات تنقل الأصوات وتلاشى الأبعاد والمسافات ، لكان ذلك الداعى إما جاهلا ضالا معتقدا فيهم علم الغيب والاحاطة التامة بالغائبات ، و إما مجنوناً يهذى . ولن يدعو عاقل،دعوة حقيقية ، إنساناً بعيداً عنه غائباً :هذا وهم أحياء بعيدون غائبون فكيف بهم وهم أموات قصيون غائبون نازلون فى أقصى منزل وأمنع دار ؟ لاشك أنهم إذن لن يسمعوا أصوات هؤلاء المستشفعين بهم المخدوعين الضالين ، وان يعلموا من أحوالهم شيئاً ، بل لاشك أنهم عنهم فى عزلة تامة وغفلة تامة . ولو أن قوماً توجهوا إلى سكان السموات و إلى سكان القمر والمريخ والافلاك العلوية ، إن كان فيها سكان ، يدعونهم و يستشفعون بهم ، ظانين أنهم يسمعون و يشفعون ، لكانوا مثل هؤلاء المستشفعين بالأموات ، إن لم يكن هؤلاء شراً منهم مكانا وأبلد أذهانا . ولا ريب أن من طلب الشفاعة والدعاء من حى سوىّ يسكن المريخ أو القمر أو السموات العلى ضال جاهل بعيد عن حدود الدين وحدود المعقولات ، ولا ريب أن من طلب ذلك من الاموات سكان الجنة أو النار، ليس أقل غباء وجهلا وضلالا من ذلك الذى يستشفع بأهل السماء وأهل الأجرام العلوية . وقد جبلت النفوس كلها على معرفة هـذه الحقيقة الواضحة ، وهى أن دعاء البعيد القصى الغائب جهالة وغباوة وضلالة . ولهـذا فاننا لانجد الناس ،مهما كرعوا فى مناهل الجهل وارتووا منها ، يحاولون سؤال الأبعدين الغائبين عنهم شفاعة ولا غيرها ، ولايحاولون خطابهم والاتصال بهم،و إن أسرفوا فى إعظامهم و إعظام شأنهم ، و إن زعموا لهم من الكرامات المفتريات والسلطان الالهى الذى لا يبارى ولا يجارى . و إنما يقعون فى دعاء الاموات والاستشفاع بهم ، مهما بعدوا وغابوا ، ومهما بعدت عنهم أضرحتهم وقبورهم . وهـذا

دعاء أهل السماء

الغائب لا يدعى

راجع ، والله أعلم ، إلى أنهم يرون الموتى موجودين فى كل مكان ، حاضرين مع كل شخص ، داع لهم ، أو أنهم يعلمون جميع المغيبات ، ولهذا يدعونهم من كل مكان بكل لسان ولا يدعونهم أحياء إلا حاضرين قريبين إلا فى النادر الشاذ.

الآيات فى أن الأموات لا يسمعون

وقد أنبأ كتاب الله فى غير ما آية بانقطاع صلات الأموات بالأحياء وبأن الأموات لا يعلمون ولا يسمعون دعوة من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم ولا انقطاع من انقطع إليهم . وقد نعى الله على المشركين والجاهلين تعلقهم بالموتى ورجاءهم نفعهم وضرهم ، واستشفاعهم بهم ، وقد نوّع هذا النعى وهذا التجهيل وتلك الزراية بهم . وهذا كله واضح فى آى الكتاب ، قال تعالى : « والله يعلم ماتسرون وماتعلنون ، والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، ومايشعرون أيان يبعثون » وقال : « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ». والآية نص ظاهر فى أن من كان المشركون يدعونهم لا يسمعون دعوتهم، والمشركون كانوا يدعون الانبياء والصالحين من الأموات ، ويدعون الملائكة والجان ، والآية نص جلى فى أن هؤلاء المدعويين جميعا لا يسمعون دعاء من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم. وقال من سورة الأحقاف : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » . وهذه الآية ، ولا شك ، نعى على قوم كانوا يدعون عباداً لله مقربين لديه قد رحلوا عن هذا العالم رحلتهم الطويلة ، واجتازوا حدوده كلها : فهم غافلون عن الدنيا وأهل الدنيا ، غافلون عمن دعوهم وتعلقوا بهم ورجوا شفاعتهم أو وساطتهم : غافلون عن كل ذلك مشغولون عنه بعالمهم الذى هم فيه . ولهذا فانهم يوم القيامة ، يوم الثواب والعقاب والحساب ، يوم التغابن ، يكفرون

بعبادة ، عابديهم ويتنكرون لهم وينكرونهم وينكرون عبادتهم إياهم ويتبرؤن أيضاً منهم ، لأنهم عباد الله المخلصون ، لا يرضون إلا ما يرضى ولا يريدون إلا ما يريد ولا يحبون إلا ما يحب . . . فالآية برهان على أن الأموات لا يسمعون دعاء الداعين لهم ، وعلى أنهم غافلون عن كل ما هنالك

وقال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين : ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ؟؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون، فلا تنظرون» . فالذين كان المشركون يدعونهم من دون الله عباد بشر مثل دعاتهم المشركين ، لا يستجيبون لمن طلب منهم الشفاعة ولا غير الشفاعة، لأنهم غير قادرين ، لأنهم فقدوا آلات القدرة والعمل : فلا أيد يبطشون بها ، ولا أرجل يمشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها من دعاهم وعاذ بهم وسألهم الشفاعة من أهل الدنيا وسكان عالم الأرض . وإذا كانوا لا يسمعون دعاتهم ولا يرونهم ، كما لا يعملون بأيديهم ولا يمشون بأرجلهم، فكيف يمكن أن تطلب منهم الشفاعة ؟ وكيف يستشفع بهم العاقل البصير ؟ ؟ فالآية برهان قاطع على أن الأموات لا يسمعون الاستشفاع بهم ولا الدعاء لهم ، وعلى أنهم لا يصنعون لأهل الدنيا شيئاً

وقال تعالى : « إنك لا تسمع الموتى » وقال : « وما أنت بمسمع من فى القبور » . وهاتان الآيتان ، على ما يقال فيهما من التأويل والتفسير ، برهانان بينان على أن الأموات وأصحاب القبور لا يستطيعون أن يسمعوا دعاء من دعاهم ولا استشفاع المستشفع بهم من أهل الدنيا : فمهما يدعهم الداعى ، ويستشفع بهم المستشفع فهم عن دعائه واستشفاعه وحاله فى صمم وغفلة وعزلة « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟ »

والآيات الدالات على أن الموتى لا يسمعون ولا يعلمون دعاء أهل الدنيا وانقطاعهم إليهم كثيرة معلومة، وسوف يأتى، إن شاء الله، لهذا الذى ذكرناه مزيد. وإذا كانوا لا يسمعون هتاف المستشفعين ولا ضراعاتهم فكيف يجوز الاستشفاع بهم، وكيف لا يكون طالب الشفاعة منهم أغبى الأغبياء وأجهل الجهلاء.

البرهان الثالث

ثالثا : قد ذكر الله فى جملة القرآن إنكار شفاعات المشركين، ونعى عليهم أنواع استشفاعاتهم : فنفى شفاعاتهم جملة، ونعى عليهم استشفاعهم أيضاً جملة، وأخبر أن من جملة ضلال القوم وفساد عقولهم وعقائدهم، ومن جملة شركهم بالله واستحقاقهم النقمة والمقت، اتخاذهم الشفعاء إليه وطلبهم الشفاعة من معبوديهم وتأميلهم أن يشفعوا لهم وأن ينفعوهم، وأن يقربوهم إلى مولاهم الحق بشفاعتهم ووساطتهم، ثم دعاهم جميعاً إلى أن يدعوا ذلك كله وإلا فالويل لهم. هذا كله جاء به القرآن وبينه فى الآيات الكثيرة الظاهرة، قال تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً، له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون. وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون»

الآيات فى إنكار الشفاعة

ففى هذه الآية البليغة أنكر الله على الذين اتخذوا إليه تعالى شفعاء، ورد عليهم هذه الشفاعة وهؤلاء الشفعاء ردوداً مختلفة بالغة : فهم أولا لا يملكون شيئاً لا الشفاعة ولا غيرها من ملك الله أو فى ملكه، وهم ثانيا لا يعقلون ولا يعلمون لأنهم قد ماتوا وأفضوا إلى عالم الخلود والنعيم المنفصل عن عالم الدنيا وعالم المستشفعين، وهم ثالثا لا يملكون من أمر الشفاعة شيئاً لأنها لله جميعاً، يقسمها على وفق حكمته وإرادته وعلمه ورحمته. وهم رابعاً لا يمتلكون فى هذا العالم شيئاً لا نقيراً ولا قطميراً ولا مادون ذلك، لأن لله وحده ملك السموات والأرضين وملك كل شئ، وهم خامساً لا ينفعون ولا يضرون، ولا يتقدمون ولا يؤخرون،

لأن مرجع ذلك ومصيره إليه تعالى وحده . وقد ختم هذه الردود القوية البالغة المتنوعة بالانباء عما جبلت عليه النفوس المشركة المعددة من انكار التوحيد والافراد والاشمئزاز من ذلك والنفور عنه ، ومن الرضا والولوع بالشرك والتعديد في الأرباب والمعبودات ، فقال في الآية : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » : فاذا قيل لهم : الله وحده كافٍ عبده وكافٍ جميع عباده ، فلا يرجع إلا إليه ، ولا يرغب إلا فيه ، ولا يؤمل سواه ، ولا يدعى إلا هو : الله وحده وكفى « أليس الله بكافٍ عبده » : إذا قيل لهم هذا أنكروا وأجفلوا وورمت أنوفهم ، واشمأزت نفوسهم ، لأنهم قد طبعوا على حب غيره تعالى ، وعلى العبودية للمخلوق العاجز وعلى الرغبة فيه . أما إذا ذكر لهم أولئك الذين أشربت قلوبهم ونفوسهم حبهم ورجاءهم وخوفهم وتأميلهم من المخلوقين العاجزين الضعفاء ، فقيل في تقريظهم وامتداحهم : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، تلك الأنبياء والأولياء ، إن لهم الشفاعات والمعجزات والكرامات والوسائل الضارة النافعة ، المقدمة المؤخرة ، وإن لهم ما يشاؤن من الشفاعات والكرامات والمعجزات التي ادخروها لمن دعوهم ولاذوا بهم ووقفوا بأبوابهم وأعتابهم ورجعوا إليهم : أما إذا قيل لهم ذلك فانهم يفرحون ويطربون ويستخفهم الفرح والطرب حتى يطيروا بأجنحة السرور والحبور في جواء الخيال وسموات الغبطة والرضا . . . وهذا إنباء عظيم عن جميع النفوس الدائنة لغير الله ربها ، الخاضعة للمخلوق والعبيد الأرقاء الأذلاء ، فان هذا هو ديدنها ودأبها في كل عصر ومصر : لا تختلف ولا تتغير . والله المستعان . والآية من أبلغ الردود على متخذي الشفعاء كما هو ظاهر من ألفاظها ومراميها

وقال تعالى : « الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة

أيام ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع، أفلا تتذكرون »
وقال : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى
ولا شفيع ،لعلهم يتقون »وفى هاتين الآيتين الكريمتين نفى الله الاولياء والشفعاء
نفيا عاماً باتا لا استثناء فيه ولا تخصيص ، وحدث فيهما تحديدا واضحاً لا اخفاء فيه
ولا لبس بأنه ليس لهم من دون الله ربهم ولى ينفعهم أو يضرهم أو يقدم لهم
خيرا ، ولا شفيع يشفع لهم فيدفع عنهم بشفاعته ضرا أو مكروها أو بلاء .فليس
بينهم و بينه تعالى سوى عدله و رحمته وقضائه المحتوم . . . فأعمالهم هى شفعاؤهم،
ثم على عدله و رحمته يكون الجزاء والثواب، ولا يحسب حاسب أن قوله : « مالكم
من دونه من ولى ولا شفيع » وقوله « ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع » يدل على
انكار ذلك إذا كان من دون الله ، أما إذا كان إليه ولديه فلا انكار ولا نكران:
لا يحسب هذا الخاطر حاسب ، وذلك أن كلمة « من دونه » أو « من دون الله »
يراد بها غيره تعالى . وهذا أسلوب للقرآن معروف كقوله « ولا تدع من دون
الله مالا ينفعك ولا يضرك » وقوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من
لا يستجيب له إلى يوم القيامة » ، وقوله : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا
ولا يضرنا ونرد على أعقابنا » وقوله : « ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون
من دونه الباطل» وقوله : «و إذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون»وقوله :
« له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط
كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » ،
وقوله تعالى : « و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء
شفعاؤنا عند الله » إلى غير ذلك من الآيات المعلومة الكثيرة . فان المراد هنا
ب « دونه » و « دون الله » غيره وغير الله بلا ريب ، فقوله : « مالكم من
دونه من ولى ولا شفيع » معناه مالكم غيره تعالى ولى وشفيع . وقدعلم عن

سؤال وجوابه

المشركين أنهم كانوا يتخذون الشفعاء ليشفعوا لهم عند الله كما قال تعالى : «ويعبدون من دون الله» الآية المتقدمة وكما ذكر فى آية التقريب إليه تعالى زلفى

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » وقال : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » . وفى هاتين الآيتين أيضاً نفى الله تعالى الشفاعة نفيا عاماً تاما . ونفى أن تنفع نفسا من النفوس شفاعة من الشفاعات فى ذلك اليوم الذى هو يوم القيامة ويوم الفصل ، يوم الدين ، يوم الثواب والعقاب بعد الحساب والبلاء ، كما نفى الخلة أيضا ، وهى الصداقة والمحبة ، وفى سورة إبراهيم « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » و « خلال » جمع خلة وهى الصداقة والولاية كما ذكرنا . والمراد أنه لا تنفع فى ذلك اليوم شفاعات ولا صداقات ولا مخالات ولا شئ من هذا النوع المعهود نفعه عند أهل الدنيا الظالمين وعند حكامهم وقضاتهم وحكوماتهم . بل يذهب كل شئ من هذا ويتلاشى ويتطاير أمام حكم أحكم الحاكمين ، وعدل أعدل العادلين ، وعلم أعلم العالمين . . . فلا ينفع أو يبقى ثم إلا الأعمال الصالحة والطاعات البارة . أما ماسوى ذلك من أنواع الرجاءات والوساطات فلا يجدى لدى القاضى العادل والحكم المنصف ، بل لا يمكن التقدم إليه بشئ منه وإلا كان قدحاً وطعناً فى حكمه وعدله وقضائه . أما الشفاعة الصحيحة الثابتة فلا يعترض بها على هذا الذى ذكرناه لما سوف نذكره من الجواب والبيان من بعد .

لا يجدى عند الله سوى الأعمال

وهذه الآيات تشبه قوله تعالى فى سورة « المؤمنون « فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »

وقال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » فأبطل تعالى فى هاتين الآيتين زعم المشركين أن لهم شفعاء يشفعون لهم ، وأنهم إذ يستشفعون بهم ينفعونهم بشفاعاتهم ووساطاتهم وقربهم من الله أبلغ إبطال ، ففى الآية الأولى صور حالهم وماسيكونون عليه إذ قدموا على الله مولاهم الحق بأمثال الجبال من الذنوب والآثام والخطايا ومعهم أعظم منها من الآمال بالشفعاء والوسطاء الذين حسبوا أنهم سيدفعون عنهم كل مايخافون ، وسيشفعون لهم فى غفران جميع ذنوبهم وآثامهم وماركبوه فى حياتهم من المخالفات والمعاصى : قدموا على الله مولاهم الحق بهذه الأعمال والآمال ، وكانوا أحوج مايكونون إلى الشفاعة والوساطة ، ففوجئوا بأن نظروا حولهم فما وجدوا غير أنفسهم وغير آثامهم ، وقد أثوار بهم ، كما خلقهم فرادى مجردين من كل سلطان وسلطة ، ومن كل شفيع ووسيط ، وتلفتوا فلم يبصروا حميماً أو نصيراً ، وتسمعوا فلم يسمعوا غير الحق يناديهم « ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » ولكم شفعاء ووسطاء ، لقد كذب ما كنتم ترجون وتظنون ، فضلت عنكم الشفعاء المأمولون ، بل لقد أنكروكم وطردوكم وتبرءوا منكم فتقطعت بكم الأسباب ، وخانتكم الآمال ، وتلاشى ما كنتم تزعمون بينكم وبينهم من المناصرة والمعاونة فى تلك الساعات الرهيبة العصيبة ، وأخطأ ما كنتم تتخيلون . فكانت مفاجأة هى أروع المفاجآت ، ومقاماً هو أخذل المقامات .

آمال المشرك الخائبة

فأين الشفعاء منكم فى هذه الآونة ؟ وما الشفعاء إذا لم يمدوا أيدى النصرة والمعونة والانقاذ فى آونة الحرج والضيق ، وأى شفعاء هؤلاء الذين لا يرام الله ؟؟

كلا ، لاشفعاء ولا نصراء ولا شئ غير الله وغير عدله وقضائه وحكمته ، وغير عمل المرء وماقدمت يداه من صالح وطالح . ذلك هو مايبقى ومايرى فى ساعات القضاء وفى يوم الفصل وكل ماسواه زور وغرور ، والله العليم بمصاير الأمور .

وفى الآية الثانية أبطل أيضا شفعاءهم أبلغ إبطال فقال : إن هؤلاء الضلال المشركين قد عمدوا إلى عبادة من لايضرونهم ولا ينفعونهم ، فرجوهم وخافوهم وضرعوا وانقطعوا إليهـم ، و بسطوا لهم أكف الرجاء والدعاء والأمل الخائب الـكاذب قائلين « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » لمكانتهم منه ومكانتنا منهم برجائنا إياهم وانقطاعنا إليهم واتساع آمالنا فيهـم . فهم النصراء لنا يوم يعز النصير ، وهم الشفعاء المشفعون فينا يوم يطلب الشفيع ، وإنهم الآخذون بأيدينا ، المقتحمون بنا العقبات الـكأداء ، المجيزونا كل سبيل عسراء ... وذلك لقوة أسبابنا بهم ، وقوة أسبابهم هم بالله الذى إليه يرجع كل شئ . . . هـذا هو ظنهم وزعمهـم ، فأكذب الله هذا الظن وذاك الزعم أعظـم إكذاب وأوضحه بأن قال لهم أين هؤلاء الشفعاء الذين تزعمون وتؤملون ؟ أرونى إياهم فانى لاأرى منهم أحـدا ولا أسمع لهم ركزا ، أين يقعون أفى السماء أم فى الأرض ؟ كلا لاأراهم ولا أعلمهم لافى السموات ولافى الأرضين ، أتنبئون الله بمالا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون و يزعمون و يدعون ! كلا إنه لاشفيع لـكم ولا شئ ينقذكم غير أعمالكم ، إذ لو كان لـكم شفعاء حقا ، كما تزعمون ، لعلمهم الله فى الأرض أو فى السماء لأن الله لا يخفى عليه شئ فى ملـكه .

هذه ضروب بالغة قوية من إنكار القرآن التام لشفاعة المشركين وشفعائهم وضروب بالغة قوية من تنديد القرآن بمن اتخذوا إلى الله شفعاء ، ومن نعيه على من أملوا الشفاعات ورجوا خلاصهم بها و بالشافعين . وقد أجمل القرآن ، كما يرى ، إنكار ذلك ونهيه عنه ونعيه على من عملوا له ورغبوا فيه ، فما استثنى نوعا من

ظن المشرك الـكاذب

أنواع ، ولا أخرج قسما من أقسام ، ولا شفاعة من شفاعات ، بل عمد إلى النهى العام التام ، و إلى الابطال الشامل الكامل . .

هذا مادل عليه القرآن وماذهب اليه مع أننا لانشك ولا يشك العارفون البصراء بأن طوائف من المشركين كانوا يستشفعون بالأنبياء والصالحين،وكانوا يرغبون فى شفاعتهم ،وكانوا يطلبونهم ذلك كما يفعل هذا طوائف من المنقطعين إلى الأموات و إلى قبورهم اللاهجين بشفاعاتهم . . . فلا يرتاب عليم فى أن أقواما من المشركين الذين أنكر الله استشفاعهم وشفاعتهم كانوا يطلبون الشفاعة من عباد الله الصالحين كالانبياء والمرسلين، كما يطلبها اليوم جماعات الضارعين إلى القبور : هذا مالا يسمو إليه الريب ،ومع أنكر الله فى آيات واضحة بينة على المشركين ، وعلى العرب ، أنواع شفاعاتهم وضروب استشفاعاتهم وأقام عليهم الحرب الشعواء إذ استمسكوا بذلك وأبوا أن يدعوه ، وكان هذا دالا بجملته وتفصيله على بطلان الاستشفاع بالموتى والرغبة فيهم رجاء شفاعتهم و وساطتهم .

دلالة الآيات على ماذكرنا

و يمكن سياق هذه الحجة بعبارة أخرى كأن يقال مثلا : لاريب أن هذه الآيات تحرم نوعاً من أنواع الاستشفاعات ، وتنكر نوعا من أنواع الشفعاء تحريما و إنكاراً صارمين صريحين، ولا ريب أن هذين النوعين : المحرم والمنكر لابد أن يتحققا فى الخارج ،ولا بد أن يكونا موجودين فى طوائف المشركين والضلال حين نزول القرآن وشرائع الاسلام . وحينئذ نقول لايمكن أن يكون هذا الاستشفاع المحرم ، وهؤلاء الشفعاء المنكرون هو الاستشفاع بالأحياء القادرين على الشفاعة ، وهم الشفعاء القادرين على أن يشفعوا ، لأن ذلك ليس محرما فى الاسلام ولا فى غيره من الأديان ، فلا خلاف بين أهل الأديان كلها فى جواز هذا النوع من العبادة والوساطة . ولا يمكن أيضا أن يقال : إن هذا الاستشفاع المحرم هو الاستشفاع بالجماد المجرد من الأحجار والأشجار ، وذلك لما قدمنا من أنه من

الباطل المحال أن يفزع المشركون إلى جمادات وأحجار وأشجار مجردة من المعانى الروحية ، والانتسابات الخاصة إلى العباد الروحانيين من الأنبياء والأولياء ، لتشفع لهم ولتقربهم إلى الله زلفى وقربى . ولا يمكن أن يؤمل المشركون فى الجماد شفاعة ولا خيرا ولا قربا ولا تقريبا إلى الله . فان بطلان هذا لا يخفى على أحد ولا يختلف الناس فى امتناعه ، لا المشركون ولا غيرهم . وإنما كان فزع المشركين واستشفاعهم بالعباد الصالحين الممتازين طمعا ورغبا فى تقريبهم وهم إذا رجعوا إلى جماد من شجر وحجر ووقفوا حوله مستشفعين وداعين كانوا ، بلا ريب ، يقصدون من وراء ذلك أولئك الأنبياء والأولياء الذين زعم لهم الانتساب إلى ذلك الجماد المقصود ، كما يفعل أرباب القبور الضلال من المسلمين لدى عمود البدوى فى جامع الحسين ، وباب المتولى فى القاهرة ، وغيرهما ، وكمقامات الأربعينات الذين زعم لكل واحد منهم أربعون جسما ، وزعم لكل جسم من هذه الأجسام الأربعين ضريح خاص به ، تطلب الشفاعات ، وتنثر الشكايات والدعوات لديه ، وكما يفعل هؤلاء الضلال لدى سائر المقامات والبنايات المشيدة التى قد تكون مزوّرة مكذوبة . فان هؤلاء لم يروا ذلك الولى ولا ذاك الشيخ المزعومين ولم يجدوا أثرا من آثارهما ولا علما من أعلام وجودهما وولايتهما وكرامتهما وشفاعتهما ، وإنما رأوا الزخارف القائمة من القباب والسرج والنمارق والشبابيك المذهبة المزخرفة المفضضة ، فخالوا وتخيلوا ، وظنوا فضلوا ، وحسبوا تحت القبة شيخا ولدى الشيخ ضرا ونفعا وتقديما وتأخيراً وشفاعة ووساطة . وقد تكون الحقيقة الصحيحة الصادعة ألا شيخ ولا إنسان ولا شئ هنالك كما ذكرنا سابقا . فهذا التأويل لا يصح أن يكون تأويلا للاستشفاع المنكر المبطل فى الكتاب العزيز .

ولا يمكن أيضا أن يقال إن هذا الاستشفاع المنكر على المشركين هو الاستشفاع المقرون باعتقاد صاحبه بأن ذلك المستشفع به المرجو للشفاعة قديم

تقرير ذلك

مع الله مساوله فى القدرة والسلطان ، وذلك لأن المشركين كانوا مقرين بأن الله وحده هو خالق الخلق وخالق العالم وخالق أصنامهم وشفعائهم وما يعبدون ويدعون من دون الله . وقد قدمنا الدلائل على هذا من الكتاب ومن السنة ومن الضرورة ، ومن كلام المشركين أنفسهم .

ولا يمكن أيضا أن يحمل هذا الاستشفاع المنكر على الاستشفاع الذى يعتقد صاحبه أن من استشفع به يشفع بدون إذن الله وبدون رضاه ، بل يشفع قهرا وقسرا . لأن المشركين كما تقدم، كانوا مقرين بخضوع أصنامهم وخضوع كل شئ لله ، لا ينازعون فى هذا ولا يجادلون . ولهذا يتخذون أصنامهم شفعاء لديه تعالى، ويقولون إنها تقربنا إلى الله زلفى ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ولا ريب أنه لابد أن يكون الشافع والمشفوع له خاضعين دائنين لسلطانه وقهره ، لأنهم لو كانوا يعتقدون أن الأصنام مستقلة عن الله قادرة على منح الخير والفلاح والسعادة من دون الله ، وبدون إذنه ورضاه ، لما احتاجوا إلى جعلهم شفعاء لديه سبحانه بل كان يقتضيهم هذا الاعتقاد — لو كان — أن يرغبوا عن الله وأن يستغنوا بهم عنه ، فلا يقولوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ولا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . لأنهم مستقلون فى قدرتهم وإرادتهم وأعمالهم . فيجب على هذا أن تكون الرغبة فيهم خالصة من أن تمزج بالرغبة فى غيرهم ، لا فى الله ولا فى غير الله . ولكن كلا ، فان المشركين ما اتخذوا الأصنام والأوثان والمعبودات الأخرى من دون الله إلا رجاء أن تدنيهم منه تعالى وتقربهم إليه . فهذه الاحتمالات فى تأويل الاستشفاع المبطل المنكر كلها احتمالات باطلة ، فلم يبق إلا أن يقال إنه هو الاستشفاع بالصالحين الذاهبين وبصورهم وتماثيلهم وأجداثهم ومخلفاتهم وآثارهم كما فعل هؤلاء الحيرى من المسلمين حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل ، لا فرق ولا شك .

البرهان الرابع

رابعا : ـ أى رابع البراهين علـى بطلان الاستشفاع بالموتى ـ أن تجويز ذلك وفعله يلزمه أنواع كثيرة من أنواع المحرمات المحظورة فى الدين وفى المعقول فان الميت إذا استشفع به وقصد للشفاعة فلابد أن يعكف على قبره وأن يطاف به ، وأن يستلم ويقصد ، ويحج من كل مكان ، ومن كل فج وأفق بعيـد ، وأن يزان قبره ويسرف فى زينته وبنائه ، فيسرج ويعطر ويكسى وتعلق به أنواع المعلقات النفيسة ، وتقام عليه القباب الشامخة ، وتقدم إليه النذور والقرابين مع الضحايا والهدايا ، وتراق حوله الدماء مع الدموع ، وتشتمل على تقديسه والرهبة منه والرغبة فيـه حنايا الضلوع : هذا كله يلزم جواز الاستشفاع بالميت وإتيانه لذلك، كما يلزمه بلا شك ـ كما حصل ووقع وشهد ـ أن يدعى استقلالا ، وأن يطلب منه ما لا يستطيعه إلا الله كهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، وشفاء المرضى وغير ذلك من المطالب العالية التى توجـه بها عباد القبور إلى الموتى فى كل بلد إلا ما شاء الله .

مفاسـد الاستشفاع بالموتى

هذا كله بلا ريب يلزم جواز الاستشفاع بالميت ، والدليل على هذا التلازم الواقع والعادة والتحريات النفسية الصائبة . وهذه الأمور اللازمة كلها أمور محرمة باطلة قد نهى عنها الاسلام نهيا صريحا صارماً كما سبقت الدلائل وكما سوف يجئ المزيد لها . ولا شك أن الأمر الذى يقارن هذه المنكرات ويلازمها أمر منكر باطل يجب هجرانه والازورار عنه وعن أسبابه ووسائله ، لأن وسائل المنكر منكرة كالمنكر نفسه، ولأن ما يوقع فى عصيان الله وفى الجهالة والضلالة هو عصيان وجهالة وضلال يجب اطراحه والفرار منه . وقد بالغ الدين فى تحريم وسائل الشرك وبالغ فى النهى والتبعيد عنها . وهذا معلوم لأهل العلم لا يختلفون فيه. ومن أبلغ ما فى الباب وأدخله فى بحثنا هذا أن الاسلام قد نهى عن زيارة القبور فى أول عهده حينما كانت النفوس حديثة العهد بالشرك وعبـادة المخلوق خيفة أن ينبعث فيهـا

شئ من مخلفات الشرك و بقاياه الكامنة فى أركانها ، وحرم الصلاة وقت شروق الشمس ووقت غروبها ووقت استوائها ، خيفة أن يخال أن تلك الصلاة للشمس أو أن للشمس فيها نصيبا ، كما حرم البناء على القبور و إسراجها ، وجعلها أعياداً خيفة أن يجر هذا كله إلى الغلو والباطل والضلال . ومن أبلغ ذلك قطع عمر بن الخطاب شجرة الرضوان لما رأى أناسا يقصدونها ، ونهيه رضى الله عنه عن قصد الصلاة والعبادة فى المواضع التى تعبد فيها النبى عليه السلام ، وقوله رضى الله عنه عند النهى عن ذلك « إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم آثار أنبيائهم » . وهذا شئ يطول شرحه .

وسائل الباطل باطلة

فالاستشفاع بالموتى يجر بلا ريب إلى الانحدار فى هذه الباطلات ، والباطل يجب قطعه واستئصاله من أصوله وجذوره العريقة لئلا ينمو و يزكو يوما ما ، بل ليهلك و يتلاشى . ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن أول هذه البلايا التى أصيب بها الاسلام والمسلمون من الخرافات العجيبة ، كالاستنجاد بالموتى ، وسؤالهم مالا يقدر على مثله إلا الله ، هو الاستشفاع بالميت واقتناع الأنفس الجاهلة بأن ذلك ممكن وحسن ومفيد ومطلوب ، فان إنسانا يقف بين يدى ضريح مغلق غاية فضله ومجده أن يحوى جثة صالح من عباد الله الصالحين الميتين، فيمد يديه إلى ذلك الضريح مستشفعا ، راغبا راهبا ، مؤملا الشفاعة والخير ، زاعما أن ذلك الساكن الراقد فى ذاك الضريح قادر على نفعه بالشفاعة ، وعلى ضره بتركها ، وزاعما أنه يسمع استشفاعه ودعاءه ، و يرى حاله وذله ورجاءه : إن إنسانا يفعل ذلك و يعتقده لجدير بأن يضل و يهلك ، وجدير بأن تمتلئ نفسه بالجهالات والباطلات ، وأن تتفرع جراثيم الشرك فى جنبات نفسه وقلبه وعقله ، وأن تنمو وتزكو فيصبح من الهالكين . ولا ريب أن إنساناً يعتقد أن ميتاً من الأموات يستطيع أن يسمع شفاعته إذا استشفع به ، وأن يعلم حاله وذله إذا انقطع اليه وذل بين يديه ، وأنه يستطيع أن

يتصل بالله إذا اتصل هو به ، ليقوم له مقام الشفيع الوسيط : أقول إن إنسانا تسول له نفسه وعقله أن يعتقد هـذه العقيدة فى إنسان هالك لابد أن يعتقد فيه أكثر من ذلك وأعظم ، ولابد أن ينساق إلى الهاوية ، وأن يتدحرج فى الضلال الاعتقادى شيئا فشيئا ، ويتـدلى ، أو يترقى ، حتى يقع فى تأليـه ذلك الهالك وعبادته الصريحة ، وحتى يهبه سلطان الله وحقه وأوصافه الحميدة الحسنى . .. فان الانسان خلق رخواً ضعيفاً ، بل ذائباً ، إزاء المؤثرات الاعتقادية ، لا يستطيع أن يقف فى سبيل تيارها العنيف سـليما صحيحا معافى ، بل لابد أن يضعف وأن يذوب فيتلاشى . ومن هذا الوجه نرى بطلان أن يسأل الله بجاه أحد من خلقه ، كأن يقال أسألك ياألله بجاه فلان أو بجاه فلانة . وذلك أن إدخال اسم فلان أوفلانة فى دعاء الله وسؤاله مقـدمة لأمور أخرى من أمور الضـلال وسوء العقبى ، فان الداعى ربما أدخل فى دعائه أولاً جاه فلان ولم يزد ولم يجوز أن يزيد ، ولـكن ربما انتقل خطوة أخرى أوسع وأجرأ ، فسأل الله بفلان وألغى جاهه ثم لم يزد ولم يجوز أن يزيد ، ولـكن ربما انتقل خطوة ثالثة ، فراح يطلب من ذلك « الفلان » أن يشفع له وأن يدعو ثم لم يزد ولم يجوز أن يزيد ، ولـكن ربما انتقل إلى الخطوة الأخيرة فارتطم فى الهاوية فراح يدعو ذلك « الفلان » و يرفع اليه حاجاته ومطالبه ومآربه ملغيا اسم الله من البين ، ملغيا تلك الوساطات . فصار من المشركين العادلين عن الخالق إلى المخلوق . ومن أضل ممن فعل ذلك .

وهذه سلسلة مرتبط آخرها بأولها ، يقل أن يأخـذ آخذ بالأول منها إلا وأخذ بالآخر مرغما أو مختاراً ، والله العليم بذات الصدور و بما جبل عليـه الانسان من الضعف والجهل . فالاستشفاع بالأموات يجر إلى هـذه الباطلات ، والباطل يجب أن يؤخذ من أصوله وفروعه فيرمى ، والباطل محرم بوسائله وغاياته ،

وهـذا يكفى الحازم البصير برهانا عـلى بطلان هـذا الاستشفاع الذى يدعو إليه الجاهلون . . .

البرهان الخامس

خامساً : قد نص كتاب الله فى غير ما آية على أنه لا يشفع شافع بين يدى الله لأحد ما إلا باذنه و رضاه ، فلا يتقدم إليه تعالى نبى ولا ولى بشفاعة لانسان حتى يأذن له بالشفاعـة بأن يقول له اشفع لعبدى فلان فقد رضيته و رضيت بأن تشفع له ، فيتقدم الشفيع ساعتئذ و يشفع . وشواهد هذا من القرآن ومن السنة غنية عن إيرادها لشهرتها وكثرتها . ولهذا فان الشفاعـة فى الواقع لله ، لأنه هو الذى رضى المشفوع لهوأراد رحمته بشفاعة الشافع لصلاحه وطاعته ، وهو الذى أمر الشفيع بأن يشفع ، وهو الذى بعد ذلك قبل شفاعته وشفّعه . . . فالشفاعة كلها لله ومن الله و إليه ترجع ، كما قال تعـالى « قل لله الشفاعـة جميعاً » . فمقام الشافع لم يزد عن أن يكون مقام تـكريم وعناية ، و إلا فانه لم يقـدم ولم يؤخر ولم يصنع شيئا . فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند الخلق ، فان الشافع عنـد المخلوقين يشفع بغـير إذن المشفوع لديه و بدون رضاه ، بل قد يرغمه على ذلك و يرغمه على قبول الشفاعة وعلى التشفيع فيمن يكره و يمقت ، والمشفوع عنده من المخلوقين يفعل و يترك لأجـل الشفاعة والشافع ، فيترك ما يريد ويجانب ما يهوى و يرضى إجابة للشفاعة وللشافع . ولهذا كثيرا ما يجور و يظلم من كثرت لديهـم الشفعاء والشفاعات ، ولهذا أيضا حرمت الشفاعـة فى القضاء والحـكومة والفصـل بين النـاس ، لأنهـا توقع فى الجور و الظلم ، بل الشـافع يطلب ما يطلب على أنه ظلم وانتقاص لحقوق الآخرين . ولهذا فان البيئة التى تفشو فيها الشفاعات والرجاءات والوساطات بيئة موبوءة آثمة مجرمة غير محترمة وغير مرضى عنها ، بل هى بيئة ملعونة ممقوتة فى الأرض و فى السماء ، لا يرضاها إلا من أعطوا ما ليس لهم بشفاعات الشافعين الظالمين ، على أن هؤلاء أنفسهم لا يرضون هذه

لا تفشو الوساطة فى بيئة صالحة

البيئة فى دخائل أنفسهم . أما الشفاعة عند الحق سبحانه فليس فيها شيء من ذلك ألبتة ، و إنما هى تكريم و إظهار لشرف بعض خلقه ، فهى على هذا صورية لاحقيقية ، فان حقيقتها أن الله أراد بأحد عباده خيرا فأجراه فى الظاهر فقط بعد الشفاعة ومن طريقها والله هو موصل ذلك الخير لا ذلك العبد بشفاعة ولا بغير شفاعة . وقريب من هذا ، ولله المثل الأعلى ، أن تريد أن تهب إنسانا شيئا ، لأنك تريد إيصال ذلك الموهوب إلى ذاك الانسان الموهوب له على كل حال ، وتريد مع هذا أن تظهر كرامة بعض أصدقائك أو أقاربك عليك ، فتشير عليه ، أو تأمره ، بأن يشفع لديك بايصال تلك الهبة المفروضة إلى ذاك الموهوب له المفروض أيضا ، فيشفع ذاك الصديق لديك فتجرى ما أردت إجراءه على يديه و بشفاعته فى الظاهر ، فتكون حينئذ قد عملت الخير الذى أردت عمله وأظهرت فى عملك هذا كرامة الشفيع عليك، وهو فى الواقع لا دخل له البتة ولا فضل فيما عملت وأجريت ، والفضل لك وحدك أولا وآخرا ، فكذلك ، ولله المثل الأعلى، يقال فى شفاعة الشافعين عند الله .

إذا علم هذا قيل لهؤلاء المخالفين : إذا كان الشافع لايشفع عند الله حتى يأمره تعالى و يأذن له و يقول له اشفع تشفع وسل تعط ، وكان الشافع لا يمكن أن يتأخر عن الشفاعة فيمن قيل له اشفع فيه ، وكان الله مالك الشفاعة ، ومالك كل شيء، لا يرضى عن الشفاعة فى أحد من عباده إلا فى الصالحين الأتقياء ، الراضين المرضيين،وكان تعالى سوف يأمر ، ولا بد، تفضلا منه وجودا بأن يشفع فى عباده الصالحين المخلصين الابرار ، و بأن تنالهم ، ولا شك ، شفاعة الشافعين كما جاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه » . وفى الصحيح عن أبى هريرة أيضاً قال قال رسول الله : « لكل

نبى دعوة مستجابة ، وانى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً » ، والأخبار الصحاح فى هذا المعنى كثيرة معلومة .

إذا كان ماذكر كله صحيحاً ، وهو صحيح بلا ريب ، فلا معنى لطلب الشفاعة من المخلوقين ، ولا معنى للاستشفاع بالأنبياء والأولياء من الأموات ليشفعوا عند الله ، وذلك أن طلبك الشفاعة لا يجعلك أهلا لها ولا مأذوناً لك بها إن لم تكن بأعمالك الصالحة من أهلها ، وتركك طلبها لا يجعلك محروماً منها إن كنت من أهلها . فالاستشفاع ، إذن ، بالأموات رجاء شفاعتهم جهل وعبث وسفه . وهذا لا يجدر بالعاقل أن يقدم عليه ، وهذا كله لا يمكن أن يشرعه الله لعباده فى دينه .

من أحاديث الشفاعة

ومن أعجب ذلك وأقطعه ما ذكره الامام مسلم فى الصحيح فى باب الايمان من أحاديث الشفاعة ، فقد روى فى حديث الشفاعة الطويل الذى حدث به أنس بن مالك عن رسول الله أنه قال فى آخر الحديث : «فأخر ساجداً فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول يا رب ائذن لى فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال ليس ذلك إليك ، أو ليس ذلك لك ، ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبريائى لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله » . فأنت لو استشفعت الليل والنهار بأقرب عباد الله إلى الله لما شفع لك ، ولما نفعتك شفاعته لو شفع إلا أن يشاء الله و يأذن و يرضى . ولو أنه تعالى أراد لك شفاعة ورآك أهلا لها ورضى أن يشفع لك أكرم خلقه عليه لشفع لك ولنالتك شفاعته ونفعتك وإن أنت لم تستشفع بأحد من الخلق، بل وإن لم يخطر ذلك على بالك . . فاستشفاعك لا ينفعك وتركك ذلك لا يضرك ولا يمنع ماشاءه الله لك . وقد أعظم الله اللائمة على من يتعلقون بمن لا ينفعونهم ولا يضرونهم ولا يستجيبون لهم فقال : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فان

فعلت فانك إذن من الظالمين » وقال : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . . » فالذين يستشفعون بالأموات هم من الضالين الظالمين ، وهم من الصابئين الجاهلين المتعلقين بما لا ينفعهم ولا يضرهم .

البرهان السادس

سادساً : لاريب أن الاستشفاع بالأموات من الأمور المحدثة فى الاسلام الغريبة فيه ، المحمولة عليه حملا لا شبهة فيه ، ومن الأشياء المخالفة للاجماع الصامت التركى ، المخالفة لما لقنه الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ولما لقنه أصحابه من بعدهم من المسلمين . . .

السنة فى زيارة المقابر

ولقد علم المسلمون من دينهم ومن سنة نبيهم أنه لم يشرع لأحد منهم أن يذهب إلى ميت من الأموات ، لامن الأنبياء ولا ممن دون الأنبياء ، ليسأله الشفاعة والوساطة ، وليدعو الله له فى جلب الخير ودفع الضر . وقد علم المسلمون سنة الاسلام التى جاء بها محمد عليه السلام فى زيارة القبور ، وفى ما يقال عند زيارتها من الأدعية والأقوال ، وعلموا ما كان رسول الله وأصحابه يقولونه و يفعلونه حين الزيارة ، زيارة الصالحين والخيار من عباد الله ، وقد نقلت هذه السنة بالتواتر والاجماع الذى لاينازع ولايخالف ، وحفظت الالفاظ التى كان رسول الله يقولها عند الزيارة والتى علم أصحابه أن يقولوها عند زيارتهم . وقد غربلت أسانيد ذلك كله ومحصت وامتحنت أعظم امتحان وخبرت أفضل اختبار حتى علم الصحيح الثابت من المكذوب المختلق ، وحتى عرف ذلك كله كل من أراد معرفته من الخاصة والعامة . وقد علم أهل البصر بالاسلام والفحول من صيارفة الرواية والدراية وعلم المخالف والموافق أنه لم يكن مما علمه المسلمون من سنة نبيهم ومن كتاب ربهم وشريعتهم أن يستشفع بالأموات عند زيارتهم أو أن يزاروا لأجل ذلك ، لاجل طلب الشفاعة والوساطة وطلب الدعاء منهم . وقد علم هؤلاء جميعاً أنه لم يفعل ذلك

أحد من المسلمين فى صدر الاسلام، لا رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ولا أحد من الصحابة و لا من التابعين ولا ممن تبعوهم باحسان و إيمان . وعلم هؤلاء كافة ما كان يقوله رسول الله وصحابته حين يزورون وأنه لم يكن سوى الدعاء للأموات والسلام عليهم ، وسوى دعاء الزائر لنفسه أيضاً . وماجاء فى حديث لا صحيح ولا ضعيف أن رسول الله استشفع بميت من الأموات ، لا من أصحابه ولا من غيرهم من الأنبياء والصالحين الأولين ، ولا أنه علم أحداً من أصحابه أن يفعل ذلك ، ولا جاء أن أحداً منهم صنع شيئاً منه أو أرشد إليه أو دل عليه أو ذكر له فضلا ومثوبة وجزاءاً . . . ولو أنك رجعت إلى كل كتاب على وجه الأرض اليوم مما خلفه السلف الصالح وجهابذة الرواة ونقدة الأخبار ، ثم بذلت غاية جهدك وأقصى طاقتك كى تظفر بحديث واحد يعبأ به يذكر أن رسول الله، أو أن أحدا من صحابته أو أحدا من شيوخ الشريعة وأعضاد الملة أمر بالاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء والوساطة منهم — : لأعياك الطلب ولما حصلت على غير الخيبة والاعياء .

الحديث والمحدثون

وقد حفظ المسلمون سنة نبيهم الدقيق منها والجليل ، وحافظوا على حفظها والعلم والعمل بها وعلى نقلها والتحديث بها بامانة نادرة واتقان منقطع النظير ، وحملوها الأبناء والأحفاد كما حملوها هم بأمانة واتقان أيضا: وهكذا كان المسلمون معنيين بدينهم و بسنة رسولهم ، نضر الله وجوههم ، حتى شادوا منها هذه الاسفار العظيمة التى تتألف منها جبال ضخمة لو جمع بعضها إلى بعض . وقد عنوا بنقل الصحيح والضعيف من ذلك ، بل و بنقل الموضوع المكذوب ، الأول نقلوه للعمل به والاحتجاج ، والثانى للتحذير منه والحذار من الوقوع فيه . وقد قسموا هذا كله أقساماً مرتبة ، ونظموه تنظيما تعجز جودته الوصف والاطراء والمديح حتى أصبح من السهل اليسير على الأغبياء والجهلاء أن يعلموا صحيح السنة من ضعيفها من مكذوبها بأيسر حيلة وأقرب وسيلة . وقد بالغ علماء الحديث وفرسان

الرواية فى تفصيل ذلك وتمييز أنواعه وأقسامه حتى وضعوا أسفارا خاصة بالصحيح المجمع على قبوله والاحتجاج به على شرائع الدين ، غنية عن وضعها على خشبة النقد والامتحان والتجريح والتعديل ، كما وضع آخرون من هؤلاء الجهابذة أسفاراً أخرى خاصة بالموضوع المكذوب المجمع على رده و إنكاره و بطلانه بين صاغة الرواية وأعلام الحديث ، كما وضعوا كتبا خاصة بالثقات من الرواة ، وكتبا أخرى خاصة بالضعفاء المجروحين ، وكتبا جامعة النوعين . وقد صيغت هذه الكتب كلها بأيد ماهرة وعقول صحيحة بارعة منظمة ، حافظ عليها الدين من أن تميل مع الهوى ، وحجزها التقى وخوف الله من أن تدين للغش والتضليل والكذب . هذا كله بعض ما قام به المحدثون لحفظ الحديث وابلاغه القرون الآتية . ولكننا مع ماذ كرناه كله لانجد لما يذكره المخالف من الاستشفاع بالموتى دليلا واحدا .

لو فلينا لكتب كلها

ولو أننا فلينا هذه المدوّنات الاسلامية كلها ورقة ورقة وسطراً سطراً ثم حرفا حرفا على أن نجد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يأمر أصحابه بأن يزوروا القبور ويطلبوا من أصحابها الدعاء والشفاعة لما وجدنا شيئاً من ذلك ، ثم لو فلينا هذه المدونات كلها هكذا مرات ومرات على أن نجد أن أصحاب النبى عليه السلام كانوا يفعلون ذلك حين الزيارة ، زيارة قبر النبى وقبور غيره من الأنبياء والصالحين لما وجدنا أيضاً رسيساً من هذا النوع . بل لقد علم من سيرة الصحابة والمسلمين والبصراء بالاسلام أنهم كانوا ينكرون ذلك و يأبونه أشد الاباء والانكار وقد كانوا بعد وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام يلجأون أحياناً إلى أن يطلبوا الدعاء من أفراد المسلمين من الصحابة والتابعين . ولم يفكروا فى الرجوع إلى قبر الرسول لدعائه والاستشفاع به . وقد استسقى المسلمون فى عهد الخليفة عمر بالعباس بن عبد المطلب وقال عمر حين الاستسقاء به « اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » . وهذا الاستسقاء بالعباس مع هذه العبارة التى قالها الفاروق يدل على أن الاستسقاء بالأموات لا يمكن ولا يجوز، وعلى أنهم يعرفون أنه لايجوز بالاجماع، و إلا لو كان جائزا مشروعاً لما عدلوا عن رسول الله إلى غيره يقيناً لاشك فيه وقد استسقى معاوية ومن معه من المسلمين بأحد التابعين الصالحين، ولم يرجعوا إلى النبي ولا إلى قبره. وقد علم بالتواتر والضرورة أن بعضهم كان يطلب من بعض الشفاعة والدعاء الذى هو الشفاعة التى هى غير شفاعة الآخرة ، وكانو يحرصون على ذلك و يفعلونه و يقرونه . ولكنهم ما كانوا يذهبون إلى النبي عليه السلام إلا للسلام عليه وللزيارة المجردة من دعائه وطلب الشفاعة منه . ومن طاب له أن ينازع فى شئ من هذه الحقائق الظاهرة السافرة فنحن نتحداه ونطالب إليه أن يرد شيئاً من الذى ذكرناه بالعلم والحجاج الصحيح . و إذا علم هذا كله قيل للمخالفين : إن شيئا رغب عنه رسول الله و رغب عن الحث عليه ، ورغب عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والصحابة وخيار المسلمين لجدير بنا نحن ان نرغب عنه بأنفسنا وديننا ، وأن يرغب عنه كل مسلم يحب الله ورسوله ودينه و يجل صحابة النبوة ، وإن شيئاً لم يفعله رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ولا غيرهم من الأصحاب لا يمكن أن نفعله نحن مااهتدينا ، ولا يمكن أن يفعله المسلم الصحيح الاسلام رجاء الثواب والأجر من الله . فان ثواباً لا يسبق إليه هؤلاء السابقون ولا يفطنون له لانحب أن نسبق إليه نحن ولا أن نفطن له . فان أقصى ما يمكن أن نرجوه وأن نطلبه لأنفسنا هو أن نكون لهؤلاء الخيار تبعاً وأن نحسن الاتباع والاقتداء بهم ، لا أن نسبقهم ، ولا أن نجمع ونعلم من الخير والفضل ما لم يجمعوا وما لم يعلموا . والدين عندنا اتباع لا ابتداع ، واستنان لا اختراع . ولا نتقدم نحن بين يدى الله ورسوله، لأنا نعلم أنه لاخير فى عمل لم يعمله الرسول وأصحابه

لا نسبق الرسول وأصحابه

ولا نضل ، إن شاء الله ، فنزعم أنهم يتركون الخير والسبق إلى الصالحات ليسبقهم إليها هؤلاء الخلوف المخالفون . ولكننا نسأل الله الهداية والتوفيق ، ونسأله أن يجنبنا الغواية والضلالة وصنوف الجهالة .

هذه ستة براهين ناصعة قاهرة على بطلان الاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء والوساطة منهم . والبحث يتحمل أكثر من هذا ولكننا نوجز إيجازا . وطالب الهدى يكفيه القليل ، والراغب فى الضلال والعناد لا يكفيه قليل ولا كثير ولو جئ بكل آية وحجة لله . والله لا يهدى القوم الظالمين .

﴿ الكلام على حجج المخالف ﴾
﴿ فى الاستشفاع بالاموات ﴾

إجمال شبه المخالف

بقى هنا الكلام على الشبه أو الحجج التى أوردها هذا المؤلف الشيعى فى كتابه على جواز دعاء الموتى وطلب الشفاعة منهم . وهذه الشبه تتلخص فيما يأتى :

أولا — : إن الله قد أعطى عباده الصالحين الشفاعة ولا مانع من سؤالهم ما أعطوا .

ثانيا : — الشفاعة هى الدعاء ، والدعاء يجوز طلبه من الصالحين : الأحياء منهم والأموات ، ولا فرق .

ثالثا — : قد ثبت فى القرآن أن الملائكة يدعون و يستغفرون للمؤمنين والدعاء والاستغفار لا يخرجان عن معنى الشفاعة ، فهم يشفعون .

رابعا — : قد صح أن الجماد يشفع كما صح عن على أنه قال : اشهدوا هذا الحجر (يعنى الحجر الأسود) خيراً فانه يوم القيامة شافع مشفع ، له لسان وشفتان يشهد لمن استلمه .

خامسا — : لا يمكن القول بان الله أعطى عباده الشفاعة ومنع طلبهم إياها .

فإن الحق لايكون طلبه باطلا ، ولكن طلب الباطل هو الذى لايكون إلا باطلا .

سادسا - : قد تشفع آدم برسول الله قبل خلقه ، وتشفع وتوسل رسول الله بمن قبله من الأنبياء ، وتشفع الصحابة بالنبى عليه السلام ، وتشفع عمر بالعباس وأقر النبى ذلك الأعرابى الذى قال : إنا نستشفع بك على الله ، وطلبوا من النبى بعد وفاته أن يستسقى لهم فسقوا . وصح أن الذين يصلون على الجنازة شافعون :

وروى الترمذى عن أنس بن مالك قال: سألت رسول الله أن يشفع لى يوم القيامة فقال : « أنا فاعل » . وطلب سواد بن قارب ، وهو صحابى ، من النبى أن يشفع له يوم القيامة بقوله :

فكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

وقد طلب تبع الحميرى من النبى أن يشفع له أيضاً يوم القيامة وقد أقر رسول الله طلبه وشهد أنه صالح . وقد علم عثمان بن حنيف فى خلافة عثمان رجلا أن يقول : يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك فى حاجتى هذه . وقد فعل الرجل ذلك فقضيت حاجته. وقد جاء أن عليا وأبا بكر أكبا على النبى عليه الصلاة والسلام وهو ميت وقبلاه وقال كلاهما : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك . وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال : اللهم إنى أستشفع اليك بنبيك ، يانبى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له . وقد ذكر العلماء فى آداب الزيارة أن الزائر يقول خطاباً للنبى عليه السلام : جئناك لقضاء حقك والاستشفاع بك ، فليس لنا ، يارسول الله ، شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا .

هذه جميع دلائل المخالف على جواز الاستشفاع بالميت ، وجميعها دلائل باطلة مبهرجة .

﴿ بطلان هذه الشبه ﴾

جواب دليله الأول

أما الدليل الأول ، وهو أن الله أعطى عباده الشفاعة ولامانع من طلبها منهم ،

فالجواب أن يقال : إما أن يريد أن الله أعطاهم الشفاعة فى كل وقت ، وأنهم لذلك يشفعون كلما شاؤا ومتى أرادوا فيمن أرادوا ، وإما أن يريد أنهم يشفعون حقا ولكنهم لايشفعون إلا إذا أذن لهم بالشفاعة ورضى عن المشفوع له . . . فان كان يريد الأول قيل له : هذا باطل ، فانه لا يمكن أن يشفع أحد عند الله لأحد إلا من بعد إذنه للشافع بالشفاعة ، ورضاه عن المشفوع له لصلاحه وتقاه واستقامته واستحقاقه لذلك كما صرح بهذا القرآن الكريم فى غير ما آية . وإن كان يريد الثانى قيل له : إذا كانوا لايشفعون إلا إذا أذن لهم ، وكانوا يشفعون ، ولابد ، فى من أذن لهم بالشفاعة له ، فلا وجه لطلب الشفاعة منهم ولا معنى له كما تقدم . فانهم إذا شاء الله أن يشفعوا لأحد شفعوا ولا محالة ، سواء أطلب منهم ذلك أم لم يطلب ، وإذا لم يرد الله أن يشفعوا لأحد فلن يشفعوا ، سواء استشفع بهم أم لم يفعل . فالاستشفاع إذن بهم عبث وجهالة وسفاهة ، وذلك باطل لا يأمر الله به فى دينه وشريعته

جواب آخر

ويقال بعبارة أخرى : إن إعطاءهم الشفاعة لايقضى بجواز طلبها منهم يقيناً وذلك لجواز أن يكون فى طلبها منهم إثم وباطل وفساد ، ولجواز أن يكون طلبها عدوانا وبغيا ، ولجواز أن يكونوا مع إعطائهم إياها لا يسمعون إذا طلبوا ولا يبلغهم ذلك الطلب ، فيكون حراماً لهذا ، ولجواز أن تكون هنالك موانع أخرى غير ما ذكرنا حرم طلبها منهم لأجلها .

وقد أعطى الله الملائكة الشفاعة ، على ماذكر فى الآية ، ولايجوز طلبها منهم ولا الاستشفاع بهم بالضرورة ، بل لقد أعطى الجماد الشفاعة كما قال : إنه أعطاها الحجر الأسود وأخبر أنه يشفع ويشفّع يوم القيامة . وهل يجرأ المخالف الرافضى أن يدعى أنه يجوز طلب الشفاعة من الجماد ومن الحجر الأسود ، وأنه

يجوز الاستشفاع به ؟ بل لقد جاء وصح أن القرآن يشفع، وأن الأطفال يشفعون لآبائهم وأقاربهم . فهل يزعم الرافضى أن الاستشفاع بالقرآن ، والقرآن عندهم مخلوق ، و بالأطفال جائز مطلوب ودين يتقرب إلى الله به ؟

جواب آخر

ثم من ذا الذى قال بأن كل من أعطى شيئاً جاز طلبه منه ؟ وأى دليل على هذا القول إذا قيل ؟ وهل يجوز للناس جميعا أن يسألوا الأغنياء الأموال والأشياء التى أعطاهم الله إياها ؟ وهل يجوز لكل مسلم أن يسأل كل مخلوق ماأعطاه الله وماملكه إياه من أنواع الأموال وأنواع الأعطيات الأخرى من القصور والضياع والأولاد والنساء وغير ذلك بحجة أن الله أعطاه ذلك، و بحجة أنه لامانع من سؤال الخلق ماأعطوا ، لأن طلب الحق لايكون باطلا، ولأن سؤال الموجود لايكون ممنوعاً ؟ إن كان جواب الشيعى الايجاب فجواب الناس جميعاً السلب ، و إن كان يجيز هذا كله فالناس العقلاء يمنعونه كله .

جواب آ.

ثم يقال له أيضاً : من الذى سلم له بأن الله قد أعطى عباده الصالحين الشفاعة؟ إننا نحن ننكر هذا القول وذاك الزعم ، ونقول ، بحق لاشك فيه : إن الله لم يعطهم الشفاعة اليوم ولما يأذن لهم بها حتى الساعة ، ولكنه تعالى سوف يعطيهم ذلك يوم القيامة ، فانه سوف يشفّع عباده هناك فى قوم آخرين من عباده ، ولكنه لم يشفعهم الآن فيهم بالضرورة . و إذا علم المخالف هذا قلنا له أى عاقل يزعم أنه يصح أن يسأل الأنسان مالم يعط ومالم يملك ؟ هذا عن الدليل الأول .

جواب دليله الثانى

وأما الدليل الثانى ، وهو أن الشفاعة هى الدعاء وأن الدعاء يجوز طلبه من الأحياء والأموات ، فالجواب أن نقول :سلمنا أن الشفاعة هى الدعاء وأن الدعاء هو الشفاعة طباقا سواءً ، ولكننا لانسلم له جواز طلب الدعاء من الموتى ألبتة، ونقول إن هذا هو أصل المسألة ومبدؤها . ولن يجد دليلا واحداً يدل دلالة صحيحة

صريحة محترمة على جواز طلب الدعاء من الأموات . والدلائل التي ذكرناها على بطلان الاستشفاع بهم هي دلائل على بطلان طلب الدعاء منهم ، فلتراجع

جواب الثالث

وأما دليله الثالث ، وهو أن الملائكة يدعون للمؤمنين ، وأن دعاءهم شفاعة فالجواب أن نقول له : سلمنا أن الملائكة يشفعون للمؤمنين ولكننا لا نسلم جواز طلب الشفاعة منهم لدلائل كثيرة تقدمت في أول البحث . فلا يصح سؤالهم الشفاعة لأنهم لا يسمعون سؤال من سألهم لبعد مكانهم، ولان في سؤالهم ما يدعو إلى الغلو فيهم وفساد الاعتقاد والايمان ، ولأنهم يقومون بوظيفتهم التي أعدهم الله لها وأمرهم بها ، سواء أطلبوا أم لم يطلبوا ، وسواء أقيل لهم اعملوا ما أمركم الله بعمله أم لم يقل لهم . فطلب ذلك إليهم عبث وسفه وجهل ، ودين الله لا يأمر بذلك ، ولأنهم من عالم الغيب، ولا يجوز للمؤمن أن يتصل بعالم الغيب إلا من طريق الدين والرسالة الآلهية . وأديان الله لم تأمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم ، بل نهت عن ذلك وحاربته. ولأن الرسول وأصحابه لم يحاولوا الاتصال بهم ، ولا دعاءهم والاستشفاع بهم قط . ولو كان ذلك مشروعاً مثاباً فاعله لما جاز أن يتركوه ألبتة .

وإننا نطلب إلى المخالفين جميعاً أن يرونا دليلا واحدا يذكر أن الرسول أو أحد الأئمة الراشدين طلب من ملك شفاعة أو دعاء أو نحو ذلك ، ولأن الاتصال بالملائكة وسؤالهم هو كالاتصال بالجان وسؤالهم ، كلاهما فيه خطر على العقيدة وطغيان على مكان الايمان . فان من أجاز لنفسه سؤال الملائكة أو الجان الشفاعة وهم من عالم الغيب ، وقد وصفوا بالقدرة الخارقة ، فقد تجيز له نفسه يوماً ما هو فوق ذلك من عبادتهم ووصفهم بما ليس لهم من أوصاف الربوبية وصفات الرب ، ولأنه يجوز أيضاً أن يقال إن الدين تشريع وتوقيف ، لا يجوز الابتداع فيه ولا الاختراع والاستحسان ، ودعاء الملائكة وغيرهم من عالم الغيب لا يجوز ولا

يمكن إلا بوحى ، وليس لدينا وحى يجوز دعوة عالم الغيب والاتصال به بنوع من أنواع الاتصالات .

هذا كله من دلائل بطلان دعوة الملائكة وغيرهم من عوالم الغيب كالجان ، وكالحور المخلوقة فى الجنة ، وكالعوالم الأخرى، ومخلوقات الله لايعلمها إلا الله .

جواب دليله الرابع

وأما دليله الرابع ، وهو أنه صح أن الجماد يشفع وأن الحجر الأسود يشفع ويشفع يوم القيامة فى من استلمه ، فالجواب أن يقال : إن هذا من أعظم الدلائل وأظهرها على بطلان ماأتى به هذا المخالف وبطلان مااختلق وزوّر ، وذلك أننا نقول له : إذا كان الله قد أعطى الجماد الشفاعة ومع هذا لم يجوز أحد طلبها منه تبين أنه لايدل اعطاء الشئ الشفاعة على جواز طلبها منه والاستشفاع به،وعليه لايلزم إعطاء الصالحين الشفاعة جواز أن تطلب منهم وأن يستشفع بهم كماأعطى الحجر الأسود ذلك ولم يقل أحد إن الاستشفاع به مشروع جائز. وليس أمام الرافضى إلا أن يزعم أن الاستشفاع بالجماد يجوز، فيزعم أنه يجوزللمسلم أن يقول للحجر الأسود اشفع لى ،وادع الله لى !! فاذا زعم هذا وبلغته حاله قلنا : عليه وعلى دينه العفاء .

جواب الخامس

وأمادليله الخامس ، وهو أنه لا يمكن أن يقال إن الله أعطى عباده الشفاعة ومنع طلبها منهم ، لأن الحق لا يمكن أن يكون طلبه وسؤاله باطلا ، فنقول : إن الجواب عن هذا هو الجواب عن دليله الأول ودليله الثالث ، فليرجع إليهما .

جواب السادس

وأما دليله السادس ، وهو الأخبار المذكورة ، فالجواب أن نقول :

أما الحديث الأول ، وهو قوله إن آدم تشفع برسول الله قبل خلقه ، فهو يعنى به الحديث المشهورعلى ألسنةجهلاء العلماءوالفقهاء والعامة ، وهو ما رواه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك

بحق محمد لما غفرت لى ، فقال الله يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ما خلقتك » .

ولكن هذا الحديث مكذوب موضوع كما ذكر الحافظ الذهبى فى تلخيص المستدرك فلا حجة فيه . وسوف يجىء الكلام عليه فى باب التوسل من هذا الجزء . والذى نقوله هنا هو أن الرافضى قد غلط غلطاً فاحشا فظيعاً ، وذلك أنه زعم بهذا الحديث أن آدم قد استشفع بمحمد ﷺ قبل خلقه ! وهذا خطأ لا يقدم عليه إلا مثله . وذلك أن الاستشفاع هو طلب الشفاعة وطلب الدعاء كما ذكر هو فى كلامه السابق . فالاستشفاع فيه خطاب للمستشفع به ورجاء وسؤال الشفاعة منه . والذى لم يخلق كيف يمكن خطابه وسؤاله وطلب الدعاء منه إلا أن يكون ذلك على وجه التوصية التى لا يتوجه فيها الخطاب للموصى له إلا بعد خلقه ورشده ووجود عقله ؟ ولكن هذا ليس من هذا النوع يقيناً . فأغبى الأغبياء ، وأجهل الجهلاء وأضل الناس عقلا وفهماً لا يمكن أن يطلب ممن لم يخلق الشفاعة والدعاء طلبا صحيحاً حقيقياً ، ولا يمكن أن يتوجه إليه بالخطاب والاستشفاع .

من تخليط المخالف

وهذا الرجل يزعم على آدم أبى البشر أنه دعا النبى عليه السلام واستشفع به وطلب منه الشفاعة وخاطبه وسأله قبل أن يخلق وقبل أن يكون قادراً على السماع وعلى الشفاعة والدعاء والخطاب ، لأنه لم يخلق. وهذا غاية القدح فى آدم وفى عقله ودينه ، وغاية القدح فى رسول الله إذ نسب إليه أنه قاله ، وغاية القدح فى عمر ابن الخطاب إذ زعم أنه حدث به عن رسول الله ، وغاية القدح فيمن رواه من المحدثين إذ ذكر أنهم رووه وذكروه فى كتبهم !! وآدم ورسول الله وعمر

ابن الخطاب والمحدثون والمسلمون بريئون ، والحمد لله ، من هذا التخليط ، ومن هذه التهمة المنكرة الباطلة . والحديث ، لو كان صحيحا ثابتا ، ليس فيه شئ من الاستشفاع والخطاب وطلب الدعاء ، وإنما الذى فيه سؤال الله بحق النبى عليه السلام . فالخطاب والطلب لله وحده لا شريك له ، وإنما طلب ودعا وخاطب سائلا بحق محمد . وفرق عظيم بين الطلب من الله بحق أحد خلقه ، وبين طلب ذلك « الأحد » وسؤاله مباشرة . فان الأول خطاب لله والثانى خطاب لغير الله ، والفرق بين الأمرين ظاهر معروف لا يخفى . هذا على افتراض صحة الخبر ، ولكنه غير صحيح كما سوف يجئ القول فيه .

كشف القبر النبوى إلى السماء

وأما قوله : « وتشفع الصحابة بالنبى عليه السلام » فهو يشير به إلى ماروى أن أهل المدينة قحطوا فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها فقالت : انظروا إلى قبر رسول الله فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، ففعلوا فمطروا مطرا غزيراً .

سند الخبر

والكلام على هذا الخبر من ناحيتين : ناحية إسناده وناحية معناه ، أما إسناده فليس صحيحا لأمرين اثنين ، أولهما أنه من حديث محمد بن الفضل السدوسى المعروف بعارم عن سعيد بن زيد أخى حماد بن زيد الإمام المشهور عن عمرو بن مالك النكرى عن أبى الجوزاء أوس بن عبدالله الربعى عن عائشة رضى الله عنها . هكذا رواه الدارمى فى سننه . وهذا الاسناد فيه مقادح أربعة : أولها أن عارماً هذا ، وإن كان ثقة إماماً من رجال الصحيح الأثبات ، إلا أنهم ذكروا أنه فى آخر عمره تغير واختلط ، وأن حديثه لذلك قسمان : قسم صحيح وهو ما كان حدث به قبل التغير والاختلاط ، وقسم ضعيف وهو ما كان بعد ذلك ، وهذا الحديث لا يدرى من أى القسمين هو . وثانيها أن سعيد بن زيد قد تكلم فيه وضعف حديثه ، وقد وثقه آخرون . وثالثها أن عمرو بن مالك

النكرى هنا ضعف أيضاً وخاصة إذا حدث عن أبى الجوزاء وهو هنا عنه ، وممن ضعفوه إمام الحديث البخارى . وقد ذكروا أنه حدث عن أبى الجوزاء عدة أحاديث غير صحيحة ولا محفوظة ، كذا ذكر ابن عدى الحافظ . ورابع المقادح أن أبا الجوزاء ، وإن كان ثقة إماماً ، إلا أنهم ذكروا أن حديثه عن عائشة مرسل لأنه لم يلقها ، كذا ذكر البخارى وابن عدى وغيرهما ، فهذه الرواية مرسلة . واجتماع هذه المقادح الأربعة فى مثل هذا الخبر يمنع صحته ويرد على من زعموا أنه خبر صحيح . وحديث تجتمع فيه هذه العلل لا يصح الاحتجاج به فى مثل هذه المباحث التى يطلب فيها اليقين والصحة الظاهرة .

علة أخرى

ثانى الأمرين الدالين على أن الخبر غير صحيح مخالفته لسنة المسلمين وسنة الاسلام ، ولعمل الرسول وأصحابه والمسلمين من بعده عند القحط وانحباس السماء والماء . فإن الرسول عليه السلام وأصحابه والمسلمين كانوا إذا اشتد عليهم القحط وامتنع الغيث والمطر فزعوا إلى صلاة الاستسقاء ، وصلاة الاستسقاء معلومة فى الاسلام والدين ، لها أبواب ومباحث مطولة معروفة فى كتب الحديث وكتب الفقه . وقد صلى رسول الله صلاة الاستسقاء ، وصلاها أصحابه وخلفاؤه من بعده، وصلاها المسلمون من بعدهم ، وأقرتها وقالت بها جميع المذاهب الاسلامية . وقد قحطوا فى عهد الرسول عليه السلام وطلبوا منه أن يستسقى لهم مرات عدة ، فكان يستسقى تارة بالصلاة والدعاء فى الخلاء ، وتارة بالدعاء وهو فوق المنبر يخطب ، وتارة وهو جالس يدعو ويستسقى . . . ولكنه لم يقل مرة واحدة حينما طلبوا منه السقيا ، وحين عضهم الجدب : إنه يكفيكم أن أبرز بيدنى إلى السماء أو يبرز قبرى ، كما زعم فى هذا الخبر الضعيف ، بل ولم يفهم أحد من أصحابه هذا المعنى ، ولهذا علموا أنه لابد من الاستسقاء . وقد أجدبوا فى زمن عمر بن الخطاب فاستسقوا بالعباس بن عبد المطلب ، كما تقدم مرات وكما سوف يجئ بيانه

وما قال عمر ولا العباس ولا غيرهما من الصحابة والمسلمين : اكشفوا قبر النبي وافتحوا كوة بينه و بين السماء ، كما قيل فى هذا الحديث الباطل . وأجدب كذلك المسلمون من بعد ، فكانوا جميعاً يفزعون إلى صلاة الاستسقاء و إلى الدعاء ، دعاء الاستسقاء . وماذكر أحد من أهل العلم أولى الابصار والبصائر فى الاسلام وحقائقه : أن فتح هذه الكوة المزعومة من سنة الاستسقاء ومن الأمور المرغوب فيها عند الجدب ، بل هم يذكرون كل ما يفعل وما يطلب فعله عند طلب السقيا ولكنهم لا يذكرون هذا لأنه ليس معروفاً لهم ولا معلوماً فى الاسلام . فهذا الخبر غير صحيح لأنه مخالف السنة المعلومة التى لا يختلف فيها المسلمون .

علة ثالثة

على أنه لا يجرى الخبر معنى ولا يمكن أن يصح له وجه من الوجوه ، فأى معنى فى إبراز القبر إلى السماء ؟ وأية عبادة فيه يستنزل بها المطر و يستدفع بها القحط والقحر ؟ وأية حكمة فى هذا ، وأى أصل من أصول الشريعة يوافقه أو جاء موافقاً وعليه ؟ إنه لو كان لهذا معنى و وجه لكان ابراز المصحف أولى من إبراز القبر المستجاب إلى حيث يستنزل الله به الغيث والمطر على عباده ، ولكن كلا ، لا شىء من ذلك يتقرب به إلى الله وتستنزل به رحمته ، و إنما تستنزل رحمة الله وغياثه بالدعاء والصلاة والتو بة والعبادة والاستقامة على الطّريقة والفزع إلى الله بالآمال والأعمال كما قال تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » وقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » وقال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » وقال : « وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » — إلى غير ذلك من آى الكتاب الدالة على أن الغيث والخير

يستنزلان بالطاعات والأعمال الصالحة وبالدعاء والاستغفار ، لا بإظهار القبور إلى السماء أو غيرها : هذا كله مما يدل على ضعف الحديث وعلى بطلانه وكذبه .

معنى الخبر إذا صح

أما الكلام عليه من الناحية الأخرى ، أعني ناحية معناه ، فنقول : إن هذا الخبر ، على فرض ثبوته ، لا يدل على ماذهب إليه الشيعى المخالف ولا على ما أراد منه ، فانه هو زعم أن الصحابة قد تشفعوا برسول الله ؛ والاستشفاع ، كما تقدم فى ماذكرهو ، معناه طلب الدعاء من المستشفع به . فقوله : إن الصحابة استشفعوا بالنبى معناه أنهم طلبوا منه الدعاء والشفاعة ، ولكن الخبر ليس فيه طلب ولا استشفاع ما . لا من النبى ولا من الله ولا من أحد ما ، وإنما فيه إبراز القبر وفتح كوة منه إلى السماء ، وفيه أنهم صنعوا هذا وأنهم أغيثوا . فهو، لو كان صحيحاً ، وان يكونه ، لا يشهد لما ذهب إليه المخالفون من الشفاعة والاستشفاع والدعاء وطلب الدعاء أبداً .

الاستشفاع بالأحياء

وأما قوله : « وتشفع عمر بالعباس » فالجواب أن يقال : إن المخالفين لهذا المصنف ولإخوانه من أنصار الابتداع والزور ، لا يخالفون فى جواز طلب الشفاعة والدعاء من الأحياء الصالحين ، بل هم أنفسهم يفعلون ذلك . فكأن هذا الرافضى لا يدرى ما النزاع والخلاف بينه وبين مخالفيه ! ولا خلاف بين الناس أن العباس كان حيا سويا حينما استسقى به عمر والمسلمون معه وتوسلوا . وللكلام فى الحديث مزيد وإيضاح سوف يذكران فى هذا الجزء .

وأما قوله : « وأقر النبى ذلك الأعرابى الذى قال : إنا نستشفع بك على الله» . فالجواب أن يقال : الكلام فى هذا الحديث كالكلام فى الذى قبله وهو أنه فى غير محل النزاع والخلاف ، لان الاستشفاع بالحى القادر على الشفاعة لا خلاف فى جوازه بين المسلمين ، وهذا الأعرابى قد استشفع بالنبى وهو حى بلا خلاف . فلا معنى لما ذكر الشيعى

وأما قوله : « وصح أن الذين يصلون على الميت شافعون » فيقال : هـذا كالذى قبله ليس فى مكان النزاع ، لأن الذين يصلون على الميت هم الأحياء دون الأموات ، والأحياء ، كما قلنا مرات ، يستشفعون و يشفعون بلا خلاف .

استشفاع أنس بالنبى عليـه السلام

وأما قوله : « وروى الترمذى عن أنس بن مالك أنه قال: سألت رسول الله أن يشفع لى يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل » فالجواب أن الترمذى قال بعد إخراج الحديث : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وفى سنده أبو الخطاب حرب بن ميمون ، ضعف و وثق ، وممن ضعفوه شيخ المحدثين البخارى... فحديث يقول فيه الترمذى : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الطريق الحسن الغريب والترمذى معروف لينـه وتساهله فى نقد الرواة والروايات ، وفيه أيضاً من ضعفه البخارى ، وحسبك به ناقدا حجة فى هذا الشأن ، كيف يحتج به فى مثل هـذه المطالب العليا والمباحث الاعتقادية العظيمة ؟ وكيف يقبل المصنف الشيعى هذا الخبر الغريب فى مثل هذه المسائل وهو يكذب عشرات الأحاديث الصحاح فى تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة فيها و إليها ، كما سوف يأتى أنه يقدح فى تلك الأحاديث كلها و يضعفها ، وهى مخرجة فى الصحاح والسنن والمستدركات والمسانيد والمعاجم وفى كتب الفقه بل وفى جميع كتب الاسلام بل وقد أجمع على صحتها وثبوتها عن رسول الله ؟ ؟

معنى هذا إذا كان صحيحاً

ثم يقال إن هذا الحديث ، على تقدير صحته ، خارج عن محل النزاع أيضاً لأن أنسا طلب الشفاعة من النبى عليه الصلاة والسلام وهو حى، وطلب الشفاعة من الأحياء لم ننازع نحن ولا غيرنا فى جوازه كما قلنا مرات .

فان قيل هذا لا يوافق ماذكرتموه من أنه لا يشفع أحد لأحد عند الله إلا بعد إذنه بالشفاعة و بعد رضاه عن المشفوع له، وماذكرتم من أن من استحق الشفاعة نالها سواء أطلبها أم لم يطلبها ، ومن لم يستحقها فلن تناله و إن طلبها وأوغل فى

الطلب ، وماذكرتم من أنه على هذا لا معنى للاستشفاع لأنه لا يقدم ولا يؤخر ولا يفيد : إن قيل هذا قلنا هذا الذى ذكرناه صحيح لا ريب فيه ولا غبار عليه وقد شهد له الدين جملة وتفصيلا . أما الحديث ، على تقدير ثبوته ، فيقال فيه : لعل أنسا لم يعلم ذلك حين طلب من النبى ، وهذا لا مانع منه ولا نقص فيه . وأما إقرار النبى عليه السلام له وقوله : « أنا فاعل » فلعله يريد بذلك الشفاعة العامة التى ستنال كل من مات لا يشرك بالله شيئاً . وقد علم رسول الله أن أنساً لن يشرك بالله شيئاً ، وعلم أنه سوف تناله شفاعته ودعوته لذلك . فالرسول عليه الصلاة والسلام أجاب أنساً إلى ما علم أنه سيكون له ولابد سواء أطلبه منه أم لم يطلبه . فكان قوله عليه السلام فى هذا الحديث : « أنا فاعل » فى معنى قوله إن شفاعتى ستنال كل من مات لا يشرك بالله شيئاً . أو لعل هـذه الشفاعة التى طلبها أنس شـفاعة خاصة به دون الجميع جزاء خدمته رسول الله وملازمته إياه الاعوام الطوال ملازمة الخادم المخاص الامين . وقد خص رسول الله كثيراً من أصحابه بخصائص معلومة جزاء أعمال عملوها ، وخلائق فاضلة اتصفوا بها ، فكأن أنسا رضى الله عنه طلب أن تـكون له شفاعة خاصة به غير الشفاعات المعلومة التى سـيكون له منها قسم ونصيب و إن لم يطلبها : هذا كله لا مانع منه دينا ونظراً .

قصة سواد بن قارب ضعيفة

وأما قوله : « وطلب سواد بن قارب من رسول الله أن يشفع له يوم القيامة بقوله : فكن لى شفيعاً . البيت . » فالجواب أن هذه القصة ، قصة سواد بن قارب ، ضعيفة الاسناد كما ذكر ذلك الحافظ الهيثمى صاحب مجمع الزوائد . ولهذا لم يرو القصة أحد من أصحاب الصحاح ولا أحد من أصحاب السنن ولا أحد من المؤلفين فى الصحيح ، المتحرين الثابت دون الضعيف والباطل والمكذوب ، و إنما رواها الطبرانى فى المعجم ، والطبرانى يروى الضعيفات والموضوعات المكذوبات و يروى المتردية والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع ، كما يعرف أهل هذا الشأن .

وروى القصة أيضا أبو نعيم فى دلائل النبوة باسناده . وعادة أهل الرواية أنهم يتساهلون فى مثل هذه المسائل التى فيها إعظام من شأن النبى ومن شأن الاسلام ، ويلينون فى نقد رواياتها وتخريجها . . فلا يصح الاحتجاج بهذه القصة الضعيفة الباطلة فى هذا الموضوع الجلل .

على أن هـذا الخبر لو كان صحيحاً لـكان خارجاً عن محل النزاع لأنه من الاستشفاع بالحى وهو لا خلاف فى جوازه .

وأما ما ذكره عن تبع الحميرى فيقال فى الجواب : وأين الاسـناد لذلك ؟ ومن الذى رواه من أهل العلم والدراية والرواية والمعرفة ؟ فان استطاع هذا المخالف أن يصحح هذا الخبر وأن يقيم له اسناداً مقبولا و رواية قائمة ساغ له أن يحتج به وأن يرد به على المخالفين ، وأن يؤول لأجله آيات الـكتاب ومتواتر السنة . أما بغير ذلك فلن يعبأ به .

علم الرواية

ونحن لا ننازع ولا نشك فى أن هنالك أخباراً كثيرة مكذوبة عـلى الله وعلى دينه ونبيه لو صحت كانت دليلا على بعض الباطل الذى يدعو إليه هؤلاء القوم ، ولـكن رحم الله أهل الاسناد والرواية ، وجزاهم عن الاسلام والعلم والنبوة أفضل الجزاء . فلقد دفعوا عن الاسلام والعلم بعلم الاسناد وقوانين الرواية شراً كثيراً كان أراده أهـل الكيد والغدر والدهاء المر الخبيث بهما ، فدفعه الله بعلم الاسناد وعلوم الرواية . ولولا الاسناد لقال من شاء ماشاء ، ولما عرف حق من باطل ولا صادق من كاذب ، ولاختلط الخبيث بالطيب والـكذب بالصدق ، وكلام الأنبياء بكلام الـكاذبين الجاهلين وصنوف الغادرين . . . ولـكن الله جلت قـدرته وحكمته شاء لهـذا الدين أن يحفظ لأنه شاء له أن يكون خاتم الأديان ، وآخر رسالات السماء إلى نوع الانسان .

وأما حديث عثمان بن حنيف وقوله : إنه علم رجلاً فى خلافة عثمان أن يقول فى دعائه : يا محمـد إنى أتوجه بك إلى ربك فى حاجتى هـذه لتقضى ، وإن ذلك

الرجل فعل ماأمره به ابن حنيف فنال حاجته ، فنقول إن فى هذا الحديث كلاماً طويلا وتحقيقاً وا.. أ ..وف نذكره فيما بعد من هذا الجزء إن شاء الله . وسوف نتكلم عليه إن شاء الله بما يستحق من العناية والتحقيق ، لأنه هو أعظم ما مع دعاة الأموات من الشبهات .

روایة اذكرنا عند ربك

وأما ما ذكر أيضاً عن أبى بكر وعلى من أنهما أكبا على النبى عليه السلام وهو ميت وقبلاه وقال كل منهما : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك . فنقول : يعوز هذا النقل الاسناد والصحة ، فان الرواية بغير إسناد لا تقبل عندنا فى دين الله . والإسناد هو الفاصل بين الحق والباطل وهو الفيصل بين الصدق والكذب . وليس من الاسلام ولا من العلم فى قليل ولا كثير أن يقول القائل : جاء عن فلان كذا وعن فلان كيت من غير أن يسند ما قال ويصححه ، ومن غير أن يورد لما يذكر رواية لا صحيحة ولا ضعيفة . وليس بنافع هذا المخالف أن يجد ما يذكره مذكوراً فى بعض الكتب المطبوعة المشهورة . فاننا نعرف ونعترف أيضا أن الباطل موضوع فى الكتب مطبوع مقروء ، يحفل به ما شاء الله من الجماهير والدهماء ، ولكن ليس بنافع الباطل عند الحق أن يدون فى الأسفار الضخمة وعلى القراطيس الصفراء والبيضاء . وإنما الذى ينفع عند الحق هو الاثبات وإقامة الحجة الظاهرة المقبولة . فأين الاثبات هنا لما نقله عن أبى بكر وعلى ؟ بل وأين الاسناد لذلك ـ ولو ضعيفاً هالكا ـ ؟! أبالأباطيل التى لا أسانيد لها يسوغ لمن يخشى الله ولمن يحترم العلم والقرآن أن ينازع ويجادل وينازل ويصاول ، بل ويهجو ويسب ، ويقول ما يقول هذا من الأراجيف والأباطيل ؟

نعم جاء فى صحيح البخارى أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، دخل على رسول الله حين توفى وقال : بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وميتا ، والله

لا يذيقك الله الموتتين أبداً ، وأكب عليه وقبله . وأما أنه قال اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك أو من بالك ، أو أن عليا قال ذلك ، فشئ لم نره ولم نعرفه ، ولم يذكره البخارى فى هذا الحديث ولا فى غيره ، ولم يروه أحد من فرسان الحديث فيما نعلم . فعلى المخالف أن يقيم الاسناد لما ذكر واحتج به وأن يصحح ذلك الاسناد ، وإن لم يفعل — ولن يفعل — فليدع المراء والجدال بغير الحق ، فان للحق أنصاراً وحماة يغارون عليه ويحامون دونه ويدفعون عنه العدوان والتضليل ، فليدع المراء والجدال بغير الحق .

لو صحت الرواية لما دلت

على أن هذا النقل لو صح لما دل على جواز الاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء منهم . وذلك أن الذين ذكروا هذا النقل كصاحب « المواهب اللدنية » ذكروا معه أن الناس حين بغتوا بخبر وفاة النبى عليه الصلاة والسلام طاشت عقولهم ، فنهم من خبل ، ومنهم من أقعد فلم يستطع القيام ، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام ، ومنهم من أضنى . وكان عمر بن الخطاب ممن خبلوا ، وكان عثمان ممن أقعدوا فلم يستطع حراكا ، وأضنى بعضهم فمات كمداً ، وكان أثبتهم أبو بكر الصديق جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبى وقبله وقال ماذكروا أنه قاله . فان كان هذا صحيحاً ، كما زعموا ، لم يكن دالا على ما ذهبوا إليه يقيناً ، وذلك لأنهم ذكروا أن العقول قد طاشت فى تلك الساعة الأليمة ، ومعنى هذا أنها خرجت عن صوابها حتى خبل فريق ، أى فقد رشده وصوابه وعقله ، وأخرس فريق وأقعد فريق آخر ، إلى آخر ماذكروا . وساعة تصل فيها العقول والقلوب والنفوس إلى هـذا المكان من القلق والاضطراب والفزع والانفجاع — إلى حد الخبل والخرس والموت جزعاً وهولاً — لا يصح أن يحتج بالكلام الذى يقع فيها والالفاظ التى تتساقط من هولها وبلواها بلا ريب . فان هـذه الحالة مظنة لأن تقول الألسنة فيها مالا تعتقده العقول ، وأن تعتقد

العقول والقلوب مالا يصح ومالا يمكن أن تعتقده لو كانت مالكة صوابها ورشدها وهداها .

كلام المصاب لايحتج به

وقد عرف أن الناس فى وقت الهلع والمصائب كثيراً مايقولون أقوالا لايرضونها ولا يقولونها أو يقرونها فى أوقاتهم وحالاتهم العادية الساكنة ، وعرف أن الألسنة قد تتفوه بمالا تدرى وبما لا تعى عقولها وقلوبها . وقد قال عمر بن الخطاب ، وهو الرجل الحازم الصلب ، يوم أن مات رسول الله : من زعم أن محمداً قد مات أشطت دمه بسيفى هذا . ولولا الهلع والفزع الآخذان بناصية رشده وقلبه فى تلك الساعة النكراء لما قال ذلك الذى قال ، لأنه لايخفى على مثله أن رسول الله سوف يموت كما مات الأنبياء والرسل قبله ، وكما يموت سائر الخلق . وقد ذكر القرآن نبأ موته عليه الصلاة والسلام فى آيات قرأها عمر وقرأها غيره من المسلمين وعرفها الخاصة والعامة . وعلى كل حال كلام المصاب إذا اشتدت مصيبته وعظمت لايصح أن يحتج به ولا يصح أن يكون مذهباً ورأياً لقائله يؤاخذ به ويعد عليه . وقد علم أن المحب إذا أصيب بفراق حبيبه أو فقده يقول ويفعل مالا يصح من سواه ومالا يصح منه نفسه قبل مصيبته . . .فيخاطب آثار المحبوب الراحل ويناديها ويحج إليها ويستلمها ويقبلها ويطوف بها ، وقد يخاطب أثوابه وصوره ويدعوها ويكلمها كأنه يخاطب حبيبه حقيقة ، وكأنه حاضر عنده يراه ويسمعه ، وكأنه واقف بين يديه ، وكأنه يخاطب حيا سميعا بصيراً .

وإذا بلغت الحالة بالمصاب المفجوع إلى هذا الحد فالله أكرم وأرحم من أن يؤاخذه بما يقول وما يفعل فى تلك الساعة وتلك الحالة التى فقد فيها صوابه وهداه . ولن نظن أن الله مؤاخذ عمر رضى الله عنه إذ أنكر موت النبى وقد مات وإذ زعم أنه قاتل من قال بموته من المسلمين ، كما لانظن أنه تعالى مؤاخذ أولئك الذين زعم هؤلاء أنهم خبلوا وأقعدوا وأخرسوا وماتوا كمدا حينما بلغهم موت

النبي عليه الصلاة والسلام . فالاحتجاج بهذا النقل ، لوكان صحيحاً ، لا يصح عندنا ولا عند غيرنا إذا صح ما ذكروه من طيش العقول واضطرابها وبلوغها تلك الحالة التي وصفوها ووصفوا ما فيها من الخبل والخرس والاقعاد والموت من الكمد والجزع . والله أعلم .

الخطاب نوعان

فان قيل إن فى الرواية التى رواها البخارى والتى أقررتموها ، وهى قول الصديق : « بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وميتا ، والله لا يذيقك الله الموتتين أبداً » ـ دليل على جواز خطاب الموتى ، وخطابهم دليل على سماعهم وإلا لما خوطبوا ، لأن الخطاب يراد به الاسماع والابلاغ ، ولا يحاول اسماع وإبلاغ من لا يمكن إسماعه ولا إبلاغه ، وأنتم تدعون أن الأموات لا يخاطبون ولا يسمعون من خاطبهم من أهل الدنيا ، وهم إذا كانوا يسمعون الخطاب فما المانع من دعائهم وندائهم وطلب الشفاعات منهم ؟ وقد جعلتم برهانكم على بطلان دعاء الموتى ادعاءكم أنهم لا يسمعون الدعاء والنداء ، ولا يعلمون عن اتصل بهم شيئاً ، استدلالا بالآيات التى ذكرتموها وزعمتموها براهين على أنهم انقطعوا عن الدنيا وأهلها فليس بينهم وبينهم سبب من الأسباب ولا علاقة من العلاقات يتمسك بها أحد الفريقين : إن قيل هذا ، قلنا فى الجواب عنه : إن الخطاب لم يوضع أصلا فى اللسان ليوجه إلى من يسمع دون من لا يسمع ، أو إلى الحاضر دون الغائب ، أو إلى الحى دون من مات ، أو إلى العاقل دون من لا يعقل من الجماد والأحجار والأشجار . بل قد وجه الخطاب إلى السامع وغير السامع ، وإلى القريب والبعيد ، وإلى الحى والميت ، وإلى العاقل العالم وإلى الجماد الذى لا يعقل ولا يشعر ولا يعلم شيئاً . والدلائل على ذلك من كلام العقلاء شعراً ونثراً ومن نصوص الدين ، لا يجمعها جامع ، ولا يحيط بأفرادها محيط ، ومن الدلائل الدينية على ما ذكرناه السلام على الأموات بلفظ الخطاب ، فان الزائر للمقابر

قد يجوز خطاب الأموات

يشرع له أن يسلم وأن يقول فى سلامه : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين. وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » . وليس معنى هذا السلام وهذا الخطاب أن الأموات يسمعون ذلك وأنه يراد إسماعهم يقيناً ، لأنهم قد يكونون فى حفر لو كانوا فيها أحياء لما سمعوا دعاء من دعاهم ولا سلام من سلم عليهم لكثرة الحوائل وفقدان المسالك . ومن الدلائل على ذلك أيضاً السلام على النبى فى تشهد الصلاة ، فان المصلى يقول فى تشهده : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . يقال ذلك فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته فى كل مكان وزمان . ولا يستطيع مسلم ولا عاقل غير مسلم أن يزعم أن النبى عليه السلام حاضر مع كل مصل مسلم عليه ، سامع سلامه وخطابه فى كل مكان ومن كل مكان لأن معنى هذا القول وجوده فى كل مكان وسماعه كل صوت وخطاب فى وقت واحد ، وهذا لا يقول به المؤمنون بالله وبعقولهم . وقال ﷺ لما مات ابنه إبراهيم : « العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا مايرضى الرب ، وإنا بك ياإبراهيم لمحزونون» . ولاشك لدينا أنه لاسماع فى هذا الخطاب. ومن ذلك قول نبى الله صالح لقومه بعد أن أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين من سورة الاعراف : « فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين » وقول نبى الله شعيب لقومه بعد أن هلكوا من سورة الاعراف أيضاً : «فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » . ولا شك ولا تردد أن هذا الخطاب وهذا النداء خطاب ونداء غير حقيقيين، وأنه لاسماع هنا ولا حضور ولافهم ولامعنى من المعانى القائمة بالمخاطب السامع الفاهم . ونظائر هذا فى الشريعة كثيرة مفهومة .

خطاب الجماد

أما هذا النوع فى كلام البلغاء من الشعراء والناطقين وسائر أصناف بنى آدم

فشئ لا تمكن الاحاطة به ولا جمعه ، وشئ يعرفه الخاصة والعامة والجهلاء والعلماء فقد خاطبوا الديار والآثار والرياح والنسائم ، وحملوها تحيات الحبائب ، وحملوها النجائب ، وخاطبوا الشمس والقمر والنجوم والسماء ، وسألوها عن الاحباب والأصحاب ، وخاطبوا السحاب ، وخاطبوا الليل والنهار ، وخاطبوا الخيال والطيف والنوم ، وخاطبوا النجائب والركائب ، وخاطبوا غير ذلك مما لا يعقل ولا يفهم ولا يسمع ، وشواهد هذا غنية عن إيراد شئ منها . وقد رثوا الأموات الذين تقاسمتهم السباع والضباع وصنوف الوحوش والطيور ، والذين ابتلعتهم البحار حتى لا يعلم لهم عين ولا أثر ، والذين أكلتهم النيران فطيروا مع ذرات الرياح وذواريها رثوا هؤلاء الموتى فخاطبوهم خطاب الحاضرين السامعين الفاهمين ، وهم يعلمون أنهم لا يسمعون ولا يعلمون من خطابهم وأمرهم وحالهم شيئاً .

المنكر من خطاب الأموات

كل هذا فعله الناس العقلاء ، وكل هذا لا يدل على سماع المخاطب وفهمه واجابته وضره ونفعه بلا ريب ، فكذلك ما كان مثله مما جاء فى الشرع ونصوصه الصحيحة . والذى ننكره نحن من الخطاب هو الخطاب الذى فيه طلب وسؤال ورجاء وخوف وخشوع وخضوع ، لا مطلق الخطاب ، فاننا نقول فى اليوم والليلة مرات : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ونقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ونقول : رحمة الله عليك ياأبا بكر ، لقد كنت برا بنبيك ، مخلصاً لربك ، ناصراً لدينك . . . رحمة الله عليك أيها الفاروق ، لقد كنت شديداً فى الحق ، شديداً على الباطل ، قامعاً لأهل النفاق ، مذلا للكفر وأشياعه ، ناصراً للاسلام ، ناشراً لراياته على هام الأنام . . . رحمة الله عليك ياعثمان بن عفان ، لقد كنت هيناً لينا حييا ، تكره الشر وأهله ، وتحب الخير والسلامة والرفق حتى ذهبت ضحية الرفق واللين شهيدا مظلوماً . . . رحمة الله عليك ياابن أبى طالب

لقد كنت سيفاً و بحرا وحكمة . .

و بهذا التخريج الصحيح يخرج ماجاء من الخطاب للأموات فى النصوص الصحيحة كقول فاطمة رضى الله عنها ترثى أباها : ياأبتاه ، أجاب ربا دعاه ، ياأبتاه ، فى جنة الفردوس مأواه ، ياأبتاه ، إلى جبريل ننعاه . و إن كان هذا ندبة لا نداء .

وأما ماذكر عن شرح المواهب للزرقانى من أن الداعى إذا قال فى دعائه : اللهم إنى أستشفع إليك بنبيك ، يانبى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له ، فقول على الله وفى دين الله بلا سلطان من الله ، فلا يعبأ به .

ليس كل ما كتب دينا

إننا قد قلنا مرات إنه ليس كل ما كتب حجة على المسلم ، وقلنا أيضا مرات إن الضلال والخطأ يطبع و ينشر ويقرأ ، ويحتفل به الجماهير والخلق الكثير ، و إن الشيخ الكبير والعلم من العلماء قد يقول مالا علم له به ، ومايعجزه أن يقيم عليه الحجة والبرهان . وماذا ينفع الباطل وأهله عند الحق وأهله أن يجد الباطل من يقوله ، وأن يجد من يكتبه و ينشره ، وأن يجد من يطبعه ؟ وماذا يجدى المخطئ أن يجد له سلفا فى الخطأ وشيعة فى الباطل ، وماذا يجديه أن يقلد فيه ؟ هذا كله لايجدى شيئاً ، ولكن الذى يجدى هو البرهان و إن كان لاقائل به ، والحجة الظاهرة و إن كانت قليلة الأنصار والأعوان . فليأتنا هذا المصنف ببصيص من برهان ندن له ، أو رسيس من حق نقل : لبيك وسعديك ، و إلا فلا. وليس يخفى على من تعاطى العلم وتعاطى التأليف فيه حتى دخل فى المضايق والمآزق أن أشياخاً هم أكبر من صاحب شرح المواهب ، وأكبر من هؤلاء الذين ينقل عنهم هذا الشيعى قد أخطئوا وغلطوا وقالوا أقوالا لايقبلها الدين والايمان ، ولا يرضاها المسلمون والمؤمنون ، ولا نعبأ نحن بها لانها لا برهان لها . ولا ريب أنه لو كان الحق بالرجال يعرف لكان شيخ الاسلام ابن تيمية أحق

بالحق من الزرقانى وأضراب الزرقانى ،ولو كان الدين تقليداً مجردا لكان ابن تيمية وتلاميذه أولى بأن يقلدوا من صاحب « المواهب اللدنية » وصاحب شرح المواهب ومن كان مثلهما . فما نقله عن الزرقانى لا ينفعه عند الحق وأهله شيئاً .

وأما ماذكر من أن العلماء ذكروا أن من آداب الزيارة أن يقول زائر النبى عليه الصلاة والسلام : « جئناك لقضاء حقك والاستشفاع بك ، فليس لنا يارسول الله شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا . . . »

فجوابه أن نعيد له ماذكرناه مراراً من أننا لا ننازع أن جماعات من الفقهاء والمفسرين والمتكلمين وغيرهم قد قالوا ماليس لهم به من علم ، وأنهم قد غلطوا وأخطأوا وكتبوا مالا يصح أن يكتبوه ومايعجزهم أن يقيموا عليه الحجة والبرهان ولعيد أيضاً ماذكرناه مرات من أنه ليس كل من كتب فى الدين يلزم المسلمين الأخذ عنه والقول بقوله والذهاب إلى ما كتب ودون من الأخطاء والآراء . بل لقد أوجب الدين على المسلمين كافة أن يعرضوا جميع الأقوال والآراء على الكتاب والسنة ، فما وافقهما قبل ، وما خالفهما رد ولا كرامة . وألزم الناس جميعاً أن يرجعوا إلى الله و إلى رسوله عند اختلافهم وتنازعهم ، ولم يحل من ذلك أحداً من الناس قال تعالى : «فان تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » وقال : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ،وأولئك هم أولو الألباب » . وذم فى غير ما آية الذين يقولون : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا إذ قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله و إلى الرسول ، وجعل الذين يأبون الرجوع إلى الكتاب والسنة ، و يأبون التحاكم إليهما عند الاختلاف والنزاع منافقين مرتدين ، فقال : « و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول

الحكم هو الكتاب والسنة

رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » وجعل المؤمنين الصادقين هم الذين يقولون ، إذا دعوا إلى الله ورسوله ، سمعنا وأطعنا فقال : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » ، ونعى على الذين يعرضون إذا دعوا إلى الله ورسوله أشد النعى فقال : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون » .

تتبع أغلاط العلماء

فالمسلم الصحيح الاسلام ليس هو من يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ورسالة نبيه ونصوص كتابه المبين ، وليعبد الله بتلك الاغلاط والاخطاء ، وليطاول ويصاول بها الدعاة إلى الدين الصحيح وإلى الكروع فى مناهله الصافية النقية ، والاخذ من معادنه الأولى الجارية : ليس هذا هو المسلم الصحيح الاسلام ، ولكن المسلم حقا هو الذى يستمع القول فيأخذ بأحسنه ، ولا أحسن من قول الله وقول نبيه عليه الصلاة والسلام ، ثم هو الذى يعلم أن الله لم يفترض على عبده أن يدين إلا له تعالى ولما أنزله على رسله وأنبيائه ، والذى يعلم أن من ذهب يؤلف لنفسه عقيدة ولعقيدته مذهبا من أغلاط الغالطين وأخطاء المخطئين فقد اختار لنفسه شر العقائد ، ولعقيدته شر المذاهب ، لأنه يقل أن يسلم عالم من أن يغلط ويخطئ ويذهب منهبا لم يشرعه الله ولا رسوله ، كما أنه يقل أن يسلم إنسان من أن يقارف إحدى المخالفات ويلامس واحدة من المحرمات لضعفه الجبلى ونقصه المحتوم . فمن بنى مذهبه على أغلاط العلماء فقد جمع لنفسه الشر والنقصان والجهل المفرق فى الأمم والشعوب . ومن أحيا وأنقص حظاً ممن فعل ذلك ؟

شر المذاهب

وما مثل هذا إلا من ذهب يتتبع سيئات الناس وآثامهم وعثراتهم وملاومهم ليعمل بكل ما وجده من ذلك ، تاركا حسناتهم وفضائلهم وما أتوه من صالحات . ولا يفعل هذا إلا مغمور فى الزندقة والضلال . وذلك لأن لكل إنسان - إلا من شاء الله - هنات ، تقل فى إنسان وتكثر فى آخر ، فأحياناً تغلب الحسنات ، وأحياناً تغلب الهنات والسيئات . فاذا غلبت الحسنات غمرت السيئات وحملت الناس على الإغضاء عنها ، أو على غفرانها وتناسيها ، وإن كانت الأخرى كانت الأخرى . فاذا جاء إنسان وأراد أن ينتزع من كل إنسان سيئاته وهناته دون الحسنات فقد جاء بشر المذاهب والعقائد . وهذا هو ما انتحى إليه هذا الشيعى وأشياعه وأسلافه : فقد قصدوا إلى كل غلطة وقع فيها أحد الفقهاء والمشايخ فى أبواب البدع والقبور وعبادة الموتى ، وركبوا منها هذه الوثنية الكثيفة الشنعاء ، وتركوا ما مع هؤلاء المخطئين الغالطين من الحق والصواب والاسلام . ففلان « مثلا » يقول بجواز شد الرحال إلى القبور ، ولكنه مع ذلك يمنع « مثلا » تقبيل القبر ودعاء المقبور . . . فيعمد هؤلاء إلى قول هذا القائل فى السفر إلى القبور ، ويتركون قوله فى تحريم تقبيل القبور وتحريم دعوة الأموات ، ثم يذهبون يلتمسون غالطين آخرين قالوا بجواز تقبيل القبر وجواز دعوة المقبور ، فيجدون ، ولابد ، من قال ذلك فيأخذون به ويتركون ما معه من الحق والصواب والاسلام . وهكذا يظلون يطوفون على أصناف العلماء وأصناف الكاتبين والمؤلفين ، وجميع أصناف الناطقين يستجدونهم أغلاطهم وأخطاءهم وخطاياهم ، فيركبون منها لهم عقيدة يقاتلون عليها ، ويدعون الناس إليها . وهذا لا يصنعه الازنديق - عياذاً بالله . وقد قال بعض أهل العلم : من تتبع رخص العلماء فقد تزندق . فكيف بمن تتبع اخطاءهم وزلاتهم ! بل كيف بمن تتبع أخطاء الجهلاء وغفلاتهم من المؤلفين الذين لا سابقة لهم فى الاسلام ولا فى

العلم والصلاح والتقى غير أن جاءوا إلى كتب قيمة من تراث السلف الصالح النفيس ، فكتبوا أسماءهم على طررها بعد أن مسخوها وأفسدوها وأدخلوا عليها كل غريب باطل ، وكل دخيل مزدرى ، و بعد أن ملؤها بالشوك والسعدان وقد كانت ، قبلا ، أزاهير ورياحين حبذا الجانى والمجتنى . . .

فالمسلم مطالب أبداً بأن يكون مع الحق أين كان ووقع ، ومطالب بأن يجانب الباطل ويهجره أين كان ومع من كان . فليس من الحجة على الحق وأهله أن يقول فلان أو فلان ، وليس المسلم مكلفاً بأن يعبد ربه ويدينه بكل مايقال وكل ما يكتب . وهذا ظاهر .

من ذكر هذا

على أننا نقول لهذا المصنف : إن العلماء كلهم لم يذكروا هذا الذى ذكرت عند الزيارة ، بل ولم يذكره جلهم ، بل ولم يذكره أحد من الأئمة الذين تتبع مذاهبهم ويقتدى بآرائهم وعلمهم . ومن العسير على هذا المصنف وعلى غيره من أشياع الابتداع أن يذكروا لنا نقلا صحيحاً ورواية قائمة مقبولة تثبت أن الامام أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعى أو ابن حنبل قال ذلك أو أجازه أو أباحه أو ذكر أن له فضيلة ومثوبة ، أو فعله أو رأى من فعله فلم ينكره . وقد وضع الامام الشافعى رضى الله عنه كتاب « الأم » بيده فلم يذكر فيه ذلك ، ووضع الامام مالك « الموطأ » فلم يذكر ذلك ، ووضع الامام أحمد مسنده الجامع الكبير ، وهو الأصل والمرجع الأول لعلوم السنة ولمذهبه ومذاهب أصحابه ـ وضعه رضى الله عنه بيده فلم يذكر فيه رواية واحدة من هذا القبيل . ولم ينقل أصحاب الأئمة الثقات الملازمون لهم العارفون بمذاهبهم وبالمذاهب الاسلامية شيئاً من هذا : لافعله ولا استحبابه ، ولا ذكروا رواية فى فضله وثوابه

هذا كله حق لاريب فيه ، ولكن الذين ذكروا هذا هم الذين ذكروا غيره من الآراء الرخيصة والمعتقدات الضعيفة التى صارت ، فيما بعد ، مادة ومرجعاً

لهؤلاء الجانحين إلى بعض الباطل الذى حارب به الاسلام ونبى الاسلام حرباً شعواء طاحنـة . . . وهؤلاء الذين يذكرون هذه الآراء والأقوال المتجافية عن أصول الاسـلام ليسوا حجة بالاجماع : ليسوا حجة عنـد المجتهدين ولا عند المقلدين لأنهم هم مقلدون ، غاية أمرهم وفضلهم وعلمهم أن ينقلوا ويدونوا أقوال الأئمـة السابقين المجتهدين . فاذا جاءوا بشئ غـير صحيح ولا ثابت عن الأئمة لم يصح الأخذ به لا عند المجتهد ولا عند المقلد ، لأنهـم ليسوا بمجتهدين بالاجماع ، وهم أنفسهم ينـكرون الاجتهاد ويثلبون المجتهدين ويقعون فيهم لاجتهادهم . وهـذا لا ريب فيـه . ثم لا ريب أن هـذه الآراء المبتذلة التى ينقلها هؤلاء المتأخرون المقلدون آراء لا يستطيعون أن يجدوا لها رواية صحيحة قائمة تثبت نسبها بالامام المجتهد الذى ينقل مذهبه وينادى بتقليده .

ماذكره ابن قدامة من الاستشفاع بالنبى

وهـذا الشيخ صاحب « المغنى » فى مذهب الحنابلة ، أقرب مثل إلينا ، قد ذكر فى فصل زيارة القبر النبوى أن الزائر يقول فى دعائه : « اللهم إنك قلت وقولك الحق « ولو أنهـم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاسـتغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » ، وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبى ، مستشفعاً بك إلى ربى . . . »

وهذا الذى زعم أن الزائر يقوله من تلاوة الآية ومن قوله : أتيتك مستغفراً ومستشفعاً ، من العسير أن يجد له حجة وسنداً من أقوال الامام أحمد الذى ألفه كتابه فى نقل مذهبـه وتدوين أقواله ، ومن الأعسر أن يجد له حجة من الرواية الصحيحة عن النبى عليـه الصلاة والسلام أو عن أحـد من أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . واذا قال صاحب « المغنى » أو غيره قولا لا حجة له عليهم لا من الـكتاب ولا من السنة ولا من أقوال الامام الذى يقلده وينقل عنـه لم يصح القبول له عند أحـد من أهل العلم لا عند المقلدين ولا عنـد المجتهدين . فالمقلدون

لايقبلون قوله ، لأنه عنـدهم ليس مجتهدا ، ولايصح أن يجتهـد ، والمجتهـدون لايقبلونه أيضا لأن المجتهد لايقلد وإنما يأخذ بالدليل والحجة . فقوله غير مقبول عند الفريقين . وهكذا القول فى كل مايكتبه المؤلفون فى مـذاهب الأئمة مما لا دليل عليه .

والأئمة المقلدون قد تـكذب عليهم ودفعت إليهم أقوال لم يقولوها ولم يعرفوها ، بل لو ذكرت لهم لأنـكروها وردوها ، كما تـكذب على رسول الله وعلى أصحابه ، بل كما تـكذب على الله وعلى دينه . وهذا الـكذب المعز و إلى رسول الله و إلى أهل العلم على نوعين : نوع منـه كان مقصودا متعمداً لأغراض مجرمة فاسقة ، وهذا هو الـكذب الصحيح الصريح . ونوع آخر من هذا الـكذب لم يكن مقصودا ولامتعمدا ، و إنما جاء بضروب شتى من السهو والخطأ والتساهـل والاجتهاد والتعليق . وهذا كذب فى الواقع و إن لم يكن كذلك فى أنفس الذين كسبوه و وقعوا فيه لأنهم لم يقصدوه ، بل ولم يعلموه . وهذا النوع إنما يقع فيه أهل الدين من المنخدعين بالباطل لسلامة نياتهم وصدورهم ، و رخاوة أذهانهم . ولهذا فانه يجب على أهل العلم التنقير والتنقيب عن أصول كل مايذكر فى هذه الـكتب فلا يصح أخذ ذلك بالتسليم العام ولا بالثقة المطلقة ولا بالاطمئنان الوثيق ، لان الدخيل ، كما ذكرنا ، قد كثر فى كتب الحديث ، وهو فى كتب الفقه وغـيرها أكثر . وهذا أمر لايشك أهل العلم فى وجاهته و إصابته الحقيقـة والمرمى . و إذا كانوا لايقبلون ما يذكره إمام الحديث البخارى فى صحيحه سيد الـكتب الصحاح حتى يسـنده وحتى تعرف روايته : فلا يقبلون معلقاته و رواياته التى يذكرها محذوفة الإسناد ، لاحتمال أن يكون الاسناد المحذوف غـير نظيف ـ وكذلك لا يقبلون ما يذكره الشـيوخ الـكبار والأئمة البارعون ، أمثال مالك وغـيره إلا بالسند والحجة ـ فكيف يمكن أن يقبل أهل العلم كل مايذكر فى كتب الفقه من

ليس من الاسلام ضلالات الافهام

الآراء الرخيصة المبتذلة بلا رواية ولا دراية ولا حجة لا من كتاب ولا من سـنة ولا قول أمام من الأئمة ؟ بل إذا كانت أقوال صحابة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأقوال الـكبار والخلفاء منهم لا يجب قبولها مطلقاً بلا حجة من الـكتاب والسنة فكيف يقبـل كل مايذكر فى كتب الفقه من الأقاويل والعقائد المدخولة . فمن الاثم الكبير إذن أن يروح رائح يتلمس ، فى غمرات من الجهل والبلادة ، غلطات الكتب و يتسقط على سقطات الـكاتبين ، ليؤلف له وللمسلمين عقيدة يحملهم عليها ، و يثالب من لم يجب إليها . ومن اثم الكبير أيضاً أن يقوم قائم فيحشـد فى كتاب واحـد من الـكتب جميع مازلت به الاقـلام ، وما ضلت به الافهام والاوهام، ثم يقوم يقول : إن هذا هودين الله خاتم الأديان ، و رسالة محمد ﷺ خاتمة رسالات الله إلى بنى الانسان !

ياهذا ! إننا إننا نعلم أن فى الـكتب أغلاطاً وأخطاء ، ولكننا نعلم مع هذا أن الله لم يكلف أحـداً من عباده أن يدينه بتلك الاغلاط والأخطاء وأن يذل لها عقله وقلبه ودينه وعقيدته ، بل نعلم أن الله لا يرضى هـذا لأحد من خلقه . فليس بنافعك إذن ، ياهذا ، أن تسقط على سقطة فى كتاب مطبوع أو غـير مطبوع ، ولا بمقيم لك العذر عنـد الله أن تـكون مقلداً فى خطئك وغلطك ، ولا الله بعاذرك إذا ما قلدت فى الخطأ والغلط . وأنتم ياهؤلاء لا تقبلون ما ذهب إليه أبو بكر وعمر وعثمان ، بل ولا ما اتفق عليه جميع الأصحاب ، خلا المعصومين عندكم ، فأنى يسوغ لـكم ، بعد هذا ، أن تقبلوا كل مايكتب فى هذه الـكتب ، بل كيف يسوغ لـكم أن تجعلوا هـذا كله من الحجج التى لا يصلح خلافها وأنتم أنفسـكم تـكفرون من قالوها وكتبوها وألفوها من أهل السنة أو تفسقونهـم ، بل وأنتم تـكفرون أبا بكر وعمر وعثمان وخيار الصحابة ، أو تضللونهم إذا ماتساهلتم

وتزمتم ؟ فلعمر الله ماهذا بانصاف ولا دين ولا عدل .

هذا آخر الرد على شبهاتهم فى جواز الاستشفاع بالأموات . وهنا انتهت دلائلنا على بطلان ذلك ، ونقضنا لدلائلهم على جوازه . فلينظر هذا بانصاف وتجرد من الهوى والتعصب لغير الحق ، والله المرشد والمستعان .

الاستشفاع بالجماد عند الرافضى

ومن الفظائع التى كتبها الشيعى فى هذا الفصل أنه زعم أن الاعتقاد فى الأحجار والاشجار والجماد بأنها تشفع ثم الاستشفاع بها : زعم صفحة ٢٥١ أن ذلك لم يعلم كونه عبادة للأحجار والأشجار والجماد ، وزعم أنه لم يعلم كون هذا من أسباب شرك المشركين . . . فعنده أنه ليس من الشرك اعتقادك أن حجراً أو شجراً يشفع ويستشفع مع استشفاعك به ودعوتك إياه الليل والنهار رجاء شفاعته ودعوته . وعكوفك عليه حياتك ووقتك كله راجياً أن يقربك إلى ربك زلفى بشفاعته ودعوته ! ! فمن عكف على شجرة ليله ونهاره يدعوها لتدعو الله له ، ويستشفع بها لتشفع له ولتبذل وساطتها وجاهها عند الله لإنقاذه من ضرائه وبلائه ولإسعاده وإعلائه ، فليس بمشرك ولا كافر ولاعابد غير الله . ونعوذ بالله من هذا الخذلان المتتابع والهوان المتلاطم .

﴿ الاستغاثة بالأموات ﴾

الحجج على دعاء الاموات

ثم قال الشيعى : « الفصل الثانى فى دعاء غير الله ، والاستغاثة والاستعانة به ، وطلب الحوائج منه . . . » .

وقد أورد فى هذا الفصل ماخلاصته : أن الوهابيين ، وقدوتهم ابن تيمية ، قد منعوا دعاء الأموات والاستغاثة والاستعانة بهم ، وأكفروا من فعلوا ذلك . قال : وقد غلطوا وضلوا . فانه لا مانع من دعاء الأموات والاستغاثة والاستعانة بهم وسؤالهم ضروب الحاجات والمطالب الصغيرة والكبيرة . وذلك أن الدعاء

والاستغاثة بغير الله يكون على وجوه ثلاثة : الأول أن يهتف باسم المخلوق مجرداً مثل أن يقول : ياعلى ، يامحمد ، ياعبد القادر ، ياأولياء الله ، يا أهل البيت ، ونحو ذلك . الثانى أن يقول: يافلان كن شفيعى إلى الله فى قضاء حاجتى ، أو ادع الله أن يقضيها ، وما شابه ذلك . الثالث أن يقول مباشرة : يا فلان اقض دينى واشف مريضى وانصرنى على عدوى وغير ذلك . قال : والوجوه الثلاثة جائزة صحيحة لامانع منها ، وكل ما كان ظاهره من ذلك ممنوعاً باطلا وجب حمله على الصحيح وعلى مجاز الكلام ، لأننا مطالبون أبداً بأن نحمل أفعال المسلمين وأقوالهم على الصحيح والخير والطاعة . فاذا قال مسلم ، مثلا ، ياولى الله فلان اشف مريضى أو اهد قلبى أو أغفر ذنبى أو رد غائبى أو اشرح قلبى للاسلام أو أمثال ذلك من الكلام وجب أن نقول إن هذا كله صحيح جائز وإنه من مجاز الكلام كما فى قول الناس : بنى الأمير المدينة ، وشفى الطبيب المريض ، وكما فى قول علماء البيان : أنبت الربيع البقل . . . قال : وقد جاء المجاز العقلى فى لسان العرب وفى القرآن كثيراً كما فى قوله تعالى : « فارزقوهم منه » وقوله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله » وقوله : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » . بل لقد أضاف الله إلى عبده عيسى ماهو أبلغ وأعظم من هذا فقال حكاية عنه عليه الصلاة والسلام : « إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وأبرىء الاكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله » .

قال : فالمسلم إذا دعا الميت وقال ، مثلا ، يا محمد ، أو ياعلى ، أو ياعبد القادر ، اشفنى أو اهد قلبى أو اغفر ذنبى ، كان معنى ذلك أنه يطلب منه الشفاعة والوساطة ، أى يطلب منه أن يكون سبباً فى نيل ما يطلب بدعائه وشفاعته . وقد قال قائل

لرسول الله : أسألك مرافقتك فى الجنة . وسؤال المرافقة فى الجنة مثل سؤاله غفران الذنوب وهداية القلوب وأمثال هذا .

قال : نعم ، لو قصد المستغيث بغير الله أن المستغاث به فاعل اختياراً واستقلالاً بدون واسطة الله تعالى فالمسلمون براء منه ، ولكن لايوجد مسلم يقصد ذلك . وقد روى البيهقى وابن أبى شيبة عن مالك الدار ، خازن عمر رضى الله عنه ، قال أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى عليه الصلاة فقال يارسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله فى المنام فقال ائت عمر وأخبره أنهم مسقون . وقد نص القرآن على أن الشهداء أحياء عند ربهم ، والأنبياء أولى بالحياة من الشهداء بلا ريب . والأحياء يصح دعاؤهم والاستغاثة بهم بالاجماع .

قال : والمسلمون ، سلفاً وخلفاً ، مازالوا يستغيثون بالأنبياء والصالحين ويسألونهم الشفاعة . قال السمهودى : إن الاستغاثة بالنبى عليه السلام من فعل الأنبياء والمرسلين ، ومن سير السلف الصالحين . وقد ذكر فى كتابه « وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى » أقاصيص وحكايات ذات عدد من استغاثات العلماء بالأموات ، وذكر أنهم قد نالوا ماطلبوا وأملوا بسؤالهم إياهم . فما ذكر أن رجلا أو دعت عنده أمانة فأنفقها فطلبت منه فقال لطالبها اذهب وعد إلىّ غداً . وراح هو إلى المسجد يلوذ بقبر النبى عليه السلام مرة ، ومرة أخرى يلوذ بمنبره . وقضى ليله ساهرا ضارعاً كذلك حتى كاد الصباح يطلع ، وبينما هو يستغيث ويلح فى استغاثته إذا بشخص يناديه ويعطيه ماسأل . وقال قال أبو بكر بن المقرى : كنت أنا والطبرانى وأبو الشيخ فى حرم رسول الله فعضنا الجوع ، فلما كان وقت العشاء أتيت قبر النبى عليه السلام وقلت يارسول الله الجوع — إلى أن قال : فدق الباب غلام علوى معه غلامان ، مع كل غلام زنبيل فيه شئ كثير ، وقال :

حكايات غريبة فى الاستغاثة بالاموات

أشكوتم إلى رسول الله ، فانى رأيته فى المنام فأمرنى أن أحمل شيئاً اليكم. قال وقال ابن الجلاد دخلت المدينة المنورة وبى فاقة فتقدمت إلى القبر وقلت : ضيفك ، فغفوت فرأيت النبى عليه السلام فأعطانى رغيفا فأكلت نصفه وانتبهت وبيدى النصف الآخر. قال وقال أبوعبد الله محمد بن زرعة الصوفى سافرت مع أبى ومع أبى عبد الله بن خفيف إلى مكة فأصابتنا فاقة شديدة ، فدخلنا المدينة فأتى أبى الحظيرة وقال : يارسول الله : أنا ضيفك الليلة ، فرأيت رسول الله فوضع فى يدى دراهم وبارك الله فيها إلى أن رجعنا إلى شيراز ، وكنا ننفق منها . قال وقال أحمد ابن محمد الصوفى تهت فى البادية ثلاثة أشهر فانسلخ جلدى ، فدخلت المدينة فأتيت النبى عليه الصلاة والسلام وسلمت ثم نمت فرأيته فى النوم فقال لى : جئت ؟ قلت نعم وأنا جائع وأنا فى ضيافتك ، قال افتح كفيك فملأهما دراهم ، فانتبهت وهما مملوءان . قال وذكر السمهودى أشياء أخرى من هذا النوع منها ماوقع له هو . قال فيستفاد من هذا أن الاستغاثة بالنبى سيرة المسلمين خلفاً عن سلف بلا نكير ولا خلاف ، وهذا مأخوذ من صاحب الشريعة .

قال : ويدل على جواز الاستغاثة بغير الله مارواه ابن السنى عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله : «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : عباد الله احبسوا ، فان لله عباداً يجيبونه » وفى حديث آخر رواه الطبرانى أنه ﷺ قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس ، فليقل ياعباد الله أعينونى » وفى رواية « أغيثونى فان لله عباداً لاترونهم » . قال فى خلاصة الكلام : صح عن بلال بن الحارث أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة ، فصار يقول : وامحمداه ، وامحمداه . وصح أن أصحاب النبى عليه السلام لما قاتلوا مسيلمة الكذاب كان شعارهم : وا محمداه

وامحمداه . وفى الشفاء للقاضى عياض أن عبد الله بن عمر خدرت رجله مرة فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وامحمداه ، فانطلقت رجله .

قال والحاصل أن الاستغاثة بالأموات من الصالحين والأنبياء لامانع منها ، فيجوز سؤالهم شفاء المرضى ، وهداية القلوب ، وغفر الذنوب ، و إدخال الجنة ، والابعاد من النار وغير ذلك ، بل هذا كله من الدين ؛ قد دلت عليه نصوصه : آياته وأحاديثه ، وتوارثه المسلمون السلف عن الخلف بلا نكير ولا اعتراض . وجميع ماظاهره الكفر والباطل والضلال يجب تأويله وحمله المحامل الصحيحة إذا كان قائله أو فاعله مسلماً . . . هذا خلاصة ماأورده فى هذا الفصل .

ونحن بحول الله وقوته نذكر هنا مايكفى من الحجج على بطلان ماذكر ، ثم نكشف عن شبهاته ونبين مافيها من زغل ودخل ـ سائلين الله وحده العون والمدد

﴿ بطلان الاستغاثة بالموتى ﴾

الدلائل على بطلان دعوة الاموات

والبراهين على ذلك كثيرة نورد منها مايأتى

أولا : إن القرآن بجملته نهى عام عن دعاء غير الله من الجن والانس وسائر الخلائق ، وتنديد شديد صادع بمن فعلوا ذلك ، ودعاء عام شامل إلى دعاء الله والرغبة فيه والانقطاع اليه وحده لاشريك له ، و إنباء عن المؤمنين جميعاً بأنهم لايدعون إلا الله ولا يسألون سواه لافى السراء ولا فى الضراء ، و إخبار قاطع بأن الذى يجيب دعاء الداعين ، ومسألة السائلين هو الله وحده ، وأن كل ما عداه باطل زائل لا يجيب ولا يسمع ولا يضر كما لا ينفع ، وتحديث عن المشركين بأنهم يدعون لحاجاتهم سوى ربهم ، و يسألون غيره مايأملون فى سرائهم وضرائهم وجميع أحوالهم ، وأنهم لهذا ضالون جاهلون. . . هذا كله بعض مادل عليه القرآن فى آى كثيرة صريحة ، وسور مختلفة من طويلة وقصيرة . وما تصدى القرآن ، فيما أعلم ، لشئ تصديه لإبطال دعوة غير الله والنهى والزجر عنها ، وما أطنب

وأوضح فى شئ إطنابه وإيضاحه فى أن المدعو بحق هو رب العالمين ، وأن ما يدعى من دونه فدعاؤه الباطل والضلال والجهل المبين . ولا عاب القرآن الكريم ، فيما أحسب ، شيئاً عيبه لسؤال غير الله ولدعوة المخلوقين ، ولا ذم فريقاً من فرق الضلال مذمته لمن يدعون غير ربهم ، ويسألون غير خالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم حين الرهبة وحين الرغبة وجميع الأحيان. ولقد نوع الله فى هذا الإمثال، وأكثر وأوضح فيه العبارات ، وبين وأبدع فى البيان والايضاح فأبلغ وبلغ ، وأرسلها فى أساليب لو أرسلت على صخر أصم لتصدع ، وأنزلها فى آيات من آياته أبلغ ماتقوله بلاغة البلغاء فى صفتها : الله أكبر ! ما أبلغ وأروع ! وأبدع مايقول المادحون فى امتداحها : هذا كلام الله ، والله أجل وأعظم ! وصاغها فى قوالب من المثل العليا لو أن الناس عقلوا منها مثلا واحداً لما أشرك بالله إنسان واحد ، ولما وجدت كلمة « الاشراك » ولا كلمة « المشرك » فى قاموس البشرية .

لقد عنى القرآن بإثبات المعاد والحساب والعقاب ، وبإثبات النبوات والوحى واتصال الملأ الأعلى بالبشر ، وعنى بغير ذلك من أصول الأديان والايمان ، ولكنه قد عنى بالنهى عن دعاء غير الله وبالأمر بدعائه وحده أكثر كما سوف نعرض على القارئ لكتابنا : ففى كل سورة تجد الله تعالى ينهى عن دعاء غيره ويأمر بدعائه وحده ، ويندد بمن دعا سواه من خلقه ، وفى كل آية تنهى عن ذلك تجد النهى فيها شديداً والتأثيم عظيما . والأمر أوضح وأظهر :

دلالة القرآن على ذلك

قال الله تعالى من سورة الحج « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » . وهذه الآية لو لم ينزل الله خلافها على البشر كافة لكانت حجة قائمة عليهم جميعاً فى بطلان الشرك وبطلان دعاء غير الله وهدم أركانه ،

وهى تنديد بمن دعوا مخلوقا يقصر القول عن نعته وصفته . وقد وجه الله هذا المثل إلى الناس أجمعين فى كل زمان ومكان ، وآذنهم بأن الذين يدعون من دونه من العقلاء وغير العقلاء ، من الجن والانس ، من الصالحين والطالحين ، عاجزون عن نفعهم وعن ضرهم وعن كل مايرجى منهم من خير وشر : فهم لا يستطيعون أن يخلقوا أحقر مخلوق فى هذا الوجود ، ولا أن يستردوا ما أخذه منهم هذا الأحقر . وهذا أبلغ وصف للضعفاء العاجزين . فهم لا يستطيعون ، ولو اجتمعوا ، أن يخلقوا ذباباً واحداً ، ولا يستطيعون أيضا أن يستنقذوا من الذباب ما سلبهم من الأمور الروحية والمادية . وهذا أقصى غايات الضعف والعجز . فما أضعف الطالب الذى يرجو هؤلاء العاجزين عن خلق الذباب وعن استنقاذ ما سلبهم إياه ، والذى يدعوهم لإحدى حاجاته ؟ وما أضعف المطلوب الذى عجز عن خلق الذباب وعن التغلب عليه ! فما أضعف إذن الطالب والمطلوب ! وإن قوما يدعون هؤلاء العاجزين الضعفاء لحاجاتهم ومآربهم، وينسون الله ربهم وخالقهم وخالق كل شئ لجاهلون به وبقدره وحقه وجبروته وسلطانه ، وجاهلون بأنفسهم أيضاً . فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق تعظيمه ، وهو القوى العزيز الذى لا يغالب ولا يغلب ، ولا يمانع ولا يمتنع على أمره ومشيئته شئ .

سد كل باب غير باب الله

فهذه الآية لم تدع مخلوقا يدعى من دون الله إلا عجزته ونهت عن دعائه أبلغ النهى ، وإلا ضعفته وبالغت فى تضعيفه وتضعيف داعيه وسائليه : فلم تدع للمنقطعين إلى غير الله، الراغبين فى المخلوقين نبياً ، ولا ولياً ولا شجراً ولا حجراً ولا ملكا ولا جانا ولا شيئا من الأشياء. فقد سدت على البشر جميعا كل باب غير باب الله، وأوصدت فى وجوههم وسبلهم كل أمل غير أمل الله، وقطعت الرجاء من كل أحد إلا من الواحد الصمد ، وردت على كل داع غير ربه دعوته ، وعلى كل من سأل مخلوقا مسألته، وبترت جميع الصلات بالخلق والأسباب بالعباد ، وربطتهم

جميعا بأقوى سبب وأعظم مطلوب، بالله ربهم ورب آبائهم الأولين، رب العالمين، ورب الأولين والآخرين . فأين ، أين من يعقلون ؟ بل أين من يسمعون ؟

جواب اعتراض

وليس لدعاة الصالحين من الأنبياء والأولياء أن يزعموا أن الآية في نهيها لم تشملهم ، وأنها خاصة بالجمادات وبالأحجار والأشجار : ليس لهم أن يزعموا هذا لأن الآية شاملة كل مدعو سوى الله . وكل من لا يستطيع أن يخلق ذبابا ولا أن يستنقذ من الذباب ما سلبه . والأنبياء وغيرهم من الخلق عاجزون عن خلق الذباب وعن استرداد ما أخذه منهم . ولأن ألفاظ الآية بينة في نهيها عن دعوة العقلاء : الأنبياء ومن دونهم ، وذلك في قوله « إن الذين » و « يخلقوا » و « اجتمعوا » و « يسلبهم » وفي « يستنقذوه » . فهذه الالفاظ كلها موضوعة في اللغة أصالة لتدل على العقلاء لا على الجمادات من الأحجار والأشجار . فهذا الزعم — إن زعمه زاعم — كاذب باطل . ولا يزعم زاعم آخر أن الآية نازلة في النهي عن عبادة غير الله لا في النهي عن دعاء غيره تعالى ، لأننا نقول : الآية صريحة في أنها نازلة في الدعاء . فهي تقول « إن الذين تدعون من دون الله » وتقول بعد : « ضعف الطالب والمطلوب » . فالمسألة مسألة دعاء وطلب وداع ومدعو وطالب ومطلوب . ولأننا أيضا نقول إن الدعاء أفضل أنواع العبادة ، ولأننا أيضاً نقول : إن تعجيز الخلق جميعا هذا التعجيز وتهوين أمرهم هذا التهوين ، ونعتهم هذا النعت البالغ أقصى غايات الضعف والعجز عن الخير وعن الشر وعن النفع والضر ، يناسب النهي عن الدعاء والطلب مناسبة واضحة بينة ، ولأن الترغيب عن الخلق والصرف عنهم جميعا بهذا الأسلوب القوى الباهر يشمل ، بلا ريب ، الترغيب عن دعائهم وسؤالهم والانصراف عنهم بالقلب والقالب بالدعاء وسائر أنواع العبادات . فلا يمكن أن يقول الله فيهم هذا المقال ، ولا أن يضعهم هذا الموضع ، ولا أن يضعف شأنهم هذا الاضعاف ، ثم لا يكون هذا كله

نهيا حاسما عن دعائهم ومسألتهم ، وعن الرجوع إليهم فى حاجة من الحاج ، ومأرب من المآرب . فان هذا المثل ، وهذا الأسلوب الذى صيغ فيه المثل ، يملآن قلب سامعهما بكل أنواع الزهد فى الخلق ، وبكل أنواع الرغبة عنهم . فلا يمكن أن يدَعا فى نفس سامعهما ولا قلبه أملا فى مخلوق ، ولا رغبة فى عبد من العباد العاجزين عن خلق الذباب ، لا فى دعائه ولا فى إجابته ولا فى أمر من أموره . فالآية سلطان من سلاطين الله الخالدة ، وحجة من حججه القائمة على المشركين وعلى الخلق أجمعين .

و عقل عاقل هذه الآية

ولو أن إنسانا صبغ بالشرك والوثنية ، وكان له عقل ونظر ، فسمع هذه الآية وعقلها وفهم أسرارها ومراميها لتصدع قلبه فزعا وخشية وانبهاراً، ولقذف شركه ووثنيته من بشرته ومن أطراف جسمه ، ثم لا نصبغ بالتوحيد و بصبغة التوحيد الثابتة المعقمة . ولهذا كان الواحد من سلفنا الأولين الذين تلقفوا هذه الآية وغيرها من فم النبوة ، والذين فهموها وعقلوها عن الله وعقلوا مراده منها، يتلقى الزمان بمصائبه وسائر آفاته وامتحاناته ، فلايعلم غير الله مابه ، ولايكشف لغيره عن علة من علله ولا آفة من آفاته ، حتى لقد كان السوط يسقط من يده فلا يقول لأحد : ناولنيه ، كما جاء فى صفتهم . وكان المرء منهم يتلقى الزمان بسيفه واحدا فلايلتنى حتى يلتنى هو عنه . ولهذا استطاعوا أن يخضعوا الزمان والمكان وأهلهما ، واستطاعوا أن يصيحوا فى جوانب الكون الفاسد يحطمونه وهم ينادون (ألا كل شئ ما خلا الله باطل) .

آية ثانية

وقال تعالى من سورة لقمان « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هوالعلى الكبير » .

فالله هو الحق وحده وسواه الباطل ، فدعاؤه هوالدعاء الحق ، ودعاء غيره هو الدعاء الباطل ، وسؤاله هو السؤال الحق ، وسؤال غيره هو السؤال الباطل ،

والرغبة فيه هى الرغبة الحق ، والرغبة فى غيره هى الرغبة الباطلة ، والانقطاع اليه حق ، والانقطاع إلى سواه باطل « ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه الباطل » ، فالله هو الحق أى الثابت، وكل شئ سواه باطل أى فان زائل . فمن ذا يرغب عن الحق الثابت إلى الميت الزائل ؟ ومن يعدل عن دعاء الحق إلى دعاء الباطل ! وهذه الآية فى معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد (ألا كل شئ ماخلا الله باطل) . وهى صريحة فى إبطال دعاء غير الله من الأموات صراحة عجيبة ، لايتجه إليها النزاع . وذلك أنها جعلت كل مايدعى غير الله باطلا ، والتعبير عن كل مدعو خلاه تعالى بالباطل غاية فى النهى عن دعائه وسؤاله ، غاية فى التزهيد فيه والصرف عنه ، غاية فى الزراية عن دعاه ورجاه ، غاية فى كل ضروب التنفير عنه وعن الحوم حوله رغباً أو رهباً ، لأن الله لا يمكن أن يجيز لعباده أن يفزعوا إلى الباطل ، وأن يدعوه ، ويأملوه ، وأن يسألوه حاجاتهم ، ولأن العاقل نفسه لا يرضى لنفسه بأن يرجع إلى الباطل وأن يمد يديه إليه ، وأن يملأ قلبه برجائه وخوفه . فلا أبلغ من التنفير عن كل مدعو سوى الله ومن التنفير عن دعوته من وصفه بالباطل ، ولا أبلغ من الحض على الانقطاع إلى الله وحده من وصفه بأنه هو الحق وما سواه الباطل . فان من أبلغ الصرف عن الأمر عند الناس وصفه بالباطل والبطلان .

فجميع مايدعوه الناس ، غير الله ، من الأموات باطل لا خير فى دعائه ولا فى تأميله . ولا أضل ممن أمل ودعا مالا خير فيه ومالا نفع يرتجى لديه . وقد عممت الآية الكريمة كل مدعو من الخلق بهذا الوصف ، وصف البطلان ، فلم تستثن مدعوا لا نبياً ولا ولياً ولا ملكا ولا جنيا ولا عاقلا ولا غير عاقل ، ولم تخرج من هذا دعاء دون دعاء : فلم تخرج دعاء الأنبياء ، ولا دعاء الأولياء ، ولا دعاء الملائكة ، ولا دعاء العاقلين دون دعاء الجمادات . فكان النهى إذن عاماً شاملاً . . .

آية ثالثة

وقال تعالى من سورة الرعد : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال ، ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال . قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار » .

ضروب دلالة الآية

وهذه الآية من آيات التوحيد العجيبة التى جمعت فنون الاعجاز مع فنون الايجاز ، مع بلاغة الرد وقوة الاحتجاج ، ووضوح المرمى مع فخامة العبارة ، وسهولة الحجة مع قوة الاسلوب ، حتى لتأخذ على القارئ جميع آلات إحساسه وآلات شعوره ، فتهزه هزاً عنيفاً وإن كان من الأغبياء المبلدين . ودلالتها على بطلان دعوة غير الله من وجوه كثيرة : أولا أنه جعل دعوة الحق التى لا باطل فيها هى دعوته وحده . ثانيا : انباؤه بأن جميع الذين يُدْعَوْنَ من دونه لا يستجيبون لمن دعاهم أبداً . ثالثا : تشبيه من دعا سواه بمن أرسل يديه إلى الماء باسطا لهما رجاء أن يرفعاه إلى فيه وهما مبسوطتان منشورتان ، لكنهما لن يرفعاه إلى فمه مادامتا مبسوطتين منشورتين ممدودتين إلى جهة غير جهة الفم وهى جهة الماء أبدا ، وهما لن يوصلا الماء فيه حتى يرفعهما إليه ، وحتى يقبضه براحته أو بشئ آخر كاناء ونحوه . فالذين يدعون غير الله من الأنبياء والأولياء ، رجاء أن ينفعوهم وأن يدفعوا عنهم ، هم كمثل من بسط كفه ومده إلى ماء جارٍ فى الأرض ليرتفع إلى فمه بمجرد بسط كفه ومده إليه ، وهذا لن يبلغ فمه الماء أبدا . وكذلك الذين يدعون المخلوقين ، رجاء شئ ، لن ينيلوهم ذلك الشئ . فالذى يبسط يده إلى الماء ليبلغ فاه بذلك طالب للشئ من غير سببه و بدون آلته ، فهو لن يدرك ماطلب .

وكذلك الذين يدعون غير الله ليهبوهم بعض ما خلق الله وبعض ما فى ملك الله طالبون الشئ بغير سببه ومن غير أهله ، فهم لن يدركوا ماطلبوا سجيس الليالى . رابعا، جعله دعاء غيره من دعاء الكافرين «وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال» ، خامسا : رده على من تعلقوا بشئ دون الله فى الأرض أو فى السماء منبئا بأن جميع من فى السماوات وجميع من فى الأرض خاضعون لله ساجدون له طوعا أو كرها . فانه إذا كان كل شئ ساجدا لله خاضعا له بالقسر وبالطاعة وجب على العاقل أن يخضع له مع هؤلاء الخاضعين ، وأن يدين له وحده مع الدائنين . ولن يضيره شيئاً أن يرغب عن عباد خاضعين لربهم طوعاً وكرها ، وأن يرغب فى ذلك الذى رغب فيه وخضع له كل من فى السماوات ومن فى الأرض . سادسا: نعيه على من اتخذوا من دونه أولياء عاجزين عن النفع والضر لأنفسهم فضلا عن أن يملكوا شيئاً من ذلك لغيرهم . سابعا : قضاؤه بأن من دعا غيره أعمى ، وأن من دعاه وحده بصير ، وأن دعوة العباد ظلام، ودعوة المعبود نور . وهل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ ثامنا : رده على دعاة المخلوقين وعبدة العباد بأنهم لم يخلقوا شيئا فى هذا العالم فيستحقوا به العبادة والخضوع والدعاء والنداء، رجاء أن يُعطوا مما خلقوا وأوجدوا . وإذا كانوا لم يخلقوا شيئا ، فيتشابه الخلق عليهم : خلق المخلوقين المعبودين ، وخلق الله رب العالمين ، فلماذا عبدوهم ودعوهم وسألوهم ؟ أمن العقل والصواب أن تسأل غيرك ما لا يملك ومالا يمكن أن يملك ، بل من لا يملك نفسه ، وتدع المالك كل شئ جانبا وهو أرحم الراحمين وأعدل العادلين ، وأقرب إليك من كل قريب ، وأسمع لك من أذنيك وأدنى إليك من نفسك ؟ فاذا كان الله خالقاً كل شئ ، باعتراف عابدى غيره ، فكيف عبدوا غيره تعالى لو كانوا يعقلون ويتدبرون . وقد جبل الناس جميعا على أن يرغبوا فى المالك دون من لا يملك ، وأن يلجؤوا إلى القوى القادر دون الضعيف

العاجز ، وأن يسألوا من يقـدر أن يعطى دون من لا يقـدر ، فما بال المشركين يضلون عن جبلتهم وفطرتهم عند عبادة الله وتوحيده ، مابالهم ؟ فالآية حجة من الحجج الناطقة على بطلان دعاء الخلق وسؤال العبيد .

مماراة الشيعى فى الآية

أما الشيعى المصنف فقـد حاول المماراة فى الآية وحاول التنصـل منها بالتأويل ، فزعم أن المراد بذلك ما يدعى من الجمادات كالأحجار والأشـجار دون العقلاء من الأنبياء والأولياء والملائكة والجان ، أو ما يدعى من الأنبياء والملائكة الذين يعتقدفيهم أنهم مساوون لله وأن لهم تأثيرا معه أو أن لهم شفاعة اضطرارية قهرية . قال : ولا يبعد أن يكون المراد بهؤلاء الذين أبطلت الآية دعوتهـم الأصنام خاصة . وهذه تأويلات فاسدة ، ومحاولات للخلاص من الآية فاشلة : أما تأويلها بالجماد فواضح البطلان لأن الاسم الموصول (الذين) والضمير المذكور (لايستجيبون) برهانان على إرادة العقلاء ، ولأن المشركين لم يكونوا ، كما سلف ، يعبدون جماداً أصم مجرداً ، وإنما كانوا يعبدون عباد الله المقربين ويعبدون ما يتصل بهم من الآثار والأحجار والأشجار والتمـاثيل والصور ، وغاية القوم الحقيقية العباد المقربون وعبادتهم كمثل عبدة القبور والأموات اليوم سـواء ، ولأن المشركين كانوا بلا خلاف يعبدون المـلائكة والجان والصالحين وغيرهم ، وحين أخبرت الآية بأن الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا ينفعون ولا يضرون ، وأخبرت أن دعوتهم باطلة لزم دخول كل معبوداتهم فيها ، فلزم دخول الملائكة والجان والصالحين كاللات وغيره ، ولأن لفظ الآية عام ، ولأن قوله :

فساد تأويلات المخالف

« له دعوة الحق » دليـل واضح عـلى إنكار الدعوات الأخرى والمدعوين الآخرين . : هذه الأمور كلها تبطل على الرافضى تأويله الآية بالجمادات خاصة.
وأما تأويله لها بالأنبياء والأولياء والملائكة والجـان الذين سووا بالله أو اعتقد فيهم معه تعالى التأثير والشفاعة الاضطرارية القهرية ، فتأويل فاسد باطل أيضاً

لأمور : أولها: أن المشركين الذين نزل فيهم القرآن أصالة ، وهم مشركو العرب ، كانوا معتقدين بأن جميع الأمور تصير إلى الله وحده دون سواه ، وأن كل ذلك بيديه و إليه ، ومؤمنين بأنه تعالى خالق كل شئ ، وأنه مالك ما فى السموات وما فى الأرض وما فى العالم كله ، وأنهم ما عبدوا من عبدوا من الأصنام والأوثان إلا رجاء أن يقربوهم إلى الله وأن يشفعوا لهم : هـذا كله مما أقر به المشركون لله . فهم لم يسووا معبوداتهـم وأصنامهم بالله التسوية التامة المطلقة التى يعنيها هذا الرجل و إخوانه من المحرفين . ثانى الأمور : أن عبـاد القبور أنفسهم يعتقدون بأن للأولياء والأنبياء الذين يدعونهـم من دون الله تأثيراً وأفعالا غريبة وخوارق مدهشة عظيمة ، وهم يصرحون بذلك ويتناقلونه . ولولا هـذا الاعتقاد لما دعوهم ولا فزعوا إليهم عند الاحتياج والضرورة ، ويعتقدون أن لهم شفاعات لا تخطئ ولا ترد ولا يطيش لها سهم. ولهذا يسمونهم متصرفين ويستدلون بأمثال قوله تعالى : « لهم ما يشاءون عنـد ربهم » ، ويعنون بهـذا الاحتجاج أنهم مطلقو الأفعال والتصرف والقدرة . وهـذا معلوم عن القوم لا يشك فيه أحد . ثالث الأمور : أن الانكار فى الآية موجه إلى دعاء غير الله لا إلى اعتقاد أن له شـفاعة أو تأثيرا وتصرفا . رابع الأمور : أن الآية قد حصرت دعوة الحق فى دعوته تعالى وحده . فلا تكون إذن دعوة غيره إلا باطلة . خامس الأمور: أن المصنف الرافضى ذكر فى غـير مكان من كتابه أن الأموات مثل الأحياء سواء مثلا ، بل صرح بأن الأموات أوسع قدرة وعملا وفعلا من الأحياء . فاذا كان هذا حقا ، وهو عنده كذلك ، والشيعة يعتقدون أن العباد خالقون لأفعالهم ، موجدون لأعمالهم ، خرج من مجموع الأمرين أن للأنبياء وللأولياء تأثيراً أحياء وأمواتا ، وتصرفا فى الحياة وفى الممات ، و إيجاداً وخلقاً فى الحالتين . والشـيعة بعد هذا يدعون الأموات من الأنبياء والأولياء ، ويستغيثون بهم ويسألونهم

ضروب المسائل . فالشيعة إذن يدعون الأموات مع اعتقادهم أن لهم تأثيراً وتصرفا وخلقا وإيجاداً . فهم قد جمعوا بهذا ما زعم المخالف أن المشركين جمعوه إذ نزلت فيهم هذه الآية . فماذا يصنع ؟ سادس الأمور : أن الآية قد ذكرت أن هؤلاء المدعوين لا يستجيبون لمن دعاهم شيئا . فاذا صح تأويل الشيعي الآية بالانبياء والأولياء والأموات فقد خرج من هذا أن الموتى من الصالحين ، أنبياء وأولياء ، لا يستجيبون لمن دعاهم وسألهم واستغاثهم أبداً . و إذا كان دعاؤهم يذهب عبثا باطلا قام الدليل المطلوب على بطلان دعائهم والاستغاثة بهم . وهذا هو المطلوب من الآية . فالآية ، كيفما صرفت ووجهت وأولت ، برهان باهر على بطلان دعاء الأموات وعلى ضلال الداعين لهم العاكفين على أجداثهم .

تأويل آخر وفساده

وأما تأويله إياها بالأصنام خاصة فيقال فى الجواب : إن أصنام المشركين الذين نزلت فيهم الآية كانت خليطا من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان ، ومن صور هؤلاء وتماثيلهم وآثارهم ومخلفاتهم التى خلفوها كالقبور والمشاهد والأماكن التى عرفت بالنسبة إليهم ... فاذا نهى القرآن الكريم عن دعاء الأصنام أصنام العرب والمشركين ، وأنبأ بأن دعاءها ضلال و باطل و إثم وجريمة دخل فى هذا كل هذه المعبودات من دون الله ودخلت كلها فيه ، فصار دعاء الأنبياء والصالحين والملائكة والجان ضلالا و باطلا ممنوعاً وجريمة يعاقب عليها قانون السماء . فانه لاخلاف فى أن المشركين كانوا يدعون الملائكة والصالحين والجان وكانوا يسألونهم ضروب حاجاتهم ومآربهم . فاذا حدث القرآن أن كل مايدعو المشركون من دون الله باطل ، وحدث أنه لايستجيب لداعيه أبدا كان هذا التحديث تحديثا صريحا بأن دعاء الجان والملائكة والأموات ، على اختلافهم ، باطل وضلال ، وتحديثا بأنهم لايستجيبون لطالبيهم وداعيهم شيئاً ، وكان هذا صريحاً بينا فى بطلان دعاء الأموات وسؤالهم ، و بطلان أمر وعمل كل من يدعونهم

و يسألونهم . فالآية دالة على ماذكرنا على كل حال .

ثم يقال ثانياً : إن قوله تعالى : « له دعوة الحق » صريح ظاهر بأن دعوته وحده هي دعوة الحق ، وأن كل الدعوات لسواه هي دعوات الباطل والضلال ، إذ ما بعد الحق إلا الضلال . والآية قد قسمت الدعاء إلى نوعين : إلى دعائه تعالى وحده ، وجعلت هذا النوع من الدعاء هو الدعاء الحق ، و إلى ما يدعوه الناس من دونه تعالى ، وجعلت هذا هو الدعاء الباطل الذي لاخير فيه ولا نفع . فمن دعا الله فقد دعا دعاء الحق ، ومن دعا سواه فقد دعا دعاء الباطل والضلال والجهل . ونعوذ بالله من الباطل بجميع ضروبه وأشكاله وهيئاته ومعانيه ومبانيه .

آية رابعة .

وقال تعالى من سورة النساء : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً . إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريداً لعنه الله ، وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

وهذه الآية الكريمة خليق بالعاقل المسلم أن يتدبرها وأن يقف عندها طويلا مستلهماً ربه مافيها من أسرار ومعان وتوحيد ، ومافيها من ذود وطرد عن الخلق وعن الرغبة فيهم ، وما فيها من رد على هؤلاء المنقطعين إلى النساء وأضرحة النساء يدعون ويسألون أفنان الحاجات وأشتات المطالب ، ثم يزعمون أنهم لم يأتوا منكراً ولم يفعلوا ماينهى عنه القرآن وما ينادى ببطلانه وفساده جهاراً نهاراً .

ذكرت الآية أولا الشرك وفظاعته وسوء عقباه وأخراه ، وعقبى من جاؤا ربهم به ، وأنبأت أن الله لا يغفر شيئاً من هذا الذنب العظيم والجرم الجسيم وإن كان يغفر جميع الذنوب والآثام لمن يشاء من خلقه وهو أعلم بهم وبمن هم أهل للغفران والانتقام . ثم أخذت الآية في تبيان هذا الذنب الذي جل عن الغفران وعن أن يتناوله عفو الله وسعة رحمته وقد وسعت كل شئ : فذكرت في

بيانها أن المشركين الذين لا يغفر لهم هم الذين يرغبون عن الله وعن دعائه إلى دعاء الاناث ، أحط النوعين وأضعفهما وأقلهما خيراً وجدوى ومعنًى ومبنًى ، ثم أبلغت فى البيان فذكرت أن الذين يدعون الاناث من دون الله هم فى الواقع لايدعون إلا الشيطان المريد ، لأنه هو الذى أضلهم وأوقعهم فى دعاء الاناث ورغبهم فيه وزينه لهم ، فهو السبب الأول ، وهو المحرض والباعث على ذاك الغرام الفظيع والهوى المنكر المزدوى . فكأن الدعاء موجه اليه هو ، وكأن عبادة الإناث عبادة له مباشرة ، اذ لولاه ولولا خطواته وخطيئاته لما أشركوا ولما عبدوا غير المعبود بحق : الله رب العالمين .

دعاء النساء فى القرآن

فدعاء الإناث بنص هذه الآية الكريمة من الاشراك بالله ومن شر الضلالات والجهالات ، ومن أعمال المشركين الضالين الذين بعث الله فيهم رسوله لإنقاذهم من هذه المهالك وانتشالهم من تلك الأوهاد والحفر . وهذا الدعاء ، أى دعاء الاناث ، أى دعاء النساء مما أخبر الله عنه بأنه لا يغفره لصاحبه ولا يرحمه إذا قدم عليه به . فدعاء الاناث والنساء من الأمور التى نص القرآن على بطلانها وفسادها وضلال الآتين بها . فماذا يقول دعاة الاناث والنساء ، ودعاة الست فلانة والسيدة فلانة ؟ وماذا يقول هؤلاء الهاتفون بأسماء « زينب » و« نفيسة » و« سكينة » وغيرهن من المدعوات المشهورات المعبودات فى الأرض دون اله السموات ؟ وماذا يقول هؤلاء السائلون لهن ، المنقطعون إلى قبورهن ومقاماتهن يدعون ويهتفون ويسألون ويضرعون وينادون ويخشون ويرجون ويطلبون جميع ما يشاؤن ويأملون منهن مطالب الدنيا والأخرى وحاجاتهما ؟ ؟ أيستطيع أحد منهم أن يزعم أن الاسلام لم ينه عن دعاء النساء وعن سؤالهن ، وقد جهر القرآن بأن المشركين هم الذين يدعون الأناث من دون الله ، وجهر بأن دعاءهن من الشرك الذى يجل عن الغفران والصفح والعفو ؟

من سوءات الانسان

ودعاء النساء والرغبة فيهن وفى قبورهن «ميتات» من سوءات الإنسان الفاضحة ومخازيه التى تجل عن الوصف والنعت . وقد جبل الناس كافة ، حتى الأطفال منهم ، على استضعاف المرءة وانتقاصها والتهوين لها ولشأنها وأمرها وقدرتها ، وقد عرفوها أبداً ضعيفة عاجزة ، فى حاجة أبداً إلى الحماية والرعاية والكفاية لضعفها وقلة حولها وطولها . ولكن هذا كله ، لجهل الانسان وغباوته وجمعه بين المتناقضات ، لم يمنعهم من عبادتها ، ولم يحجزهم عن الاستنصار بها والانقطاع إليها وإنزال الحاجات المختلفة بها بَعد موتها وفنائها وانحدارها وانهزام سلطانها الوهمى الموجود فى شهوات الرجال دون عقولهم ورجولتهم . وهذا من غرائب الانسان وغرائب نقصه الفظيع .

آية خامسة

وقال تعالى من سورة الزمر : « أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فماله من هاد ومن يهد الله فماله من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام ! ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون (إلى قوله) أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون . وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون » .

من عجائب القرآن

وهذه الآيات من عجائب آيات الله فى الدعوة إلى التوحيد المطلق والتجرد عن كل مخلوق وكائن سمواً إلى الله وحده وانقطاعاً إليه ، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون . وقد أبدعت فى هذه الدعوة إبداعاً يقطع كل أمل على

الآمل فى غير الله ، و يوصد كل باب بين العبد والعبد والمخلوق والمخلوق ، وبالغت فى هذا بحق حتى وترت جميع الصلات والأسباب فى هذا الوجود غير صلات الوجود كله بربه وخالقه ومابينه و بينه من الأسباب : فلم تدع لعبد مفراً إلا إلى الله ، وأين فرار الخلق إلا إلى الخالق ! ولم تبق لمخلوق حاجة عند مخلوق أو مأرباً يطلب إلا من الله ، وأين يطلب المؤمن حاجاته ومآربه إلا عند ربه ورب العالمين ! لقد جاءت وفى كل حرف منها شهاب لتحريق كل شيطان يدعو إلى الشرك وإلى الأنداد .

ذكر الله أولا ، بأسلوب تنخلع له أفئدة الشرك والمشركين ، أنه تعالى كاف عبده فلا يحتاج إلى سواه فى أمر من أموره الوجودية أو العدمية فقال : « أليس الله بكاف عبده ؟ » وأى مؤمن يمكن أن يجيب على هذا السؤال إلا ويكون جوابه : بلى . وإذا كان الله كافيا عبده فكيف لاينقطع إليه وحده : فيدعوه ويرجوه ويسأله ويخافه ويقف فى بابه وحده ! وإذا كان الله كافياً عباده فكيف يفزعون إلى غيره وكيف يدعونه وينقطعون إليه ! وإذا كان كل عبد محتاجاً إلى الله وإلى كفايته ورعايته فكيف يفزع العبد إلى المحتاج المكفى ويدع الرب الكافى ؟

من خلائق المشركين

ثم ذكر ثانيا خلقا من أخلاق الإنسان العريقة فى القدم ، هذا الخلق هو خوفه وتخويفه غيره مما يعبد من دون الله من العباد العاجزين الضعفاء ، فقال « ويخوفونك بالذين من دونه » فإذا قلت لهم : ادعوا الله وحده ودعوا فلاناً وفلانة فإنهم لايجدون ولاينفعون ولا يضرون ، قالوا لك : كلا ، إن لهؤلاء من الأمر والحظوة عند الله والشفاعات والوساطات ما يستطيعون به أن ينالوك بأنواع الأذى والبلاء ، فحذار من إغضابهم وغضبهم ، وحذار من أذاهم وبلائهم وسلطانهم الضار النافع . وهذا عينه هو مايقوله اليوم عبدة القبور والأموات

والسيدات لدعاة التوحيد والهداة إلى دعوة الله الخالدة . وقد رد على هذا الخوف والتخويف ، خليل الله إبراهيم إمام الموحدين فقال لقومه : « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

ثم ذكر خلقاً آخر من خلائق المشركين الجاهلة فقال : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . ومع هذا الاعتراف الصريح والايمان الخليق بأن يذودهم عن الشرك والحوم حوله يظلون يعبدون و يدعون و يسألون غيره ممن لم يخلقوا شيئاً فيملكوه فيصح أن يسألوه و يطلبوه لا فى السموات ولا فى الأرض . وهذا هو الضلال البعيد حقا .

ثم أمر نبيه أن يسأل هؤلاء المشركين سؤالا لا يجدون له جواباً فقال : « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هنّ ممسكات رحمته » . وهم ، لابد ، معترفون بأن مايدعون وما يعبدون من الأصنام والأوثان لا يمكن أن يدفع ماأراد الله بخلقه من الضر والنفع والنعمة والنقمة . . . وهذا ضرورة عند جميع المؤمنين بالله . و إذا كان ذلك كذلك فكيف يتمدون الله الذى بيده الضر والنفع والخير وكل شىء إلى ما لا يقدم ولا يؤخر ومالا يملك شيئاً ؟ هذا سؤال باهر معجز ، وهم لن يعرفوا جوابه إلا بالانكفاف عن الشرك والانحراف عن وسائله وأسبابه والاستمساك بعرى التوحيد الخالص المجرد .

حسبى الله

ثم أمر نبيه ثانياً بأن يقول لهؤلاء المشركين وللناس أجمعين « حسبى الله » حسبى الرغبة فيه عن الرغبة فى سواه ، وحسبى دعاؤه وسؤاله عن دعاء الخلق وسؤالهم جميعاً ، وحسبى خوفه و رجاؤه عن خوف العباد و رجائهم ، وحسبى الانقطاع إليه عن الانقطاع إلى ماعداه : « حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون »

لأن كل شئ منه وإليه ، ولأن له ملك السموات والأرض وله كل شئ .
والاتكال لايكون إلا على القادر الذى يستطيع أن يضر وأن ينفع ، وأن يدفع ويمنع كى يستطيع حماية من اتكل عليه ورعايته وتأمينه مما يخاف ويحذر ، وكل من ليس كذلك باطل لا يصح التكلان عليه ولا الرجوع إليه .

التعلق بالشفاعات هو الداء

ثم ذكر أن داء هؤلاء الضلال المشركين هو زعم الشفاعة والتعلق بها وحسبانهم ، جهلا وضلالا ، أنهم إذا تعلقوا بقوم مقربين إلى الله مختارين عنده فدعوهم ورغبوا فيهم شفعوا لهم عند ربهم فشفعهم فيهم لحظوتهم لديه ، فنالوا ما أملوا وطلبوا ، وأمنوا مما رهبوا ، لأن لهم الجاه العريض والشفاعة العظمى ، ولأن لهم ما يشاءون عند ربهم . وما علموا أن الشفاعة كلها لله فهو الذى يأمر بها لمن يستحقونها من عباده الخالصين المخلصين ، وهو الذى يعلم الخليق بها . وما علموا أنه لا يشفع أحد من عباده الممتازين المقربين إلا إذا أذن له وأمره بأن يشفع لمن يرضى عنه من عباده الصالحين . فالشفاعة والشفيع لايخرجان عن ملك الله وعن ارادته ومشيئته وقبضته . فلن يُنال إذن شئ من ذلك الا بالرجوع إلى مالك ما هنالك ، فقال : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون » أى لا يملكون شيئاً من الشفاعة ، ولا يعقلون عن سألوهم الشفاعة ودعوهم لها شيئاً لانقطاع الأسباب . «قل لله الشفاعة جميعاً» وقل « له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون » مجردين من كل شئ : من الشفاعات ومن الشفعاء . فليس أمام العبد إلا الله ، وليس له مفر إلا إليه ، ولن ينال شيئاً من حاجاته وآماله إلا عنده وبإذنه ورضاه . فلا مندوحة من الانقطاع اليه وحده .

إذا ذكر الله وحده

ثم ذكر طبعاً آخر من طباع المشركين الفاسدة البليدة فقال : «وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم

يستبشرون » . أى إذا دعى الله وحده ، وسئل وحده ، وعبد وحده ، ورجى وحده ، وخيف وحده ، نفروا وأجفلوا وكرهوا ذلك التوحيد وزمجروا من دعائه وطلبوا أن يضاف إليه تعالى فلان وفلانة : فيدعوا ويخافا ويرجوا ويعبدا معه . أما إذا ذكر ما يعبدون غيره تعالى من المخلوقين فذكرت الشفاعات «والجاهات» والولايات والكرامات ، ومافى دعوتهم وسؤالهم من قضاء الحاجات، وتفريج الكربات . وإدراك المطالب والمآرب : أما إذا ذكر ذلك فإنهم يطيرون سروراً واستبشاراً وفرحاً : فتنطلق ألسنتهم بذكر الأسانيد والأقاصيص ، وتنبسط بالتحديث عن الكرامات والخوارق ، وتتبلج أسارير وجوههم بضياء الآمال العريضة النضة التى يرجونها عندهؤلاء الذين يدعون من دون الله « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون » .

ويشبه هذه الآية قوله تعالى من سورة الاسراء : « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً » وقوله تعالى من سورة « المؤمن » : « ذلكم بانه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير » .

وهذه السورة «سورة الزمر» من سور التوحيد المكثرة من الدعوة إليه ومن إقامة البراهين عليه بألوان من البيان والأساليب ، وأفانين من الايضاح والقوة، وهكذا الكثير من السور المكية . وقال تعالى فى أول السورة : « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، إلا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هوكاذب كفار » . ومن الواضح البين عند الجميع أن الدعاء ، برغب ورهب وأن المسألة بخضوع وخشوع ، من صلب الدين ومن خالصه ونهايته . وقد وكد الله

آية سادسة

الأمر بإخلاص الدين له تعالى ، ومعنى إخلاصه أن يكون كله له . وذكر بعد هذا الأمر الصادع بإخلاص الدين له أن الذين لم يخلصوه له هم الذين اتخذوا من دونه أولياء قائلين : مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ويدنونا منه. وفى هذا بيان واضح أن اتخاذ الأولياء من دون الله وعبادتهم — والعبادة معروفة ومعروف أن الدعاء من أفضل أنواعها — ينافى إخلاص الدين وتوحيد الله ، وإن كان كل الغرض من ذلك الشفاعة والوساطة . وهذا ظاهر .

آية سابعة

وقال تعالى من سورة « الأنعام » « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون » .

وهذه الآية مصرحة بأن إشراكهم لم يكن إلا فى دعاء غير الله ، وذلك أنها ذكرت أنهم إذا فزعوا وخافوا من عذاب الله أو من الساعة لم يدعوا غيره تعالى : لا نبيا ولا وليا ولا ملكا ولا جانا ولا حجراً ولا شجراً ، بل أخلصوا الدعاء كله له ، ثم أوضحت أنهم إذا أخلصوا الدعاء له وحده وإياه دعوا ، فقد نسوا بذلك إشراكهم . فكان فى هذا بيان واضح ظاهر أن الاشراك بالدعاء وأن الاخلاص كذلك فيه ، فاذا دعوا الله وحده فقد عبدوه وحده ، وإذا دعوا غيره فقد عبدوا غيره . وهذا يوافق ماذكر فى غير آية عن المشركين بأنهم كانوا إذا ركبوا فى الفلك وخشوا الغرق والهلاك دعوا الله مخلصين له الدين ، فاذا نجاهم وأخرجهم إلى البر وأمنوا الغرق والهلاك إذاهم يشركون . ويعنى بإشراكهم فى هذه الآيات دعاءه غيره تعالى من الأصنام والأوثان والمخلوقات الأخرى كما هو ظاهر من السياق .

آية ثامنة

ثم قال من سورة الأنعام أيضاً : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » وظاهر من هذه الآية أيضاً أن العبادة التى نهى عنها هى الدعاء ، وظاهر

منها أيضاً أن دعاءهم غير الله هو معنى إشراكهم به تعالى ، أو هو من إشراكهم .

تاسعة

ثم قال من السورة نفسها : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » . فذكر أنهم يدعونه تعالى فى ظلمات البر وظلمات البحر تضرعاً وخفية ناسين كل ماسواه ، وأنهم إذا نجوا وفارقوا مناطق الخطر والخوف البرى والبحرى أشركوا ، أى أشركوا ، ولا ريب ، فى ما أخلصوا فيه وهو الدعاء والتضرع والخوف والرجاء ، لأن هذا هو المذكور فى الآية ، وهو المحكى المعروف عن القوم فى وقت إخلاصهم وتوحيدهم

الآية العاشرة

ثم قال فى السورة أيضاً : « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ، قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » .

فأوضحت هذه الآية بأنه لا يصح للمسلم أن يدعو من دون الله مالا ينفعه ومالا يضره ، وأوضحت أن من دعا هذا الذى لا يضر ولا ينفع فقد ارتد على عقبه بعد أن هداه الله وهدته فطرته الصحيحة ، وأن الشيطان قد أغواه واستهواه وأضله فأصبح حيران ، حيران لا يدرى ما الهدى ولا ما الضلال ، ولا يعرف ما الحق ولا ما الباطل ، وأصبح ينادى من مكان بعيد فلا يجيب من دعاه إلى الهدى ، ولا يطيع من أمره بالرشد ودله على الخير ، وذلك لأن الهدى بيد الله يمنحه من يتعرض له من عباده أهل الإخلاص للحق والطلب الملح له : هذا شأن من دعا مالا ينفعه ومالا يضره من دون الله . ولا شك أن الأموات لا ينفعون ولا يضرون باعتراف هؤلاء الداعين إلى عبادتهم . والحجة التى يدفعون بها عن عبدة الأموات هى زعمهم أنهم يعتقدون و يقولون أن من يدعون من

المشايخ والأموات لاينفعون ولايضرون ، ولا يملكون لأنفسهم ، فضلا عن غيرهم ، خيراً ولا شراً ولا موتا ولا حياة . فاذا كان حقاً مازعموه فى معرض الدفاع عن عبدة الأموات العاكفين على الأحداث فقد قطعت عليهم هذه الآية وغيرها من الآيات كل مانسجوه وحاكوه من الشبهات والحجج والترهات احتجاجا على دعاء الموتى وسؤالهم ضروب الحاج والمآرب . وقد بين الكتاب والسنة أن أفضل الخلق لا يملك الضر والنفع لا لنفسه ولا لغيره فقال تعالى : « ليس لك من الأمر شئ » وقال : « إنك لا تهدى من أحببت » وقال : « ألا له الخلق والأمر » وقال : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله » « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » ، إلى غير ذلك من الآى .

فنصوص الدين واضحة ظاهرة ناصة على أن أفضل الخلق وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً وكرامة ومنزلة لايملك خيراً ولا شراً ولا نفعاً ولا ضراً ، والمخالفون يزعمون أنهم معترفون بهذا . فاذا كان ذلك كذلك علم منه ومن الآية المذكورة ومن الآيات الكثيرة أمثالها أن هؤلاء الذين يدعون الأموات وأصحاب القبور قد ارتدوا على أعقابهم وأضلهم الشيطان وأصبحوا حيارى فى دينهم وعقائدهم ، لأن الله يقول فى الآية المذكورة : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى». الآية

وفى معنى هذه الآية آيات كثيرة كقوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وكقوله : « ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك إذن من الظالمين » .

الآية الحادية عشر

وقال فى ختام سورة الأنعام : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له و بذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ ؟ »

والصلاة معروفة بأنها قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء ومناجاة وخشوع وخضوع وذلة وتمسكن وقراءة وخوف ورجاء وأمل ونحو ذلك . وهذا كله يجب أن يكون لله وحده بنص هذه الآية الكريمة . والنسك هنا لعله الذبح وهو القربان إلى الله . فالذبح يجب أن يكون لله بنص الآية الكريمة ، فلا يذبح لغيره أبداً . والمحيا هو الحياة . فالحياة يجب أن تكون كلها لله بما يقع فيها من عبادات وصلوات وصيام وخوف ورجاء وخشوع وخضوع ودعاء ونداء وغير ذلك من هذه المعانى ، فلا يكون نوع من ذلك لغير الله . والممات أيضاً كله لله بما فيه من رجوع وحساب وثواب وإعطاء وإرضاء ورضا وإدخال فى الجنات وإبعاد من النيران وزيادة فى الحسنات وكل ما هناك .

والانسان عبارة عن حياة وعن موت ، وهو إما حى وإما ميت ، وهو فى الحالين والحياتين خالص لله وحده لا شركة لأحد فيه . هذا هو المسلم الصحيح الاسلام ، وهذا هو حقيقة الاسلام والايمان والتوحيد ، وهذا هو ما دلت عليه هذه الآية الكريمة . والمسلم حقا لا يصح له أن يتخذ رباً غير الله ، فلا يهب مخلوقا معنى واحداً من معانى الربوبية ، لأن معانى الربوبية كلها لمن خلق كل شئ وهو الله رب العالمين .

آية أخرى :

وقال تعالى من سورة « المؤمن » : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير » .

ولا أصرح من هذه الآية رداً على هؤلاء الذين يأبون دعوة الله وحده ويدعون سواه من الأموات والأشياخ الذاهبين. فان هؤلاء إذا دُعى الله وحده

إذا دعى الله وحده

وقيل لهم : لا يدعى إلا الله ، ولا تجوز دعوة سواه ، صاحوا ونهضوا لمناهضة هـذا التوحيد وإنـكاره والكفر به ، وزعموا أن ذلك عـدوان على عباد الله الصالحين وإساءة بالغة إليهم . وإذا وجدوا من يدعو إلى توحيد الله والاستغناء به عن سواه وإفراده بالدعاء وما يلزم الدعاء من معانى العبودية والعبادة عابوه وهجوه وقالوا فيه وفى اعتقاده الأباطيل وكفروا به وبدعوته وتوحيده وبمن يدعو إليه . أما إذا قيل لهم : بل يدعى فلان وفلانة ويستغاث بالأموات والصالحين والمشايخ، ويعكف على أجداثهم وآثارهم للاستشفاع وطلب البركات والامدادات رضوا وفرحوا واغتبطوا وقابلوا ذلك بالرضا والايمان والاطمئنان وعدوه من مقالات المؤمنين المسلمين . وإذا وجدوا من يقولون هـذا القول ويدعون إليـه ويذهبون هذا المذهب المشرك أحبوهم ورضوهم واطمأنوا إليهم وقابلوهم بالاحترام والتبجيل والتصديق والدعاية والامتداح والثناء الـكاذب المزوّر كما صنع هـذا الشيعى المصنف . فانه قابل أفذاذ العلماء وأعضاد الشريعة الاسلامية بالتجريح والإفساق والاكفار والهجاء والبذاء والـكفر بهم وبما لهم من الأيادى على الاسلام والعلم والأخـلاق والفضائل . . . لأنهم قالوا لا يدعى إلا الله ، ولأنهـم كانوا لا يدعون غيره تعالى من الأموات ، وقابل جهلاء المؤلفين وجهلاء العلماء بالتكريم والاجلال والامتدح والثناء . . . لأنهـم كانوا يدعون الاموات ، ولأنهم كانوا يشيدون الشبهات على جواز دعوتهم والعكوف على قبورهم، ولانهم كانوا يقدحون فى فريق التوحيد ، وفيمن قالوا لا يدعى ولا يعبد إلا الله . وهذا الدأب هو ما حكاه الله عن المشركين بقوله : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحـده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا» . أى إذا دعا محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين الله وحده ونسوا ما خلاه من الأصنام والأوثان والأغيار الأخرى كفروا بهذا الدين الذى جاء به هؤلاء الذين لا يدعون إلا الله باشراكهم ، بأن ذهبوا يدعون ما يدعون من

دونه تعالى إثباتاً لوجودهم فى جانب وجود أهل الله وحزبه وحده ، و إثباتاً لوجود شركهم وضلالهم ازاء توحيد محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين . . .

« و إن يشرك به تؤمنوا » أى و إن يدع الله و يدع معه غيره من المعبودات الأخرى بأن يقال حيناً : يا الله ، وحينا آخر: يا فلان أو يا فلانة ، يؤمنوا بهذا الاشراك و يصدقوه و يقروه . وهذا هو عين ما عليه عبدة القبور اليوم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل . فما أشبه الليلة بالبارحة أو ما أشبه الليل بالليل !

آية أخرى

ثم قال فى هذه السورة عينها : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » أى ادعوا الله مخلصين له الدعاء والنداء وغير ذلك من معانى الدين وأنواعه ، ولا تشركوا به شيئاً فى دعائكم ودينكم ، ولو كره ذلكم التوحيدَ منكم المشركون الكافرون ، ولو كرهه أهل الأرض جميعاً .

آية أخرى

ثم قال من السورة نفسها أيضاً : « والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ، إن الله هو السميع البصير » أى إن الله وحده هو القادر على أن يقضى بين الخلائق بالحق والعدل والحكمة لأنه هو الخالق لكل شئ . . . وأما الذين يدعونهم من دونه تعالى فعاجزون جميعاً عن أن يقضوا بشئ وأن يحكموا على شئ وأن ينفعوا أو يضروا ، لأنهم عباد أذلة ، ممدود عليهم رواق العبودية . فما أضل إذن هؤلاء الذين يدعون من لا يستطيعون أن يقضوا لهم ولا لغيرهم بشئ لا بخير ولا بشر ! وما أغبى وأبلد من يعدلون عن دعوة الله القاضى بين جميع الخلق بالحق والعدل والحكمة إلى دعوة من لا يقضون بشئ لا لداعيهم ولا لغيره ! فأى الفريقين ـ الفريق الذى لا يدعو إلا الله ، والفريق الذى يدعوه و يدعو سواه ـ أحق بالهدى والرشاد والسداد ؟

آية أخرى

ثم قال من هذه السورة أيضاً : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » . فقدم أولاً بالدعاء ثم ذكر

بعده أن الذين لا يعبدون الله ، استكباراً ، مأواهم النار . فدل ذلك على أن الدعاء هو العبادة ، أو أن الدعاء عبادة ، ودل على أن العبادة التى أوعد الله المستكبرين عنها فى الآية بالنار والنكال هى الدعاء . ويصحح هذا الذى يبدو من الآية الكريمة مارواه النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » رواه الأربعة وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وروى من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله: «الدعاء مخ العبادة » وروى من حديث أبى هريرة عن رسول الله قال : « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » . قال ابن حجر : صححه ابن حبان والحاكم . والعبادة باتفاق أهل الاسلام لا تكون إلا لله .

آية أخرى

ثم قال من السورة المذكورة أيضاً : « فادعوا الله مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين . قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين » إلى أن قال : « والذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين » . فأوضحت هذه الآية أن المشركين إذا سئلوا يوم القيامة بين يدى الله وقيل لهم : أين آلهتكم الذين كنتم تشركونهم فى عبادتكم ، فأرادوا البراءة منهم قالوا : إنهم قد غابوا عنا وضلوا ، ثم عدلوا عن هذا الجواب إلى التبرىء من أن يكونوا أشركوا بالله شيئا فقالوا « بل لم نكن ندعو من قبل شيئا » غير الله . وفى هذا بيان ظاهر بأن الاشراك الذى ليموا عليه وأوخذوا فأرادوا أن ينكروه وأن ينزهوا أنفسهم عنه هو دعاء غير الله . ولهذا هربوا إلى

إنكار أن قد يكونوا قد دعوا أحداً غير الله حينما أرادوا البراءة من الشرك والكفر ، قال الله : « كذلك يضل الله الكافرين » .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة الأحقاف : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين . ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

يقول تعالى لعبده ونبيه محمد ﷺ : قل لمن راحوا يدعون عباداً مخلوقين مثلهم ، ويسألونهم حاجاتهم ومآربهم المختلفة ، وهم عاجزون عن أن ينفعوا أنفسهم وأن يجلبوا لها خيراً أو يدفعوا عنها شراً : قل لهم : أخبرونى عن هؤلاء الذين تدعونهم وتسألونهم ، هل خلقوا شيئاً من الأرض فلكوه فاستطاعوا أن يهبوه من شاءوا وأن يمنعوه من شاءوا فذهبتم تسألونهم إياه وتطلبونه منهم لأنه ملك لهم ؛ فإن كنتم تزعمون لهم هذا فأرونى هذا الذى خلقوه من الأرض ، وأخبرونى كيف خلقوه ، وكيف كان ذلك ؟ وما البرهان عليه لديكم ؟ وهذا ما يعجزكم إثباته وبرهانه . . . وإذا كنتم لا تزعمون لمن تدعون هذا الأمر ، وكنتم لا تدّعون أنهم خلقوا شيئاً من الأرض ، فأخبرونى عن أمر آخر لعلكم تزعمونه لهم ، ولعلكم تدعونهم وتسألونهم من أجله ، أخبرونى هل تزعمون أن لهم شركة فى السموات وملكاً فيها تسألونهم أن يعطوكم منه شيئاً وأن يمنحوكم كله أو بعضه ؟ فإن كنتم تزعمون لهم هذا أو هذا فأقيموا على ما تزعمون البرهان ، والبرهان إما منقول مقبول وهو الرواية المتصلة بمن قوله حجة وهو الكتاب والوحى ، وإما معقول وهو الأثارة من العلم . فأتونى إذن بكتاب أو أثارة من علم إن كنتم صادقين . أما إذا عجزتم عن هذا كله فعجزتم عن أن تثبتوا لهم شركا لا فى السموات ولا فى الأرض

ومن السموات والأرض يتألف العالم المعروف لكم ، فقد وجب عليكم أن تعلموا أنهم لا يستجيبون لمن دعاهم وسألهم ، لأنهم يسألون ما لا يملكون وما ليس لهم ، لأنهم لم يخلقوه ولم يكن لهم سبب ولا أثر فى خلقه وإيجاده . وإذا علمتم هذا حقا فاسمعوا آية الله الخالدة : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين » .

أضل الناس

وفى الحق أنه لا أضل ممن يدعون دون ربهم من لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وذلك أن الضلال ضلالان : ضلال فى ما بين العبد والعبد ونفسه ، وضلال فى ما بين العبد وربه ، أوضلال فى أمور الدنيا وضلال فى شؤون الأخرى الذى هو الدين . وهذا الذى يدعو من لا يستجيب له إلى يوم القيامة قد جمع الضلالين : الضلال فى ما بينه وبين العباد ونفسه ، والضلال فى ما بينه وبين ربه ، أوالضلال فى شؤون دنياه والضلال فى أمور دينه . أما الضلال الأول فهو أنه يدعو من لا يستجيب له ومن لا يسمعه ومن لا ينفعه لوسمعه ، فهو خاسر فى هذا الدعاء ، ناصب دون أن يلقى ثمرة أو فائدة لتعبه ونصبه ، وهذا عين الضلال . ولأن الضلال هو الخروج عن الطريق القاصد والمنهاج الراشد . وأما الضلال الثانى فهو أنه فى هذا الدعاء الذى يظن أنه يقربه إلى ربه ويرضيه عنه وينيله به الثواب والجزاء الحسن يغضبه عليه ويستحق به عقابه ومقته وطرده وسخطه . وذلك لأنه قد أشرك به عبداً من عباده الخاضعين له ، عبداً قد خلقه لعبادته . وهذا أقبح الضلال . فقد جمع الداعى من لا يستجيب له الضلالين ، فكان بذلك أضل الناس وأجهلهم — عائذين بالله من الضلال بسائر أنواعه وأقسامه .

أقبح القبيح

وفى الحق أيضاً أنه لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وذلك أنه من الضلال أن تريد من عبد أن

يهبك ما يملكه عبد آخر غيره من العباد ، ولكن الأقبح من هذا والأوضح ضلالا وغياً أن تريد من عبد أن يهبك ما يملكه ربك وربه ورب العالمين أجمعين ! وأقبح هذا القبيح أن يكون هذا العبد الذى تطلبه أن يعطيك ما يملكه رب العالمين عبداً ميتاً مرتهناً تحت التراب والرغام على رغم أنفه.

وفى الحق أنه لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين . وذلك أن الذى يدعو هذا الذى لا يستجيب له ولا يسمع منه ولا يعلم عنه شيئاً، إنما يريد بدعائه إياه أن يسمع له وأن ينفعه أحد أنواع النفع ، أو كل أنواعه : فاذا كان ذاك المدعو لا يستجيب له أبداً كان هذا من الضلال الظاهر فاذا كان ذاك المدعو أيضاً الذى لا يستجيب إلى يوم القيامة سيصير عدواً لداعيه. فى الساعة التى كان يرجو نصرته ومغوثته ومعونته فيها كان من الضلال الظاهر ثم إذا كان ذاك الداعى الذى سوف يلاقى جميع أنواع ماذكر من نسيانه ومن معاداته ومن الكفر به وبعبادته سوف يجزيه ربه ، على نصبه وعبادته وأعماله الناصبة ، النار والعذاب الأليم الدائم ، كان هذا أيضاً من الضلال الظاهر . . . فقد جمع ذاك المسكين أنواع الضلال وشر الضلال ، فمن أضل إذن منه !

ما فى الآية من ضروب الدلائل

وهذه الآيات دالة بوجوه كثيرة وأساليب مختلفة واضحة جلية على بطلان دعوة الأموات وعلى أن دعاتهم قد وقعوا فى الإشراك والكفر برب العالمين وذلك أنها قد عنفت المشركين ضروب التعنيف على دعائهم غير الله، ولم تذكر عنهم غير الدعاء ، ثم ردت عليهم دعاءهم بحجة باهرة قاهرة يعقلها جميع الناس ، وهى أن من يدعون من دون الله لم يخلقوا شيئاً فى هذا العالم . وليس لهم شرك ولا ملك لا فى سماواته ولا فى أرضياته ، بل الملك كله لله وحده . وهذا يعترف به ويقره المشركون ، كما ذكر القرآن عنهم . ومن لا يملك شيئاً كيف يسأل التمليك ؟

وكيف يطلب أن يهب شيئاً لم يخلقه ولم يملكه لو كان المشرك بربه يعقل شيئاً ؟
وهذه الحجة في إبطال دعاء المشركين غير ربهم ، هي حجة باهرة قائمة على بطلان دعوة الموتى وبطلان الانقطاع إليهم . ثم ذكرت بعد هذا الاحتجاج العجيب على دعاة المخلوقين أنه لا أضل من الذين يدعون من لا يجيبونهم ومن لا يسمعون دعاءهم ولا يعلمون حالهم . وهذا نقض صريح على دعاة المقبورين لأنهم يدعون من لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة . وهل يستجيب الميت لداعيه ؟ فلا أضل وأجهل من دعاة الميتين بنص الآية الكريمة !

ثم ذكرت أن دعاء غير الله عبادة لمن دُعي بقوله «وكانوا بعبادتهم كافرين» وهي لم تذكر عنهم في مقام الرد عليهم والزراية بهم غير الدعاء ، فذكرها العبادة بعد ذكر الدعاء دليل على أن الدعاء عبادة ، وعلى أن عبادة المشركين لغير الله كانت بالدعاء ، أو أن الدعاء كان منها . وفي هذا كله الرد الواضح على هؤلاء الذين يدعون الموتى ويزعمون أنهم لم يعبدوهم ولم يشركوا بهم بدعائهم وسؤالهم إياهم . والآية واضحة أيضاً في أن أولئك المدعوين المعبودين قوم عقلاء من البشر والملائكة والجان ، ولم يكونوا جماداً مجرداً كما زعم ، والصفات التي ذكرت لهم في الآيات دالة على ذلك دلالات بينة ظاهرة. وهذه كلها مناقضات لعبدة القبور العاكفين عليها يسجدون ويدعون

آية أخرى . وقال تعالى في آخر السورة : « ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ، بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » .

فالمشركون على اختلاف صور شركهم وتباين مظاهرهم ومظاهر ضلالهم

الأصنام قرابين ما اتخذوا الأصنام والمعبودات الأخرى من دون الله إلا قرابين إليه تعالى ليقربوهم عنده بشفاعاتهم ووساطاتهم ، وما لهم من الجاه والمنزلة العظيمة القريبة

أما غايتهم فهي هو وحده لاشريك له .

والقربان هو ما يتقرب به إلى الشيء ، فالقربان إلى الله هو ما يتقرب به إليه وإلى رضاه ونيل ثوابه وجزائه ، والقربان إلى الصنم ، مثلا ، هو مايتقرب به إلى الصنم ، والقربان إلى النبي والولي هو مايتقرب به إليهما وإلى شفاعتهما وإلى رضاهما ووساطتهما . فقرابين المشركين التي هي آلهتهم ومعبوداتهم التي اتخذوها من دون الله ، لا يعدو معناها معنى الأولياء والوسطاء والشفعاء والوسائل عند هؤلاء العاكفين على الأجداث . فالجميع يراد منهم التقريب إلى الله زلفى ، والجميع غايتهم الوصول إلى الله والحظوة برضاه . فعابد الصنم مثلا لم يعبده لأنه في عقده رب خالق قديم مع الله باق بقاءه ، بل عبده متقربا به إلى الخالق القديم الباقي وكل شيء يفنى ، فهو قربان إلى الله لا غير . وعابد النبي والولي لم يعبده لأنه في اعتقاده رب خالق قديم مع الله مساو له في جميع الصفات والأسماء ، ولكن عبده ليكون له شفيعاً ووسيطاً ، وليكون له وسيلة لدى ربه القديم الباقي الدائم . فالغرض متحد ، والعقد متحد ، والمظهر متحد ، فأين الفرق ، وأين الاختلاف ؟ والأمر كما قال الشاعر الجاهلي (بلى كل ذى رأى إلى الله واسل) وكما قال الجاهلي الآخر : (وليس وراء الله للمرء مذهب) .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة سبأ : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » الآيات .

وقد كرر الكتاب الكريم هذا الاحتجاج الباهر على المشركين العادلين بالله غيره من خلقه الضعفاء العاجزين ، وذكره في سور مختلفة بأساليب واضحة عجيبة . وهذا الاحتجاج الباهر هو أن هؤلاء الذين يدعون من دون الله فقراء عاجزون ، لم يخلقوا ولم يملكوا شيئاً في هذا العالم العظيم الواسع ، لا في العلويات

وهى السموات ، ولافى السفليات وهى الأرضون . والمشركون لاينازعون فى هذا؟ أى لا ينازعون فى أن من يعبدون من دون الله لم يخلقوا شيئاً ، ولا ينازعون فى أنهم مملوكون هم وما يملكون فى الظاهر لله ، مخلوقون له ، واقعون تحت سلطانه وقهره وقسره . فاذا كانوا بهذا المكان من الضعف والعجز والافتقار المطلق الكامل الشامل فلماذا يُدْعون و يسألون ، وتقتضى منهم الحاجات والمآرب ، وهم عاجزون عن نفع أنفسهم وعن إيصال الخير إليها ؟ وقد جبل الناس جميعاً على الاعراض عن الفقير العاجز الذى لايستطيع أن ينفع سائله إذا أراد ، ولا يضر غيره إذا شاء ، وجبلوا كافة على الرغبة فى القادر المالك الذى يستطيع أن يعطى وأن يمنع وأن يضر و ينفع .

الحجة الخالدة

وقد ذكر الله هذه الحجة فى مواضع من الكتاب العزيز وهى اليوم الحجة على هؤلاء الداعين للأموات ، السائلين إياهم جميع حاجاتهم وما يرجون و يطلبون ، وهى الحجة القائمة أبداً على كل مشرك فى كل عصر ومكان : فهى الحجة الخالدة الباقية لأنها منتزعة من أعماق النفوس والفطر الصحيحة ، فهى باقية ما بقيت الفطر والنفوس ، وهى قائمة ما قام الشرك والايمان خصمين متوافقين يتنازعان الغلب والسلطان والعقائد والأعمال .

وقد قفل الله فى هذه الآيات على المشركين جميع آمالهم فى غير الله ؛ وسد عليهم كل منفذ يحاولون أن ينفذوا به إلى الخير من طريق الخلق : فأخبر أولاً أنهم لايملكون مثقال ذرة واحدة فى هذا العالم وهذا الملك الواسع ، ثم أخبر ثانياً أنه ليس لهم فى هذا الملك شركة ما ، إذ قد يكونون غير مالكين لكنهم شركاء ، فجردهم من الملك ومن الشركة فيه ، ثم أخبر ثالثاً أنه ليس لصاحب هذا الملك وربه ومالكه منهم ظهير ولا نصير ولا معين ، إذ قد يقال إنهم غير مالكين وغير شركاء فى الملك ولكنهم أعوان ونصراء وظهراء لمالك الجميع ، فيدعون

من هذه الناحية ، وهى ناحية عونهم وظهارتهم لصاحب الشأن والملك الأعظم فجردهم الله من الأمور الثلاثة : من أن يكونوا مالكين ، أو شركاء ، أو أعوانا نصراء. فما بقى لهم بعد ذلك ، ومابقى للأمل فيهم ؟ بقى أن يقال: لعل لهم شفاعة وجاهاً لديه تعالى فيدعون و يسألون ذاك الجاه وتلك الشفاعة . فقفل الله عليهم هذا الأمل ، وسد فى وجوههم ذاك المنفذ : فأخبر أن الشفاعة ليست سوى أمر صورى ظاهرى لا يقدم ولا يؤخر ولا يترتب عليه شئ مما يرومون و يظنون ولكن الله جلت قدرته وعظمته عندما يريد أن يكرم عبداً من عباده الأتقياء و يقيمه مقام التبجيل والتعظيم، يأمره بأن يشفع لأحد الناس الذين أراد بهم خيراً ورحمة وغفرانا وعناية لأعمال صالحة عملها ، فيشفع فيشفعه تعالى و يجرى على شفاعته ، ظاهرا فقط ، ذلك الاحسان الذى أراده الله لذلك العبد المشفوع فيه .

لا أمل فى من يدعون من دون الله

ولكن الأمر فى كل ما هنالك لله وحده ، فهو الذى رضى عن المشفوع له ، وهو الذى أمر الشافع بالشفاعة ، وهو الذى شفعه فيه وأجاب طلبه ومسألته . فالأمر كله لله ، والشفاعة كلها ، بأسبابها و وسائلها وغاياتها ومظاهرها وحقائقها ، له وحده، كما قال تعالى : « قل لله الشفاعة جميعاً » . فسؤالها إذن من غير الله ومن الشافع نفسه عبث باطل لايفيد ، والتعلق بها والاعتماد عليها أيضاً جهل وضلال. فان طلبها من غير الله والتعلق بها ليسا من أسباب حصولها ونيلها ، و إنما سبيلها الصحيح هو عبادة مالكها وطاعته والقيام له على قدم العبودية الصحيحة الصادقة كما تقدم فى فصل بحث الشفاعة الفائت . . . فلا شىء إذن لغير الله ، ولا شىء لمن يدعون من دونه. فلماذا إذن يدعونهم وهم ليس لهم مثقال ذرة فى هذا الملك، وليس لهم فيه شركة ما ، وليس منهم معين ولا ظهير لصاحب هذا الملك ، وهم بعد ذلك كله لا يملكون الشفاعة وهى الدعاء ، كما زعم المخالف ، ولا يستطيعون أن يتقدموا بين يديه بهذه الشفاعة حتى يأذن لهم و يأمرهم . فهم عاجزون عن كل

شئ ، فقراء من كل وجه ، فلا أضل ممن راح يدعوهم و يسألهم تاركا ربه وراءظهره .

يَة أخرى

وقال تعالى من سورة فاطر : « ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير . . . ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

يقول تعالى ، مخاطباً من يدعون غيره من عبيده الضعفاء العجزة : ذلكم الذى له تلك الصفات ، وتلك الشؤون التى تليت عليكم ، هو الله ربكم ورب العالمين ، له هذا الملك وحده ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا يعينه على القيام عليه و به معين . فكل الخيرات التى تطلبون لديه ، وكل الشرور التى تحذرون تستدفع به وحده ، فهو المحنوز المأمول ، وهو المدعو المسئول : وأما الألى تدعون من دونه ففقراء ضعفاء ، ما يملكون فى هذا العالم الطويل العريض من قطمير ، وهو اللفافة التى تجدونها فوق النواة ، فماذا تطلبون عندهم إذن ، وماذا ترجون لديهم ؟ وهم بعد هذا الفقر المدقع والعجز البالغ قد فقدوا حواسهم بالموت والفناء : ففقدوا آلات سمعهم ونطقهم وعلمهم فلو أنكم ظللتم ..نهم الليل والنهار بكل لسان ولغة ولهجة لما نفذ إليهم دعاؤكم ولا نداؤكم ولا شئ .ن أمركم ، ولو أن شيئا من هذا نفذ إليهم فسمعوه ووعوه لما نفعكم ذلكم ولما استجابوا لكم شيئاً ، لأنهم عاجزون عجزاً لازماً ، ولأنهم فقراء فقرا ذاتياً . على أنهم لو سمعوا وقدروا على إجابتكم ونفعكم ما أجابوكم ولا نفعوكم ، بل لتبرؤا منكم وعنفوكم . ولهذا فانهم يوم القيامة ، يوم يستطيعون القول والكلام والسماع ، يبرؤن منكم ، ويكفرون بكم و بشرككم و يصبحون لكم خصوماً لداً .

مبالغة الكتاب فى القنوط من غير الله

وقد بالغ الكتاب العزيز فى تقنيط القوم و إحاطتهم باليأس الغالب ماشاءت

المبالغة الصادقة : فجرد من يدعونهم من دون الله أولا من الملك حتى من أقله ، ثم جردهم ثانياً من آلات السماع والقدرة والعمل التى قد يعمل بها من لا يملك شيئاً ، ثم جردهم ثالثا من العون والمغوثة التى كانوا يظنونها لديهم إذا قدموا عليهم ، فاستغاثوهم ، فأنبأ أنهم سوف يكفرون بعبادتهم إياهم ، وبما تقربوا به إليهم من تعظيم وخضوع وخشوع ، فهم إذن لا يملكون شيئا ولا يستطيعون أن يملكوا . ولو قدر أنهم ملكوا لما نفعوا أبداً . فأيديهم فقيرة خالية ، وأبدانهم عاجزة واهية ، ثم لو ملكوا أو قدروا مانفعوا. فما أفقرهم وأعجزهم ! وما أضل وأغبى من دعاهم واستجداهم .

المناقضة على عبدة القبور

وفى هذا من المناقضات على عبدة الأموات مافيه . وذلك أن الله أنكر على المشركين دعاء غيره، وليكن ذلك الغير مايكون ، وذكر أن مايدعون من دونه لا يصح دعاؤه لأنه فقير عاجز عن الاجابة وعن الملك ، وذكر أنهم لا يسمعون دعاء الداعين أبداً ، وأنهم لو سمعوا ماأجابوا من دعاهم ، وذكر أنهم يوم القيامة ينكرون على من عبدهم ودعاهم ، وذكر أنهم أشركوا بعد أن ذكر أنهم دعوا غيره ، فكان هذا تفسيراً لهذا ، وكان شركهم هو دعاءهم غير الله . وواضح من ظاهر هذا كله أن المدعوين عقلاء من البشر والجان ، وليسوا جمادا مجردا كما ذكرنا مرات ، وواضح أن عبدة القبور ضالون جاهلون لأن من يدعونهم من الأنبياء والأولياء مايملكون من قطمير، ولأنهم لا يسمعون دعاءهم ، ولأنهم لو سمعوا ماأجابوهم ولا نفعوهم ، ولأنهم يوم القيامة سوف ينكرون عليهم دعاءهم وانقطاعهم إليهم ، وسوف يكفرون بشركهم بهم .

آية أخرى

ثم قال من هذه السورة : « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غروراً » .

فكأن آيات التوحيد قد أنزلت لغاية واحدة وغرض واحد وهو النهى عن دعاء غير الله والأمر بدعائه وحده ، والزراية بمن دعوا غيره ، والإيعاد للمشركين لدعائهم سواه . ومن ثم فانك تقرأ عشرات الآيات النازلة فى المشركين وفى عبادتهم الأصنام و « الأوثان » وعبادتهم غير الله فتجدها كلها عامدة إلى غاية واحدة هى الانكار عليهم أن دعوا مخلوقا ، وأن سألوا عبداً حاجة من الحاج . وتقرأ عشرات الآيات الآمرة بالانقطاع إليه تعالى فتجدها أيضا كلها رامية إلى هدف واحد ، هو الأمر بدعائه وحده لاشريك له . فجميع آيات التوحيد كأنما نزلت لغاية واحدة ، وهى أن يفرد الله بالدعاء . هكذا جاءت هذه الآية ، وهكذا جاءت جميع الآيات التى تلوناها والتى سوف نتلوها . والعجيب أنه ماجاء فى آية واحدة ، على ماأذكر ، أن الله أنكر على المشركين السجود والركوع لغيره صراحة ونصا وكل ماجاء فى هذا هو قوله «لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وقصة الهدهد مع سليمان وقول الهدهد: «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله» . أما الدعاء فكما سمعت ورأيت.

انكار الدعاء دون السجود

والأمر حينئذ دائر بين احتمالين : بين أن يقال : إن المشركين لم يكونوا يسجدون للأصنام والأوثان ولا يركعون لها ، وإنما كانوا يدعونها دعاء ويسألونها سؤالا ، ولهذا وحده كانوا مشركين عابدين غير الحق . والاحتمال الثانى أن يقال: بل كانوا يسجدون ويركعون لها كما كانوا يدعونها ويسألونها ، ولكن الله أكثر من انكار الدعاء دون إنكار السجود والركوع لأن أمر الدعاء أعظم وأجل ، ولأنه أفضل وأدل على العبودية . . . والاحتمالان كلاهما يردان على هؤلاء الذين يدعون القبور الليل مع النهار ، ثم يزعمون أنهم لم يعبدوهم ولم يهبوهم شيئاً من أنواع العبادة ، لأن العبادة فيما زعموا شىء آخر غير الدعاء والاستجداء . فاذا قيل بالاحتمال الأول ثبت أن عبادة المشركين للأصنام ، وأن شركهم بالله

كان بالدعاء دون غيره ، وهذا يرد على أصحاب القبور قولهم : إن الدعاء ليس عبادة للمدعو ولا شركا بالله . وإن قيل بالاحتمال الثانى كان أيضا أوضح فى الرد عليهم ، لأنه إذا كان الدعاء أفضل أنواع العبادة وكان أعظم من السجود والركوع فلا خلاف فى أن هؤلاء قد قدموا للأموات أفضل العبادة وأعظمها بضروب وصور لاشك فى فظاعتها وهولها . فانه لاخلاف فى أنهم يدعون أصحاب القبور ليلهم ونهارهم ، فى محضرهم ومغيبهم ، فى سرائهم مع ضرائهم ، دعاء حارا متواصلا ، ويسألونهم عظائم الحاجات وكبريات المآرب . فعلى الاحتمالين دعاة الأموات عابدون لغير الله مشركون به شركا منكرا .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة يونس : « ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون » .

يعنى تعالى أن المشركين الذين يدعون مع الله شركاء ، يشركونهم فى دعائهم وندائهم ، ويطلبون منهم مايطلب من الله ليس لهم من برهان ولا من حجة على هذا الإشراك ، وكيف يكون للباطل برهان ، أم كيف يجد داعى الاموات حجة ؟ ولكنهم يتبعون الظن ، والظن لايغنى عند الحق شيئاً ، ولكنهم أيضاً يخرصون ، وقد قتل الخراصون . ولو أنك نفضت هؤلاء الذين يدعون الأموات ويستجدونهم ، لتجد لديهم صورة من برهان ، أوشية من علم ، أو بصيصا من حجة لما وقعت منهم إلا على الظنون والتخرصات والشبهات الزمنة ، وعلى القياس الفاسد قياس البارى القادر على عباده العاجزين الجهلاء الظالمين . كقولهم أنت لا تستطيع الوصول إلى الأمير والوزير إلا بالوسيط والشفيع ، فكذلك لايستطاع الوصول إلى الله إلا بالنبى والولى وبالمقربين إليه تعالى . أو كما كان الأمر كذلك فيما بين العباد ، فلا مانع من أن يكون كذلك فيما بين العباد وربهم . ولما وقعت أيضا منهم إلا على تحميل النصوص ما لاتحمل ، وتكليفها ما لاتطيق ،

تارة بصرفها عن ظاهرها وسبيلها ، وتارة بتفسيرها التفاسير الباطلة المزوّرة ليكون منها دلائل على عبادة القبور والانقطاع إلى الاجداث : فلك أن تقرأ ماتشاء مما كتبه نصراء الأموات من كتب حاولوا بها أن يجدوا لما قالوه واعتقدوه وزوروه شيئاً ، وأن يشيدوا لما انتحلوه بناء يأوون إليه هم وأشياعهم ، فرارا من صواعق المعقول وصواقع المنقول ، فلن تجد فى كل ما يمكن أن تقرأ غير خبر مكذوب أو خبر صحيح ، ولكنه عليهم لا لهم ، أو قول مفتون ضال ، ضل عن السبيل كما ضل من جعله حكما ، وجعل قوله حجة ، وغير هذا لن تجد فيما كتبوا وألفوا وغيرَ هذا لن يكون الظن والتخرص ، وغير الظن والتخرص لن يكون الباطل والنموذج الأعلى لما كتبه أشياع القبور هو كتاب هذا الشيعى . وقد علم القارىء مكانه من العلم والبرهان ، ومكانته من المعقول والمنقول ، وقد رأى أن أفضل وأعظم ماجاء به من المناقضة لدعوة الإصلاح السلفية الموحدة هو إيراد الشبهات والاحتمالات على الكتاب والسنة الصحيحة ، وإحاطتهما بالتأويلات البشعة والشكوك فى معانى آى الكتاب التى لاحيلة فى رد ألفاظها ونصوصها ، ثم التشكيك فى معانى السنة الصحيحة المتواترة ورد نصوصها أيضا . ولهذا فقد أجرى فرس التأويل والتشكيك فى آى الكتاب العزيز الناهية عن دعاء غير الله الزاجرة عنه بأفانين من النهى والزجر، تدهش العقول الصحيحة السليمة، وقد سمع القارىء بعض هذه الأفانين . . وقد خرج الشيعى من الميدان منهوكا مضنى بشر الأسلاب وشر المغانم . ويكفى أن تعلم أنه قد أول قوله تعالى . « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » بقوله : «إن الدعاء المنهى عنه هنا هو الدعاء المساوى لدعاء الله باعتقاد أن المدعو قادر مختار مساو لله فى ذلك » أى فى القدرة والاختيار ، قال : «أو هو دعاء من نهى الله عن دعائه من الأصنام والأوثان، التى هى أحجار وأشجار لا تعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ، كما كان يفعله المشركون فى الكعبة ، أو دعاء الملائكة

ما الذى عبدة القبور غير الظن والخرص

والجن الذين كانوا يعبدونهم و يعتقدون أن لهم تأثيراً فى الكون مع الله بأنفسهم أو يشفعون عنده اضطراراً بحيث لا يرد شفاعتهم »

هذا ما اختار فى تفسير هذه الآية ، وهذا ما فعل للخلاص من دلالتها القاطعة ومن معناها المفهوم الذى لم يرضه ولم يقبله ، وهذا نموذج من أفعاله وأقواله وعدوانه على آى ربه وكتابه . وهل هذا إلا شر الظن الذى أخبر الله أن دعاة غيره يتبعونه ، وشر التخرص الذى أنبأ الله عن المشركين بأنهم يخرصونه ؟ بل ما هذا إلا دون الظن ودون التخرص اللذين كان المشركون يقيمون عليهما هيا كل دينهم وعقائدهم .

فساد هذا التأويل

أما زعمه أن الدعاء المنهى عنه فى الآية هو الدعاء المساوى لدعاء الله ، بمعنى أن المدعو مساوٍ لله فى القدرة والاختيار، فزعمه مرغوب عنه ، وذلك أنه لا يوجد مؤمن بالله على وجه الأرض يزعم أن شيئاً مساو لربه فى القدرة والاختيار، أو مساو له فى شئ من الأشياء . والمشركون كلهم لم يشركوا ولم يعبدوا غير الله إلا ليتقربوا إليه تعالى بذلك . ولهذا سمى ما يعبدون من دونه قرباناً كما فى قوله تعالى : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » وسموا شفعاء فى قوله : « و يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ». فسموا أولياء وأريد بعبادتهم التقريب إلى ربهم . ولهذا كانوا ينسون كل آلهتهم ، ما خلا الله ، فى حالة الفزع والخوف الشديد كما فى قوله : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » وكما فى قوله « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » والآيات فى هذا المعنى كثيرة معلومة . وكانوا إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ومن خلق كل شئ يجيبون بأن الخالق لكل ذلك هو الله واحداً . والآيات فى المعنى كثيرة معروفة . وكانوا يقولون فى تلبيتهم

لم يزعموا أن الأصنام مثل الله

« لبيك اللهم لبيك الخ . » . هذه أشياء لايشكون فى شئ منها ولا يتنازعون . ولكنهم كانوا مع هـذا الايمان يعبدون غـير الله بالدعاء والرجاء والخوف وما يدخل فى هذا المعنى. وقد كان هذا هو بلاءهم وذنبهم العظيم. أما أنهم كانوا يعتقدون بأن أصنامهم مساوية لله فى القـدرة والاختيار أو فى شئ من الأشـياء فكلا ، ما قالوا ذلك ولا اعتقـدوه ، ولا زعمه أحدمن المؤمنين بالله . أما ما ذكره عن النصارى وزعمه أنهم يعتقدون أن عيسى مساو لله فهذا الزعم فيه خطأ وسذاجة ظاهرة : ذلك أن النصارى لم يزعموا أن عيسى البشرى مساو لله ، وإنما زعموا أنه تعالى حال فيه . فلعيسى عندهم جانبان : جانب مادى بشرى ، وهو عيسى المولود المصلوب المركب كسائر الأجساد ، وجانب روحى لاهوتى قديم أزلى وهو الله الذى له القـدرة والسلطان المطلق : المتجليان على بدن عيسى البشرى الناسوتى . . . فعيسى غير الله عندهم بهـذا الاعتبار ، وعيسى الناسوتى ليس مساوياً لعيسى اللاهوتى الذى هو الله . هـذا هو اعتقـاد القوم ، وهـذه هى الأغلوطة الكبرى . فالله حال فى عيسى ولكنه ليس مثله ولا قريبامنه . وعندهم أن من الدلائل على هـذا الحلول أن عيسى كان يفعل أفعال الاله من الإحياء والإماتة والخلق والرزق وعلم الغيوب ، والبشر لايقدرون على شئ من هـذا فى المألوف المعتاد . فالذى فعل هـذه الأفعال من عيسى المادى الناسوتي هو الله الحال فيه تشريفاً له وتكريماو إقامةللبراهين على صدقه وجدارته بالامامة والالوهية ولهذا إذا سئلوا « أعنى النصارى » كيف أمكن أن يكون الثلاثة واحداً قالوا مثل ذلك الشمس ، هى واحدةولكنها ثلاثة : جرمها وشعاعها وحرارتها أو ضياؤها فثلاثة واحد ، و واحد ثلاثة . وهذا القول والتمثيل ، وإن كانا ظلمات بعضهافوق يدلاننا عـلى أن القوم ينحبون منحب الحـلول فى التثليث وفى تأليـه عيسى وتأليه أمه ، والحال بلا شك ليس مساويا للمحلول فيـه فلا يوجد مؤمن واحـد

قول النصارى فى عيسى عليه السلام

على وجه الأرض يؤمن بالله ثم يزعم أن شيئا مساو لله مساواة تامة مطلقة من كل الوجوه. فهذا التأويل والذى ذكره فى الدعاء المنهى عنه فى الآية تأويل مزهود فيه.

إبطال آخر لما ذكر

ثم يقال فى دفع ماذكر: لو كان قوله تعالى «فلا تدعوا مع الله أحداً» نهيا عن الاعتقاد بأن شيئاً من الأشياء مساو لله فى القدرة والاختيار لما قيل «فلا تدعوا مع الله أحداً» ولكان الواجب أن يقال لاتعتقدوا، أولا تظنوا، أولا تزعموا أن شيئاً يساوى الله فى قدرته واختياره، أو فى صفة من صفاته، أو نحو ذلك. وهذا لأن المنهى عنه حينئذ هو الاعتقاد بأن شيئاً مساو له تعالى، وليس المنهى عنه هو الدعاء. وهذا الاعتقاد، اعتقاد المساواة، أمر باطل موجب للكفر سواء أدعا غير الله معتقده أم لم يدع إلا إياه. ودعاء غير الله غير اعتقاد هذه العقيدة فيه. فلا يصح النهى عن الدعاء وهو غير منهى عنه، كما لا يصح السكوت عن عقيدة المساواة وهى منهى عنها. والنهى عن الدعاء لا يمكن أن يفهم منه أنه نهى عن أن يسوى ذلك المنهى عن دعائه بالله فى القدرة والاختيار والصفات يقينا.

خلاصة الرد

وخلاصة الرد أن نقول للشيعى: إن الدعاء عندك، أى دعاء غير الله من هذا الوجه، ليس منهيا عنه ولا ممنوعا، وإنما الممنوع المنهى عنه هو الاعتقاد بأن شيئاً مساو لله فى القدرة والاختيار والصفات، ولكن هذا باطل، لأن المنهى عنه فى الآية هو الدعاء، والدعاء غير منهى عنه عندك، والمساواة لم تذكر فى الآية وهى المنهى عنها، فيما تزعم. ولا يمكن أن ينهى عن شئ ويكون المنهى عنه شيئا آخر، ويكون هو أى المنهى عنه غير منهى عنه. لأن هذين الأمرين أعنى دعاء الشئ واعتقاد مساواته لله غير متلازمين، لأن الدعاء قد يكون منهياً عنه وإن لم يعتقد فى المنهى عن دعائه أنه مثل الله من كل وجه، ولأنه يمكن عقلا أن تعتقد فى شئ أنه مثل الله ومع هذا لاتدعوه. فهذا التفسير باطل سخيف

إبطال آخر

ثم يقال أيضاً: أى مؤمن بالله يستطيع أن يزعم أنه لا ينهى عن دعاء غير

الله إلا إذا اقترن دعاؤه باعتقاد أنه مثل الله سواء فى كل شئ ؟ وأى عاقل يقول هذا القول أو يرضاه أو يشك فى بطلانه وفساده ؟

إبطال آخر

ثم يقال أيضا : وأى عربى يفهم أن قول الله « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » نهى عن تسوية ذلك « الأحد » بالله من كل وجه ، وأنه ليس نهياً عن دعائه الذى يعرفه عامة الناس وخاصتهم ؟ ؟ إن كتاب الله نزل لعامة الناس وخاصتهم ، ونزل للإفهام والتعليم لا للألغاز والأحاجى والتضليل ، وما زعمه الشيعى فى الآية ألغاز وأحاج وتضليل . ولو أن قائلا قال : أدع فلانا ولا تدع فلانا ، لما أمكن أن يفهم أحد أن المعنى ادع فلانا الأول وادع الثانى أيضاً ولكن لا تسويه بالأول فى التكريم والتعظيم ، بل ادعهما معاً وفرق بينهما فى الاعزاز والاحترام . ولو قال هذا قائل وأراد هذا المعنى لكان ملوماً مخطئاً ملغزا مضلا عند جميع السامعين العارفين بمواقع الكلام ومناحى القول .

على أنه لو صح هذا الفهم فى الآية لصح لقائل آخر أن يقول ، إن النهى عن عبادة غير الله ، كالنهى مثلا عن السجود والركوع ، معناه النهى عن تسوية غير الله بالله ، أو النهى عن عبادته المقترنة باعتقاد مساواته لله . وهذا كزعم المخالف ، وهما زعمان من سقط المزاعم ورثيث الآراء .

تأويله الآخر للآية

وأما تفسيره الثانى للآية ، وهو أن يكون النهى خاصاً بالنهى عن دعاء الأحجار والأشجار التى لا تسمع ولا تعقل ولا تضر كما لا تنفع ، فتفسير أيضا منبوذ . وذلك لما أسلفناه من أن المشركين لم يكونوا يدعون الأحجار والأشجار المجردة يقيناً ، وإنما كانوا يدعون صور الصالحين وصور الأنبياء والملائكة والجان ، ويتعلقون بآثارهم ومخلفاتهم على قصد دعاء الصالحين أنفسهم ، كما يفعل عبدة القبور وعبدة الأبواب والأعتاب والشبابيك والعمد والأحجار والأشجار التى يزعمون أن لبعض الأنبياء والأولياء والاشياخ والأقطاب بها صلات وملابسات ومناسبات

والمدعو المقصود فى أنفس الفريقين ـ أعنى فريق القبور وفريق الأصنام والأوثان ـ هم الصالحون والملائكة والجان بلا شك ولا ريب . ولهذا فانهم لايتوجهون إلى كل جماد ولا إلى كل حجر وشجر بالدعاء والقصد والعبادة ، وإنما يخصون من ذلك ما زعموا أن له صلات خاصة بذلك الصالح أو الشيخ أو الملك أو الجان . . . فالمشركون لم يعبدوا الأحجار والأشجار المجردة لأنها أحجار وأشجار يقيناً . فلا يمكن أن يكون النهى عن الدعاء فى الآية خاصا بدعاء هذا النوع من الخلق .

إبطال آخر

على أنه لاخلاف فى أن المشركين كانوا يدعون الجان والملائكة والصالحين ، وكانوا يعبدونهم . وعليه يقال : إنه من غير الممكن أن ينهوا هذا النهى العام المطلق عن دعاء غير الله ، ثم يكون النهى عن دعاء الأحجار والأشجار خاصة دون من يدعون من الآلهة الأخرى ، ودون الملائكة والجان واللات وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، بل يجب أن يكون النهى عن دعاء هؤلاء مقدماً على النهى عن دعاء الأحجار والأشجار وصنوف الجمادات ، لأن الفتنة فيهم أعظم وأوسع وأقرب .

إبطال آخر

ويقال أيضاً من البعيد الباطل أن يقول الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » فيكون هذا النهى العام الشامل المطلق الصريح نهياً عن دعاء الجماد خاصة ، ولو كان هذا هو المراد لأتى مصرحاً به ولقيل : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله جماداً ولاحجراً ولاشجراً » ، فكان هذا نصاً لايحتمل النزاع فى المعنىّ بالآية الشريفة ينفى اللبس والإبهام والتضليل . وقوله فى الآية «أحداً» برد تفسير الشيعى رداً لاهوادة فيه ولا رفق ، وذلك أن «الأحد» عند الاطلاق ينصرف إلى العاقل لا إلى الجماد من الأحجار والأشجار . فاذا قال قائل : مارأيت اليوم أحداً ، أو ماجاء اليوم أحد ، أو ماذهب إلى هذا أحد ، كان المراد

بالأحد بهذا كله «الأحد» من العقلاء لا من الجماد الصامت ، وهذا بين ظاهر .
فاذا قال الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » لم يصح أن يقال إن الأحد فى الآية هو الحجر أو الشجر دون المعبودات الأخرى من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان بلا ريب .

تأويله الثالث للآية

وأما تفسيره الثالث للآية ، وهو أن يكون النهى خاصاً بالنهى عن دعاء الملائكة والجان الذين كانوا يعبدونهم ويعتقدون أن لهم تأثيراً بأنفسهم وأنهم يشفعون عنده اضطراراً بحيث لا يرد شفاعتهم ، فالجواب أن يقال : إذا سلم أن هذا النهى نهى عن دعاء الملائكة والجان فقد سلم النزاع والخلاف وألقى باليد ؛ لأنه هو يزعم أن دعاء الملائكة جائز مطلوب مشروع ، ومثله دعاء الجان والصالحين فاذا سلم أن الآية تنهى عن دعاء الملائكة فلا شك أن دعاء الأموات يكون كذلك منهياً عنه ، لأن الأموات ليسوا أقدر على الاجابة والاعطاء لما يُسألون من الملائكة الموهوبين من القدرة والسلطان والقوة ما لم يوهب البشر . وكذا إذا سلم بأن الآية تنهى عن دعاء الجان ، صالحهم وطالحهم ، فقد وجب عليه أن يسلم بأنها تنهى كذلك عن دعاء الموتى صالحهم وطالحهم . وذلك لأن الأموات ليسوا أخلق بالدعاء والسؤال ، وليسوا أقرب ، من الجان الأحياء . فاذا سلم أن الآية نهى عن دعاء الملائكة والجان والأموات من البشر ، فقد سلم النزاع والخلاف وأعطى بيده ، وانتهى كل شئ وخرجت كلمة التوحيد عزيزة مظفرة منصورة ، والحمد لله .

كذبه على القوم

وأما قوله : إنهم كانوا يعتقدون بأن لهم (أى للجان والملائكة) تأثيراً بأنفسهم وشفاعة لا ترد فهذا ، لو صح ، لا يكون مقيداً للنهى عن دعائهم لأن النهى فى الآية مسلط على الدعاء لا على هذا الاعتقاد المزعوم . وهذا الاعتقاد إن كان باطلا كان بطلانه مستقلا عن بطلان الدعاء ، وإن لم يكن باطلا لم يصح النهى عنه

لا مع الدعاء ولا وحده . و إذا فرض أن هذا الاعتقاد فيهم ، أى فى الملائكة أو الجان باطل ، وفرض أن دعاءهم ليس باطلا كما هو قول الشيعى المنازع وجب أن ينهى عن الباطل وحده ، وهو هذا الاعتقاد دون الحق وهو الدعاء ، ولم يصح جمع الأمرين : المنهى عنه الباطل ، وغير المنهى عنه الحق . ولم يصح يقيناً النهى عن الحق وهو الدعاء ويكون المراد بالنهى مالم يذكر وهو اعتقاد التأثير والشفاعة القهرية فيهم يقيناً . فهذا الذى ذكره لا ينفعه ذكره إن كان صحيحاً ، كيف وهو غير صحيح . وذلك لما قدمناه من الدلائل على أن المشركين كانوا مؤمنين بالله و بأنه خالق كل شىء ، آخذ بناصية كل شىء ، خاضع له كل شىء حتى أصنامهم وما يعبدون من دونه تعالى . و براهين هذا تقدمت مرات فلا يمكن مع هذا أن يعتقدوا بأن شيئاً من الأشياء يشفع عند الله قهرا وقسرا واضطراراً له ، لأن القاهر القاسر المضطر هو الأقوى ، وهو الرب الأعلى ، وهل يعتقدون بأن هنالك من هو أقوى وأعلى من الله ؟ على أن اعترافهم بأنهم شفعاء لهم عند الله كاف فى إبطال هذا المزعم . وذلك ان الشافع داع سائل من المشفوع لديه باعتراف الشيعى وهذا معنى الشفاعة . والداعى السائل خاضع المدعو المسئول ، عاجز عن أن يكون مثله فى ما شفع فيه . و إلا لو كان قادراً على قهر المشفوع عنده لما كان شافعاً ولما شفع عنده ، بل لأخذ ماأرادوما طلب اغتصابا وغلاباً واقتداراً . وهذا واضح . أما أن يكون شافعاً سائلا داعياً وهو قاهر لمن يشفع عنده غالب مضطر له ، فهذا لا يمكن أن يكون ولا يمكن أن يعتقد . والذى يكون بهذه الحال لا يكون شافعاً و إنما يكون مملياً آمرا متحكما . أما الشفاعة الحقيقية فهى سؤال ودعاء ، فيها ذل و رجاء كما قيل :

ما يلزم الشفاعة

فلوكان صلحاً لم يكن بشفاعة * ولكنه ذل لهم وغرام

لأن الصلح الحقيقى المنصف الكائن بين قوتين متساويتين لاذل فيه ولا

طاب ، وإنما يكون هذا فى الشفاعة . وهذا يعرفه كل الناس . ولهذا لايجوز أن يتخذ الله شفيعاً إلى أحد من خلقه لأن الله أعظم من كل شئ . وقد أنكر رسول الله ﷺ على ذاك الذى قال له : إنا نستشفع بالله عليك ، قائلا عليه الصلاة والسلام: « إنه لا يستشفع بالله إلى أحد من خلقه » وأقر قوله : ونستشفع بك على الله . وقد تقدم هذا .

فتصريح المشركين بأن الذين يدعونهم و يعبدونهم من دون الله شفعاء لهم عنده تعالى إيمان منهم صريح بأنهم يرونهم خاضعين له تعالى ، واقعين تحت قهره وسلطانه ، وأنه إن شاء قبل شفاعتهم و إن شاء ردها ولا يبالى . فهذا الذى زعم المخالف لا يمكن أن يكون صحيحاً .

وأما زعمه أنهم يعتقدون بأن لهم تأثيراً فى الكون فهذا يعتقده عبدة القبور فى قبورهم ومشايخهم . ولولا ذلك الاعتقاد لما دعوهم و بالوهم ولا افكروا فى دعائهم وسؤالهم . إلا أنهم يعتقدون بأن تأثيرهم خاضع لتأثير الله ، كائن باذنه وقدرته و إرادته و رضاه ، وهكذا عقيدة المشركين سواء،للدلائل التى قدمناها فى خضوع كل شئ له تعالى ، وكون كل شئ حسب إذنه ومشيئته و رضاه .

آية أخرى

ثم قال فى ختام هذه السورة : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذن من الظالمين ، و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، و إن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب برحمته من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » .

والأولياء والأنبياء والمشايخ وغيرهم يعترف هؤلاء الذين يدعونهم الليل والنهار بأنهم لا ينفعون ولا يضرون ، و يعترفون بأن من زعم فيهم النفع والضر فقد فارق دينه وافترى على الله . وحينئذ يقال لهم على هذا الاعتراف : إن هذه الآية كسواها من الآيات ، تنهى بشدة وصرامة وصراحة عن دعاء من

لاينفعون ولايضرون ، وتنبئ بأن من فعل ذلك فهو عين الضال الظالم المعتدى وعليه فدعاء الموتى من الأنبياء والأولياء والمشايخ والصالحين محرم ممنوع بنص هذه الآية ونظائرها من الآيات . وعليه فدعاتهم من الضالين الظالمين المعتدين . بلا ريب . فليس لهم مخرج ولامنفذ من هـذا إلا أن يزعموا أن الأموات الذين يدعونهم من دون ربهم ينفعون و يضرون ، و يزعموا أنهم ما دعوهم ولاسألوهم إلا رجاء هـذا النفع وذاك الضر . و إذا زعموا هـذا الزعم فقـد رجعوا إلى إثبات ماأنكروا ، وصار مذهبهم فى الأموات قائماً على الاعتقاد بأنهم ينفعون و يضرون ولكنهم يزعمون دائما لمخالفيهم ، جاهدين مقسمين، أن هذا المذهب وهذا الاعتقاد كفر وضلال جسيم ، و يزعمون لهم دائماً ، دفعاً عن دعاء الأموات وعن دعاتهم أن هؤلاء الذين يدعونهم و يسألونهم ضروب الحاج الخاصة والعامة ، لو سئلوا :هل تقولون إن الذين تدعونهم يضرون و ينفعون لقالوا جميعاً : كلا ، إنهم لا يضرون ولا ينفعون ، و إن الذى يضر وينفع هو الله وحده لاشريك له . وهم يذكرون أن هذا الجواب لا يمكن أن يختلف ولا أن يختلف فيه دعاة الموتى من الصالحين . وعندهم أن هـذا الاعتقاد ، أى اعتقاد انفراد الله بالنفع والضر هو الذى يدفع عن دعاة الأموات التضليل والتكفير ، لأن الكفر والضلال عنـدهم هو فى اعتقاد أن شيئاً غـير الله ينفع و يضر ، أما الدعاء والاستجداء فلا شئ فيه من ذلك . هذا مايقوله وما يكتبه الذائدون المدافعون عن خرافات القبور ،وخرافات العاكفين على القبور . ولـكنهم محجوجون على جميع الحالات والافتراضات . وذلك أننا نقول لهـم : أما أن تزعموا أن هؤلاء المشايخ الذين تدعونهم من دون الله ينفعون و يضرون ، وأن دعاءكم إياهم لم يكن إلا رغبة فى نفعهم وضرهم . وإما أن تقولوا إنهم لا ينفعون ولا يضرون . ولا مفر من الافتراضين . فان ذهبتم إلى الافتراض الأول فقد ذهبتم إلى ما زعمتم أنه كفر بالله وضلال كبير . و إن ذهبتم

تحريم دعاء من لا ينفع ولا يضر

إلى الافتراض الثانى وجب أن تعترفوا بأن دعاء الأموات ممنوع باطل . وذلكم لأن هذه الآية وغيرها من الآيات قد نهت بشدة وصراحة عن دعاء من لا ينفع ولا يضر ، وأنبأت بأن من دعا من لا ينفعه ولا يضره فهو من الظالمين . وأيا اخترتم فقد حججتم . والافتراض الأول ، اى افتراض أن المشايخ ينفعون و يضرون لا يمكن لمسلم الذهاب إليه وقد أبطله الله بقوله « و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . و إن يردك بخير فلا راد لفضله » وقد أبطله أيضاً فى آيات أخرى صريحة معلومة مثل قوله : « إنك لاتهدى من أحببت » وقوله : « ليس لك من الأمر شئ » وقوله « ألا له الخلق والأمر » وقوله : « قل إنى لا املك لكم ضراً ولا رشداً » وقوله : « قل إنى لا املك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله » ـ إلى غير ذلك من الآيات الصريحة الظاهرة . فهذا الافتراض لا يتحمل مسلم الذهاب إليه ولا القول به . واما الافتراض الثانى فهو ما يذهب إليه هؤلاء فى ما يزعمون . وهذه الآية وغيرها من الآيات رادة عليهم حينئذ رداً لاحيلة لهم فى دفعه ولا رفعه.

وما أجمل قوله : « و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو و إن يردك بخير فلا راد لفضله » بعد قوله : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فإنك إذن من الظالمين » . وذلك أن قوله : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك » ينصرف إليه هذا السؤال : ما الذى لا ينفع ولا يضر فلا يدعى ، وما الذى ينفع و يضر و يدعى وحده ؟ فأجاب الله عن هذا السؤال الذى لم يذكر بأن الذى ينفع و يضر هو الله وحده لا شريك له فقال : « و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو و إن يردك بخير فلا راد لفضله » فالله وحده المدعو المسؤول المرجو ، لأنه وحده النافع الضار . فالدعاء له وحده ، لأن كل ما يطلبه الداعى و يرجوه ، وكل ما يحذره و يخشاه عنده وحده . فكما كان هو المعطى المانع الضار النافع يجب أن يكون وحده المدعو المعبود المسؤول .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة الجن : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ، قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ، قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشداً ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته . ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً » .

يقول تعالى مخاطبا عباده جميعاً : مؤمنيهم وكافريهم : إن مواضع السجود والعبادة وأعضاء السجود نفسها لله رب العالمين لا شريك له فيها ولا فى غيرها مما فى السموات والأرض . وإذا علمتم أن ذلك كله لله وحده فادعوه وحده لأنه هو المالك وحده ، ولا تدعوا معه أحداً ممن لم يملكوا ولم يخلقوا شيئاً من المساجد ولا من غيرها ؛ لأن من لم يخلق ولم يملك لا يصح أن يدعى ، لأنه لا يمكن أن يجيب دعوة من دعاه ، ولا أن يعطيه شيئاً مما يسأل ويرجو ، لأنه لا يملك ، ومن لا يملك لا يمكن أن يملّك غيره بالضرورة . . . ولكن المشركين لا يعقلون ذلك ولا يعلمون ما يحسن مما يقبح . ولهذا فانه لما قام عبد الله ورسوله يدعو ربه وحده بينهم لم يرضوا ذلك منه ولم يرقهم أن يوحد وهم مشركون ، وأن يدعو رباً واحدا وهم يدعون مئات الأرباب . فاحتزبوا عليه وتألبوا على عداوته وعلى مناوأته ومطاردته ، وتكاثروا عليه حتى كادوا يضيقون عليه كل سبيل ووجه ، وقاربوا أن يكونوا عليه لبداً من ازدحامهم واحتشادهم فى آفاقه وسبله الطويلة العريضة . . . ولكن الله ورسوله لا يباليان بالمشركين الجاهلين الداعين من لا ينفعونهم ولا يضرونهم ولا بازدحامهم واحتشادهم فى طريق الحق وطريق العبد الصالح الذى لا يدعو غير ربه وخالقه . فظل عبد الله ورسوله فى مقامه يدعو ربه وحده ولا يبالى بالمعارضين ، وأنزل الله عليه الوصية الخالدة : « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً » . يقول له : قل يا عبدى لهؤلاء المشركين الداعين غيرى :

احتشاد الشرك على التوحيد

ياهؤلاء لا أدعو إلا ربى وحده ، وإن جاهدتم وجهدتم على أن أضل وأغوى ، ولا أشرك بربى أحداً فى دعائى وندائى وسؤالى ، فلا أدعو مخلوقا ، لا ملكا ولا إنسانا ولا جانا ولا غيرهم من المخلوقين المربوبين . ولا شك أن قوله هنا : « ولا أشرك به أحداً » يعنى فى الدعاء ، يعنى أنه لا يدعو أحداً غير الله ، وفى غير الدعاء أيضاً من أنواع العبادات . ولكن الدعاء هو أول ما يدخل فى هذا النفى العام الشامل ، وذلك لأنه هو المتقدم ذكره فى قوله : « فلا تدعوا مع الله أحداً » وفى قوله « يدعوه » وقوله « أدعو » . فلما أن تقدم ذكر الدعاء فى ثلاثة ألفاظ وجاء نفى الاشراك بعدُ وجب أن يكون الاشراك المنفى فى الدعاء أو فى الدعاء وفى سواه من ضروب العبادة .

أسباب منع دعوة غير الله

ثم أخذ فى شرح الأسباب التى من أجلها وجب أن يدعى الله وحده وأن لا يدعى سواه : أحد هذه الأسباب أن عبده محمداً ، وهو أفضل الخلق عنده تعالى ، لا يملك الضر ولا الرشد فقال له : « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » . وإذا كان أفضل الخلق عند الله بهذا المكان من العجز إزاء القدرة الالهية والسلطان الربانى فكيف يطمع فى سواه وكيف يدعو مخلوقا غيره لدفع مكروه وإعطاء محبوب ؟ وثانى هذه الأسباب أنه ﷺ ، وهو رسول الله وأقرب عباده وخلقه إليه ، لا يستطيع أحد من أهل السموات أو من أهل الأرض أن يجيره من الله وأن يحول بينه وبين ما يريده ويشاؤه له ربه ، وأنه لن يجد عند غيره تعالى ملتحدا ولا معاذا ومهربا يفر إليه ، ويتقى به ما يخاف ويحاذر مهما نقب وتطلب ، ومهما راح وجاء . وإذا كان لا مفر من الله إلا إليه ، ولا معاذ من غضبه إلا برضاه ، ولا خير يرتجى إلا لديه ، ولا شر يرهب ويخاف إلا ما أراده وشاءه ، فكيف يدعى سواه ، وكيف يسأل العاقل مخلوقا ويدع الله وهو يعلم أن أهل السماء وأهل الأرض جميعا لو أرادوا أن يحولوا بينه وبين شر قضاه عليه لما استطاعوا ، ولو

حذف الخلق جميعاً من الحساب

اجتمعوا على أن يعطوه مالم يرده الله وما لم يقسمه له لما فعلوا شيئاً ؟؟ فإذا كان الخلق لا يملكون الضر ولا الرشد ، ولا الخير ولا الشر ، ولا يملكون شيئا فى هذا الملك العظيم ، وكانوا جميعاً لا يستطيعون أن يجيروا مستجيراً ، ولا أن يعيذوا مستعيذا بهم ، ولا أن يجدوا لمن هرب إليهم مهربا ولا محيصا ، فكيف لا يحذفون من الحساب والذاكرة ؟ وكيف لا تحتشد الآمال والحاجات كلها على من ناصية كل شئ بيده ، وعلى من لا يهرب منه إلا إليه ، ولا يعاذ من سخطه إلا برضاه ؟ وهذا غاية فى الرد على دعاة الأموات العاكفين على الأجداث . فإن قوله «وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » نهى قاطع صارم عن دعاء المخلوقين كيف كانوا وأين كانوا ، لا يستثنى صالحا ولا طالحاً ولا ملكا ولا نبيا ولا وليا ولا إنسيا أو جنيا : لا يستثنى شيئا . فكل مايدعى سواه فدعاؤه باطل ضلال ، وداعيه مبطل ضال . وقوله : « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً » نص صريح فى أنه لا يدعى سوى الله ، وذلك أن هذا بمنزلة أن « يقال لا أدعو إلا ربى » فى النفى والايجاب ، وفى قصر الدعوة على الحق . وقوله « ولا أشرك به أحداً » صريح فى أن دعوة غير الله شرك بالله . وقوله « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » دليل على أن المشركين كانوا ينكرون على الرسول عليه السلام دعاء ربه وحده كما ينكر اليوم دعاة الأموات على أهل التوحيد دعاء ربهم وحده ، ودليل على أن أولئك المشركين كانوا ينقمون من الرسول ، ويحتشدون على عداوته إذ لم يوافقهم على دعاء غير الله ، كما ينقم هؤلاء العاكفون على القبور من أهل التوحيد إخلاصهم وتوحيدهم ، ويحتشدون على عداوتهم وعداوتهم، إذ لم يوافقوهم على دعاء غير الله : من المشايخ والأولياء والأنبياء والصالحين. فدعاة الله وحده هم إذن خلف الرسول وخلف صحبه الأبرار ، والمنكرون عليهم دعوتهم ودعاءهم إذن خلف أولئك الخصوم للنبوة ولتوحيد الله ، ونعوذ بالله من الضلال ومن أسلافه وأخلافه .

خلف الرسول وخلف خصومه

آية أخرى

وقال تعالى فى سورة المؤمنون « ومن يدع مع الله إلَهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون »

ولا خلاف فى أن كل من عُبِدَ من دون الله فهو إله لغة وشرعا ، لأن الاله منه الحق ومنه الباطل ، اى منه الاله الذى يستحق العبادة ، والاله الذى لا يستحقها فالمسيح إله عند عابديه لأنهم عبدوه ، وأمه إله عند عابديها ، والأحبار والرهبان آلهة لأنهم معبودون ، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرهم آلهة ، وهم قوم صالحون ، والملائكة آلهة عند العرب لأنهم كانوا يعبدونهم فالإله هو المعبود كيف كان وأين كان . ولهذا فالهوى ، أى هوى النفس ، أحيانا يكون إلها كما قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » . والآية التى ذكرناها تقول : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » . أى إن الذى يدعو مع الله إلها آخر هو كافر ولا يفلح الكافرون . ولا يمكن أن يكون لمن دعا مع الله إلهاً آخر برهان ، وإذن فكل من دعا أحد هؤلاء الالهة : المسيح ، او مريم ، او الملائكة أو وداً ، أو سواعا أو يغوث ، أو يعوق أو نسراً ، أو أحد أولئك الأحبار والرهبان ، فقد دعا مع الله إلها آخر لا برهان له به ، فهو واقع تحت هذا الوعيد الصارم الشديد ولا ريب فى هذا ، فانه لاشك فى أن المسيح وأمه الهان ، وان الملائكة عند العرب آلهة ، وأن هذه الأسماء المذكورة : وداً وسواعاً إلى آخرها أسماء آلهة.

من دعاء مع الله إلها

ولا شك أن من دعا أحد هؤلاء فقد دعا مع الله إلها آخر لا برهان له به . فمن قال : يا مسيح أعطنى كذا فقد دعا مع الله إلها آخر ، ومن قال يامريم افعلى من اجلى كذا فقد دعا مع الله إلها آخر ، ومن قال ياجبريل او يا ميكائيل أريد منك كيت فقد دعا مع الله إلها آخر لا برهان له به ، ومن دعا مع الله إلها فقد ذكر الله فى الآية المذكورة وعيده وجزاءه . فدعاء هؤلاء الآلهة ممنوع بهذه الآية منعا

صريحا شديداً ، والداعي لهم أو لأحدهم واقع تحت طائلة هذا الوعيد الذي هو الكفر ، والكافر لا يفلح و «لا يفلح الكافرون» كما في الآية . وإذا كان دعاء المسيح ومريم والملائكة وجميع الأحبار والرهبان الذين اتخذوا آلهة مع الله ممنوعا فلا شك أن دعاء الأموات يكون مثله ممنوعاً أو ممنوعاً أكثر ، لأنه لا يمكن أن يكون دعاء المسيح وأمه والملائكة كفراً وردة ثم يكون دعاء الرفاعي والبدوي والجيلاني والزيلعي ، وغيرهم من المشايخ ، إيمانا ودينا بل إذا كان دعاء أولئك ممنوعاً وردة كان دعاء هؤلاء أحق بالمنع وبالإيراد موارد الكفر والكافرين ، وإذا كان دعاء هؤلاء الأشياخ الموتى من الدين والاسلام كان دعاء أولئك أحق بأن يكون من ذلك .

اذا امتنع دعاء المسيح امتنع دعاء غيره من الأموات

فنحن لا نشك أن مسلما لا يمكن أن يزعم أن دعاء المسيح ودعاء مريم أو دعاء ود أو سواع ، أو دعاء اللات — وهو رجل صالح كما ذكر في التفسير — لا يمكن أن يزعم مسلم أن دعاء هؤلاء كلهم ، أو دعاء فريق منهم ، من الاسلام والدين ولا من الجائز المباح . ولا نعرف مايزعم هذا الشيعي ، هل يرى أن دعاء هؤلاء جائز ودين كدعاء الملائكة والمشايخ ، أم يرى في هذا مايراه جميع المسلمين من البطلان والتحريم . وإذا كنا لا نشك أن مسلما واحداً لا يمكن أن يجوز دعاء المسيح ومريم ولا دعاء أحد هؤلاء المعبودين الصالحين ، فلا شك أنه لا فرق بين دعائهم ودعاء المشايخ الأموات من جهة التحريم والبطلان . بل لاشك أن دعاء هؤلاء المشايخ احق بالتحريم والحظر . فان مسلماً عاقلا لا يجرؤ ان يقول : إن دعاء المسيح من الضلال والكفر ، او من الأمور الممنوعة المحرمة ، ثم يقول : إن دعاء الجيلاني أو الرفاعي او دعاء الحسن او الحسين او غيرهم من الأمور الجائزة التي امتدحها الاسلام وندب إليها المسلمين . وكذلك ايضاً لا نشك ان مسلماً عاقلا لا يمكن ان يزعم ان دعوة اللات اليوم جائزة ، لأنه قد صح

ما الفرق بين دعاء المسيح وأمه ودعاء المشايخ الاموات

عن اهل التفسير واهل السير انه كان رجلا صالحا يلت السويق للحجيج ، فلما ان مات عبدوه . وإذا كان مسلم واحد لا يمكن ان يرغم جواز دعوة اللات — وهو احد الصالحين الأموات — فما الفرق بينه وبين البدوى والدسوقى مثلا ؟ وما الفرق بين دعاء هذا العبد الصالح ودعاء هؤلاء الأشياخ الذين لا نعرف حقيقتهم، ولا كنههم ولا كنه مذهبهم وإيمانهم على وجه اليقين ؟ نحن نحسب أنه لا فرق بين هذا وهذا ، ونحسب ان كل منصف يعلم ، ويقول : إنه لا فرق . فال هؤلاء إذن لا يسيرون على طريقة واحدة وسيرة متفقة متحدة ، فلا يتناقضوا ، ويقولوا القول ويردوا نظيره وأخاه ؟ إن زعموا ان الفرق بين أولئك الأولين كالمسيح ومريم واللات وود وسواع ، وبين هؤلاء المتأخرين كالرفاعى والدسوقى والبدوى والسيدات : زينب وسكينة ونفيسة أن أولئك الأولين اتخذوا آلهة ، وأما هؤلاء فلم يتخذوا آلهة ، ودعوة الذين اتخذوا آلهة فيها إيهام ومضاهاة للمشركين الضالين بخلاف هؤلاء المشايخ الأموات ، فانه لا إيهام فى دعوتهم ولا مضاهاة فيها لأحد من المشركين ، فكان من العدل والعقل التفريق بين الفريقين ، وكان من العدل والعقل أن يقال بجواز دعاء هؤلاء المشايخ الصالحين وبمنع دعاء أولئك الاولين الذاهبين : إن زعموا هذا الزعم قلنا : هذا ، وإن كان باطلا لا يصح ، مردود بدعائهم لعلى بن أبى طالب ودعاء غيره من آله ، وقد عبد على وعبدت طوائفه من ذريته وزعموا آلهة ، وقد حرق على قوما زعموا فيه هذا الزعم وقالوا له أنت الله وهذا الشيعى صاحب هذا الكتاب معترف بأنه عبد وادعيت فيه الألوهية . وكذا الشيعة أجمع تعترف بهذا . ومردود أيضا بتجويزهم دعاء الملائكة وقد عبدوا وزعم فيهم أنهم بنات الله كما ذكر الله وكما اعترف هذا المخاصم فى كتابه بل هذا الزعم مردود بدعائهم للرسول علية السلام ولأهل بيته عليهم الرضوان فانهم قد عبدوا وزعموا آلهة من دون الله ، وزعم ان الله قد حل فيهم كما ذكر

بطلان تفريق بين الأمرين

علماء الشيعة أنفسهم كابن النوبختى فى كتابه فرق الشيعة المطبوع فى النجف ، وكما ذكر مجتهدهم الكبير فى هذا الوقت الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء فى كتابه «الآيات البينات» المطبوع فى النجف بالمطبعة العلوية، فقد ذكر هؤلاء وغيرهم أن فرقاً من المتشيعين ادعوا الالوهية والربوبية فى النبى عليه السلام ،وفى الحسن والحسين وأولادهم ، وفى فاطمة وفى جعفر وفى غير هؤلاء من قرابة النبوة

من قول مشايخ الشيعة فى الشيعة

وقد قال آل كاشف الغطاء فى كتابه المذكور « الآيات البينات »: «من أشكال الالحاد والزندقة التى نشأت فى الاسلام الغلو والارتفاع وتجاوز الحد فى الأئمة من آل البيت النبوى ، وأول من اشتهر بذلك عبد الله بن سبأ . غلا فى أمير المؤمنين على وزعم أنه هو الله ،وتبعه جماعة حضر بعضهم عند على وخاطبوه بالربوبية فحرقهم . ثم هدأ غليان الغلو إلى زمن جعفر الصادق فثار ثورة ،وكان أكبر القائمين بذلك محمد بن مقلاص المعروف بأبى الخطاب وتبعه جماعة كبيرة تعرف بالخطابية ذهب إلى ألوهية الصادق ، ثم ترقى فزعم أن الاله — يعنى الصادق — قد حل فيه : ثم تشعبت الغلاة إلى شعب كثيرة، منها العلياوية ، القائلون بأن عليا رب ، وإن فاطمة والحسين والحسن تلبيس، والحقيقة هو شخص على . ومنها المخمسة ، القائلون إن الخمسة : سلمان وأبا ذر والمقداد وعماراً وعمرو بن أمية الضمرى ، هم الموكلون بمصالح العالم من قبل الرب ، وهو على . ومنها المفوضة ، الزاعمون أن الله خلق محمداً وعليا وفوض إليهما الخلق والايجاد ، فخلقا الدنيا وما فيها. ومنها المغيرية ، أصحاب المغيرة ابن سعيد . قالوا : إن الله قد حل فى كل واحد من الأئمة وظهر بصورة على . . . ولم يزل الغلو مطرداً فى عامة الأئمة الاثنى عشر وفى خاصة كل واحد منهم . وكان آخرهم الفرقة المعروفة بالنصيرية ، أصحاب محمد بن نصير . كان يقول : الرب هو على بن محمد العسكرى وهو نبى مرسل منه . . . »

من فرق الشيعة على قولهم هم

هذا بعض ما ذكره مجتهد الشيعة محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى كتابه المذكور. وقد ذكر أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى فى كتاب « فرق الشيعة » أموراً كثيرة تقدمت فى مطالع هذا الجزء.

فاذا كان يصح التفريق بين الفريقين بما ذكروه من الفرق وجب أن يقولوا ببطلان دعوة على بن أبى طالب، ودعوة الرسول عليه السلام، ودعوة آله وقرابته الذين عُبِدُوا وزُعموا آلهة من دون الله، وزعم أن الله قد حل فيهم، وأن يقولوا أيضاً ببطلان دعوة الملائكة لأنهم عبدوا وزعموا بنات الله، كما ذكر الشيعى نفسه. ولكن كلا، هم لم يقولوا ببطلان دعوة أحد من هؤلاء. بل هم يدعونهم الليل والنهار، وينالون ممن قالوا بامتناع دعائهم، ويضعون الكتب للتدليل واصطياد الشبهات على دعائهم والاستغاثة بهم. وقد زعموا كهذا المصنف فى كتابه وغيره أنه يجوز دعاء الملائكة والاستغاثة بهم وسؤالهم الحاجات دنيوية ودينية. فهم إذن لم يبالوا بهذا التفريق ولم يعملوا به، ولم يبالوا بأن يدعوا من عبدوا وألهوا وادعيت لهم الربوبية، فهم إذن غير صادقين فى هذا التفريق ولا جادين ولا قابلين له ولا معترفين به. فعليهم إذن أن يقولوا بجواز دعاء اللات لأنه رجل صالح، وبدعاء المسيح وأمه، وبدعاء عزير والأنبياء الأولين، وبدعاء ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، لأنهم رجال صالحون، كانوا يدعون إلى عبادة الله فلما ماتوا عبدهم الجهلاء، وبجواز دعاء الصالحين الأولين من الأمم الأولى — وإن لم يقولوا بهذا ويرضوه — فعليهم إذن أن يقولوا ببطلان دعاء هؤلاء المشايخ الموتى وبطلان دعوة الرسول ودعوة غيره من الأموات، فلا يدعوا ميتا لا قديما ولا حديثاً، ولا قريبا ولا بعيدا. هذا ما عليهم أن يقولوه وأن يزعموه ويلتزموه

إما أن يقولوا بجواز دعاء اللات أو بامتناع دعاء الأموات

أما أن يقولوا ببطلان دعوة المسيح ومريم والعزير مثلا واللات وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر والصالحين الآخرين وهم يقولون بجواز دعوة الدسوقى

والرفاعي والبدوي والجيلاني وكل من هب ودب ، فجهل وضلال . فاذا سلكوا طريقة واحدة فقالوا بجواز دعاء هؤلاء جميعاً، فجوزوا أن يقول المسلم : ياعيسى أعطني ويامريم هبي لي كيت : ويا فلان أسألك العفو والعافية والشفاعة والوساطة ، وأمثال ذلك : أما إذا ذهبوا إلى هذه المقالة فقد ساعدوا على أنفسهم وصاروا بلا شك غير مسلمين باجماع المسلمين . . . وإذن لا مفر لهم من الاعتراف بأن دعاء الأموات ، كيف كانوا وأين كانوا ، من الشرك بالله ومن الجهل الفظيع .

وهذا الذي ذكرناه برهان مستقل بارع على بطلان دعوة المشايخ وسؤال الميتين إذا ماتدبره العاقل الفطن وحذقه جيداً لم يحتج إلى غيره لعرفان بطلان الرجوع إلى الموتى والاستغاثة بهم ودعائهم لنيل أمر من الأمور . . . والله الذي افترض على عباده جميعاً التوحيد قد أقام عليه من البراهين الواضحة والدلائل المتنوعة مايلائم كل عقل، ومايفهمه كل إنسان،مهما كان ضعيف الذكاء قليل الحظ من رسوخ القدم في صناعة البرهان ومعرفة الحجة . . .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة الأعراف : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ! قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » .

من أبلغ الرد على الداعين للأموات

وهذه الآية من أبلغ الرد على المشركين الذين يدعون من لا ينفعونهم ولا يضرونهم ويلسون ربهم رب العالمين الذي يرجع إليه الأمر كله . وهي أيضاً من أبلغ الرد على هؤلاء الطائفين بالقبور السائلين للأموات . وقد نوع الرد فيها

وبولغ فيه ، فقوله : «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم» صريح فى أنهم كانوا يدعون أناساً مثلهم بشرا ، ليسوا جماداً ولا أحجاراً أو أشجاراً ، كما يزعم من لا يعرف . وفى هذا أبلغ التهكم والرد على القوم والزراية بهم وبعقولهم . فإن العاقل لا يمكن أن يدعو من هو مثله فى القدرة وفى الحول والطول ليهبه ما يرجو وليُنيله ما يعجز عنه هو ، وإنما يدعو العاقل من هو أقدر منه ومن هو أعظم حولاً وطولا وسلطة وسلطانا . وذلك لأن الداعى والمدعو لا يصح أن يستويا وأن يكونا مثلين ، لأنهما إذا كانا كذلك فليس دعاء أحدهما للثانى أولى من العكس ، وليس عجز الداعى عن نيل ماطلبه من المدعو بأحق من عجز المدعو ، وليس هذا أولى من هذا بأن يكون مدعواً ، ولا هذا أحق من هذا بأن يكون داعياً وإذا عجز الداعى عن أن ينال ماطلب من المدعو فالمدعو كذلك عاجز أيضاً ، لأنهما مثلان ، وإذا كان المدعو قادراً على ماطلب منه الداعى فالداعى ، كذلك ، قادر لأنهما سيان ، فلا وجه لأن يكون أحدهما داعياً محتاجا والآخر مدعواً محتاجاً إليه ، بل يجب أن يكونا إما داعيين ، وإما مدعوين فمن دعا من هو مثله فقد بالغ فى هجاء نفسه وعقله وحاله . ومن النقص العظيم ، مع الجهل الفاضح ، أن يدعو المرء مثله ويدع الله وراء ظهره . فقوله تعالى «عباد أمثالكم» من أعظم الهجاء لدعاة البشر ومن أظهر الرد على دعاة المخلوقين .

العاقل لا يدعو مثله

آية التحدى

وقوله : «فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين» غاية فى التحدى والتعجيز لدعاة غير الله من البشر وغير البشر ، غاية الانصاف فى الجدل والخصام . وبيان هذا أن الله أولاً قال لدعاة غيره : إنكم غالطون ضالون أن دعوتم سواى عباداً مثلكم من كل وجه ، عاجزين عن نفعكم كما عجزتم أنتم عن نفعهم ، محتاجين إلى غيرهم كما احتجتم أنتم إلى غيركم ، لأنكم أنتم وهم سواء ، وانظروا إلى حقيقتكم وحقيقتهم تجدوا الأمر واضحاً . فان لم يقنعكم هذا البرهان الملموس المحسوس ،

وأصررتم على أنهم قادرون على إجابة دعائكم فدعوتموهم ، فتعالوا إلى أمر أحزم وأقطع وأبين : تعالوا إلى تجربة مشاهدة صادقة لا تخون ولا تمين ، هذه التجربة هى أن تدعوا هؤلاء الذين زعمتم أنهم يسمعون دعاءكم ويجيبونكم ، وأن تنظروا بعد هذا هل يستجيبون لكم أم لا يستجيبون . فإن كانت الأولى فقد صدقتم وهديتم ، وإن كانت الأخرى فقد كذبتم وضللتم ، وعليكم أن تتوبوا بعد ، وأن ترجعوا إلى عقولكم وفطركم التى عزبتم عنها وعزبت عنكم منذ أحقاب وأزمان « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . ولكن أين ! لقد عالجوا هذه التجربة منذ عصور وحقب فلا حاجة بهم إلى تجديدها والتحاكم إليها ، فهل استجابوا لأحد منهم ، أو هل أعطوا أحداً ما سأل ؟ هم يعرفون فى دخائل أنفسهم أنهم لم يستجيبوا لأحد ولم يعطوا سائلاً قط ما سأل ، ولكنهم يتعللون بالأكاذيب والأمانى الفوارغ . ولهذا كان هذا التحدى والتعجيز من أبين الرد على دعاة المخلوقين المعرضين عن خالقهم وربهم . وهذا هو ما يقال اليوم لدعاة المتبورين ، يقال لهم « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » .

لماذا نهى عن دعوة الاموات

وقوله « ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها » تعليل للنهى عن دعائهم وسؤالهم ، وقطع الرجاء فيهم ومنهم . وذلك لأنهم قد فقدوا آلات العمل والحياة ، فهم لا يستطيعون أن ينيلوا سائليهم شيئاً لعجزهم وقصورهم ، فهم لا يستطيعون أن يمشوا ولا أن يعملوا بأيديهم ولا أن يبصروا ولا أن يسمعوا ، لأنهم أموات ، والأموات أشباح لا أرواح فيها ، فهى جماد من حيث الظاهر ، ومن حيث الدنيا ، والحياة التى فيهم ولهم هى حياة روحية غيبية أخروية راجعة إلى أرواحهم التى مستقرها عالم الآخرة عند الله ، فلا صلات بينها وبين الدنيا وأهل الدنيا . أما أجسامهم — وهى ما بقى

عند أهل الدنيا منهم ـ فلا فرق بينها و بين الجماد الصامت من حيث العجز عن النفع والضر والعمل والحركة . فلا فرق بين من دعاها و بين من دعا الجمادات الصامتة . أما الأرواح فما أبعد منالها ومكانها عن داعى أشباحها . وما مثل من دعا هذه الجثث الميتة الموضوعة تحت التراب والرغام إلا كمثل من دعا ثوباً أو بيتاً ، لأن نبياً من الأنبياء ، أو ولياً من الأولياء ، كان قد لبسه أو سكنه يوماً من الزمان .

وهؤلاء الذين يدعون الموتى و يسألونهم حاجاتهم ومآربهم لا ينازعون فى أنهم ليست لهم أرجل يمشون بها ، ولا أيد يبطشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فهم بلا شك محجوجون بهذه الآية ، داخلون تحت تقريعها وذمها لمن دعوا من لا يمشون ولا يبطشون ولا يبصرون ولا يسمعون ولا يعملون، لأن تقريعها متناول كل من دعا شيئا هو بهذا المكان من العجز والنقص، والأموات هم ، بلا ريب ، فى صدر هذا المكان .

ترتيب نظم الآية و براعته

وقد رتبت الآية وصف هؤلاء المدعوين بالعجز والضعف ترتيباً هو فى غاية الدقة والنظام والبراعة . فقد سلبتهم أولا المشى والنقلة ، وقد بقى لهم أن يعملوا بأيديهم فسلبتهم ثانيا ذلك. فبقى لهم من آلات الحس أن يبصروا بأعينهم فينفعوا دعاتهم بالنظرات بعد أن عجزوا عن نفعهم بعملهم بأرجلهم و بطشهم بأيديهم فسلبتهم ثالثاً آلة النظر ، فهم لا يستطيعون أن يمنحوا من دعاهم ورجاهم نظرة من نظرات العطف والحنو والحنان ، فبقى لهم بعد سلب ذلك كله أن يسمعوا دعاءهم وهتافهم ، ولعلهم إذا سمعوا هذا شفعوا لهم أو توجهوا بنفوسهم و إراداتهم إلى نفعهم ومجازاتهم على تعلقهم بهم وانقطاعهم إليهم ، فسلبتهم رابعاً آلة السماع ، فأصبحوا لا يمشون ولا يعملون ولا يبصرون ولا يسمعون ، فكيف ينفعون أو يضرون ؟ وكيف يرجون ويؤملون ؟ . . . فانقطع منهم كل أمل ورجاء . وهذا

الترتيب فى تعجيزهم وتسجيل ضعفهم فى مكان من الدقة والبراعة لا يسع أجحد العقول وأكفرها وأعنفها كبرياء وجبروتا إلا التواضع إزاءها والتسليم لها بالاعجاز وبصحة الانتساب إلى الحق جلت قدرته وعظمته ، وإلا الاعطاء لها باليد ، يد الصغار والتضاؤل والتخاذل .

نتيجة ماتقدم

وقوله : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » نتيجة لما تقدم هى فى نهاية الدقة والبراعة والانسجام . ذلك أن الله قد أبان الدلائل أولا على أن أولئك المدعوين عاجزون عجزاً تاماً ، ليسوا أهلا لأن يدعوا ويستغاثوا لأنهم ليسوا قادرين على أن ينفعوا أو يضروا . وقد ذكر من الدلائل على هذا المشاهدة ، والمشاهدة هى من أصدق الأدلة الصادقة . وهذا الدليل المشاهد الملموس هو أن هؤلاء المدعوين قد فقدوا آلات العمل كلها ، ففقدوا الأيدى التى يبطشون بها والأرجل التى يمشون بها ، وفقدوا آلات البصر والسماع التى يمكن أن يروا بها حال دعاتهم ، أو يسمعوا بها هتافهم ودعاءهم . وعزز هذا البرهان القاطع بأن تحداهم قائلا : « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . وهذا برهان حسى آخر على ضلال دعاة الأموات ، وعلى أنهم فى غفلة عمن دعاهم لا يحسون معها دعاءه ولا يعلمون حاله . وبعد أن سجل على الدعاة هذا البرهان الباهر ، وعلى المدعوين هذا العجز الظاهر ، عاد عودة المنتصر الواثق من خذلان خصمه المطمئن إلى أمره ، فقال : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » أى إذا أصررتم على دعاء شركائكم وأصررتم على أنهم ينفعون ويضرون ويستجيبون فاننا لا نقر ذلك ولا نقبله بل ننكره ونرفضه ، فلا نخاف أو نرجو أحداً ممن تدعون وتخافون وتؤملون ، فان كان هذا الذى نقوله وننتحله لا يعجبكم ولا يعجب شركاءكم ، لأن فيه إعراضاً عنهم ونكراناً لسلطانهم وأمرهم ، فأجمعوا أنتم وهم على إيذائى والانتقام منى ، ولا تدخروا وسعاً ، ولا ترحمونى ، أو تنظرونى ، أو ترفقوا

قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون

بى ، لأنى أنا لم أدخر وسعاً فى نكرانكم ونكران شركائكم ، ولم أبال بكم ولا بهم فجازونى حرباً بحرب ، وجفاء بجفاء ، وإيذاء بإيذاء « فادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » . فان لم تستطيعوا لا أنتم ولا شركاؤكم شيئاً من هذا فلا شك فى فساد أمركم وضلالكم ، ولا شك فى عجز شركائكم عن أن يفعلوا شيئاً لا ضراً ولانفعاً ، لأنهم إذا كانوا عاجزين عن ضر أعدائهم وأعدائكم فلاشك فى عجزهم عن نفع أصدقائهم ، فاذا عجزوا عن ضرى أنا ، وأنا الحرب الزبون عليكم وعليهم فى زعمكم ، فهم بلا ريب عاجزون عن نفعكم أنتم وأنتم الأولياء الأصدقاء لهم فى ما زعمتم . فالذى لا يقدر على الضر لا يقدر على النفع ، والذى يقدر على النفع يقدر على الضر . فعجز هؤلاء الذين تدعون من دون الله عن أن ينالونى بسوء وقد نلتهم أنا بكل سوء — لأنى أدعو الناس إلى تركهم وترك عبادتهم ودعائهم دليل صحيح قائم على أنهم عاجزون عن كل شئ ، غافلون عمن تقربوا إليهم ودعوهم وعبدوهم ، غافلون ، كذلك ، عمن يعادونهم وينكرونهم . . . وهذا من أعظم التحدى والتعجيز لأولئك المشركين الغابرين ولهؤلاء المشركين الحاضرين .

وقوله : « إن وليىَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » تحد وتعجيز آخر لمن أشركوا بربهم وبدعائه ، وهو كالسبب لما تقدم من الاعراض عن كل شريك وعن كل مخلوق وعن كل ما سوى الله . لأن من كان السيد الأعظم والمالك لكل شئ ولياً ونصيراً له فان يبالى بغيره ، ولن يعبأ بأحد من خلقه وعبيده ، ولن يرهب أو يبالى من خدم مولاه ونصيره قريباً ولا بعيداً ، لا من أهل السموات ولا من أهل الأرض . لأن السيد الأعظم الأعلى ، المالك لكل شئ إذا كان ولياً ونصيراً له وقريباً منه — لأنه أطاعه وخدمه خدمة صادقة صحيحة — لم يبق هنالك فرق بينه وبين المقربين إليه تعالى ، الذين يُدْعَوْن ويُرجَوْن ويسألون الشفاعة والوساطة لقربهم منه وحظوتهم لديه . لأن المقربين

إليه من عباده وصفوة خلقه ما قربوا منه وحظوا لديه تعالى إلا لأنهم خدموه تعالى خدمة عبودية صادقة صالحة صحيحة . وهذا هو الذى يقرب العباد إلى ربهم ومولاهم الحق لا غيره ، لأنه ليس بينه تعالى و بين أحد من خلقه نسب ولا قرابة سوى الطاعة والعبودية . فمن أطاعه تعالى وعبده فقد أخذ حظه من القربى والزلفى لديه بقدر طاعته وعبادته . ومن لا فلا .

مثل المشرك والموحد

وفى الآية احتجاج على المشركين لطيف خفى لا يفطن له إلا من أعطى فهماً لكتاب الله . هذا الاحتجاج اللطيف مأخوذ من قوله تعالى : «إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وخلاصة الاحتجاج أن الله قد علّمَ رسوله أن يقول للمشركين العابدين غيره معه : شتان ما بينى و بينكم فى القصد والغاية والمطلب وأخذ الطريق إلى الله ، فأنا قد توليت الله وحده ، فدعوته وسألته و رجوته وخفته وأملته ، وعذت به وأفكرت فيه ، وانقطعت إليه وحده : فلم أدع غيره ، ولم أعبد سواه ، ولم أرج عبداً من عبيده ، ولم أذل لمخلوق من خلقه ، ولم أبسط يدى بسط ذلة واستكانة إلا له تعالى : فكنت كلى لله، فكان لله محياى بما فيه من أنواع العبادات والصلوات والضراعات ، وكان له مماتى بما فيه أيضاً من ضروب الآمال والرجعى والحساب والعقاب والثواب . فكنت له وحده مسلماً خالصاً ، والى وجهه بوجهى متوجهاً منصرفاً ، لم أعج يميناً ولا شمالا : لم أعج على غيره لا بقلبى ولا بشىء من قالبى ، فهو وليي وحده لا ولى لى سواه « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وأما أنتم ، أيها المشركون ، فما كنتم له تعالى وحده ، ولا كنتم لأصنامكم أيضاً ، بل أنتم شركة بين الحق والباطل ، فكان منكم ما هو لله الحق ، وكان منكم ما هو لغيره الباطل ، فكنتم مشركين : إذا دعوتم الله مرة واحدة دعوتم سواه مرات ، و إذا رجوتم الخالق تارة واحدة رجوتم ... فى تارات ، و إذا بسطتم أيديكم إلى السماء تدعون إله

السماء بسطتموها إلى الأرض تدعون سكان الأرض من الأموات الراقدين تحت الأحجار والتراب ، و إذا ارتفعتم بآمالكم وحاجاتكم إلى الله لم يغنكم هذا عن أن تهبطوا بها إلى الحضيض الأسفل تتلمسونها تحت اقدام الموتى و بين أشلاء الرمم البوالى ، و إذا سفكتم شرطة محجم دماً ، ذلا وعبودية ونسكا لله ، سفكتم بحاراً وانهاراً من ذلك ، ذلا وتقربا وتنسكا وعبودية لخلقه العاجزين الضعفاء ... فكنتم هكذا مقسمين بين الحق والباطل ولكن قسمة غير عادلة ولا منصفة ، إذ كان نصيب الباطل منكم وفيكم أعظم وأسمن من نصيب الحق ، فكنتم شر العبيد وأضل الخدم ، وكنتم مثل السوء والغباوة والبلادة للأرقاء الخائنين الغادرين الجاهلين . هذا ما كان من مثلى ومثلكم ، فشتان ما بينى و بينكم !

ليس العابد لله كالموزع بين الشركاء

وقد ضرب الله المثل لعبده المخلص الموحد ، ولعبده المشرك المعدد بقوله من سورة الزمر : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، و رجلا سلماً لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . فالرجل المملوك لعدة شركاء متشاكسين متخالفين ـ والشركاء لا بد لهم من التشاكس والتخالف ـ وهذا مثل المشرك ـ ليس هو كالرجل المملوك لمالك واحد ، السالم الخالص له من الشركة والمشاركة ، ومن الخلاف عليه والمشاكسة . وهذا هو مثل العبد الموحد العابد لله وحده الخالص له « من الشركات الأجنبية » الجائرة الملعونة ... فمن كان دعاؤه و رجاؤه وخوفه ومحياه ومماته موزعا بين فلان وفلان من الاحياء والأموات ، و بين الحق والباطل ، فليس هو مثل من كان محياه ومماته ودعاؤه و رجاؤه وخوفه وعبادته وكل شئ فيه وله خالصاً لله وحده ، خالصاً للحق لاشريك فيه للباطل ولا حظ . وذلك أن الذى يكون موزعاً بين الشركاء لابد أن يختصموا فيه ويتشاكسوا وأن يرغب كل واحد منهم فى حظ الآخر فيه ، وأن يطمع الشريك فلان فى ماصرف للشريك فلان الآخر . فمن اعتاد أن يتقدم إلى الشيخ البدوى بعدد

كذا من القرابين والضحايا والهدايا ، أو إلى غيره من المشايخ ، فبدا لذلك المشرك الصارف ماله للبدوى أن يصرف بعض ذلك أو كله إلى شيخ آخر كالشيخ الرفاعى أو الدسوقى أو الجيلانى مثلا ، فصرفه ، فلا محالة من أن يغضب ذاك الشيخ المعبود أولا لما ناله من الجفاء له والإعراض عنه إلى سواه من الشركاء ، ثم لا محالة من أن ينتقم من عبده أو شريكه إن استطاع ، ولا بد ، إذا كان قادراً ، وكان راضياً بهذا الذى يقدم إليه و إلى قبره من الهدايا والضحايا والقرابين والنذور . ومثل هذا يقال غيره من الأشياخ ولا مفر . ولهذا فان هؤلاء المساكين المفتونين بأهل القبور ، الذين يتقدمون إليهم بالنذور والهدايا إذا حدث لأحدهم حادث فلم يتقدم إليهم بما كان قد اعتاد أن يتقدم به إليهم كل عام ، فأصيب بمصيبة ، زعم أن تلك المصيبة من الشيخ فلان لأنه قد أعرض عنه وأساء معاملته إذ لم يذهب إليه ولم يهد له ما اعتاد أن يهدى ، فراح يتقى ذلك و يدفعه بالضراعات والتوسلات وصنوف الهدايا والصدقات . وهذا لأنهم يعلمون أن المشايخ لا بد أن يغضبوا إذا لم يعطوا إن كانوا حقاً يرضون بأن يعطوا ، وهم يزعمون أنهم يرضون ذلك و يجازون عليه ، ولا بد أيضا أن ينتقموا إذا أغضبوا متى كانوا قادرين على الانتقام وهم يزعمون أنهم قادرون . . . فالذى يتقدم إلى فلان وفلان و إلى الحق والباطل بالدعاء والسؤال والنذور والهدايا والصدقات والقرابين لا محالة من أن تقوم حوله معارك انتقامية وخلافية ، ولا محالة من أن يعظم فيه الخلاف و يشتد ، وأن يتسع نطاق التشاكس والصراع حوله وحول عبادته وعبوديته ، ولا محالة من أن يقترن ذلك بالظلم والعدوان إذا كان شئ مما زعموه حقا وصدقا . وامرؤ واحد لا يمكن أن يُرضى عنه جميع المشايخ بنذوره وهداياه وصدقاته وضحاياه ودعواته ، وإن انقطع إلى ذلك كله وأعطاه كل جسمه وعقله وقلبه وجهله وغباوته و بلادته ، بل وإن تحمل من ذلك مالا يطيق . فلا بد إذن من أن يقع فريسة الأوهام والمخاوف من هؤلاء الذين

تعب المشرك وأوهامه

لا يقدر على إرضائهم كلهم ، والذين لا محالة من أن يسعى لإرضائهم ماواتاه السعى والجد والعمل . فلا بد إذن من أن يعيش منغصاً مذهولا مكدود العقل والجسم والقلب والنفس ما دام يرجو فلاناً ويخاف فلانا ، ويحاول أن يرضى فلاناً بماله أو دعائه ، وأن يدفع عن ماله وولده ونفسه بطش فلان الغاضب الناقم الثائر لما لحقه من الجفاء والهجران والنسيان لروحه وضريحه ولمقامه الذى يتطلب الكسوة والمصابيح والسرج والبخور والأطياب . . . فهو أبداً شقى وجل ، وهو أبداً مذعور مرزأ متعب . فما أتعسه وأشقاه وأنصبه !

راحة الموحد واطمئنانه

وهذا من المحال أن الباطل أن يكون كعبد خلص لله وحده لا شريك لأحد فيه : لا فى دعائه ولا فى رجائه ولا فى خوفه ، ولا فى محياه ومماته ولا فى شئ منه لا سلبى ولا إيجابى . ذلك أن هذا الذى خاص لربه وحده لابد أن يرضى وأن يهدأ باله وتطيب حاله ويسكن إلى عقباه حينما يعلم أنه قد أطاع ربه وأرضاه وتقدم إليه بما أمره به من العبادات والفروض والفرائض والضراعات والضحايا المنسوكة لوجهه وحده لا ند له ولا شريك . فلابد أن يعيش سعيداً عزيزاً قويا بربه وبإيمانه وتوحيده وإخلاصه ، لا يخاف غيره ولا يبالى سواه ، ولا يرجو كائناً فى السموات ولا فى الأرضين خلاه . فيحق له حينئذن أن يقف فى وجه الزمان والوجود كله لا خائفاً ولا مذعوراً ، ويحق له حينئذ أن يسمو على كل شئ دون الله ، وأن يتناول مجد الحياة وشرف الزمان اغتصابا وكرها أو رضاً وتسليما لا سؤالا ولا التماساً ولا رجاء ، وأن يقول بحاله ومقاله أيضاً :

إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر * وبينى وبين العالمين خراب

هذان مثلاً عبد الله وحده ، وعبد الشركاء المتشاكسين المتخاصمين . فهل

يستويان مثلا ، وهذا مايدل عليه قوله تعالى : « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

لا ينصرون أنفسهم ولا غيرهم

وقوله : « والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » أسلوب آخر من أساليب النقض على دعاة غير الله ، وبرهان قاطع قاهر على بطلان أمر من راحوا يدعون ويسألون من لا يقدرون على نصر أنفسهم فضلا عن أن يقدروا على نصر غيرهم . وأى مخلوق يستطيع أن ينتصر على ربه وخالقه لنفسه أو لوليه ؟ وأى مدعو يقدر أن يدفع عن نفسه أو عن غيره ما أراده الله به وله ، أو أن يكون بمنجى من عذابه وعقابه وقضائه وقدره ؟ فالخلق جميعاً لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا نصر غيرهم ، ولا يقدرون على أن يدفعوا عن ساحتهم وجانبهم ما يشاؤه الله لهم . فما أجهل وأغبى من أمل نصراً ممن لا يستطيع أن ينتصر لنفسه ، ومن رجا دفاعاً ممن لا يقدر على الدفع عن حاله . وهذا ظاهر فى أن الانكار متجه إلى دعاء العاجزين الضعفاء الذين هم فى حاجة أبداً إلى نصرة ناصر قادر ، وهو أيضا واضح فى الرد على دعاة الأموات . وذلك أنه مما لاخلاف فيه أنهم لايستطيعون نصر دعاتهم ولانصر أنفسهم ، ولاخلاف أنهم عاجزون عن هذا النصر عجزاتاماً ظاهراً . والآية واضحة فى مذمة من دعوا من هم بهذا المكان من العجز والضعف ، ولهذا فان الآية تتجه إلى دعاة الموتى بأن يقال لهم: «والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولاأنفسهم ينصرون» وإذا قيل لهم هذا لم يقدروا على أن ينازعوا فى شىء منه ، فهم لايقدرون أن يقولوا إنهم يستطيعون نصرنا ولا أنهم يستطيعون نصر أنفسهم كما لا يقدرون أن يقولوا : إننا لاندعوهم . فهم يدعونهم وهم لايقدرون أن يقولوا إنهم ينصرونهم أو ينصرون أنفسهم . فاذا وجه إليهم إذن قوله : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون » الآية كان ذلك حقا وصدقا ، وكانوا عاجزين عن الخلاص منه .

فالآية رادة عليهم رداً صريحاً واضحاً . والاسم الموصول والضمائر بينة فى أن هؤلاء المدعوين الذين أنكر الله دعاءهم كانوا عقلاء لا جماداً كما زعم .

وقوله : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا » تيئيس بالغ منهم وقطع لكل أمل فى الاتصال بهم كيف كانوا وأين كانوا .

آية أخرى

وقال من سورة العنكبوت : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

الآيات فى النهى عن اتخاذ الأولياء

وقد ورد إنكار اتخاذ « الأولياء » من دون الله فى مواضع كثيرة مثل قوله « ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون » ومثل قوله : « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض » ومثل قوله : « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وقوله : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون » . وقوله : « مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون » إلى آيات أخرى . ولكن هذه الآية آية « العنكبوت » لا نظير لها فى تقريع من اتخذوا أولياء من دون الله ، فقد بالغت بحق فى توهين أمرهم وتوهين عقائدهم وإيهاء الأسباب التى يتعلقون بها ويعلقون بها نجاتهم وآمالهم وحاجاتهم ، وليس أذل ولا أوهن ولا أهون ممن جعل الله مثلهم كمثل العنكبوت فى الضعف والذلة والوهن والمهانة ، وجعل عقائدهم وأعمالهم التى يشيدون عليها نجاتهم ويلتمسون بها رضا الله ، ويرجون بها أن ينالوا جنته ودار كرامته كمثل بيت العنكبوت ، وهو أوهن البيوت فى الضعف والوهن والحقارة والهون والهوان . وهذا المثل الذى ضرب به الله لحال من اتخذوا الأولياء

أمثال القرآن فى توحيد الله

من دون الله من أبلغ الأمثال القرآنية ، وأمثال القرآن التى ضربت للدعوة إلى التوحيد والزراية بالشرك والمشركين كلها بهذا المكان من القوة والبراعة والشدة كهذا المثل وكمثل سورة الحج فى قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل » الآية ، وكمثل سورة الرعد فى قوله : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء » الآية ، وكمثل سورة الزمر فى قوله: « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » ، وكالمثل فى سورة النور فى قوله : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة » الآيات . وضرب مثل العنكبوت مثلا لمن اتخذوا الاولياء من دون الله يراد به أن كلا من هؤلاء يأوى إلى ركن غير وثيق ، ويشيد أمره على أوهن القواعد ، ويريد نجاته بما فيه حتفه وهلاكه ، ويتعب فيما لا يربح ولا يفيد

مثل العنكبوت

فالعنكبوت تجدّ فى بناء بيتها وتكوينه ونسجه وهندسته لتجد فيه المأوى والمستقر والقرار ، ولكن أقل شىء وأهدأ حركة وأضعف ريح تنسف هذا البيت بما فيه من بناء وبنائين ، فتخسر بيتها وعملها ، وتخسر نفسها أيضاً ، وذلك هو الخسران المبين . وكذلك المشركون بالله ، المتخذون من دونه الأولياء والأنداد ينصبون أنفسهم ويشقون أبدانهم ويرهقونها بالأعمال الجسيمة المرهقة الشاقة على النفوس والأبدان — وهم مشركون بربهم — طلباً للنجاة والسعادة ، وتقربا إلى مولاهم الحق بهذه الأعمال المشركة ، ويحسبون أنهم بذلك قد اتخذوا للنجاة أسبابها ووسائلها ، وأعدوا للقاء الله ونيل رضاه عدته . ولكن ما علموا أن الشرك يحبط العمل ، وأن العبادات الممزوجة بعبادة غير الله تذهب هباء باطلاً . . . فيهلكون بما ظنوا فيه النجاة ، ويشقون الأبد بما أرادوا به سعادة الأبد . . . فيخسرون أعمالهم ويخسرون أنفسهم ويخسرون سعادتهم ، وذلك هو الخسران المبين . وكذلك أيضاً هؤلاء المشركون يلتمسون الخيرات فى دعاء الأولياء العاجزين

ويؤملون البركات حول قبور الصالحين الهالكين ، ويقربون إلى الضريح كبشا لينا لوا بدله عجلا أو جملا أو كبوشاً ، ويضعون فى صندوق الشيخ قرشاً ليأخذوا جنيهاً أو جنيهات ، ويدعونه مرة ليأخذ بأيديهم مرات . هكذا يصنعون وهم يحسبون أنهم بذلك يكسبون رضا الشيخ وخيراته وبركاته وثواب الله ومرضاته . ولا يدرون أنهم بذلك يتعلقون بأوهى الأسباب ، ويشربون من السراب ، وأن مثلهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . ونعوذ بالله من أمثال السوء .

الشراب من السراب

بقى أن يقال : ما معنى اتخاذ الأولياء من دون الله ، وما معنى هذا الحنث العظيم ؟ والجواب أن يقال : يفسر هذا الاتخاذ وهذا الذنب قوله فى الآية : « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم » . فبعد أن ذكر ذنب من اتخذوا أولياء من دونه وزجر المتخذين لهم فسر هذا بالدعاء فقال « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء » ولو كان اتخاذ الأولياء ليس هو الدعاء لهم ، أو ليس الدعاء من معانيه لكان قوله فى الآية « إن الله يعلم ما يدعون من دنه من شئ » لا مكان له هنا ، ولكان النظم مشوشا . ونزه الله كلامه عن الاختلال والاختلاف والتشويش . فاتخاذ الأولياء من دونه تعالى معناه دعاؤهم وسؤالهم والانقطاع إليهم وإلى قبورهم انتجاعاً للرحمات والبركات كما يفعل هؤلاء العاكفون اليوم على أجداث المشايخ : يدعون ويستغيثون ويتعرضون للشفاعات والبركات المزعومة المكذوبة .

معنى اتخاذ الاولياء

ويفسر أيضاً هذا الاتخاذ ما ذكره القرآن عن المشركين وما ذكرته السير عنهم . وذلك أن الذى ذكره القرآن عن القوم وأشاد به وأعلن ملامتهم من جرائه كثيراً هو دعاؤهم غير الله وسؤالهم المخلوقين الحاجات والآمال . وقد قدمنا الدلائل على أن الكتاب لم يلم القوم على أن زعموا أن غيره تعالى يخلق أو يرزق

ويفسر هذا

أو يحيى أو يميت أو يساوى الله فى القدرة والقوة والقدم ، لأن القوم لم يزعموا شيئا من ذلك ، ولم يلمهم أيضاً أن زعموا أن مخلوقاً هو الله ، أوأن أنكروا الله أو أنكروا قدمه أو قوته أو سلطانه أو جلاله أو شيئا من كمالاته ليهبوها عبداً من عبيده ، ولم يلمهم أيضاً أن زعموا أن شيئاً فى العالم لم يخلقه الله وأنه لا يميته ويفنيه متى شاء ، لأنهم لم يزعموا ذلك ، بل ولم يلمهم أن سجدوا لغير الله أو ركعوا ، لأنهم — فيما يظهر — لم يفعلوا ذلك . و إنما لامهم على دعاء العباد وسؤال المخلوقين وأمرهم بأن يدعوه وحده و يخلصوا له الدين والعبادة. وهذا ما امتلأ به الكتاب ومادلت عليه آياته وتفاسيره . و إذا كان الكتاب إنما لام المشركين على أن دعوا غيره ، وكان إنما نهاهم عن ذلك وأخبر فى معرض الرد عليهم أنهم قد دعوا المخلوقين ، ودعوة الحق لا تكون إلا لله ، وأما دعوة غيره فهى الباطل والضلال والجهل : إذا كان هذا كله قد دل عليه الكتاب وجب أن نفسر اتخاذ الأولياء هنا بهذا المعنى : بدعائهم و رجائهم والانقطاع إليهم ، ولم يصح أن نفسر الآيات بما لا يصح و بما لم يدل عليه الكتاب ولا بما أنكره . فان القرآن يجب أن يرجع بعضه إلى بعض ، وأن يفسر مجمله بمفصله ومحتمله بيقينه وخافيه بظاهره . ومن غير الممكن أن تفسر الآية وغيرها من الآيات بما يذكره المخالفون المحرفون.

تفسيرهم للآية

فان غاية ما يمكن أن يفسروا الآية به أن يقولوا إن معنى اتخاذ الأولياء من دون الله الذى نهى عنه الكتاب هو عبادتهم . فاذا قيل لهم : سلمنا هذا ، ولكن ما هى عبادتهم ، زعموا أن عبادتهم هى تسويتهم بالله والاعتقاد بأنهم مثله فى القدرة والاختيار والسلطان مع دعائهم وسؤالهم .و يخفى عليهم أن الكتاب قد أنبأ عن المشركين فى آيات كثيرة معلومة أنهم لم يكونوا يعتقدون بأن شيئاً مساو لله فى أمر من الأمور ، ولم يكونوا يعتقدون أن شيئاً من الأشياء خارج عن سلطانه ومشيئته وأمره وقهره ، بل كانوا يقولون و يعتقدون أن الله خالق كل شئ آخذ بكل ناصية

حتى أصنامهم وآلهتهم . فهذا لا يمكن أن يكون صحيحا فى تفسير الآية ولا فى الواقع لأنه باطل فى نفسه .

أو يقولوا

أو يقولوا : إن معنى اتخاذ الأولياء هو الزعم والاعتقاد أنهم يضرون وينفعون ويتصرفون ويعطون ويمنعون مع دعائهم وسؤالهم . فاذا قالوا ذلك قيل لهم : إن هذا هو مايعتقده ويزعمه هؤلاء العاكفون على القبور فى قبورهم : فانهم يعتقدون أنهم يضرون وينفعون ويعطون ، وإذا شاءوا يمنعون . ولولا هذا الاعتقاد لما سألوهم ولما رجعوا إليهم ولما عبثوا بهم فى حالة من حالاتهم ، غير أننا لا ننكر أنهم يعتقدون أن كل مايفعلون لايفعلونه إلا باذن الله ورضاه ، ولكن هذا هو اعتقاد المشركين أيضاً فى آلهتهم . فلا فرق بين الفريقين .

أو يقولوا

أو يقولوا إن معنى إتخاذ الاولياء هو السجود والركوع لهم . فاذا قالوا ذلك قيل لهم : إن القرآن قد أخبر كما قدمنا بأن المشركين كانوا يدعون غيره ، وقد لامهم وأكفرهم على هذا الدعاء ، ولم ينبئ بأنهم كانوا يسجدون لغيره ، وما ورد هذا — فيما أعلم — إلا فى قوله « لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وفى قوله حكاية عن الهدهد « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . وأما الدعاء فجاء النهى عنه فى عشرات الآيات . وهذا يحتمل أمرين — كما تقدم ، أحدهما أن المشركين لم يكونوا يسجدون للأصنام وإنما كانوا يدعونها ويسألونها فقط ، وعلى هذا تكون عبادتهم لغير الله هى دعاؤهم غيره ، وثانى الاحتمالين أن يكونوا يسجدون للأصنام ويركعون كما كانوا يدعونها ويرجونها ، ولكن يقال على هذا كيف حدث القرآن عن الدعاء ونهى عنه وزجر ولم ينه كذلك عن السجود والركوع ؟ ولا يبقى لهذا جواب صحيح حينئذ غير أن يقال : إن القرآن قد أعظم من شأن الدعاء ونهى عنه ولام عليه كثيراً لأنه أعظم من السجود والركوع ، ولأن دعاء غير الله أقبح أنواع الاشراك ، هذا هو

الجواب الصحيح عن هذا السؤال الصحيح ، وهذا يدل على أن دعاء غير الله شرك عظيم لأنه أعظم من السجود والركوع لغيره ، ولا خلاف فى أن السجود للمخلوق شرك بالله وعبادة لذلك المخلوق . . . وأيا اخترنا من الاحتمالين فهو رد على أصحاب القبور . ولا يشك بصير بدين الله أنه إذا كان السجود والركوع لغير الله كفراً كان سؤال المخلوق الميت هداية القلب ، وغفران الذنب ، وشفاء المريض ، ورجع الغائب أدخل فى الكفر والضلال العظيم .

فلا مفر من تفسير اتخاذ الأولياء فى الآية باعتقادات هؤلاء الجهلاء فى هؤلاء الأولياء من دعائهم وسؤالهم والانقطاع إليهم رجاء شفاعتهم ووساطتهم ونفعهم وضرهم . فالآية من أعظم البراهين على بطلان الرجوع إلى الموتى وأصح الحجج على فساد أمر هؤلاء العاكفين على القبور . ومن العجيب أن تكون هذه الآية بعض مافى الكتاب من الحض على إفراده تعالى بالدعاء وبالعبادة وبكل معنى من معانيها ثم يظل المسلمون يدعون أصحاب القبور وينازعون فى دعائهم ويحاولون اختلاق الشبهات على ذلك ، ثم لا يقنعهم هذا حتى يذهبوا إلى اتهام الكتاب بهذه الفضائح الوثنية ، ويزعموا أن فيه آيات نزلت فى دعاء الموتى وفى الأمر بدعائهم . ونعوذ بالله من هذه الغوايات . . .

آية أخرى

وقال تعالى حكاية عن رسوله إبراهيم من هذه السورة : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » .

وهذا يدل على أن المشركين ما اتخذوا الأوثان ولا عبدوها من دون الحق إلا مودة وهوى لها وغراما بها ، فكأنهم قد عشقوها كما تعشق الصور والجمال الحسى الصادق أو الكاذب ، وكأنهم إنما أتوا وضلوا من طريق الحس لا من طريق العقل والقلب ، أى كأنهم رأوا الأوثان والآلهة التى عبدوها صوراً فاتنة

عشق الاصنام

مشتهاة مغرية فوقعوا فى هواها وعبادتها وتأليهها، ولم يقعوا فيها لأنهم علموا أنها تستحق ذلك لما لها من الأمر والسلطان والضر والنفع والجاه والمنزلة عنـد الله ، فهم لم يعلموا شيئاً من هذا ولم يقم لديهم برهان واحد ، ولا شبه برهان عليه ، بل لاشك أنهم ما ألهوها إلا كما يؤله العاشق من يعشقه : كلاهما سحر بما رأى وشهد لا بما علم ووجد . وهذا أمر لا ريب فيه ، فان المشركين إنما ضلوا وأخذوا من طريق العين والبصر . وذلك أنهم رأوا التماثيل الماثلة والصور الرائعة والزينات والزخارف المنصوبة عن اليمين وعن الشمال ، ووجـدوا الروائح الزكية والأطياب الفواحـة ، والبنايات الفخمة المشـيدة والهياكل العظيمة المجودة : رأوا ذلك كله حول الأضرحة والقبور وفوق الأموات فهالتهم فأكبروها وهاموا بها غراماً ، أو فى الصحيح هاموا بالزينات التى قيل لهم إنهـا فوق الشيخ فلان والولى فلان ، فتصاعد هذا الغرام بهذه الزخارف إلى عيون المشركين المساكين، ثم انتثر على قلوبهم وعقولهم وأعضائهـم ، فصار شركا وعبادة وافتتانا وضلالا كبيراً . ولولا هذه الزخارف والزينات المنثورة هنا وهناك عن يمين القبور وشمالها وفوقها وحولها لما كان ما كان من غرام الضلال وضلال الغرام . وقد فطن سدنة هذه القبور أو الأصنام لهذا السر العظيم والفتنة الـكبرى فجدوا فى تجميلها وزخرفتها وإحاطتها بما يغرى ويفتن حتى جعلوها شركا لأبصار الجهلاء المغفلين ، ومصايد لجيوبهم ونقودهم ، ليروهم مايبهرهم وما يرخصون عنده غالى أموالهم وقلوبهم وعقولهم ، وما يصطادونهم به كما تصطاد المرأة الشوهاء القبيحة شهوات الرجال المغفلين بالأصباغ والحلل الزاهية الخادعة ، وإن كان تحت ذاك الشين كله والقبح مجسما قائما . ولهذا فانك لاتجد الزحام ، حيث تتصادم المناكب والأقدام ، إلا لدى القبور المزخرفة المحاطة بالقباب والأثواب وسائر ما هناك من البـدع التى حظرها الاسلام جـدا ونادى عـلى قبحها وفسادها ، وإن كان المقبور المدفون المقصود صـغيراً ، بل

ضلال المشركين من أبصارهم لا من عقولهم

غرام الضلال

إغراء زخرفة القبور

وإن كان فاسقا أو ضالا أو كافراً بالله العظيم . وأما المعدم من الزخارف والزينات ، فلن تجد لديه من هؤلاء الضلال أحداً وإن كان من كان فضلا وعلما ونباهة شأن وشهرة ، وإن كان من أولاد النبوة وسلالات الرسل . ومن ثم فانك واجد حول ضريح البدوى ما لن تجده حول ضريح آخر من أضرحة الصالحين والعلماء الربانيين الذين يزن الواحد منهم من أمثاله الألوف لو كان هذا البدوى ممن توزن بهم الرجال . هذا مالا شك ومالا خلاف بين البصراء فيه . ولولا هذا لما عَبَدَ مخلوق مخلوقا إلا من شاء الله . وذلك أن عبادة المخلوق ليس لها ريح من برهان ولا طيف من حجة يمكن أن يقع فيه أو يخدع به إنسان. فالمخلوق ولا ـ سيما الانسان ـ أذل وأعجز وأحقر من أن يلتبس أمره وحقيقته على أحد ، فيغريه هذا الالتباس بعبادته وتأليهه ، وبابتغاء الحاجات والأرزاق بين يديه وقدميه ميتاً . ولكن هذا الخداع الذى نصبوه فوق قبره هو الذى له الفضل فى الإضلال وفى تأليه ما تحته من العظام البالية . ولأجل هذا كان نهى الإسلام شديداً عن زخرفة القبور وخلع الزينات عليها ، وكان نهيه شديداً كل الشدة عن العناية بالمقبورين والرفع من شأنهم ، وكان هذا النهى حذار هذا الضلال وحذار هذا الفساد المشهود حول الأضرحة المزخرفة والأموات المعظمين . ولكن هؤلاء الجهلاء خالفوا هذه المناهى ، وجهلوا هذه الحكم الدوالى ، فزخرفوا القبور أولا ، ووقعوا فى عبادة مازخرفوه ثانيا . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ومن الدلائل على أن القوم ماعبدوا المخلوقين إلا تعشقا وغراما أنه لا يمكن أن ينتفعوا ببرهان يقام لهم على بطلان تلك العبادة ، ولا يمكن أن يقلعوا عن ضلالهم لحجة قاهرة يرونها بأعينهم إلا القليل النزر . وذلك لأن المسألة ليست مسألة علم وبرهان ، ولا حجة ودليل ، ولا مسألة عقل وبصيرة ، وإنما هى مسألة غرام وحب ومودة . والحب والغرام والمودة لا تجدى فيها البراهين والحجج

والدلائل والعلم ، لأن ذلك مستقره العين ، والعين لا تذوق البرهانَ ولا تبصره ولا تثبت فيها الحجة ولا يقوم فيها الدليل . فما أضيع البرهانَ والحجة والعلم والدليل عند من بلاؤهم من أعينهم ! وما أقل انتفاع المحب بعقله وعلمه و برهانه فالحب فى فلسفة الواقع مرض فى العين لا فى العقل ولا فى القلب ، و إن كان شئ من ذلك فعدوى فقط من العين أو من حاسة أخرى . ولهذا فالواجب علينا إذا أردنا أن نعالج مريضا من هؤلاء المرضى أن نعمد إلى علاج عينه لا عقله ولا قلبه ولا علمه ، لأنها هى المريضة يقينا . فاذا أردنا أن نعالج مصابا بحب القبور وهوى الأموات وجب أن نجرد هذا المحبوب من زيناته وزخارفه وأن نعريه مما خدعت به العيون من القباب والأشياء الأخرى ، فنزيل كل ما هنالك من هذا البلاء وندعه هو وترابه وعظامه البالية وصمته المخيف المفزع . وهذا يكفينا و يغنينا عن كل برهان وحجة وعلم ، وهذا كاف فى تغيير القلوب ، قلوب هؤلاء المحبين على هذا الحبيب . هذا هو العلاج الصحيح الطبى كما أرشد إليه الاسلام والنبى الأكبر عليه الصلاة والسلام . و إذا أردنا أن نداوى مريضاً بحب صورة من الصور وجسم من الأجسام وجب أن نضع يده على مقابح تلك الصورة وذاك الجسم ، وأن نجردهما مما يخدع و يغوى و يغرى ، أو نبعدهما عن بصره و بريد شهوته العين . وهذا أجدى وأقرب إلى الشفاء والعلاج من محاولة إقامة البرهان أو البراهين على أن حبهما جهل وضلال ونقصان وجنون . فان النهى عادة عن مثل هذا يقوم مقام الإغراء به والحض على التزيد منه والهيام به . . . هذا هو العلاج الحاسم الصحيح فى فلسفة الأدوية العلمية النافعة ، وهذا هو العلاج الالهى الذى أرشد إليه من ختمت به النبوات ، ورسالات السموات ، عليه أزكى السلام ونوامى الصلوات .

[margin: ...ب مرض فى العين . ...ج عشق القبور]

وقال من هذه السورة أيضاً : « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له

[margin: أخرى]

الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » .

وقد جاء هـذا المعنى فى آيات وسور ذات عـدد . ومن الواضح أن المراد بالشرك فى قوله : « إذا هم يشركون » هو الشرك فى الدعاء أو فى العبـادات التى أحدها الدعاء . وذلك لأن الذى تقدم فى الآية هو قوله : « دعوا الله مخلصين له الدين » ، أى إذا ركبوا فى البحر وخشوا الغرق والهـلاك أخلصوا لله الدعاء والدين بلا ريب . فالشرك فى آخر الآية هو دعاء غير الله ، والاخلاص فى أولها هو دعاء الله وحده . وهذا لا أحسب ذكيا منصفاً يخالف فيه .

وإذا علم هذا علم أن دعاء غير الله شرك بالله وعبادة لذلك المدعو ، وعلم أن الشرك يكون فى الدعاء كما يكون الاخلاص فيه . فهذا الشرك الذى نماه الله فى آيات على المشركين حينما ينجون من أهوال البحار وأخطارها هو دعاؤهم غيره تعالى . وظاهر من جميع الآيات التى ذكرت فى هذا المعنى أن القوم لو ظلوا على ما كانوا عليه فى لجج البحار حين اشتد بهم الخوف والفزع من الاخلاص والانقطاع إليه وحده لـكانوا مخلصين غير مشركين ولا كافرين ، ولـكانوا ممتدحين غير ملومين . وذلك أن القرآن قد أنبأ فى جميع الآيات التى جاء فيها هذا المعنى أنهم فى تلك الساعات يخلصون لله ، والاخلاص هو أساس النجاة كما أن الاشراك هو أساس الهلاك والضياع الأبدى . وهذا الاخلاص هو دعاء الله وحده كما هو ظاهر من القرآن ، كما أن الاشراك هو دعاء غيره فى البحار وفى حالات الخوف والذعر وعلى هذا فالذين يدعون الله وحده ولا يأتون بعمل من أعمال الشرك هم مخلصون لله الدين كله ، والذين يدعون غيره تعالى هم مشركون وإن أخلصوا له جميع أعمالهم وعباداتهم وأحوالهم حاشا الدعاء . وهذا ظاهر لا ينازع .

هذه بعض دلائل الكتاب على منع دعاء المخلوقين . وليس هذا الذى ذكرناه وأوردناه الاغيضاً من فيض وقطرات من محيطات . وهذا الذى ذكرناه هو مادل

دلالة القرآن السلبية على منع دعاء المخلوق

عليه الكتاب من الناحية الايجابية ، وله دلالة على ذلك أخرى سلبية ، وهى أن الله فى قرآنه قد دل على جميع أصول الخيرات وأساس الأعمال الصالحة دلالات ظاهرة جلية ، تفهمها العامة كما لا تخفى على الخاصة ، ونهى عن الشرور والأعمال الباطلة المنكرة نهياً صريحاً واضحاً مفصلا يفهمه الرجل الساذج كما لا يعزب عن الرجل الممتاز العليم الحاذق . . . وما ترك اصلا من أصول الخيرات والطاعات العامة إلا وأمر به وندب إليه وأشاد بامتداحه وامتداح فاعليه . ولا ترك أصلا من أصول الشرور والمنكرات إلا ونهى عنه وحذر منه وأشاد بمذمة فاعليه وآتيه وقد ذكر فى ما لا نحصيه دعاء الله والامر بدعائه ، والإخبار بان عباده هم الذين يدعونه تعالى رغبا ورهباً فى السراء والضراء وفى جميع الحالات . وذكر أدعية الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباده ، وضراعاتهم وتوسلاتهم بأسمائه وصفاته الحسنى ، وأورد من ذلك ما أورد بأساليب مختلفة وعبارات مختلفة فى سور عديدة كثيرة ، فأورد أدعية أبوى البشر آدم وحواء ، وأدعية نوح أول رسول إلى أهل الأرض بعثه الله ليدعو إلى التوحيد وليذود القوم عن الشرك والضلال والفند ، وأورد أدعية موسى كليم الله ومصطفاه ، وأدعية خليله إبراهيم ، وأدعية غير هؤلاء من الأنبياء والمرسلين ، وأورد نماذج كثيرة من أدعية أتباعهم المؤمنين ، وما كانوا يقولونه فى حالات سرائهم وضرائهم ، كما ورد أدعية خاتم الانبياء وأدعية أتباعه المسلمين : أورد أفانين ونماذج كثيرة من أدعية هؤلاء العباد الخيار المصطفين الأبرار الذين هم صفوة الصفوة من بنى الانسان ، بل صفوة هذه الخليقة وسرها العظيم وشرفها المرموق . . .

أدعية الانبياء واتباعهم

ولكن مع هذه الدلالات على جميع الخيرات ، ومع إيراد كلمات الخيار من الخليقة وإيراد ألفاظ دعواتهم لله وآدابهم فيها ، لا نجد فى كتاب الله لفظا واحداً يأمر بدعاء غير الله ويأمر بسؤاله وبالرغبة فيه والرهبة منه ، ولا شيئاً

مما نراه اليوم قائما فوق الاضرحة والأصنام مما يدعى هؤلاء المخالفون أنه من الاسلام ومن دين الله ، كما لا نجد أن أحد هؤلاء الخيار المصطفين الذين ذكرت دعواتهم للاقتداء بهم والنهج منهاجهم فيها دعا غير الله من الأموات وسأله حاجة من الحاجات أو عاذ بقبره وضريحه عند رغبة أو رهبة ، أو سافر إليه ، أو دعا الله بجاهه ووسيلته ، أو استشفع به ، أوطلب منه الدعاء والشفاعة . وهذا ما لا شك فيه ولا نزاع . فانه من المحال والعبث الباطل أن تتلمس فى كتاب الله آية واحدة تأمر بدعاء الأموات ، لا على طريق التصريح والجلاء ولا على طريق التلميح والإيماء ، لا باسلوب الاشارة ولابالنص ، أو تدل على أن أحد هؤلاء الأنبياء أو أحد الصالحين ، فعل شيئاً من هذا فى حالة من حالاته أو رغبة من رغباته . فليس فى كتاب الله ما يأمر به أو مايجيزه ، وليس فى دعوات الأنبياء والصالحين ما يدل على جوازه أو الأمر به أو استحبابه . فان كان ذلك خيراً وديناً ، كما زعموا ، فلماذا خلا منه كتاب الله ، وقد جمع أصول الخيرات وقواعد الأعمال الصالحة ؟ وكيف خلت منه أقوال الأنبياء والصالحين وأفعالهم وأدعيتهم ، وما من خير إلا وقد فعلوه إن كان فعليا وقالوه إن كان قوليا ؟ وليس لهذ السؤال إلا أحد جوابين : أحدهما أن يقال إن هؤلاء قد دعوا غير الله من الأموات والصالحين وتوسلوا بهم واستغاثوهم وسألوهم كل ما يدعيه هؤلاء المخالفون ، ولكن الله مع هذا لم يشأ أن يذكر منه شيئاً فى كتابه مع ذكره جملا كثيرة من دعواتهم وضراعاتهم وتوسلاتهم الصحيحة المقبولة .وثانى الجوابين أن يقال : إن أحداً من هؤلاء لم يفعل شيئاً من هذا ، ولكنه على رغم ذلك طاعة وقرب إلى الله . . .

لما ذا لم يفعله الانبياء والصالحون

والجوابان باطلان لا خير فيهما : أما الأول ــ وهو القول بأن الأنبياء والصالحين فعلوا هذه الأمور كلها ودعوا الأموات واستغاثوهم وصنعوا جميع ما يصنعه العاكفون اليوم على القبور ، ولكن الله لم يذكر عنهم هذا ولم يذكر منه شيئاً ــ

الجوابان باطلان

فهو جواب باطل فاسد لاخير فيه. وذلك أن الله قد أنزل كتابه للهداية، وقد حدث بأحوال الماضين وأقوالهم وأفعالهم للعبرة والأسوة والقدوة. فلا يمكن — وهذا من حكمة ذكر قصص الأولين فى القرآن، ومن حكمة إنزال الكتاب — ألا يذكر هذا وهو من الدين، والناس فى حاجة شديدة إليه، وفى ظمأ عنيف ملح إلى النهل والارتواء منه. وهل يمكن فى الحكمة أن يذكر عنهم ما الحاجة إليه غير ماسة ولا شديدة، وما لا خلاف فى جوازه وحسنه، ثم يهمل أن يذكر عنهم شيئا كثيراً ولا قليلا من هذا النوع الذى لو ذكر منه شيئاً صريحا عن أحد هؤلاء الماضين لكان قاطعاً كل نزاع، حاسما كل شك وريب؟ أو هل يمكن فى سنة الله وحكمته أن يورد دعوات هؤلاء الأنبياء والصالحين فى مواضع كثيرة من كتابه بأساليب واضحة ظاهرة ثم يحذف منها دعاءهم الأموات واستغاثتهم إياهم وتوسلهم بهم؟ وهل يكون التلبيس والتضليل غير هذا؟ تعالى الله وتعالى كتابه عن التضليل وإرادة التلبيس. ولا ريب أن حذف هذا من دعواتهم المذكورة فى القرآن — لو كان حقا هذا القول — متعمد مقصور. وهل يمكن أن يحذف هذا النوع من الدين تعمدا وقصداً والحاجة إلى الإبقاء عليه، كما يرى، ماسة شديدة؟ فلا جرم أن هذا الجواب باطل منكر مكذوب.

الجواب الثانى

وأما الجواب الثانى — وهو القول بأنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك وهو مع هذا جائز ودين يثاب عليه فهو جواب باطل أيضاً، لأن الأمر الذى يرغب عنه جميع الأنبياء والصالحين فى جميع العصور والأزمان والحالات لا يمكن أن يكون مرغوبا فيه عند الله، ولا يمكن أن يكون ديناً لله، بل الأمر الذى يدعه ويرغب عنه جميع الانبياء والصالحين المقتدين بهم التابعين لهم لامحالة من أن يكون أمراً باطلا وضلالا وشراً، ليس من الدين ولا من العقل ولا من الذوق، ولا مما يتقرب به إلى الله. والمرء الذى يحاول أن يسبق هؤلاء جميعاً إلى الخيرات والصالحات والطاعات

وأن يعمل مالم يعملوه من ذلك مصاب فى عقله أو فى دينه أو فيهما معاً : إذلاخير يقرب إلى الله و يدنى إلى رضاه ، و يباعد من غضبه ومقته وطرده إلا وقد أخذ هؤلاء الأخيار منه بالنصيب الوافر والسهم الراجح الرابح . ولن تجد سابقا إلى الخيرات إلا أن يكون على آثارهم وعلى هديهم ومنهاجهم يسير و يسعى . ونحن لانرتاب فى أن كل عمل يتركه هؤلاء الصفوة هو عمل باطل منكر مقصٍ عن الله وعن رضاه . ولانشك أنه لا يمكن أن يكون خيراً فيفوتهم ولا صالحاً فيهجروه ، وغاية الصلاح عندنا والتقوى الاقتداء بهم فعلا و تركا ،قولا وعملا ، وغاية الظلم والجهل والخروج على دين الله الجرأة على مخالفة إجماعهم والتقدم بين أيديهم إلى الامام أو التخلف عنهم إلى الوراء . هذه حقائق لاينازعها المسلمون . فالجواب الثانى أيضا باطل منكر . فالجوابان : الأول والثانى باطلان . فعدم ذكر القرآن لشئ من ذلك عنهم دليل ، إذن ، ظاهر على أنهم لم يفعلوه قط ، وعدم فعلهم له ، إذن ، دليل ظاهر على أنه ليس من دين الله ولا من الذوق ولا من العقل والعلم . فهذا دليل سلبى ظاهر قاهر بعد الدليل الايجابى من الكتاب على بطلان دعاء الأموات ، والاستغاثة بهم وسؤالهم والاستشفاع بهم . فللقرآن دلالتان على بطلان ذلك دلالة إيجابية ، ودلالة سابية ، فالدلالة الايجابية هى الآيات الآنفة فى النهى والزجر البالغ عن دعاء المخلوقين وسؤال غير الله حاجة من الحاجات ، والدلالة السلبية هى أن القرآن لم يرشد إلى ذلك ألبتة ، وهى أيضاً أن الأنبياء والصالحين الذين أنبأ الله أنباءهم ، وحدث أحاديثهم ، وحكى دعواتهم ، لم يفعلوه فى حالة من الحالات ،ولا فى رغبة من الرغبات ، لأننا لانشك أن هذا لو كان ديناً لأمر به القرآن ولفعله الأنبياء والصالحون الاولون .فعدم أمر الكتاب به،وهو الآمر بكل خير ، وعدم فعل الخيار الماضين له ،وهم قد فعلوا أطراف الخيرات وأشتات الصالحات ، برهانان على أنه ليس من الدين ولا من الطاعة والاسلام ، ولاسيما

دلالتا القرآن على بطلان دعوة الموتى

يقرب إلى الله . فالقرآن دال على بطلان هذه المخازى ، دال على تجافيها عن الحق والدين من ناحيتين . كلتاهما ظاهرة باهرة ، وكلتاهما قوية جلية . والله العليم بكل شئ .

اعتراض على ذلك

﴿ اعتراض على نهى القرآن عن دعاء غير الله ﴾

فان قيل إن آيات الكتاب التى ذكرتموها تدل حقا دلالة ظاهرة على النهى عن دعاء المخلوقين ، وعلى الزجر الشديد عن سؤال غير الله ، وهذا مالا يستطيع أن ينازع فيه إنسان منصف ، غير أن الأخذ بهذه الظواهر باطل فاسد عندنا عندكم وعند جميع الناس ، فالذين يدعون الأموات ويجيزون دعاءهم لا يأخذون بهذه الظواهر والذين يقولون ببطلان ذلك وحرمته وجرم فاعليه لا يأخذون بها أيضا ، فالفريقان ، المجيز والمانع ، لا يلتزمان هذه الآيات ، ولا يحافظان على العمل بها ، بل كلاهما مخالف لها ، خارج عليها ، عامل بخلافها ، داع إلى مخالفتها ، قائل بهذه المخالفة ، ملتزم لها . ذلك أن الناس جميعا يدعون غير الله من الأحياء القادرين على الاجابة ، ويجيزون هذا الدعاء ، لا يختلفون فيه ، ولا يتنازعون فى أن الأديان كلها تجيزه وتتسع له نصوصها ومعانيها ، فالذين يقولون : لا تدعى الأموات ولا يصح دعاؤهم يقولون بجواز دعاء الأحياء بل ويدعونهم والذين يقولون بجواز دعوة الأموات يقولون بجواز دعوة الاحياء أيضا . وهؤلاء وهؤلاء لا يرون أنهم بهذا الدعاء ، أعنى دعاء الأحياء ، خالفوا هذه الآيات التى ذكرتموها والتى جهرت بتحريم دعوة المخلوقين والزجر عن دعاء غير الله ، بل لا يفكرون أنهم ، إذ يدعون الأحياء ، يفعلون ما يمكن أن تكون تلك الآيات شبه دلائل على منعه وبطلانه . والفرق بين الفريقين : الفريق المجيز دعوة الموتى ، والفريق المانع ، أن هؤلاء أجازوا دعوة المخلوقين جميعا : الأحياء منهم والأموات ، أما أولئك فأجازوا دعوة الاحياء دون الأموات ، ولكنهما متفقان

على دعوة المخلوق ودعوة غير الله ، متفقان على مخالفة ظواهر هذه الآيات الزواجر عن الالتفات إلى مخلوق ما بدعوته ولندائه .

نتيجة الاعتراض .

وحينئذ يقال : إن كانت الآيات المذكورة رداً على دعاة المخلوقين الموتى ومنعاً صريحاً من دعائهم ، فهي أيضاً رد على دعاة المخلوقين الأحياء ومنع صريح لدعائهم ، وإن لم تكن رداً على هؤلاء لم تكن ردا على أولئك ، وإن لم تكن إبطالا لهذا النوع من الدعاء فليست إبطالا لذاك النوع منه ، لأن هذا كله سواء بالنظر إلى ظاهر الآيات ودلالتها ، فإنها لم تقل ادعوا الأحياء دون الأموات ، ولم تقل إن دعاء الموتى محرم عليكم دون دعاء الأحياء ، ولم تقل : لاتدعوا الاموات بل قالت : « فلاتدعوا مع الله أحداً » « والأحد » يشمل الحي والميت ، وكذلكم جميع الآيات التي أوردتموها لم تفرق بين الفريقين ، ولم تأب الالتفات إلى فريق دون فريق ، ولا إلى طائفة دون طائفة ، بل نهت عن الجميع وأمرت بالكف عن كل ماخلا الله ، وزجرت عن الافتقار في عبد من العباد ، آمرة بالانقطاع إلى الخلاق وحده وإخلاص الحياة والممات والصلاة والنسك وكل عبادة له لا شريك له ولا ند .

فالجميع إذن قد تركوا الآيات في توحيد الله بالدعاء وخالفوا نصوصها ، والجميع قد ردوا العمل والأخذ بها ، فالعمل بظاهرها متروك عند جميع الناس لا تختص بذلك طائفة دون طائفة . وإذا كان ذلك كذلك لم يصح لكم أن تحتجوا علينا بما هو حجة عليكم وبما هو متروك الظاهر وبما لا يصح العمل به عند أحد من المسلمين .

إن قيل هذا قلنا هذا اعتراض مشهور قديم توارثه أنصار البدعة وتناقلوه بعبارات مختلفة ، ودونوه في كتب مختلفة انتصروا فيها لدعوة الأموات والعكوف على القبور وقد يعرضونه بأساليب أخرى غير هذا الأسلوب كأن يقولوا

الاعتراض أسلوب آخر

مثلا : لو كانت دعوة الموتى شركا وضلالا لكانت كذلك دعوة الأحياء ، لأن الدعاء بالنظر إلى حقيقته إما أن يكون عبادة للمدعو ، وإما ألا يكون كذلك . فإن كان عبادة فالمدعو معبود سواء أكان حياً أم كان ميتاً ، وإن لم يكن عبادة فالمدعو غير معبود سواء أكان حياً أم ميتا ، واختلاف المدعو لا يغير حقيقة الدعاء ، لأن حقائق الأشياء ثابتة لا تحتاج فى ثبوتها إلى شئ غير كونها حقائق ولكن لا شك أن دعاء الحى ليس عبادة له وليس ممنوعا ، فدعاء الميت كذلك ليس عبادة كما ذكرنا .

جواب الاعتراض

ويجاب عن هذا الاعتراض بأمور كثيرة منها أن يقال : إن الآيات نفسها قد فرقت بين الفريقين : فريق الأحياء وفريق الأموات ، وفرقت بين دعائهما ، ولوحت إلى جواز هذا وامتناع ذاك ، وبطلان دعاء دون دعاء . وهذا مذكور مفهوم من كثير من الآيات التى نهت عن دعوة المخلوق ونعت على الداعين وأطنبت فى هجائهم وفى نعت غبائهم . وقد قال الله : « إنك لا تسمع الموتى » وقال : « وما أنت بمسمع من فى القبور » . وهذا تصريح بأن الذين لا يسمعون دعاء من دعاهم هم الموتى الذين هم فى القبور . وقد أفهم هذا أن غيرهم من الأحياء ليسوا كذلك . وقال تعالى : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا » وقال : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم » وقال : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك » الآية . . وواضح من هذه الآيات أنها لا تشمل الأحياء الذين يقدرون على ما يسألون ، والذين ينفعون ويضرون بمقدار طاقاتهم وقواهم التى أعطاهم الله إياها ، ليعملوا ولينفعوا من يستحق النفع ، وليضروا من يليق به الضر ، وليتعاونوا على الخير والبر والتقى . فإن الأحياء ، بالاتفاق بيننا وبين هؤلاء المخالفين ، يضرون وينفعون بإذن الله ، فلا يمكن أن يكون دعاؤهم من هذا الدعاء المنهى عنه المنبأ بأنه لا يجدى شيئاً . وقال : « ومن أضل

تفريق بين الأحياء والأموات

ممن يدعو من دون من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وقال « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم »

النهى عن دعاء الأموات دون الأحياء

هذه نصوص صريحة فى أن النهى عن دعاء الأموات الذين لا يسمعون الدعاء ، والذين لا يستجيبون لمن دعاهم وهتف بنجواهم ، والذين هم غافلون عن استجدائهم والذين هم فى موت عميق وعجز تام . وليس بممكن أن يعنى بها الاحياء القادرون عادة ، ولا أن يعنى بها إبطال دعائهم . وذلك لأن هذه الأوصاف فى الآيات لا تتناولهم لأنهم يسمعون ويجيبون من دعاهم ، ولأنهم قد يعيذون من استعاذهم ويهبون مستوهبهم . فالنهى فى القرآن منطلق إلى دعاء الأموات دون الأحياء ، وإلى سؤال العاجزين دون سؤال القادرين . وقال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » الآيات . ومعلوم أن الذين لا يستجيبون لمن دعاهم والذين يصح أن يتحدى بعجزهم عن الاجابة هم الأموات دون الأحياء إذ الأحياء يستطيعون أن يجيبوا دعاتهم بالمشاهدة والبداهة ، فلا يصح أن يقال فى النهى عن دعوة الأحياء وفى تعجيز من دعاهم وتضليله : « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » ولو قيل لهم ذلك لدعوهم ، لابطال هذه الدعوى ، ولأجابوهم ، بلا ريب ، بما أعطاهم الله من القدرة والقوة . . . فالأوصاف التى ذكرها القرآن لمن نهى عن دعائهم لا تصدق على الأحياء البتة . وإنما تصدق على الأموات . فان الذى ذكر من أوصاف هؤلاء المدعوين الذين نهى عن دعوتهم هو أنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولو سمعوا لا يستجيبون ، لأنهم فى غفلة تامة وانقطاع تام . وهذه الصفات هى صفات الموتى . وقد جعل الله فى كتابه هذه الأمور هى الحجة والبرهان على بطلان دعاء أصحابها وبطلان الانقطاع إليهم والرغبة فيهم . وقد دل على

هـذا كثير من الآيات المتقدمة . ومعنى ذلك أن هؤلاء المدعوين لو لم يتصفوا بهذه الصفات العاجزة لصح دعاؤهم ، ولما كان منكراً ممنوعاً ، ولما كان دعاتهم جاهلين ضالين .

فالقرآن نفسه صريح فى التفريق بين الفريقين : الأحياء والأموات ، والقرآن نفسه لم يدل على النهى عن دعاء من يقدرون على الاجابة والعمل والنفع والافادة من أهل الحياة والقدرة والاستطاعة المعتادة ، ولم يدل إلا على النهى عن الانقطاع إلى من فى القبور والنهى عن دعوتهم ورجائهم وتأميلهم ، لأنهم مرتهنون بأحكام الموت ، مقطوعة الصلات والأسباب بينهم وبين أهل الحياة من أهل الدنيا . فالقول بأن القرآن قد دل على النهى عن دعاء الأحياء والأموات معاً قول باطل، والزعم أن القرآن لم يفرق بين دعاء الفريقين فى نهيه زعم كاذب باطل أيضاً .

جواب آخر عن الاعتراض

ومن الأجوبة عن هذا الاعتراض أيضاً أن يقال : لا يصح أن تكون هذه الآيات الناهية عن دعاء المخلوقين شاملة الأحياء يقيناً .وذلك أن هذه الآيات حينما كانت تتنزل على عبد الله ورسوله محمد ﷺ كان يتنزل عليه أمثال قوله تعالى فى دعاء الحى والاستغاثة به واستنصاره : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر »« فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه »« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا » « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » « وإذ استسقى موسى لقومه — إلى قوله — وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض — إلى قوله — اهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم» ومن هذا الباب تلك الآية التى استدل بها من لم يوهب الفرقان بين الحق والباطل على جواز دعوة الموتى والاستغاثة بهم ، والآية هى ما قصه الله عن تلك

المرءة الصالحة من قولها لنبي الله موسى عليه الصلاةوالسلام: « إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . وقد استدل هذا المستدل أيضاً بقول الرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه إلى هرقل عظيم الروم : « أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام » قائلا : هذا الرسول يدعو ملك الروم وهو رجل كافر بالله فكيف لا يجوز دعاء الانبياءوالصالحين . . .وهذا الاستدلال منهذا المستدل قائم على أنه لا فرق بين الاحياء والاموات . فكان هذا الاحتجاج من فضائح الغلاة في القبور، ونعوذ بالله. وأمثال قوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر »وقوله « والذين في أموالهمحق معلوم للسائل والمحروم » وقوله : « و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب » — إلى غير ذلك مما لا يحاط بعدده. فقدكان هذا يتنزل على رسول الله وعلى المسلمين حينما كان يتنزل عليهم ذلك ، أى كان القرآن ينهى عن دعاء الخلق بتلك الآيات التى أوردنا بعضها ، ويجيز دعوة الاحياء بتلك الآيات التى ذكرنا قسما منها ، فكان، ولا بد ، لكل من النوعين مورد خاص به ،وكان لكل من الآيات : الناهية عندعاء الخلق ، والمجيزة دعوة الاحياء منهم القادرين على الاجابة مذهب .ولايصح أن تكون الآيات الناهية تعنى ماتعنيه الآيات المجيزة المبيحة ، ولا أن تريد الآيات المجيزة المبيحة ما تريده الآيات الناهية الحاظرة ، ولا يصح أن يدعى أن بينهما تعارضاً واختلافاً ، لافى الظاهر ولا في الباطن ، بل يجب أن يقال إن لكل منهما تأويلا خاصاً به صحيحاً لاريب فيه . وقد نظرنا فوجدنا الآيات المجيزة دعوة الاحياء القادرين آيات صريحة ظاهرة بينة المقصد والدلالة ،لايصح أن يختلف ولا أن يشك فيها ولا في تأويلها ، فكانت دعوة الأحياء القادرين جائزة بنصوص القرآن وآياته الصريحة وباجماع الناس، خلا مايستثنى من ذلك ، فكان هذا مفروغاً منه ومن الاحتجاج فيه وله وعليه . ثم نظرنا ثانياً في الآيات الناهية عن دعاء الخلق

نهى القرآن عن هذا حينما كان يجيز ذلك

إطلاقا و إجمالا ـ وقد علمنا أن الخلق إما أحياء وإما أموات ، لا ثالث لهما ـ فقلنا : إن هـذه الآيات الناهية لا يمكن أن تعنى النهى عن دعوة الاحياء لأن القرآن قـد أجاز دعوتهـم وأمر بها أحياناً . فعلمنا أنه لا يمكن أن يكون فى هذه الآيات نهى عن دعـوة أحـد فريقى الخلق ، وهو الفريق الحى الموجود بيننا وتحت أعيننا ، فـلم يبق إلا الفريق الآخر ، وهو فريق الاموات . فعلمنا علما لا شك فيه أن تلك الآيات نهى صريـح واضح عن دعاء الأموات وعن سؤالهم والاتصال بهم هـذا النحو من الاتصال . فكانت هذه الآيات نصوصاً صريحة فى تحريم دعوة الموتى دون الاحياء . فعلمنا من هذا كله أن الاعتراض المذكور لا محـل ولا قيمة له ، والحمد لله على ذلك .

ولا ريب أن المسلمين لم يكونوا يظنون أن الآيات الناهية عن دعاء الخلق إطلاقا و إجمالا ، يعنى بها النهى عن الاستعانة بالحى القادر على العون على البر والتقوى ، أو النهى عن سـؤاله ما أجاز الشرع سؤاله إياه من العلم والهـدى والشؤون الاخرى ، وهم يتلون ما أنزل الله فى هـذا من الإباحة والندب والأمر أحياناً كثيرة ، فلم يكونوا يشكون فى أن النهى عن دعوة الخلق ليس متناولا من أمر بدعائهم وسؤالهم والاستعانة بهم ، ولا متناولا من كانوا قادرين على نفع داعيهم وسائلهم إذا ما أخرج من ذلك ما حرم لأسـباب أخرى صحيحة ، ولم يكونوا يشكون فى أن النهى خاص بمن لم يبح دعاؤهم و بمن حرم الرجوع إليهم من الأموات العاجزين . فلا ريب أن من ادعى أن ظاهر القرآن النهى عن دعاء الأحياء إلى الخيرات والطاعات ، أو النهى عن الاستعانة بهم على البر والتقوى وسؤالهم ما فيه نفع بلا ضرر فقد غلط غلطاً فاحشاً ظاهراً .

جواب ثالث عن الاعتراض

ومن الأجوبة أيضاً عن الاعتراض المذكور أن يقال لا مانع من أن يقال إن الله سبحانه وتعالى قد أراد من عباده أن يكونوا خالصين له وحده لا شريك

نه فى شئ منهم ، لا فى دعائهم ولا فى أعمالهم ولا فى معانى قلوبهم وعقولهم وعقائدهم ، لا فى ظواهر ذلك ولا فى بواطنه ... فأراد منهم أن يدعوه وأن يسألوه وأن يخافوه و يرجوه وحده وأن يخصوه بكل معنى من معانيهم ومظهر من مظاهرهم وعمل من أعمالهم الظاهرة والباطنة . وذلك لأنه وحده هو الذى خلقهم : خلق أجسامهم وأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وكل مايحتاجون إليه من شئ : خلق كل ذلك وحده ، فكان كل شئ منه تعالى ابتداء و بقاء ، وكان كل شئ راجعا آيبا إليه . وقد كان من العدل والعقل أن يكون الخالق وحده هو المعبود وحده ، وكان من العقل والعدل أن يكون هو المعبود وحده كما كان هو الخالق وحده ، لأنه إذا لم يكن له شريك فى الخلق والإيجاد لم يصح أن يكون له شريك فى العبادة والطاعة ، فهو كما خلق الخلق وحده يجب أن يعبده الخلق وحده . والنفوس كلها مفطورة على معرفة هذه الحقيقة ، والناس كلهم مجبولون عليها ، وماذادهم عنها إلا الغادرون، وما خرج عنها وعليها إلا من خرج على فطرته وعن هداه الجبلى.

لا يعبد إلا الخالق

وقد أكثر القرآن الكريم من الإشارة إلى هذه الحقيقة الواضحة ومن التنبيه عليها ، وقد افتن فى ايقاظها و إيقاظ النفوس الغافلة عنها ، وجعلها من براهين التوحيد ودلائل الإخلاص الناطقة . . .وقد ذكر هذا فى مواضع من كتاب الله بأساليب مختلفة ظاهرة قال تعالى من سورة البقرة : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » وقال من سورة الأنعام : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » وقال من سورة الرعد : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل

تستوى الظلمات والنور ! أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار . . . » الآيات ، وقال من سورة المائدة: «قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم» وقد جاء معنى هذه الآيات فى آيات أخرى كثيرة . وقال من سورة يس: «ومالى لاأعبد الذى فطرنى و إليه ترجعون ! أأتخذ من دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ! إنى إذن لفى ضلال مبين » وقال من سورة العنكبوت : « إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا . فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون » وقال من سورة الصافات فى محاجة نبى الله إبراهيم لقومه المشركين« قال أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وماتعملون » وقال من سورة النمل : « أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون (إلى قوله) قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ـ إلى غير ذلك من الآيات فى حجاج المشركين والاحتجاج عليهم بعجز من يعبدون دون الله عن النفع والضر والخلق والايجاد ، والاحتجاج لعبادة الله وحده بأنه هو الخالق الرازق الضار النافع المعطى المانع . . . وهذا الاحتجاج من أصح الاحتجاجات وأوضحها وأقطعها للنزاع والخلاف ، وأسرعها ولوجاً فى النفوس والعقول والقلوب . والنفوس كلها ، كما ذكرنا ، مفطورة على معرفة هذه الحقيقة وقبولها ، ولو لم ينزل الله فيها كتاباً ووحياً يتلى . وقد أمر الله عباده جميعاً بأن يسلموا و يستسلموا له وحده ، وقد سمى دينه الحق «الاسلام »لذلك ، وهكذا سمى جميع الأديان السماوية السابقة كما قال : «إن الدين عند الله الاسلام » وأنبأ عن جميع عباده الصالحين بأنهم قد أسلموا واستسلموا له وقالوا : أسلمنا . والاسلام

الاسلام لله وحده ومعنى الاسلام والمسلم

يعطى ، باشتقاقه ومعناه ومادته وتصريفه ، معنى الخلوص والسلامة من شوائب الإشراك وأدرانه وأوضاره . فمعنى الاسلام لله الخلوص له وحده ، ومعنى المسلم الخالص له تعالى ، المنقطع إليه . وقد قال فى هذا المعنى : «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» فالحياة بما فيها من أعمال ومعانٍ وأقوال ، وما فيها من عبادات وضراعات وهتافات وغير ذلك يجب أن تكون لله رب العالمين لا شريك له. فالدعاء يجب أن يكون له ، والرغبة يجب أن تكون فيه ، والخوف يجب أن يكون منه ، والعمل يجب أن يكون كله له ، والظاهر والباطن يجب أن يكونا له وحده لا شريك له وغير ذلك مما يقع فى حياة العبد ومماته : كل هذا يجب أن يكون لله بنص هذه الآية الكريمة ، لأن المراد هنا « بالمحيا » الحياة وكل ما يقع فيها من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، ولأن المراد من « الممات » الموت وكل ما يقع فيه من الحساب والثواب والعقاب والخشية والرغبة والرهبة وما مع ذلك من صروف وحتوف . والمخلوق له حالتان حياة وموت ، وحياته وموته لله وحده . فكله إذن لله لاشركة فيه لأحد معه لافى حياته ولا فى مماته. فكل مايقع فى حالتى المخلوق الحياة والموت لله لا شريك له . فدعاؤه ورجاؤه وعمله وقوله وسائر ما هنالك ، وجميع معانيه وعباداته لربه الذى خلقه كله لا شريك له ولا معين . وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يفتتح صلاته بقوله : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين .إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . . . »

وهذا الدعاء الذى كان يقوله رسول الله عند قيامه للصلاة مركب من قول خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى حجاجه لقومه المشركين من سورة الأنعام: «إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وماأنا من المشركين»

ومن قول الله له فى هـذه الآية التى ذكرناها من آخر سورة الأنعام . وقـد جاء معنى هـذه الآية فى آيات أخرى معلومة مثل قوله : « ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » ، وقوله : « ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل » وقوله «له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهـم بشىء » ، وقوله : « ففروا إلى الله » وأمثال قوله : « فاعبـد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » . وقوله : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين» وقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » . والدين معروف الاشتقاق والمادة والمعنى ، ومن معانيه الاسلام والاستسلام والخضوع . فهذه الآيات وأمثال أمثالها تطلب إلى الخلق كافة أن يكونوا خالصين لله رب العالمين ، لا يشركون معـه غيره فى معنًى من معانيهـم ، ولا فى عمل من أعمالهم ، ولا فى عبادة من عباداتهم ، الصورية والحقيقية ، كما لم يشرك معه غيره فى خلقهم وإيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليـه فى حياتهم ووجودهم وبقائهم مما فى السموات والأرضين ومما بينهما .

صرف القرآن من جميع الخلق

وقد نوع الله فى قرآنه التزهيد فى الخلق جميعاً والترغيب والصرف عنهـم بضروب الأساليب ومختلف العبارات ، فتارة يخبر بأن كل شىء فقير إليه وأنه هو الغنى الحميد . وأى محتاج عاقـل يرغب بحاجاته وآماله عن الغنى الحميـد إلى الفقير المحتاج ! وتارة يخبر بأن الخلق جميعا أموات فانون هلـكى فيقول : « كل من عليها فان » « كل شىء هالك إلا وجهه ».وأى عاقل يدع ربه الحى الذى لايموت مائلا إلى الهلـكى وأبنـاء الهلـكى ، طامعاً فى الموتى وأبناء الموتى والموت ! وتارة يخبر بأن كل مايدعى من دونه تعالى باطل فيقول : « ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل » .ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى قول الشاعر :(ألا كل شىء ماخلا الله باطل) إنها أصدق كلمة قالها شاعر. ومن الذى يرغب عن الحق فى

الباطل إلا أن يكون مصاباً فى عقله وفطرته ! وتارة يخبر بأن أقرب الخلق إليه وأفضلهم وأكرمهم عليه لا يملكون لأنفسهم خيراً ولا شراً ولا نفعاً أو ضراً ولا يملكون شيئاً من ذلك لغيرهم فيقول لخاتم أنبيائه عليه الصلاة والسلام: « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله » « قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » وتارة يخبر بأن الخلق والأمر له تعالى وحده فيقول : « ألا له الخلق والأمر » ويخبر بأن غيره ليس له شئ من ذلك فيقول « ليس لك من الأمر شئ » . وتارات يخبر بغير ذلك مما يراد به كله الحيلولة بين الخلق والخالق وتزهيد العبد فى العبد . وقد كان من أصدق الأسماء وأفضلها « عبد الله » ونحوه . وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » . وقد أجمع أهل الفقه والبصر بالدين على أنه لا يجوز التعبيد لغير الله تسميةً مثل عبد النبى وعبد الحسين وعبد على وعبد الجيلانى وعبد البدوى وأمثال ذلك . وهذا لأن المفروض على الخلق المطلوب منهم جميعا أن يكونوا عبيد الله وحده ، فلا يصرفوا لغيره تعالى معنى واحداً من معانى العبودية ، والعبودية ، مادة واشتقاقاً ، ترجع أصالة إلى الخضوع التام والانقياد الصادق وكل ما يمت إلى ذلك من قريب أو من بعيد . ومن أظهر معانى العبودية الخوف والرجاء والسؤال والدعاء والرغبة والرهبة وامتناع التعبيد لغير الله تسميةً ، لامتناع أن يكون شئ من هذه المعانى لمخلوق ما . فاذا قيل : عبد الله وقيل : إن الخلق جميعاً عبيد الله كان معنى ذلك أن كل شئ فيهم هو من حق الله وخالص ما يجب له عليهم . وليس معنى كونهم عبيد الله أن أجسامهم وخلقهم له تعالى دون معانيهم ودون عباداتهم وضراعاتهم وأدعيتهم ، بل هذا كله يجب له عليهم وحده لأنه قد خلقهم ورزقهم وحده . وما أوجد أجسامهم ولا أعطاهم العقول

كل ما فى المخلوق يجب أن يكون للخالق

والقلوب والأسماع والابصار والآلات الجسمية الأخرى إلا لتقوم كلها وتبذل في خدمته وطاعته وعبادته، ولتصرف لوجهه تعالى معانيها وما تقدر عليه من خدمة وعبودية واستسلام. ولهذا كان أعبد الناس لله وأقومهم بحقه وأصدقهم عبودية هم أقل الناس رجوعاً إلى الخلق ورغبة فيهم وأعظمهم انقطاعاً إليه تعالى وأكثرهم سؤالا ودعاءً له ورغبة فيه. وكان أقل الناس عبادة لله وأكذبهم وأبعدهم عنه تعالى هم أشد الناس رغبة في الخلق وسؤالا لهم وانقطاعاً إليهم ورجاءاً لهم وخوفا منهم وتأميلا فيهم. وكان من نقص حظه من أحد الجانبين زاد حظه من الجانب الآخر. فمن زاد تعلقه بالخلق نقص تعلقه بالخالق، ومن زاد حظه من التعلق بالله والرجوع إليه نقص حظه من الالتفات إلى الخلق والعبيد، فزيادة الانسان في عبادة العبيد نقص في عبادته الله ولا بد، ونقصه من عبادة العبيد زيادة في عبادته الله ولا ريب. فزيادة الشرك نقص في الايمان، ونقصان الشرك زيادة فيه. ولهذا السبب نفسه كان الأنبياء والمرسلون وأصحاب التقدم والسبق في الدين والتقوى هم أقل الناس سؤالا للناس ورغبة فيهم وانقطاعاً إليهم فكان محمد رسول الله وكبار صحابته أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وغيرهم أقل من سواهم سؤالا للناس والتفاتاً إليهم، لأنهم كانوا أصدق الناس عبودية لله وأكثرهم معرفة لحقه وأقومهم به وأعظمهم التفاتاً إليه تعالى. وقد جاء في نعت الصحابة أن السوط كان يسقط من أيد أحدهم فلا يقول لأحد: ناولنيه، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أخذ عليهم العهد ألا يسألوا أحداً غير الله. وكان يقول للواحد منهم في وصاياه: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله». وكان يحذر مسئلة الخلق ويذكر لمن سألهم أليم العذاب وشديد العقاب بعبارات أوصدت في وجوههم جميع الأبواب سوى باب الله، وقطعت بهم كل

من كثر سؤاله الخلق قل دينه

سؤال المخلوق حرام شرعاً

حسبب غير سبب الله . فكانت مسئلة الخلق لذلك حراماً ومنكرا لايجوز منها إلا مادفعت إليه الضرورة التي لاترحم ، والضرورات ، كما قالوا ، تبيح المحظورات . وهـذا لأن مسئلة الناس فيها عبودية لغير الله ، وفيها امتهان وهوان للسائل ، وفيها ، بعدُ ، عدوان على المسئول وعلى حقه ، وفيها رغبة عن الله ، وفيها رجوع إلى غير الأسباب المشروعة الفاضلة . هـذا كله في مسئلة المخلوق الحي ، وأما مسئلة الميت فهي شر من ذلك ، لأنها أكثر جهلا وظلماً وعبودية لغير المعبود ولأنها أظهر امتهاناً وهواناً و إذلالا لنفس السائل ، وأعظم رجوعاً إلى غير الأسباب المشروعة الفاضلة . وهذه الأدواء والنقائص محرمة كلها في كل الاديان الصحيحة الالهية . وقد جاءت الأديان كلها بثلاثة أمور لاتختلف فيها : بالدعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، و بالتزحزح والنأى عن مواطن الامتهان والذلة لغير الله ، و بالدعوة إلى الأخذ بالأسباب المشروعة الفاضلة . . . فسؤال المخلوق الحي والميت هو في الأصل حرام وجريمة يأباها الله و يأباها شرعه كل الانبياء ، لأنها تخالف حكمة الله و إرادته لأن يكون العبد عبد ربه وحده ولأن يكون عزيزاً بهذه العبودية ، ولأن يكون زاهداً في غير الأسباب الصحيحة التي جعلها الله وسائل إلى غايات عباده ، ولئلا يظلم أحد أحداً في مسألة ولا في غيرها من أنواع الظلم ، لأن المخلوق قائم أمره كله على الضعف والفقر والعوز ، فكانت إرادة النفع منه ، أصالة ، حراماً و إثماً لضعفه وفقره وعوزه ، ولأن المخلوق مطالب أبداً بأن يطلب ذلك عند ربه وحده ، ومطالب بأن يطلبه بالأسباب التي جعلها الله أسباباً إلى مآرب الخلق وحاجاتهم ، لأن الرجوع إلى الأسباب التي جعلها الله أسباباً ، امتثالاً لإرادته تعالى وشرعه وأمره ، هو رجوع في الحقيقة إلى الله عز شأنه ، طلب له . . أما من رجع إلى المخلوق الضعيف الفقير الحقير ، محاولا لديه قضاء حاجاته ومآربه ، فقد ظلم أولا نفسه بأن أذلها لغير

المظالم الاربعة

ربه وعبدّها لمخلوق مثله ، وظلم ثانياً مخلوقا فقيراً محتاجاً مثل احتياجه ، لأنه استجداه وهو الفقير وطلب منـه القوة وهو الضعيف العاجز ، وظلم ثالثاً حاجته لأنه طلبها بغير عدتها و بغير أسبابها التى اعتيـد أن تدرك وتنال بها ، وظلم رابعاً الجيل الذى يعيش فيه لأنه قد ابتدع فيه بدعة نكراء لا تلبث أن تكون عادة له وحقيقة من حقائقه . فأفسد ببدعته عقول الجيل الذى يعيش فيه وعقائدهم وأنفسهم ، فكان بذلك من شر الظالمين الباغـين . فكانت مسألة المخلوق هذه المفاسـد وغيرها حراماً وجريمة ، و كان المفروض عـلى الخلق جميعاً أن يرجعوا بآمالهم وحاجاتهم وشؤونهم كلها إلى الخالق وحده لا شريك له ، وكان المفروض الواجب عليهـم جميعاً ألا يلتفتوا إلى مخلوق وألا يفكروا فيه وألا يعدوه فى الحساب ،وكان المفروض عليهـم كافة أن يكونوا عبيدالله وحده أجساماً وأرواحاً ومبانى ومعانى . هذا هو ما يقضى به العقل والقلب والفطرة والشرائع كلها

الرجوع الى الاعتراض

أجل أقول لامانع من أن يقال ذلك كله ويقال بعده إن الآيات المذكورة فى النهى عن دعوة المخلوق وعن دعوة غـير الله ، الآمرة بدعائه تعالى وحـده آيات يراد بها الحيلولة بين العباد ودعوة العباد ، ويراد بها تحريم دعوة غير الله ونسيان ما سـواه . فالآيات على ظاهرها تأبى عـلى المؤمن أن يدعو غير ربه فى حالة من الحـالات ووقت من الأوقات . أما الانفكاك من الاعتراض المذكور وهو دعوة الحى وقول المعارضين : إن الآيات لو أخذت على ظاهرها لدلت على منع دعوة الأحياء ، ودعوتهـم جائزة بالاتفاق والضرورة ، فيقال : إن دعوة الأحياء أخرجت من هـذا المنع العام الشامل للضرورة والحاجة والبداهة . فانه لو لم تكن دعوتهـم مباحة جائزة لما اسـتطاع الناس عمارة هذا الكون ، ولمـا استطاعوا التعاون على تنظيم شؤون الحياة ولا أن يعيش بعضهم إلى جانب بعض ولما استطاعوا التعاون على الخير والبر والتقوى . وهـذه أمور مطلوب التعاون

دعوة الاحياء ضرورة

عليها . فإباحة دعاء الأحياء ضرورة من الضرورات ، والضرورات ، كما قيل ، تحل المحظورات . ولولا هذه الضرورة لكانت دعوتهم حراماً باطلة على الأصل العام فى تحريم دعاء غير الله وإيجاب دعائه سبحانه وتعالى وحده. فدعاء الخلق ، كما ذكرنا ، حرام وجريمة ولكن دعوة الأحياء منهم لا يمكن الغناء والاستغناء عنها ولا الانفكاك منها . ولا يستطيع إنسان فى هذا العالم أن يعيش عيشة صحيحة معقولة لولم يبح له أن يدعو الأحياء وأن يناديهم وأن يطلب منهم وأن يخاطبهم وأن يفهم منهم وأن يفهموا هم منه وينادوه ويدعوه ويخاطبوه . فإن هذا العالم وهذه الحياة قائمان على التفاهم والتعاون والتخاطب . وبغير ذلك لاتقوم حياة ولايعمر عالم . فدعوة الأحياء من الخلق مباحة للضرورة إليها . أما الأموات فبالضرورة لاضرورة تلجئ إلى دعائهم وسؤالهم والالتفات إليهم . فبقيت دعوتهم فى المحرمات المحظورات . وبهذا يخلص من الاعتراض المذكور

أمثال ذلك

وليس فى هذا القول والتخريج شئ من الغرابة والخروج على الأصول أو الفروع ، فإن الناس مجمعون على أن حالة الضرورة تخالف غيرها من الحالات التى لا ضرورة فيها ولا إليها ، ومجمعون على أن الضرورات تحل لديها المحرمات ،أو نوع المحرمات ،كإحلال أكل الميتة ولحم الخنزير والدم المسفوح عند خوف الهلكة والموت إبقاء على الرمق والحياة، وكإحلال النطق بكلمة الكفر والشرك والضلال لمن أكره على ذلك والسيف فوق رأسه مشهور مصلت — إلى غير ذلك من الحالات . وقريب من هذا مسألة الناس ، فإنها محرمة البتة ولكنها تباح فى حالة الضرورة . وشبه هذا أنه مفروض على المؤمن ألا يخاف إلا ربه وألا يهاب إلا إياه ، ولكنه إذا وقع بين براثن السبع فخافه وهابه كان معذوراً . لأن الصبر على هذا وعنه فوق طاقته وقدرته . ونظيره أن المطلوب من المؤمنين ألا يهنوا وألا يحزنوا ، وقد جاءت نواهى القرآن عن ذلك كثيرة صريحة ولكن

من أصيب بمصيبة الصبر عليها والتماسك إزاءها فوق طاقته وفوق إنسانيته فاستكان لها وضعف وتضعضع لها بناء صبره وجلده ، فحزن وأسف فانهدم كان غير ملوم ولا معاقب ، رعيا للحالة التي هو فيها . وهذا كله واضح

جواب آخر من الاعتراض

ومن الأجوبة عن هذا الاعتراض أيضاً أن يقال إن جميع المكلفين عند ما تاتى عليهم تلك النواهى عن دعوة غير الله ، وتلك الأوامر بدعوته تعالى وحده لا شريك له لا يمكن أن يفهموا منها أنها تنصرف إلى تحريم دعوة الأحياء واستعانة الملك بجيشه وجنده ورعيته لدفع عدوان المعتدين وظلم الظالمين ، ولا إلى تحريم التعاون على الخير والبر والتقوى وعلى سد عوز المعوزين المحتاجين المنكوبين ، ولا إلى تحريم أمثال ذلك : هذا كله لا يمكن أن يمر لأحد منهم على بال ولا أن يهبط له على فهم . فاذا ما خاطبهم الله فى قرآنه بهذه النواهى الصادرة لم يمكن أن يدخل فيها النهى عن هذا الذى لا يمكن أن يفهموه ولا أن يمر على أذهانهم ، ولم يمكن أن يكون النهى عنه مراداً بها ولا داخلا تحت معناها ، لا منطوقا ولا مفهوماً . وذلك أن القرآن — وكذلك كل كلام — إنما يراد به إفهام المخاطبين به وتعليم المكلفين . وقد رعى به لذلك أن تدرك المعانى التى سيقت إليهم تحت ألفاظه ، وهذا لا ريب فيه . وإذا كان ذلك كذلك كان أمثال قوله تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ونظائره فى معنى أن يقال : وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً من الأموات ، لا من الأموات والأحياء لأنه قد عرف للمخاطبين أنه لا يمكن أن ينهوا عن دعوة الأحياء نهياً عاماً مطلقاً وعرفوا لذلك أن الخطاب بعيد عن الأحياء وأنه خاص بغيرهم ، فكان هذا التقييد المعلوم فى النفس كأنه مذكور فى اللفظ لأنه معلوم فى النفس مفهوم من المعنى فهو فى حكم المذكور ، وقد قيل : (وحذف ما يعلم جائز) . وهذا كما جاء

كيف تفهم المسئلة

تحريم المسئلة فى أحاديث كثيرة مطلقاً لم يذكر فيها أن المحرم هى مسئلة الناس

دون مسئلة الله . وذلك مثل قوله ﷺ : « من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله » وكقوله عليه السلام : « لاتزال المسئلة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم » وكقوله عليه السلام : « إن المسئلة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسئلة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواماً من عيش ، ورجل أصابته فاقة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواماً من عيش . فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها » والأحاديث الثلاثة في الصحيح . ولا شك أن المراد بذلك تحريم مسئلة الناس لا مسئلة الله فإن مسألة الله مطلوبة كل وقت ، ومن لا يسأل الله يغضب عليه كما في الحديث .وكذلك النواهي القرآنية عن دعوة غير الله وعن دعوة المخلوق لا يمكن أن يراد بها النهي عن دعوة الحي القادر على العون والمغوثة ، وإنما يراد بها النهي عن دعاء الأموات خاصة. وهذا مفهوم لجميع المخاطبين ، لايحتاجون في فهمه ومعرفته إلى أن يذكر في اللفظ بلا ريب ولا جدال .

جواب آخر عن الاعتراض

ومن الأجوبة أيضاً عن الاعتراض المذكور أن يقال : إن المشركين والعرب الذين أنزل الله عليهم وفيهم القرآن ابتداء وخوطبوا بهذه النواهي كانوا يدعون الملائكة والجان والأموات من الأنبياء والصالحين ويدعون صورهم وتماثيلهم ومخلفاتهم، فجاءهم القرآن الكريم ناهياً عن دعوة غير الله آمراً بدعوته وحده ناعياً عليهم دعاء المخلوقين والانقطاع إلى العاجزين . فوجب أن يكون هذا متوجهاً إلى دعوة هؤلاء المدعوين المعبودين من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان الذين كانت العرب تدعوهم وتناديهم في جاهليتها حين سرائها وحين ضرائها ، ولم يجز أن يفهم منها أنها نهي عن أن يدعو بعضهم بعضاً لما يجمل ويحسن. وذلك أنهم كانوا يرون النبي الكريم ومن معه من المسلمين ــ وهم يدعون إلى هذا التوحيد ، وهذا الانكفاف عن عبادة الخلق وعن دعائهم

وسؤالهم ـ يدعو بعضهم بعضاً ، وينصر بعضهم بعضاً ويسأل بعضهم بعضاً ، ولا يرون فى دعاء الحى القادر منعاً ولا شركا ولا ضلالا ولا شيئاً من الأشياء الباطلة المحرمة . فكان هذا دالا على أنه لا يراد النهى عن دعاء الأحياء ، وأنه لا يراد الا النهى عن دعاء من يدعون من الأنبياء والصالحين الأموات ومن الملائكة والجان خاصة .

ونظير هذا

ونظير هذا أننا اليوم وقبل اليوم ننهى الناس عن دعاء غير الله وعن دعوة المخلوق وعن سؤاله واستجدائه ، ونقول : إنه يجب ألا يدعى أحد من الخلق معه . ومع هذا لا يمكن أن يفهم أحد ولا أن يقول : إننا ننهى عن دعاء الأحياء القادرين ، وننهى أن يدعو بعضهم بعضاً وعن أن يدعوا أبناءهم وإخوانهم وأهليهم إلى الخير والعون على البر والتقوى . . . بل كل المخاطبين يفهمون أن المراد بذلك النهى عن دعاء من يدعون من الأموات وسكان الاجداث والمقابر من المشايخ والصالحين . ولهذا فإنهم لا يوردون هذا الاعتراض لأنه لا يخطر على بال أحد منهم . ولهذا فان أقواماً يقبلون هذه الدعوة الصحيحة ويقبلون عليها ويقرون بها أعيناً ، فينكفون عن دعاء الاموات والمشايخ والصالحين وأصحاب القبور ويظلون على ما كانوا عليه من دعاء الاحياء والاستعانة والاستغاثة بهم . . . فيفرقون بين الحى والميت لأنهم يعلمون أنهم لا ينهون عن دعاء الأحياء نهياً عاما باتا . فهم حينما قيل لهم : لا تدعوا إلا الله ، ولا تدعوا مع الله أحداً فهموا أن النهى متوجه إلى الموتى وإلى دعوتهم خاصة دون دعوة الأحياء . فكذلك حينما قيل للعرب والمشركين فى كتاب الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » وغير ذلك فهموا أنه لا يراد النهى عن دعاء الأحياء يقيناً لقرائن كثيرة عقلية ودينية وضرورية وحالية . فكان هذا كهذا ، وكان هذا الاعتراض ساقطاً لا اعتبار له ولا التفات إليه .

عود الى بقية
براهين المسئلة

﴿ بقية الحجج على منع دعاء الاموات ﴾

هذا الذى ذكرناه كله هو البرهان الاول على بطلان دعاء الأموات وسؤالهم الحاجات ، وهنالك براهين أخرى كثيرة قوية ، عقلية ونقلية على بطلان ذلك.

منها أن هـذا المخالف و إخوانه الذين يزعمون أنه جائز سـؤال الموتى جميع الحاجات ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وشفاء المرضى ، ورجع الغائبين و إحياء الأموات ، معترفون لنا بأن الأموات الذين يدعونهم هـذه الدعوات و يسألونهم تلك الحاجات ، لا يقدرون عـلى أن يفعلوا ذلك ولا أن يفعلوا شيئاً حقيقة ، و إنما يريدون منهم الشفاعة والوسيلة فقط ، ذاهبين إلى التأويل والمجاز فى القول والتعبير ، لأنهم معترفون ـ فى مايقولون ـ بأن ظواهر هذه الأسئلة والدعوات من الاموات كفر ظاهر وشرك جلى و باطل منكر ، لأن هذه المطالب لايقدر عليها سوى الله وحده . و إنما المسيغ لذلك كله عندهم هو المجاز والتوسع فى القول . . .

فهم إذا قيل لهم : هذا كفر وضلال وجهل ، لأن فيه سؤال المخلوق مالا يقدر عليه إلا الخالق قالوا : كلا ، لا كفر ولا ضلال ولا جهل ولا منكر ، ولا شئ من هذا القبيل ، لأن الـكلام ذو فنون واسعة كثيرة ومذاهب طويلة عريضة . ومن فنون الـكلام المجاز ، وفى المجاز بلاغة وقوة وجمال وحسن وذوق ، ومن مذاهبه الحذف والمبالغة والتوسع ووضع كلمة مكان كلمة وعبارة مكان أخرى ، وفى الحذف والمبالغة والتوسع روعة و براعة و إيجاز وشحذ للأذهان و رياضة للأفهام والألباب . وقد جاء ذلك كله فى كلام الله وفى كلام رسله وأنبيائه ، وجاء فى كلام الأئمـة وكلام سائر القائلين والناطقين . فلا حجر على من ذهب هذا المذهب أو على من أخـذ ذاك المأخذ ، فلا حجر عـلى من قال فى دعائه ونداله : يارسـول الله اغفر لى ذنبى أو ياعلى اهد قلبى ، أو يافلان اشفنى من دائى وأسقامى ، ولا شئ على من استعان بالأموات و بالملائكة والصالحين ، لأن هذا كله ، إذا وجد ، مجاز فى القول وسعة

فى التعبير وذهاب مع فنون الكلام وضروبه . وحقيقته هى طلب الوسيلة والوساطة والشفاعة . وهذه أمور كلها صحيحة ، صحيح طلبها من الأموات ومن الأنبياء والصالحين الأحياء منهم والأموات ، وصحيح أيضاً طلبها من الملائكة ، والجان الصالحين . هذا مايقوله هؤلاء المعارضون ومايدفعون به عن دعوة الأموات وعن دعائهم وحينئذ يقال لهؤلاء جميعاً : إذا كان إدخال المجاز جائزاً لديكم فى الأدعية وفى النداء وفى كل الأقوال المعبرة عن الاعتقاديات وعن الديانات ، فهل ترون أن هذا جائز بلا قيد ولا شرط فى هذه المسائل والمطالب والمباحث بحيث يجوز إدخال المجاز فى كل قول وفى كل دعاء ودعوى مادام صحيحاً جائزاً مقبولا فى قانون البلاغة وعلوم المجازات ؟ أم أنتم لاتدعون هذه الدعوى ولاتذهبون هذا المذهب فلا تطلقون جواز المجاز فى جميع أقوال العبادات ، ولاتطلقون جواز التأويل لكل قائل ، ولكل داع ومدع ، بل تذهبون إلى أن من ذلك ماهو ممنوع باطل ، وماهو ضلال وجهل ، وما هو كفر وشرك . . . إنه لافرار لكم من اختيار أحد المذهبين وأيا اخترتم فقد خصمتم ، ولا ريب . فانكم إذا اخترتم الرأى الأول وزعمتم أن المجاز جائز مطلقا بلا قيد ولا شرط فى كل كلام ومقال قيل لكم هذا باطل بالاجماع والضرورة . فانه لوكان صحيحاً حقا لما استطعنا أن نخطئ ولا أن نعارض من قال مثلا : عيسى هو ابن الله ، أو قال محمد ﷺ هو خالق العالم ، أو قال على بن أبى طالب هو خالق محمد عليه السلام ونحو ذلك من الأقوال . وذلك أن هنالك مجازاً اسمه مجاز الحذف وقد مثل له بقول الله : « واسأل القرية » أى اسأل أهل القرية ، فيراد بقول : عيسى هو ابن الله أنه ابن أمة الله ، وبقول : محمد خالق العالم أنه حبيب خالق العالم أو رسوله أو صفيه ، وبقول : على خالق محمد أنه مختار خالق محمد . . . وبهذا التخريج والتأويل تصبح هذه الأقاويل من أقاويل المؤمنين الصحيحة المقبولة التى لا اعتراض عليها ولا نقد فيها ، ولا لوم على

بطلان التأويل [فى] دعاة الأموات

قائليها كما زعم المخالف فى من قالوا : يارسول الله اغفر لنا ذنوبنا ، وياعلى اهد قلوبنا وامثال ذلك . وأيضاً لو صح هذا المذهب لجاز أن يقول المسلم : إن الله ظالم ، وأنه يأكل ويشرب ، وإنه يموت وأمثاله ، على أن يكون المعنى : إن خلق الله ظالم ، وأن خلقه تعالى يأكل ويشرب . ولكان أيضاً من المقال الصحيح مقال الذى قال : ما فى الجبة إلا الله ، ومقال القائل الآخر : سبحانى عز شأنى . وبالاجمال لو صح لجاز لكل قائل أن يقول مايشاء ويريد ؛ فان كل كلام فى الدنيا يستطاع أن يوجد له وجه من وجوه التأويل ، وفن من فنون المجاز ، ونوع من أنواع التوسع فى ضروب ما يسمونه بلاغة . وهذا يقضى بألا يؤخذ قائل بمقال ولا متكلم بكلام حتى ولو قال : إنى أريد بقولى ظاهره وما يبدو منه بلا تأويل ولا مجاز ولا شئ من هذا ، لأن قوله هذا نفسه يحتمل التأويل والمجاز والمبالغة الموجودة فى الكلام . وهذا غاية الضلال والخذلان .

وأما إن قلتم بالرأى الثانى ، أى قلتم : إنه ليس كل ما صح مجازاً صح دينا بل من المجازات ما هو ضلالات ، ومنه ما الذهاب إليه إثم كبير ، وذنب لا يجوز للمسلم اقتحامه قيل لكم إذن لعل هذا المجاز الذى زعمتموه وأجريتموه فى كلام الداعين للأموات السائلين لهم صنوف الحاجات من هذا المجاز الذى هو إثم وكفر بالله العظيم . وإذن لا يصح لكم أن تقولوا بجواز الاستغاثة بالأموات وجواز دعائهم حتى تقيموا الدليل الواضح المقبول على أن ذلك ليس من المجاز الممنوع المحرم ولا من الباطل المنكر . وأنتم لا تستطيعون شيئاً من ذلك فلا يقبل إذن ما زعمتم من المجاز ، وإذن فدعاء الأموات على كل حال باطل .

ومن الدلائل أيضا

ومن الدلائل أيضاً على بطلان دعوة الأموات ودعوة الملائكة والجان أن يقال : إن غاية ما يمكن أن يزعم فيهم أنهم أحياء عند ربهم فى الملأ الأعلى أو فى قبورهم مثلا أو فى مكان نجهله ولا نعلمه ولا يعلمه إلا الله . وعلى هذه الافتراضات

الثلاثة لا يمكن ولا يصح دعاؤهم لا عقلا ولا ديناً ، لأن حالتهم حينئذن كحالة الأحياء الغائبين ، ودعوة الأحياء الغائبين لا تجوز بحال . ومن دعا حيا غائباً عنه كان مصاباً فى عقله أو عقيدته أو فى عقله وعقيدته.ولو جاز دعاء الميت بحجة أنه حي عند الله أو حي فى قبره أو فى مكان آخر قصى مجهول لجاز لمن ضل فى الصحراء فعطش وجاع وخاف أن يطلب من شيخه أو من أبيه أو من أخيه أو من صديقه وهو مقيم فى المصر أن يهديه وأن يسقيه وأن يطعمه و يشبعه وأن يعينه على أموره بحجة أنه موجود فى جوف المدينة ، والحى الموجود يدعى و يستغاث. ولا يختلف الناس فى أن من فعل ذلك كان ضالا جاهلا مذمما ، ولا يختلف أهل البصر بالاسلام والفقه فى الدين أن من استغاث بشيخه وهو عنه غائب غير حاضر ولا مشهود فقد ضل ضلالا بعيداً ، ولا يختلفون فى أن من الغواية والجهالة أن يدعو من فى المشرق من كان فى أقصى المغرب ـ دون أن يكون بينهما وسائل عادية تنقل الأصوات ، وتبلغ الاستغاثات . ولا ريب أن الاستغاثةبالأموات ليست أقل ضلالا وجهلا وفنداً من الاستغاثة بالحى الغائب ، إذ لا شك أن الحى الغائب الذى هو على ظهر الأرض أقرب إلينا من الميت الذى هو فى بطنها . و إذا كان هؤلاء لا يجيزون الاستغاثة بالحى الغائب فكيف إذن يجيزونهابالميت وهو لا يقل عنه بعداً وغيبة ؟ وقد نص القرآن الكريم على أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والاخبار عنهم بأنهم عند ربهم دليل على أنهم ليسوا عندنا ولا معنا ولا مع من يدعونهم و يستغيثونهم ، وكذلك جاء فى السنة الصحيحة أن أرواح الشهداء الصالحين تغدو وتروح هناك.وهذا بالاجمال من الأمور المتواترة فى الاسلام.والعلماء،و إن اختلفوا فى مستقر الأرواح بعد المماث ، فانهم لم يختلفوا فى أنها ليست فى الأبدان ولا القبور .على أنها لو كانت فى القبور لكانت أيضاً عنا غائبة قصية غير حاضرة ولا قريبة . وقد دلت النصوص على أن الجنة مخلوقة

ودلت على أن فيها اليوم سكاناً . وما استجاز أحد من المسلمين ، ولا أحد من العقلاء غير المسلمين ، دعوة سكانها والاستغاثة بهم . وكذلك من عقائد المسلمين التي دل عليها الكتاب والسنة أن هنالك عالماً مستقلا قائماً بنفسه اسمه عالم الجان وأن من هـذا العالم المؤمنين والكافرين ، والصالحين والطالحين . ودل الدين على أنهم أقرب إلينا وأكثر اتصالا بنا وعلقة من الأموات ، وأنهـم أعظم سلطانا وشـأنا من الانسان حيا وميتا . وما أجاز أحـد من أهل العـلم دعوتهم ولا الاستغاثة بهم ، لا بمؤمنيهم ولا بكافريهم ، فكيف يجوز ذلك ، إذن ، بالموتى وهم أبعد عنا وأضعف منهم حينما كانوا أحياء . وكذلك ما أجاز أحد من المسلمين الاستغاثة بالملائكة ولا أجاز دعاءهم ، والملائكة ، بلا خلاف ، أقدر من الانسان وأقرب إلى الله و إلينا . . . إن بعض هذا الذى ذكرناه يدل عـلى بطلان دعوة الأموات والاستغاثة بهم ومحاولة خطابهم بالنحو المشهود المفعول اليوم .

ومن الدلائل أيضاً

ومن الدلائل أيضاً على بطلان دعاء الموتى أن هذا لم ينقل عن رسول الله لا برواية صحيحة ولا ضعيفة ، لا مجملة ولا صريحة مفصلة ، ولم يؤثر عن أحـد من السلف وخيار الأمة وساداتها . وقد حفظت السنة النبوية ودونت بمهارة و إتقان عظيمين ، وميز صحيحها من ضعيفها وثابتها من مكذوبها . وقد فعل فرسان الرواية وصيارفة الحديث كل ذلك و وضعوا كل شئ موضعه : الصحيـح فى مكان الصحة والضعيف فى مكان الضعف والموضوع فى مكان الوضع . ووضعوا لكل نوع من ذلك كتبا خاصة جيدة بارعة أتقنها الاخلاص والعلم والدأب العجيب ، حتى لقد رووا الموضوعات المكذوبات ذاكرين حالهـا وقيمتها نصحاً للمسلمين وخـدمة للاسلام والعلم خيفة أن يُضل بشئ من ذلك ، وخيفة أن يقع فى أيدى الجاهلين به فيضلوا و يضلوا غيرهم . وقد حفظوا ـ نضر الله وجوههم ـ كلام النبوة فى كل فن من فنون العلوم ، وحدثوا فى كل ضرب من ضروب المعارف ، و رووا فى كل

باب من أبواب العلم مختلف الروايات وعجيب النقول . وقد قسموا ذلك أحسن التقسيم وفصلوه أجمل التفصيل . كل ذلك قد فعلوا ولكنك لو قرأت جميع مادونوا وألفوا وكتبوا فى القديم والحديث رجاء أن تظفر برواية واحدة — ولو ضعيفة مجملة — فيها أن الرسول عليه الصلاة والسلام علم أصحابه أن يدعوا الأموات وأن يسألوهم الحاجات وأن يهتفوا بهم — راغبين راهبين — لأعياك الطلب . ولا تظن أن هذا راجع إلى تقصير الرسول عليه السلام فى البيان والبلاغ ، أو راجع إلى تقصير رجال الحديث فى التدوين : لاتظن شيئا من ذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد بلغ كل البلاغ و بين كل البيان ، ودل أمته على كل ما يقربها من الله ومن جنته و رضاه ، وحذرها كل ما يبعدها من ذلك . وهذا شيء مفروغ منه عند المسلمين لا يختلفون فى أن نبيهم قد بلغ البلاغ و بين البيان كله . وأما المحدثون فإنهم أيضا لم يقصروا — نضر الله وجوههم — فى شيء من حفظ السنة وتدوينها ، بل لقد جدوا و بالغوا فى جدهم حتى نقلوا كل ما بلغ علمهم ، فنقلوا أزيز صدر الرسول عليه الصلاة والسلام خوفاً من ربه ، ونقلوا اهتزاز شعرات لحيته الشريفة حين القراءة ، ونقلوا ما عده الخصوم والجهلاء مقادح فيهم وفى الاسلام وفى النبى عليه الصلاة والسلام . فليس الأمر إذن أمر تقصير .

وقد رووا عنه عليه السلام ما كان يقوله عند زيارته المقابر وما كان يوصى به المسلمين و يعلمهم أن يقولوه حين زيارتهم . وقد رووا فى هذا الباب — كعادتهم — الصحيح والضعيف والمكذوب الموضوع . ولكنهم لم يرووا رواية واحدة فى دعوة الأموات والاستغاثة بهم لاصحيحة ولاضعيفة ، لاخفية الدلالة ولا واضحتها لأن الرسول الكريم لم يفعل ولم يقل شيئاً من ذلك ، بل هوما بعث وأرسل إلا وكان من الحكمة فى بعثته و إرساله محاربة هذا ومناوأته بشدة وعنف حتى تطهر منه الأرض والقلوب والنفوس . وهاهى كتب الحديث قديمها وحديثها ،

صحاحها وضعافها ، لينظر فيها كلها جميع من شكوا فى صدق ما نقول . وإننا نتحدى المخالفين جميعاً .

لم يفعل ذلك الرسول ولا المسلمون

وكذلك لم يؤثر عن سلف الأمة الذين تلقوا الإسلام من فم النبوة وعملها مباشرة ومشافهة أنهم دعوا ميتا من الأموات فسألوه غفران الذنوب وهداية القلوب ، أو سألوه النصرة على الأعداء أو نحو ذلك من أنواع المطالب ومختلف المسائل التى يسألها هؤلاء الجاهلون اليوم المشايخ والصالحين من الميتين . وقد اختلف الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ واشتد بهم الخلاف حتى اندفعوا إلى السيوف وطال بينهم الخلاف والقتال ، وكانوا فى أشد الحاجات إلى حسم ذلك الخلاف و وقف رحا تلك الحروب ، وقد احتاج الكثيرون منهم إلى العون والمعونة و إلى يد الله الناصرة المؤيدة . وكذلك وقع كثير من ذلك بين التابعين ومن بعدهم من المسلمين . ولكن أحداً من هؤلاء جميعاً مع ذلك كله لم يلجأ إلى قبر الرسول ولا قبر غيره من الصالحين والشهداء الأبرار يستجديه و يسأله المعونة والنصرة والغوث أو رفع الخلاف بين المسلمين أو وقف الحرب والقتال . وقد كان رسول الله منهم قريباً وكانوا هم أفطن إلى هذه المعانى من هؤلاء الجاهلين المتأخرين ، وكانوا أحرص منهم على الخير والثواب والدين وطاعة الله . وقد

لم يفعله على ولا آله

خولف على بن أبى طالب وقوتل وقهر وغلب على أمره : قاتله معاوية وعمرو بن العاص وخالفاه حتى أعياه أمرهما . وقد خالفه رضى الله عنه شيعته حتى أحرجوه وأكدوه واضطروه إلى أن يبعثها عليهم لعنات ملتهبة ، وشتائم صارت مضرب الأمثال فى الذيوع والانتشار والبلاغة والقوة وفى غليان الحقد وشدته ـ إذا صدقوا فى عزوهم نهج البلاغة إليه . وكذلك لاقى ولداه الحسن والحسين رضى الله عنهما حتى قتل أولهما مسموماً على زعم الشيعة ، وقتل ثانيهما بأسياف أعدائه مخذولا من شيعته . وقد كانوا رضوان الله عليهم فى غاية الحاجة إلى عون رسول الله و إلى

عون من مضى من أسلافهم . ولـكنهم لم يحاولوا الذهاب إلى قبر الرسول أو قبر غيره يطلبون العون و يرجون النصر ، بل أخذوا بالأسباب المشروعة التى يأخذ بها غيرهم و يأخذ بها جميع الناس ، ولجأوا إلى العدة التى يلجأ إليها كل مهاجم أو مدافع من حشد الرجال وحمل السلاح . . . أما الذهاب إلى الأجداث والقبور فما كان لهم على بال ولا حسبان . وكذلك قتل عثمان رضى الله عنه : قتله الأشرار محصوراً مظلوما فى داره وفى حرم الرسول وجوار قبره الشريف وقبور صحابتـه الأكرمين . فما ذهب إلى شىء من ذلك ولا استغاث بغير الله من الأموات ولا حيا ميتا : لا رسول الله ولا أبا بكر ولا عمر ولا من دونهـم . بل ذكروا أنه كان يطلب النصر والغوث من الأحياء فيبعث إلى على بن أبى طالب قائلا : (و إلا فأدركنى ولما أمزق) . أما من الأموات فلا . وكذلك لقى غير هؤلاء من الصحابة وغيرهم من سلف الأمة . وقد اتفقوا جميعا على الرغبة عن طلب العون والنصرة من الموتى وأجمعوا على الرغبة عنهم بلا شذوذ ولا خلاف أو اختلاف . ولا ريب عندنا وعند جميع المنصفين أنه ما كان لديهم مانع يمنعهم من الرجوع إلى القبور وأصحاب القبور إلا علمهم بأن الرجوع إلى القبور باطل لا أصـل له فى دين الله ، و إلا علمهم بأن ذلك من أدران الوثنية وأوضار الشرك التى أنقذهم الله منها والتى حطموها بأسيافهم وإيمانهم . ومن المحاولات الفاشلة أن نطلب لهذا تعليلا ووجها غير علم القوم بأن هذه الأمور لا تجوز دينا ولا تجدى فاعلها شيئاً ، ولا ينال بها سوى غضب ربه ومقته ونقمته .

ومن الدلائل أيضا

ومن الدلائل أيضا عـلى بطلان دعاء الأموات أن يقال : لا خـلاف بين المسلمين ، الموافقين والمخالفين ، القائلين بجواز ذلك والقائلين بمنعه : لا خلاف بين هؤلاء جميعاً فى أن دعاء الأموات ليس واجباً من واجبات الدين ولا فرضاً من فروض الإسلام ، ولا خلاف بينهم فى أن من ترك ذلك فليس معرضا نفسه

للائمة ولا عقاب ولا مؤاخـذة من المؤاخذات . ذلك أن غاية ما يقوله المجيزون لدعوة الاموات والاستغاثة بهم أن يزعموا أن ذلك أمر جائز مباح قد يستفيدون من فعله ولا يعاقبون على تركه . ولا يجرأ أحد منهم أن يدعى أنه واجب ولا أن تاركه معاقب آثم . وأما المانعون لهذا فالأمر عندهم واضح مفهوم لأنهم يقولون : إنه كفر والعياذ بالله ، أو ضلال كبير ومنكر عظيم : معرض فاعله نفسه لأعظم المؤاخذات وأشد العقوبات .

إذن فقد اتفق المسلمون على أن من لم يدع الأموات ناج راشـد إذا ما قام بما فرض عليـه من الواجبـات والفرائض ، وجانب مانهى عنـه من الآثام والمحرمات . وأما دعاة الاموات فقد اختلف فى نجاتهم ورشادهم وهداهم : فقوم يقولون : إنهـم ناجون ـ كما يزعـم المخالفون ـ وجماهير المسلمين وأهـل البصر والمعرفة منهـم يقولون : إنهـم هالـكون صائرون إلى غضب الله وعقابه . فمن لم يدع الأموات ناج بالإجماع ومن دعاهم ففى نجاته قولان : قيل إنه ناج وقيل إنه هالك معذب ، فطائفة تقول إنه ناج ، وطائفة تقول إنه غير ناج .

ترك ذلك من الاحتياط الواجب

وإذا كان ذلك كذلك فلا خلاف بين العقلاء أن المرء مأمور بالاحتياط لنفسه وبالأخذ بالأحزم الأحجى فى كل حالاته وشؤونه ، فى دينه ودنياه ، ولا خلاف أن من الاحتياط أن يدع مايشك فيه إلى مالاشك فيه ، وأن يترك مايريبه إلى مالا يريبه ، وأنه إذا كان أمامه طريقان أحدهما يقال إن فى سلوكه الهلكة والضلال ، وفى سلوك الآخر النجاة والرشاد يقيناً وجب عليه سلوك الطريق المأمون الذى لاشك فى أنه صائر بسالـكه إلى الغاية المطلوبة المحمودة ، ووجب عليه اجتناب الطريق الأخرى التى ربما يكون فى سلوكها المكروه والعطب . ولو قدم لظمآن قدحان مملوءان ماءاً ، فحضر لديه قوم فأجمعوا على أن أحد القدحين لاشئ فيه سوى الماء وأيقن هو ذلك فى نفسه ، ثم اختلفوا فى القـدح الآخر ، فزعم بعضهم أن

فيما سما ، وزعم الباقون أنه لاسم فيه . وكان لاماء لدى ذاك الظمآن غير ذينك القدحين — لوجب عليه شرعاً وعقلا أن يشرب من القدح الذى أجمع على أنه لاسم فيه والذى استيقن فى نفسه أنه كذلك لاشئ غير الماء فيه . ولو أنه قدم القدح الذى ذكر له فيه السم على الذى لاسم فيه يقيناً لكان مصاباً فى عقله .
ولو أن ضالا تاه فى الصحراء فجاءه جماعة فزعموا له كلهم أن الاتجاه جهة معينة موصل إلى الوجه الذى يطلبه فاستيقن هو فى نفسه صحة ذلك ، ثم اختلفوا فى الاتجاه جهة أخرى ، فقال فريق منهم : إن هذه الجهة لا توصل إلا إلى الموت ، وقال فريق آخر : بل هى توصل أيضا إلى المكان الذى يقصده — لوجب عليه عقلا وشرعا أن يتجه الاتجاه الذى لا شك فى إيراده الغاية المقصودة المحمودة ، ووجب عليه هجران سائر الجهات والمذاهب إذا كان حقا يطلب نجاة نفسه ، وهكذا الأمر فى جميع أمثال ذلك . والسر فى هذا أن المطلوب من العاقل أن يتلمس النجاة لنفسه أين كانت وأين كان هو ، وأن يجانب الهلاك ومواقع الخطر ما استطاع ولا سيما فى ما يتعلق بالأمور الدينية التى فى الضلال فيها هلاك الأبد والتى فى الهداية فيها سعادة الأبد .

ولا شك حينئذن أن المفروض على العاقل الناصح لنفسه أن يدع هذا الأمر الذى قال جماهير المسلمين : إن فى فعله والذهاب إليه هلاك الأبد والشقاء المطلق وأن يأخذ بما أجمع المسلمون على أن الآخذ به لا لوم عليه ولا عتاب ولا عقاب . ولا شك أن من تدبر هذا يقظاً مخلصاً وجد أنه الحق ، ووجد أنه حتم على كل مسلم أن يجتنب دعوة غير الله من الأموات ، وأن يستغنى بدعوة الحى الذى لا يموت . ومن أهدى ممن استغنى بالخالق عن المخلوق ، وبالحق عن الباطل وبالذى لا يموت عن الميت ، وبالله عما سواه !

ومن الدلائل أيضا

ومن الدلائل أيضا على بطلان دعوة الأموات أن يقال : إن المخالفين

موافقون لنا على أن هؤلاء الذين يدعون الموتى من دون الله ويفزعون إليهم كلما حزبهم حازب، وطرق ناديهم طارق من الحدثان ـ لو اعتقدوا ظاهر كلامهم وظاهر ما يقولون، فاعتقدوا بأن للأموات تأثيراً ما فى الكون وتصرفاً وفعلا وأثراً لكانوا كافرين بالله مشركين به، لأن دعوة الموتى مع اعتقاد التصريف لهم وفيهم كفر بالله وشرك. والمخالفون لنا ـ فيما زعموا ـ لم يخطئوا هؤلاء العاكفين على القبور ولم يضللوهم أو يكفروهم أو يزعموا أنهم عملوا عملا منكرا لأنهم يقولون: إنهم لو سئلوا لقالوا جميعاً: إننا لا نريد غير الوسيلة والشفاعة والوساطة، وأنهم لا يشكون أن الفاعل هو الله وحده لا شريك له. أما لو زعموا أن من يدعونهم من دون الله يتصرفون أو يفعلون أو يضرون وينفعون، لكانوا عندنا كفارا مشركين بالله. وقد قال أحد شيوخ الشيعة الامامية المعاصرين وهو الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى كتابه: «أصل الشيعة وأصولها»: «بل لا مؤثر فى الوجود عندهم (يعنى عند الامامية) إلا الله، فمن اعتقد أن شيئاً من الرزق أو الخلق أو الموت أو الحياة لغير الله فهو كافر مشرك خارج عن ربقة الاسلام!»

تكفير الشيعة اعتقاد التأثير لغير الله

فدفاع هؤلاء عن دعاة الأموات وعن دعوتهم قائم على الاستيقان بأن لا أحد من هؤلاء العاكفين على القبور يعتقد فى من يدعوه بأنه يفعل أو يضر وينفع أو يؤثر. فاذا بطل هذا الزعم وذاك الاستيقان، وقام الدليل على خلافه وبطلانه وخطئه انهار هذا الدفاع. ونحن إذا سألنا هؤلاء المدافعين عن هؤلاء الداعين للأموات وقلنا لهم: من أين علمتم بأنهم لا يعتقدون فى من يدعونهم التأثير والتصريف والضر والنفع، بل والخلق والرزق والإحياء والإماتة؟ ما كان جوابهم إلا أن قالوا: إنهم مسلمون، والمسلمون لا يمكن أن يعتقدوا هذه العقيدة ولا أن يروا هذا الرأى، والمسلمون يجب أن تؤول لهم جميع أقوالهم وأفعالهم التى ظاهرها الخطأ والضلال والزيغ بل والكفر والشرك، لأن احسان الظن بالمسلم مطلوب

من المسلم أبداً فى كل الأوقات وجميع الحالات ، ولا يجوز بحال إساءة الظن بالمسلمين . ومن اعتقد بأن هؤلاء الداعين للأموات من جهال المسلمين وعلمائهم يظنون بان الذين يدعونهم من دون الله يضرون و ينفعون ، أو يفعلون و يتصرفون ، فقد أساء الظن بالمسلمين أهل الشهادتين : شهادة التوحيد وشهادة النبوة الخاتمة ، ومن فعل ذلك فقد أساء وظلم نفسه وظلم أهل دينه وملته ، وخالف ما تقضى به أصول الاسلام وفروعه القاضية بإيجاب إحسان الظن بالمسلم فى جميع الحالات والأوقات .

هذا هو الدليل عندهم على أن دعاة الموتى سليمو الاعتقاد ، وعلى أنهم لا يرون لمن يدعونهم من أهل القبور تأثيراً ولا فعلا ولا تصريفاً ، ولا يرون لهم غير الشفاعة والوساطة والوسيلة والجاه . ولكن هذا الدليل ، كما يرى القارئ ، دليل سخيف باطل ، وذلك أنه قائم على أن كل من تظاهر بالاسلام فقال الشهادتين وتسمى بأسماء المسلمين وتزيى بزيهم وولد بين آباء مسلمين ، فلن يكفر ولن يرتد أو يضل ، ولن يذهب إلى نوع من أنواع الشرك بالله ، ولن يعبد غير الله من الأحياء والأموات ، ولن يعبد الأحجار والأشجار والأصنام والاوثان . . . وهذا كله باطل مكذوب كما تقدم فى أول هذا الجزء ، وكما تقدمت الدلائل الكثيرة الصحيحة المختلفة الدالة على أن طوائف من المسلمين سوف يعبدون الأصنام والأوثان ، وسوف يصيرون إلى ما صارت إليه الأمم الأولى المشركة بخالقها وربها من لا يضرها ولا ينفعها . وقد تقدم قوله ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » وغيره من الأخبار الصحيحة الثابتة . وشيوخ الشيعة وأئمتهم يصحّحون هذا الحديث و يروونه فى كتبهم و ينقلونه عن الأئمة المعصومين ويحتجون به على بعض ما ذهبوا إليه من الباطل والاثم والجهل : فيحتجون به على الرجعة وقد تقدم معناها عندهم وما يريدونه منها ، و يحتجون به على أن المسلمين قد

حرفوا القرآن بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وبالتغيير والتبديل كما فعل ذلك قبلهم اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم بكتب الله المنزلة عليهم . وهم يعترفون فى ما كتبوا ويكتبون أن طوائف من الشيعة غير الامامية الاثنا عشرية قد غلوا فى على بن أبى طالب وفى الأئمة الآخرين حتى كفروا وصاروا من المشركين الهالكين . وقد ذكر كثيراً من هذا أبو الحسن بن النوبختى الشيعى الإمامى فى كتاب « فرق الشيعة » . وذكر فرقا كثيرة من الفرق الشيعية القائلة بالأباطيل المكفرة ، وذكر أن فيهم من اعتقدوا أن الأئمة آلهة ، ومن اعتقدوا أن بعضهم إله دون بعض ، وأن فيهم من قالوا بالتناسخ والحلول ، وفيهم من أحلوا المحرمات وأنكروا البعث والجنة والنار ، وفيهم من كفروا غير هذه الكفرات . وهذا المصنف نفسه ، أعنى صاحب كتاب « كشف الارتياب » يسلم أن السبئية كفار ويسلم أن غيرهم من الفرق الغالية فى الأئمة كفار . وهؤلاء كلهم كانوا يتظاهرون بالاسلام ويدعونه ويتسمون بأسماء المسلمين . وما منعهم هذا كله من أن يكفروا ولا من أن يكفَّروا لما أن كفروا .

اعترافهم بكفر طوائف من المدعين للاسلام.

وأقرب من هذا كله فى النقض على القوم وفى إفساد هذه الدعوى وهذه الحجة أنهم هم يذهبون إلى كفر جمهور أصحاب النبى وإلى كفر كبارهم ، مثل الخلفاء الراشدين الثلاثة ومثل عائشة وحفصة وأم حبيبة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير وابنه عبد الله ابن الزبير ومعاوية وغيرهم ، ويذهبون إلى إكفار جميع الخلفاء العباسيين والأمويين وغيرهم من ملوك أهل السنة وخلفائهم : فعندهم أن هؤلاء جميعاً كفار مرتدون مشركون . فكيف تكون إذن مقالة الشهادتين ودعوى الاسلام عندهم مانعة من الكفر والشرك وضمانا من الردة والضلال ؟ وهل يوجد فرق

ما الفرق بين هذا وهذا

بين هذه الحجة فى الدفاع عن عباد القبور ، و بين قول اليهود والنصارى : إنه لا يوجد يهودى واحد ولا نصرانى واحد كافر ولا مشرك ، لأن اليهود كانوا بلا خلاف ، مؤمنين بموسى إيمانا صحيحاً ومؤمنين بشريعته ، وكذلك كان النصارى مؤمنين بعيسى و بشريعته و بما جاء به من الأقوال والشرائع والنبوات فهم جميعاً كانوا مؤمنين ناجين فيجب أن يظلوا كذلك وأن يدعى أنهم كذلك أبداً و يجب أن تؤول لهم جميع أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم التى ظاهرها الخطأ والضلال والكفر والردة ، لأنهم كانوا فى الزمان الأول ، بلا خلاف مؤمنين ناجين ، والمؤمن يجب أن يحسن الظن به وألا يكفر ، و يجب أن يحمل جميع ما يصدر منه على الخير والبر والطاعة والايمان . وحينئذن فلا اليهود ولا النصار ولا غيرهم من أهل الملل السماوية كفار ولا ضالون ما داموا ينتسبون إلى شرائعهم و إلى أنبيائهم ، و يدعون لأنفسهم الايمان والاتباع والاهتداء بهدى الأنبياء . وهذه الحجة مثل حجة هؤلاء المنازعين المتكلفين سواء ، وهما حجتان باطلتان بلا ريب ولا شك .

اعتقاد دعاة الاموات فيهم التأثير ودلائل ذلك

ولا ريب عندنا وعند جميع المنصفين أن هؤلاء الدعاة للأموات العاكفين على الأجداث يعتقدون فى من يدعونهم التصريف والتأثير والاعطاء والمنع ، بل والخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وسائر أفعال القادرين المتصرفين . ولولا اعتقادهم هذا فيهم وتمكنه من نفوسهم وعقائدهم وضمائرهم لما جاؤا إليهم راغبين راهبين ، ولماهتفوا بهم و بأسمائهم يتلمسون الغنى والشفاء وتفريج الكروب و إنالة المطلوب ودفع المرهوب . . . ولولا هذا الاعتقاد وتسلطه على نفوس القوم و رسوخه فى ضمائرهم و فى زواياها لوجدوا مندوحة عن هذه اللهفات والرغبات والرهبات والدعوات ، وعن هذا الانقطاع إلى القبور وأصحاب القبور . وقد جبلت النفوس كلها على الرغبة عن العاجز الضعيف الذى لا يستطيع أن يضر ولا ينفع ، والذى

لا يريش ولا يبرى ، كما جبلت على الرغبة فى القادر ، الضار النافع، أو من يعتقد فيه ذلك ، ولو كذبا وجهلا وضلالا وخداعاً . أما من تعلمه عاجزاً فقيراً فلن تباليه ولن تفكر فيه ، لا عند بأسائها وضرائها ولا عند سرائها . وهذه أمور لاخلاف فيها عند المنصفين العقلاء ، ولاينازع فيها إلا جاهل أو متعصب ، يدفع عن الباطل ويدفع الحق جهاراً .

وقد دلت أقوال القوم وأفعالهم على اعتقادهم هذه العقيدة فى من يدعون ويسألون : فقد سموهم أهل التصريف ، وأهل المدد ، والأقطاب ، وسموا الواحد منهم بالمتولى ، والمتصرف ، وقطب الوجود ، وسموهم بأهل الشورى . وقد كتبوا كتباً سموها « تصرف الأولياء » وذكروا فيها نماذج كثيرة من هذه التصرفات ، وأثبتوا أقبح الروايات والحكايات . فيذكرون مثلا أن فلانا من الموتى أحيي دجاجة ، وأن فلانا الآخر سما إلى ملك الموت ، وهو بين السماء والأرض هارب صاعد بالأرواح التى قبضها ، فاختطفها منه قسرا وغلابا ، فرجعت إلى أبدانها فحيوا بعد الموت ، ورجع ملك الموت إلى ربه شاكيا كاسفا ويذكرون أن فلانا الثالث أوجد ما ليس موجوداً وأحضر ممنوعاً ، وأن فلانا الرابع كان من كراماته الاحياء والاماتة ، ومن كرامات فلان الخامس أن قاصد قبره لايخيب ، وأن قبر فلان السادس الترياق المجرب . ويذكرون أن بعض المشايخ المعظمين المشهورين قد خرج من قبره فرد عن البلد أعداء كانوا مغيرين غازين . وقد ذكروا أن المشايخ يخرجون من قبورهم ويلاقون المعتقدين فيهم ويرونهم ويرونهم ويقضون لهم الحاجات والطلبات ، وقد يشفونهم من الأمراض والعلل ويفرجون كروبهم ، وأنهم قد يقدمون لهم أشياء مفقودة ليست موجودة ولا معروفة عند الناس ــ إلى غير ذلك من هذه المزاعم المنكرة الباطلة . وهذا بحر لاساحل له . والشيعى المصنف قد ذكر فى غضون كتابه أشياء كثيرة من

تصرف الأوليـاء وإعطائهم من دعاهم وهرع إلى أجداثهـم راغباً راهباً طامعاً

انواع الدلالات على ذلك

ثم ما لنا نتطلب الدلائل على هذه العقيدة الظاهرة الجاهرة وأنت لو أسمعت أحد هؤلاء العاكفين على القبور قولا يحسبه يغضب شيخه الذى يدعوه ويعبده من دون الله لأنذرك بأفعال الشيخ ولخوفك ما سـوف يرميك به من الأرزاء والمصائب والصيالم والانتقام الهـائل الفظيع ، ولأصبح هو يترقب لك الدمار والفناء وألوان الآفات والمصيبات المنزلة عليك من سماء شـيخه الذى أغضبت وآذيت . ولو أن أحداً منهم أعرض عن عادة من عاداته التى قد عودها الشيخ الميت من صدقات ونذور وهـدايا فأصابه الله بمصيبة جزاء عمله لأيقن أن تلك المصيبة من الشيخ ومن جزائه وانتقامه الهائل لإعراضه عنه ونسيانه إياه . ولهذا فانهـم يزعمون ويتحدثون أن الشيخ فلانا وغير فلان قد جاء فى صورة سـبع أو جمل صائل أو غير ذلك من صنوف الحيوان ، فبطش وجرح وقتل وأخاف وضر ونفع وفعل ما فعل . وهم يروون عن البـدوى والرفاعى والدسوقى وغيرهم أشياء كثيرة من هذا النوع . هذا كله معروف عند القوم ، مدون فى كتب مطبوعة مقروءة ، لاينكرها عند عشاقها إلا من كفر أوضل . وهذه أمور يطول القول فى تعدادها وإيرادها .

فهم ، لاشك ، يعتقدون أن الأموات يتصرفون ، ويضرون وينفعون ، بل ويحيون ويميتون ، ويفعلون جميع أفعال القادر الحكيم . ولهذا فان علماءهم الذين يؤلفون لهم الكتب ، يلمون فيها شعث الشبهات والترهات عـلى جواز هذه المنكرات ، يذكرون أن قدرة الأموات وتصرفهم أعظم وأوسع من قدرة الأحياء ومن تصرفهم . ووجه هذه الدعوى لديهم أن روح الحى حبيسة سجينة فى قفص الجسم وقت الحياة . فهى ، لذلك ، ضعيفة مهينة عاجزة ، شأن السجين الحبيس . فلما أن انفلتت الروح من البدن ومن عوائقه وسجنه وحبسه صارت حرة طليقة قوية

فى تصرفها وعملها وتنقلها ، فصارت قادرة غالبة ، لا يعوقها عائق ، ولا يمانعها ممانع . . . وقد ذكروا هذا غير ما مرة فى ماألفوه وزوروه ، دفاعاً ونضالا عن هذه الآفات الاعتقادية النكراء وعن هذا الموت الاعتقادى الفظيع .

لزوم هذا على مذهب الشيعة

فالأموات عندهم أقدر وأكثر تصرفاً وأعمالا من الأحياء بلا ريب. وهذا لازم واجب على مذهب طائفة هذا الرجل. وذلك أنهم يعتقدون ، مثل المعتزلة ، أن العبد خالق أفعاله موجد لها ، خالق لتصرفه موجد له . فالأحياء لديهم ، بلا شك ، خالقون متصرفون موجدون مؤثرون ، والأموات ، عندهم ، أقدر وأقوى من الأحياء أو مثلهم . فالأحياء والأموات خالقون متصرفون موجدون مؤثرون ضارون نافعون .وهم يردون على أهل السنة قولهم: إن الله خالق كل شئ حتى أفعال العباد وأعمالهم . فلا شك إذن أنهم يرون من يدعونهم من المشايخ والأموات متصرفين قادرين على أن يعطوهم مايطلبونهم ومايسألونهم إياه ، وأن يدفعوا عنهم مايستدفعونهم إياه ، وأن ينفعوهم و يضروهم . فالشيعى الجاهل ـ بل والعالم ـ حينما يرفع يديه إلى ميت من الأموات قائلا : اشفنى ، أوارزقنى أو اهدنى ، أو اغفر ذنبى ، يريد الاعطاء حقيقة لامجازا لأن العبد عندهم ، كما ذكرنا ، خالق أفعاله وأعماله حقيقة لامجازا والله لم يخلق من ذلك شيئاً . فالموتى لديهم مدعوون مستغاثون خالقون رازقون ضارون نافعون . فهم مدعوون حقيقة ، كما أنهم ضارون نافعون معطون حقيقة أيضا . وليس الأمر كما يزعم هذا المصنف المخادع : أن من قال للميت : أعطنى ،أو اشفنى أو اهد قلبى ، أو نحو ذلك ، لايعنى إلا أن يكون له شفيعاً و وسيلة وداعيا ، فان هذا المزعم لا يماشى مذهب القوم ولا حالتهم وأصول اعتقاداتهم .

إذا صح هذا

فاذا كان هذا كله صحيحاً ـ وهو صحيح بلا شك ـ فلا ريب أن دعاة الموتى ضلال هلكى على مازعمه المدافعون عنهم . وذلك أنهم ، كما تقدم ، زعموا أن

دعاة الأموات والصالحين لو اعتقدوا أن من يدعونهم يضرون وينفعون ، ويعطون حقيقة ما يسألون ، لكانوا كفاراً مشركين . وهذا الذى ذكرناه يكفى تدليلا على أنهم يعتقدون فيهم ولهم هذه العقيدة ، ويرون هذا الرأى وهذا لا مخرج لهم منه ولا مفر . على أننا نحن الذين يحق لنا ويجدر بنا أن نطالب المخالفين بالتدليل على أن العاكفين على القبور الداعين لأصحابها ، لا يعتقدون فيهم وفيها هذا الاعتقاد . وهم الملزمون بنصب البراهين على أنهم ليسوا كذلك . وهذا لأنه لا خلاف بين الناس أن الأقوال والالفاظ وضعت أصالة وأنفا لتدل على معانيها الحقيقية القريبة لفهم السامعين المخاطبين . ولا خلاف أن قول القائل : يافلان اشفنى ، أو أعطنى ، لايدل حقيقة وأصالة إلا على طلب الشفاء والاعطاء من ذلك المدعو المسؤول . فمن زعم أن مثل هذا مصروف معدول عن ظاهره وعما يفهم منه ابتداء وأصالة هو المطالب بالحجة والبرهان على صحة قوله وصدق دعواه ، لأنه قد ادعى دعوى لابرهان له بها ولا حجة عنده عليها ، فكان مرفوض الدعوى والقول ما لم يعززهما ويقدمهما بالبينات الواضحة . والدعاوى المجردة لا تقدم ولا تؤخر ولاتجدى شيئاً . أما زعمهم أن القائل لذلك مسلم والمسلم لايقول باطلا ولا يعتقد كفراً فما أبردها من دعوى ، وما أرخصه من زعم ، وما أهونه من برهان ! ! وقد تقدم بطلان هذه الحجة فى غضون هذا الكتاب مرات .

إذا يقولون ما لا يريدون !!

ونحن لا ندرى لماذا يتفوه هؤلاء العاكفون على القبور بهذه الألفاظ والأقوال ، ويضرعون إلى الأموات هذه الضراعات ، ويطلبون منهم هذه الطلبات ، إذا كانوا حقيقة وصدقا لايرونهم قادرين على شئ مما يسألون ويطلبون وإذا كانوا يعلمون بأن الله وحده هو القادر على كل ذلك لا شريك له ولا نديد ؟ ؟ وهم إذا كانوا حقا ، لايطلبون غير الوسيلة والشفاعة والدعاء ، كما يدعى المحللون لهم

هذه المنكرات ، فان فى استطاعتهم أن يعدلوا عن هذا الذى لا يريدونه ولا يقصدونه إلى ما يعنون ويقصدون ، فبدل أن يقول القائل منهم : يافلان اغفرلى ذنبى أو اهد قلبى ، أو اشفنى من مرضى ، يقول : يا فلان ادع الله فى ليشفينى وليهدينى وليغفرلى ذنوبى ، أو يقول : يا ألله أسألك الشفاء والهدى بجاه فلان ووسيلة فلان وبدعائه — على أن هذا أيضا لا يجوز لدينا لما تقدم من الدلائل فى فصل الشفاعة وما الذى يضطرهم عن الألفاظ التى تؤدى مرادهم وتفهم غايتهم بلا احتمال ولا إيهام ولا تضليل إلى الألفاظ التى لا تؤدى غرضهم ومرادهم وغايتهم — أولا يفهم منها ذلك — إلا بتأويل وتكلف وتفسير بعيد إن قبله قوم رده أقوام ، وفيه بعد ذلك إيهام واشتباه واحتمال؟ إن من العبث والجهل والغباوة ، بل والمحال ، أن تذهب إلى البواب وتطلب إليه أن يعطيك ما تريد قائلا : يا فلان أعطنى كذا أو كذا ، وأنت لا تريد من قولك هذا إلا أن يوصلك ويقربك إلى صاحب الدار الذى بيده العطاء والملك والتمليك وبيده ما تريد . ومن الجهل والمحال الباطل أن تقصد مخلوقاً بالغاً ما بلغ من التقوى والصلاح والاستقامة والقرب والزلفى من الله فتقول : يا فلان أعطنى هذا القصر أو هذه الدار ، وهو لا يملك شروى نقير ، قاصدا بقولك هذا أن يدعو الله لك وأن يشفع لديه كى يعطيك مالا يملك بل ما يملك فلان وفلان . ومن المحال والجهل أن تقول لمريض لا يملك من أسباب الشفاء قليلا ولا كثيراً ولا من اسباب العلاج المعتاد شيئاً : يا فلان اشفنى ، قاصدا بقولك هذا أن يدعو الله فى شفائك ودوائك ، كما أنه من المحال والضلال أن تقول لأعمى : اقرأ لى هذا الكتاب أو الخطاب وأنت تعلم أنه أعمى ، مريداً بقولك هذا أن يرجو فلاناً أو فلاناً ليقرأ لك . فلا شك أن أحدا من العقلاء لا يفعل شيئاً من هذا أبداً ، ولو وجد من يفعله لعابه الناس ولا تهموه فى عقله وتفكيره .

لا يسأل الداعى من لا يملك

فلا ريب أن هؤلاء الذين ينادون الأموات ويهتفون بهم وبأسمائهم طالبين

الشفاء والغنى والهدى والسلامةوالنجاة وغفر الذنوب ، وهداية القلوب، يعتقدون اعتقاداً لا شك فيه بأن من يدعونهم قادرون على مايطلبون منهم ، مستطيعون له، إما بتفويض الله إليهم ذلك ، على مذهب المفوضة من الشيعة ، وإما بطريق الغفلة عن التفكير فى هذا المعنى وحقيقته بأن يقف بهم التفكير فى هذه المسألة على أن الصالحين والمشايخ من الأموات قادرون على أن يعطوهم وأن يمنعوهم ، وأن يضروهم وينفعوهم ، ثم لا يفكرون بعد هذافى شئ من الأشياء ـ أعنى فى معنى هذه القدرة وفى سبيل حصولها لهم .

البرهان القاطع على ذلك

والبرهان القاطع على وجود هذا الاعتقاد فى نفوس القوم وعقائدهم أننا لا نجدهم يدعون الأحياء الصالحين هذه الدعوات ، ولا يضرعون لهم كل هذه الضراعات ، ولا يطلبونهم هذه الطلبات : فلم نجد منهم من يخاطب حيا كائناً ما كان قائلا : اغفر لى ذنبى أو اهد قلبى أو اشف مريضى أو رد غائبى أو اقهر خصمى أو انصرنى على أعدائى وأمثال هذه المطالب العالية التى لا يتوجه بها المؤمنون إلا إلى الله وحده وإلى إله السماء دون أهل الأرض جميعاً . فلماذا إذن فرقوا بين الأحياء والأموات فى هذه الدعوات والمطالب ؟ ولماذا فرقوا بينهم فى طلب الشفاعة والوسيلة والدعاء إذا كانوا لايعنون إلا هذا ؟ فان الأحياء يدعون ويشفعون بلاشك ، ولهم جاه عند الله وقرب لديه إذا كانوا صالحين أبراراً ولكننا وجدناهم يخصون الأموات دون الأحياء بهذه المطالب والدعوات والضراعات ، ووجدناهم يدعونهم كما يدعون الله ، ويسألونهم مايسألونه تعالى من جليل المطالب وعظيم الحاجات ، ثم لايلتفتون إلى الأحياء بشئ من ذلك بل ولا يعرفونهم حين رغباتهم فى هذه الآمال الكبرى ، وحين رهباتهم أمثالها من البأس والضراء . فلماذا هذا ؟ وما تأويله وسره ؟ .

المخالفون يزعمون أن المراد بذلك كله هو طلب الشفاعة والجاه والدعاء

لماذا لا يدعون الاحياء كالاموات

والوسيلة ، ولكن يقال لهم ، بحق : إذا كان هذا هو كل المراد والغاية فلماذا لا يقصدون الاحياء به ؟ أليس للأحياء جاه وشفاعة ووسيلة ودعاء ؟ أوليس الله يشفّع الحى الصالح ويقبل جاهه ودعاءه ، كما يشفع الميت ويقبل جاهه ودعاءه ؟ أوليس الحى الصالح التقى قريباً من ربه عزيزاً عليه محباً له كالميت الصالح ؟ إنهم إذا وجهت إليهم هذه الاسئلة والاشكالات لم يجدوا لها حلا ولا جواباً صحيحاً مقبولا ولا مخرجاً أو مهربا منها ما داموا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون . وليس لها فى الحق والواقع من جواب وحل سوى أن يقال : إنهم فرقوا بين الأحياء والأموات فى المطالب والدعوات لأنهم قد فرقوا بينهم فى الاعتقاد والتعظيم وتوهم السلطة والسلطان : فالأموات عندهم قادرون متصرفون ضارون نافعون بشكل ومقدار لم يكونا للأحياء قط ولن يكونا لهم أبداً ، والأموات عندهم يقدرون على الخوارق وعلى المعجزات وعلى الهداية وغفران الذنوب وإرشاد القلوب ، وعلى إعطاء من يرون إعطاءه وحرمان من يريدون حرمانه وهم متصرفون كثير والتصرف عاملون كثير والعمل ، لا يمنعهم من العمل مانع ، ولا يعجزهم عن التصرف معجز ، ولا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، لأنهم أموات ، والأموات أحرار طلقاء : طلقاء من كل قيد ، لأن الأرواح قوية جداً متصرفة جداً إذا كانت مطلقة من البدن ومن حبسه وسجنه . وأرواح الأموات مطلقة من كل ذلك : من أبدانها وأحباسها وسجونها : فهى متصرفة جداً قوية جداً فهى تُسأل كل ما يخطر فى بال السائل ، وهى تعطى كل ما تسأل إذا شاءت وأرادت . ولأنها أيضاً من عالم الغيب ، وعالم الغيب لاحد لسلطانه وقدرته وتصرفه وعمله . ولهذا كانت الملائكة والجان أقدر من الانس وأوسع سلطانا وسلطة . ولأن الأموات أصبحوا مجهولين ، والمجهول عند الانسان أبداً محاط بالتعظيم وبأوصاف الجلال والاجلال ، وبالقدر الخارقة النادرة : فالأموات أصحاب قدر خارقة نادرة

الدليل على أن الاموات اقدر من الاحياء عند الخصم

وأصحاب تصرف مطلق، وأصحاب أعمال وشؤون لاحد لها. أما الأحياء فإنهم ليسوا كذلك، بل هم محدودو القدرة والتصرف والعمل، ومحدودو المعنى والمبنى بالمشاهدة والحس والضرورة. فأين يذهب الغلو فيهم، وماذا يزعمه فيهم ولهم الغالون الضالون الجاهلون ؟ ولهذا فإنه لم يغل فى الأحياء إلا فى حالات شاذة نادرة قليلة. وكثيراً ما يكون الغالون المتغالون فى الأحياء كاذبين مرائين فى غلوهم وتغاليهم، منافقين طالبين دنيا وجاهاً وخداعاً . . . وهذا يغلب على طلاب الدنيا والرئاسات والعلو فى الأرض واستعباد خلق الله المساكين، إذ قد يرى الرئيس المغلو فيه والمرؤوس الغالى الداعى إلى الغلو أن مما يجذبان به الرئاسة والدنيا إليهما أن يدعى الرئيس لنفسه الأكاذيب والأباطيل : الألوهية تارة والنبوة تارة أخرى، أو صفاتهما، والزعامة الروحية الكاذبة الباطلة المنافقة، ثم يحاول المرؤوس تصحيح تكذب الرئيس وتصحيح دعاواه المجرمة : فيحاول إقامة الشبهات والترهات عليها وخداع الجماهير البلهاء بها . . . وبهذا التعاون الأثيم بين الرئيس والمرؤوس يتم لهما ما يريدان ويطلبان من تصاوير الدنيا وصور الزعامات الفاسقة . ويكون كل منهما، ولابد، فى الواقع وفى نفسه محتقراً صاحبه، ماقتاً له مزدريا به، لأنه يعرفه ويعرف سريرته وماطويت عليه من نفاق وباطل وخداع وتضليل وسخف فاحش. وهذا يكون كثيراً بين رجال الطرق والتصوف والزعامات الروحية الدينية المدخولة، وبين أصحاب الدعايات الشيطانية المضلة . ونعوذ بالله من هؤلاء جميعاً .

الحى لا يعبد إلا نادرا

وأيضا فالأحياء مشهود نقصهم وضعفهم واحتياجهم، ومشهود مايعروهم من الآفات والمصائب ومن الأعراض والأمراض، ومن الفقر والجوع وسائر أعراض العاجز المهين . وهذا كله يدافع الغلو ويأباه، وهذا كله يرى الحقيقة المرة كما هى فى نفسها لا كما هى فى وهم الواهمين الضالين. وهذا هو الفرق بين الأحياء والأموات،

الأحياء مشهود نقصهم

وهذا هو السبب فى عبادة أموات كانوا فى حياتهم ودنياهم لايجدون من يحنو عليهم ولايجدون من يجود لهم بما يحفظ عليهم أرماقهم من غوائل الجوع وعوادى الحمام.

ولو أنك نقبت عن تاريخ هؤلاء المشايخ المعبودين دون الله اليوم فى الأرض، هؤلاء الأموات الذين تمطر قبورهم اليوم على سادنيها الذهب والفضة وصنوف الهدايا والعطايا، وتمنحهم الإعزاز والإعظام وشديد التبجيل — لوجدت الكثيرين منهم كانوا فى حياتهم لايصيبون الكفاف من القوت، ولايجدون من يتحدث عنهم حديث خير، ولا من يتبرع عليهم بنظرة احترام وتوقير ولا بوجه باش ولقاء طيب. فأكثر هؤلاء المحظوظين فى موتهم — إن كان مثل هذا يسمى حظا — كانوا محدودين تعساء فى حياتهم، لايجدون من يعنى بهم ولا من يحترمهم ويعظمهم ويجلهم بعض الاجلال... انظر، انظر مثلا، هؤلاء الشيعة يطلبون اليوم جميع حاجاتهم وجميع مايرغبون فيه وما يحبون ويشتهون من آل البيت النبوى أمثال على بن أبى طالب والحسن والحسين وفاطمة وذرية هؤلاء الأئمة، ويخصونهم بكل أنواع التعظيم والاجلال والاكبار، ويصفونهم بأجل أوصاف القدرة والكمال حتى إنهم يزعمون لهم بأنهم كانوا يعلمون كل شئ ويحيطون بجميع الأسرار والحكم والعلوم، ويصفونهم أوصافا أحلت لهم أن يدعوا بأنهم أهل لأن يسألوا غفران الذنوب وهداية القلوب، وشفاء المرضى، ورجع الغائبين، ويسألوا أيضاً كل ما يجوز أن يسأل الله من عظيم الرغبات وأشتات الحاجات، وأن يدعوا أيضا بأنهم معصومون من كل خطأ: صغيره وكبيره، ومن كل ذنب: جليله ودقيقه، ومن كل نسيان: عظيمه وحقيره، ومن كل نقص وضعف، حتى ادعوا بأن من خالف أحداً منهم، أومن تقدم عليه، فهو هالك ذاهب إلى النار والعقاب. وحتى أصاروا قبورهم مثابة للرائحين والغادين وكعبة لجميع ذوى الحاجات والآمال: يقصدونها من أطراف البلاد، يحدوهم مالا

الذين يعبدون فى قبورهم كانوا لايعرفون فى حياتهم

يحاط بصفته من الأمل والرغبة والشوق والاحتياج ، حتى جعلوها مسفكا للعبرات ومعتركا للشكايات ، وملتقى للحاجات والطلبات . وحتى لقد نسى الله عندها فلم يسم إلى السماء طرف ، ولم يبسط إليها كف ، ولم يتعلق بها قلب — : هؤلاء الشيعة الذين ذهب بهم الغلو الباطل كل مذهب ورماهم التغالى فى هذا المكان السحيق ، قد كانوا من أزهد الناس فى هؤلاء الأئمة يوم أن كانوا أحياء ، ومن أكثر الناس إعراضاً عنهم وجفاء لهم وخذلاناً ورداً لأوامرهم وإرادتهم حتى لقد عاهدوهم على الموت فقدموهم طعاماً للموت ، ودعوهم ووعدوهم النصرة والتأييد فقدموهم للخذلان وقذفوا بهم إلى الحتوف وفروا عنهم هاربين ، بل وانضموا لأعدائهم وخصومهم حينما قعقع السلاح وجد الجد . . . حتى تمكن منهم أعداؤهم فأذلوهم وشردوهم وقتلوهم فلم يبالوهم ، حتى لقد بعثها الامام على وغيره من ولده عليهم لعنات ضمنوها كتابهم « نهج البلاغة » وغيره من كتبهم — : هؤلاء الشيعة — وهذا ولاؤهم ووفاؤهم ونصرهم لآل البيت ومقدار غيرتهم وحبهم لهم — يطلبون اليوم النصرة من على ومن الحسن والحسين وغيرهم ، وقد كان هؤلاء يوم أن كانوا أحياء بين أظهرهم محتاجين إلى نصرتهم ومعونتهم ، فبخلوا عليهم بها فلم يعينوهم ولم ينصروهم ! ! هؤلاء الشيعة يطلبون اليوم من الحسن والحسين ومن على ما كان على والحسن والحسين يطلبون من أسلافهم وقدمائهم ! أفليس من العجيب أن يكون آل البيت محتاجين لنصرة هؤلاء الشيعة طالبين منهم المعونة والتأييد حينما كانوا أحياء ثم لما ماتوا صاروا مطلوبين مدعوين للنصرة والتأييد ! فاعجب بهم مسؤولين أمواتا سائلين أحياء ! واعجب من قوم يسألون النصرة أمواتا كانوا يسألونها إياهم أحياء ! !

إننا لا نرتاب أن عليا والحسن وفاطمة وغيرهم لو كانوا اليوم أحياء بين أظهر هؤلاء الشيعة لما سألوهم ما يسألونهم إياه اليوم ، ولما حفلوا بهم احتفالهم ،

بقبورهم ، ولما قصدوهم قصدهم لأجدائهم ، ولما عظموهم تعظيمهم لقبابهم ، ولما شكوا إليهم شكواهم إلى رفاتهم ، ولما عبثوا بهم ولا بعلومهم ولا بغير ذلك من أحوالهم وشؤونهم وفضائلهم ، ولضنوا عليهم بهذه الأموال الطائلة التى يجودون بها على قبورهم وعلى الزينات والمعلقات وسائر ما على مقاماتهم من مبتدعات وسخافات أباها الدين وأوعد فاعليها أليم العذاب والعقاب . ولو أن عليا نفسه كان حيا يجاهد فى سبيل الله الكفار والمشركين فطلب منهم هذه الأموال التى ينفقونها على قبره وقبور أولاده لينفقها فى سبيل الله وليعين بها المجاهدين فى سبيل الله ، المنتصرين لدينه وشريعته لبخلوا بالكثير منها ، أو بها كلها ، ولأحجم طوائف منهم عن بذلها . ولا شك أيضاً أن هذه حال أغلب هؤلاء العاكفين على القبور من الشيعة وغير الشيعة : أعنى أنهم يجودون بأموالهم وعقولهم وقلوبهم وكراماتهم وديّاناتهم على القبور وزيناتها ويبخلون بها على أصحاب هذه القبور نفسها لو كانوا أحياء يرونهم ويخاطبونهم ولو طلبوها منهم لبذلها فى سبيل الله ولتعزيز دينه .

من الفروق الاحياء والاموات؛ وهم الجاه

والفرق عندهم بين الأشياخ والأولياء أحياء وأمواتا أنهم فى الحياة يعلمون أنهم عاجزون فقراء محتاجون إليهم وإلى عونهم ونصرهم وتأييدهم . . . فيبخلون عليهم بأموالهم وأنفسهم لأنه لا طائل تحتهم ولا سر ولا غيب فيهم ، ولا قدرة نافذة غالبة ولا شئ من ذلك فى الحياة ، بل هم مثلهم محدود والقدرة والتصرف والعمل والفعل . فلا خير فى رجائهم والانقطاع إليهم . . . وأما بعد مماتهم فإنهم قد أصبحوا أغنياء عنهم وعن مالهم وعن صدقاتهم ونذورهم وهداياهم وأنفسهم وعن كل دنياهم ، لأنهم قد أعطوا الشئ الكثير من القوة والتصرف والسلطة والسلطان والغنى الواسع الدائم . . . فصاروا هم محتاجين إليهم وإلى عطاياهم وارفادهم ، فراحوا يسألونهم ذلك ، وراحوا يدعونهم فى السراء والضراء ، فى

المحضر والمغيب ، الليل والنهار ، وراحوا يجودون على قبورهم وأجداثهم بما بخلوا به عليهم وعلى حياتهم ، وبما بخلوا به على الله وعلى دينه وسبيله . وذلك أنهم يعطونهم فى الممات ليأخذوا منهم أضعاف ما أعطوهم . ومن السهل اليسير على طبع الانسان الشحيح أن يعطى المخلوق شيئاً ليأخذ منه أضعاف ما أعطاه وأما من أعطى الأحياء الذين أمر الله باعطائهم فهو لا يرجو أن يأخذ إلا من الله وحده يوم الدين وأحيانا فى الدنيا . ولهـذا يكع عن الانفاق فى هـذه السبيل ويضن بماله عليها ، لأن الانسان الشحيح اللئيم قد طبع على استبعاد جزاء الله وثوابه وإن كان به مؤمناً مصدقا . فهم ما أعطوا الأموات أموالهم وأوقاتهم ولا جادوا عليهـم بكراماتهم وأنفسهم إلا رجاء أن يأخذوا منهـم هم جزاء ذلك لامن الله ، وليعطوهم هم لاليعطيهم الله ، وإلالو كانوا يريدون الله وجزاءه ورضاه وثوابه بهذا الذى يصنعونه لجادوا على الأحياء الصالحين وعلى المجاهدين فى سبيل الله ، ولجادوا على إسعاد الانسانية المعذبة الشقية ، وعلى إسعاد المسلمين الأشقياء التعساء ، فأنفقوا على بناية المدارس والمصحات وملاجئ الفقراء المعوزين وسائر هذه الوجوه الخيرية الطيبة .

ينفقون على القبور ويأبون الانفاق فى سبيل الله

لتقم ولتصح بملء شدقيك حيث يسمك الصياح والنداء فى أفواج هؤلاء العاكفين على القبور ، الباذلين لتشييدها وعمارتها حر أموالهـم وغاليها بسخاء ورضا واندفاع : صح فيهم ما وسعك الصياح ، وقل لهم هذه فلسطين المنكوبة المجاهدة فى سبيل الله وسبيل الانسانية أعداء الله وأعداء الإنسانيـة والمدنية ـ أعنى الانجليز وحلفاءهم البغاة الطغاة الكذبة الغادرين ـ أوهذه سوريا المنكوبة أو هذا المغرب المنكوب ، أو هذا ماشئت من أوطان الاسلام المنكوبة المعذبة ـ أو قل لهم: هذه طوائف فقراء المسلمين من الأيتام والأرامل والعاجزين ضائعين فى الطرقات العامة ، منبوذين على الأرصفة وأفواه الشوارع عراة جياعاً ، تتخطفهم

عصيّ الشرطة ولعنات حفظة الأمن والنظام : ـ هام لايجدون مأوى تؤويهم إليه فحمة الليل و يسوقهم إليه حر الصيف وقر الشتاء ، ولا يصيبون خبزاً جافاً حافاً ولايجدون غير اللعنات المرسلة على أعراضهم ، وغير السياط المنطلقة إلى أكتافهم وظهورهم ـ أو قل لهم هذا بلد كبير بلا مسجد و بلا مدرسة و بلا عالم يعلمهم الضرورى من الاسلام والدين ، أو هذا مسجد لاماء فيه ولا نظافة ولا جمال ـ أو قل لهم غير ذلك واذكر سوى ما ذكرت من وجوه النقص والضعف فى المسلمين ، وانظر بعد ذلك هل يندى منهم كف ، أو يتألم لأحد منهم ضمير ، أو تحصل منهم على طائل ؟ لا ريب أنك لن تجد لدى أكثر هؤلاء سوى تحريك الشفاه علامة الامتعاض الرسمي الظاهر ، وهز الاكتاف هزاً آليا موروثا ، ثم منح الأقفاء فى النهاية .

أما الأموات وقبورهم ومشاهدهم فانهم ينفقون عليها و يبذلون لعمارتها أفضل أموالهم وأطيبها لا يحتاجون إلى نصيحة ، ولا ناصح ، ولا إلى عظة أو واعظ : لا يحتاجون إلى شيء ، بل تراهم يتراكضون إلى ذلك بجرين جياد الجود والكرم ، ولو وقف أهل العلم كافة فى وجوههم وسبلهم ينهونهم عن هذا و يذكرون لهم أن دين الله بريء مما يفعلون ، وأن الاسلام غنى عنهم وعن بدعهم . فما هذا ياصاح ؟ ما هو والله إلا الدليل القاطع على أن قلوب القوم قد طويت على تأليه الصالحين الأموات ، وعلى عبادة قبورهم وأجداثهم وعلى الغلو المنكر الآثم . والله العليم بذوات صدورهم و بما احتملت من ضلال وشرك وخروج على الصراط المستقيم .

وليكن هذا آخر التدليل على بطلان دعوة الأموات . والمقام يتسع لأكثر مما ذكرنا . ولكننا أحياناً نوجز ونختار الاقلال على الاكثار .

﴿ تلخيص شبهات الرافضى على دعوة الأموات ﴾

إجمال شبهاتهم على جواز دعاء الأموات

أما شبهات الرافضى على جواز الاستغاثة بالموتى وجواز دعائهم فهى تتلخص فى ما يأتى :

أولاً — : أن المسلم إذا استغاث الميت كأن قال مثلا : يا فلان اغفر ذنبى أو اهد قلبى وجب أن يقال إنه كلام صحيح حق ، وإنه مجاز عقلى ، لأننا مطالبون أبداً بأن نحمل أفعال المسلمين وأقوالهم على الصحة والصواب ما وجدنا إلى ذلك سبيلا . والمجاز العقلى جائز وارد فى كلام العرب وفى كتاب الله وفى السنة النبوية كما فى قولهم : بنى الأمير المدينة ، وأنبت الربيع البقل، وكما فى قول الله « فارزقوهم منه » وقوله : «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله » ، وكقوله : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » ، وكما فى قوله عن عبده ونبيه عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : « إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله » . . . على أن يكون حقيقة دعاء غير الله من الأموات وغيرهم طلبَ الشفاعة والدعاء . فيكون قول القائل : يارسول الله اغفر ذنبى ، وياجيلانى أو ياعلى بن طالب اهد قلبى مراداً به : كن شفيعاً لى عند الله فى غفران ذنبى وهداية قلبى . وقد جاء مثل هذا المجاز وهذا الطلب عن أصحاب النبى عليه السلام . فجاء أن أحدهم قال يارسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة . وسؤاله المرافقة فى الجنة مثل سؤاله غفران الذنب وهداية القلب .

ثانياً — : قد روى البيهقى وابن أبى شيبة عن مالك الدار خازن عمر بن الخطاب قال : أصاب الناس قحط فى عهد عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبى فقال يا رسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله فى المنام

وقال ائت عمر واخبره أنهم مسقون .

ثالثا ـ : قد نص القرآن الكريم على أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والأنبياء أولى بالحياة من الشهداء بالاجماع . والأحياء يصح دعاؤهم بلا خلاف.

رابعاً ـ : قال : إن المسلمين ما زالوا ، سلفا وخلفاً ، يستغيثون بالأنبياء والصالحين . قال السمهودى : إن الاستغاثة بالنبى عليه الصلاة والسلام من فعل الأنبياء والمرسلين والصالحين .

خامساً ـ : إن جماعات من العلماء ، كما ذكر السمهودى ، قد استغاثوا بالنبى عليه السلام و بقبره فنالوا ماطلبوا وسألوا كما فى الحكايات السابقة .

سادساً ـ : روى ابن السنى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد : عباد الله احبسوا ، فان لله عباداً يجيبونه» وفى حديث آخر رواه الطبرانى أنه عليه السلام قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينونى ـ وفى رواية ـ أغيثونى فان لله عباداً لا ترونهم » .

سابعاً ـ : قال فى خلاصة الكلام : صح عن بلال بن الحارث أنه ذبح شاة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه ، وامحمداه . وصح أن أصحاب النبى عليه السلام لما قاتلوا مسيلمة كان شعارهم : وامحمداه . وفى الشفا أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وامحمداه ، فانطلقت رجله.

هذه هى حجج الشيعى على جواز دعاء الأموات والاستغاثة بهم .

ابطال شبهات المخالف ابطال الاولى

﴿ نقض هذه الشبهات ﴾

أما الشبهة الأولى وهى زعمه أن كل أقوال المسلم وكل أفعاله يجب أن تحمل الحمل الصحيح ، وأن تفسر التفسير الصحيح الذى لا يضر إيمانه و إسلامه ، فالجواب أن يقال : إننا قد قدمنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن هذا الزعم

زعم غير صحيح لاعقلا ولا شرعاً ، وقدمنا أنه من غير الدين والعلم والعقل القول بأن كل مايصدر من مدعى الاسلام صواب لا خطأ فيه ولا إثم ولا ضلال ، وانه من غير الدين والعقل والعلم القول بأنه جائز للمسلم أن يتلاعب بألفاظ الكفر والردة والضلال وفساد الاعتقاد ، على حساب المجاز والتأويل وادعاء الاسلام ، وإنه من غير الدين والعقل والعلم القول بأنه واجب علينا أن نؤول جميع أقوال من ادعى الاسلام وإن كانت ظاهرة فى الكفر وخراب الدين ، فنقول ، على رغم ذلك كله : إن جميع ما قال وجميع ما يقول حق وإيمان وإسلام وهدى ، وإن كل ما خالف هذا فى الظاهر محول على المجاز والتأويل والتفسير . وقد قدمنا أنه لو كان هذا المذهب صحيحاً لما صحت مناقشة مسلم ولا تخطئته ولا لومه ولا جداله ولا نصحه لقول يقوله ، ورأى يبديه وعقيدة ينتحلها ويبتدعها ، وأخطاء يدونها ويظهرها . . . وذلك أن كل ما يصدر من المسلم يجب أن يؤول له على هذا المذهب الباطل والزعم المدخول . فكل ما يقوله مما يوهم الشرك والكفر يجب أن يقال: إنه اسلام وإيمان وتوحيد ، وكل مايقوله مما يدل على الخطأ والضلال يجب أن يقال إنه صواب وهدى، وكل ما يقوله مما يشعر بالخبث والفجور يجب أن يقال : إنه طيب وصلاح وتقوى !! فمتى إذاً تصلح مناقشة المسلم ولومه وتخطئته وعذله ونصحه ؟؟ وأى مسلم ، حينئذ ، يصح لمسلم آخر أن ينازعه أو يناقشه أو يجادله ؟

بطلان وجوب التأويل لكل من ادعى الاسلام ودلائل ذلك

لا شك أنه لو صح هذا الذى ذكروه وزعموه لكان كل ما يقوم بين طوائف المسلمين من المناقشات والمساجلات والمجادلات والمنازعات فى الآراء والعقائد باطلا وخطأ وضلالا ، وإذا كانت هذه المناقشات والمنازعات كلها باطلة وضلالا كان أصحابها ضالين مبطلين ، وفى هذا طعن على المسلمين . فالطعن عليهم واقع ولا محالة ، وهو خلاف مازعموا من إبعاد من ادعوا الاسلام عن

المطاعن والمقادح والأخطاء . ثم إذا كان هذا صحيحاً عندهم فما يقولون فى أقوال مخالفيهم ؟ أيثبتون عـلى زعمهم هذا ، فيقولوا : إن جميع ما يقولونه ، مما ظاهره الباطل والضلال ، صحيح مؤول لهم لأنهـم مسلمون ؟ أم يتناقضون فيخطئوهم ويذموهم ويجرحوهم ويزعموا فيهم المزاعم ؟

إنه لو كان صحيحاً هذا الذى ذكروه من وجوب التأويل لـكل مسلم لوجب عليهم التأويل لمخالفيهم ، ولكنهم لم يؤولوا لهم . ولو صح أيضاً لقفل باب الردة ولما أمكن الحكم على مسلم بالـكفر والارتداد . وهذا خلاف الإجماع والضرورة . ولو صح هذا أيضاً لوجب عليهم أن يؤولوا لنا جميع ما كتبناه فى كتابنا هـذا من الرد عليهم والنقض لمذاهبهم ، ولكان واجباً على هذا المصنف الشيعى وعلى إخوانه أن يشتغلوا بتأويل كتابنا هذا و بتطلب المخارج الصحيحة له وبحمله كله عـلى أنه ثناء عليهـم وتسبيح بحمدهم واعتراف بجلائل أعمالهـم وآثارهم فى الاسلام . وهذه أضحوكة الأضاحيك . ولو صح هذا أيضاً لوجب إحسان الظن بأفعـال المسـلمين ووجب تطلب التآويل الحسنة الفاضـلة لها ، فمن رؤى منهم فى حانات الخمور ، و بيوت الفجور ،وجب أن يحسن به الظن وأن يقال إنه لا يريد إلا الدين وطاعـة الله و إلا نصرة الاسلام والدعوة إليـه و إلى آدابه وعلومه ! ومن قتل منهـم المسلمين وضربهم وأخـذ أموالهم وتناول أعراضهـم وأحسابهم بالأذى والزور وجب أيضا أن يحسن به الظن وأن يقال إنه لا يريد غير تأديبهم وحملهم عـلى الجادة الواضحة والسبيل المسلوكة المستقيمة : وهكذا يجب أن تلتمس أمثال هذه التآويل والتفاسير لـكل ما يفعله من يدعى الاسلام ومن يقول إنه مسلم ومن وضع اسمه فى عداد المسلمين وعـداد أسماء مواليدهم .

التأويل لغير المسلم إحسانا للظن

ولو صح هذا أيضاً لوجب التأويل لغير المسلمين و إحسان الظن بهم . ذلك أنه قد صح فى الاسلام وصح عند المسلمين أن كل مولود يولد على الفطرة . والفطرة

هى الايمان الصحيح بالله و إنكار الشرك والشركاء كما قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه » الحديث وفى حديث آخر قدسى : « خلقت عبادى حنفاء - وفى رواية مسلمين - فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم » وكما قال الله فى كتابه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون» فالأصل فى جميع الناس أنهم ولدوا مؤمنين بالله برءاء من الشرك والوثنية وعبادة غير الله كما فى هذه النصوص ، حتى يأتيهم مايغير إيمانهم ودينهم و إسلامهم ، ولكن يجب على هذا الاصل الذى ذكره هؤلاء الناس أن يبقى على الأصل أيضا فيهم أى فى المشركين إحساناً للظن بهم و بقاء على الأمر الأول والفطرة الأولى التى فطرهم الله عليها . و إحسان الظن بهم يوجب التأويل لهم ، والتأويل لهم معناه أن يحمل كل مايصدر منهم من الاقوال والافعال الموهمة للكفر والإشراك وعبادة غير الله على الايمان والاسلام والهدى وعبادة الله وحده ! فاذا وجد منهم من يستغيث بالسيد المسيح و بأمه ، و يدعوهما قائلا : اغفرا لى ذنوبى واهديا قلبى ، قيل إن ذلك القائل مؤمن بالله إيماناً صحيحاً حقا لم يقل قولا باطلا ، ولم يشرك بربه شيئاً ، ولم يعبد سواه - إحساناً للظن به و بقاء على الامر الأول وعلى الفطرة الأولى المؤمنة الموحدة ! ومن رؤى منهم يقبل الصليب و يركع أمامه و يسجد فوقه ، و يغدو و يروح إلى الكنائس والبيع أول له أيضاً وأحسن الظن به ، وزعم أنه مسلم حقا ، مؤمن حقا ، وأنه باق على فطرته الصحيحة الأولى ، لم يغيرها ولم ينلها بأذى من الشرك والضلال والفند ! وهكذا يذهب و يقال فى كل باطلة من باطلات الشرك والضلال والغوايات .

لماذا لم يؤول الأنبياء لأقوامهم

ولو صح هذا أيضاً لكان واجباً على الأنبياء الذين بعثوا للدعوة إلى الله و إلى عبادته وحده ونسيان ماسواه أن يؤولوا لأقوامهم وأن يحسنوا الظن بهم

وأن يحملوا جميع ما كان يصدر منهم من الشرك وأفعاله وأقواله على المجاز والتأويل فراراً من إكفارهم والحكم عليهم بالردة والضلال : فكان واجبا عليهم ، لهـذا ، ألا يسموهم بسمات المشركين الكافرين ، وألا يقولوا لهم : إنكم تعبدون غير الله ، وإنكم كافرون مشركون تعبدون الأصنام والأوثان ، وألا يستحلوا ، إذن ، قتالهم ودماءهم ولا الدعاء عليهم بالهلاك العاجل العام والموت الناجز الشامل. بل كان واجبا عليهم أن يقولوا لاقوامهم : إنكم مؤمنون صالحون موحدون ، لا تريدون الشرك بالله ولا عبادة غيره كما قال هؤلاء في عبدة الأموات العاكفين على الاجداث أو على الاقل كان واجبا عليهم — أي على الأنبياء — أن يسألوهم عن قصدهم ومرادهم بأقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها الشرك والكفر ، فلا يهجموا عليهم بالإكفار واستحلال القتال والدماء ، ولعلهم إذا سألوهم عن قصدهم تبين أنهم مسلمون وأنهم غير مشركين ولا كافرين ، ولعلهم يقولون مثل مايقول عبدة القبور الصالحين اليوم : إننا نعلم أن الله وحده هو الخالق الرازق ، وأنه هو الموجد لكل شيء في الأرض أو في السماء حتى هذه الانصاب التي . نقصدها وندعوها ونتوسل بها ونرجوها للشفاء والعافية والتقريب إلى الله زلفى . بل لعلهم كانوا يعرفون المجاز العقلي وغيره من ضروب المجازات ، ولعلهم كانوا يذهبون إليـه في عباداتهم وأقوالهم وأدعيتهم ونداءاتهم واتصالهم بالله ربهم ، ولعلهم أيضـا يقولون : إننا جاهلون بالالفاظ وبما يراد بها وبما وضعت له ، وإننا نفهم منها خلاف مايفهـم غيرنا وخلاف ماتفهمون منها أنتم أيها الانبياء والمرسلون : فنحن لانريد بدعائنا هذه الأنصاب والأصنام وبالعكوف عليها والضراعات لهـا والانقطاع اليها إلا أن تصلنا بالله وتقربنا إليه وتشفع لنا لديه ، ونحن لانريد أيضاً بهذه الأنصاب والأصنام إلا أن تربطنا بأنبياء لنا وصالحين كانوا فينا يدعوننا إلى عبـادة الله وإلى الخير والبر ، ويذودوننا عن الشرك والكفر والشرور وسائر الآفات خلقة

والاعتقادية . و إلا فنحن نعلم أنهم مخلوقون لله خاضعون له ،واقعون تحت سلطانه وقهره العام الشامل . فنحن موحدون لله غـير مشركين به شـيئاً ونعوذ بالله من الشرك وأسبابه ، ونعوذ بالله من أن نعبد معه أحداً وهو رب كل شئ خالق مافى السموات ومافى الارض ، وخالق كل شئ : لعلهم إذا سئلوا عن قصدهم بماظاهره الكفر والشرك يقولون هـذا و يفسرون هذا التفسير ، كما يقول عبـدة المشايخ والأولياء اليوم إذا سـئلوا عما يعنون بهذه المنكرات ، على مايزعم لهـم هؤلاء المخالفون المدافعون عنهـم وعن ضلالهم وغيهم . وهم إذا قالوا هـذه الأقاويل ، وأولوا هذا التأويل كانوا غير مشركين ولا كافرين ، بل كانوا من خيار المسلمين الموحدين على زعم هؤلاء المخالفين المؤولين المحرفين .

ولكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يفكروا فى هذا المعنى ولم يذهبوا إلى ما ذهب إليه هؤلاء الناس من إحسان الظن ومن مذاهب التأويل والمجازات . فهل هؤلاء خير من أنبياء الله وأفطن منهم إلى هذا المعنى الجليل وأحرص على دماء المسلمين ؟

لو صح هذا التأويل لأمكن فى كل كلام

وبالجملة لو صح هذا الذى ذكروه من أنه واجب أن يؤول لكل من ادعى الاسلام أقواله وأفعاله لأمكن التأويل لكل أحد ولوسعه كل كلام فى الدنيا ، ولما أمكن أن يحكم على مسلم ما ، بل على أحـد ما ، بخطأ أو ضـلال أو كفر وإشراك ! وهذا لايقره إنسان ولا يقبله مسلم . وكيف يصح هذا التأويل والمذهب الذى ذكروه فيه وقد قال رجل لرسول الله عليه الصـلاة والسلام : ما شاء الله وشئت ، فقال رسول الله : « أجعلتنى لله ندا ! بل ما شاء الله وحـده » . وقد كان التأويل ممكناً لهذا القائل . وقال جماعة من المسلمين لرسول الله وقد مروا بقوم من المشركين يعكفون عـلى شجرة يتبركون وينوطون بها أسلحتهـم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ! فغضب رسول الله لهذه

خيار لم ينظروا الى التاويل

المقالة وقال : « الله أكبر إنها السنن ! قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً لهؤلاء المسلمين القائلين . وقام خطيب يوماً بين يدى رسول الله وقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال له رسول الله : « بئس الخطيب أنت ! قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . وقد كان التأويل لهذا الخطيب أيضاً ممكناً مستطاعاً . وقد قال قائلون يوماً أمام رسول الله : وفينا نبي يعلم ما فى غد ! فأنكر ﷺ هذه المقالة على قائليها وردها عليهم . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً . وقد حلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ورسول الله يسمع بأبيه ، فأنكر عليه ﷺ حلفه وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً أيضاً . وقال ﷺ : « من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » . وقد كان التأويل لمن قال ذلك من المسلمين ممكناً مستطاعاً . وقال قائل من المسلمين له عليه الصلاة والسلام : إنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ! فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال : « شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً ؟ كلا إن التأويل المطلق لا يمكن أن يجوز الذهاب إليه . فهذا الذى ذكروه وزعموه كاذب باطل .

كيف يؤولون لكل احد وقد ضاق التأويل عن اصحاب النبى عليه السلام

ولا ندرى كيف يدعون هذه الدعوى وكيف يزعمون أن التأويل لكل من ادعوا الاسلام واجب مطلوب وقد ضاق نطاق هذه التآويل والمجازات — وقد وسع الجهلاء كلهم عندهم — عن خيار الأمة وعن صحابة النبوة وعن كل مسلم لم يكن شيعياً إمامياً اثنا عشريا : فقد ضاق هذا النطاق عن صحابة رسول الله وعن الخلفاء الراشدين وعن جميع بنى العباس وبنى أمية وعن غيرهم من ملوك أهل السنة وسوقتهم . فنالوهم جميعاً بالإكفار والاضلال والتجريح والاتهام المر

المقذع . وقد كان من الميسور الممكن لو كانوا صادقين فى ما يدعونه ويقولون فى هذا التأويل والمجاز أن يؤولوا للمسلمين تلك الأمور التى آخذوهم بها ، و يؤولوا لأبى بكر وعمر وعثمان وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعائشة وحفصة وأم حبيبة والآخرين ما حسبوه عليهم من المآخذ والملاوم المتجرة المزورة . . . ولكن القوم لم يصدقوا لا فى هذا ولا فى ذاك . و إلا لو صدقوا لعلموا أن التأويل الذى يسع هؤلاء الجهلاء المغفلين الطائفين بالقبور والأجداث يدعون وينادون و يصرخون و يشكون و يشتكون لا يمكن أن يضيق عن صحابة رسول الله من الأنصار والمهاجرين وعن غيرهم من أركان الملة و بناة الشريعة .

فساد المجاز فى دعوة الأموات

أما قول الشيعى إن المجاز العقلى جائز وارد فى كلام العرب وفى كتاب الله فنقول فى الجواب : نعم و إن كان وارداً جائزاً فى الكلام العام وفى الكلام الخاص فإنه لا يجوز فى ما يتناول الاعتقاد وما يشعر بفساد الدين .

ثم لو كان هذا المجاز جائزاً ، إطلاقا و إجمالا ، فيما يتناول الاعتقاد وفى ما لا يتناوله ، لكانت دعوة الأموات من المجاز الممنوع الذى لا يجوز ، إذ لا خلاف فى أن من المجاز ما لا يصح استعماله وما لا يجوز الذهاب إليه ولا القول به .

ثم لو كان كل مجاز يصح استعماله والذهاب إليه والقول به ، فى الاعتقاديات و فى غيرها ، لكانت دعوة الأموات من غير المجاز للدلائل السابقة ، ولكانت من الحقائق الواضحة فى فساد دين صاحبها واختلال اعتقاده . ثم لو لم تكن دالة على ذلك ، بل لو لم تكن دالة على شئ من الأشياء ، لكانت هى بلفظها وظاهرها من ألفاظ الضلال والشرك والارتداد . ولا خلاف بين الناس أن من الكلام ما هو كفر وما قائله كافر مرتد و إن لم يقصد به عقيدة من العقائد

ولا نوعاً من أنواع الضلال. ولو أن مسلماً طعن في الله أو في عدله وأحكامه وقضائه أو في كتبه وأنبيائه ودينه لكان مرتداً عند جميع المسلمين وإن كان لا يقصد بما قال إلا إضحاك الحاضرين والمزاح والتفريح، أو نحو ذلك مما قد يكفر به كثيرون من المجان وسوقة الناس. وإننا نأبى كل الإباء أن تكون دعوة الأموات مجازاً مراداً بها غير ظاهرها، ونأبى كل الإباء أن يكون دعاة الأموات يريدون هذا المجاز العقلي الذي لجأ إليه هؤلاء المخدوعون الخادعون لعباد الله المضالون لهم، ونأبى كل الإباء أن يكون قول القائل: يا علي أو يا حسين، أو ياعبد القادر الجيلاني، أو يا بدوي، أو يارسول الله، أو يافلان أو فلان: أعطني أو اشفني أو اغفر ذنبي أو اهد قلبي، يمكن أن يراد به غير الطلب الحقيقي حقيقة ونصا.

المجاز في قولهم أنبت الربيع البقل وجوابه

أما قول الناس: أنبت الربيعُ البقل أو أنبت الماء العشبَ، فهو، إن كان مجازاً كما زعموا، فليس كدعوة الأموات يقيناً. وذلك أن الماء والربيع — مثلا — لا يمكن أن يعتقد أحد أنهما هما اللذان ينبتان العشب والبقل الإنبات الحقيقي المراد هنا. أما الأموات، أما الأنبياء والصالحون والبشر فيمكن أن تعتقد فيهم الشركة لله، ويمكن أن يعبدوا ويؤلهوا، بل هذا هو الواقع المشهود المنظور. فإذا وجدنا من يدعو الأموات من الأنبياء والصالحين، ويدعو الملائكة والجان، لم نجد مانعاً من أن نعتقد أن ذلك الداعي مشرك بالله وأنه يعبد هؤلاء الذين يدعوهم من دون الله، وأنه يرى أنهم يعطون حقيقة ما يسألهم وما يسألهم سواه من المشركين بربهم. أما إذا سمعنا من يقول: أنبت الربيع البقل والماء العشب فلا يمكن أن نعتقد أن قائل هذا يشرك بالله ويعبد الربيع والماء ويرى أنهما إلهان ينبتان حقيقة... فكان المجاز في مثل هذا ظاهراً لا شك فيه ولا خلاف.

والدليل على صحة ما ذكرناه أننا نجد فرقاً بين قولنا : أنبت الربيع البقل والماء العشب ، و بين أن يقال إن الطبيعة خلقتنا ، أو الشمس هى التى تخلق الخلق وهى الرازقة ، والمحيية المميتة لهم . فان من قال هـذا عد ضالا مفتريا بالاجماع والضرورة . وكذلك من قال : إن الملائكة هم الذين يخلقون الناس و يرزقونهم و يشفونهم و يفنونهم ، وهم الذين يغنونهم و يوجدون لهم جميع ما يحتاجون إليه فى الأرض أو فى السموات ، عد ضالا مفتريا . وكذلك من قال : إن محمداً أو عيسى أو موسى أو غيرهم من الأنبياء هم الذين خلقوا السماء أو خلقوا الأرض أو خلقوا البشر أو خلقوا الجنة والنار والقيامة أو نحو ذلك عد ضالا مفتريا جاهلا بلا نزاع. ولـكن من قال : أنبت الربيع البقل والماء العشب لم يعد ضالاً ولا قائلاً منكراً، لأن قوله هذا لا يدل على عقيدة فاسدة ولا رأى ضال لظهور المراد منه .

يوضح فساد ما زعموا

و يوضح فساد ما زعموا أنه لا يصح أن يقول مسلم : إن محمـداً رسول الله أو إن أبا بكر أو عمر أو عليا أو غـيرهم من الأموات ينبتون البقـل والعشب و ينزلون المطر والغيث ، أو يسوقون السحاب و يغيثون البـلاد والعباد . مع أنه يصح أن يقال : إن الربيع ينبت البقل والعشب ، وإن الرياح تسوق السحاب وتحمل الغيث والماء ، و إن السحاب يغيث العباد والبلاد . . . فلماذا صح هـذا ولم يصح هذا وكلاهما مجاز فى ما زعموا ؟ إن المخالفين إذا عرفوا هذا جيداً عرفوا الفرق البين بين قول الناس : أنبت الربيع البقل و بين دعوة الأموات وسؤالهم أفعال الله ، وعرفوا أن هذا يجوز وذاك لا يجوز بلا غرابة ولا إشكال .

فرق بين الاخبار والطلب

وأيضا هنالك فرق بين دعـوة الميتين و بين قول النـاس أنبت الربيع البقل والماء العشب . ذلك أن الأول طلب والثانى خبر ، و بين الأمرين فرق حقيقى عظيم معروف ، وليس كل ماجاز إخبـاراً جاز طلباً . والدليل عـلى هذا الفرق الواضح أنه صح أن يقال أنبت الربيع البقل و الماء العشب ولم يصح أن

يقال : يار بيع أنبت البقل، ويا ماء أنبت العشب ـ على أن يكون طلبا كالطلب في دعاء المشايخ والصالحين من الأموات . و إذا كان هـذا المثل الواحـد يجوز اخباراً و يمنع طلباً و إنشاء فكيف يستدلون بالمثل الإخباري عـلى مثل آخر طلبي إنشائي ؟ ومثل هـذا أن الناس يقولون : أروانا المـاء وأشـبعنا الطعام ، ولـكنهم لا يقولون : يا ماء أروِنا ، و يا طعام أشبعنا . ومن قال هذا عد سخيفاً أو ذاهباً مذهب المتجوزين المازحين المتلاعبين بالـكلام والألفاظ . والفرق بين النوعين : الـكلام الاخباري والطلبي الانشائي ظاهر واضح . ذلك أن المخبر ليس طالباً ولا راجياً ولا ضارعاً ولا مؤملا ذالاً ، بل هو ملق للخبر كما هو أو كما يبدو له . أما الطالب كطالب المشايخ والصالحين الميتين فانه راج ضارع خائف ذليل في طلبه ، خاشع فيـه مؤمل أن ينال به شيئاً وأن يدرك به مطلوباً وحاجة من الحاج ، معتقد بأن طلبه ينفعه وأن تركه يضره ، أى يفيته شيئاً وهو مايرجو نيله بطلبه ، ولهذا فانه يطلب و يدعو لينال ويدرك ، ثم يخضع في طلبه ودعائه و يذل و يخاص و يخشع ليكون أقرب إلى نيل مارغب فيه وما احتاج إليه . . . وهذه المعاني هي خلاصة معاني العبادة . أما المخبر القائل : أنبت الربيع البقل والمـاء العشب فليس في إخباره شيء من هـذه المعاني . فالمسوى بين الأمرين مصاب في أعز شيء لديه . وأيضا القائل للميت مثـلا : اغفر ذنبي أو اهد قلبي يسـتطيع أن ينطق بحقيقـة ما يطلب وحقيقة ما يريد . فيستطيع أن يقول : يا فلان اشفع لى عند ربك أو ادعه لى ليغفر ذنبي و يهدى قلبي . وهذا هو حقيقة ما يطلبه و يقصده دعاة الموتى على ما يقول المدافعون عنهم . فـما الذى جعل هؤلاء الضلال يعدلون عن حقيقة الـكلام إلى مجازه ؟ ولماذا لاينطقون و يصرحون عما يعنون ؟ إن كانوا يريدون البلاغة فلا ريب أن هذا الذى ذهبوا إليه لا بلاغة فيه ، و إن كانوا يعتقدون أن هـذا أقرب إلى الاجابة و إدراك المسئول فهذا هو

الضلال والخبال وسوء الاعتقاد . فلا شك أنهم ماقالوا إلا ما اعتقدوا وما أجنّوا في ضمائرهم ، ولاشك أن الذى اعتقدوه وأجنوه هو أن المشايخ يعطون ويقدرون على الاعطاء والمنع والضر والنفع حقيقة .

ماذا يقال لولم يقل هذا

أما القائل : أنبت الربيع البقل وأمثاله فماذا يقول لو عدل عن هذا التعبير وما القول الذى يؤدى الغرض سواه ؟ أيقول : أنبت الله البقل بالربيع ؟ إن هذا القول ركيك مع ما فيه من إيهام في الظاهر لايقل عن الايهام في أنبت الربيع البقل ذلك أن الباء في مثل « بالربيع » تشعر بالسببية والاستعانة ، فيشعر قول القائل : أنبت الله البقل بالربيع ان الله قد خلق البقل وأوجده بسبب الربيع مستعيناً به ، كما يقال قطعت بالسكين أو بالسيف ونحوه . والله منزه عن أن يستعين بشيء وأن يحتاج في فعله وخلقه وشأنه إلى سبب من الأسباب . ولأجل هذا كان اختيار هذا التعبير على قول الناس : أنبت الربيع البقل اختياراً مرغوباً عنه لأنه إذا كان في هذا التعبير محذور وإيهام كان في ذلك التعبير من المحذور والإيهام ما هو أشد وأوضح . ولسنا نزعم أن في مثل هذه العبارة : « أنبت الله البقل بالربيع » الآن إيهاماً ومحذوراً ، وأنه لايجوز استعمالها لذلك ، كلا ، وإنما نقول : إنه إذا كان في العبارة الأخرى إيهام ومحذور كانت هذه العبارة أكثر إيهاماً ومحذوراً ، فلا معنى إذن لترجيح هذا التعبير على التعبير الذى ذكروه وزعموه مجازاً . وإذن فإيثار هذا على هذا باطل مرغوب عنه .

أم يقول مثلا : نبت البقل ؟ إنه إذا قال هكذا لم يخرج قوله عن حدود المجاز وعن منطقة الإيهام . ذلك أنه من غير الحقيقة أن يعزى مثل هذا الفعل الذى هو « نبت » إلى البقل إذا لم يكن من الحقيقة عزو الإنبات إلى الربيع فالمجاز باق موجود في عزو الفعل إلى البقل نفسه ، فالعدول عن التعبير به لايصنع شيئاً . فماذا يقول من يريد الاخبار عن معنى الجملة المذكورة إذا رغب عنها هي ؟

حقيقة هذا المجاز نفسها لا تجوز

ويقال أيضا إن الحقيقة التى زعموها فى دعوات دعاة الأموات حقيقة لايصح سؤالها من الموتى حتى ولو صرح بها وعدل عن مجازها. فان الحقيقة التى ادعوا أن الهاتفين بالصالحين والأموات يريدونها هى طلب الشفاعة والوساطة والدعاء منهم . ولكننا قد قدمنا الدلائل فى بحث الشفاعة على أنه لايصح طلبها ولا سؤالها من الموتى ، وقدمنا أنه من غير الدين والاسلام أن يقول قائل لهالك من الهلكى : يافلان اشفع لى أو ادع الله لى أو أسألك الشفاعة والوساطة عند ربك أو نحو ذلك . وقد أوردنا البراهين المختلفة على بطلان هذا وخروجه على الدين والعقل ومحادته المعقولات والمنقولات . وإذا كان الكلام لايصح لاحقيقة ولا مجازا كان قائله خاطئا غالطا ، وإذا لم تجز إرادة حقيقة قول ولا إرادة مجازه كان هو غير جائز وغير مقبول . فدعاء المشايخ الميتين ممنوع شرعاً سواء أأريد به الحقيقة أم أريد به المجاز ، وسواء أادعى أنه على ظاهره أم ادعى أنه مؤول مصروف عن ظاهره . فاننا لانرتاب فى أن قول القائل لأحد الأموات : يافلان اشفع لى أو ادع الله لى قول قد جاء الدين بجملته و بتفصيله مبطلا له رادا على قائليه . ويرجع فى هذا إلى بحث الشفاعة من هذا الجزء

ونحن لنشك فى كون هذا مجازا!

ويقال أيضاً : إننا نشك فى كون قول الناس : أنبت الربيع البقل مجازا ، ونرى أنه لامانع من أن يكون حقيقة . والاختلاف فيه راجع إلى الاختلاف فى معنى « الإنبات » ولعل الانبات فى اللغة لايمانع أن يكون عزوه إلى الربيع حقيقة ولايحتم أن يكون مجازا ، ولعل بعض الناس يفسره تفسيراً لايرى معه أن نسبته إلى غير الله على سبيل الحقيقة ممنوعة . ونحن نشك كل الشك فى أن قولهم : قطعت السكين أو قطع السيف مجاز ، ولانجد مانعا من أن يعد حقيقة ، ونرى أن من حكم على مثل هذا بأنه مجاز ، قولا واحدا ، فقد جازف وتسرع واقتحم أمراً ما أقربه إلى أن يكون خطأ باطلا . ونسبة القطع إلى السكين و إلى السيف كنسبة

الانبات إلى الربيع وإلى الماء ، فهما سواء . هـذا هو الجواب عن قولهم أنبت الربيع البقل. ومما ذكرناه يعرف الجواب عن قولهم: بنى الأمير المدينة وعن أمثاله.

الجواب عن قول الله « فارزقوهم منه »

أما قوله تعالى « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » من سورة النساء ، ومثله قوله تعالى من السورة نفسها « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

معنى رزق

فالجواب أن يقال إن « رزقه » معناه أعطاه رزقا أو هذا من معانيه . وليس بلازم أن يكون « رزق » معناه خلق الرزق وأوجده من العدم . وقد قال الاصفهانى فى غريب القرآن : « الرزق يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أم أخرويا ، وللنصيب تارة ؛ ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة . يقال أعطى السلطان رزق الجند ، ورزقت علما (إلى أن قال) والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له وهو الله ، ويقال ذلك للانسان الذى يصير سببا فى وصول الرزق . ويقال ارتزق الجند أخذوا أرزاقهم . والرزقة مايعطونه دفعة واحدة » .

فاذا كان رزق معناه أعطى الرزق فقول الله : « فارزقوهم منه » معناه أعطوهم من المال الذى حضروا قسمته نصيبا هو منحة منه تعالى ورزق أوجبه لهم . وكذلك قوله تعالى فى الآية الأخرى « وارزقوهم فيها » معناه وأعطوهم فيها نصيبا يكفيهم ويعولهم . وإذا لم يكن فى قولهم : أعطى فلان فلانا مالا ونحوه مجاز لم يكن فى قولهم : رزق الملك جنده . أو رزق السيد رقيقه أو « فارزقوهم منه » مجاز . لأن رزق من معانيها أعطى كما ذكر الراغب الاصفهانى وكما ذكر أهل اللغة . والمسألة مسألة لسانية ، الحكم فيها يرجع إلى أهل اللسان . فاذا نص أهل اللسان وعلماء اللغة ونقلتها على أن « رزق » يكون بمعنى أعطى كان قولهم حقا وحكمهم مقبولا . ولا خلاف بين أهل اللسان أن قول الناس : أعطى فلان فلانا شيئاً حقيقة

إذا كان مرادا به المعنى المفهوم القريب الشائع ، فيجب أن يكون مثله كلمة «رزق» التي هي بمعنى أعطى . وهذا واضح .

ويدل على هذا أنه لا يجوز إضافة الرزق إلى الاموات

ويوضح ما ذكرناه ويفسد ما ذكروه أنه لا يجوز أن يقال : إن الأموات يرزقون الأحياء ، وإن الشيخ فلانا الهالك منذ الأزمان والأحقاب يرزق أهل بلدته أو يرزق أهله وأقربيه ، أو يرزق من يلوذون به ويطوفون بقبره وأمثال هـذا ، مع جواز أن يقال : رزق الملك جنـده والسيد عبيـده . وما نظن هؤلاء يجرءون على أن يزعموا أنه يجوز هذا الذى ذكرنا أنه لا يجوز . وهذا لأن رزق معناه أعطى ومن ماتوا لا يقـدرن على أن يعطوا شيئاً . ولو كان رزق هنا مجازاً وكان يجوز نسبة أمثاله إلى الموتى على سبيل المجاز لكان من المجاز الجائز أن يقال إن الشيخ فلاناً من الأموات يرزق زائره ويرزق أهل بلدته وأولى قرابته. ولكن لا شك فى امتناع هذه المقالة ، وبالتالى لا شك فى بطلان دعوى هذا المؤلف .

فالآية على كل حال لا يمكن أن تـكون حجة له . وذلك أنه لا يستطيع أن يزعم بأن الرزق يصح أن يضاف إلى كل إنسان إذا صح أن يكون مجازا واستوفى شروطه أى شروط المجاز ، فلا يمكن أن يدعى أن من الجائز ومن الاسلام والعلم والبلاغـة أن يقال : إن على بن أبى طالب يرزق أهل النجف ، أو أن الحسين يرزق أهل كربلاء ، أو أن عبد القادر الجيلانى يرزق أهل بغداد ، أو أن الإمام الشافعى يرزق أهل القاهرة ، أو أن الرسول أو أبا بكر أو عمر يرزق أهل الحجاز . فهذا وأمثاله لا نحسب المخالف يجيزه وإن قصد به قائله المجاز والتأويل ، وإذا كان هذا ممتنعاً بالاجماع ، أى باجماعنا وإجماع المخالفين لنا ، كان استدلالهـم بالآية المذكورة استدلالاً مرغوبا عنه مهجوراً . فانهم إذا قالوا بجواز أن يطلب من

برهان باهر

الموتى مالا يستطيعه إلا الله على سبيل المجاز بدليل قوله : « فارزقوهم منه » قلنا لهم : إذا لم تجوزوا أنتم نسبة الرزق إلى كل ولى ونبى وصالح ـ وهو صحيح مجازاً

و بلاغة ـ فكيف تجوزون غيره استدلالا به ؟ أى كيف تستدلون على جواز الشيء بشيء آخر وافقتم على امتناعه هو فى نفسه ،ومتى كان الدليل باطلا كان المدلل عليه أبطل ، و إذا كانت الحجة غير صحيحة كان المحتج له أيضاً غير صحيح .

ولا شك أن كلمة : « فارزقوهم منه » النازلة فى الأحياء إذا لم تدل على صحة نسبة الرزق إلى الأموات لم يصح أن يستدل بها على صحة نسبة غفران الذنوب وهداية القلوب وشفاء المرضى إليهم أو طلب ذلك منهم . .

الجواب عن قول الله ولوانهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله

أما قوله تعالى : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون »

فالجواب أن يقال :إن الإيتاء يضاف إلى المخلوق حقيقة بالاجماع وضرورة اللسان . وقد جاء فى كتاب الله نسبة الإيتاء إلى المخلوق : إلى الرسول و إلى المسلمين و إلى المشركين فيما لانحصيه من الآيات،وورد الأمر به فى غير ما آية من كتاب الله . ولا يتنازع الناس فى أنه حقيقة ، و فى أنه ليس مجازاً ،وفى أنه باق على ظاهره غير مؤول ولامصروف عما يثب إلى الفهم منه ومادعى أحد من الناس أن نسبة الايتاء إلى رسول الله من نسبة فعل الله وما يختص به إلى عباده.

معنى ايتاء الرسول عليه السلام

فأى إشكال ، أو أى مجاز فى قوله : « ما آتاهم الله ورسوله » وقوله : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » فان المراد بما آتاهم الله الصدقات والأموال التى يفرقها عليهم ، المجموعة إليه من الزكوات والمغانم التى غنمها أنصار الله من أعداء الله وأعدائهم . والمراد به أيضاً الهدى الذى جاءهم به والدين الذى اختار الله لهم والخير العظيم العميم الذى سينالونه إذا ما اتبعوه وآمنوا به . ولا ريب أن الرسول يؤتيهم الأموال حقيقة ، و يفرق المغانم عليهم حقيقة ، ويعطيهم أيضا حقيقة ، ولا ريب أنه آتاهم بالاسلام و بالقرآن و بالخير حقيقة . فما المجاز وما الإشكال فى قوله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » ؟ومن يستطيع أن يقيس إضافة

غفر الذنوب و إرشاد القلوب وشفاء ذوى العلل و إيجاد ماليس موجوداً إلى المخلوق باضافة الايتاء إلى الرسول عليه السلام ؟؟ وشتان ما بين الأمرين !!! فان الذنوب لا يغفرها إلا الله ، والقلوب لا يضع فيها الهدى سوى الله ، والعلل لا يكشفها سوى الله أيضاً . أما الايتاء فالرسول يؤتى ، والمسلم يؤتى ، والمشرك يؤتى ، و رب العالمين يؤتى ، لأن الايتاء مثل الاعطاء ، والاعطاء ليس من الأفعال الخاصة بالله . ولهذا فرقت الآية بين الايتاء و بين الحسب والرغبة ، فجعلت الايتاء مضافا إلى الله و إلى الرسول ، وجعلت الحسب خاصاً بالله ، وكذلك الرغبة ، قال فى الآية : « وقالوا حسبنا الله » وقال فى آخرها : « إنا إلى الله راغبون » ولم يقل فيها : حسبنا الله و رسوله ، ولا : إنا إلى الله ورسوله راغبون . وذلك أن هنالك فرقا بين الحسب والرغبة و بين الايتاء . فالله وحده حسب الخلق جميعاً ، والخلق لا يرغبون إلا إلى الله ربهم . فان الحسب هو الكافى . ومن يكون كافيا سوى الله ؟ قال تعالى : « أليس الله بكاف عبده » والناس لا يرغبون الرغبة المطلقة إلا إلى ربهم وخالقهم كما قال تعالى : « فاذا فرغت فانصب ، و إلى ربك فارغب » وكما قال : « ففروا إلى الله » ، وقال : « وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه » .

التفريق بين الايتاء و بين الحسب والرغبة

فاضافة الايتاء هنا إلى رسول الله لا دليل فيه ألبتة على ما زعم المخالف فانه لم يدع أحد من مخالفيه أن الايتاء لا يعزى إلا إلى الله ، ولا أنه من الصفات الخاصة به تعالى حتى يتاح له أن يتخذ منه حجة على جواز إضافة غفران الذنوب وهداية القلوب إلى الموتى . على أن هاهنا أمراً غفل عنه المخالف فى استدلاله بهذه الآية والآية التى قبلها : هذا الأمر الذى غفل عنه هو أن هذا الايتاء المضاف إلى رسول الله وهذا الرزق المضاف إلى المسلمين فى قوله « فارزقوهم منه » أضيفا إلى الأحياء لا إلى الموتى ، ومخالفوه لا يمانعون فى إضافة أمثال ذلك إلى

الأحياء ، و إنما الخلاف والنزاع فى إضافتــه إلى الموتى . فلا ينِدَّنَّ هذا عن بال المخالف . . .

وأما قوله تعالى : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » .

الجواب عن قوله إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله

فالجواب عنها كالجواب عن الآية قبلها . فان الإغناء معناه إيصال الثروة والغنى . وهذا فى استطاعة المخلوق أن يفعله كالايتاء والاعطاء سواء ، فمن أوصل إليك ثروة فقــد أغناك ، ومن أعطاك مالا جزيلا فقــد أغناك . وليس معنى الاغناء خاصاً بإيجاد الغنى وخلقه ، كما أن معنى الإيتاء والرزق ليس خاصاً بخلقه و إيجاده من أسر العدم . و بقية الجواب عن هذه الآية يرجع إليه فى الكلام على الآية التى قبلها وهى قوله : « فارزقوهم منه » .

وأما قوله تعالى عن عيسى عليــه السلام : « إنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بمــا تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) . .

الجواب عما أضاف الله الى عيسى بن مريم من الخوارق والمعجزات

فالجواب أن يقال إن استدلال الرافضى بهذه الآية من غريب الاستدلالات و باطلاتها . ذلك أن هــذه الأمور التى أضافها إلى عبــده ورسوله عيسى عليه الصلاة والسلام من الخوارق والمعجزات جعلها الله البرهان القاهر الظاهر عــلى نبوته وصدق رسالته واتصاله بالله اتصال النبي بالاله والرسول بالمرســل . ومازعم أحــد من علماء الملة المهتدين أن إضافة هــذه الأمور إلى عيسى بن مريم إضافة مجازية غير حقيقة على المعنى الذى يذهب إليه هذا المخالف ، بل أجمعوا على أنها حقيقة لامجاز ، وأجمعوا على أن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص و يحيي الموتى باذن الله ، و يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيــه فيكون طيراً باذن الله حقيقة لا مجازا ، وأجمعوا على أن إضافتها خاصــة به دون ســواه ممن لم

يعطوا هذه الخوارق والمعجزات الالهية العظيمة ، وأجمعوا على أنه من الضلال وشر الخبال والكذب على الله أن يقال : إن على بن طالب أو الحسن أو الحسين أو عبد القادر الجيلانى أو الامام الشافعى أو البدوى أو الدسوقى أو الرفاعى أو غيرهم من العلماء والصالحين والمشايخ المشهورين كانوا يحيون الأموات وكانوا يبرئون الأكمه والأبرص ويخلقون من الطين كهيئة الطير فينفخون فيه فيكون طيراً باذن الله . ولا يشكون أن من قال ذلك فقد ضل وغوى مع أنهم قد أجمعوا على وجوب إضافة ذلك كله إلى عيسى عليه السلام وعلى صدق إضافته، وأجمعوا على وجوب قبوله والايمان به ظاهرا و باطناً على ظاهره لا تأويل ولا جدال ، وأجمعوا على أن من رام شيئاً من هذا فقد خرج عن منهاج المسلمين ومنهاج سلف الأمة وحفظة الشريعة . . . فما مراد الرافضى بايراد ماخص الله به عبده ورسوله عيسى عليه السلام هنا ؟ هل يريد أن يدعى أنه عليه السلام ما كان يحيى الموتى ولا كان يبرىء الأكمه والأبرص ولا كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله حقيقة ؟ وهل يريد أن يزعم أن عيسى ما كان يفعل شيئاً من ذلك و إنما أضيف إليه على مذهب المجاز والتوسع فى الكلام كما زعم فى إضافة غفران الذنوب و إرشاد القلوب إلى المشايخ والصالحين من الاموات العاجزين .

اما ان يقول ان عيسى كان يفعل هذه الامور اولم يكن يفعل منها شيئا

ولا مفر له من أن يقول إن عيسى كان يفعل هذه الأمور المذكورة باذن الله حقيقة لا مجازا ، أو يقول إن عيسى ما كان يفعل منها شيئاً حقيقة زاعما أن نسبتها إليه لم تعد أن تكون مجازاً وأن تكون من نسبة الفعل إلى غير فاعله على سبيل المجاز العقلى كما فى قولهم : بنى الأمير المدينة ، وأنبت الربيع البقل فان ذهب إلى الأمر الأول وذهب إلى اختياره قيل : إذن فلماذا ذكر هذا هنا وهو ليس منه ولا قريباً إليه ؟ فانه إذا كان عبد من عباد الله ، كعيسى أو غيره ،

يحيي الميت و يبرئ الأكمه والأبرص ، و يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، فأضاف الله إليه ذلك حقيقة لم يدل على جواز إضافة غفران الذنوب و إرشاد القلوب وشفاء المرضى و رجع الغائبين إلى المشايخ الميتين الذاهبين ، وهم فى الحقيقة لا يفعلون شيئاً من ذلك ولا يقدرون على شئ منه و إنما هم أسباب فقط ... . وأما إن اختار الثانى ، أى اختار أن إضافة هذه الأشياء إلى عيسى إضافة مجازية لا حقيقية ، واختار أن عيسى لم يكن يفعل منها شيئاً ، فزعم أن نسبتها إليه كنسبة غفران الذنوب وهداية القلوب وشفاء المرضى ودفع الأحداث الكبرى إلى الأشياخ الميتين فقد اختار ساعتئذ ما أجمع المسلمون على بطلانه وفساده . ولا يذهب إلى هذا إلا من ذهب إلى إنكار الخوارق والمعجزات ، وذهب إلى إنكار معجزات جميع الأنبياء وكرامات جميع الأولياء ، وذهب إلى تأويل ماذكره الله فى كتابه من معجزات أنبيائه وكرامات أوليائه ، وما اتفق المسلمون فى جميع العصور على إثباته و إقراره . ولكن كيف يذهب إلى هذا والشيعة من أخضع الخلق للخوارق حتى إنهم ينسبون إلى أئمة آل البيت منها ما يعسر على غير العقل الشيعى والمنطق الامامى الاثنا عشرى أن يؤمن به وأن يقبله . فهذا الشيعى إذن غير موفق ولا راشد لا عند طائفته ولا عند مخالفيه من أهل السنة حينما ذكر معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام فى مقام التدليل على جواز دعوة الأموات وجواز إضافة أفعال الله الخاصة به إليهم . ولو صح له أن يخرج على إجماع المسلمين وعلى إجماع طائفته واستطاع أن يؤول ما ذكره الله لعبده عيسى عليه السلام لكان من الجائز عنده أن يقال إن غير عيسى كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وكان يبرئ الأكمه والأبرص و يحيي الموتى ، وكان ينبئ الناس بما يأكلون و يشربون و بما يدخرون فى بيوتهم . ولكانت نسبة هذه الأمور إلى عيسى كنسبتها إلى غيره

من المشايخ والصالحين و إلى سائر عباد الله الذين ترجى دعواتهم وشفاعاتهم .
يا هذا ، لقد طاشت سهام الاحتجاج هذه المرة كثيراً ! فان عيسى كان حتما يحيي الموتى و يبرئ الأكمه والأبرص و يخلق من الطين مثل هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا صحيحا باذن الله ، وكان ينبئ أتباعه وحوارييه بما كانوا يأكلون و بما كانوا يدخرون في بيوتهم . و يعنى بهذا أنه كان يعلم هذا القسم من الغيب باعلام الله إياه و إطلاعه عليه . وقدكانت هذه الافعال من معجزاته ودلائل نبوته و براهين صدقه وتصديق الله له . ولهذا يقول الله فى الآية المذكورة : « إنى قد جئتكم بآية من ربكم : انى أخلق لكم من الطين » الآية . فالآية التى جاءهم بها من ربهم هى مافصله فى الآية من هذه المعجزات والخوارق المدهشة ، وقد قال فى آخر الآية : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » يعنى أن فى هذه المعجزات دلالة على نبوته وصدق رسالته وتصديق الله لها .

معجزات الانبياء حقيقة لا يقال انها مجاز غير حقيقة

فهذا الذى ذكره القرآن عن عيسى عليه السلام لم يكن إلا آيات شاهدة ناطقة على أنه رسول الله . وماخص الله به الرسل والأنبياء من المعجزات والآيات لا يصح أن يضاف إلى غيرهم ، ولا أن يسوى فيه بينهم و بينهم . وقد وهب الله عيسى آيات و وهب موسى آيات ، و وهب إبراهيم آيات ، و وهب نوحاً آيات ، و وهب صالحاً آيات ، و وهب خاتم الأنبياء محمداً آيات ، و وهب كل نبى آيات خاصة به أو مشتركة بينه و بين غيره من الأنبياء والمرسلين . ولكن آياتهم لا يجوز أن تضاف هى ولا أمثالها إلى عامة المسلمين ولا عامة الصالحين ولا عامة الأولياء ممن ليسوا بأنبياء . وآياتهم أيضاً لا يجوز أن يقال إن إضافتها إليهم غير حقيقية ولا أنها مؤولة مصروفة عن ظاهرها إلى المجاز والاستعارات . فان موسى عليه الصلاة والسلام ضرب مثلا بعصاه البحر فانفلق وانشق بضربته له ولأنصاره المؤمنين طريق يبس ، وقد ضرب بعصاه أيضا الحجر فانفجرت منه

اثنتا عشرة عيناً . ولا يصح إن يقال إن هـذا مجاز و إنه غير حقيقة . وكذلك كان نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام يخلق من الطين كهيئة الطاير — والخلق هنا هو التقدير — فينفخ فيه فيكون طـيرا باذن الله ، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى باذن الله و يخبر أصحابه وأتباعه بما كانوا يأكلون و بما كانوا يدخرون فى منازلهم . ولا يصح أن يقال إن هذا مجاز و إنه غير حقيقة ، وهكذا الأمر والقول فى معجزات جميع النبيين .

ليس كل ما جاز للانبياء يجوز لسواهم من اتباعهم

وليس كل ماجـاز للانبياء يكون جائزاً لغـيرهم ، وقد جاز لنبي الله يعقوب ولزوجه و بنيه أن يسجدوا ليوسف عليهم الصلاة والسـلام ، وجاز للملائكة أن يسجـدوا لآدم . والرافضى المخالف يزعم أن هـذا السجود كان سجوداً حقيقياً . وليس بجائز لمسلم اليوم أن يسجـد لمخلوق ما و إن كان من كان . ولو أن مسلماً سجد لولى أو لنبي محتجاً بهذا السجود لـكان من الضالين الجاهلين باتفاق المسلمين . ومثـله من أجاز إضافة أفعال الله — كغفران الذنوب و إرشـاد القلوب إلى الأموات والمشايخ محتجا باضافة أحياء الموتى و إبراء الأكمه والأبرص إلى عبد الله و رسوله عيسى بن مريم . فان هذين الاحتجاجين — بالنسبة إلى الخطأ والجهل — فى قرن واحد . وكذلك قد كان من آيات الله وآلائه على عبده وخاتم أنبيائه و رسله أن عرج به إلى السموات العلى وأن قربه منه نجيا حتى كان منـه قاب قوسين أو أدنى ، وأن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن أراه فى إسرائه ومعراجه من آياته الـكبرى ما أرى ، وأن أنزل عليـه هـذا الـكتاب المخصوص بالاعجاز الخالد و بالخلود المعجز إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . وليس بجائز أن يقال إن غيره عليه الصلاة والسلام من الصالحين ومن العلمـاء الربانيين والأولياء المشهورين يمكن أن ينالوا مانال وأن يعطوا ما أعطى ﷺ من هذه الآيات والآلاء ، وليس بجائز أن يضاف مثلها إلى أفراد المسلمين .

فالمسلمون كافة يقولون إن محمداً عليه السلام عرج وأسرى به وأنزل عليه الكتاب الخالد المعجز، وأعطى غير هذا من المعجزات مثل تكثير الطعام والشراب و نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة ، إلى آخره . . . ولكنهم لا يقولون إن غيره من أنصاره المؤمنين به أعطى ذلك ، ولا يستجيزون هذا القول ، بل هم يرون أن من قاله فهو كاذب جاهل ضال . ومثله من أجاز إضافة غفران الذنوب وهداية القلوب وغيرها من أفعال الله إلى عبد من عبيده الموتى احتجاجاً بأن الله أضاف إلى عيسى بن مريم إحياء الأموات و إبراء الأكمه والأبرص... فهذان الاحتجاجان فى صفد واحد من أصفاد الباطل والخطأ والضلال . فالرافضى إذن قد بعد فى هذا الاستدلال عن التوفيق كل البعد .

ثم ماذا يرى فى هذا الاحتجاج وهذا الاستدلال ؟ أيرى أنه يجوز أن يقول المسلم : إن الشيخ فلاناً والشيخ فلاناً من الأموات أو من الأحياء يحييان الموتى و يبرئان الأكمه والأبرص و يخلقان من الطين مثل هيئة الطير ثم ينفخان فيها فتكون طيراً باذن الله ، و إنهما أيضاً ينبئان الناس بما يأكلون و بما يدخرون فى منازلهم ، و إنهما يعلمان الغيب ؟ أيرى أنه جائز للمسلم أن يقول هذا فى شيخ من الأشياخ أو مسلم من المسلمين الأحياء أو الميتين ؟ إن كان يرى جواز هذه المقالة فقد خرج عن إجماع الأولين والآخرين من المسلمين وعاند الضرورة واستباح الحمى ، حمى الدين واللغة والعقل ، وما نحسبه يجيزه . . . و إن كان يرى أنه لا يجوز أن تقال هذه الأقوال مع أنها قد قيلت فى حق عيسى بن مريم وصدق قائلوها فقد بطل الاحتجاج والقياس ، وخرج من المعركة بالهزيمة الفادحة وبالفشل الفظيع . فهذه الحجة باطلة على جميع الفروض ، فاسدة لديه ولدى مخالفيه .

قول احد الصحابة للنبي عليه السلام اسألك مرافقتك فى الجنة

وأما قول الصحابى للرسول عليه الصلاة والسلام : أسألك مرافقتك فى الجنة. فالجواب أن يقال: إن الصحابى سأله المرافقة فى الجنة ولم يسأله إدخال الجنة . وذلك

أن مرافقتــه فى الجنة يملـكها الرسول عليــه السلام لمن دخلها ولـكنه لا يملك إدخالها . والمرافقة فى الجنة معناها أن يكونا رفيقين فيها حينما يدخلانها و إن كان كل منهما لا يستطيع أن يدخل الآخر . ومثل هذا أن تريد الحج هــذا العام ويريده أيضاً صديقك فيسافر أحدكما قبل الآخر فتقول ، أو يقول لك : أريد منك أن تنزل معى فى مكان كذا ، وأرجوك أن تقابلنى وأن تسدى إلىّ هناك المعونة وأمثال ذلك . . . فهذا ونظائره من الـكلام يجوز و إن كان كل واحــد منكما لا يستطيع أن يحمل صاحبه إلى الحجاز ، ولا أن يجيز له السفر ، ودخول البلاد ، بل و إن كان أحدكما محكوماً عليه بألا يدخل البلاد وألا يطأ بقدميه أرضها. ومثله أن تقول لأحــد أصدقائك أو أقربائك من المسلمين الصالحــين : أسألك يافلان أن تلقانى فى الجنــة وأن ترافقنى وأن ترينى وجهك فيها . فهذا يجوز قوله بلا ريب ، و إن كان لا يجوز أن تقول له : يا فلان أسألك أن تدخلنى الجنة وأن تزحزحنى عن النار ، ولا أن تغفرلى ذنبى وأن تهدى قلبى . وذلك أن المرافقة فى الجنة أو فى مكان آخر تملك و إن كان لا يملك الايصال إليها ولا إليه . فيجوز أن تسأل ما يستطاع دون ما لا يستطاع .

فتأويل قول الصحابى للرسول : أسألك مرافقتك فى الجنة أن يكون قد علم أو ظن ظنا قوياً أنه سوف يثبت عــلى إيمانه وإسلامه ، وسوف يلقى الله مسلماً مؤمناً غــير مشرك ولا كافر به : وقد علم أن من لقى ربه بالايمان والاسلام فــلا بد له من دخوله الجنــة . ولابد من زحزحته عن النيران ، لأن الله أعدل من يجازى على الحسنات ، وأعدل من لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولأنه تعالى لا يمكن أن يجازى على الحسنات والخير والبر والايمان والاسلام العذاب والنار والشقاء. وقد سمع ضمانة الله الجنة فى كتابه للمؤمنين والمسلمين الصادقين فى إيمانهم و إسلامهم . ومن أصدق من الله قولا ووعداً ! ومن أحق منه تعالى بإيفاء ضمانته

وكفالته ! وقد علم أيضاً كفالة النبي عليه الصلاة والسلام الجنة لمن آمن به وصدق وأحسن فى إيمانه . وقد علم أن من اختارهم الله لرسالته و بشارته لا يمكن أن يكذبوا فى وعدهم ، ولا أن يغروا أنصارهم المؤمنين بهم المتبعين لهم ، الواهبين لما جاءوهم به نفوسهم وأرواحهم وأبدانهم وأولادهم وكل ما يملكون : علم الصحابى هذا كله ، فعلم أنه صائر بتوفيق الله إلى الجنة بإسلامه و إيمانه و إحسان الله الشامل ، ولكن خاف أن يفوته هنالك أحب شئ إليه . خاف ألا يرى ثَمَّ النبي ، و رؤياه هى أعظم منى المسلم بعد رضا الله و رؤية وجهه الكريم ودخول جنته ، فقال : يارسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة لأنى لن أطيق فراقك ولا البعد عنك و إن كنت فى دار الخلود ، فقال له النبي عليه السلام كما فى تمام الحديث : « أو غير ذاك ؟ » قال : هو ذاك . فقال النبي له : « إذن فأعنى على نفسك بكثرة السجود » وقد علم عليه الصلاة والسلام أنه لا مانع من هذا الطلب ولا من إدراك هذه الطلبة وقد أنزل الله عليه فى كتابه : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما » . وقد علم عليه السلام أن هذا الذى سأله مرافقته فى الجنة من الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ، فهو مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إذا صدق فى إيمانه ودينه . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « أعنى على نفسك بكثرة السجود » لأن السجود والإيمان والعبادة وصدق الله فى المعاملة هو الذى يدخل الجنة و ينيل مرافقة الرسول والصديقين والشهداء والصالحين فى دار السلام ، لا إرادة الرسول ولا إرادة غيره من الخلق . ولو كان دخول الجنة ونيل رضا الله يدرك بشئ من ذلك لكان أولى الناس به أبو طالب عم النبي وغيره من أولى قرباه ، ولكان من أولى الناس به آباء الأنبياء وأولادهم وأزواجهم وأقربوهم . وقد أعلمنا الله فى كتابه

أن من هؤلاء منهم من أهـل النار خالدين فيها أبد الآباد . ونعوذ بالله . فالرسول عليه الصلاة والسلام يطلب العون ممن سأله المرافقة فى الجنة لأنه يعلم أنها لا تنال إلا بالعمل الصالح وبالايمان الصحيح القوى . فالصحابى يسأل النبى مرافقته فى الجنة حقيقة لا مجازا . .

ومما يكذب زعم هؤلاء الزاعمين أنه عليه السلام لم يدع ولم يشفع له حينما سأله المرافقة بل قال له « أعنى على نفسك بكثرة السجود ». ولو كان المراد ، كما زعموا ، أن يشفع له وأن يدعو ، وكان قوله : أسألك المرافقـة فى الجنـة يعنى به سؤاله أن يدعو الله فيـه ليجعله رفيقه هناك لدعا له النبى إذا كان مقرا طلبه قابلا له ، وهولاء يزعمون أن النبى كان مقرا له ومجيزا . وهذا ما لاشك فيه . وحينئذ يقال : لـكن النبى لم يدع ولم يشفع فيما يبدو من الحديث ، وإذن : ليس مراد الصحابى ما زعموا ، وإذن ليس الأمر ما ادعوا .

فان قيل وكيف يمكن أن يرافق مسلم النبى فى الجنة والجنة درجات ومنازل ولا شك أن النبى فى أعلاها وفى أفضل منازلها ودرجاتها ، فـلا يمكن أن يسمو سام إلى منـازله ودرجاته مهما سمت درجاته ومنازله، فالجواب أن يقال : إن هذا الاعتراض ليس منطلقا إلى قولنا نحن دون قول المخالفين ، بل هو اعتراض ـ إن كان صحيحاً ـ وارد عـلى قولنا وعلى قول الرافضى وقول إخوانه . وذلك أنه يقال : وكيف يجوز لمسلم أن يطلب من النبى أن يسأل الله فيه ليكون رفيقه فى الجنة والنبى عليه السلام لا تلحق درجاته ومراتبه ، ولا يسمو إلى مكانه ومكانته سام . وحينئذ فالجواب مشترك بيننا وبين المخالفين ، والاعتراض لا يدل على بطلان قولنا إلا دل على بطلان قولهم ، فهو إذن ليس خاصا بنا ولا بقولنا . ومع هذا نقول فى الجواب : إن هذا الاشكال ـ إن كان صحيحاً ـ وراد عـلى الآية المذكورة وهى قول الله «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم

فان قيل وكيف يمكن ان يرافق مسلم النبي في الجنة وجوابه

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » . والاعتراض الذى ينطلق إلى نص القرآن الكريم لا يشك المسلمون فى بطلانه وفساده وإن لم يعرفوا وجه البطلان والفساد سوى انطلاقه إلى كتاب الله ، وكتاب الله أسمى من أن يلحقه اعتراض أو يتناوله شك أو إشكال . ومع هذا نقول فى الجواب عن الآية والحديث : إن عالم الجنة ونعيمها لايقاس بهذا العالم ونعيمه : فلا ترد عليه إشكالاته واعتراضاته .

لايلزم التساوى فى المكان التساوى فى المكانة

ثم يقال أيضاً إن مرافقة المرء المرء فى المكان لا يلزمها تساويهما فى المكانة والمنزلة والنعيم والدرجة . وهذا ما لا شك فيه . وقد يرافق ملك الدنيا وسلطانها أحد رعيته ، ويرافق أهله وزوجه وخدمه وأقربيه وغيرهم . ولا شك أنهم ليسوا سواء . وقد يرافق أغنى الناس أفقر الناس . وليس فى شئ من هذه المرافقات شئ من التساوى فى المقام أو فى الدرجة أو فى النعيم ، فلا إشكال إذن ولا اعتراض . ونظاير هذا أن النبى عليه الصلاة والسلام ــ وكذا كل نبى ــ كان يرافق أنصاره وأتباعه فى الحياة الدنيا مع أن الفرق ثابت لا ريب فيه .

فهذا الحديث ليس للرافضى فيه مستمسك ، وليس له فيه أذن ولا بصر . فالصحابى لم يسأل النبى شيئاً لايقدر عليه ، أو شيئا لا يستطيعه المخلوق حتى يتوجه له أن يحتج به على جواز أن يطلب من المشايخ والصالحين الميتين مالايقدرون عليه وما لا يقدر عليه سوى الله ، أمثال غفران الذنوب وإرشاد القلوب وشفاء ذوى العلل . ولهذا سألوا النبى المرافقة فى الجنة ولم يسألوه دخولها ولا الإبعاد من النار والعذاب . والناس جميعاً يجدون فرقا عظيما بين سؤاله المرافقة والمصاحبة فى الجنة وبين سؤاله دخولها واستحقاقها . ولايشكون أن أحداً لو قال : يا رسول الله أسألك أن تدخلنى الجنة وأن تبعدنى من النار وأن تغفر ذنبى وتهدى قلبى وأمثال هذه المسائل العليا ، لما كان منه عليه السلام الإنكار . وقد أنكر

وقد سألوه المرافقة فى الجنة ولم يسألوه إدخال الجنة

إنكار ماهو أقل من ذلك

ماهو أقل من هذا ومافى استطاعة البشر أن يفعلوه أحيانا .. فأنكر علـى من قالوا: قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق قائلا : «إنه لا يستغاث بى و إنما يستغاث بالله » وقال له وفـد من الوفود يوما من الايام : أنت سيدنا وابن سـيدنا . فأنـكر عليهم هذا القيل قائلا : « أيها الناس! قولوا بقولـكم أو بعض قولـكم ولا يغوينـكم الشيطان ». وقال لرجل : ماشاء الله وشئت . فقال « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ماشاء الله وحده ». وقيل فى حضرته : وفينا نبى يعلم مافى غد . فأنـكره . وقد أنكر غير ذلك مما الفرق عظيم بينه و بين طلب إدخال الجنة والابعاد من النار . ولا يتنازع المسلمون أن طلب دخول الجنة والابعاد من النار ، وطلب غفر الذنوب و إحلال الهداية فى القلوب لا يصح إلا من الله ، وأن من طلب ذلك من غيره فقد تقحم الضلال وعدا إلى غضب الله ومقته عدوا ، و إلا لو جاز طلب مثل هذا من المخلوق لجاز أن يطلب من غير الله كل مايطلب من الله . ولـكن المسلمين لا يختلفون فى أن من أجاز أن يسأل المخلوق كل مايسأل الله فهو مرتد مشرك بالله و إن كان مريداً فى نفسه كل التآويل والتفاسـير والمجازات . ومما لاشك فيـه أن المسلمين كانوا لا يحرصون على شىء ماحرصهم على دخول الجنة والنجاة من النار ، وقد كانوا يبيعون فى سـبيل ذلك نفوسهم سائلة على ظبات الأسـياف وجمرات الرماح ، وكانوا يرخصون أولادهم وأموالهم وكل مايدخل فى ملك أيديهم ابتغاء نيل الجنة وابتغاء النجاة من النار . ومع هذا الرجاء وهذا الخوف لم يجىء أن أحدا منهم سأل الرسول الجنة أو عاذ به من النار. فهل يمكن أن يكون هذا راجعاً إلى زهدهم فى هذا الذى ما كانوا يوما من الزاهدين فيـه ولا من الوانين فى طلبه ؟ كلا إن هـذا لا يمكن . ولـكنه راجع إلى علمهم بأن طلب دخول الجنة لا يبتغى إلا من خالقها ومبدعها ، وأن الابتعاد من النار لا يطلب إلا من الله .

لماذا لم يسألوا النبي ادخال الجنة

﴿ جواب الشبهة الثانية ﴾

الكلام على الشبهة الثانية وهي حديث خازن عمر

أما الشبهة الثانية وهى أن البيهقى وابن أبى شيبة رويا عن مالك الدار أن الناس فى عهد عمر أصابهم قحط فجاء رجل إلى قبر النبى فقال يا رسول الله استسق لأمتك ، فأتاه رسول الله فى المنام وقال له : « إئت عمر وأخبره أن الناس مسقون » .

فالجواب أن يقال : إن من الظلم وقلة الإنصاف والعدل أن يجعل الرافضى مثل هذه الرواية حجة فى هذا الموضوع الجلل الخطير وهى ليست عن رسول الله، والفاعل ليس من أصحاب رسول الله ولا من غيرهم من المعروفين بالدين والعلم . بل هو مجهول الحال ، مجهول الاسم ، لأن الرواية التى ذكرها لم تسمه ولم تذكر من أى قبيل وفريق هو ، وإسنادها غير معلوم الصحة والثبوت ، فلم تروفى كتاب من كتب الصحاح ، ولم يمحصها أو يصححها أحد من رجال الفن المحكمين فى هذا الشأن الصادقين فى حكمهم :

أقول . إن من الظلم وقلة الإنصاف أن يجعل الرافضى مثل هذه الرواية التى هذه حالها حجة فى هذا الموضوع وهو وطائفته يردون أصح الروايات إسنادا ، ويكذبون ما اتفق على روايته وتصحيحه أعلم رجال الفن بالفن ، وأعرف فرسان الحديث بالحديث ، أمثال البخارى ومسلم وغيرهما من جهابذة الرواة . فاذا لم يكن مارواه البخارى ومسلم وجميع علماء السنة والحديث حجة عندهم ولاصدقا ، فكيف تكون هذه الرواية حجة فى عبادة الموتى ودعاء المشايخ الذاهبين ؟ وإذا لم يصدقوا مارواه أهل السنة قاطبة ، ولم يرتضوا أن يعدوه دليلا فى أبواب الفقه والفروع فكيف ارتضوا أن يعدوا هذه الرواية دليلا لا يشكون فيه فى موضوع التوحيد ودعاء غير الله ؟ ثم إذا كانوا لا يقبلون ما يقوله وما يفعله أبو بكر وعمر وعثمان وجمهور الصحابة ، بل إذا كانوا يكفرون هؤلاء ويعدونهم مرتدين خارجين من رواق الاسلام

الممدود ، مؤثرين الدنيا على الدين ، كاتمين مايعرفونه من الحق وأحكام النبوة ؟ فكيف يرتاحون لرواية قيل فيها : إن بعض الناس فى عهد عمر بن الخطاب ذهب إلى قبر النبى عليه السلام وقال له استسق لأمتك . وهم لايستطيعون أن يذكروا دليلا صحيحاً على أن الذاهب إلى القبر ، الطالب للسقيا من النبى كان من الصحابة ولا من غيرهم ، ممن عرفوا بالصدق والايمان وصحة الاعتقاد ؟؟ إن الروافض يقولون إن جميع مايرويه أهل السنة فى أصح كتبهم وأنظف أسانيدهم وأوضحها لايقبل ولا يرضى ولا يعد حجة ولاشبه حجة فى أحكام المياه والوضوء وأشباه هذه الفروع . ولهذا فان هذا الرافضى يعدو على كثير من أحاديث البخارى ومسلم وغيرهما فى كتابه هذا ، فيكذبها ويهجو رواتها ولايترك من ذلك إلا ما وافق مذهبه . وقد قالوا فى كتاب « أصل الشيعة وأصولها » الذى ألف للدعاية : « إنهم — يعنى الامامية الاثنا عشرية — لايعتبرون من السنة إلا ماصح لهم من طرق أهل البيت عن جدهم . يعنى مارواه الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله سلام الله عليهم جميعاً . أما مايرويه مثل أبى هريرة وسمرة بن جندب ومروان بن الحكم وعمران بن حطان الخارجى وعمرو بن العاص ونظائرهم فليس له عند الامامية من الاعتبار مقدار بعوضة ، وأمرهم أشهر من أن يذكر . كيف وقد صرح كثير من علماء السنة بمطاعنهم ودل على جائفة جروحهم . » انتهى .

الاسانيد المقبولة عند الشيعة

فاذا كان هذا رأى القوم فيما رواه الصحابة وفيما رواه أهل السنة فى أصح كتبهم وأنظف أسانيدهم ، وكانت هذه مكانة أصحاب النبى عندهم ، وكان هذا مقدار اعتبارهم بمارووه عن نبيهم ، وإذا كانوا لايقبلون من السنة إلا ماجاء عندهم من طريق الصادق عن الباقر عن زين العابدين عن الحسين عن على بن أبى طالب عن النبى عليه الصلاة والسلام ، تاركين كل سند وكل علم وكل شئ لم

يكن بالاسناد المذكور : إذا كان هذا كله رأى القوم ومذهبهم وقولهم فلماذا يحتجون بمثل هذه الرواية التي يرويها أهل السنة عن أهل السنة عن خازن عمر ، وعمر من شر الخلق عندهم ، والتي لم يصح إسنادها عند أهل السنة ، ولم يعلم الفاعل الذي جعل فعله الحجة في الرواية ، وهو من الجائز أن يكون من شر الكفار وأضل الخليقة عند الإمامية ؟ ؟ فاذا قالوا إننا نذكر هذه الرواية وأمثالها للرد عليكم ولإلزامكم لأنكم أنتم تقبلون أمثالها وتزكون مخرجيها ورواتها — قيل أولا أنتم تجعلون كتابكم هذا حججا وبراهين على هذه المباحث وتستدلون بما فيه على جواز ما تأتونه لدى القبور والمشاهد من الفظائع والباطلات . فأنتم تحتجون بذلك كما تحاولون الرد به على مخالفيكم . وقيل ثانياً : إن هذه الرواية لم تصح إسناداً عندنا معشر أهل السنة ، ولو صحت لما كانت لدينا حجة . ذلك أن الذاهب إلى القبر المستسقى بصاحبه عليه السلام غير مسمى وغير معروف . فنحن لا نحتج بفعله ولا نقبله . لأننا لا ندعى أن كل من كانوا في عصر عمر بن الخطاب كانوا صالحين وكانوا عالمين بالاسلام حق العلم ، علما يمنعهم من الابتداع والإحداث فيه ، وعلما يحجزهم عن أن يخطئوا السنة أو يميلوا عنها ذات الشمال أو ذات اليمين . والشيعي المخالف لم يذكر لنا شيئاً من هذا ، فلم يذكر صحة الرواية عند أهل السنة على حسب شروطهم وقواعد فنهم المرسوم ، ولم يذكر لنا ذلك الذاهب إلى القبر المستسقى به حتى يعلم أن فعله حجة وأن عمله برهان لدينا . فنحن إزاء هذا نطالبه بأمرين اثنين : أولهما أن يقيم الحجة على صحة الرواية ووضوح سندها ، وثاني الأمرين أن يعرفنا بهذا الفاعل المستسقى بالنبي عليه السلام ، وأن يذكر لنا بسند واضح مشرق اسمه حتى نعرف حاله لنعلم هل قوله وفعله حجة أم ليس كذلك . وبغير هذين الأمرين لا يكون فيما ذكر شيء من معاني الحجج وصور المعارف

الرواية غير صحيحة ولو صحت لما كانت حجة لجهلنا بالفاعل

إننا نعلم ونقول إنه قد كان فى عصر التابعين ضالون وجاهلون ومنافقون . وإننا لذلك لا ندعى أن جميع من كانوا فى عصر عمر بن الخطاب معصومون من الابتداع والإحداث والضلال والنفاق . فليست أقوال جميع الناس وأفعالهم فى ذاك العهد لدينا حججاً وبراهين يعارض بها الكتاب والسنة والدين والضرورة جملة وتفصيلا . .

فان قيل قد روى أن المستسقى بالنبى ، الذاهب إلى قبره هو بلال بن الحارث المزنى الصحابى وأنتم تقولون إن الصحابة عدول كلهم مبرءون كلهم من الابتداع والإحداث فى الدين ، فالجواب أن الرواية التى فيها بلال بن الحارث رواية باطلة ضعيفة ، قد رواها سيف بن عمر الضبى فى الفتوح وهو ضعيف جداً حتى لقد اتهم بالزندقة . وقد أجمعوا على ضعفه ووهاء أمره. فمثله لا يدان الله بروايته .

وجوه الدالة على كذب الرواية ببلال معناها

وبالاجمال فهذه القصة غير صحيحة والدلائل على كذبها كثيرة : منها أنها شاذة مخالفة لما اشتهر وتواتر عن الصحابة والسلف الصالحين . إذ ما جاء عنهم أنهم كانوا يرجعون إلى قبر النبى أو قبر غيره من الأموات عند نزول النوازل واشتداد القحط يستدفعونها بهم وبدعائهم وشفاعاتهم . بل كانوا يرجعون إلى الله وإلى استغفاره وعبادته وإلى التوبة النصوح كما قال تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً » الآية . . . وقال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » وقال : « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم » الآية ، وقال « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية وقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » الآية .

ثين من ذلك

ومنها أنه قد جاء فى البخارى وفى غيره أن الناس فى زمان عمر بن الخطاب

كانوا إذا قحطوا استسقوا بالعباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام وقال عمر رضي الله عنه : اللهم إنا كنا . الحديث . وهـذا يدل على أن الصحابة ما كانوا يعرفون ولا يجيزون الاستسقاء بالنبي وهو ميت . ولهذا عدلوا عنـه إلى عمـه العباس الحى . ولو كان الاستسقاء وطلب الدعاء من الميت جائزاً مشروعاً معهوداً عنـدهم لرجعوا إلى النبي واستسقوا به وتوسلوا . . وقول عمر رضى الله عنه فى « حيثيات » الانصراف عنـه إلى العباس : إنا كنا نتوسـل إليك بنبينا فتسقينا ، يدل على أن التوسل به بعد الممات غير مشروع ولا ممكن شرعاً . وقد جاء أن معاوية ومن معه من الصحابة والمسلمين استسقوا بأحد التابعين الصالحين ، ولم يستسقوا بالنبي ولا بغيره من الأموات . ولا ريب أن التوسل لو كان جائزاً ممكناً بالأموات لكان النبي أولى بذلك من العباس ، ومن يزيد بن الأسـود التابعى الجرشى الذى استسقى به معاوية بن أبى سفيان ومن معه من المسلمين

ومنها أن أهل العلم البصراء بالاسلام وحقائقه قد ذكروا كل مايشرع عند وجود القحط . وماذكروا فى ذلك الرجوع إلى الأموات والاستسقاء بهم .

ومنها الدلائل المتكاثرة على أن الأموات لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولا نداء من ناداهم . وهذامذكور فى آيات صريحة كثيرة مثل قوله تعالى : « إنك لا تسمع الموتى » وقوله : « وما أنت بمسمع من فى القبور » .

ومنها أن الميت قد انقطع عمله كما فى الحديث الذى رواه مسلم وهو قوله عليه الصـلاة والسلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به » . ولا ريب أن هذا الحديث أصح وأولى بالتقديم من الرواية المذكورة .

ومنها أن النبي عليه السلام قد علّم أصحابه ما يقولون عند زيارتهم القبور بقوله و بفعـله ، وما جاء فى تعليمه الأمر بطلب الدعاء منهم والاستسقاء بهـم .

ولا شك أنه لم يكن مقصرا ولا مدخراً بياناً ولا كاتما عملا يدنيهم من رضا الله وجنته . ومنها غير ذلك مما هو منثور فى أحشاء هذا الكتاب وفى غيره . .

وإذا بطل كل ماتقدم لم تدل الرواية على كل مايفعله العاكفون على القبور

ثم يقال : إذ تركنا كل ما قدمنا وسلمنا أن هذه الرواية صحيحة الاسناد ، وأن عمل ذلك الذاهب إلى القبر ، المستسقى به حجة لم يدل شئ منه على جواز ما يذهب إليه هؤلاء القوم من طلب المشايخ والموتى كل ما يطلب من الله كالنصرة على الأعداء وكشفاء المرضى وهداية القلوب وغفران الذنوب . وإنما تدل الرواية بعد هذا كله على جواز الاستسقاء وطلب الدعاء من الأموات ، أما سؤالهم الحاجات مباشرة ـ وهذا هو أصل قول المنازعين فى هذا الباب ـ فلا تتناوله الرواية بوجه من وجوه الجواز والإباحة . وقد يذهب قوم ـ بل قد ذهبوا ـ إلى أن طلب الدعاء من الميتين جائز، وأما طلب الحاجات فإنهم لا يجيزونه ولا يقبلونه . وليس بين الأمرين تلازم شرعى ولا عقلى ، بل إن بينهما فرقا عظيما ، وإن كان أخفهما ذريعة إلى أشدهما . فان طلب الدعاء من الميت سبيل لاحبة ، كما حدث ، إلى دعائه مباشرة . والباطل عند أهل العلم والبصر مرفوض بوسائله وغاياته .

﴿ الشبهة الثالثة ﴾

حياة الشهداء والكلام عليها وهي الشبهة الثالثة

أما الشبهة الثالثة ، وهى قوله إن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وإن الأنبياء أولى بالحياة من الشهداء ، وإن الأحياء يجوز دعاؤهم والاستغاثة بهم . فالجواب أن نقول : إن ما ذكره الله من حياة الشهداء نقض صريح على هؤلاء المخالفين لو كانوا يعلمون . ذلك أن القرآن قد نص جهرة على أنهم أحياء عند ربهم . وهذه العندية ، إما أن تكون عندية حقيقية حسية ، أو معنوية مجازية . فأن كان الأول هو الحق والمعنى ـ على أن يعنى به أنهم موجودون بحياتهم عند الله فوق الخلائق ـ فهو رد على المخالفين واضح . وذلك أن مسلما من

المسلمين لن يبيح لنفسه ولدينه أن يدعو مخلوقا نائياً غائباً عنه واقعاً فى أقصى مكان : فى السماوات أو فى الأرض أو غيرهما . والمسلمون يعتقدون بأن عيسى ابن مريم مرفوع الى الله ، ولا يرى أحد منهم أن دعوته جائزة أو ممكنة . ولو أن نبياً من الأنبياء : محمداً أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو غير هؤلاء كان اليوم موجوداً حيا سويا ، فراح الناس يدعونه ويهتفون به فى كل مكان ومن كل مكان بكل حاجة فى الحضرة والمغيب مع البعد والقرب ـ كما يفعل هؤلاء فى المشايخ الميتين ـ لكانوا ضالين جاهلين فاعلين مالا تجيزه العقول ولا الشرع الصحيحة . وقد كان الأنبياء أحياء موجودين بين أظهر أقوامهم ، وما كانوا يدعونهم من كل مكان أو فى كل مكان ، بل كانوا لا يدعونهم إلا حاضرين شاهدين . وما حاول أحد منهم من أهل الفضل والعلم والبصر بالدين شيئاً من هذا . . . ولا يدعو مخلوق مخلوقا من كل مكان وفى كل مكان إلا إذا زعم وآمن بما زعم أن ذلك المخلوق المدعو عالم بكل شئ محيط بالغيوب ، عارف ماقرب منها وما بعد . ومن زعم هذا واعتقده فى إنسان أو فى مخلوق ما فقد شبهه بالخالق وسواه به فى صفة علم الغائبات والاحاطة بالكائنات . ومن اعتقد هذه العقيدة فى مخلوق : فى نبى أو ولى أو صالح فقد ضل الضلال البعيد وكفر بإجماع المسلمين.

تسوية الاموات بالله فى صفة عالم الغيوب

فهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والصالحين من كل مكان وفى كل مكان فى المحضر وفى المغيب على القرب والبعد لا ريب أنهم ما دعوهم كذلك إلا لزعمهم أنهم يعلمون كل شئ ويسمعون كل مسموع من قرب ومن بعد ، لا يشغلهم سماع عن سماع ، ولا صوت عن صوت ، ولا يحول بينهم وبين سماع الهتاف بأسمائهم بعد ولا غيره من الشواغل . فهؤلاء الداعون للأموات يسوونهم بالله فى علم الغيوب والاحاطة بأسرار اللهجات واللغات . فهم ضالون مخطئون بلا ريب . وهؤلاء العاكفون على القبور الداعون لسكانها ـ وهم يعلمون أنهم أحياء عند ربهم

فوق السماوات وفوق جميع المخلوقات ـ يعتقدون فيهم هذه العقيدة النكراء من علم الغيب وعلم القريب والبعيد ، وعلم جميع اللغات واللهجات والحاجات . ولهذا يدعونهم : كل بلغته ولهجته موقنين بسماعهم دعاءهم ومعرفتهم بلغاتهم وعلمهم بحاجاتهم . فهم ضلال خاطئون .

هـذا إذا اخترنا أن هذه « العندية » فى قوله « عند ربهم » عندية حسية حقيقية . أما إذا اخترنا أنها عندية مجازية معنوية ـ على معنى أنهم أحياء فى حكم ربهم وشهادته وجزائه ومثوبته ، وإن لم يكونوا أحياء فى الواقع ولا عنـد الخلق ولا فى المشاهدة كقوله عليه الصلاة والسلام « لخلوف فم الصائم أطيب عنـد الله من ريح المسك » يعنى أن هذه الرائحة المرغوب عنها المنبعثة من فم الصائم عنـد اشتداد جوعه حكمها عند الله أنها طيبة وأنها أطيب من ريح المسك ، وإن كانت فى الواقع والمشاهدة كريهة مرغوبا عنها،مثل أن يقال فى الكلام المعروف : إن سواد التقى الصالح لأشـد بياضا عنـد الله من بياض الفاجر الفاسق ، وإن درهم المخلص ينفقه فى سبيل الله لأكثر عند الله من دنانير المنافق ينفقها رئاء وسمعة وأمثال هذا من الكلام المطروق المعروف ـ : أما إذا اخترنا هذا المذهب فى معنى عند ربهم فى الآية الكريمة فلاشك أن الآية خارجة عما نحن فيه ، بعيدة البعد كله عن استدلال القوم ، بل كانت ردا عليهم نقضا لمذهبهم وزعمهم . وذلك أن المعنى حينئذ أن الشهداء فى الواقع أموات حقيقة ، أموات كما تدل هذه الكلمة ولكن حكمهم عند الله حكم الأحياء بل هم أفضل منهم لأنهم باعوه تعالى أنفسهم وباعوا كل شئ لدينه ونصرة شريعته ، فنالوا من الثواب مالا ينقطع ومالا يموت فكأنهم ماماتوا ، وكأنهم مازالوا يعملون فى رضا الله وفى تأييد الفضيلة وتأييـد الأخلاق . وذلك أيضا لأن أثر جهادهم لايزال باقيا ، ولا يزال حيا مشهوداً ، فكان الجهاد كذلك باق مشهود ، وكانهم هم كذلك لايزالون باقين أحيـاء مشهودين .

ولكنهم أموات فى الحقيقة ، والأموات لايسمعون فلا يدعون ولا يرجون لشئ يرجى له الأحياء ، إذ قد انقطعت أعمالهم وتناثرت أعضاؤهم وأفضوا إلى دار الجزاء والثواب . فالآية ، على الاحتمالين ، نقض صريح على دعاة الأموات والمؤيدين لدعائهم احتجاجا بالآية الكريمة .

اختيار الاحتمال الأول فى حياة الشهداء

إننا نحن نختار الاحتمال الأول ، وهو أن يكون معنى الآية الكريمة أن الشهداء أحياء بأرواحهم حياة حقيقية غيبية روحية ، ولكنهم فى حياتهم عند ربهم فى دار الخلد والجزاء والسلام . . . فهم غائبون قصيون عنا وعن أهل الدنيا لانستطيع الاتصال بهم ، ولاهم يستطيعون الاتصال بنا ، فنحن فى عالم وهم فى عالم آخر ، والعالمان مختلفان متباينان حقيقة ومعنى . فمن حاول الاتصال بأهل الآخرة من الأموات وغيرهم فقد ضل وجهل وحاول مالا يستطاع نيله ولا لحاقه. ومن حاول أن يدعوهم وأن يسمعهم دعاءه ونداءه وصوته واستغاثته فقد جهل وضل . فلو أن مسلماً راح يدعو المسيح بن مريم ويستغيثه ويناديه لحاجاته ومآربه ، بحجة أن الله رفعه إليه وأنه حى عنده ، لكان عندنا وعند جميع المسلمين من الضالين الجاهلين . ولو أن مسلماً راح يدعو من خلقهم الله فى جنته من الحور العين والولدان المخلدين، بحجة أنهم أحياء ، وأن الأحياء يدعون ويستغاثون ، لكان عندنا وعند جميع المسلمين عين الضال الجاهل . ولو أن مسلماً راح يدعو شيخاً حيا ويستغيثه ويطلبه النصرة والمغوثة والعون ، وكان كل منهما : من الداعى والمدعو فى أرض ومكان لكان عند جميع العقلاء وعند جميع المسلمين من الضالين الجاهلين : هذا كله لاشك فيه . ولا ريب أن شرا من هؤلاء وأجهل وأضل ذلك الذى يستغيث الأموات ويدعوهم ويهتف بهم وبأسمائهم من كل مكان وفى كل مكان بعد ما سمع قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » . فانه إذا كان ضالا جاهلا من دعا حيا غائباً بعيداً عنه إلا أنه معه فى عالم الدنيا كان أجهل وأضل

من راح يدعو المسيح وأهل الجنة بحجة أنهم احياء

منه ذلك الذى يدعو من هو أغيب وأبعد عنه : من هو فى عالم الآخرة وعالم الموت والفناء . إذ لاشك أن من هو معك فى الدنيا ـ وإن كان عنك غائبا ـ أقرب إليك ممن هو فى عالم الأخرى . ذلك أن الأول يمكن رؤيته ويمكن الاتصال والاجتماع به والاستماع إليه بنوع من أنواع الآلات . أما الثانى فلا يمكن الاتصال ولا الاجتماع به ، ولا يمكن رؤيته ولا السماع منه إلا أن يشاء الله فتتجاوز إليه هذه القنطرة ويطويك بساط العدم والفناء ، ويلفك أفق الموت فتغوص فى أحشائه . وشتان مابين المدعوين .

نقول ان الشهداء أحياء ولكن

إذن نقول لهذا الرافضى المخاصم : نعم إن الشهداء أحياء ، وإن الأنبياء أولى بالحياة منهم ، ولكن هذه الحياة لا تدل على جواز دعوتهم والاستغاثة بهم . وذلك لأنهم أحياء عند ربهم لا عندك ولا عندى ولا عند دعاتهم الهاتفين بأسمائهم . فمن لك بأن تتصل بهم ! ومن لك بأن تسمعهم دعاءك ونداءك ونجواك وسرك وعلنك ! ثم من لك بأن يجيبوك وينفعوك لو اتصلت بهم ونفذت إليهم وأسمعتهم خطابك وهتافك ! من لك بذلك كله حتى تدعى بأنهم يعلمون الغيوب كلها ، ويسمعون الأصوات والنداءات كلها ، ويعرفون اللغات واللهجات كلها ، وتتسع آذانهم وقلوبهم وعقولهم وطبائعهم للمطالب والحاجات كلها ! وأنت إذا ما ادعيت هذا كله للمشايخ أو للأنبياء والشهداء كنت عين الضال المفترى ، وكنت آخذاً من كل بدعة بنصيب ، ومن كل ضلالة بحظ وافر كثير . ولكنك ولابد ، غير قائل بهذا وغير قابل له . فالآية ، إذن ، رد ونقض عليك وعلى جميع الاخوان والأنصار . ولنكتف بهذا القدر جوابا عن الآية الكريمة . ولنا فيها كلام ذكرناه فى مواضع أخرى يرجع إليه من أراد المزيد من الإبطال لهذه الحجة الباطلة .

﴿ الشبهة الرابعة ﴾

زعمه ان المسلمين قد فعلوا ذلك سلفا وخلفا

أما الشبهة الرابعة ـ وهي قوله : « إن المسلمين سلفا وخلفا ما زالوا يدعون الأنبياء والصالحين و يستغيثونهم » ـ فجوابها أن نقول : سبحانك هـذا بهتان عظيم وكذب أثيم ! هذا هو الجواب الاجمالى عن الشبهة . وأما الجواب التفصيلى فيعرف من جملة هذا الكتاب . وهل يستطيع هذا المدعى الجرئ أن يورد حجة واحدة على أن أبا بكر أو عمر أو عثمان أو علياً أو الحسن أو الحسين أو فاطمة أو غيرهم من الصحابة وقرابة النبوة ، أو أن الامام أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعى أو أحمد بن حنبل أو غيرهم من الأئمة الصادقين المعروفين ، أولى الذكرى الطيبة والامامة الشائعة المتبعة فى المسلمين ـ : استغاث بميت من الأموات ، أو دعاه لكشف ملمة من الملمات ، أو هتف به لحاجة من الحاجات وأمل من الآمال ؟ فإن لم يستطع أن يورد لنا نقلا صحيحاً عن أحد هؤلاء فليكفه هذا العجز إبطالا و إدحاضاً لمزعمه هذا .

﴿ الشبهة الخامسة ﴾

ماذكره من ذلك عن اهل العلم وكذبه وابطاله لمزاعمه الاخرى

وأما الشبهة الخامسة ـ وهى زعمه أن جماعات من العلماء استغاثوا النبى عليه الصلاة والسلام واستغاثوا قبره فأغيثوا ، مثل ما ذكر عن محمد بن المنكدر وعن أبيه ، وما ذكر عن الطبرانى وأبى الشيخ وابن المقرى ، وما ذكر عن ابن الجلاد ، وما ذكر عن محمد بن أبى زرعة الصوفى وعن أبيه ، وماذكر عن أحمد بن محمد الصوفى ـ من أنهم استغاثوا بقبر النبى فأغيثوا وأعطوا ما طلبوا ـ فالجواب أن نقول ، هذا كله من أقبح الأكاذيب وأرخصها ومن أقبح الاتهام لأهل العلم

ونحن لا نشك أنه لايذهب إلى هذا الذى فى الحكايات ولا يفعله إلا مشرك بالله مغرق فى شركه . وهـذا الذى نقله وزعم أن أهل العلم فعلوه تكذيب

منه لما زعمه وذكره فى غير موضع من كتابه من أن الداعين للأموات المستغيثين بهم لا يريدون منهم إلا الشفاعة والجاه والوساطة والوسيلة . وذلك أن هذه الحكايات التى ذكرها وكاثر بها صريحة فى أن القوم الذين احتج بفعلهم قد سألوا النبى حقيقة فأعطاهم حقيقة . ففى الحكاية التى ذكرها عن ابن الجلاد قال : « فغفوت فرأيت النبى عليه السلام فأعطانى رغيفاً فأكلت نصفه وانتبهت وبيدى النصف الآخر . . . » وفى الحكاية التى ذكرها عن محمد بن أبى زرعة الصوفى وعن أبيه وعن ثالثهما قال : « فدخلنا المدينة فأتى أبى الحظيرة وقال : يا رسول الله أنا ضيفك الليلة — إلى أن قال — فرأيت رسول الله فوضع فى يدى دارهم فبارك الله فيها إلى أن رجعنا إلى شيراز، وكنا ننفق منها » وفى الحكاية التى ذكرها عن أحمد بن محمد الصوفى قال : « فدخلت المدينة فجئت إلى النبى عليه الصلاة والسلام فسلمت ثم نمت ، فرأيته عليه السلام فى النوم فقال لى : جئت ؟ قلت : نعم وأنا جائع وأنا فى ضيافتك ، فقال : افتح كفيك فملأهما دراهم فانتبهت وهما مملوءان » .

هذه الروايات صريحة فى ان المعطى حقيقة هو الرسول

فهذه الروايات صريحة فى أن المدعو حقيقة والمعطى حقيقة كذلك هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والروايات لا تحتمل غير هذا . وفيها رد واضح على هذا الرافضى وإخوانه زعمهم أنهم لا يطلبون من الأموات ، كالأنبياء والصالحين والمشايخ ، سوى الشفاعة والوساطة والوسيلة والجاه ، وقولهم إن المعطى حقيقة هو الله وحده ، وإنه هو وحده تعالى الضار النافع ، المعطى المانع . . وقد زعموا أنهم بهذا التأويل والتخريج قد حلوا هذه المشكلة ، مشكلة دعاء الموتى والاستغاثة بهم كما زعموا أنه لولا هذا التأويل وذاك التخريج لما وسعهم إلا إكفار دعاة الأموات ، وإلا إلحاقهم بالمشركين الضالين . . . ولكنهم بهذه الروايات والحكايات قد أفسدوا هذا التأويل وقوضوا ذلكم التخريج ، وأبانوا أنهم كانوا

كاذبين غاشين لأنفسهم ولمن يخادعونهم ويضلونهم بهذه التأويل من دعاة الميتين العاجزين .

يامن زعموا انهم مسلمون

فيامن زعموا أنهم مسلمون موحدون : إذا كان الرسول وغيره من الميتين يدعون حقيقة ويعطون حقيقة ، ويرجع إلى قبورهم كل مكروب محروب ، ويبسط يديه إلى أضرحتهم وأجداثهم كل راغب طالب ، وإذا كان لديها يجاب المضطر ، ويكشف الضر ، ومنها تنال الحاجات ، وعليها تلتقى الرغبات : إذا كان هذا كله للقبور والمقبور فماذا بقى ، ويحكم ، لله رب العالمين ؟ ويا من قالوا إنهم يبرءون من الشرك والمشركين قولوا لنا وافصحوا ، ويحكم ، إذا لم يكن هذا أضخم أنواع الشرك وأثقل عبودية لغير الله فماذا يكون الشرك ، وماذا يكون المشركون ؟ !

ويامن زعموا أنهم مؤمنون بالقرآن وبآيات التوحيد قولوا لنا ، ويلكم ، كيف تلاقى هذه الروايات التى ذكرتموها قول الله : « أليس الله بكاف عبده » ، وقوله : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وكيف تقابل حكاياتكم هذه قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » وقوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » وقوله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا . قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا » ؟

كيف تقابل هذه الروايات جملة الاسلام

أم كيف تقابل امثال قوله : « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » وقوله : « ليس لك من الأمر شئ » وقوله : « ألا له الخلق والأمر » وقوله : « فاذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » وقوله : « وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه » ؟؟ بل كيف تقابل رواياتكم هذه جملة القرآن وجملة السنة وجملة الاسلام ، وكيف تقابل صريح العقل وصحيح الفطرة ؟ لا إله إلا الله . صدق الله العظيم « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

نعم لجواب هذه الحجة الداحضة الكاذبة أن نقول للرافضى : إننا نرفض هذا النقل ونأباه ، ولا نصدقه ولا نؤمن به ، ولا نقيم له وزناً ، ولا ننعم به عيناً ، ولا نطعن به كتاب الله وسنة نبيه ، ولا نرد به جملة الاسلام وجملة الدين . ونحن نتحدى المخالفين ونطلب إليهم جميعاً تصحيح الأسانيد إن كانوا صادقين . ولكن هيهات ثم هيهات لما يذكرون .

ولا ندرى والله كيف يعقل هؤلاء ، ولا كيف يفكرون ، ولا كيف يرعون جنب الله ! إنهم يرفضون أصح الروايات وأصح الأحاديث النبوية التى اتفق على روايتها وتصديقها وتصحيحها جميع أهل السنة من أعلام الرواة أمثال البخارى ومسلم والآخرين أمثالهم . فكيف مع هذا يسوغ لهم أن يحتجوا بأمثال هذه الروايات والحكايات التى لم يروها إلا هيان عن بيان ، ولم ينقلها إلا الجهل عن أخيه الغباء عن جده الشرك بالله عن جد أبيه الوثنية الأولى الراسبة فى أعماق النفوس من بقايا الشرك العريقة فى نسب القدم ؟! اللهم إنا نؤمن بكتابك ونكفر بما يذكرون وما ينقلون خلافاً لدينك ولكتابك .

حديث اذا انفلت احدكم دابته فى فلاة من الارض والكلام عليه

﴿ الشبهة السادسة ﴾

وأما الشبهة السادسة وهى قوله : روى ابن السنى عن عبد الله بن مسعود

قال قال رسول الله ﷺ : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد : عباد الله احبسوا ، فان لله عباداً يجيبونه » ، قال وفى حديث آخر رواه الطبرانى أنه ﷺ قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينونى — وفى رواية — أغيثونى ، فان لله عباداً لا ترونهم » .

فالجواب أن يقال : الكلام على هذا الحديث من وجهين : الأول الكلام فى إسناده ، والثانى الكلام فى معناه . أما الكلام على الاسناد فيقال : لا ريب بل لا خلاف فى أن مجرد رواية ابن السنى أو الطبرانى أو غيرهما — ممن لم يشترطوا الصحة والثبوت فى ما يروون — ليس حجة فى صحة الحديث وثبوته ووجوب التسليم والرضا به . فان أمثال هؤلاء من المحدثين يروون الصحيح والضعيف والمكذوب الموضوع . ولهذا فان صيارفة الحديث ونقاد الرواة يتعرضون لما يروى هؤلاء بالنقد والتخريج : بالتصحيح تارة والتضعيف أخرى والتكذيب تارة ثالثة . ولهذا أيضا يذكر الذين ألفوا فى الموضوعات أحاديث كثيرة رويت فى هذه الكتب ويعدونها فى عداد الموضوعات . وما أنكر عليهم عالم بالفن والحديث عملهم هذا ، ولا قال لهم قائل : كيف تعدون حديثا رواه ابن السنى والطبرانى موضوعاً وهما من علماء الحديث وفحول الرواة؟ والسبب فى هذا أن أكثر المحدثين كانوا يروون كل ما يصل إلى علمهم من الحديث والأخبار بالأسانيد ويتركونها كما هى ثقة بعلم القارئ ونقده وبحثه . فهم يؤدون الأمانة النقلية ، كما وصلت إليهم ويدعون تمحيصها ونقدها إلى غيرهم علماً منهم بأن مجرد روايتهم الحديث ليس تصحيحاً له ولا توثيقاً وتزكية لرواته . ولهذا فانهم أحياناً يضعفون ما يروون ، وأحياناً يصححونه ، وأحياناً أخرى يحسنونه ، وأحياناً يعللونه ، وأحياناً يسكتون عنه . ولكل فى عمله وجهة ووجه . ومثلهم فى هذه الناحية فقط رجال الادب الجامعون الراوون لكل ما وصل إليهم من الأشعار والآداب الكلامية : جيدها

و رديئها ، حسنها وقبيحها ، مقبولها ومردودها . وليست روايتهم للبيت من الشعر أو للقصيدة أو للقطعة من الكلام أو للخطبة من الخطب استحساناً مطلقا أو اختياراً لها أو رضا عنها أو تجويداً لأمرها ، كلا . بل قد يروون من الشعر ومن الكلام والخطب ما يستقبحون وما يضعفون و ينقدون . نعم هنالك طائفة شرطوا على أنفسهم أن يضعوا كتبا لا يذكرون فيها إلا ما يختارون و يستحسنون مثل أبي تمام في ديوان حماسته ومثل غيره . وهنالك أيضاً طائفة كبيرة من علماء الحديث أخذوا على أنفسهم أن يؤلفوا كتبا خاصة بالصحاح الثوابت كما فعل البخارى ومسلم فى تأليف الصحيحين، وكما فعل غيرهما. ولكن هؤلاء ليسوا الأكثر فى رجال الحديث . ولهذا احتاج المتأخرون من المحدثين إلى وضع الكتب المختلفة فى خدمة مادونه وخافه الأوائل منهم : فوضع بعضهم كتبا فى الأحاديث الموضوعة و وضع بعضهم تخريجاً لأحاديث طائفة من الكتب ، وبعضهم فعل غير ذلك مما هو معروف معلوم .

وبالاجمال لاشك أن مجرد رواية الحديث فى أحد هذه الكتب لا يكفى لوجوب العمل به والقبول له ، ولا يكفى لتصحيحه وثبوته . فهذا الحديث الذى رواه ابن السنى والطبرانى لابد للمحتج به من التدليل على صحته وثبوته ، و بغير هذا لا يقبل ولا يلتفت إليه . لأن الناس جميعاً يعلمون أن هنالك أحاديث كثيرة مدونة فى كتب مشهورة ، ولكنهم يعلمون بعد أن فى هذه الكتب أخباراً باطلة وأحاديث موضوعة مكذوبة لا يصح الاعتقاد بأن رسول الله قالها . فهذا الشيعى مطالب أولاً بتصحيح الحديث الذى استدل به على عبادة الصالحين ودعاء الأموات والاستغاثة بهم . و إلا فان مسلما عاقلا يحب دينه واعتقاده ، و يحب ربه ونبيه لا يرضى بأن يقيم قواعد دينه وعقائده على مجرد روايات رويت فى الكتب لم يقم دليل على ثبوتها وصحتها ولم يعلم هو شيئاً من ذلك .

سند الحديث وبيان ضعفه

ونحن لانشك أن الحديث غير ثابت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد ذكره السيوطى فى الجامع الصغير وسكت عنه ولفظه عنده : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : ياعباد الله احبسوا على دابتى. فان لله فى الأرض حاضراً سيحبسه عليكم » . وعزاه إلى أبى يعلى والطبرانى وابن السنى من حديث عبد الله بن مسعود . وقال الحافظ الهيثمى فى « مجمع الزوائد » : رواه أبو يعلى والطبرانى ، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف . ورواه ابن السنى أيضاً فى «عمل اليوم والليلة» وسنده عنده هكذا : حدثنا أبو يعلى حدثنا الحسن بن عمر بن شقيق حدثنا معروف بن حسان أبو معاذ السمرقندى عن سعيد عن قتادة عن أبى بردة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود الحديث . ومعروف بن حسان هذا ضعيف للغاية . قال الذهبى فى ترجمته من الميزان : «قال ابن عدى منكر الحديث ، قد روى عن عمر بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة » . وذكر هذا العسقلانى فى لسان الميزان وزاد : قال ابن أبى حاتم عن أبيه : مجهول .ولم يذكر الذهبى ولا العسقلانى فيه ثناء أحد .فكان حديثه باطلا لايحل الاحتجاج به . وقال فى مجمع الزوائد أيضا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدكم عونا وهو بأرض ليس بها أنيس ، فليقل : ياعباد الله أعينونى ، ياعباد الله أعينونى ، ياعباد الله أعينونى . فان لله عباداً لانراهم » رواه الطبرانى ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم إلا أن زيد بن على لم يدرك عتبة . هذا لفظ الهيثمى . وهذه الرواية هى الحديث الثانى من أحاديث الرافضى . وفى سندها انقطاع وفى رواتها ضعفاء كما ذكر الهيثمى . فهذان هما الحديثان اللذان يعارض بهما القوم كتاب الله وضرورة الدين بل الأديان كلها . فهما حديثان ضعيفان لايعتد بهما أهل العلم ولايقيمون لهما وزنا . وقد حاول المصنف الشيعى الدفاع عن سند الحديث فقال

دفاع الشيعى عن الحديث وبطلانه

فى كتابه ما نصه : « إن أخذ الفقهاء له بالقبول ، وذكرهم مضمونه فى آداب السفر

وإيراد أئمة الحديث له فى كتبهم كالطبرانى والنووى مغن عن تصحيح سنده لو سلم ماقالوه . وكيف خفى على الفقهاء والمحدثين أن مضمونه شرك أوحرام وظهر ذلك لأعراب نجد ؟ »

هذا هو دفاع الشيعى عن الحديث ومن ضعف الحديث ، وهذا لون من ألوان علمه وأدبه ومنطقه ودينه . وقد خفى على الرجل أنه لم يقل أحد من خلق الله إن رواية حديث من الأحاديث وخبر من الأخبار فى كتاب من الكتب ، مالم يشترط الصحة ، ليست دليلا على ثبوته عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وليست دليلا على صحة معناه وصدقه ؛ ولا دليلا على موافقته لقواعد الاسلام ولأصوله وفروعه وكل الناس الذين تعاطوا شيئا من علوم الرواية والحديث يعلمون أن كبار الأئمة قد يروون الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة المكذوبة . وقد عد المحدثون على مسند الامام أحمد بن حنبل ـ وحسبك به علما وفضلا وإمامة فى هذا الشأن ـ أحاديث كثيرة باطلة ، دع عنك الضعيفة ، والمعلة والشاذة . بل زعم فريق من نقدة الحديث البارعين أن فى المسند أحاديث موضوعة . هذا فى مسند إمام الحديث والفقه والعلم والتقوى أحمد بن حنبل . أما الكتب الأخرى كمؤلفات الطبرانى وابن السنى وأبى يعلى وأضرابهم فالأمر فيها أوضح وأشهر وأظهر . وأنت إذا رجعت إلى الكتب المؤلفة فى الموضوعات وجدت شيئا كثيرا من هذا ، بل إذا رجعت إلى جميع كتب أعلام النقد وكتب الجرح والتعديل وجدت الأمثلات الكثيرة لهذا النوع . وهل الأحاديث الموضوعة التى اتفق أهل الحديث على أنها كذب إلا أحاديث مروية فى كتب الأعلام من العلماء مثل الطبرانى وأبى يعلى وابن السنى والحاكم والدار قطنى والخطيب البغدادى وغيرهم من شيوخ الحديث ؟ وهذا لايخالف فيه أحد من أهل العلم والرواية والدراية. ولو كانت رواية الحديث فى كتاب من الكتب كافية فى تصحيح الحديث وثبوته عن النبى

ليس كل ماروى فى كتب الحديث صحيحا

وفى صحة معناه لما احتاج أهل العلم إلى علم الرواية وعلم الجرح والتعديل ، ولما احتاجوا إلى علم الأسانيد وإلى علم الرجال وإلى نقدهم ونقدها وإلى الكلام عليها وعليهم تصحيحاً وتضعيفا ، قدحا ومدحاً ، قبولا ورداً ، ولكان يغني عن ذلك كله أن يذكر الحديث فى كتاب من الكتب المنسوبة إلى أحد العلماء الأعلام ، ولكان أيضاً من حاول تضعيف حديث من الأحاديث المخرجة فى هذه الكتب غالطا معتديا جاهلا ، ولكان أيضاً تضعيف المحدث لحديث يرويه هو جهلا وحماقة ، ولكان هذا الرافضى أعلم بالسنة وبالحديث وعلم الرواية من أمثال البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل والذهبى والحافظ بن حجر وابن تيمية وأضرابهم من أساطين العلم وأعلام النقد .

كيف يصح هذا الحديث عندهم وهم يردون جميع أحاديث أهل السنة

ثم كيف يكون إيراد المحدثين للحديث فى كتبهم وذكر الفقهاء له فى آداب السفر كافيا عند الشيعى فى تصحيحه وثبوته وتصحيح معناه والشيعى نفسه يكذب الأحاديث التى اتفق على روايتها البخارى ومسلم وجميع المحدثين من أهل السنة، بل وهو وإخوانه الامامية الاثنا عشرية يعتقدون أن جميع الأحاديث المواترة المروية فى جميع كتب أهل السنة وفى أصحها وأجودها ، الواردة فى فضائل أبى بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعائشة وحفصة وغير هؤلاء من كبار الصحابة وأئمة المسلمين : يعتقدون أن جميع هذه الأحاديث مكذوبة موضوعة على النبى عليه الصلاة والسلام ، بل يعتقدون أن جميع الأخبار الدالة على إيمان هؤلاء وإسلامهم أخبار مكذوبة باطلة ، ويعتقدون أيضاً أن جميع الروايات المروية عن هؤلاء الدالة على صدق إيمانهم وإسلامهم ودينهم موضوعة أو صحيحة ولكنها نفاق منهم . . . وقوم يزعمون أن كل حديث يدل على إيمان أبى بكر وعمر وكبار أصحاب النبى حديث مكذوب موضوع — وإن روى فى جميع الكتب — كيف لايستحيون من أن يزعموا أن إيراد الطبرانى والنووى لهذا

الحديث برهان على صحة سنده وصحة معناه ووجوب العمل به ؟

ولا تتنازع الشيعة الاثنا عشرية ، طائفة هذا الرجل،أن كل حديث لم يرد فى كتبهم من طرقهم حديث لا يجب قبوله ولا تصديقه ولا الإيمان به ولا الاعتراف بصحة معناه ،وإن رواه أهل السنة قاطبة ،بل وإن رووه فى كل كتاب من كتبهم ،وقال به كل قائل ، وعمل به كل عامل منهم . بل ولو رواه جميع الصحابة البكريين العمريين ، ثم رواه عنهم جميع التابعين البكريين العمريين ، ثم رواه عن التابعين جميع من بعدهم من البكريين العمريين ،وهكذا إلى أن يتصل بنا : إن كل حديث يروى كذلك هو حديث مكذوب مزور عند الامامية الاثنا عشرية ما لم يرووه هم بطرقهم عن أئمتهم الذين زعموهم معصومين ، بل لقد غالى القوم فى باطلهم هذا حتى زعموا أن رواية الحديث فى كتب أهل السنة من الدلالات على كذبه ووضعه وبطلانه وفساد معناه ، ومنافاته لدين الله . وقد شادوا على هذا الباطل الذى لا باطل مثله مازعمه طوائف منهم من الكفر الذى لا يماثله كفر فى الاسلام وهو مازعموه من تحريف القرآن ونقصه وحذف أشياء كثيرة منه وزيادة أشياء فيه . وعندهم أن نقل المسلمين له وحفظهم إياه ومحافظتهم عليه فى جميع العصور هكذا لا يدل على صحته ولا على أنه لم يحرف. ولم يزد فيه أو ينقص منه . وقد زوّر أحد مشايخهم كتابا يشيد به هذا الكفر سماه (فصل الخطاب فى تحريف كلام رب الأرباب) وقد طبعوه ونشروه فى إحدى بلادهم . وسوف نتحدث عن هذا الكتاب فى فصل سوف يجيء من هذا الجزء .

نحن لا ندعي السبق ولكن ندعي الاقتداء والتأسي

ثم ماهذا التعبير بأعراب نجد ؟إن هؤلاء الذين يسميهم أعراب نجد لا يدعون لأنفسهم السبق فيما هم فيه ، ولا يدعون أنهم أحدثوه أو ابتدعوه أو هدوا إليه وحدهم ، بل كل مايدعون ويرومون أن يكونوا على نهج السلف الصالح والرعيل

الأول الذين أخبر الله عن رضاه عنهم وسبقهم إلى الخيرات والطاعات كالصحابة الذين لا يرضاهم الشيعة ، وكالأئمة من التابعين ، وكالأئمة الأربعة ، وكأهل الحديث . وكفى بهؤلاء القوم مفخراً لمفتخر ، ومقتدًى لمن رام الاقتداء والاهتداء . وهؤلاء الذين يسميهم أعراب نجد ماضعفوا هذا الحديث إلا لأن أهل الحديث وأهل الأسانيد والروايات قد ضعفوه قبلهم ، والذين ضعفوه مثل الحافظ الهيثمي وغيرهم لم يكونوا من أعراب نجد .

الهجاء الصحيح والسبة اللازمة الفاضحة

ألا يرى هذا الرافضي أن الهجاء الصّحيح والسبة اللازمة الفاضحة أن يقول قائلون إنه يمكن أن يكفر بالله و بالرسول و بالاسلام أبو بكر وعمر وعائشة وحفصة وخالد بن الوليد وغيرهم من كبار الصّحابة ، و يؤمن بالله و برسول الله جهال الشيعة وأغبياء الإمامية ، بل أن يجهل هؤلاء الاسلام والحق وكل ما تدعيه الشيعة الامامية من الوصية والعصمة والرجعة إلى آخر ما يذكرون ثم يعلم ذلك كله جهال المتشيعين و بلداء الطائفة ، وأن يظلم أبو بكر وعمر وعثمان عليا وفاطمة بضعة النبي و بنيها و يساعدهم على ظلمهم سائر الصّحابة أو جماهيرهم ، ثم يجيء هؤلاء المغبونون يحاولون الانتصاف لهؤلاء المظلومين من هؤلاء الظالمين ، وأن يجهل جميع المسلمين الأولين ما في عبادة القبور والعكوف عليها وعلى بنائها وتشييدها وتعليق المعلقات عليها وقصدها من كل مكان ودعائها وندائها من خير وفضل ومثوبة ثم يظفر بذلك كله هؤلاء الشيعة ، وأن يفوت أهل السنة جميع ما عند الشيعة الامامية من الحق والدين والروايات وجميع ما لذلك من ثواب وجزاء ، وأن يفوت كل من ليس إماميا شيعيا الحق والهدى والصّحيح من الاسلام ثم يخص به هؤلاء الظالمون لأنفسهم : هذا كله هو الهجاء الصحيح والسبة الفاضحة اللازمة .

فالحديث إذن غير صحيح الاسناد ، فلا يعارض به كتاب الله وسنة نبيه

وجملة دينه وضرورة العقل وصحيح الفطرة

الكلام على معنى الحديث

هذا هو الكلام على السند . وأما الكلام على المعنى فالجواب أن يقال : إن الحديث، إن كان صحيحا ، لا يمكن أن يكون دليلا على صحة دعوة الأموات وذلك ظاهر بأمور : أولها قوله فيه : « وهو بأرض ليس بها أنيس » فان هـذا صريح فى أنه يدعو حيث لا إنسان لا من الأحياء ولا من الأموات . و إذن فالدعوة ليست للأموات . وثانيها قوله « بأرض فلاة ». فان هذا يدل على أن من أراد عونا أو أضل شيئا وهو فى الصحراء حيث لا شيخ ولا صالح ولا ولى ولا نبى ولا إنسان لا من الأحياء ولا من الأموات ينادى النـداء المذكور . ومن المعلوم بالضرورة والبداهة أن من كان فى الصحراء لا يجوز له أن ينادى البدوى أو الرفاعى او الجيلانى أو الحسن أو الحسين فى المصر . ومن نادى الموتى فى الأمصار وهو فى الصحراء وفى الفلوات فقد زعم أنهم يجيبون من كل مكان وفى كل مكان ويسمعون كل داع ومنادٍ قريب و بعيد . وهذا هو الضلال ، لأن فيه الاعتقاد بأنهم يعلمون الغيوب، والاعتقاد أيضاً بأن صفة السماع فيهم غير محدودة، وهذه هى جرثومة الضلال الكثيف . فلاشك إذن أن من قيل له ادع وأنت فى الصحراء لم يرد أن يدعو الأموات والصـالحين والمشـايخ المدفونين فى المدن والأمصار بالضرورة . وثالث الأمور أنه لو كان المنادَى هنا من الأموات لقيل : من أضل شيئاً وأراد عونا فليذهب إلى الشيخ فلان أو إلى ضريح النبى عليه السلام أو إلى ضريح غيره من الأنبياء والصالحين وليدعه وليسأله العون ورجع الضالة الغائبة ، لا أن يقال له : فليناد فى الصحراء ياعباد الله أعينوا أو أغيثوا . فإن هذا صريح فى أنه لا يعنى به مشـايخ الموتى . ورابعها أنه لو كان المراد ما زعم المخالفون لقيل : من أضل شيئا وأراد عونا فليناد يارسول الله أو ياأبا بكر أو ياعمر أو ياعثمان أو ياعلى أو ياحسن أو ياحسين ، أعينونى أو أغيثونى ونحو ذلك . ولم يصح

أمور دالة على أن التحديث فى الحديث عن غير الأموات

أن يقال : فليناد ياعباد الله أعينونى . فان من عباد الله من لا يصح عونهم ومن لا تجوز الاستغاثة بهم . وخامسها لو كان المنادى فى هذا الحديث من الموتى لما قيل من أضل شيئا وهو بأرض فلاة فليناد بل لقيل من أراد شيئا ، أو من رهب ورغب ، أو من خاف ورجا ، أو من كانت له حاجة ومسألة فليدع عباد الله الصالحين وليناديهم وأمثال هذا . وذلك أن إضلال الدابة فى الصحراء حاجة صغيرة نادرة من حاجات الانسان الكثيرة المتوافدة عليه ما دام حياً . ولا يصح إذا ما أريد التعريف بما يفعل إزاء جميع الحاجات أن يؤتى بالأندر الأقل والأخف الأصغر . ولا يفعل مثل هذا إلا من كان لا يريد التفهيم والتعليم . ونزه الله نبيه عن هذا التضليل والالغاز . وسادسها أن قوله : « فان لله حاضرا سيحبسه » يدل على أن المنادى من الحاضرين الشاهدين . والأموات الذين فى المدن ليسوا من الحاضرين ولا من الشاهدين لمن دعاهم وناداهم وهو فى الصحارى والفلوات . فالمنادون فى الحديث من غير الأموات يقيناً ، بل قوله فيه : « فان لله حاضراً سيحبسه » يدل دلالة جلية على أن من ليس حاضرا لا ينادى ولا يدعى . والذين يدعون الأموات وينادونهم يدعون وينادون غير حاضرين وغير شاهدين بلا ريب . فهم غالطون بظاهر الحديث الذى جعلوه من براهينهم على خطئهم . وسابعها أن قوله : « فان لله عباداً يجيبونه » دليل جلى على خطأ المخالفين وبطلان قولهم وزعمهم . وذلك أنهم يزعمون أن الأموات المدعوين لا يجيبون ، وأن دعاتهم لا يريدون منهم أن يجيبوا ، ولكنهم يزعمون أنهم يشفعون فقط عند الله لمن دعاهم ليجيبهم ويعطيهم . فالذى يجيب عند القوم هو الله وحده لا شريك له . ولكن هذه اللفظة فى هذا الحديث تصرح بأن المنادين المدعوين هم الذين يجيبون ، وهم الذين يغيثون . وثامنها قوله : « فان لله عباداً لا ترونهم » نص أو كالنص فى أن هؤلاء المنادين من غير الأموات ، إذ لو كانوا منهم أو كانوا إياهم

لقيل : فان المشايخ والصالحين ، أو الأنبياء والمرسلين ، أو إخوانكم من المؤمنين الذاهبين ، يجيبونكم أو يسمعونكم أو نحو ذلك . أما إذا قيل : فان لله عباداً لا ترونهم ، أو لا تراهم فلا ريب عندنا فى أن التحديث عن غير الأموات ، وهذا يعرفه كل من يعرف .

سؤال وجوابه

هذه أمور ثمانية تدل مجتمعة دلالة قاطعة على أن الحديث المذكور ليس تحديثا عن الأموات ولا عن دعوتهم والاستغاثة بهم . فاذا ماقيل : من المنادون المرادون إذن فى هذا الخبر ؟ فالجواب أن نقول : ليس بلازم أن نعرفهم ولا أن يعرفهم غيرنا ، لأن الحديث ، إن صح ، لم يعرفهم ولم يذكر مايدل عليهم ولا على صفتهم . فالجائز إذن أو المطلوب من المسلم إن كان الخبر صحيح السند — وهو غير صحيحه — إذا أضل دابة فى الصحراء وأراد أن يعمل به أن يقول كما فى نصه : ياعباد الله احبسوا على دابتى ، أو ياعباد الله أعينونى . ولا ينطق بغير ذلك من الدعوات والكلمات كأن يسمى أحدا : شيخا أو صالحا أو نبيا فى دعوته وندائه . ومن فعل ذلك فقد خالف الحديث وصنع مالا علم له به وما يجوز أن يكون عين الخطأ والضلال والجهل ، وماقد يؤاخذ عليه بلا ريب . فان قيل أيجوز أن يكون هؤلاء الذين أمر بدعائهم وندائهم من الملائكة ؟؟ قلنا فى الجواب : نحن لا نقطع بشىء من هذا فى هذا المقام إلا أن الذى نقطع به ونقوله هو أنه لا يجوز لمن أحب أن يعمل بالخبر أن يدعو الملائكة أو أن يدعو الدعاء المذكور مضمراً فى نفسه الملائكة أو غيرهم معينين ، لأن الحديث لم يذكر شيئا من هذا . ولكن لا ريب لدينا أن دعوة الملائكة غير جائزة للأدلة والحجج الناطقة التى ذكرناها فى الفصل الآنف من هذا الجزء .

سؤال آخر وجوابه

فان قيل أيضا : ألا يمكن أن يكون المنادون هم الجن أو هم من الجن ؟ قلنا فى الجواب : نحن لا نقطع بشىء من هذا النوع أيضا لأن الحديث لم يذكره ولم

سؤال آخر وجوابه

يشر إليه ، فيجب على العامل به أن يلتزم نصه ولفظه وأن يدع ماعداه وقوفا مع النص وعملا به وحـذاراً من الزلل والخطأ ، غـير أننا لانشك فى بطلان دعوة الجن والاستغاثة بهـم لأجل الحجج والبراهين الصحيحة الباهرة التى قدمناها فى البحث السابق .

فاذا ماقيل حينئذ : ماذا يراد بالحديث ومن المعنيون به ! قلنا لامانع أن يكون مرادا به بعض الأحياء البشر ممن يوجدون عادة فى الصحارى والقفار ، فيكون فى نداء المنادى الذى أضـل دابته تنبيه لمن لعـله يكون موجوداً فى ذاك المـكان وتلك الناحية . فلا يكون فى هـذا النداء شئ من دعاء الموتى أو دعاء الملائـكة والجان ، بل لايخرج حينئـذ عن أن يكون من دعاء الحى وسؤاله مايقدر عليـه عادة . وقوله فى الحديث « فان لله عباداً لاترونهم أولا نراهم » لايأبى هذا الاحتمال ولايأبى هذا الرأى ، وذلك أنه يجوز أن تكون فى أرض فلاة لاترى فيها أحـداً ولاتسمع لشئ صوتا ولاتحس له أثرا ، فتنادى النداء المذكور فى الرواية فيتاح صـدفة وقدراً أن تجد من يجيبك ومن يسمع صوتك ونداءك فيعينك عـلى ما أردت ودعوت .

الفرق بين الدعاء المطلق وبين دعاء المخلوق المعين

والذى لاشك فيه أن هنالك فرقا شاسعا بين أن تدعو مخلوقا من الأموات معينا باسمه مثل أن تقول يابدوى أو ياأبا بكر أو ياعمر أو ياحسن أو ياحسين احبس على ضالتى أو أعنى عـلى أمرى ، و بين أن تقول ، مطلقا قولك مرسـلا لخطابك ونداءك : ياعباد الله احبسوا على ضالتى ، أو أعينونى ، أو أغيثونى . لأنك إذا دعوت صالحا أو نبيا معينا باسمه ووصفه ونعته وطلبت إليه أن يعينك وأن يغيثك وأن يحبس عليك دابتك وضالتك فقـد اعتقـدت بلا ريب أن ذلك النبى أو الصالح المدعو المهتوف به قادر على إجابتك وسماع صوتك من كل مكان وفى كل مكان ، وأنه يعلم ماقرب ومابعـد وماخفى وعلن ، وأنه بعـد ذلك ذو سر عظيم

وسلطان قاهر واسع ، حتى إنه ليقدر على إجابة الطلبات المختلفة ، وسمع الاصوات كلها على بعدها واختلافها أيضا ، و يعلم بالمنادين له على كثرتهم وتفرقهم واختلافهم أيضاً . وهذا كله يستلزم التأليه والعبادة ، وهذا كله ضلال مستقل قائم بنفسه .

أما إذا دعوت دعاء مطلقا مرسلا قائلا : يا عباد الله احبسوا أو أعينوا أو نحو ذلك ، فليس فيه شئ من تلك الأمور الخاصة بالله الموجبة للشرك والضلال . وهذا لأنك قد تكون سليم الاعتقاد والدين من الشرك والغى والابتداع ، فلا ترى أن أحداً مع الله يعلم الغيب أو يعلم البعيد والقريب ، أو يقضى الحاجات على اختلافها وتباينها ، أو يصح أن يدعى و ينادى من كل مكان ، بحيث تعتقد أن الأموات والأشياخ لا يصح أن يدعوا وأن يستغاثوا وأن ينادوا لكشف الضراء وجلب النعماء : يجوز أن تكون بهذا المكان من طهارة الاعتقاد و نقائه وصحته من العلل والأمراض ، ومع هذا كله تقوم فى الصحراء وفى جوف القفر البلقع — وقد ضل لك ضال — فتقول : يا عباد الله احبسوا أو أعينوا أو أغيثوا معتقدا أو مجوزا أن هنالك — حيث يذهب صوتك وحيث يتسع نداؤك — من يجيبك ، ومن يرد عليك ضالتك وحاجتك ، ثم قد تكون فى هذا الظن والاعتقاد مصيبا ، وقد تكون مخطئا ، أعنى أنه قد يكون ثمة من يجيبك و يسمع صوتك ، وقد يذهب نداؤك و رجاؤك على أجنحة الريح ، فلا تجد من يجيب ولا من يسمع . وليس فى الحالتين ضلال ولا سوء اعتقاد ، ولست فى هذا النداء والرجاء عابداً ولا مؤلهاً لأحد سوى الله ، و إنما أنت حينئذ بشر ظن ظنا فعمل بظنه ، والظن قد يخطىء وقد يصيب . ولكن لا ريب أنك فى ندائك و رجائك هذا مخالف كل المخالفة لدعاة الأموات العاكفين على الأجداث كما تقدم . وما مثل هذا إلا إنسان أعمى يقف فى الطريق العام ، و يصادف أن يكون الطريق خاليا ، فيقول : يا رجلا أو يا فلان خذ بيدى أو أرشدنى إلى الطريق . فاذا نادى أعمى هذا النداء ،

هذا كقول الأعمى يا رجلا خذ بيدى

وطلب هذا الطلب ، و رجا هذا الرجاء ، وقدر أن لا يجد أحداً وألا يكون هناك من يسمعه ومن يجيبه ، لم يكن قائلا إثماً ولا طالباً حراماً ، ولا معتقداً شركا أوضلالا لأنه لم يعتقد فى أحد سرا من الأسرار ، ولا سلطانا على علم الغيوب وقضاء الحاجات كلها وعلم القريب والبعيد كدأب الداعين للأشياخ من الأموات .

وفرق عظيم بين نداء هذا الضرير و بين أن يقف ضرير آخر فى الصحراء قائلا : يا بدوى أو يا رفاعى أو يا حسن أو حسين أو عبد القادر الجيلانى ، خذ بيدى أو اهدنى الطريق أو أنقذنى مما أنا فيه أو رد على بصرى أو اسقنى أو اطعمنى أو نحو هذه المطالب الكبيرة . . . ولا يشك إنسان فى الفرق بين الموقفين والاعتقادين والنداءين والضريرين . ولا يشك مسلم فى ضلال هذا الأخير وخروجه على الاسلام وعلى التوحيد وشركه بالله رب العالمين . وليس كذلك الضرير الأول المنادى من عساه يكون موجودا من الأحياء ليأخذ بيده ويهديه السبيل .

مثل النادي للاموات من كل مكان والقائل احبسوا على دابتى

فالذى يقف فى الصحراء وينادى ياعباد الله احبسوا على دابتى أو أعينونى مريداً بذلك الأموات والأشياخ من سكان القبور ، مامثله إلامثل هذا الضرير المنادى فى صحرائه للأموات . والذى ينادى هذا النداء من قلب الصحراء مريداً بندائه من عساه يكون موجوداً حاضراً من الأحياء مامثله إلامثل الضرير الواقف فى عرض السبيل قائلا : يارجلا خذ بيدى ، قاصداً من قد يسمعه من الأحياء . ولا ينازع عاقل فى الفرق بين الأمرين والرجلين. وهذا المثل الصحيح الذى ضربناه يفسد على المخالفين مثلهم المشهور وقولهم المعروف الذى يدافعون به عن شرك المشركين وضلال الضالين ... أعنى قولهم : إنه لو فرض أن الاموات لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولا يقدرون على إعطاء من سألهم ورجاهم لما كان فى هذا شىء من الشرك والضلال ألبتة ، و إنما يكون ذلك حينئذ خطأ مجرداً لا أكثر.

ولا أقل . . . قالوا : ومثل هذا أن تطلب إلى مقعد أن يقوم وأن يمشي حاسبا أنه قادر على ذلك ، وأن تطلب إلى أعمى أن يقرأ وأن ينظر حاسباً أنه غير أعمى وأمثال هذا . قالوا : و بهذا يخلص دعاة الموتى من الشرك والضلال وفساد الاعتقاد

ولكن فات هؤلاء المنتصرين للعاكفين على الاجداث الفرق العظيم بين من دعا حيا وطلب منه أمراً ظاناً أنه عليه قادر ، و بين من دعا الموتى وسألهم حاجاته وآماله وأغراضه ومآربه واستدفع بهم مخاوفه وأسباب خشيته . والفرق بين الأمرين واضح جلي لا يجوز أن يدق على أفهام من يتصدرون للتأليف في أمهات الدين ولإرشاد الناس ، ومن يحاولون ان يحتازوا الزعامتين : الدينيـة والعلمية . وذلك أن الداعي للحي العاجز — ظاناً أنه غـير عاجز — لم يعتقد فيه شيئاً من الاعتقادات الغالية الفاسـدة ، ولم يهبه صفة من صفات الله مثل علم الغيب وعلم القريب والبعيد والحاضر والغائب ، ومثل القدرة المطلقة على قضاء الحاجات والرغبات ، ولم يعتقد فيه سراً من الأسرار ولا سلطانا من السلاطين الغيبية ، ولم يعتقد فيه شيئاً فوق الأسباب العادية ، ولم يهبه تلك الرهبة النفسية ، أو يرغب فيه ذلك الرغب المخالف للرغبات المعهودة بين الحي والحي والحاضر والحاضر ، ولم يخشه ويحذره على القرب والبعد وفي الحضرة والمغيب ، ولم يقرر في نفسه قرار الأموات والأشياخ الصالحين أو من زعموا صالحين من الطالحين في نفوس دعاتهم الهاتفين بأسمائهم . هذا كله لم يعتقد منه شيئاً ذلك الذي يدعو الحي العاجز حاسباً أنه غير عاجز ... أما الذين يدعون الأموات والأشياخ الصالحين فإنهم قد اعتقدوا فيهم جميع هذه الأمور حتى قاموا منهم مقامات العبيد الأرقاء الأذلة الصاغرين من الاله ، وحتى هبطوا إليهم في قبورهم بكل ما يرتفع به العابد الراشد إلى مقام المعبود الحق من الأشياء الظاهرة الصورية ، والمعاني الباطنية الروحية الحقيقية ، حتى أرونا هذه الوثنية النكراء المنتشرة اليوم وقدما !!

فليس هذا كهذا

أضرحة الميتين فى أكثر البقاع الاسلامية . . . إذن فقياس هذا على هذا من القياس المرغوب عنه ، و إذن فالدفاع عن عبدة المشايخ والأموات بهذا الأسلوب من الدفاع الخاسر الباطل ، و إذن فالحجاج عن المشركين بهذا المثل من الحجاج الداحض .

والحاصل أن هذا الحديث ، إن كان صحيحاً ، فالواجب على العامل به أن يأخذ بلفظه ونصه دون أن يزيد أو يقيس عليه أو يستدل به على غير ماورد فيه بعد أن يعلم أن دعوة الأموات والجان والملائكة باطلة ممنوعة بالدلائل والبراهين التى قدمنا فى البحث السابق . ومن جعل هذه الرواية دليلا على جواز دعاء الميت أو دعاء عالم الجان أو عالم الملائكة فقد زعم مالا قبل له باقامة الحجة عليه ، وما يعوزه أن يجد له فى ألفاظ الرواية أو فى فحواها ما يصححه أو ما يجعله جديرا بالاحترام والالتفات إليه . فهؤلاء المحتجون بالرواية على ماهم فيه من الفوضى الاعتقادية والمظاهر الوثنية الإشراكية كاذبون على الرواية وعلى نصها وعلى روحها ومعناها . هذا لو كانت صحيحة ولكننا لا نشك فى ضعفها و بطلانها ونكارتها . والله أعلم .

﴿ الشبهة السابعة ﴾

أما الشبهة السابعة — وهى ما جاء أن بلال بن الحارث ذبح شاة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه ! وما جاء أن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام كان شعارهم فى قتال مسيلمة الكذاب : وامحمداه ! وما جاء أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وامحمداه . فانطلقت رجله — فالجواب عن هذه الشبهة أن نطالب أولا المخالفين بتصحيح الأسانيد و إثبات هذه الروايات . وقبل أن يقيموا الحجة على صحتها وثبوتها بالطرق العلمية الفنية الصحيحة لا يلتفت إلى شبهتهم هذه ولا يعبأ بها ، ولا يعبد الله بها إلا كل من هان عليه

جواب الشبهة السابعة وهى الروايات المزعومة

دينه وهانت عليه نفسه وعقله ومنطقه، ولا ريب في أن كل من أورد حجة كان الواجب عليه تصحيحها وإثباتها لكي تقبل وتحترم، وإلا فالدعاوى كثيرة والكذب أكثر. فهذه الحجة مردودة على المخالف وعلى من نقلها عنه ومن قلده فيها حتى يصححها إما بتصحيح أئمة هذا الشأن وهم المحدثون، وإما بالتدليل على صحتها بالأساليب الفنية الصحيحة المقبولة التي شادها وخلفها رجال الحديث الأبرار. فإن من المعلوم الجلي أن قول الشيخ دحلان — الذي ينقل عنه هذا الرافضي —: صح عن الرسول أو عن صحابته كذا و كذا ليس من العلم في قليل ولا كثير، وليس من البراهين في قبيل ولا دبير. فالشيخ دحلان ونظراؤه، كهذا الشيعي، بعداء عن معرفة تصحيح السنة من ضعيفها، قاصرة خطاهم عن إدراك هذه الغاية وهذه الصناعة العلمية الجليلة بلا شك، وهم إذا نقلوا نقلا مجرداً كانوا متهمين، وكان الاعتماد عليهم وعلى نقلهم باطلا خطأ لتغليب أهوائهم على دينهم وتقواهم، وجهلهم على علمهم ومعرفتهم، فدينهم مصاب بمرض الهوى، وعلمهم مصاب بداء الجهل، ومن وقع بين الجهل والهوى لم يصح الركون إليه، ولا الاعتماد عليه. فنحن لا نقبل هذه الروايات بمجرد أن قال الشيخ دحلان أو قال الشيخ محسن الأمين العاملي: إنها صحيحة ثابتة. والكتاب والسنة مناهٍ صريحة عن الأخذ بما لم تعلم صحته أو بما لم يقم الدليل عليه. وقد أمر القرآن الكريم والسنة بالأخذ بالعلم والحجة والبرهان، وأمرا بالسير تحت الضوء وفي وضح النهار الواضح، ونهيا عن الأخذ بالظن والخرص والزعم والجهل وعن السير في الظلام وتحت أجنحة الليل الداكن، وأمرا بالتبين وبالتثبت، ونهيا أن يقفو المرء ما ليس له به من علم ولا حجة. وقد كان من كلام النبوة الصحيح: «الظن أكذب الحديث»، و«كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع». وقد قيل: «لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»، وقيل أيضاً: «إن السند دين، فانظر [illegible] عمن

تأخذون دينكم، وعند ذلك يجلس ذلك المسلم الذي يشهد عقله وديانته على مجرد روايات قال فيها الشيخ دحلان ومحسن الأمين العاملي: إنها قد صحت، دون أن تقوم الحجة على صحتها. فنحن نرفض هذه الروايات كلها، وكذا يرفضها كل مسلم صحيح الإسلام والعقل والعلم، ما لم تقم صحتها وثبوتها؛ لأنها لم ترد في كتب الصحاح المجودة التي تعنى بروايتها فيها عن درايتها. وعلى المخالف المستدل الاثبات والبيان.

الروايات في خدر الرجل وتخريجها وبيان طرقها

أما حديث خدر الرجل فقال ابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة:

حدثني محمد بن إبراهيم الأنماطي وعمرو بن الجنيد بن عيسى قالا: حدثنا محمود بن خداش حدثنا أبو بكر بن عياش حدثنا أبو إسحاق السبيعي عن أبي شعبة (أو في نسخة عن أبي سعيد) قال: كنت أمشي مع عبد الله بن عمر فخدرت رجله فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك. فقال (يا محمد) فقام فمشى.

حدثنا جعفر بن عيسى أبو أحمد حدثنا أحمد بن عبد الله بن روح حدثنا سلام بن سليمان (أو في نسخة ابن سليم) حدثنا غياث بن إبراهيم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن ابن عباس قال: خدرت رجل رجل عند ابن عباس فقال ابن عباس: اذكر أحب الناس إليك. فقال: محمد ﷺ، فذهب خدره.

حدثنا محمد بن خالد بن محمد البرذعي حدثنا حاجب بن سليمان حدثنا محمد بن مصعب حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الهيثم بن حنش قال: كنا عند عبد الله بن عمر فخدرت رجله فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك، فقال: يا محمد ﷺ.

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك في حبابة: إذا خدرت له رجل دعاك.

وقال إبراهيم بن المنذر: أهل المدينة يعجبون من حسن بيت أبي العتاهية:

وتخدر في بعض الأحايين رجله ... فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر

و روى محمد بن زياد عن صدقة بن يزيد الجهنى عن أبى بكر الهذلى قال: دخلت على محمد بن سيرين وقد خدرت رجلاه فنقعهما فى الماء وهو يقول :

إذا خدرت رجلى تذكرت قولها * فناديت ابنى باسمها ودعوت
دعوت التى لو أن نفسى تطيعنى * لألقيت نفسى نحوها فقضيت

فقال ياأبا بكر تنشد مثل هذا الشعر ؟ فقال يالكع وهل هو إلا كلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه .

أخبرنى أحمد بن الحسن الصوفى حدثنى على بن الجعد حدثنا زهير عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن سعد قال كنت عند ابن عمر فخدرت رجله . وذكر الحديث مثل ماتقدم . هذا كله ذكره ابن السنى فى كتابه عمل اليوم والليلة .

السند الاول وبيان عله وضعفه

وأسانيد هذه الروايات : أما السند الأول فهو محمد بن إبراهيم الأنماطى وعمرو بن الجنيد بن عيسى — معا — عن محمود بن خداش عن أبى بكر بن عياش عن أبى إسحاق السبيعى عن أبى شعبة أو أبى سعيد عن ابن عمر . . . أما الأنماطى فذكره الخطيب فى التاريخ ولم يذكر فيه مدحا ولا قدحا غير أنه قال حدثنى الحسن بن محمد الخلال أن يوسف القواس ذكره فى جملة شيوخه الثقات . ولم نجد له ترجمة غير ماذكر الخطيب . وأما عمرو بن الجنيد بن عيسى فلم نجد له ترجمة مطلقا . وأمامحمود بن خداش فثقة مشهور . وأما أبو بكر بن عياش فامام معروف مخرج حديثه فى الصحاح إلا أن النقاد من علماء هذا الشأن ذكروا أنه كان يهم و يغلط كثيرا ، وأنه قد تغير بعض الشئ . وقد قال الذهبى فى ميزانه عنه: « صدوق ثبت فى القراءة ولكنه فى الحديث يهم و يغلط ، وهو صالح الحديث ولكن ضعفه محمد بن عبد الله بن نمير . وقال أبو نعيم لم يكن فى شيوخنا أكثر غلطا منه . وقال أحمد ثقة ربما غلط ، وهو صاحب سنة وقرآن . وكان يحيى بن سعيد لا يعبأ به ، إذا ذكر عنده كلح وجهه . وقال ابن معين ثقة كثير الغلط

جدا ، وكتبه ليس فيها خطأ » . وذكر مثل هذا العسقلانى فى تهذيب التهذيب ، وروى تضعيفه عن جماعة وتوثيقه عن جماعة أخرى . قال وكان يحيى القطان وعلى ابن المدينى يسيئان الرأى فيه ، وذلك أنه لما كبر ساء حفظه فكان يهم إذا روى . وقال العجلى : كان ثقة قديما ضنا جنب سـنة وعبادة ، وكان يخطئ بعض الخطأ . وقال ابن سعد : عمر حتى كتب عنـه الأحداث وكان صدوقا ثقة عارفا بالحديث والعلم إلا أنه كثير الغلط . قال وقال أبو عمر بن عبد البر : كان الثورى وابن المبارك وابن مهدى يثنون عليه ، وهو عندهم فى أبى إسحاق مثل شريك وأبى الاحوص إلا أنه يهم فى حديثه وفى حفظه . وقال الحاكم أبو أحمد : ليس بالحافظ عنـدهم . وقال الساجى : صدوق يهم . وقال البزار لم يكن بالحافظ وقد حدث عنه أهل العلم واحتملوا حديثه . . . وقد ذكروا فيه غير ذلك . وكلهم متفقة على أنه صدوق ثقة نفسه وفى كتبه ، صاحب سـنة ودين وخير ، ولـكنهم متفقون على أن فى حفظه شيئا من الغلط والوهم . فحديثه ، كما ذكروا ، محتمل إذا لم يخالف الثقات ، ولـكن لا يصح أن يكون ما انفرد به حجة فى مثل هذه المسائل الـكبرى إن لم تشهد له الشواهد وتسنده المتابعات .

وأما أبو إسحاق السبيعى فامام لا يسأل عن مثله

وأما أبو شعبة المحدث عن ابن عمر فلا أعرف من يكون . وقد ذكر فى تهذيب التهذيب شخصا واحداً يكنى أبا شعبة ولم يذكر سواه . قال : أبو شـعبة المدنى مولى سويد بن مقرن المزنى كوفى ، روى عن مولاه فى تحريم لطم الصورة . وعنه ابن المنـكدر . ذكره ابن حبان فى الثقات . . . ولـكن لا ندرى هل يمكن أن يكون هذا هو الراوى عن ابن عمر الحديث المذكور ؟ فى هذا شك بل بعـد . وقال فى الميزان : أبو شعبة الطحان كان جارا للأعمش . قال الدار قطنى : متروك . ولم يذكر الذهبى غيره . وقال ابن حجر فى تعجيل المنفعة : أبو شـعبة الطحان الـكوفى جار

الأعمش عن أبي نائل بن نعيم عن ابن عمر وعنه أبو أحمد الزبيري. قال الدارقطني
متروك. ولم أجد ذكر سنواته الولادة كذلك في لسان الميزان ولم يذكر مدة أيضا. فهل
يمكن أن يكون هذا هو أبا شيبة المذكور في الحديث الذي يبدو إلا يكون به
ويظهر أنه لم يدرك ابن عمر. والجهالة جميعا لم يذكروا تاريخ ولادته ولا تاريخ
وفاته حتى نهتدي بشيء من هذا إلى معرفة الحقيقة المنشودة، ولم يذكر الخطيب
في التاريخ أحدا يكنى هذه الكنية، وكذا لم أذكر الدولابي في الكنى والأسماء
ما يبين هذا الراوي. فبقي علينا وعلى من يريدون الاحتجاج بهذا الحديث
البحث عن هذا الراوي ومعرفة أمره أثقة هو أم ضعيف ثقة؟ وقبل معرفته لا يجوز
لنا أخذ من الناس الاحتجاج بحديثه. ١

هذا على تقدير أن هذا الراوي يكنى أبا شيبة كما ذكر في النسخة المطبوعة
في الهند. وأما على أنه أبو سعيد كما أشير إلى أنه كذلك في نسخة، والضبط
والتحري مفقودان فيما يطبع من الكتب الحديثية في الهند، فيبحث عنه. فيمن
يكنون هذه الكنية. وقد راجعت أبواب الكنى في تهذيب التهذيب ولسان الميزان
والميزان وتعجيل المنفعة وتاريخ الخطيب فلم أجد من أسميه بأنه هو. ففي الميزان
مثلا: أبو سعيد الأزدي عن أبي هريرة لا يعرف إلا برواية قتادة عنه. أبو سعيد
الجبراني حمصي عن أبي مرة وعنه حصين الحبراني وأبو زرعة. لا أعرفه.
أبو سعيد عن ابن عمر لا يعرف، وعنه عمرو بن دينار. أبو سعيد عن وراد
شامي فيه جهالة، تفرد عنه ابن عون. أبو سعيد الحميري عن معاذ. لا يدرى
من هو، روى عنه حيوة بن شريح المصري. أبو سعيد مقبطان. قال الجوزجاني
غير ثقة. أبو سعيد الحراني عن أبي هريرة وعنه حصين الحميري وعبد الله بن
ماجة. أبو سعيد الرقاشي عن ابن عباس وعنه سليمان التيمي. قال ابن
معين لا أعرفه.

وذكر في تهذيب التهذيب بعض هؤلاء الذين ذكرهم الذهبي . وقد ذكر غيرهم . ولكن لم يذكر ما يدل على من نبحث عنه ها هنا .

وذكر في لسان الميزان أربعة وعشرين يكنون هذه الكنية منهم الكذابون ومنهم الثقات ، ومنهم المجهولون . ولكنه لم يذكر ما يدل على أن واحداً منهم هو من نبحث عنه ها هنا . وليس في تعجيل المنفعة ما يعين هذا الراوي ولا ما يعين على معرفته وحقيقته . فهذا الإسناد مظلم لا يحل الاحتجاج به عند أحد من المسلمين : أهل البصر والمعرفة .

السند الثاني وبيان علله وضعفه

وأما الإسناد الثاني : وهو أبو أحمد جعفر بن عيسى عن أحمد بن عبد الله بن أبي روح عن سلام بن سليمان أو ابن سليم عن غياث بن إبراهيم عن عبد الله ابن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن ابن عباس — فنقول : أما جعفر بن عيسى وأحمد بن عبد الله بن روح فلم نجد لهما ترجمة لا في تهذيب التهذيب ولا في الميزان ولا في لسان الميزان ولا في تعجيل المنفعة ولا في تاريخ بغداد . فليبحث عنهما من يدين الله بروايتهما هذه .

وأما سلام بن سليمان أو سليم فقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب : سلام بن سلم ويقال ابن سليم أو ابن سليمان ، والصواب الأول . أبو سليمان ، ويقال أبو أيوب ، ويقال : أبو عبد الله . وهو سلام الطويل المدائني خراساني الأصل . روى عن حميد الطويل (إلى أن قال) قال أحمد : روى أحاديث منكرة . وقال ابن أبي مريم عن ابن معين : له أحاديث منكرة . وقال الدوري وغيره عن ابن معين : ليس بشيء . وقال ابن المديني : ضعيف . وقال ابن عمار : ليس بحجة . وقال الجوزجاني : ليس بثقة . وقال البخاري : تركوه . وقال مرة يتكلمون فيه . وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث ، تركوه . وقال أبو زرعة : ضعيف . وقال النسائي : متروك ، وقال مرة : ليس بثقة ولا يكتب حديثه . وقال

ابن خراش : كذاب ، وقال مرة : متروك . وقال أبو القاسم البغوى : ضعيف الحديث جدا . وروى له ابن عدى أحاديث وقال لا يتابع على شئ منها ، وأخرج له الحديث الذى أخرجه ابن ماجه . وليس عنده غيره . وقال ابن حبان روى عن الثقات الموضوعات كأنه كان متعمداً لها . وقال اسحاق بن عيسى : ثقة . وقال العجلى : ضعيف. وقال الساجى : عنده مناكير . وقال الحاكم : روى أحاديث موضوعة . وقال أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة الشعبى : سلام بن سليم الخراسانى متروك بالاتفاق .

وقال الخطيب البغدادى فى التاريخ : سلام بن سلم ويقال ابن سليم، ويقال ابن سليمان ـ والصواب ابن سلم، أبو عبد الله التميمى المعروف بالطويل من أهل خراسان . سكن المدائن . ثم ساق الخطيب مقادح الناس فيه وزاد على ما نقله صاحب تهذيب التهذيب فيه قوله : قال الغلابى : سلام الطويل مدائنى ضعيف . وقال فى موضع آخر : سلام بن سلم مذموم .

وأما غياث بن إبراهيم فقال فى الميزان: غياث بن إبراهيم النخعى عن الأعمش وغيره . قال أحمد : ترك الناس حديثه، وعن يحيى ليس بثقة . وقال الجوزجانى : كان فيما سمعت غير واحد يقول يضع الحديث . وقال البخارى : تركوه ، يكنى أبا عبد الرحمن ، يعد فى الكوفيين . قال الذهبى : روى عنه بقية ومحمد بن حمران ومحمد بن خالد الحنظلى وبهلول بن حسان وعلى بن الجعد . وهو الذى ذكر أبو خيثمة أنه حدث المهدى بخبر (لاسبق إلا فى خف) فدس فيه (أو جناح) فوصله . ولما قام قال المهدى :أشهد أن قفاك قفا كذاب . وذكر العسقلانى فى لسان الميزان ما ذكره الذهبى فى الميزان وزاد عليه : قال الآجرى سألت أبا داود عنه فقال كذاب ، وقال مرة: ليس بثقة ولا مأمون . وقال ابن معين كذاب خبيث . وقال الساجى : تركوه وقال صالح جزرة : كان يضع الحديث . وقال أبو

أحمد الحاكم : متروك الحديث .وقال النسائى فى الجرح والتعديل : ليس بثقة ولايكتب حديثه . وقال ابن عدى : بين الأمر فى الضعف ، وأحاديثه كلها شبه الموضوع . وذكره العقيلى وابن الجارود وابن شاهين فى الضعفاء . وذكر هذا كله ابن حجر . فالرجل متفق على ضعفه .

وأما عبد الله بن عثمان بن خثيم فقال فى الميزان : عبد الله بن عثمان بن خثيم المكى روى عن ابن معين : أحاديثه ليست بالقوية ، وروى أحمد بن أبى مريم عن ابن معين : ثقة حجة . وحكى عن ابن مهدى توهينه . وقال أبو حاتم : مابه بأس صالح الحديث ، وقال مرة لا يحتج به . وقال النسائى عقب حديثه : « عليكم بالاثمد » : لين الحديث . وقال فى التهذيب : عبد الله بن عثمان بن خثيم القارئ المكى . روى عن أبى الطفيل وصفية بنت شيبة وقيلة وعطاء وسعيد ابن جبير وأبى الزبير وشهر بن حوشب ومجاهد ونافع مولى ابن عمر . . . وعنه السفيانان وابن جريج وحماد بن سلمة وحفص بن غياث وغيرهم . . . قال بن أبى مريم عن ابن معين ثقة حجة . وقال العجلى : ثقة . وقال أبو حاتم : مابه بأس ، صالح الحديث . وقال النسائى : ثقة ، وقال مرة : ليس بالقوى . وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان يخطئ . وقال الدورقى عن ابن معين : أحاديثه ليست بالقوية ، نقله ابن عدى وقال : وهو عزيز الحديث وأحاديثه أحاديث حسان . وقال ابن سعد كان ثقة وله أحاديث حسنة . وقال النسائى : ليس بالقوى . قال : ولم يترك يحيى ولا عبد الرحمن حديث بن خثيم إلا أن على بن المدينى قال : ابن خثيم منكر الحديث ، وكان على بن المدينى خلق للحديث . هذا حاصل كلامهم فى ابن خثيم هذا . وقد أخرج مسلم حديثه فى الصحيح . وأما مجاهد فلا يسأل عن مثله . فهذا الاسناد الذى أسند الحكاية إلى عبد الله بن عباس اسناد ذاهب هالك لايجوز الالتفات إليه .

السند الثالث وبيان ضعفه وعلله

وأما الإسناد الثالث : وهو محمد بن خالد بن محمد البردعي عن حاجب ابن سليمان عن محمد بن المصعب عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الهيثم ابن حنش عن ابن عمر . فيقال : أما محمد بن خالد بن محمد البردعي ففي لسان الميزان : محمد بن خالد بن يزيد البردعي أبو جعفر نزيل مكة . روى عن عبد الله بن خلف وعصام بن الرواد بن الجراح وغيرهما . وروى عنه الطبراني وأبو بكر بن المقرى ومحمد بن سعيد بن عبدان المقرى . وقال مسلمة بن قاسم كان شيخا ثقة كثير الرواية ، وكان ينكر عليه حديث تفرد به ، وسألت العقيلي عنه فقال : شيخ صدوق لا بأس به إن شاء الله . اهـ فلعله يكون هذا ، وإن كان بين الاثنين اختلاف ، وذلك أنه في الرواية التي معنا محمد بن خالد بن محمد وهنا ابن خالد بن يزيد ، فإن لم يكنه فلا ندري من يكون .

وأما حاجب بن سليمان فقال في الميزان : حاجب بن سليمان المنبجي شيخ النسائي وثقه النسائي . وقال الدارقطني كان يحدث من حفظه ولم يكن له كتاب ، وهم في حديث . وكذا في تهذيب التهذيب وزاد : ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال مسلمة بن قاسم : روى عن عبد المجيد بن أبي رواد وغيره أحاديث منكرة ، وهو صالح يكتب حديثه .

وأما محمد بن مصعب فقال في الميزان : قال صالح جزرة : عامة أحاديثه عن الأوزاعي مقلوبة . وقال الخطيب : كثير الغلط لتحديثه من حفظه ، ويذكر عنه الخير والصلاح . وقال ابن عدي الحافظ : ليس عندي برواياته بأس . وقال في تهذيب التهذيب : توهينه عن ابن معين والنسائي وأبي زرعة وأبي حاتم ، وقال : قال ابن حبان : ساء حفظه ، يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل ، لا يجوز الاحتجاج به . وقال الحاكم أبو أحمد : روى عن الأوزاعي أحاديث منكرة ، وليس بالقوي عندهم . وقال عبد الله بن محمد بن سيار : محمد بن مصعب كان من الضعفاء .

وقال ابن قانع : ثقة . لهذا لما قالوا في الرجل . فالأكثرون يضعفونه .

وأما إسرائيل فهو إسرائيل بن يونس بن إسحاق السبيعي حفيد السبيعي الإمام الثقة المشهور — فثقة من رجال الصحيحين ، ولا يبالى بتضعيف من ضعفه من المتشددين في النقد . وأما أبو إسحاق فلا يسأل عن مثله [illegible]

وأما الهيثم بن حنش بهذا الضبط فلم أجد له ذكراً في الكتب الخمسة وتاريخ بغداد وميزان الاعتدال ولسان الميزان وتهذيب التهذيب وتعجيل المنفعة . والذي يبدو لي أنه مصحف وأن الصحيح أن يقال : الهيثم بن حنش لا ابن حنش فيكون هو الذي قال عنه لسان الميزان : الهيثم بن حنش : قال الخطيب في الكفاية لم يرو عنه غير أبي إسحاق السبيعي . وهذا لا يبعد التقارب الحروف وكثرة الشبه بينها ، والكتب المطبوعة في الهند كثيرة التحريف والتصحيف وحينئذ يكون الهيثم هذا مجهولاً لا يحتج به فهذا الإسناد الذي هو الثالث إسناد واه جداً [illegible]

وأما الإسناد الرابع — وهو أحمد بن الحسن الصوفي عن علي بن الجعد عن زهير عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن عبد الله عن ابن عمر — فنقول : أما أحمد ابن الحسن الصوفي فقد ذكره الخطيب في التاريخ وقال وهو ثقة ثم ذكر له ترجمة طويلة وقد ذكر له حديثاً منكراً وهو ما ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام أهدى لأبي جهل جملاً أو نحر له جملاً . قال وقد سئل الدارقطني عن هذا الحديث فقال : وهم الصوفي فيه وهماً قبيحاً . قال الخطيب : والوهم فيه ليس من الصوفي لأنه قد توبع عليه ، وإنما الوهم من سويد بن سعيد الذي رواه عنه الصوفي ، وقد حمل على سويد بن سعيد لذلك . وحكى عن الدارقطني توثيقه ، وحكى عن ابن المنادي قال كتبت عن أحمد بن الحسن الصوفي بأخرة . وقال الذهبي في الميزان : أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي مشهور ، وثقه الدارقطني وذكر

الاسناد الرابع وما فيه

قول ابن المنادى فيه . وذكر العسقلانى فى لسان الميزان ما قاله الخطيب . . .
والمحصل من هذا كله أن الصوفى المذكور ثقة لايسمو إلى مراتب الثقات الأثبات.
ولاينزل إلى مواضع الضعفاء المتروكين .

وأما على بن الجعد فوثقه الأكثرون وروى البخارى حديثه فى الصحيح
ولم يبال تضعيف من ضعفوه .

وأما زهير فهو زهير بن معاوية الجعفى الكوفى الامام . ثبت ثقة من رجال
الجماعة ، ولكن مهرة هذا الفن ذكروا أن روايته عن أبى إسحاق خاصة فيها شىء
لأنه سمع منه آخرة بعد الاختلاط . قال الذهبى : ولين روايته من قبل أبى
إسحاق لامن قبله هو .

المظلف سند لحديث خدر الرجل

وأما عبد الرحمن بن سعد فسيأتى الكلام فيه . فهذا السند خير سند عند ابن
السنى لهذه الحكاية . ولكن خير ماروى به هذا المعنى عن عبد الله بن عمر هو
ما رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » قال : حدثنا أبو نعيم قال حدثنا
سفيان عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن سعد قال : خدرت رجل ابن عمر فقال له
رجل اذكر أحب الناس ، فقال . يامحمد . وهذا الاسناد رواته كلهم أئمة مشاهير
خلا عبد الرحمن بن سعد الراوى عن ابن عمر . وقال فى تهذيب التهذيب : عبد
الرحمن بن سعد القرشى كوفى روى عن مولاه عبد الله بن عمر ، وعنه أبو إسحاق
السبيعى ومنصور بن المعتمر . . . ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال النسائى
ثقة . وقد رمز إلى أنه من من رجال البخارى فى الأدب المفرد . فلذا ثبت أن
عبد الرحمن هذا ثقة صحيح الحديث وأمن جانبه على الحديث كانت الرواية
المذكورة فى غاية الصحة والقوة ، وكان إسنادها فى غاية الإشراق والنظافة . والذى
نختاره نحن ونميل إليه أن لهذا المعنى عن عبد الله بن عمر أصلا لتعدد الطرق .

معانى هذه الروايات ان صحت وبراءتها مما زعموا

هذا مانقول أولا ثم نقول ثانيا : هذه الروايات — إذا صحت — لا تدل على

مازعموا من دعاء الأموات وسؤالهم ضروب الحاجات . وذلك أنه ليس فيها طلب شئ من الأشياء ولا حاجة من الحاج الكبيرة أو الصغيرة ـ كالذى يطلب هؤلاء الضلال من الموتى ، مثل هداية القلوب وغفران الذنوب ومطالب الدنيا والأخرى وكل الذى فيها أنه يجوز أن يقال فى بعض الأحيان والحالات : وامحمداه ، بالتجريد من كل طلب وسؤال . وهذا القول ليس استغاثة وليس طلبا ولا سؤالا وإنما هو قول يقال عند التوجع وإبداء الأسف ويسمى اصطلاحاً ندبة . يقال ندب الميت إذا بكاه وعدد أوصافه وفضائله المحمودة . . والمندوب ليس مسئولا ولا مطلوبا ولا مرادا منه أن يسمع أو يعطى أو يشفع أو يدعو . وليست الندبة فى التحقيق خطاباً حقيقياً وإن كانت فى الظاهر كذلك . فاذا قال الحى ـ يرثى ميتاً عزيزاً وفقيداً آد فقده ـ : واخليلاه ، أو واصديقاه ، أو وا أميراه ، أو وا أبتاه ، ونحو ذلك لم يكن فى شئ منه دعاء ولا طلب ولا خطاب حقيقى ، وإنما هو توجع وأسف بالغ وبكاء . وقد صح أن السيدة فاطمة بنت سيد الخلق رضى الله عنها ندبت أباها بعد وفاته وقالت فى ندبتها ورثائها إياه : ياأبتاه ، أجاب ربا دعاه ، ياأبتاه من جنة الفردوس مأواه ، ياأبتاه إلى جبريل ننعاه . رواه البخارى فى الصحيح عنها . وكذلك جاء أن غيرها ندبه عليه الصلاة والسلام . فقول القائل : وامحمداه فى الرواية المذكورة مثل قول السيدة فاطمة : ياأبتاه . . . كلاهما توجع وتفجع ، وكلاهما خال من الدعاء والطلب . وهذا مثل قول الراثى لصديق له ذهب إلى سبيله : واصديقاه ، واخليلاه . ومن زعم أن هذا استغاثة أو أن فيه استغاثة وطلباً وسؤالا فهو فى حاجة إلى التعليم لا إلى المجادلة والمساجلة فى هذه المباحث العليا القيمة . ولو كان هذا الذى ذكروه استغاثة لكان فيه طلب ماوهو طلب المستغاث من أجله وهو أن يقول القائل : وامحمداه أغثنا أو أعنا أو انصرنا أو أعطنا . ولكن الروايات الثلاث المذكورة خالية من ذلك . ولا ريب أن من وقع فى بلاء وشدة

فأراد أن يستغيث فقال مثلا: وافلاناه! لم يكن مستغيثاً استغاثة صحيحة. ومن أشرف على الغرق فقال: يارجل أو يافلان - ولم يقل خذ بيدى أو أنقذنى أو أدركني أو أغثني - لم يكن مستغيثاً استغاثة صحيحة ولا داعياً دعاء صحيحاً تاماً. فالذين ذكرت عنهم هذه الروايات لم يقولوا: وامحمداه أعطنا أو أغثنا أو نحو ذلك، وإذن فليسوا طالبين ولا سائلين ولا مستغيثين، وإنما هم نادبون باكون.

ويوضح غلط القوم

ومما يوضح غلط هؤلاء القوم وخلطهم أن الذين كانوا يقاتلون مسيلمة الكذاب وقومه المرتدين في أرض اليمامة لايصح البتة أن يستغيثوا برسول الله ولو كان حياً سوياً في المدينة المنورة لبعد ما بينهم وبينه. ولا يمكن أن يدعوه وأن يخاطبوه من هذه المسافات ليجيبهم ويسمعهم ويعطيهم ماسألوه وطلبوه إلا إذا زعموا أنه ﷺ مثل الله تعالى جده وعظم شأنه في صفة الإحاطة بالغيوب وعلم القريب والبعيد وفي القدرة على إغاثة المستغيثين مهما كثروا وتعددوا واختلفوا، وفي الاستطاعة على قضاء الحاجات مهما تعددت وكثرت واختلفت. ولكن برأ الله صحابة نبيه من هذه العقيدة النكراء والهوجاء الباطلة.

زعمهم ان قتال المرتدين كان في حياة النبي

ومن الخلط الفاضح أن الرافضي بعد ذكره هذه الرواية زعم أن المسلمين ماقاتلوا مسيلمة الكذاب إلا في حياة النبي عليه السلام. وهذا زعم يخزي والله شعباً بأسره. فإن المسلمين ما قاتلوا مسيلمة وقومه المرتدين إلا بعد وفاة النبي عليه السلام: قاتلهم الصديق الأكبر أبو بكر العظيم حتى نحت أثلتهم وأطاح بخلتهم واستأصل شأفتهم... ويظهر أن الشيعة يريدون من وراء هذا الخطأ والضلال تجريد أبي بكر الصديق من هذه المكرمة وخلعه من هذه الحلة، وهي قتاله المرتدين وقضاؤه عليهم القضاء الأخير. ولكن:

ومن كان فوق محل الشمس موضعه . . . فليس يرفعه شيء ولا يضع

وللقوم آفات لا تقف عند حد.

هذا ندبة لا استغاثة

ويوضح أن الذي في هذه الروايات ندبة لا استغاثة أن عبد الله بن عمر على ما ذكروا — لم يقل : وامحمداه إلا بعد أن قيل له اذكر أحب الناس إليك . فإن هذا يدل دلالة صريحة واضحة على أنه لا استغاثة هنا البتة ، إذ لو كانت المسألة مسألة استغاثة وطلب وسؤال لقيل له : استغث أو اطلب أو ادع أحب الناس إليك . أما كلمة اذكر فإنها بينة في أن المراد ذكر الاسم ، اسم الحبيب مرسلا مطلقاً .

محال باطل

على أن الذي لا يشك فيه المؤمنون أنه من المحال والباطل أن يروح أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يستغيثون بغير الله ربهم وخالقهم في أحرج الساعات وأخلد الأوقات وأحوج ما يكونون إلى المعونة والمغوثة والمنصرة الحاسمة المؤيدة حتى يكون شعارهم وهم ينازلون أعداء الله وأعداءهم وأعداء الإسلام ، بل والحق ينازل الباطل بكل قواه وعدده وعدده فإما انتصر وإما انكسر وفي انكساره ذهاب كل شيء من تراث الرسول وتراث صحابته الأبرار وتراث الحق والهدى الأزلي. أقول من المحال والباطل أن يكون شعار صحابة رسول الله بينا هم كذلك : وامحمداه طالبين العون والنصر والتأييد ، تاركين الله جل جلاله وراء ظهورهم ووراء ادكارهم وأمانيهم ومسائلهم ، ووراء حاجاتهم وآمالهم . . ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان معهم في تلك الساعات والأوقات يخوض الحتوف ويطأ الصروف لاحتاج هو إلى عونهم ونصرهم له ولدينه بأسيافهم وبطولة أبطالهم . وهو ﷺ لو كان معهم في تلك المواقف الحاسمة لكان هو وهم لا يجأرون إلا إلى الله ولا يدعون سواه ، « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ؟ » « أإله مع الله ؟ »

الآيات في رجوع المؤمنين الى الله وحده في حالات الشدة

وقد أنبأنا الله في غير ما آية من كتابه أن المؤمنين في ساعات الحروب ومناجزة الأعداء لا يستغيثون إلا بالله كما قال تعالى من سورة الأنفال : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة » ، وقال من هذه السورة في

تعليم المؤمنين وإرشادهم إلى الأخذ بالسببين : بالقوة المادية والقوة المعنوية الروحية ، وهى الرجوع فى وقت الحاجة والشدة إلى الله وحده : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا . . . » ولم يقل : فاذكروا الرسول أو اذكروا الله والرسول ، بل قال : اذكروا الله وأطيعوا الله والرسول . فالرسول له حق الطاعة فى هذا المقام لا الاستغاثة ولا طلب العون والمدد ، فان ذلك من الله وإليه وحده لاشريك له . وقال فى هذه السورة أيضاً « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ، أى الله حسبك وحسب المؤمنين معك ، وقال تعالى حكاية عن طالوت ومن معه من المؤمنين حينما زحفوا إلى جالوت ومن معه من الكافرين : « ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله » . ولم يكن من شعار هؤلاء المؤمنين المختارين حين القتال والنضال ومنازلة أخصام الحق أن يستغيثوا بمخلوق : لا بنبى ولا بغيره من الخلق ، بل رجعوا جميعاً إلى الله وإلى طلب النصر والعون وإفراغ الصبر لديه . وقال من سورة آل عمران : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » وقال : « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن المؤمنين ، أتباع النبيين فى حالات

الحروب والشدائد والمخاوف لا يذكرون سوى ربهم ، ولا يدعون أو يسألون إلا إياه معرضين عن جميع المخلوقين : الصالحين والنبيين وغيرهم من صنوف المخلوقين المربوبين . وما ذكر الله فى كتابه عن أحد منهم أنه دعا مخلوقاً أو استغاث نبيا أو ولياً أو صالحاً حين الزحف إلى قتال أعداء الله وأعداء دينه . وما ذكر عنهم سوى الانقطاع إلى الله والرغبة فيه وفى نصره وفى تأييده وحده . ولا ريب أن الله لم يقص علينا فى كتابه أحوال عباده الصالحين وأقوالهم إلا للقدوة والأسوة والائتمام بهم والنهج منهجهم . فيقص علينا أن الأنبياء والربيين معهم والصالحين كانوا حين الحرب والبلاء والبأساء يدعون الله ويرغبون إليه لا إله إلا هو كى نفعل فعلهم ، ونأخذ سبلهم ، ونرجع إلى الله وحده مثلما رجعوا . وقد أنبأنا الله فى كتابه ، كما تقدم ، أن الكافرين والمشركين أنفسهم كانوا فى شدتهم وحين عصف الأقدار بهم يتركون كل ما سوى الله ويخلصون إليه تعالى وحده لا شريك له مخلصين له الدين ، لا يبالون مخلوقا ، ولا يذكرون أحداً إلا الله . فكيف يمكن بعد هذا أن يكون أصحاب النبى عليه السلام فى حين شدتهم وبأسائهم يعرضون عن الله ، ويأخذون يستغيثون المخلوقين ويضعون عليهم آمالهم وحاجاتهم ؟ اللهم إن هذا باطل كاذب .

فالذين يدعون العبيد ويستغيثونهم فى أوقات الحروب والشدائد والمكاره والاقدام على الحتوف والصروف خارجون عن سنن الأنبياء والصالحين ، مخالفون لما قصه الله فى كتابه عن عباده المختارين . فمن المحال الباطل أن يكون شعار صحابة النبى عليه الصلاة والسلام فى قتالهم وحروبهم الاستغاثة بالنبى ، ومن المحال أن تكون الرواية صحيحة إن كان معناها ماذكروا وزعموا ، ومن المحال أن يكون الذى فيها استغاثة ودعاء إن كانت صحيحة ، بل لابد أن يكون ندبة ، أى توجعاً وأسفا على فراق رسول الله .

ويرد على المخالفين أن حرف « وا » ليس من حروف النداء

ومما يرد على المخالفين زعمهم أعظم الرد أن حرف « وَا » ليس حرف نداء فهو لا يدخل على المنادى الحقيقى أبداً ، فلا يقال : وارجل أقبل ، أو وافلان افعل كيت ، ولا يقال : وا الله اغفر ذنبى ولا أمثال ذلك . وإنما يجئ عند إرادة النداء الحقيقى أحد الحروف الموضوعة للنداء مثل « يا » و « أى » و « أيا » و « هيا » والهمزة ، فيقال : يا فلان أو أى فلان أو أيا فلان أو هيا فلان أو أفلان افعل . ولا يقال : وافلان افعل مثلا . ويوضح هذا جيدا دخول ألف الندبة وهاء السكت بعدها على«وامحمداه» فى الروايات الثلاث على ماذكر الشيعى . وهذان الحرفان : الألف والهاء ، لايقعان فى المنادى الحقيقى ، فلايقال : يا محمداه أقبل أو أيا زيداه اذهب . وأيضاً فان المنادى المفرد المعرف يبنى على ما يرفع به ، ومحمد مثلا يرفع بالضمة . فاذا كان منادى وجب أن يبنى على الضمة فقيل يا محمدُ . . . إذن فالذى فى الروايات ليس نداء وإنما هو ندبة بلا شك

ذكر اسم الحبيب عند خدر الرجل عادة من عادات العرب

هذا ، ومن الجواب عن حديث خدر الرجل أن يقال : عرفنا من الروايات التى نقلناها من كتاب « عمل اليوم والليلة » لابن السنى أنه كان من عادة العرب أن يذكروا اسم أحب الناس إليهم عند خدر الرجل لاعلى سبيل النداء والسؤال والاستغاثة والطلب بالضرورة ، وإنما هى مجرد عادة قد يكون فيها بعض التأثير على نفس المحب الواله عند ذكر من يحب . وهذا التأثير — إن وجد — راجع إلى ماينال نفس المحب وما يتغشاها من التأثر والانفعال — الذى يسمو عن التعبير وعبارة الكلام عند مايلاق سمعه اسم حبيبه ، فتمتلئ نفسه بالصور المختلفة المتنوعة لذاك الحبيب الغائب . . . فتهتز النفس لتلك الذكريات اهتزازات لا محالة من أن يهتز لها كيان الجسم وكيان الصورة الخارجة . . . فيصاب الداخل والخارج أو الجسم والروح بالارتجاج العنيف ، وبالارتجاج يكون التبدل والتغير ، وبالتغير والتبدل قد يزول خدر الرجل ، وقد يزول غيره من آلام النفس والجسم ، من

الآلام الظاهرة والباطنة . وليس فى هذا الزعم مايخالف ماطبعت عليه النفس وما شيد عليه الجسم من عادات وسنن وطبائع لا يحيط بكنهها وحقيقتها سوى من خلقها وهو اللطيف الخبير .

ومن الدليل على ذلك أقوالهم التى ذكرناها : « إذا خدرت له رجل دعاك »

« وتخدر فى بعض الأحايين رجله * فان لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر

إذا خدرت رجلى تذكرت قولها * وناديت ابنى باسمها ودعوت

فهذه الأشعار دلائل ناطقة على أنهم قد اعتادوا أن يذكروا أسماء أحبابهم عند ما تخدر أرجلهم ، ولكن لا شك أنه ليس فى ذكرهم من يحبون حينئذ شئ من الاستغاثة والسؤال والنداء والطلب . فالقائل : « إذا خدرت له رجل دعاك » لا يريد أنه يستغيث بتلك المرءة حينما تخدر رجله ، والقائل أيضا : « فان لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر » لا يعنى الاستغاثة والدعاء الحقيقى لتلك المرأة المحبوبة يوم أن تخدر رجله ، والقائل أيضاً : « إذا خدرت رجلى تذكرت قولها » البيت لايذهب بقيله هذا إلى الاستغاثة والسؤال والطلب بالضرورة الجلية . وإنما هى ذكرى قد يكون للنفس فيها بعض الشفاء . ولاريب أن ذكر الحبيب وتمثل صوره قد يشرحان النفس ، وقد يطلقانها من آلامها أو ينسيانها إياها . وإذا انشرحت النفس كان فى انشراحها العلاج الذى لا يماثله علاج لآلام الجسم وأمراضه ، لأن المرض نوع من أنواع الفتور والضعف والهبوط . وفى انشراح النفس لذكرى الحبيب من القوة والنشاط والحركة مايبعد ذلك . ولأن المرض عبارة عن نقص وقود الجسم ، والذكرى ، ذكرى الاحباب ، وقود ما مثله وقود واشتعال واتقاد مامثلهما اشتعال واتقاد . فما كالذكرى إذن علاج ، ولا كالذكرى دواء .

مالذكرى الحبيب من علاج

والذى فى أحاديث خدر الرجل من هذا القبيل أى من قبيل تذكر الحبيب

الأعظم عليه الصلاة والسلام . وليس هو من نوع الاستغاثة والدعاء والطلب الذى نأباه لأن الاسلام يأباه .

وليعلم هذا الرافضى وغيره من أنصار البدعة أن الممنوع لدينا ليس هو حروف النداء والتلفظ بها ، ولا حرف الندبة ولا غير ذلك من الحروف . وإنما الممنوع عندنا هو طلب مالا يستطيعه إلا الخالق من المخلوق. وإذا علم هذا سقط كل ما يصاولون به ويطاولون من الحساب والاعتبار ، وسقط كل ما يتشبثون به من إدخال حروف الخطاب والنداء والندبة على الأموات . وفى هذا فصل الخطاب وفيصل التفرقة .

هذا آخر النقض على شبهات الرافضى . ولعل القارىء اللبيب رأى كيف يشيدون عقائدهم ودينهم على الأخبار التائهة والروايات التى فاتها الحسب والنسب ، قاذفين بكتاب الله وبقواطع الاسلام وضرورات العقول وراء ظهورهم ودبر آذانهم حيناً بحجة التأويل الذى هو تحريف قبيح ، وحيناً بالانكار والجحود الصريح . والله الهادى لمن يشاء إلى سبيله وصراطه المستقيم .

﴿ التوسل ﴾

أنواع التوسل عند المخالف وجوازها وأدلة ذلك كله

ثم قال الرافضى : « الفصل الثالث فى التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء . وهذا يكون على وجوه : أحدها أن يقول : أتوسل إلى الله به أو أتوجه به إليه ، أو أتشفع أو أقدمه بين يدى حاجتى أو نحو ذلك . ثانيها — : أن يقول : أسألك بفلان أو بحق فلان أو بحقه عليك أو بجاهه وبركته أو بحرمته أو نحو ذلك . ثالثها — : ان يقول : أقسمت عليك أو أقسم عليك بفلان أو نحو ذلك وكلها تؤول إلى شى واحد وهو جعله وسيلة وواسطة بينك وبين الله لماله من المنزلة عنده والكرامة لديه .

« والتوسل بأنواعه مما منعه الوهابيون وجعلوه شركا لأنه نوع من التشفع

الممنوع عندهم الموجب للشرك وجريان أدلتهم فيه .

« ونقول : التوسل ثابت بنص الكتاب قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » . وهى بعمومها شاملة لكل توسل إلى الله بما يكرم عليه . وقد دلت الأخبار الكثيرة على ثبوت الوسيلة للأنبياء والأوصياء والصالحاء . وقد مر قول النبي عليه الصلاة والسلام : « اسألوا الله لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لاينبغى أن تكون إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد » . ويأتى قوله عليه السلام عن الخوارج : « يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة » . والمراد بالوسيلة الدرجة والمكانة عنده تعالى ، ولذلك يتوسل ويتشفع به إليه .

« والتوسل بذوى المكانة عند الله ، أحياء وأمواتا ، من سنن المرسلين ، وسيرة الصالحين بأى وجه من الوجوه الثلاثة . بل هو ثابت فى الشرائع السابقة فعن القسطلانى فى شرح صحيح البخارى عن كعب الأحبار أن بنى إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم . انتهى .

« وقد ثبت جواز التوسل بالحى كما اعترفوا وكما صرحت الأحاديث ، وفيها أمره عليه الصلاة والسلام بالتوسل به إلى الله و بسؤاله بحق السائلين وبحق مشى المصلى إلى الصلاة . وصرحت بالحق على الله و بالتوسل بالنبي و بالعباس . وجاء ذلك فى الأخبار الآتية وفيها قول عمر فى العباس : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه . . . و إذا ثبت أن التوسل بالحى ليس عبادة ولا شركاً فالتوسل بالميت كذلك لعدم تعقل الفرق . فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهى لم تذهب بالموت ، و إن كان لأجل أن يدعو الله فهو ممكن فى حق الميت . ولو فرض عدم إمكانه لم يوجب الشرك بل يكون مثل طلب المشى من المقعد بزعم أنه صحيح . فالتفرقة بين التوسل بالأحياء والأموات تحكم محض .

وقد فهم الصحابة عدم الفرق وهم أعلم بالسنة من ابن تيمية وأتباعه كما يأتى فى حديث ابن حنيف . وصرحت الأخبار الآتية أيضا بعدم الفرق بين الحى والميت بل والموجود والمعدوم . وأمر مالك إمام المذهب المنصورَ أن يتوسل بالنبى ويستشفع به بعد موته وقال : هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم ، كما يأتى كل هذا . مع هذا إن الأخبار قد صرحت بعدم الفرق بين الحى والميت ، بل الموجود والمعدوم ، بل العاقل وغير العاقل كالأعمال ، فصرحت بوقوع التوسل من آدم بالنبى عليه الصلاة والسلام قبل وجوده ، وبالتوسل بالأعمال وبتوسل النبى بالأنبياء قبله وهم أموات ، وبتوسل الصحابة بقبر النبى بفتح كوة بينه وبين السماء . وإليك بيانها : قال السمهودى عالم المدينة فى كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » : الفصل الثالث: فى توسل الزائر وتشفعه به ﷺ إلى ربه واستقباله فى سلامه وتوسله ودعائه :

« اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبى وبجاهه وببركته إلى ربه تعالى من فعل الأنبياء والمرسلين ، وسير السلف الصالحين، واقع فى كل حال ، قبل خلقه وبعد خلقه فى حياته الدنيوية ومدة البرزخ وعرصات القيامة .

« الحال الأول أى قبل خلقه ورد فيه آثار عن الأنبياء ، ولنقتصر على ما رواه جماعة منهم الحاكم وصحح إسناده عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله عليه السلام : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى . فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال :يارب لأنك لما خلقتنى بيديك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم . إنه لأحب الخلق . وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ماخلقتك » . قال : ورواه الطبرانى وزاد : « وهو آخر الأنبياء

من ذريتك » انتهى . وفى خلاصة الكلام : ورواه البيهقى باسناد صحيح فى دلائل النبوة . وفيها أيضا : قال فى « المواهب اللدنية » ويرحم الله ابن جابر حيث قال :

به قد أجاب الله آدم إذ دعا * ونجى فى بطن السفينة نوح
وماضرت النار الخليل لنوره * ومن أجله نال الفداء ذبيح

« وفيها أيضا قال بعض المفسرين فى قول الله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » : إن الكلمات هى توسله بالنبى : انتهى . وفى مجمع البيان فى تفسير الآية بعد نقله جملة من الأقوال مالفظه : « وقيل — وهى رواية تختص بأهل البيت — : إن آدم رأى مكتوبا على العرش أسماء مكرمة فسأل عنها فقيل له : هذه أجل الخلق عند الله منزلة — والأسماء : محمد ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين . فتوسل آدم إلى ربه بهم فى قبول توبته ورفع منزلته » انتهى . وفى ذلك يقول الواسطى :

قوم بهم غفرت خطيئة آدم * وهم الوسيلة والنجوم الطلع

« وإلى هذا التوسل أشار مالك بقوله للمنصور : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم فى الحديث الآتى

« ثم قال السمهودى : قال السبكى : وإذا جاز السؤال بالأعمال كما فى حديث الغار الصحيح — وهى مخلوقة — فالسؤال بالنبى أولى . وفى العادة أن من له عند شخص قدر فتوسل به إليه فى غيبته فانه يجيب إكراماً للمتوسل به . وقد يكون ذكر المحبوب أو المعظم سبباً للاجابة . ولا فرق فى هذا بين التعبير بالتوسل أو الاستغاثة أو التشفع أو التوجه . ومعناه التوجه به فى الحاجة . وقد يتوسل بمن له جاه إلى من هو أعلى منه .

« الحال الثانى التوسل به بعد خلقه فى مدة حياته فى الدنيا . منه مارواه

جماعة منهم النسائى والترمذى فى الدعوات من جامعه عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى عليه السلام فقال : ادع الله لى أن يعافينى . فقال ﷺ : « إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت وهو خير لك » فقال : ادعه فأمره عليه السلام أن يتوضأ وأن يحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة . يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى ، اللهم شفعه فى » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وصححه البيهقى وزاد : فقام وقد أبصر . وفى رواية ففعل الرجل فبرأ .

« ومن التوسل به فى حياته ماورد فى قصة سواد بن قارب التى رواها الطبرانى وفيها أنه أنشد النبى قصيدته التى يقول فيها :

وإنك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

وكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

« فلم ينكر عليه قوله : أدنى المرسلين وسيلة ، ولا قوله : وكن لى شفيعاً .

« ومن التوسل به فى حياته مارواه البيهقى أن أعرابياً جاء النبى عليه السلام يستسقى به وأنشده :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل

« وهذا صريح فى التوسل ولم ينكر عليه بل قال أنس لما أنشده الأبيات قام يجر رداءه حتى رقى المنبر وخطب ودعا لهم فلم يزل يدعو حتى أمطرت السماء وهو على المنبر . وروى البخارى فى الصحيح أنه عليه السلام لما أمطرت السماء قال : « لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه . من ينشدنا قوله ؟ » فقال يارسول الله كأنك أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلل وجه النبى .

«وقال السمهودى : الحال الثالث التوسل به بعد وفاته : روى الطبرانى فى الكبير عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له ، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته . فلقى ابن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له ابن حنيف :ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد وصل ركعتين ثم قل : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة . يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك أن تقضى حاجتى» وتذكر حاجتك . فانطلق الرجل فصنع ماقال، ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه على الطنفسة فقال حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال: ما ذكرت حاجتك إلا الساعة . وقال : ما كانت لك من حاجة فاذكرها . ثم خرج الرجل من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر فى حاجتى ولاينظر إلى حتى كلمته فىّ . فقال ابن حنيف . والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره . الحديث .

« وفى كتاب« وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » أيضاً ما لفظه : وفى الكبير والأوسط بسند فيه روح بن صلاح ، وثقه ابن حبان وفيه ضعف و بقية رجاله رجال الصحيح ، عن أنس بن مالك قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فجلس عند رأسها فقال :« رحمك الله يا أمى بعد أمى » .وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده . قال : ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل فاضطجع فيه ، ثم قال : « الله الذى يحيى و يميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » . وفى خلاصة

الكلام : رواه الطبرنى فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه انتهى.

« ومن التوسل به بعد موته قول صفية بنت عبد المطلب فى مرثيتها للنبى عليه السلام التى رواها أهل السير وعلماء الأثر :

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا * وكنت بنا براً ولم تك جافياً

« وفى وفاء الوفا » ما لفظه : وفى الوفاء لابن الجوزى من طريق أبى محمد الدارمى بسنده عن أبى الجوزاء قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها فقالت : انظروا قبر النبى عليه السلام واجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه و بين السماء سقف ، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق . قال الزين المراغى : إن فتح الكوة سنة أهل المدينة عند الجدب .

«ثم قال السمهودى : الحال الرابع التوسل به عليه السلام فى عرصات القيامة فيشفع إلى ربه . وهذا مما قام عليه الاجماع وتواترت به الأخبار . وروى الحاكم وصححه عن ابن عباس قال أوحى الله إلى عيسى : يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا أنى خلقت محمداً ماخلقت الجنة والنار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه : لاإله إلا الله محمد رسول الله فسكن .

« ومن أخبار التوسل بالملائكة والأنبياء مافى خلاصة الكلام عن الاذكار للنووى أن النبى عليه السلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر ثلاثا : «اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل ومحمد أجرنى من النار » . قال فى الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم فى قبول الدعاء .

« وأما التوسل بقبره عليه السلام فقد جاء فى حديث توسل عمر بالعباس . وفى خلاصة الكلام : واستسقى عمر بالعباس لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا .

وذلك مذكور فى صحيح البخارى .

« وفى وفاء الوفا » وغيره قال القاضى عياض فى الشفاء بسند جيد عن ابن حميد أحد الرواة عن مالك ـ فيما يظهر ـ قال : ناظر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله فقال مالك : ياأمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فان الله أدب قوماً فقال : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » ومدح قوماً فقال : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » الآية . وذم قوما وقال : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » . وإن حرمته ميتا كحرمته حياً فاستكان لها المنصور . فقال : ياأبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله . قال الله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » انتهى . وفى الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى أن الشافعى توسل بآل البيت النبوى وقال :

آل النبى وسيلتى * وهم إليه ذريعتى

أرجو بهم أعطى غداً * بيدى اليمين صحيفتى . . . »

وهنا نقل الرافضى جملة حكايات فى التوسل نسب بعضها لبعض الأعراب، وبعضها لآل البيت من طرق الشيعة ، وبعضها نسب لبعض الفقهاء . . . وكلها لا قيمة لها لا رواية ولا دراية . وسوف تمر بالقارئ فى غضون الكتاب إن شاء الله. وهذا الذى نقلناه حاصل ماذكره الرافضى فى هذا البحث من الشبهات . وإننا بعون الله وتأييده نورد ما يتيسر من القول فى الوسيلة وفى معناها وفى ما يراد منها وبها شرعاً ولغة ، وما يراد بها ومنها عند جمهور الناس اليوم وقبل اليوم من العامة وأشباه العامة وما يقع فى ذلك من اللبس والإبهام والايهام . وسنورد إن

شاء الله الدليل القاطع على كل ما نكتب ونذكر ، ثم بعد هذا نتعقب ما ذكره الرافضي فى هذا الفصل من الشبهات أو البراهين فنرد المردود الفاسد ونكشف ما فى الصحيح من الوهم والوهن والتحريف والتجديف ــ سائلين الله وحده العون والغوث والسلطان والبيان .

الكلام على التوسل والوسيلة لغة وشرعا

﴿ حقيقة التوسل والوسيلة ﴾

إذا رجعنا إلى الكلمات الواردة فى الشرع وفى اللغة التى جاء فيها لفظ التوسل وما اشتق منه وجدناها كلها بمعنى القرب وما يشتق منه أو ما يؤول إليه من قريب أو من بعيد . ففى كتاب الله يقول الله من سورة المائدة : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » والوسيلة فى هذه الآية هى ما يقرب إلى الله وما يتقرب به إليه من الأعمال الصالحة المبرورة المشروعة على اختلاف ضروبها واختلاف مظاهرها وحقائقها وصورها ، يدخل فى ذلك أعلى الأعمال وأشرفها كالصلوات والفروض الخمسة ، وأقلها مثل إماطة الأذى عن الطريق مثلا : كذا جاء تفسيرها عن السلف الصالح فجاء عن عبد الله بن عباس أن الوسيلة هى القربة . وكذا جاء عن الحسن وابن زيد ومجاهد وغيرهم . وقال قتادة فى تفسيرها : أى تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه .

وقال تعالى من سورة بنى إسرائيل : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا ». وقد فسرت الآية بما فسرت به الآية قبلها ، أى بالقرب والتقرب . فآية المائدة تطالب إلى المؤمنين أن يبتغوا عند الله وحده الوسيلة أى القرب والتقرب إليه . والقرب إلى الله لا يدرك إلا بطاعته وعبادته واتباع أنبيائه والمرسلين من

عباده ، وآية بنى إسرائيل تحدث المؤمنين بأن عباد الله المؤمنين يدعون الله ربهم ، يطلبون لديه تعالى القربى والزلفى ، ويتنافسون فى هذا القرب وذلك التقرب ، ويرجو كل منهم أن يكون الأقرب الأدنى الأسبق . وهم أيضا يرجون رحمته ويخافون عذابه لأن عذاب الله محذور مرهوب لأنه شديد أليم

الاحاديث فى التوسل والوسيلة

وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال: « من قال قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة». وهذه الوسيلة المذكورة فى هذا الحديث الصحيح هى منزلة من منازل القرب والزلفى عند الله مدخرة لنبيه ﷺ . فهى راجعة إلى معنى القرب وماتفرع عنه ،كذا جاء بيانها فى حديث آخر صحيح وهو مارواه الامام مسلم فى الصحيح قال قال رسول الله عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فان من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن كون ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .فالوسيلة فى هذا الحديث منزلة من منازل الجنة العليا . ولا ريب أن الجنة درجات ، وأن أقربها إلى الله هو أعلاها وأرفعها ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله أنه قال : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه أعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن » . فهذه الوسيلة التى هى منزلة من منازل الجنة لا تعدو فى معناها مادة القرب والزلفى . وذلك أن من ينال مثل هذه الدرجة من درجات الجنة لاريب فى قربه من ربه. وقد قال تعالى فى أهل جنته وقربهم لديه : « إن المتقين فى جنات ونهر، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » فأنبأ الله أن المتقين الذين هم فى الجنة التى هى جزاء المتقين عند مليك مقتدر وهو الله جلت قدرته

والذى ينال أسمى منازل الجنات ـ وهى المنزلة الموصوفة فى الحديث ـ قريب من الله أعظم القرب وأدناه .

وفى حديث أنس بن مالك المشهور أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال أنس : فيسقون . وقوله هنا : نتوسل إليك ـ فى اللفظين ـ معناه نتقرب إليك ونزدلف إلى رضاك و إلى خيراتك وأنعمك، وغياثك و رحمتك وكل فضلك وأياديك . وجاء فى شعر المتنبى قوله :

الاشعار فى التوسل والوسيلة

ألا ليست الحاجات الا نفوسكم * وليس لنا إلا السيوف وسائل

يريد أن يقول إنه ليس لهم ما يصلهم بآمالهم الفضية المقطوفة من أشعة الشمس وخيوط القمر ، وليس لهم ما يقربهم إلى ما يتطلبه المجد والشرف والحياة العزيزة الفاضلة إلا السيوف المغمدة المنتضاة على البأس وبالبأس ، فهى هى التى تدرك بها الحاجات ، وينال البعيد الأقصى، وتتطلب الحقوق وافية كاملة . وكل حق أو باطل ريم اقترابه بغير السيوف ـ والسيوف أبداً عنوان القوة والبأس ـ فلن يقترب منه خطوة واحدة ، ولن يزداد على الرجاء والتأميل إلا بعداً ونأيا . ولقد صدق هذا الشاعر الحكيم إذ قال :

من اقتضى بسوى الهندى حاجته * أجاب كل سؤال عن هَلٍ بِلَمِ

وجاء فى شعر لبيد :

أرى الناس لايدرون ماقدر أمرهم * بلى كل ذى رأى إلى الله واسل

و « واسل » هنا إما بمعنى راغب و إما بمعنى متقرب بالأعمال ، والمعنيان يصيران ـ نتيجة ـ إلى معنى واحد . وذلك أن الراغب فى الشىء متقرب إليه ضرورة ولابد ، فكلمة « واسل » فى قول لبيد لا تخرج عن القرب والتقرب .

وجاء فى شعر أبى طالب فى نعيه على قريش مقاطعتهم بنى هاشم وظلمهم

إياهم واحتشادهم على عدائهم ونبذهم قوله من قصيدته الطويلة المشهورة : « وقد قطعوا كل العرى والوسائل » . ويعنى هنا بالوسائل القرابات التى كانت بين بنى هاشم المنبوذين المظلومين وبين قريش النابذين الظالمين ، القرابات التى ما كان أجدرها بالرعاية والصيانة والوصل .

وجاء فى شعر عنترة العبسى قوله :

إن الرجال لهم إليك وسيلة * أن يأخذوك ، تكحلى وتخضبى

يعنى أن للرجال تقرباً لقضاء مآرب الشهوات والحاجات الجنسية وفروض اللذاذات المتأججة . فعليها إذن ـ لإلهاب هذا التقرب ولتحريك تلك الشهوات الدافعة إليه ـ أن تتسلح بأعظم سلاح وضعه الله فى يد المرأة الموصوفة جهلا وغلطاً ومغالطة بالضعف واللطف . . . وهذا السلاح هو أن تحتال لتقوية سلطانها وجبروتها بأن تستعمل أنواع الزينات والمساحيق والأصباغ التى اعتادت المرءة أن تذل بها صاحب السيف والمزراق ، وتأسر بها آسر الملوك والأبطال .
ويمكن تفسير «وسيلة» فى البيت بالحاجة . ويراد أن للرجال لديها حاجة . وحاجات الرجال عند النساء معروفة . والحاجة اللازمة الصحيحة يطلب أبداً التقرب إليها ويطلب قربها . فاطلاق الوسيلة التى هى التقرب أو القرب أو القربى أو التقريب على الحاجة إذن معهود مثاله فى اللغة ، جائز قياسا وروايةونقلا . والأمر كله يرجع إلى مادة القرب .

وجاء أيضاً فى شعر العرب وأنشده ابن جرير فى التفسير قولهم :

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا * وعاد التصافى بيننا والوسائل

والوسائل هنا هى معانى القرابات التى تجمع الحبيب بالحبيب ، وتقرب ما بين العاشق والمعشوق وما بين الرجل والمرأة . وما أكثر معانى هذه القرابات ! وما أقرب معانى الرجال من معانى النساء ! وما أكثر ما يحاول معنى أن يقرب من معنى .

وجاء أيضاً فى شعر العرب قول قتيلة بنت النضر وقد قتل أبوها النضر

والنضر أقربهم إليه وسيلة * وأحقهم إن كان عتق يعتق

تعنى أن النضر المقتول ألصق القوم قرابة بمن إليه مصير قتل أولئك المقتولين وإحياؤهم بالمن عليهم .

وجاء فى شعر العرب الأقدمين :

ولما عصينا بالسيوف تقطعت * وسائل كانت قبل سلما حبالها

أقوال اهل اللغة فى معنى الوسيلة والتوسل

هذه بعض أقوال الشرع وأقاويل اللغة فى معنى الوسيلة والتوسل. أما أقوال علماء اللغة فلا تخرج عما ذكرنا . قال فى النهاية : « وفى حديث الأذان : آت محمداً الوسيلة هى فى والأصل ما يتوسل به إلى الشئ ويتقرب به إليه . وجمعها وسائل . يقال وسل إليه وسيلة وتوسل . والمراد به فى الحديث القرب من الله تعالى . وقيل هى الشفاعة يوم القيامة . وقيل هى منزلة من منازل الجنة ، كذا جاء فى الحديث . ». وقال الجوهرى فى صحاحه : « الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير. والجمع الوسيل والوسائل . والتوسيل والتوسل واحد . وسل فلان إلى ربه وسيلة ، وتوسل إليه بوسيلة أى تقرب إليه بعمل وقال فى القاموس : « الوسيلة والواسلة المنزلة عند الملك والدرجة والقربة . ووسل إلى الله توسيلا عمل عملا تقرب به إلى الله كتوسل . والواسل الواجب والراغب إلى الله . . » . ومثل هذا قال فى معنى التوسل والوسيلة سائر علماء اللغة كصاحب « لسان العرب » وغيره .

ليس كل مايسميه الناس وسيلة يكون عند الله ولى شرعه كذلك

فالتوسل إذن إلى الله وإلى الشئ معناه التقرب إليه بما يقرب منه وبما يوصل إليه ، فهو بمعنى الطريق والسبيل . ولكن لا ريب أنك قد تظن ما يبعد عن الله مقربا إليه، وما يدنى من غضبه ومقته مدنيا من رضاه ورحمته ، وتظن ما ليس طاعة طاعة ، بل قد تظن المعصية طاعة ،والطاعة معصية . فأنت قد تضل السبيل إلى الله، وقد تضل فى سبيل عبادته والتماس رضاه وقربه وثوابه ،

كما قد تضل السبيل إلى الدنيا فلا ترشد فى مآربها ومآربك . فقد تحسب أنك إذا عملت ذاك العمل المعين نجحت وربحت وأدركت غايتك ، فاذا عملته أو بدأت العمل بدالك أنك قد كنت غالطا ضالا ، وأنك فى رأيك وتفكيرك جاهل شارد . وقد تحسب أن ذلك الطريق ينتهى بك إذا سلكته حيث تريد وحيث تذهب ، وهو فى الواقع لايذهب بك إلا إلى عكس ما تريد وتقصد وتذهب وتطلب . وقد تظن أن عملا من الأعمال ينال به رضا الله وهو فى الواقع لا ينال به سوى غضبه وعذابه . وقد يظن الكثيرون من الخلق أن أشياء كثيرة يعملونها من الدين ومن الاسلام وهى فى التحقيق مما جاء الدين والاسلام بحربها والذياد عنها : هذا كله لا شك فيه ولا خلاف فى شئ منه . وذلك أن الوسائل إلى الله — وأعنى بها كل مايتقرب إليه تعالى — هى فى نفس الأمر لاتعدو رسالات الأنبياء وشرائع السماء . فانه لايقرب إلا الله إلا ماقال الانبياء وكتب الله : إنه يقرب إليه تعالى ، ولا يكون وسيلة إلى رضاه وثوابه إلا ماعلم من طريق السماء أنه كذلك . فمعرفة الوسيلة لا تكون إلا بمعرفة الشريعة ، وجهل الشريعة هو فى الواقع جهل بالوسيلة . فمن لم يعرف دين الله فلن يكون عارفاً الوسيلة فيه ، ومن عرف الوسيلة فلابد أن يكون عارفا بالدين لأن الدين كله تقريب إلى الله وكله يقرب إليه تعالى . والوسيلة — كما تقدم — هى ما يقرب إليه أيضاً . فالوسيلة إذن هى الدين وهى الطاعات والعبادات ، وهى ماله عند الله الثواب والجزاء والشكر والحمد ثم الجنة والرضا . ومعرفة الدين تحتاج بلا ريب إلى علم ودراسة واتصال مكين قريب بالرسالات السماوية . إذ ليس كل ما يسمى عند الناس ديناً يكون كذلك ديناً عند الله وفى شرائع أنبيائه ، وليس كل ما يعدونه طاعات وعبادات يكون عند الله وفى شرعه كذلك . . . ومرجع هذا الاختلاف على الدين والعبادات والطاعات إلى الجهل والغباء وفساد الذوق والقصور الذاتى البشرى ، والعجز

الانسانى الظاهر المطبوع . ولا شك أنه لولا رسالات الله و بلاغات أنبيائه لما عرفنا ، مثلا ، أن الحج إلى مكة المكرمة ـ بطوافه وسعيه وسائر أعماله وشعائره ـ مما يقرب إلى الله ومما يرضيه ويجزى عليه . ولولا رسالات الأنبياء ووحى السماء لما عرفنا أن صيام شهر رمضان مما يقرب إلى الله ومما يجزى عليه الجنة والتقريب، ولما عرفنا أيضاً كثيراً من الشرائع الالهية المجمع عليها . وهذا كله معلوم ظاهر لا يتقبل الخلاف والنزاع .

إذن لا ريب أن من قال : هذا العمل وسيلة إلى الله ـ أى مقرب إليه ـ كان مطالباً بالحجة والبرهان من الشريعة نفسها . وذلك أن قوله : هذا وسيلة معناه هذا دين وشرع لله ، ودين الله لا يعلم إلا بالنقل والبرهان والوحى . وكتب الله كلها إنما أنزلت لتعريف العباد الدين وتعليمهم إياه . ولا شك أن من قال : إن المشايخ والصالحين والأموات ، وإن العكوف على القبور والحج إليها وإسراجها وتعظيمها ودعاء أصحابها وسكانها : ـ لاشك أن من زعم هذه الأمور أو بعضها وسائل إلى الله كان مطالباً بالدليل من الشرع والدين، وأن من زعم هذا بلا نقل ولا عقل كان زاعماً ما لا يقبله العقلاء ولا المسلمون .

الشأن كله فى معرفة الوسيلة المأمور بها

فاذا قيل إن الله قد أمر بابتغاء الوسيلة إليه والوسيلة عامة شاملة ، قيل فى الجواب : هذا حق لا ننازع فيه ولا فى شئ منه ، أى لا ننازع فى وجوب ابتغاء الوسيلة الشرعية بكل أنواعها إلى الله ولكننا ننازع فى معنى الوسيلة وفى ما يراد بها ومنها فى نصوص الدين ، لأنها ـ كما قدمنا ـ هى كل ما يقرب . فعلى المخالفين إذن أن يقيموا الحجة المقبولة على أن هاتيك الباطلات والوثنيات مما يقرب إلى الله وإلى جزائه وثوابه . فالنزاع والخلاف فى هذا لا فى وجوب ابتغاء الوسائل واتخاذها كلها لديه تعالى . والأمر بابتغاء الوسيلة مثل الأمر بسائر العبادات والطاعات وبالدين وبارضاء الله : كل ذلك يحتاج إلى معرفة المأمور به وإلى تعيينه والنص

عليه . فاذا قيل لنا : اعبدوا الله ، احتجنا إلى معرفة العبادة لنقوم بالأمر ونؤدى المأمور به . وإذا قيل لنا : الدين كله لله احتجنا أيضاً إلى عرفانه لنقوم به ولنؤديه إلى الله ونخصه به . وإذا قيل لنا : توسلوا إلى الله وابتغوا إليه الوسيلة كنا فى حاجة شديدة واضحة إلى عرفان هذه الوسيلة وهذا التوسل ، اللذين أمرنا بهما لنقوم بفروضهما وافية كاملة . كما أنه إذا قيل لنا : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كنا محتاجين إلى أن نعلم ما هى الصلاة وما هى الزكاة حتى نقيم هذه ونؤتى تلك . بل كما أنه إذا قيل لنا : ولله على الناس حج البيت ، كنا محتاجين إلى معرفة معنى هذا البيت الذى أوجب الله علينا حجه ، ومحتاجين إلى معرفة معنى الحج والمراد به وحقيقته وما يدخل فيه وما لا يدخل . وهكذا الشأن فى جميع الأوامر والنواهى . فالوسيلة هى التقرب إلى الله ، وهذا لا ننازعه ولا ينازعه أحد من المسلمين . والتوسل إلى الله — أى التقرب — لا ينازع فى وجوبه بالجملة مسلم واحد . ولكن النزاع منطلق إلى معرفة ما يقرب منه تعالى . هذا معترك الآراء ، وهنا تتصادم الأفكار .

إذن لا ريب فى أن من احتجوا بقوله تعالى : « اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » وقوله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » على صحة هذه المخزيات الباطلات الشركيات التى يأتيها الجهال وأشباههم فوق القبور ولدى أضرحة الصالحين غالطون غلطاً فظيعاً منكراً . وما مثلهم فى هذا الاحتجاج إلا كمثل من احتجوا بقوله تعالى : « فاذا فرغت فانصب » على صحة « النصب » على أموال الناس أى الاحتيال عليها واغتصابها بطرق التدجيل والخداع والكذب . وقد وقع هذا الاحتجاج حقيقة لا خيالا ، وقد سمعنا من احتج بالآية هذا الاحتجاج الظريف . وهذا الاحتجاج كذاك الاحتجاج من كل وجه . وذلك أن الذين أجازوا « النصب » استدلالا بالآية ، حجتهم أنهم وجدوا العامة

مثل من استدلوا بالآية على جواز كل ما يسمونه توسلا ووسيلة

يسمون الاحتيال على الناس وعلى أخذ أموالهم « نصباً »، ووجدوا الآية الكريمة تأمر « بالنصب »، فظنوا أن هذا هو هذا. وقد قرب هذا التفسير العجيب إلى أفهام هؤلاء المفسرين النبلاء ظنهم أن قوله « فرغت » يعنى به الفراغ من المال والمادة ومن العمل، أى إذا فرغت يدك من المال ومن العمل الكاسب للمال واحتجت جازلك النصب على الناس لكسب قوتك وضرورة حياتك. وكذلك الذين احتجوا بالآيات والنصوص الآمرة بابتغاء الوسيلة إلى الله وجدوا أن عبادة المشايخ والأموات والطواف بقبورهم وأجداثهم ودعاءهم وسؤالهم ضروب الحاجات الدنيوية والأخروية، وكل هاتيك المنكرات تسمى فى لغة عبدة القبور « وسائل »، ووجدوا أن القرآن يأمر بابتغاء الوسائل إليه تعالى، فظنوا أن تلك هى تلك: فضلوا وأضلوا اعتقاداً وعملا.

ومثل هذا الاحتجاج أيضاً ماسمعناه من شيخ كبير من كبار المشايخ الرسميين وهو فى معرض إقامة البراهين من الكتاب والسنة على جواز التوسل أو وجوبه سمعنا هذا الشيخ الكبير الرسمى الجليل يقول بملء فيه على مسامع الجماهير من المستمعين إليه: إن قوله تعالى: « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » وقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى كتابه إلى هرقل عظيم الروم: « أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام. أسلم تسلم... » يدلان على جواز دعاء الأموات والتوسل بالمشايخ والصالحين، ويدلان على بطلان ماذهب إليه الوهابية من منع الاستغاثة بالموتى... وقد ذهب هذا الشيخ المفسر لكلام الله وكلام رسوله بهذا الهذيان إلى سبيله ولقى حتفه وربه.

ولا يبعد من هذا الاحتجاج احتجاج بعض هؤلاء التائهين بقوله تعالى فى صفة بقرة بنى إسرائيل: « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » على أن السنة اختيار الأصفر من النعال والخفاف. والاستدلال كله فى هذا راجع

إلى أن المستدل له والمستدل به يقعان تحت لفظ واحد وكلمة واحدة فى حالة من الحالات وصيغة من الصيغ . فالاعمال الصالحة التى سماها الله فى كتابه وسيلة وأمر بابتغائها ، وهذه المخازى المبثوثة فوق القبور والأبواب وحول الأشجار والأحجار كل من النوعين أطلق عليه اسم الوسيلة وسمى توسلا فى عبارة من العبارات وحالة من الحالات . ومن ثم جاء احتجاج هؤلاء المحتجين وضلال هؤلاء الضالين. وكذلك « فانصب » فى الآية « والنصب » فى كلام الناس الجهلاء شملهما لفظ واحد وعبارة واحدة ، فنشأ هذا الضلال . وكذلك دعاء الأموات والدعاء فى قوله : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » وقعا كلاهما تحت كلمة الدعاء. فثار ذاك الاستدلال الشنيع . وكذلك صفراء فى الآية الكريمة التى يعنى بها البقرة واشاف الأصفر كلاهما ينتسب إلى الصفرة والاصفرار . وعلى ذلك قام هذا الاحتجاج الأبله. ونظائر هذه الاحتجاجات البلهاء كم أصيب بها كتاب الله ودين الله ، وكم أصيبت بها عقول وقلوب وعقائد .

هذا هو تحقيق معنى الوسيلة والتوسل شرعاً ولغة .

معنى الوسيلة والتوسل فى لغة العاكفين على القبور

أما معناهما فى لغة عبدة القبور العاكفين على الأجداث فهما عندهم كل مايأتون عند القبور والآثار المعزوة للمشايخ والصالحين من أشتات المنكرات وفرائد الضلالات الأثيمة ، كالعكوف على الأضرحة والبناء عليها وإسراجها وتزيينها بسائر الزينات واستقبالها وتقبيلها ودعاء أصحابها وسؤالهم كل الحاجات والمطالب الصغيرة والكبيرة ،والاستغاثة بهم فى المحضر والمغيب على القرب والبعد ثم خوفهم ورجاؤهم وإطلاق العبرات الحرى ، وإرسال الشكايات والآهات من [illegible] ، والصدور الملتهبة ، فوق ترابهم وأعتابهم وعلى أطلالهم ومعالمهم الداثرة أو العامرة ـ وبالاجمال لايخرج معنى التوسل والوسيلة عند هؤلاء المساكين المرضى عن هاتيك الأعمال والاقوال الوثنية الجاهلة المتناثرة على أركان أضرحة

المشايخ المزورين المعظمين المحجوجين من كل مكان لكل غاية وحاجة . وهم يحاولون أن يعدوا هذا البلاء كله من الوسيلة التى أمر الله بها عباده وأمرهم بأن يتقربوا إليه تعالى بابتغائها وطلبها . . . وليس لهم من دليل على هذا الخلط الفظيع المنكر سوى أنهم وجدوا هذه المنكرات تسمى فى لغتهم وسيلة ، ووجدوا الله يأمر بابتغاء الوسيلة إليه . وما علموا أن تسمية هذا أو غيره من الأمور فى لغتهم وسيلة وتوسلا لا يقضى بأن يكون فى لغة القرآن والشرع كذلك ، وما علموا أنهم كما يغلطون فى معنويات الشرع ومعنويات الأشياء كلها يغلطون أيضا فى لغويات الشرع ولغويات الأشياء . ولا علموا أن لهم لغة ولسانا وأن للشرع لغة ولسانا ، وأن لغتهم هم ولسانهم هم يخالفان لغة الشرع ولسانه . ولا علموا أن اعتقادهم هم بأن هذا من هذا ، لأنه سمى باسمه ، يساوى الاعتقاد بأن شخص محمد هذا هو شخص محمد ذاك لأن الشخصين كليهما يسميان محمداً ، ولأنهما كليهما يدعوان بهذا الاسم .

التوسل نوعان جائز وممنوع

﴿ما يجوز من التوسل وما لا يجوز﴾

نحتاج فى هذا البحث إلى الكشف عما يجوز من التوسل والوسيلة وعما لا يجوز لأن هذا الذى ذكرناه فى الفصل الآنف دلنا على أن التوسل نوعان : جائز وممنوع ودين وخلاف للدين ، ومأمور به ومنهى عنه . والحاجة ملجئة إلى معرفة هذا وذاك ، لاجتناب هذا واجتناء ذاك .

فنقول على وجه الاجمال والايجاز : الجائز من التوسل والوسيلة هو كل ما جاء دليل من الشرع على أنه مطلوب لله من عباده محبوب لديه ، مأمور به مثاب عليه لأن الوسيلة ، كما تقدم ، وهى الدين والعبادات والطاعات وكل ما أمر به ، لا تعرف إلا بالنصوص والبلاغات الإلهية . فكل ما دل الشرع على أن الله يطلبه من عباده ويريده منهم ويجازيهم عليه إذا عملوه جزاء البر والطاعات هو وسيلة

شرعية مجزىّ عليها من الله . وجميع مالم يدل الشرع على أنه كذلك فليس من الوسيلة الشرعية ولا يصح القول بأنه منها . هذا هو بيان الوسيلة على وجه الإيجاز والإجمال . ولكن لاريب أن هذا عند بعض الناس لا ينقع الغلة ولا يشفى العلة فلابد من بيان أشفى وأكفى ، ومن قول ممدود من التفصيل القائم على التدليل.

وجوه التوسل الثلاثة عند المخالف وبطلانها كلها

فيقال : ذكر هذا الرافضى للتوسل ثلاثة وجوه أو ثلاث صيغ : أحدها أن يقول القائل : أتوسل بفلان إلى الله ، أو أتوجه أو أستشفع أو أقدمه بين يدى حاجتى . وثانيها أن يقول : أسألك بفلان أو بحق فلان أو بجاهه أو ببركته أو بحرمته . وثالثها أن يقول أقسمت ، أو أقسم على الله بفلان ونحوه . هذه هى وجوه التوسل أو صيغه التى ذكرها الرافضى فى مطلع بحثه هذا ، وأجاز الوجوه الثلاثة كلها . وقد أورد من الشواهد عنده على جوازها ما ذكرناه نحن وما سوف نلخصه ونرد باطله بعد .

والوجوه الثلاثة عندنا باطلة فاسدة مخالفة لنصوص الدين ، ولروحه ومغزاه العام .

دلائل بطلان سؤال الله بجاه المخلوق

وبيان ذلك : أما الضرب الأول وهو قول القائل : أتوسل إليك ياألله بفلان أو أتوجه أو أستشفع به أو أقدمه بين يدى حاجتى لديك فهو باطل فاسد غير مشروع وذلك أن كلمة « أتوسل » معناها أتقرب كما تقدم ، والتقرب إلى الله بالاشخاص والذوات غير معقول ولا مقبول لا عقلا ولا شرعاً ، لا عند الله ولا عند عباده الصالحين . وإنما يقرب العباد إلى ربهم الأعمال الصالحة والطاعات وأفعال البر والايمان وشعائر الاسلام وجماهير الفضائل الظاهرة والباطنة ، الفعلية والقولية ، الاعتقادية وغير الاعتقادية . ولا شئ غير ذلك يقرب العباد إلى ربهم . لأن التقريب هنا يراد به الرضا والحظوة والتكريم والجزاء والثواب الحسن من الله ، أو التقريب الحقيقى الملزوم لهذه الأمور . والله لايقرب عباده وخلقه بهذا التفسير

منه إلا بقـدر صلاحهم وطاعتهم وأعمالهم و برهم وخوفهم مولاهم ووقوفهم عنـد الأوامر والنواهي جزراً ومداً . والعقلاء من الخلق جميعاً لا يقربون المرء إليهم هذا التقريب إلا بمقدار ما يتحلى به من هذه الفضائل والحسنات الشخصية المبرورة. ومن قرب بغـير ذلك كان عند الناس العقلاء عين الظالم المعتدي الملوم ، وكان فعله هذا من المحاباة الممقوتة الملعونة . ولهذا فان الحكومات والهيئات كلها التي تعامل الخلق بالمحاباة و« المحسوبية» المعروفة : فتقرب مثلا فلاناً المتأخر لأجل فلان لا لأجل عمله واستعداده واستحقاقه ، ولا لأجل كفاءته ومقدرته الذاتية — من شر الحكومات والهيئات التي تجب الثورة بهـا و بحكمها ونظامها والقائمين عليها و بها . ولهذا أيضاً كانت حكومات « المحسوبية » والمحاباة التي تقرب فلانا وتوليه الدرجات والوظائف العالية لا لشيء إلا لأجـل قرابته الماتة إلى فلان العظيم أو الكبير أو لأجل شفاعة فلان ورجاء فلان : نعم كانت حكومات « المحسوبية » والمحاباة — ولا تزال ، ولن تزال — من الحكومات الملعونة عـلى جميع الأفواه والألسنة ، المكروهة الممقوتة في كل قلب وعقل وضمير حتى لدى من خصتهـم « بمحسوبيتها » ومحاباتها ، وذلك لأن الباطل والظلم مكروهان ملعونان وإن طلبا وسعى إليهما . ولو أن قاضياً من القضاة لم يوزع عـدله وعطفه وميله وحبه وكل هاتيك المعاني والمظاهر والمناورات المعلومـة بين الخصوم المتقاضين بالسوية والنصفة — ذهاباً مع شفاعة فلان ووسيلة فلان — لكان قاضياً يجب أن يزول من مكانه ، وأن يهبط من فوق كرسي القضاء والفصل بين الناس . ولو أن صدقات المسلمين وأوقافهـم وزكواتهـم قسمت بين النـاس المحتاجين بغـير السوية والاستحقاق والجدارة ، بل بالشفاعات والوسائل والجاهات والوساطات لكانت تلك القسمة قسمة ضيزى ، يكرهها الله ويكرهها خلقه . ولهـذا كانت الشفاعات والجاهات والرجاءات والوساطات غير موجودة ولا نافذة عند العادلين المقسطين.

...لاتفيـز
...شفاعات
...وساطات
... الشعوب
...المنحطة
...الحكومات
...الظالمة

من الحكام كالقضاة والولاة والملوك والخلفاء . و إنما توجد وتشيع وتعم وتطم و يتسلح بها كل غاد لحاجة باطلة أو صحيحة فى البيئات والحكومات والشعوب التى يسيطر عليها و يمسك أزمتها الظالمون المجرمون، عباد الأهواء والأغراض الخسيسة الدنيئة ، وعباد الشهوات والنساء واللذاذات والفواكه المحرمة ـ قاتل الله أمثال هؤلاء ، واجتث أصولهم وفروعهم ، وطهر بلاد الاسلام والحكومات الاسلامية والعربية منهم ومن سلطانهم وتسلطهم . اللهم عاجلهم بعقابك وعذابك وقدرتك العادلة . ولو أنك تقدمت إلى قاض أو حاكم عادل بشفاعة أو جاه أو وساطة أو وسيلة لكنت عنده ممقوتا مهيناً مجرماً ساعياً بالظلم والخيانة الوطنية الدينية الكبرى . ولهذا لم يكن النّاس يتقدمون إلى الخلفاء و إلى غيرهم من الحكام العادلين بشئ من ذلك ألبتة رجاء أن ينالوا حقاً أو باطلاً ، بل كان النّاس يتقدمون إلى هؤلاء الخلفاء العادلين الراشدين بحاجاتهم فرادى ، لا شفعاء ولا وجهاء وأولياء ، ولا غير ذلك سوى مايحملون معهم من استحقاق وجدارة وكفاءة وسلطان ظاهر . وما كان المسلمون يتخذون عند رسول الله شفيعاً ولا وسيطاً ولا من يقومون هذا المقام لينالوا حاجاتهم وحقوقهم أو ليظفروا بعدله وحبه . . . و إنما كانوا يتقدمون إليه بأعمالهم وطاعاتهم و إيمانهم و إسلامهم. وكان ﷺ يهبهم من حبه وتعظيمه وولائه و رضاه بقدر ماوهبوا ربهم من قلوبهم وعقولهم وعقائدهم و إخلاصهم وتقواهم . وكان الأتقى الأبعد عنه نسباً و رحماً أقرب إليه و إلى قلبه وحبه و رضاه من غيره ، من الذين لم يبلغوا مابلغه من التقوى والدين والاستقامة ونصرة الله . وكانت منازل المسلمين ودرجاتهم لديه عليه السلام مرتبة على حسب الصلاح والدين والقرب من رضا الله وطاعته . ولوأن معاوية بن أبى سفيان أو أبا سفيان نفسه جاءه ﷺ بأهل الأرض جميعاً شافعين متوسطين ليجعلوه كأبى بكر أو عمر أو عثمان أو على بن أبى طالب لما كان ذلك أبداً

و إذا كان هذا النوع من الجاه والوساطة والشفاعة مقبوحاً مذموماً بين النّاس والناس ، والمخلوق والمخلوق ، وعنـد العبد فى حق العبد فـكيف يكون مقبولا مرضياً بين الله وخلقه ؟

دلالة الشرع على أن الجزاء بالعمل

وقد دل الشرع بجملته وتفصيله على هذا الذى نقول ، ودلت جميع نصوصه قرآنه وحديثه على أن العباد مجزيون : مثابون ومعاقبون ، مقربون ومبعـدون بأعمالهم : خيرها وشرها ، صالحها وطالحها . ودلت على أنهم لن ينالوا شيئاً من هذا ولن ينالهم شئ من ذلك إلا بالعدل والحـكمة والمساواة . وقد دل القرآن ، وكذلك السنة ، على أن الانسان لن يجزى إلا بعمله من خير وشر ، وأن ماسوى العمل من الجـاه والشفاعة والوساطة والوسيلة لن يقـدم ولن يؤخر ، ولن يثيب أو يعاقب ، ولن يفعل شيئاً . ودل الـكتاب والسنة فى جملة نصوصهما على أن كل امرئ بما كسب رهين ،وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأنه ليس للانسان إلا ما سـعى وأن سـعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى . ودل كل شئ فى الاسلام ، بل فى جميع الأديان السماوية ، على أنه لا شئ يقرب إلى الله سوى الأعمال والطاعات والعبادات ، وسوى الايمان والصـلاح والبر . والنصوص : الآيات والأحاديث فى هـذا الأصل معروفة للخاصة وللعامة ، غنيـة بشهرتها وكثرتها ووضوحها عن إيرادها أو إيراد شئ منها .وقد قال تعالى إبطالا لنوع من الدعاوى يضارع هذا النوع : « وما أموالـكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا .فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون» والاستثناء فى الآية عنـد أهل العلم منقطع . والمعنى أن الذين يقربون عنـد الله درجات ومنازل عظيمة ، والذين تضاعف لهم حسناتهم بأعمالهم ،لا بالشفاعات ولا الجاهات ولاغيرها ، هم الذين آمنوا ،وهم الذين عملوا أعمالا صالحة . فأولئك هم الذين لهم جزاء المضاعفة بأعمالهـم لا بالشفاعات ولا بالجاهات والوساطات، ولا

بغير ذلك من هذا القبيل ، ولا بالأموال ولا بالأولاد ولا غيرها من أسباب الدنيا وأعراض الحياة . وقد قال تعالى إنباء عن خليله إبراهيم وتحديثا عن هذا الأصل العظيم والجزاء العادل والحكم النزيه : « ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . يعني أنه لا ينفع شيء من الأشياء ولا أمر من الأمور في ذلك اليوم العظيم غير سلامة القلب . ويراد بسلامته طهارة الداخل من الادواء النفسية والاعتقادية ، ثم امتثال الظاهر بالطاعات والأعمال والأقوال . أي إنه لا ينفع في ذلك اليوم غير الايمان والاسلام ، أي الاعتقاد السليم النظيف والأعمال المبرورة الصالحة . وما سوى ذلك فباطل وضلال وزور وغرور ، وغباء اتباعه ورجاؤه . ولأجل هذا تجد الكتاب العزيز يخبر في غير ما آية بأن الأنبياء والمرسلين ـ بله من دونهم ـ لا ينفعون ولا يضرون ولا يقدمون أو يؤخرون ، فلا يهدون ضالا ولا ينفعون مجرماً ولا ينجون كافراً ولا يأخذون بيد هالك غريق في أعماله وسيئاته وأوحاله وأحواله ، ويخبر أن الكثيرين أرادوا الشفاعة ـ أو شفعوا فعلا ـ لآبائهم وأولادهم وأقربيهم فنهوا عن ذلك وعوتبوا ووعظوا وقيل لهم ما قيل ، ثم لم تجد شفاعتهم تلك شيئاً ولم تخلص من شفعوا فيهم من عذابهم وإجرامهم . وحدث تعالى أن فريقا منهم لم يغنوا بعض الغناء عن زوجاتهم وحليلاتهم حينما شركن في العذاب ، فأدخلن النار مع الداخلين والداخلات لعصيانهن وشرودهن عن الله وعن أنبيائه .

عجز الانبياء عن نفع آبائهم وأولادهم

وظائف النبوة

وقد وجدنا الكتاب عند ما ينبئ عن وظائف الأنبياء والمرسلين يجملها فقط البلاغ والرسالة والنذارة وهذه المعاني ، فيقول مثلا : « إنما أنت منذر » ويقول : « إن عليك إلا البلاغ » ويقول : « قل إنما أنا بشر مثلكم » ويقول : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن » ويقول : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست

عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الاكبر . إنا إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » . والآيات فى هـذه المعانى كثيرة معروفة . والمراد بها إعـلام الخلق كافة أن الأنبياء والمرسلين ليسوا سوى مبشرين ومنذرين ، لا جبارين ولا مسيطرين كما قال تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين » . ولا شأن لهم فى مسألة الجزاء والثواب والعقاب والحساب، ولا فى مسألة التقريب ولا الابعاد إلى الله ومنه ، ولا فى كسب رضاه ورحمته ونقمته . بل هذا كله من فعله واختصاصه عـلى حسب الأعمال والقيام بحقوق العبودية ، إذ ليس بين الله وبين أحد من خلقه حسب ولا نسب ولا قرابة .

وقد أنبأ القرآن بأن محاولة التقريب والتقرب إلى الله بالاشخاص والخلق من فعل المشركين الجاهلين ، فنعى هـذا الباطل وهـذا الجهل عـلى القوم قائلا : « والذين اتخـذوا من دونه أولياء مانعبـدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » . فالله قد عاب على القوم فى هذه الآية أمرين اثنين ، عاب عليهم عبادة الأولياء من دونه ، وعاب محاولتهم القرب والزلفى إليه تعالى بالاشـخاص والعباد المخلوقين . فكلا الأمرين فى الآية عيب وذنب ، وكلاهما باطـل وكذب وضـلال . وقال أيضا : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهـم ويقولون هؤلاء شـفعاؤنا عند الله » . وفى هذه الآية أيضا نعى على القوم أمرين اثنين: نعى عليهم عبادة من لا يضر ولا ينفع ، ونعى عليهم ، بعد، ظنهم أن الشفاعات تقرب إلى الله وتجدى لديه شيئاً . فالأمران فى الآية كلاهما باطل فاسد مردود على فاعليه .

حديث القرآن عن مجازاة الخلق وعن موجبات الجنة وموجبات النار

وقد تحدث القرآن كثيراً عن مجازاة الخلق المؤمنين والـكافرين المحسنين والمسيئين ، وأطال التحدث ، وأنبـأ ونوع الانبـاءات والعبارات والآيات فى التحديث والانباء عن هـذه المعانى التى هى غاية العاملين والتى هى كل مايخافه

الخائفون و يرجوه الراجون. وأخبر عن دخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ، وأخبر عن المنازل والدرجات ، وأخبر عما يقال لأهل الجنة عند دخولهم إياها وعما يقال لأهل النار عند قذفهم أيضا فيها ، وأخبر عن الاسباب الموجبة لدخول الجنة ونيل رضا الله ، وعن الأسباب الموجبة غضب الله ودخول ناره ، وأخبر عن مقامات التهنئة والبشارات ، وعن مقامات التقريع والتوبيخ : أخبر القرآن عن ذلك كله وعن غيره وعما شاء الله من هذه الأنباء والأخبار . ولكننا لم نجد لفظا واحداً قيل فيه لأهل الجنة : ادخلوا الجنة أو اسموا إلى هذه المنازل الرفيعة السامية بشفاعة فلان أو بوسيلة فلان ، أو لأنكم توسلتم بفلان واستشفعتم بفلان ، أو ادخلوا الجنة بأعمالكم و بشفاعات شفعائكم و وسائل أنبيائكم وأوليائكم : كلا ، لم يقل شئ من هذا . و إنما قيل فى الآيات كلها ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون و بما كنتم تكسبون . وكذلك لم يقل لأحد من أهل النار : ادخل النار أو ذق العذاب لأنك لم تتوسل بفلان ولم تستشفع بفلان أو نحو ذلك . ولكن قيل لأهل النار جميعا : ادخلوا النار وذوقوا العذاب بكفركم وشرككم وتكذيبكم الأنبياء والمرسلين وانقطاعكم إلى الشفعاء والوسطاء والمخلوقين .

إذن فلا التوسل بالمخلوقين ينفع ولا تركه يضر ، فلا التعلق بجاه ذوى الجاه يقرب من الله ولا الاعراض عنه يبعد منه . فالذين يزعمون أن التوسل بالذوات والاشخاص يدنى من الله و يقرب من رضاه كاذبون على الله وعلى الاسلام وعلى عدله تعالى وعلى دينه . والذين يرجون بذلك أن ينالوا خيراً وأجراً ، فيذهبون يلهجون به و ينضحون عنه ، جانون على الدين وعلى أنفسهم وعلى عقولهم . ولو كان فى مثل هذا التوسل خير وثواب وصواب ودنو إلى الله لوجدنا كبار المسلمين وخيارهم وأصحاب النبى عليه السلام يتسابقون إليه ، و يتنافسون فيه ، ولوجدنا

دعاءهم جميعه مشفوعاً به قائماً عليه ، ولوجدنا النبي عليه الصلاة والسلام يوصي صحابته وكبار المسلمين به أشد الايصاء ، ويحثهم عليه الحث المتتابع المتلاحق .
ولكن ماذا يقول المخالفون وماذا يزعمون إذا وجدنا دعوات كبار المسلمين وفضلائهم ودعوات عظماء الأصحاب وكبرائهم خالية من هذا التوسل المزعوم وهذه الوسيلة الباطلة ، و إذا وجدنا الرسول عليه الصلاة والسلام يعلمهم أنواع الأدعية ، و يسأل عن أفضل ذلك وأقرب به إلى الاجابة والرضا والقبول وأصعده إلى السماء فيجيب و يصف أفضل مايلزم أن يدعو المسلم به ربه وأفضل مايحسن أن يواظب على الدعاء به ، ثم لانجد في شيء من ذلك وسيلة ولاتوسلا : نعم ماذا يقولون و يزعمون إذا ماقلنا لهم هذا كله و وجدوه صحيحاً كله؟

ا يبطل السؤال بالذوات والاشخاص

فهذا الضرب من ضروب التوسل الثلاثة التي ذكرها الشيعي باطل كاذب فالتوسل بذوات الخلق وأشخاصهم غير مرغوب فيه وغير مقبول لا عقلا ولا نقلا.
ولو أن ذاهباً ذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال له ، وهو حي سوي، يارسول الله إني أتوسل إليك و إلى رضاك وعدلك و إحسانك وحبك بذات أبي بكر أو بشخص عمر أو عثمان أو علي أو بالكعبة أو بالمقام وزمزم أو بالحطيم والمشعر الحرام أو بالمدينة المنورة أو بمكة كلها أو بغير ذلك لكان هذا القائل المتوسل جاهلا ، ولما كان في شيء من قوله وتوسله هذا مايوجب البر به والعطف عليه والتقريب له والاحسان إليه . ولو أن ذاهباً ذهب إلى قاض أو حاكم عادل قائلا له : إني أتوسل إليك بذات ابنك أو ذات والدك أو بشخص أحب الخلق وأحظاهم لديك أن تقضي لي وأن تعطف علي وأن . وأن . . . لما كان في شيء من هذا القول ما يوجب أن يغير الحكم والقضاء وسير الدعوى ، ولا مايوجب العطف عليه والاحسان إليه بوجه من الوجوه ، بل لكان هذا القول برمته وجملته جهلا وحمقاً وسماجة ظاهرة، ولكان إيراد خيال من حجة وطيف من برهان أنفع وأنجع في الأمر والدعوى

من هـذا الكلام الهراء والرجاء الباطل المقبوح . ولهذا كان من أجهل الناس وأضلهم أولئك الذين يقولون فى كلامهم وسؤالاتهم لمن يسألونه ويرجونه مثلا : أتوسل إليك بقبر أبيك أو برأسه أو بروحه أو بجسده ورمته . وكان لا يقول هذه الأقاويل إلا الجهلاء والضلال ومن لا يعقلون ولا يعرفون مايحسن مما يقبح . ومثل هذا الكلام والهراء من التوسل والاستشفاع لا ينفق ولا يروج ولا يعرف إلا بين أراذل الناس وسوقتهم وسخفائهم وسقطهم . . . أما عليتهم وخاصتهم فيسمون على هذا الاسفاف ويرغبون عن ذاك الهراء . والله أجل وأحكم وأعلى من أن يروج عنده هذا السخف أو يجوز لديه هذا الباطل .

فالذى يقول مثلا : أتوسل إليك ياألله بذات محمد ﷺ أو بذات أبى بكر أو بذات الكعبة أو بالحجاز كله لا يكون إلا جاهلا مغرقا فى جهالته . ذلك لأنه ليس فى سؤال الله بذوات هؤلاء ما يوجب أن يجيب الدعاء وأن يقبل صاحبه ويقربه منه . فان مثل هذا ليس سبباً عاديا ولا شرعياً لشئ من الأشياء . ولا يزيد قولك : أتوسل إليك ياألله بذات محمد عليه الصلاة والسلام وبجاهه عن قولك : أتوسل إليك باسم نبيك محمد وبأسماء أنبيائك ورسلك وباسم بيتك الحرام ، أو أسألك يا ألله وأرجوك لأن اسم نبيك محمد ، ولأن اسم حرمك مكة واسم حرم رسولك المدينة ، كما أنه لافرق بين قولك : أتوسل إليك يافلان بأبيك وأخيك وأهلك ، وبين قولك : أسألك لأن اسم أبيك زيد ولأن اسمك عمرو . فان كان فى هذا النوع من الكلام ما يعد سبباً لنيل مطلوب كان ذلك فى ذاك وإلا فلا . ولكن الناس جميعاً لا يرتابون فى أن هـذا التوسل الأخير جهل وباطل وضلال ، فالأول مثله .

اعتراض وجوابه

فان قيل هذا حق وكلام جيد لولا أنه قد جاء فى السنة الصحيحة ما يبطله ويرده ، وذلك حديث أنس المشهور الذى فيه أن عمر استسقى بالعباس بن

عبد المطلب وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . ومثله حديث الأعمى الآتى وقد جاء فيه : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة . يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى . . . » ففى هذين الحديثين ما يفسد ما ذهبتم إليه وما زعمتموه ، فالجواب أن نقول : إن حديث الاستسقاء بالعباس وحديث الأعمى ليسا من التوسل بالذوات والأشخاص الذى منعناه وذكرنا أنه باطل فى الشرع والعقل . و إنما هما من التوسل بالدعاء بلا ريب . فقول عمر : اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا . . . و إنا نتوسل إليك بعم نبينا معناه أنهم كانوا إذا أجدبوا فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام طلبوا إليه أن يدعو الله لهم وأن يضرع و يرغب إليه لينزل الغيث والسحاب و يمن على عباده بالرحمة والمطر . هذا هو التوسل الذى كان يطلبه المسلمون من النبى فى حياته والذى كان يفعله إذا شحت السماء بمائها كما جاء مفصلا فى أحاديث الاستسقاء . وقد جاء فى كل الأخبار أنهم كانوا يطلبون من النبى الدعاء و يقولون : هلكنا وهلكت دوابنا وعيالنا من الجدب فادع الله ليغيثنا ولينزل على عباده ، و بلاده الخير والغياث ، فيدعو لهم حيناً دعاء مجرداً كما فعل فوق المنبر عند ماسألوه ذلك وهو قائم يخطب ، وأحياناً يعمد إلى صلاة الاستسقاء فيصلى و يدعو ، و يصلى و يدعو معه المسلمون . وهذا هو الأكثر الأشهر من فعل النبى عليه السلام ، وهذا هو التوسل المذكور فى قول عمر . وقوله رضى الله عنه : و إنا نتوسل إليك بعم نبينا معناه أننا نتقرب إلى رحمتك وغياثك و رضاك بدعاء عم نبيك العباس : لأن العباس صالح وقريب منك ومن نبيك ، وقد احتاج إلى رحمتك واحتجنا نحن كذلك ، وأراد الغيث منك وأردناه نحن ، وقد دعا ودعونا وضرع وضرعنا وسألك وسألنا . فما أخلقنا بأن نجاب ونغاث ، وما أخلقك بأن تجيب وتغيث . . فالتوسل بالدعاء لا بالذوات ولا بالأشخاص ، ولا ريب . وحديث الأعمى كذلك

أيضاً ، فقوله : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة . يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى » معناه أنه أراد من الله بدعاء محمد ﷺ . وهذا لا يزيد عن أن يقول : إن محمداً قد دعاك فىّ وسألك كشف ضرى وبلائى وإنى ، أسألك أن تجيب دعوته، وأن تقبل شفاعته وأن تشفعه فى ، وتشفعنى فيه . فانا كلانا أنا ونبيك محمد — داع ، وكلانا شافع سائل ، وأنت يا الله خير من أعطى السائلين وأجاب الداعين . فالتوجه فى الحديث لم يكن بالذات والشخص وإنما هو بالدعاء والشفاعة . والدليل أول الحديث وآخره : ففى أوله أنه طلب من النبى أن يدعو له وأن النبى أشار عليه بأن يصبر لأن الصبر خير له ، فقال له : لا ، بل ادعه . وفى آخره قال : اللهم شفعه فىّ وشفعنى فى نفسى — أو شفعنى فيه — أى اللهم اقبل دعاءه فى ، لأن الشفاعة دعاء . . فأول الحديث وآخره واضحان فى أن المسألة مسألة دعاء . وفى الحديثين : حديث الاستسقاء بالعباس وحديث الأعمى كلام طويل سوف يمر بالقارىء فيما بعد .

الله يجيب الدعاء النفس والغير

وإذا علم أن مافى الحديثين ليس من التوسل والتوجه بالذوات والأشخاص زال هذا الإشكال والسؤال وسلم مما ذكرناه من الاعتراض والقدح . وذلك أنه لاريب فى أن ثمت فرقاً عظيما بين التوسل بالدعاء والشفاعة وبين التوسل بالذات والمادة . فان التوسل ، كما تقدم ، معناه التقرب والتزلف ، والذوات المجردة لا تقرب ولا تنفع فى هذا المعنى شيئاً ولا قيمة لها فى هذا الضرب . وأما الدعاء فانه يصح أن ينفع وأن ينال به المرء خيراً وأن يدرك به مطلوباً وحاجة من الحاج . وذلك أن الدعاء عبادة من العبادات وطاعة من الطاعات . بل قد جاء فى الحديث « الدعاء مخ العبادة » وفى رواية : « الدعاء هو العبادة » . والعبادات يجازى الله عليها ، ومن جزائه عليها أن يجيب وأن يعطى صاحبها ما سأل . والله أيضاً أعظم من يعطى على السؤال ومن ينفع عنده الدعاء . وقد قال تعالى : « وقال ربكم

ادعونى أستجب لكم » ، وقال : « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » ، وقال : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » الآية . ولا فرق فى ذلك بين أن تكون الدعوة من المرء لنفسه أو من المرء لغيره بشروطها وفروضها . وقد جاء الترغيب الكثير فى الدعوة للغير ، وللاخوان المؤمنين فى أحاديث صحاح معروفة .

فالذى يطلب من صالح أن يدعو له ويشفع هو إنسان قد أخذ بسبب من أسباب النجاح والقبول ، ثم قد يستجاب له وقد لا يستجاب . ومن أخذ بسبب من هذه الأسباب فقد توسل إلى الله وتوسل إلى حاجته . فيصح أن يقال إنه قد توسل إلى الله . ولا ريب أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا دعا الله أن يغيثه وأن يغيث المسلمين معه ، فقد توسل إلى ربه وإلى نزول الغيث بسبب من أعظم الأسباب . ولا ريب أن المسلمين إذا طلبوا من النبى عليه السلام أن يصلى بهم وأن يصلوا معه ، وأن يدعو الله وأن يدعواهم معه ضارعين خاشعين راغبين إلى الله جلت قدرته رجاء أن يرحمهم وأن ينزل عليهم غيثه وحنانه فقد توسلوا إلى الله ربهم وإلى حاجاتهم بسبب هو من أعظم الأسباب وأقواها ، ومثله إذا فعلوا ذلك مع العباس بن عبد المطلب أو مع غيره من الأحياء الصالحين . ثم لا ريب أن ذلك الضرير إذا طلب من النبى أن يدعو له ليرد بصره فدعا وأمره أيضاً أن يصلى ركعتين خاشعتين بارتين تقيتين ، وأن يدعو كذلك ، فصلاهما ودعا بعد أن دعا له النبى عليه السلام : نعم لا ريب أنه قد توسل إلى الله وإلى إدراك حاجته ورد بصره ، وأنه يصح حينئذ أن يقول : « اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة . . . » . ولهذا لما أن كانت المسألة مسألة دعاء وعبادة ، لا مسألة أشخاص وذوات ، أمره النبى عليه الصلاة والسلام أن يتوضأ ويصلى وأن يدعو أيضا ويضرع ، بل وأن يطلب من الله أن يقبل شفاعة النبى عليه السلام

فكان هو شافعاً للنبي كما كان النبي شافعاً فيه ، فكلاهما شافع مشفوع له لكن على وجهين مختلفين . وذلك أنه قد جاء في آخر الحديث من الدعاء الذي علمه النبي للأعمى « اللهم شفعه في وشفعني فيه » . وهذا كله صحيح عقلا ونقلا .

المتوسل الى الله بذوات الصالحين مثل المتوسل بذاته وبجسمه وقبره

أما التوسل بالذوات والأشخاص فشيء باطل فاسد لا معنى له ولا حقيقة . وما مثل من توسل إلى الله و إلى حاجته عند الله بالأشخاص والذوات إلا كمثل من توسل بذاته وشخصه . ولو أن أتقى خلق الله قال : أسألك ياألله وأتوسل إليك بذاتي أو بثوابي أو بكرامتي أو بقبري أو بوجهي أو جاهي لكان من الجاهلين ولكان دعاؤه هذا وتوسله دعاء وتوسلا باطلين سخيفين ، لا يقدمان ولا يؤخران ولايجديان شيئاً . وشر منه ، ولاشك ، ذاك الذي يقول مثلا : أتوسل إليك بجسم فلان من الأنبياء أو بكرامة ذلك الشيخ أو بمقامه أو ببركته أو بجاهه . وذلك أنه إذا كان من غير الجائز المقبول أن يتوسل المرء ، مهما كان صالحاً برا ، إلى ربه بذاته وشخصه كان من غير الجائز يقيناً أن يتوسل بذات غيره وشخصه ، كما أنه إذا كان من الحسن المقبول أن يتوسل إلى ربه و إلى حاجته عنده بدعائه وسؤاله كان من الجائز الحسن أيضاً أن يتوسل إلى ذلك بدعاء الصالحين الأحياء . وكل الناس يعلم أنه لا يمكن مثلا أن يقول الرسول ﷺ : « اللهم إني أتوسل إليك بذاتي و بوجودي » ، ولكنه من الحسن المقبول أن يقول : « اللهم إني أتوسل إليك بطاعتي و بدعائي وسؤالي » . وعليه يجب أن يكون من غير الجائز أن يقول المسلم مثلا : « اللهم إني أتوسل إليك بذات نبيك محمد ولا بجاهه أو ببركته أو بقبره أو بحرمته وشرفه أو بتقواه وورعه . . . » ، وفساد مثل هذا واضح حتى في كلام الناس وعندهم . فلو قال قائل : أسألك يافلان بتقوى فلان وصلاحه و بره و يقينه وعلمه وفضله ، أو بشجاعته أو فضيلته أو بوجوده لكان قولا لامعنى له . وهذا لأنه لا ارتباط بين صلاح فلان ودينه وأخلاقه الكريمة و بين إعطائك حاجتك وأملك .

فكان سؤال هذا بهذا من العبث والجهل والسخف والبرود . ونحن لا نجد فرقا بين أن يقول القائل : أسألك وأتوجه إليك بجاه النبي و ببركته وحرمته و بين أن يقول أسألك وأتوسل إليك بصلاح نبيك أو بتقواه أو بحسن أخلاقه وطيبها أو بسمو شمائله أو بشجاعته أو بصبره على المكاره والآلام أو بطيب عنصره أو بطهارة نفسه ونحو ذلك . ولا نجد فرقا أيضاً بين التوسل بالجاه و بين أن يقال : أتوسل إليك بكون نبيك وجدفى عصر كذا و بلد كذا ، و بكون والده فلاناً ووالدته فلانة . فاذا لم يكن وجود النبي عليه السلام فى عصر كذا ومكان كذا ، ولم يكن صلاحه وصبره وفضائله وأخلاقه سبباً من أسباب نيلك ماتطلب وترجو ، ولاوسيلة لأن تجاب وتعطى وتقرب من الله ، لم يصح كذلك أن يكون جاهه ولا بركته ولا حرمته ولا ذاته ولا قبره سبباً من أسباب أن تعطى وأن تنال ماترجو وتؤمل . و إذا لم يكن شئ من هذا سبباً لما ترجو لم يصح أن تطلب ماترجو بما لا يمكن أن يكون سبباً له ألبتة . وهذا كله واضح جلى لايدركه الخلاف والشك إن شاء الله .

...ذا التوسل مثل ...ن يقال أسألك ...ون نبيك وجد ...ى عصر كذا

فان قيل إن ما ذكرته هنا كله صحيح واضح الصحة والجودة ولكن الشفاعة و إثباتها يردان عليه إشكالا ، قيل : جواب هذا الإشكال يرجع إليه فى بحث الشفاعة الآنف من هذا الجزء . هذا جواب الضرب الأول من ضروب التوسل الثلاثة التى ذكرها الشيعى وهو التوسل إلى الله بالاشخاص والذوات والخلق

وأما الضرب الثانى وهو سؤال الله بالجاهات والبركات والحرمات وبالحقوق مثل أن يقال : أسألك بحق فلان أو بجاهه أو بحرمته أو بركته —

فالجواب أن هذا الضرب حكمه حكم الضرب الأول بل هو هو فجوابه جوابه وكل ما قيل هناك يقال هنا .

وأما الضرب الثالث — وهو الاقسام على الله بخلقه ، مثل أن يقال : أقسم عليك يا ألله بفلان لما غفرت أو لما وهبت لى كيت وكيت — فيقال فى الجواب :

إن الإقسام بالمخلوق لايجوز ألبتة . وقد جاء النهى عنه متواتراً ، وورد الوعيد الشديد عليه . وهذا له باب خاص به سوف يجئ الكلام فيه وافياً . فلنتركه له

فهذه ضروب التوسل الثلاثة التى ذكرها الرافضى المؤلف كلها باطلة فاسدة لايجوز منها شئ لاشرعاً ولا عقلا وسيأتى الجواب مفصلا عن دلائله المذكورة .

وبالاجماله فالتوسل عبارة عن جملة الأعمال المشروعة

فالتحقيق إذن أن التوسل المطلوب شرعاً الوارد فى نصوص الكتاب والسنة يراد به جملة الأعمال الصالحة المبرورة قولية وفعلية ، وهو عبارة عن الواجبات والمستحبات . وبعبارة أخرى هو الأوامر ، والأوامر إما على سبيل الوجوب والإلزام ، أو على سبيل الاستحباب والندب . فكل واجب عمله توسل ووسيلة إلى الله ، وكل مستحب مشروع القيام به هو من التوسل والوسيلة الشرعية أيضا . وما ليس واجباً ولا مستحبا فليس وسيلة ولا توسلا ، أى ليس مقرباً إلى الله وإلى رضاه . فعلينا إذن وعلى المخالفين وعلى المسلمين كافة أن يعرفوا الواجبات والمستحبات وأن يعرفوا الشرع والدين وأن يدرسوه ليعرفوا ماهو التوسل وما هى الوسيلة . فالصلاة مثلا من أعظم الوسائل ، والحج والزكاة والصيام والشهادتان من أعظم وأفضل مايتوسل به المرء إلى ربه ، بل لا يمكن التوسل إليه تعالى بدون ذلك ، ودعاء الصالحين الأحياء نوع من التوسل أيضاً . وهذا كله قد دل عليه الشرع ولا يختلف الناس فيه .

أما مايذكره الجهال وما يعدونه من التوسل والوسيلة مما لا دليل عليه سوى أنهم يسمونه توسلا ووسيلة فليس من ذاك بل هو توسل إلى الشيطان وإلى رضاه وإلى غضب الله ومقته . فدعاء الأموات والعكوف على الأجداث وسائر هاتيك المنكرات المخزيات هى وسائل ولا شك ولكنها وسائل إلى البعد عن الله وعن رحمته وشريعته ودينه ــ عياذاً بالله .

من كذب الرافضي

بعد هذا نقول : ومن الكذب الواضح الصريح وقلة الإنصاف ومراقبة الله

قول الرافضي : « والتوسل بأنواعه مما منعه الوهابية وجعلوه شركا لأنه نوع من التشفع الممنوع عندهم ، الموجب للشرك وجريان أدلتهم فيه . . » وهذا كذب من وجهين : أحدهما أن الوهابيين لا يمنعون التوسل كله بكل أنواعه وأقسامه الصحيحة والباطلة ، وهذا ضروري . بل هم يرون من التوسل مالا يكون الاسلام والايمان إلا به ، بل عندهم أن الاسلام والايمان هما التوسل والوسيلة ، وعندهم أن كل ما أمر به الشرع من الواجبات والمستحبات فهو توسل شرعي ووسيلة شرعية . . . فكيف يزعم من يخاف الله ومن يعلم أن الكذب جريمة وكبيرة أن الوهابيين يمنعون التوسل بكل أنواعه وأقسامه ؟ ! ولكن الرافضي لايعرف من التوسل إلا أنه عبادة الأموات والأجداث وسائر هذه الفضائح القائمة على القبور اليوم وقبل اليوم ، ولايعلم أن منه – أي من التوسل والوسيلة – العبادات والطاعات والايمان بالله و بكتبه ورسله وكل ما وجب الايمان به ، وأن منه الصلاة والزكاة والحج والصيام وجميع أعمال البر والاسلام . . . وعن هذا قال : إن الوهابيين يمنعون التوسل كله ولا يجوزون منه شيئاً ، لأنهم حقيقة يمنعون الاستغاثة بالموتى والضراعة إليهم والعكوف على قبورهم وجميع هاتيك الباطلات المبثوثة على ضرائح الصالحين والأشياخ .

وثاني الوجهين المكذو بين الكاذبين زعمه أن الوهابيين يقولون : إن ضروب التوسل الثلاثة التي ذكرها شرك بالله . وهذا بهتان قبيح من الرجل . فان الوهابيين لا يقولون : إن سؤال الله بجاه المخلوقين أو بحقهم أو بحرماتهم ، أو التوسل بالانبياء والصالحين ، أوالاقسام على الله بهم – : لايقولون إن شيئاً من هذا من الشرك المخرج من الملة والايمان ، المنافي للتوحيد . و إنما يقولون : إن ذلك ممنوع مبتدع كله . وهنالك واسطة ، ينبغي ألا تخفى على هؤلاء الناس ، بين كون الأمر كفرا وشركا و بين كونه جائزاً مأموراً به . وهذه الواسطة هي ألا يكون

الأمر شركا وكفراً ولا جائزاً مأموراً به ، بل يكون محرما ممنوعاً ، والأمر المحرم قد يكون شركا وقد لايكون ذلك . والأضرب الثلاثة التي ذكرها الشيعي ليست كفرا ولا شركا مخرجاً من الملة عند أحد من الوهابيين ، وليست أيضاً جائزة ولا ديناً ، وإنما هي أشياء باطلة مبتدعة يلزم الانكفاف عنها وطرحها من حساب الدين والاعتقاد الصحيح .

إجمال أدلة الشيعي على جواز التوسل الذي زعموه

﴿ تلخيص أدلة التوسل عند الرافضي ﴾

والأدلة التي أوردها الشيعي في هذا البحث والتي سقناها إجمالا كما ساقها فتتلخص في ما يأتي :

أولا — : قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » قال : وهذه الآية متناولة بعمومها كل وسيلة . وقد دلت الأخبار على ثبوت الوسيلة للأنبياء والصلحاء والأوصياء مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام : « اسألوا الله لي الوسيلة » وقوله عن الخوارج : « يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم عند الله وسيلة » .

ثانيا — : أن التوسل ثابت في الشرائع السابقة كما عن القسطلاني في شرح صحيح البخاري عن كعب الاحبار أن بني إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم .

ثالثا — : أن التوسل قد ثبت بالحي كما اعترف الوهابيون وكما جاء في الأحاديث كحديث الاستسقاء بالعباس ، وكما أمر ﷺ أن يسأل بحق السائلين وبحق مشي المصلي إلى الصلاة . وقد نطقت الأحاديث بالحق على الله لعباده . وإذا ثبت التوسل بالحي وثبت أنه ليس شركا ولا كفرا فالتوسل بالميت كذلك إذ لا يعقل الفرق بين الفريقين . فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهي لم تذهب بالموت ، وإن كان لأجل أن يدعو الله فهو ممكن في حق

الميت . ولو فرض عدم إمكانه لم يوجب فعله الشرك بل يكون كطلب المشى من المقعد بزعم أنه صحيح غير مقعد . قال : وقد فهم الصحابة عدم الفرق بين الحى والميت كما فى حديث ابن حنيف ، وصرحت الأخبار الآتية بعدم الفرق ، بل بين الموجود والمعدوم . وأمر مالك المنصور أن يتوسل بالنبى بعد موته وقال : هو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم .

رابعاً — : روى عمر بن الخطاب عن النبى عليه السلام قال : «لما اقترف آدم الخطيئة قال : أسألك يارب . . . » الحديث .

خامساً — : قال بعض المفسرين فى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات » : إن الكلمات هى توسله بالنبى عليه الصلاة والسلام . وفى «مجمع البيان» أن الكلمات هى توسله بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين .

سادساً — : روى جماعة منهم النسائى والترمذى عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى . . . إلى آخر حديث الأعمى الآتى .

سابعاً — : روى الطبرانى أن سواد بن قارب أنشد رسول الله قصيدة فى مدحه جاء فيها : « و إنك أدنى المرسلين وسيلة » « وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة » . و روى البيهقى أن أعرابيا استسقى بالنبي عليه السلام وقال :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل؟

قال : روى البخارى أن النبى عليه السلام قال لما أغاث الله العباد باستسقائه : « لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناك . من ينشدنا قوله ؟ » فقيل كأنك أردت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلل وجه النبى عليه السلام .

ثامناً — : روى الطبرانى عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له ، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولاينظر فى حاجته . إلى آخر القصة السابقة .

تاسعاً — : روى الطبرانى أيضا فى الكبير والاوسط بسند فيه روح بن صلاح، وثقه ابن حبان وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح، عن أنس بن مالك قال لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله . . . إلى آخر الحديث

عاشراً — : قالت صفية بنت عبد المطلب فى رثاء رسول الله :

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا * وكنت بنا برا ولم تك جافيا

الحادى عشر —: روى الدارمى بسنده من طريق أبى الجوزاء قال قحط أهل المدينة فشكوا إلى عائشة . . . إلى تمام الرواية .

الثانى عشر - : قال قام الاجماع وتواترت الأخبار أن الناس يوم القيامة يتوسلون بالنبى عليه السلام فيشفع إلى ربه .

الثالث عشر - : روى الحاكم وصححه عن عبد الله بن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى بن مريم : ياعيسى آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به . فلولا محمد ماخلقت آدم ، ولولا أنى خلقت محمداً ماخلقت الجنة ولا النار . . . الحديث .

الرابع عشر - : قال قال فى خلاصة الكلام: إن النبى عليه الصلاة والسلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر ثلاثا : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد أجرنى من النار » .

الخامس عشر - : روى القاضى عياض فى كتاب « الشفا » بسند جيد عن ابن حميد أحد الرواة عن مالك فى مايظهر قال ناظر أبو جعفر المنصور مالكا فى مسجد رسول الله فقال مالك : ياأمير المؤمنين لاترفع صوتك فى هذا المسجد . الحديث وقد سبق لفظه وسوف يجىء أيضاً .

السادس عشر - : إن الشافعى توسل بأهل البيت النبوى كما تقدم فى الأبيات السابقة .

هـذا هو تلخيص ماذكر الشيعى من الشبه أو البراهين عـلى جواز أنواع التوسل وسـائر ضروبه التى ذكرها . وإننا هنا نذكر أجوبة كل شئ سـائلين الله وحده العون والتأييد والتوفيق .

اب قول الله وابتغوا اليه الوسيلة »

﴿ جواب الشبهة الأولى ﴾

أما الشبهة الأولى وهى قول الله : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » فالجواب أن يقال : حقا إن الآية الكريمة تطلب إلى المؤمنين جميعاً أن يبتغوا إلى ربهم الوسيلة الشرعية بكل ضروبها وأنواعها وأقسامها وسائر مظاهرها قوليها وفعليها واعتقاديها ، حقيقيها وصوريها . . . ولـكن ما هى الوسـيلة التى افترض الله على خلقه كافة ابتغاءها إليه وطلبها عنده ؟ هذه هى المسألة ، وهذا هو المشكل

مما لايشك فيه مسلم ولاعاقل غير مسلم أن هذه الوسيلة المطلوبة هى الوسيلة الشرعية الصحيحـة . إذن علينا أن نعرف ما هى الوسيلة الشرعية الصحيحة ، وعلى المخالفين أن يقيموا الدلائل المحترمة المقبولة عـلى أن من الوسيلة الشرعية مازعموه هنا من خرافات القبور ومبتدعات العاكفين على الأموات . . . ابتغاء الوسيلة إلى الله حق لاريب فيه ولانزاع ، ولـكن نريد أن نعرف الوسيلة . هؤلاء يقولون إنها عبـادة المشايخ والأموات ودعاؤهم والاستغاثة بهم والعكوف عليهم و إنزال الحاجات بأبوابهم وسؤالهم حاجات الدين والدنيا وجميع هـذه المصائب المنثورة اليوم وقبـل اليوم فوق القبور . ونحن نقول لهـم : كلا ، ليس شئ من هذا بوسيلة شرعية إلى الله ، و إنما هو وسيلة إلى الشيطان والضلال والباطل . إذن نحن لانخالفهم فى وجوب ابتغاء الوسيلة إلى الخـلاق ، ولـكن نخالفهم ويخالفهم جميع أهل اللسان و الايمان والقرآن فى حقيقة الوسـيلة ومعناها . فنحن نقول : إن الوسيلة إلى الله هى الأعمـال الصالحة المبرورة ، فالأعمال هى التى تقرب إلى

الله ، والوسيلة هى الزلفى والقربى لديه تعالى . . . وهم يقولون : إن الوسيلة هى دعاء الأموات والاستغاثة بالقبور والمقبور . فاذا قلنا لهم : مادليلكم على أن الرجوع إلى الأشياخ والموتى من الوسيلة والزلفى عند الله لم يكن لديهم من جواب سوى أن يقولوا إن المتوسلين يسمون ذلك كله وسيلة وتوسلا . فاذا قلنا لهم : إن المسألة ليست مسألة ألفاظ ولا مسألة عوام وجهال ، و إنما المسألة مسألة علم وحق وحقيقة وعلماء ، فالعوام والمتوسلون يخطئون فى ألفاظهم وكلامهم كما يخطئون فى عقائدهم ومعارفهم وآرائهم ، وكما يخطئون فى أشياء كثيرة . فما دليلكم على أن هؤلاء الجهال والعوام لم يغلطوا و يخطئوا فى تسمية هذا الباطل والإثم وسيلة وتوسلا لم يكن لديهم من جواب البتة .

إن المسألة مسألة علم وحقيقة . فالوسيلة هى القرب من الله أو مايؤول إلى هذا المعنى بلا خلاف بين أهل العلم . فقول الله : « . . . وابتغوا إليه الوسيلة » معناه اطلبوا إلى الله القرب والزلفى . و إذن عليكم أن تقيموا الدليل على أن هذا الباطل المعروض على القبور ، وتلك السخافات القائمة فى كل مكان مما يقرب إلى الله و يزلف لديه تعالى ، وأن تقيموا الدليل على أنه لا يبعد عن الله ولا يوجب غضبه ومقته وطرده . إذ لاشك حينئذ أن من الممكن الجائز أن يستدل بالآية المذكورة على بطلان توسلكم ومايدخل فى معناه من باطلات وسخافات بأن يقال مثلا : الآية تطلب إلى الخلق أن يتقربوا إلى ربهم وخالقهم ، ولعل من التقرب إليه تعالى و إلى رضاه وثوابه هجران هذا التوسل وهذه الوسيلة، أعنى توسل العوام و وسيلتهم. فاذا قيل هذا القيل لم يجد المخالفون لنا من رد له ولا اعتراض عليه.

لاشك ان من التوسل الحق ومنه الباطل

لا شك أن التوسل منه الحق ومنه الباطل ، ومنه ما يخالف الشريعة ومنه ما يوافقها ومنه مايقرب إلى الله ومنه ما يبعد عنه . ثم لا شك أن معرفة الفرقان بين الأمرين مردها إلى الشريعة نفسها ، وأن التحاكم فيها لا يكون إلا إلى الكتاب

والسنة لا إلى العوام والجهال والمتوسلين . فلابد لنا ، ولابد للمتوسلين المخالفين ، ولابد لجميع المسلمين من معرفة الفرقان بين النوعين : الجائز والممنوع ، الحق والباطل ، ولابد من الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ونصوص الدين لمن يحاول هذه المعرفة ولمن ينشد الحق والهداية . إذن لنرجع وليرجع معنا المخالفون والموافقون إلى الكتاب والسنة ، ولنتعرف الوسيلة الصحيحة المأمور بها فى الكتاب والوسيلة الباطلة المنهى عنها فى الكتاب ، والتى لا يصح أن يأمر بها الكتاب ولا السنة . فإن الآية الكريمة — مفردة — لا يمكن أن تدل على شىء مما زعموا وادعوا بالاجماع والضرورة والبداهة . فلابد من بيان . فأين البيان ؟ هذا هو المطلوب المنشود ، فأين يوجد هو ؟ ونستطيع أن نعبر عن هذه المعانى التى ذكرناها بعبارة أخرى قصيرة كأن نقول مثلا : الآية تطلب إلى المسلمين كافة وجميعاً أن يبتغوا إلى ربهم الوسيلة ، وهذه الوسيلة المطلوبة المأمور بها إما أن يراد بها الوسيلة الشرعية فقط ، وإما أن يراد بها كل ما يسمى وسيلة وإن كانت غير شرعية . وهذا مالا فرار ولا معدى عنه . ولابد حينئذ أن يكون الجواب على هذا السؤال : إن الوسيلة المطلوبة المأمور بها هى الوسيلة الشرعية لاغير . وإذن ما الدليل على أن دعاء الأموات ، أو دعاء الله بجاههم وكراماتهم وحقوقهم والإقسام على الله بهم من الوسيلة الشرعية المطلوبة المأمور بها ؟ هذا هو السؤال ولابد من البيان والجواب . فالآية إذن تحتاج ، ولاشك ، إلى تفسير لفظى لغوى ولا بد للتفسير الذى يقال فيها من دليل . وأما إن قيل إن الوسيلة المطلوبة فى الآية هى الوسيلة المطلقة العامة ، أى الوسيلة الشرعية ، وغير الشرعية ، فالجواب أن هذا القول من الباطل والضلال والخطأ بحيث لا يخفى مكانه على أحد . فإن الناس قد يسمون الشرك وسيلة إلى الله — بل قد فعلوا — وقد يسمون ما أجمع المسلمون على بطلانه وفساده وضلاله وسيلة . وقد يشركون ويضلون ويعبدون

الأوثان والأصنام، ثم يزعمون بملء أفواههم وحناجرهم أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك وأنهم إنما يتوسلون ويتقربون إليه تعالى فقط كما قد يسمون الباطل والزور والجهل حقا وهدى وعلماً إلهيا ، وكما قد يخطئون ويضلون السبيل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وأنهم يرضون الله ويرضون الحق والإيمان والمعرفة . وقد كان المشركون يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ويقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . ولم يكن قولهم للأصنام والأوثان إنها شفعاؤهم عند الله ، مصدقا وموجباً أن تكون كذلك شفعاءهم ، ولم يكن زعمهم أنها تقربهم إلى الله زلفى محققا تقريبها إياهم حقيقة لا غلطاً ولا كذباً... هذا حق لا باطل فيه، فكذلك زعم هؤلاء الضلال أن عبادة الأموات ودعاءهم والاستغاثة بهم وسيلة وتوسل إلى الله لا يوجب أن تكون أعمالهم هذه حقيقة وسيلة وتوسلا نافعاً عند الحق

قد يقال ان الامر بابتغاء الوسيلة دليل على بطلان هذه الوسيلة

ولو كان كل ما يسمى وسيلة مطلوبا ابتغاؤه إلى الله بدليل هذه الآية لكان من الجائز الممكن أن نسمى ترك هذه الوسيلة — التي هي وسيلتهم — وسيلة ، وأن نقول : إن من التوسل إلى الله ومن ابتغاء الوسيلة عنده ألا يدعى إلا الله وألا يضرع إلا له وألا يرجع إلا إليه وألا يسأل إلا بأسمائه وصفاته لا بفلان ولا فلانة ولا بجاه فلان ولا جاه فلانة ، وألا يدعى أحد من الأشياخ والميتين . . . وإذا قلنا هذا أو قاله غيرنا كانت الآية — على الافتراضين — دالة على بطلان التوسل الذي يدعو إليه هؤلاء المخالفون . وهذا هو المطلوب .

ويقال بعبارة أخرى : إن الآية تقول: « وابتغوا إليه الوسيلة » وهؤلاء المخالفون المشاكسون إما أن يزعموا أن الصالحين من الأموات هم الوسيلة نفسها أو يزعموا أن الوسيلة تبتغى بهم وأنهم هم أنفسهم ليسوا وسيلة ...فان زعموا الزعم الأول قيل لهم : إذا كان المشايخ والأولياء هم الوسيلة نفسها فالآية تأمر

بابتغائهم لا بالابتغاء منهم ولا بالابتغاء بهم ، لأنها تقول : « وابتغوا إليه الوسيلة » فالآية على هذا تأمر بابتغائهم لا بالابتغاء بهم ولا بالابتغاء منهم . فدلالة الآية حينئذ خلاف ما زعموا وذكروا . وأما إن قالوا بالشطر الثانى ـ أى قالوا إن المشايخ والأولياء أنفسهم ليسوا وسيلة ـ قيل إذن فالآية لم تأمر بما ادعيتم ، فلا شئ لكم فيها .

وتحرير هذا الكلام وتجويده أننا نقول : الآية تأمر بابتغاء الوسيلة فقط فان كان المشايخ والأموات هم الوسيلة وهم تفسيرها فالآية لم تقل : ابتغوا بهم ولا منهم الوسيلة ولا غيرها ، وإنما قالت : ابتغوهم . وفرق عظيم بين الابتغاء من الشخص والابتغاء به وبين ابتغائه هو ذاته ونفسه . فان لم يكن المشايخ والأولياء هم الوسيلة ، وإنما الوسيلة تبتغى بهم وتطلب ، قيل إن الآية لم تذكر هذا ، ولم تذكر أن الوسيلة تبتغى بهم ولا منهم ولم تأمر بذلك ، بل وليس فيها حرف واحد يشير إليهم . فما الدليل حينئذ على أن هذه الوسيلة التى أمرنا بابتغائها يراد منا أن نبتغيها من الخلق بالطريق الذى يزعمه هؤلاء المخالفون ويعملونه . . .

ويقال أيضاً بعبارة أخرى : قد قدمنا أنه لا خلاف بين أهل اللسان أن الوسيلة معناها فى أصل اللغة الزلفى ، وأن التوسل معناه فى صريح اللسان التقرب . فالآية بلا ريب تطلب من الخلق أن يتقربوا إلى الله وأن يأخذوا بما يقربهم منه تعالى وبما يدنيهم من ثوابه وجزائه الأوفى . وهذا بالاجمال لا نزاع فيه . وحينئذ يقال ما دليلكم على أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم وأن سؤال الله بجاههم وحقهم مما يقرب إلى الله ؟ فان أتيتم الدليل على هذا ـ أى على أن دعاء الأموات أو الدعاء بجاههم وبركاتهم وحرماتهم ـ مما يقرب إلى الله ، فالحجة فى الدليل الذى ذكرتموه لا فى الآية ، لأن الآية لم تدل على أن هذا مما يقرب إلى الله ، وإن أنتم لم تقيموا دليلا على أن دعاءهم ودعاء الله بهم وبجاهاتهم يقرب إلى الله

لم يمكن أن تأخذوا من الآية شيئا.. . فهى على الافتراضين خارجة عن منطقة النزاع والخلاف ، وأنتم على الافتراضين لا تستطيعون أن تستفيدوا منها شيئاً.

دلالة أحاديث الوسيلة على خلاف قول المخالف

ثم يقال أيضاً : إن الأحاديث التى أوردها الشيعى رد عليه . وذلك مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله الصالحين» وكقوله . « آت محمداً الوسيلة والفضيلة » . فان هذه الأخبار نصوص صريحة فى أن الوسيلة ليست هى الصالحين والميتين ، وليست هى أيضاً دعاءهم والاستغاثة بهم ، وليست هى أيضاً سؤال الله بجاههم وكراماتهم وحرماتهم وحقوقهم كما زعموا بل الأحاديث صريحة فى أن الوسيلة تطلب لعباد الله الصالحين كالأنبياء والمرسلين ، لا تطلب منهم ولا بهم ، بل تطلب من الله وحده . فهؤلاء القوم المنازعون مخالفون لهذه النصوص الصحيحة . فان النصوص تُعَلِّمُ المسلمين وتأمرهم وتطلب إليهم أن يطلبوا الوسيلة لأشرف الخلق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . وهؤلاء المخالفون يطلبونها ممن أمروا بأن يطلبوها لهم . فكانوا بهذا مبدلين مبتغين غير الذى قيل لهم . فالرسول الأكرم يقول لهم وللمؤمنين به جيعاً « اسألوا الله لى الوسيلة » وهم يقولون : لا ، بل نسألك أنت الوسيلة ونتوسل بك . وهذا عين الخلاف على النبى عليه الصلاة والسلام .

﴿ الشبهة الثانية توسل بنى إسرائيل بأهل بيت نبيهم ﴾

استشفاع بنى إسرائيل بآل نبيهم

وأما ماذكر عن القسطلانى من أن بنى إسرائيل كانوا إذا أجدبوا استسقوا بأهل بيت نبيهم ، فالجواب ثلاثة أمور : أولها المطالبة بتصحيح هذا النقل من طريق صحيح مقبول لدى أهل المعرفة . وبغير ذلك لا يبالى بالرواية ولا بالنقل . وليس كافيا فى تصحيح الرواية ذكر القسطلانى لها بلا خلاف بين الناس . ثانى الأمور أن نطلب إلى المخالفين أن يقيموا الدليل على أن جميع ما يفعله بنو إسرائيل حق

وصواب وهدى ، وأنه ليس فى ما يفعلونه ضلال ولا جهل ولا خلاف على أنبيائهم ودينهم وكتابهم . ولكن كيف ذلك وبنو إسرائيل قد فعلوا بدينهم وبكتابهم الأفاعيل، وقد حرفوا الكتاب وكتبوا بأيديهم كتباً وقالوا : إنها من عند الله ليشتروا بها ثمناً قليلا؟ كيف وقد جاء الكتاب والاسلام ناعياً عليهم أفانين الضلالات والجهالات والحماقات فى الأصول والفروع . فلا يحتج بما فعلوا واعتقدوا وقالوا إلا من خبط فى مثل ما خبطوا فيه من شراذم الغواية وضروب الباطل . بل لو قيل إن فعل بنى إسرائيل للأمر الذى لم يؤثر عن سواهم من الدلائل على بطلانه وفساده وخلافه على الإسلام والحق والصواب لكان قولا مقارباً إن لم يكن الحق عينه فليس عنه بعيداً . وذلك لوفرة نصيبهم من الباطل والاثم والغى ، وقلة حظهم من الهدى والخير والصواب حتى عد ركونهم إلى الشئ من أمارات بطلانه وفساده وكذبه . ثالث الأمور لو صح هذا النقل وقام الدليل على أنه من الحق الباقى عند بنى إسرائيل لما كان فيه حجة على ما ذهب إليه المخالفون لجواز أن يكون المراد الاستسقاء بدعاء صالحى ذرية نبيهم وشفاعتهم، مثل استسقاء عمر ومن معه من المسلمين بالعباس بن عبد المطلب ، ومثل استسقاء معاوية ومن معه بيزيد بن الأسود الجرشى التابعى الصالح . وهذا النوع من الاستسقاء والتوسل لا ينازع فيه أحد من المسلمين ، بل لا ريب أن الاستسقاء بدعوات الصالحين الأحياء من السنن المشهورة المرغوب فيها . ولكن الخلاف ليس فى هذا .

تسوية المخالفين بين الأحياء والأموات

﴿ الشبهة الثالثة التسوية بين الأحياء والأموات ﴾

وأما الشبهة الثالثة وهى زعمه أن التوسل قد ثبت بالحى فليثبت كذلك بالميت لأنه لا فرق بين الأحياء والأموات — فالجواب أن يقال إن الذى ثبت من التوسل بالحى هو التوسل بدعائه وشفاعته . والميت لا يمكن الاتصال به

بوجه من الوجوه التى يزعمونها ، فلا يمكن أن يدعو لمن طلب منه الدعاء ولا أن يشفع لمن أراد منه الشفاعة ، ولا أن يسمع لمن دعاه وناداه، للدلائل الكثيرة العقلية والنقلية التى قدمناها فى فصل الشفاعة السابق . وقد تكلمنا هناك وأبنا أنه غير جائز بحال من الأحوال أن يطلب الدعاء والشفاعة من ميت . . . أما الحى فيمكن دعاؤه والاستشفاع به بالمشاهدة والضرورة والاجماع . فأنى تمكن التسوية بين الفريقين ! وأنى يقياس الميت على الحى لو كانوا يشعرون !

وأى عاقل يسمح لنفسه بأن يدعى أنه لافرق بين الأحياء والأموات ، وأنه يصح أن يقاس أحد الفريقين على الآخر ؟ وأى قياس هذا الذى يقضى بأن يكون الميت مثل الحى سواء ، فيطلب منه كل ما يطلب منه ، ويرتجى لكل ما يرتجى ، ويدعى كما يدعى ، ويسأل كل ما يسأل ، فاذا جاز أن يقال للحى أعطنى كذا ، أو اذهب إلى كذا ، أو اترك أمر كذا ،أوقم بأمر كذا ، جاز أن يقال للميت مثل ذلك سواء. إن هذا بلا شك ضرب من ضروب الجنون والعته . ولو أن إنساناً قال لإنسان آخر حى : ناولنى كيت وكيت ــ مما يقدر عليه الحى عادة ــ لكان هذا القول قولا عادياً لا شئ فيه . ومن قال ذلك لأحد الأموات كان مجنوناً بلاشك ، أو مشركا مغرقا فى الشرك والغى ، معتقدا بأن ذلك الميت الذى يخاطب ويدعو قادر على كل شئ ، فاعل كل شئ. ولو تخاصم متخاصمون ،فذهبوا لى قاض حى ليقضى ويحكم بينهم فى خصومتهم ونزاعهم لكانوا فاعلين ما يقضى به العقل والشرع والضرورة والوجدان ..ولو أنهم ذهبوا إلى أحد الأئمة الأربعة أو غيرهم مثلا ليقضى بينهم ويفض نزاعهم لما كانوا إلا مجانين ...فكيف يزعم عاقل مسلم أنه لا فرق بين الأحياء والأموات ، ويزعم أن قياس أحد الفريقين على الفريق الآخر قياس صحيح سليم يكتب وينشر ويحاول إقناع المسلمين والعقلاء

ومن يسمح لنفسه بهذا

به ؟ ولا ريب أن شر ما فى الدنيا من قياس ، وأن أكذبه وأبطله وأجهله هو قياس الموتى على الأحياء

الشيعة ينكرون القياس فكيف يقيسون الميت على الحى

على أن الشيعة الامامية الاثنا عشرية ينكرون القياس بكل ضروبه وأنواعه ، ويلجون فى إنكاره وجحوده ، ويعيبون الذين يقيسون والذين يقولون بجواز القياس مهما وضح صدقه ووجهه ، ومهما استوفى شروطه : واجباته ومستحباته ومقوياته . فما بالهم إذن هنا يستحسنون ما قبحوا ؟ وما بال القياس كله يكذب ويقبح إلا قياس الميت على الحى ، قياس الضد على ضده ؟ ونحن لا نستطيع أن نعرف كيف يستطيعون أن يزعموا أن الأموات مثل الأحياء ، وأنه لافرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟ وقد لهجوا بهذه المقالة وتغنوا ، ورتلوها فى كثير من كتبهم ، وشادوا عليها كثيراً من ضلالهم وباطلهم وبدعهم ، وانتزعوا منها الحجج والبراهين على ماهم فيه من عكوف على القبور وعبادة لأصحابها . ولا نعلم شيئاً يشهد لهذه المقالة لامن الشرع ولامن العقل ولامن العادة والذوق والوجدان ، والناس كلهم مفطورون على التفريق بين الحى والميت ، وعلى التفريق بين أحكام هذا وأحكام ذاك ، ولا يوجد إنسان واحد يسوى بينهما تسوية تامة مطلقة عامة شاملة ، والشرع قد فرق بينهما بنصوص لاتقبل الخلاف والجدال ، مثل قوله تعالى : «ومايستوى الأحياء ولا الأموات» ومثل قوله : «إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم» الآية . والأحياء يسمعون بلا خلاف فهم ليسوا مثل الأموات ، ومثل قوله : « وما أنت بمسمع من فى القبور » وقوله : «إنك لا تسمع الموتى » . وكل أحكام الأموات الشرعية تدل على الفرق بين الفريقين . وما فى الشرع ما يدل على التسوية بل كل ما فيه يدل على خلافها . وأما العقل فإنه لا يستطيع تسليم هذه التسوية . فهو إذا كان لا يرى للميت أثراً ولا فعلا من آثار الحى وأفعاله ، وكان يرى بالمشاهدة أن الميت فاقد كل مافى الحى من حياة وعمل وعلم فلا يمكن

الفرق بين الأحياء والأموات فى الشرع والعقل والوجدان والاجماع

أن يحكم بأنه مثله . وإلا لو لم يستطع التفريق بين شيئين فرق بينهما الحس والضرورة والمشاهدة لما كان مرضى الحكومة ولا مقبول الدعوى . وأما حكم الوجدان فهو أظهر وأبين . فالشرع والعقل والوجدان والاجماع : كل ذلك قاض بالفرق بين الأحياء والأموات ، وكل ذلك لا يسلم التسوية بين الطائفتين . فبماذا إذن يسوون بينهما ؟ وبماذا احتجوا حين قالوا : إنه لافرق بين الحي والميت والفرق موجود في الشرع والعقل والاجماع والوجدان ؟ وإذا أباح هؤلاء لأنفسهم، وصدقتهم عقولهم وعقائدهم ، أن يدعوا مثل هذه الدعوى فماذا يقولون لو قال قائل: أنه لا فرق بين الجماد والحيوان ، فلافرق بين الحجر والشجر والانسان في هذه الأحكام كما قالوا هم سواء ، ثم قال مثل ما قالوا : « إذا ثبت التوسل بالانسان وثبت أن التوسل به ليس شركا ولا كفراً فالتوسل بالحجر والشجر والجماد كذلك، إذلا يعقل الفرق بين الأمرين . فان جواز التوسل بالانسان إن كان لمكانته عند الله فالمكانة ثابتة للجماد والأحجار كأحجار البيت العتيق وأحجار قبور الصالحين وآثارهم عند المخالف. وإن كان لأجل أن يدعو الله فالجماد يدعو أيضاً كما قال تعالى « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وكما قال : « ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال » وكما قال : « ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ». وكما قال :« والنجم والشجر يسجدان » وكما قال في وصف الحجارة : « وإن منها لما يهبط من خشية الله » وقد عزا الكتاب أشياء كثيرة من هذا النوع إلى الجماد. وقد جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « إني لأعرف حجراً في مكة كان يسلم علي » وقد حن الجذع الذي كان يخطب عليه عليه الصلاة والسلام لما اتخذ منبره وخطب عليه . وقد صح في الأحاديث الصحاح المجمع على صحتها وثبوتها عند أهل

ماذا يقولون في دعاء الجماد المجرد من كل حياة

الحديث أن الطعام كان يسبح على عهد النبي وكذا الحصا . . » . هذا ما يمكن أن يقال وما يمكن أن يكون مثل قول الشيعي : « إذا ثبت التوسل بالحي وثبت أنه ليس شركا ولا كفراً فالتوسل بالميت كذلك ، إذ لا يعقل الفرق بين الفريقين فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهي لم تذهب بالموت ، و إن كان لأجل أن يدعو فهو ممكن في حق الميت . . . »

ولا ندري كيف يجوز لمن هو في أقصى المغرب أن يتوسل أو يستغيث بميت في مكة أو في المدينة أو في كربلاء أو في النجف مثلا، ولا يجوز له أن يتوسل وأن يستغيث ، أين كان ووجد ، ببيت الله الحرام و بمسجده و بأستار حرمه . فاننا لا نجد فرقا في هذه الحالة بين الأمرين . فان التوسل بذلك المدفون في الحجاز أو في العراق مثلا إن كان جواز التوسل به لأجل كرامته على الله وحرمته وقربه إليه فالكعبة كذلك لها كرامة وحرمة ومكانة عند الله وعند المسلمين ، و إن كان ذلك رجاء أن يدعو و يشفع فالكعبة من الممكن أن تدعو وأن تشفع . وقد تقدم في كلام الشيعي أن الحجر الأسود يشفع لمقبله ومحترمه . و إذا قالوا : إن الكعبة وغيرها من الجماد لا يمكن أن تسمع من دعاها وطلب منها وتوسل بها قيل وكذلك الميت المدفون في الحجاز أو العراق كيف يمكن أن يسمع من دعاه واستغاثه وهو في أقصى المشرق أو أقصى المغرب ؟ فهذا لا يمكن إلا بخارقة والخارقة إذا جاز أن تكون في دعوة الميت جاز أن تكون في دعوة بيت الله وحرمه ومساجده المفضلة وغيرها من المنازل المقدسة المعظمة .

فاذا بلغت المسألة هذا الطور من الجدال والنضال والضلال وجد كل مؤمن في إيمانه — و إن قل — ما يحجزه عن التزحلق في هذه الغاية من الغواية ، وهذا المكان السحيق من أعماق الضلال .

أما ما ذكر الرافضي في هذه الشبهة من أحاديث الاستسقاء بالعباس

و سؤاله تعالى بحق السائلين وحق الممشى إلى الصلاة ، وحديث ابن حنيف و الأحاديث التى نطقت بثبوت الحق على الله لعباده وخلقه ، وما كان بين الامام مالك وأبى جعفر المنصور — : فسوف يجىء جوابه كله فى ما بعد

قياس غير صحيح

وأما ما ذكر من أن من طلب ميتا ظانا أنه يسمع ويدعى — وهو فى الواقع ليس كذلك — كان غير ضال وغير آثم ، وكان كمن طلب من مقعد القيام ظانا أنه غير مقعد وأنه قادر على القيام — فرأى باطل وقياس سخيف . وذلك أن من طلب من مقعد القيام أو من أعمى القراءة مثلا لم يعتقد فى أحدهما سراً من الأسرار ، ولا سلطانا قاهراً غيبياً ، ولا قدرة على الخوارق والمعجزات ، لأنهما يعلمان الغيوب ، أو يعطيان كل ما يسألان ، أو يتصلان بالله ، أو أن لهما دلالاً على الله أو جاهاً ضاراً نافعاً عنده ، أو شفاعة لا ترد ولا تخطىء — لا يعتقد من طلب من المقعد القيام ومن الأعمى القراءة شيئا من هذا فيهما . ثم هو لن يخضع أو يخشع لهما فى سره و باطنه ودخيلة نفسه ، ولن يوليهما من التقديس والاجلال والمهابة والتعظيم فوق القدر المعتاد المألوف . . . أما من دعا الأموات فانه ، ولا محالة ، يعتقد فيهم ذلك كله بأبلغ معانيه وأجلى مظاهره وصوره . وهذا عين التأليه والعبادة فالفرق بين من طلب من مقعد القيام وبين دعاة الأموات والصالحين فرق ظاهر واضح كبير لا يصح أن يخفى على من قام يذم أهل السنة والجماعة ، ومن قام يثلب أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وأم حبيبة وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص ومعاوية وغيرهم من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام .

﴿ الشبهة الرابعة سؤال آدم بحق رسول الله ﴾

خبر سؤال آدم بحق محمد صلى الله عليه وسلم

أما الشبهة الرابعة وهى الحديث الذى ذكر فيه أن آدم لما اقترف الخطيئة سأل الله بحق محمد عليه السلام فغفر الله له خطيئته — فالجواب أن يقال : هذا الحديث رواه أبو عبد الله الحاكم فى مستدركه على الصحيحين . و رواه غير الحاكم

فى فضائل النبى عليه الصلاة والسلام . ولفظ الخبر : عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى ، فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت مكتوباً على قوائم العرش :لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى . ادعنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ماخلقتك ».والحديث معدود فى فضائل النبى عليه السلام لهذا سارع بعض الذين يحرصون على تكثير الفضائل ــ ولو بما لم يصح إسناده ــ إلى تصحيحه وروايته كما فعل الحاكم . وقد آخذ أعلام النقد وصيارفة الحديث وفرسان الرواية أبا عبد الله الحاكم على تساهله ولينه و إغماضه فى هذا الشأن، وعلى ميله الكثير الواضح إلى تصحيح الأخبار التى لم تصح عند أهل الحديث والتى بان ضعفها و بطلانها لدى صغار علماء هذا الفن وكبارهم ؛ ولا سيما ما كان متعلقاً من ذلك فى أبواب الفضائل . ولهذا فانه يصحح فى أبواب فضائل الصحابة ــ ولا سيما على وأهل البيت النبوى ــ مالم يجاره عليه أحد من من المحدثين وما أنكروه عليه وماعدوه من ضعفه فى هذه الصناعة وقلة تماسكه فيها ... وقالوا : إنه لا يجوز الاعتداد بتصحيحه و بدرايته وعلمه ولا بشئ مما يقول فى هـذا الباب إن لم يتابعه أو يسبقه العدول الجهابذة من رجال هذا العلم الجليل . وقد قال أبو بكر الخطيب البغدادى فى تاريخه من ترجمة الحاكم نقلا عن أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الارموى النيسابورى : « ... جمع أبو عبد الله الحاكم أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخارى ومسلم ، يلزمهما إخراجها فى صحيحيهما. فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك ولم يلتفتوا فيه إلى قوله ولا صوبوه فى فعله ... » .

حديث مكذوب

فهذا الحديث حقا رواه الحاكم وصححه ورواه سواه من المكاثرين بما لم

يصح سنده ولكن الحديث غير صحيح الاسناد بل هو حديث باطل موضوع ضعفه أهل الحديث وكذبوه وردوه وخالفوا الحاكم فيه. وقد قال الذهبي فى تعليقه على المستدرك : إنه حديث موضوع مكذوب وفى سنده ضعفاء .وقد ضعفه الحافظ الهيثمى فى «مجمع الزوائد » والسيوطى فى « مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا » على ماذكر صاحب « صيانة الانسان » .وفى سنده عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم العمرى، وقد أجمع الناس على تضعيفه والقدح فيه كما ذكر الحافظ ابن حجر فى « تهذيب التهذيب » والحافظ الذهبى فى «ميزان الاعتدال » . وما أثنى عليه أحد فى ماذكروا . والعجيب حقا أن الحاكم نفسه قد ضعف عبد الرحمن بن زيد هذا فى كتاب « الضعفاء » له . ذكر ذلك عنه العسقلانى فى تهذيب التهذيب وذكره غيره . فمن العجيب حقا أن يصحح حديث راو ضعفه هو بنفسه تضعيفاً شديداً وحذر الرواية عنه ، وقد انفرد هذا الراوى بالحديث . فالحديث ساقط الاسناد لاتقوم له قائمة عند أهل العلم .

اصناف الدلائل على كذبها الحديث

ودلائل الوضع بادية عليه من جهات كثيرة : منها أن من المستحيل شرعا أن يصدق قوله فيه : « ولولا محمد ماخلقتك » . فمثل هذه اللفظة ينكرها الشرع بل تنكرها الشرائع كلها بقوة وشدة . وقد اتفق المسلمون والمؤمنون جميعاً على أن الله قد خلق الخلق والعباد وخلق الأنبياء كلهم : آدم فمن بعده ، محمداً فمن قبله من الأنبياء والمرسلين لغرض واحد سام كل السمو، عظيم كل العظم . هذا الغرض هو عبادة الله وعمارة أرضه بالعبادات والطاعات والاصلاح والمثل الانسانية العليا كما قال تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» وكما قال : «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم مالاتعلمون (إلى قوله) قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إنى

أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » . وقال : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله » وقال بعد أن ذكر إيحاءه إلى الانبياء والمرسلين : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما » . فالله جلت قدرته وتسامت حكمته قد خلق خلقه وبعث رسله لحكم هى أجل مما ذكروا فى هذه الرواية الباطلة : خلق الخلق لعبادته وحده . وما من مخلوق إلا وقد خلقه لذلك . فآدم مخلوق لعبادة الله لا لأجل محمد ولا لأجل غيره من العباد . ومحمد نفسه مخلوق لعبادته تعالى لا لأجل آدم ولا لأجل غيره من الخلق . والعباد كلهم مخلوقون لعبادة الله بنص القرآن . وهو تعالى قد جعل آدم فى أرضه وملكه لحكمة أجل وأشرف مما زعموا فى هذا الحديث الباطل : جعله ليكون خليفته فى هذا العالم الأرضى ، ليعبد الله فيه وليدعو إلى عبادته وليلد من يعبدونه تعالى ، ولينجل الانبياء والمرسلين والصالحين وليكون فى نسله ومن نجله محمد و إبراهيم وعيسى وموسى ونوح وغيرهم من رسل الله وأنبيائه المصطفين الأخيار ، وليكون بعد هذا مايكون من الحكم والاغراض والأسرار الالهية الظاهرة والباطنة . وهو أيضا قد خلق الأنبياء وجعلهم أنبياء ليكونوا مبشرين ومنذرين للخلق ، وليكونوا حججه تعالى على عباده ، فلا تبقى لهم حجة على الله بعدهم ، وليكونوا أدلاءه إلى الخير والهدى والسعادة والايمان و إلى الجنة فى النهاية . وماخلق أحداً منهم لأجل أحد ، ولا خلق أمة لأجل أمة ، ولارسولا لأجل رسول . و إذا كان محمد نفسه ماخلق إلا لعبادة الله ولأجل الدعوة إلى عبادته فكيف يمكن أن يكون آدم أو غيره مخلوقا لأجله ﷺ أو لأجل أحد سواه ، أو يكون ماخلق إلا لأجله ؟ والحكمة فى خلق محمد هى الحكمة فى خلق آدم : هى الدلالة على الخير و إقامة العدل والشرع فى هذه الأرض والمحافظة على فطرة الله وذود النفوس عما خلقت بطبعها جانحة مائلة إليه من

الناس مخلوقون لعبادة الله لا لمحمد ولا لغيره

صنوف الغوايات وجرائم الشرور ، ودفعها إلى أصل هداها . والآية المذكورة ، أعنى قوله تعالى : « وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون » صريحة فى إكذاب هذا الخبر و بطلانه . وذلك أنها تنص بكل وضوح وصراحة على أن الناس جميعاً ماخلقوا إلا لأجل عبادة الله لا لشئ آخر غير العبادة . و إذا كان الناس جميعاً وكان الأنس والجن إنما خلقوا لعبادة الله لا لأجل محمد عليه السلام ولا لأجل غيره من العباد فكيف يمكن أن يكون آدم الذى اصطفاه الله واجتباه ، وتاب عليه وهداه ، قد خلق لغرض غير عبادة الله ؟ وليس هنالك ماهو أشرف وأعظم من عبادته تعالى . وآدم أيضاً لم يخرج عن أن يكون أحد الإنس فهو مخلوق بصريح الآية لعبادة ربه كغيره من الخلق ، لم يخلق لغرض آخر غير ذلك .

ولا ريب أنه إذا كان آدم أبو البشر وأول الانبياء وأبوهم ماخلق إلا لأجل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأنه لولاه لما خلق كان غيره من الانبياء والمرسلين كذلك ماخلقوا إلا لأجله عليه الصلاة والسلام ، وكان عيسى وموسى و إبراهيم ونوح وغيرهم لم يخلقوا إلا لأجل رسول الله لا لاجل عبادة الله ولا لأجل الدعوة إلى عبادة الله و إلى إصلاح البشر والأرض بالتوحيد والدين والايمان ، و أنه لولاه لما خلق منهم أحد . لأنه لافرق بين آدم وغيره من الانبياء والمرسلين فى هذا المعنى . ولكن كيف يجوز أن يقول مسلم : إن الأنبياء كلهم لم يخلقوا إلا من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ، و إنه لولاه لما خلق منهم أحد والله يقول بعد أن ذكرهم وذكر ثناءه عليهم وما خص كل نبى به من المنقبة والكرامة : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » ويقول ﷺ فى الحديث الصحيح : « لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » . وجاءه رجل وقال له : ياخير البرية ! فقال عليه الصلاة والسلام : « ذاك إبراهيم » . وقال : « لاتفضلوا بين أنبياء الله » وقال : « لا تخيرونى على موسى » . وهذه أحاديث

لو صح هذا لكان الانبياء جميعا لم يخلقوا الا لاجل الرسول وهذا باطل

كلها فى الصحيح . وهؤلاء العباد المختارون الذين هذا مكانهم وهذه مكانتهم من الله كيف يمكن أن يقال إنهم ماخلقوا إلا لأجل نبى الله ، و إنه لولاه لماخلقهم الله وقد قال تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » وقال : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » وقال : « وعلم آدم الأسماء كلها » وقال غير ذلك من الثناء والمحمدة على عبده ورسوله آدم . فكيف يجوز لمسلم أن يقول بعد هذا : إنه ماخلق إلا لأجل ولده محمد ﷺ وإنه لولاه لما خلق ، وقد خصه الله بميزة ومنقبة لم يجعلها لأحد سواه . ذلك أنه أمر ملائكته أن يسجدوا فسجدوا . والملائكة لايخفى مكانهم ولاتجهل مكانتهم من الله . وهذه فضيلة لاتقدر إلا لمن عظم قدره وقرب مكانه من ربه وتسامت مكانته لديه تعالى . ومن كان له هذا الفضل العظيم والشرف الرفيع كان من الإهانة له والزراية به القول بأنه ماخلق إلا لأجل محمد و إنه لولاه لما خلق

أى معنى فى قوله « ولولا محمد ما خلقتك »

هذا ثم أى معنى فى قوله : « ولولا محمد ماخلقتك » ؟ فان آدم لم يلق محمداً عليهما الصلاة والسلام ، ولم يجتمع به ولم يقاتل معه ، ولم يدفع عنه ، ولم يشهد له ولم يؤيده بشيء من وجوه التأييد . فكيف إذن خلق لأجله ، ومامعنى هذا ؟ إن الأمر يوجد لأجل الأمر إذا كان بينهما ارتباط ، وعلاقة من العلاقات . فلو أن آدم خلق فى عصر النبى عليه السلام فقاتل معه ودفع عنه وذاد عن دعوته ودينه الخصوم والأعداء لأمكن أن يقال : إنه لولا محمد لما خلق آدم . أما وآدم قد خلق فى عصر فى قوم لغرض ، ومحمد قد خلق فى عصر آخر فى قوم آخرين لغرض أيضاً فلن يصح أن يقال إن هذا ماخلق لولا هذا ، لأن هذا القول من الكذب الواضح والباطل الصريح

احتمال أول وبطلانه

وماذا يمكن أن يفهم المخالفون المصححون لهذه اللفظة منها ؟ هل يعنى بها أن آدم ماخلق إلا لأجل أن يلد محمداً ﷺ وأنه لولا هذا الغرض لما خلق ؟ إنه

لو صح هذا الاحتمال لكان الحديث من أعظم المقادح فى آدم . ولو صح أيضا أن آدم ماخلق إلا لأجل أن يلد محمداً فقط لكان غير آدم ممن هم دونه ـ أعنى الذين لم يلدوه ـ اولى بألا يخلقوا وألا يوجدوا ، لان الغرض من الخلق و الايجاد هو ولادة محمد ، وهم لم يلدوه . وأيضا لو كان الغرض من خلق آدم محصوراً فى أن يلد محمداً لاغير لكان المعقول القريب أن يخلق محمد مباشرة كما خلق آدم مباشرة بلا آدم ، أو يخلق أحد آباء محمد دون آدم ودون غيره من الآباء الذين لم يلدوه ومن غيرهم . وأيضا إذا كانت الحكمة فى خلق آدم محصورة فى أن يلد محمداً فما الحكمة فى خلق غير آدم من الكفار ومن المؤمنين أيضاً ؟ إذن لا يمكن أن يصح هذا الاحتمال فى هذه اللفظة ، ولا يمكن أن يلاقى الحق . فماذا إذن يعنى بها عند المؤمنين بها ؟ أيعنى أن آدم ماخلق إلا كرامة لمحمد عليه السلام وتشريفاً له ورفعاً لقدره ، وأنه لولا هذا الغرض لما خلق ؟ وهذا الاحتمال لا يصح أيضاً . وذلك أنه لافضل ولا أثر لمحمد ألبتة فى خلق آدم و إيجاده . . . فآدم مخلوق قبل محمد ؛ والله وحده الذى خلقه كله لاشريك لأحد فيه . فما أثر محمد فى هذا وكيف يكون له فى شئ منه كرامة أو شرف أو تشريف . ولو عكس الأمر والقول لكان العكس أقرب إلى المعقول ، أعنى لو قيل : لولا آدم لما خلق محمد . ذلك لأن محمداً هو الابن وآدم هو الأب . ومن المعقول المعهود أن يكون للأب الشرف والكرامة والحمد فى ابنه لأنه سبب فى خلقه و ولادته مثلا . ولكن لافضل ألبتة للابن فى أبيه وفى وجوده وخلقه إذا كان لم يلقه ولم يره . وأيضاً إذا كان الله لم يخلق نبيه آدم إلا لأجل تكريم أحد أنبيائه ورسله به ، فلماذا إذن خلق غيره من الأنبياء والمؤمنين ومن الكافرين أيضاً ؟ فهذا كله لا يراد شئ منه بهذه اللفظة فماذا يراد بها ؟ أيراد أن محمداً ﷺ قد أعان على خلق آدم ، وكان هو الحامل على خلقه و إيجاده أو السبب الأقوى فيه ؟ كلا ، إن هذا لا يقوله مسلم واحد لأنه

احتمال ثان وبطلانه

احتمال ثالث وبطلانه

شرك قبيح . . . فبعض هذا الذى ذكرناه يكفى تدليلا على بطلان هذه اللفظة المذكورة فى الحديث وعلى بطلان الحديث جملة .

وجوه واضحة فى بطلان هذا الحديث

ومما يدل على كذب الرواية دلالتها على أن هـذا التوسل بحق محمـد هو السبب فى غفر خطيئة آدم وترك ذنبه له والتجاوز عن مؤاخذته ، إذ قد جاء فى رواية الحديث : « و إذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » . والمفهوم من هذا أن الله قد غفر لآدم لأجل سؤاله ربه بحق محمد . وهـذا باطل نصاً ونظراً وقياساً وفقهاً أما النص فان الله سبحانه قد ذكر ماقاله آدم بعد ارتكابه الخطيئة أو بعض ما قال ، وذكر ما نادى به ربه متنصلا من ذنبه وجرمه بالتوبة والاعتذار ، فقال من سورة البقرة : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم » . وظاهر من الآية الكريمة أن هذه الكلمات المتلقاة هى السبب فى الغفران له والرضا عنه ، وأنها هى الأمر المباشر للعفو عنه . وهذا جلى من ألفاظ الآية . وهذه الكلمات التى غفر الله لآدم من أجلها لا يصح أن تكون هى التوسل بمحمد والسؤال بحقه . وذلك لأن الله قد ذكر هذه الكلمات فى كتابه فى قوله من سورة الأعراف : « وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » . فتلك الكلمات المجملة التى أخبر الله أن آدم تلقاها من ربه يوم أن وقع على الذنب وأكل من شجرة الخطيئة هى هذه الكلمات المذكورة المفسرة فى هذه السورة وهى قولهما : «ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .» . فتلك مجملة وهـذه مفسرة مفصلة : ولم يذكر الكتاب عن آدم وزوجه شيئاً غير هذه الكلمات بعد غشيانهما الخطيئة .

وأيضاً مما يدل على أن الكلمات المتلقاة هى هذه الكلمات من الاعتذار والاستغفار قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات » فقد جعل ذلك كلمات ، والمذكور فى الرواية ـ أعنى قوله « أسألك بحق محمد لما غفرت لى » ـ لا يسمى فى لغة القرآن كلمات إلا أن يكون القول على سبيل المجاز والاتساع فى الكلام . أما ماذكر من الاستغفار والاعتذار والاعتراف فى سورة الأعراف فكلمات حقيقة لا مجازاً . فيصح أن تكون الآية تأويل الآية ، ولا يصح أن يكون الحديث تأويل الآية . وأيضاً قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات » يدل على أن هذه الكلمات التى غفر له إذ قالها هى كلمات تلقاها من ربه بمعنى أن الله أوحاها إليه وأمره بها ، لأن هذا هو حقيقة التلقى . ويجب الوقوف عند حقيقة الكلام حتى يذود عنها ذائد . وقوله فى الرواية : « أسألك بحق محمد لما غفرت لى » ليس متلقًى من الله لأنه تعالى ـ على ما فى الرواية ـ قال له إذ قال ذلك : « وكيف عرفت محمداً ؟ » وقد قال فى الجواب : « رفعت رأسى فرأيت مكتوباً على قوائم العرش : لا إله إلا الله محمد رسول الله » الحديث . وكل هذا يدل على أن آدم دعا بالدعاء المذكور من تلقاء نفسه ومن اجتهاده . فليس إذن متلقًى من الله . ولكن الكلمات التى قالها آدم فتاب ربه عليه إذ قالها هى كلمات قد صرح القرآن بأنه قد تلقاها من ربه تلقياً . ومعقول مفهوم أن نفسر هذه الكلمات بقوله : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » لأن الله بلا ريب قد ألقى ولقّى عبده آدم وغيره من خلقه طريق التنصل من الذنوب بالمتاب والاعتذار ، وأمرهم أن يعالجوا بغيض العصيان والخطايا بالتوبة والاعتذار والاستغفار والاعتراف والرجوع إلى الله وإلى منطقة عفوه وصفحه هروباً من منطقة الذنب المحرقة الضيقة ، ومن منطقة غضبه ومقته وطرده . فمن المعقول والمفهوم معاً أن يكون آدم قد تلقى مثل هذا من ربه وأن يكون ربه أمره به وندبه إليه كما ندب جميع خلقه

من الأولين والآخرين . فالكلمات المغفور لآدم من أجلها هي كلمات متلقاة فيجب أن تكون غير مافي الرواية المذكورة المكذوبة .

روايات في تفسير الكلمات التي تلقاها آدم فتيب عليه من أجلها

وأيضاً قد أجمع المفسرون من السلف والخلف البصراء بوجوه التفسير والتأويل وبعلوم القرآن والاسلام على أن هذه الكلمات المتلقاة هي غير ما في الحديث المذكور وغير سؤال آدم بحق محمد عليهما الصلاة والسلام . وما فسر الكلمات بأنها هي هذا أحد ممن يعتد بقوله ورأيه وعلمه . بل قد جاءت أخبار نبوية تفسر هذه الكلمات بخلاف ما في الحديث ، وهذه الأخبار ـ وإن كانت ضعيفة الأسانيد ـ هي ولا ريب أصح من هذه الرواية متناً وسنداً « فني مجمع الزوائد » (الجزء الثاني صفحة ١٩٨) من جملة حديث طويل عن أبي برزة قال : ـ يعني الله ـ يا آدم مايحزنك؟ قال : كيف لا أحزن وقد أهبطتني من الجنة ولا أدري أعود إليها أم لا ؛ فقال الله : يا آدم قل اللهم لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك سبحانك وبحمدك ، رب إني عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت أرحم الراحمين ـ إلى أن قال ـ هذه الكلمات التي أنزلها الله على محمد ﷺ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قال وهي لولده من بعده . إلى آخر الرواية. قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه سوار بن مصعب وهو متروك . وهذا وإن كان من قول أبي برزة الصحابي الجليل فلا شك في أنه لا يقال بالاجتهاد والرأي بل لا بد أن يكون له حكم الرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام كما هو مقتضى ما رسمه المحدثون في مصطلح الحديث ، لأن هذا غيب وصحابة النبي لا يقتحمون الافتراء على الغيوب إلا بوحي وسلطان من الله ورسوله . أما من جهة السند فحديث توسل آدم بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يقل عنه ضعفاً وسقوطاً إلا أن هذا أصح من جهة المعنى ومن جهة موافقته لظاهر القرآن ، فهو أولى بالتصديق والقبول وفي الجزء العاشر من مجمع الزوائد أيضاً صفحة ١٨٣ بعنوان : « باب دعاء آدم

عليه الصلاة والسلام» عن عائشة عن النبى عليه الصلاة والسلام قال : «لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاه الكعبة فصلى ركعتين فألهمه الله هذا الدعاء: اللهم إنك تعلم سريرتى وعلانيتى ، فاقبل معذرتى ، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى ، وتعلم مافى نفسى فاغفرلى ذنبى . اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاحتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى، ورضا بما قسمت لى . قال فأوحى الله إليه : يا آدم قد قبلت توبتك وغفرت ذنبك . ولن يدعونى أحد بهذا الدعاء إلا غفرت له ذنبه ، وكفيته المهم من أمره ، وزجرت عنه الشيطان ، واتجرت له من وراء كل تاجر، وأقبلت إليه الدنيا وهى راغمة وإن لم يردها » . قال الهيثمى رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه النضر بن طاهر وهو ضعيف . فهاتان روايتان ضعيفتان ولكنهما لا يضعفان عن معارضة روايتهم سؤال آدم بحق محمد عليهما السلام

أن القرآن لم يذكر هذا التوسل عن آدم مع أنه قد ذكر قصته فلماذا هذا

وأيضاً فإن كتاب الله قد ذكر فى مواضع ماامتحن الله به آدم من الذنب والخطيئة ، وذكر استغفاره إياه وتوبته وندمه وتوبة الله عليه واصطفاءه إياه واختياره وتكفير ذنبه . . . ولكن لم يذكر هذا التوسل ولا هذا الدعاء الذى زعم فيه أن عفو الله ناله وأدركه من أجله . وما كان أجدره بأن يذكره فى كتاب الله وما كان أجدره بأن يشيد به وبذكراه ، ليتأساه المؤمنون المقتدون بكتاب الله وبأنبيائه . فان الأمر الذى يغفر به مثل هذا الذنب وهذه الخطيئة خليق بأن يعرفه المسلمون التالون لكتاب الله ليكون لهم فيه القدوة والثواب . ومن البعيد جداً أن يكون الأمر كما زعم فى هذه الرواية ثم لا يكون له من العناية والحظ فى القرآن إلا الاعراض والطى والكتمان مع ذكره القصة من أولها لآخرها فان القرآن قد ذكر إسكان آدم وحواء الجنة ، وذكر تحذيرهما أن يقربا الشجرة وأن يأكلا منها ، وذكر محاورة الشيطان إياهما فإزلالهما فإقدامهما على المخالفة والأكل من شجرة الخطيئة ، وذكر ندمهما وأسفهما على ذلك ، وذكر

استغفارهما الله وطرحهما نفسيهما ببابه تعالى وبباب متابه ، ثم ذكر توبة الله عليهما وقبولهما واصطفاءهما : ذكر ذلك كله وذكر معه عتاب الله إياهما. ولكنه لم يذكر هذا التوسل الذى غفر به هذا الذنب العظيم وهذه الخطيئة التى كررها الله لمالها من الغاية الحميدة والحكمة البالغة . إن من أراد أن يعرف حقائق الاشياء وأن يعترف بحقائق الأمور لايجد بداً من الاعتراف بأن هـذه الرواية مختلقة اختلاقاً قبيحاً شنيعاً .

من المحال أن يغفر الذنب بالسؤال بحق الخلق

هذا من جهة النص . وأما من جهة النظر والفقه والقياس فيقال : إن من البعيد جداً فى حكمة الله وفى دينه أن يغفر لآدم هـذا الذنب لا لشئ إلا لأنه عرف محمداً ﷺ ، ولأنه سأل بحقه فيقال له : « وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك » . ولا يغفر له هـذا الذنب بتوبته وإقباله على ربه واستغفاره وندمه وذله وانكساره ورجوعه إلى ربه ومولاه رجوع الخاضع الخاشع الذليل . وقد حدث القرآن الحكيم عنه بأنه بعد الذنب جـد فى الاستغفار والاعتذار والاعتراف والرجوع إلى غافر الذنب وقابل التوب . ولا بد عقلا من الاعتراف بأن آدم قد استغفر ربه ودعاه لغفر ذنبه ولقبوله مرة أخرى. ومما لاريب فيه أن ندم المذنب وأسفه عـلى ذنبه وعلى ما فرط منه واعتذاره إلى ربه واستغفاره إياه ومضاعفة العبادات والطاعات وإخلاصه وصدقه فى هذا كله أعظم من عند الله وأقرب إليه وإلى ثوابه ورضاه ومتابه من سؤاله تعالى بحق واحد من الناس مهما كان ذلك الواحد . ولا يختلف المسلمون فى أن المذنب لا يغفر له ذنبه وجريمته إلا بما وقر فى قلبه من خوف الله ومن الندم على عصيانه والعزم على ألاّ يعود ، ثم بالأعمال

ما به تغفر الخطايا فى حكم القرآن

الصالحة المبرورة المكفرة وبالاستغفار والاعتذار واللهج بمناداته تعالى مناداة انكسار وإخلاص وخضوع وخشوع . وقد بين كتاب الله فى غير ما آية ما به تغفر الخطايا والآثام فقال : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى »

وقال : « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا » وقال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما » وقال : « والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم —ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ». إلى غير ذلك من آى الكتاب الناطقة بأن الله يغفر الخطايا والآثام بالتوبة وبالأعمال الصالحة ، وبالندم على العصيان وبالاستغفار والاعتذار لا بسؤال الله بحق فلان أو فلانة . وقد أنبأ الله عن جميع أنبيائه الذين ألموا ببعض ما عاتبهم الله عليه بأنه تعالى غفر لهم بما قدموه من استغفار ومتاب وأعمال صالحة مبرورة . وهذا كله من قصص القرآن . فالرواية التى يقال فيها : إنه قد غفر لآدم ذنبه لأنه سأل الله بحق محمد رواية مخالفة لروح الاسلام ولنصوصه ، مخالفة لروح جميع الأديان ونصوصها .

السؤال بحق النبي ليس له من القيمة العملية مايوجب كل هذا

والسؤال بحق النبى أو بحق غيره من الأنبياء والصالحين ليس له من القيمة العملية الدينية ما يوجب أن يكون عملا صالحاً مبروراً فضلا عن يكون أداة غفران وعفو تام . وماذا فى قول القائل : أسألك يا ألله بحق فلان أو فلانة من عمل صالح يؤهل قائله لأن يكون من المغفور لهم ؟ وإنما يغفر للمستغفر ويؤجر على قدر ما وقر فى قلبه ونفسه من خشية الله وخوفه وتعظيمه وإجلاله وحبه ، وعلى قدر تصميمه على ألا يعود إلى مخالفة الله وعصيانه ، وعلى قدر ندمه وأسفه المر . وأما الألفاظ المجردة فلا وزن لها عند الله ، ولا ينظر إليها فضلا عن أن تكون عملا تحط به الذنوب والخطايا الثقيلة . فما فى قول القائل : « أسألك بحق محمد لما غفرت لى » من الشأن والقيمة حتى يقال له : « وإذ سألتنى بحقه فقد

غفرت لك » ؟ وأجهل الناس وأرقهم ديناً وتقوى وفضيلة ،وأشدهم بعداً عن الله وعن رضاه يقولون ذلك ويلهجون به . وهم على رغمه لا يجدر بهم الغفران ولا التجاوز والعفو والرضا ، بل وهم خليقون بالانتقام والطرد والعذاب الأليم الموجع. ولن تجديهم هذه المقالة ولا هذا التوسل قليلا ولا كثيرا . فنحن لا نشك فى أن آدم ماغفر له ذنبه إلا لتوبته ولرجوعه إلى ربه ولاقلاعه عن ذنبه ، ولاعتذاره واستغفاره الصادرين عن جميع نفسه وقلبه وعقله . أما السؤال بالحق فلا قيمة ولا وزن له عند الله ألبتة

ما معنى السؤال بحق المخلوق

على أنه لا يدرى ما معنى أمثال قوله : « أسألك بحق محمد » . وذلك أن حق محمد وحقوق سواه من عباد الله الصالحين ضربان : حق يتعلق بذات الله وصفاته ، وحق يتعلق بمخلوقاته . أما الحق الأول فهو نصرة الله وتأييده لهم ورضاه عنهم وغير هذا من المعانى القائمة بذاته تعالى . وأما الحق الثانى فهو ما ادخر وأعد لهم من الجزاء والثواب ، من الجنات والنعيم المختلف الألوان والأفنان . هذا هو ما يحتمل أن يفسر به حق النبى وحق غيره من خلق الله المختارين . فان كان الحق فى هذه الروايه هو الحق الأول القائم بذات الله و بصفاته فالرواية خارجة عن محل النزاع والخلاف . فانه لا خلاف فى أنه يجوز سؤال الله بصفاته وأفعاله ونصره وتأييده . وليس هذا هو ما يريد المخالفون أن يحتجوا له وأن ينصروه ويؤيدوه . وأما إن كان المراد فى الرواية الحق الثانى فيقال عليه:

الحق فى الرواية قد يكون مخلوقا وقد يكون غير مخلوق ودلائل بطلان الأول

إن حق محمد عليه الصلاة والسلام من النعيم والجزاء والثواب هو أشياء مختلفة كثيرة ، ذات أنواع وأضرب والوان وأفنان وعدد . وهذا تشتمل عليه الجنة كله . فنه الحور العين والولدان المخلدون ، ومنه أنواع المأكولات والمشروبات المدخرة من أصناف العيش وغيرها وكل ما هنالك مما ذكر فى القرآن ومما لم يذكر ، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر . و إذا كان هذا

هو الحق الذى سأل به آدم ربه غفر ذنبه فغفر له قيل : وهل يليق أو يمكن أن يسأل نبى الله آدم ربه أن يغفر له ذنبه بما فى الجنة من المأكولات والمشروبات واللذات والشهوات المادية التى أعدت للنبى عليه السلام ؟ أظن أن هذا لن يكون لأنه لا يليق ولا يجدر فعله بمثله . وأحسب أن هذا الرافضى لا ينازع فى أن من القبيح والبرود أن يتوسل آدم إلى ربه بمأكولات الجنة ومشروباتها وبنسائها وغلمانها وولدانها وغير ذلك مما ادخر فيها لعباد الله الصالحين . إذ لا ينازع أحد حسب ما أظن ـ فى قبح هذا النوع من التوسل والسؤال . . . وإذا سلم أن هذا هو المراد فلماذا خص ما ادخر لرسول الله ﷺ فى الجنة دون ما ادخر لغيره فيها ؟ وماالفرق بين سؤال الله بما أعده حقا لمحمد ﷺ ثم وبين سؤاله بما أعده لغيره ؟ إنه لا فرق . . . ثم إذا كان هذا هو المراد فأية فضيلة لرسول الله فى أن سأل آدم ربه بما أعد له فى دار الجزاء ؟ إنه لا فضل ولا فضيلة . . . وإذا كان هذا هوالمراد فما الذى فيه مما يستدعى الإجابة والغفران ؟ إنه لا شئ . ولا شك أن سؤال الله حينئذ بالجنة جملة وبما فيها جميعاً أهدى وأقرب إلى الاجابة والغفر المرجو .

ثم ما معنى سؤال الله بمافى الجنة من المأكولات والمشروبات والجزاء المادى أو الروحى ؟ وما معنى أن يقول القائل : أسألك يا رب بما فى جنتك من مأكولات ومشروبات أن تغفر لى وأن ترحمنى ؟ إن كانت «الباء » فى « بحق» بمعنى « مِنْ » على معنى: أسألك مما فى الجنة خرج الحديث جملة عن محل النزاع والخلاف وصار ظاهره باطلا لأن معناه حينئذ يرجع إلى أنه يسأل ربه أن يعطيه من حق محمد الذى أعد له جزاء عمله وثواب رسالته ودعايته إلى الخير والهدى : وهذا السؤال باطل بالإجماع والضرورة . وإن كانت هذه الباء باء السببية ، وكان المعنى أسألك بسبب ما فى الجنة مما أعد لمحمد كان هذا أيضاً باطلا كل البطلان

قبيحاً كل القبح . » . فما معنى سؤال الله إذن بحق محمد : بحقه المخلوق الذى هو جزاؤه الأخروى المدخر فى الجنات ؟ أليس هذا ما لا يعقل وما لا يستطاع له تأويل وما لا يعرف له وجه فى وجوه العلم والدين والبيان ؟

دلالة الرواية نفسها على كذبها

فالرواية ــ ولا ريب ــ ملفقة مكذوبة تلفيق جاهل وكذب غبى . وفيها شئ يكاد يكون نصا فى اختلاقها وتلفيقها . ذلك الشئ هو قول آدم عليه السلام المذكور فيها : « يا رب إنك لما خلقتنى ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فهذه اللفظة تدل على أن العرش كان فى متناول بصر آدم وأنه كان بحيث يراه و يشهده . وهذا ــ وإن كان واقعاً فى منطقة الإمكان والاحتمال ــ إلا أنه غير المعهود المعروف فى الشريعة وفى نصوصها ومعانيها . فما كان من المعهود فى الدين أن الأنبياء كانوا يشاهدون عرش الله و يرونه . ومحمد ﷺ قد بلغ ليلة الإسراء والمعراج ما لم يبلغ نبى قبله من السمو وقرب المكان والمكانة ، ولكنه لم يبلغ عرش الرحمن ولم يره بباصرته على ما نعلم فى روايات السنة الصحيحة . فما هذه اللفظة أعنى قوله : « فرأيت على قوائم العرش مكتوبا » ؟ أليست هى ميسم الكذب قد وسمت به هذه الرواية ليكون كذبها فيها ، وليكون منها عليها شواهد ؟ ثم أليست من الخطأ الذى فات واضع الرواية وكاذبها أن يخفيه وألا يبديه ؟ بلى لأن الله قد كفل التمييز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والدين وخلاف الدين ، وكفل التفريق بين ما جاءت به الأنبياء وبين ما كذبه الكاذبون الدجالون. والحمد لله رب العالمين .

﴿الشبهة الرابعة توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين﴾

رواية توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين

وأما الشبهة الرابعة ــ وهى قوله : « وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات » : إن الكلمات هى توسله بالنبى . وفى مجمع البيان: إن الكلمات هى توسله بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين » ــ فالجواب أن

يقال : أما ما ذكر أن بعض المفسرين قاله فى تفسير الآية فنحن نحاجه إلى جميع كتب التفسير الصحيحة المملوءة بالآثار و بتفاسير السلف و بالروايات المسندة الصحيحة القوية : نحاجه فى ذلك بتفاسير الطبرى والبغوى وابن كثير والرازى وغيرها من التفاسير السلفية الأثرية التى تفسر القرآن بأقوال السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المتبعين ، والتى تذكر ماتذكر بالأسانيد والروايات المتصلة المعروفة المشرقة : نحاجه بكل ذلك ونقول : إنه لن يجد رواية واحدة تصح إسناداً عن أحد من أصحاب النبى ، أو عن أحد من التابعين المهتدين ، أو عن أحد من أئمة الحديث والفقه أنه فسر هـذه الآية وهذه الكلمات التى تلقاها آدم من ربه بما ذكره و زعمه من التوسل بالنبى عليه الصلاة والسلام . وها نحن نقول هـذا ونتحداه معاجزين له ولسواه من المخالفين ، ونطلب إليهم جميعاً أن يصححوا لنا رواية واحدة عن واحد من هؤلاء السلف . فان فعلوا تبعناهم وصدقناهم ، وإن لم يفعلوا ـــ ولن يفعلوا ـــ فليكفوا عن هذا الضعف والوهن المخجل . بل نحن نقول : إن إجماع السلف على تفسير الآية والكلمات المذكورة بخلاف ماذكروا من الدلائل على بطلان الرواية السابقة فى توسل آدم بحق رسول الله . فان جميع أقوال السلف المروية فى تفاسير السلف والأثر تذكر فى الآية غير ما ذكروا . وليرجع من شاء إلى ما شاء من هذه التفاسير ، لا نخص طائفة دون طائفة ، ولا فريقاً دون فريق آخر .

نحاجه الى جميع المفسرين

نعم نحن لا ننازع فى أن بعض الناس المنحرفين المفكرين بعقول الشيعة والصوفية الغالين قـد فسروا الآية بما زعم الرافضى ، وزعموا فيها مثل مازعم . ولكن أهـل العلم لايعبأون بهؤلاء المفسرين ولا بهاتيك التفاسير . فان الأقوال تعطى من الاحترام والتقدير مثل مالقائليها من ذلك . «وقدر الشهادة قدر الشهود» أما أهل العلم فانهم لايختلفون فى بطلان أمثال هـذه التفاسير والأقوال المريضة

فى كتاب الله .ولا يختلفون فى أن هذه الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليست هى التوسل بمحمد ﷺ ولا بعلى وفاطمة والحسن والحسين ، وليست السؤال بحق رسول الله ولا بحق غيره من الخلق . بل هذه الكلمات هى قولهما : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ، أو هى كلمات من ضمنها هذه الكلمات : إعتذار واستغفار ورجاء وخوف مرير ، وانقطاع لدى بابه تعالى وباب متابه وإحسانه العظيم الشامل طوائف المذنبين إذا تابوا واعتذروا واستغفروا وأعطوا بأيدى العبودية والصغار . ولم يفسر أحد من أهل العلم هذه الكلمات بما زعمه الرافضى ومن نقل عنه . والتفاسير المحترمة الصحيحة ميسورة لمن أحب أن يعرف خطأ هؤلاء القوم . وهذا ــ أى إجماع أهل العلم والايمان على تفسير الآية بخلاف ماذكروا هنا ــ من البراهين لدينا على بطلان الحديث الآنف الذى زعم فيه أن آدم سأل ربه بحق محمد وأن الله غفر له ذنبه لهذا السؤال والتوسل .

وأما ماذكر عن صاحب « مجمع البيان » أن هذه الكلمات التى تلقاها آدم من ربه هى توسله بمحمد وبعلى وفاطمة والحسن والحسين بعد أن رأى أسماءهم مكتوبة على العرش فسأل عنها فقيل له : هذه أسماء أجل الخلق عند الله منزلة ــ فالجواب أن يقال : تفسير « مجمع البيان » تفسير شيعى إمامى رافضى لا يعتد بنقله ولا بعلمه ولا بما يقول . والرواية التى قيل فيها : إن آدم توسل بمحمد وبعلى وفاطمة والحسن والحسين رواية مكذوبة موضوعة ، رواها الدارقطنى وقال تفرد بها عمرو بن ثابت بن هرمز . وعمرو هذا من الشيعة الغلاة الكذابين الوضاعين . وقد حدثوا عنه أنه كان يقول : كفر الناس بعد رسول الله إلا أربعة . وكان من السبابة للسلف . وقد أجمع علماء الجرح والتعديل من أهل الحديث على ضعفه وتضعيفه والقدح فيه . فروايته هذه رواية مكذوبة باطلة بلا ريب . وقد

رواية توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين مكذوبة

ذكرها ابن الجوزى والسيوطى فى الموضوعات . ومما يوهن أمرها مجيئها فى أمر يتعلق بمذهب الشيعة . فعمرو الراوى لها متهم فيها . ويقضى بردها مرة واحدة ما ذكروا فيها أن آدم رأى هذه الأسماء مكتوبة على العرش وسأل عنها فقيل له « هؤلاء أجل الخلق منزلة عند الله ». فإن هذا القول يقضى بأن يكون على وفاطمة والحسن والحسين أفضل وأجل عند الله من آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وهذا لا يذهب إلى القول به إلا من هم أضل الخلق والخليقة .

فهذا الخبر خبر موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث . وعمرو هذا الذى تفرد به كذاب وضاع ضعيف باتفاق أهل الحديث والمعرفة . فلا يصح أن يشاد على مثل هذه الرواية دين ولا اعتقاد ، ولا أن يحتج بمثله فى أبواب الوضوء والحيض وأحكام المياه فضلا عن أن يحتج به على دعاء الأموات والعكوف على القبور وعمل كل هاتيك الآفات الاعتقادية النكراء . والسؤال بحق المخلوقين — على ماذهب إليه المخالفون — باطل عقلا وشرعاً ووجداناً وعرفاً كما ذكرنا فى الكلام على الحديث الذى قبل هذا . فانه لا معنى لأن يسأل الله بحق محمد أو حق آدم أو حق عيسى أو حق موسى أو حق غيرهم من الأنبياء والمرسلين . وليس مثل هذا السؤال مما يوجب أن يجاب الدعاء وأن يقرب الله الداعى وأن يقبل دعاءه وليس له معنى ولا وجه وجيه لا فى الشرع ولا فى العقل . وأنت لو كنت من أعظم الناس وأشدهم تقوى وصلاحاً وديناً ، ومن أقربهم إلى الله منزلة وأحظاهم لديه تعالى وأوسعهم جاهاً . . . فقلت أسألك يارب بحقى عليك كنت قائلا باطلا ولغوا من القيل لا يمت إلى العقل والعلم والذوق والدين بسبب من الأسباب ، ولما كنت سائلا الله بما يوجب أن يستجيب لك وأن يقبل دعاءك وأن يعطيك مسئولك وطلباتك . ولو قلت لأصلح الناس وأتقاهم وأعلمهم بالدين و بمواقع الكلام

السؤال بحق المخلوق باطل شرعا وعقلا ووجدانا وعرفا

أسـألك بحق الأنبياء أو بحق الملائـكة أو بحق الصـالحـين لما كنت ماتا إلى غرضك وحاجتك بسبب صحيح يعطى على مثله ، ولما كان فى هذا المقال والسؤال ما يوجب أن يعطف عليك وعـلى حاجتـك بالقضاء والانجاز . ولهـذا لانجد العالمين العارفين بمواقع القول ووجوهه وأغراض الناس ونفوسـهم يحاولون أن يصلوا إلى حاجاتهم وقضاء مآربهم بهذا التوسل وهذا السؤال . فلا نجـد أفصح القائلين وأعقل المفـكرين يقول لمن يسأله ويستجديه حاجـة من الحـاجات : أسألك بحق الملائـكة أو حق الأنبياء أوحق الصالحين والأبرار أوحق غيرهم من عباد الله . وهذا لأن السؤال بهذا الحق وهذا التوسل ليس من الأسباب التى يجاب بها السؤال والطلب وتنال بها الحاجات . فمن سأل الله أو سأل غيره بحق مخلوق فقد سأل بأمر أجنبى بعيد عنه وعن حاجته . فمن قال أسألك يارب بذات محمد ﷺ أو بجاهه أو بكرامته أو بعلمه وتقواه وحسن خلقـه كان كمن يقول : أسألك بالـكعبة أو بمـكة أو بالمدينة ، أو ببيت المقدس أو أتوسل إليك بأحجار تلك الأبنية وبنيانها وترابها . ومن سأل الله بهذه المواضع المعظمة المشرفة كان كمن سـأله تعالى بالأيام والأوقات والليـالى المعظمة المفضلة مثـل أن يقول : أسـألك يا رب بيوم الجمعة و بأيام عشر ذى الحجة ، و بأيام رمضان ولياليه وأيام الحج وبالأشهر الحرم وبالأيام المفضلة كلها . ومن سأل الله بهذا كله وتوسل إلى حاجته بهذه الأيام والأوقات والأماكن كان كمن سأله تعالى بتراب الجنة وبنيانها وأحجارها وأشجارها ومائها ومافيهـا من مأكولات ومشروبات وقصور وديار ولذاذات . . . ومن ذهب يسأل الله بهذا كله ، أو قال إن من الدين سؤال الله به كان من أنقص الناس ذوقا وعقلا ورأيا ، وأركهم اختياراً وفهما . ولايختلف أهل البصر بالاسلام فى أن هذا كله خلاف الدين وخـلاف الضروريات الدينية ، ولا ريب أن التوسل والسؤال بعلم الأنبياء وتقاهم وأخلاقهم مثل السؤال بجاههم

وهذا مثل السؤال بالأيام المفضلة

وبحقوقهم وبركاتهم وذواتهم . ولكن لاريب أن سؤال الله والتوسل إليه بذلك — مثل أن يقال أسألك يارب بعلم الأنبياء وبأخلاقهم وتقاهم وشرفهم ونجابة أصولهم وطهارة نفوسهم وأعراقهم — سؤال باطل بارد ، وتوسل مردود شرعاً وعقلا وذوقا . وفساد أمثال هذا معلوم من الأديان السماوية بالضرورة والبداهة . وذلك أنه يقال لهؤلاء المخالفين المنحرفين : ماذا ترون ؟ أترون أنه يجوز سؤال الله بكل عظيم محبوب لديه تعالى من المخلوقات كلها ، أم تقولون : لا ، بل لا يجوز سؤاله تعالى ولا التوسل إليه الا ببعض ذلك ؟ فان قلتم بالأول قلنا : هذا يقضي بأن تجوزوا سؤال الله بالأيام والشهور وبالليل وبالأحجار والأشجار والتراب والمأكولات والمشروبات وبغير ذلك مما عظمه الله وشرفه بوجه من وجوه التعظيم والتشريف، مثل أيام الجمعات وأيام الحج وأيام رمضان ولياليه وليالي الاشهر الحرم وأيامها وتراب الجنة وأحجارها وأشجارها وقصورها وأنهارها ومائها وكل ما فيها ، ومثل أحجار المدينة المنورة وترابها وأشجارها وبيوتها ، ومثل أحجار مكة وترابها وغبارها وبيوتها وصيدها وكلئها ونباتها وكل مافيها ، ومثل بيت المقدس كله وكل ما فيه بل وكل ما أقسم الله به في كتابه مثل الليل والنهار والشمس والقمر والضحى ووالد وما ولد ، ومثل العصر ، ومثل العاديات والمغيرات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات والذاريات والحاملات والجاريات والصافات والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين والسماء والطارق والنجم إذا هوى والفجر وليال عشر والشفع والوتر، والقلم وما يسطرون وما تبصرون ومالا تبصرون وغير ذلك مما أقسم الله به في كتابه . فان إقسام الله بالشيء تعظيم له ، فيقضي هذا بأن يكون من الاسلام ان يسأل الله بذلك كله وأن يتوسل إليه بجميع ماذكر . وهذا لا يقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم . اما إن قالوا : إنه لا يصح سؤال الله

ومن هذا جوا التوسل الى الله بكل شيء في الارض أو في السماء

بكل عظيم محبوب لديه ، بل لا يسأل الا بما ورد النص به بلا قياس ولا زيادة،

اعتراض فى الخبر وجوابه

قيل إنكم أنتم تزعمون أنه يجوز التوسل بالأولياء والأشياخ الموتى ، وأنه يجوز سؤال الله بجاه الصالحين وبكراماتهم وحقوقهم وحرماتهم وبذواتهم . وهذا كله لم يرد فيه نص لاصحيح ولا ضعيف ، وأنتم تسألون بجاه النبى وحقه وكرامته وحرمته وذاته . وهذا لم يأت فيه خبر ألبتة لا صحيح ولا ضعيف . وإنما جاء التوجه به على وجه العموم والاجمال والاطلاق كما فى حديث الأعمى الآتى ، وجاء التوسل به وبالعباس على وجه الاطلاق والاجمال أيضاً كما فى حديث الاستسقاء بالعباس الآتى القول فيه أيضا ، وجاء سؤال آدم بحق رسول الله كما فى الحديث الموضوع الآنف . وغير هذا لم يجىء فيه خبر ألبتة . فكان اللازم الواجب على القوم ان يقفوا حينئذ عند ماجاء له نص : لا يزيدون ولا ينقصون ، ولا يتقدمون أو يتأخرون أو يقيسون .

التحقيق ان السؤال بالجاه ونحوه من الامور التى ابتدعها الجهال

فالتوسل والسؤال بالحق والكرامة أو بالحرمة أو بالذات أو بالجاه أو نحو ذلك من الأمور المبتدعة المحدثة فى الاسلام التى أحدثها وابتدعها الجهال الأغبياء والعوام الذين يجهلون مواقع الكلام وأساليبه ، والذين يجهلون حقائق ما جاء به النبيون والمرسلون . . . أما دين الله الحق فبعيد عن هذا الهراء كل البعد ، منزه عنه وعن قائليه ومنتحليه كل التنزيه . ولهذا لم يجئ شئ منه فى كتاب الله ولافى سنة رسوله الصحيحة الثابتة . ولا جاء عن أحد الأصحاب بسند ثابت صحيح ، ولا عن أحد الأئمة العارفين بدين الله حق المعرفة..ولو أنك فليت كتاب الله حرفاً حرفا ، وسطرا سطرا ، وآية آية ، وفليت السنة الصحيحة حديثاً حديثاً ورواية رواية لما وجدت أن أحداً من أنبياء الله أو من عباده الصالحين الأبرار أو من غيرهم سأل الله بحق مخلوق أو بجاهه أو بحرمته أو بكرامته أو ببركته . . . وإنما نجد عباد الله الصالحين من الأنبياء فمن دونهم يدعون ربهم ويسألونه وحده

بلا وسيط ولا وسيلة سوى إيمانهم وتقاهم وأعمالهم الصالحة المبرورة . وهذا بين واضح، وهذا ما نص عليه الله فى كتابه بقوله : «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» ولم يقل : ادعوه بجاه فلان أو كرامة فلانة أو بحق محمد أو حرمة إبراهيم مثلا . بل قال : ادعوه بأسمائه الحسنى و بصفاته . وعباد الله يدعون الله دون سواه : لا يدعونه بسوى ذاته وصفاته وأفعاله . والله وحده الهادى إلى سواء السبيل وصراطه المستقيم .

الكلام على حديث الأعمى سنداً ومتناً

﴿ الشبهة السادسة حديث الأعمى المشهور ﴾

أما هذه الشبهة فنقول : قال أبو عيسى الترمذى فى جامعه من أبواب الدعوات: حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : ادع الله أن يعافينى ، قال : « إن شئت دعوت و إن شئت صبرت فهو خير لك » قال فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ وأن يحسن وضوءه و يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة .يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى . اللهم شفّعه فىّ » . هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطمى . هذا لفظ الترمذى .

وقال ابن ماجه من سننه فى باب ما جاء فى صلاة الحاجة : حدثنا أحمد بن منصور بن سيار حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدنى عن عمارة ابن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى عليه الصلاة والسلام . وذكر الحديث كما ذكره الترمذى إلا أنه قال فيه : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، و يصلى ركعتين . ورواية الترمذى ليس فيها ذكر صلاة الركعتين .

وقال ابن السنى فى كتاب عمل اليوم والليلة : أخبرنى أبو عروبة حدثنا العباس بن فرج الرياشى والحسين بن يحيى الثورى قالا : حدثنا أحمد بن شبيب ابن سعيد قال : حدثنى أبى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر المدنى — وهو الخطمى — عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف قال سمعت رسول الله وجاء رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال رسول الله : « ألا تصبر ؟ » قال : يارسول الله ليس لى قائد وقد شق على . فقال النبى عليه السلام : « ائت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم إنى أسالك وأتوجه إليك بنبيى محمد ﷺ . يانبى الرحمة يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى عز وجل فتجلى عن بصرى . اللهم شفعه فىّ وشفعنى فى نفسى » . قال عثمان . وماتفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل كأنه لم يكن ضريراً قط . ورواه الامام أحمد فى المسند من حديث روح بن عبادة عن شعبة عن أبى جعفر المدينى عن عمارة بن خزيمة ابن ثابت عن عثمان بن حنيف . الحديث ، وفيه ذكر الصلاة والدعاء ، وقال فى آخره « وتشفعنى فيه وتشفعه فىّ » وفى آخره : « ففعل الرجل فبرئ » . وروى الحديث أيضاً البيهقى فى دلائل النبوة والحاكم فى المستدرك والطبرانى فى المعجم ورواه آخرون من أهل السنن والمسانيد والمعجزات غير أن صاحبى الصحيحين البخارى ومسلماً أعرضا عنه ولم يروياه .

سياق استدلال الضالين بهذا الحديث على اكل الوجوه

والحديث هذا من شبهات القوم وحججهم على باطلهم وعلى جواز دعوة الأموات والاستغاثة بهم وعلى جواز التوسل والسؤال بذوات الأنبياء وذوات الصالحين وعلى جواز كل مايأتون به حول القبور من الضلالات والجهالات . أما استدلالهم به على جواز دعاء غير الله من الأموات والغائبين فمن أمر النبى عليه السلام ذلك الضرير بعد الوضوء والصلاة أن يدعو وأن يقول فى دعائه : « يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى » . وأما استدلالهم به على جواز

التوسل والسؤال بالذوات وبالأنبياء والصالحين وبالميتين فمن أمره عليه السلام الضرير أن يقول فى دعائه : « وأتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة . يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى » . فنى قوله : « يامحمد » جواز دعوة الغائبين ، لأن الرسول أمره أن يدعو بهذا الدعاء وهو عنه غائب . وإذا جاز دعاء الغائبين جاز دعاء الميتين ولافرق . وفى قوله : «أتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة .. إنى توجهت بك إلى ربى» جواز السؤال بمحمد ﷺ . وإذا جاز السؤال به جاز السؤال بذاته وبحقه وجاهه وحرمته وكرامته . وإذا جاز السؤال والتوسل بهذا كله من النبى عليه الصلاة والسلام جاز ذلك بغيره من الأنبياء والصالحين ولا فرق . فالحديث دليل واضح ناطق ، وبرهان قائم جلى على جواز دعاء الأموات من الأنبياء والصالحين وعلى جواز التوسل والسؤال بهم وبذواتهم وحقوقهم وحرماتهم وكراماتهم . فالذين يمنعون شيئاً من هذا مخالفون لهذا الحديث الصحيح محجوجون به بلاريب ولا مرية .

هذا والحديث قد رواه جماعات من أئمة الحديث والفقه والدين ، وعدوه من معجزات النبى عليه السلام وكراماته على ربه . وقد صححوه ووضعوه فى كتب جيدة محترمة سامية المكانة والشأن بين كتب الحديث والدين والسنة ودواوين الاسلام . وقد تلقاه المسلمون عنهم فى كل العصور بالقبول والرضا والاطمئنان والثقة البالغة . وقد عمل به وبمافيه طوائف منهم من السلف والخلف. كل هذا قد كان ووقع . وماقام هنا اعتراض ولا ارتفع صوت بالانكار والنقد ، ولا قال لهم قائل : إنكم خالفتم الاسلام أو أشركتم أو ابتدعتم أو فعلتم ما تأباه روح الدين أو نصوصه . ولا حاول صيرف من صيارفة الحديث ولا فارس من فرسانه أن يطعن فيه سنداً أو متناً ومعنى . وقد مضى عليه من الزمان ما يقارب ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن والألسنة تدرسه ، والقلوب تعيه وتعقله ، والدواوين تحفظه

والقرون تصقله ، والمسلمون مجمعون متفقون عليه وعلى صحته مطمئنون به واثقون، راضون كل الرضا . . . فكيف يسوغ أن يشك فى مثل هذا ؟ أو كيف يجرح أو يرد أو يكذب ؟ إذن هو حديث صحيح الاسناد صحيح المعنى ، مشرقهما وباديهما . . . هذا كله ما يمكن وما يصح أن يقوله المستدلون بالحديث على ما هم فيه من باطل وجهل وضلال وبدع سود قاتمة اللون والوجه .

والجواب أن يقال : إن الكلام على الحديث من ناحيتين : ناحية الاسناد، وناحية المعنى . فاذا صح الاسناد ، وكان المعنى فى متنه ولفظه ما ذكروه قامت حجتهم ونهضت دعواهم وإلا فلا . ونحن نورد ما نستطيع من الكلام فى الناحيتين.

﴿ إسناد الحديث ﴾

الكلام على سند الحديث

أما الاسناد فهو أول ما يجب أن يكون الكلام فيه . فان الاعتقاد وأمره أغلى ما عند المؤمن ، فلا يجوز ـ والحالة هذه ـ أن يتركه عرضة للأخطاء والباطلات ولا أن يدعه فى مهب الضلالات والجهالات ، ينلن منه ويتبصرفن فيه . فلا جرم أن وجب على العاقل ألا يعتقد إلا ما كان صحيحاً ثابتاً . أما الضعيف والباطل والمرغوب عنه فلا يحسن بمن لا يرضى لنفسه ولدينه وعقيدته إلا الصحيح القوى، أن يعبأ به وأن يباليه وأن يقيم له وزناً .

وإسناد هذا الحديث فى جميع طرقه عند جميع رواته قد انفرد به راو واحد ، هذا الراوى هو أبو جعفر الذى روى الحديث عنه شعبة عند ابن ماجه والترمذى والامام أحمد ، والذى روى الحديث عند هؤلاء الثلاثة عن عمارة بن خزيمة بن ثابت . وقد قال أبو عيسى الترمذى كما تقدم بعد روايته الحديث : غريب لا نعرفه إلا من حديث أبى جعفر . أما الذين رووه عن أبى جعفر هذا فشعبة عند الترمذى وابن ماجه وأحمد ، وروح بن القاسم عند ابن السنى وعند البيهقى والحاكم ، ورواه عن شعبة عثمان بن عمر عند الترمذى وابن ماجه

وروح بن عبادة عند أحمد والبيهقى ، ورواه عن روح بن القاسم شبيب بن سعيد عند ابن السنى والبيهقى ، ورواه عن شبيب ابنه أحمد عند ابن السنى . ورواه عن عثمان بن عمر محمود بن غيلان عند الترمذى وأحمد بن منصور بن سيار عند ابن ماجه وغيرهما عند غيرهما . ورواه عن محمود بن غيلان الترمذى مباشرة ، وعن أحمد بن منصور بن سيار ابن ماجه مباشرة ، ورواه عن روح بن عبادة الامام أحمد مباشرة . ورواه عن أحمد بن شبيب العباس بن فرج الرياشى والحسين بن يحيى الثورى عند ابن السنى ، ورواه عنهما أبو عروبة الحرانى شيخ ابن السنى . وقد روى من طرق أخرى . فالحديث إلى أبى جعفر هذا صحيح السند لاغبار عليه . فلا كلام للناقد فى هذا الاسناد حتى يصل أبا جعفر الذى قيل : إنه الخطمى وقيل إنه غير الخطمى . وقد رأى القارئ أن أبا جعفر هذا رواه عند الثلاثة الترمذى : وأحمد وابن ماجه عن عمارة بن خزيمة ابن ثابت عن عثمان بن حنيف الصحابى شاهد القصة . وعمارة هذا ثقة لا كلام فيه . وقد زعم ابن حزم فى « المحلى » أنه مجهول لا يعرف كما فى تهذيب التهذيب ، ولكن هذا لا يضيره لأن غير ابن حزم عرفه ووثقه . وعثمان بن حنيف صحابى جليل لا كلام فيه أيضاً للناقد . وقد تابع عمارة بن خزيمة فى روايته عن ابن حنيف أبو أمامة ـ واسمه أسعد ـ ابن سهل بن حنيف ابن أخى عثمان بن حنيف ، رواه عن عمه عثمان عند البيهقى وابن السنى والحاكم والطبرانى . فيكون أبو جعفر هذا رواه عن عمارة بن خزيمة وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف . فالحديث إذن لا يكون غريباً إلا عند أبى جعفر المذكور ، ولا ينفرد به سواه ، وسوى الصحابى عثمان بن حنيف . أما ما بين ذلك فالرواة متعددون . وانفراد عثمان بن حنيف لا يضير الخبر لأنه صحابى جليل . فالكلام هنا يجب أن يقصر على أبى جعفر هذا ، الترمذى ، كما تقدم نقول إنه غير الخطمى ، والأكثرون يذكرون أنه الخطمى .

الحديث فى طرقه غريب انفرد به أبو جعفر هذا

والغريب أن اسمه لم يقع مصرحاً به — فى ما نعلم — فى واحدة من الروايات . فمن الخطمى إذا كان هو إياه ؟ ومن هو إذا كان سواه ؟

من ابو جعفر إذا كان هو الخطمى

أما أبو جعفر الخطمى فهو عمير بن يزيد بن عمير بن حبيب الأنصارى المدنى ثم البصرى . وهو ثقة من رجال الأربعة . قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب : وثقه النسائى وابن معين، وذكره ابن حبان فى « الثقات »، وأثنى عليه ابن مهدى ، ووثقه أيضاً العجلى وابن نمير والطبرانى . قال ابن حجر : وقال أبو الحسن بن المدينى هو مدنى قدم البصرة وليس لأهل المدينة عنه أثر ، ولا يعرفونه . والخطمى مع هذا نزر الرواية قليل التحديث والحديث ، ومن ثم وقع الاختلاف فيه فى هذا الخبر .

فأبو جعفر هذا إن كان هو الخطمى كما ظنه غير الترمذى — فالحديث فى درجة متوسطة من الصحة والجودة ، لا يبلغ مكانة أحاديث البخارى ومسلم ولا ينزل الى أن يكون ضعيفاً باطلاً مردوداً ، وإنما هو كالأحاديث التى يصححها أمثال الترمذى وابن خزيمة والحاكم وابن حبان وغيرهم ممن عندهم نوع تساهل وإغماض فى التصحيح ونقد الأخبار . ولأجل هذا صح للشيخين البخارى ومسلم أن يعرضا عَنْ روايته فى كتابيهما وأن يرغبا عنه لقصوره عَن أن يبلغ درجة ما يضمان فى صحيحيهما اللذيْن لا مثيل لهما فى كتب السنة بل فى كتب الرواية مطلقاً .

اختلاف اهل الحديث فى كونه الخطمى او غيره

هذا إن كان أبو جعفر هذا هو الخطمى ولكن وقع اختلاف كما تقدم : فالترمذى يقول فى جامعه بعد تخريجه الحديث : إنه غير الخطمى. وابن حجر العسقلانى يميل فى التقريب » — على قول صاحب صيانة الانسان — إلى أنه غير الخطمى كالترمذى ، ويرجح أنه أبو جعفر عيسى بن ماهان الرازى التميمى الذى ضعفه قوم ووثقه قوم آخرون . وقد ذكر فى كتابه تهذيب التهذيب ما يدل على أنه

مرجح كونه غير الخطمى . وذلك أنه قال من التهذيب فى من يكنون أبا جعفر :
« أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة، وعنه شعبة . قال الترمذى ليس هو الخطمى »
ولم يزد على هـذا ولم ينكر على الترمذى ما حكاه عنه . فكأنه يميل إلى
الأخذ بقوله . وعند ما ذكر ترجمة الخطمى من التهذيب لم يتعرض لهذا الخلاف
ولم يذكر أنه هو الذى روى هـذا الخبر عن عمارة بن خزيمة مع أنه معروف
التعقيب على مايراه يستحق ذلك . فالظاهر من مجموع هذا أنه يميل إلى موافقة
الترمذى فى القول بأنه غير الخطمى . . . هذا قول الترمذى ومن فى جانبه .
أما الأكثرون فقد ذكروا أنه هو الخطمى عينه . هكذا وقع فى كثير من
الكتب التى روى الحديث فيها . وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا
الرأى الأخير .

لا يمكن لنشدان العرفان

إذن فالخلاف قائم بين أهل الحديث فى أبى جعفر راوى الحديث . فمن لنا
بالاهتداء إلى الحق المنشود ! وبأى أسلوب نستطيع أن نعثر على الصواب
والرشد فى هذا الخلاف ! هذا مالا بد منه، ومالا غنى عنه، ومالافرار من محاولة
نشدان العرفان فيه . وإلا فإن الذين يكنون أبا جعفر كثيرون، منهم الثقات،
ومنهم غير الثقات . فلا محيص من التمييز حذار الوقوع فى رواية غير الثقات .
والدين أغلى وأعلى من أن يكتفى فيه بالروايات المبهمة بحيث لا يعرف الثبت من
غير الثبت .

هل يمكن ترجيح أحد الرأيين على الآخر وكيف ذلك

قد يقول قائلون : إنه يجب إسقاط خلاف الترمذى ومن معه فى هذا
الخلاف لأنهم لم يعلموا أن أبا جعفر هذا هو الخطمى أو غيره . وغاية الأمر أنهم
وجدوا الراوى عن أبى جعفر يقول حدثنا أبو جعفر فظنوه غير الخطمى فقالوا
إنه غيره . ولكن قولهم هذا غير حجة لأنه قائم على الظن والتوهم والحسبان .
والحجة فى قول غيرهم من الذين رووا الحديث وصرحوا بأنه هو الخطمى كما وقع

مصرحاً به عند ابن أبي خيثمة في التاريخ، وعند الطبراني في المعجم، وعند الحاكم في المستدرك ، وعند ابن السني في عمل اليوم والليلة . فان هؤلاء قد صرحوا بأن راوي الحديث هو الخطمي عينه . وهم ماقالوا ذلك إلا لأنهم علموا أو حدثوا أنه هو نصاً لا توهماً وحسباناً

إن قال قائلون هذه المقالة و رجحوا هذا الرأي على رأي الترمذي ومن معه وعدوه المصير الصحيح اللازم المصير إليه علماً و بحثاً وتحقيقاً، قيل في الجواب : كلا ، إنه لا يجب اطراح قول أبي عيسى الترمذي هكذا ، ولا الذهاب إلى تخطئته جزافا وقولا واحدا ، إذ لو صح لنا أن نقول : إنه ظنه غير الخطمي فقال : إنه غيره بلا دليل سوى الظن والتوهم والحسبان المحض لصح لنا أن نقول : إن هؤلاء الذين صرحوا في كتبهم بأنه هو الخطمي نفسه ليس لهم من دليل أيضاً سوى التوهم والظن والحسبان . وهذا قريب جداً . وذلك أنهم وجدوا أبا جعفر في الإسناد مجرداً مطلقاً مما يمكن أن يعينه ، فوثب إلى توهمهم وأوهامهم أنه الخطمي فصرحوا بما توهموه وحسبوه ، لا بما علموه وسمعوه ، وهذا يحتمل في الترمذي كما يحتمل في الآخرين المخالفين له ، وإن كان يبدو للمتأمل جيداً تقديم ما ذهب إليه الترمذي وترجيحه . وذلك أنه من البعيد للغاية أن يصرح عالم بالحديث ، كالترمذي مثلا ، بأن هذا ليس هو هذا انسياقا وراء الظن المجرد والحسبان الباطل . لأنه إذا لم يكن لديه سوى الظن والتوهم كانت منطقة السكوت أرحب وأوسع ! وما أبعد أن يقع اسم أو كنية بين يدي ناقد بصير مثل الترمذي فيقول مبادراً : إن صاحب هذا الاسم أو هذه الكنية ليس هو فلانا ممن يسمون ذلك الاسم بلا حجة و برهان غير الظن البحت . . . أما من قالوا إنه هو الخطمي فمن القريب للغاية أن يسمعوا الراوي يقول : حدثني أبو جعفر ، فينساق بسرعة إلى أذهانهم وأوهامهم أنه هو الخطمي أو غيره ممن يكنون هذه الكنية ،

ولأن اللسان والجنان كثيراً ما يندفعان إلى مثل هذا اندفاعاً، وينطلقان إليه انطلاقاً آلياً أو شبه آلى. والأمر بين لمن تدبره جيداً، ولمن رزق فهماً وإنصافاً وإنفلاتاً من ربقة التقليد والاحتذاء المكروه الجاهل.

وإذن لا يسوغ لناشد المعرفة والحقيقة أن يبادر إلى الحكم بتخطئة الترمذى زاعماً أنه الخطمى قولا واحداً، بل يجب عليه على الأقل التريث والتوقف ما لم ينبثق له فى هذه الظلمة شعاع من نور. ولا سيما أن هذا الراوى المختلف فيه لم يتابعه أحد على روايته الحديث عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف، بل انفرد به فى جميع الأسانيد والروايات. وهذا مايزيد الباحث الحريص على الحقيقة والمعرفة توقفاً وتريثاً. ولاسيما أن الحديث وارد فى مسألة كهذه المسألة لها من الخطورة والخطر مالها.

هنا أمران القول بأنه غير الخطمى وتجويز أن يكون إياه وأن يكون غيره وعلى الامرين

وإذا وصلنا إلى هذا الدور من البحث وجدنا أمامنا أمرين لا مندوحة لنا من اختيار أحدهما: أحد الأمرين أن نذهب، قولا واحداً، إلى أن هذا الراوى ليس هو الخطمى كما قال الترمذى وكما رجح الحافظ ابن حجر على ما سبق. وثانيهما أن نلتزم التوقف وتجويز كلا الاحتمالين والقولين ربما يقد لنا قبس من نور فى هذه الدجنة نتلمس به حقيقة ما غُمّ علينا وعلى الباحثين. وعلى الاحتمالين والقولين لا يصح لنا أن نبادر إلى القول بصحة الحديث وإلى الأخذ به حتى نأمن من أن يكون هذا الراوى راويا ضعيفاً متروكا منهوكا مردود الرواية، معروف الضعف والوهن. وما دمنا مجوزين أن يكون الخطمى وأن يكون غيره فلا سبيل إلى الضمان من أن يكون ضعيفاً ذاهب الحديث حتى نعلم أن جميع من يكنون هذه الكنية ممن هم فى هذه الطبقة ثقات أثبات كلهم. أما إذا ذهبنا إلى القطع بأنه غير الخطمى فقد يحتمل أن يكون راويا ضعيفاً، وكذلك إذا جوزنا أن يكون إياه وأن يكون غيره ــ لأنه لا سبيل إلى القطع

بأنه هو قولا واحداً إلا لمن كان متسرعاً إلى ما يجب التأنى والبطء فيه . وما دام هذا الاحتمال موجوداً فلا شك أن العمل بالحديث باطل مردود . ومن ثم ذهب المحدثون إلى أن رواية المجهول غير مقبولة ولا صحيحة لاحتمال أن يكون ضعيفا ، وذهبوا إلى أن الحديث المنقطع ضعيف أيضاً لجواز أن يكون الراوى الساقط من الاسناد ضعيفا ، وأجمعوا على أن الخبر المنقول بلا إسناد لا يجب العمل به ولا يكون حجة فى الدين حتى يعلم إسناده . لجواز أن يكون رواته ضعفاء . وهذا بين . وقد ذهبوا إلى أكثر من هذا كله ، محافظة على السنة والدين واحتياطاً من الضعف والكذب ومن التدين بالضعيف والمكذوب وبما لم يصح عن النبوة الخاتمة الصادقة .

من شروط المحدثين لصحة الحديث ومن احتياطهم الغريب

وقد أجمعوا أيضا على أنه إذا جاءت رواية باسم مشترك بين ثقات وضعفاء فاحتمل أن تكون الرواية رواية ضعيف ، واحتمل أن تكون رواية ثقة ، وجب طرح تلك الرواية ولم يحلل العمل بها قولا واحداً . مثل ذلك أن يقول الراوى الثقة المعروف : حدثنا أحمد ، وكان اسم أحمد هذا مشتركا بين راو ثقة ثبت وبين آخر ضعيف ، ولم يقم دليل على أنه أحدهما . فمثل هذه الرواية لايجوز عند حملة الحديث والسنة العمل بها ولا القول بصحتها . ومثله قول شعبة بن الحجاج ــ وهو الامام الحجة ــ فى هذا الحديث : حدثنا أبو جعفر ، أو عن أبى جعفر . فان شعبة إمام حجة ولا شك . ولكن الذين يكنون بأبى جعفر ممن يحتمل ويمكن أن يروى عنهم شعبة غير واحد ، منهم الضعفاء ، ومنهم الثقات الأثبات ، ومنهم مقبولو الحديث ، ومنهم مردودوه ، فى حين أنه لم يظهر لنا هذا الذى روى عنه شعبة الحديث . هذا كله صحيح عند أعلام النقد وعلماء الرواية وفرسان الفن . وأكثر منه وأدل على الدقة والتمحيص البالغ أن شيوخ هذا الشأن وأساطينه ذهبوا إلى أن الثقة إذا قال : حدثنى الثقة ، ولم يذكر اسمه ولا من يكون ، لم يقبل

حديثه ولم يكن صحيحاً لديهم فى علمهم . وذلك لاحتمال أن يكون ثقة عند الراوى عنه لأنه لم يعلم ضعفه ، غير ثقة عند سواه من المحدثين لأنهم علموا ضعفه وعلموا مالم يعلم موثقه من أمره وحاله . ومن ثم ذهبوا إلى أن قول الامام مالك رضى الله عنه فى الموطأ : حدثنى الثقة ، لايقضى بأن يكون ثقة عندهم حقيقة ؛ ولا يقضى بأن يكون حديثه الذى روى بالإبهام والابهام صحيحاً حتى يعلموا من هو ذلك الراوى المبهم الثقة عند الراوى عنه ، أو يعلموا للحديث سنداً آخر معروف الرواة مسماهم . وذهبوا إلى أن الأحاديث التى يذكرها هو وغيره عن النبى عليه الصلاة والسلام بلا أسانيد مثل أن يقول : صح عن النبى كيت ، وقال النبى كذا . ليست صحيحة مطلقا ولا يجب العمل بها لمجرد هذا النقل . ومثل هذا وأبلغ منه فى الحيطة للسنة أنهم لم يقبلوا الأخبار التى يعلقها البخارى فى الصحيح بلا إسناد ، مع علمهم شروط البخارى وشدتها وقوتها ، بل عندهم أنه لايجب العمل بها حتى يعلم إسنادها وحاله . ومن ثم نجد شراح البخارى ، كالعسقلانى وسواه ، يتصدون لتخريج هذه الأحاديث المعلقة وتبيان حالها ، وقد يميلون حيناً إلى تصحيحها ، وهو الأكثر وأحياناً إلى القدح فيها وتضعيفها وهو الأقل . ولهذا كله احتاج المسلمون إلى الأسانيد والعناية بها و إثباتها ؛ وقد جعلوها من الدين . ولم يكتفوا بأن يقول العالم المحدث الثقة : صح عن النبى كذا وصح عن أصحابه كيت ، بل وجدوا أن هذا لايجدى ولا يهب الحيطة المطلوبة والعلم المطلوب . فما ألف البخارى صحيحه بلا أسانيد ، ولا ألف مسلم صحيحه كذلك بلا أسانيد ، ولا أحمد مسنده محذوف الأسانيد، ولا غيرهم من أعلام الرواة وعلماء الحديث . بل ذكروا جميعاً الاخبار والأحاديث بالأسانيد ليكون لمن جاءوا بعدهم من المسلمين الاختيار الصحيح النزيه ، والاجتهاد الفاحص ، والنظر المدقق ، والعلم الذى لايحد إلا بحدود البشرية وحدود العقل : فيكون لكل من جاءوا بعدهم ـ إذ استطاعوا واستوفوا

لماذا ألف كتب الحديث بالاسانيد

الآلة ـ أن يصححوا وأن يضعفوا وأن ينقدوا وأن يقولوا : هذا صحيح وهذا ضعيف . وقد كشفوا ـ نضر الله وجوههم ـ أحوال الرواة و بينوا قواعد الرواية ودونوا ما يشتملون عليه من صحة وضعف ، ومن دين ومروق ، ومن قوة و وهن ليكون فى كل ذلك النبراس اللماع الوهاج لمن راحوا يسرون و يدلجون فى ليل الجهالات والضلالات والشكوك والأكاذيب المبثوثة فى كل سبيل وعلى كل مرصد ـ متخطين ذلك كله إلى مناهل الحقيقة الواحدة ، وموارد الايمان والعرفان والصدق .. حتى خلفوها بيضاء واضحة الأعلام والمعالم ،لايتيه فيها إلا تائه هالك ولا يعمى عنها أو فيها إلا من استحب العمى على الهدى، وآثر الظلام على النور بعد أن باع هداه لهواه وعقله لجهله : هذا كله صحيح عند أهل الحديث الذين حفظ الله بهم العلم والسنة ، وأبان بهم كلام النبوة الصادقة من كلام الدجالين والوضاعين .

ذكره مسلم فى مقدمة صحيحه من نقد الرواية والرواة

ومن طالع مقدمة الامام مسلم فى صحيحه رأى العجب العجيب من أقوال أئمة الحديث وشيوخ السنة فى التعظيم لأمر الروايةوالرواة وفى الحذر من الكذب والكذابين ، وفى الحملة الشديدة الصلبة القاسية على من طاروا فرحاً وسروراً بكل ماسمعوه من الأخبار زاعمين أنه من كلام النبوة ومن دين الله . وقد ذكر هذا الامام فى مقدمة الصحيح بعنوان : « باب النهى عن الرواية عن الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم » بسنده عن عامر بن عبدة قال قال عبد الله : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب ، فيتفرقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما اسمه . و روى أيضا بالسند الصحيح عن طاوس قال : جاء بشير بن كعب إلى ابن عباس فجعل يحدثه،فقال له ابن عباس :عد لحديث كذا وكذا . فعاد له ، ثم حدثه فقال له : عد لحديث كذا وكذا فعاد له ، فقال له : ماأدرى أعرفت حديثى

كله وأنكرت هذا ؟ أم أنكرت حديثى كله وعرفت هذا ؟ فقال له ابن عباس : إنا كنا نحدث عن رسول الله إذ لم يكن يكذب عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه . وروى أيضا بالاسناد عن ابن عباس قال : إنما كنا نحفظ الحديث والحديث يحفظ عن رسول الله ، فلما إذ ركبتم كل صعب وذلول فهيهات . ثم روى عنه رواية أخرى جاء فيها : قال فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال : يا ابن عباس مالى أراك لا تسمع لحديثى ؟ أحدثك عن رسول الله فلا تسمع . فقال ابن عباس : إنا كنا إذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف . وقد روى مسلم فى فاتحة هذا الباب بالاسناد الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم . فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم » . وقد ذكر فى المقدمة قبل هذا الباب بابا آخر عنوانه : « باب النهى عن الحديث بكل ما سمع » فروى فيه قوله ﷺ « كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع » . وروى فيه أيضا أن عمر بن الخطاب قال : بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع . ورواه عن عبد الله . وروى فيه عن الامام مالك أنه قال : اعلم أنه لا يسلم رجل حدث بكل ما سمع ، ولا يكون إماما أبدا وهو يحدث بكل ما سمع . وروى عن عبد الرحمن بن مهدى مثله .

التحديث بكل ما سمع

ثم عقد مسلم فى مقدمة الصحيح بابا آخر عنوانه : « باب فى أن الاسناد من الدين » فروى فيه بالسند عن محمد بن سيرين قال : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . ثم روى عنه أيضاً أنه قال : لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم . ثم روى عن ابن أبى الزناد

الاسناد من الدين

عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة ، كلهم مأمون مايؤخذ عنهم الحديث ، يقال ليس من أهله . ثم روى عن مسعر قال سمعت سعد بن إبراهيم يقول لايحدث عن رسول الله إلا الثقات . ثم روى عن عبد الله بن المبارك أنه قال : الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء ماشاء. ثم روى عن العباس بن رزمة قال سمعت عبد الله يقول : بيننا و بين القوم القوائم ، يعنى الاسناد . ثم روى عن أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقانى قال : قلت لعبد الله بن المبارك ياأبا عبد الرحمن : الحديث الذى جاء « إن من البر بعد البر أن تصلى لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك » ؟ قال فقال : ياأبا إسحاق عمن هذا ؟ قلت له : عن شهاب بن خراش ، فقال ثقة ، عمن ؟ قلت عن الحجاج بن دينار ، قال ثقة ، عمن ؟ قلت قال رسول عليه السلام ، قال ياأبا إسحاق إن بين الحجاج بن دينار و بين رسول الله مفاوز تنقطع فيها أعناق المطى ، ولكن ليس فى الصدقة اختلاف .

الكشف عن معايب الرواة

ثم عقد باباً رابعاً عنوانه : « باب الكشف عن معايب رواة الحديث ونقلة الاخبار وقول الأئمة فى ذلك » ، وقد ذكر فيه من قواعد هذا الفن أشياء عجيبة ترى قارئها كيف كان أعلام الحديث و رجاله يحذرون من الروايات كل ما يمت إلى الضعف والوهن بسبب من أسبابه ولون من ألوانه وظل من خياله ، وكيف كانوا لايقبلون منه إلا الصحة والقوة بالأسانيد المشرقة فى جو الحقائق والعقول إشراق الشمس فى جو الأجسام والمادة ، وكيف كانوا يهجرون كل إسناد يكون عليه لون من ألوان الضباب أوسمة من سمات الكدورة والخفاء والظلام .. ولهذا كان علم الحديث من أشرف العلوم وأفضلها وأدقها وأقواها، وكان رجاله هم الفواريق الفارقة بين الإسلام وماليس إسلاماً . وكانوا هم حفظة الشريعة المحمدية بلا نزاع ولا مكابرة . . . ولولا هذه الأسانيد وعلومها وفنونها لما بقى لنا من الاسلام سوى القرآن . وذلك لاختلاط أحاديث النبوة بأحاديث الكذبة . فلله أهل الحديث !

ولله ما قدموه للاسلام والمسلمين من خدم ومنن !

بعد هذا كله نقول : إننا لا ندرى من يكون أبو جعفر هذا ، فجائز أن يكون الخطمى ، وجائز أن يكون غيره ، وإذا كان غيره فجائز أن يكون ثقة وجائز أن يكون ضعيفاً بل وتحت الضعيف .

﴿ من يحتمل أن يكون أبو جعفر هذا إذا لم يكن الخطمى ﴾

من يكون هذا الراوى إذا كان غير الخطمى فثم أبو جعفر الرازى

الذين يكنون بأبى جعفر ممن يمكن أن يراد أحدهم فى هذا الحديث كثيرون فمنهم أبو جعفر : عيسى بن ماهان الرازى التميمى بالولاء . وهذا وثقه قوم وضعفه آخرون. وقد قدحوا فى حفظه وضبطه . وقال ابن حبان : إنه ينفرد عن المشاهير بالمناكير، فلا يعجبنى الاحتجاج بحديثه إلا فيما وافق الثقات. وقال ابن معين: يكتب حديثه ولكنه يهم . وقال أبو زرعة : شيخ يهم كثيراً . وقال أحمد بن حنبل : ليس بالقوى فى الحديث . وَوَهَّنَ أمره النسائى . وقد وثقه أبو حاتم وابن المدينى والحاكم وآخرون . فهو إذن قائم بين التضعيف والتوثيق، وبين القوة والضعف . فقوم يقبلونه ،وقوم يردونه . وكأن الذين قالوا إنه ثقة أرادوا أنه ثقة لولا الوهم والغلط لأن الذين قدحوا فيه قدحوا من هذه الناحية نفسها. فكأنه صالح فى نفسه ودينه وحاله ولا عيب فيه سوى سوء حفظه وضعف ضبطه. وبهذا تتفق أقاويل القادحين والمادحين . ويشهد لصدق هذا الجمع بين القدح والمدح أن ابن معين وثقه مرة ، ومرة قال : يكتب حديثه ولكنه يخطئ . . . ومن كانت هذه حاله كان حديثه من قسم الحسن ،لا يبلغ درجة الصحيح إلا عند المتساهلين جداً ، أو عند وفرة الشواهد والمتابعات. ولكن لا شواهد هنا ولا متابعات . فحديثه هذا ـ إذا كان هو إياه ـ لا يكون صحيحاً وإنما يكون حسناً بإغماض أو ضعيفاً ضعفاً هينا . ولكن هل يمكن أن يكون أبو جعفر المذكور فى الحديث هو هذا ؟ والجواب أنه يمكن أن يكونه . ويقوى هذا الاحتمال والامكان أن شعبة بن الحجاج قد روى عن

أبى جعفر هذا كما فى تهذيب التهذيب . وشعبة هو راوى هذا الحديث عن أبى جعفر الذى تنشد المعرفة فى أمره وفى اسمه وحقيقته . ولكن قد يُوَهِّنُ هذا أنه وقع فى بعض روايات الحديث نسبة أبى جعفر هذا إلى المدينة ، فجاء فى سنن ابن ماجه : عن شعبة عن أبى جعفر المدنى عن عمارة بن خزيمة بن ثابت . وكذا جاء فى مسند الامام أحمد ، وكذا عند البيهقى وعند الحاكم فى المستدرك ، وعند الطبرانى فى المعجم . وهذا فى الظاهر يأبى احتمال أن يكون أبو جعفر هذا هو عيسى بن ماهان الرازى ، لأنه ليس مدنياً ، لأنه « مروزى الأصل ، سكن الرىّ . وقيل كان أصله من البصرة وكان متجره إلى الرىّ فلسب إليها » كذا فى تهذيب التهذيب . ولكن قد يدفع هذا الاعتراض بأن يقال : نحن إذا جوزنا الوهم على من زعموه الخطمى فلا مانع من أن نجوزه على من نسبوه إلى المدينة . والمسألة لا تعدو منطقة التجويز والاحتمال . والتوهيم هنا لابد منه : إما للذين زعموه الخطمى المدنى ، وإما للذين زعموه غيره . فهذه لا معدى عنها كما ترى . فليس فى التزامها إذن شئ .

وثم ابو جعفر المدائنى الهاشمى الوضاع

وهناك راوٍ آخر يكنى أباجعفر ، يحتمل أن يكون إياه . هذا الراوى هو عبد الله بن المسور بن عون بن جعفر ابن أبى طالب . أبو جعفر الهاشمى المدائنى كما فى الميزان للذهبى . وروى فيه عن معاوية بن صالح عن يحيى قال : أبو جعفر المدائنى هو عبد الله بن محمد بن مسور بن محمد بن جعفر . وأبوجعفر هذا ضعيف قال أحمد وغيره : أحاديثه موضوعة ، كذا فى الميزان . وقال النسائى والدارقطنى: متروك . وقال الإمام مسلم فى مقدمة الصحيح فى فصل « الكشف عن معايب رواة الحديث » : حدثنا عثمان ابن أبى شيبة حدثنا جرير عن رقبة أن أبا جعفر الهاشمى المدنى كان يضع أحاديث وليست من أحاديث النبى عليه الصلاةوالسلام وكان يرويها عن النبى .

وإذا كان أبو جعفر هـذا هو أبا جعفر الذى روى عنـه شـعبة الحديث كان الحـديث ، ولا ريب ، حديثا ضعيفاً بالمرة ، لا يحـل الاحتجاج به ولا الاشـتغال بمعناه . وقد يقوى هـذا الاحتمال ـ احتمال أن يكون أبو جعفر الوارد فى الحديث هو هـذا ـ أن كليهما يقال له : أبو جعفر المدنى . فهذا مدنى كما جاء فى صحيـح مسـلم ، والذى فى الحـديث أيضاً مدنى كما جاء فى ابن ماجـه وفى مسند أحمـد وفى المستدرك وفى معجم الطبرانى . فالاتفاق فى الكنية والنسبة قد يقوى أن يكون هذا هذا . أما شهرة أبى جعفر هذا بالمدائنى فراجعه إلى أنه كان نزيل المدائن . فلا خـلاف بين المـدائنى والمدنى ، لأنه مدنى بالأصل ، مدائنى بالاقامة والثواء .

وهنالك أبو جعفر آخر

وهنالك راوٍ آخر يقال له أبو جعفر الأنصارى المدنى المؤذن . قال فى تهذيب التهذيب : «روى عن أبى هريرة ، وعنه يحيى ابن أبى كثير . قال الترمذى : لا يعرف اسمه . وقال غيره : هو محمد بن على بن الحسين ، قاله أبو بكر الباغندى عن أبى عاصم عن حجاج ابن أبى عثمان عن يحيى . قال أبو مسلم الـكجى عن أبى عاصم عن حجاج عن يحيى عن محمد بن على . وقال عبـد الله بن عبـد الرحمن الدارمى : أبو جعفر هذا رجـل من الأنصار . وبهذا جزم ابن القطان ، وقال : إنه مجهول. وقال ابن حبان فى صحيحه : هو محمد بن على بن الحسين ، وهذا ليس بمستقيم ، لأن محمد بن على لم يكن مؤذناً ، ولأن أبا جعفر هذا قد صرح بسماعه من أبى هريرة فى عدة أحاديث . وأما محمد بن على بن الحسين فلم يدرك أبا هريرة . فتعين أنه غيره ». هذا كله كلام الحافظ العسقلانى فى تهذيب التهذيب . قال فى آخر الترجمة : «وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين هذا وبين الراوى عن أبى هريرة، وأظن أنه هو . وعنه أبو داود فى الصلاة عن يحيى ابن أبى كثير عن أبى جعفر ـ غير منسوب ـ عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة . وأظنه هذا » . وقال الحافظ

الذهبي في الميزان : « أبو جعفر الحنفي اليمامي . عن أبي هريرة . وعنه عثمان ابن أبي عاتكة — مجهول » . وقال بعده : « أبو جعفر . عن أبي هريرة . أراه الذي قبله . روى عنه يحيي ابن أبي كثير وحده ، فقيل الأنصاري المؤذن . له حديث النزول وحديث ثلاث دعوات . ويقال : مدني فلعله محمد بن علي بن الحسين وروايته عن أبي هريرة وعن أم سلمة فيها إرسال لم يلحقهما أصلا» .

فان كان أبو جعفر هذا هو الذي روى عنه شعبة الحديث كان الحديث ، بلا ريب ، ضعيفاً . لكن قد يشك في إدراك شعبة لأبي جعفر هذا وفي روايته عنه . وهذه الأقاويل والاحتمالات متروكة كلها رهن البحث والتمحيص ، لا يصل شئ منها إلى العلم والايقان .

هناك آخرون يكنون هذه الكنية

وبقي ثم رواة آخرون يكنون هذه الكنية ، منهم الثقات ، ومنهم الضعفاء، ومن الجائز أن يكون أبو جعفر الذي في الخبر أحدهم ، ومن الجائز أن يكون غير هؤلاء جميعاً ، وأن يكون رجلا مجهولا لا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه شعبة سواه ، ولم يرو هو عن عمارة بن خزيمة بن ثابت غيره . وقد يفهم هذا من صنع الحافظ ابن حجر في كتاب تهذيب التهذيب . وذلك أنه قال في من يكنون بأبي جعفر : « أبو جعفر . عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعنه شعبة . قال الترمذي : ليس هو الخطمي» انتهى . وقد يشهد لهذا أيضاً قول الترمذي ، ذلك أنه قال : إنه غير الخطمي ولم يزد على هذا القول شيئاً ، فلم يسمه ولم يصفه ولم ينسبه : فكأنه ما كان يعرف من أمره شيئاً ، ولا كان يعرف اسمه ولا نسبته . وإنما صحح حديثه اعتماداً على رواية شعبة عنه ، لأن شعبة عرف بالرواية عن الثقات دون الضعفاء ، وإن كان هذا ليس لازماً من أمر شعبة ،فقد روى عن غير الثقات . والترمذي معروف بالتساهل واللين في التصحيح . فهذا منه معروف لا ينكر . وقد صحح حديث من أجمع على ضعفه ككثير بن عبد الله بن

عمرو بن عوف المزنى المدنى ؛ وقد صحح حديثه فى الصلح بين المسلمين المشهور . وقد نعى ذلك عليه جهابذة الفن وقالوا : إنه لا يقلد فى التصحيح كغيره من المتساهلين .

وبعد هذا فالحديث غير صحيح

بعد هذا البيان كله يظهر لنا أن هذا الحديث ــ أعنى حديث الأعمى ــ ليس من الأحاديث الصحاح ولا الحسان ، وأنه لا يجوز لمن لا يرضى لنفسه ودينه وعقيدته إلا الصحة والقوة واليقين أن يقدم على تصحيحه وعلى العمل به أو إلزام الناس ذلك أو اتخاذه قاعدة من قواعد الاسلام وعقيدة من عقائده ، وشريعة من وشرائعه . فان أبا جعفر المنفرد بهذا الحديث رجل مجهول ، لا يعرف اسمه ولا تعرف حاله ، ولا يدرى مكانه من الصحة والضعف على وجه الإيقان ــ فلا يجوز أن يكون ما انفرد به صحيحاً ، بل ولا يكون حسناً ، بل يجب أن يقال : إنه ضعيف مردود . والدين قوى متين ، لا يثبته إلا قوى متين مثله ، أما الضعيف أو المجهول فلا يشيد عليه المسلم عقيدة من عقائده ولا رأيا من آرائه ولا أمراً من أموره . وقد نهى الاسلام : كتابه وسنته عن العمل بما لم يصح وما لم يثبت ، وعن الايمان بما لا يعرف دليله ولا يدرى ما هو . والشواهد على هذا معلومة كثيرة .

ويزيد الريب فى الحديث انفراد هذا الراوى المجهول به فى كل الطرق وانفراد ابن حنيف ايضا به

ومما يزيد الريب فى صحة هذا الحديث ويحمل على الرد له انفراد أبى جعفر به فى جميع طرقه وجميع أسانيده ، ثم انفراد عثمان بن حنيف بروايته عن النبى عليه الصلاة والسلام . وقد وقع كما ذكر فيه بحضرة جمع من المسلمين وعرفوه وعرفوا القصة كما هى . . . فانفراد أبى جعفر هذا المجهول بروايته عن عمارة بن خزيمة وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف فى جميع طرق الحديث ليس مما لا يضيره ، وليس مما يكثر مثله فى حديث كهذا الحديث فيه معجزة للاسلام ، وفيه كرامة للنبى عليه السلام ، وفيه فرح وسرور للمؤمنين ، وفيه آية من آيات الله ،

وفيه ، بعد ، خروج على المعتاد المألوف ...: وهذا كله مما يغرى المؤمنين والمسلمين بروايته ونقله ، و يلهب الاحتشاد عليه والعناية به والالتفات إليه . أما انفراد عثمان بن حنيف بروايته عن النبى عليه السلام فالغرابة فيه أكثر وأظهر . وذلك أن هذه المعجزة فى الحديث قد وقعت ، على افتراض صحة الحديث أمام ، جمع كثير من المسلمين الذين يشوقهم أمثالها ، و يطيب لهم التحديث والتحدث بها وعنها ، و يطيب لهم نشرها و إذاعتها على جميع الأملاء . فلماذا إذن لم ترو إلا عن عثمان بن حنيف ؟ ولماذا إذن لم يحدث بها سواه وهى مما يطيب التحديث بها ومما تلذ روايته وتطرب الأسماع لسماعه ، وهى مما يعظم به شأن النبوة وشأن الاسلام ، وتتكاثر به دلائل صدقه وآيات انتسابه إلى السماء ؟ من الجائز أن تكون هذه المعجزة وقعت أمام عثمان بن حنيف وحده ـ و إن كان يرد هذا الاحتمال قول عثمان فى الرواية الأخرى الآتية : « فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط » ـ فان صح هذا الاحتمال ـ وهو غير صحيح ـ قيل ولكن لاريب أن مثل هذه الحادثة المعجزة ، والكرامة الظاهرة مما يجعل لسان ذلك الأعمى الذى شفى بدعوة نبى الله يلهج بذكرها والتحديث بها و روايتها على رؤوس الخاصة والعامة ، ونشرها فى العالمين حتى يتكاثر الراوون لها ، المتحدثون بها ، ومما يجعل ألسنة عارفى ذلك الضرير وألسنة أقربيه ولسان عثمان بن حنيف تلهج بها أيضاً وتكثر من روايتها وتطنب فى التحديث بها ، حتى تصبح ذات ذيوع وشهرة بين الأقربين والأبعدين . وقد وجدنا أخبار المعجزات الصحيحة تتكاثر رواتها من الصحابة ومن بعدهم : فوجدنا أخبار انشقاق القمر و زيادة الطعام والشراب بدعاء النبى عليه الصلاة والسلام ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وحنين الجذع الذى كان يخطب فوقه لما أن اتخذ منبره وتركه ، وأخبار الإسراء والمعراج ، وأخبار

أخبار المعجزات المادية تتعدد رواتها ورواياتها

تسبيح الحصا والطعام على مسامع المسلمين ، وأخبار غير ذلك من المعجزات المحمدية المادية : وجدنا أخبار هذه المعجزات كلها قد تعدد رواتها عن النبي عليه الصلاة والسلام وكثرت طرقها ، وعلت أسانيدها ونزلت ، ورواها الجم الغفير عن مثله ـ هكذا ـ إلى النهاية وإلى البداية وهذا لا بد منه في الأحداث الكبرى وفي الآيات الجليلة المشهودة بالأبصار . وهذا مثل واحد وهو نبع الماء من بين أصابعه الشريفة قد رواه الحافظ أبو نعيم في « دلائل النبوة » عن ثمانية من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام . وهذه رواية أبي نعيم وحده في كتاب دلائل النبوة وحده ، وقد روى هذه المعجزة غيره عن غير هؤلاء الثمانية . وروى معجزة ربو الطعام بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام عن اثني عشر رجلا من الصحابة في الدلائل أيضاً ، وهذه المعجزات تروى في غير دلائل أبي نعيم عن غير هؤلاء . مع أن هنالك فرقا بين هذه المعجزات وبين معجزة إبصار الأعمى ، والفرق أن هذه المعجزات تنتهي وتنقضي في وقتها ، وليست كذلك معجزة الابصار ورد البصر . وهذا واضح جداً .

فانفراد عثمان بن حنيف برواية هذا الحديث عن النبي دون غيره من الصحابة ودون صاحب القصة نفسه الذي شفي بدعوة النبي عليه السلام ، ودون شاهديه وعارفيه ودون غيرهم مما يفت ـ ولاشك ـ في عضد الحديث ويوهي سنده . وكذلك انفراد أبي جعفر المشكل المبهم بروايته عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف دون غيره من أقرانه ومعاصريه ، ودون الراوين عن عمارة وعن أبي أمامة . هذا كله مما يوهن سند الحديث أيضا .

وهذا القسم من الحديث ـ أعني الحديث الذي يكون في أمر تتحفز الدواعي

وتهفو إلى نقله وروايتــه ثم يجئ غريباً لا يرويه إلا الواحــد ـ قد أبى قبوله جماهير من أهل الفقه والحديث والمعقول والفلسفة والنظر . وقد عــدوا انفراد الراوى به من الحجج على ضعفه وبطلانه ، إذ لو كان حديثاً حقا لما انفرد بروايته الواحد عن مثله وهو أمر تطرب لسماعه الأسماع وتشرئب إليه الأعناق ، ويطيب التحديث به والانباء عنه .. . وهذا وجه وجيه فى علم البحث والمعقول عندهم .

ونحن لا نقدم على موافقة هؤلاء القائلين ، الذاهبين هذا المذهب ، ولكننا نحكيه حكاية ، ونعتمد نحن فى تضعيف الحــديث على جهالة أبى جعفر المنفرد به عن التابعى الراوى له عن الصحابى المشاهد للقصة بعينه .

مال الحديث من العلل والمقادح

﴿ إجمال علل الحديث ﴾

وعلل حديث الأعمى تتلخص فى ما يأتى :

أولا — : جهالة أبى جعفر هــذا المنفرد به عن عن عمارة بن خزيمــة وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف واختلاف الناس فيه ، إذ زعم فريق أنه الخطمى وادعى فريق آخر أنه سـواه بحيث لم يظهر لنـا نحن القول الصحيح من القولين والحق من الباطل ، حتى وجدنا التوقف والوقوف بين القولين هو المذهب والمصير الصحيح .

ثانيا ـ : تفرد هذا الراوى المجهول المختلف فيــه به دون غــيره من أقرانه وممن هم أكثر منه حديثا وتحديثا ، وأكثر اجتماعاً ولصوقا بعمارة بن خزيمة وبأبى أمامة بن سهل بن حنيف . وقــد كان المظنون أن يرويه غــيره وأن يكثر رواته إذا كان صحيحاً .

ثالثا ـ انفراد عثمان بن حنيف به بحيث لم نحفظ أنه روى عن غــيره من الصحابة ، لاعمن هم أكثر منه رواية ولا عن ذلك الأعمى الذى رد الله له بصره بدعوة نبيــه وشـفاعته ، ولا عن أقارب الأعمى وعارفيــه ، ممن عرفوا القصــة

والمعجزة حقيقة . . . فهـذا الانفراد بالحديث ـ مع أنه من أحاديث المعجزات المادية المخبرة عن حدث من الأحداث التى تـكثر رواتها و رواياتها والتحديث بها عادة ـ مما يزيد الشك و يهيج الريب فى صحـة الرواية ووقوعها . والتفرد وحده لا يقضى برد الحديث الصحيح عندنا، ولـكن التفرد مع جهالة الراوى المتفرد به ومع ما تقدم من الـكلام فى الحديث يتألف منه شـك يقف الطالب للحقيقة وللمعرفة ، المتجرد من كل هوى وغرض غير تقى عنده حيران بين الرد والقبول. ولا مناص حينئذ من الرد والطرح ، لأن الدين لا يكفى فى إثباته أمثال هـذه الروايات المجهولة الغريبة .

شذوذ معنى الحديث

رابعاً ـ : غرابة معنى هذا الحديث وشذوذه عن مألوف الاسلام وعما عرفه الخاص والعـام من أصوله وفروعـه ، وعما عـلم بالضرورة منه . فان سؤال الله بخلقه — كأن يقال : أسألك يا ألله بفلان أو بفلانة ، أو أتوجه إليك بعبدك فلان أو بنبيك فلان ونحو هذا — لم يعهد مثله فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا عن أحد من الأصحاب ولا عن غـيرهم من البصراء بالشريعة و بدين الله الاسلام . . . وما نقل شىء من هـذا النوع إلا ما جاء فى الأخبار الباطلة الموضوعة كحديث سؤال آدم ربه بحق محمد ، وقد غير الـكلام عليه ، وكحديث السؤال بحق السائلين وحق الممشى إلى الصلاة ، وهو حديث غير صحيح ومعناه إذا صح خلاف ما نحن بصـدده . . . وسوف يمر بالقارىء الـكلام عليه إن شاء الله . وكروايتهم : « إذا سألتم الله فاسألوه بجاهى ، فان جاهى عند الله عظيم » . وهذا لا أصل له . وكالرواية التى رواها عبد الملك بن هارون بن عنـترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان ، وكانت يهود تهزم ، فعاذت بهذا الدعاء : « اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه فى آخر الزمان إلا نصرتنا

الاخبار التى فيها السؤال بحق المخلوق ضعيفة او مكذوبة

عليهم » ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان . وهذه رواية باطلة لا تصح . وعبد الملك هذا ضعيف جدا . قال أحمد والدارقطني : ضعيف . وقال يحيى. كذاب . وقال أبو حاتم : متروك ، ذاهب الحديث . وقال ابن حبان: يضع الحديث . وقال السعدي : دجال كذاب . وقال صالح بن محمد : عامة حديثه كذب . وقال الحاكم : ذاهب الحديث جدا ، وقال في المدخل إلى علوم الحديث روى عن أبيه أحاديث موضوعة . وذكره الساجي والعقيلي وابن الجارود وابن شاهين في الضعفاء . وقال أبو نعيم الحافظ : يروى عن أبيه مناكير . . . ودين الله أجل من أن يحتج له برواية مثل هذا . وأما أبوه هارون فضعفه قوم و وثقه قوم . فالروايات التي فيها السؤال بحق المخلوق كلها إما ضعيفة جدا أو موضوعة . ومثل هذه الروايات لا يحل أن يثبت بها حكم من أحكام المياه والوضوء والحيض والطهارة وأحكام المياه وتقسيمها إلى أقسام ، فضلا عن أن يثبت بها قاعدة من قواعد الاسلام وقواعد مناجاة الله وسؤاله والاتصال به . . . . أما الروايات المحترمة الصحيحة فلم يجيء في شيء منها شيء من هذا السؤال وهذا التوسل المبتدع .

فسؤال الله بالخلق والعباد وبحقهم وجاههم ونحوه لم يرد مثله ولا دليله في آية ولا في حديث صحيح ولا في كلام صاحب من أصحاب النبي ، ولا عن إمام من أئمة الدين المقتدى بهم . فما جاء في البخاري ولا في مسلم ـ أصح كتب الاسلام بعد الكتاب ـ شيء من هذا النوع خلا حديث أنس بن مالك في الاستسقاء بالعباس . وهو ليس من هذا كما سوف يجيء القول فيه باذن الله . ولا جاء في خبر صحيح سليم من القدح والطعن والضعف والاختلاف .

أبواب الدين كلها متفق على أصلها بالجملة

وأبواب الدين : أصوله وفروعه كلها جاءت فيها الآيات والأخبار الصحيحة المتواترة التي لا يختلف المسلمون في صحتها وصحة نسبها إلى النبي عليه السلام،

إلا هذا الباب «باب سؤال الله بالمخلوق وبجاهه وذاته وحرمته . فما جاء فيه حديث أجمع على صحته وثبوته عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أو سلم من النقد والضعف. ودين الله لا يثبت إلا بالنقل الصحيح ، والنقل الصحيح لا يكون سوى الكتاب وسوى السنة القوية السليمة من الضعف وأعراضه . وخلاف هذا لا تثبت به قاعدة من قواعد اللغة ولا قواعد النحو ، ولا مسألة من مسائل الحيض والطهارات فضلا عن أن يثبت به حكم من هذه الأحكام وشريعة من هذه الشرائع .

هذا الكتاب وهذه السنة

هذا كتاب الله يتلى ، وهذه أدعية عباده الصالحين : الأنبياء والمرسلين فمن دونهم من الأولياء والصلحاء والأتقياء وسائر صنوف المؤمنين ، وهذه أوامر الكتاب ، وهذا حضه الناس على الدعاء والسؤال — سؤال الله جميع الحاجات والآمال : هذا ذلك كله يقرأ في الكتاب ، فهل يوجد فيه حرف واحد يدل على جواز أن يسأل الله بالخلق أو أن تطلب الحاجات بحق مخلوق أو بجاه عبد من العباد ؟ لقد ذكر الكتاب من أساليب الأدعية وضروب المسائل ـ مسائل العباد المتقين ربهم ـ أفانين وأموراً لا يقف عليها ولا يحيط بها إلا من عنى بالكتاب ودراسته وبطلب الهدى والعلم فيه . فهل يوجد في الكتاب أن أحداً من عباد الله سأل الله بنبي أو بولي أو بجاه مخلوق له الزلفى والقربى لدى ربه ؟ أو يوجد أمر من أوامر الكتاب بأن يفعل المؤمنون نوعاً من هذا ؟ يسير على كل مسلم أن يجيب على كل هذه الأسئلة سريعاً وبلا توقف ولا إمهال بالنفي والسلب . . . وكذلك السنة الثابتة الصحيحة ، قد حفظت ما حفظت من أدعية الأنبياء والأولياء والمؤمنين كلهم : الأولين والآخرين . ولكن لا توجد فيها رواية واحدة صحيحة سليمة من الضعف والقدح تدل على أن أحداً من هؤلاء العباد توسل إلى ربه بمخلوق أو بجاه مخلوق . ولا جاء عن أحد من صحابة

النبي وخيار المؤمنين بإسناد صحيح قويم أنه سأل ربه بجاه نبي أو بجاه ولي ، أو دعاه تعالى بمخلوق أو توسل بأحد من الخلق سوى ما فى حديث الاستسقاء بالعباس الآتى ، وهو ليس من هذا الباب كما سوف يعلم حين الكلام عليه . فلماذا هذا وقد حوت السنة جوامع الدين أصوله وفروعه؟ ترجع إلى صحيح البخارى و إلى صحيح مسلم ـ أصح كتب الدين بعد القرآن بلا خلاف ـ فتجد فيهما كل علم وكل فن من علوم الاسلام وفنونه : تجد فيهما أحكام المياه وأحكام الوضوء وسائر أحكام الطهارات ، كما تجد أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج وأحكام البيع والشراء وسائر المعاملات ـ معاملات العبد لربه ، ومعاملات العبد للعبد ، وتجد فيهما أحكام الموت والدفن والتكفين وما بعد الموت من القبر وعذابه وحسابه وسؤاله وشؤون الأرواح ، ثم تجد مابعد القبر من نعيم الآخرة وعذابها وحسابها وعقابها أو جزائها وموازينها وكل ما هنالك من نعيم وعذاب أليم ، بل وتجد فيهما أبواب الأخلاق وجوامع الآداب الاجتماعية الفاضلة المطلوبة من المسلم ، المفروضة عليه لإخوانه ولأقربيه وأبعديه من المسلمين وغير المسلمين : تجد فيهما آداب اللقاء ، وآداب الفراق ، وآداب الجلوس ، وآداب القيام ، وآداب المرء مع أهله وفى بيته ، وآدابه مع أصدقائه و إخوانه ، ومايصح من ذلك ، ومالا يصح تجد كل ذلك فى أخبار الصحيحين كما تجد الشىء الكثير منه فى كتاب الله . ولكنك لا تجد فيهما ولا فى الكتاب ولا فى السنة الصحيحة البريئة من النقد والضعف والتجريح والاختلاف مايدل على جواز سؤال الله بجاه المخلوق ولا التوسل إليه تعالى بالكرامات والحرمات والمقامات . فلماذا هذا يا صاح ؟ أترى النبي عليه الصلاة والسلام لم يبينه و يبلغه مع أنه من الدين والرسالة المنزلة عليه ؟ أم ترى حفاظ السنة وأعضاد الملة شاءوا كتمان ذلك ونسيانه ، ورغبوا عن نقله وتدوينه ليختلف الناس وليضلوا وليطول اختلافهم ونزاعهم وجدالهم ؟ كل

[...]د فى الكتاب [...]لسنة كل علوم [...]لإسلام فلماذا [...] يوجد فيها [...]سؤال بالخلق

ذلك يا صاح لا يجوز عندنا ولا عند أحد من المؤمنين . فالرسول قدبين البيان كله ، وحفاظ السنة لم يألوا وسعا فى التدوين والمحافظة على الدين ، والتمييز بين الصحيح والضعيف . إذن لماذا هذا أيها القارئ اللبيب ؟ الجواب عنـدنا أن هذا النوع من الدعاء والسؤال لا حقيقة ولا وجود ولا معنى له فى الاسلام . ومن هنا خلا الكتاب وخلت السنة الصحيحة منه ، وخلا البخارى وخـلا مسلم من ذكره ومن أخباره ورواياته ، وخلا كلام السلف وأدعيتهم منه خلواً كاملا تاماً خلا ما جاء فى الأخبار المضعفة الملفقة .

فسؤال الله بالخلق وبالاشخاص والذوات لم يثبت بدليـل متفق عليه ولا بدليل سالم من الضعف والقدح : لم يثبت لافى الكتاب ولافى السنة الصحيحة . وأصول الاعتقادات وأصول اتصال الخلق بربهم لابد أن تكون دلائلها ونصوصها قوية صحيحة ، والضعيف أو المقدوح فيه لا يقبل إلا فى بعض المسائل الفرعيـة وفى تفصيل بعض ما كانت نصوص أصله ودلائله بالجملة ثابتة صحيحة سليمة من الاختلاف الصحيح . وما من مسألة من مسائل الدين إلا ولابد أن يكون أصلها بالجـملة ثابتا فى الكتاب والسنة ، أو فى الكتاب أو فى السنة الصحيحة التى لا خـلاف فيها ، أو فى الاجماع الظاهر المعـلوم . وكل مسألة لا تكون دلائل أصلها وأصل ثبوتها كذلك هى مسألة ليست من الدين ولا من الاسلام . وأنت إذا فليت أصول الاعتقادات ، بل وأصول الفروع وجدت نصوصها ثابتة بالجملة بين المسلمين ثبوتا لاريب فيه : فأصول الوضوء للصلاة والطهارة بالماء والتيمم عند فقدانه ثابتة نصوصها فى الكتاب وفى السنة بلا خـلاف بين المسلمين . ونصوص أصل الصـلوات وأصل الزكوات وأصل الحج والصيام وأصل الدعاء والاتصال بالله ، وأصـل الركوع والسجود ، وأصـل صـلاة الاستسقاء وصلاة الجنائز وصلاة العيدين ـ: نصوص أصول هذه العبادات كلها ثابتة إما فى الكتاب

وما من مسألة الا ولابد ان يكون اصلها ثابتا بالجملة

والسنة والاجماع والضرورة والتواتر، و إما فى بعض ذلك . وكذلك نصوص أصول جميع العبادات وجميع شرائع الاسلام لاخلاف فيها ولا فى صحتها ، و إنما الخلاف فى بعض تفاصيلها وفروعها .

أما هـذه المسألة ـ مسألة سؤال الله بالخلق و بجاهاتهم وحرماتهم وذواتهـم وكراماتهم فهى مسألة لا أصل لها فى الاسلام ، وما ورد أقوى من هذا الحديث فيها ، وهو كما تقدم ـ معل مضعف ، ومختلف فيه إختلافاً مشـهوراً قديماً . فأصل المسألة ، إذن شاذ فى الاسلام غير مألوف ولا معروف ، لم يأت فيه دليل صحيح سليم من العيب والنقد . . . فالحديث إذن يثبت قاعدة فى الاسلام شاذة شذوذاً ظاهراً ، و يأتى بأمر جديد فيه لم يثبت بغيره ولم يعلم من سـواه مما يقام له وزن و يحسب له حساب . والخبر الذى يكون معناه شاذاً غريباً ـ لأنه يثبت عقيدة من العقائد وقاعدة من القواعد لا أصل لها فى غـيره ولا برهان لها إلا به ـ يكون خبراً مشكوكا فيه وفى قبوله وفى الاطمئنان إليه . هذا إذا كان خبراً صحيحاً خالصاً من المقادح العلميـة الفنية ، فـكيف إذا كان جم المقادح ، ظاهر العيوب العلميـة كهذا الحديث ؟

فالحديث إذن شاذ المعنى غريبه فى الدين . ولـكن ليعلم أنه لا يكون شاذاً غريباً إلا إذا فهم فهم المخالفين له وزعم فيه زعمهـم ، وقيل ، كما قالوا : إنه من سؤال الله بالأشخاص والذوات والجاهات والحرمات والحقوق . فسؤال الله بهذه الأشياء هو الشاذ الغريب فى الاسـلام وفى دين الله . وهـذا هو مايفهمونه من الحديث ، فهو شاذ غريب إذا فهم فهمهم. أما عندنا نحن فليس بشاذ ولاغريب إذا كان صحيحاً ، لأننا لانفهم منه إلا أنه استشفاع بالنبى عليه الصلاة والسلام وسؤال بدعائه وشفاعته ، وهذا ثابت عندنا لاريب فيه ولانزاع . وسوف نبينه فى مابعد . . . فالحديث إذا فهم فهم المخالفين وأول تأويلهم كان شاذاً ، وكان غريباً

وكان مثبتاً لأصل من أصول الأعمال والاعتقادات لم يعلم من غيره ولم ينبت فى سواه . وهـذا يوجب الشك فيـه والوحشة منه . لأن أصول الأعمال والعبادات والعقائد لاتثبت ، كما تقدم ، بأمثال ذلك من الأخبار ، ولا تعلم بالاحاديث الغريبة الشاذة . فالشذوذ قدح فيه لاريب، والغرابة إيهاء فى بنيانه بلا شك ، فهو ضعيف مردود لما ذكرناه .

والسلف والروايات الغريبة الشاذة وان كان راويها ثقة

وقد عهدنا من السلف الصالح الشك فى الروايات المفردة الغريبة الصحيحة ـ بله الضعيفة الواهية مثل هذا الخبر ـ إذا ماجاءت فى إثبات أمر يحسبونه غير ثابت فى الاسلام وغير معلوم بدلائل أخرى قوية . فقد جاء أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يقبل رواية عمار فى التيمم لمن لم يجد الماء . وصح أن عائشـة لم تقبل رواية عمر وعبد الله بن عمر فى أن الميت يعذب ببكاء أهله و ببكاء الحى عليه. وقد قالت لما أن قيل لها إن عمر وابن عمر رويا ذلك عن النبى عليه السلام: إنـكم لتحدثون عن غـير كذا بين ولا مكذبين ، ولـكن السمع يخطئ . وصح أيضاً أن ابن عباس لم يقبل هـذه الرواية حينما أبلغ إنـكار عائشة لها حتى قال عبد الله ابن أبى مليـكة ــ راوى هذا الحديث : والله ماقال ابن عمر من شئ . أى ماقال شيئا حين أنـكر ابن عباس الرواية قائلا : إن عائشة قد أنـكرتها على عمر قائلة : يرحم الله عمر ! والله ماقال رسول الله : « إن المؤمن يعذب ببكاء أحد عليه» . ولـكن قال:« إن الله يزيد الـكافر عذاباً ببكاء أهله عليه». وقالت فى رواية أخرى منُكِرَةً رواية ابن عمر :يرحم الله أبا عبد الرحمن ـ تعنى ابن عمر ـ سمع شيئا فلم يحفظه . إنما مرت على رسول الله جنازة يهودى وهم يبكون عليه فقال : « أنتم تبكون وإنه ليعذب » . وصح عنها أيضاً . أنها أنـكرت رواية عمر وابنه عبد الله فى أن النبى عليه الصلاة والسلام وقف على قتلى بدر من المشركين ــ وقد رموا فى بئر هنالك ــ وأخذ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم. فلما قيل له فى ذلك قال

« إنهم يسمعون ولكن لايجيبون » ، وقالت : إن ابن عمر وهم ، و إنما قال النبي عليه السلام : « إنهم ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » وقرأت « إنك لا تسمع الموتى » وقوله : « وماأنت بمسمع من فى القبور » . وصح أن عمر رضى الله عنه لم يقبل رواية فاطمة بنت قيس فى أن المطلقة ثلاثا لا نفقة لها ولا سكنى ، وقال لما حدث حديث فاطمة : لانترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى حفظت أم نسيت . لها السكنى والنفقة . قال الله تعالى : « لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » . وصح أيضا أن عائشة أنكرت هذه الرواية على فاطمة بنت قيس وقالت : لاخير لها فى ذكر ذلك . وجاء فى الصحيح أن مروان لما حدث بقول فاطمة هذا قال : لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة . وسنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها ، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : بينى و بينكم القرآن وتلت قول الله : « لاتخرجوهن من بيوتهن » الآية ، وقالت . هذا لمن كانت له مراجعة ، وأى أمر يحدث بعد الثلاثة ؟ وفى الصحيح أن الأسود بن يزيد حصب الشعبى لما أن حدث بحديث فاطمة هذا وقال : ويلك ! تحدث بمثل هذا ؟ وذكر قول عمر : لانترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة . وصح أيضاً أن عمر لم يقبل رواية أبى موسى الأشعرى عن النبى عليه السلام فى أن المستأذن يستأذن ثلاثاً فان أذن له و إلا رجع . وقد قال لأبى موسى لما أن حدثه الحديث : لأوجعن ظهرك و بطنك أو تأتى بمن يشهد لك على هذا . فشهد له أبو سعيد الخدرى وأبى بن كعب ، وقال أبى : سمعت رسول الله يقول ذلك يا ابن الخطاب ، فلا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله . قال عمر : سبحان الله ! إنما سمعت شيئاً فأحببت أن أتثبت . . . وهذه الأخبار كلها فى الصحيح . ولها أشباه ونظائر عن السلف كثيرة معلومة مشهورة . وقد جاء عن النبى عليه الصلاة والسلام مثل ذلك فى حديث سهوه فى الصلاة ، فانه عليه

أنواع من ذلك وورود مثله من رسول الله ومن خلفائه

السلام لما أن سها وسلم عن ركعتين من أربع قال له ذو اليدين ـ من الصحابة ـ أنسيت يارسول الله أم قصرت الصلاة ؟ فقال : « كل ذلك لم يكن » . فقال الرجل : قد كان بعض ذلك يارسول الله ، فأقبل رسول الله على الناس فقال : « أصدق ذو اليدين ؟ » فقالوا : نعم يارسول ، فأتم مانقص من الصلاة .

وقال الحافظ الذهبي فى أول كتابه « تذكرة الحفاظ » من ترجمة أبى بكر الصديق : « وكان أول من احتاط فى قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة ابن ذويب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث . فقال : ماأجد لك فى كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله ذكر لك شيئاً . ثم سأل الناس فقام المغيرة بن شعبة فقال سمعت رسول الله يعطيها السدس ، فقال له : هل معك أحد ؟ فشهد له محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذه لها أبو بكر » . قلت : وهذا الخبر رواه الخمسة إلا النسائى وصححه الترمذى . ثم قال الحافظ الذهبى فى التذكرة من ترجمة الفاروق : وهو الذى سن للمحدثين التثبت فى النقل ، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد إذا ارتاب . وهنا ذكر عنه حديث الاستئذان المتقدم : وقال بعده : ففى هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد . وفى ذلك حض على تكثير طرق الحديث لكى يرتقى عن درجة الظن إلى درجة العلم إذ الواحد يجوز عليه النسيان والوهم ، ولا يكاد ذلك يجوز على ثقتين لم يخالفهما أحد . وقد كان عمر من وجله أن يخطئ الصاحب على رسول الله يأمرهم أن يقلوا الرواية عن نبيهم ، ولئلا يتشاغل الناس بالاحاديث عن حفظ القرآن قال : وقد استشارهم عمر فى إملاص المرءة ـ يعنى السقط ـ فقال المغيرة بن شعبة قضى فيه رسول الله بغرة . فقال عمر : إن كنت صادقاً فجئ بأحد يعلم ذلك فشهد له محمد بن مسلمة . قلت هذا الخبر متفق عليه .

انواع من ذلك مانقله الذهبى

ثم قال الحافظ الذهبى فى ترجمة على ابن أبى طالب : وكان إماماً متحريا فى

الاخذ بحيث إنه يستحلف من يحدثه بالحديث . قال عثمان بن المغيرة . . . إنه سمع عليا يقول : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا نفعنى الله به ماشاء الله أن ينفعنى ، وكان إذا حدثنى غيره استحلفته فاذا حلف صدقته . وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر قال سمعت رسول الله يقول : « مامن عبد مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ و يصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » . واسناده حسن .

والروايات فى هذا المعنى عن السلف : الصحابة فمن بعدهم كثيرة مشهورة معلومة . فقد كان معهوداً عندهم ومنهم أن يردوا خبر الواحد الشاذ المعنى المخالف لما علموه أو ظنوه من الاسلام ، ولما ظنوه مبايناً للسبيل الواضحة وللمهيع البين والجادة المسلوكة .. و إن كان الراوى ثقة ثبتاً ، بل و إن كانوا هم لا يشكون فى صدقه وأمانته ودينه . ولكنهم أحياناً يردون قول الثقة المتفرد بالرواية الشاذة المعنى فى مايحسبون لخوفهم من الغلط والنسيان ، لأن الفرد الواحد يسهل نسيانه و يخشى غلطه و إن كان كل الثقة . ولهذا يقول عمر فى إبائه قول فاطمة بنت قيس فى حكم المطلقة المبتوتة : لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت . و يقول فى رده على أبى موسى الأشعرى روايته فى أن الاستئذان ثلاث مرات : إنى سمعت شيئاً فأحببت أن أتثبت . وتقول أم المؤمنين عائشة فى ردها رواية عمر و ابنه عبد الله فى تعذيب الميت ببكاء الحى عليه : إنكم لتحدثون عن غير كذابين ولا مكذبين ، ولكن السمع يخطئ . فانفراد الراوى الواحد بالرواية الواحدة المفيدة فى الدين أمراً جديداً وحكما خاصا لا يوجد فى غيرها يريب ذلك الانفراد فى صحتها وصدقها و يحمل على التوقف فى قبولها وتصديقها والايمان بها . لأن الانفراد دائما قريب من النسيان والغلط . ومن ثمت كانت أحكام الاسلام كلها معروفة إما بالقرآن والاجماع والسنة ، و إما بالسنة المتواترة والاجماع أيضاً ، و إما بالروايات العديدة المتكاثرة . وعبادة من العبادات لا يصح

الواحد يقرب نسيانه

قبولها أبداً إذا ماجاءت من طريق واحدة غريبة ، بل لابد لها من النص الذى لاشك فيه . وأمثال هذه الروايات الغريبة لاتقبل إلا فى التفصيلات وأشباهها . أما فى أصل العبادة التى لم يعلم أصلهافلا تقبل ولا تثبت الأحكام الاسلامية بها.

اشتراط التعدد فى الشهادة وفى الشهود

وإذا كانت الشهادات لا يجزى فيها الواحد المنفرد المتفرد بها فيقول الله فى الشهادة على الأموال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ، ويقول فى الاشهاد على الطلاق والمراجعة ، أو على أحدهما : « وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » ، ويقول غير ذلك فى أمر الشهادة وأمر الشهود — إذا كان الله يشرط فى الشهادة أن تكون شهادة أكثر من واحد لئلا يقع غلط أوخطأ أو نسيان فكيف يقبل مثل هذا الخبر الضعيف المختلف فيه المنفرد بروايته راو لا يعرف من هو ولا من يكون ، ولا يدرى مكانه من الصحة والضعف والضبط والغلط فى إثبات عبادة من العبادات وأصل شريعة من الشرائع التى لا يعلم أصلها ولا أنها شرعت إلا منه وبه ؟ وإذا كان الله يشترط فى شهود المال والطلاق والمراجعة العدالة والرضا بهم ، والعدالة لا تعرف فى المجهول : المختلف فيه وفى اسمه ، فكيف تقبل رواية هذا الراوى المجهول المنفرد بروايته فى إثبات حكم من أحكام الاسلام وشريعة من شرائع الله لاتعلم إلا به ومن طريقه .

ولايحسبن حاسب أننا لانقبل خبر الواحد الثقة ، وأننا ننكره ونرده مطلقا كلا ، وإنما نقول : إن شرائع الاسلام وأحكام الدين لم تبن على الروايات المفردة الغريبة كهذه الرواية ، ولم تعلم من طريق الواحد المضعف أو المختلف فيه . فان أحكام الدين كلها معلومة بالنصوص المتواترة التى لايختلف فيها بالجملة ، ولا يتنازع المسلمون فى أصلها . ومامن حكم من أحكام الله إلا وقد علمت نصوصه الأولية الأصلية باليقين . فنصوص تحريم الربا معلومة بالتواتر فى القرآن وفى السنة ،

نصوص الدين كله متواترة

ونصوص تحريم الزنا والفواحش كلها معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة .
ونصوص تحريم العدوان وتحريم الدماء والأموال والأعراض معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص تحريم دعاء الأموات والاستغاثة بهم معلومة بالتواتر فى الكتاب والسنة . ونصوص تحريم البناء على القبور والعكوف عليها وجميع هاتيك الباطلات المخزيات معلومة بالتواتر فى السنة . ونصوص تحريم الذبح والنذر وتقريب القرابين للأشياخ والصالحين والحج إلى قبورهم معلومة التواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص تحريم متعة النساء التى تقول بها الشيعة والتى تجعلها من الفروق الظاهرة بينهم وبين أهل الباطل والضلال معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة.
ونصوص تحريم الحلف بغير الله والإقسام بالمخلوق معلومة بالتواتر ، ونصوص العقوبات ، عقوبات الفواحش كالزنا والسرقة والقتل وغيرها معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص فرائض الاسلام كلها معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . أما خبر الواحد الثقة فجاء فى فروع ذلك وتفصيلاته .

فمن زعم أن مثل هذا الخبر الغريب المجهول تثبت به شريعة من شرائع الاسلام وعقيدة من عقائده ، فقد جهل وجنى على الاسلام والدين ، وذهب إلى الباطل والاثم .

الا يستحى هذا الرافضى

ثم بعد هذا يقال : ألا يستحى هذا الرافضى من الله ومن خلقه أن يصحح هذا الحديث وأن يزكى رواته وهو يضعف أحاديث البخارى ومسلم والأحاديث المتواترة فى تحريم البناء على القبور والصلاة إليها وفيها ، وتحريم عقد القباب عليها كما فعل صفحة ٣٦٦ وما بعدها من هذا الكتاب ؟ بل ألا يستحى من الله ومن خلقه أن يزكى هذا الراوى المجهول ويصحح حديثه وهو فى الصفحة المذكورة وما بعدها يضعف حفاظ الدنيا وسلاطين المحدثين : فيقدح فى وكيع بن الجراح وفى سفيان الثورى وفى أبى وائل الأسدى : شقيق بن سلمة الكوفى . وقد قال

قدح الرافضي في سلاطين المحدثين

ابن عبد البر: أجمعوا على أنه ثقة. ومن البلاء أنه ضعف شقيقا هـذا وقدح في علمه ودينه لأنه كان فيما زعم عثمانياً، ويعني بهذا أنه كان يقدم عثمان ويفضله على عليّ ابن أبي طالب. ويحتج على أنه كان عثمانياً بما روى أنه قيل له: أيهما أحب إليك: على أم عثمان؟ فقال: كان على أحبّ إلىّ ثم صار عثمان. قال الرافضي: وهذا يؤيد انحرافه عن على. ومن المضحك المبكى قوله فيه: « ولم يختلف فى أنه (يعنى شقيقا هـذا) خرج مع الخوارج، وأنه عاد إلى على منيباً مقلماً ». فاذا كان يزعم أنه خرج على على وعلى قتاله بالإجماع ـ والخروج عليه كفر عندهم لاخلاف فيه — ثم تاب ورجع إلى مولاه على بالاجماع أيضاً، فلماذا لا يقبل حديثه؟ ولماذا لا يتاب عليه؟ إن الله ليقبل توبة المشرك والملحد إذا تابا حقا، فكيف لايقبل توبة من خرج على الامام على ثم تاب وأناب لو صدق مازعم؟ ولكن الجواب أن القوم لا عقول لهم فى عداء سلف هـذه الأمة وفى بغضاء أهل السنة والجماعة. ثم إذا كانت رواية العثمانى عند الشيعة مردودة باطلة وضعيفة واهية فليعلموا أن عامة هذه الأحاديث والأخبار التى ينقلونها فى كتابهم هذا عن كتب أهل السنةوالجماعة والحديث ليست إلا روايات عثمانيين بكريين عمريين، بل عامة هذه الكتب التى ينقلون عنها ويحتجون بهـا فى زعمهم لم تكتبها إلا أيدى من يمنحون عثمان وأبا بكروعمر أشد ولائهم وحبهم وإخلاصهم ومن يعطون هؤلاء وغيرهم من أصحاب النبى عليه السلام أفضل ما فى قلوبهم من معانى الموالاة والود الصادق. بل مؤلفو هذه الكتب ورجال أسانيدها يكرهون من لايوالون الخلفاء الثلاثة الراشدين أشدالكراهة وأصدقها وأعمقها. وكثيرون منهم لا يجيزون لأنفسهم التحديث والرواية عمن يكرهونهم ولا يوالونهم، وإن حدثوا عنهم ضعفوا أحاديثهم وقابلوها بالتحفظ والحذر والامتحان.

فاذا كان أبو وائل هذا ضعيف الحديث مردوده، لأنه كان عثمانياً، فلماذا

يقبل الرافضى أحيانا أحاديث البخارى ومسلم وأحاديث أهل السنة جميعاً؟ ولماذا يحاول الاحتجاج بهـا وانتزاع البراهين منها وهم كلهم عثمانيون : يوالون عثمان رضى الله عنه ، و يوالون سابقيه : الصديق والفاروق ، و يوالون جميع الاصحاب ؟ الحق إذن أن الشيعة هم مأساة الاسلام الاعتقادية الـكبرى ، وهم بلاؤه العظيم الذى لم يفتأ منذ تلك العصور ينهك قواه ويهد فى بيانه المشمخر الرفيع ... والله حسيبهم ، المجازى لهم ما يستحقون وما يضمرون و يكيدون .

تضعيف الرافضى لحديث الامر بتسوية القبور والرد من نقضه وعدوانه على المحدثين

وقد قدح أيضاً الرافضى (صفحة ٣٦٨) فى حـديث أبى الهياج الأسدى الآمر بتسوية القبور المشرفة و بطمس التمـاثيل . قال فى قدحه بعـد طعنه فى الرواة : «أولا إنه شاذ تفرد به أبو الهياج الأسدى» . هذا لفظه . فيقال أولا : هذا كذب ، لم ينفرد أبو الهياج الأسـدى بهذا الحديث ، بل معناه متواتر فى الصحاح ، متفق عليـه بين المسلمين . وفى صحيح مسـلم قال الراوى : كنا مع فضالة بن عبيد فى أرض الروم فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله يأمر بتسويتها . ونصوص هدم القبور المرتفعة المشرفة ، وتحريم بنائها ، ونصوص تحريم التماثيل والصور متواترة . فما قوله : إن أباالهياج انفرد بهذا الحديث ! ثم يقال ثانياً : إذا كان انفراد أبى الهياج الأسـدى قاضياً برد الحديث فليعلم أن حديث الأعمى قد انفرد به عثمان بن حنيف من الصحابة ثم انفرد به أبو جعفر الراوى له عن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف وهو مجهول كما تقدم . . . فهذا الحديث إذن أولى بالتكذيب والتضعيف والرد من حديث أبى الهياج الأسـدى من جهات كثيرة . ويكفى تفريقا بينهما أن حديث أبى الهياج فى الصحيح ، وأما حديث الأعمى فليس فى الصحيح ، وأن حديث أبى الهياج معروف الرواة ثقاتهم واضحهم ، وأن حديث الأعمى فيه أبو جعفر وهو لا يعرف ، وأن حـديث أبى الهياج جاء معناه فى أحاديث أخرى

متواترة وجاء لفظه نصاً فى حديث فضالة بن عبيد المتقدم فى الصحيح . وأما حديث الأعمى فما جاء معناه ولا لفظه إلا فى أحاديث باطلة موضوعة ... فما أجلى الفرق بين الحديثين ! وما أخلق حديث الأعمى بالرد والتكذيب إذا صح له أن يرد حديث أبى الهياج وأن يضعفه لانفراده به ؟ هذا كله حق يضيق عن النزاع والخلاف . ولكن لا تقر به إلا أعين المؤمنين .

وأيضاً قد قدح الرافضى صفحة ٣٧٤ فى حفص بن غياث وفى ابن جريج وفى أبى الزبير وفى عبد الرزاق الصنعانى، وهم كلهم من رجال الصحيح . وقدح أيضاً فى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ونقل مقادح الناس فيه . وهذا من المضحك ! لأن عبد الرحمن هذا الذى ضعفه ورد حديثه لضعفه فى تحريم البناء على القبور ، هو عبد الرحمن الذى روى حديث سؤال آدم ربه بحق محمد ﷺ وقد انفرد به . فكيف كان هناك ثقة وهنا ضعيفا ؟ وكيف كان حديثه فى التوسل والسؤال بمحمد صحيحاً وحديثه فى تحريم البناء على القبور باطلا ضعيفاً لولا الهوى وقلة الانصاف ؟ ونعوذ بالله من الهوى . والعجيب أن أغلب ما يكتبه الشيعى لا يعدو هذا النوع المضحك المبكى .

أجل نقول : ألا يستحى من يؤمن بالله وباليوم الآخر من أن يضعف هؤلاء الحفاظ ويلج فى إكذاب أحاديثهم ورواياتهم ، ثم يروح يوثق أبا جعفر هذا ويلج فى تصحيح حديثه الشاذ الغريب ؟

على أن الشيعة الامامية لا يقبلون أحاديث أهل السنة ولو رووها كلهم من عهد أبى بكر الصديق إلى قيام الساعة . ولهذا لا يقبلون أخبارهم المتواترة فى إيمان أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وأم حبيبة وعمرو بن العاص ومعاوية وغيرهم من الأصحاب الذين بينهم وبين الشيعة ما بينهم وبين أعداء الإسلام خصوم المسلمين الله . وإذا كانت أخبار أهل السنة المتواترة كذباً وباطلا عند

الرافضى وقومه فلماذا كان حديث أبى جعفر هذا حديثا صحيحاً مقبولا لديهم ؟

الكلمة الأخيرة فى الحديث أنه ضعيف

فالكلمة الأخيرة الفاصلة فى حديث الأعمى هذا أنه حديث ضعيف باطل ، لا يحل الاحتجاج به . أما تصحيح من صححوه فليس بحجة وفى سنده ومعناه ما ذكرناه من النقد والقدح . والذين صححوه كلهم من المتساهلين فى التصحيح والنقد أمثال الترمذى والحاكم ولاسيما فيما يتعلق بأبواب المعجزات والفضائل . أما الحاكم فلا يعتد بتصحيحه فى المستدرك لأنه قد صحح الأحاديث التى أجمع أهل الحديث على أنها موضوعة مكذوبة ، ووثق من الرواة من اتفق على كذبه أو جهالته أو ضعفه حتى صار معلوما لأهل هذا الفن بأنه من الذين لا يحسب لقولهم فى هذا الباب حساب . وأما الترمذى فتساهل أيضاً جداً حتى إنه صحح أحاديث من أجمع على ضعفهم وضعف حديثهم . وجامعه ملآن بالأحاديث الضعيفة التى زعمها حسنة أوصحيحة . وقريب منهما البيهقى وابن حبان وابن خزيمة وجماعات أخرى معروفة فى طوائف أهل الحديث . وما صحح حديث الأعمى من عرف بالصلابة والشدة إزاء الضعيف والرخيص من الحديث . ولأمر ما أعرض صاحبا الصحيحين البخارى ومسلم عنه وعن روايته فى كتابيهما . ولا ندعى أن كل ما لم يخرجاه ضعيف باطل . وإنما ندعى أن إعراضهما عنه ـ وهو فى هذا المعنى الشائق للمسلم ـ لابد أن يكون لأمر ما ، وعلة وجداها فيه . ولولا ذلك لبادرا إلى إخراجه ، ولوجدا فيه ما يشوقهما إليه وإلى روايته ، ولا سيما أنه لا يوجد فى كتابيهما حديث واحد فى معناه .

ولعل الذين صححوه اعتمدوا فى تصحيحهم له على رواية شعبة بن الحجاج له عن أبى جعفر المختلف فيه . وذلك أن شعبة قد عهد منه كثيراً اجتناب الضعفاء واجتناب حديثهم والرواية عنهم. ولكن هذا ليس بلازم ، فقد روى شعبة عن قوم ضعفاء . ولعلهم أيضاً صححوه حاسبين أن أبا جعفر الرواى هو الخطمى لأن

الخطمى عنـدهم ثقة ، ولم يعلموا أنه سـواه كما علم الترمذى وكما ذكر . فكأن التصحيح قائم على هذا الوهم الذى خطأه الترمذى وفطن إليه فرده . ومنشأ هذا الظن الواهم اتفاق الكنى .

﴿ تحقيق معنى الحديث إن كان صحيحا ﴾

أما الكلام على الحديث من جهة المعنى ـ على افتراض كونه صحيحاً ـ فيقال: استدلال المخالفين به من ناحيتين : ناحية سؤال الله بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وناحية سؤال النبى نفسه وهو غائب عن السائل . الناحية الأولى دليلها قوله فيه « اللهـم إنى أسألك وأتوجـه إليك بمحمد نبى الرحمة . . . إنى توجهت بك إلى ربى . . » . ودليل الناحية الثانية قوله فيه : « يا محمد » الحـديث . ففيه جواز سؤال الله والتوجه إليه بفضلاء خلقه من أنبيائه وأوليائه ، وجواز دعاء الصالحين وندائهم فى غيبتهم . . . هذا بيان شبهة القوم فى الحديث ووجه احتجاجهم به .

الكلام على معنى الحديث

والجواب أن نقول : إن الحديث ـ على افتراض صحته ـ دليل واضح جـلى على بطلان ما ذهب إليـه المخالفون ، ورد عليهـم بين ، وهو من البراهين الظاهرة الواضحة على بطلان هذين الزعمين وفساد السؤالين .

وبيان ذلك أن هذا الرجل الأعمى عنـد ما فـكر فى الرغبة إلى الله ليرد له بصره ، وفى النبى ليدعو له الله ويشفع عنده من أجله لم يفعل مثل ما يفعلون ومثل ما يزعمون أنه يجوز فعله والركون إليه من دعوة الرسول عليه السلام أين كانوا ، ومن سـؤاله الشـفاء وضروب الحاجات والمطالب التى يطلبونها اليوم منـه ومن الأموات فى كل مكان ومن كل مكان ، ولم يسأل الله قبـل أن يأتى النبى عليه السلام ويطلب منه الشفاعة فيجيبه بحقه ولا بحق أحد غيره من خلقه : لم يفعل الأعمى شيئاً من هذا فى غيبة الرسول ولا فى حضرته حتى أتاه وطلب منه الدعاء

بيان ان الحديث ان صح رد على المخالفين

فأجابه إلى ما طلب وأمره أن يدعو الدعاء المذكور. ولو كان الأمر كما يزعمون ويذكرون لما احتاج إلى أن يذهب إليه عليه السلام، ولما احتاج إلى استئذانه ورجائه، بل كان يقول بملء فيه، أين كان وأين وجد، كما يقولون وكما يفعلون: يا رسول الله اشفني ورد لي بصري وعافني، كما يفعل دعاة الأموات والقبور من كل مكان اليوم، وقبل اليوم. وكان يقول، أين وجد وأين كان: يا الله أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم وبجاهه وحرمته وكرامته ومكانته لديك كما يفعل المتوسلون المبتدعون. ولكان في غنية عن أن يذهب إلى الرسول وأن يطلب منه الدعاء والشفاعة. فإتيان هذا الأعمى النبي عليه السلام قبل أن يطلب منه الدعاء دليل على أنه لا يصح طلب الدعاء منه في غيبته... وهؤلاء المخالفون يدعون الموتى من كل مكان وهم غائبون عنهم، غائبون عند الله كما تقدم. والأموات كلهم غائبون. وطلبه الدعاء منه وقوله: ادع الله أن يرد لي بصري. دليل على أنه لا يصح سؤال النبي ذلك ولا سؤال غيره مثله، فلا يصح أن يقول قائل: يا رسول الله رد بصري، أو عافني، أو اهد قلبي، أو اغفر ذنبي على وجه ما من الوجوه المجازية أو الحقيقية. والمخالفون يزعمون أن هذا كله يجوز، فيجوز عندهم أن ينادي المسلم وأن يقول: يارسول الله اهد قلبي واغفر ذنبي ورد بصري واشف مريضي ونحوه من المطالب العالية... وإقصاره عن أن يقول قبل أن يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام: أسألك يارب بمحمد أو بحقه أو بجاهه أو بكرامته، أو اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة — دليل على أن هذا النوع من الدعاء لا يصح وإلا لو كان صحيحاً جائزاً لقاله قبل اتيانه إياه عليه الصلاة والسلام.. وقوله عليه السلام: «وإن شئت صبرت وهو خير لك...» دليل أيضاً على أن السؤال بالجاه والذات ليس من الدين، لأنه لو كان من الدين، وكان الأعمى يريد من النبي أن يأذن له فيه لما قال له: «وإن

شئت صبرت وهو خير لك » لأن ترك دعاء الله ليس من الخير ، ولأن الدعاء دين ، والدين لا يمكن أن يكون الخير فى تركه . فلا يمكن أن يرغب فى ترك دعاء الله بأن يقال للداعى : اصبر وهو خير لك ، أى اصبر عن دعاء الله وعن التقرب إليه بما يقرب لديه . . فان هذا ليس خيراً ، بل هو شر كله . والخير فى دعاء الله وفى التقرب إليه وفى ابتغاء الوسيلة الصحيحة لديه .

هؤلاء الأمور كلها ترد علي المخالفين ما يذهبون إليه . والحديث إن كان صحيحاً هو فى جانب المنكرين لهذه الخرافات والترهات . . وليس فى جانب أصحابها ، الذائدين عنها منه شئ كما سوف يظهر جليا واضحاً إن شاء الله وحده .

أربعة أمور تدل كلها على أن الحديث رد على المخالفين

فنحن إذا قلنا لهؤلاء القوم المخالفين المخاصمين فى هذه الأمور الاسلامية الأولية : إذا كان دعاء الرسول ، وكان دعاء الأنبياء والصالحين ، وكان دعاء الخلق جائزاً فى الاسلام إما على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز فى ما لا تمكن حقيقته ،وكان جائزاً أن يقول المسلم : يا رسول الله اشفنى ورد لى بصرى وعافنى واهدقلبى فلماذا لم يقل الأعمى ذلك قبل أن يذهب إلى النبى عليه الصلاة والسلام ولماذا احتاج إلى أن يأتيه وأن يطلب منه أن يدعو الله له ـ : إذا نحن قلنا لهم هذا لم يستطيعوا أن يحيروا جواباً صحيحاً . . . ثم لو قلنا لهم ثانياً : إذا كان دعاء الرسول ودعاء الأنبياء والصالحين كلهم جائزاً فى حضرتهم ، ومغيبهم ، وفى حياتهم و بعد مماتهم ـ كما تفعلون وتذكرون وتزعمون ـ فلماذا لم يدع ذلك الأعمى النبى عليه السلام فى مغيبه و بعده ، بل رأى أنه لا بد من إتيانه وطلب ذلك منه حضوراً : لوقلنا لهم هذا لم يجدوا ما يجيبون به . . . ثم لو قلنا لهم ثالثا : إذا كان سؤال الله بحق النبى و بجاهه وكرامته وحرمته وقبره ونحوه من الاسلام والدين فلماذا لم يسأل الأعمى ربه بشئ من ذلك قبل أن يأتى النبى وقبل أن يطلب منه الدعاء ؟ لو قلنا لهم هذا القول لما ظفرنا منهم بجواب صحيح .

ثم لو قلنا لهم رابعاً : إذا كان التوسل بجاه المخلوق والتوجه به وبكرامته وبركته وفضله من الدين والخير ومما يقرب إلى الله ومما يأمر به القرآن فى قوله : « . . . وابتغوا إليه الوسيلة » فلماذا قال النبى عليه السلام للأعمى : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » ؟ وهل يأمر النبى بالصبر عن الدين وعن الرغبة إلى الله وعن التقرب إلى رضاه بصالح الأعمال ؟ لو قلنا لهم هذا المقال ما استطاع أحد منهم أن يجد له جوابا مقنعاً صحيحاً . . . فالحديث إذن نقض لمذهبهم، والحديث إذن عليهم لا لهم .

الجواب عن قوله «وأتوجه إليك بنبيك»

أما الألفاظ التى استدلوا بها منه على أمرهم وعلى ما يأتون فالجواب عنها : أما قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » « وتوجهت بك إلى ربى » فالتوجه هنا يراد به التوجه بدعاء الرسول عليه الصلاة والسلام لا بذاته ولا بشخصه ولا بشبه ذلك . والدليل عليه ما قدمناه . ومن الدليل عليه أيضاً أن أصل المسألة كان فى الدعاء وفى طلبه من النبى ، ولم يكن أصلها فى سؤال الله بجاهه أو بذاته أو بحرمته أو ببركته حتى يصح ما زعم المخالف . ومن الدليل أيضاً عليه قوله فى خاتمة الحديث : « اللهم شفعه فى » . فالأمر إذن أمر شفاعة . ومن الدليل عليه أيضاً أنه لو كان سؤالا بالذات والجاه والحرمة والبركة وهذه الشئون لما احتاج إلى أن يستأمر النبى عليه السلام كما أن هؤلاء يدعون ويسألون بجاه النبى وبجاه غيره من الأنبياء والأولياء من غير استئمار واستئذان ، لأن الجاهات والبركات والحرمات وهذه المعانى ثابتة سواء أاستؤمر صاحبها أم لم يستأمر . ومن الدليل أيضاً عليه قوله : « وإن شئت دعوت » . وقد شاء بلا خلاف ولا شك ، فقد دعا إذن بلا خلاف ولا شك ، لأنه قد علق الدعاء بالمشيئة ، والمشيئة قد وقعت فالدعاء كذلك قد وقع . ومن الدليل أيضاً قوله : « وإن شئت صبرت وهو خير لك ». ولو كانت المسألة مسألة دعاء بالذات وتوسل بالأشخاص والحرمات والجاهات

ـ وهذا كله عند المخالفين من القربات والطاعات ـ لما اختار له النبي عليه الصلاة والسلام الصبر والترك ، لأن هذا عند القوم من أفضل الوسائل المأمور بابتغائها إلى الله . وهذا لا يمكن أن يشار على المسلم بتركه والصبر عنه يقيناً . فالسؤال والتوجه هنا بالدعاء والشفاعة بلا شك ، وهو مثل حديث الاستسقاء بالعباس ومثل قول الفاروق : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . وهم كانوا يتوسلون بدعاء النبي وشفاعته لا بذاته وشخصه ، وهذا ظاهر في الشرع وفي اللسان . فاذا قال المخالف : إن الذي زعمتموه عدول عن ظاهر الخبر وعن ظاهر نصه ، وهو لا يجوز الذهاب إليه إلا بدليل ملجئ ، ولا دليل معكم على هذا العدول ، قلنا : إن من الكذب القول بأن ما ذهب إليه المخالفون هو ظاهر الخبر وما يفهمه منه السامع عند فقدان القرائن . ومن ذا يفهم من قول القائل: وصلت إلى الرئيس أو إلى الملك أو السلطان بوزيره أو بقريبه فلان أو فلان أن المعنى فيه الوصول إليه بشخص ذلك الوزير أو ذات ذاك القريب لا بدعائه وشفاعته ! ومن ذا يفهم من قول القائل : إنما نبلغ حاجاتنا ونتال حقوقنا وما نصبو إليه بأيدينا وسواعدنا وأنفسنا أن المعنى بلوغ ذلك بالذوات المجردة وبالأشخاص وباللحم والدم والعظام ؟ ومن ذا يفهم من قول القائل : بالحديد والنار ينال المسلمون حقوقهم واستقلالهم ، ويردون عليهم كراماتهم المفقودة لا بالأنين والبكاء ، ولا بالتضرع والتوسل المهين الذليل على مقاعد جنيف تحت أقدام تلك الآلهة الخرساء الصماء عن دعاء الخير وصوت الحق الرنان إلا أن المراد استخدام الحديد والنار في تحطيم أولئك الظالمين وتحريقهم حتى يرق إحساسهم وتلين عواطفهم الصوانية ؟ ومن ذا يفهم من قول القائل : سعد المسلمون بالقرآن وعزوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونصروا بعمر وخالد وحمزة وعمرو بن العاص إلا أن المعنى أنهم نالوا ذلك بأعمال هؤلاء وإيمانهم وشجاعتهم وتدبيرهم

الدلائل من كلام العرب على أن الحديث ليس كما يزعم القوم

لا بأشخاصهم ولا بجاهاتهم وذواتهم ؟ كل هـذا الذى ذكرناه وقدمناه المعنى فيه ظاهر جلى لا نزاع فيه ولا خلاف . وكلام النبى يذهب به حيث تذهب اللغة العربية .

فقوله عليه السلام فى تعليمه الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك وقوله : « توجهت بك » معناه التوجه والسؤال بالعمل لا بالذات . والعمل هنا هو الدعاء والشفاعة بلا ريب . . . وقريب من هذا قول النبى عليه السلام فى الحديث الصحيح : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » . ولا يمكن أن يراد أنها دخلت النار بجسم الهرة وذاتها ، بل المعنى أنها دخلتها بعملها الذى قتلتها به . والأمر واضح جلى

اعتراض .جوابه

فإن قال المخالف : إن قولكم هذا يقضى بأن يكون فى الحديث كلمة محذوفة وهى كلمة الدعاء والشفاعة التى تزعمون أن التوجه والسؤال بها لا بالذات ، فيقدر فى قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » « بدعاء نبيك » وفى قوله : « توجهت بك » « توجهت بدعائك » ، وهذان تقدير وادعاء فى الحديث لا دليل عليهما ، ولا ملجئ إليهما : إذا قال المخالف هـذا القيل قلنا له : إن التقدير فى الحديث واجب على قولنا وقولكم وعلى كل قول . فأنت تقول : إن التقدير : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بذات نبيك وبحرمته وبكرامته عليك ومكانته لديك » ونحو ذلك من المحذوفات . ولا دليل فى الحديث على واحد منها . أما نحن فنقدر الدعاء فقط ، والدعاء مذكور فيه ، مدلول عليه بأول الخبر وآخره ، فكان تقديره سائغاً بل واجباً ، بل هو فى حكم المذكور المنصوص عليه . فالعلم به لا يحتاج إلى تفكير ولا إلى دلالة ولا إلى شئ غير الفهم والانصاف . بل هـذا هو ما يفهمه ويعرفه جميع سامعى الحديث وقارئيه من غير الخاضعين للأهواء الجائرة وللجدال والعناد . وهذا التقدير على كل حال وافتراض أقل مما يقدره المخالف الزاعم أن

التوجه والسؤال بالذات والجاه والحرمة والكرامة والعظمة والحب والرضا والبركة إلى آخر هذه المقدرات الكثيرة التى لادليل على شئ منها . . . فلا مفر إذن مما ذكرناه ... و إننا نتحدى المخالفين ونطلب إليهم جميعاً أن يرونا وأن يذكروا لنا كلمة واحدة فى الشرع أو فى اللسان جاء استعمالها كاستعمال الحديث وكان التفسير لها هو ماذكروا . فان جاءوا بشئ من ذلك قلنا : صدقوا و إلا فلا هروب لهم من اقتحام الحقيقة والرضا بالأمر الواقع والحق الذى لاغضاضة على قابله .

على أن فى الحديث شيئاً يدل على ماننهب إليه دلالة قاطعة

على أن فى الحديث شيئاً يدل دلالة قاطعة على ماننهب إليه وعلى فساد مايذهبون إليه : هذا الشئ هو قوله عليه الصلاة والسلام : « و إن شئت صبرت وهو خير لك » . فانه لو كان مافى الحديث سؤالا بالذات والكرامة والحرمة والجاه ، وكان السؤال بهذه الأمور من التوسل إليه تعالى ومن ابتغاء الوسيلة المذكورة فى الكتاب العزيز ـ والمخالفون يزعمون هذا كله ـ لما أمكن أن يشير النبى على الأعمى بالصبر والترك . فان الصبر عن التوسل والتقرب إلى الله بما يقرب منه حقيقة لا يمكن أن يختاره النبى عليه السلام لأحد من عباد الله ، ولا يمكن أن يرغب فيه مسلماً ولا كافراً ، لأن الخلق جميعاً مطالبون أبداً بالتقرب إلى الله و بابتغاء الوسائل المقربة لديه كلها . وترك هذا التوسل لا يمكن أن يكون خيراً ولا أن يكون فيه خير ، بل هو شر كله . والمخالفون اليوم وقبل اليوم يزعمون أن التوسل إلى الله وسؤاله بالنبى و بالأولياء والصالحين : الأحياء منهم والأموات ، من أفضل الطاعات وأشرف العبادات . وعندهم أن العبد يزداد أجره وثوابه و يعظم فضله بحسب مايفعل من ذلك وعلى قدر مايدعو الله به و يرغب فيه . بل لعل طوائف من هؤلاء الضلال الحيرى يحسبون أن دعاء الله بغير هذه الوسيلة لايقبل وأن دعاءه بها مقبول على كل حال كما ذكر هذا الرافضى فى القصيدة التى وضعها فى آخر كتابه هذا أن دعاء الله عند القبور مقبول وأن دعاءه تعالى بعيداً

عنها غير مقبول ! فمن قوله فى تلك القصيدة النكراء المشئومة :

من غلو الشيعة فى القبور

لا بدع أن كان الدعاء إليه فيـ * ـها صاعداً و بغيرها لم يصعد

وهذا القول عند جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم من أقوال الردة والكفر الواضح . ونعوذ بالله من الخذلان . وقبل هذا البيت :

وكذا الصلاة لدى القبور تبركا * بذوى القبور فليس بالصنع الردى

إن الأئمة من سلالة هاشم * ثقل النبي وقدوة للمقتدى

قالوا : الصلاة لدى محل قبورنا * فى الفضل تعدل مثلها فى المسجد

عنهم روته لنا الثقات فبالهدى * عنهم إذا شئت الهداية فاقتد

شرف المكان بذى المكان محقق * وأخو الحجا فى ذاك لم يتردد

خير عبادة ربنا فى مثله * من غيره ، فاليه فاعمد واقصد

وكذلكم طلب الحوائج عندها * من ربنا أرجى لنيل المقصد

بركاتها ترجى لداع ، إنها * بركات شخص فى الضريح موسد

لا بدع إن كان الدعاء إليه « البيت »

والقصيدة أغلبها من هذا النوع الفاحش المناقض لدين الإسلام ولغيره من أديان الله . ومن خذلان الله المشايع لهذا الشيعى الذائد عن عبدة الأجداث والأحجار والأشجار والتماثيل أنه قال بعد هذا الاطراء والترغيب فى العبادة لدى القبور و إليها وفيها :

تناقض لا مثال له

والنهى جاء عن الصلاة إلى القبو * ر كما رواه أحمد فى المسند

لكنه إن صح غير المدعى * وكذاك منه حرمة لم تقصد

لكنما منه الكراهة قد بدت * للفهم فى النظر الصحيح الجيد

فهو بعد أن امتدح العبادات فى القبور وعندها و إليها ، و بعد أن ذكر أن الأئمة من سلالة هاشم قد قالوا : إن الصلاة عند قبورنا أفضل من الصلاة فى

المساجد كلها ، وإن الدعاء عندها أقرب إلى الاجابة والقبول ، وإن الدعاء فيها لا بد أن يصعد إلى الله ، وإن الدعاء فى غيرها من المساجد وغيرها لا يصعد : بعد أن ذكر هذا كله يقول : إن الصلاة إلى القبور مكروهة ! وأى خذلان من الله العظيم يعدل هذا الخذلان ؟

فقول النبى عليه الصلاة والسلام للاعمى : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » يدل دلالة لا ريب فيها على أن المعنى فيه خلاف ما يذهبون . فان هذا القيل من النبى ترغيب ، ولا شك ، لذلك الطالب الدعاء منه فى أن يترك هذا النوع من التوسل والتوجه . فان كان ما فى الحديث سؤالا بالذات الذى نأباه نحن ويرضاه المخالفون كان الحديث دليلا ظاهراً على أن الأحسن الأفضل للمسلم ألا يتوسل هذا التوسل ، وألا يتوجه إلى ربه وحاجته هذا التوجه . ولكن المخالفين لنا لا يسلمون هذا ، بل هم يزعمون أن التوسل بذوات الأنبياء والصالحين والأولياء المقربين وبحرماتهم وكراماتهم وجاهاتهم من الخير المرغب فيه ومن الدين ومن الوسيلة التى أمر القرآن بابتغائها إلى الله . والله لا يأمر بما الأحسن تركه ، ولا بما الأفضل الرغبة عنه بلا خلاف . فالحديث إذن عليهم لا لهم . وقد قدمنا فى الفصول السابقة أن سؤال الله بالذوات والأشخاص ، وأن التوسل إليه بالحرمات والجاهات والكرامات من الأمور الفاسدة الباطلة عقلا وشرعاً ونظراً وقياساً وعرفاً ووجداناً ، وأنه من الهذيان الذى أحدثه من لا يعرفون اللسان ولا فنون القول ولا مذاهب العقليات والشرعيات . هذا جواب قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » وقوله : « إنى توجهت بك إلى ربى » .

الجواب عن قوله « يا محمد ».

وأما الجواب عن قوله : « يا محمد » وقول المخالف : إن هذا دعاء له وهو غائب ، وإنه يدل على جواز دعاء الغائبين ، وإنه إذا جاز دعاء الغائبين جاز دعاء الأموات فيقال فى الجواب : لا يوجد فى الروايات التى ذكرها المخالف لفظ واحد

يدل على أن الأعمى دعا هذا الدعاء وهو عنه عليه الصلاة والسلام غائب . فان الذى فى الخبر أن النبى أمره أن يتوضأ و يحسن وضوءه و يصلى ركعتين و يدعو بالدعاء المذكور. وفى إحدى الروايات أنه أمره أن يأتى الميضأة فيتوضأ فيصلى فيدعو . وفيه فى غير رواية الترمذى وابن ماجه والنسائى قول عثمان بن حنيف « فوالله ماتفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط » . وهذا كله لايدل منه شئ دلالة قاطعة على أنه دعاه غائباً . و بهذا يسقط الاحتجاج مرة واحدة . و يدل على أنه لم يدعه غائباً ، وعلى أنه لا يصح أن يدعوه كذلك أن الأعمى حينما أراد منه أن يدعوله جاءه. ولم يطلب منه أن يدعوله وهو عنه غائب، بل احتاج إلى أن يذهب إليه و إلى مكانه وأن يقول له : يارسول الله ادع الله أن يعافينى . وهذا لأن المسلمين جميعاً ، بل الخلق كافة ، مفطورون على أن دعوة الغائب غير ممكنة وغير جائزة . ومن ثم لم يكن المسلمون يخاطبون النبى ولا يطلبون منه دعاء ولا شيئاً من الأشياء وهم عنه غائبون ، لأنهم كانوا يعلمون أنه بشر مثلهم لايسمع إلا القريب كما لا يرى إلا القريب ـ خلا المعجزات التى أيد الله بها دعوته و رسالته . و إلا فهو بشر مثلهم كما نطق الكتاب . ولا يختلف المسلمون أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ بله من دونه ـ لم يكن يدعى و يخاطب إلا حاضراً مشهوداً مرئيا ، ولا يختلفون فى أن من دعاه من كل مكان ـ زاعماً أنه يسمعه و يعلمه ـ فقد ضل وجهل وأبعد فى ضلاله وجهله . وكل هذا من ضرورات الإسلام وقواطع الملة . فالحديث نفسه لايدل على أنه دعا الدعاء المذكور فى مغيب النبى .

هل دعا الاعمى الدعاء المذكور غائبا عن النبي وإذا كان ذلك فما جوابه

ثم إذا فرض أنه دعا الدعاء المذكور غائبا عن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن دالا على شئ مما يذهب إليه المخالف . وذلك أنه فى هذا الدعاء لم يطلب منه عليه السلام أمراً ولم يسأله شيئاً لادعاء ولاحاجة . فانه قد طلب منه أن

يدعو له بالشفاء والعافية ورد البصر وهو منه قريب حاضر، فقبل النبى عليه السلام أن يدعو وأمره أن يدعو بالدعاء المذكور المتفق عليه. وقوله فيه: « يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى » لايريد به أن يسمع منه، ولايطلب منه شيئاً غير ماطلبه منه وهو عنده حاضر. والدليل عليه أن النبى هو الذى لقنه وعلمه ذلك الدعاء، ولايمكن أن يقول له اطلب منى أن أدعو لك لأدعو. فان هذا لامعنى له. فلا يراد إذن بقوله: « يامحمد » إسماعه عليه الصلاة والسلام ولا سؤاله أمراً جديدا، لأن المطلوب منه هو الدعاء لرد البصر وقد قبل منه أن يدعو له بذلك ووعده به. والخطاب هنا فى قوله: « يامحمد » مثل الخطاب فى قول المتشهد فى الصلاة: « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ومثل الخطاب فى قول زائر القبور: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » الحديث، ومثل الخطاب فى أمثال ذلك. فانه لايراد بشئ من هذا الخطاب إسماع المخاطب ولا دعاؤه حقيقة. فان المسلمين يقولون فى تشهدهم ذلك القيل أين كانوا وأين وجدوا. ومن المستحيل أن يريدوا بخطابهم النبى إسماعه وإعلامه، ومن المحال أن يظنوا أنه يسمع ذلك منهم. وكذلك من المحال أن تقف فى طرف المقبرة الطويلة العريضة فتقول، جهراً أو همساً: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » فيسمعوك أو يعلموك.

ومن الدليل على أنه لايراد بهذا الخطاب والنداء الاسماع والطلب الحقيقى أنه فى خطاب الله قال: « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك » بأسلوب المضارع المستقبل وأسلوب الحال. وفى خطاب النبى قال: « يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى » بأسلوب الغابر الماضى. وهذا لأنه قد توجه به حقاً وطلب منه الدعاء ليشفيه الله وليرد له بصره. أما فى خطاب الله فكان الخطاب خطابا حقيقياً فأورده بصيغة المستقبل الذى أريد به نيل رجاء مستقبل، وهو الشفاء والاجابة

وأما فى خطاب النبى عليه الصلاة والسلام فكان الخطاب ماضيا لأنه أريد به شئ قد فرغ منه وقضى وهو الدعاء وقد دعا له .

ومن الدليل على هذا أنه فى خطاب النبى لم يطلب منه شيئا ، لا دعاء ولا شفاعة ولا غير ذلك . فما قال : ادع الله لى ، أو إنى أسألك أن تدعو الله ليرد بصرى ولا شيئاً من هذا النوع ، وإنما قال : « إنى توجهت بك إلى ربى » . ويراد بهذا التوجه طلب الدعاء منه ، وقد طلبه ذلك قبل أن يأمره بهذا الدعاء فأجابه إلى طلبه . فقوله هنا : « يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى » معناه إنى توجهت بدعائك وشفاعتك إلى الله ليشفينى وإنما قال : « يا محمد إنى توجهت بك » إحضاراً للبعيد ، وإقامة للغائب مقام الحاضر ليدل على مكانة الصلة بين الداعى والمدعو ، وعلى قوتها وشدتها ، وليدل على استحضاره فى الذهن والقلب والنفس والقصد ، حتى كأنه حاضر فى الشاهد وللعين الباصرة . وكثيرا مايقام الغائب مقام الحاضر لأجل هذا المعنى . والضمائر ينوب بعضها عن بعض كثيراً . وقد يدعو المحب حبيبه دعوة الحاضر السامع الشاهد وهو غائب أو ميت ، ويخاطبه خطاب القريب الرائى المرئى وهو فى غيابات الخفاء والاضمار والبعد والعدم . وقد يرثى الميت ويدعى بضمير الحضور ، مع أنه لا حضور ولا شئ من ذلك ، وإنما هو الحضور الذهنى التصورى ، وإنما هو أيضاً تقريب البعيد لكثرة الرغبة فى قربه ولشدتها ، وللدلالة أيضاً على هذه الرغبة القوية . وقد يشتد التصور الذهنى ويقوى حتى يغلب سلطانه سلطان الحس وسلطان العين ، فيريها مالم تره ، ويسمع الأذن أيضاً ما لم تسمعه . والخيال قد يؤلف وجوداً لا وجود له ، ويهب هذا الوجود « الخيالى » أحكام الموجود الحقيقى . هذه فنون من الخيال والكلام معروفة مطروقة . وهذه اللفظة فى الحديث ، لفظة « يا محمد » و « توجهت بك » . لاتعدو أمر هذا المذهب المعروف المطروق .

﴿ الشبهة السابعة شعر سواد وأشعار أخرى ﴾

جواب الشبهة السابعة وبيان ضعف قصة سواد ابن قارب التي فيها الاستشفاع بالرسول

أما ما ذكره من الأشعار فى هذا الباب فالجواب : أما ما ذكر عن سواد ابن قارب من قوله :

وإنك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله ياابن الأكرمين الأطايب
وكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعة * بمغنٍ فتيلا عن سواد بن قارب

فعن هذا جوابان : أحدهما أن قصة سواد بن قارب التى فيها هذا الشعر غير صحيحة الأسناد . وقد ضعفها الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (الجزء الثامن صفحة ٢٥٠) وقال : رواها الطبرانى باسنادين كلاهما ضعيف .

وقال الحافظ ابن كثير فى التاريخ فى آخر الجزء الثانى : قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامى حدثنا على بن منصور الأنبارى عن عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى عن محمد بن كعب القرظى قال : بينما عمر بن الخطاب جالس ذات يوم إذ مر به رجل فقيل له : يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار؟ قال : ومن هذا ؟ قالوا : هذا سواد بن قارب . . . وذكر القصة وفيها هذا الشعر . قال ابن كثير بعد ذكر القصة بتمامها : وهذا منقطع من هذا الوجه . ويشير ابن كثير إلى أن محمد بن كعب القرظى لم يدرك ولم يسمع عمر بن الخطاب فتكون روايته عنه منقطعة . ورواه الحافظ أبو نعيم أيضاً فى « دلائل النبوة » من هذا الوجه من حديث عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى عن محمد بن كعب القرظى . وهذا ضعيف جداً واهٍ للغاية . وعثمان بن عبدالرحمن الوقاصى هذا متفق على ضعفه ووهاء أمره . قال ابن معين : لايكتب حديثه ، كان يكذب . وقال ابن المدينى : ضعيف جداً . وقال الجوزجانى : ساقط . وقال يعقوب بن سفيان : لا يكتب حديثه أهل العلم . وقال البخارى : تركوه . وقال أبو حاتم : متروك الحديث ، ذاهب . وقال أبو داود : ليس بشئ . وقال الترمذى : ليس بالقوى .

وقال النسائى : متروك . وقال الساجى : يحـدث بأحاديث بواطيل . وقال ابن البرقى : غـير ثقة . وقال البزار : لين الحديث . وقال أبو أحمـد الحاكم : متروك الحديث. وقال ابن حبان : كان يروى عن الثقات الموضوعات، لايجوز الاحتجاج به . وقال ابن عدى : عامة أحاديثه مناكير إما إسناداً و إما متناً .

فهذه القصة التى فيها هذا الشعر واهية الاسناد جداً لا يجوز الاحتجاج بها ولاالالتفات إليها . ولا يحل لهؤلاء المخالفين أن يحتجوا بأحاديث بمجرد روايتها فى بعض كتب الحديث التى تروى الصحيح والضعيف والموضوع المكذوب الباطل حتى يعلموا أنها صحيحـة ثابتة عن النبى عليـه السلام . وقوم يستحلون القدح فيما رواه البخارى ومسلم وما رواه غـيرهما من نقـدة الأخبار وجهابذة المحدثين كيف يستجيزون لأنفسهم ودينهم أن يحتجوا بمثل هذه الرواية.و إذا كان هذا الرافضى المصنف يقدح فى سـفيان الثورى و فى وكيع بن الجراح و فى غيرهما من ملوك المحدثين وأمرائهم فكيف يستحل لنفسه ولدينه الاحتجاج بمثل هذا الخبر ؟ بل هذا الرافضى لايقبل مايرويه أمثال أحمـد بن حنبل ومالك بن أنس والشافعى، بل ولا مايرويه أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان بن عفان. فأنّى يطيب له أن يتخذ من أمثال هـذه القصة حُكماً شرعياً يصول به و يجول ؟ بل هذا الرجل وطائفته الرافضة الامامية الاثناعشرية لا يبالون بالقرآن ولا بنصوصـه ، وهم يخطئون من يتمسكون به من المسلمين و يضللونهـم ، و يحملون عليهم حملات ظالمة آثمة.وقد قال أحد شيوخهم ، وهو الشيخ مرتضى الأنصارى التسترى فى كتابه المطبوع المسمى « فرائد الأصول» قولاً نصه : « إن المنهى فى تلك الأخبار (يشير إلى أخبار ذكرها توعـد من حاول فهم كتاب الله من غير طريقهم) المخالفون الذين يستغنون بكتاب الله عن أهـل البيت النبوى . بل و يخطئونهم به (يعنى بالقرآن) . ومن المعلوم ضرورة من مذهبنا تقديم نص

...اء الشيعة لمن ...ملون بكتاب الله ...وعمهم ان قول الامام مقدم على ...كتاب والسنة بالضرورة

الامام على ظاهر القرآن ، كما أن المعلوم ضرورة من مذهبهم (يعنى أهل السنة والحديث) العكس . ويرشد إلى هذا ماتقدم من رد الامام على أبى حنيفة حيث يعمل بكتاب الله . ومن المعلوم أنه إنما كان يعمل بظاهره لأنه كان يؤوله بالرأى إذ لاعبرة بالرأى عندهم مع الكتاب والسنة . . . » انتهى بحروفة من صفحة ٣٢

فاذا كان هؤلاء الشيعة الحيرى يهجون أهل السنة والحديث ويقعون فيهم ويستحلون ثلبهم وثلب أعراضهم ، ويستحلون إفساقهم وإكفارهم ، ويكفرون أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد لأنهم يستغنون بكتاب الله وسنة نبيه الصحيحة الثابتة عن غيرهما ، ولأنهم قد يرغبون عما تنقله الشيعة الكاذبة عن أهل البيت النبوى لأنه مخالف لكتاب الله ولسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان أحد أئمتهم على ماذكروا ينكر على الامام أبى حنيفة ويرد عليه ويسبه لأنه كان يعمل بكتاب الله ، وإذا كانوا يهجون أهل السنة جميعاً لأنه لاعبرة بالرأى عندهم مع وجود الكتاب والسنة ، ولأنهم يقدمون ظاهر القرآن على آراء الرجال : إذا كان هذا كله من مذهب الشيعة الظالمة لنفسها ولقومها فما قيمة هذا الخبر الباطل السقيم الاسناد لو كانوا يعدلون وينصفون الحق ومخالفيهم من أنفسهم ؟ وإذا كان معلوماً من مذهبهم بالضرورة تقديم رأى الامام على ظاهر كتاب الله ـ بله ظاهر الخبر النبوى ـ فما قيمة ظاهر هذه الرواية وظاهر هذا الشعر المنسوب إلى سواد بن قارب ، المذكور فيه أنه أنشده النبى فما أنكره عليه ؟ كل هذا لاقيمة له عندهم ، ولكنهم لاينصفون ولايعدلون ولا يصدقون .

وهم يقدمون آراء أئمتهم التى ينقلها كذبتهم على كتاب الله لأن كتاب الله لاقيمة ولامكانة له لديهم ، لأنه عندهم محرف : منقوص منه ومزيد فيه ، ومغير الترتيب والنظام ، قد تناوله كل مايزعمونه من عبث الصحابة المنافقين ، ومن تحريفهم وأهوائهم وإلحادهم وكفرهم . ولأن الذين جمعوه كفار لديهم . والكفار

لا يؤتمنون على كلام الله ، ولأنهم يزعمون أيضاً أن الصحيح الثابت من كلام الله لا يمكن فهمه إلا من طريق الأئمة من آل البيت المعدودين المحصورين . ومن حاول فهمه من غير طريقهم وسبيلهم فهو عين الضال الجاهل الآثم المارق .

وقد قال فى الكتاب المذكور أعنى « فرائد الأصول » صفحة ٣٢ أيضاً نقلا عن « مجمع البيان »: « قد صح عن النبى وعن الأئمة القائمين مقامه أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح والنص الصريح . وعن أبى عبد الله أنه قال لأبى حنيفة : أنت فقيه العراق ؟ قال : نعم . قال : فبأى شئ تفتيهم ؟ قال : بكتاب الله وسنة رسوله . قال : يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : نعم . قال يا أبا حنيفة لقد ادعيت علماً — ويلك — ما جعله الله إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم ! ويلك وما هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا ! وما أورثك الله من كتابه حرفاً . وفى رواية زيد الشحام قال : دخل قتادة على أبى جعفر فقال له : أنت فقيه أهل البصرة ؟ فقال : هكذا يزعمون . فقال : بلغنى أنك تفسر القرآن ! قال : نعم — إلى أن قال : ياقتادة إن كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت ، وإن كنت قد فسرته من الرجال فقد هلكت وأهلكت . يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به » انتهى بحروفه .

إنكارهم على من يشتغلون بفهم القرآن

فالكتاب والسنة لا وزن لهما عند القوم . وعندهم أن جميع نصوص القرآن ونصوص السنة وجميع الأخبار النبوية المتواترة وجميع الآراء والمذاهب والعلوم باطلة وزور وجهل وضلال . والعلم والدين والايمان — كل ذلك لا يعدو ما تنقله الشيعة الكذابة فى كتب الشيعة الكذوب عن زعومهم أئمة من آل البيت النبوى . وكل ماينقل فى كتبهم من إيمان وكفر وجهل وعلم وبلادة وذكاء كل هذا يجب الأخذ والعمل به عندهم بلا بحث ولا أسانيد ولا امتحان

ولا تنقيب عن الرواية والرواة ماداموا شيعة ، إمامية ، اثنا عشرية . ولهذا لا يعرفون معنى الاسناد ولا علم الجرح والتعديل ولا الصحيح والضعيف . وهذا من علوم أهل السنة والحديث وحدهم . وقد قال فى الكتاب المتقدم صفحة ٦١ :

زعمهم وجوب العمل بكل ما كتب فى كتبهم

« ثم اعلم أن أصل وجوب العمل بالأخبار المدونة فى الكتب المعروفة مما أجمع عليه فى هذه الأعصار ، بل لا يبعد كونه ضرورى المذهب » انتهى بالنص. وهذا صحيح لا شك فيه لديهم . فكل ما يروى فى كتبهم لاينازعون فى صحته وثبوته ووجوب العمل به ، وليكن ما يكون . أما أهل السنة والحديث فعندهم أن الاسناد من الدين ، وأنه لولا الاسناد لضاعت السنة وكلام النبوة ، ولقال من شاء ما شاء .

أهل السنة والحديث من عجيب أمرهم وطيبه

وعندهم أنه لا تقبل إلا رواية الثقة الثبت ، وأن غير الثقة مردود الرواية وإن كان عندهم إماماً من الأئمة المتبوعين ، وإن كان أصلح الناس وأتقاهم قلبا ونفسا وأزكاهم ورعاً وديناً . والدين عندهم والصلاح غير الضبط والحفظ والوثاقة فى الحديث . فقد يكون الرجل عندهم ديناً صالحاً فاضلا سليم الاعتقاد والمذهب ، ثم لايكون ثقة فى الحديث . ومن أعجب ذلك وأطيبه من أمر أهل السنة والحديث أن جماعات منهم ضعفوا الامام الأعظم أبا حنيفة النعمان فى الحديث من جهة حفظه . وهو لديهم الامام الحجة ، والفقيه الذى لايلحق له غبار فى هذا المضمار . بل هو عندهم أبو الفقة الفنىّ حتى قالوا فيه : «الناس عيال على فقه أبى حنيفة ». وقالوا فيه : « لو شاء أن يقيم الدليل على أن الصخر الأصم ذهب لا ستطاع » لقوة عارضته ، وسرعة بديهته ، ووفرة ذكائه ، ورجاحة ذهنه وعقله وقلبه . وقد قلده الجمهور الأكبر الأكثر من المسلمين لعظم شأنه وأمره فى الفقه والدين . . . وهذا كله لم يمنع طوائف من المحدثين أن يضعفوا حديثه وأن يعيبوه ويقدحوا فيه من جهة الحفظ والضبط . وقد ضعفه لذلك النسائى والدارقطنى والحافظ ابن عدى وآخرون غيرهم ، واجتنب التحديث عنه رضى الله عنه صاحبا الصحيحين :

البخاري ومسلم ، لأنهما لا يرويان إلا الصحاح الثوابت من الأخبار . وهذا كله لم يمنعه أن يكون عندهم الامام الاعظم ، والحجة الكبرى فى الفقه وفى الدين . ولكن الحديث — حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، عند المؤمنين أعلى وأغلى من الأئمة ومن الرجال ، وإن كانوا من كانوا ، عظم شأن ، وجلالة قدر ، ونباهة ذكر . وإذا كان المحدث نفسه قد لا يرضى حفظه ولا يأتمنه على أحاديث النبوة ، فيفزع لذلك إلى الكتاب والكتابة لئلا يضل وينسى ، فيزيد أو ينقص أو يحرف — كان ألا يأتمن من عرف بضعف الحفظ وقلة الضبط أولى وأحرى . وإذا لم يضر الرجل من المحدثين أن يرد الحديث الذى اتهم نفسه على حفظه وضبطه — لأنه عهد من نفسه ضعف الحافظة لأمر من الأمور — لم يضر الامام أبا حنيفة رضى الله عنه أن يجتنب حديثه من عرفه بقلة الحفظ ونسيان المروى . ويشبه هذا العجيب الطيب من أمر المحدثين ماذكر الامام مسلم فى مقدمة الصحيح قال : حدثنى محمد ابن أبى عتاب قال حدثنى عفان عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان عن أبيه قال : لم نر الصالحين فى شىء أكذب منهم فى الحديث . قال ابن أبى عتاب : فلقيت محمد بن يحيى بن سعيد القطان : فسألته عنه فقال عن أبيه : لم نر أهل الخير فى شىء أكذب منهم فى الحديث . قال مسلم : يقول يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدونه . قال مسلم : حدثنا حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب أخبرنا حماد بن زيد قال قال أيوب : إن لى جاراً — ثم ذكر من فضله — ولو شهد عندى على تمرتين ما رأيت شهادته جائزة . قال مسلم أيضا : حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا الأصمعى عن ابن أبى الزناد عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ، ما يؤخذ عنهم الحديث — يقال : ليس من أهله .

هم حواريو رسول الله

وهذا الصنع من أهل السنة والحديث يشهد بحق واضح الدلائل على أنهم هم حواريو رسول الله ، وأنهم هم الذين اختارهم الله وهيأهم لحفظ دينه ، ليكونوا

شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا . فرضى الله عنهم ونضر وجوههم. فلولا أسانيدهم وعلمهم وتصحيحهم وتضعيفهم وقولهم : هذا ثقة ، وهذا كذاب وذاك صدوق صادق ، وهذا ضابط حافظ ، وهذا سيء الحفظ والضبط ، وهذا مجهول وهذا معروف ، وهذا حق وهذا باطل : لولا هذا كله لعز علينا وعلى المسلمين اليوم وقبل اليوم تمييز كلام النبوة من كلام الكذابين ، والتفريق بين صحيح النسب برسول الله و بين الضعيف الباطل النسب ، ولكانت أنساب الأحاديث اليوم إلى رسول الله كأنساب من يزعمون اليوم من ذرية رسول الله ومن ذرية فاطمة والحسن والحسين : كلاهما يعوزه الدليل ، وكلاهما أفسده الكذب والتدجيل، وكلاهما قطع ظهره وصلبه الظلام والضلال وانقطاع الاسناد . ولكن ديناً شاء الله أن يكون خاتم الأديان شاء له أن يحفظه بأهل الحديث، لتبقى الحجة، ولتزول العلة ، ولتبطل المعذرة ، ولتظل صلة الأرض بالسماء محفوظة قائمة ، وليبقى هذا البصيص السماوي الالهي متألقاً لامعاً بين حنادس هؤلاء الناس وحنادس ظلماتهم وضلالاتهم، و بين حنادس هذه الأرض المظلمة ، ليهتدي به من شاء لنفسه الهدى ، و يسري عليه من طلب السرى ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وأنا أشهد لله أن علم الاسناد ـ كما خلفه أهله ـ ليس مما تهتدي إليه العقول والبداهات بسرعة و يسر وقرب ، فلابد أن يكون اهتداء أهل الحديث إليه وتوفيقهم له حتى أقاموه كما هو اليوم معجزة من معجزات الاسلام ، ولطيفة من لطائف الله خص بها هذه الأمة ، وخص بها من هذه الأمة أهل السنة ، وخص من أهل السنة بها أهل الحديث . فهم خاصة من خاصة من خاصة ، وخيار من خيار من خيار . إذن فقصة سواد هذه التي فيها هذا الشعر غير صحيحة وغير قائمة الاسناد ، فلا يحل الاحتجاج بها في أبواب الدين والايمان .

والجواب الثاني عن هذا الشعر إن كان صحيحاً أن يقال : إنه لا شيء مما فيه

لولا الاسانيد

الجواب الثاني عن شعر سواد بن قارب ان كان صحيحا وبيان دلالته على خلاف ما زعموا

يدل على شيء مما اختلف فيه . أما قوله : «و إنك ادنى المرسلين وسيلة إلى الله» فمعناه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أعظم الأنبياء ، وأعظم عباد الله جميعاً قربة إلى الله ، وأقربهم قربا ، وأعظمهم منزلا ومنزلة لديه تعالى . لان الوسيلة ، كما تقدم ، هى القرب والقربة والدرجة الرفيعة ، وهى المنزل العلى من منازل الجنات العليا . وهذا لا شك فيه . ولا شك فى أن رسول الله أعظم الخلق جاهاً وأسماهم مكانة ، وأدناهم مكانا إلى الله ، وأن له لديه تعالى أعظم الوسائل وأشرفها وأرفعها وأعزها . ولكن ليس الخلاف فى هذا . فان كان الرافضى يريد بصوله وجوله وشوله أن يثبت بهذا الشعر أن رسول الله أقرب الخلق إلى ربه وأعظمهم منزلة ومنزلا و وسيلة لديه وأكرمهم عليه فليرح نفسه من عناء البحث ، ومن التزيد بالروايات الباطلة . فان مخالفيه أسبق منه - إن شاء الله - إلى إثبات هذه الحقيقة والاقرار بها والدعوة إليها . ولو تدبر الشيعى هذه اللفظة لوجدها إلى الرد عليه أقرب من أن تكون رداً على مخالفيه . وذلك أنه جعل لرسول الله عليه الصلاة والسلام وسيلة إلى الله بقوله : « و إنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » . ولم يجعله نفسه وسيلة ، أى لم يقل : و إنك وسيلة إلى الله ، أو الوسيلة ، أو إحدى الوسائل إليه تعالى . و إذا كان قد جعل للرسول نفسه وسيلة إلى ربه ، فالوسيلة إما أن يكون معناها هو معناها اليوم عند العوام ونظرائهم من سؤال الأموات وسؤال الله بهم ، ومن العكوف على القبور وجميع هاتيك المصائب العملية الاعتقادية التى وقع فيها جماهير المسلمين ، أو يكون معناها المنزلة الرفيعة عند الله والقرب منه والتقرب إليه تعالى بأصناف العبادات والطاعات وفنون الخيرات. فان قالوا: إن المراد بالوسيلة فى الشعر هو المعنى الأول قيل لهم : إذن يكون معنى قوله : « و إنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » « و إنك أكثر الناس عكوفا على القبور وانقطاعاً إليها ، ودعاء لأصحابها ، واستغاثة بهم ، و رجوعاً إليهم ، و بكاء وخضوعاً

وخشوعاً بين أيديهم ». وهذا لايقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم . ولو كان المعنى هو هـذا لـكان الشعر المذكور هجاء لرسول الله لا مديحاً . وإن قالوا: إن المراد بالوسيلة هو المعنى الثانى كان معنى قوله : « وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » « وإنك أعظم الخلق قربة وقربا إلى الله، وأقواهم صلة به ، وأسماهم مكانة ومكانا لديه ، وأكثرهم أعمالا صالحة لوجهه وإرضاء له ورضا عنه وبه . . . » . وإذا كان هذاهو المعنى ـ وهو هو بلا شك ـ كان رداً على القوم لو يشعرون وينصفون .

جواب قوله « وكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة »

وأما قوله . « وكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعة » فالجواب أن هذا القيل مما يرجع إلى بحثه فى فصل الشفاعـة الماضى . ومن الجواب عنه أن يقال : إنه من الاستشفاع بالحى ، والاستشفاع بالحى لاخلاف فى جوازه . فاذا قيل :كيف يطلب من الرسول عليه السلام فى الحياةالدنيا أن يشفع له يوم القيامة ، والشفاعة يومذاك لا تكون إلا بعد إذن الله ، فكأنه بهذا قد طلب من الرسول ما لا يملـكه ، وما لا يقدر عليه ـ فالجواب ـ إذا سلم أنه يعنى بيوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلا عنـه يوم القيامـة ، مع أنه يمكن الشك والخلاف فيه ـ أن يقال إذا سلم ما زعموه أن هـذا السؤال ليس خاصـاً بنا دون مخالفينا ، وليس منطلقا إلى من يمنعون التوسـل المرذول دون من يجيزونه ، ويدعون إليـه ويفعلونه ، بل هو سؤال مندفع إلى الجميع إن كان سؤال حق .

والذى نقوله نحن أنه لا يجوز سؤال الأموات الشفاعـة ، وهذا الشعر ليس فيـه سؤال للأموات ، فلا دليل للمخالف ألبتة . ومن الجواب عن هـذا السؤال المد ـك أن يقال : إنه طلب منه شيئاً يقدر عليه ، لأن الله قد أخبر بأنه سوف يشفع لجميع الخلائق . ولا شك فى صـدق خبر الله ووقوعه . فالنبى عليه الصلاة والسلام يشفع الشفاعـة الـكبرى العامة بلا ريب . وسوف تنال شفاعتـه هذه الجميع . فقوله : « وكن لى شفيعاً » هو طلب لشفاعة مطلقة ، لم توصف ولم تعين

إلا بيومها ، والرسول بلا شك سوف يشفع له فى من يشفع لهم . فكأنه قد طلب شيئاً لا بد من وقوعه وحصوله ، ولا شك فيه . وقد أقره الرسول على طلبه لصدقه فيه ، ولعلمه أنه سوف يشفع له ولغيره يوم القيامة بما وعده ربه . ولا مخلف لوعد الله سبحانه .

وأما ما ذكره من استسقاء الأعرابى بالنبى عليه الصلاة والسلام بقوله :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق الا إلى الرسل؟

جواب قوله «وليس لنا الا اليك فرارنا»

فالجواب أولا المطالبة بالصحة . وهيهات ذلك . وقد قال الحافظ فى فتح البارى : رواه البيهقى من حديث مسلم بن كيسان الكوفى الضبى الملائى الأعور وضعف سنده لذلك . ومسلم هذا مجمع على ضعفه، وقد ذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب والحافظ الذهبى فى الميزان ، وذكرا إجماع الناس على ضعفه والقدح فيه و فى حديثه. فلا يحل الاحتجاج به . وقد صح عند شيوخ الحديث أنه كان وضاعاً كذاباً .

جواب ثان عن الشعر

ويقال ثانياً : إن هذا الشعر إن ثبت لا يدل على مازعموا . فما فيه سؤال المخلوق مالا يقدر عليه إلا الله ، ولا سؤال الله بجاه المخلوق ، أو بكرامته أو حرمته أو بقبره أو بذاته أو بشخصه ، ولا فيه الإقسام بغير الله ولا العكوف على القبور ولا الانقطاع إليها . . . وإنما فيه الفزع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام عند اشتداد القحط ، ليدعو الله وليسأله إنزال غياثه ورحمته على عباده و بلاده . . . وهذا متفق على جوازه و إباحته . وقوله : « وليس لنا إلا إليك فرارنا » معناه أننا لا نفر ولا نفزع عند إلحاح القحط علينا و إمساك السماء ماءها إلا إليك يا نبى الله لتدعو الله وتشفع لنا لديه . لأنك مقبول الشفاعة مسموع الدعاء عنده . وقوله : « وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل » معناه : وأين يذهب العباد إذا ما التمسوا شفيعاً لهم عند ربهم مستجاب الدعوة قريب المكان والمكانة — إلا إلى أنبيائهم و رسلهم ، لأنهم هم أقرب الخلق إلى الخالق ، وأدناهم إلى رحمته

و إلى إجابته و رضاه... ولكن هذا الأعرابي لم يقل هذا القول للرسول عليه السلام بعد وفاته وصعوده إلى الأملاء العليا . و إنما قاله وهو حى حاضر بين أظهرهم ، على مسمع منهم ومرأى . فأين هذا من ذاك ؟

من كلمه الرافضى

وأما قوله : روى البخارى أن النبى عليه السلام لما استسقى فسقى الله عباده قال : « لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه : من ينشدنا قوله ؟ » فقيل : كأنك أردت قوله : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه البيت . . . فالجواب أن يقال : هذا كذب فليس هو فى البخارى كما ذكر . و إنما فى البخارى أن عبد الله بن عمر كان يتمثل بقول أبى طالب : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه . « البيت » . وروى عنه أنه قال : ربما ذكرت ، وأنا أنظر إلى وجه النبى يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب قول الشاعر : وأبيض يستسقى الغمام . البيت . وهذا الذى ذكر أن البخارى رواه ذكر الحافظ العسقلانى فى فتح البارى أن البيهقى رواه فى دلائل النبوة باسناد فيه مسلم بن كيسان الكوفى الملائى المتقدم . وهو كذاب وضاع للحديث كما مر . وقد ضعف الحافظ السند لذلك

وسواء أكانت الرواية التى عزاها إلى البخارى صحيحة أم كانت ضعيفة باطلة فانها لاتدل على ماذهب إليه . وذلك أن قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

الجواب عن شعر ابى طالب وقوله « وابيض يستسقى الغمام بوجهه »

يراد به أن الغمام يستسقى بشفاعته ودعائه ، وأنه يدعو الله ويسأله الغيث لعباده و بلاده فيجيبه و يسقى البلاد والعباد ، وأنه لذلك كهف للأيتام والأرامل لأن الأيتام والأرامل من الضعفاء ، والضعفاء لايضيعون ولا يجوعون و يحتاجون إلا أيام الجدب والجهد والقحط والبلاء . ومن كان يدعو ربه عند الجدب والضر والجهد والقحط و يستسقيه فيجيب دعاءه واستسقاءه فلاريب فى أنه أمان للضعفاء وثمال لليتامى ، وعصمة للأرامل . و « الثمال » هو مزيل الحاجة والضرورة

والبؤس . والعصمة هو ما يعتصم — أى يحتمى به . فهو ﷺ — إذا كان يغاث إذا استغاث الخلق — كهف وثمال وعصمة للضعفاء والمحتاجين على المعنى والمذهب الذى ذكرناه . فمعنى «يستسقى الغمام بوجهه» يطلب الغيث والمطر بدعائه وشفاعته وهذا استعمال عربى واضح ظاهر لا ريب فيه . ومن الدليل عليه تمثل ابن عمر بهذا الشعر حين يستسقى النبى عليه السلام فيسقون . وتمثله به تلك الساعة نص فى أن معنى الاستسقاء بوجهه الاستسقاء بدعائه وشفاعته . ولا ينازع فى ما ذكرناه أحد من أهل العلم .

﴿ الشبهة الثامنة أمر عثمان بن حنيف الرجل الذاهب إلى عثمان بن عفان ان يتوسل بالنبى عليه السلام ﴾

أمر عثمان بن حنيف لرجل ان يتوسل بالرسول بعد وفاته وفعل الرجل وجواب ذلك كله

وذلك مارواه الطبرانى فى المعجم من حديث أصبغ بن الفرج عن عبدالله ابن وهب المصرى عن شبيب بن سعيد البصرى الحبطى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر المختلف فيه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له ، فلقى عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة . يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك عز وجل فيقضى لى حاجتى » وتذكر حاجتك . فانطلق الرجل فصنع ما قاله له ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له: ماذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة . وقال : ما كانت لك من حاجة فائتنا . ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى ، فقال ابن حنيف والله ما كلمته ، ولكن شهدت رسول الله وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب

بصره فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « أفتصبر ؟ » فقال يارسول الله إنه ليس لى قائد وقد شق على . فقال له رسول الله : « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات » . قال ابن حنيف : فو الله ماتفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال المخالفون : وهذه الرواية تدل على جواز الاستشفاع بالنبى وعلى جواز ندائه والسؤال والتوسل به بعد مماته ، فانه لو لم يكن ذلك جائزاً كله لما أمره به ولما أجازه عثمان بن حنيف وهو من صحابة النبي الأبرار الذين شهد الله لهم فى كتابه بالعدالة والايمان والهدى وسلوك الصراط المستقيم ، وأخبر أنه قد رضى عنهم وتاب عليهم ووعد كلا منهم الحسنى ، وجعلهم الشهداء على عباده المؤمنين، وأمر باتباعهم وبالنهج منهاجهم والسير على آثارهم ، رضى الله عنهم أجمعين . قالوا : وماجاء أن أحدا منهم أنكر على عثمان بن حنيف فعله هذا ولا عارضه أو نازعه ، ولا جاء أن عثمان نفسه رجع عنه أو ساءل عن حكمه وفهمه . قالوا : ومن البعيد الذى لاترضونه أنتم لأنفسكم أن تزعموا أن أصحاب النبي عليه السلام يقعون فى مثل هذا الضلال وهذا الباطل وأن توقوه أنتم وتسلموا منه ، فتكونوا أهدى وأرشد وأعلم بالاسلام والايمان والتوحيد منهم ! وهذا بعيد جدا كما أنه باطل وقبيح جداً كما أنكم أنتم تستقبحونه لأنفسكم جداً .

والجواب أن نقول : إننا قد قدمنا فى جواب الشبهة السادسة الكلام على سند هذا الحديث ، وذكرنا ماله ومافيه من العلل ومافيه من أسباب الضعف والوهن ، وذكرنا أن جميع طرقه تدور على أبى جعفر هذا الذى ذكرنا الاختلاف فيه ، وذكرنا أنه قد انفرد به عثمان بن حنيف دون غيره من الأصحاب ، وأنه انفرد به عنه أسعد بن سهل بن حنيف وعمارة بن خزيمة بن ثابت دون غيرهما من التابعين ، وأنه انفرد به عنهما أبو جعفر هذا ، وأنه اختلف فيه : فقيل : انه —

الخطمى ـ والخطمى وسط فى الثقات ، دون العدول الأثبات المتازين ، وفوق الضعفاء المتروكين ـ وقيل إنه غير الخطمى . و إذا كان غيره احتمل أن يكون ضعيفاً جداً ، وأن يكون ضعيفاً ضعفاً هيناً مقاربا ، وأن يكون ثقة ثبتاً ، وأن يكون مجهولا لا يعرف عنه شئ . وذكرنا أنه لم يسفر لنا ولا للباحثين الفاحصين وجه الصواب وحقيقة الرجل الراوى ، وحكمنا لذلك كله بضعف الحديث و بطلانه . وهذه الرواية هى إحدى رواياته ، فهى ضعيفة بضعفه ، مردوده برده ، فيها مافيه من أسباب الوهن والضعف ، وفيها من ذلك ماليس فيه كما سوف يرى القارئ . وقبل أن ينتقل القارئ من هذا إلى بقية البحث يحسن أن يرجع إلى ما كتبناه على الحديث فى الشبهة السادسة السابقة .

بيان علل هذه الرواية

وهذه الرواية قد أتت من حديث أصبغ بن الفرج المصرى وهو ثقة لا كلام فيه ، عن عبد الله بن وهب المصرى وهو إمام ثقة أيضاً ، عن شبيب بن سعيد الحبطى البصرى التميمى . وهذا فيه كلام سنذكره . عن روح بن القاسم ـ وهو ثقة ثبت ، عن أبى جعفر المختلف فيه عن أبى أمامة وهو أسعد بن سهل بن حنيف . وهو أيضاً ثقة لا كلام فيه من رجال الستة ، عن عثمان بن حنيف . فلا كلام على هذا الاسناد الا فى أبى جعفر وقد تقدم الكلام عليه ، وتقدم أنه غير معروف ولا معلوم الاسم والحال . فحديثه حديث ضعيف لذلك . و بقى أيضاً الكلام فى شبيب هذا ، الراوى لهذه الرواية عن روح بن القاسم .

وشبيب ثقة من رجال البخارى لا عيب فيه إلا أن الحذاق من المحدثين ذكروا لقسم من أحاديثه علة خفية . ذلك أنهم حدثوا عنه أنه كان سئ الحفظ وأنه كان يهم و يغلط إذا حدث من حفظه ، وأنه ثقة ثبت إذا حدث من كتابه . قالوا ولذلك حدث عنه عبدالله بن وهب المصرى بأحاديث منكرة ، لا تشبه أحاديثه وهذا لأنه كان يختلف إلى مصر متجراً ، فكان يأخذ عنه ابن وهب من حفظه

لامن كتابه ، فكان يغلط ، وكان يقع فى حديثه الوهم والضعف . . . وهذه الرواية التى رواها الطبرانى هى من حديث عبد الله بن وهب عنه، فهى من قسم أحاديثه التى يهم فيها والتى فيها هذه العلة الخفية ، والتى هى من قسم الضعيف .

وقد قال الحافظ الذهبى فى « الميزان » : « شبيب بن سعيد الحبطى البصرى ، صدوق يغرب . ذكره ابن عدى فى كامله فقال له نسخة عن يونس بن يزيد مستقيمة . حدث عنه ابن وهب بمناكير . قال ابن المدينى :شبيب بن سعيد ثقة كان يختلف فى تجارة إلى مصر ، وكتابه صحيح ، وقد كتبته عن ابنه أحمد ، وقد روى ابن وهب عنه . . . قال ابن عدى : شبيب لعله يغلط ويهم إذا حدث من حفظه ، وأرجو أنه لايتعمد . فاذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر، يعنى يجود » انتهى كلام الذهبى فى الميزان. وقال الحافظ العسقلانى « فى تهذيب التهذيب » فى ترجمة شبيب : « قال ابن المدينى : ثقة ، كان يختلف فى تجارة إلى مصر ، وكتابه كتاب صحيح . وقال أبو زرعة : لابأس به . وقال أبو حاتم : كان عنده كتب يونس بن يزيد ، وهو صالح الحديث لا بأس به. وقال النسائى : لا بأس به . وقال ابن عدى : لشبيب نسخة الزهرى عنده عن يونس عن الزهرى .أحاديثه مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث منكرة . وذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الدارقطنى : ثقة . ونقل ابن خلفون توثيقه عن الذهلى . ولما ذكره ابن عدى وقال الكلام المتقدم فيه قال بعده : ولعل شبيباً لما قدم مصر فى تجارته كتب عنه ابن وهب من حفظه فغلط ووهم ، وأرجو ألا يتعمد الكذب . وإذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر . وقال الطبرانى فى الأوسط . ثقة . . . » انتهى كلام تهذيب التهذيب

من علل هذه الرواية

فشبيب هذا فيه كلام إذا حدث من حفظه ـ ولاسيما إذا كان الراوى عنه عبد الله بن وهب ـ فانه حينئذ يكون مشكوكا فى حديثه .وهذه الرواية التى معنا من

حديث عبد الله بن وهب عنه ، فهي رواية يخشى أن تكون منكرة باطلة ، وأن تكون مما غلط و وهم فيه. لكن قد يدفع هذا التوهين بأن يقال : إن البيهقي روى هذه الرواية من غير طريق ابن وهب ، رواها من حديث إسماعيل بن شبيب عن أبيه شبيب هذا عن روح بن القاسم عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف عن عثمان بن حنيف . قال البيهقي : و رواها أحمد بن شبيب عن أبيه شبيب أيضاً . . . ولكن يقال : إن الذين أثنوا على شبيب وعلى حديثه إنما أثنوا عليه إذا حدث من كتابه فقط . أما إذا حدث من حفظه فقد يهم و يغلط سواء أكان الراوي عنه ابن وهب أم كان غيره . ولهذا قالوا : إذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر . وقال أبو حاتم : كان عنده كتب يونس ، فهو ثقة ضابط عن يونس لأنه إذا حدث عنه حدث من كتابه . وقال ابن المديني : إن كتابه صحيح . وقال ابن عدي : له يونس نسخة مستقيمة . فشبيب عندهم ثقة إذا حدث عنه ابنه أحمد عن يونس. أما إذا لم يحدث عن يونس وحدث عنه ابن وهب فهو يهم ويخطىء . وهو في هذه الرواية لم يحدث عن يونس وقد رواها عنه الطبراني من طريق ابن وهب فهي معلولة . و رواها البيهقي من حديث ابنه أحمد عنه عن غير يونس فهي عرضة لما ذكروه من الوهم والغلط . وقد قال الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري في جملة الرجال الذين قدح فيهم من رواة البخاري : « شبيب بن سعيد الحبطي أبو سعيد البصري ، وثقه ابن المديني وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدار قطني والذهلي . وقال ابن عدي : عنده نسخة عن يونس عن الزهري مستقيمة. و روى عنه ابن وهب أحاديث مناكير . فكأنه لما قدم مصر حدث من حفظه فغلط ، و إذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر لأنه يجود عنه . قلت : أخرج البخاري من رواية ابنه عنه عن يونس أحاديث ولم يخرج من روايته عن غير يونس ولا من

واية ابن وهب عنه شيئاً . وروى له النسائي وأبوداود فى كتاب الناسخ والمنسوخ » انتهى كلام ابن حجر من مقدمة فتح البارى . فالبخارى إذن لم يرو له عن غير يونس شيئاً ، ولم يرو له عن ابن وهب شيئا أيضاً . على أن بعض الناس كأبى الفتح الأزدى ، قد ضعفوا أحمد بن شبيب عن أبيه . فالرواية عند هؤلاء بهذا الإسناد ضعيفة . ولكننا نحن لانرضى إلا العدل والانصاف ، وننكره الجور والاعتساف ، فأحمد بن شبيب هذا ثقة ثبت ولا شك . ولم يوافق القادحين فيه السواد الاعظم من نقاد الحديث ، فوثقوه وقبلوه ، وصححوا حديثه . ونحن لا نقبل الشذوذ والتطرف غير المنصف ، فأحمد عندنا ثقة ثبت ، وان كان من مصلحة بحثنا ان يكون ضعيفاً ، ولكن كلا ، فانه لا مصلحة لنا غير الحق وغير التماسه أين كان . و إن كان المتشددون المتطرفون الذين يقدمون الجرح على التعديل مطلقا لايقبلون مثل هذه الرواية . ولكن هذا المذهب فى رأينا مذهب مسرف شديد ، يقضى برد أحاديث كثيرة صحيحة قبلها المسلمون وقبلها نقاد الحديث ونقاد الرواة .

فهذا الحديث ضعيف

لحديث شبيب هذا ـ إذا علم هذا الكلام فيه وضم إليه الكلام فى أبى جعفر المتقدم المتفرد به فى جميع الطرق للحديث ـ حديث ضعيف ذاهب، وعند المتساهلين حديث لا يرتفع إلى درجة الصحيح الذى تبنى عليه الأحكام أو تعرف به عقائد الاسلام . وأعلى ما يمكن أن يعطى من التقريظ والتجويد ومن إحسان الظن والتساهل أن يقال : إنه حديث حسن ، والحديث الحسن لا يجوز أن تبنى عليه أحكام الدين ، ولاسيا إذا كان معناه شاذاً غريباً كهذا الحديث ، ولاسيا إذا لم يكن له نظير فى الاسلام ، بل ولاسيا إذا علم أنه لم يروه من الصحابة غير عثمان بن حنيف وهو فى هذا المعنى الذى تشتاقه النفوس المسلمة ، ويطيب لها التحديث عنه و بعد لأن فيه معجزة من معجزات الاسلام أو كرامة من كرامات

النبي عليه الصلاة والسلام . كل هذا يوهن الرواية ويوهيها ، ويزيد فى إيهامها وتوهينها انفراد أبى جعفر هذا بها عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف دون غيره من الرواة المكثرين من الحديث والتحديث ، الحفاظ لأشتات الأحاديث فى أشتات العلوم النبوية الاسلامية .

ويزيد فى ضعفها — وقد يزيد فى إيهاء الرواية ووهنها إعراض أهل السنن عنها مع روايتهم لأصلها . فان الترمذى وابن ماجه والنسائى والامام أحمد رووا حديث الأعمى كما تقدم دون هذه الزيادة ودون هذه القصة ، قصة ذلك الرجل مع عثمان بن عفان وإعراض عثمان عنه وشكايته إلى عثمان بن حنيف . . . واقصار هؤلاء المحدثين عن تخريج هذه القصة مع أنهم قد خرجوا أصلها وخرجوا الحديث دونها إما أن يكون راجعاً إلى أنهم لم يطلعوا عليها ولم يعرفوها ، أو يكون راجعاً إلى أنها باطلة واهية عندهم ، أو يكون راجعاً إلى رغبتهم عنها مع علمهم بها وعلمهم بصحتها وثبوتها . أما القول بأنهم لم يطلعوا عليها ولم يعلموها فبعيد كل البعد ، لأن الرواية من أصل الحديث الذى علموه وخرجوه ، ولأن مثل هذه القصة جديرة بالاظهار والاشتهار . مع أننا لا ندرى لماذا يحدث من روى الحديث عنهم أصحاب السنن بأصل الحديث دون هذه القصة فيه . ونحن لا نستطيع أن نعزو هذا إلى النسيان ، لأن مثل هذه القصة لا يمكن أن ينساها من حفظ أصل الحديث إذ هى جديرة بالحفظ ووعى الذاكرة البليدة فضلا عن الذكية الألمعية . وأما القول بأنهم لم يخرجوها لأنها عندهم غير صحيحة فقول قد يكون قريباً مقبولا . أما معارضة هذا القول بأن أصحاب السنن ، مثل الترمذى وابن ماجه والنسائى ، يروون الأحاديث الضعيفة الباطلة الهالكة ، فمعارضة لا يجب أن تكون صحيحة . وذلك أننا لا نشك فى أنهم — وإن كانوا يخرجون الضعيف والباطل التالف — قد يدعون الحديث لأنه ضعيف ، ويرغبون عن تخريجه لأنه غير صحيح . فهذا لا يمنع هذا . وأما القول بأنهم رغبوا عنها زهداً

فيها مع علمهم بها وعلمهم بصحتها فتقول لا نعرف له وجهاً ولا حكمة ما دمنا نقول : إن هؤلاء المحدثين يدينون بالحكمة ، ويخضعون للصواب ، ويسلكون فى علمهم الجادة المسلوكة . ولا مندوحة عن هذا القول .

ويزيد ذلك

وقد يزيد أيضا فى اتهام هذه القصة واساءة الظن بها اشتمالها على ما يمس دين الخليفة الرضى المرضى عثمان بن عفان ، وما يمس ما عرف عنه من لين ورفق وحياء ودين وصلاح وورع ـ هذه الخلائق العثمانية التى لا تترك لصاحبها أن يعرض عن صاحب حاجة حقة وعن طالب عرف . . . وعثمان بن عفان رضى الله عنه كان من أرفق الناس وأبرهم بالناس ، ومن أقربهم إلى حاجات المحتاجين ورغبات الراغبين . . وكان هيناً لينا حييا ، تطرف عيناه من رؤية العنف والقسوة والظلم ، ويندى جبينه من مثل هذا الموقف . . . لهذا كله يبعد جدا أن يعرض عن ذلك الطالب ذلك الإعراض الذى حمل على الشكوى إلى آحاد الصحابة كعثمان بن حنيف ـ رضى الله عن الجميع . هذا قد يقال : وإن كان ليس عمدة عندنا ولا ظاهراً فى إضعاف الرواية وردها ، وإنما هو قول من الأقوال .

ويزيد الشك فى الرواية ايضا.

ومما يهيج الريب فى القصة أنه لم يرو باسناد صحيح مقبول أن أحد أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام فعل مثل ذلك . فما جاء أن واحداً منهم توجه بالنبى إلى ربه وسأل أو توجه به بعد موته . وقد كانوا رضى الله عنهم يمرون بأزمان وأزمات كانت تغريهم باللجوء إلى هذا السبب ، وإلى هذه الحيلة وهذه الوسيلة ، بل كانوا لا ينفكون بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى يتقلبون فى أمور وشئون تحمل على التمسك بأسباب النجاة كلها بكلتا اليدين . وقد مروا جميعاً بتلك الأرزاء والآفات ، وسبحوا فى اثباجها الرجراجة المخيفة رضى الله عنهم ، وعبروها على قوارب من الايمان بالله والانقطاع إليه وحده . . . فما

سألوه بجاه مخلوق ولا توسلوا إليه بأحد ، ولا توجهوا بغير إيمانهم وقلوبهم إلى خالقهم وصانعهم، ولا تعلقوا بسبب غير سبب العبودية الصادقة، ولا طلبوا نجاتهم وسعادتهم في غير الانقطاع إلى الله وحده لا شريك له . ولا شك أنهم لو فعلوا شيئاً من هذا لنقل إلينا عنهم كما نقل ما أصابهم من خلاف وفرقة ، وما لاقوه من كروب وبلاء، وماذاقوه من شدائد ومكايد ، وكما نقل عنهم غيره من أعمالهم وأفعالهم وما يتصل بهم . بل لقد جاء عنهم ما يدل على بطلان ذلك وكذبه ، وخلافه لما علموه وعملوه وأجمعوا عليه من الاسلام والدين . فقد جاء عنهم أنهم كانوا يزورون قبر النبي وقبري الشيخين ، فيسلمون وينصرفون ولا يزيدون شيئاً. وجاء عنهم ماهو أصرح وأوضح من ذلك فجاء أنهم كانوا إذا أصيبوا بالجدب والقحط طلبوا الغيث بدعاء الأحياء الصالحين . وما كانوا يرجعون إلى النبي ولا إلى سواه من الأموات . .. فكانوا يستسقون بالعباس بن عبد المطلب و بيزيد ابن الأسود الجرشي التابعي. وماقال أحد من هؤلاء ولا هؤلاء : كيف تستسقون بالعباس و بيزيد وعندكم رسول الله ؟ ولا ذهب أحد منهم إلى قبره ﷺ فاستسقى وطلب الشفاعة والدعاء سوى ماجاء في حديث مالك الدار، خازن عمر بن الخطاب . ولكن لم يصح في هذا أن الذاهب إلى القبر من الصحابة . والرواية التي فيها أن الذاهب هو بلال بن الحارث الصحابي رواية باطلة ضعيفة . فأصحاب النبي - وهم لايعلم عددهم حقيقة لا الله - قد أعرضوا جميعاً عن الرجوع إلى القبر النبوي و إلى غيره من القبور .

المسألة ليست مسألة روايات شاذة غريبة

والمسألة ليست مسألة روايات غريبة شاذة مجهولة ، و إنما هي مسألة الاسلام جملة ، ومسألة الدين والعقيدة والاجماع . وعقائد الاسلام ليست أدبيات ولا نحويات ولا لغويات تؤخذ بأمثال هذه الروايات الشاذة الباطلة . ولكن الاسلام دين المسلمين الأولين قد تلقي بالتواتر والاجماعات. وهؤلاء المسلمون لم يجيء عن أحد

منهم بسند مقبول محترم أنه فعل شيئاً من ذلك سوى ما فى هذه الرواية . فما أشذها وأبطلها وأكثرها خلافاً على الاسلام والمسلمين !

إننا لو اختلفنا فى مسألة لغوية أو نحوية أو صرفية فأدلى أحدنا برواية مثل هذه الرواية الشاذة المفردة معززاً بها أحد الأقوال ، ولم يأت بسواها من الدلائل عن أهل اللسان ولا عن قولهم الحجة الفاصلة فى هذا الشأن والموضوع ، بل جاء عنهم كلهم هجران مافى هذه الرواية وهجران ماتدل عليه من الرأى — : نعم لو جاء أحد برواية مثل هذه الرواية كى يثبت بها قاعدة من قواعد اللسان مفردة شاذة كهذا لما قبلت ولما صح الاحتجاج بها والبناء عليها ألبتة . فكيف مسائل الدين ومسائل الاعتقاديات ؟ ؟ إن الاسلام ، عقائده وأعماله وأحكامه ، منقول بالتواتر والاجماعات المتصلة ، لا بأمثال هذه الأباطيل والأكاذيب ، لأن الدين أعز وأغلى من أن يؤخذ بالروايات الشاذة أو الغريبة أو المنكرة أو الباطلة . وإنما هو حق لا يؤخذ إلا بالحق ، وإنما هو دين الله ، ودين الله لا يؤخذ من الواهى الواهن ، وإنما هو قوى ، والقوى لا يشاد إلا على قوى مثله . هذا ما يقال فى هذه الرواية من جهة الاسناد .

ما يقال فى معنى الرواية اذا صحت

أما مايقال فيها من جهة المعنى فنقول : إنها لاتعدو أن تكون اجتهاد صحابى ونحن لا نقول بعصمة كل اجتهاد يصدر من الصحابة كما تقول الشيعة فى من يغلون فيهم من آل البيت . والمعصوم عندنا هو رسول الله ، وكذا ما جاء عن الله ، وكذا إجماع الصحابة ، وكذا إجماع المسلمين . وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين معصومون عندنا . أما أفراد الصحابة وأفراد المسلمين من بعدهم فليس أحد منهم بعينه معصوماً ، ولا مفروضاً على المسلمين اتباعه دون غيره ، ولا تقليده فى كل ما يقول وما يجتهد فيه . ولهذا اختلف الصحابة واختلف من بعدهم من المسلمين فى بعض فروع الدين وبعض أحكامه ومسائله . ولو كان كل

أحـد منهم معصوماً لما اختلفوا ، ولما جاز أن يختلفوا . ولو كان كل فرد منهم مفروضاً على المسلمين اتباعه وتقليده لوجب أن يتبع الأمر وضده ، وأن يقلد فلان فى قوله : هـذا حلال ، وأن يقلد فلان الآخر فى قوله : هذا حرام . إذن فليس أحد من المسلمين معصوماً خلا رسول الله . أما من بعده فان أبا بكر الصديق أفضل الأمة المحمدية — بله من دونه من المسلمين — ليس معصوماً . ولهذا يقول الله فى كتابه خطاباً للصحابة ولمن بعـدهم وللناس جميعاً : « فان تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » . والآيات فى هذا المعنى — فى الأمر بالرد إلى الكتاب والسنة عنـد النزاع والخلاف — كثيرة معلومة ، غنى المقام عن إيرادها . ولهذا تنازع الصحابة ، وخالف بعضهم بعضاً ورد فريق منهـم على فريق . وقد خالف الأئمة الأربعـة ومن بعدهم ومن قبلهم من مشايخ الاسلام بعض الصحابة فى مسائل من أقوالهم وآرائهم ، بل خالفوا الخلفاء الراشدين فى بعض ذلك ، وهم سادة الأمة وصفوتها . لأنه قد تبين لهم من السنة والدين ما لا يصح خلافه ولا تركه . فما وجنوا عن اتباع السنة محيصا ولا مفراً ، ولا عن حكم الله مذهبا .

اختلاف الصحابة وخلافهم فى اجتهادهم

فهذا الذى ذهب إليه عثمان بن حنيف من تعليمه الرجل المحتاج إلى عثمان ابن عفان أن يدعو ذلك الدعاء ويسأل بالنبى عليه السلام اجتهاد اجتهـده ، لم يدل عليـه الحديث الذى رواه . فهو اجتهاد تسوغ مخالفته ومنازعتـه ، وليس علينا قبوله ولا العمل به ، لأن الحجـة فى رواية الصحابى لا فى رأيه واجتهاده .

أمثلة من اجتهاد الصحابة

ولهـذا نظائر كثيرة من اجتهادات الصحابة — رضوان الله عليهم . وقـد قدمنا أن عمر بن الخطاب قد أبى تيمم الجنب إذا لم يجد الماء ، فلما حدثه عمار بحديث التيمم ارتاب فيـه . وتقدم أنه كان يذهب إلى أن المطلقة بالثلاث لهـا السكنى والنفقة ، وقد رد رواية فاطمة بنت قيس وقولها : إن النبى عليـه السلام لم يجعل

لها سكنى ولا نفقة وقد طلقت ألبتة . وقد قال فى رده ذلك : لها السكنى والنفقة. لا نترك كتاب الله وسنة نبيه لقول امرأة لا ندرى حفظت أم نسيت . وقد احتج بقوله تعالى . « لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . مع أن الآية فى الحقيقة تعنى باللاتى لا يَخرجن ولا يُخرجن غير المبتوتات ، أى تعنى المطلقات طلاقا رجعيا . لأن الآية تقول فى تعليل النهى عن إخراجهن وخروجهن : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . ويعنى بالأمر الذى يرجى حدوثه هو رغبة الرجل فى المراجعة . والمطلقة ثلاثا لا ترجى مراجعتها كما قالت فاطمة بنت قيس : « وأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟ » . وقالت « بينى وبينكم كتاب الله ». وقد تقدم أيضاً أن أم المؤمنين عائشة كانت تذهب هذا المذهب — أى مذهب عمر — فى المطلقة ثلاثا . وقد قالت لما حدثت حديث فاطمة بنت قيس : « لا خير لها فى ذكر ذلك ». وتقدم أنها كانت تنكر روايتهم أنه ﷺ وقف على قتلى بدر من المشركين وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم قائلا لهم : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ لقد وجدت ما وعدنى ربى حقا » الحديث . وتقدم أنها كانت تنكر روايتهم عن النبى عليه السلام « أن الميت يعذب ببكاء الحى عليه ». ومثل هذا أن أبا هريرة كان يغسل يديه ويبالغ حتى يغسل عضديه مستدلا بما رواه عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال :« إنكم تأتون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء »، قال أبو هريرة : فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل . وقد صح أن عثمان بن عفان كان يتم الصلاة فى السفر ، وقد خالفه الصحابة وخالفه الخليفتان قبله . وصح عن على بن أبى طالب أنه ذهب إلى أن المتوفى عنها زوجها تعتد بأبعد الأجلين إذا كانت حبلى مع أن السنة أن الحبلى تنقضى عدتها بوضعها ، والله يقول فى الكتاب :

« وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » . وقد قام خلاف بعد موت النبى عليه السلام وارتداد بعض العرب ومنع بعضهم الزكاة . فكان من اجتهاد عمر ابن الخطاب وآخرين معه من الصحابة ألا يقاتلوا ماداموا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وكان رأى الصديق العظيم أن يقاتلوا على ذلك حتى يؤدوها . وقد قال فى هذا الخلاف كلمته القوية الرائعة المشهورة : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه . فرجع عمر والجميع إلى رأى الصديق الأكبر . وقال الفاروق : فما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق . وقد كان جماعة من الصحابة يرون حل متعة النساء ، ولم يبلغهم التحريم حتى نهاهم عمر بن الخطاب فى خلافته عنها . وكذا اختلفوا فى مسائل أخرى من مسائل الدين . وقد كان الصواب والحق فى جانب أحد الفريقين المختلفين . وكانوا رضوان الله عنهم لا يتمهلون عن الرجوع إلى الحق والأخذ به إذا انكشف لهم .

وما قال أحد من أهل العلم : إن كل رأى يراه أحد الصحابة يكون حجة شرعية وبرهانا من الله على خلقه . وإنما أجمع أهل الاسلام على أن الحجة فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ، وفى إجماع المسلمين . لأن الاجماع يدل على أن لله نصاً وأمراً فى الكتاب أو السنة ، لأن الله لم يكن ليجمع المسلمين كلهم على الضلالة والجهالة .

من اجتهادات الصحابة فى حياة رسول الله

وقد كان بعض الصحابة يجتهد فى حياة النبى اجتهاداً يرده النبى عليه عليه الصلاة والسلام مثل ماجاء أن معاذ بن جبل سجد للنبى ، فأنكر عليه ذلك . وقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » . رواه الامام أحمد وابن ماجه . وجاء أن الصحابة كانوا فى غزوة مع رسول الله فمروا على قوم من المشركين يعكفون على شجرة ينوطون

بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط . فقالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال ﷺ : « الله أكبر ! إنها السنن ! قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . رواه أحمد والترمذى وصححه . وجاء أنهم حاولوا القيام له عليه السلام فأنكر عليهم ذلك وقال : « لا تفعلوا فعل فارس والروم » . وقال له رجل مرة : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ماشاء الله وحده ». رواه النسائى. وصح أنه عليه السلام سمع عمر بن الخطاب يحلف بأبيه فأنكر ذلك عليه وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . ومن كان منكم حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . رواه البخارى ومسلم . وصح أنهم كانوا يسألونه : متى الساعة ! — يحسبونه يعلم أوان قيامها — فيرد عليهم بأن علمها إلى الله وحده . وقد جاء فى حديث رواه الطبرانى بإسناد فيه ضعف أن منافقاً كان يؤذى المؤمنين فقال بعضهم لبعض : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » . وجاء غير ذلك من اجتهادات الصحابة ورد النبى عليهم ما اجتهدوا .

تخريج لما ذهب اليه عثمان بن حنيف فى هذه الرواية

ومن هذا النوع اجتهاد عثمان بن حنيف فى تعليمه الرجل أن يدعو الدعاء المذكور إن صح سند الرواية . وهذا الذى ذهب إليه ابن حنيف ليس هو مثل ما ذهب إليه هؤلاء المخالفون الداعون للأموات ، العاكفون على قبورهم يدعونهم الليل والنهار فى السراء والضراء . وإنما ذهب عثمان بن حنيف — على تقدير صحة الرواية — إلى معنى آخر غير ما ذهبوا إليه . ذلك أنه ظن هذا الدعاء الذى علمه الرجل دعاء يقال عند طلب الحاجات من الله ، لا لإسماع الرسول عليه السلام ، ولا لدعائه وطلب الشفاعة منه . بل ظن أنه سؤال وتوجه إلى الله ، لا على معنى أنه يسمع ويدعو ، بل على معنى أن سؤاله به من أسباب الاجابة والقبول والرضا . ولهذا

علمه أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة » . مع أنه يعلم أن النبى لم يدع له ولم يعلم من أمره شيئا . وإذا كان النبى لم يدع لذلك الداعى الطالب ، ولم يعلم من أمره شيئا لم يكن لقوله : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد » معنى إلا أن يكون المقصد دعاء الله به لا دعاءه هو ولا طلبه .

ومن البرهان على صدق هذا أنه لم يأمره أن يأتى القبر النبوى ولا أن يقف حوله ، بل أمره أن يتوضأ وأن يصلى فى المسجد ، لا عند القبر النبوى ولا قريبا منه ، لأنه لم يكن الغرض إسماعه ولا خطابه ودعاءه ، وإنما كان الغرض دعاء الله به . ولو كان عثمان بن حنيف يريد من الرجل أن يخاطب النبى وأن يسمعه خطابه ، وأن يسأله الشفاعة لأمره أن يأتى القبر وأن يدنو منه ليسمعه ، كما أن الأعمى لما أراد من النبى أن يدعو له الله وأن يطلب منه الشفاعة ذهب إليه وأتاه ، ولم يخاطبه أو يطلب ذلك منه بعيداً . وهذا لا يخطر على بال أحد من الصحابة ولا بال أحد ممن فقهوا الاسلام .

ومن المحال ان يظن عثمان بن حنيف ان الرسول يسمع مخاطبه اين كان

ومن المحال أن يقال : إن عثمان بن حنيف كان يحسب وكان يرى أن النبى عليه السلام يسمع المخاطب له ، الطالب منه الشفاعة من كل مكان وفى كل مكان . ولا شك أنه قد ظن أن الخطاب فى قوله : « يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى » مثل الخطاب فى قول المتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . ومثل الخطاب فى قول زائر المقابر : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » ، ومثل الخطاب فى قول نبى الله صالح لقومه بعد أن أهلكهم الله : « وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين » ، وفى قول نبى الله شعيب لقومه الهالكين : « وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » ومثل أمثال ذلك . وعثمان بن حنيف من العرب الذين يعرفون فنون الكلام

ومذاهب القول ، ويعرفون أن من الخطاب مالا يراد به إسماع المخاطب ولا دعاؤه حقيقة. ويعرفون أن من لايسمع لبعده ، أو لأنه لايصلح للسماع أبداً ،قد ينادى ويوجه إليه الخطاب كأنه سامع حاضر لأمر من الأمور وغرض من أغراض البيان التى لاتخفى على أهل اللسان. فهذا الذى ذهب إليه عثمان بن حنيف بعيد جداً عما ذهب إليه المخالفون من سؤالهم للأموات ودعائهم إياهم ليشفعوا لهم ويدعوا الله من أجلهم .

ومن البرهان القاطع على ماذهب إليه

ومن البرهان القاطع على أن ماذهب إليه ابن حنيف ليس هو هذا أمره الرجل أن يدعو بالدعاء الذى علمه الرسول الرجل الأعمى بالنص والصيغة ، ولم يأمره أن يدعو الله ويتوجه إليه بالنبى بصيغة أخرى ، ودعاء آخر . فكأنه ظن أن الدعاء المذكور مما يجيب الله عليه ومما يقبله من عبده بنصه ولفظه ،لا لأن فيه خطاباً للنبى عليه السلام بل لأنه خطاب لله . ولو كان عثمان قد فهم من الحديث جواز السؤال بالنبى وجواز خطابه وطلب الشفاعة منه حيا وميتاً لما كان هنالك ضرورة إلى المحافظة على صيغة دعاء الأعمى، لأن الأعمى قد أمر بالدعاء بعد أن طلبه من النبى وبعد أن أجابه إلى طلبه فدعا له فعلا . فمحافظة عثمان على صيغة الدعاء الذى علمه الأعمى يدل دلالة ظاهرة جلية على أنه قد ظنه بنصه ولفظه دعاء يجيب الله عليه ويعطى سائله به ما سأل ، ولولا ذلك الظن لأمره أن يسأل الله وأن يتوجه بنبيه إليه بصيغة أخرى تناسب حال من لم يدع له النبى عليه الصلاة والسلام . فان قوله هنا : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة » إما أن يريد به التوجه إلى الله بدعاء النبى وشفاعته ، أو يريد به شيئاً غير هذا . فان كان يريد به السؤال والتوسل بدعائه وشفاعته عليه الصلاة والسلام قيل : ولكن النبى لم يدع له ولم يشفع ، بل ولم يعلم من أمره شيئاً ، فكيف يتوجه إلى ربه بدعاء من لم يدع له ؟ فان ظن أنه بطلبه الدعاء والشفاعة منه يدعو ويشفع

له يقيناً ، قيل إن هذا ليس بلازم ، فليس كل من طلب الدعاء من النبي عليه السلام ينال دعاءه لو كان حيا فكيف وهو ميت ؟ وفى الحديث الصحيح المشهور : « سبقك بها عكاشة ». وهذا لانزاع فيه . وقيل أيضا : إن عثمان بن حنيف أمر الرجل أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد » قبل أن يأمره بطلب الدعاء والشفاعة منه ، ففعل ذلك الرجل ماأمره به قبل أن يطلب من النبي الشفاعة والدعاء .

فان قيل إن التوجه لم يكن بالدعاء والشفاعة قيل هذا حق ، وهذا يدل على أن عثمان لا يريد بما علمه الرجل أن يستشفع بالنبي وأن يخاطبه وأن يطلب منه دعاءه وشفاعته . فلا شك أن الأمر لو كان أمر استشفاع لأمر الرجل أن يطلب من النبي الشفاعة وأن يطلبه أن يدعو الله من أجله ، ثم لأمره أن يطلب من الله أن يقضى له شفاعة نبيه وأن يشفعه فيه ، لاأن يذهب ابتداء فيأمره أن يقول : ياألله « إنى أتوجه إليك بدعاء نبيك » . ولو أن أحد المسلمين فى حياة رسول الله قال قبل أن يطلب منه أن يشفع ويدعو له : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك وشفاعته » لكان غالطاً مخطئا . ولاريب أن أغلط منه من قال بعد موته عليه السلام : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك » قبل أن يدعو له وقبل أن يطلب منه الدعاء ــ لو كان جائزا طلبه . فالذى ذهب اليه ابن حنيف غير ما ذهب اليه دعاة الأموات ودعاة النبي عليه الصلاة والسلام ، هؤلاء العاكفون على الأجداث ، بلا شك ولاريب .

من العجب ان يحتج الرافضى باجتهاد واحد من الصحابة هم يكفرونهم

على أن من العجيب أن يحتج الرافضى باجتهاد أحد الصحابة، ويجعله برهاناً من البراهين وحجة من الحجج الشرعية ، وهو وطائفته الامامية ، الاثنا عشرية يكفرون جماهير الصحابة ، ويكفرون الخلفاء الراشدين الثلاثة منهم ، ويدعونهم المنافقين والمرتدين والمارقين ! بل عندهم أن موافقة القول والمذهب لما ذهب إليه

الصحابة والمسلمون الذين ليسوا شيعة من الدلائل على بطلانه وفساده وازورارد عن الحق والهدى ! فاذا كان هنالك منهبان وقولان و رأيان فى مسألة من المسائل نظروا إلى القول والرأى والمذهب الذى ذهب اليه المسلمون فتركوه ، ثم اعتقدوا لزوماً ووجوباً أنهم ماتركوا إلا الباطل والضلال والجهل والغباوة ، وأنهم ماأخذوا إلا بالحق الناصع المكشوف والبرهان الظاهر . لأنهم يعتقدون أن الحق أبداً ودائماً يكون فى خلاف ماذهب إليه المسلمون وفى خلاف ماهدوا إليه ، إذ هم لايهتدون أبداً إلا إلى الباطل والضلال والزيغ والفند . . . فمخالفة المسلمين من مقاصد الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية . . . ومؤلفو الطائفة لايتهيبون أن يكتبوا هذا البلاء ، وأن ينشروه على الناس بلا أدب ولا حياء . وقد قال أحد شيوخهم وهو الشيخ مرتضى الأنصارى التسترى فى كتاب « فرائد الأصول » صفحة ٣٢٥ ومابعدها : « . . روى المشايخ الثلاثة باسنادهم عن عمر بن حنظلة قال سألت أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا يكون بينهما منازعة فى دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة ، أيحل ذلك ؟ قال : من تحاكم إليهم فى حق أو باطل فانما يتحاكم إلى الطاغوت . ومايحكم به له فانما يأخذه سحتاً و إن كان حقه ثابتاً ، لأنه أخذه بحكم الطاغوت ، و إنما أمر الله أن يكفر به قال الله : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » ـ إلى أن قال ـ قلت : فان كان الخبران عنكم مشهورين قد رواهما الثقات عنكم ؟ قال ينظر ماوافق حكمه حكم الكتاب والسنة وخالف العامة ـ والعامة فى كلام الشيعة هم أهل السنة ـ فيؤخذ به و يترك ماخالف الكتاب والسنة ووافق العامة . قلت : أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكماً من الكتاب والسنة فوجدنا أحد الخبرين موافقاً للعامة والآخر مخالفاً فبأى الخبرين يؤخذ ؟ قال : ماخالف العامة ، ففيه الرشاد . قلت : فإن وافقهم الخبران جميعاً ؟ قال : ينظر إلى ماهم إليه أميل : حكامهم وقضاتهم ـ

فيترك و يؤخذ بالآخر . قلت : فان وافق حكامهم الخبرين جميعاً ؟ قال : إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك . فان الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام فى الهلكات . . . » .

اخبار الشيعة فى وجوب مخالفة المسلمين واسباب وجوب هذه المخالفة عندهم

ثم قال : « روى ابن أبى جمهور الاحسائى فى « عوالى اللآلى » مرفوعا إلى زرارة قال سألت أبا جعفر فقلت له : يأتى عنكم الخبران والحديثان المتعارضان ، فبأيهما آخذ ؟ قال : يازرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر ــ إلى أن قال ــ فقال : انظر ماوافق منهما العامة فاتركه وخذ بما خالف ، فان الحق فى ما خالفهم » .

ثم قال : « وعن رسالة القطب الراوندى باسناد صحيح عن الصادق : إذا أورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله . فما وافق فخذوه ، وما خالف فذروه . فان لم تجدوه فى كتاب الله فاعرضوهما على أخبار العامة . فما وافق أخبارهم فذروه ، وما خالف أخبارهم فخذوه » .

جواب

ثم قال : « و روى أيضاً بسنده قال قال أبوعبد الله : إذا ورد عليكم خبران مختلفان فخذوا ماخالف القوم » .

ثم روى بعد هذا أخباراً كثيرة كلها توجب الأخذ بماخالف أهل السنة والجماعة ، وكلها تحدث أن الحق لايكون معهم أبداً ، وأن الباطل لايفارقهم أبداً .

ثم قال الشيخ مرتضى الأنصارى فى الكتاب الآنف الذكر صفحة ٣٤٤ « قال فى العدة : إذا كان رواة الخبرين متساوين فى العدد عمل بابعدهما من قول العامة ، وترك العمل بما يوافقهم » . قال : « أقول : وتوضيح المرام فى هذا المقام أن ترجيح أحد الخبرين بمخالفة العامة يمكن أن يكون بوجوه : أحدها مجرد التعبد كما هو ظاهر كثير من الأخبار . الثانى كون الرشاد فى خلافهم كما صرح به فى غير واحد من الأخبار المتقدمة ، ورواية على بن أسباط قال قلت للرضا :

يحدث الأمر لا أجد بداً من معرفته ، وليس فى البلد الذى أنا فيه أحد أستفتيه من مواليك ! فقال أءط فقيه البلد واستفته فى أمرك ، فاذا أفتاك بشئ فخذ بخلافه فان الحق فيه . وأصرح من ذلك كله خبر أبى إسحاق الأرجانى قال قال أبو عبد الله : أتدرى لماذا أمرتم بالأخذ بخلاف مايقول العامة ؟ فقلت : لاأدرى ، فقال إن عليا عليه السلام لم يكن يدين الله بشئ إلا خالف عليه العامة إرادة لإبطال أمره (؟) وكانوا يسألونه عن الشئ الذى لايعلمونه فاذا أفتاهم بشئ جعلوا له ضداً من عندهم ليلبسوا عـلى الناس . الثالث حسن مجرد المخالفة لهم . ومرجع هذا المرجح ليس الاقربية إلى الواقع . بل هو نظير ترجيح دليل الحرمة على الوجوب ودليل الحكم الأسهل على غيره . و يشهد لهذا الاحتمال بعض الروايات مثل قوله عليه السلام : إن من وافقنا خالف عدونا فى قول أو عمل فليس منا ولانحن منه. » وهذه العبارة ظاهرة التحريف ولعل صوابها : ولم يخالف عـدونا » . ورواية الحسن بن خالد :شيعتنا المسلمون لأمرنا ،الآخذون بقولنا ، المخالفون لأعدائنا. ومن لم يكن كذلك فليس منا . فيكون حالهم حال اليهود الوارد فيهم قوله عليـه الصلاة والسلام « خالفوهم ما استطعتم » . الرابع الحـكم بصدوره تقية . و يدل عليه قوله عليه السلام «ما سمعته منى يشبه قول الناس ففيه التقية ، وماسمعته منى لايشبه قول الناس فلا تقية فيه » . ثم روى عن أبى عبد الله أنه قال : « ما أنتم والله على شئ مماهم فيـه ، ولا هم على شئ مما أنتم فيـه ، فخالفوهم فانهم ليسوا من الحنيفية على شيء » . ثم ساق أخباراً فى هذا المعنى .

كل مايقول أئمة الشيعة موافقا لماعليه المسلمون فلابد ان تكون التقية دخلته

فعند طائفة هذا الرجل أنه مطلوب منهم أبداً أن يذهبوا إلى خلاف ماذهب إليه المسلمون ، وأن يعتقدوا و يقولوا خـلاف ما اعتقـدوا وقالوا ، لأن الرشـاد لايوجد إلا فى مالم يذهبوا إليه ، ولأن الضلال لابد أن يوجد فى ماذهبوا إليـه ، ولأن أمرهم واعتقادهم أبداً على الباطل والضلال والغى ، ولأنهـم أبداً ليسوا

على شيء من الحنيفية التى هى ملة إبراهيم وملة محمد وملة جميع الأنبياء والمرسلين والمؤمنين ، ولأنهم لايمكن أن يكونوا على شيء مما عليه الشيعة الراشدة المهتدية ولأن الشيعة المهدية الراشدة لايمكن أن تكون على شيء مما عليه أهل السنة الضالون المارقون ! فالشيعى أبداً مطالب بأن يخالف أهل السنة وأن يخالف ما قالوا واعتقدوا ، ومطالب أبداً بأن يتعبد بمخالفتهم و بالذهاب خلاف مايذهبون وخلاف الجهة التى يقصدون . والشيعى ، الامامى ، الاثنا عشرى ، مطالب أبداً بأن يخالف أهل السنة وجمهور المسلمين وعامة الصحابة وكبارهم وساداتهم كما يخالف اليهود ـ شر الأمم وأبعد الشعوب عن قلوب الشعوب ، وعن احترامهم وموالاتهم . والشيعى مأمور أبداً بأن يعتقد و يؤمن بأن الأحسن له ديناً وعقيدة أن يباين المسلمين ، وألا يذهب إلى شيء ذهبوا إليه : فلا يذهب إلى شيء ذهب إليه أبو بكر وعمر وعثمان أو غيرهم من الصحابة والمسلمين ، ومأمور بأن يؤمن أبداً بأن الرشاد والهدى والحق فى خلاف ماذهبوا إليه وما اعتقدوه وقالوه . ومطلوب منه فى جميع حالاته بأن يؤمن بأن كل مايأتى عن الأئمة المعصومين موافقا لما عليه المسلمون فهم إنما قالوه وذهبوا إليه تقية لاعقيدة ، لا لأن الحق فيه ، ولا لأن حكم الله يوافقه : فكل ما عمله على بن أبى طالب أو الحسن أو الحسين أو زين العابدين أو الصادق أو الباقر أو غيرهم من الأئمة المعصومين فى زعمهم — : نعم كل ماعمله هؤلاء أو قالوه أو ذهبوا إليه فجاء موافقاً لما كان عليه أبو بكر أو عمر أو عثمان ، أو موافقا لما كان عليه الموالون لهم ، فلابد أن يكون صدوره عن الأئمة المعصومين تقية وخداعاً ونفاقا ، ولابد أن يكون حكم الله فى خلافه . . . فاذا قال أبو بكر وعمر وعثمان أو غيرهم من الموالين لهم ، الآخذين بسيرتهم : إن الله واحد وإن محمداً رسول الله ، و إن الاسلام حق ، و إن مكة فى الحجاز ، و إن الحجاز من بلاد العرب ، و إن المدينة هى البلدة التى هاجر إليها رسول الله وصحابته ، و إن

جسد رسول الله هنالك — : إذا قالوا ذلك فلابد أن يعتقد الشيعى أنهم كاذبون ضالون جاهلون ، وأن يعتقد ويقول : إن الحق والرشاد فى مخالفتهم فى مقالاتهم هذه والذهاب خلاف ماذهبوا فيها ، وإذا جاء عن على ابن أبى طالب أو عن واحد من ذريته المعصومين شىء من هذا الذى قاله العامة واعتقدوه فلابد أن يكون تقية وأن يكون نفاقا : كل هذه مطلوب من الشيعى ، الامامى .

ومطلوب منه أيضا أن يسأل علماء السنة وفقهاء الجمهور من المسلمين ، فاذا أفتوه فتوى وقالوا له قولا وجب عليه أن يذهب إلى خلاف فتواهم وقولهم . فاذا أفتوا بأن هذا حلال وجب أن يعتقد هو أنه حرام ، وإذا أفتوا بأنه حرام وجب عليه أن يعتقد أنه حلال ، وإذا أجابوا بأن الزنا جريمة وجب عليه أن يعتقد أنه فضيلة ، وإذا قالوا إن الشرك والاثم والظلم والعدوان جرائم وآثام وجب أن يعتقد أنها دين وقرب إلى الله ، وإذا قالوا إن الرسول صادق ، وإن الله صادق ، وإن القرآن كلام الله ، وإنه لم يزد فيه ولم ينقص منه ، ولم يحرف ، وجب عليه أن يعتقد خلاف ذلك كله ، وأن يقول هو : إن الرسول كاذب وإن الله كاذب ، وإن القرآن ليس كلام الله وإنه محرف مغير بالزيادة والنقصان والترتيب والنظام : يقول الشيعى ، الامامى ذلك كله ليتحقق له مخالفة العامة وليصدق ما نقلوه عن الامام المعصوم : « ماأنتم والله على شىء مماهم فيه ، ولا هم على شىء مماأنتم فيه » وقوله : « وإن عليا لم يكن يدين الله بشىء إلا خالف عليه العامة » وقوله : « ما سمعته منى يشبه كلام الناس ففيه التقية ، وما سمعته منى لا يشبه كلام الناس فلا تقية فيه » وقوله أيضاً : « استفت فقيه البلد فاذا أفتاك بشىء فخذ بخلافه ، فان الحق فيه » . هذا كله مطلوب من الشيعى الامامى . ومطلوب منه أيضاً أن يعتقد أن قضاة المسلمين وحكامهم طواغيت كلهم ، لافرق بين فلان وفلان ، وأن التحاكم إليهم وإلى محاكمهم من التحاكم إلى الطواغيت التى أمر المسلمون بالكفران بها

كل ذلك مطلوب من الشيعى الامامى

وأن من أخـذ حقه الثابت المعلوم من طريقهم وطريق حكوماتهم وأحكامهم، وحكامهـم فانما يأخـذه سحتاً وحراماً ، فلا يحـل له أخـذه ولا الانتفاع به .
ولاندرى ماذا يقولون في من يأخـذون حقوقهم ، أو يحاولون أخذها من طريق المحاكم الالحادية أو المحاكم الانجليزية والفرنسية من طائفتهم الشيعة ! أيقولون إنهم يأخذونها سحتا وحراماً باطلا ، و إن الرجوع إلى تلك المحاكم للحصول على الحق المعلوم المغتصب من التحاكم إلى الطواغيت ، و إن كل ما يؤخذ من تلك المحاكم — و إن كان الحق الثابت الذى لاريب فيه — يكون حراماً على آخذه وصاحبه ؟

فعند هؤلاء المخذولين الأبعـدين أن رجلين من المسلمين لو ظلم أحـدهما الآخر فذهب المظلوم إلى أبى بكر الصديق أو إلى عمر بن الخطاب أو إلى عثمان ـ فضلا عمن دونهم ـ فقضى له بحقه المغلوب عليه ، وأخذ على يدى الظالم ـ عند هؤلاء المخذولين الأبعـدين أن هذا القضاء باطل ، وأن أخذ الحق المأخوذ من طريقه لا يحل ، و أن ذلك المتقاضى آثم ظالم متحاكم إلى طاغوت أمر أن يكفر ، وأن ذلك القاضى ـ أبا بكر أو عمر أوعثمان ـ طاغوت من الطواغيت التى نهى الله عن التقاضى إليها والرضا بها و بحكمها .

هذا كله من دين الشيعة الامامية الاثنا عشرية ، الذين يحتجون فى موضوع عبادة القبور والعكوف على الأحجار والأشجار باجتهاد صحابى واحـد . إننا لا نقول : كيف لايتقى الله هؤلاء القوم ، ولا كيف لا يخجلون ولا كيف يكتبون هذه الفضائح الاعتقادية : لا نقول شيئا من هـذا ، لأن الغاية التى يسعون إليهـا ، والأغراض التى يخدمونها تجيز لهم هذه الواسطة وهـذه الوسيلة ! و إنما نقول : من العجيب أن تقول الشيعة هذه الأقاويل ، وتعتقد هذه العقائد ، وتدونها فى كتبها ثم يوجد فى المسلمين المخلصين للاسلام من يغارون لهم ، ومن يتقربون

إليهم ، ومن يكرهون خلافهم وشقاقهم ، ويسعون للاتحاد بهم والتأليف بينهم وبين المسلمين . . . ومن المحال أن يتحسنوا بالمسلمين أو يصادقوهم أو تهوى أفئدتهم نحوهم ، أو تعطفهم عليهم العواطف ، أو تصرفهم إلى ودهم وموالاتهم الصوارف ، مادامت هذه الكتب كتبهم ، وهذه الأقوال أقوالهم ، وهذه المناهل مناهلهم . فانهم بهذا ، ولاريب ، أبعد عن المسلمين وعن ولائهم وعن صداقتهم وودهم من أهل الملل الأخرى ، وأهل الأديان المحاربة أصولها لأصول الاسلام . فانه لا يوجد أهل دين ـ مهما باعد الاسلام وباينت أصوله أصوله ـ يعتقدون أن المفروض عليهم أولا أن يخالفوا المسلمين وأن يعتقدوا أن مخالفتهم من أغراضهم وأغراض دينهم ، وأن يعتقدوا بطلان كل مايذهبون إليه ، وكل مايعتقدونه ، وأن يعرفوا الحق ويُعَرِّفوه أنه ما جانبه المسلمون ، والباطل بأنه ما ذهب إليه المسلمون ، وأن يقول رؤساؤهم لدهمائهم : إن كل مانفعله ونقوله مما يعتقده المسلمون ويفعلونه ويقولونه لابد أن نكون إنما فعلناه وقلناه تقية ، لأننا لا يمكن أن نوافق المسلمين فى أمر من الأمور ، ولا فى عقيدة من العقائد ، ولا فى قول من الأقوال . إن اليهود ـ وهم أعنف الناس خصومة وعداء للاسلام والمسلمين ـ لا يذهبون إلى ما ذهبت إليه الشيعة المسلمة من المخاصمة لأهل الاسلام ولأهل السنة خاصة . فأى رجاء رجاء التأليف بين الفريقين ؟

إذا كانت مخالفة أهل السنة واجبة فلماذا لا يخالفونهم فى دعوة الأموات والعكوف على القبور

وعلى هذه المزاعم التى نقلناها وذكرناها ورويناها من كتب القوم مروية عن الأئمة المعصومين لديهم نسأل الرافضى المصنف سؤالا محرجاً معجزاً لا يرجى أن يجد له جواباً ولاحلا . هذا السؤال هو أن نقول : هذا الحديث ـ أعنى حديث الأعمى برواياته وزياداته ـ وغيره من الأحاديث المنقولة من كتب أهل السنة المروية بأسانيدهم ، المكتوبة بأقلامهم ، المشروحة بكلامهم ، تدل عندك على أن أهل السنة وهم العامة يجيزون التوسل الذى تدعو إليه ، ويجيزون دعوة

الأموات ، وسؤالهم والاستغاثة بهم وسائر هاتيك الباطلات المخزية ، القائمة على الأضرحة . بل زعمت أنت فى مواضع من كتابك هذا وفى غيره أن العامة — أى أهل السنّة — قد أجمعوا على ذلك ماخلا الوهابيين : أجمعوا على جواز التّوسل بالأموات ودعائهم والاستغاثة بهم ، والبناء على القبور وإسراجها وطرح الزينات والملقات عليها ، وشد الرحال إليها ، وعلى جواز الذبح والنذر لها ، وإهداء الهدايا وتقديم القرابين إليها : كل هذا تزعم أن أهل السنّة ذهبوا إليه وأجازوه وفعلوه ودعوا إليه . ونحن هنا نقول : إذا كان هذا كله صحيحاً عن العامّة أى عن أهل السنة ، أفما كان الواجب على الشيعة المأمورة بمخالفة العامة بدلالة الأخبار السابقة أن يذهبوا إلى خلاف ماذهب إليه أهل السنة ، فيذهبوا إلى تحريم هذه المعتقدات كلها والحكم بخروجها على الحق والدين ، ومجانبتها لمذاهب الأئمة المعصومين الذين كانوا لايدينون بشئ كانت العامة تدين به ، والذين كانوا يقولون : « ما أنتم على شئ مما هم فيه ، ولا هم على شئ مما أنتم فيه » ؟ أفما كان المفروض حينئذ على الشيعة الامامية الاثنا عشرية أن يحققوا هذه المخالفة للعامة المطلوبة منهم ، الموجبة عليهم ، فيذهبوا إلى منع كل ما أجازه العامة من التوسل ودعاء الأموات والاستغاثة بهم والبناء على القبور وشد الرحال إليها وإلقاء الزينات والملقات فوقها ؟ نعم كان الواجب عليهم أن يصيروا هذا المصير ، وأن يذهبوا هذا المذهب إذا كانوا صادقين فى نقلهم عن أئمتهم ، وكان أئمتهم صادقين فى أنفسهم ، وكان ما ينقلون ويذكرون حقا وصحيحاً . وهذا لازم لهم لزوماً لا مهرب لهم منه حتى يتاح لهم الهروب من أنفسهم ، وحتى يتواروا فى أفواه العدم وفوهات الفناء الأبدى .

الزام معجز

ويمكن أن نسألهم هذا السؤال ، ونسوق إليهم هذا الالزام بأسلوب آخر بأن نقول : هل عندكم دلائل عن أئمتكم وعمن اعترفتم بأنكم لا تفهمون الدين

ولاالإسلام ولا القرآن ولاالسنة إلا بإرشادهم وكلامهم وبيانهم: هل لديكم دلائل عن هؤلاء تدل على جواز التوسل ، وجوازدعوة الأموات والاستغاثة بهم ، وجواز جميع ما تأتونه عند القبور؟ فان قلتم : نعم ، عندنا دلائل عنهم تدل على جواز ذلك كله ، قلنا لكم : إنهم قد أنبأونا وأنبأوكم بالأخبار السابقة بأن كل ما يقولونه وما يذكرونه وما يفعلونه موافقاً لما عليه أهل السنة من المسلمين فلابد من أن يكون ذلك منهم تقية ، ولا بد أن يكون الحق والهدى فى خلافه. فكل مافى أيديكم مما يدل على الجواز عن الأئمة المعصومين لا يعدو أن يكون تقية وأن يكون الرشد فى خلافه وفى تركه . أماإن قلتم إنه لادلائل عندنا عن أئمتنا على جواز هذه الشركيات والضلالات ،قلنا لكم: شئ لا دليل لكم عليه كيف يجوز لكم أن تدينوا الله به وأن تدعوا إليه المسلمين ، إن كنتم الحق والدين والخير تريدون ؟ أما إن قلتم إن الدلائل عندنا هى إرشاد أئمتنا لنا بأن نخالف الجمهور وما عليه المسلمون قلنا لكم إذن واجب عليكم أن تذهبوا إلى خلاف ما ذهبوا إليه ، وقد زعمتم بأنهم قد ذهبوا إلى جواز كل ما يُنحله الموتى والأشياخ عند قبورهم من التعظيم والتقديس وصنوف التأليه والعبادة ، وقد زعمتم أن الصحابة كانوا من المتوسلين، وأن عدوكم الأكبر عمر بن الخطاب كان من المتوسلين كما فى حديث الاستسقاء بالعباس ، وأن المسلمين كلهم كانوا من المتوسلين ما خلا الوهابيين . فواجب عليكم تحريم هذا التوسل وتحريم كل هذا البلاء. ولا مفر لهذا الشيعى ولاخوانه من هذا السؤال وهذا الالزام ولو طاروا على أجنحة عنقاء مغرب ، أو هربوا مع الامام المعصوم الهارب على قوادم الريح ، يذرعون المغارات والفيافى : مغارة مغارة ، وفيفاء فيفاء .

﴿ الشبهة التاسعة سؤال النبي بحق الأنبياء قبله ﴾

حديث سؤال النبي بحق الانبياء قبله

الشبهة التاسعة ما رواه الطبرانى عن أنس بن مالك قال : لما ماتت فاطمة

بنت أسد بن هاشم ، أم علي بن أبي طالب ، وكانت قد ربت النبي عليه السلام ، دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها ثم قال : « رحمك الله يا أمي بعد أمي » . وذكر ثناءه عليها ، ثم كفنها ببردته وأمر بحفر قبرها . قال : فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه ثم قال : « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ووسع لها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل ، فانك أرحم الراحمين » وكبر عليها أربعا ، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق . رواه الطبراني في الكبير والأوسط . وفيه روح بن صلاح ، وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح . كذا في « مجمع الزوائد » . وذكر من حديث ابن عباس نحوه إلا أنه ليس فيه هذه الزيادة ، أعني قوله . « بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » . وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه راو مجهول . وبقية رجاله ثقات .

والجواب أن يقال : أما رواية ابن عباس فلا شيء فيها لأنها خالية من هذه الزيادة ، زيادة السؤال بحق النبي وحق الأنبياء على ما في سندها من الجهالة التي ذكرها الحافظ الهيثمي . وأما رواية أنس فهي التي فيها استدلال المخالف لو كانت صحيحة ثابتة . ولكن يقال : نحن ليس لدينا معجما الطبراني : لا الكبير ولا الأوسط ، حتى نستطيع أن ننظر في الاسناد وفي مكانته من الصحة والضعف ، والصعود والهبوط . وليس لمسلم أن يحتج بحديث لا يدري أثابت هو أم غير ثابت ، ولا سيما إذا كان مرويا في أمثال معاجم الطبراني الثلاثة ، فانها ملأى بالأخبار الضعيفة والمنكرة ، وبالأخبار الموضوعة التي لا يحل لمسلم أن يقيم عليها عقيدة من عقائده ولا أمراً من أموره .

الحديث ضعيف فيه روح بن صلاح

ثم في سنده على قول صاحب « مجمع الزوائد » وقول المخالفين ، روح

ابن صلاح المصرى ، المكنى بأبى الحارث ، المشهور بابن سيابة . ضعفه ابن عدى الحافظ ، و وضعه ابن حبان فى ثقاته ، وقال الحاكم : ثقة مأمون . ذكر هذا الذهبى فى الميزان . وذكره الحافظ ابن حجر فى « لسان الميزان » : وقال بعده : « ذكره ابن يونس فى تاريخ الغرباء ، فقال من أهل الموصل ، قدم مصر وحدث بها . رويت عنه مناكير . وقال الدارقطنى : ضعيف فى الحديث . وقال ابن ماكولاء : ضعفوه . وقال ابن عدى بعد أن أخرج له حديثين : له أحاديث كثيرة فى بعضها نكرة ». ذكر هذا كله فى « لسان الميزان » . فالأكثرون إذاً من علماء النقد وعلماء الجرح والتعديل يضعفونه . وتوثيق ابن حبان والحاكم له لا يمكن أن يعارض به جرح هؤلاء الذين جرحوه أمثال ابن عدى والدارقطنى وغيرهما . لأن ابن حبان والحاكم ، كما تقدم ، متساهلان لينان فى نقدهما وحكمهما فى هذا الشأن. أما ابن حبان فانه ذكر فى كتابه الذى وضعه لثقاة الرواة من هم بعيدون عن الثقات ، فذكر فيه المجهول والضعيف ، بل والكذاب . ومن العجيب أنه وضع فى كتابه هذا من ضعفهم هو نفسه . ومثله فى هذا الحاكم فانه يضعف الرجل ثم يصحح حديثه . وقد ضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ثم صحح حديثه الذى رواه فى سؤال آدم ربه بحق محمد ﷺ . والحاكم أوهى فى هذا الشأن من ابن حبان وأوهن . وهو فى توثيق الرواة مثل نفسه فى تصحيح الأحاديث . فانه كما يصحح الأحاديث الباطلة والموضوعة المكذوبة كذلك يوثق الراوى الضعيف والوضاع الكذاب . وقد أكثر من هذا فى مستدركه على الصحيحين حتى أضاع قيمته العلمية وحتى ساغ لهم أن يتهموه فى اعتقاده ومذهبه . وقد قال الحافظ الذهبى فى « الميزان » : « الحاكم أبو عبد الله الحافظ صاحب التصانيف ــ إمام صدوق ولكنه يصحح فى مستدركه أحاديث ساقطة و يكثر من ذلك . فما أدرى هل خفيت عليه ! فما هو ممن يجهل ذلك . و إن علم فهذه خيانة عظيمة . ثم هو

كلام الناس فى الحاكم وفى تصحيحه الاحاديث

شيعي مشهور بذلك من دون تعرض للشيخين . وقال ابن طاهر : سألت أبا إسماعيل الأنصاري عنه فقال : إمام في الحديث ، رافضي خبيث . قلت : الله يحب الانصاف ، ما الرجل برافضي ، ولكن شيعي فقط . . . » انتهى كلام الذهبي من الميزان . ونقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في « لسان الميزان » هذا الذي نقله الذهبي وزاد عليه قوله : « والحاكم أجل قدراً من أن يذكر في الضعفاء ، ولكن قيل في الاعتذار عنه : إنه عند تصنيفه المستدرك كان في أواخر عمره . وذكر بعضهم أنه حصل له تغير وغفلة في آخر عمره . ويدل على ذلك أنه ذكر جماعة في كتاب الضعفاء له وقطع بترك الرواية عنهم ، ومنع من الاحتجاج بهم ، ثم أخرج أحاديث بعضهم في مستدركه وصححها . من ذلك أنه أخرج حديثا لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وكان قد ذكره في الضعفاء ، فقال : إنه روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه . وقال في آخر الكتاب : فهؤلاء الذين ذكرتهم في هذا الكتاب ثبت عندي صدقهم (كذا في طبعة الهند، وهو غلط ظاهر . والصحيح عدم صدقهم أو نحوه) لأني لا أستحل الجرح إلا مبيناً ، ولا أجيزه تقليداً . والذي أختار لطالب العلم أن يكتب (والصحيح الا يكتب) حديث هؤلاء أصلا » انتهى كلام ابن حجر في لسان الميزان . وقد تقدم ما نقله الخطيب البغدادي في التاريخ وأنه قال في ترجمة الحاكم نقلا عن أبي إسحاق : إبراهيم بن محمد الأرموي النيسابوري قال : « جمع الحاكم أبو عبد الله أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخاري ومسلم ، يلزمهما إخراجها في صحيحيهما . فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك ، ولم يلتفتوا فيه إلى قوله ولا صوبوه في فعله » . انتهى كلام الخطيب . وذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ من ترجمة الحاكم مثل ما ذكره في « الميزان » . فرجال الحديث النقاد مجمعون على ضعف الحاكم في تصحيحه وفي رأيه في هذا الشأن

وبعضهم يتهمه فى ذلك ، وبعضهم يرجع هذا الضعف إلى الاختلاط والتغير الذى انتابه فى آخر عمره . والذى لا شك فيه عندنا أن الرجل أجل من الاتهام وأرفع قدراً من أن يرجع شىء من هذا إلى اعتقاده ومذهبه ، وإنما الأمر هو ما ذكره الحافظ العسقلانى فى « لسان الميزان » وغيره من اختلاط الرجل وتغيره .

فتوثيق ابن حبان والحاكم ومن فى طبقتهما لروح بن صلاح هذا لايعتد به فى معارضة تضعيف الناقدين البصيرين البارعين له : ابن عدى والدارقطنى . فان هذين الحافظين من أبرع الناس وأحذقهم وأبصرهم بالرجال وبعلم الجرح والتعديل وبمعرفة هذا الشأن كله . فاذا ضعف الدارقطنى وابن عدى راوياً ووثقه مثل الحاكم وابن حبان فلا ريب أن الانصاف يقضى بتقديم تضعيفهما على توثيقهما وتوثيق أمثالهما . وهذا لا يدق على فهم الذكى من المشتغلين بهذا الفن. وليس هذا راجعاً عندنا إلى أن الجرح مقدم على التعديل كما يقولون . ولكنه راجع إلى ما بين أمثال الدارقطنى وابن عدى وأمثال ابن حبان والحاكم من فرق وتفاوت فى معرفة هذا العلم .

الكلام على الجرح والتعديل وتقديم أحدهما على الآخر

وهذه الطريقة التى ذكرها علماء الحديث من تقديم الجرح على التعديل تقضى أيضاً بتضعيف روح هذا وبتقديم تضعيف ابن عدى والدارقطنى وابن ماكولاء وابن يونس له على توثيق ابن حبان والحاكم ـ كيف والمضعفون أكثر عدداً من الموثقين ، وهذا ترجيح آخر مستقل . ولكننا نحن لانرجح ضعفه عملا بهذه القاعدة والطريقة ، لأنها فى رأينا طريقة ليست مقبولة ولا مأخوذة ولا صحيحة على إطلاقها وإجمالها وعمومها . إذ لو صحت وصدقت شاملة عامة لقضت بتضعيف رواة هم من أوثق الرواة وأجلهم وأصحهم حديثا ورواية . ولأننا نجد من الظلم البارز القبيح أن نرد حديث من وثقه السواد الأعظم والجمهور الأكثر

من علماء الجرح والتعديل ونقدة الرجال لأن رجلا أو رجلين نزت بهما نوازى التشدد والتطرف فقال أو قالا : إنه سيء الحفظ ، أو يهم ، أو ضعيف ، أو فاسد المذهب والاعتقاد . . . وهو قد يكون من أئمة الحديث وحفاظ الدنيا وسلاطين المحدثين . . . وقول القائلين ـ فى توجيه تقديم الجرح على التعديل إطلاقا ـ : إن الجارح قد يكون علم مالم يعلم الموثق المزكى ، واطلع على مالم يطلع عليه ـ : قول فيه شيء من الصواب والصدق ، ولكن لا كل الصواب ولا كل الصدق . وذلك أن من ضعف راويا قائلا : إنه سيء الحفظ ، أو يغلط ، أو يهم ، أو يكذب ، أو يقلب الأخبار والأسانيد ، أو نحو ذلك ـ مما مرجع القدح فيه إلى اتهام الحفظ ـ قد يكون هو المقدوح فيه ، وقد يكون هو الغالط الواهم . فان من قال : فلان غير متقن ، أو غير حافظ ، أو غير ضابط ، لا يقول ذلك إلا بحسب علمه وحفظه وإتقانه ، وهذا لاشك فيه . ولكن ألا يمكن أن يكون حينئذ هو نفسه الذى لم يحفظ ولم يتقن ولم يضبط ، فيكون قدحه قائما على غلطه ووهمه ، فلا يكون حجة ؟ إذن فنحن لا نقبل هذه الطريقة على إجمالها وإطلاقها ، ولسنا نضعف روح بن صلاح هذا بهذه الطريقة نفسها . وإنما نضعفه لأنه ضعيف على ماذكر ابن عدى والدارقطنى وابن ماكولاء وابن يونس والحافظ الهيثمى . وتوثيق ابن حبان والحاكم له لا يعارض تضعيف هؤلاء لما ذكرناه .

كلام الرافضى فى ابن حبان

على أن هذا الشيعى المصنف قد ذكر ابن حبان صفحة ٢٣٣ وما بعدها من كتابه هذا فكذبه فى تضعيفه عطية العوفى وفى تضعيفه على بن موسى الرضا وكفره لقوله فى الأخير : « إنه يروى عن أبيه العجائب وإنه كان يهم ويخطىء » وقد سبه لقوله هذا سبا قبيحاً وهجاه هجاء مراً ، وزعم أن الذى حمله على تضعيف على بن موسى الرضا بغضه لآل النبى الذين أمر الله بحبهم وولائهم . وبغض على وحده ـ فضلا عن بغض جميع آل البيت ـ كفر وردة عند طائفة هذا

الشيعى . فكيف إذن يقبل قول ابن حبان فى روح بن صلاح و يرد قوله فى عطية العوف وفى علـى بن موسى الرضا ؟ وكيف يصح له أن يعتمد فى تزكية روح هذا على قول ابن حبان وهو كافر عندهم لأنه كان كارهاً لقرابة النبى عليه السلام ؟

من غريب تعدى الشيعة ومطاعنهم من آل النبى

ومن أعجب ما كتبه الشيعة ــ وكل مايكتبونه مخالفاً لأهل السنة عجيب ــ قول هذا الشيعى صفحة ٣٣٤ من كتابه هذا دفعاً لما قاله ابن حبان فى علـى بن موسى الرضا نقلا عمن سماه بعض العلماء : « انظر إلى هذه الجرأة العظيمـة من هذا المغرور (يعنى ابن حبان) كيف يوهم ويخطئ ابن بنت رسول الله و وارث علمه ، أحد علماء العترة النبوية ، و إمامهم المجمع على غزارة علمه وشرفه . وليت شعرى كيف ظهر لهذا الناصبى الذى أفنى عمره فى علم الرسوم لأجـل الدنيا حتى نال بها قضاء بلخ وغيرها ــ وهم على بن موسى الرضا وخطؤه ، و بينهما نحو مائة وخمسين عامـاً لولا بغض القربى النبوية التى أمر الله بحبها ومودتها ، وأمر رسول الله بالتمسك بها ؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ! » . هـذا مانقله تجريحاً لابن حبان و رداً لقوله، واتهاماً لدينه، وتضليلا لعلمه . فأنى يسوغ له بعد هذا أن يحتج بقوله : إن روح بن صلاح ثقة لولا الهوى والعصبية التى نسـأل الله الوقاية من شرها وضـرها ، والانفلات من ربقتها .

ومن العجيب قوله : « وكيف يوهم ابن بنت رسـول الله و يخطؤه » ! أفلا يعلم هؤلاء القوم أن من أبناء بنت رسول الله من يـكفرون ! ومن يحاربون الله و رسوله ! ومن يختانون الإسلام وأوطانه ! ومن يختانون أنفسهم ! و يختانون رسالة جدهم عليه الصلاة والسلام ! ومن يمالئون خصوم الاسلام وخصوم العرب عليـه وعليهـم ! ومن يجعلون من أنفسهم جواسيس مخاصة تجس عـلى الاسلام وعلى المسلمين ، لخدمة الأعداء وخدمة الـكافرين ؟ وكيف لاتخجل الشيعة من هذه المقالة وهم يكفرون جميع أبناء بنت رسول الله من أهل السنة وكل من ليس شيعيا

تكفير الشيعة القرابة النبى

إماميا ، اثنا عشريا . فكل أبناء بنت رسول الله كفار وضلال عند هؤلاء القوم إن لم يدينوا دينهم ، و يذهبوا مذهبهم فى القول بعصمة الأئمة ، و كفر الصحابة ، و بالرجعة التى بينا معناها عندهم فى أول الكتاب ، و بالقول بسائر هاتيك الآفات الاعتقادية النكراء التى أصيبت بها هذه الطائفة المغبونة . وقد نزت بالطائفة عداوة أصحاب النبى ، وعداوة الثلاثة منهم خاصة حتى أنكروا أن تكون رقية وأم كلثوم ابنتا رسول الله اللتان تزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ابنتين حقيقة لرسول الله كما تقدم فى أول هذا الجزء . وهم يريدون بهذه المقالة أن يجحدوا ماخص الله به عثمان بن عفان من شرف مصاهرة النبى عليه السلام و زواجه بابنتيه : أم كلثوم ورقية معاً ـ مقتا من عند أنفسهم لهذا الخليفة ، و إنزالا له عن مقعد رفيع سام أقعده عليه سبقه إلى الاسلام ، و إنفاقه على المسلمين ، وقر به من الله ومن رسوله . ثم هم يكفرون أو يفسقون و يضللون جماعات بأعيانهم من أولاد فاطمة ، و يحكمون عليهم بالردة أو بالفسق والضلال العظيم . ولا يشكون فى كفر كل حسينى وكل حسنى بأعيانهما إذا كانا من أهل السنة . أوَ ليسوا يمقتون بنى العباس عم النبى عليه السلام كلهم ، بل و يكفرونهم و يلعنونهم ؟ أو ليسوا يكفرون الزبير بن صفية عمة رسول الله ، وقد كان رسول الله يحبها و يحبه أعمق الحب وأخلصه ؟؟ أو ليسوا يسبون و يمقتون زيد بن على بن الحسين من أولاد بنت رسول الله ، وكذا يسبون و يمقتون جعفر بن على أخا الإمام الحسن العسكرى ، وعم الامام الثانى عشر المنتظر عند الشيعة ؟ ولقد لقبوا هذا بالكذاب كما ذكر محسن الأمين العاملى فى كتاب « أعيان الشيعة » . وجعفر هـذا من أولاد الأئمة المعصومين ومن أولاد فاطمة بنت رسول الله . وهذا شىء لاحصر له . و بالإجمال هم يكرهون و يمقتون أو يكفرون جميع أبناء بنت رسول الله من غير الشيعة الامامية ، الاثنا عشرية . و إذا كانوا بهذا المكان من مخاصمة أبناء بنت رسول الله ، وأبناء على والحسن

والحسين ، وعداوتهم، فكيف لا يقصرون عن التغنى بهذه الأنشودة ، أنشودة كراهة قرابة النبى و بغض آله ؟ ؟

حديث مسلسل بأهل البيت فى مذمة الرافضة

ثم إذا كان أبناء بنت رسول الله لا يخطئون ولا يهمون ولا يكذبون فماذا يقولون فى هذا الخبر المسلسل بأهل البيت ؟ قال فى كتاب « ايثار الحق على الخلق » : « قال الامام الهادى عليه السلام فى كتاب « الأحكام » وقد ذكر الامامية : وفيهم ما حدثنى أبى وعماى محمد والحسن عن أبيهم القاسم عن أبيه عن جده عن إبراهيم بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن على بن أبى طالب عليه وعليهم السلام عن النبى عليه السلام أنه قال : يا على يكون فى آخر الزمان قوم لهم نبز، يعرفون به ، يقال لهم الرافضة ، فان أدركتهم فاقتلهم ، قتلهم الله ، فانهم مشركون . انتهى بحروفه . ولا أعلم فى الاحكام إسناداً متصلا مسلسلا بأهل البيت عليهم السلام سواه إلا أن يكون مرسلا أو مقطوعاً أو مدخلا فيه غيرهم من الرواة . . . » انتهى كلام « إيثار الحق على الخلق » . فهذا من رواية أهل البيت وهم لا يخطئون ولا يهمون ولا يكذبون . فما يقول هؤلاء الشيعة؟ وهذا الحديث قد جاء من طرق أخرى معلومة ولكنها لا تخلو من الضعف.

ومن المضحك قوله : « وكيف ظهر لهذا الناصبى وهم على بن موسى الرضا و بينهما نحو مائة وخمسين عاما » .

من علم الشيعة فى علم الرجال وعلم الاسناد

فياهؤلاء متى كانت المفارقات الزمانية مانعة من معرفة التاريخ القديم ؟ ومتى امتنع أن يعرف فلان أن فلانا كان ثقة ثبتاً ، أو كان ضعيفاً هالكا ، لأن بينهما زماناً طويلا ، ولأن فلانا تأخر ميلاد زمانه عن زمان فلان مائة وخمسين عاماً ، بل ألفا ، بل ألوف الأعوام ؟ و إذا كان هذا المنطق عندهم صحيحاً محترماً فمالهم اليوم ومال أجهل الجهلاء منهم يزعمون أن أبا بكر الصديق كان كافراً ، وأن عمر كان كافراً ، وأن عثمان كان كافراً ، وأن عامة الصحابة كانوا كفاراً ، وأنهم كانوا يحاربون

الإسلام ، و يكيدون لله ولرسوله ، و يسعون فى الأرض فساداً ، وأنهم كانوا يحملون فى صدورهم العداوة المتأججة الفائرة الملتهبة للاسلام ولآل النبى عليه السلام ، و بينهم و بينهم مايناهز أربعة عشر قرنا ؟ ؟ و إذا كان هذا المنطق لديهم صحيحاً صائباً فكيف ظهر لهم أن عليا كان مسلماً حقا ، وكان ناصراً للاسلام ولنبيه ، ذابا عنه ، مخلصاً له فى الظاهر والباطن ـ وكذلك يقال فى أولاده المعصومين لديهم وفى الموالين له ولهم ـ : كيف ظهر لهؤلاء الشيعة هذا النبأ العظيم و بينهم و بينهم ما يطاول أربعة عشر قرناً أو ماينقص عن ذلك قليلا ؟ بل إذا كان ما ذكروه منطقاً صحيحاً محترماً فكيف علموا ماحكوه عن ابن حبان من الضلال والزيغ وكراهة آل النبى و بينهم و بينه كل هذا الزمان وهذه الفجوة الزمانية ؟ نعم لو صدقوا فى منطقهم هذا لبطل التاريخ و بطلت كتبه وأغلق باب المعرفة لكل ماتقادم ميلاده الزمانى أو المكانى ! فهل يفطنون لهذا ؟ وهل يشعرون بهذه الأخطاء التى يهدونها الينا و إلى قرائهم وهم يحسبون أنهم لايهدون سوى الهدى والعرفان والعلوم الالهية النبوية ؟

فروح بن صلاح غير صحيح الحديث ولا مقبوله إذا انفرد به . ثم لا شك أننا فى حاجة إلى البحث عن باقى رجال الاسناد الذين قال فيهم صاحب « مجمع الزوائد » : إنهم من رجال الصحيح ماخلا روحاً . وذلك أن بعض رجال الصحيح إنما خرج لهما صاحبا الصحيحين فى المتابعات والشواهد والمعلقات . وهؤلاء لا يلزم أن يكونوا ثقات أثباتاً ، ولا يلزم أن يكونوا فوق النقد والتضعيف والبحث ولا يلزم أن يكون حديثهم صحيحاً لا يخضع للنقد والاعتراض والامتحان . . . وهذه المنزلة الرفيعة السامية إنما هى لرجال الصحيحين الذين روى لهما فيهما استقلالا وانفراداً فى الأصول لا فى المتابعات ولا فى الشواهد و فى المعلقات . أما رجال هذا القسم فلا خلاف فى أنهم ليسوا فى منجى من النقد والتمحيص .

رجال الصحيح قسمان مختلفان

فعلى المحتجين بهذا الحديث أن يذكروا لنا رجاله من أى القسمين هم ؛ وإلا فلا. حمى ولا كرامة .

كلام النووى فى تقسيم رجال الصحيح

وقد قال الشيخ أبو زكريا النووى فى مقدمة شرحه على صحيح مسلم : « فصل. عاب عائبون مسلماً بروايته فى صحيحه عن جماعة من الضعفاء والمتوسطين الواقعين فى الطبقة الثانية الذين ليسوا من شرط الصحيح . ولاعيب عليه فى ذلك ، بل جوابه من أوجه ذكرها الشيخ ابن الصلاح : أحدها أن يكون ذلك فى من هو ضعيف عند غيره ، ثقة عنده . ولا يقال : الجرح مقدم على التعديل،لأن ذلك فيما إذا كان الجرح ثابتاً مفسر السبب ، وإلا فلا يقبل الجرح إذا لم يكن كذا . وقد قال الخطيب البغدادى وغيره : ما احتج البخارى ومسلم وأبو داود به من جماعة علم الطعن فيهم من غيرهم محمول على أنه لم يثبت الطعن المؤثر مفسر السبب . الثانى أن يكون ذلك واقعاً فى المتابعات والشواهد ، لا فى الأصول . وذلك بأن يذكر الحديث أولا باسناد نظيف رجاله ثقات ويجعله أصلاً ، ثم يتبعه باسناد آخر أو أسانيد فيها بعض الضعفاء على وجه التأكيد بالمتابعة ، أو لزيادة فيه تنبه على فائدة فى ما قدمه. وقد اعتذر أبو عبد الله الحاكم بالمتابعة والاستشهاد فى إخراجه عن جماعة ليسوا من شرط الصحيح ، منهم مطر الوراق ، وبقية بن الوليد ،ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وعبدالله بن عمر العمرى ، والنعمان بن راشد. وأخرج لهم مسلم فى الشواهد فى أشباه لهم كثيرين . الثالث أن يكون ضعف الضعيف الذى احتج به طرأ بعد أخذه عنه باختلاط حدث عليه ، فهو غير قادح فيما رواه من قبل فى زمن استقامته كما فى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ابن أخى عبد الله بن وهب . فذكر الحاكم أبو عبد الله أنه اختلط بعد الخمسين ومائتين بعد خروج مسلم من مصر . فهو فى ذلك كسعيد بن أبى عروبة وعبد الرزاق الصنعانى وغيرهما ممن اختلط آخراً ، ولم يمنع ذلك من صحة الاحتجاج فى

الصحيحين بما أخذ عنهم قبل ذلك . الرابع أن يعلو بالشخص الضعيف إسناده وهو عنده من رواية الثقات نازل ، فيقتصر على العالى ، ولا يطول باضافة النازل إليه مكتفيا بمعرفة أهل الشأن فى ذلك . وهـذا العذر قد رويناه عنه تنصيصاً وهو خـلاف حاله فيما رواه عن الثقات أولا ثم أتبعه بمن دونهـم متابعة . وكأن ذلك وقع منه على حسب حضور باعث النشاط وغيبته . روينا عن سعيد بن عمرو البرذعى أنه حضر أبا زرعة الرازى وذكر صحيح مسلم وإنكار أبى زرعة عليه روايته فيه عن أسباط بن نصر وقطن بن نسير وأحمد بن عيسى المصرى ، وأنه قال أيضاً يطرق لأهل البدع علينا فيجدون السبيل بأن يقولوا إذا احتج عليهم بحديث : ليس هذا فى الصحيح . قال سعيد بن عمرو : فلما رجعت إلى نيسابور ذكرت لمسلم إنكار أبى زرعة ، فقال لى مسلم : إنما قلت صحيح ، وإنما أدخلت من حديث أسباط وقطن وأحمد ما قد رواه الثقات عن شيوخهم إلا أنه ربما وقع إلى عنهم بارتفاع ويكون عندى من رواية أوثق منهم بنزول ، فاقتصر على ذلك وأصل الحديث معروف من رواية الثقات . قال سعيد : وقدم مسلم بعد ذلك الرى فبلغنى أنه خرج إلى أبى عبدالله محمد بن مسلم بن وارة فجفاه وعاتبه على هذا الكتاب ، وقال له نحواً مما قاله لى أبو زرعة : إن هذا يطرق لأهل البدع ، فاعتذر مسلم ، وقال : إنما أخرجت هذا الكتاب وقلت : هو صحاح ولم أقل : إن مالم أخرجه من الحديث فى هذا الكتاب فهو ضعيف . وإنما أخرجت هذا الحديث من الصحيح ليكون مجموعاً عندى وعند من يكتبه عنى ولا يرتاب فى صحته . فقبل عذره وحدثه . قال الشيخ : وقد قدمنا عن مسلم أنه قال : عرضت كتابى هذا على أبى زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته ، وكل ما قال إنه صحيح ولا علة له فهو هذا الذى أخرجته . قال الشيخ : فهذا مقام وعر . وقد مهدته بواضح من القول لم أره مجتمعاً فى مؤلف . ولله الحمد . قال : وفيما ذكرته

دليل على أن من حكم لشخص بمجرد رواية مسلم فى صحيحه عنه بأنه من شرط الصحيح عند مسلم فقد غفل وأخطأ . بل يتوقف ذلك على النظر فى أنه كيف روى عنه على ما بيناه من انقسام ذلك . والله أعلم ... » انتهى كلام النووى . وفيه بيان لما ذكرناه .

قد يكون الرواة ثقات ويكون الحديث غير صحيح

على أن رجال هذا الحديث إذا كانوا حقا من رجال الصحيح الذين هم ثقات أثبات بلا شك لم يلزم أن يكون الحديث صحيحاً . إذ قد يكون الرواة عدولا أئمة ، و يكون الحديث الذى رووه ضعيفاً باطلا . وذلك بأن يكون الاسناد منقطعاً أو تكون فيه علة من علل الاسناد المعروفة الكثيرة . والمستدلون بالحديث لم يذكروا براءته من هذه العلل التى قد تكون فى الاسناد المسلسل بالثقات ظاهراً ، ولم يذكروا لنا سياق السند حتى نبحثه ونعرف أسليم هو من تلك العلل الفنية أم هو كثير العلل والأمراض . والحافظ الهيثمى لم يذكر أن الحديث صحيح لولا روح ابن صلاح ، بل ذكر أن رجاله من رجال الصحيح ما خلا روحاً . قال : وروح على توثيق ابن حبان والحاكم له فيه ضعف . مع أن الحافظ الهيثمى يدل كتابه «مجمع الزوائد » على أنه يذهب مذهب المتساهلين فى نقد الروايات والرواة . وكأنه لم يقنع بتوثيق الحاكم وابن حبان لروح بن صلاح فأطلق أن فيه ضعفاً ، لأنه يعلم لين هذين الشيخين : ابن حبان والحاكم فى نقد الأخبار ونقد رواتها ، و يعلم مقدار تساهلهما فى ذلك . ثم لم يقل : إن الحديث ثابت صحيح لولا روح . فكأنه قد قدر أن يكون فى السند علة أو علل ، أو كأنه علم بوجود تلك العلة أو تلك العلل . وهذه طريقة للهيثمى فى كتابه « مجمع الزوائد » معروفة ، وهى طيبة محمودة . يقول مثلا فى آخر الحديث : « والحديث رجاله ثقات ، أو رجال الصحيح» . و يتورع كثيراً عن التصحيح الجازم البات . فلا يقول : «والحديث صحيح الاسناد » . وهذا راجع عنده ـ والله أعلم ـ إلى أمرين : أحدهما أن

يكون قد علم أن فى الحديث علة تمنع الحكم عليه بالصحة مع أن رواته ثقات أثبات . وثانيهما احتمال أن تكون فيه علة وإن لم يعلم هو حقيقة ذلك . فكان الصواب والرأى عنده فى الحالتين أن يتورع عن التصحيح وعن الحكم عليه بالثبوت ، وهو قد لا يكون صحيحاً فى الواقع . وأحياناً يعلم عدالة الرواة وسلامة سياق الاسناد من سائر علل الاسناد وسائر أسباب الضعف ، فلا يقصر عن أن ينطق بنتيجة ما علم ، فيقول : « إن الحديث صحيح الاسناد » أو « حسن الاسناد » . على أنه فى كل هذا متساهل ينحو منحى من لا يقسون فى النقد ، ومنحى من يشوقهم جمع الأحاديث الكثيرة المذيلة بكلمة « صحيح » . وهذه طريقة معروفة لطائفة كبيرة من علماء الاسناد . ولكن هؤلاء بلا شك ليسوا حجة فى هذا الباب ، بل لا بد من الرجوع إلى حذاق هذا الشأن وأفذاذه المهرة .

فلا يصح لمسلم أن يحتج بهذا الحديث حتى يعلم صحته وثبوته عن رسول الله وحتى يختبر الاسناد فيعرف ماذكرناه . أما نقل هذا الرافضى أن الحاكم وابن حبان صححاه فنحن أولاً لا نثق بنقله ولا بنقل من نقل عنه ذلك . وثانياً إذا صح هذا فقد علمت مكانة الحاكم وابن حبان فى تصحيح الأخبار الضعاف وتوثيق الرواة الضعفاء . وابن حبان مردود الحكم عند الرافضى مطلقاً لأنه كافر لتضعيفه على بن موسى الرضا . وقد تقدم ماذكره فيه . وأما الحاكم فانه يصحح الأخبار الموضوعة . وقد طرح الناس تصحيحه لذلك . فلا حجة فى تصحيحهما الحديث إذا ثبت أنهما صححاه . هذا ما يقال فى سند الحديث .

معنى الحديث إذا صح

أما معناه — على تقدير صحته وثبوته — فالجواب أن قوله : « وسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » لا يدل إلا على شىء واحد ، وهو جواز أن يسأل الله بحق المخلوق الصالح . وهذا أمر بسيط يسير بازاء ما يأتيه عباد القبور عند قبورهم من الدعوات والاستغاثات وسؤال جميع الحاجات . . . وفرق

عظيم بين سؤال الله بحق الأنبياء والصالحين ، و بين سؤال الأنبياء والصالحين أنفسهم . فان الأول توحيد لله وعبادة له وتضرع واستجداء إليه . وغاية ما فيه أنه ابتدع فيه بدعة ، والبدعة ليست دائماً شركا . وأما الأمر الثانى وهو سؤال الأنبياء والصالحين أنفسهم فعبادة لغير الله وشرك به تعالى . وشتان ما بين الأمرين : الشرك والتوحيد ، الشرك والبدعة ، عبادة الخالق وعبادة المخلوق ، سؤال الله وسؤال عباده الموتى . وليس هذا هو ما أقام النزاع والخلاف بين فريق التوحيد وحزب التنديد، وليس هذا هو ما نعلن النكير العام الحاد على المخالفين من أجله ، و إنما ذاك هو دعاء الأموات وسؤالهم الحاجات ، كما يدعى الشيعى وكما تدعى شيعته ، وكما يفعلون .

سؤال المخلوق ليس كسؤال الله بالمخلوق

و يقال ثالثا — : ما هو حق الأنبياء الذى سئل الله به فى هذا الحديث ؟؟ ولعل معرفتنا هذا الحق تخلى يدى الرافضى من الحجة فى الخبر .

ما هو حق الانبياء فى الحديث

فنقول :حق الأنبياء وحق الصالحين جميعاً على ربهم أمران :أمر هو صفة من صفات الله وشأن من شئونه ، وأمر هو أثر لهذا الأمر الذى هو صفة الله وشأنه. أما الأمر الأول فهو ما أخبر الله عنه فى مثل قوله تعالى : «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وقوله : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » وقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وقوله : « وعد الله حقا » وقوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وقوله : « و إذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » وقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية إلى غير ذلك من الآيات التى فيها وعد الله رسله وأنبياءه بالنصر والغلب والتأييد وحسن العقبى و إتمام الدين و إظهاره والتمكين للأنصار والأتباع والحق الذى جاءوا به فى الأرض وفوق هام العباد والبلاد ، ثم وعده تعالى إياهم الجنة والخلود والرضا

والتقريب والحظوة القريبة المكينة لديه تعالى — إلى غير ذلك من هذه الأمور والمعانى الجليلة التى وعد الله بها رسله وأنبياءه من عباده . . . ووعد الله حق لا ريب فيه ولا فى صدقه ووقوعه . . . فهذا هو حق الأنبياء الأول على الله . وهذا الحق ليس مخلوقا ولا مربوباً ، لأنه عبارة عن نصر الله وتأييده وإعلائه لهم . فهو فعل من أفعاله تعالى وشأن من شئونه . والسؤال بصفات الله وأفعاله وشئونه لاخلاف فى جوازه وحسنه وصحته .

أما الأمر الثانى الذى هو حق لعباد الله الصالحين عليه تعالى بمقتضى وعده ورحمته — وهو تعالى لا يخلف الميعاد ولا يخلف ما تقضى به الرحمة الحكيمة — فهو ما ادخر لهم من النعيم والمشتهيات فى دار خلده ! ونعيم داره ذو ألوان وأفنان وأنواع كثيرة لا يعلمها إلا الله . ولكن يجمعها كل ما هو متعة للنفس وللروح والبدن والجسم . أى هو عبارة عن متع البدن والروح مما خلقه هناك جزاء لهم على قيامهم بخدمته تعالى وبطاعته وعبادته . ويدخل فى هذا الحق الحور العين ، والولدان المخلدون ، وصنوف اللذاذات الأخرى من مأكول ومشروب ومنظور ومسموع ومدرك بإحدى الحواس الانسانية المعروفة وغير المعروفة . . وهذا الحق هو أثر من آثار الحق الأول الذى هو صفة الله وفعله وشأنه .

الحق حقان . أيهما المراد فى الحديث

وإذا علم هذان الحقان لم يبق لدينا شك ما فى أن حمل الحق فى الحديث المذكور على الحق الأول واجب لازم وفرض حتم ، لامناص عنه ولافرار منه . وذلك ان الحق الثانى لايمكن أن يسأل رسول الله ربه به يقيناً ، فلا يمكن أن يسأل ربه بما خلقه تعالى فى الجنة من المأكولات والمشروبات المدخرة لنبى الله آدم ولمن بعده من الأنبياء والمرسلين . فكما لايمكن أن يقول رسول الله : أسألك ياألله بالحور العين التى خلقتها فى جنتك وأنشأتهاتم لآدم أو لابراهيم أو لموسى أو لعيسى أو لغيرهم ، كذلك لا يمكن أن يقول : أسألك يا رب بما خلقت

لهم من الجزاء والثواب . وكما نجد من غير الحسن أن يقول : أسألك يا رب بما خلقت لى فى الجنة من النعيم والثواب والجزاء فكذلك نجد من غير الحسن أيضاً أن يقول : أسألك يا الله بحق نبيك إذا كان حق نبيه هو الحق المخلوق المصنوع المربوب . ولا نشك أن قول المسلم التقى الصالح : أسألك يا رب بذاتى وشخصى و بدنى أو بيدى أو برجلى أو بنحو ذلك مساو لأن يقول : أسألك بما خلقت لى فى الجنة من نعيم وجزاء وثواب . ولا يشك العليم فى فساد السؤالين ونبوهما عن أصول الدين وفروعه وعن الذوق والأدب السليم الصحيح .

إذن لا مندوحة من حمل الحق فى الحديث إذا صح على الحق الأول الذى هو صفة من صفات الله وشأن من شئونه وفعل من أفعاله ــ على أن يكون قوله : « ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » بمعنى : أسألك يارب أن توسع مدخلها وأن تقبل شفاعتى فيها ورجائى ودعائى لها بما وعدتنى ووعدت الأنبياء قبلى جميعاً من النصر والتأييد والعطف والرضا والإرضاء و إجابة السؤال والدعاء . . . » . فهو من سؤال الله بذاته وصفاته وأفعاله وشئونه . وعلى هذا لا يبقى فى الخبر مكان شبهة لأنصار البدعة . لأن السؤال بذات الله وصفاته وأفعاله وشئونه متفق على جوازه .

الجواب عن رواية « يارسول الله كنت رجاءنا »

﴿ الشبهة العاشرة قول صفية : ألا يارسول الله كنت رجاءنا ﴾

الشبهة العاشرة ما ذكره الحافظ الهيثمى فى كتابه « مجمع الزوائد » (الجزء التاسع صفحة ٣٩) بعنوان : « باب فى وداعه ﷺ » . قال : روى الطبرانى بإسناد حسن عن عروة بن الزبير قال : قالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا * وكنت بنا براً ، ولم تك جافيا

فقال الرافضى : « ومن التوسل به بعد موته قول صفية بنت عبد المطلب

فى مرثيتها للنبى عليه الصلاة والسلام التى رواها أهل السير وعلماء الأثر:

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا   وكنت بنا براً ولم تك جافيا

« وقولها : يا رسول الله أنت رجاؤنا صريح فى التوسل والاستغاثة به ﷺ أى أنت رجاؤنا فى الشفاعة إلى الله ، وأنت وسيلتنا إليه . قالت ذلك بمسمع من الصحابة ولم ينكر عليها أحد . ولا يصح هذا على رأى الوهابية لأنه دعاء ونداء لغير الله ، واستغاثة وتوسل بالأموات جهلته صفية عمة النبى وصحابته وسائر الصحابة الذين سمعوه وعلمته الوهابية ! ومع ذلك يسمون أنفسهم السلفية ويقولون : إن قدوتهم السلف . . . » هذا كلام الرافضى .

الاسناد ضعيف

والجواب من وجهين : أحدهما الكلام على الإسناد . فان ذلك أول ما يجب أن يسأل وأن يبحث عنه الباحثون . وثانيهما الكلام على معنى الرواية إذا كانت صحيحة . أما السند فليس صحيحاً يقيناً . وذلك أن الرواية من حديث عروة بن الزبير ، وعروة تابعى ، ولد بعد وفاة رسول الله ببضعة عشر عاماً ، فحديثه هذا مرسل ، والمراسيل ليست حججاً لأنها منقطعة أو فى حكم المنقطعة . والأحاديث المنقطعة ليست بصحيحة عند علماء هذا الشأن . ثم إن عروة ابن الزبير ما ولد إلا بعد وفاة صفية بنت عبد المطلب . فان صفية توفيت سنة ٢٠ وعروة ما ولد إلا بعد ذلك . فروايته عنها منقطعة . فالرواية ضعيفة على كل حال .

على أنه يجب على المستدل بهذا الشعر أن ينظر فى بقية سنده ، وفى الرواة قبل عروة ، فلعل فيه انقطاعاً ، ولعل فيه ضعفاء . ونحن ليس بين يدينا الطبرانى حتى ننظر فى الاسناد . وقبل عرفان ذلك لا يحل الاحتجاج بالرواية . فان الطبرانى يروى كل شىء حتى الموضوعات المكذوبة . وقول الحافظ الهيثمى : إن الاسناد حسن يدل على ضعفه ، لأن الحافظ الهيثمى متساهل فى التصحيح

والنقد كما تقدم . وتحسينه له مع إرساله يدل على تساهله الشديد .

وهذه القصيدة التي منها هذا البيت معدودة في مراثي النبي عليه الصلاة والسلام . وقد ذكر ابن هشام في سيرته المراثي التي قيلت في رسول الله ولم يذكر مرثية صفية هذه .

وصحة الرواية «كنت» لا أنت وتحريف الشيعي لها

أما معنى هذا الشعر إذا صح أن صفية قد قالته حقيقة فلا يدل على ماذهبوا إليه ألبتة، وذلك أن لفظ الشعر الذي استدلوا به على ما في « مجمع الزوائد » : « كنت رجاءنا » لا « أنت رجاؤنا » . وكذا ذكره الشيخ محب الدين الطبري في كتابه « ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى » كما ذكر الحافظ الهيثمي بلفظ « كنت رجاءنا » . وقال : رواه الحافظ السلفي باسناده عن هشام بن عروة . . . والرافضي ذكر الشعر بلفظ « أنت رجاؤنا » تحريفاً من عند نفسه ومن عند الذين يقلدهم في هذه الآفات العلمية . واللفظة الصحيحة هي ما ذكره الحافظ الهيثمي والمحب الطبري « كنت رجاءنا » لا « أنت رجاؤنا » . فلا دليل فيها لشيء مما يذهبون إليه إذن ، بل هي رد عليهم صريح ظاهر . وذلك أنها قد فرقت بين الحياة والموت ، فقالت : « كنت رجاءنا » . تعني أنه ﷺ قد كان رجاءهم يوم أن كان حيا بين أظهرهم ، ومعنى هذا أنهم كانوا في حياته عليه السلام يرجعون إليه إذا عميت عليهم الأنباء ، وأشكلت الأمور وتعقدت ، ليدعو الله لهم وليسأله من أجلهم ، وليبين لهم ما يحتاجون إليه من الهدى والدين وشئون الدنيا وليعالج نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وعقائدهم من آلامها وفسادها وعذابها واضطرابها، بإيمانه وقرآنه وإحسانه . . . فقد كان ﷺ يوم أن كان حيا نجم المؤمنين الثاقب يهتدون به ويسرون ، ويدلجون على ضوئه وهداه في ظلمات العقائد ودياجي الأديان المبدلة المحرفة الزائغة عن السبيل . وكان ﷺ رجاءهم ، يرجعون إلى وحيه عند الضلال والإشكال ، وإلى دعواته وشفاعاته عند الضيق

والإمحال ، وإلى ثباته وإيمانه وإيقانه حين اشتداد الأهوال ، فيرجعون إلى نعم الرجاء ، ويصلون آمالهم وحاجاتهم بعليا السماء فلما أن سما هذا الرجاء إلى ربه خلا مكانه ، وبقى كتابه وإيمانه ، سببين بين المؤمن به وبينه ، يسمو بهما إلى حيث سما ، يصلان أهل الأرض بأهل السماء ، حتى يلتقى الجميع فى مكان القدس الأعلى .

فالرواية : « كنت » لا « أنت » بالفعل الماضى . ولا ريب أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان رجاء المسلمين فى حياته . ولكن ليس معنى هذا أنه كان رجاءهم فى الخلق والرزق وتيسير الأمور العسيرة وتفريج الكربات ، ولا فى الاحياء والاماتة ، ولا فى هداية القلوب وغفران الذنوب ، ولا فى ما هو خاص بالله رب العالمين من هذه الأمور . وإنما كان رجاءهم فى ما كان يستطيعه مخلوق ممتاز مثله ، ورسول مقرب إلى ربه ، حظى بمكانة الرسالة وشرفها ، وبسفارة جبريل سيد الملائكة ونحوها ... فهو ﷺ رجاؤهم فى بيان الحق من الباطل ، والظلام من النور ، وبيان ما يرضى الله مما يغضبه ويسخطه ، وفى الدلالة على الله وعلى دينه وسبيله الواضحة المستقيمة . وهو رجاؤهم لأنه كان يدعو لهم فيجاب ، ويشفع من أجلهم فيشفَّع ، ويستنصر بالله لنصرهم فينصر ، ويحارب بهم أعداء الله وأعداءهم فيَغْلِبُ . وهو رجاؤهم لأنهم كانوا يطيعونه فيرشدون ، ويتبعونه فيهتدون ، ويسألونه ما يقدر عليه فيجابون . وهو رجاؤهم لأنه هو صلتهم بالسماء وبالله ، ولأن وحى الله يتنزل إليهم عليه ، ولأنه هو وما أنزل عليه مجمع سعادتهم فى الدارين والحياتين . وأى رجاء هو أعظم وأفضل وأجل من هذا الرجاء ؟

الرواية رد ... م وبيان ذلك

فهذا هو معنى قول صفية : « ألا يا رسول الله كنت رجاءنا » . والرواية ، كما تقدم « كنت رجاءنا » . وقد ذكرها الشيعى بلفظ «أنت رجاؤنا » تحريفاً

منه ومن الذين يقلدهم وينقل عنهم هـذه الشناعات الصلعاء : حرفها وحرفوها ليصلح له ولهم مازعمه وما زعموه فى تأويل هذه اللفظة من أنها تدل على جواز كل ما يأتونه من البدع والترهات والضلالات . . . ولكن الرواية « كنت » لا «أنت» فهى رد عليهم لو يشعرون . لأن صفية بقولها هذا قد فرقت بين الحياة والموت ، فقالت بعد الموت : « كنت رجاءنا » . فكأنها كانت تعتقد بأن الرسول عليه الصلاة والسلام فى وقت موته ليس مثله فى وقت حياته . فليس كل ما كان يفعله فى وقت حياته يستطيع أن يفعله فى وقت موته من أجل المسلمين والاسلام ، ومن أجل نصرتهم ونصرته . فقد كان هنالك رجاء للمسلمين فيه فُقِد بموته وزال بزواله وانقطع عنهم بانقطاعه عنهم . وقد كانت هنالك أمور فقدها المسلمون بعد أن غيبوا نبيهم فى لحده وجدثه الشريف ، وآمال ذهبت بذهابه إلى ربه . فقالت صفية فى الرجاء المفقود ، وفى تلك الأمور والآمال الذاهبة : « ألا يا رسول الله كنت رجاءنا » . فلا ريب إذن فى أن قول صفية هذا حجة على الرافضى وعلى إخوانه نصراء البدعة جميعاً .

ولو صح ما ذكروه

على أن الرواية لو كانت صحيحة باللفظ الذى ذكروه : « أنت رجاؤنا » لكانت بعيدة أيضاً كل البعد عما يزعمون ويدعون. وذلك أنها باللفظين والروايتين ليس فيها دعاء الرسول ولا الاستغاثة به ، ولا سؤاله حاجة من الحاج ، ولا طلبه أمراً من الأمور كما يفعل العوام اليوم وقبل اليوم ، وكما يدعون ويدعون . ومعنى « أنت رجاؤنا » — لو كان صحيحاً سنداً ولفظا — أنه رجاؤهم فى أن يشفع لهم يوم القيامة ، وفى أن يلقوه ويلقاهم ، وفى أن يحظوا به ويحظى بهم . . . لأن الرجاء هو الأمل اللذيذ الحلو . ولا أحلى ولا ألذ عند المسلم المؤمن من شفاعة رسول الله يوم القيامة ، ومن لقياه ، ومن ملء العين والأذن وجميع الحواس والجوارح المختلفة برؤياه ، وبحديثه وبالقرب منه . ولا أحلى ولا ألذ عند المسلم

المؤمن به ﷺ من الكون فى ركابه و بين أصحابه ، زمراً زمراً فى جنات الخلود وفى مكان القرب من الله ... فهذاهو رجاء صفية بنت عبدالمطلب فى رسول الله ، وهذا هو رجاء كل مسلم مؤمن بالله وبرسوله ، وهذا الرجاء قصيٌّ ناءٍ عن التوسل والاستغاثة ، وعن الدعاء والعكوف على الأجداث . و برأ الله صفية عمة رسول الله و برأ سائر صحابة رسول الله وسائر قرابته من هذا الباطل وهذا الاثم العظيم ، والحنث الجسيم .

رجاء فى رواية «أنت رخاؤنا»

وقد جاء فى « مجمع الزوائد » المطبوع بلفظ : « ألا يارسول الله كنت رخاءنا » من الرخاء لامن الرجاء . ولكن لايبعد أن يكون هذا تحريفاً . . و يراد بهذه الرواية لو صحت أنه عليه السلام كان رخاء المسلمين والمؤمنين فى حياته . لأنهم كانوا إذا قحطوا وأجدبوا ذهبوا إليه وطلبوا منه أن يدعو الله لهم فيدعو فيغاثون ، فيكثر الرخاء و يعم الأرجاء . فقد كان ﷺ رخاء المسلمين بهذا المعنى كما تكاثرت الأخبار فى الصحاح وغيرها أنه كان يسأل الله الغيث للعباد والبلاد فيتنزل حتى يشكو الناس كثرته فيرغبون إليه عليه الصلاة والسلام ليدعو لهم ربه كى يقفه ، وكى يصرفه إلى الضراب و بطون الأودية ورؤوس الآكام ومنابت العشب ، و يجنبه الأمصار والديار . . . وهذه المعانى لانزاع ولا خلاف فيها بين المسلمين .

الجواب عن «يارسول الله»

أما كلمة : « يارسول الله » وقول الرافضى : إن هذا دعاء وخطاب ونداء للأموات فشئ لامعنى له ، ولا خلاف فيه . فان الخطاب المجرد من الطلب الحقيقى ومن إرادة الإسماع والاعلام ونيل الحاجات لاخلاف فى جوازه بين المسلمين ولابين غيرهم من الناس . والخطاب « بيا » و بغيرهامن حروف النداء شائع معروف للأحياء وللأموات ، وللحيوان وغير الحيوان ، وللجماد والحى وغير الحى ، ولكل شئ . وهذا ينطق به العالم والجاهل ، والمؤمن والكافر ،

والمشرك والموحد ، ومن يؤمن بحياة الأرواح ، ومن لا يؤمن إلا بالأشباح . فهم يقولون مثلا :

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

ويقولون أيضا :

ويا قبر معن كيف واريت جوده * وقد كان منه البر والبحر مترعا

ويقولون أيضا :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل * بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل

ويقولون :

بالله ياظبيات القاع قلن لنا * ليلاى منكن أم ليلى من البشر

ويقولون :

زمان الفرد يافرعون ولى * ودالت دولة المتجبرينا

ويقولون . « بربك أيها البرق اليمانى »

أنواع من الخطاب التى لا استغاثة فيه

وهذا فى الشعر لا يخفى على أحد كثرته . ونظيره من نصوص الشرع قول المتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » وقول زوار المقابر : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » الحديث وقوله ﷺ فى رثاء ابنه إبراهيم : « وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » . وقد تقدم قول تلك المرءة الأنصارية ترثى عثمان بن مظعون : « رحمة الله عليك أبا السائب . أشهد لقد أكرمك الله » الحديث . وقد صح عن عمر بن الخطاب فى الحديث المتفق على صحته أنه قال وهو يقبل الحجر الأسود : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك » . وجاء أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان إذا سافر فأقبل الليل قال : « ياأرض ربى وربك الله . أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، وشر ماخلق فيك ، وشر مايدب عليك » . وهذا فى نصوص الشريعة

كثير معلوم لاخلاف فيه ولانزاع . ولايستطيع أحد أن يدعى أن هـذا النداء. نداء حقيق وأنه يراد به كله إسماع المنادى و إعلامه .

النداء الصورى

إذن لاشك أن من النداء ماهو نداء صورى فقط ، وأن من الخطاب ما هو خطاب فى اللفظ دون المعنى . ولاريب أن الممنوع الباطل من نداء الأموات هو النداء الحقيقى المنطوى على الطلب والأمل والحاجة.وأن النداء الصورى الظاهرى. الذى لاطلب ولا أمل ولا حاجة ولارغبة ولا سؤال فيه ليس ممنوعاً ولا محرما . فجائز أن تقول : « رحمك الله أيها الدفين الشهيد ، والفقيـد المفقود مثيله » وأن تقول أيضاً : « رحمة الله عليك أبا العباس ، يا أحمد بن تيمية ! أشهدلقد أيدبك. الله السنة ، و رفع منار التوحيـد والدين الخالص بما خلفت وكتبت وتركت من مؤلفات باقية على الزمن بقاء الزمن على الزمن . . » . فهذا النوع من الخطاب والنداء. جائز كله مستعمل شائع بين الجميع ،لاينكره منكر ، ولايجحده جاحد.ولكن من. غير الجائز ومن غير الحسن أن تقول خطاباً لدفين تحت أطباق التراب ومجلات العدم : « يا فلان اشفنى واهد قلبى واغفر ذنبى » ، أو أن تقول : « ياأبا العباس انصرنى أو اهـد قلبى أو اغـفر ذنبى ، أو اكشف لى ماخفى عـلى من كلامك وكتبك وعلمك . . . » .هذا كله وأمثاله غير جائز وغير حسن وغير خاف عـلى. أحد أنه ليس مثل النوع الأول .

فصل الخطاب

وفصل الخطاب فى هذا المقام أننا نحن لانمنع كل خطاب وكل نداء للاموات بأحـد حروف النداء ، ونحن نقول فى كل صـلاة : « السلام عليك أيها النبى و رحمة الله و بركاته » ونقول فى كل زيارة للمقابر : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » . و إنما نمنع من النداء والخطاب ما كان فيه رغبة و رهبة وطلب وأمل وحاجة ، وما كان مشتملا على الخوف والرجاء ، ومنطويا على الخشوع والخضوع كهذا الذى يفعـله القوم اليوم و يدعون إليـه فى كتب زوروها ، وشبه كذبوها

واختلقوها ، وأشياء ماأنزل الله بها من سلطان ابتدعوها ... فما فى قول صفية هذا لو صح شئ مما يذهبون إليه ، بل فيه الرد عليهم لو يشعرون ويتدبرون وينصفون .

﴿ الشبهة الحادية عشرة فتح الفرجة من القبر النبوى إلى السماء ﴾

رواية الافضاء بقبر النبي إلى السماء

الشبهة الحادية عشرة مارواه الدارمى فى أول سننه بعنوان « باب ما أكرم الله به نبيه بعد موته » قال : حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو ابن مالك النكرى حدثنا أبو الجوزاء : أوس بن عبدالله قال : قحط أهل المدينة قحطا شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت : انظروا قبر النبى فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لايكون بينه وبين السماء سقف. قال : ففعلوا فمطرنا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق . قال الرافضى بعد إيراده هذه الرواية : « فهذا توسل به عليه السلام بعد موته وبقبره الشريف بالفعل كما يتوسل به بالقول ، وهو مستمر من عصر الصحابة الذين هم أعلم بالله وبرسوله وبأحكامه وبحرمته وحرمة قبره من الوهابية. وقد وافقهم وتبعهم عليه المسلمون فى كل عصر كما صرح به الزين المراغى من غير نكير . » هذا كلام الرافضى .

سند الرواية

وعن هذا جوابان : أحدهما أن نقول : هـذا الخبر رواه أبو محمد الدارمى فى سننه عن أبى النعمان : محمد بن الفضل البصرى المعروف بعارم . وهو ثقة حجة مخرج حديثه فى الستة . وقد وثقه أهل الحديث ونقدة الرواة ، ولكن تكلموا فيه من جهة أخرى إذ ذكروا أنه قد تغير واختلط فى آخر حياته . فجاء عن البخارى وأبى حاتم الرازى والدار قطنى وابن حبان والنسائى وأبى داود أن عارماً هذا قد اختلط فى آخر عمره . وقد قسموا حديثه لذلك قسمين : قسما صحيحاً جيداً ، وهو ماحدث به قبل الاختلاط والتغير، وقسما ضعيفاً واهياً، وهو ماحدث به بعد ذلك . ومارواه عنه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب الصحاح هو مما حدث به قبل الاختلاط . ومارواه من حديثه من لايشترطون الصحة والثبوت لما يروون.

يحتمل أن يكون من هذا ، وأن يكون من هذا . فتارة يكون صحيحاً ، وتارة يكون ضعيفاً . فالصحيح هو ماحدث به قديماً ، والضعيف هو ماحدث به أخيراً . فما رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديثه لابد أن يكون من حديثه الصحيح الذى حدث به أولا حينما كان حافظاً جيد الحفظ ، متقناً تام الاتقان . ومارواه غيرهما من حديثه يحتمل أن يكون من القسم الأول ، وأن يكون من القسم الثانى مالم يعلم من أى القسمين هو بنص صحيح صريح ! وهذا الحديث الذى رواه عنه أبو محمد الدارمى لاندرى من أى القسمين هو ، ولا نعلم متى رواه عنه ، ولا كيف رواه . وهو محتمل أن يكون رواه عنه قبل الاختلاط والتغير ، وأن يكون إنما رواه بعد ذلك . ولانستطيع الذهاب إلى أحد القولين ألا تظنيا واجتهاداً مجرداً من البراهين المقنعة الكافية الشافية لصدر الصديان إلى نمير المعرفة . ولكن هذا لايعطى اليقين المنشود .

وعارم هذا روى الحديث عن سعيد بن زيد الأزدى الجهضمى ، وهو أخو حماد بن زيد الامام الكبير . وسعيد بن زيد روى له البخارى تعليقاً ، وروى له مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه على مافى تهذيب التهذيب للحافظ العسقلانى . . . وهو أيضاً مختلف فيه : ضعفه الأقلون ، ووثقه الأكثرون . فحديثه ـ منفرداً ـ حسن محتمل ، لا يبلغ درجة الصحيح القوى ، ولا يهبط إلى مكان الضعيف المطارح .

وسعيد هذا رواه عن عمرو بن مالك النكرى البصرى . قال فى تهذيب التهذيب : وكنيته أبو يحيى ، ويقال : أبو مالك . قال : وهو من رجال الأربعة والبخارى فى الأدب المفرد . وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يعتبر حديثه غير رواية ابنه عنه . يخطئ و يغرب . . . وقال فى التقريب : صدوق له أوهام . ووثقه الذهبى فى الميزان . وهو مع هذا قليل الحديث .

وعمرو هـذا رواه عن أوس بن عبـد الله الربعى البصرى المعروف بأبى الجوزاء . . . وهو ثقة مشهور أخرج حديثه الستة ووثقوه . وقـد رواه هو عن عائشة رضى الله عنها وروايته عنها فيها كلام ، وسماعه منها مختلف فيه . قال فى تهذيب التهذيب : « قال ابن عدى : أبو الجوزاء روى عن الصحابة ، وأرجو أنه لابأس به ، ولا يصح أنه سمع منهم . وقول البخارى : فى إسناده نظر يريد أنه لم يسمع من مثل ابن مسعود وعائشة وغيرهما ، لاأنه ضعيف عنده . وأحاديثه مستقيمة . . . » وقال فى تهذيب التهذيب أيضاً : « قال ابن عبد البر فى التمهيد إنه لم يسمع منها ، أى من عائشـة . وقال ابن أبى حاتم فى المراسـيل أبو الجوزاء عن عمر وعلى مرسل . . » .

و بالاجمال فأبو الجوزاء معروف مشهور عنـد أهل الحديث بالإرسال . وقد أخرج حديثه عن عائشة مسلم فى الصحيح فى أبواب الصلاة فعابوا ذلك عليـه . قال الحافظ بن حجر العسقلانى فى « بلوغ المرام » عقب روايته الحديث الذى رواه أبو الجوزاء عن عائشـة فى افتتاح الصـلاة بالتكبير واختتامها بالتسـليم : « رواه مسلم وله علة » . وهو يريد بهذا أنه من رواية أبى الجوزاء عن عائشة وهو لم يسمع منها . . . فهذا الحديث من أحاديث مسلم المأخوذة المعيبة عليه . ولكن عذر مسلم فى تخريجه إياه ـــ إذا صح عنده أن أبا الجوزاء لم يسمع من عائشة ـــ تواتر معناه فى أحاديث أخرى صحيحة كثيرة .

جملة علل الحديث المختلفة

هذا هو سند الحديث ، وهـذه هى حال رواته . فهو مع هذه العلل المختلفة والمقادح التى تناولت جميع رجاله من جهات مختلفة : جهـة الاختلاط ، وجهة الارسال ، وجهة الضعف ، لايبلغ أن يكون صحيحاً ، ولا أن يكون حسناً يسوغ العمل والاحتجاج به فى هـذا الباب ، وفى هذه المسألة ، وفى هذا المعنى الشاذ الغريب . فالحديث غريب الاسناد،غريب المعنى . فانه لم يعهد مثله فى الأخبار

ولم يجئ معناه فى سواه.. فهو شاذ ، وهو آتٍ بحكم لم يعلم إلا منه و به ، والأحكام الشرعية ، وعقائد الاسلام لاتثبت بمثل هذا الخبر الذى يحمل كل هذه العيوب والمقادح وهذا الشذوذ والغرابة . . . بل معنى الخبر مشكل مخالف لأصول كثيرة من أصول الاسلام الأولى الظاهرة المتواترة . فأى معنى فى فتح الفرجة من القبر إلى السماء ؟ وأى أصل من أصول الشريعة يؤيده أو يقبله ؟

ولو كان فى فتح الفرجة ما يوجب الغيث وما يوجب نزول المطر وما يقرب من الله ومن رحمته وسمائه لترك المسلمون القبر النبوى الشريف مكشوفاً ، ولأزالوا سقف الحجرة التى دفن فيها هو وصاحباه لتكون القبور الثلاثة مفضية إلى السماء ، ليكون فى ذلك ماينزل الغيث وما يدنى من رحمة الله ومن إحسانه وسمائه .

ولو كان هذا أيضاً صحيحاً لكان من سنة رسول الله ومن سنة خلفائه الراشدين ومن عمل غيرهم من أهل العلم والدين أن يبرزوا بأجسامهم وأشخاصهم إلى السماء والفضاء عند امتناع الغيث والمطر ليكون فى بروزهم سقيا للعباد والبلاد . ولا ريب فى أن إبراز الذات النبوية أعظم فى هذا المعنى من إبراز القبر إلى السماء . ولكن لم يأت أن أحداً من أهل العلم والدين ، ولا أتى أن رسول الله ، ولا أن أصحابه فعلوا شيئاً من ذلك أو فكروا فيه . بل جاء عنهم فى حياة الرسول و بعد وفاته أنهم كانوا يفزعون إلى الصلاة — صلاة الاستسقاء — و إلى الدعاء عند اشتداد الجدب وحين إلحاحه عليهم فيستمطرون بالصلاة والدعاء . وما جاء عنهم غير هذا . وكل ذلك يدل على غرابة معنى هذه الرواية فضلا عن غرابة إسنادها . ومثل هذا الغريب ـ إسناداً ومعنى ـ لا يصح أن يبنى عليه حكم من أحكام الطهارات والوضوء والمياه فضلا عن أن يبنى عليه حكم من هذه الأحكام التى لها اتصال مكين بالاعتقاد .

على أن هذا الذى ذكروه فى فتح الفرجة يناقض ما ذهبوا إليه من تشييد

لقباب والبنايات على القبور ثم إتقانها بالطوب والتراب والحجارة والأخشاب بالاصباغ والنقوش والزخارف ذات الألوان والأنواع . فانه لو صح ما ذكر من الفرجة وفتحها لكان من الحسن المستحسن المرغوب فيه ألا يجعل على القبور شئ من هذه البنايات وهذه الآكام من القباب والأشياء الأخرى . ولكان من الحسن المرغوب فيه أن تترك القبور هي والسماء مفضية إليها ، مكشوفة لها ، لايقوم بينهما حائل ، لتنال البركات والرحمات ، وليكثر الغيث والمطر . . ولكن القوم لا يهتدون فى جدالهم ونضالهم بمنطق مستقيم واضح مستنير . هذا ما يقال من جهة الاسناد .

الجواب الثانى ان الراوية ليس فيها شئ مما يذهبون إليه من التوسل ودعاء الموتى

والجواب الثانى أن يقال : هبوا الرواية صحيحة ثابتة فهل تدل على شئ مما ذهبتم إليه ؟ نقول فى الجواب : كلا ، إنها لاتدل على شئ من أمركم يقيناً . ذلك أنه ليس فيها دعاء ميت ، ولا استغاثة ميت ، ولا توسل بميت ، ولا عكوف على قبر ميت ، ولا تشييد لقبر ميت ، وليس فيها شئ من الزخرفة للقبور أو البناء عليها ، أو شئ مما نراه اليوم ماثلا فوق القبور ، فنراه جرحاً دامياً فى صميم الاسلام ، وسبة واضحة سوداء فى جبين التوحيد المشرق الوضاء : نعم ليس فى الرواية شئ من هذا ، وإنما فيها الافضاء بالقبر إلى السماء . وهذا لا يقول أحد من الناس العقلاء إنه يدل على أن من الدين والاسلام أن يقول المسلم: يارسول الله اهد قلبى ، أو اغفر ذنبى واشفنى ، أو اغننى ، أو ارزقنى ، أو أدخلنى الجنة ، أو أعطنى كيت أو كيت . كما لا يمكن أن يقول أحد : إن هذا مساوٍ لهذا ، ومن قال ذلك فلا ريب فى أنه من أبخس الخلق عقلا وفهماً وديناً . فان القائل : يا رسول الله أعطنى ، أو اهد قلبى ، أو اغفر ذنبى ، راغب راهب ، طالب سائل من غير الله مالا يستطيعه إلا الله . وهذا هو البلاء الأكبر ، والداهية العظمى . أما كشف القبر والافضاء به إلى السماء فليس فيه طلب ولا سؤال من غير الله ،

ولا رغبة فى سواه أو رهبة من مخلوق . وشتان مابين الأمرين والمقامين .

وكشف القبر النبوى الشريف رجاء استدرار الغيث والمطر هو مثل أن تذهب إلى من تحتاج إليه فتكشف له عن مكان حاجتك وشكاتك ، وعن موضع ألمك وضرك . ومثل أن تريه منك ما يعظمه وما يحبه وما يعز عليه وما يعزه ، وما يكرم عليه من أثر أو غيره ليكون فى ذلك حض له على إعطائك حاجتك وما تريده منه . . . ولكن لا يقول أحد : إن فى شىء من هذا دعاء لغير الله أو استغاثة بمخلوق .

اجوبة اخرى

وقريب من كشف القبر ـ لو صحت الرواية ـ إخراج المستسقين أطفالهم وبهائمهم معهم إلى مكان الصلاة والاستسقاء ، ومثل البروز بهم وبها إلى الخلاء والسماء ليكون هذا أبلغ فى الاستسقاء والاستغاثة بالله ، وليكون فيه ما يقرب من نزول الغيث ونزول رحمة الله على عباده وبلاده . وقد ذكر بعض الفقهاء أنه يستحب الخروج بهؤلاء إلى الصحراء فى صلاة الاستسقاء ، وهم يذهبون إلى هذا المعنى . ولكن ما قال أحد : إن ذلك يدل على جواز دعاء الأموات وسؤالهم مالا يقدر عليه إلا الله من عظيم الحاجات وجليل المطالب . فنحن إذن قد نجيز كشف القبر ـ لو صح الحديث ـ طلباً للغيث . ولا يلزم هذا أن نجيز دعوة الموتى والانقطاع إلى قبورهم . فان هذا لايلزم هذا ، كما أجاز طوائف من الفقهاء الخروج بالبهائم والأطفال إلى الخلاء وإلى مكان صلاة الاستسقاء مبالغة فى طلب الغيث وإظهار الفقر والفاقة لله ، بل قد استحب هذا فريق من أهل الفقه ولكنهم لم يجيزوا الاستغاثة بالأموات ولا دعاءهم ولا شيئاً من هذه الآثام المنثورة فوق القبور ، ولا زعموا أن هذا لازم لذاك ، ولا أنه مثله وفى حكمه .

ومن الأمور المرغوب فيها المسنونة فى صلاة الاستسقاء الخروج إلى الصحراء والافضاء إلى السماء ، أعنى إفضاء المصلين المستسقين وخروجهم ، كما

خرج رسول الله ومن معه من المسلمين لصلاة الاستسقاء متبذلين متخشعين. متكسرين . . . فصلوا فى الصحراء صلاة الاستسقاء مفضين إلى السماء مفارقين للديار وللأبنية والبيوت مبالغة فى التقرب إلى الله و إلى رحمته وغياثه وغيثه . ولم يكن فى هذا عند أحد من العقلاء شئ من الدلائل على جواز دعاء الأموات والاستغاثة بهم كما زعم . فهذا غير هذا ، فهما أمران متباينان غير متلازمين .

أما زعم الرافضى أن فتح الفرجة سنة أهل المدينة عند القحط فزعم كاذب لايكاد يصح ، و إن صح شئ فمن الجهلاء لا عن أهل العلم والمعرفة . والسقف حائل بين القبر والسماء ، لا يفضى إليها ولا تفضى إليه . ولا أحسب التاريخ والمشاهدة يقران شيئاً من هذا الذى زعموه وذكروه .

استشفاع الناس يوم القيامة بالأنبياء وجوابه ذلك

« الشبهة الثانية عشرة توسل الناس بالأنبياء »
« وبخاتمهم فى عرصات القيامة »

الشبهة الثانيــة عشرة قال الرافضى : « قام الاجماع وتواترت الأخبار على أن الناس يتوسلون بالنبى فى عرصات القيامة فيشفع لهم إلى ربه ... » .

والجواب أن نقول : هــذا لا خلاف فيه ولكنه على الرافضى لا له . ذلك أن الثابت فى هــذه الأخبار التى يشير إليهــا ، وفى الاجماع الذى يذكره أن الناس يوم القيامة عنــد ما يشتد بهــم الهول ، وعنــد ما يلح عليهم الكرب والبلاء ، وعند مايتوجهون إلى التماس الشفعاء وتطلب الشفاعات لا يطلبون من نبى الله نوح ولا ممن بعده من الأنبياء الشفاعة إلا بعد أن يأتوهم و يروهم .ولا يطلبون ذلك من أحد منهم وهو عنهم غائب ناء ، ولا هو عنهم محتجب قصى . فلا يقولون أين كانوا : يانوح اشفع لنا ، ولا ياإبراهيم أو يامحمد اشفع من أجلنا لنراح من هذا البلاء والكرب العظيم : لايفعلون شيئاً من ذلك ألبتة ... ولكنهم يذهبون إلى

دلالة هذه الحجة على خلاف قول المخالفين

نوح و إلى إبراهيم و إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فيطلبون منهم جميعاً الشفاعة إلى ربهم وخالقهم ليريحهم مما هم فيه من الشقاء والبلاء ، فيحيلهم كل نبي على النبي الآخر حتى يصلوا إلى محمد خاتمهم عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فيذهب إلى ربه ، فيضرع إليه و يتوسل إلى ذاته تعالى بأنواع الوسائل من دعاء وحمد وسجود ورغب ورهب حتى يأذن له ربه بالشفاعة الكبرى للناس كافة فيشفع و يشفع ، وتحد له الحدود فيمن يشفع فيهم وفيمن تنفعهم شفاعته ، فاذا شفع فيمن لا يستحقون الشفاعة قال الله له : « ذلك ليس إليك » كما جاء في الصحيح في آخر حديث الشفاعة الذي رواه الحسن عن أنس بن مالك قال محمد ﷺ : « فأقول : يارب ائذن لي في من قال : لا إله إلا الله ، قال: ليس ذاك لك ـ أو ليس ذاك إليك ـ ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله ... » . وما جاء في رواية واحدة من روايات أحاديث الشفاعة أن الناس يطلبون من الأنبياء ومن الشفعاء الشفاعة قبل أن يذهبوا إليهم وقبل أن يأتوهم فيسمعوهم و يروهم . . . بل اتفقت تلك الأخبار جميعاً على أنهم أولا يذهبون إليهم و يأتونهم ثم يطلبون منهم أن يشفعوا لهم وأن يدعوا ربهم من أجلهم . وهذا يدل على أن الفطر كلها مفطورة على أنه لا يصح الاستشفاع بالغائب ، ولا يصح دعاؤه ولا الاستغاثة به ولا التوجه إليه ، ولا سؤاله ولا طلبه شيئاً من الأشياء . . . وهذا لا شك فيه بين ذوي الألباب الصحيحة السليمة . وهذا يرد على المخالفين رداً صريحاً ، و ينقض ماذهبوا إليه من الاستشفاع بالأموات ودعاء الغائبين الغابرين نقضاً قوياً جلياً . فان المخالفين يدعون الأموات من كل مكان ، و يستشفعون بهم من كل مكان ، و يسألونهم ضروب الحاج من كل مكان ، و يرغبون إليهم من كل مكان ، و يلهجون بأسمائهم ودعائهم من كل مكان ... والأموات الذين يدعونهم و يستغيثونهم غائبون عنهم

إذ يدعونهم وإذ يهتفون بأسمائهم : غائبون عنهم ، لأنهم إن كانوا صالحين فهم عند ربهم يرزقون ويحبرون ويفرحون كما قال تعالى فى كتابه العزيز : « .. أحياء عند ربهم يرزقون . . . » الآية . وإن كانوا من الأشقياء وأصحاب الجحيم فهم غائبون أيضاً فى أطباق النيران يعذبون ويشقون ويتجرعون ألوان العذاب وألوان النكال . . . فالأموات — مؤمنين وكافرين ، صالحين وطالحين — غائبون عن أهل الدنيا وعن دعوهم وخاطبوهم وراموا الاتصال بهم من أهلها ، قصيون عنهم لا يسمعونهم إن دعوهم سراً أو جهراً ، ولا يعلمونهم إن رغبوا فيهم وفى سلطانهم . ولكن هؤلاء المخالفين يدعونهم ويستغيثونهم مع بعدهم وغيبتهم ، ومع انقطاع الصلات والأسباب بينهم وبينهم . وأهل الموقف الذين يستشفعون بالأنبياء : بآدم فمن بعده ، لايستشفعون بهم إلا فى حضرتهم وبين أيديهم فى حياتهم الأخرى .. وما طلبوا من أحد منهم أن يشفع لهم ، ولا أن يدعو الله ليريحهم من موقفهم ذلك فى مغيبه وبعده . فهذا الذى سوف يفعله أهل الموقف فى عرصات القيامة رد على هؤلاء الداعين للأموات الهاتفين بأسمائهم وألقابهم عند الشدائد ، وفى الرخاء أيضاً من كل مكان لو يشعرون ، ولكنهم لا يشعرون ولا يريدون أن يشعروا !

شىء آخر فى هذه الأحاديث يرد على المخالفين

ثم إن أحاديث الشفاعة تلك رد عليهم من ناحية أخرى . . . ذلك أن الذى فى جميع روايات أخبار الشفاعة وأخبار الموقف وعرصات القيامة أن الناس لا يطلبون من الأنبياء سوى الشفاعة وسوى الدعاء لهم عند الله ربهم . وماجاء فى رواية واحدة من الروايات الكثيرة أنهم يطلبون منهم ، لا من آدم ولا من محمد ولا ممن بينهما ، أن يدخلوهم الجنة وأن يريحوهم من موقفهم الهائل ، وأن يكشفوا ما هم فيه من الكرب والعذاب والبلاء العظيم . . . فما قالوا : يا آدم أدخلنا الجنة ، ولا ارحنا من عذابنا هذا ، كما قالوا له : اشفع لنا عند ربك يرحنا . .

من العذاب . ولا قالوا : يا محمد أرحنا أو أزل عنا ما نحن فيه من الشقاء والآلام كما قالوا اشفع لنا وادع من اجلنا . ولا قالوا مثل ذلك لأحد من الأنبياء الذين طلبوا منهم الشفاعة والدعاء ... فالأخبار كلها مطبقة مجمعة على أن الناس يوم القيامة لا يسألون الأنبياء إلا الشفاعة والدعاء : لا يسألونهم إدخال الجنة ولا الإراحة من العذاب ، لا بأسلوب الحقيقة ، ولا بأسلوب المجاز . وهذا يرد على الرافضي وعلى إخوانه المخاصمين ، ويرد على سائر طوائف المبتدعين الضالين في هذه المسائل الكبرى . لأنهم يزعمون أنه يصح أن يسأل المخلوق الميت كل شيء يصح سؤاله الله ، فيصح عندهم أن يقول المسلم المؤمن : يا رسول الله أو يا علي ، أو يا حسن ، أو يا حسين : اغفر ذنبي واهد قلبي وأدخلني الجنة ، ونجني من النار : هذا كله عندهم يجوز . ويجوز أيضاً غيره من كل ما يصح أن يسأل الخالق إياه مما لا يستطيعه سواه ، إلا أنهم يزعمون أن هنالك حقيقة ، وأن هنالك مجازاً ، ويزعمون أن سؤال المخلوق ذلك مجاز ، وأن سؤال الله إياه حقيقة . وقد تقدم الكلام على هذا . ولكن أخبار الشفاعة وأخبار عرصات القيامة ترد عليهم هذه الدعوى وهذا الزعم . فان تلك الأخبار قد أطبقت وأجمعت على أن الناس لا يسألون الأنبياء في ذلك اليوم الأحمر المصيب الشديد إلا الشفاعة والدعاء . لا يسألونهم شيئا من هذا الذي زعموه مجازاً ، والذي ادعوا أنه مؤول مصروف عن ظاهره وعما يبدو منه . فانه لو كان هذا الذي زعموه صحيحاً جائزاً لجاء أن الناس يوم القيامة ، أو أن فريقاً منهم ، سوف يسألون الأنبياء بذلك اللسان المجازي ، وبذلك القول المؤول المصروف عن ظاهره . فيقولون مثلا : يا نوح أو يا آدم أو يا إبراهيم أو يا محمد أدخلنا الجنة وأرحنا من العذاب الذي نحن فيه . ولا يلبس أن من جملة الناس المستشفعين بالأنبياء يوم القيامة هؤلاء الداعين إلى هذه الباطلات، المستشفعين المستغيثين بالأموات ، القائلين هذه

لماذا لا يسأل الناس الأنبياء يوم القيامة سوى الشفاعة

المقالات . فلماذا ينسون فى ذلك اليوم هـذا المجاز الذى زعموه ، وهـذا القول المؤول الذى ادعوه ؟ ولماذا لم يخاطبوا الأنبياء ويدعوهم هناك بهذا المجاز وبهذا اللسان ؟ إن الجواب على هـذا السؤال سهل قريب ، لا يعجز طالبـه . فأين يذهبون ؟ ونحن لا نجد مانعاً يمنعهم كائهم من أن يقولوا مثل هذا القول إذا كان جائزاً ، و إن يستعملوا هذا المجاز إذا كان صحيحاً مقبولا ، وهم أحوج ما يكونون إلى السؤال والطلب ، و إلى العافية والنجاة ، بحيث لا يصح أن يتركوا وسيلة ممكنة مرجوة إلا طرقوها ، ولا سبباً من أسباب النجاة والعافيـة ـ ولو توهما وتظنيا ـ إلا أخـذوا به من طرفيه وأمسك به كل امرىء منهم بكلتا يديه ، طلبا للنجاة و رغبة فى العافية . فما لهم لم يفعلوا ذلك ؟ بل مالهم لم يفعلوا منه شيئاً ، ولم يفعله منهم أحد ؟ أفلا يدلنا هذا الإقصار وهذاك الاعراض على أن الذى زعمه المخالفون أمر باطل وزعم غـير صحيح ولا كرامة ؟ بلى ، إنه لـكذلك ، و بلى ، إن أخبـار الشفاعة مما يرد على المخالفين ومما يفسد ما ذهبوا إليه لو يفطنون ولا يتعصبون .

دلالة الاخبار على قولنا من ناحية ثالثة

والأخبار — أخبار الشفاعة — رد على القوم من جهـة ثالثة . ذلك أن الناس حينما يشتد عليهم الـكرب والبلاء يذهبون إلى آدم أبى البشر ، فيطلبون منه أن يشفع لهم ، فيقول لهم : لست لها . إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله ، و إنه نهانى عن الشجرة فأكلت منها . نفسى ، نفسى . اذهبوا إلى غيرى . فيأتون نوحاً عليه السلام فيطلبون منه الشفاعة فيعتذر كما اعتذر قبله آدم ، ويذكر ماله من خطيئة فيستحى ربه منها ، فيقول لهـم : اذهبوا إلى غـيرى . فيأتون إبراهيم فيقول لهم : لست هناكم . ويذكر خطيئته فيستحى ربه منها ، ويقول لهم : اذهبوا إلى غيرى . فيأتون موسى فيقول : لست هناكم . ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ، ويقول : اذهبوا إلى غـيرى . فيأتون عيسى فيقول لهم : لست هناكم . اذهبوا إلى غـيرى . فيأتون محمداً فيذهبَ إلى ربه

ويخر ساجداً حتى يقال له : ارفع رأسك وسل تعطه ، واشفع تشفع . . إلى آخر الحديث . . . وقد جاء هذا التفصيل فى الشفاعة وتنحى الأنبياء عنها واحداً بعد واحد عن جماعة من الصحابة بطرق متعددة صحيحة . وجاء فى جميع طرق هذا الحديث أن الأنبياء : آدم ونوحاً و إبراهيم وموسى وعيسى يعتذرون عن الشفاعة وعن التقدم بين يدى الله كى يشفعوا للخلائق ، وأنهم يتهيبون ذلك المقام و يذكرون غضب الله وجلالة الوقوف بين يديه ، ويذكرون الأمور التى أتوها والتى سموها خطايا ، أو ذنوبا ، فيستحيون منها ومن ربهم من أجلها ، فيكعون عن مقام الشفاعة وعن مقام الشافعين ، و يقصرون عنها و يعدون أنفسهم دونها ، فلايجرءون على التقدم ، ولا يقدمون على الشفاعة ــ إجلالا لله و إجلالا لمقامه ، و إجلالا لذلك اليوم ، واستحياء من الله ، واتهاماً لأنفسهم ... وأخيراً لا يشفعون ، وأخيراً يقول كل منهم : لست هناكم ، وأخيراً يقول كل نبى منهم : نفسى ، نفسى . اذهبوا إلى غيرى . . . إذن فمقام الشفاعة بين يدى الله للخلق مقام عظيم مهيب ، و إذن ليس كل أحد يستطيع أن يقوم ذلك المقام وأن يقف ذلك الموقف ، و إذن ليس كل امرئ يجرأ على التقدم بين يدى الله شافعاً للخلق . . ، هذا ما تدل عليه كله أحاديث الشفاعة التى احتجوا بها على باطلهم ، وهذا ما رواه أصحاب الصحاح من كلام النبوة فى صحاحهم .

إذا كان الانبياء يأبون الشفاعة للخلق إجلالا لله فكيف يرجو هؤلاء الشفاعة من المشايخ

فاذا كان ذلك كله حقا ــ وهو حق بلا ريب ــ فما بال هؤلاء القوم يطرحون أنفسهم على كل جدث من هذه الأجداث ، ويلقون آمالهم وحاجاتهم ومآربهم على كل دفين من الأموات ، زاعمين أن كل شيخ سألوه الشفاعة لا بد أن يشفع لهم ، وأن كل ولى أوكل حَظِىّ عند الله قالوا : له اشفع لنا عند ربك لابد أن يشفع لهم ، ولا بد أن يقوم مقام الشفيع ، وقد تنحى عنه ــ إجلالا له و إجلالا لله ــ آدم ونوح و إبراهيم وموسى وعيسى ؟ إذا كان هؤلاء الأنبياء ــ وهم

أولو العزم منهم — يأبون أن يشفعوا للنـاس تهيباً لمقام الشفيع ولأمر الشفاعة ، وتعظيماً لله ولمقامه ، وتصغيراً لأنفسهم الكبيرة إزاء عظمة الله وكبر كبريائه — وإذا كانوا يأبون أن يشفعوا للخلق لأنهم قد أذنبوا ذنبـاً واخطأوا خطأً ، لعله لا يكون خطأ ولا ذنباً إلا فى أعينهم وعندهم هم لخشيتهم ربهم وإعظامهم له — وإذا كانوا يأبون أن يشفعوا لأن الله قد غضب غضباً شديداً ، وهم لا يليق بهم أن يتقدموا إليه بهذا الأمر وهو غضبان ، والله إذا غضب ذاب كل شئ ازاء غضبه ، وصغر كل كبير عنده ،والله إذا غضب تلاشت المقامات وطارت النفوس المؤمنة ذعراً وهيبة : إذا كان هؤلاء الأنبياء — وهم سادة الخلق وزعماء الأنبياء — يأبون أن يشفعوا لما ذكروا فمال هؤلاء الحيرى يتطرحون على كل قبر ،وفوق كل جدث : يريدون الشفاعة ، ويريدون الغفران ، ويريدون تكفير الخطايا والآثام التى قد أحاطت بحياتهم وبأعمالهم وبما عملوه من حسنات ، إن كان ذلك ؟؟

أفلا يعلمون أن الأنبياء إذا كانوا يتأخرون عن الشفاعـة إعظاماً لأمرها واستحياء من ذنوبهم ومن ربهم أن غير الأنبياء ممن يسألونهم الدعاء والشفاعات أكثر منهم تأخراً وتهيباً وإباء وإحجاماً ؟ إذا كان نبى الله إبراهيم الخليل يقول لمن يطلبون منه الشفاعة : لست هناكم ، لأن الله قد غضب ، ولأنى قد أخطأت أو أذنبت ذنباً ، فما يمكن أن يقول غيره كالحسين أو الحسن أو فاطمة أو عبد القادر الجيلانى أو الرفاعى أو البدوى أو غيرهم من الأولياء الصالحـين والمشايخ الآخرين ؟ ماذا يمكن أن يقول هؤلاء إذا طلبت منهم الشفاعة إذا كان مثل إبراهيم الخليـل يتأخر عنها ويأباها ، لأنه قد أذنب أو أخطأ ، ولأن الله قد غضب ؟ وماذا يمكن أن يقول مثل الامام الشافعى إذا طلبت منه الشفاعة وقد تأخر عنها موسى وعيسى ونوح وإبراهيم خليل الرحمن ، وآدم أبو الخلائق وأبو الأنبياء جميعاً ، لأنهم أصغروا أنفسهم عن ذلك المقام ،ولأن ربهم قد غضب

على خلقه لآثامهم وذنوبهم ؟ لاريب أن فى أحاديث الشفاعة هذه زجراً زاجراً عن التعلق بالشفاعات والشفعاء ، وترغيباً ظاهراً عنها ، وحيلولة صارمة صادقة بين الناس و بينها . ولاريب أن المسلم البصير يأخذ من هذا العظة البالغة، و يأخذ أن شيئاً يحجم عنه مثل إبراهيم ونوح وموسى وعيسى وآدم لا يمكن أن يقدم عليه مثل البدوى والجيلانى والرفاعى والدسوقى وأمثالهم . ثم يأخذ من ذلك أن من أقدم على ما أحجم عنه الأنبياء فليس من الله فى شئ ، وليس من الحياء والإجلال لله ولأنبيائه فى قليل ولا كثير .

فهذه الأحاديث زجر للناس عن التعلق بالشفاعة والشفعاء أى زجر ، وترغيب عنها أى ترغيب ، فان العاقل يعلم بداهة أن ما عجز عنه مثل هؤلاء الأنبياء وأحجموا عن حماه لا يمكن أن يقدر و يقدم عليه غيرهم ممن ليسوا رسلا ولا أنبياء وهذا كله واضح . ولكن أين من يفهمون و ينصفون !

بعد هذا نقول لهذا الرافضى الظالم : إن استشفاع الخلائق يوم القيامة بالأنبياء من الاستشفاع بالأحياء ، ونحن لم نقل: إن الاستشفاع بالحى ممنوع باطل ولم نقل : إن طلب الشفاعة من كل أحد محرم محظور . ولكن قلنا إن الاستشفاع بالموتى ودعاءهم من البدع المنكرة الباطلة ، ومما نهى عنه الدين : كتابه وسنته . والخلائق حينما يطلبون الشفاعة من الأنبياء لا يطلبونها منهم إلا وهم أحياء بين أيديهم . فأين هذا من ذاك ! وأين الأموات من الأحياء .

﴿ الشبهة الثالثة عشرة — خلق آدم والجنة والنار

من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ﴾

حديث خلق الجنة والنار لأجل محمد عليه السلام

الشبهة الثالثة عشرة قال الرافضى : روى الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى : يا عيسى آمن بمحمد وامر من أدركت من أمتك أن

يؤمنوا بمحمد . فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا إنى خلقت محمداً ما خلقت الجنة ولا النار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن اهـ

والجواب أن نقول : قال الحاكم فى المستدرك (الجزء الثانى صفحة ٦١٥ كتاب التاريخ . طبعة حيدر آباد الهند) : حدثنا على بن حمشاذ العدل إملاء حدثنا هارون بن العباس الهاشمى ، حدثنا جندل بن والق ، حدثنا عمرو بن أوس الانصارى ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى . . . « الحديث » . قال الحاكم بعد روايته : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى فى التعليق : « قلت أظنه موضوعا على سعيد » . قلت أنا : وهذا ورع من الحافظ الذهبى رحمة الله عليه . وإلا فالمقام غنى عن « أظن » . بل الحديث موضوع يقيناً .

سند الحديث

والسند : أما على بن حمشاذ فهو أحد شيوخ الحاكم الحفاظ . وقد أثنى عليه الحاكم كثيراً وأكثر من الرواية عنه فى المستدرك . وذكره الحافظ الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » بالخير . وأما هارون بن العباس الهاشمى فذكره الخطيب فى التاريخ ووثقه . وأما جندل بن والق فقال فيه مسلم : متروك . وقال البزار : ليس بالقوى . وذكره ابن حبان فى الثقات . كذا فى « تهذيب التهذيب » . ونقل عن أبى زرعة توهينه . قال : وروى عنه البخارى فى « الأدب المفرد » . قلت: ماروى عنه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » إلا حديثاً واحداً فى الاستغفار رواه عن يحيى بن يعلى . وأما عمرو بن أوس الأنصارى فقال الذهبى فى الميزان: « عمرو بن أوس . تجهل حاله . وأتى بخبر منكر ، أخرجه الحاكم فى مستدركه . وأظنه موضوعاً ، من طريق جندل بن والق » . وذكر هذا الخبر . وكذا قال الحافظ العسقلانى فى « لسان الميزان » مثل ما قال الذهبى . وأما سعيد بن أبى

عروبة ومن بعده فأئمة لا يسأل عنهم .

الحديث موضوع

فالحديث موضوع ، والحمل فيه على عمرو بن أوس هذا . أما تصحيح الحاكم له فمن شقاشقه المعروفة .

وكيف يصح خبر يقال فيه: إن الله لم يخلق آدم ولا الجنة ولا النار إلا لأجل محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقول : « ولولا أني خلقت محمداً ما خلقت الجنة والنار »؟

إن الجنة والنار قد خلقتا عدلا من الله ورحمة وحكمة ، والله حكيم عادل رحيم قبل أن يخلق محمداً ، وقبل أن يخلق أحداً . والله كذلك حكيم عادل رحيم وإن لم يخلق أحداً . خلق الله الجنة جزاء لمن أطاعوه واتقوه من عباده الصالحين الأبرار ، وخلق النار عقاباً للعصاة وللكفار والظالمين والأشرار . . . فهل معنى هذا الخبر أن الله لو لم يخلق محمداً لما جازى عباده الصالحين الأبرار على طاعاتهم وعباداتهم ، ولما عاقب الكفار والظلمة والأشرار على كفرهم وظلمهم وشرهم ، بل لتركهم جميعاً سدى ، ولسوى بينهم ، ولجعل الكفار كالمؤمنين ، والفجار كالأبرار؟

نعوذ بالله من هذا ومن حديث يدل عليه ويؤيده ! هذا الحديث الموضوع يقول: إن الله لو لم يخلق عبده ورسوله محمداً لما استحق عبد الله ورسوله آدم الحياة ، ولما استحق هو ولا إبراهيم خليل الرحمن ولا نوح أول رسول بعثه الله بالتوحيد وبالدعوة إلى عبادة الله وحده ، ولا موسى ولا عيسى ولا غيرهم من الأنبياء والمرسلين ولا غيرهم من المؤمنين والصالحين والشهداء والحكماء : يقول هذا الحديث الموضوع إن الله لو لم يخلق محمداً عليه السلام لما استحق أحد من هؤلاء الجنة ، لأن الجنة ما خلقت إلا لأن محمداً عليه الصلاة والسلام خلق ، ولو لم يخلق لما خلقت . فلو لم يخلق ما استحق أحد من هؤلاء الأنبياء والمؤمنين أن يدخل الجنة .

ويقول هذا الحديث الموضوع أيضاً : إن محمداً لو لم يخلق لما خلقت النار ولما عذب فرعون وجنوده ولا أبو جهل وجنوده ولا غيرهم من أجناد الباطل والكفر والضلال

وحماة الشر وأعوان الإثم . . . لأن النار لم تخلق إلا لأجل محمد ! نعوذ بالله من هذا الحديث ومن هذا القول .

ما معنى خلق النار لأجل محمد عليه السلام

قد يعقل بعض ناقصي العقول القول بأن الجنة لم تخلق إلا لأجل محمد وأنها لولاه لما خلقت . ولكن الذي لا يعقله أحد القول بأن النار لم تخلق إلا لأن محمداً خلق ، وأنها لم تخلق إلا من أجله . . . وما معنى خلق النار المخلوقة لعذاب الكفار والأشرار لأجل محمد عليه الصلاة والسلام ؟ ومامعنى قول هذا الحديث المكذوب : إن الله لولم يخلق محمداً لما خلق النار ؟ إن كان معناه أن محمدا هو الذي يعذب بالنار ، أو أن الكفر به وحده دون الكفر بسائر الأنبياء والحقائق هو الذي يوجب دوخول النار : إن كان معنى الحديث هو هذا فهذا باطل وجهل وكفر . وإن كان معناه أن الله لم يخلق النار إلا إرضاء وتكريما لمحمد عليه الصلاة والسلام ورفعاً لشأنه وقدره . . . فهذا أيضاً من شر الضلال والجهل الزور . . . وإن كان معناه أن محمداً هو الذي خلقها فهذا أدهى وأمر وأقبح . . . وإن كان معناه أن الله لو لم يخلق محمداً لما خلق أحدا ، ولو لم يخلق أحدا لما خلق النار ولا الجنة : إن كان هذا هو معنى الحديث ـ وهذا أقرب ما يقال فيه ـ قيل إن هذا القول من شر الأقاويل . وذلك أن الله قد خلق خلقه لحكمة كبرى جليلة ، بل لحكم كثيرة جليلة . ومن هذه الحكم إرادته أن يعبد وأن يعمر هذا الكون . وعبادة الله وعمارة كونه غايتان من الغايات المطلوبة المحمودة سواء أخلق محمد أم لم يخلق ، بل محمد نفسه ما خلق إلا لأجل هذه الغاية . . . ومن الحكم في خلق الخلق إرادته تعالى الإحسان والجود وإظهار معاني صفاته ومعاني صفات الربوبية والألوهية وصفات الكمال . وهذا لا يكون إلا بخلق الخلق وخلق من يستحقونه وخلق المحل القابل له . . . وفي هذا القول أمور فاسدة كثيرة ذكرناها في كلام سابق عند الكلام على خبر سؤال آدم ربه بمحمد عند اقترافه الخطيئة فليراجع .

ومن الاساءة للانبياء

ومن الإساءة لأنبياء الله ولعباده الصالحين جميعاً القول بأن الله لم يخلقهم لأجل عبادته تعالى، ولا لأجل الدعوة إليه و إلى عبادته أصالة، و إنما خلقهم أصالة لأجل محمد عليه الصلاة والسلام. بل ليس هذا القول إساءة إلى الأنبياء و إلى عباد الله الصالحين فقط، بل هو عين التحقير والتصغير لشأن عبادة الله وشأن المهمة وأمر الخدمة التي قام بها المصلحون ـ الأنبياء فمن دونهم ـ في الأرض قبل محمد و بعده. وذلك أن معنى هذا الحديث المكذوب أن الإصلاح في الأرض وتقويم المعوج من الاخلاق، و إصلاح الفاسد من الآداب والمعتقدات، وكل ماقام به الأنبياء والمصلحون كلهم لم يكن هو الغرض من خلقهم و إيجادهم ولا الحكمة في اصطفاء الله إياهم وتفضيلهم على العالمين . . . و إنما الغرض من خلقهم والحكمة في اصطفائهم واختيارهم هو تشريف محمد وتكريمه و إرضاؤه ! ونعوذ بالله من هذا المذهب ومن هذا الحديث الدال عليه، ومن الذاهبين إليه والمصححين له. و برأ الله ابن عباس ـ حبر الأمة ـ من أن يجرى هذا الهذيان والضلال على لسانه، أو على لسان أحد من الصحابة والعلماء الربانيين الفاقهين للإسلام ولحقائقه الظاهرة الأولى.

وان صح الحديث كان خارجا عن محل النزاع

والجواب الثاني أن يقال: هبوا الخبر صحيحاً فهل يدل على ماذهبتم إليه من الترهات والخرافات ودعاء الأموات؟ والجواب أن نقول: كلا، لايدل على شيء من ذلكم. فانه لايدل إلا على أن لمحمد ﷺ عند ربه غاية غايات الشرف وأقصى نهاية التكريم والتبجيل، حتى إنه تعالى من تكريمه له و إعظامه إياه لم يخلق آدم ولا الجنة والنار إلا لأجله ولأجل إرضائه و إكرامه، و إنه لولاه لما استحق آدم ولا الجنة والنار الوجود والحياة . . . ولكن هذا لايدل على جواز دعائه والاستغاثة به والعكوف على قبره ميتا كما أننا نقول نحن: إن الله خلق الخلق لأجل العبادة، ومع هذا لا نقول بجواز دعاء العبادة والاستغاثة بها ولا الغلو

فيها . . والتفضيل والتكريم ليس معناهما قوة المفضل والمكرم ، ولا قدرته ولا إعطاءه القدرة المطلقة والسلطان الواسع ، وليس معناهما أيضاً أن يعطيه الله وصفه أو أن يبيح لخلقه أن يعبدوه وأن يتوجهوا إليه بما يتوجهون به إلى ربهم من أنواع العبادات والاستغاثات والضراعات . . . بل معنى التفضيل والتكريم للعبد الدلالة على أنه كان أخضع خلق الله لله وأقومهم بفروض العبادة وأكثرهم انقياداً لها . فالعبد المفضل المكرم هو العبد الخاضع لله ، العابد له عبودية وقف دونها وعجز عنها من لم ينالوا مانال من التفضيل والتكريم . فمحمد عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق لأنه كان أعبدهم لربه وأخضعهم لعبادته . والأنبياء والمرسلون أفضل عند الله من سواهم لأنهم قد كانوا أعبد لربهم وأخضع وأدنى إلى معانى العبودية وأكثر استعداداً لذلك والمسلمون المؤمنون أفضل عند الله من الكافرين والملحدين والجاحدين لأنهم أعبد لله وأخلص له وأعظم عبودية وذلة وأصدق توحيداً لله رب العالمين .. وليس محمد رسول الله، ولا الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، ولا المؤمنون أفضل من الآخرين لأنهم كانوا أقدر وأقوى منهم ، ولا لأن الله قد أعطاهم من السلطان والقدرة والقوة ماميزهم به . بل قد يكون الكافرون والملحدون المطاردون أقدر من الأنبياء وأوسع سلطاناً وسلطة — أعنى السلطة والسلطان الماديين الدنيويين . وقد كان الشياطين والمتمردون والظالمون أقوى من المؤمنين والصالحين والعادلين إلا فى الفرط النادر من الزمان . وقد كان بعض الأنبياء السابقين أعظم سلطاناً وملكا من محمد عليه الصلاة والسلام . ولم يمنع هذا أن يكون محمد أفضل النبيين وأكرمهم على ربه وعلى المؤمنين . وهذه أمور لا تتسع للخلاف والنزاع .

كرامة العبد لا يلزمها قدرة المادية

فإذا صح أن الجنة والنار ما خلقتا إلا لأجل محمد ، وأن آدم لم يكن ليخلق لو لم يخلق محمد ، وأن الوجود كله لم يكن ليستحق الوجود والتخليق لولاه عليه

الصلاة والسلام : إذا صح هذا كله لم يكن فيه شيء سوى الدلالة على عظمته ﷺ وعظم فضله وشرفه وكرامته على ربه وقدره لديه . وهذا كله لا يدل إلا على أنه كان أعبد العباد وأزهد الزهاد وأكثرهم صلاحاً وتوحيداً وأكثرهم دعوة إلى ذلك . فأعطاه ربه من التكريم والتفضيل بمقدار ما أعطى عبوديته من الخدمة والرعاية والقوة . وكثرة عبودية العبد لا تحض على عبادته نفسه ، ولكنها تنهى عنها وتذود عن الوقوع فيها ، وتغرى بالسمو إلى الواحد الصمد ، وبالانقطاع عن كل أحد .. فما فى هذا الخبر ، إذا صح ـ شيء مما يذهبون إليه ، ومافيه إلا فضيلة من فضائل محمد عليه الصلاة والسلام و إلا الأمر بالايمان به . فقد قيل لعيسى عليه السلام : آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به . وذكر فيه بعد الأمر بالايمان به هذه الفضيلة العظيمة ، ولم يذكر غير الايمان والتصديق . فكأن الفضيلة المذكورة إذا صحت لم تدل إلا على وجوب الايمان بصاحبها وهو خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ولهذا لم يقل فى الخبر المذكور : يا عيسى توسل بمحمد ولااستغث به ولا ادعه ولا اعكف على قبره ، ولا اؤمر من أدركه من أمتك أن يتوسلوا به و يستغيثوا وأن يدعوه و يعكفوا على قبره وأن يسألوه حاجاتهم وأن يسألوه الجنة والنجاة من النار ، أو يسألوه شيئا من هذه الأشياء التى يسألها الناس اليوم المشايخ والأموات والصالحين والطالحين . ففضيلة محمد عليه الصلاة والسلام تقتضى الايمان به واتباعه و إجلاله و إجلال أحكامه وشريعته ، والرغبة عما خالفها وخالفه . والاعتراف بهذه الفضيلة لا يكون إلا بذلك ... أما الانقطاع إلى قبره والعكوف عليه رجاء مدده ونصره ، و رجاء نفعه وضره ـ وأما سؤاله ودعاؤه والاستغاثة به : أما ذلك كله فليس فيه فضيلة له ، وليس الفاعل له من المعترفين بفضله وفضيلته و بقدره و بما أوجبه الله له وخصه به من الفضائل والعطايا الربانية الكريمة . ولهذا نجد العاكفين على قبره .

فضيلة محمد تقتضى الايمان واتباعه دعاءه وطلب الحاجات منه

وعلى قبور سواه من الأنبياء والصالحين والأولياء والأشياخ من أنقص الناس ديناً وتقى واتباعاً لأوامر الإسلام وأوامر نبي الاسلام . وقد كان أبو بكر الصديق أفضل الأمة وأقربها إلى نبيها وربها وأعظمها اعترافا بقدر النبي عليه السلام ومعرفة له واعترافا بشرفه وفضله وفضائله ، وكان أعلمها بذلك : كان أبو بكر الصديق مع ذلك كله أقل المسلمين سؤالا للنبي وشكاية إليه ورغبة في ما عنده من أعراض الحياة الدنيا . بل قيل إنه رضي الله عنه لم يسأل النبي عليه السلام شيئاً قط في حياته لنفسه ولا بعد مماته . وكذلك كان المسلمون جميعاً : أكثرهم إيماناً وتصديقاً وتقوى أقلهم سؤالا للمخلوق وشكاية إليه ورغبة فيه وفي الحاجات لديه . وقد كان الأعراب وحدثاء العهد بالايمان والاسلام هم الذين يكثرون من سؤال النبي. وكانوا يلحفون ويلحون بمسائلهم ومطالبهم حتى كان يغضب وينكر ، وكان يغضب لغضبه كبار أصحابه وسادتهم أمثال الصديق والفاروق . وقد جاء في الحديث الصحيح أن الصحابة كانوا يتهيبون سؤاله عليه السلام ،وكانوا يَدَعُوْنه مع رغبتهم فيه وحاجتهم إليه، وقالوا : إنهم نهوا عن سؤاله. وكانوا يفرحون ويتمنون أن يأتي الأعرابي من البادية فيسأل النبي فيتلقوا جوابه ويعلموا ما يحتاجون إلى علمه . . . هذا في العلم والدين . أما الدنيا ، فانه عليه الصلاة والسلام كان يغضب ، وكان يشتد في غضبه على من يسألونه الدنيا ، وكان ينكر المسألة ويحذرها ، وكان يذكر وعيد السائلين والمستجدين ، وكان يرغب في التعفف وفي الإقصار عن مسألة الناس ألوان الترغيب . وكان كبار صحابته وكبار المسلمين لذلك أبعد الناس عن أن يسألوه شيئاً من حاجات الدنيا ومآربها وأعراضها . وكانوا ـ رضي الله عنهم ـ مع ذلك أعظم الناس إيماناً بالله وبرسوله وأكثرهم اعترافاً بحقوقه وعرفاناً لها.

مسألة الرسول

أما هؤلاء العاكفون على الأجداث فلا يجدون الفضيلة والكرامة للنبي

عليه السلام أو لغيره إلا فى دعائه وسؤاله واستجدائه وفى العكوف على قبره وجدثه ، وإلا فى الرغبة فيه وتأميل الحاجات والشهوات لديه ، وإلا فى بناء قبره وزخرفته وإلقاء المطارف والحرير وأنواع المعلقات الفاخرة الجيدة على قبته ومقامه . وقدكان ﷺ أشد الناس زهداً وتزهيداً فى هذا كله يوم أن كان حياً ..

ما يريده عباد الدنيا

فهؤلاء الناس المخالفون لا يعدون فضائل النبي والاقرار بها إلا هذه الألاعيب والمظاهر والزخارف التى لا يرغب فيها إلا أهل الدنيا وأهل الجاه الكاذب المغرور والاطلاب الشهرة والعظمة والعلو فى الأرض من أهل الرئاء والنفاق الحاد ، ومن لا يعملون شيئاً من الاصلاح — أو مما يسمى إصلاحاً — إلا لأجل أن ينالوا التعظيم وعبادة الجماهير الجاهلة بعد موتهم وذهابهم إلى ماقدموا من صالح أوسئ. فتنصب لهم التماثيل فى أعظم الميادين ،وتصنع لرفاتهم التوابيت ،وتشاد على رممهم أفخر القباب والبنايات الشامخة الرفيعة ... وغير ذلك من صنوف الأحابيل التى يوقع فيها الجماهير الغبية الجاهلة من يدعون بالعظماء والقواد .

ما يريده عباد الله

ولكن عباد الله حقاً كالأنبياء والمرسلين ، وسائر الصالحين المهتدين بهديهم الآخذين بأخذهم ، لا يرغبون فى شئ من هذا ولا يقرونه ولا يرضونه ولا يلينون فى إنكاره ورده على فاعليه وصانعيه ... ونحن إذا رأينا زعيم شعب يريد من قومه وشعبه العناية به بعد موته والتقديس لجثمانه وروحه ، فيرغبهم فى إقامة التماثيل له وفى تسمية الأماكن والطرقات باسمه الشريف الخالد ، وإقامة الحفلات « الدورية » والانفاق عليها من الأموال والأعمال مالا يطيق الشعب : إذا رأينا زعيم شعب ينحى هذا المنحى — بالتصريح أو بالايماء — شككنا فى إخلاصه وفى صدق زعامته ، وساغ لنا أن نقول : إنه رجل يعمل لنفسه ولجثمانه وشهوته وشهرته ... ونبذناه إذا كنا عقلاء فطناء .. وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفاعيل حول قبر النبي وحول قبور الأنبياء وقبور الصالحين من عباد الله : يزخرفون

ويشيدون ويعلقون وينذرون ويهدون ويعكفون ويزعمون أن النبي وأن الأنبياء وأن المسلمين الأولين يرضون ذلك ويريدونه منهم ويأمرون به ويدعون إليه ويقبلونه من فاعليه : هؤلاء الذين يفعلون هذا ويزعمون هذا هم يسيئون إلى النبي وإلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإلى الصالحين من حيث لا يشعرون ولا يريدون ، ويلقون ضباباً من اتهام الجهلاء وظنون الظانين الذين لا يعرفون حقيقة الاسلام وخلوصه وبراءته من هذا الجهل والنفاق والرثاء والكذب كله . أفلايعتبر المخالفون بهذا إن كانوا حقاً الاسلام وحب النبي يريدون ويقصدون ؟ .

﴿ الشبهة الرابعة عشرة السؤال برب جبرائيل ﴾

﴿ وميكائيل وإسرافيل ﴾

خبر السؤال برب جبرائيل وميكائيل ومحمد

الشبهة الرابعة عشرة ، قال الرافضى : ومن أخبار التوسل بالملائكة والأنبياء ما فى « خلاصة الكلام » أن النبي عليه السلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر ثلاثاً : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد أجرنى من النار ». قال فى شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم فى قبول الدعاء ، وإلا فهو سبحانه رب جميع المخلوقات . فافهم ذلك أنه من التوسل المشروع » انتهى .

والجواب أن يقال أولا : إن هذا النوع من التوسل لاخلاف فى جوازه . فلا خلاف فى جواز أن يقول القائل : « اللهم رب الأنبياء ، ورب الملائكة ، ورب السماوات والأرضين ، ورب العالمين : أسألك أن تغفر ذنبى ، وأن تزحزحنى عن النار ، وأن تدنينى من الجنة ومن أعمالها وموجباتها .. . » ، ولا فى أن يقول قائل : « اللهم رب محمد ورب أبى بكر ورب عمر ورب عثمان ورب على ، ورب المؤمنين جميعاً : أسألك موجبات رحمتك ومزيلات سخطك . . . » . كل هذا لا خلاف

فى جوازه وجواز أمثاله فيما نعلم. وقد جاء فى صحيح مسلم من حديث عائشة قالت كان رسول الله إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا من التوسل بصفات الله

فهذا النوع من الدعاء والتوسل لا ينازع فيه أحد من المسلمين فيما نعلم، لأنه فى الواقع توسل ودعاء باسم من أسماء الله وصفة من صفاته، وهما اسم « الرب » وصفة « الربوبية » مضافين إلى مخلوقات هى من أعظم وأجل مخلوقات الرب وأشرفها فالذى يقول : أسألك يا رب السماوات ويارب العالمين، لا يسأل بشئ من الخلق لا بالسماء ولا بالعالم. وإنما يسأل ربه متوسلا إليه باحدى صفاته وهى صفة الخالقية. والذى يقول : يارب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل اغفرلى ذنبى واهدنى لما اختلف الناس فيه لا يسأل بجبرائيل ولا بميكائيل ولا باسرافيل، وإنما يسأل ربه بصفة الخلق التى من أشرف متعلقاتها والكائنات بها هؤلاء الملائكة الكرام. والرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك. إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » لم يسأل ربه بهؤلاء الملائكة ولا بالسموات والأرض ولا بالغيب والشهادة، ولا بمن يهديه إلى الصراط المستقيم. وإنما سأله تعالى بصفاته : صفة الربوبية، وصفة الخلق، وصفة علم الغيوب، وصفة الهداية، وصفة الحكم بين المختلفين . . . ويراد باضافة أحد أسماء الله أو إحدى صفاته إلى بعض المخلوقات العظيمة المبالغة فى الثناء على الله وعلى صفاته وأسمائه. وذلك أن الأمر يعظم بقدر ما يعظم أثره وسببه، فما كان أثره عظيما وجليلا كان هو عظيما جليلا. ومن أثنى على أثر أمر من الأمور

وعلى أفعاله ومصنوعاته فقد أثنى ولا شك على صاحبها وفاعلها . بل الثناء على المصنوعات المفعولة هو ثناء على الفاعل الصانع . فالذى يقول : اللهم رب محمد والأنبياء ، ورب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ورب الملائكة اهدنى . . . لا يريد بقيله هذا إلا الثناء على الله والتوسل إليه بامتداح صفته التى من آثارها هؤلاء الأنبياء وهؤلاء الملائكة . فهو قد أثنى على صفة الله بإضافتها إلى هؤلاء العباد الكرام على الله وعلى خلقه ، وأثنى على الله بثنائه على صفته . فهو قد توسل إلى ربه بالثناء عليه والتمجيد لأسمائه وصفاته . ولم يتوسل بمخلوق ولا بعبد من العبيد . ولهذا قال فى حديث عائشة . « . . . فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك . إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » . ولا يمكن أن يكون هذا من التوسل بالسماوات والأرض وبالغيب والشهادة — أى بالغائب والشاهد — وبالعباد وبمن يهدى إلى الصراط المستقيم من خلق الله . فإنه لا يقول أحد : إن التوسل بهذه المخلوقات كلها من التوسل الجائز المشروع . فلا يجيز أحد التوسل بالأرض وبالسماء وبالغائب والشاهد ، وبكل العباد ، وبكل من هدى إلى الصراط المستقيم . ولو كان ذكر جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد فى الحديث الذى ذكروه توسلا وسؤالا بهم لكان ذكر السماوات والأرض والغائب والشاهد والعباد والمهديين فى حديث عائشة وفى غيره من النصوص توسلا وسؤالا أيضاً بها ، لأنه لا فرق بين ذكر هؤلاء وذكر هؤلاء . وقد جاء فى الكتاب وفى السنة إضافة لفظة « الرب » إلى كل شئ : إلى العالمين ، وإلى المشارق والمغارب ، وإلى السموات والأرض وما بينهما ، وإلى العرش ، وإلى الشعرى ، وإلى الناس ، وإلى الفلق ، وإلى الغيب والشهادة ، وإلى كل شئ ، وإلى الرياح وإلى الشياطين . . . وهذا كله مذكور فى الكتاب وفى الأخبار . .

إضافة اسم الرب إلى كل شئ فى نصوص الكتاب والسنة

ولكن لا يذهب عاقل إلى جواز التوسل إلى الله بكل ذلك . لأن القول بجواز التوسل بالأرضيات والسماويات والعلويات والسفليات وسائر صنوف المخلوقات حتى الرياح والشياطين والشعرى والفلق ، وحتى الناس بمنافقيهم وملحديهم وضلالهم وجهالهم وكفارهم . . . قول لا يرضاه أحد فى ما نظن . والمخالفون يدعون أن قوله فى الخبر المذكور : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل ومحمد . . . » توسل وسؤال بهؤلاء الملائكة و برسول الله عليهم الصلاة والسلام . و إذن ليقولوا : إن قوله فى حديث عائشة وفى غيره : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرا . فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة » الحديث توسل وسؤال بكل شئ . وهذا يلزمهم لزوماً لافرار لهم منه .

ثم يقال ثانياً ـ . هذا الحديث غير صحيح ، فيه رواة ضعفاء ، تكلم فيهم . وقد رواه ابن السنى والطبرانى فى الكبير . قال فى « مجمع الزوائد » (الجزء الثانى صفحة ٢١٩) : رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه عباد بن سعيد . قال الذهبى : لاشئ . وقد زكاه ابن حبان فى الثقات . وقد روى من طرق أخرى كلها ضعيفة لا يصح الاعتماد على شئ منها فى التحليل والتحريم والتشريع . و إنما يقبلها من يقبلها فى فضائل الأعمال ، وفيما ثبت أصله وحكمه بأدلة أخرى صحيحة ثابتة .

هذا والحديث لم يرد بلفظ الأمر ، و إنما ورد أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يقول ذلك . والشيعى المؤلف ذكر أن النبى أمر به أمراً . وهو غلط أو كذب .

وأما قوله : « قال فى شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم و إلا فهو سبحانه رب جميع المخلوقات . فأفهم أنه من التوسل المشروع . . . » فهو كذب ، لم يذكر هذا الكلام فى شرح الأذكار ، لا بلفظه ولا بمعناه . بل ذكر فيه ما يبطل زعم الرافضى . فذكر أن هذا من التوسل بصفة « الربوبية » لا

هؤلاء المربوبين . ولو كان صادقا فى فيما نقله لما كان فى ما نقل حجة شرعية. لأن كلام الشراح وغيرهم من الناس لا يحكم على الشرع ، بل الشرع هو الحاكم على الشراح وعلى سائر الناس . والكتاب والسنة لا يردان إلى آراء الرجال ، ولكن الآراء ترد إليهما عند المسلمين .

﴿الشبهة الخامسة عشرة أمر مالك للمنصور﴾

﴿ان يستشفع بالنبي عليه السلام﴾

رواية امر مالك المنصور ان يستشفع بالنبي وتحقيق ذلك

قال القاضي عياض فى كتاب «الشفا» : حدثنا القاضى أبو عبد الله : محمد بن عبدالرحمن الأشعرى ، وأبوالقاسم : أحمد بن بقى الحاكم ، وغير واحد فيما أجازونيه قالوا أخبرنا أبو العباس : أحمد بن عمر بن دلهاث . قال حدثنا أبو الحسن : على ابن فهر . حدثنا أبو بكر : محمد بن أحمد بن الفرج . حدثنا أبو الحسن عبدالله ابن المنتاب . حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل . حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله . فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فان الله تعالى أدب قوماً فقال : «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى» الآية ومدح قوماً فقال : «إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله» الآية . وذم قوما فقال : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» الآية . وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً . . . فاستكان لها أبو جعفر . وقال : ياأبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله . قال الله تعالى : «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك . . .» الآية . انتهى سياق القصة عند القاضي عياض فى كتابه «الشفا» .

قال الرافضى بعد ذكر هذه الرواية : « قال السمهودى : فانظر إلى هذا الكلام من مالك وما اشتمل عليه من أمر الزيارة والتوسل بالنبى واستقباله عند الدعاء وحسن الأدب التام معه » .

كلام على إسناد القصة

والجواب أن يقال : أما هذه الرواية عن الامام مالك فهى رواية ليست مشرقة الاسناد ولا واضحته ولا معروفة الرجال والرواة ، بل هى رواية منكرة باطلة ، و إسنادها مظلم منكر مجهول . والرواة كلهم من القاضى عياض إلى الامام مالك يحتاجون إلى البحث والتنقير الدقيق. وقد بحثنا عنهم جميعاً فيما بين أيدينا من كتب الحديث وكتب الرجال فما وجدنا منهم غير يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل . وسيأتى الكلام عليه . أما ابن حميد فهو دائر بين رجلين كما سوف يأتى . ثم على جهالة رواة هذا الاسناد لا يدرى هل التقى بعضهم ببعض، وهل تعاصروا ، وهل يمكن أن تكون رواية بعضهم عن بعض متصلة سليمة من الانقطاع ؟ .

فالرواة ـ ما خلا يعقوب ابن حميد ـ مجهولون من كل وجه ، والاسناد مظلم ، يعوزه الإشراق والوضوح . فلا يصح الاحتجاج بالرواية ، ولا يجوز الشدين بالاسناد . وعلى من يخالفنا فى هذا و يزعم أن الرواة ثقات أثبات معروفون معلومون ، و يزعم أن الاسناد ثابت صحيح متصل، أن يكشف لنا هذا كله و يبينه بالأساليب العلمية الفنية الصادقة . و إلا فلا التفات إليه ولا مبالاة به . ورواية القاضى عياض للقصة لا يدل على صحتها ، لا عنده ولا عند غيره ، ، وتخريجها فى كتاب : « الشفا » لايدل على أن الرواة معروفون ، وأنهم ثقات أثبات يجب ـ أو يسوغ ـ الاحتجاج بهم ... . لأن القاضى عياضاً يروى فى «الشفا» أحاديث منكرة باطلة بالاجماع ، بل أحاديث موضوعة مكذوبة . وعادته هذه معروفة لا خلاف فيها . وهو مثل غيره من الجامعين فى كتبهم ومؤلفاتهم صنوف الأخبار

الصحيحة ، والضعيفة ، والموضوعة المكذوبة . وليس هو من المشترطين فيما يروون ويذكرون الصحة والثبوت كما اشترط فريق ليس الأكثر من المحدثين ذلك فصارت لكتبهم منزلة خاصة بها بين المسلمين والباحثين جميعاً ، ولكل طائفة من الطائفتين ـ المشترطة الصحة ، والجامعة كل مايصل إليها من الأخبار ـ غرض واضح مشكور . فاسناد الرواية فيما بين القاضي عياض وبين يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل إسناد منكر مظلم مجهول ، لايدان الله بمثله ، ولا يخضع له العلم ولا الايمان . أما القاضي عياض فلا شك في إمامته وصدقه وجلالة قدره وعظم شأنه وصحة ما يرويه بنفسه . وأما يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل فقد ذكره الحافظ الخطيب في التاريخ ولم يذكر فيه قدحاً ولا مدحاً غير قول الدارقطني : إنه لا بأس به . وذكر أنه مروزي الأصل ، وأنه حدث عن أبيه وعن داود بن رشيد ، وأحمد بن عبد الصمد الأنصاري ، والحسن بن شبيب المؤدب ، وعمر بن شبة النميري . وأنه حدث عنه المفضل بن سلمة بن عاصم ، وعبد الصمد بن علي الطستي ، وأبو القاسم الطبراني . ولم يذكر أنه من الرواة عن ابن حميد ، ولم يذكر تاريخ وفاته ولا ميلاده . هذا خلاصة ما ذكره الخطيب في ترجمة يعقوب .

بيان الاختلاف في السند

وأما ابن حميد هذا الذي حدث عنه يعقوب ، والذي روى القصة مباشرة عن مالك ، فاختلف فيه : فقيل : إنه محمد بن حميد الحافظ الرازي ، وقيل : إنه محمد ابن حميد اليشكري البصري . وبكل من القولين قال قائلون . فبالأول قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومن تبعه كابن عبد الهادي وغيره . وبالثاني قال السبكي في كتاب « شفاء السقام » ومن قلده من المتأخرين الجهلاء بهذا العلم . والأمر في الظاهر محتمل أن يكون هذا وأن يكون هذا ، لأنه لم يعين في الرواية ، ولم يأت في الظاهر مايعين عيلى تعيينه . فجاز أن يكون الرازي الحافظ ، وأن يكون البصري

اليشكرى ، وجاز أن يذهب إلى هذا ذاهبون ، وأن يذهب إلى ذاك ذاهبون .
ولابد من معرفة الحقيقة ومن تطلبها لمن يريد أن يحتج بالرواية وأن يدين الله بالقصة ، ولابد من معرفة ابن حميد هذا قبل الإقدام على تصحيح حديثه ، لأن أحد هذين الراويين ـ الدائر ابن حميد بينهما ـ ثقة ، وأحدهما ضعيف ذاهب . ولأن أحدهما متأخر عن عصر الإمام مالك ، فروايته عنه لاتكون إلا منقطعة غير متصلة ، وأحدهما متقدم يمكن أن يروى عن الامام مالك وأن تكون روايته عنه متصلة . . . فمن يكون إذن ابن حميد هذا ؟ أهو الرازى الحافظ ، أم البصرى اليشكرى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومن تبعه : إنه هو الرازى .

قال ابن تيمية

وعلى هذا فالرواية ضعيفة لأمرين اثنين : أحدهما أن محمد بن حميد الرازى ضعيف . وهاه الأكثرون واتهموه بالوضع والكذب المتعمد . وقد كذبه أبو زرعة الرازى واسحاق الكوسج وصالح جزرة وابن خراش وابن وارة وآخرون ، وترك التحديث عنه آخرون . ووثقه طائفة مع اعترافهم بوجود المناكير فى حديثه . وثانى الأمرين القاضيين بضعف القصة على هذا الرأى أن رواية ابن حميد الرازى عن الإمام مالك منقطعة ، لأنه لم يرو عنه ولم يدركه . فان ابن حميد توفى سنة ٢٤٨ وتوفى الامام مالك سنة ١٧٩ . فوفاة مالك سابقة وفاة ابن حميد ب ٦٩ سنة . فاذا فرض أن ابن حميد عاش ٦٩ كان مولده فى العام الذى مات فيه مالك . وإذا فرض أنه عاش ٨٩ كانت سنه فى العام الذى مات فيه مالك عشرين عاماً . ولا يمكن فى الغالب المعتاد أن يرتحل من بلاده الرى إلى المدينة المنورة بلدة الامام مالك بن أنس فيلتقى به ويروى عنه قبل هذه السن فى الكثير المعهود إذا فرض أنه روى عنه فى آخر حياته . على أن أبا جعفر المنصور الذى ناظر مالكا كما فى الرواية قد تقدمت وفاته على وفاة مالك ، فانه قد توفى عام ١٥٨ فتكون وفاة المنصور قبل وفاة محمد بن حميد ب ٩٠ عاماً . فاذا فرض أن

عمره ٩٠ سنة كان ميلاده فى العام الذى مات فيه المنصور. فلا يظن أن ابن حميد قد ولد فى حياة المنصور فضلا عن أن يظن أنه ولد وصلح للرواية والتحديث وحمل العلم حينما وقعت هذه المناظرة بين الخليفة والامام فى الحكاية المزعومة. فابن حميد هذا ـ إذا كان هو الرازى ـ ضعيف. ضعفه الأكثرون، وكذبه طوائف منهم. وروايته عن مالك منقطعة يقيناً. فالحكاية المذكورة ضعيفة بالنظر إلى ابن حميد ـ فقط ـ من ناحيتين: الانقطاع والضعف. والانقطاع والضعف كافيان فى بطلان الرواية وردها ولو لم يكن فى سندها سواهما.

وعليه فالاسناد ضعيف

هذا إذا كان ابن حميد هو الرازى الحافظ. أما إذا كان هو أبا سفيان اليشكرى المعمرى البصرى فهو ثقة ثبت من رجال مسلم فى الصحيح. وهذا هو ماجنح إليه السبكى فى « شفاء السقام ». قال: « أظن ابن حميد هو أبو سفيان البصرى اليشكرى، لأن الخطيب ذكره فى الرواة عن مالك . . . ». ولكن هذا التعيين لادليل عليه سوى ماذكر عن الخطيب أنه عده من الرواة عن مالك. وهذا لايدل على أنه هو يقيناً إذا صح ماذكره عن الخطيب البغدادى. وإنما هو احتمال عند قوم قوى وعند آخرين ضعيف. وقد ذكر الخطيب ترجمة ابن حميد الرازى وابن حميد اليشكرى البصرى فى التاريخ ولم يذكر أن واحداً منهما روى عن مالك. وكذلك ذكر الحافظان الذهبى فى الميزان وابن حجر فى التهذيب ترجمتهما ولم يذكرا أنهما من الرواة عن مالك. وعلى كل حال فالاحتمال الذى ذكره السبكى احتمال ضعيف لادليل عليه، ولهذا قال فى كتابه « شفاء السقام »: « أظنه إياه» ولم يقطع مع أنه يود أن يكونه، ويكره أن يكون الرازى، لأنه ضعيف ولأنه لم يدرك مالكا. ومع حرصه الشديد على أن يكون ابن حميد هذا هو البصرى اليشكرى الثقة ـ ومع إسرافه فى اتباع هواه يقول: « أظن » ولم يستطع القطع واليقين.

وقال السبكى

وعلى كل حال فالانصاف يقتضينا بألا نجزم بانه الرازى الضعيف كما يقتضينا بأن لا نسلم ظنهم أنه البصرى اليشكرى المعمرى الثقة . فكلا الرأيين لادليل عليه من نفس الاسناد وسياق القصة . وإنما هو الترجيح والتظنى . وهما لايفيدان العلم والمعرفة . وهذا الاحتمال وحده قاض برد الرواية وتضعيفها لجواز أن يكون ابن حميد المبهم هو الرازى الضعيف لا اليشكرى المعمرى الثقة

ومما لاشك فيه أن كلا الرجلين ـ الرازى الحافظ ، والمعمرى البصرى اليشكرى ـ قليل التحديث والحديث عن مالك إذا صح أن أحدهما روى عنه . ولا يعلم أن واحدا منهما التقى به وجلس إليه وسمع منه ، وهما رازى و بصرى ومالك مدنى . وأنت إذا راجعت كتب التراجم وكتب رجال الحديث لاتجدها تذكرهما ولا تذكر واحدا منهما فى الرواة عن الإمام مالك سوى ماذكره السبكى عن الخطيب . وهذا يهيج الشك فى صحة الحكاية وصحة سندها .

ومع هذا الاسناد ضعيف

ولاريب أن تأخر عصر محمد بن حميد الرازى الحافظ عن عصر مالك وعن العصر الذى وقعت فيه المناظرة بينه و بين الخليفة لايدل على أنه غيره . لانه جائز و واقع معهود أن يحدث الراوى عمن لم يدركه ، وعمن بينه و بينه العصور والسنون بأن يقول مثلا : قال فلان كذا . والناس كلهم يفعلون هذا حتى البخارى نفسه يفعله فى الصحيح ، أعنى الأحاديث المعلقة التى يقول فيها مثلا بلا إسناد قال رسول الله ، أو فعل ، كذا ، وقال أحد الصحابة أوفعل كذا بلا إسناد . وابن حميد الرازى قريب منه أن يقدم على هذا النوع . فانه مدلس كما أنه ضعيف ذاهب الحديث . فتأخره عن الامام مالك وعن عصره لايمنع أن يكون هو المذكور فى هذه القصة ، لا أبا سفيان المعمرى الثقة . وإذا لم يثبت أو يترجح أنه هو كان محتملا وممكناً . والاحتمال والإمكان يمنعان ويأبيان صحة الرواية ، و يردان على هذا الرافضى ومن يقلدهم فى هذه المسائل قولهم : إن الاسناد صحيح

أو جيد . وكيف يكون صحيحاً وقد احتمل أن يكون أحد الرواة هو هذا الضعيف المتهم بالكذب واختلاق الأخبار ؟ والرواية لاتكون صحيحة إلا إذا كان رواتها كلهم من أول الإسناد إلى آخره عدولا أثباتا معروفين بالنص والعلم والتمييز ، لا بالاحتمال والتجويز والتظني . . . والحديث الذي يكون أحد رواته ضعيفاً لايصح أن يقال : إنه حديث صحيح أو حديث جيد بلا خلاف بين علماء هذا الشأن ورجاله .

ولو صح ماقالوا كان الاسنا منقطعا ايضا

على أنه إذا قطع هذا الاحتمال ونهض الدليل أو الدلائل على أن ابن حميد هذا هو أبو سفيان البصري المعمري اليشكري الثقة العدل الذي أخرج حديثه مسلم في الصحيح كان السند أيضاً معلولا وكان غير صحيح يقيناً ، بل كان منقطعاً غير متصل . فقد ذكر الحافظ ابن عبد الهادي في كتاب «الصارم المنكي» أن محمد بن حميد المعمري اليشكري البصري قد مات قبل أن يولد يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل الراوي لهذه الحكاية عنه، وقد تقدم أن الخطيب ذكر في التاريخ يعقوب بن إسحاق هذا وتقدم أنه لم يذكر تاريخ وفاته ولاتاريخ ميلاده ولا ذكر أنه روى عن ابن حميد لا الرازي ولا المعمري اليشكري البصري ، وأنه ذكر أنه كان يروى عن عمر بن شبة النميري ، والحسن بن شبيب المؤدب ، وداود ابن رشيد ، وأحمد بن عبد الصمد الأنصاري ، وأمثالهم ، وأنه كان يروى عنه أبو القاسم الطبراني ، والمفضل بن سلمة بن عاصم ، وعبد الصمد بن على الطستي ومن في طبقتهم . والذي يروى عن هؤلاء ويروى عنه أولئك متأخر عن محمد بن حميد المعمري البصري . فان المعمري قد توفي سنة ١٨٢ ، والطبراني — وكان من الرواة عنه — ولد سنة ٢٦٠ ومات سنة ٣٤٠ . فيكون بين ميلاد الطبراني ووفاة ابن حميد هذا ثمان وسبعون سنة . فاذا قدر أن يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل كانت سنه ٢٠ يوم مات ابن حميد — وهذا التقدير لابد منه لتصح روايته عنه —

كان بين ميلاد الطبرانى و بين ميلاد يعقوب ثمان وتسعون سنة . ولو صح هذا لما أمكن أن يروى عنه الطبرانى ، وهو من الرواة عنه . إذن فلابد أن يكون عصر يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل متأخراً عن عصر ابن حميد اليشكرى المعمرى، وإذن لابد أن تكون روايته عنه منقطعة بلا ريب . إذ من غير الممكن أن يكون تلميذاً لأحدهما شيخاً للآخر و بينهما هذه الفجوة الزمنية الهائلة .

فالاسناد منقطع على كل حال

فاسناد هذه القصة منقطع على كلا الرأيين والاحتمالين . فان كان ابن حميد هو الرازى الحافظ فالانقطاع بينه و بين مالك . و إن كان هو البصرى اليشكرى المعمرى فالانقطاع بينه و بين يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل . فالرواية منقطعة الاسناد لامحالة، فالحكاية ضعيفة لابد ، فالاحتجاج بها باطل مردود لاشك

أمور اخرى دالة على كذب الحكاية

وهنالك أمور أخرى كثيرة تدل على ضعف هذه القصة المروية عن الامام مالك رضى الله عنه . من ذلك أن أصحاب مالك نفسه ، الذين دونوا فقهه وعلمه وكل ما يتصل به لم يذكروها عنه فى ماذكروا وكتبوا . و إنما انفرد بها عنه ابن حميد هذا ، الذى هو الرازى على قول ، والبصرى المعمرى على قول آخر . وهما كلاهما ليسا من أصحابه ولا من حملة العلم عنه لا الحديث ولا الفقه ولا غيرهما من صنوف العلم . ولا شك أن رواية ينفرد بها هذا المختلف فيه عن مالك دون أصحابه الثقات الاثبات الملازمين له رواية جديرة بالاطراح والرد ، أو جديرة على الأقل بالشك فى صحتها وثبوتها .

ومن ذلك أنها مخالفة لما صح عن مالك ولما رواه عنه أصحابه الثقات من أن الداعى يستقبل القبلة لا القبر كما سوف يجئ . وقد زعم فى هذه الرواية أن مالكاً أمر المنصور بأن يستقبل القبر حين الدعاء لاالقبلة . وهذا خلاف ماصح عن مالك وخلاف ماراوه الثقات عنه من أصحابه الآخذين عنه . ولا شك أن رواية أصحابه مقدمة على روايات سواهم ، فان أصحاب الرجل أعلم به من غيرهم

ما نقله عياض عن مالك ومخالفته لما في هذه القصة من وجوه

ولا ريب . قال القاضي عياض في كتاب « الشفا » : « قال مالك في المبسوط : لا أرى أن يقف عند قبر النبي و يدعو ، ولكن يسلم و يمضي . وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر ، رأيته مائة مرة وأكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي . ثم ينصرف . وعن ابن قسيط العتبي : كان أصحاب رسول الله إذا خلا المسجد جسوا رمانة المنبر التي تلي يمانهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون . وفي الموطأ من رواية يحيي بن يحيي الليثي أنه كان يقف على قبر النبي فيصلي على النبي وعلى أبي بكر وعمر . وعند ابن القاسم والقعنبي : و يدعو لأبي بكر وعمر . وقال مالك في المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر و إنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضاً : لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي فيصلي عليه و يدعو له ، ولأبي بكر ، وعمر . فقيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة وأكثر ، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع . ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده . قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتوا القبر فسلموا . قال : وذلك رأى . قال الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم . وقد قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وقال : « لا تجعلوا قبري عيداً » . ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي في من وقف بالقبر لا يلصق به ، ولا يمسه ، ولا يقف عنده طويلا .

هذا كله كلام القاضى عياض المالكى فى كتابه : « الشفا فى حقوق المصطفى » من باب : « فصل فى حكم زيارة قبره عليه السلام » .

استقبال القبلة بين الدعاء فى مذهب مالك

فمذهب الامام مالك الثابت عنه ، الذى رواه ثقات أصحابه فى أفضل كتبهم أن الداعى فى مسجد النبى عليه الصلاة والسلام يستقبل القبلة ولا يستقبل القبر كما ذكر فى هذه الحكاية ، فالحكاية مخالفة لمذهب مالك المعروف بين أصحابه الثقات البصراء . وهذا مما يفت فى عضدها ويوهيها ويقضى بردها واطراحها . ولهذا لم يذكر القاضى عياض هذه المناظرة فى « فصل زيارة قبر النبى وآداب الزيارة » وإنما ذكرها فى « فصل فى أن حرمة النبى بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته » . وكان هذا الذى ذكر فى المناظرة من الأمر باستقبال القبر الشريف عند الدعاء لم يكن عند القاضى عياض من آداب زيارة القبر الشريف ومستحباتها . بل عنده أن آداب الزيارة هى ما ذكره فى فصل الزيارة من النهى عن استقبال القبر حين الدعاء ، والنهى عن إطالة الوقوف عليه والدعاء عنده ، والاكثار من إتيانه والمتيانه . ولو كان استقبال القبر حين الدعاء عند القاضى عياض من آداب الزيارة وسننها ومشروعاتها لأورد هذه الحكاية فى باب الزيارة ، أو لأورد معناها . ولا يمكن أن يورد مايخالفها فى فصل الزيارة ويقتصر عليه إلا إذا كان يرى أن السنة لا تعدو ماذكره مخالفا لها . وهذا واضح بين .

وأما الرواية الاخرى فالمراد بها الدعاء للرسول

أما ما ذكره عنه رضى الله عنه من رواية ابن وهب أنه قال : إذا سلم على النبى ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ، ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده فالجواب أن المراد بالدعاء الذى يستقبل القبر فى حينه هو الدعاء للرسول ولصاحبيه أبى بكر وعمر . فان السلام دعاء لغة وشرعاً ؛ ومن الدليل على أنه يسمى دعاء الرواية المتقدمة التى قيل فيها : « ويدعو لأبى بكر وعمر » . وقد نقل

القاضى عياض فى الفصل المذكور : « قال أبو الوليد الباجى : وعندى أنه يدعو للنبى بلفظ الصلاة ولأبى بكر وعمر » . وقال فى الرواية المتقدمة عن مالك : « لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبى فيصلى عليه ويدعو له ولأبى بكر وعمر » . فهذا كله يدل على أنهم يسمون الصلاة والسلام على النبى وعلى صاحبيه دعاء . وهذا لا شك فيه لغة ولا شرعا . فقول مالك رضى الله عنه فى رواية ابن وهب أنه إذا سلم على النبى ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة يراد به الدعاء للنبى ولأبى بكر وعمر ، ولا يراد به دعاء المرء لنفسه . فرواية ابن وهب هذه ليست مخالفة لروايات غيره الصحيحة القائلة : إنه يستقبل القبلة لا القبر وقت الدعاء ، وليست مخالفة لما صح عنه رضى الله عنه من إنكاره الوقوف بالقبر طويلا ، و إنكاره الدعاء عنده . فهذا له موضع وذاك له موضع . فلا اختلاف ولا اضطراب . وهذا معقول مفهوم شرعاً ونظراً . فان الداعى لرسول الله ولصاحبيه بالصلاة و بالسلام أو بغيرهما معقول منه وله أن يستقبل القبور الشريفة وأن يتجه إليها ، لأن فى ذلك نوعاً من الخطاب و إن كان غير حقيقى .

براهين واضحة على بطلان استقبال القبر حين الدعاء والعبادات

أما الذى يدعو لنفسه فى مسجد النبى عليه الصلاة والسلام فمكروه له ومنه أن يستقبل القبر ، لأن استقباله إذ ذاك لا معنى له ، بل فيه نوع وثنية إن لم تكن فى حقيقتها ومعناها ففى صورتها ومظهرها . وفيه غلو منكر قبيح ، وخروج على أصول الشرع وقواعده المعروفة المؤسسة على الاخلاص المحض وعلى التجرد لرب العالمين والخلوص إليه من جميع العوائق والموانع . والنبى عليه السلام حينما كان حيا لم يكن المسلمون يستقبلونه إذا دعوا ربهم لأنفسهم . ولو أنهم استقبلوه لأنكر ذلك عليهم ولما رضيه منهم البتة . ولكن هذا كان بعيداً عن أذهانهم وأفهامهم رضى الله عنهم . وكانت أذهانهم وأفهامهم وخطراتهم وعقائدهم أخلص لله وأعرف بمعانى التوحيد والاخلاص المبثوثة من أن تقع فى شىء من هذا ، أو

أن تحوم حول حماه . ولو أن مسلماً أراد أن يدعو ربه فتوجه إلى شيخ حي وتعمد استقباله وقت دعائه لكان ضالا ، وكان فاعلا ما ينكره جميع من عرفوا الاسلام وفقهوا أصوله وفروعه . ولهذا لم يجز لمسلم أن يستقبل فى صلاته شيئاً غير بيت الله ، فلم يجز أن يستقبل النبى ، أو يستقبل قبره فى صلاته وعبادته ، فضلا عن أن يجيز شيئا من هذا لغير النبى ولغير قبره . وقد نهى الاسلام نهياً شديداً صريحاً صحيحاً عن الصلاة إلى المقبور . والنهى عن الصلاة إلى القبور يراد به النهى عن الصلاة إلى المقبور فى الحقيقة والمعنى . إذ البقعة من الأرض المجردة لا ينهى عن الصلاة إليها لذاتها ولا تسمى قبراً بدون مقبور ولو مآلا .

وقد أمر الإسلام المسلمين أمراً عاماً مطلقاً بأن يوجهوا وجوههم إلى خالقهم ومالكهم ، ونهاهم عن أن يلتفتوا إلى سواه فى وقت من الأوقات ، وحالة من الحالات ، لا فى صلواتهم ولا فى دعواتهم ولا فى ضراعاتهم ولا فى سائر عباداتهم ، ولا فى شئ مما يسمى عبادة ودينا . وهذا قد تقدم . وماجاء عن أحد من المسلمين الأولين أنه استقبل رسول الله حينما كان حياً سويا وقت الدعاء ، أو الصلاة أو العبادة المطلقة العامة ، بل ولا فكر أحد منهم فى شئ من هذا . بل وأى معنى ودين فى أن تريد أن تدعو لنفسك ربك وتسأله أمورك وحاجك فتنصرف بجسمك وتتوجه بوجهك إلى عبد من عباده ؟ ولو أنك سألت مخلوقا شيئاً توجهت حين سؤاله إلى سواه لكنت جاهلا فاعلا ما ينكر عليك وما تلام عليه . فما أجدر بالملامة والانكار من راح يدعو ربه وخالقه فتوجه إلى عبيده وخلقه !

فالذين يتوجهون إلى القبور حينما يدعون الله غالطون غلطاً بيناً فاحشاً ، آتون ما ينكره الدين والعقل . وهم ما توجهوا إلى القبور إلا لاعتقادهم أن من

توجهوا إليهم و إلى قبورهم لهم دخل وسلطان وأثر ظاهر فى إجابة دعائهم و إعطائهم ما يسألون ربهم . فكأنهم قد اعتقدوا أن من توجهوا إليه و إلى قبره من وظيفته أن يرفع دعواتهم وحاجاتهم إلى الله وأن يبلغه إياها و يطلب إليه أن يقبلها وأن يجيبها ، وأن يفعل غير ذلك مما يظنون و يتوهمون من غريب الظنون والخطرات والأوهام البعيدة عن الاسلام وعن الاعتقاد الصحيح السليم ، المناهض لكل ما يمت إلى الوثنية والشرك بسبب من الأسباب . فهذه المناظرة المحكية عن الامام مالك ليست صحيحة لأنها مخالفة لمذهبه المعروف المدون عنه فى أصح الكتب ، والذى رواه عنه أجل أصحابه وألصقهم به وأعرفهم بمقالاته ودقائق مذهبه وفنون فقهه . فهى رواية شاذة منكرة .

ومن دلائل بطلانها ركاكة أسلوبها

ومن الدلائل على بطلانها ركاكة لفظها وخروج أسلوبها على الأساليب العربية الصحيحة . وذلك أنه قد قيل فيها : « استشفع به فيشفعك الله » . وهذا لحن صريح . فان الاستشفاع معناه طلب الشفاعة من المستشفع به . فمعنى « استشفع به » اطلب منه الشفاعة ليشفع لك : فالرسول عليه السلام هنا شافع . و إذا كان ذلك كذلك كان الصحيح أن يقال : « استشفع به فيشفعه الله فيك » لا أن يقال : « استشفع به فيشفعك الله » . فان المستشفع بالرسول ليس شافعاً ، والذى يُشَفَّع هو الشافع لا المشفوع له يقينا . ومثل الامام مالك العربى بمولده ونشأته وعلمه يجل عن أن يقع فى هذا الخطأ الذى لايقع فيه إلا من جهل أساليب العرب ومواقع كلامها . ولهذا لجأ بعض المعارضين المصححين لهذه القصة إلى تحريف هذه اللفظة وتغييرها فرووها هكذا : « استشفع به فيشفعه الله فيك » تحريفاً من عند أنفسهم لتسلم الرواية من هذا العيب الدال على أنها ليست من كلام الامام مالك ولا من كلام عليم بكلام العرب .

وعدم تلاؤم أجزائها

و يدل على بطلانها أيضاً قوله فيها بعد أن سأله المنصور على ما زعموا عن

استقبال القبلة : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به » . وهذا القول غير متلائم الأجزاء ولامرتبط الدعوى بالدليل . وذلك أن كون محمد ﷺ وسيلة لنا ، ولأبينا آدم يوم القيامة لايدل على جواز أن نستشفع به وأن نسأله الدعاء والشفاعة بعد مماته . وذلك أن قوله : « وهو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » يعني به الشفاعة الكبرى التي خص الله بها خاتم أنبيائه وهي شفاعته يوم الحشر لجميع الخلائق ليقضى بينهم وليراحوا من تلك الأهوال كما توارد في الأخبار الصحيحة الكثيرة . فالوسيلة التي أشير إليها بهذه الحكاية هي شفاعة محمد ﷺ يوم يحجم جميع الأنبياء عنها هيبة لله و رهبة من ذاك المقام الرائع العظيم . وهذا لا ريب فيه . ولكن هل تدل شفاعة النبي يوم القيامة على استحباب استقبال قبره حين الدعاء وعلى جواز الاستشفاع به في الحياة الدنيا ؟ وهل يدل هذا على هذا ؟ كلا فإن شفاعة النبي يوم القيامة لا تدل على أن السنة استقبال قبره حين الدعاء ، ولا على أن من السنة الاستشفاع به في قبره . وهذا لأن شفاعته يوم القيامة لا تدل على أنه يشفع قبلها في حال الموت و في قبره . ولو كان يشفع في حال الموت يقينًا لما دلت شفاعته على أنه لايشفع إلا إذا طلبت منه ، بل من الجائز أن يشفع لأمته و إن كانوا لا يسألون الشفاعة . وهذا كما أمر صلى الله عليه وسلم بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات . والاستغفار شفاعة ، وكما تستغفر الملائكة للمؤمنين وهم لا يسألونهم ذلك . ثم لو فرض أن شفاعته يوم القيامة تدل على أنه يشفع في حال الموت ، وفرض أنه لا يشفع إلا إذا طلبت منه الشفاعة ما دل شيء من ذلك على استحباب استقبال القبر عند الدعاء . وهذا لأن الدلائل قد قامت على أن الأنبياء ومن دونهم من الصالحين والمؤمنين يعرجون بعد موتهم — أعني أرواحهم — إلى أعلى عليين كما قال تعالى : « أحياء عند ربهم يرزقون » . و إذا

كان النبى وكان غيره من الأنبياء والصالحين والمؤمنين عند ربهم لم يكن للاتجاه إلى القبر بقصد خطابه وسؤاله معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه ، وإنما الصحيح لو صح هـذا الذى تقدم أن يتوجه الداعى السائل إلى كل الجهات والوجوه على سبيل التوزيع والتقسيم ، يدعو ويستشفع ويطلب ، كما أن من أراد الصلاة والسلام على النبى صلى وسلم حيث كان وحيث اتجه . وقد قال ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » . رواه النسائى من حديث عبد الله ابن مسعود . وروى أبو داود أنه عليـه السلام قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً وصلوا على حيثما كنتم ، فان صلاتكم تبلغنى » . وروى عبـد الرزاق فى مصنفه عن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم وقال قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » . وروى سعيد بن منصور فى سننه عن عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبى سهيل قال : رآنى الحسن بن الحسن بن عـلى بن أبى طالب فنادانى وهو فى بيت فاطمة فقال : مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبى . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال إن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « لا تتخذوا بيتى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر . لعن الله اليهود اتخـذوا قبور أنبيائهم مساجد . وصلوا على حيث كنتم . فان صلاتكم تبلغنى » . ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء . وروى أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن أبى بكر بن أبى شيبة عن زيد بن الحباب عن جعفر بن إبراهيم — من ولد ذى الجناحين — عن على بن عمر عن أبيه عن على بن الحسين — زين العابدين — أنه رأى رجلا يجئ إلى فرجة عند قبر النبى فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه عن ذلك ، وقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً . فان تسليمكم يبلغنى أينما

الاحاديث فى النهى عن اتيان القبر النبوى من طرق أهل البيت وغيرهم

كنتم » . قال الحافظ الهيثمى : « رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفرى .
ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحاً . ورجاله ثقات » . كذا جاء فى نسخة
« مجمع الزوائد » المطبوعة . وهذا تحريف واضح . والصواب جعفر بن إبراهيم
لا « حفص » . وجعفر بن إبراهيم هذا الذى قال الحافظ الهيثمى : إن ابن أبى
حاتم ذكره ولم يجرحه قد ذكره الحافظ العسقلانى فى كتابه « لسان الميزان » قال :
« جعفر بن إبراهيم الجعفرى . عن على بن عمر عن أبيه عن على بن الحسين
نسخة . وعنه زيد بن الحباب . قال ابن حبان : يعتبر بحديثه من غير روايته عن
أبيه . وأخرج أبو يعلى عن أبى بكر بن أبى شيبة عن زيد بن الحباب بهذا
السند عن على بن الحسين حدثنى أبى عن جدى رفعه : « لا تتخذوا قبرى
عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً . فإن تسليمكم يبلغنى أينما كنتم » . وفى الحديث قصة

أحاديث أخرى فى هذا المعنى

(يشير إلى القصة المتقدمة من دخول الرجل الفرجة إلى آخره) . وأخرج إسماعيل
ابن إسحاق القاضى فى فضل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام عن إسماعيل
ابن أبى أويس عن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر
عمن أخبره من أهل بيته عن على بن الحسين . . . فذكر القصة مطولة . وفيها
قال على بن الحسين : هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبى ؟ قال : نعم . قال :
أخبرنى عن جدى . . . فذكره وزاد بعد قوله : « قبوراً » « وصلوا على وسلموا
حيث كنتم . فتبلغنى صلاتكم وتسليمكم » . وقد أخرج المتن ابن أبى عاصم فى
كتاب « فضل الصلاة على النبى » من طريق سعيد بن أبى مريم عن محمد بن
جعفر حدثنى حميد بن أبى زينب عن جسر بن الحسن اليمامى أبى عثمان عن أبيه
رفعه قال : « حيثما كنتم فصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى » . ومحمد بن جعفر هذا
هو ابن أبى كثير لا قرابة بينه وبين جعفر المذكور فى سند إسماعيل ولا إبراهيم
ابن جعفر فى سند أبى يعلى . . . وذكره ابن أبى طى فى رجال الشيعة . وقال : كان

ثقة من رجال على بن الحسين رضى الله عنهما . روى عنه عبد الله بن الحجاج. »
انتهى كلام « لسان الميزان » . وحديث على بن الحسين هذا قد رواه أيضاً
أبو عبد الله المقدسى فى الأحاديث المختارة . قال ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية
والحافظ ابن عبد الهادى فى « الصارم المنكى » . وقال الحافظ ابن كثير فى
التاريخ : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد المجيد
ابن عبد العزيز بن أبى رواد عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن
عبد الله بن مسعود عن النبى عليه السلام قال : « إن لله ملائكة سياحين يبلغوننى
عن أمتى السلام » . وقال قال رسول الله : « حياتى خير لكم ، تحدثون و يحدث
لكم ، و وفاتى خير لكم ، تعرض على أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله
عليه ، وما رأيت من شر استغفرت لكم » . قال البزار : لم نعرف آخره يروى
عن عبد الله إلا من هذا الوجه . قال الحافظ الهيثمى فى « مجمع الزوائد » : إن
رجاله رجال الصحيح . ونعم ، رجاله رجال الصحيح كما قال . ولكن فى بعضهم
كلام مشهور . وسوف نبين فى ما بعد أن قوله : « حياتى خير لكم » الحديث إن
صح لا يدل على ما يذهب إليه المخالفون ألبتة و إنما يدل على ما نذهب إليه .

لا يستقبل القبر عند الدعاء كما لا يستقبل عند الصلاة والسلام عليه

وعلى هذا لا داعى لاستقبال القبر ولا معنى له حين الدعاء ، كما أن من يصلى
و يسلم على النبى عليه الصلاة والسلام يصلى و يسلم حيث كان و وجد ، وحيث توجه
وقصد ، لا يتيمم جهة مخصوصة . والمسلمون ، فى جميع أوقاتهم وحالاتهم : يصلون
و يسلمون عليه فى صلواتهم المفروضة و فى الصلوات النوافل ، و يصلون و يسلمون
عليه عند دخولهم المساجد ، وعند ذكره ، و يدعون له بالوسيلة والفضيلة
و بالمقام المحمود عند الأذان . و يصلون و يسلمون عليه فى كثير من أوقاتهم
وحالاتهم . ولا يقصدون بذلك جهة معينة ولا مكانا مخصوصاً ، ولا يتوجهون شطر
المدينة المنورة حيث يقيم جسده الشريف حين صلاتهم وسلامهم عليه ،

لا يفكرون فى هذا . بل عندهم أن من قصد هذا وتعمده فقد خرج على دين المسلمين ، وخالف إجماعهم ، وجاء بأمر عظيم و ببدعة نكراء هوجاء .

فمقالة هذا القائل فى الرواية المنسوبة إلى الامام مالك : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ... » غير متلائمة الأجزاء ، ولا صحيحة النظام والاستدلال . بل هى مقالة متناثرة الأجزاء ، ركيكة الأسلوب والسياق ، يجل عن مثلها مثل الامام مالك رضى الله عنه . و إنما يصح فى الكلام أن يقال : « ولم تصرف عنه وجهك وأنت تخاطبه ، وهو يسمعك إذا خاطبته ، و يشفع لك إذا استشفعت به؟ فاستقبله ، واستشفع به ، فيشفعه الله فيك ... » . هذا مايصح قولا و إن كان لا يصح ديناً ولا نقلا .

ويدل على كذب القصة الامر بالاستشفاع بالنبى

ومما ينادى على بطلان هذه الرواية وكذبها قولهم فيها : « ... واستشفع به ..» فان الاستشفاع بالنبى بعد موته أو بغيره من الأموات لم يؤثر عن أحد من سلف الأمة الصالح ، لا عن أحد من الصحابة ولا عن أحد ممن بعدهم باسناد يقام له وزن . فما نقل عنهم أنهم استشفعوا بالنبى ولا بغيره من الأنبياء والصالحين فى قبورهم . وهذا قد تقدم الكلام عليه مراراً . ومالك رضى الله عنه ينكر أقل من ذلك ، وقد أنكر ، كما تقدم ، الدعاء عند القبر و إطالة الوقوف به ، وتعمد الذهاب إليه . وقال : إن الزائر يسلم ثم ينصرف ، لايقف ولا يدعو ولا ينتظر . وقد سلف قوله المروى عنه فى المبسوط وفى « الشفا » للقاضى عياض : « لا أرى أن يقف عند قبر النبى ، ولكن يسلم و ينصرف » ، وقوله : « لابأس لمن قدم من سفر أو أراده أن يقف على قبر النبى فيصلى عليه ، و يدعو له ، و يدعو لأبى بكر وعمر » . وقد قيل له : إن ناساً من أهل المدينة لايقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك فى اليوم مرة وأكثر ، و ربما وقفوا فى الجمعة أو فى الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون و يدعون ساعة . فقال رضى الله عنه

«لم يبلغنى هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا . وتركه واسع . ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغنى عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده . . . » . فاذا كان مالك رضى الله عنه يكره ـ والكراهة فى كلام السلف تنطلق إلى التحريم ـ الدعاء عند القبر الشريف ، ويكره الوقوف به ، والذهاب إليه إلا حين إرادة السفر أو الرجوع منه : إذا كان يكره ذلك كله ويقول : إننا لم نجد أهل العلم من أهل بلدنا يفعلونه ، ويقول : إن آخر الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها وصدرها : إذا كان هذا كله من قول الامام مالك ، ينقله عنه أفضل أصحابه فى أفضل كتبهم فكيف يمكن أن يقول لمن سأله عن استقبال القبر : « استقبله واستشفع به . . » ولا ريب فى أنه إذا كره دعاء الله عند القبر كان لدعاء صاحب القبر نفسه أكره بلا خلاف ، وأنه إذا كره الوقوف بالقبر وإطالته لم يمكن أن يجوز الاستشفاع بساكنه عليه الصلاة والسلام . وهذا كله بين جلى .

رأى السلف الصالح فى اتيان قبر النبى للزيارة والسلام

والاستشفاع به عليه السلام بعد موته لم ينقل عن أحد من الصحابة بسند صحيح محترم ، ولا عن أحد من غيرهم من أئمة الدين الذين لهم لسان صدق فى الأولين والآخرين . وقد مرت بالصحابة وبالتابعين وبمن بعدهم من أئمة هذا الدين أوقات عصيبة ، وحالات عسيرة، فاحتاجوا إلى المعين وإلى المنقذ المُخَلِّص ، واحتاجوا إلى رحمة الله ونصرته ، وتطلبوا كل سبب من أسباب النجاة الشريفة الصحيحة . . . ولكن أحداً من هؤلاء لم يحاول الذهاب إلى القبر للاستشفاع وطلب الدعاء والمغوثة والمعونة . . . بل المعروف عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم ما كانوا يقصدون القبر الشريف للزيارة والسلام خلا ماجاء عن عبد الله بن عمر إذا قدم من سفر ، فقد نقل عنه أنه كان إذا حضر من سفر ذهب وسلم على النبى عليه السلام وعلى صاحبيه ، لا يزيد على السلام شيئاً . وبفعل ابن عمر

احتج من احتج من السلف كالامام مالك على استحباب الزيارة والسلام للغرباء ولأهل المدينة إذا أرادوا السفر أو قدموا منه . ولكن هذا لم يكن من فعل جمهور الصحابة ، ولامن فعل الخلفاء الراشدين منهم . بل لقد جاء فى الروايات مايدل على كراهتهم هذا الذى استحبه ابن عمر وفعله ، ورضى الله عن الجميع وقد تقدم أن على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وأن ابن عمه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أنكرا على من رأياه يقصد القبر الشريف للزيارة والسلام والدعاء ، وقالا : إن النبى عليه السلام قال : « لاتتخذوا بيتى عيدا ، ولا بيوتكم قبوراً » وإنه قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وإنه قال « وصلوا على حيث كنتم فان صلاتكم تبلغنى أينما كنتم » . وقد قال الحسن بن الحسن فى روايته لمن نهاه عن ذلك : « ماأنتم ومن بالأندلس إلا سواء » . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روى الشيخ الصالح أبو الحسن: على بن عمر القزوينى فى أماليه عن عبد الله الزهرى عن أبيه عن عبد الله بن أحمد عن أبيه عن نوح ابن يزيد قال : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعد قال: مارأيت أبى قط يأتى قبر النبى ، وكان يكره إتيانه . وقد روى عبد الرزاق فى مصنفه عن معمر عن أيوب عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبى فقال : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر، السلام عليك ياأبتاه . قال معمر : فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر العمرى فقال : مانعلم أحداً من أصحاب النبى فعل ذلك إلا ابن عمر . وهذا صحيح فانه ماجاء باسناد يعبأ به شئ من ذلك عن أحد من أصحاب النبى غير عبد الله بن عمر ، بل وما كان الصحابة ينطقون بلفظ زيارة قبر النبى . وقد صح عن مالك أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبى . وقد روى أبو داود فى فى سننه من حديث أحمد بن صالح عن عبد الله بن نافع الصائغ عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله : « لاتجعلوا بيوتكم

إنكار ذلك

قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » .

روايات أخرى فى كراهة ذلك

ورواه أحمد من هذه الطريق . وهذا الحديث مافيه إلا ابن نافع الصائغ وثقه قوم وطرحه آخرون ، وهو من رجال مسلم فى الصحيح . وعلى كل فاسناده أفضل وأصح من أسانيد الأحاديث والروايات التى يحتج بها المخالفون على زيارة القبر والعكوف عليه وشد الرحال إليه . والحديث له شواهد كثيرة تقدم بعضها . وقد تقدم حديث على بن الحسين وحديث الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . فهو ليس مفرداً غريباً لافى معناه ولافى نصه . وعبد الله بن نافع الصائغ لم يتفرد به حتى يخشى من غلطه فيه وضعفه . ومن شواهده قوله ﷺ : « اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قال القاضى عياض فى « الشفا » : وقد كره مالك أن يقال : زرنا قبر النبى . ثم أخذ عياض فى تأويل قول مالك هذا وفى تعليل كراهته قال : « والأولى عندى أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبى وأنه لو قال : زرنا النبى ، لم يكرهه لقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد بعدى . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه بفعل أولئك ، قطعا للذريعة وحسما للباب . . » . هذا كلام عياض فى الشفا من باب الزيارة . وقد ذكر فى هذا الفصل من الشفا أن الباجى تأول هذا الحديث والحديث الآخر وهو قوله عليه السلام : « لاتجعلوا قبرى عيدا » على من يقصدون القبر الشريف من أهل المدينة للزيارة والسلام والدعاء كما فعل الحسن ابن الحسن وعلى بن الحسين ـ زين العابدين ـ حفيدا فاطمة الزهراء ابنة رسول الله وبضعته الطاهرة ، وولدا ولدى على بن أبى طالب . ومن شواهد ذلك مارواه سعيد بن منصور فى سننه قال : حدثنا حبان بن على حدثنا محمد بن عجلان عن أبى سعيد مولى المهرى قال قال رسول الله عليه السلام : « لاتتخذوا بيتى عيداً

ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيث كنتم . فان صلاتكم تبلغنى » . وهذا مرسل لأن أبا سعيد هذا تابعى وهو ومحمد بن عجلان ثقتان من رجال مسلم فى الصحيح . وأما حبان بن على فهو من رجال ابن ماجه فى سننه ، وفيه كلام . وثقه قوم وضعفه الأكثرون . فهذا الإسناد لا يصلح الالتفات إليه إلا فى الشواهد والمتابعات ، وهو هنا كذلك . ومن الشواهد ما رواه الحافظ النسائى فى سننه من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله عليه السلام : « إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » . وقد تقدم الكلام عليه . ومن الشواهد الحديث المشهور الصحيح المروى فى الصحاح من طرق وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . . » الحديث ، وقد جاء بلفظ النهى و بلفظ النفى والإخبار . وسوف يجئ القول فيه . ومن الشواهد الأحاديث المتواترة فى النهى عن اتخاذ القبور مساجد ، الزاجرة الناهية عن فعل اليهود والنصارى ، المتخذين قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد . ومعنى هذه الأحاديث متواتر مروى بطرق وأسانيد لا شك فى ثبوتها وصدورها بالجملة عن النبى . وما جاء ما يخالفها لا عن النبى ولا عن أصحابه ولا عن الأئمة المقلدين ، الذين لهم لسان صدق فى الأمة . وقد كان أصحاب النبى عليه السلام ، وكان الخلفاء منهم يدخلون المسجد النبوى فى اليوم والليلة المرات العديدة للصلوات ولغيرها من شئون الدين وشئون الدنيا . وكانوا يزورون أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى فى حجرتها التى قبر فيها النبى وصاحباه . وما جاء عنهم أنهم كانوا حين دخولهم المسجد وحين خروجهم منه ، وحين زيارتهم لعائشة يذهبون إلى القبر ويقفون به وعليه ، يدعون و يسلمون سوى ما جاء عن عبد الله بن عمر إذا قدم من السفر كما تقدم . ولا شك أنهم لو كانوا يفعلون ذلك لنقل إلينا كما نقل إلينا فعل ابن عمر ، وكما نقلت إلينا أقوالهم وأعمالهم

من شواهد ذلك

وهاهنا أمر قاطع فى المسألة ، يدل دلالة واضحة جلية لاريب فيها على أن أصحاب النبى ، وناشرى دينه ، وحاملى رسالته ما كانوا يفكرون فى هذا المعنى ، ولا كان يجول فى أنفسهم أو يمازج عقائدهم أنه من الاسلام ومن التعظيم للنبى عليه السلام . هذا الأمر هو إجماعهم على أن يدفنوه ﷺ فى حجرة زوجه عائشة ومعه صاحباه وخليفتاه الراشدان : أبو بكر وعمر . ولو أنهم كانوا يريدون الاكثار من زيارة القبر ومن الوقوف عليه ، ومن الطواف به والاختلاف إليه ، أو لو كانوا يظنون أن شيئاً من هذا من مقاصد الاسلام وغاياته ، لما وضعوه هو وصاحباه فى حجرة عائشة . . . بل لوضعوهم فى مكان بارز مباح ، يستطيع الخاصة والعامة أن يصلوا إليه ، وأن يزوروه ، وأن يقفوا عليه طويلا ، وأن يختلفوا إليه متى شاءوا الاختلاف وأرادوا ، يدعون و يسألون و يسلمون ، و يتلون مايتلون من الأناشيد والأوراد والدعوات . . . كأن يضعوهم مثلا فى الصحراء أو فى أحد الميادين العامة أو فى وسط المسجد أو فى قبلته أو نحو ذلك . . . ولهذا نجد الناس ينصبون تماثيل زعمائهم وقادتهم المهرجين ـ وكذا يفعلون فى قبورهم وأضرحتهم ـ فى الميادين العامة والأماكن الواسعة المباحة للجميع . . . لأنهم يريدون أن يكثر الشعب من مشاهدتهم ومشاهدة أجداثهم وما يذكرهم بهم ، وأن يكثر من العكوف عليهم وعلى أنصابهم وتماثيلهم والاحتشاد على قبورهم ، وليصل إليها الصغير والكبير والخاص والعام فى كل وقت ومن كل مكان وجنس . تثبيتا للمعنى الذى يريدون و يسعون نحوه . وهو إحدى غاياتهم المعلومة التى يقال : إنها شريفة . . . ولا يمكن أن يوضع تمثال زعيم أو قبره فى بيته وفى مسكن زوجه الخاص إلا إذا أريد أن يحال بينه و بين الناس ، وأن يحجب ويقصى عن زيارات الشعب وعن طوافه و وقوفه به . وهذا واضح لاينازع فيه عاقل ما .

والبرهان الواضح على ما نقول دفن النبى فى حجرة زوجه

فالمسلمون مادفنوا جثمان نبيهم الكريم فى حجرة زوجه عائشة رضى الله

لماذا أخفى قبر النبى

عنه إلا بعد علمهم أن العكوف على قبره ، وأن الطواف به ، وأن الاحتشاد عليه وأن الاختلاف إليه ليس من الدين ولا من فعل المسلمين، ولا مما يريده رسول الله منهم . ولولا ذلك لدفنوه في مكان مكشوف مباح الوصول إليه كل وقت لكل أحد ولأبرزوه . . . كما قالت عائشة : « ولولا ذلك لأبرز قبره » . أي لو لا خشية أن يتخذ قبره مسجداً وأن يعكف عليه ـ ولولا نهيه ﷺ أيضا لأبرزه المسلمون ؛ أى لوضعوه في البراز وهو الخلاء . ففي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله في مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قالت عائشة بعد رواية الحديث : « يحذر مافعلوا . ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا » .

الفرق بين من يعمل للدنيا ومن يعمل لله ومظاهر ذلك

والفرق بين ما يفعله الناس لزعماء الدنيا وعظمائها ، وبين ما فعله المسلمون لنبيهم أن عظماء الدنيا وزعماءها ما كانوا ولا عملوا ما عملوا مما يسمى إصلاحاً ومما استحقوا من أجله أن يكونوا عظماء ، وزعماء ، إلا لأجل نيل الدنيا ونيل جاهها وفخرها وشهواتها ، ولنيل السمعة الذائعة، والأحدوثة الشائعة ، ثم السلطان المادى القاهر . فكان من المعقول أن تنصب تماثيلهم وأجداثهم وصورهم في الميادين وفى الأماكن العامة الواسعة ليدركوا ما عملوا من أجله ولأجله من عبادة الجماهير وتعظيمهم والافتتان بهم وانفاق الأموال في سبيل ذلك . أما رسول الله ـ وكذلك كل رسول ـ فما كان ولا عمل ولا أصلح إلا لله وحده لا شريك له : لم يعمل لأجل أن ينال تعظيم الناس أو عبادتهم أو جزاءهم وشكرهم وأجرهم أو لينال شيئا من شهوات الحياة ومفاتنها ومغرياتها ، بل كان كل شيء فيه لله وحده . . . فكان من المعقول أن يبتعد عن هذا الذى لم يعمل له والذي لا يريده . . . فكانت النتيجة أن أخفى قبر النبي عليه السلام وأن نهى عن الغلو فيه وفى قبره ، وعن اتباع آثاره ، وأن حرمت تماثيله وصوره وكل ما يمت

إلى ذلك . . . وكان أن نصبت تماثيل رجال الدنيا ، و رفعت قبورهم ، ودعى إلى عبادتهم . . . وكل ميسر لما خلق له .

فلا ريب أن دفن المسلمين نبيهم فى حجرته وحجرة زوجه حجة لا تنازع على أن القوم كانوا بعيدين عما ذهب إليه هؤلاء المخالفون العاكفون على الأجداث ، وعلى أنهم كانوا يعلمون أن زيارة القبر الشريف والعكوف عليه وانتيابه ، والطواف به ليست من مقاصد الدين ، ولا من أغراض الاسلام والمسلمين .

ويوضح هذا إحاطة القبر بالجدران وسد الحجرة

ويوضح هذا جداً أن عائشة رضى الله عنها لما توفيت وأدخلت حجرتها فى المسجد لما احتاجوا إلى توسيعه سدت الحجرة على القبور الثلاثة ، وحيل بين الناس و بينها . ثم لم يكتف بهذا بل أحيطت الحجرة بجدار «برانى» زاد الناس بعداً عن القبور الثلاثة وحيلولة بينهم و بينها. فصاروا لا يقدرون على الوصول إليها ولا على الوقوف بها وعليها . وصارت هذه مزية خاصة بقبر النبى وقبرى صاحبيه لحكمة عليا تدق على أفهام هؤلاء الذين لا يريدون أن يفهموا الشرع وحكمه وأسراره . . . فإن سائر القبور بارزة ظاهرة مكشوفة ، تستطاع زيارتها والوقوف بها والعكوف عليها والدنو منها . أما قبر النبى وقبرا صاحبيه فقد حال المسلمون بين الناس وبينها لسر عظيم يعلمه الله و يعلمه الراسخون فى العلم ، و إجابة لدعاء نبيه عليه الصلاة والسلام إذ قال : «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد» . فالذين يذهبون اليوم وقبل اليوم إلى المسجد النبوى و يزورونه هم لا يزورون القبر لأنهم لا يصلون إليه ، و إنما يزورون المسجد والجدران المحيطة بالقبر . والذين يظنون أنهم يزورون القبر غالطون واهمون . و إنما يزورون مسجده عليه الصلاة والسلام ومصلاه ومواضع عبادته . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » . وكل فضيلة تذكر فى زيارة النبى أو زيارة قبره إنما يراد بها

زيارة مسجده الذى بنى بأمره ، والذى شارك أصحابه فى بنائه بيديه الشريفتين ، والذى شاده وعمره بالعبادة والتلاوة والتوحيد خير أهل الأرض إذ ذاك وهم صحابته — رضى الله عنهم أجمعين .

فدفن المسلمين نبيهم فى بيته ، ثم سدهم الحجرة وتسويرها بالجدران دليلان ظاهران على أنهم ما كانوا يريدون الاحتشاد على زيارة القبر والعكوف عليه ، وعلى أنهم كانوا قد قصدوا الحيلولة بينه وبين الناس ـ حذر الغلو ، وحذر الضلال .

وثم امور اخرى تساند ماذكرناه

وهنالك دلائل أخرى كثيرة تساند هـذا الذى ذكرناه وذكرته عائشة رضى الله عنها . من ذلك ما روى أن المسلمين فى غزوهم فارس وجدوا قبر « دانيال » النبى طريا فأمرهم عمر رضى الله عنه بأن يحفروا عدة قبور وأن يدفنوه فى أحدها لئلا يعرف مكانه فيقع المحذور . ومن ذلك قطع عمر شجرة الرضوان التى بايع المسلمون نبيهم تحتها والتى ذكرها الله فى كتابه . ومن ذلك نهيه رضى الله عنه عن تعمد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه رسول الله قائلا لهم : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم : اتخـذوا آثار أنبيائهم بيعاً . من عرضت له الصـلاة فيه فيصل وإلا فلا . وقد ثبت هذا عن عمر بالاسناد الصحيح ، رواه سعيد بن منصور فى سننه من حديث أبى معاوية عن الأعمش عن المعرور بن سويد عن عمر . وهذا إسناد مشرق كالشمس ، ورجاله كلهم أئمة عدول يسمون على النقد والبحث والامتحان . وقد ذكر هـذا عن عمر أكثر الذين ألفوا فى البـدع من المتقدمين والمتأخرين . فذكره الحافظ محمد بن وضاح محدث المغرب فى وقته فى كتاب « البدع والنهى عنها » . وذكره الشاطبى فى كتاب : « الاعتصام » وذكره أبو شامة فى كتابه : « الباعث عـلى إنكار البـدع والحوادث » . وذكره الطرطوشى فى كتابه « الحوادث والبـدع » . وذكره غـير هؤلاء من القدامى والمحدثين .

الجمع بين ماذكره عياض فى الشفاء

وهذا كله يعرفه الامام مالك و يعرفه أصحابه ، لا يختلفون فيه . ولهذا لما عقد القاضى عياض فى كتاب « الشفا » فصلًا عنوانه : « فصل فى حكم زيارة قبره ﷺ وفضيلة من زاره وسلم عليه ، وكيف يسلم ويدعو » لم يذكر أن الزائر يستشفع به عليه السلام أو يسأله أن يدعو له : لم يذكر شيئا من هذا القبيل و إنما ذكر الصلاة والسلام عليه والدعاء له ولصاحبه ، وذكر ماقدمناه من الروايات المحفوظة عن مالك ، المتواترة عنه بين أصحابه من أن الزائر لا يقف على القبر طويلا ولا يدعو عنده . ولكن يسلم ثم ينصرف ، ويستقبل القبلة ويدعو . وذكر ماصح عن مالك أيضاً من كراهته لأهل المدينة زيارة القبر والوقوف به وقوله : إن ذلك لا يشرع إلا لمن جاء من سفر أو أراد سفراً . أما أهل المدينة فلا يشرع لهم شئ من ذلك . وقد قال : إننا لم نجد أهل الفقه ببلدنا يفعلونه . وقال : لا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها وصدرها. ولو كان من مذهب مالك أن الزائر يستشفع بالنبى عليه الصلاة والسلام لذكر ذلك عياض فى الشفا فى هذا الباب الذى ذكر فيه كل ما يشرع للزائر فى مذهب المالكية أن يفعله . ولذكره سواه من علماء المذهب . و يوضح هذا جيدا أن عياضا لم يذكر فى باب الزيارة الاستشفاع مع أنه هو الذى روى وذكر مناظرة المنصور لمالك التى فيها الأمر بالاستشفاع . وعياض لم يذكر هذه المناظرة ليستدل بها على جواز الاستشفاع بالنبى بعد موته ، و إنما ذكرها للاستدلال بها على أن حرمته ﷺ ميتاً كحرمته حيا . وقد ذكر المناظرة فى الفصل الذى عنوانه : « فصل ، واعلم أن حرمته عليه السلام بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته » . فالمناظرة مذكورة فى غير باب الزيارة لأنه ليس كل ما فيها يشرع للزائر فعله عند مالك وعند أصحابه كعياض وغيره . ومن الجائز أن تكون الحكاية عند عياض غير صحيحة الاسناد ، ولكن ساقها فى هذا الفصل استدلالا بها على أمر مجمع عليه

وهو وجوب توقير النبي وتعظيمه بعد وفاته كما كان ذلك فى حياته . وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين . فالاستدلال عليه بالرواية الضعيفة لا بأس به ولا خلاف فيه. ولا ريب أن عياضاً لو كان يعلم أن الاستشفاع بالنبي فى قبره مشروع للزائر فى مذهب مالك — وعياض من علماء المالكية الكبار — لذكره فى باب الزيارة ، ولما ذكر الروايات الثابتة الصحيحة الدالة كلها على إنكاره ونكرانه . فان الروايات التى ذكرها فى كراهة الدعاء عند القبر وإطالة الوقوف به ، وكراهة استقبال القبر عند الدعاء وكراهة الزيارة لأهل المدينة . كل هذا قد ذكره القاضى عياض ، وكل هذا الذى ذكره يبطل رواية الأمر بالاستشفاع المحكية فى مناظرة المنصور له. وهذا كله ينادى على كذب هذه المناظرة التى قيل فيها : « بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله » . ونزه الله مالكا أن يبتدع بدعة لم تؤثر عن أحد من السلف الصالح . وقد ذكرنا مرات كثيرة أنه لم يحفظ أن أحداً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام استشفع به عليه السلام فى قبره أو طلب منه الدعاء ، بل ما حفظت زيارة أحد منهم له حاش ما تقدم وصح عن عبد الله بن عمر من وقوفه بالقبور الثلاثة إذا جاء من السفر وسلامه عليهم . ومالك الذى قال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، والذى قال : من ابتدع بدعة فى الاسلام فقد زعم أن محمداً خان الرسالة ، والذى كان من فرط محافظته على تراث السلف وسيرة المسلمين الأولين أنه كان يحتج بعمل أهل المدينة وما بقى لديهم من أعمال لعلمه أن عملهم لا بد أن يكون متلقى عن رسول الله متصلا به وبصحابته لاستبشاعه أن يبدل أهل مدينة الرسول وأن يغيروا وأن يميلوا عن سنة نبيهم بعض الميل : مالك الذى هذا مقدار محافظته على سيرة السلف وكراهته للابتداع والاختراع والخلاف لا يمكن أن يبتدع الاستشفاع بالنبي فى قبره . وإننا نشهد لله شهادة لا نشك فى صدقها وبرها أن مالكا لم يقل ذلك ولم يخرج من بين شفتيه .

أقوال مالك تناقض هذا

شدة مالك فى انكار البدع جملة

مالك الذى كره أن يقول القائل : زرنا قبر النبى لأن السلف لم يقولوا ذلك ، لا يمكن أن يأمر بالاستشفاع بالنبى فى قبره. وقد أنكر رضى الله عنه على عبد الرحمن ابن مهدى وضعه رداءه بين يدى الصف قائلا له: إنك قد أحدثت فى مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه ، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من أحدث فى مسجدنا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ». فبكى ابن مهدى وآلى على نفسه ألا يفعل ذلك أبدا فى مسجد النبى عليه السلام ولا فى غيره . ذكر ذلك عنه صاحب كتاب « الاعتصام » ، وهو من أئمة المالكية .

وقد روى الشاطبى عنه بعد هذه الحكاية ماهو أعجب وأغرب فى إنكاره على البدع والمبتدعين . فروى عنه أن مؤذن المدينة تنحنح فوق المنارة عند طلوع الفجر ، فسأله مالك عن ذلك . فقال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر . فنهاه عن ذلك . وقال له : لا تحدث عندنا ما لم يكن . فكف المؤذن عن ذلك زمانا ثم جعل يضرب الأبواب فسأله مالك عن فعله ، فقال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر ، فقال له ، لاتفعل ، لا تحدث فى بلدنا مالم يكن. (صفحة ٢٢١ ومابعدها من « الاعتصام » . الجزء الثانى . الطبعة الأولى) . وحكى عنه فى موضع آخر قال : « وحكى ابن العربى عن الزبير بن بكار قال : سمعت مالك ابن أنس ، وأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، من أين أحرم ؟ قال : من ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله . فقال : إنى أريد أن أحرم من المسجد ، فقال : لا تفعل . قال : فانى أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر . قال : لاتفعل ، فانى أخشى عليك الفتنة ! قال : وأى فتنة فى هذه ؟ إنما هى أميال أزيدها . قال : وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ؟ إنى سمعت الله يقول : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (صفحة ١٦٧ الجزء الأول) . وحكى الشيخ أبو شامة

روايات اخرى عن مالك

في كتاب « الباعث على إنكار البدع والحوادث » ، قال قال ابن وهب سألت مالكا عن الجلوس يوم عرفة ، يجلس أهل البلد في مسجدهم ، يدعو الامام رجالاً يدعون الله للناس إلى غروب الشمس ، فقال مالك : مانعرف هذا ، وان الناس عندنا اليوم يفعلونه . قال : وقال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن جلوس الناس في المسجد عشية عرفة بعد العصر واجتماعهم للدعاء ، فقال : ليس هذا من أمر الناس ، و إنما مفاتيح هذه الأشياء من البدع . ثم قال أبو شامة : قال مالك في العتبية : وأكره أن يجلس أهل الآفاق يوم عرفة في المساجد للدعاء . ومن اجتمع إليه الناس للدعاء فلينصرف . ومقامه في منزله أحب إلى . فاذا حضرت الصلاة رجع فصلى في المسجد . قال أبو شامة في مكان آخر من كتابه المذكور : ذكر الطرطوشي في كتاب « الحوادث » قال مالك : لا يجتمع القوم يقرءون في سورة واحدة كما يفعله أهل الاسكندرية . هذا مكروه ، ولا يعجبنا . لم يكن هذا من عمل الناس . هذا مكروه ومنكر . فلو قرأ واحد منهم آيات ثم قرأ الآخر على إثر صاحبه ، والآخر كذلك لم يكن بذلك بأس . هؤلاء يعرض بعضهم على بعضهم

فمالك — وهذا موقفه ، وهذه صرامته ، وشدته إزاء البدع والمبتدعين — لا يمكن أن يبتدع الاستشفاع بالأموات ، ولا يمكن أن يكون السابق إلى هذه الضلالات والترهات يقيناً . وقد كان رضي الله عنه من أشد الناس كرهاً ومقتاً للمحدثات والزيادات في الاسلام ، وكان من أعظم الأئمة محافظة على السنة ، وهدى السلف الصالحين الأولين . ولهذا كثر في أصحابه واتباعه المؤلفون في الرد على المبتدعين وفي إنكار المبتدعات . ومن قرأ ما كتبه أصحابه في هذا الباب وجد العجيب ، ووجد أن السلف الصالح أعظم من الوهابين — كما يسميهم هؤلاء المبتدعون — تشددا وحربا للمحدثات والزيادات ، وتحدياً لها ولأصحابها .

﴿ الاستشهاد بقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية ﴾

الكلام على قوله الله «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك»

ويحسم كل تردد وشك فى تكذيب الحكاية الاستشهاد فيها بقول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيما » . فان الاستدلال بهذه الآية الكريمة على زيارة القبر واستقباله والاستشفاع به لا يمكن أن يصدر عن مثل مالك . وهذا لا يعرف إلا عن أعرابى لا يعرف ، يقال : إنه جاء إلى القبر النبوى فبكى واستبكى وقال من ضمن ما قال : « ياخير الرسل ، إن الله قد أنزل عليك كتاباً صادقا قال فيه : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » ، وقد جئتك مستغفراً من ذنبى ، مستشفعاً بك إلى ربى » . . وأنشد :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * وطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف . قال الراوى عن هذا الأعرابى : فرقدت فرأيت النبى فى نومى وهو يقول : « الحق الرجل وبشره أن الله غفر له بشفاعتى » فاستيقظت وخرجت أطلبه فلم أجده .

حكاية العتبى

وتعرف هذه الحكاية من طريق العتبى . قال السبكى واسم العتبى : محمد بن عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان الأموى . وقد ذكر الحكاية موفق الدين ابن قدامة الحنبلى فى « المغنى » قال : « ويروى عن العتبى قال : كنت جالساً عند قبر النبى عليه السلام فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول ... » وذكر الآية وبقية الرواية . وذكرها صاحب الشرح الكبير الحنبلى بالنحو المتقدم عن العتبى نفسه . قال السبكى : وذكرها ابن عساكر فى تاريخه ، وابن الجوزى فى « مثير العزم الساكن » بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالى ، قال : دخلت المدينة فأتيت قبر النبى وجلست

حذاءه فجاء أعرابى . وذكر الحكاية باللفظ السابق . وذكرها شيخ الاسلام ابن تيمية فى مواضع من كتبه ، وقال : إنها لا تعرف إلا عن هذا الأعرابى ، قال : وبها احتج من احتج من متأخرى الفقهاء من أصحاب الشافعى وأصحاب أحمد . وهذا صحيح فان صاحب « المغنى » وصاحب « الشرح الكبير » الحنبليين ، وهما من كبار الفقهاء ، حينما ذكرا هذا ذكراه عن العتبى عن الأعرابى . ولم يذكرا شيئا من ذلك عن مالك رضى الله عنه . ولو كانت الرواية محفوظة عندهما عن مالك لأسنداها إليه واحتجابها ، ولكان هذا أفضل من الاحتجاج بفعل ذاك الأعرابى المجهول . ولكن هذا يدل على أنهم ما كانوا يعرفون شيئا من هذا النوع عن أمثال مالك . ثم هم يذكرون الرواية على وجه التوهين ، لا يذكرون لها سنداً ولا يصححونها ، ولا يقولون فيها غير : « يروى عن العتبى » مثلا . فهم لا يعرفون لها سنداً ، ولا يعرفون لها صحة أو ثبوتا . وإنما يسوقونها معللة موهنة مرسلة .

الاختلاف فى الحكاية

وقال ابن عبد الهادى فى « الصارم المنكى » : وهذه الحكاية يرويها بعضهم عن العتبى بلا إسناد ، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالى ، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالى عن أبى الحسن الزعفرانى عن الأعرابى . قال : وقد ذكرها البيهقى فى شعب الإيمان باسناد مظلم عن محمد ابن روح بن يزيد البصرى . حدثنا أبو حرب الهلالى ، قال : حج أعرابى فلما جاء إلى باب مسجد النبى أناخ راحلته وعقلها ، ثم دخل المسجد فأتى القبر . . . وذكر قريباً مما تقدم . . قال : وقد وضع لها بعض الكذابين إسناداً إلى على بن أبى طالب ، وهو ما رواه أبو الحسن : على بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الكرخى عن على بن محمد بن على حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائى قال حدثنى أبى عن جدى عن سلمة بن كهيل عن أبى صادق عن على بن أبى طالب

قال : قدم علينا أعرابى بعد مادفنارسول الله بثلاثة أيام، فرمى بنفسه إلى قبر النبى وحثا على رأسه من ترابه ، وقال : يارسول الله قلت فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله فما وعينا عنك ، وكان فى ما أنزل الله عليك : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرلهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » . وقد ظلمت نفسى وجئتك لتستغفرلى . فنودى من القبر : إنه قد غفر لك . قال : وهـذا خبر منكر موضوع ، وأثر مختلق مصنوع ، لايحسن الاعتماد عليه ، ولايصلح المصير إليه . وإسناده ظلمات بعضها فوق بعض . والهيثم جد أحمد بن محمـد بن الهيثم أظنه ابن عدى الطائى ، فان يكنه فهو متروك كذاب ، وإن لايكنه فمجهول . ثم نقل كلام الناس فى الهيثم ونقل عنهم أنه كان كذاباً يضع الحديث على الثقات تعمداً .

وهذا الاسناد ملآن بالعيوب وبألوان الضعف وألوان السقوط . فالهيثم بن عدى كذاب ، وأبو صادق قال عبد الرحمن بن أبى حاتم : سألت أبى عنه فقال : روى عن على ولم يسمع منه . وأبو صادق فى نفسه مقبول الحديث حسنه . قال ابن سعد : كان ورعاً قليل الحديث يتكلمون فيه ، روى لحـديثه النسائى وابن ماجه كما فى تهذيب التهذيب . وبقية رجال السند لايعرفون .

ليس للحكاية سند صحيح

فتلخص من هذا أن حادثة الأعرابى قيل فيها مرة : إن الراوى لها هو على ابن أبى طالب ، وقيل مرة أخرى ، وهى المشهورة : إنه العتبى ، وقيـل ثالثة : إنه محمد بن حرب الهلالى ، وقيل رابعـة : إنه أبو الحسن الزعفرانى . . ولـكن لايوجد لشئ من ذلك إسناد ينظر إليه ، ولم تخرج فى كتاب من كتب الحديث المحترمة ، ولم يصححها أو يحسنها أحد من أهل العلم والدراية . وإنما يذكرها من يذكرها بصيغة التمريض ، فيقولون : يروى عن العتبى كذا . ومثل هذا لا يقول أحد من أهل العلم : إنه يجوز الاحتجاج به . فالحـكاية باطلة الأساس . ولو فرض أنها صحيحة الاسناد لمادلت على شئ مما يذهبون إليه . وذلك أن هذا فعل أعرابى

ثم هذا فعل أعرابى لا حجة فى فعله

من نـكرات الأعراب ، والأعراب ليسوا حججاً فى دين الله : ولو أن العتبى نفسه الذى شهرت عنه الحـكاية فعل ذلك لما كان فعله حجة ولا مقبولا، فكيف بفعل أعرابى يروى عنه العتبى ؟ والعتبى ليس معروفا بالحديث ولا بالدين . وقد ذكره الخطيب البغدادى فى التاريخ وقال عنـه : « كان صاحب أخبار ورواية للآداب ، وكان من أفصح النـاس . . . » ولم يذكره بتزكية ولا بتوثيق ولا بحديث ، وإنما ذكره بالشعر وروايته . وقال: بلغنى أنه مات سنة ٢٢٨ .

وكذلك لو فعل محمد بن حرب الهلالى الذى روى عنه القصة بعضهم . وأما الرواية التى قيل فيها : إن علياً هو الذى شاهد الأعرابى وشاهد فعله ، وهو الذى رُوى عنه ذلك فهى رواية موضوعة مكذوبة .

دلائل بطلان هذا عن مالك

أما أن مالـكا احتج بالآية فى هذا الموضوع فهذا هو الـكذب والباطل من وجوه كثيرة ، من هذه الوجوه أن مالـكا كما تقدم كره لأهل المدينة أن يزوروا القبر الشريف ، وأن يقفوا به وأن يدعوا عنـده . وماأجاز من ذلك إلا الزيارة والسلام فقط لمن جاء من السفر أو أراده. ولما أن قيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سـفر ولا يريدونه يقفون على قبر النبى وعـلى قبرى صاحبيه ، فيصلون عـلى النبى ويدعون لصاحبيه فى اليوم مرة وأكثر، وربمـا وقفوا فى الجمعة أو فى الأيام المرة أوالمرتين أو أكثر عنـد القبر يسلمون ويدعون فقال : لم يبلغنى هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع . ولا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغنى هـذا عن صدر الأمة وأولها . وقال : لا أرى أن يقف عند قبر النبى يدعو ولـكن يسلم ويمضى ... وكل هذا ثابت عند أصحاب مالك عنـه . فاذا كان يكره الوقوف بالقبر للدعاء مطلقاً للمدنى وللآفاقى ، ويكره للمدنى الذى لم يأت من سفر ولم يرده أن يزور القبر وأن يسلم على صاحبه ويدعو ، فـكيف يمكن أن يستدل بقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك

فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية .. على الوقوف بالقبر والاستشفاع به والعكوف عليه ؟ فان الآية لو كانت نازلة فى الحض على المجئ لرسول الله يوم أن كان حياً ، وفى الحض على المجئ إلى قبره بعد الموت لكانت دالة على فضيلة مجئ أهل المدينة وغير أهل المدينة إلى القبر الشريف فى كل الأوقات وجميع الحالات، ولكل من ظلم نفسه من المدنيين والآفاقيين ، بل لدلت على إثم من ظلم نفسه من أهل المدينة فلم يبادر إلى مجئ القبر والدعاء عنده . فكيف يمكن أن يحتج مالك بالآية على المجئ إلى القبر ثم يكره زيارة القبر إلا لمن جاء من السفر، أو أراد السفر ، و يكره الدعاء عنده مطلقا ، للآتى من السفر وللمقيم الذى لم يبرح بلده ؟ وقد ذكر القاضى إسماعيل بن إسحاق فى كتاب «المبسوط » أن مالكا سئل عمن نذر أن يأتى قبر النبى عليه الصلاة والسلام فقال : إن كان أراد المسجد فليأته، و إن كان أراد القبر فلا يفعل للحديث الذى جاء : « لاتعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث . . . وقد ذكر معنى هذا فى سائر كتب المالكية ، ومعناه موجود فى الموطأ . فالسفر عند مالك إلى القبر النبوى لايجوز للحديث المشهور ، و زيارة القبر لأهل المدينة لا تجوز إلا لمن جاء من سفر أو أراده . هذا هو مذهب مالك رضى الله عنه . فكيف إذن يمكن أن يحتج بقوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية . . على ما يحتج له هؤلاء المخالفون ؟ وهى لو كانت نازلة فى الحث على مجئ قبره لكانت دالة على طلب السفر إليه والوقوف به والاستغفار عنده ، ولكانت دالة على أن من ظلم نفسه فلم يأت القبر، أين كان ، ولم يقف به ، و لم يدع عنده كان ظالما آثما مخالفا لأمر الله فى قرآنه . فالذى يحتج بالآية على الترغيب فى مجئ القبر والدعاء عنده لا يمكن أن تكون أقواله وآراؤه كأقوال مالك وآراء مالك . فان هذه مفارقة واضحة جلية . فلا يمكن أن يكون مالك قد استدل بالآية على مجئ

القبر والدعاء عنده . فهذا وجه وجيه من وجوه الإبطال لهذه الرواية المزورة . .

بطلان الاحتجاج الآية على إتيان القبر

وأيضا فالآية لا يمكن أن تدل على طلب المجيء إلى القبر لأمور كثيرة ، أول هذه الأمور أن الآية تطلب إلى المعنيين بها أن يجيئوا الرسول عليه السلام ، وتذمهم إذ لم يأتوه ، وهذا واضح . ولكن بعد موته عليه السلام لا يستطاع إتيانه ولا يمكن ، ولا يقدر أحد عليه . فلا يمكن أن يؤمر به . وإنما يستطاع إتيان مسجده ، وإتيان الحجرة التي تضم رفاته . ومن أتى مسجد النبي وحجرته والمكان الذي دفن فيه لم يقل : إنه أتى النبي ولا أنه جاءه لا شرعا ولا لغة . فإن مجيء الشيء، حقيقة ، هو مجيء ذاته ومجيء شخصه ، لا مجيء ما يتصل به وما يضاف إليه من قبر ومكان ودار . . ولهذا فإن الزائرين للمقابر لا يقال : إنهم زاروا أهلها حقيقة ، أو إنهم أتوهم حقيقة . فمن زار قبر والده لا يصدق أنه زار والده حقيقة بالاجماع والضرورة . ولهذا جاء في الأحاديث الصحاح إضافة الزيارة إلى المقابر لا إلى الأموات المقبورين، فجاء قوله عليه السلام « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة » . وجاء قوله عليه السلام : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال : « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي . فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبي المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » . وفي صحيح مسلم أيضا عن بريدة قال : كان رسول الله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . نسأل الله لنا ولكم العافية » . وعن عبد الله بن أبي مليكة ، قال : أقبلت عائشة ذات يوم من المقابر فقلت لها يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي

زيارة القبر ليست زيارة لصاحبه

عبد الرحمن ، قلت لها : أليس نهى رسول الله عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها . رواه الأثرم فى سننه . وفى الحديث الذى يستدل به هؤلاء المخالفون عن عبد الله بن عمر عن رسول الله قال : « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » . رواه الدارقطنى والبيهقى . وهو حديث باطل ضعيف . وقال الله فى كتابه « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ، وقال تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره » . والأخبار فى إضافة الزيارة إلى القبور لا إلى المقبورين كثيرة معلومة متواترة . والعلماء يبوبون لذلك فيقولون مثلا : « باب زيارة القبور » أو « باب زيارة القبر النبوى » ونحو ذلك . وهذا لأنهم لا يختلفون فى أن من زار القبور لا يقال له : إنه زار الأموات . وفى هاتين الآيتين وفى الأحاديث التى ذكرناها قد أضاف الله وأضاف رسوله الزيارة إلى المقابر . ولم تضف فى شىء من ذلك إلى الأموات ، ولم يأت شىء من هذا إلا أن يكون متجوزا فيه متوسعاً . وهذا لأن زيارة قبور الموتى ليست فى الحقيقة زيارة لهم بالاجماع . فزيارة الميت ليست ممكنة ، وإنما تمكن زيارة قبره فقط ، وامتناع زيارة النبى بعد موته أظهر من امتناع زيارة غيره من الموتى كما تقدم . فان غيره تمكن زيارة قبره لأنه ظاهر موصول إليه . أما قبر النبى عليه الصلاة والسلام فلا يمكن الوصول إليه ولا زيارته حقيقة ، لأنه محاط بالحجرة المسدودة عليه ، ولأن الحجرة محاطة بالجدار البرانى الذى أقيم عليها وسورت به . فزيارة الأموات غير ممكنة وإنما تمكن زيارة قبورهم . وإن أمكنت زيارتهم فزيارة النبى عليه السلام خاصة غير ممكنة . فاتيانه إذن غير ممكن . وإذا كان إتيانه غير ممكن فلا يمكن أن يطلب من الناس ما ليس ممكنا . وإذا لم يصح أن يطلب منهم لم يصح أن يكون قوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية أمرا بالمجىء إلى هذا الذى لا يستطاع ، ولا حضاً عليه بالبداهة والاجماع .

اتيان النبى بعد موته غير ممكن

فبطل الاستدلال بالآية على استحباب مجيء القبر .

وجه ثان فى بطلان الاستدلال بالآية

ثانيها — : مما لاشك فيه أن الآية تذم هؤلاء الذين لم يأتوا الرسول عليه السلام ، وتؤاخذهم على ذلك مؤاخذة ظاهرة ، وتلحق بهم ذنبا عظيما جسيما ، وتنعتهم بأنهم قد تركوا واجبا من أعظم الواجبات ، وأنهم ارتكبوا جرما يستحقون عليه اللوم والتقريع المنيف ، وأنهم قد أغضبوا ربهم وأغضبوا نبيهم بما فعلوه ، وأنهم قد عدوا بذلك من العصاة المذنبين المشار إليهم بالتقريع والملامة المتلوة فى كتاب الله. هذا كله لا شك فيه . وقد أجمع المفسرون السابقون واللاحقون أيضاً على أن هؤلاء المعنيين بالآية قد تركوا واجباً من أجل الواجبات ، وتركوا شريطة من شرائط الايمان ، بتركها قرعهم القرآن ، وأنزل فيهم هذا الخطاب القوى الرائع .

و إذا كان هذا المجيء الذى أوخذ القوم بتركه واجباً من الواجبات ،وفريضة من الفرائض لم يصح الاستدلال به على زيارة القبر النبوى ، ولا على الحض عليها . فانه لاخلاف بين المسلمين فى أن زيارة قبر النبي ليست بواجبة ولا فريضة . وأشد الناس غلوا وحماسة فى هذا الباب لا يزعمون أن زيارة قبر من القبور واجبة من الواجبات ، يؤاخذ تاركها عند ربه . بل هم مجمعون على أنها سنة من السنن بشروطها ومستحباتها . و إن كان بعض الناس من أهل العلم قد كره زيارة القبور مطلقا كما ذكر ذلك السبكى فى « شفاء السقام » وهو من الخصوم الأوائل فى هذه المسائل . وكما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى مواضع من كتبه . والسبكى بلا شك لم يعلم الخلاف إلا من كلام شيخ الاسلام ، ولولاه لما علم من ذلك شيئاً فيما أظن . قال ابن تيمية فى بعض كتبه : « قال ابن بطال فى شرح البخارى : كره قوم زيارة القبور لأنه روى عن النبي أحاديث فى النهى عنها . وقال الشعبى : لولا أن النبي نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتى . وقال إبراهيم النخعى : كانوا

كراهة بعض أهل العلم لزيارة القبور

يكرهون زيارة القبور . وعن ابن سيرين مثله . وقال على بن زياد : سئل مالك عن زيارة القبور فقال : كان قد نهى عنها رسول الله ثم أذن فيها . فلو فعل ذلك إنسان ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً ، وليس من عمل الناس . وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها » . كل هذا كلام شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد نقل بعضه السبكى فى كتابه « شفاء السقام » . وبعض هذا ثابت عمن عزى إليه بلا شك. وقد جاءت أحاديث صحيحة فى الوعيد لزائرات القبور . وبعض الناس لا يفرق بين الرجال والنساء فى هذه المسألة . ولكن زيارة القبور مستحبة بالاجماع خلا هذه الآراء الشاذة القليلة فى كراهتها . ولم يذهب أحد من علماء الاسلام الأجلة فيما نعلم إلى القول بوجوبها وتأثيم من لم يزرها . فالاحتجاج بالآية على زيارة القبر النبوى احتجاج ما أفسده ! ! ! لأن المجئ المذكور فيها مجئ واجب ، عاص تاركه . والزيارة غير واجبة . فمن احتج بالآية على المجئ إلى القبر فقد ذهب إلى القول بوجوب الزيارة ، والوجوب لم يقل به أحد من العلماء أهل البصر بالاسلام .

وذلك أن المحتج بالآية على زيارة القبر يرى أنها تدل على الزيارة إما بالنص وإما بالقياس . والذين يذهبون إلى القول بالنص يزعمون أن قوله : « جاؤك » شامل للمجئ إلى الرسول حيا وميتا . والذين يذهبون إلى القول بالقياس يزعمون أن الحث على مجيئه فى الحياة يدل على الأمر بمجيئه بعد الممات قياساً وجهه عموم العلة ، كما ذكر السبكى وغيره . وإذا كان الصواب هو القول الأول ، أى القول بأن الآية حث على مجيء الرسول حياً وميتاً ، كانت دالة على وجوب الزيارة ، وهذا لم يقل به أحد . وإذا كان الصواب هو القول بالقياس كانت أيضاً دالة على الوجوب ، لأن المقيس على الواجب واجب . فالاستدلال بالآية على الزيارة ينتج القول بوجوبها ، والقول بوجوبها باطل بالإجماع . فالإستدلال بالآية باطل .

إما أن يقولوا إن الزيارة واجبة وإما أن يخالفوا الآية

وليس أمام المخالفين إلا أمران : إما أن يزعموا أن المؤاخذة في الآية مؤاخذة على أمر غير واجب بل على أمر مستحب مسنون ، أو يزعموا أن الزيارة للقبر واجبة وفريضة . وكلا الأمرين باطل عند أهل العلم : أما القول بأن المؤاخذة في الآية مؤاخذة على غير واجب فأظهر القولين بطلانا . . . فإن قوله تعالى في ختام الآية « لوجدوا الله توابا رحيما » معناه لغفر الله لهم ولتاب عليهم ولرحمهم، فلم يعذبهم ولم يؤاخذهم على ما استحقوه من عذاب ونكال . . . و إلا فالله تواب رحيم أبداً قبل ظلم النفس و بعده وفي كل وقت . وسياق الآية المذكور يدل على أن الله لم يتب عليهم ، ولم يغفر لهم ، ولم يرحمهم لأنهم لم يجيئوا النبي عليه الصلاة والسلام . وتوبة الله عليهم ورحمته إياهم مشروطتان في الآية بمجيئهم إياه عليه السلام . وحرف «لو» حرف امتناع لامتناع كما يقولون . فكأن التوبة عليهم والرحمة لهم امتنعتا لامتناع المجيء الذي طلب منهم . فتفسير الآية الجلي هو : الله لم يتب عليهم ، ولم يرحمهم ، لأنهم لم يجيئوا النبي حينما أذنبوا وظلموا أنفسهم . وإذا لم يتب الله عليهم و يرحمهم كانوا بلاشك مستحقين للهلاك والعذاب . والمجيء الذي يستحقون على تركه عذاب الله ونقمته وسخطه ، و يستحقون عليه ألا يتوب عليهم ، وألا يرحمهم مجيء واجب بلا نزاع ولا تردد . فهذا المجيء الذي تركوه وليموا على تركه واجب من أعظم الواجبات ، وفريضة من أكبر الفرائض . فالقول بأن المؤاخذة في الآية مؤاخذة على غير واجب قول باطل .

أما القول بأن الزيارة، زيارة القبر، واجبة فقول يخالفه الاجماع و يخالفه الدين جملة ، وقول لا يقول به المخالف نفسه ، فلا تردد في بطلانه وفساده . . . ومن زعم أن زيارة القبر واجبة فقد افترى على الله ، وافترى على دينه ، وزعم زعماً ما أفظعه وأقبحه ! وذهب إلى إيجاب الحج إلى غير مكة المشرفة و إلى غير

لا يجب الحج إلى غير الكعبة

بيت الله الحرام . والمسلمون مجمعون على أن الحج لا يجب إلا إلى الكعبة ، أما غيرها من الأماكن ، ومن جملتها قبر الرسول ، فلا يجب الحج إليها عند أحد من أهل الفقه في الاسلام والسنة . ولو صح هذا لكانت الشيعة من أترك الناس لهذا الواجب ، فانه يندر فيهم من يحج ، وبالتالى يندر فيهم من يزور المدينة المنورة . إذ قد استغنوا بقبور النجف وكربلاء وغيرهما عن مكة والمدينة وعن مسجد الله الحرام ومسجد نبيه عليه السلام . . . وقد كان رسول الله يقول بعد فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فالهجرة إلى المدينة فى حياة النبى بعد الفتح غير واجبة فكيف تجب بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ؟ ! هذا ما لا يكون وما لا يذهب إليه المسلمون . فالاستدلال بالآية على الزيارة استدلال منكر مفضوح .

وجه ثالث فى بطلان الاستدلال بالآية

ثالثها ـ : لو كان يقصد بالآية زيارة القبر الشريف نصاً أو قياساً لما شرط المجىء إليه بظلم النفس وبالذنب ، ولما قيل « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك » بل لقيل: ولو أنهم جاؤك . لأن المقصد على قول المخالفين الحث على زيارة النبى حيا وميتاً فى قبره وفى حياته . . وإذا كان هذا هو المقصود والمرمى للآية الكريمة لم يكن لشرط المجىء بالذنب والظلم معنى من المعانى . لأن تقييد الترغيب فى المجىء إليه عليه السلام بظلم النفس يخصص معناه العام الشامل .

فان قيل : إن تقييد المجىء بالظلم لم يكن للدلالة على أنه لا يشرع إلا لمن ظلموا أنفسهم وإنما كان ذلك للدلالة على فضيلة زيارة النبى وزيارة قبره ، وللتنبيه على ما فى ذلك من عظيم الأجر والثواب بأن يقال : إن زيارة النبى حياً وميتاً عظيمة جداً بحيث إن من ظلموا أنفسهم وفعلوا الإثم والذنب العظيم لو زاروا النبى حاملين ذنوبهم وخطاياهم وظلمهم لأنفسهم لغفر لهم ، ولوضعت عنهم الأوزار والخطايا ، فكيف لو زاره من لم يذنبوا ، ومن لم يظلموا أنفسهم ، ومن

أحسنوا أعمالهم وأقوالهم ، وطهروا ظواهرهم و بواطنهم ؟ إن أجرهم إذن لعظيم :
إن قيل هذا قيل : هذا فاسد و بيانه :

وجه رابع فى بطلان الاستدلال بالاية

رابعها ـ : وهو أن يقال : لا يمكن أن تريد الآية الحث على زيارة القبر. لا نصاً ولا قياساً ، وذلك لأن الآية قد رتبت على المجيء إلى النبى عليه السلام. أجراً عظيما وفضيلة عظمى ، تتطاول إليها أعناق المتقين ، وتتسامى إليها أشواطهم. وينضون للوصول إليها مطايا جهودهم وأعمالهم : هذا الأجر العظيم ، وهذه الفضيلة العظمى هى وجدانهم الله توابا رحيما ، وهذا يكنى به عن التوبة والرحمة. ومن تاب الله عليه ورحمه فقد فاز وأفلح وأخذ بسبب من نجاته متين . وهذا الأجر لا يمكن أن يكون أجر من زار القبر وشد المطايا إليه ، فان زيارة القبر مهما بولغ فى تعظيمها وتكثير أجرها لا يمكن أن يبلغ ثوابها هذا القدر بحيث يغفر للزائر ويتاب عليه ويرحم ، وبحيث يترك له ظلمه وذنبه ، فان هذه المثوبات لا تنال إلا بالأعمال الجسيمة الصالحة ، لا بزيارة القبور والوقوف بها ، لأن فضيلة الزيارة إن كانت فى السلام على النبى والصلاة عليه فهذا يحصل ويدرك فى القرب والبعد ، ويناله القريب والقصى . ومن صلى على النبى مرة صلى الله عليه بها عشرا . وهذا لا فرق فيه بين من كان فوق القبر ، ومن كان فى الأندلس ، كما قال الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب لذلك الذى كان يتعمد زيارة القبر . وقد قال ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود والامام أحمد : « وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » . والمسلمون من كل مكان وفى كل مكان وكل زمان يقولون فى صلواتهم : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ». ويصلون ويسلمون عليه فى كل أوقاتهم وحالاتهم . وينالون بذلك أجر الصلاة والسلام عليه أين كانوا ووجدوا . وإن كانت فضيلة الزيارة فى مشاهدة الحجرة التى تضم رفات النبى وفى مشاهدة الجدار المحيط بها ، فهذا بذاته لا فضيلة فيه

دينية بالإجماع والضرورة . وإن كانت الفضيلة فى إتيان المسجد والصلاة فيه خرجت المسألة عن الزيارة ورجعت إلى زيارة المسجد وشد الرحال إليه . وهذا لاخلاف فيه ، ولكن ليس هو ما يذهب إليه المخالفون .

وجه خامس فى بطلان الاستدلال بالآية

خامسها — : لو أن الآية تتناول الزيارة نصاً أو قياساً لكان من المشروع لكل من ظلم نفسه وعمل السوء أن يزور القبر النبوى ، وأن يشد المطايا والرحال إليه ، وإلا كان آثماً مجرماً ، لأن الآية تقول — مقرعة القوم ذامة لهم — « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » . وإذا كان ذلك كذلك كانت زيارة القبر مشروعة بل واجبة عند كل ذنب مهما تعدد وتنوع وكثر . وذنوب الانسان لا تقف عند غاية ولا عند حد من الحدود . فكان من المشروع إذن للمسلم ، بل من الواجب عليه أن يحج إلى القبر النبوى فى العام الواحد عشرات المرات بل مئات المرات : كلما ظلم نفسه ، وعصى ربه . وهذا شىء كثير جداً . وعليه يكون الحج إلى القبر أعظم من الحج إلى بيت الله ! بل على هذا يكون من المشروع للمسلم الواجب عليه أن لا ينفك مسافراً بين ذهاب وإياب ، راحلا إلى القبر فى حياته كلها . وهذا من أعظم الضلال وأبين المخالفات لدين الله الاسلام ، ومن أعظم الوثنية التى جاء النبى لتقويض أبنيتها ، وهدم قواعدها ، ونقض آساسها . وفساد هذا ومخالفته لدين الاسلام بل لجميع الأديان لا يحتاج إلى إمعان فى النظر وكد للفكرة .

وجه سادس

سادسها — : أن يقال : لو كان هذا صحيحاً ، وكان هو المراد بالآية لكان أصحاب النبى وأنصار الله من المهاجرين والأنصار من أزهد الناس فى هذه الفضيلة ، ومن أقلهم عملا بها ، والتفاتا إليها . . . وذلك أنهم — وقد تقدم هذا مرات — ما كانوا يرغبون فى زيارة القبر الشريف . . . ولا كانوا يتدافعون إليها ، ولا يعنون بها بعض العناية ، بل ما صح عن أحد منهم زيارة القبر لا من

الآفاق ولا من المدينة فى مانعلم إلا ما صح عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا قدم من سفر زار وسلم وانصرف . لا يزيد على ذلك شيئا . أما غيره كأبى بكر وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وغيرهم من الأنصار والمهاجرين فلم ينقل عنهم باسناد صحيح يقام له وزن أنهم كانوا يفعلون شيئا من ذلك لاحين حضورهم من الأسفار والآفاق ، ولا عند دخولهم المسجد للصلاة ولغيرها . وما صح عن أحد منهم أنه زار القبر أو وقف عنده أو طاف به ، أو دعا لديه . وقد كانوا يدخلون المسجد النبوى فى اليوم الواحد المرات ، وكانوا يدخلون على أم المؤمنين عائشة حجرتها وفيها النبى وصاحباه . وما نقل عن أحد منهم بسند صحيح أنه فعل شيئا من هذا الذى فعله عبد الله بن عمر فضلا عن الأشياء التى يفعلها هؤلاء المبتدعون والتى يدعون إليها الناس ، بل لقد جاء نهيهم عن ذلك كما تقدم فى حديث على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وفى حديث الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . وتقدم قول أبى إسحاق إبراهيم بن سعد قال : ما رأيت أبى يأتى قبر النبى قط ، وكان يكره إتيانه . وسعد هذا من سادات التابعين وأعلامهم ، وهو سعد بن إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى . وتقدم قول عبيد الله بن عمر العمرى لما حدثه معمر أن عبد الله بن عمر كان يزور قبر النبى إذا حضر من السفر وقبرى صاحبيه ، فقال عبيد الله بن عمر العمرى : مانعلم أحداً من أصحاب النبى فعل ذلك غير ابن عمر . وعبيد الله ابن عمر القائل هذه المقالة إمام كبير من أئمة التابعين . وتقدم قول الشعبى : لولا أن رسول الله نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتى . وتقدم قول إبراهيم النخعى : كانوا يكرهون زيارة القبور . وعن ابن سيرين مثله . وتقدم أن مالكا سئل عن زيارة القبور ، فقال : قد نهى عنها رسول الله ثم أذن فيها ، فلو فعل ذلك إنسان ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً . وتقدم قوله : إن زيارة القبور

هل كان السلف يأتون القبر النبوى

ليست من عمل الناس . وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها . وتقدم أنه قيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يقفون على القبر فيصلون عليه ويسلمون ، فقال : لم يبلغنى هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع ولا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها . وتقدم قوله : ويكره ذلك إلا لمن جاء من سفر أو أراده . والإمام مالك يجيز ذلك لمن جاء من السفر ولمن أراده استدلالا بفعل عبد الله بن عمر . أما غيره فلم ينقل عنه شئ من هذا . ومن ثم احتج المولعون بهذه الأمور بحكاية العتبى عن ذلك الأعرابى النكرة المجهول . ولو كان عندهم شئ من هذا العلم عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على أو غيرهم من الصحابة وأئمة التابعين لما احتاجوا إلى حكاية العتبى عن الأعرابى النكرة ، ولما احتاجوا إلى الأحاديث الموضوعة مثل الرواية المعزوة إلى النبى القائلة « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » . وقد كانت عائشة رضى الله عنها ساكنة فى الحجرة التى فيها النبى وصاحباه ، وما حفظ عنها أنها كانت تقف بالقبور وتدعو وتسلم وتزور . وكان الناس يزورونها فى حجرتها ويدخلون عليها ، وما جاء عنها أنها أشارت على أحد من زائريها بالزيارة للقبر والطواف به والدعاء والسلام عليه . فالصحابة لم يفعلوا ذلك ، والتابعون لم يفعلوه ، بل قد جاء عنهم كراهته والازورار عنه ، لأنهم لم يجدوه من فعل الناس ولا من فعل صحابة النبى وناشرى رسالته من بعده .

فلو كانت الآية حثاً على زيارة القبر وترغيباً فيها لكان خيار الأمة وصحابة النبوة ومن تبعهم بالإحسان والإيمان من أعصى الخلق ومن أبعدهم وأنآهم عن هذه الطاعة وعن تلك الفضيلة . ولكن حاش لله أن يقال فى خيار الأمة هذه المقالة . بل الصحابة أتقى الناس وأعلمهم بأوامر الله وأوامر رسوله ، وأقومهم بما يجب لرسول الله من التعظيم والاحترام والحب الصادق الصحيح . ولا خير فى ما تركوه ورغبوا عنه من أمور الدين وعبادة الله .

وجه سابع فى بطلان الاستدلال بالآية على إتيان القبر

سابعها — : لا خلاف بين الناس فى أن هذه الآية قد نزلت فى طائفة من الناس مقرعة لهم على إعراضهم عن الله وعن رسوله رغبة عما عند الله و زهدا فى النبوة والنبى . ولا خلاف فى أن الآية لم تكن خطاباً عاماً لجميع الناس ، ولا حضاً لهم كلهم على أن يأتوا الرسول . وقبل هذه الآية يقول الله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم يقول : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . و إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل و إلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما . . . » ، ثم يقول بعد هذا : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فى ما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليما . ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا ، و إذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما . . . » . والآيات صريحة فى أنها نزلت فى طائفة من المنافقين دعوا إلى رسول الله ليعتذروا إليه وليتوبوا من نفاقهم ، و إساءتهم إليه فلم يفعلوا . وأصرح هذا قوله « و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » وهو مثل قوله تعالى من سورة « المنافقون » : « و إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » . وهذا لا يحتاج

إلى زيادة تفصيل . فالآية نازلة فى جماعة من المنافقين بلاريب . فالذين يزعمون أنها عامة يلجأون إلى القياس لا إلى النص . فاذا كانت المسألة مسألة قياس قلنا :
أما الشيعة فانهم ينكرون القياس كله ، ولا يقبلون منه شيئا . وهم يفخرون على أهل السنة بهذا الانكار ، و يذمونهم و يهجونهم لقولهم به ، وذهابهم إليه . فباطل إذن أن يقيسوا هنا . وأما غير الشيعة من القائلين بالقياس فيقال لهم : إن القياس فى هذه المسألة ــ خاصة ــ باطل ، ولو كان كل قياس فى الدنيا صحيحاً. وذلك أن القياس بالاجماع لا يكون صحيحاً مقبولا إلا إذا اشترك المقيس والمقيس عليه فى علة الحكم الثابتة للمقيس عليه التى زعم ثبوتها للمقيس ، فزعم صحة إعطائه حكم المقيس عليه تحليلا وتحريما ، فلا يقاس محرم على محرم إلا إذا وجدت علة التحريم فى الأمرين معا : المقيس والمقيس عليه ، ولا يقاس مستحب على مستحب ، ولا واجب على واجب إلا إذا اشتركا فى علة الاستحباب ، والوجوب . وهذا ركن من أركان القياس لا معنى له بغيره . والقياس فى المسألة التى معنا باطل لأن العلة فى المقيس عليه مفقودة من المقيس فلا يصح أن يشتركا فى الحكم . و بيان ذلك أن أولئك المنافقين قد أساءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام باحتكامهم إلى الطاغوت و بامتناعهم من التحاكم إليه ، و بصدودهم و رغبتهم عنه ، و بعصيانهم إياه وليهم رءوسهم عند دعوتهم إليه إعراضا وصدوداً عنه ، وكفرانا به واحتقاراً له . . . فكان كفارة ذلك كله أن يتوبوا فى أنفسهم ، وأن يذهبوا إليه عليه الصلاة والسلام فيعتذروا و يتوبوا بين يديه تكفيراً لجرم إساءتهم إليه وجرم خروجهم على ربهم وشرودهم عنه ، وليستغفروا لأنفسهم وليستغفر لهم الرسول لتقبل توبتهم وليغفر جرمهم العظيم .. . وهذا كله عنوان إقلاعهم عن نفاقهم و براءتهم من كفرانهم .

لم يلاموا لانهم لم يزوروا الرسول ولكن ليموا لانهم كفروا ولم يتوبوا

فهم فى الحقيقة لم يلاموا على أنهم لم يجيئوا الرسول ولم يذهبوا إليه : ليس

هذا هو وجه ضلالهم وسبيل نفاقهم ، ولكن وجه ذلك وسبيله هو كفرهم المدلول عليه بإعراضهم عن رسول الله وصدودهم عنه وتحاكمهم إلى الطاغوت ، تاركين حكمه وشرعه وراء ظهورهم ، غير حافلين ولا مبالين ، نفاقاً منهم وارتداداً .

وهذا لا ريب فيه . فهم إذن لم يطلب منهم المجيء إلى رسول الله زيارة ، ولا لأن المجيء إليه ذاته مطلوب . . . وإنما طلبت منهم التوبة ، وطلب منهم الايمان . وهم إذا كانوا يصدون عن رسول الله ، ويتحاكمون إلى الطاغوت ، ويعرضون عن حكمه ، ويجفلون منه ، فليسوا بمؤمنين ولا تائبين ولا مسلمين بلا شك . فالمجيء المطلوب منهم مجيء يحدوه الإيمان والتوبة والإخلاص لله ولرسوله . فهم مذمومون لأنهم منافقون غير مؤمنين وغير مسلمين ، لا لأنهم لم يأتوا الرسول ولم يزوروه أو يزوروا قبره . . . فالمعنى فى الآية الكريمة : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم تابوا واستغفروا وتخلوا عن ظلمهم وجرمهم وكفرهم ، لوجدوا الله غفاراً لذلك كله . . . وهذه الآية مثل الآيات التى فيها قبول الله توبة التائبين مهما عظمت ذنوبهم وسيئاتهم وآثامهم . وإنما قيل فى الآية : « جاءوك » لأن مجيئهم إياه عليه السلام بتلك الحال عنوان لإقلاعهم عما ليموا عليه ، وبرهان التوبة والصدق والإخلاص . فالمجيء ليس مطلوباً إلا للتوبة ولاعلانها وإعلان الاسلام والايمان والصدق فيهما . وإلالو أنهم آمنوا وتخلصوا من نفاقهم ومما يحملون للاسلام وللنبى من العداوة والكراهة والبغضاء بالتوبة ثم لم يجيئوا الرسول عليه السلام ، لا كراهة له ولا بغضا ولكن لاشتغالهم بحياتهم وشئونها لماليموا على ذلك ولما طلب إليهم المجيء إلا إذا كانوا محتاجين للتعلم وأخذ دينهم عنه مباشرة ، أو كانوا مطلوبين للجهاد بين يديه والدفاع عنه ، أو نحو ذلك من الأغراض . ولهذا كان ﷺ يقول بعد فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، لكن جهاد ونية » . . . ومن الدليل على أن المجيء ذاته ليس مطلوباً:

من الدليل على أن المجيء نفسه ليس مطلوبا مفروضا

ولا فضيلة أنه تعالى ذكره فى هذه الآيات ذاماً له ، منكره عليهم . وذلك فى قوله تعالى : « ثم جاؤك يحلفون بالله : إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » . وهذا ذم لأحد أفراد المجئ . وقال تعالى من سورة المنافقون : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » إلى آخر الآيات ، وهذا ذم لهم على مجيئهم بتلك الحال الكاذبة المنافقة . وقال فى ذم أحد أفراد المجئ : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم » . ولا يصح الاستدلال بقوله تعالى : « ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك » الآية على استحباب المجئ إلى رسول الله بعد موته ، كما لا يصح الاستدلال بهذه الآيات المذكورة على ذم المجيء إليه حياً وميتاً . وإنما المدح والذم لما قارن ذلك بالضرورة والإجماع . وإذا صح للقوم أن يستدلوا بالآية التى نحن بصددها على استحباب مجيء قبر النبى ساغ لغيرهم أن يستدلوا بالآيات التى سقناها على كراهة المجئ إلى القبر . والاستدلالان فى الحقيقة سواء .

فالعلة فى طلب مجئ أولئك المنافقين إلى الرسول هى إعلان توبتهم وإيمانهم وبرهان براءتهم من نفاقهم وضلالهم ، ثم اعتذارهم الى الرسول ، لأنهم أساءوا اليه وتنقصوه ، ثم تحاكمهم الى شرعه وحكمه : هذه هى العلة فى طلب المجئ منهم ، وليست العلة هى الزيارة . وهذه الأمور مفقودة فى زيارة المسلم القبر الشريف . فالعلة التى طلب من أجلها المجئ موجودة فى المقيس عليه دون المقيس . فالقياس اذن فاسد باطل . ولا يصح القياس حتى يزعموا أن العلة فى طلب المجئ هى الزيارة . وهذا لا يقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم . فظهر بهذا أن الاحتجاج بالآية فى مكان بعيد من الرشاد والسداد .

وجه ثامن فى بطلان الاستدلال بالآية

ثامنها — : لو صدق الاحتجاج بقوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم

جاءوك » الآية على زيارة القبر النبوى لصدق الاحتجاج بقوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم » على امتناع دعاء النبي وخطابه من حجرته حيا وميتا . فان الذين يدعون النبي عليه السلام بعد موته ويخاطبونه ، لا يدعونه ، ولا يخاطبونه إلا من وراء الحجرات ، إذ لا يمكن الوصول إليه كما تقدم لأنه مقبور فى حجرة زوجه عائشة رضى الله عنها ، والحجرة مسدودة ومحاطة بالبناء . فمن أراد اليوم أن يخاطبه وأن يدعوه عليه الصلاة والسلام لم يمكنه ذلك إلا من وراء حجرته ومن وراء البناء المحيط بالحجرة . وحينئذ تكون الآية دليلا ظاهراً على بطلان خطابه ودعائه بعد موته وبعد وضعه فى بيت أم المؤمنين عائشة . ودلالة هذه الآية على امتناع دعائه وخطابه ميتا أبين وأظهر من دلالة الآية التى نحن بصددها على استحباب مجىء القبر والسفر إليه . ولكن هؤلاء المخالفين ينازعوننا فى هذا الاستدلال ولا يسلمونه ، ويصرون على دعاء الرسول وخطابه والاستغاثة به ، وطلبه الحاجات من وراء الحجرات والجدرات غير مبالين بهذه الآية ولا بغيرها من الآيات . ولا مفر لهم من أحد الأمرين : إما الاستدلال بالآيتين معاً : بآية « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية على استحباب زيارة القبر وشد الرحال إليه ، وبآية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » الآية على تحريم دعاء النبي وخطابه ميتا — وإما ترك الاستدلال بالآيتين معاً ، فلا تدل هذه على استحباب السفر إلى القبر ، ولا تلك على تحريم خطاب النبي عليه الصلاة والسلام بعد الممات . . . وهذا أقل ما يوجبه الانصاف والعدل .

وجه تاسع فى بطلان الاستدلال بالآية على السفر الى القبر

تاسعها — : نقول : هبوا الآية نازلة فى الحث على زيارة القبر الشريف وشد الرحل إليه خاصة . ولكن لا ريب أن المعنيين بها قوم من أهل المدينة من

أهل النفاق والضلال . ونحن لا ننازع فى جواز زيارة القبور إذا كانت زيارة مجردة من السفر وشد الرحل و إعمال المطى ، بل لا ننازع فى أن زيارة القبور على وجه العموم مستحبة مطلوبة بالجملة كما قال عليه الصلاة والسلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا » . وفى رواية : « فإنها تذكركم الآخرة » .

فزيارة القبور لم نخالف نحن فى جوازها واستحبابها كما لم نخالف فى زيارة القبر النبوى إذا لم يسافر لأجل الزيارة خاصة . والآية الكريمة نازلة فى طائفة من أهل المدينة دعوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام فأبوا وصدوا وأعرضوا . . . فاذا كانت حقا دعوة إلى زيارة القبر النبوى أو إلى زيارة النبى نفسه حيا وميتاً لم تدل على شىء مما يذهب إليه المخالفون ، ولم تدل على شىء مما ننكره ونأباه . فان الذى فى الآية دعوة لطائفة من أهل المدينة ليأتوا إلى النبى أو إلى قبره على قول المخالف ، ودعوة أهل المدينة إلى النبى حياً وميتاً ، أو إلى زيارته وزيارة قبره ، لم ننكرها نحن . ولم نقل : إنها ممنوعة أو مكروهة أو غير مستحبة . و إنما ننكر من الزيارة ما كان بسفر أو ما كان مصحوبا بالابتداع والضلال . فقصارى ما فى الآية بعد كل شىء أن تدل على حث أهل المدينة المنورة النبوية على زيارة القبر ى ، ولكن ليس الكلام ولا الخلاف بيننا و بين المخالفين فى زيارة سكان المدينة للقبر ، و إنما ذلك فى شد الرحال و فى الأسفار إلى مجرد الزيارة . فنحن نسلم أن القرآن يدعو أهل المدينة عامة إلى زيارة رسول الله فى مدينته حياً وميتاً ، وأنه يحثهم على ذلك و يرغبهم فيه . وهذا ما لا خلاف ولا كلام بيننا و بين هؤلاء المخالفين فيه .

سؤال وجوابه

فان قالوا : إنه لا فرق بين أهل المدينة و بين سواهم فى هذا ، فاذا طلب القرآن من أهل المدينة أن يزوروا القبر كانت الزيارة بلا شك مطلوبة من سائر

المسلمين فى أقطار الأرض ، لأن ما طلب من طائفة من المسلمين كان مطلوباً من جميع المسلمين ، إذ لا يصح أن يشرع لقوم ما لم يشرع للآخرين ، فلا يحل لفريق ما حرم على فريق آخر، ولا يوجب على فريق مالم يوجب على كل فريق . فالذى يطلب من أهل المدينة يطلب من غيرهم ، كما أن الذى يحرم على غيرهم يحرم عليهم . فلا يجوز فى شرع الله أن يكون هذا حلالا لأهل الحجاز أو لأهل المدينة ، حراماً على أهل مصر أو العراق أو الشام أو الهند أو أقصى بلاد الاسلام كما لايجوز العكس . فلا يجوز أن تكون زيارة القبر النبوى جائزة أو مستحبة لأهل المدينة ، محرمة على أهل مصر أو أهل الشام أو أهل العراق أو أهل الأندلس أو غيرهم كما لا يجوز العكس . فاذا سلمتم أن الآية تدعو أهل المدينة إلى زيارة القبر النبوى فقد سلمتم أنها تدعو سواهم إلى ذلك لما ذكرنا من أنه لافرق بين المسلمين أمام أوامر الشريعة : حلالها وحرامها .

إذا قال المخالفون هذا قلنا : نعم ، لافرق بين أهل بلد و بلد آخر إزاء أوامر الدين وفروض الشريعة ، فلا فرق بين أهل المدينة و بين غيرهم من المسلمين فى هذه المسألة وفى سواها من المسائل ، فالمحرم على المدنى محرم على غير المدنى من المصرى والشامى والعراقى والهندى وجميع المسلمين . والمحرم على المصرى والهندى والعراقى والشامى والمشرقى والمغربى من أمم الإسلام محرم على أهل المدينة بلا خلاف ولانزاع ، والزيارة المطلوبة من أهل المدينة مطلوبة من غيرهم ، والمحرمة على غيرهم محرمة عليهم بلاشك . هذا كله نقوله ولانخالف فى شئ منه . فالسفر لمجرد زيارة القبر النبوى ــ مجرداً من قصد الصلاة فى المسجد ــ منهى عنه : أهلُ المدينة وغيرهم من المسلمين ، و زيارة القبر الشريف وغيره من القبور مشروعة مستحبة لمن كان فى المدينة سواء أكان من أهل المدينة أم كان غريباً . فالمدنى إذا كان فى مكة أو فى مصر أوفى العراق أو فى الشام أو فى الهند منهى عن أن يسافر إلى المدينة

لأجل زيارة القبر . وغير المدنى إذا كان فى المدينة كان جائزاً له أن يزور القبر وأن يسلم على صاحبه وعلى صاحبيه ﷺ ، ورضى الله عنهما . فليست زيارة القبر مباحة لأهل المدينة ، محرمة على غير أهل المدينة ، ولم يحرم على المسلمين ما أحل لأهل المدينة ، ولكن السفر لأجل الزيارة منهى عنه الجميع : المدنيون وغير المدنيين ، والزيارة بغير سفر مستحبة للجميع : المدنيين وغيرهم . فالمسلمون إزاء ذلك سواء .

ونظير هذا عند المخالفين وغيرهم أن من كان فى مصر كان مباحاً له أن يصلى فى الأزهر أو فى غيره من المساجد . ولكن من كان فى المدينة المنورة أو فى مكة المكرمة أو غيرهما من الأقطار منهى بالاجماع عن أن يسافر إلى مصر لأجل الصلاة فى الأزهر أو فى غيره من مساجد القاهرة كجامع عمرو بن العاص . وكذلك يقال فى جميع المساجد ماخلا المساجد الثلاثة التى قال النبى فيها : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة » . فكل المساجد مشروع قصدها للصلاة فيها ، ولكن لايصح السفر إليها لأجل الصلاة فيها عند المخالفين أنفسهم للحديث المذكور . وهذا مثل زيارة القبر النبوى بل جميع القبور ، فان زيارتها مشروعة استحباباً ولكن بلا سفر . فالصلاة فيها — بلا سفر — مأمور بها — وبالسفر منهى عنها ، والزيارة مشروعة مأمور بها — أمر إستحباب — بلا سفر ، منهى عنها بالسفر .. ولم يقل أحد : إن فى هذا تحريماً على قوم ما أحل للآخرين ، ولا إحلالا لطائفة ما حرم على غيرها

ونظائر هذا كثيرة معلومة فى الشريعة : فأهل مصر مثلا إذا أرادوا الحج كان واجبا عليهم أن يمروا بما بينهم وبين مكة شرفها الله من البر والبحر . ولكن هذا ليس واجباً على من أرادوا الحج من أهل مكة وأهل الحجاز عامة ، لان وصولهم إلى الكعبة وإلى بيت الله لا يتوقف على ذلك . ولا يقول أحد فى هذا ، إنه أوجب

على أهل مصر مثلا مالم يوجب على أهل الحجاز . وكذلك يقال فى غير أهل مصر ممن بعدت دا عن الحجاز . وأهل مكة إذا صلوا فى الحرم وجب عليهم أن يتوجهوا إلى كل الجهات الأفقية ليولوا وجوههم شطر الكعبة . ولكن من كانوا فى بلدة أخرى وجب عليهم أن يتجهوا جهة واحدة ليصيبوا شطر المسجد الحرام . ولا يقال : إن فى هذا إيجاباً على قوم مالم يوجب على الآخرين ، ولا أن فيه تفريقاً بين طوائف المسلمين : هذا كله مفهوم معقول .

سؤال وجوابه

فان قال المخالفون : قد دلت الآية على طلب الزيارة من أهل المدينة فما دليلكم على أن هذا خاص بهم دون غيرهم ، والتخصيص لا يركن إليه و إلى القول به إلا بدليل ظاهر جلى قوى ، قلنا : الدليل عندنا على التخصيص قوله ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » « الحديث » ، ودلائل أخرى أيضا سوف يجئ بيانها وشرحها . وأيضاً المسوى بينهما هو المطالب بالدليل لأن التسوية بينهما تسوية بين مختلفين ، ومن سوى بين مختلفين كان مخطئا أو آتيا بدليل لا ينازع . وأيضا إذا رجع استدلال المخالفين إلى العمومات والتمسك بالأمور المطلقة المرسلة الشائعة فالأحسن أن يستدلوا بأحاديث الأمر بزيارة القبور العامة مثل قوله ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فانها تذكركم الآخرة » . وقد كان عليه السلام يزو . القبور . فيمكن حينئذ أن يستدل بزيارته التى بغير سفر و بالأوامر المطلقة ... الزيارة التى تكون بسفر . فاذا رجعوا فى احتجاجهم إلى الاستمساك با ... أرجأنا الجواب عن ذلك إلى الفصل الخاص بالسفر إلى زيارة القبر ... اء الله .

وجه عاشر فى إبطال الاستدلال بالآية على اتيان القبر

عاشرها — : يقول الله فى ا... ...يها : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية . وظاهر من هذه الآية أن المطلوب فيها مجئ يستغفر بعده رسول الله لمن جاءه ، لأن قوله : « واستغفر لهم

الرسول » معطوف على قوله ، « واستغفروا الله » وهما ـ أعنى « واستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » معطوفان على قوله : « جاءوك » « بالفاء » والفاء للعطف والتعقيب على المشهور المنصور من مذاهب النحويين . فاستغفارهم واستغفار الرسول لهم بعد مجيئهم بنص الآية . وإذن فالمطلوب فى الآية مجيء يكون بعده — مباشرة وتسببا — استغفار من الرسول للجانى . . . أما المجيء الذى لا يعقبه استغفار من الرسول فليس مجيئاً مطلوباً ولا مشروعاً بنص الآية وظاهرها . وهذا فى ما أحسب جلى قوى . فعليهم اذن أن يثبتوا أولا أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستغفر لمن جاءوه زائرين فى قبره ليصح لهم الاستدلال بالآية التى استدلوا بها . فأن لم يقيموا الدليل على هذا لم يبق لهم حجة ولا شبهها فى الآية الكريمة. فاين دليلهم على أن من جاءوا القبر وزاروه استغفر لهم الرسول ؟ لا يصح أن يقولوا جوابا عن هذا السؤال : إن الرسول قد استغفر لجميع المؤمنين والمسلمين فى حياته لأن الله قد أمره أن يستغفر لهم على وجه العموم والإطلاق ، لأن المطلوب هنا استغفار يكون بعد المجيء لا قبله . ولا يصح أن يقولوا : إنه ﷺ دائما يستغفر لأمته لقوله عليه السلام : « تعرض على أعمالكم ، فان وجدت خيرا حمدت الله ، وإن وجدت شراً استغفرت لكم » لأن هذا الحديث أولا فيه كلام سوف يجيء بيانه ، ولأن المطلوب ثانيا استغفار يكون عقب المجيء لا عقب عرض الأعمال عليه عليه الصلاة والسلام . وظاهر الآية يدل على أن الاستغفار يكون عقب المجيء مباشرة، ويكون المجيء أيضاً سببه أو أحد أسبابه.والاستغفار المذكور فى حديث عرض الأعمال ليس فى شيء من ذلك .فالمجيء المطلوب فى الآية هو مجيء يستغفر بعده رسول الله للجانى . وكل مجيء لا يستغفر بعده الرسول لا يكون مجيئاً مطلوباً. فان استطاع المخالفون أن يقيموا البرهان على أن من زار الرسول فى قبره استغفر له بعد زيارته ساغ لهم الاحتجاج بالآية على ضعف ووهن ، وإن لم يستطيعوا

ذلك — وهم غير مستطيعيه — لم يسغ لهم أن يتعلقوا بها، ولا أن يفكروا فى الاحتجاج بها بعض التفكير .

أما فى حياته فانه ﷺ كان يستغفر لمن جاءوه معتذرين معترفين بظلمهم وظلماتهم وأخطائهم . كما جاء فى حديث كعب بن مالك يوم تخلف عن رسول الله فى غزوة تبوك قال فى حديثه : « فلما قدم رسول الله من غزوته جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه و يحلفون له . فقبل منهم رسول الله علانيتهم و بايعهم واستغفر لهم و وكل سرائرهم إلى الله » . والحديث فى الصحاح وغيرها . وهذا وارد فى أحاديث أخرى كثيرة . وفى سورة « المنافقون » « و إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم و رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ؛ أسواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » . فاستغفار الرسول لمن جاءه فى حياته معلوم لا خلاف فيه . وأما بعد موته فعلى المخالفين أن يقيموا الدليل على أنه يستغفر فى قبره لمن جاءوه ليكون لاحتجاجهم بالآية وجه ولو ضعيفاً ولكنهم لن يجدوا دليلا واحدا على هذا .

هذه الأمور كلها تقدح فى الرواية المذكورة وتوهى إسنادها وعمادها . والله العليم بكل شىء .

لو صحت الحكاية لما دلت على قول المخالف

﴿ لو صحت الحكاية ﴾

ولو أنها كانت صحيحة ثابتة الاسناد لما دلت على ما يذهب إليه المخالفون . و بيان ذلك فى بيان ألفاظها .

أما قوله : « و إن حرمته ميتاً كحرمته حيا . . » فهذا حق ولكنه فى غير ما يذهبون إليه . فان المراد به أنه يجب تعظيمه ﷺ واحترامه وتوقيره وطاعته وحبه والانقياد لأوامره وأقواله فى كل الأوقات والحالات ، فى حياته و بعد مماته ، فى شهوده وغيبته ، فى قربه و بعده . . . ولكن شيئاً من هذا لا يدل على جواز

دعائه والاستغاثة به وسؤاله مالا يقدر عليه ومالا يقدر عليه إلا الله وحده . ولهذا لم يقل : «فانه فى قبره حى» أو : «إنه فى مماته مثله فى حياته» أو : «إن قدرته ميتاً كقدرته حيا» أو نحو ذلك من العبارات التى تدل على مايذهب إليه المخالفون من الخرافات والضلالات . .. بل إن هذه العبارة والمقالة بلفظها وصيغتها وروحها ومغزاها تدل على أنه بعد موته قد انقطعت الصلات به سوى صلة الاحترام والحب والاجلال والتوقير والتعظيم وهذه المعانى من الطاعة والاتباع والانقياد لحكمه وشرعه مما يتعلق بالرسالة التى خلفها والدين الذى شاده وأقامه .

وأما قوله : «ولم تصرف عنه وجهك ؟» فغاية مافيه أنه يدل على أن السنة استقبال القبر الشريف وقت الدعاء . والدعاء كما تقدم يحتمل أن يراد به الصلاة والسلام عليه والدعاء لصاحبيه . وقد سلف أن هذا يسمى دعاء . ونحن لاننازع فى أن زائر القبر يستحب له استقباله وقت السلام والدعاء لصاحبه .

معانى كلمات مالك إذا صحت عنه

وأما قوله : «وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة» فالمراد به أنه يكون يوم القيامة شفيعاً له ولآدم ولجميع الخلائق كما صحت بذلك النصوص. ولا ننازع فى شئ من شفاعاته ﷺ يوم القيامة ، بل نؤمن بها كلها ونرجو الله أن ينفعنا بها وأن يزيد فى نصيبنا منها ، ونسأله تعالى إياها ، ونتعرض لها ما استطعنا التعرض ، وقد تقدم الكلام عليها فى فصل سابق . ولكن هذا ليس فى محل النزاع والخلاف . وقول مالك هنا «وسيلتك ووسيلة أبيك آدم يوم القيامة» يشعر بأنه قبل يوم القيامة ليس كذلك على المعنى الذى يذهبون إليه ويدعونه ويدعون إلى الأخذ به . ولو كان ﷺ وسيلة عند مالك فى كل الأوقات — بمعنى أنه شفيع مسؤول الشفاعة كل وقت — لما قيد ذلك بقوله «يوم القيامة» بل لقال : «وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم» دون القيد المذكور ، أو قال : «وسيلتك ووسيلة أبيك آدم فى كل وقت» . فقوله إذن فى الرواية «وسيلتك ووسيلة

أبيك آدم يوم القيامة » ظاهر فى التفريق بين الوقتين : يوم القيامة وما قبلها من أيام البرزخ. وهذا هومانقوله وما ندعيهوندعو إليه ، لأنه ﷺ يكون يوم القيامة حيا حياةحسية صحيحة كاملة يخاطب بها و يدعى و يرجى و يستشفع و يشفع ،وليس كذلك فى حال الموت . وهذا هو ما تشير إليه هذه الرواية إشارة صريحة واضحة

وأما قوله : « واستشفع به فيشفعك الله » فقد قال بعض أهل العلم فيه قولا لا يبعد أن يكون صحيحاً . ذلك أنه قال : الاستشفاع بالنبى معناه التعرض لشفاعته والاتيان بالاعمال والأقوال التى بها تنال شفاعته . قال : وشفاعته تنال بطاعته واتباع سنته ، و بالاهتداء بهديه ، و بالصلاة والسلام عليه ، و بسؤال الله الوسيلة والفضيلة له كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال قلت يا رسول الله: من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه » ، وفى البخارى أيضا عن رسول الله قال : « من قال إذا سمع الدعاء : اللهم رب هذه الدعوةالتامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » . وفى صحيح مسلم عن رسول الله قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فان من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وارجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

فالاستشفاع بالنبى عليه الصلاة والسلام فى قول مالك هذا وفى أقوال غيره هو طلب شفاعته عليه السلام ، وشفاعته لا تطلب إلا باتباعه وطاعته والاقتداء به ، والتمسك بسنته ، والعمل بشريعته . . . لا تطلب شفاعة النبى بغير ذلك . ومادة « الاستفعال » تعطى معنى الطلب والالتماس . فالاستنصار معناه طلب النصر ، والاستغفار طلب الغفر ، والاستفتاح طلب الفتح ، وكذلك « الاستشفاع »

...

معناه طلب الشفاعة . فالاستشفاع بالنبى معناه طلب شفاعته . و بماذا تطلب شفاعته عليه الصلاة والسلام ؟ إنها لا تطلب بالابتداع ولا بتنكب سنته والازورار عن شريعته ، ولكنها تطلب باتباعه وطاعته . فاذا طلب الاسلام من المسلمين أن يلتمسوا شفاعة نبيهم وأن يتعرضوا لها كان معنى هذا أن يأخذوا بالطريق الموصلة إليها حقيقة ، المرضية لربهم . وقد بين الإسلام أن الأمر الذى تنال به الشفاعة لا يعدو جملة الإسلام : أقواله وأفعاله واعتقاداته ، وأن السبيل المفضية بسالكها إليها لا تكون إلا سبيل رسول الله عليه السلام وما جاء به من الهدى والدين والنور . وقد علم أمته أنها لن تنال الشفاعة إلا بالاخلاص والتوحيد وقول : لا إله إلا الله اخلاصاً و إيمانا ، و إلا بالطاعات و بالصلاة والسلام عليه ، و بسؤال الله الوسيلة والفضيلة له كما فى الأحاديث السابقة . وهذا لأن الجزاء من جنس العمل . فمن سأل الله لنبيه عليه السلام سأل النبى له ، ومن شفع له وسأل ربه من أجله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود شفع هو له عند ربه وسأله له النجاة والغفران والصفح الجميل . فالذى يشفع للنبى يشفع له النبى جزاء وفاقاً ، لأن الجزاء من جنس العمل .

معنى الاستشفاع وبماذا تنال الشفاعة

فالمسلمون ينالون شفاعة نبيهم وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة والصالحين بطاعة الله وطاعة رسله وأنبيائه . فالاستشفاع بهم فى لسان الشرع ولسان أهله لا يعدو الاتيان بالاعمال والأقوال التى يرضاها الله و يشفع أنبياءه ورسله فى صاحبها ، الآتى بها. فقول الامام مالك هنا : « واستشفع به فيشفعك الله » معناه اعمل الأعمال التى تستحق بها الشفاعة ، وهى أن تطيعه وتعظمه وتوقره وتصلى وتسلم عليه ،وتسأل ربك له الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود. وهذا هو ما يجعل العبد من أهل الشفاعة ، لا الاستشفاع به ﷺ ، ولا استغاثته ولا سؤاله ، ولا إثقاله بالمطالب والحاجات المختلفة . . . فان هذه الأمور كلها لا ينيل

شىء منها الشفاعة ولا الكرامة ، بل هى من الأمور المبعدة عن الله وعن رسوله : ولهذا يقول ﷺ : « فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » ويقول : « من قال آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود حلت له شفاعتى يوم القيامة » .ولم يقل : « من سألنى الشفاعة فى قبرى أو فى حياتى حلت له شفاعتى » بل قال : من دعا الله لى وسأله من أجلى الوسيلة والفضيلة شفعت له . فهو ﷺ يطلب من المسلمين المؤمنين به أن يدعوا الله وان يشفعوا له ، لا أن يدعوه نفسه ويسألوه فانه ﷺ مثلهم فى باب الفقر الى الله والاحتياج الى ما عنده ، وفى العجز عن الضر والنفع . والأمر فى غاية الوضوح والظهور .

تخريج قريب لكلام مالك

وأما استشهاده بقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية فهو إذا صح عنه ليس دالا على قول المخالفين . وذلك أن المنصور حينما جادل مالكا كان فى المدينة فى المسجد النبوى كما فى الحكاية . ونحن لا ننازع أن من كان فى مسجد النبى عليه السلام كان مستحبا له أن يأتى الحجرة وأن يصلى ويسلم على رسول الله ويدعو لصاحبيه : أبى بكر وعمر . وإنما نمنع أن يسافر لأجل ذلك قصدا وعمدا . والحكاية لم تدل على أن المنصور كان قد سافر لأجل الزيارة المجردة . وإنما تدل ـ إذا صحت ـ على أن مالكا قد طلب إليه وهو فى مسجد النبى أن يأتى القبر وأن يصلى ويسلم عليه ، غير أنه لم يطلب إليه أن يسافر إلى القبر لمجرد زيارته . وهذا هو ما نمنعه وما يجيزه المخالفون والرواية لا تؤيد مذهب المخالفين يقينا . ولعل الإمام مالكا كان يذهب إلى أن الآية ترغيب لأهل المدينة أنفسهم وحدهم ولمن كان فيها من غير أهلها ـ دون غيرهم ـ فى أن يأتوا النبى حيا ويأتوا قبره ميتا وإن كان يمنع السفر مطلقا لزيارة القبور عامة كما تقدم لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث . ومالك رضى الله عنه يفرق بين الزيارة بسفر وبين الزيارة

بدون سفر ، فيمنع السفر لأجلها كما سبق ، و يستحبها لمن قدم من السفر سواء
أكان القادم من أهل المدينة أم من الغرباء . والمنصور حينما أمره مالك باتيان
القبر كان قد قدم من السفر . فاتيانه القبر موافق لمذهب مالك الذى رواه عنه
جلة أصحابه . ومالك يعلم أن هذه الآية قد نزلت فى جماعة من أهل المدينة كانوا
قد أبوا إتيان رسول الله وقد دعوا إليه بعد أن ظلموا أنفسهم وأساءوا إليه عليه
السلام بنفاقهم وضلالهم وتحاكمهم إلى الطاغوت وتأبيهم حكمه وحكم الله . فهى
ليست دعوة للناس كافة إلى اتيان النبى واتيان قبره .

فالحكاية لو صحت لم تدل على ما يذهب إليه المخالفون . والحمد لله رب العالمين.

توسل الشافعى بآل النبى

﴿ الشبهة السادسة عشرة ـ توسل الشافعى بآل النبى ﴾

وأما قول الرافضى : إن الامام الشافعى قد توسل بآل البيت النبوى وقال :

آل النبى ذريعتى * وهم إليه وسيلتى
أرجو بهم أعطى غدا * بيدى اليمين صحيفتى

فالجواب أن نطالبهم أولا بصحة سند هذا الشعر إلى الشافعى رضى الله عنه .
فإنه ليس كل ما عزى إلى الشافعى أو إلى غيره من الأئمة يكون صحيحاً . ونقل
الهيتمى له فى كتاب « الصواعق المحرقة » أو غيره لا يكفى فى إثباته وثبوته.
وتصحيحه . فعلى المحتج به أن يذكر سنده إلى قائله رضى الله عنه . ونحن لا نعرف
له سندا ، ولا نعرف أن أحدا من أهل العلم والبصر بالمنقول ذكره عن الشافعى.
وأقل ما يطالب به المحتج بالشئ أن يقيم الدليل على صحته وثبوته أو أن يورد له
إسناداً يستطاع اختباره والتنقيب عنه .

ونحن لا نشك فى بطلان نسبة هذا الشعر إلى الامام الشافعى ، والشافعى
أجل من أن يقول مثله : فإنه شعر ركيك هالك ، سخيف بارد ، لا يليق بأمثال
الشافعى ، العربى القح الفحل ، البارع فى معرفة كلام العرب وفنونه بنشأته.

و بعوله و بعلمه وثقافته . و إنما يليق بجهلاء الفقهاء الذين لم يأخذوا من الأدب ، ولا من لسان العرب ، بسبب ولا ببعض سبب .

معنى هذا الشعر لو صح عن الشافعي

ثم يقال ثانيا : لو صح هذا الشعر ما دل على ما ذهبوا إليه . فإنه ليس فيه استغاثة بغير الله من الأموات ، ولا دعاء ولا طلب ولا سؤال . . . و إنما فيه الزعم أن آل النبي ذريعة ووسيلة إلى الله . والذريعة هي الوسيلة . والوسيلة قد تقدم الكلام عليها ، وتقدم أنها لا تعدو ما يتقرب به إلى الشيء ، فالوسيلة إلى الله لاتعدو مايتقرب به وما يقرب إليه تعالى . . فآل النبي ـ على مافي هذا الشعر ـ ذريعة ووسيلة إلى الله ، بمعنى أن المسلم يتقرب بهم إلى ربه ، أي يتوسل ويتذرع . ولكن ما معنى تقرب المسلم إلى ربه بآل النبي؟ يصح أن يراد التقرب بحبهم وولائهم واحترامهم والعطف عليهم والدعاء لهم إذا كانوا صالحين طيبين . . . ولا يصح أن يراد بذلك دعاؤهم ولا سؤالهم ولا استجداؤهم ولا العكوف على قبورهم لأن هذا كله ليس من الموالاة ، ولا من الاحترام والتعظيم لهم . والنبي ﷺ كان يسأل لهم الاحترام والتقدير والإجلال الصادق الصحيح . ولم يكن يأمر بأن يسألوا و يدعوا ويطلبوا . . . والشيعة تزعم أن الله يأمر بإعطائهم وبرهم والإحسان إليهم بأمثال قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه » وقوله : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » وقوله : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى » . . . فالله يأمر بالإحسان إليهم وبإعطائهم حقوقهم وبالبر بهم وبحبهم وموالاتهم لقرابتهم من رسول الله وانحدارهم من صلبه الشريف الطاهر إذا صلحوا وطابوا أنفساً وأعمالا وعقائد وأخلاقا ، وإلا فرسول الله نفسه يكون أول من يبرأ منهم ومن يكرههم ويتجافى عنهم طاعة لله وغيرة لدينه ولحقه .

. . . فمن قال من أهل الفقه والعلم والبصر بالدين : إن آل النبي وسيلة أو ذريعة

إلى الله كان مراده التقرب إلى الله بولائهم وحبهم والإخلاص لهم والدعاء من أجلهم كما فى تشهد الصلاة ، وإعطائهم حقوقهم التى فرضها الله لهم . ولا يصح أن يراد بمثل هذا القول دعاؤهم ولا الاستغاثة بهم ولا مخالفة أمر الله فيهم .

وقوله : « أرجو بهم أعطى غداً » يوضح ما ذكرناه ويقويه . فانه يريد « بغد » يوم القيامة . فمعنى هذا الشعر : أنى أحب آل النبى وأوالهم وأعظمهم رجاء أن ينفعنى الله بشئ من ذلك يوم القيامة ، ورجاء أن أكون من أصحاب اليمين . فهو بهذا الشعر لم يطلب ولم يرد منهم شيئاً . وإنما رجا أن يعطى بهم يوم القيامة صحيفته ـ وهى كتابه ـ بيمينه . ولفظة « بهم » هذه يراد بها بحبهم والاحسان إليهم والاحترام لهم لقرابتهم لرسول الله . ولهذا لم يقل : « أرجو أن يعطونى غداً صحيفتى بيمينى » ولا نحواً من ذلك . وإنما رجا الله وحده ـ شأن كل مسلم مؤمن بالله . فلا شئ فى هذا القول مما يذهبون إليه ، لو كان صحيحاً ، وهو غير صحيح

﴿ حديث الاستسقاء بالعباس ﴾

الكلام على حديث الاستسقاء بالعباس

وبقى من حجج المخالفين فى هذا الباب حديث الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب . وذلك ما رواه البخارى فى الصحيح عن أنس بن مالك أن عمر ابن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ». قال : فيسقون

قال المخالفون : وهذا الحديث يدل على جواز التوسل بالصالحين إلى الله ..

والتوسل عندهم يشمل كل هاتيك المنكرات الفاشية فوق القبور . وقد احتجوا لذلك كله بهذا الحديث . ثم قالوا : ولا فرق بين الأحياء والأموات . فاذا جاز التوسل بالأحياء جاز كذلك بالأموات ، ولا فرق ، لأن المجيز للتوسل والحامل

عليه هو الصلاح والكرامة على الله . والصالحون لهم صلاحهم وكراماتهم عند ربهم أحياء وأمواتاً .

الحديث لا يدل على اقوال المخالفين

والجواب عن هذا الخبر فى مقامين : المقام الأول فى عدم دلالته على مازعموا . والمقام الثانى فى دلالته على خلاف مازعموا . أما المقام الأول وهو التدليل على أن الحديث لا يؤيد شيئاً مما يزعمون ويذكرون ، فنقول : لاخلاف بين الناس فى أن العباس حينما استسقى به عمر كان حياً . وهذا لم ينازع فيه أحد من المخالفين ولا من غيرهم . فهو من التوسل بالحى ، أى من الاستشفاع به. ونحن لم ننازع قط فى جواز الاستشفاع بالأحياء وجواز التوسل الشرعى بهم ، بل لم ينازع أحد من المسلمين فى جواز طلب المخلوق ما يقدر عليه بالجملة ، ولا فى الاستغاثة به على ما يستطيعه عادة . بل هذا عندنا واجب أحياناً . والاستشفاع بالحى — وكذلك التوسل — مما يجوز ويشرع ، لأن الحى يقدر أن يشفع لمن استشفع به ، ويقدر أن ينفعه بعض النفع ، ويقدر أن يسمعه ، وأن يعلم حاله وسؤاله . فالتوسل بالعباس فى هذا الحديث هو من الاستشفاع بالحى ، والاستشفاع بالحى لا خلاف فى جوازه .

فقول عمر : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا . . . وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . . . معناه : اللهم إنا كنا نستشفع إليك بنبينا حينما كان حياً ، وإننا اليوم نستشفع إليك بالعباس عم نبيك . . . فالتوسل هنا هو الاستشفاع ، والاستشفاع هنا هو الاستسقاء . ويدل على هذا أمور كثيرة .

الدلائل على ان التوسل هنا هو طلب الدعاء

منها قول أنس : إن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس . وقد فسر هذا الاستسقاء بأنه كان يقول : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . فذكر الاستسقاء أولاً ثم ذكر التوسل ثانياً ، وأحد اللفظين يفسر الآخر ، فالتوسل فى اللفظ الأخير هو الاستسقاء فى اللفظ الأول ، فهذا تفسير لهذا ، فهما بمعنى واحد . والاستسقاء

معناه طلب السقيا . فهم إذن طالبون من العباس ، أى مستشفعون .

ومنها أن التوسل فى هذا الحديث مذكور بالنبى عليه الصلاة والسلام و بالعباس فالتوسل بهما فى معنًى واحد . ولاشك أن التوسل بالنبى هنا معناه طلب الاستسقاء منه . وقد جاء هذا مفسراً فى الأحاديث الأخرى الكثيرة الصحاح ، فجاء فى غير ما حديث أن الناس كانوا حين الجدب يأتون رسول الله عليه السلام و يطلبون منه أن يستسقى لهم ، و يقولون : يارسول الله ادع الله أن يغيثنا . فيرفع يديه و يدعو لهم فيسقون ، فاذا كثر المطر طلبوا إليه أن يدعو الله بأن يمسكه وقالوا : ادع الله أن يمسك السماء فيدعو . وقد كان ﷺ إذا استسقوا به يستسقى لهم و يدعو بلا صلاة ، وأحياناً يأمرهم بالخروج إلى الصحراء والخلاء ، فيصلى بهم صلاة الاستسقاء و يستسقى و يدعو مع الصلاة . وهذا كله معروف مذكور فى الأحاديث الصحيحة . فالتوسل بالنبى عليه السلام فى هذا الحديث معناه الاستشفاع والاستسقاء المفسر فى غيره من الأخبار . ومثله التوسل بالعباس بلا ريب ، فانهما مذكوران فى حديث واحد . . . فاذا علم أن التوسل بالنبى معناه طلب الدعاء منه علم أن التوسل بالعباس مثله هو طلب الدعاء منه .

ومنها أن هذا قد جاء مفسراً فى بعض الروايات . قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : وقد روى عبد الرزاق من حديث ابن عباس أن عمر استسقى بالمصلى فقال للعباس : قم فاستسق ، فقام العباس . قال : وقد بين الزبير بن بكار فى الأنساب صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة والوقت الذى وقع فيه ، فأخرج باسنادٍ له أن العباس لما استسقى به عمر قال : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث . وأخرج من طريق داود عن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال : استسقى عمر بن

الخطاب عام الرمادة بالعباس فخطب الناس فقال : إن رسول الله كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد . فاقتدوا أيها الناس برسول الله فى عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله . هذا كله كلام الحافظ ابن حجر . ثم قال فى الفتح بعد هذا : «ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير وأهل بيت النبوة ، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه» . وقال الشيخ المحب الطبرى فى كتابه « ذخائر العقبى » من فصل « ذكر استسقاء الصحابة بالعباس »: «قال أبو عمر: أجدبت الأرض على عهد عمر إجداباً شديداً سنة سبع عشرة ، فقال كعب : ياأمير المؤمنين إن بنى إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة أنبيائهم . فقال عمر : هذا عم النبى ﷺ وصنو أبيه ، وسيد بنى هاشم . فمشى إليه عمر ، فشكا إليه ما فيه الناس ، ثم صعد المنبر ومعه العباس وقال : اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا صنو أبيه ، فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين . قال عمر : قم ياأبا الفضل فادفع (كذا فى النسخة المطبوعة . ولعل الصواب « فادع ») فقام العباس وقال بعد حمد الله وثنائه عليه : اللهم إن عندك سحاباً ، وعندك ماء، فانشر السحاب، وأنزل الماء منه علينا ، واشدد به الاصل وأطل به الزرع ، وأدر به الضرع. اللهم إنك لم تنزل بلاء إلا بذنب ، ولم تكشفه إلا بتوبة . وقد توجه القوم بى إليك . فاسقنا الغيث . اللهم شفعنا فى أنفسنا وأهلنا . اللهم إنا شفعنا عما لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا . اللهم اسقنا سقياً نافعاً طبقاً ، سحاً ، عاماً . اللهم لا نرجو إلا إياك ، ولا ندعو غيرك ، ولا نرغب إلا إليك. اللهم إنا نشكو إليك جوع كل جائع ، وعرى كل عار، وخوف كل خائف وضعف كل ضعيف . . . فى دعاء طويل . وكل هذه الألفاظ لم تجئ فى حديث واحد ، وإنما فى أحاديث متفرقة ، جمعت واختصرت . وفى بعض الطرق : فسقوا والحمد لله . وفى بعضها : فأرخت السماء عزاليها ، فجاءت بأمثال الجبال حتى

روايات الحديث وما دعا به العباس

استوت الحفر والآكام واخضرت الأرض وعاش الناس . فقال عمر : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه . وعن ابن عمر قال : استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس ، وقال : اللهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه به إليك فاسقنا . فما برحوا حتى سقاهم الله . أخرجه إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي . . . قال أبو عمر : وروينا من وجوه عن عمر أنه خرج يستسقي ، وخرج معه العباس ، فقال : اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ونستسقي به ، فاحفظ فيه نبيك كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما ، وأتيناك مستغفرين ومستشفعين . ثم أقبل على الناس وقال : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا » إلى قوله : « ويجعل لكم أنهاراً » . ثم قام العباس وعيناه تنضحان ، ثم قال : اللهم أنت الراعي ، لاتهمل الضالة . ولا تدع الكسير بدار مضيعة ، فقد تضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، أغثنا بغياثك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فانه لاييئس من روح الله إلا القوم الكافرون . فنشأت طريرة (سحابة صغيرة) من سحاب . فقال الناس : ترون ، ترون . ثم تلاءمت ثم هرت ودرت . . . » . ذكر هذا كله صاحب « ذخائر العقبى » . وألفاظ هذه الروايات بينة في مانقول . وقول العباس : « اللهم لانرجو إلا إياك ، ولا ندعو غيرك ، ولانرغب إلا إليك . . . » رد على هؤلاء دعاءهم الأموات ، ورجاءهم المخلوقين ، ورغبتهم إلى الأجداث .

دلائل اخرى على ان الذى في الحديث استشفاء بالاحياء

فالمسألة إذن مسألة استشفاع لاغير . ولذلك قال الفقهاء والعلماء : إنه يستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والخير والدين ، مستدلين بهذا الحديث لأنهم لا يفهمون منه إلا أنه استسقاء واستشفاع . وهم يسمون هذا الحديث « حديث الاستسقاء بالعباس » . وهذا لايختلف الناس فيه . وقد قال شاعر العباسيين : أبو عبادة البحتري في امتداح أحد خلفاء بني العباس ـ مشيراً إلى هذا الحديث :

إن الفضيلة للذى استسقى به * عمر ، وشفع إذ غدا يستشفع

فالشاعر نفسه يعلم أن المسألة مسألة استشفاع وطلب دعاء ، لا كما يظن هؤلاء المخالفون . فالعلماء والشعراء ، وكل الناس لايفهمون من التوسل بالعباس فى هذا الحديث إلا أنه استسقاء واستشفاع ، ولايفهمون إلا أن عمر طلب من العباس أن يدعو للناس وأن يستسقى من أجلهم ، ويسأل ربه إنزال الغيث والمطر كما كانوا يسألون رسول الله ذلك حينما كان حيا إذا أجدبوا واحتاجوا إلى المطر .

وقد جاء هذا مفسراً فى بعض طرق حديث أنس . قال فى فتح البارى : وحديث أنس عن عمر جاء عند الاسماعيلى من رواية محمد بن المثنى عن الأنصارى باسناد البخارى إلى أنس ، قال : كانوا إذا قحطوا على عهد النبى استسقوا به فيستسقى لهم فيسقون ، فلما كان فى إمارة عمر ... وذكر الحديث . وهذا صريح فى الاستسقاء : والاستسقاء هو الشفاعة والدعاء .

والذى يوضح هذا جيدا أن الراوى للحديث ، وهو أنس بن مالك ، قد سمى هذا التوسل استسقاء فقال : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس . والاستسقاء بالاجماع ليس له معنى إلا طلب السقيا . فهذا نص لا يتقبل الخلاف والجدال . وقوله فيه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك . . . الحديث تفصيل للاستسقاء المذكور . و « الفاء » تفصيلية تفسيرية .

ومن الدلائل على ما ذكرناه أن التوسل هنا لو لم يكن هو الاستشفاع وطلب الدعاء لما عدلوا عن النبى عليه الصلاة والسلام إلى العباس . فلو كان التوسل هو مايعنيه هؤلاء القوم من السؤال بالذات والجاه والحق – وإن لم يكن هناك دعاء ولا شفاعة من المسئول به – لما عدلوا عن النبى إلى سواه ، بل لتوسلوا بجاهه وبذاته وبحقه وإن كان عليه الصلاة والسلام فى الملأ الأعلى عند ربه ، وإن كان لايعلم من أمر من توسلوا به شيئاً ، لأن التوسل حينئذ بالذات والجاه والحرمة . وهذه الأمور ثابتة للنبى عليه الصلاة والسلام حيا وميتاً سواء أدعا أم لم يدع ، وسواء

أعلم أم لم يعلم . ولكن عدول الخليفة عمر بن الخطاب وغيره من الأصحاب عن التوسل بالنبي بعد وفاته دليل ظاهر على أن مرادهم بالتوسل الاستشفاع وطلب الدعاء . وهم لا يعلمون أن الميت يستشفع به ويطلب منه الدعاء .

دليل آخر جاسم باهر

ومن الدلائل أيضاً أن قول عمر فى الحديث : « وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » . إما أن يراد به التوسل بذات العباس أو بما فيه من معانى الإيمان والإسلام والصلاح والتقوى ، أو يراد به التوسل بدعائه وشفاعته . . . أما التوسل بالذات المجردة فلا يمكن أن يراد لأنه لا معنى له . وذات العباس المجردة من معانيها وإيمانها وإسلامها وخلائقها لا فرق بينها حينئذ وبين سائر الذوات المجردة . وأما التوسل بما فى ذات العباس من معانى الإيمان والإسلام والصلاح والتقوى فلا يمكن أن يراد أيضاً ، لأن التوسل إلى الله بإيمان العباس وإسلامه وصلاحه ودينه ليس سبباً من أسباب قبول الله دعوتك ورضاه عنك وإجابته لك . لأن صلاح المرء ودينه ومعانيه الفاضلة الطيبة خاصة به وحده . ولا فرق بين أن تقول لمن تتوسل إليه : أسألك بصلاح الناس وبدينهم وفضائلهم وتقواهم ، وبين أن تقول أسألك بجمال الشمس والقمر وبعلوهما وإشراقهما ، وبنفاسة الذهب والفضة واللؤلؤ ، وبكل ما فى المخلوقات من جمال وجلال . . . فالسؤال بكلا الأمرين لا يقتضى أن تجاب ، والتوسل إلى حاجتك بهذا وبهذا باطل جاهل . وقولك : أسألك يارب بدين العباس ، وبصلاح فلان من الناس ، مثل أن تقول : أسألك يارب بجمال الشمس ، وإشراق النهار ، وهدوء الليل ، وروعة الظلام ، وبكل ما فى خلقك يا رب من جمال وجلال وروعة ، وبكل ما فيه من معان وحكم وعبر وأسرار . . . كلاهما جميل فى نفسه ، رفيع فى قدره ، رائع حسن . ولكن هذا لا يقضى لك بأن تتوسل بهما ، ولا يقضى لك بأن تجاب وتعطى إذا توسلت بهما . ولهذا لم يسأل أحد من أهل العلم والمعرفة بنحو الكعبة والمسجد الحرام والأماكن

المقدسة المفضلة ، ولا بالجنة ولا بالشمس ولا بالقمر ، ولا بغير ذلك من مخلوقات الله الباهرة الكبرى ، الجامعة بين الجلال والجمال وعظمة القدر والشأن . وهذا لأنهم يعلمون أن شرف الشيء وجلاله وجماله وحسنه لا يسوغ أن يسأل به ، وأن يتوسل إلى الحاجات بذكره مع ذكرها ، أى ذكر الحاجات . فالتوسل بصلاح العباس لا يصح أن يراد هنا . وأما التوسل بشفاعته ودعائه فهو الذى يجب أن يراد بالخبر ، وهو الذى لا معدى عنه . وذلك أن التوسل بالدعاء والشفاعة من أسباب الاجابة ، لأن الله سبحانه يجيب دعوة عبده سواء أدعاه بلسانه أم بلسان غيره ، وسواء أدعاه لنفسه أم لأخيه . فالمسلمون إذا طلبوا من العباس أو غيره من أهل الصلاح والدين أن يدعو الله لهم وأن يسقيهم الغيث فقد توسلوا إلى الله و إلى حاجاتهم بسبب صحيح ظاهر وهو شفاعة من استشفعوا به من أهل الصلاح والدين والخير ، لأن الله يقول فى الكتاب : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » وقال : « و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » و يقول : « أم من يجيب المضطر إذا دعاه . . . » الآية إلى غير ذلك من الآيات الواعدة للداعين المتقين بالاجابة والقبول كما قال تعالى « إنما يتقبل الله من المتقين » . ولهذا جاء فى غير ما آية وغير ما حديث أنهم كانوا يطلبون من أنبيائهم أن يدعوا الله لهم وأن يشفعوا من أجلهم . وجاء فى غير ما نص الترغيب فى طلب الدعوة والشفاعة من المؤمنين الصالحين الأبرار. ولم يأت عن أحد منهم التوسل والسؤال بالذوات المجردة و بالجاهات . وهذا كله معروف معلوم . فالتوسل بدعاء العباس و بدعاء الصالحين توسل صحيح عقلا وشرعاً . فعمر وغيره من الصحابة لا يمكن أن يكون توسلهم بغير دعاء العباس وشفاعته . وقد تقدم بيان لهذا فى الكلام على حديث الأعمى وحديث سؤال آدم ربه بحق محمد صلى الله عليهما وسلم . فليراجع .

المقام الثانى
دلالة الحديث
على خلاف قولهم

وأما المقام الثانى ـ وهو التدليل على أن الخبر يدل على خلاف ما ذهبوا إليه — فيقال : لا ريب أن عمر بن الخطاب وغيره من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام لم يعدلوا عن التوسل بالنبى إلى التوسل بالعباس إلا لسبب وجيه صحيح ، اقتضاهم أن يتركوا صفوة خلق الله ، وأقربهم إليه وسيلة ومكانا ، ومكانة ، صادفين إلى غيره من أصحابه وأتباعه ، قائلين : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . فاسقنا . وقد بين هذا الخبر أنهم كانوا حين القحط فى حياة النبى لا يعدلون عنه عليه الصلاة والسلام ، ولا عن التوسل به إلى التوسل بسواه . فدل ذلك على أنهم كانوا فى حياة رسول الله لا يتوسلون بغيره مطلقاً عند الاستسقاء ، وعلى أنهم بعد ذلك — أعنى بعد موته ـ ما كانوا يتوسلون به مطلقاً ، بل يتوسلون بغيره كالعباس بن عبد المطلب وكغيره . وقول أنس فى الرواية : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس يدل على تكرر ذلك وتعدده ، وعلى أنه لم يكن مرة واحدة فحسب .وقول عمر : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا . . . يدل على تكرر توسلهم به عليه الصلاة والسلام ، وعلى أن ذلك كان شأناً لهم وعادة . ومن مجموع الحديث يؤخذ أنهم كانوا لا يتوسلون بغير النبى فى حياته عند القحط ، ولايتوسلون إلا بغيره بعد مماته حين ذلك . ولاشك أنه لابد من سبب صحيح وجيه فى عدولهم عن النبى إلى غيره بعد أن كانوا لا يتوسلون إلا به ، وبعد أن كانوا يتوسلون به ويسألون فيهبهم الله ما يسألون وما يطلبون . فما السبب فى هذا ؟ وما الحامل لهم عليه ؟ وما الصارف لأصحاب النبى عن نبيهم بعد أن كانوا لا ينصرفون عنه ولا يتوسلون بسواه ؟

جواب الرافضى
عن هـذا

وقد أجاب الرافضى عن هـذا السؤال بقوله : « إنا نقول : لا يلزم على الإنسان دائماً توخى الأقرب إلى الاجابة فى التوسل والدعاء ، كما لا يلزم توخى

الأفضل فى العبادة ، بل له أن يختار ما يشاء . و يدل عـلى ذلك أن النبى طلب الدعاء من عمر ولم يطلبه من أبى بكر الذى هو أفضل من عمر . وأنه أمر عمر أن يطلب الاستغفار لنفسه من أويس . فلم لم يأمره أن يطلبه من أبى بكر الذى هو أفضل من أويس ، بل من النبى الذى هو أفضل الـكل . عـلى أن قول عمر : إنا نتوسل إليك بعم نبينا لايخرج عن التوسل بالنبى ، أى نتوسل بمن له عندك حرمة لـكونه عم نبينا المقرب عنـدك ، كما تقول لغيرك : أتوسل إليك بقرابة الملك أو بمرضعة ابنك أو بصهر أخيك أو نحو ذلك . ولذلك لم يقل : نتوسـل إليك بالعباس . وهذا كما فى قوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن » . ولم يقل على الوالد ، قصداً لبيان العلة فى ثبوت ذلك عليه وهى أن الولد له . و يرشد إلى ذلك قول العباس : وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك . وفى خـلاصة الكلام : و إنما خص عمر العباس من بين الصحابة لإظهار شرف أهـل بيت الرسول ، ولبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، فان علياً كان موجوداً وهو أفضل من العباس . . . » .

فساد هذا الجواب بوجوه كثيرة قوية

هذا كله كلام الرافضى فى جواب السؤال وهو جواب باطل يقيناً ، و يعرف بطلانه بأمرين : مجمل ومفصل . أما المجمل فهو أننا نعرف بالبداهة والضرورة أن جماعة من الناس لو أصابهم القحط الشديد ، وأرادوا أن يستسقوا بأحدهم لما أمكن أن يعدلوا عمن دعاؤه أقرب إلى الاجابة و إلى رحمة الله . ولو أن إنساناً أصيب بمكروه فادح ، وكان أمامه نبى ، وآخر غير نبى ، وأراد أن يطلب الدعاء من أحدهما لما طلبه إلا من النبى ، ولو طلبه من غير النبى وترك النبى لعد من الآثمين الجاهلين . ولو كان أمام أحدنا أبو بكر الصديق و رسول الله ، وأراد أن يستشفع برسول الله أو بأبى بكر الصديق لما أمكن أن يستشفع بأبى بكر ويترك النبى . أو لو كان أمامنا عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ، وكان ممكناً أن نطلب الدعاء من أحدهما

لما أمكن أن نطلبه من معاوية ونترك عمر . ولو فعل ذلك مسلم لكان جاهلا ملوماً . ولو أن أحد أصحاب النبي أتى النبي فى جماعة من فضلاء أصحابه لما أمكن أن يستفتى أحدهم ، وأن يستشفع به ويترك النبي ، لا يستفتيه ولا يستشفع به ، كما لا يمكن أن يقدموا واحداً منهم لإمامة الصلاة مع وجوده عليه السلام .

ويدل على بطلان هذا الجواب الذى ذكره الشيعي أن رسول الله لو كان موجوداً يوم أن استسقى عمر بالعباس لما أمكن أن يترك النبي وأن يستسقى بالعباس ، وأن المسلمين لا يمكن أن يريدوا صلاة الاستسقاء فى حياة نبيهم ووجوده بين أظهرهم ، فيخرجوا للصلاة ويستسقوا بواحد منهم ويأتموا به ، ويتركوا رسولهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لكانوا عين الضلال الجهلاء . وهذا كله يرد جواب الرافضى ردا لا حيلة له فيه . فالمسلمون ، مجتمعين ، لا يمكن أن يستشفعوا بغير النبي فى مثل صلاة الاستسقاء ودعائه ويتركوا نبيهم مع وجوده بين أظهرهم ومع إمكان أن يستشفعوا به . ولهذا لم يأتموا بغيره فى حياته عليه الصلاة والسلام لا فى صلاة الاستسقاء ودعائه ، ولا فى سائر الصلوات مع وجوده معهم . وقد ذهب ﷺ مرة ليصلح بين جماعتين من الأنصار تنازعتا ، فحانت صلاة العصر قبل أن يحضر فأذن وأقيمت الصلاة وتقدم أبو بكر الصديق إماماً بالناس ، فأتى رسول الله وهم فى الصلاة فتخلص حتى وقف فى الصف ، فرآه الناس فصفقوا بأبى بكر ليشعروه بحضور رسول الله . وكان أبو بكر لا يلتفت فى الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرأى رسول الله فأشار إليه رسول الله : أن امكث مكانك ، فتأخر أبو بكر عن مكان الامامة حتى وقف فى الصف فتقدم النبي عليه الصلاة والسلام فصلى بالناس . فلما سلم قال لأبى بكر : « ما منعك أن تثبت إذ أمرتك ؟ » فقال أبو بكر : ما كان لابن أبى قحافة أن يصلى بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام . وقد تقدم مرة لإمامة الصلاة أبو بكر أيضاً فى مرض النبي بأمره ،

لا يمكن الائتمام بغير رسول الله مع وجوده

فوجد النبي فى نفسه قوة فخرج بين رجلين من أصحابه إلى الصلاة حيث يصلى الناس ، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأشار إليه رسول الله : أن مكانك ، فأتيا به عليه السلام حتى أجلساه عن يسار أبى بكر . فكان أبو بكر يصلى قائماً ورسول الله يصلى قاعداً . وكان رسول يصلى بالناس وأبو بكر يسمعهم التكبير . . .

والحديث متفق عليه . فقد كان عليه السلام يؤم الناس وهو مريض ، يصلى قاعداً ويصلون معه مؤتمين به . ولا يتقدم أحد منهم لإمامة الناس فى حضوره. فمن الباطل والمحال أن يستسقى عمر وغيره من الأنصار والمهاجرين بالعباس أو بغيره من المسلمين مع وجود رسول الله . وأبطل من ذلك أن يتكرر استسقاؤهم بالعباس ثم لا يجئ أنهم استسقوا برسول الله مرة واحدة . والعاقل والمسلم لا يمكن أن يعدلا عن الأفضل الأكمل الأقرب إلى نيل المطلوب وإدراك الحاجة ، ويأخذا بغيره إلا لسبب صحيح وجيه ظاهر عندهما . وإلا فانه إذا كان أمامى أمران أحدهما أفضل من الآخر وأكمل لم يمكن أبداً أن آخذ بالمفضول الناقص وأدع الفاضل الكامل بلا سبب . والذى يفعل ذلك لا يكون عاقلا يقينا . وعلماء الكلام والفلسفة يقولون : إنه لا يمكن ترجيح أحد الأمرين المتساويين إلا بمرجح ، فكيف بترجيح المرجوح المفضول الناقص على الراجح الفاضل الكامل ؟ ومن خير بين مالين أو منصبين أو شرفين أو شيئين لم يمكن أن يختار أنقصهما ويدع أفضلهما وأكملهما بلا سبب إلا أن يكون غير عاقل .

لا يمكن ترجيح المفضول على الفاضل

نعم ، قد يختار كثيرون من الناس النقص والشر والباطل والضلال على الكمال والخير والحق والهدى ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً من ذلك بلا سبب بل يفعلونه لسبب قهار غلاب ، تضعف عزائمهم وإنسانيتهم أو حيوانيتهم أمامه ، فيقعون بين يديه صرعى ، لا يستطيعون معه عزماً ، ولا قوة ولا رجولة. وهذا السبب هو الضعف البشرى الحيوانى ، أوالشهوة ، أوالجهل ، أو غيرذلك مما يقهرالانسان

كثيراً ويضطره إلى الأخذ بالنقص والجهل والغباوة والشر . وهذا لا يمكن أن ينازع فيه منازع . والمسلم لا يمكن أن يترك أبداً فاضل الأعمال ويأخذ بمفضولها بدون ماسبب بل لمجرد الرغبة فى النقصان ، والرغبة عن الكمال ، والانحطاط نحو الشر والباطل والضلال . فما السبب إذن فى عدول الصحابة عن التوسل برسول الله إلى التوسل بالعباس إذا كان ممكناً التوسل بالاثنين ، وكان المخالف معترفا بأن التوسل بالنبى أفضل وأكمل ، وأقرب إلى الاجابة والقبول من التوسل بالعباس وبسائر الناس . والصحابة لا يمكن أن يعدلوا عن الأكمل الأفضل لمجرد اتباع الهوى ، واتباع الباطل ، ولا يمكن أن يأخذوا بالسبب الضعيف ويتركوا السبب القوى لغير ماداع ولا اختيار ، ولا يمكن ان يصدفوا عن الدعاء الأقرب الى الإجابة وإلى إدراك الحاجة ، آخذين بالأبعد عن الاجابة وعن إدراك الحاجة . . هذا هو السؤال وهو لا بد له من جواب فما جوابه ؟

نحن نقول : ان السبب هو أن رسول الله بعد مماته لا يصح الاستشفاع به ولا طلب الدعاء منه ، ولا التوسل به . لهذا مالوا عنه إلى من يمكن ذلك منه ، وإلا لما مالوا عنه إلى سواه ألبتة . والمخالفون لا يذكرون من جواب سوى قولهم : إنه لا يلزم توخى الأفضل ، ولا الأخذ بالأكمل الأقرب إلى الاجابة . ولكن هذا جواب سطحى ، ينفيه التحقيق ، ويبطله الإمعان فى البحث والفهم ، ويذيبه المنطق الصائب ، وتزلزله الحجة الصحيحة . فما الجواب إذن ؟

الجواب عن طلب النبى الدعاء من عمر دون أبى بكر

أما ماذكره الشيعى من التدليل على أن المسلم قد يأخذ بالمفضول ويترك الفاضل فالجواب عنه — وهو الجواب المفصل — أن نقول : أما طلب النبى الدعاء من عمر دون أبى بكر وهو أفضل منه فانما كان ذلك عندما خرج عمر بن الخطاب معتمراً فقال له رسول الله : « لا تنسنا يا أخى من دعائك » إن كان الحديث

صحيحاً . فطلب النبي الدعاء من عمر لأنه خرج معتمراً قادماً على بيت الله . ودعوة المعتمر في جوف بيت الله قد تكون أفضل وأقرب إلى الاجابة والقبول من دعوة غير المعتمر في غير البيت وإن كان أفضل منه وأتقى لله . فدعوة عمر في عمرته في جوف بيت الله قد تكون أقرب إلى الاجابة والسماع من دعوة أبي بكر الصديق في غير العمرة في غير البيت وإن كان أبو بكر أفضل من عمر بلا خلاف ولا نزاع . وإنما يستقيم هذا الاستشهاد للرافضي لو أن أبا بكر وعمر دخلا على النبي — أو دخل عليهما — وكان في حاجة إلى دعوة صالحة من عبد صالح ، فطلب الدعاء من عمر ولم يطلبه من أبي بكر لغير ما سبب ، أو لو كانا — أبو بكر وعمر — أرادا العمرة فطلب رسول الله الدعاء من عمر دون أبي بكر . فهذا هو الذي يستقيم للرافضي الاحتجاج والتمثيل به ، ولكن مثله لن يكون .

الجواب عن حديث طلب الاستغفار من أويس

وأما أمر النبي عمر أن يطلب من أويس القرني الاستغفار إن استطاع فالسبب في هذا الأمر أن أويساً كان رجلا صالحاً مجاب الدعوة قريبها من الله . وقد قال عمر في روايته حديث أويس هذا كما في صحيح مسلم : سمعت رسول الله يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن . كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم . له والدة هو بها بر . لو أقسم على الله لأبره . فان استطعت أن يستغفر لك فافعل » . وفي رواية قال : إني سمعت رسول الله يقول : « إن خير التابعين رجل يقال له أويس . وله والدة . وكان به بياض . فروه فليستغفر لكم » . رواه مسلم في الصحيح .

فأويس هذا كان من الصالحين الأبرار الزهاد ، مجابي الدعوات ، ممن لو أقسموا على الله لأبر أقسامهم . وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله قال : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره » . وهذا لا يدفع أن يكون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وجمهور الصحابة أفضل منه . فان

الفضيلة لاتوجب التفضيل، فقد يوجد فى المفضول من الفضائل مالا يوجد فى الفاضل . والتفضيل ينظر فيه إلى المجموع . ونحن إذا قلنا : إن فلانا أفضل من فلان أو أفضل من الجميع لم نعن بهذا أنه أفضل من فلان أو من الجميع فى كل شئ ، بل نعنى أن مجموع فضائله ومناقبه الخيرة الطيبة أكثر وأشهر وأقوى من فضائل الجميع المفضل عليهم . ولاريب أن فى جمهور صحابة النبى من هو أزهد فى الدنيا وأكثر صلاة وصياماً وانقطاعا الى الآخرة وعبادة الله وصدوداً عن الدنيا وعن رئاساتها وسلطانها ممن هو أفضل منه وأعظم وأجمع للخير وللمحاسن والحسنات ، ومثل هذا يقال فى غير الصحابة . ولا نشك مثلا فى أن خالد بن الوليد أشجع وأعظم إيقاعا بأعداء الإسلام وخصوم الرسالة المحمدية ممن هو أفضل عند الله منه ،ولا نشك أيضاً فى أن أبا هريرة أحفظ لسنة والنبى لأحاديثه عليه الصلاة والسلام ممن هو أفضل منه ،ولا نشك فى أن أباذر الغفارى أزهد وأتقى وأعبد لله وأدنى إلى خشيته ممن هو أفضل منه ، ولا شك فى أن عبد الله بن مسعود أقرأ لكتاب الله ممن هو أفضل منه ، ولا فى أن عمرو بن العاص أفضل أثراً فى الاسلام ممن هو أفضل منه ، ولا فى أن أويساً هذا مجاب الدعوة أكثر ممن هو أفضل منه .

الفضائل مقسمة على الناس

والفضائل التى يهبها الله عباده مقسمة موزعة عليهم جميعاً ،لم تقدر كلها لواحد منهم ما خلا الأنبياء والمرسلين . ولكن لا ريب فى أنه قد قدر لصديق الأمة الأكبر أبى بكر العظيم من هذه الفضائل ما لم يقدر لسواه من المسلمين . ولا نرتاب مع هذا أنه قد يوجد فى جمهور الصحابة من دعاؤه أقرب إلى الاجابة من دعائه . وأويس هذا قد فضل على سواه بقرب دعوته من الاجابة والقبول لزهده فى الدنيا وهروبه منها ، وقطعه الصلات بها وبأهلها، وخلوصه لله ، وعبادته إياه . وهذا كالذى قال فيه رسول الله : « رب اشعث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم

على الله لأبره » . وليس معنى هـذا أن ذاك الأشعث الأغبر الفقير المدفوع بالأبواب وعن الأبواب ، لهوانه عـلى الناس وعـلى الدنيا ، أفضـل من أهل عصره كلهم ، الذين ليسوا مثله فى إبرار أقسامهم على ربهم وإجابة دعواتهم . فالنبى عليه الصلاة والسلام إنما حث على طلب الاستغفار والدعاء من أويس لأنه كان مجاب الدعوة يقيناً ، وإلا فلماذا حث على ذلك ! ومن فهم هـذا فهماً جيداً علم أن فيه رداً لما ذكره الشيعى ، ونقضاً على قوله : « إنه لا يلزم توخى الأفضل الأقرب إلى الاجابة من الدعاء ، ولا الأفضل من الأعمال والعبادات » . واذا كان صحيحاً لا يلزم توخى الأفضـل من الأقوال والأعمـال ، بل قد يختارُ المفضول على الفاضل ، والناقص على الكامل بلا داع ولا سبب فلما ذا رَغّبَ النبى عليه الصلاة والسلام فى طلب الدعاء من أويس وحث عليـه وقال : « مروه فليستغفر لـكم » ؟ وإننا لا نشك فى أن النبى ما رَغّبَ فى دعوة أويس واستغفاره إلا لامتياز دعائه واستغفاره على دعاء غيره واستغفاره بقرب الاجابة والقبول . وإلا لو لم يكن السبب هو هذا فلماذا خص النبى أويساً الذى لو أقسم عـلى ربه لأبر ربه قسمه بذلك دون سـواه ؟ فهذا الذى ذكره الرافضى حجـة عليه لا له .

لا يصح قياس غير النبي على النبي

أما النبى ﷺ فلا يمكن قياس غيره عليه ولا به ، فانه أفضل الخلق على وجه الإطلاق والعموم ، وعلى وجـه التقسيم والتفصيـل أيضاً : فهو أشـجعهم وأعلمهـم وأصلحهـم وأتقاهم وأقربهـم إلى الله وإلى الإجابة ، ودعاؤه أسرع الدعوات صعوداً إلى الله وإلى سمائه . ولا يمـكن أن يسوى به سواه فى وجه من الوجوه ، ولا فى فضيلة من الفضائل ، ولا فى شئ من الأشياء . وعلى هذا لا يمكن تقديم غيره عليـه فى أمر من الأمور : لا فى طلب الدعاء والشفاعـة ، ولا فى الاستفتاء ، ولا فى التعظيم والتوقير ، ولا فى الحب والاجـلال ، ولا فى أمر من

الأمور . فلماذا إذن عدل عمر ومن معه من الأصحاب عن التوسل به إلى التوسل بغيره وهم فى غاية الحاجة إلى رحمة الله ، وإلى غياثه ؟ إنه لاجواب عند المخالفين لهذا السؤال .

طلب الدعاء من رسول الله

أما قول الشيعى : فلماذا أمر عمر بأن يطلب الدعاء من أويس ولم يأمره أن يطلبه من النبى نفسه وهو أفضل من أويس ومن الكل ، فهو قول باطل وسؤال لا يعبأ به . وبيان ذلك أن النبى ﷺ قد أرسل رحمة للعباد خاصة وعامة ، وكان حريصاً على المؤمنين وعلى ما يقربهم من رضوان الله ومن جناته ، عزيزا عليه شقاؤهم وضلالهم وجهلهم وعنتهم . وكان أبر بهم من آبائهم ومن أمهاتهم ، بل أبر بهم من أنفسهم بهم ، لا يدع شيئا ينفعهم ويصلحهم إلا فعله ، ولا شيئاً يضرهم ويفسدهم إلا تركه وهجره وحذرهم إياه ، وخاف عليهم منه وذادهم عنه وعن الوقوع فيه . وقد قال الله فى صفته : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » ، وقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤف رحيم » . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله قال : ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . فان ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى وأنا مولاه . ولقد كان ﷺ يحزنه الحرص عليهم حتى يكاد يقتله وحتى تكاد نفسه تذهب حسرات عليهم . وقد شهد الله عن ذلك فى كتابه فى آيات وقال له : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

الرسول يسعى للمؤمنين وإن لم يسألوه الدعاء لأنه أولى بهم من أنفسهم

فالنبى ﷺ كان أحرص على المؤمنين من أنفسهم وأولى بهم منهم . فكان يسعى فى ما يصلحهم وإن لم يسألوه ذلك ، بل وإن لم يريدوه منه ، فكان يعلمهم ويدلهم على الخير والفلاح وأسباب النجاح ، وكان يدعو لهم ويسأل

ربه هدايتهم وإسعادهم وإن لم يطلبوه ، بل وإن أبوا ذلك وكرهوه ، لأنه عليه السلام كان قائماً على تربيتهم قيام الوالد البر الرحيم على تربية أولاده وقرة عينه ، بل كان أحرص على تربية المؤمنين وإصلاحهم وإسعادهم من الوالد الرحيم على واحده ، بل كان أرأف بهم من أنفسهم كما قال تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . وقد أمره الله أن يدعو للمؤمنين والمؤمنات فقال : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » ، وقال في النساء المؤمنات المبايعات : « فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » ، وقال تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » . وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » . فأتاه أبي : أبو أوفى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » . فقد كان عليه السلام مأموراً بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات وإن لم يسألوه ذلك ، لأنه قد أرسل رحمة وعناية آلهية بهم ، ولأنه لا يمكن أن يدع شيئا ينفعهم في دنياهم ودينهم إلا فعله . فكان يدعو لمن يستحقون الدعاء ، ويستغفر لمن يليق بهم الاستغفار والغفران ، كما كان يبين لهم الحلال والحرام ، ويعلمهم وحي الله وشرائعه وإن لم يسألوه شيئاً من ذلك . وكان لا يدعو لمن لا يجوز أن يدعو له وإن سأله وألح في السؤال . وقد ثبت أن بعض الناس سأله ﷺ أن يدعو له بشيء فأبى . أما الذين يستحقون الدعاء والاستغفار فكان يدعو لهم ويستغفر . فكان طلب ذلك منه أحياناً عبثاً .

وقد استغفر ﷺ للأنصار ولذراري الأنصار وموالي الأنصار ، لأنهم كانوا جديرين بذلك . وفي الصحيح عن زيد بن أرقم قال قال رسول الله : « اللهم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » ، وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك أن رسول الله استغفر للأنصار ولذراري الأنصار

ولموالى الأنصار . وقد دعا ﷺ المحلقين قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا يا رسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا يا رسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا يا رسول الله والمقصرين ، قال وللمقصرين . وقال : « اللهم بارك لنا فى شامنا و فى يمننا » . الحديث المتقدم . وقال لعمه أبى طالب : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله قوله : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية . فهو ﷺ مأمور بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وأن يدعو لهم و إن لم يسألوه شيئا من ذلك ، وقد كان كذلك فلا يحتاج إلى أن يطلب منه . وهو فى هذا مثل الملائكة ، فإنهم مأمورون بالدعاء والاستغفار والشفاعة للمؤمنين و بالصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، وهم لا يسألون ذلك كما قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » الآيات . وقال : « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما » وقال : « إن الله وملائكته يصلون على النبى » . وهذا من وظائفهم التى لا يصح أن يتركوها ولا أن يقصروا أو يخلوا بها . والنبى ﷺ كذلك كان مأموراً بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، وهو يفعل ذلك و إن لم يسأله كما تقدم فى الاخبار ، وكما جاء فى أخبار أخرى كثيرة . وفى الحديث الذى يحتج به المخالفون « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم ، تعرض على أعمالكم ، فان وجدت خيراً حمدت الله ، و إن وجدت شراً استغفرت لكم » وقد كان ﷺ يقنت فى صلواته فيدعو لقوم ويدعو على قوم آخرين . وكان الناس بالجملة منهيين عن سؤاله الدعاء والاستغفار والشفاعة ، وكان هو لا يرغبهم فى شىء من هذا . بل كانت أقاويله ترشد على وجه العموم والتفصيل إلى أن الأحسن لهم ألا يفعلوا ، وألا يسألوه . فكان أحيانا يرد على من يسأله الدعاء

إباء الرسول الدعاء لمن لا يستحقون

رداً جميلا كما فى قوله لذلك الذى قال يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال عليه الصلاة والسلام : « سبقك بها عكاشة » . وقال الأعمى الذى جاءه يسأله أن يدعو ليرد الله له بصره : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » والحديث قد تقدم . وجاءته امرأة كانت تصرع وتتكشف ؛ فسألته أن يدعو الله لها ، فرغبها أن تصبر ، فقالت : إذن ادع الله لى ألا أنكشف ، فدعا لها . وقال فى الحديث الذى يحتج به المخالف والذى تقدم الكلام عليه : « اللهم بارك لنا فى شامنا وفى يمننا » ، قالوا يا رسول الله وفى نجدنا ، فأبى أن يدعو بالبركة وقال : « هناك الزلازل والفتن ، ومنها يخرج قرن الشيطان » . ونظائر هذا كثيرة معلومة . وما كان ﷺ يرغب أصحابه فى أن يسألوه الدعاء بل هذا الذى تقدم ـ وله نظائر كثيرة ـ يشير إشارة صريحة إلى أن الأحسن الانكفاف عن هذا. ولهذا لا نجد كبار الصحابة وفقهاءهم وخلفاءهم يسألون النبى ذلك ، فلا نكاد نجد أن أبا بكر الصديق أو عمر أو عثمان أو علياً كان يسارع إليه ، ويتهافت عليه ، بل قيل : إن أبا بكر الصديق لم يسأل النبى عليه السلام مطلقا شيئاً لنفسه خاصة. وعلى كل حال صح هذا القول أم لم يصح فالذى لاشك فيه أن صحابته المقربين لديه ، العارفين به وبقدره وبمنزلته عند ربه ما كانوا يحرصون على سؤاله ، لا الدعاء ولا غير الدعاء ، لأنهم قد عرفوا حقيقة نبيهم وعرفوا مقدار حرصه عليهم وعلى ما يصلحهم وينفعهم ، وعرفوا أنه لن يدع شيئا مما فيه صلاحهم وإسعادهم وخيرهم ، فكانوا يحجمون عن سؤاله لأن فى سؤالهم إياه شبه اتهام له بالتقصير والبخل عليهم بما يجب الجود به ، وعرفوا أن الجواد الكامل الجود هو الذى يعطيك حاجتك وماتريده قبل سؤاله وبدون سؤاله . والناس يمتدحون الجواد بأنه يعطى قبل أن يسأل وبدون أن يسأل ، وبأنه لا يحوج المحتاج إلى ذل السؤال ومشقته . ورسول الله أولى الخلق بهذا الجود والكرم ﷺ .

أكمل الجود الاعطاء قبل السؤال وبدونه

وهذا صحيح ، ولا يعترض عليه بسؤال الله ، لأن سؤال الله مقصود لذاته لما فيه من الذل والخضوع والخشوع والانكسار له تعالى . وهذه الأمور هي خلاصة العبادة . والعبد وظيفته أن يعبد ربه وأن يقوم بكل صور العبودية وضروبها وأشكالها ومظاهرها . والله يجازي على الدعاء الإجابة لأنه عبادة ، والله يتقبل من عباده المتقين ، ويعطيهم سؤلهم وحاجهم . أما الذل للمخلوق فليس مطلوباً لذاته بل منهي عنه لذاته نهياً شديداً صريحاً . ولهذا السبب نفسه ، ولأسباب أخرى كثيرة حرمت مسألة المخلوق ونهي عنها أشد النهي ، وطلبت مسألة الخالق ورغب فيها صنوف الترغيب ، بل لا يكون مؤمناً من لا يسأل الله ، ومن لا يذل له . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من لا يسأل الله يغضب عليه » . والدعاء لا يخفى مكانه من الاسلام والدين . فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يرغب في سؤاله وطلبه الدعاء والشفاعات . فقول الشيعي هنا : لماذا لم يأمره أن يطلب من النبي الدعاء سؤال باطل لأن النبي لم يكن يرغب في سؤاله بل كان يزهد فيه ضروب التزهيد كما تقدم لأنه أجود من أن يحوجهم إلى سؤاله وطلبه وهو الرحمة المهداة من السماء إلى الأرض وإلى أهلها وهو أحرص عليهم من آبائهم وأمهاتهم ومن أنفسهم وأولى بهم منهم .

ابطال لاشك فيه لما ذكره المخالف من الامثال

أما قوله : « إن قول عمر : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا لا يخرج عن التوسل بالنبي » فقول باطل كل البطلان . ولو كان صحيحاً لكان قول من قال : أسألك يا عبد الله سؤالا لله لا لعبده ، لأنه أضاف المسئول إلى الله كما أضاف عمر العباس إلى النبي ، ولكان قول من قال : اعبدوا رسول الله واسجدوا لأن باء الله ، لا يخرج عن قول من قال : اعبدوا الله واسجدوا له ، ولا تعبدوا أحداً سواه ولا تسجدوا لمخلوق ، لأنه قد أضيف هنا رسول الله وأنبياؤه إليه تعالى كما أضيف العباس في حديث الاستسقاء به إلى « نبينا » ، ولكان أيضاً قول

من قال : أعطانى عبد الملك ، أو وزير السلطان كذا مثل أن يقال : أعطانى الملك أو السلطان كذا . وهذا كله فاسد لا يقول به عاقل ولا مسلم .

وإذا كان هذا الذى ذكره الرافضى صحيحاً ، وكان المراد من التوسل بالعباس التوسل بالنبى فلماذا لم يأتوا بالمراد صراحة ؟ ولماذا لم يتوسل عمر بالنبى مباشرة ؟ ولماذا أدخل كلمة العباس فى الوسط وهى غير مرادة ولا معنية ؟ ولماذا قال : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ؟ وقد كان الصحيح أن يقول : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا وإننا اليوم نتوسل اليك أيضا بنبينا فاسقنا . ولماذا أقحم العباس هنا إذا كان غيرمراد وغيرمنظور إليه ؟ ولماذا قال أنس بن مالك راوى الحديث : إن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ، ولماذا لم يقل : استسقى بالنبى ؟ ولماذا سمى الناس جميعاً حتى المخالفين هذا الحديث : « حديث الاستسقاء بالعباس » ؟ كل هذه الأسئلة لاجواب لها عند الشيعى يقيناً .

أما قول القائل : أتوسل إليك بقرابة الملك فيقال فى الجواب : إن كان المراد بقرابة الملك أقاربه فلا يمكن أن يكون التوسل بأقارب الملك توسلا بالملك كما لا يمكن أن يكون التوسل به توسلا بأقاربه . وهذه أشياء غنية عن تطلب الحجج لها لوضوحها

أما قول القائل : أتوسل إليك بمرضعة ابنك فالتوسل بمرضعة الابن ليس توسلا بالابن كما أن إهانة المرضعة ليس إهانة للرضيع ، وكما أن ضربها لايكون ضرباً له ، وطردها لايكون طرداً له ، وسبها لايكون سباً له . وكذلك يقال فى قول القائل : أتوسل إليك بصهر أخيك فان التوسل بصهر الأخ ليس توسلا بالأخ بالضرورة واليقين والاتفاق . فهذه الأمثال التى أوردها احتجاجاً بها على أن قول عمر رضى الله عنه : « وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » توسل بالنبى لابالعباس

أمثال باطلة ، لا تشهد لشيء مما ذهب إليه .

نعم ، نحن لا ننكر أنه قد يكون من أسباب التوسل بهذه الأشياء عند من يتوسلون بها إضافتها إلى من أضيفت إليهم ، فيكون من أسباب التوسل بأقارب الملك قرابتهم له ، ومن أسباب التوسل بمرضعة الابن إرضاعها للابن ، ومن أسباب التوسل بصهر الأخ مصاهرته للأخ : قد تكون هذه الإضافات من الأسباب ، أو تكون هي الأسباب في توسل من توسل بالأشياء المذكورة ، ولكن ليس معنى هذا أن التوسل بأقارب الملك توسل بالملك ، وأن التوسل بمرضعة الابن توسل بالابن ، وأن التوسل بصهر الأخ توسل بالأخ . وإنما غاية هذا الالتفات إلى السبب وإلى الاضافة . وهذا نسلمه ونسلم أن التوسل بالعباس توسل بالعباس نفسه ، وأن من أسباب التوسل به قرابته لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقربه منه مع كبر سنه ، مع صلاحه وتقواه ودينه وفضله وجلالة قدره هي أسباب التوسل به ، أي بشفاعته ودعائه . وغاية هذا أن تكون قرابة العباس للنبي من أسباب التوسل به . وهذا صحيح ، ولكن التوسل لم يخرج عن أن يكون توسلا بالعباس بلا ريب . ومثل هذا أنه يجب على المسلم أن يكرم أقارب النبي وأولاده ومن لهم به صلة نسب وقرابة ، ويجب أن يحبهم وأن يحترمهم ، وإن كان أفراد الإكرام والاحترام الواجب لأقارب النبي ولذريته لا يمكن أن يكرم به النبي بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فاعطاء أقارب النبي الأموال والمغانم وأنواع التجارات واجب عند الشيعة لقرابتهم من النبي ، مع أنه لا يصح إعطاء النبي شيئاً من ذلك بعد وفاته . وكذلك استفتاء أولاد النبي المعصومين عند الشيعة واجب في حياتهم ، واستفتاء النبي بعد وفاته لا يجوز إجماعاً . وكذلك يقال في التوسل بالعباس هبوا أن سببه قرابته من النبي ، وهبوا أنه لا سبب له غيره : هبوا هذا كله صحيحاً فانه لا يدل على جواز التوسل بالنبي الذي هو سبب

لماذا توسلوا بالعباس

التوسل بالعباس بلا ريب ولا خلاف . ونظير هذا أن تكرم صديق أبيك لأنه صديق أبيك ، لا تكرمه لشيء غير ذلك ، ولكنه لا يصح لك أن تكرم أباك بعد موته أنواع الاكرام التي تكرم بها صديق أبيك . وقد تبر إنساناً لأن ذاهبا عزيزاً عليك كان يبره ، ثم لا يجوز لك أن تبر عزيزك الذاهب ذلك البر الذي تقدمه لذلك الانسان ، كما تبر أقارب النبي لقرابتهم من النبي ، ثم لا يجوز لك أن تبر النبي نفسه ذلك البر الذي تبره أقاربه . وهذه أشياء لا ينازع في شيء منها من عرفها :

هل يراد به إظهار شرف آل النبي

أما قوله : « إن عمر خص العباس بالتوسل به لإظهار شرف أهل البيت النبوي ولبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل لأن علياً كان موجوداً وكان أفضل من العباس » فيقال في الجواب : لو كان غير شيعي قاله . ثم هو قول لا طائل تحته وادعاء مجرد من العلم والبرهان والكتاب ، فلا يحفل به . ثم هو ظن بحت ، وقد ذم الله الظن والظانين في كتابه . ولو كان صحيحاً زعمه أن عمر ما توسل بالعباس إلا لاظهار شرف بيت النبي لكانت هنالك وسيلة أخرى لاظهار هذا الشرف أولى وأظهر من هذه الوسيلة ، وهي أن يقول عمر ذلك قولا و يصفه وصفاً : فيقول مثلا : إن أهل البيت النبوي أشرف الخلق وأكرمهم على ربهم وعلى خلقه ، و يقول : إن لهم من الشرف والمجد والفضل ما مقداره كيت وكيت . و بمثل هذا يعرف شرفهم وقدرهم أكثر وأظهر .

ولو كان هذا الذي ذكروه وزعموه صحيحاً لتوسل بالحسن أو بالحسين ، أو لتوسل بهما مع العباس ، أو لتوسل بآل النبي جميعاً : بالعباس و بالحسن والحسين وفاطمة وعلي و رقية وأم كلثوم وابنه عليه الصلاة والسلام إبراهيم و بغيرهم من أقارب النبي الأحياء والأموات ، لأن المراد في ما زعموا : إظهار شرف البيت النبوي ، وهذا الذي ذكرناه أقوى وأبلغ في إظهار شرفهم وما لهم عند الله من

الفضائل والمكانات . أما التوسل بالعباس فلا يدل على شئ من هـذا ، ولو دل لكان خفى الدلالة غامضها جداً .

على أن من القبيح الفاضح الواضح الذى لايجوز شرعاً ولا عقلا أن يترك عمر بن الخطاب و يترك الأصحاب معه نبيهم ﷺ ، و ينصرفوا إلى عمه العباس لأجل إظهار شرف العباس وشرف أقر بيه .

الدلائل على بطلان التوسل بالعباس مع امكان التوسل بالنبي

والذى يدل على بطلان هذا الزعم أن النبى عليه السلام لو كان حيا لما أمكن أن ينصرفوا عنه إلى سواه لهذا الغرض وهو غرض إظهار شرف المعدول إليه ، المتوســل به . ولا ريب أنه لو كان الغرض إظهار شرف العباس وشرف أقاربه بهذا التوسـل لكان من الصحيح ومن الحسن الجائز أن يتركوا النبى فى حياته وأن يتوسلوا بالعباس ،أو يأتموا به فى الصلاة،أو يستفتوه مع وجود رسول الله و فى حضرته وحضوره ، لأجل أن يظهروا شرف العباس وشرف غيره من أهل النبى وأهل بيته . ولا شك أن فعل هــذا فى حياة النبى أدل على إظهار هــذا الذى زعموه و زعموا أن إظهاره هو الغرض من التوســل بالعباس ومن ترك رسول الله . ولكننا نعلم بالضرو رة والبداهة الواضحة أن المسلمين لا يمكن أن يتركوا نبيهم مع وجوده وحضوره وأن يعرضوا عنه وعن التوسّل به ليتوسلوا بالعباس أو بغيره من أهله وآله إظهاراً لشرفهم وتقر يراً له و إقراراً به .

على أن هنالك طريقة لاظهار شرف بيت النبى أوضح وأحسن من هــذه الطريقة لو صدق القوم فى ماقالوا و زعموا .هذه الطريقة هى أن يتوســلوا بالعباس مع توسلهم بالنبى عليه السلام ،فيقرنوا بينهما فيقولوا مثلا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا و بعم نبينا و بآل بيت نبينا ،كما يقولون : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد و بارك على محمد وعلى آل محمد وأمثال ذلك . ولا خلاف أن هذه الطريقة أقرب إلى بيان هذا الغرض الذى ادعوه مع المحافظة على التوسل بالنبى والاستسقاء به

على أن هذا الغرض الذى زعموا أنه هو الحامل لعمر على التوسل بالعباس يعارضه أمر آخر يجب تلافيه و رعايته . هذا الأمر هو أن التوسل بالعباس دون النبي يوهم أن التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته لا يمكن ولا يجوز . . فاذا أمكن أن يتوسلوا بالعباس لإظهار شرفه وشرف أهل بيته فلماذا لم يتوسلوا بالنبي لئلا يظن أن التوسل به بعد الموت و فى قبره لايجوز ولا يمكن شرعاً وديناً ؟ ولا ريب أن ملاحظة هذا أولى من ملاحظة ذاك ، وأن دفع هذا الإيهام أولى من إظهار ذاك الغرض .

ثم إن بيان شرف العباس وشرف آل النبي ليس متروكا إلى عمر ولا إلى غيره من الصحابة أو غيرهم . و إنما بيان ذلك إلى الله و إلى رسوله .

وعمر عندهم كان خصماً لآل النبي وهذا يبطل قولهم هنا

ثم كيف يستقيم للرافضى هذا القول والرافضة يزعمون أن عمر بن الخطاب كان من أشد الناس خصومة وعداوة لآل النبي ، وكان من أشدهم حرباً عليهم و إيذاء لهم واغتصاباً لحقوقهم و إخفاء وجحوداً لها و وقوفاً فى سبيلهم ، و يزعمون أنه هو الذى سلبهم حقهم الذى أنزله الله فى كتابه ، وهو الذى أخرهم وأزالهم عن مكانهم وشرفهم المعلوم الواجب بمبادرته إلى مبايعة الصديق وتثبيت خلافته والخلافة من حقهم الذى نزل فى الكتاب وتواتر فى السنة ، و يزعمون أنه كان على اتفاق مع أبى بكر فى هذه القضية الجائرة ، وهذه الجريمة المنكرة ، ليكون الخليفة من بعده ، وليكون شريكه فى المغنم والصفقة . . . فاذا كان عمر عندهم بهذا المكان السحيق من المخاصمة والعداوة لآل النبي فكيف يقال هنا : إنه كان يتوسل بالعباس ليظهر شرفه وشرف هذا البيت الذى مازال يحاربه و يناوئه ، والذى مازال سداً منيعاً قوياً بينه و بين نيله حقه المنزل فى وحى الله ، والذى مازال يؤيد أعداءه عليه حتى أظهرهم عليه ، حتى استطاعوا أن يقتلوا جميع الأئمة المعصومين منهم وهم اثنا عشر إماماً ما خلا محمد بن الحسن الامام المهدى الثانى

عشر المنتظر المختفى منذ ولد سنة ٢٥٥ من الهجرة إلى اليوم و إلى الأبد . وذلك أن الشيعة تزعم أن جميع الأئمة المعصومين من ولد على وفاطمة قد ماتوا قتلا ما عدا المهدى المختفى : أما على والحسين فمعلوم أمر مقتلهما . وأما الباقون ـ وهم الحسن ، وزين العابدين ، والباقر ، والصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد الجواد ، وعلى الهادى ، والحسن العسكرى ـ أما هؤلاء فقتلوا جميعاً غيلة بالسم فى ماتزعم الشيعة . فالأئمة المعصومون كلهم عندهم قد قتلهم أعداؤهم المسلمون ماخلا المختفى فراراً من القتل . وهم يزعمون أن جميع هذه المصائب التى أحاقت بأهل البيت النبوى مرجعها ومصدرها الأقوى الأعلى عمر بن الخطاب ، لأنه هو الذى ساعد الصديق وعاونه على انتزاع هذا الأمر ـ وهو الخلافة والامامة ـ من أيديهم . وكل هذه المصائب والمظالم منشؤها وضع الخلافة أولا فى يدى أبى بكر الصديق ، والذى وضعها أولا فى يديه هو عمر بن الخطاب . ولهذا يزعمون أن الذى قضى على الشيعة وعلى أئمتهم بالتأخر هوعمر وحده ، وهم لذلك يخصونه بمزيد المداوة وعنيف الخصومة وقوى السباب .

زعم الشيعة أن جميع الائمة المعصومين قد قتلوا

فاذا كان هذا كله صحيحاً لدى الشيعة فأنى يزعمون هنا أن عمر كان يحتال لإظهار شرف هذا البيت النبوى الذى أذاقه كل هذا البلاء والهوان .

البرهان القاطع على كذب هذا الزعم

وهنا نقول : إن الشيعة تكذب فى زعمها أن جميع الأئمة المعصومين المذكورين قد قتلوا غيلة بالسم ما خلا عليا والحسين والثانى عشر المختفى .. والبرهان القاطع على كذبهم فى هذه الدعوى أنهم يعترفون بأنه لم يمت أحد من هؤلاء الأئمة شاباً ما عدا محمداً الجواد ، بل ماتوا كلهم باعترافهم وقولهم بعد ما تجاوزوا حدود الشباب . فبعضهم مات فى سن الستين ، و بعضهم مات فى سن الخمسين ، و بعضهم جاوز ذلك ، و بعضهم لم يصل إليه ، ولكن لم يمت أحد منهم عدا الجواد إلا بعد أن جاوز الأربعين . وهذه الحقيقة يعترفون بها ولاينازعونها.

وهنا يقال لهم : لا ريب أن الملوك ـ أعنى خلفاء المسلمين كما يزعمون ـ لو كانوا هم الذين قتلوا هؤلاء الأئمـة المعصومين اغتيالا خيفة منهم ومن منازعتهـم إياهم الملك والخلافة لبادروا إلى قتلهم شبانا أقوياء ملتهبين ، ولما صح أن يمهلوهم فى الشباب ، وسن الفتوة والقوة ، وسن المغامرات والجنوح إلى المغامرات . فانهم فى تلك السن ، سن الشباب والفتوة والقوة ـ أخطر ولا شك منهم بعـد وأقوى وأنزع إلى الخروج و إلى الثورات ، وأشـد عـلى احتمال تبعات ذلك وأرزائه ومخاطره . وقد عـلم بالعادة الصادقـة و بالتجربة المتكررة أن المخاطرات أكثر ما تـكون وأصلب ما تكون وأعنف ما تـكون وأنجح ما تكون فى سنّ الفتوة والشباب الطماح المغامر ، وعـلم بالتجربة أيضاً أن الخصم أكثر مايخاف خصمه وهو فى ميعان الشباب وأحلامه قبل أن تعرى أفراس الصبا ورواحله .

إذن لا شك أن الملوك والخلفاء لو كانوا يريدون اغتيال هؤلاء الأئمة ، أو لوكانوا قد اغتالوهم فعـلا لا غتالوهم فى مطالع أعمارهم وفتوة حياتهم ، ولما جاز أن يمهلوهم جميعاً شباناً ثم يقتلوهم جميعاً شيوخاً وكهولا . فهذا يدل على كذب الشيعة فى هذه الدعوى .

ولا يصح أن يقال : إن الملوك والخلفاء قد أمهلوهم فى سن الشباب لأنهم لم يكونوا يخافونهم ولا يرهبونهم إذ ذاك ، و إنما قتلوهم بعـد لاستكمالهم أسباب السيادة والقيادة والزعامة وشروط الإمامة ، وما كانوا كذلك وهم شبان : لا يصح أن يقال هذا القيل لأن الشيعـة يزعمون أن الأئمة قد كملوا واستوفوا كل أسباب الفضائل وكل ما يليق بالسيد الإمام و بالخليفة المعصوم وهم شبان ، بل وهم أطفال ، ويستدلون لذلك بقول الله : « وآتيناه الحـكم صبيا » . إذن القوم كاذبون على التاريخ وعلى المسلمين وعلى خلفائهم وعلى أئمتهم . وجازى الله الكاذبين . وهنالك براهين أخرى لإبطال هذه الدعوى ، ولـكننا اكتفينا بهذا البرهان المـادى القوى . على أن هذه الأعمار التى عمرها الأئمـة أعمار عادية لمن كانوا مثلهم من

ذوى الطموح والنزوع إلى مالا ينال ومالا يمكن نيله ، ومن ذوى المشاعر المعذبة المتحرقة بطغيان ذلك العصر ومظالمه ومفاسده كما تزعم الشيعة . فلا وجه إذن للقول بأنهم لم يموتوا و إنما قتلوا واغتيلوا ، وهذا برهان آخر على كذب الدعوى .

عشرة وجوه فى بطلان ما ذهبوا إليه فى التوسل بالعباس دون النبي

أما القول بأنهم ماتوسلوا بالعباس إلا لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل فقول لا يصح أيضاً . أولا لأنه لا دليل عليه ألبتة فلا يبالى به . ثانيا أن الذى يبين ذلك ليس هو عمر ولا غيره من الصحابة ولا غيرهم ، و إنما الذى يبينه الله و رسوله . وثالثا لو كان هذا هو الغرض والسبب لقاله عمر قولا ، ولكان فى هذه المسألة مقولا أوضح منه مفعولا . و رابعاً لو صح هذا لقرنوا بين التوسل بالنبى والتوسل بالعباس مثلا فقالوا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا و بعم نبينا العباس . فكانوا بهذا يجمعون بين الأمرين المطلوبين : بين المحافظة على التوسل بالنبى ، و بين بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، وهو على وعثمان ، لأنهما أفضل من العباس المتوسل به . وخامساً إذا وجب أن يرعوا بيان هذه المسألة ـ أعنى جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ـ وجب عليهم أن يرعوا أمراً آخر ذابال . هذا الأمر هو أن توسلهم بالعباس وتركهم النبى يوهم أن التوسل بالميت لايجوز . فكان واجباً عليهم أن يعملوا لدفع هذا الايهام إذا جاز أن يعملوا لبيان تلك المسألة ، مسألة جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، أو كان يجب عليهم ألا يوقعوا فى هذا الإيهام فى سبيل بيان هذه المسألة ، إذ لا ريب أن ورود هذا الإيهام أعظم إثما من جهل هذه المسألة عندهم ، لأنها فى ما يزعمون من الأمور التى أمر بها الكتاب ودعت إليها السنة . وسادساً لو كان هذا صحيحاً لجاز أن يتركوا النبى عليه الصلاة والسلام فى حياته وأن يتوسلوا وأن يستسقوا وأن يأتموا و يقتدوا بالعباس و بغيره من الناس ليبينوا أنه يجوز التوسل والاستسقاء والاقتداء بالمفضول مع وجود الفاضل ، ولجاز أن يفعل ذلك النبى نفسه ليبين المسألة لأنه هو الذى عليه

البيان والبلاغ. ولكننا نعلم بالضرورة واليقين والبداهة أن المسلمين وأن عمر وغيره من الأصحاب ما كانوا يتركون النبي ويتوسلون ويستسقون ويقتدون ويأتمون بغيره ليعلموا الناس أنه يجوز التوسل بغير الفاضل مع وجود الفاضل. ولا شك أن بيان الدين وبيان مسائله وشرائعه، وأن التشريع والتقنين السماوي إنما كان في حياة النبي لا بعد وفاته وانسداد باب الوحي. فاذا لم يوجد هذا في حياة رسول الله — حينما كان التشريع قائماً وباب التنزيل والوحي مفتوحاً — لم يصح أن يوجد بعد وفاته وبعد أن وقف التشريع وقفل باب الوحي والتنزيل. والشيء الذي يكون كذلك لا يكون من الدين ولا من الشرع الذي أنزله الله. وسابعاً لا يصح أن يترك عمر ومن معه من المسلمين النبي ويتركوا سنته — وهي التوسل به ﷺ في الاستسقاء — ليعلموا الناس أن ذلك الذي فعلوه يجوز في الاسلام ودين الله. أن مثل هذا المنحى لم يعهد من الصحابة ولا يمكن أن يعهد. وثامنا التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل إما أن يكون لجوازه دليل شرعي يعلمه عمر والمسلمون الذين كانوا معه، أو لا يكون له دليل شرعي. فان كان لذلك دليل يعرفه عمر ويعرفه الذين كانوا معه كان الواجب عليهم أن يبينوا ذاك الدليل الشرعي للناس ليعرفوا سنة رسولهم عنه. ولا شك أن المسلمين يرضون بقول نبيهم وفعله ويطمئنون بهما أكثر وأظهر من رضاهم واطمئنانهم بفعل عمر والذين كانوا معه. بل قد تشك طوائف منهم في صواب كل ما يفعله عمر ومن وافقه. أما فعل النبي وقوله فلا يشك فيهما مسلم. فايراد الدليل من فعل النبي أو قوله أحسن وأصدق وأقوى في بيان هذه المسألة وبيان سواها من فعل عمر بلا نزاع بين المسلمين. فلا يصح إذن اللجوء في بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل بفعل عمر دون اللجوء إلى ذكر قول رسول الله وفعله إذا كان معلوماً معروفا. أما إذا لم يكن عمر والصحابة معه يعلمون جواز ذلك من سنة رسول الله فلا يصح لهم ولا يمكن أن

بقية الوجوه العشرة

يذهبوا ليبينوا للنـاس جواز مالا يعلمون جوازه من الدين ولا من سـنة النبي الـكريم . لأن عمرومن معـه من الصحابة رضوان الله عليهـم جميعاً لا يعرفون الدين إلا أنه المـأثور عن النبي قولا أو فعلا أو رسالة يؤديها عن جبرائيـل عن البارى . أما غير ذلك فليس من الدين عنـدهم ولا مما يجوز بيانه ولا الذهاب إليه . فهذا القول الذى ذهب إليه المخالف فى توجيه التوسل بالعباس دون رسول الله قول باطل سخيف . وتاسعاً الذى يشترط فى المتوسل به فى الاستسقاء أن يكون مجاب الدعوة، قريبها من الله لصلاحـه وفضله ، ولا يشترط فيه أن يكون أفضل الموجودين بالإجماع . فإذا فرض أن العباس بن عبد المطلب كان مجاب الدعوة أكثر ممن هو أفضل منه ــ وهذا لا مانع منه كما تقدم ــ كان الاستسقاء به أولى من الاستسقاء بعلى أو بغيره ممن هم أفضل منه . والمخالفون لا يستطيعون أن يقيموا الدليل على أن عليا وعثمان وغـيرهما كانوا مجابى الدعوة أكثر من العباس ، ولا يستطيعون أن يذكروا ما يمنع من أن يكون العباس يوم استـسقى به أقرب إلى الإجابة والقبول من سائر الموجودين ولو كان فى الموجودين من هم أفضـل منه وأكثر مآثر وفضائل . وهذا الزعم الذى زعموه فى توجيه الاستسقاء بالعباس قائم على أن الاستسقاء بعلى أو بعثمان كان أولى من الاستسقاء به لظهور فضلهما عليه. أما إذا فرض أن الاستسقاء به أولى من الاستسقاء بغيره لقرب دعائه من الاجابة والقبول ومن السماء فقد فسد هذا الزعم الذى زعموه . وذلك أن الناس لا يتنازعون ولا يشكون فى أن الاستسقاء بمن هو أقرب إلى إجابة الدعاء أولى من الاستسقاء بمن هو دونه فى ذلك ، وإن كان أكثر منه فضلا وأجل قدراً . وهـذا لا يحتاج المسلمون فى معرفته إلى فعل عمر ولا فعل سواه لظهوره ووضوحه . فلا يمكن أن يكون التوسل بالعباس لهذا الغرض الذى لا يخفى عـلى أحد . وعاشراً لو صدق هذا الذى ذكروه لتوسلوا بالعباس تارة ليبينوا جواز التوسل بالمفضول مع وجود

الفاضل على ما ذكر المخالفون ، ولتوسلوا برسول الله تارات بعد موته لأن التوسل به الصحيح المشروع أفضل وأولى وأدنى إلى الإجابة والقبول والعروج إلى الله ، ولما صح أن يتكرر توسلهم بالعباس و يستمر تركهم النبي والتوسل به بعد موته . والتكرر والاستمرار ظاهران من قول أنس راوى الحديث : « كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعباس » . فإن كلمة « كان » صريحة فى أنهم فعلوا ذلك مرات ، وأنه قد كان من شأنهم ودأبهم . ولو فعلوا هذا لكان فيه جمع بين الفوائد كلها : بين بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، و بيان جواز التوسل بالميت ، و بين المحافظة على التوسل برسول الله وعدم الانصراف عنه . ولكن عمر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين قد واظبوا على الانصراف عن رسول الله وعن التوسل به بعد وفاته و واظبوا على التوسل بغيره من الأحياء . فكان السبب وكان الأمر — ولا بد — غير ما ذكر المخالف يقيناً .

على أنه لو كان صحيحاً ما ذكروه لتوسلوا بأحد الأموات الذاهبين مثل حمزة ابن عبد المطلب أو خديجة أو إبراهيم ابن رسول الله أو غيرهم من الأموات ليدلوا على جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل الحى . ولو فعلوا هذا لكان أجمع لأشتات الفوائد وأوضح فى بيان المسألة من كل وجوهها مع عدم الإبهام واللبس الذى ذكرناه وأشرنا إليه . وهذه أشياء لا تترك للتأويل الذى ذكره المخالفون منفذاً إلى الحق والصواب ، ولا متنفسا . والحمد لله على ذلك .

أقبح تأويلا لحديث التوسل بالعباس دون رسول الله

ومن أعجب ما قيل فى توجيه الاستسقاء بالعباس قول بعض المحرفين من الخائضين فى هذه الحقائق مع الخائضين : « أما توسل عمر بالعباس دون الرسول فلكون ذلك سنة الاستسقاء ولكون العباس من ذوى الحاجة ، أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره عليه الصلاة والسلام لفضله أو قرابته أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل ، أو ليدلهم

على أن التوسل بالمفضول جائز مع وجود الفاضل . و إلا فعلى أفضل من العباس وكذا عمر . . . » انتهى قول هذا القائل .

وهذه آراء فى غاية السقوط والبطلان : أما الرأى الأول ـ وهو أنهم استسقوا بالعباس « لكون ذلك سنة الاستسقاء » فيقال ماذا يراد بهذا ؟ أيراد أن من السنة أن يستسقى بالعباس دون النبى ودون غيره ؟ أم يراد أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ؟ أم يراد أن من السنة ألا يستسقى بالنبى فى صلاة الاستسقاء ؟ هذا ما يحتمل أن يراد بهذا الرأى الذى ذكروه . وكل هذه الاحتمالات باطلة : أما الاحتمال الأول فباطل بالاجماع والضرورة والنص ، فقد أجمع المسلمون وجاء النص وعلم بالضرورة أنه يجوز ، بل يستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والخير والدين فى حياة العباس و بعد وفاته وقبل وجوده و فى كل وقت . فالقول بأن من السنة الاستسقاء بالعباس دون النبى ودون غيره قول باطل بالاجماع والضرورة والنص، و باطل بالحديث المذكور نفسه . وذلك أنه قيل فيه: « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا» . فهم إذن كانوا يتوسلون أى يستسقون بالنبى عليه السلام إذا ما أجدبوا . وهذا مالا يختلف فيه المسلمون ، بل الاختلاف فيه عندهم من أبين الخطأ والجهل .

بيان بطلان هذا التأويل والوجوه التى يحتملها

وأما الاحتمال الثانى وهو القول بأن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات فيقال : نعم هذا حق ،وهذا هو مانقوله، وهذا هو مادل عليه الحديث المذكور ومادل عليه الدين: جملته وتفصيله ، ولكن يجب عليهم أن يعرفوا لماذا كان من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، ولماذا لا يجوز الاستسقاء بالموتى إذا كان يصح دعاؤهم ،وكان يمكن أن يسمعوا دعوة من دعاهم ،وكان يمكن أن يدعوا لمن طلب منهم الدعاء ؟ المخالفون يقولون : إن من الدين ومن السنة التوسل بالأموات وطلب الدعاء والشفاعة منهم ، ويقولون :إنه لا فرق بين

الأحياء والأموات فى باب التوسل والاستشفاع وطلب الدعاء ، ويقولون : إنه كل مايصح أن يرجى وأن يطلب من الأحياء يصح أن يرجى وأن يطلب من الأموات. ويحتجون لجواز الاستغاثة والاستعانة بالموتى بجواز الاستغاثة والاستعانة بالأحياء ، ويقولون : إذا جاز أن نقول للحى أغثنا جاز أن نقول للميت أغثنا. وإلا كنا مخطئين غالطين ، لأن فى التفريق بين الأحياء والأموات فى الدعاء والسؤال والطلب تفريقا بينهما فى القدرة والاستطاعة والعمل ، وهما لا فرق بينهما فى أن الكل لا يستطيع أن يوجد وأن يحدث ، وأن يضر وأن ينفع ، وإنما يستطيع أن يدعو وأن يشفع . وهذا لا فرق بين الحى والميت فيه ، فالحى والميت عاجزان عن الإيجاد والإحداث وعن الضر والنفع ، قادران على الشفاعة والدعاء والرجاء ، فلا فرق بينهما فى شئ من الأشياء . هذا كله يقوله المخالفون .

تفصيل الابطال لما ذكروه فان صدقوا فيما قالوا هنا لم يصدقوا فى قولهم : إن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، وإذا صدقوا فى هذا لم يصدقوا فى ذاك . ذلك أنه يقال لهم : من أين علمتم أن من السنة الاستسقاء بالحى دون الميت ؟! فان قالوا : علمنا ذلك من فعل عمر ومن معه ، ومن استسقائهم بالعباس دون النبى ، إذ لو كان من السنة الاستسقاء بالميت لما عدلوا عن النبى إلى العباس ولا إلى غيره من الناس ، قلنا لهم : وأيضاً قد صح أن عمر وسائر الصحابة كانوا يطلبون الدعاء من الأحياء بعد موت النبى ، وما جاء فى رواية صحيحة أن عمر أو غيره من الأصحاب وقفوا بقبر النبى أو بقبر غيره طالبين منه الدعاء والاستغفار أو غير ذلك ، كما لم يصح أنهم استسقوا به عليه السلام بعد موته فقولوا إن من السنة أن يطلب الدعاء والشفاعة من الأحياء دون الأموات ، أو إن من السنة ألا يدعى الميت والا يطلب منه شئ : لا دعاء ولا شفاعة ولا إغاثة ولا إعانة ولا شىء من هذه المطالب التى يطالبون بها سكان القبور .

وأما إن قالوا: إن نصوص الدين هى التى دلت على أن من السنة أن يستسقى بالحى دون الميت قلنا لهم : إن كل نص يدل على ذلك يدل كذلك على أن من السنة دعاء الأحياء والاستشفاع بهم دون الأموات . فإنهم إذا قالوا : إننا وجدنا المسلمين فى حياة النبى و بعد وفاته يستسقون و يتوسلون إذا أجدبوا بالأحياء دون الأموات ، وما علمنا أنهم توسلوا بميت ولا استسقوا به ، وهذا يدلنا على أن التوسل بالميت من الخلاف على الدين وعلى السنة ، قيل لهم : وكذلك وجدنا المسلمين فى حياة النبى و بعد مماته يدعون الأحياء و يطلبون منهم ما يقدرون عليه عادة ، و يسألونهم الدعاء والشفاعة ، وما علمنا أنهم ذهبوا إلى قبر يدعون صاحبه و يسألونه الغوث والمدد أو الدعاء والشفاعة ، فدل ذلك على أن دعوة الموتى ليست من الدين ولا من السنة . فإن قالوا : قد جاءت روايات فى دعاء الأموات والاستشفاع بهم ، قيل لهم : وكذا قد زعمتم أنه قد جاءت روايات فى الاستسقاء بالميت عند الجدب كما فى الرواية المذكورة عن مالك الدار خازن عمر ، وقد تقدمت الرواية وتقدم الكلام عليها . فمن أين علمتم إذن أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ؟؟ وكيف يكون من السنة دعاؤهم والاستغاثة بهم وسؤالهم ضروب الحاجات فى جميع الأوقات وعلى كل حال ، إلا عند الجدب وعند الرغبة إلى الله ، لينزل غيثه على عباده الأزلين ؟ وهل يعرف مثل هذا فى العقل أو فى الشرع ؟؟ وكيف يكون من السنة الواضحة لديكم التوسل بالنبى فى كل وقت ولدى كل حاجة وعلى كل حال ثم لا يكون من السنة التوسل به حين القحط ؟؟ وهل لهذا نظير فى الشرعيات أو فى العقليات ؟ وكيف يعتقد أصحاب النبى : عمر ومن معه أن التوسل بالنبى سنة فى كل وقت وعند كل حاجة وكل رغبة إلا عند ما يجدبون فيرغبون إلى الله لكشف الجدب ؟؟ وهل يستسيغ هذا الشرع أو العقل ؟ وكيف يدأب أصحاب النبى على دعاء النبى وعلى التوسل به وعلى سؤاله

هذا لا يعقل ولا يعهد مثله فى الشرع

ضروب الحاجات والشفاعات ، كما تدعون ، ثم لا يفعلون شيئا من ذلك حين الاستسقاء وحين طلب الغيث ؟؟

وقد تصاغ هذه الأسئلة بعبارات أخرى كأن يقال : لماذا استسقى الصحابة بالعباس ولم يستسقوا بالنبي؟ ! فان قالوا : لأن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، قيل لهم : ولماذا كان من السنة أن يستسقى بهؤلاء دون هؤلاء ؟ إن السؤال لايزال قائما . وقيل لهم ثانياً: من أين علمتم أن من السنة الاستسقاء بالحى دون الميت ؟ إن قالوا من فعل عمر ، قلنا لهم : ولماذا استسقى عمر بالحى المفضول دون الميت الفاضل ؟ إن السؤال لا يزال قائما أيضاً .فما الجواب ؟ فان قالوا: لأنه لو كان من السنة الاستسقاء بالميت لما عدلوا عن النبى إلى العباس ولا إلى غيره ، قيل لهم: ولماذا عدلوا عن النبي إلى العباس؟ إن السؤال لا يزال باقياً أيضاً. فما جوابه؟ فان قالوا. لأن النبي وأصحابه لم يستسقوا بميت قط وهذا يدلنا على أن من السنة ألا يستسقى بالميت ،قيل لهم: وكذلكم لم يثبت أن النبي وصحابته دعوا ميتا ولا استشفعوا به ولا سألوه حاجة قط، وهذا يدلنا على أن من السنة ألا يدعى الأموات ، فما الجواب؟

السؤال لا يزال قائما

على أن هؤلاء غير صادقين فى مقالتهم هذه . وذلك أنهم يدعون الموتى لكل شئ : يستسقون بهم ويستشفعون ويستشفون ويسألونهم كل شئ كما يقولون وكما يفعلون .

نعم حق وصدق أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الموتى ، وهذا لأن الدين والسنة يحرمان دعوة الأموات مطلقا فى الاستسقاء وغير الاستسقاء كما تقدمت الدلائل . ولو كان من السنة سؤال الأموات غفر الذنوب، وهداية القلوب وسؤالهم الدعاء والشفاعة لكان من السنة أيضاً سؤالهم السقيا والغيث بالضرورة والاجماع ، أو لو كان من السنة أن يتوسل بهم فى الاستعداء على الناس وفى طلب إحياء فلان وفلانة، وشفاء فلان و إسقام فلان ، وفى طلب التزويج والتمويل

والإعانة فى كل الأمور لكان من السنة أيضاً التوسل بهـم فى طلب السقيا و فى طلب الغيث والمطر بالاجماع والبداهة .

وأما الاحتمال الثالث وهو أن يراد أن من السنة ألا يستسقى بالنبى فى صلاة الاستسقاء فهو احتمال باطل بالاجماع والنص والضرورة أيضاً . أما إن أريد به أن الاستسقاء بالنبى عليه السلام من غير السنة بعد موته لأن الميت لا يستسقى به فهو راجع إلى الاحتمال الذى قبله .

رأيهم الثانى فى توجيه الخبر وبطلانه

وأما الرأى الثانى فى توجيه الخبر ـ وهو أنه استسقى بالعباس لأنه كان من ذوى الحاجة إلى المطر ـ فالجواب أنه رأى باطل لأنه أولاً لم يذكر دليلا واحداً على أن العباس كان فى حاجة إلى المطر، وكثيراً ما تجدب الدنيا و يظل كثير من الناس فى غنى وسعة من العيش والثراء ، لايحسون الحاجة ولا الجدب . وثانيا ليفرضوا أن العباس حقا كان فى غاية من البؤس والاحتياج إلى الغيث فما دخل هـذا فى التوسـل به دون التوسـل بالنبى عليه السـلام فى طلب السـقيا ؟؟ أيظنون أن الاستسقاء بالعباس أقرب إلى الاجابة و إلى إنزال الغيث لأنه محتاج من الاستسقاء بالنبى لأنه ليس محتاجا إلى ذلك ؟ إن كان هذا هو مايظنون فقد ظنوا إثما كبيراً وظنوا ما لا يظنه مسلم . إذ لايختلف المسلمون فى أن الاستسقاء المشروع برسول الله أفضل وأقرب إلى الجدوى والاعطاء من الاستسقاء المشروع بغيره كالعباس وغـيره . ولعله قد انسرق إلى أوهامهم أن التوسـل بالعباس كان أولى لأنه كان محتاجا والمحتـاج لابد أن يخلص فى دعوته واستسقائه . وأما النبى فـلا يلزم أن يخلص فى ذلك إذ لاحاجة تحمله على الإخلاص . و إذا كان هذا هو ماانسرق إلى أوهام القوم فقد أصيبوا فى دينهم قبل أن يصابوا فى عقولهم . نعـم ليفرضوا أن العباس كان فى غاية الحاجة وفى غاية الفقر ولـكن لما ذا توسلوا به فى الاستسقاء ولم يتوسلوا بالنبى ، ونحن وهم متفقون على أن التوسل المشروع برسول الله أفضـل

وأجدى وأقرب إلى الاجابة من التوسل المشروع بالعباس وبجميع الناس ، ونحن وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أن الاستسقاء بمن استسقاؤه أقرب إلى القبول والاجابة أولى وأحجى من الاستسقاء بمن استسقاؤه أبعد عن القبول والاجابة ، بل ونحن وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أن الصحابة كانوا فى استسقائهم وتوسلهم يتوخون الأفضل الأقرب إلى رضا الله و إلى غيثه وسقياه . فلماذا عدلوا عن النبي ونحن وهم والناس جميعاً متفقون على أن المحتاج الطالب لابد أن يمت إلى حاجته بأقوى الأسباب و بأفضلها إن لم يمنع من ذلك مانع ، ونحن وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أنه لامانع يمنع عمر و يمنع الصحابة معه من أن يتوسلوا بنبيهم إذا كان ممكننا التوسل به فى قبره ؟ هذه الأسئلة لابد أن تبقى بلا أجوبة ماداموا يقولون بجواز التوسل بالنبى بعد مماته . وقد خفى على هؤلاء أنه كان من الممكن الجمع بين التوسل بالعباس المحتاج و بين التوسل بالنبى غير المحتاج ، لو كان التوسل بالميت جائزاً ممكنا . وخفى عليهم أيضاً أنهم كانوا كلهم يستسقون : العباس وعمر والجميع ، و إنما كان العباس كالامام لهم فى استسقائهم .

ولو صح ما ذكروه لتوسلوا بأفقر الناس

ولو كان هذا الذى ذكروه صحيحا لتوسلوا بأعظم الناس حاجة و بأكثرهم وأظهرهم بؤسا وفقراً إذا كان للاحتياج والفقر والبؤس دخل فى هذا التوسل وهذا الاستسقاء . ولتوسلوا أيضا بأعظم الناس حاجة وفقرا فى حياة النبى و بعد وفاته ، ولتوخى المسلمون دائما أهل الفاقة والحاجة فى توسلهم واستسقائهم . ولقال العلماء : « ويستحب أن يستسق بأهل الفاقة والحاجة والفقر المدقع » لا أن يقولوا : « ويستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والدين والتقوى » . ولو صدق هذا الذى ذكروه لكان توسل أحدهم بأحد أهل بيته المحتاجين أفضل عندهم وأولى من التوسل بالنبى و بأعظم الأولياء والمشايخ قدرا وجاهاً . ولكن كلا فان هؤلاء لايفكرون فى التوسل بالمحتاجين من أولادهم وأهليهم ، و إنما يتراكضون إلى أهل

للأضرحة والقبور البادية على قبورهم مظاهر الغنى والنعيم والثراء ، باسطين إليهم أكف الرجاء ، وأكف الحاجة والذل والسؤال عند كل ملمة . وما توسلوا بأولادهم ولا بمن هم محتاجون مثلهم ، كما توسل عمر بالعباس لأنه كان من ذوى الحاجات وترك النبي عليه السلام لأنه لم يكن محتاجاً .

ولو صح أيضاً هذا الذى ذكروه لكان من السنة تقديم الفقراء والمحتاجين فى كل عمل يراد به رزق الله ويراد به عطاؤه ومنه . ولكن لا يختلف المسلمون فى أن السنة تقديم الأفضل الأبر الاصلح الأقرب من الله .

زعمهم أنهم توسلوا بالعباس لبيان جواز التوسل بغير النبي ، وبيان بطلانه

وأما الرأى الثالث ــ وهو أن يكون عمر قد توسل بالعباس ليبين للناس جواز التوسل بغير النبي عليه الصلاة والسلام ــ فجوابه أنه رأى باطل فاسد أيضاً وذلك أنه لا يشك مسلم فى جواز طلب الدعوة والشفاعة ــ وهذا هو التوسل هنا ــ من كل صالح بر . ولو لم يتوسل عمر بالعباس لما شك أحد من المسلمين فى جواز هذا التوسل المشروع بأهل الخير والصلاح والدين غير النبي عليه السلام ، ولما قال أحد من أهل الإسلام : إن التوسل ــ على هذا المعنى الذى ذكرناه ــ لا يجوز ، أو يكره أو لا يستحب . فالمسلمون جميعاً لا يمكن أن يتنازعوا فى جواز الاستشفاع وطلب الدعاء من الصالحين الأبرار الأحياء . فلا يمكن أن يكون عمر إنما أراد أن يبين جواز ذلك ، ولا يمكن أن يكون قد شك فى معرفة المسلمين إياه ومعرفتهم جوازه ، أو شك فى احتياجهم إلى بيانه وعلمه . فلا يصح هذا الذى ذكره المخالفون فى توجيه الخبر .

ويقال ثانيا : إن بيان هذه الشئون والمسائل ليس إلى عمر ولا إلى غيره من أفراد الأمة . وإنما بيانها إلى الله وإلى رسوله .

ويقال ثالثاً : لو صح هذا الزعم لتوسلوا بالعباس وبغيره من الناس فى حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، بياناً لهذا الجواز .

ويقال رابعاً : لو كان هذا هو الغرض لتوسلوا بالعباس تارة وبالنبي تارة ليجمعوا بين فضيلة التوسل بالنبي وبين بيان جواز التوسل بغيره عليه السلام ولكن لم يصح أنهم توسلوا بالنبي بعد وفاته .

ويقال خامساً : لو صح هذا لقرنوا بين النبي وبين العباس وغيره في التوسل ولقالوا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا وبعم نبينا مثلا ليعلم هذا الجواز ولتحرز فضيلة التوسل بسيد البشر ﷺ .

ويقال سادساً : لو كان هذا صحيحاً لقاله عمر قولاً وصرح به تصريحاً، ولكان مقولاً أوضح منه مفعولا .

ويقال سابعاً : إذا صح لعمر وللصحابة معه أن يتوسلوا بالعباس لبيان جواز التوسل بغير رسول الله عليه السلام وجب عليهم أن يتوسلوا برسول الله ميتاً لبيان جواز التوسل به في قبره ، أو إذا صح لهم أن يلحظوا الرغبة في بيان جواز هذه المسألة ، وجب عليهم أن يلحظوا أن توسلهم بالعباس مع صدوفهم عن النبي عليه الصلاة والسلام يوهم أن التوسل به عليه السلام في قبره لايجوز ولا يشرع . وهذا الإيهام محذوراً أعظم من ذلك الجواز مرغوباً فيه .

ويقال ثامناً : لو كان هذا هو الغرض حقا لتوسلوا بأحد الأموات الذاهبين كحمزة أو جعفر أو فاطمة ابنة محمد عليه السلام أو إبراهيم ابن رسول الله أو غيرهم من الأموات ولو مرة واحدة ، ليدلوا على جواز التوسل بغيره ﷺ ، وليدلوا أيضاً على جواز التوسل بالأموات ، وليدفعوا توهم أن التوسل بالموتى لايجوز ولا يشرع .

ويقال تاسعاً : إما أن يكون لدى عمر بن الخطاب دليل شرعي على جواز هذا الذي زعم المخالفون أنه أراد بيانه ، أو لا يكون لديه دليل شرعي عليه . فإن كان لديه دليل كان الواجب عليه بيان ذلك الدليل وذكره ليعلم هذا الحكم من مصدره الأصلي الأول الصحيح — وهو قول الشارع وفعله . وليس من الرأي

الصحيح ولا من الحكمة أن يحاول عمر أو غيره من الصحابة أو غيرهم من المسلمين والأئمة المتبعين بيان حكم من الأحكام الشرعية بعمله وفعله هو . فان أحداً من من الناس ـ كائناً من كان ـ لايمكن أن يحاول بيان أحكام الله وأحكام شرعة نبيه بفعله وعمله إن لم يكن أحد أنبياء الله ورسله . ومن حاول ذلك فليس على هدى من الله . وذلك أنه لامعصوم فى قوله أو فى فعله من البشر سوى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . ومن ليس معصوماً لايصح أن يتخذ فعله أو قوله حجة من الحجج ، ولا يصح أن يعتقد هو أن فعله برهان من براهين الله وبراهين شرائعه . هذا إذا فرض أن لدى عمر دليلا شرعياً على جواز هذا الذى أراد بيان جوازه فى مازعم المخالفون . وأما إذا لم يكن لديه دليل فلا يمكن أن يحاول بيان جوازه . وإذا حاول لم يصح أن يتبع فى ما لا دليل عليه . فهذا التوجيه الذى ذكروه فى الخبر توجيه باطل .

زعمهم أنهم توسلوا بالعباس خيفة على ضعفاء المسلمين وبطلانه

وأما الرأى الرابع ـ وهو أن يكون عمر إنما توسل بالعباس دون النبى خيفة على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل به عليه السلام فهو من أبطل الآراء وأسخفها . وبيان ذلك بأمور :

أولها ـ : أن فى هذا الرأى إساءة ظن بالمسلمين الأولين ، واتهاماً فظيعاً لخير القرون ولأفضلها بمالا يصح أن يتهم به من توطنت فى صدره جراثيم الايمان والاسلام . وفيه أيضاً اتهام لعمر بأنه كان يتهم الصحابة والتابعين ـ وهما خير القرون ـ ويسىء الظن بهم ، ويخاف عليهم إذا توسلوا بالنبى فلم يجابوا أن يرتدوا ويضلوا ، أو يضعف اعتقادهم وإيمانهم بالله وبالنبى . وهذا من شر الاتهام وشر المقادح فى أوائل المسلمين الذين هم خير القرون وأفضلها وأتقاها وأصلحها وأبرها . وكيف يمكن أن يخاف على أولئك المسلمين إذا توسلوا بالنبى فلم يعطوا ونحن نشاهد هؤلاء الجهال من عامة المسلمين يدعون المشايخ والصالحين ، وهم لايجيبونهم طبعاً

ومع هذا لا يزدادون إلا عكوفاً على قبورهم ، وتعلقاً بدعائهم ، ولهجاً بأسمائهم ، وانقطاعا إليهم . وماضعف إيمانهم بهم ،ولا تزلزل اعتقادهم بأنهم يجيبون و ينفعون إذ لم يجابوا و إذ لم ينتفعوا بدعائهم شيئاً . فكيف يمكن أن يظن أن عمر بن الخطاب كان يخاف على الصحابة وعلى التابعين الضلال أو الارتداد أو نقصان الإيمان إذا توسلوا بالنبي التوسل المشروع فلم يجابوا ؟ اللهم إنا نعوذ بك من هذا الرأى وهذا الظن الآثم .

ة وجوه تبطل هذا الزعم الذى زعموه

وثانيها — : كيف يمكن أن ينقدح فى ذهن عمر أنهم إذا توسلوا واستسقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يجابون ولا يعطون ولا يسقون وهو يجدهم يتوسلون و يستسقون بالعباس فيجابون و يعطون و يسقون كما فى الحديث المذكور ،وقد قال أنس بن مالك راويه : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال : فيسقون . فإذا كان عمر يراهم يستسقون بالعباس فيجابون و يسقون ، فكيف يخاف أن يستسقوا برسول الله فلا يجابوا ، ولا يسقوا ؟

ثالثها — : لو صح هذا لتركوا التوسل بالنبي عليه السلام فى حياته ،ولتركوا التوسل بسائر الأنبياء ، بل ولتركوا دعاء الله والضراعة إليه وسؤاله والطلب منه خيفة الضلال والارتداد وضعف الإيمان إذا لم يجابوا و يعطوا ،ولتركوا عبادة الله مطلقاً لئلا يكون فى عبادته فتنة أو ردة أو سوء ظن به تعالى إذا أصيب عابدوه بشيء من الامتحان ، ومصائب الدنيا ، و بأنواع من الابتلاء . وهذا لا يقوله مسلم ولا مؤمن بالله . فإن الناس لا يختلفون فى أن دعاء الله وسؤاله والضراعة إليه وعبادته أنواع العبادات أشياء واجبة على الجميع كائنة أحوالهم ما كانت . ولا يختلفون أنه لا يجوز اجتناب التوسل بالنبي و بسائر الأنبياء التوسل المشروع الصحيح خيفة هذا الذى ذكروه .

رابعها — : إن نص الخبر نفسه يكذب هذا الوهم : وذلك أن عمر قد قال فيه : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ». إذن هم كانوا يتوسلون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وإذن هم ما كانوا يدعون التوسل به خيفة الضلال والفتنة عند تأخر المطر ، وإذن ما كان عمر ولا كان غيره يخاف هذا الذي ذكروا أن عمر خافه ، وإذن هذا الرأي رأي مرغوب عنه مهجور .

خامسها — : لوكان حقا هذا الذي ذكروه وزعموه لكان من الحق والهدى ، ومن الاقتداء بعمر وبالصحابة أن يجتنب المخالفون اليوم وقبل اليوم التوسل بالنبي ودعاءه والاستغاثة به واستشفاعه والعكوف على قبره خيفة على أنفسهم وعلى من يقتدون بهم من العامة والجهلاء ذاك الذي خافه عمر بن الخطاب على الصحابة والتابعين ، خيفة أن يضلوا وأن يرتدوا وأن يضعف إيمانهم واعتقادهم إذا لم يجابوا ويمطروا ، ولكان من الصواب والهدى نهي المتوسلين ، ونهي المخالفين اليوم عن ذلك خيفة عليهم من الضلال والارتداد . ولكن المخالفون لا يوافقون على شيء من هذا ، بل يزعمون أن التوسل بالنبي في قبره من أفضل القربات وأقربها إلى الله ، وهم لا يدخرون وسعاً في حض الناس على التوسل بالنبي في قبره وعلى دعائه وسؤاله كل الحاجات

فيا هؤلاء كيف يخاف عمر بن الخطاب على الصحابة والتابعين عاقبة التوسل برسول الله ، وأنتم لا تخافون على أنفسكم ولا على هؤلاء الجهلاء العاكفين على الأجداث عاقبة ذلك ؟ أأنتم أذكى وأبصر وأعلم بعواقب الأمور من عمر بن الخطاب ؟ أم أنتم وهؤلاء الجهلاء العاكفون على القبور أرسخ إيماناً وإسلاماً وأقوى عقيدةً من أولئك الصحابة وأولئك التابعين الذين خيف عليهم عقبى التوسل بالنبي ؟ اللهم لا هذا ولا ذاك ، ولكنها فتنتك تضل بها من تشاء

وسادسها — : لو صح ترك التوسل بالنبي خيفة الارتداد إذا تأخر المطر لصح

أيضاً ترك التوسل بالعباس خيفة هذا . وذلك أنهم ما استسقوا بالعباس إلا لصلاحه و إيمانه بالله و بالنبي و بدينه واقرابته من النبي أيضاً على قولهم . هذا هو وجه التوسل بالعباس والاستسقاء به . ومن ثم رجوا أن يسقوا وأن يعطوا ما سألوا . فاذا ما استسقوا على هذه الحال و بهذا الاعتبار بالعباس فلم يسقوا و لم يجابوا ولم يعطوا ما سألوه خيف عليهم الضلال أو الارتداد أو ضعف الايمان وتزعزعه ، وخيف عليهم أن يشكوا وأن يقولوا : هذا عم النبي — وعم الرجل صنو أبيه — قد آمن به وصدقه واتبعه وآمن بالله و بدينه وأطاعه وعبده قد توسلنا به إلى ربه فدعا لنا واستسقى من أجلنا ، و رغب إلى الله و كله أمل ورجاء ، و رغبنا معه وكلنا آمال و رجاء، ومع هذا كله لم يجب ولم نجب ،ولم يشفع لنا ولا له صلاحه و إيمانه ولا شيبه فى الاسلام ، ولا قربه من الله ولا قرباه من رسول الله ولا غير ذلك . . . وهنا يهتز إيمانهم و يتقلقل من مكانه ، و يخاف عليه التصدع والانهيار .

إذن هذه التوجهات فى حديث العباس توجيهات كلها باطلة ، وكلها لا يصح منها شئ ، فما الجواب ؟ إن الجواب الصحيح لا يعدو ما ذكرناه وهو أن الصحابة ما عدلوا عن النبي عليه الصلاة والسلام إلى العباس إلا لأنهم يعلمون أن التوسل بالميت لا يجوز ولا يمكن ولا يشرع .

ما لهذا الحديث من الفوائد الفائدة الاولى

﴿ فوائد حديث الاستسقاء بالعباس ﴾

وحينئذ نستفيد من حديث الاستسقاء بالعباس جملة فوائد كبرى .

« الفائدة الأولى »

إن التوسل بالأشخاص كالتوسل بالنبي و بالعباس أو بغيره إذا أطلق فى لسان السلف من الصحابة ومن بعدهم من أهل العلم و فى عرف الشارع ونصوصه كان

معناه الاستشفاع وطلب الدعاء أو التقرب بالدعاء والشفاعة . فقول مالك فى الرواية المذكورة عنه المتقدمة : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » يعنى به شفاعة رسول الله يوم القيامة . وقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث الأعمى المتقدم : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك . يا محمد إنى توجهت بك إلى ربك » يراد به التوجه بالدعاء والشفاعة . وقوله فى الخبر الذى نحن بصدده : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » يعنى به التوسل بالدعاء . وكذلك كل ما ورد من التوسل بالأشخاص والذوات فى ظاهر اللفظ لا يراد به إلا التوسل بالدعاء والشفاعات أو ما هذا معناه . والدليل عليه أن عمر ومن معه من الصحابة كانوا يتوسلون بالنبى عليه السلام فى حياته ، و بعد وفاته كفوا عن التوسل به وتوسلوا بسواه . وهذا لأن التوسل عندهم معناه طلب الدعاء والتقرب بالشفاعة . ومن مات لا يستشفع به ولا يطلب منه دعاء ولا غيره . ولو كان معنى التوسل عندهم كمناه عند هؤلاء المخالفين ـ ومعناه عندهم السؤال بالذوات والأشخاص والحقوق ـ لما عدلوا عن النبى ﷺ لا حيا ولا ميتاً ، لأنه يمكن التوسل بذاته وشخصه وحقه وجاهه حياً وميتاً ، لأن ذلك ثابت له عليه السلام وقت الحياة ووقت الممات وفى كل وقت . فالسؤال به دائماً ممكن فلا وجه للعدول عنه إلى العباس أو إلى غيره من الناس لو كان هذا هو الحق . ولكن التوسل بالشخص فى لغة القوم وخطابهم إذا أرسل وأطلق كان معناه الاستشفاع أو الشفاعة والدعاء وما يضارع ذلك . فحيث أطلق التوسل فى اللسان الصادق ذهب إلى الشفاعة والاستشفاع .

الفائدة الثانية

« الفائدة الثانية »

ونعلم من هذا الحديث أن أصحاب النبى وخلفاءه الراشدين ما كانوا يحاولون أن يسألوا النبى عليه الصلاة والسلام فى قبره شيئاً لا شفاعة ولا دعاء ولا إغاثة

ولا إعانة ولا أمراً من الأمور التى يسألها اليوم هؤلاء المسلمون كل من هب ودب من المشايخ والأموات ، وكل من أقيم على قبره قبة أوبناية أو زينة أومسجد أو نوع من أنواع المعلقات المختلفة ، و إن كان ماتحت ذلك جسد حيوان أوجسد كافر أو منافق أو فاسق من الفساق . وذلك أننا لا نشك فى أن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ما عدلوا عن نبيهم إلى عمه فى وقت حاجتهم وشدتهم وأزمتهم إلا لأنهم كانوا يعلمون أن الاتصال به على هذا الوجه أصبح غير ممكن وغير مستطاع ولا ميسور ، ولأنهم علموا أنه لا يصح أن يسألوه الشفاعة والدعاء فضلا عن أن يسألوه الغوث والمدد وقضاء الحاجات المختلفة ، أو يسألوه هداية القلوب وغفران الذنوب . وقد كانوا رضى الله عنهم حراصاً الحرص كله على أن يسألوه ذلك وأكثر منه لو كان ممكناً ومشروعاً مستطاعاً . لأن القوم كانوا جد مشتاقين إلى نبيهم و إلى الاتصال به الاتصال الممكن المستطاع كله ، وكانوا جد مشتاقين إلى الاغتراف من نهره علا ونهلا ، لأنهم قد شاهدوا فضله ، وشاهدوا ما أعطاه ربه من البركات والخيرات التى تمتعوا بها معه فى حياته وتمتعوا بها بعده. ولو أنهم علموا أن شيئا من ذلك يشرع لبادروا إليه ، ولما صح أن يتركوه وأن يعرضوا عنه ، آخذين بوسيلة العباس أو بوسيلة غيره من الناس . وما نازع فى هذا أحد ، ولا أقيم حوله جدال أو خلاف . فكأن القوم كانوا مجمعين عليه ، متفقين على فعل خليفتهم وخليفة رسولهم عمر وعلى فعله رضى الله عنه وعنهم .
ولو أن أحداً منهم كا يذهب إلى إمكان التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته و إلى جوازه لقام فى وجه عمر بن الخطاب ومن معه من الأصحاب ، ولقال له ولهم : كيف تتركون نبيكم وتتوسلون بسواه وهو حاضر معكم موجود بين أيديكم وأنتم فى مسجده وفى بلده وأمام حجرته و بيته ، أما تستحيون منه ومن ربه ؟ كلا ، إنه يجب عليكم أن ترجعوا إلى نبيكم و إلى وسيلته وشفاعته وحجرته ،

فتستسقوا به وتسألوه ما تشاءون من السقيا والدعاء والوسيلة والشفاعة وكل ما ترجون وتؤملون عند ربكم ومنه .. . ثم لما كان من عمر ومن معه من الأصحاب إلا أن يصغوا لهذا النداء ، وأن يلبوا ذاك الاعتراض ويقولوا جميعاً : حقا لقد عزبنا عن الصواب والسداد إذ تركنا نبينا ورجعنا إلى أتباعه ، نطلب الوسيلة والسقيا ، ونحن بين يديه فى مسجده وبلده . . . ولكن لسانا واحداً لم يفه بشئ من هذا ،فدلنا على أن قلباً واحداً من تلك القلوب لم يتردد على صفحاته شئ منه . وهذا لأنه لم يكن بين القوم خلاف فى أن سؤال النبي بعد الوفاة ضلال وحماقة كبرى جلية . وهذا من أعظم الحجج والبراهين على بطلان دعوة الأموات ، وبطلان سؤالهم الشفاعات وغيرها من المآرب والمطالب المختلفة التي يسألها اليوم كل هالك أقيم حول قبره نصب من الأنصاب المختلفة .

« الفائدة الثالثة » الفائدة الثالثة

أن نعلم من هذا أن كل الأخبار التى تروى فى دعاء النبي وسؤاله الشفاعة والدعاء وغير ذلك بعد مماته أخبار - إن وجدت - كاذبة غير ثابتة ولا صحيحة ، وأخبار ما كان يعرفها أصحاب النبي عليه السلام ولا يروونها . إذ لو كانت لديهم أخبار يروونها عن نبيهم فى جواز الاستشفاع والتوسل به ودعائه وسؤاله بعد وفاته لعملوا بها حين أزماتهم وحاجاتهم واستسقائهم ، ولما جاز أن يعدلوا عن التوسل بالنبي والاستسقاء به إلى التوسل والاستسقاء بالعباس . فانه لا شك أن القوم ما تركوا نبيهم وتركوا الاستسقاء به وتركوا دعاءه وسؤاله وخطابه إلا لأنهم لا يجدون دليلا يسوغ شيئاً من ذلك . فلو كان عمر بن الخطاب يعلم مثلا حديثا عن النبي فى جواز دعائه وسؤاله فى قبره لدعاه ولسأله واستسقى به يوم جدبهم وقحطهم ، ولأغناه الرجوع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الرجوع إلى العباس وإلى

غيره . ولو كان يروى عن النبي عليه السلام حديث سؤال آدم ربه بحق نبيه محمد وغفران الله له ذنبه بهذا السؤال لسأل ربه السقيا بحق رسوله محمد ﷺ كما سأل آدم به ، ولقال : نحن أحوج إلى السؤال بحق نبينا من آدم ، ولقال : أسألك يارب بحق محمد لما سقيتنا ، كما قال آدم فى الخبر المروى عن عمر عن النبى : «أسألك يارب بحق محمد لما غفرت لى » . ومن المحال أن يكون هذا الحديث حديث سؤال آدم ربه بحق محمد ثابتا عن عمر ثم لايسأل ربه بحقه ، بل يعدل عن ذلك إلى التوسل بالعباس . وما عن هذا من جواب إلا أن يقال : إن عمر كان ينسى حديث آدم هذا كلما استسقى بالعباس وكلما قحطوا ، بل وكل حياته . ولينظر هل يمكن أن يصح هذا وهل يجوز على عمر . ولو صح هذا كله وصح أن عمر كان ينسى الخبر عند استسقائه بالعباس لوجب أن ينبهه إليه من حدثهم به ومن سمعوه منه ومن عرفوه من الصحابة والتابعين إن كان أحد عرفه .

دلالة هذا الحديث على كذب جميع الاحاديث التى فيها ما يدل للمخالفين

وكذلك لو كان حديث الأعمى السابق ثابتاً عن عثمان بن حنيف مع القصة المذكورة فيه بين ابن حنيف وبين ذلك الرجل الذى كان يقصد عثمان بن عفان لحاجته فلا يلتفت إليه إلى آخر القصة السالفة : لو كان هذا الحديث ثابتاً عن ابن حنيف وكان دالاً على ما يذهب إليه المخالفون لقال عثمان بن حنيف ولقال غير ابن حنيف ممن يعلمون الحديث إن كان أحد يعلمه غيره لعمر ومن معه من الصحابة والتابعين : لا يصح أن تعدلوا عن النبى عليه الصلاة والسلام إلى سواه ، بل ارجعوا إليه واسألوه الشفاعة والسقيا والوسيلة ، واسألوه جميع ما تطلبون وتسألون ، ثم ذكروا لهم الحديث وقصة الأعمى والرجل الآخر فيه ، وأمروهم أن يتوضأوا وأن يصلوا وأن يدعوا ذاك الدعاء الذى علمه عثمان بن حنيف الرجل المتردد على الخليفة عثمان بن عفان . وإذا كان ابن حنيف قد علَّمَ ذلك الرجل المتردد على عثمان فى حاجته الخاصة به أن يتوسل بالنبى وأن يدعوه ويخاطبه

ويسأله ، فى مايزعمون ، أن يشفع له فى قضاء حاجته ، فكيف لاينبئ عمر ومن معه من الأصحاب والمسلمين بهذا الدعاء وهذا الأمر ليدعوا الله به كى يسقيهم ، وكى يزيل جدبهم وقحطهم بشفاعة نبيهم والاستسقاء به وبجاهه وكرامته وبركته ؟ وكيف طاب لابن حنيف أن يكتم هذا النبأ وهذا الخير العظيم عن عمر وعن المسلمين معه وهم فى حاجة شديدة ملجئة إلى علمه ومعرفته لوكان ثابتا صحيحاً حقا عن عثمان بن حنيف ؟

وكذلك أيضاً استسقاؤهم بالعباس ، وهى سند تلك الرواية المتقدمة ، وهى ما ذكروا عن مالك الدار خازن عمر قال : أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى عليه السلام فقال : يارسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا . فأتى الرجل فى المنام فقيل له : ائت عمر وأخبره أنهم مسقون . قال الحافظ العسقلانى فى فتح البارى (الجزء الثانى صفحة ٣٣٨ . طبعة الخشاب) : « وروى ابن أبى شيبة بإسناد صحيح من رواية أبى صالح السمان عن مالك الدار ، وكان خازن عمر ، قال : أصاب الناس قحط فى زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبى فقال : يارسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتى الرجل فى المنام فقيل له : ائت عمر وأخبره أنهم مسقون . وقد روى سيف فى الفتوح أن الذى رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزنى أحد الصحابة » انتهى كلام العسقلانى . وهذه القصة إما أن تكون ضعيفة الاسناد أو محرفة اللفظ ، أو يكون الآتى إلى قبر النبى عليه السلام ، القائل له : استسق لأمتك مخطئاً غالطاً مخالفاً لما ذهب إليه الخليفة عمر ومن معه من المسلمين . والرواية التى ذكر الحافظ ابن حجر أن إسنادها صحيح لم يكن الذاهب فيها إلى القبر هو بلال بن الحارث الصحابى ، وإنما هو رجل مبهم مجهول غير معروف الاسم ولا الحال . ولا يجب أن يكون فى فعله هذا راشداً مصيباً ، فقد كان فى التابعين من ابتدعوا وضلوا . وأما الرواية التى

جاء فيها أن الذاهب إلى القبر النبوى القائل : استسق لأمتك هو بلال بن الحارث المزنى الصحابى فهى رواية باطلة لأنها من طريق سيف بن عمر الضبى الأسدى الأخبارى المشهور، مصنف « الفتوح » و « الردة » وغيرهما . وسيف هذا متهم، اتهمه ابن حبان وغيره بالزندقة ، وأجمع الباقون على ضعفه فى الحديث مع إجماعهم على غزارة علمه ومعرفته بالأخبار . فالرواية التى قيل فيها : إن الذاهب إلى القبر هو بلال بن الحارث الصحابى رواية ضعيفة ، لايحل الاحتجاج بها لضعف سندها واتهام راويها ومخرجها وهو صاحب « الفتوح » سيف بن عمر الضبى المؤرخ . أما الرواية التى قال الحافظ ابن حجر : إنه رواها ابن أبى شيبة باسنادٍ صحيح فلا حجة فيها ، لأن ذلك الفاعل القائل المستسقى ليس صحابياً . ونحن لانقول : إن كل ما يعمل فى زمان التابعين أو زمان عمر الفاروق حق ودين وهدى .

وبالجملة فحديث الاستسقاء بالعباس المتفق على صحته يشهد شهادة صادقة واضحة بأن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، وبأن الصدر الأول من المسلمين ما كانوا يروون أحاديث عن رسول الله فى جواز دعوة الأموات أو جواز الاستشفاع بهم أو طلب الدعاء منهم أو التوسل بهم على الوجه الذى يذهب إليه المخالفون ، ويشهد شهادة لا ريب فى صدقها على أن كل ما يروى عن عمر أو عن غيره من الأصحاب عن النبى فى جواز دعاء النبى وجواز الاستشفاع به فى قبره شئ لا صحة له ولا قيمة لسنده ، ويدل أيضاً دلالة ظاهرة على أن الأخبار الصحيحة الثابتة عنهم عن رسول الله لا تدل عندهم على جواز دعوة الأموات ولا جواز خطابهم وطلب الشفاعة والدعاء منهم فضلا عن طلب غير ذلك . فلا يدل عندهم حديث مخاطبة النبى ﷺ لكفار بدر بعد ماقتلوا ورموا فى الطوى على أنه يجوز دعاء الأموات . وحديث خطاب رسول الله للقتلى من المشركين

دلالته على أن الاحاديث الصحيحة لاتدل على مذهب عباد الاموات

يوم بدر قد جاء من رواية عمر نفسه ، وجاء من غير روايته أنه كان حاضراً لرسول الله وسامعاً له حين خاطبهم وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وقال لهم ما قال . وقد قال رضى الله عنه فى هذه الحادثة : يا رسول الله كيف يسمعون ـ أو أنى يجيبون ـ وقد جيفوا ؟ فعمر رضى الله عنه كان قد شهد خطاب النبى لقتلى المشركين ورآه يخاطبهم و يناديهم ذلك النداء المعروف . ولكنه لم يفهم من كل ذلك جواز دعوة الأموات ، الدعوة التى يراد بها الشفاعة ، أو يراد منها الإعطاء أو المنع، أو الضر والنفع . ولو كان قد فهم أن مخاطبة النبى لأولئك المشركين الموتى تدل على جواز دعوة الموتى مطلقا، وعلى جواز الاستشفاع بهم لخاطب رسول الله فى قبره حين الجدب ، ولطلب منه الدعاء والشفاعة ، ولاستسقى به ، ولما احتاج إلى العدول عنه عليه السلام إلى العباس أو غير العباس .

وكذلك أحاديث زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم لا تدل عندهم على صحة دعوة الأموات . وأحاديث زيارة القبور أحاديث مشهورة لديهم معلومة لهم . ولو كانت تدل عندهم على جواز دعاء أصحاب القبور لاحتجوا بها على جواز التوسل والاستسقاء بالنبى ودعائه وسؤاله ، ولما عدلوا عنه حينئذ إلى سواه فى الاستسقاء أو غيره .

وكذلك خطاب النبى فى تشهد الصلاة لا يدل عندهم على جواز نداء الموتى وسؤالهم . وقد كانوا يقولون فى تشهدهم كما علمهم رسول الله : « السلام عليك أيها النبى و رحمة الله و بركاته » . ولو كان هذا لديهم مبيحاً لأن يدعى الموتى و يسألوا ، لسألوا النبى ولدعوه ولتوسلوا به واستسقوا بشفاعته إذ أجدبوا .

وكذلك جميع الأخبار والأحاديث الصحيحة الثابتة لا تدل عندهم على إباحة ما يأتيه هؤلاء المبتدعون اليوم وما يقولونه و يلهجون به فوق قبور المشايخ والصالحين من الضراعات والشكايات والأدعية ، و إلا لو كانوا يفهمونها كما يفهمها

هؤلاء المخالفون لدعوا نبيهم فى قبره ولتوسلوا به واستسقوا حين الجدب وحين سواه من الأزمات والحاجات .

وكذلك يدل خبر الاستسقاء بالعباس على بطلان الأخبار السالفة فى دعاء من أضل دابة أوشيئاً وأراد عوناً وهو فى فلاة من الأرض ، وأنه ينادى ويقول : « ياعباد الله أعينونى ـ أوأغيثونى » . وقد تقدم الكلام على هذه الأخبار . فلو كانت ثابتة عن أصحاب النبى وكانوا يعرفونها ويروونها ، وكانت دالة لديهم على جواز دعوة الأموات والاستغاثة بهم وطلب العون منهم لاستدلوا بها على دعاء النبى والاستغاثة به فى قبره ثم لتوسلوا واستسقوا به يوم أن احتاجوا إلى أن يستسقوا ويتوسلوا بالعباس .

ولا يخفى على من أنصف الحق من نفسه وهواه وعلمه أنه لا يمكن أن تكون هذه الأخبار معلومة لأصحاب النبى ، ثابتة عنهم ، وأن تكون دالة لديهم على ما استدل بها له المخالفون ، ثم لانجدهم يعملون بشىء منها ، لاعند قبره ﷺ ولا عند قبر غيره . بل نجدهم يستسقون ويتوسلون بالعباس وبغيره كما استسقى معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين بيزيد بن الأسود الجرشى أحد التابعين الصلحاء . وما فكر أحد منهم فى أن يذهب إلى أحد القبور فى يوم مايدعو ويستشفع أو يتوسل ويستسقى . وهل لهذا سبب غير أنهم لايعرفون هذه الأخبار المكذوبة ، وغير أن مايعرفونه منها لا يدل على ما استدل به عليه هؤلاء المخالفون المصابون فى عقولهم وفى ديانتهم ؟

الفائدة الرابعة

﴿ الفائدة الرابعة ﴾

أن نعلم أن التوسل بالجاه والحق والحرمة والبركة والذات والشخص شىء لا وجود له بين صحابة النبى وسادات المسلمين ، وشىء لا يعرفونه ولا يقولون به ولا يلتفتون إليه . فان هذا التوسل لو كان معروفا عندهم ، وكان من الدين والحق فيما

علموا وتعلموا من دينهم ونبيهم لتوسلوا بجاه النبي عليه السلام، أو بحرمته، أو ببركته، أو بذاته، أو بغير ذلك مما يتوسل به المبتدعون ويزعمونه من الدين. ولكن صحابة النبي وحملة دينه وشرعته كانوا يعلمون أن الاسلام الذي تلقوه من محمد بن عبد الله رسول الله بريء من هذه الوسيلة، ومن هذا التوسل الدخيل، ومن هذا الدعاء الباطل. ولأجل هذا لم يعبئوا به ولم يرجعوا إليه، بل توسلوا بالعباس لأنه كان يستطيع أن يدعو ويشفع ويستسقي لهم. وهذا هو التوسل الصحيح المشروع. ولم يتوسلوا أو يستسقوا بنبيهم عليه الصلاة والسلام في قبره لأنه لا يصح أن يدعى ولا أن يسأل ولا أن يطلب منه شيء بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. والتوسل الصحيح المشروع بالشخص لا معنى له غير طلب الدعاء والشفاعة والاستشفاع. ولو كان من الدين الذي تلقوه من نبيهم التوسل بالذوات والسؤال بالجاهات والحرمات والبركات وغير ذلك، مما لا يعنى به الدعاء ولا الشفاعة، لأمكن أن يتوسلوا بنبيهم بعد وفاته في قبره عند الاستسقاء وغير الاستسقاء، ولأمكن أن يقول الفاروق: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك أيضاً بنبينا -أي بجاهه وحرمته وبركته- فاسقنا».
ولكن كلا لم يقل ذلك، بل قال: إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. وهذا لأنهم كانوا في حياة النبي يتوسلون بدعائه وشفاعته واستسقائه لهم، أما بعد موته فلا دعاء ولا استسقاء، لهذا لم يتوسلوا أو يستسقوا به. والتفريق بين الحياة والممات في هذا الأمر يدل دلالة ظاهرة على أن التوسل بالذات أو بالجاه أو بالحرمة أو بالحق لا يشرع ولا يعرف في الدين ولا عند الصدر الأول من المسلمين، وإنما هو أمر مبتدع مكذوب في الإسلام.

هذا الحديث أصل من أصول الرد على المخالفين المبتدعين

فحديث الاستسقاء بالعباس الذي عده المخالفون من دلائلهم على مبتدعاتهم أصل من أصول الرد عليهم وعلى ما ابتدعوه من ضلال وجهل وباطل. وهكذا

الشأن فى جميع ما استدلوا به : إما شئ ضعيف مكذوب، أو صحيح ولكنه لا يدل لهم ، و إنما يدل على خلاف قولهم كهذا الحديث، وكأحاديث الشفاعة يوم القيامة . وقد تقدم الكلام عليها وتقدم بيان دلالتها على خلاف ما ذهبوا إليه . وكأحاديث زيارة القبور، فإنها فى الحق ترد عليهم وتدل على خلاف قولهم. وذلك أن الرسول عليه السلام قد علم أصحابه ما يقولون عند زيارة القبور من الأدعية والسلام والخطاب فكان كل ما فيها ، بلا خلاف ولا اختلاف، دعاء لأصحابها بالسلام عليهم وطلب السلامة لهم ، وسؤال العافية من أجلهم ، ودعاء للزائر نفسه بالعافية و بالنجاة من أسباب الشقاء والشر . ولا يخرج كل ما فى أحاديث الزيارة الصحيحة عن هذين الأمرين : الدعاء لصاحب القبر والدعاء لزائره . وليس فى شئ منها لا فى صحيحها ولا ضعيفها الأمر بدعاء أصحاب القبور ، أو سؤالهم . أو الاستشفاع بهم ، أو الدعاء بحقهم أو جاههم وحرماتهم أو نحو ذلك من هذه الأمور التى اخترعها المخترعون عند قبور المشايخ والصالحين ، بل وقبور الطالحين الفاسقين . وكذلك ليس فى أحاديث الزيارة الأمر بالتمسح بالقبور أو التقبيل لها أو لمسها أو استقبالها أو شئ من هذه الأمور ، بل ما فيها غير الدعاء الذى هو السلام وسؤال العافية والأجر للزائر والمزور .

ولو كان هنالك شئ يشرع : يقال أو يفعل ، حين الزيارة ، لعلمه النبى أصحابه ولدلهم عليه حينما سألوه أن يعلمهم سنة ذلك وما يقولونه وما يفعلونه إذا ما زاروا القبور ، فعلمهم الدعاء فقط : الدعاء لأنفسهم وللموتى الذين راح المغيرون للاسلام يدعونهم وقد أمروا بأن يدعوا لهم . وما علمهم غير الدعاء شيئاً . وليس بممكن أن يكتم عنهم شيئاً يقربهم من الله يصح أن يفعلوه أو يقولوه حينما يزورون المقابر. وقد كان هو عليه الصلاة والسلام يزور فيقول مثل ما علمهم أن يقولوا لا زيادة ولا نقصان .

ومن زعم أن هنالك شيئا يقال أو يفعل حين الزيارة غير مافى هذه الأخبار النبوية الصحيحة من السلام والدعاء فقد ذهب إلى اتهام النبى ، برأه الله، بالكتمان والتقصير فى البلاغ والبيان . وحاش لله أن يكتم نبيه شيئاً أو يدخر وسعاً فى بيانه و بلاغه .

كيف تفهم احاديث الزيارة بالنسبة الى هذا الحديث

فأخبار الزيارة رد على المخالفين بلا ريب . أما استدلالهم بلفظ الخطاب فى قوله : « السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، و إنا إن شاء الله بكم لاحقون » الحديث . فاستدلال ما أبطله . ذلك أن الخطاب هنا ليس خطابا حقيقيا يراد به الطلب أو الإسماع ، و إنما هو خطاب تصورى استحضارى يضاهى الخطاب فى قول المتشهدين : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله و بركاته » . ولا يقول مسلم إن الخطاب فى التشهد خطاب حقيقى يراد به الطلب من النبى أو يراد به إسماعه و إعلامه أو نحو ذلك ، لأن الذى يسمع من كل مكان هو الله وحده ، ولا أحد من الخلق يستطيع ذلك . ويضاهى الخطاب فى قول النبى يرثى ابنه إبراهيم : « و إنا بك يا إبراهيم لمحزونون » . ولا يراد بهذا الخطاب الطلب ولا الإسماع بالاجماع . و يضاهى قول الصديق يرثى نبى الله بعد وفاته « بأبى أنت وأمى يارسول الله . لايجمع الله عليك موتتين » . و يضاهى قول أم العلاء الأنصارية ترثى عثمان بن مظعون : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . و يضاهى قول النبى عليه السلام إذا سافر وأقبل الليل : « ياأرض ، ربى و ربك الله . أعوذ بالله من شرك وشر مافيك » الحديث . رواه أبو داود فى سننه . وروى أنه ﷺ كان يقول إذا رأى الهلال : « هلال خير و رشد . هلال خير و رشد . آمنت بالذى خلقك » . و يضاهى قول نبى الله صالح لقومه بعد ما أهلكوا . « وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين » وقال نبى الله شعيب خطابا لقومه الهالكين مثل قول صالح لقومه . وهذا النوع كثيرا جد

فى نصوص الشريعة . أما فى كلام النـاس شعرا ونثرا فلا يحيط به محيط . وقد تقدم بعض الكلام عليـه ، والخطاب فى زيارة المقابر من هذا النوع . وخطاب الأموات ، بل والجمادات ليس ممنوعا مطلقا ، و إنما يمنع منه ما كان مشتملا على الطلب و إرادة الإسماع وعلى الرغبة والرهبة . فأحاديث الزيارة مما يحتج به عـلى المخالفين وليست مما يحتج به لهم إلا عند الجانفين المحرفين .

حديث «حياتى خير لكم ومماتى خير لكم» بالنسبة إلى هذا الحديث

وكذلك الحـديث المشهور وهو قوله ﷺ « حياتى خير لـكم ومماتى خير لـكم ، تعرض على أعمالـكم ، فان وجدت خيرا حمدت الله ، و إن وجدت شراً استغفرت لـكم » إن صح . وقد روى مرسلا عن بكر بن عبد الله المزنى التابعى الثقة ، رواه القاضى إسماعيل بن إسـحاق فى فضل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام وروى أيضاً موصولا من حديث عبـد الله بن مسعود عن النبى عليـه الصـلاة والسلام ، رواه البزار ، وقال الحافظ الهيثمى : رجاله رجال الصحيـح ، ولفظه عنده فى مجمع الزوائد : عن عبد الله بن مسعود عن النبى عليه السـلام قال « إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » قال وقال عليه السلام « حياتى خير لكم ، تحدثون ويحدث لكم . ووفاتى خير لـكم ، تعرض عـلى أعما لكم . فما رأيت من خير حمدت الله عليه ، ومارأيت من شر استغفرت لكم » رواه البزار ورجاله رجال الصحيح . وقد تقدم سياق سنده عندالبزار . فهذا الحـديث إن صح عن النبى كان ردا على دعاة الأموات العاكفين على الأجداث . وذلك أن رسول الله قدأخبرأن أعمال أمته تعرض عليه عرضا : يعرضها الله ، أوتعرضها ملائكته وأنه بعد عرضها عليه إما أن يحمد الله و إما أن يستغفر . وهذا أمر لابد منه على مافى الحديث سواء أسألوه أم لم يسألوه ، فسؤالهم إياه لايجعله يفعل غير ما ذكر فى الخبر ، وتركهم سؤاله لايجعله يترك شيئاً مما فى الخـبر من حمد الله والاستغفار ، فسؤاله لايفعل شيئا ولا يقدم ولايؤخر ولا يفيد شيئاً ، فهو عبث والعبث باطل

والباطل ضديد الحق ، وضديد الحق منهى عنه مذموم. وقوله فيه « تعرض على أعمالكم » صريح فى أنه لايعلمها بنفسه ،وصريح فى أننا لانستطيع نحن أن نعرضها عليه ، وأننا لو عرضناها لما استطاع أن يعلمها ، فهو لايسمع دعاءنا ولا استشفاعنا ولا طلبنا الدعاء منه ، ولاابتهالنا إليه ، ولالهجنا باسمه ، ولا يعلم شيئاً من ذلك ، لأنه فى عالم ونحن فى عالم آخر . ولهذا لايعلم من أعمالنا عملا إلا بعرضه عليه : بعرض الله أو بعرض ملائكته ، أو بعرض جند من جنده . و إذن لا يصح دعاؤه ولاخطابه لمحاولة إسماعه و إعلامه ، لأنه لن يسمع ولن يعلم من أمرنا شيئاً بواسطتنا نحن .

وقوله « فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم » يدل على أن هذا الاستغفار وهذا الحمد لله أمران من أمور وظائفه التى لايخل بهما ، فلودعوناه لمازاد ذلك فى استغفاره وحمده لله شيئاً، ولو تركناه لما نقص تركنا من ذلك شيئاً . فلا تأثير لدعائه فى وظيفته هذه : وظيفة الحمد والاستغفار .

وهذا مثل قوله عليه السلام : « وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وقوله فى الخبر الآخر « إن لله ملائكة سياحين يبلغوننى عن أمتى السلام » ومعنى الخبرين أنه عليه السلام يبلغ صلاة أمته وسلامها عليه حيث كانوا، وحيث كان حين يصلون وحين يسلمون ، و إن كان لايسمع ذلك من المصلين المسلمين . وهذا لايقضى شىء منه بأن يدعى وأن يستشفع به وأن يطلب الدعاء منه ومثله أن الملائكة يصلون على المؤمنين و يدعون لهم و يسألون الله من أجلهم الغفران والتقريب من الجنة والإبعاد من النار . وهذه إحدى وظائف الملائكة ،ولكن مع هذا لا يجوز دعاؤهم ولا سؤالهم هذا الذى يسألونه ربهم للمؤمنين ولا طلب الشفاعة والدعاء منهم ، كما تقدمت الدلائل . ومثل هذا أيضا أن النبى عليه السلام يوم أن كان حيا كان كذلك يدعو للمؤمنين و يستغفر لهم و يصلى عليهم ويسأل ربه لهم كل ضروب الاسعاد والفلاح ، وكل أسباب الخير والنجاة . ومع

ومثل هذا دعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم

هذا كله ما كان يصح لمن كان بعيداً عنه أن يطلب ذلك منه : فما كان يصح لمن كان فى مكة أن يخاطبه وهو فى المدينة وأن يقول له ادع الله لى أواستغفرمن أجلى أو نحو ذلك ، فضلا عن أن يسأله هداية قلبه أو غفران ذنبه أو شفاءه من مرضه أو إنقاذه من بلوى حلت به . ولو أن أحداً فعل ذلك لعد من الضالين الجاهلين المؤاخذين . فكيف بمن يفعل ذلك بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى العالم الأخروى ، إلى الرفيق الأعلى ، إلى عالم الخلود والنعيم ؟؟ فهذا الحديث ، وهو من براهين المخالفين ، لو صح ، كان من الحجج عليهم ومن الدلائل القوية على بطلان دعاء الأموات والاستغاثة بهم وطلب الأشياء منهم : وهكذا جميع الأخبار الصحيحة التى يحتجون بها مآلها عند التحقيق و إعطاء الفهم حقه أن تكون حججا عليهم .

الآيات التى يحتج بها المخالفون بالنسبة الى هذا الحديث

وكذلك الآيات التى يحاولون التعلق بها : فمثلاً هم يحتجون بقوله تعالى « أحياء عند ربهم يرزقون » الآية النازلة فى الشهداء . والآية عند التأمل رد عليهم . وذلك أنها قد أخبرت أنهم أحياء عند ربهم لا عندنا ولا عند دعاتهم ولا عند دعاة الأموات . ومعنى ذلك أنهم مقيمون فى السماوات ، مستقر الأرواح الطاهرة الصالحة ، ومأوى الملائكة والمقربين من الأنبياء والرسل والصالحين . و إذا كان ذلك كذلك فلا يمكن دعاؤهم ، ولا الاتصال بهم ، ولا محاولة إسماعهم و إعلامهم ، لأنهم فوق مافوق السماوات فى أعلى عليين . فلا يستطيع حينئذ أهل الأرض أن يتصلوا بهم بوجه من وجوه الاتصال التى يحاولها اليوم دعاة الاموات المبدعون الضالون . وهم حينما كانوا أحياء فى الأرض لم يكونوا يدعون و يسألون فى مغيبهم ، ولم يكن يطلب منهم الغوث والمدد إلا فى حضورهم . فما كان المسلمون يدعون نبيهم ولا يخاطبونه ﷺ ولا يسألونه فى غيبته أو غيبتهم هم شيئا ، ولا كانوا يفكرون فى هذا . ولو أن أحداً دعاه ﷺ فى مغيبه وقت حياته لعد من

الجهلاء الضلال . فدعوة الحي الغائب ممنوعة باطلة ، غير ممكنة ولا جائزة ولا مشروعة . فدعوة من هم أحياء عند ربهم حياة برزخية غيبية في أعلى عليين أحق بالمنع والبطلان والتحريم .

فآية حياة الشهداء التي يستدلون بها على جواز دعوة الأموات هي في الحق وعند التأمل الصحيح المخلص تدل على خلاف ما ذهبوا إليه ، وخلاف ما قالوه ، أي تدل على بطلان دعوة الموتى وعلى تحريم الاتصال بهم وتحريم سؤالهم واستجدائهم .

وهم يحتجون أيضاً بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » على جواز ما يذهبون إليه وما يقولونه من الباطلات والخرافات كالاستغاثة بالأموات ودعائهم . والآية في الحقيقة صريحة في فساد مذهبهم . وذلك أن الوسيلة في نص الآية إما أن يراد بها الأنبياء والأولياء والصالحون — وهؤلاء وسائل عند عبدة القبور — وإما أن يراد بها القرب إلى الله والتقرب إليه وإلى مراضيه . أما الاحتمال الأول فباطل من نفس الآية . وذلك أنها تقول : « وابتغوا إليه الوسيلة » . فلو كانت الوسيلة هي من يدعى من الأنبياء والصالحين والمشايخ لكانت الآية أمراً بابتغاء هؤلاء الصالحين المدعوين ، والابتغاء معناه الطلب . فاذا كانت الوسيلة هي من يدعى من الصالحين — والابتغاء هو الطلب — كان معنى الآية هكذا : « اتقوا الله واطلبوا إليه الصالحين » . وهذا لا معنى له بلا ريب . وكلام الله يجل عن أمثاله . ولو كان هذا هو المراد من الآية الكريمة لقيل فيها : « وابتغوا من الوسيلة » . أو « وتقربوا بالوسيلة » . أو « وتوسلوا بالوسيلة » أو نحو ذلك . فالاحتمال الأول لا يمكن أن يكون مراداً بالآية وبالوسيلة فيها يقيناً . وأما الاحتمال الثاني — وهو أن يكون المراد بالوسيلة القرب والتقرب إلى الله — فهذا هو التفسير الصحيح للآية كما تقدم .

فالآية إذن أمر بالتقرب إلى الله ، والتقرب إليه تعالى غير التقرب إلى الأموات و إلى المشايخ والصالحين ، بل الأمر بالتقرب إليه تعالى ينافى اتخاذ الوساطات والوسائل من الخلق ومحاولة التقرب إليها والتقرب بها . فالآية إذن رد على عبدة القبور ، نقض لما زعموه وادعوه . وهكذا جميع الآيات وجميع الأحاديث الصحيحة التى يحتجون بها ، هى عند التأمل الصائب القوى رد عليهم و إبطال لما يزعمونه و يدعونه . و بالله التوفيق .

﴿ كتاب ﴾

﴿ فصل الخطاب، فى تحريف كتاب رب الأرباب ﴾

مذهب الشيعة فى تحريف القرآن

وقع لى أخيراً كتاب ألفه أحد شيوخ الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية ، سماه « فصل الخطاب ، فى تحريف كتاب رب الأرباب » . والكتاب مطبوع طبعة حجرية ، كأنه مطبوع فى فارس أو فى الهند . قال فى أوله : « الحمد لله الذى أنزل على عبده كتاباً جعله شفاء لما فى الصدور ، ومهيمناً على التوراة والانجيل والزبور ، والصلاة والسلام على حامله نور النور ، والبيت الرفيع المعمور محل تدبير الأمور ، ومالك أزمة النشور [١] محمد المنتخب فى عالم السرور ، وعلى آله الصحف الناطقة بكل غائب ومستور ، والزبر المحتوية لما يكون أو مضى فى سالفات الدهور [٢] ومصابيح الأنام فى ظلمات الغرور ، ومفاتيح خزانة العلم المسطور، فى رق منشور ، خصوصاً على مختلف الملائكة فى الآصال والبكور [٣] القطب الذى على مدار وجوده الأفلاك تدور ، المشرق نوره فى قلوب مواليه ، المحتجب عن أعين كل عديم الشعور ، إلى يوم ينفخ فى الصور ، ويبعث من فى القبور [٤] وبعد فيقول العبد المذنب المسىء : حسين بن محمد تقى النورى الطبرسى — جعله الله من الواقفين ببابه ، المتمسكين بكتابه : هذا كتاب لطيف ، وسفر شريف ، عملته فى إثبات تحريف القرآن ، وفضائح أهل الجور والعدوان ، وسميته « فصل الخطاب ، فى تحريف كتاب رب الأرباب »

(١) النشور : البعث . يعنى انه عليه السلام مالك يوم القيامة

(٢) يعنى ان آل النبي عالمون بجميع الغيوب : الماضية والآتية

(٣) مختلف الملائكة مكان اختلافهم أى إتيانهم وذهابهم ويريدون ان عليا يوحى إليه

(٤) هذه العبارات تأليه ظاهر لعلى بن أبى طالب.

وجعلت له ثلاث مقدمات وبابين ، وأودعت فيه من بدائع الحكمة ما تقر به كل عين . وأرجو ممن ينتظر رحمته المسيئون ، أن ينفعنى به فى يوم لا ينفع مال ولا بنون . . . » .

وقال فى ختام الكتاب : « . . . وقد حان لنا أن نعطف عنان القلم ، إلى حمد من علم الانسان ما لم يعلم ، وأودع فى قلوبهم طرائف الحكم ، ونتوسل بالصلاة على النبى الأكرم ، والفاتح الخاتم المبعوث على طوائف الأمم ، وعلى آله أولياء النعم ، ومصابيح الظلم ، وأسرار السجود لآدم . وقد فرغ من تنميق هذه الأوراق ، رجاء الانتفاع بها يوم يكشف عن ساق ، العبد المذنب المسىء المنسى ، حسين بن محمد بن تقى النورى الطبرسى ، فى مشهد مولانا أمير المؤمنين . شهر جمادى الأخرى من سنة ١٢٩٢ من الهجرة النبوية . . . » .

وقد ختم الكتاب بهذه العبارة : « وقد فرغت من تسويد هذا الكتاب العال ، بعون الملك المتعال ، فى ثانى عشر شهر شوال من شهور سنة ١٢٩٨ من الهجرة المقدسة النبوية ، على مهاجرها آلاف الثناء والتحية ، وأنا العبد العاصى الفانى ابن مرحوم ميرزا سيد محمد بن رضا أحمد الطباطبائى غفر الله لى ولأمى وأبى بجاه محمد وعلى . سنة ١٢٩٨ » .

والكتاب — كما يدل اسمه — موضوع للتدليل على أن القرآن محرف أنواع التحريف كلها ؛ بالزيادة ، و بالنقصان ، وبالترتيب ، و بالتبديل . وقد ذكر الدلائل على كل هذا من روايات الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية فى كتبهم عن أئمتهم . وقد زعم أن القول بالتحريف من ضروريات مذهبهم ، ومما تواترت دلائله . ونحن فى هذا الفصل ننقل بعض ما جاء فى هذا الكتاب الشنيع إتماماً للغرض الذى قصدناه وأردناه .

قولهم فى الزيادة — قال صفحة ١٢٢ « اعلم أن وجود أصل الزيادة مقطوع به فى كلمات الأكثرين

حتى من المنكرين للتحريف ، كالصدوق وأتباعه . والأخبار فيه متواترة ، وستقف عليها . . » .

وقال صفحة ٢٣٦ « روى الثقة الجليل محمد بن مسعود العياشى فى تفسيره باسناده عن أبى جعفر عليه السلام قال : لولا أنه زيد فى كتاب الله ونقص ما خفى حقنا على ذى حجى . ولو قام قائمنا فنطق صدقه القرآن . قال المحدث البحرانى فى « الدرر النجفية » : يمكن حمل الزيادة فى هذا الخبر على التبديل حيث إن الأصحاب ادعوا الإجماع على عدم الزيادة ، والأخبار الواردة فى هذا مع كثرتها ليس فيها ما هو صريح فى الزيادة . فتأويل الخبر بما ذكرنا لابعد فيه . انتهى . وهو حسن ، إلا أنه تأتى الاشارة إلى زيادة بعض الحروف . ويأتى ذكره فى محله . وعن الصادق : لو قرىء القرآن كما أنزل لألفينا فيه مسمين . وقال أبو عبد الله : إن فى القرآن ما مضى وما يحدث ، وما هو كائن . كانت فيه أسماء الرجال فألقيت . وإنما الاسم الواحد منه فى وجوه لاتحصى ، يعرف ذلك الوصاة . وعن أبى جعفر قال : إن القرآن طرح منه آى كثير ، ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت بها الكتبة وتوهمتها الرجال . وروى محمد بن إبراهيم النعمانى فى « غيبته » باسناده عن على بن أبى طالب قال : كأنى بالعجم [1] فى فساطيطهم فى مسجد الكوفة ، يعلمون الناس القرآن كما أنزل . قلت : يا أمير المؤمنين : أليس هو كما أنزل ؟ فقال : لا ، محى منه سبعون من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وماترك أبو لهب إلا للإزراء على رسول الله لأنه عمه . . » .

تحريم الشيعة على النار

وقال صفحة ١٥٦٠ « روى فرات بن إبراهيم الكوفى فى تفسيره باسناده قال على بن موسى الرضا عليه السلام : والله لا يرى فى النار منكم اثنان أبدا ، لا والله ولا واحد . قال : قلت أصلحك الله أين هذا من كتاب الله ؟ قال هو فى سورة

---

(١) هذه الرواية صريحة فى أن بناة المذهب الشيعى الغالى من الأعجام

الرحمن فى قوله تبارك وتعالى «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » . قال : قلت : ليس فيها « منكم » قال : بلى والله ، إنه لمثبت فيها ، و إن أول من غير ذلك لابن أروى . وروى أحمد بن محمد السيارى فى كتاب القراءات بالاسناد عن الرضا قال : لا يرى فى النار منكم اثنان ، لا والله ولا واحد . ذلك فى كتاب الله. قلت: أين هو من كتاب الله ؟ فسكت عنى حولا، ثم اجتمعت معه فى الطواف فقال : ما أذن لى إلا الساعة ، قال الله تبارك وتعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » قلت : ليس « منكم » قال : بلى والله ، محاها ابن أروى . وروى الصدوق فى « بشارة الشيعة » ، على ما فى تفسير البرهان للسيد المحدث التوبلى باسناده عن الرضا عليه السلام قال : لا يرى منكم فى النار اثنان ، لا ولا واحد ، قلت : أين ذا من كتاب الله ؟ فأمسك عنى سنة ، قال : فانى معه فى الطواف ذات يوم إذ قال : أذن لى فى جوابك عن مسألتك كذا ، قلت: فأين هو فى القرآن ؟ قال فى سورة الرحمن وهو قول الله « فيومئذ لا يسئل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » فقلت له : ليس فيها « منكم » قال : إن أول من غيرها ابن أروى . وذلك أنها حجة عليه وعلى أصحابه . ورواه الشيخ شرف الدين النجفى فى تأويل الآيات عن الصدوق مثله . وأروى هى أم عثمان بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس » .

تواتر اخبار لتحريف عند القوم

وقال صفحة ٢٥٠ « الدليل الثانى عشر الأخبار الواردة فى الموارد المخصوصة من القرآن ، الدالة على تغيير بعض الكلمات والآيات والسور بأحدى الصور المتقدمة ، وهى كثيرة جدا حتى قال السيد نعمة الله الجزائرى فى بعض مؤلفاته كما حكى عنه : إن الأخبار الدالة على ذلك تزيد على ألفى حديث . وادعى استفاضتها جماعة كالمفيد ، والمحقق ، والعلامة المجلسى ، وغيرهم ، بل الشيخ أيضاً صرح فى « التبيان » بكثرتها ، بل ادعى تواترها جماعة يأتى ذكرهم فى آخر

البحث . ونحن نذكر منها ما يصدق دعواهم مع قلة البضاعة ، ونبين فى آخرها ضعف بعض الشبهات التى أوردها جماعة . واعلم أن تلك الأخبار منقولة من الكتب المعتبرة التى عليها معول أصحابنا فى إثبات الأحكام الشرعية والآثار النبوية » .

ثم بعد هذا من صفحة ٢٥٢ إلى صفحة ٣٥٠ ذكر القرآن سورة سورة ، وأورد ما اطلع عليه مما حذف منه على زعمهم ناقلاً لذلك من كتب أسلافه الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية .

ماحذف من سورة البقرة وآل عمران

قال فيما حذف من سورة البقرة : روى ثقة الاسلام الكلينى عن الكافى عن أبى جعفر عليه السلام قال : نزل جبرائيل بهذه الآية هكذا : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فى على فأتوا بسورة من مثله » . وروى الكلينى أيضاً عن أبى جعفر أيضاً قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا : « فبدل الذين ظلموا آل محمد حقهم قولاً غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » . وذكر هذا أيضاً عن جماعات من شيوخ الشيعة . قال : وروى الكلينى عن أبى عبد الله فى قول الله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين بولاية الشياطين على ملك سليمان » .

وقال فى سورة آل عمران : هكذا نزل قول الله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد على العالمين » . ونقل هنا رأيين أحدهما يقول : إن كلمة « آل عمران » لم تكن موجودة ، وإنما كان الموجود مكانها « آل محمد » ، فأزالوا آل محمد ووضعوا « آل عمران » بدلها . فتكون الآية مبدلة محرفة. والرأى الآخر يقول : إن كلمة « آل عمران » كانت موجودة وكان بعدها آل محمد فأزالوا آل محمد . وعلى هذا الرأى فالذى فى الآية نقصان . قال : وروى على

ابن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن سنان قال : قرأت على أبي عبدالله عليه السلام : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » فقال أبو عبد الله : خير أمة يقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين ! فقال القارئ : جعلت فداءك كيف نزلت ؟ قال « كنتم خير أئمة أخرجت للناس » . ألاترى مدح الله لهم « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله [1] » ؟ . قال : وروى النعماني في تفسيره عن الصادق عن أمير المؤمنين أنه قال : وأما ما حرف من كتاب الله فقوله تعالى : « كنتم خير أئمة أخرجت للناس » فحرفت إلى « خير أمة » الخبر وهو طويل . وفي المجلد التاسع عشر من البحار : روى مشايخنا عن أصحابنا عن أبي عبد الله قال : قال أمير المؤمنين ــ وساق الحديث إلى أن قال : باب التحريف في الآيات التي هي خلاف ماأنزل الله مما رواه مشايخنا من العلماء عن آل محمد قوله عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . فقال أبو عبد الله لقارئ هذه الآية : ويحك « خير أمة » يقتلون ابن رسول الله ؟ قلت : جعلت فداءك فكيف هي ؟ فقال أنزل الله : « كنتم خير أئمة » ألاترى مدح الله لهم : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . فمدحه لهم دليل على أنه لم يعن الأمة بأسرها ، ألاترى أن الأمة الزناة ، واللاطة ، والسراق وقطاع الطريق ، والظالمين ، والفاسقين [2] أفترى الله مدح هؤلاء وسماهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ؟ كلا ، ما مدح هؤلاء ولا سماهم أخياراً بل هم الأشرار . قال : وقال علي بن إبراهيم في قوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » . قال أبو عبد الله : ما كانوا أذلة

---

(١) ومعنى هذا أن المسلمين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يؤمنون بالله.

(٢) كذا بالنصب، وكذا عم الأمة بأنها الأصناف الفاسقة التي ذكرها . والاستدلال سخيف لاننا اذا قلنا : العرب نصروا الاسلام والنبي ، لم نعن كل عربي ـ

وفيهم رسول الله . و إنما نزل : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم ضعفاء » . وقال في قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » قال أبو عبدالله : إنما أنزل الله : « لك من الأمر شيء » . وعن محمد ابن جمهور عن بعض أصحابنا قال : تلوت بين يدى أبي عبدالله هذه الآية «ليس لك من الأمر شيء » فقال : بلى وشيء ! وهل الأمر كله إلا له ؟ قال : وروى النعمانى بالسند المتقدم عن أمير المؤمنين : وقال سبحانه في سورة آل عمران : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون لآل محمد » فحذفوا آل محمد .

المحذوف من سورة النساء

وقال في سورة النساء : وعن البرقى عن الديلمى عن داود الرقى قال قال أبو عبد الله : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم وآل عمران وآل محمد الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً » ثم قال : نحن والله الذين ذكرهم الله في كتابه ، ونحن والله المحسودون ثلاثاً . قال : وروى ثقة الاسلام في روضة الكافى بالإسناد عن أبي الحسن في قول الله : « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم فقد سبقت عليهم كلمة الشقاء وسبق لهم العذاب وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً [1] » . قال: وروى السيارى عن أبي عبدالله « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول ، وظلموا آل محمد حقهم لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » . قال وعن على بن إبراهيم بالاسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ياعلى فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » هكذا نزلت . قال : وروى ثقة الاسلام عن العدة عن أبي عبد الله في هذه الآية : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت في أمر الولاية ويسلموا لله الطاعة تسليما » . وروى العياشى

(١) كذا ذكروا الآية مزيدة ومنقوصة .

عن جابر عن أبى جعفر : « فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فى ما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضى محمد وآل محمد ويسلموا تسليما » . وعن عبدالله بن يحيى الكاهلى عن أبى عبد الله قال : والله لو أن قوماً عبدوا الله وحده لاشريك له ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وحجوا البيت ، وصاموا شهر رمضان ثم لم يسلموا لنا لكانوا بذلك مشركين . . . ثم قرأ : « فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فى ما شجر بينهم مما قضى محمد وآل محمد » . و روى ثقة الاسلام عن أبى عبد الله : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم وسلموا للامام تسليما أو اخرجوا من دياركم رضاله ما فعلوه إلا قليل منهم . ولو أن أهل الخلاف فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا » . قال : و روى الكلينى بسنده عن أبى جعفر قال نزل جبرائيل بهذه الآية هكذا : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فى ولاية على فآمنوا خيراً لكم ، و إن تكفروا بولايته فان لله ما فى السموات والأرض » .

المحذوف من سورة المائدة

وقال فى سورة المائدة عن أبى جعفر عليه السلام فى قول الله : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » قال : إن الرسول عليه الصلاة والسلام عقد لعلى عليهم بالخلافة فى عشرة مواطن ثم أنزل الله : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التى عقدت عليكم لأمير المؤمنين صلوات الله عليه » . قال : و روى ابن شهراشوب فى المناقب كما فى البحار عن عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده فى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فى على و إن لم تفعل عذبتك عذاباً أليماً » فطرح عدوى اسم على عليه السلام [1] .

ما ذكروه فى سورة الانعام

وقال فى سورة الأنعام : وعن أبى عبد الله فى قوله : « والله ربنا ما كنا

(١) ولقد ذكر جنا روايات كثيرة حول هذا النقل مايدل على انهم يفضلون على بن ابى طالب على رسول الله بل ، كانهم يرونه خادما له .

مشركين بولاية على » . قال وروى الكلينى باسناده عن أبى الربيع الشامى قال سألت أبا عبد الله عن قوله تعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » فقال : الورقة : السقط ، والحبة ، الولد ، وظلمات الأرض : الارحام ، والرطب ما يحيا الناس به واليابس ما يغيظ ، وكل ذلك فى إمام مبين . ثم ذكر عن الخاصة والعامة أن الامام المبين هو على بن أبى طالب .

ما ذكروا فى سورة الأعراف وبراءة

وقال فى سورة الأعراف : إن الله أنزل هذه الآية هكذا : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ومحمد رسولى وعلى أمير المؤمنين » . وهنا ساق روايات كثيرة .

وقال فى سورة براءة : روى العياشى عن عبد الله بن محمد الحجال قال : كنت عند أبى الحسن الثانى ومعى الحسن بن الجهم فقال له الحسن : إنهم يحتجون علينا بقول الله : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » قال ومالهم فى ذلك ؟ فوالله لقد قال : « فأنزل الله سكينته على رسوله » وما ذكره (يعنى أبا بكر) بخير فيها . قال قلت جعلت فداءك هكذا تقرءونها ؟ قال هكذا قرأتها . وعن زرارة قال أبو جعفر « فأنزل الله سكينته على رسوله » ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » فقال هو الكلام الذى تكلم به عتيق [1] . وروى الكلينى بسنده عن الرضا : « فأنزل الله سكينته على رسوله وأيده بجنود لم تروها » هكذا نقرؤها وهكذا تنزيلها . وروى السيارى عن أبى عبد الله قال قال أبو جعفر : « فأنزل الله سكينته على رسوله » فقلت له « عليه » فقال « على رسوله »، ألا ترى أن السكينة نزلت على رسول الله . وعن أبى جعفر أنه قرأ « فأنزل الله سكينته على رسوله ، وأيده بروح القدس منه » .

(١) عتيق هو أبو بكر الصديق ، فهو الذى كفر وجعلت كلمته السفلى عند الشيعة.

قلت : ليس هكذا نقرؤها ، قال : لا ، هكذا فاقرأها لأن تنزيلها هكذا .

قال الرافضى : وللأصحاب كلام طويل فى المقام فى استهجان عود الضمير « عليه » إلى الصاحب . قال : والآية تدل على عدم إيمان الصاحب . والعامة قبحهم الله يفتخرون بها حتى إنى رأيت بعض مصاحفهم كانت الآية المذكورة مكتوبة فيها بماء الذهب . قال: وروى السيارى عن أبى عبد الله أنه قال: «ويلك» من كتاب الله . وعن مثالب بن شهراشوب عنهم عليهم السلام أن الآية المذكورة هكذا « ويلك لاتحزن » . قال : وروى الكلينى قال : قرأ رجل عند أبى عبدالله عليه السلام : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »، فقال: ليس هكذا وإنما هى : « والمأمونون » ونحن المأمونون . قال : وروى على بن إبراهيم قال نزلت : « يا أيها النبى جاهد الكفار بالمنافقين[1] » لأن النبى لم يجاهد المنافقين بالسيف قال الطبرسى : وروى فى قراءة أهل البيت « جاهد الكفار بالمنافقين » قالوا عليهم السلام لأن النبى لم يقاتل المنافقين ، وإنما كان يتألفهم ، لأن المنافقين لا يظهرون الكفر

ما ذكروه فى باقى سور القرآن

وقال فى سورة الرعد : كان التنزيل هكذا : « إنما أنت منذر ، وعلىّ لكل قوم هاد[2] » . وروى شمس الدين محمد بن بديع الرضوى فى الحبل المتين فى تفسير كازر والمولى فتح الله فى سياق الآيات المحرفة : وفى سورة الرعد : « إنما أنت منذر للعباد ، وعلىّ لكل قوم هاد »

وقال فى سورة الحجر : روى الكلينى بالإسناد عن أبى عبد الله قال : « هذا صراط علىٍّ مستقيم » . وقد أورد هنا روايات كثيرة

وقال فى سورة النحل : وعن أبى جعفر عليه السلام قال : أنزلت هذه الآية

(١) يعنون بالمنافقين الصحابة الذين كانوا يقاتلون مع رسول الله الكفار

(٢) ولاشك ان الهادى لكل قوم أفضل ممن هو منذر فقط .

هكذا : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم فى على قالوا أساطير الأولين » . وهناذكر عدة روايات . قال : وروى النعمانى فى تفسيره بالاسناد المتقدم عن أمير المؤمنين فى سياق الآيات المحرفة : ومنها قوله تعالى فى سورة النحل : « أن تكون أئمة هى أزكى من أئمتكم » فجعلوها « أمة » . وذكر هنا جملة روايات .

وقال فى سورة الاسراء : عن أبى جعفر قال : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك فى على » . وقد ساق هذا عن غير واحد من شيوخهم وعن غير كتاب من كتبهم . قال : وروى العياشى بالإسناد عن أبى جعفر قال نزل جبريل بهذه الآية على محمد هكذا : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين آل محمد حقهم إلا خساراً » . وروى محمد بن عباس بالسند عن أبى عبد الله قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا « فأبى أكثر الناس بولاية على إلا كفوراً » .

وقال فى سورة الكهف قال قال أبو عبد الله عليه السلام نزلت هذه الآية هكذا : « وقل الحق من ربكم فى ولاية على فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين آل محمد ناراً أحاط بهم سرادقها » . وقد أورد هنا جملة أخبار .

وقال فى سورة (طه) : وعن أبى الحسن : موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال سمعت أبى يقول : « وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً لآل محمد ﷺ » هكذا نزلت . وروى السيارى بالسند عن أبى عبد الله فى قول الله عز وجل : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل كلمات فى محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم فنسى » هكذا والله نزلت .

وقال فى سورة الأنبياء : وروى السيارى بالاسناد عن عمير وجابر : « وأسروا

النجوى الذين ظلموا آل محمد حقهم : هل هـذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون »

وقال فى سورة (الفرقان) : روى على بن إبراهيم بالسند عن أبى جعفر قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا : « وقال الظالمون لآل محمد حقهم : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » . و روى السيارى بالاسنادعن أبى عبد الله أنه قال نزل جبريل بهذه الآية على رسول الله هكذا و إنها لفى مصحف على بن أبى طالب : « ليتنى لم أتخذ زفر خليلا » . وعن البرقى عن خلف عن أبى بصير عن أبى عبد الله قال: إن فى الكتاب لتغييراً كبيراً ، فان الله سبحانه قد سمى رجلا باسمه فقال القوم : « ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » فكنوا عن اسمه وسيظهر يوماً . وعن أبى جعفر : « و يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياو يلتا : ليتنى لم أتخذ زفر خليلا » يقول الأول للثانى [1]

وقال فى سورة الأحزاب : روى على بن إبراهيم بالسند عن أبى عبد الله فى قوله تعالى : « ومن يطع الله و رسوله فى ولاية على والأئمة من بعده فقد فاز فوزاً عظيما » هكذا نزلت

وقال من سورة التحريم : عن أبى عبد الله ، « إن تتوبا إلى الله مما هممتما به من السحر فقد زاغت قلوبكما »

وقال فى سورة الملك : روى السيارى بالسند عن أبى بصير قال سألت أباعبد الله عن قول الله : « إن أهلكنى الله ومن معى » قال هذه الآية مما حذفوا وغيروا و بدلوا ، فان الله عز وجل لا يهلك محمداً رسوله ولا من كان معه من المؤمنين وهو خير ولد آدم ، ولكن قال الله : « أرأيتم إن أهلككم الله جميعاً [2] و رحمنا

(١) اى يقول ابو بكر لعمر . فالظالم فى الآية هو الصديق وزفر هو الفاروق

(٢) هذا يدل على أنهم يكفرون جميع الصحابة المخاطبين بالقرآن

فمن يجيركم من عذاب أليم ؟ »

وقال فى سورة « الجن » : عن محمد بن أبى بكر بالإسناد عن أبى جعفر فى قوله تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » قال هم الأوصياء والأئمة منا واحد فواحد : « فلا تدعوا إلى غيرهم فتكونوا كمن دعا مع الله أحدا » هكذا نزلت .

وقال فى سورة المزمل : روى الكليني بالاسناد عن محمد بن الفضيل قلت : « واصبر على مايقولون فيك واهجرهم هجراً جميلا وذرنى يامحمد والمكذبين بوصيك أولى النعمة » قلت : إن هذا تنزيل ؟ قال : نعم .

لماذا سميت الشيعة ترابا

وقال فى سورة (النبأ) : روى الشيخ الجليل محمد بن إبراهيم النعمانى فى تفسيره عن الصادق عن أمير المؤمنين فى أمثلة الآيات المحرفة قال عليه السلام : ومثله : « ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابياً » فحرفوها فقالوا « ترابا » . وذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يكثر من مخاطبتى بأبى تراب . وهنا أورد روايات كثيرة ، قال : وقال العلامة المجلسي فى تاسع بحاره : يمكن أن يكون ذكر الآية لبيان وجه آخر لتسميته بأبى تراب لأن شيعته لكثرة تذللهم له وانقيادهم لأمره سموا « ترابا » كما فى الآية الكريمة ، ولكونه قائدهم ومالك أمورهم[1] سمي أبو تراب (كذا فى النسخة المطبوعة) . ويحتمل أن يكون استشهاداً لتسميته بأبى تراب ، أو لأنه وصف به على جهة المدح لاعلى مايزعمه النواصب لعنهم (كذا) حيث كانوا يصفونه به استخفافاً . فالمراد بالآية : « ياليتنى كنت ترابياً » . والأب يسقط فى النسبة مطرداً وقد تحذف الياء أيضاً كما تقول : تميم وقريش لبنيهما . . .

(١) وهذا تصريح من القوم جرئ بتأليههم عليا وباعتقادهم أنه مالكهم ومالك امورهم ، وهذا كثير فى كلامهم .

وقال فى سورة « التكوير » : إن قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت » محرفة عن : « وإذا المودة سئلت » قال : ويراد بها مودة أهل البيت المضيعة.

وقال فى سورة الليل قال قرأ أبو عبد الله : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، الله خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، ولعلى الآخرة والأولى » قال هكذا نزلت . قال : وعن يونس عن على بن أبى حمزة عن فيض بن المختار عن أبى عبد الله أنه قرأ : « إن عليا للهدى ، وإن له للآخرة والأولى [1] » وهنا ذكر روايات كثيرة .

الآخرة والاولى لعلى بن ابى طالب

وقال فى سورة الانشراح : إن القرآن هكذا : « ألم نشرح لك صدرك بعلى ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، بعلى صهرك . فاذا فرغت من نبوتك فانصب عليا وصيا ، وإلى ربك فارغب فى ذلك » .

وقال فى (سورة) القدر : إن السورة هكذا نزلت : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ما ليلة القدر ! ليلة القدر خير من ألف شهر يملكها بنو أمية ليس فيها ليلة القدر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من عند ربهم على محمد وعلى أوصياء محمد وعلى آل محمد بكل أمر » .

وقال فى سوره الكوثر : إنها نزلت هكذا : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك عمرو بن العاص هو الأبتر » .

هذه أشياء يسيرة قليلة من الأشياء الكثيرة التى نقلوها فى كتاب « فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب » وزعموها من كلام الله . وقد ذكر صفحة ١٨٥ كلاماً طويلا على اعتباره سورة من السور المحذوفة قال : قال صاحب

(١) ولا ريب فى ان هذا كفر بواح نعوذ بالله .

كتاب « بستان المذاهب » بعد ذكره أصول عقائد الشيعة مامعناه : و بعضهم يقولون : إن عثمان أحرق المصاحف وأتلف السور التي كانت في فضل علي وأهل بيته عليهم السلام منها هذه السورة :

كلام تزعمه الشيعة سورة محذوفة من القرآن

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم ، نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم . إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنات النعيم ، والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وماعاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم ، ظلموا أنفسهم وعصوا الوصي الرسول[1] أولئك يسقون من حميم . إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل الله مايشاء ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم . إن أخذي شديد أليم : إن الله قد أهلك عاداً وثموداً (كذا بالتنوين) بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة فلا تتقون . وفرعون بما طغا على موسى وأخيه هارون أغرقته ومن تبعه أجمعين ليكون لكم آيته (كذا) وإن أكثركم فاسقون ، إن الله يجمعهم في يوم الحشر فلا يستطيعون الجواب حين يسألون . إن الجحيم مأواهم ، وإن الله عليم حكيم . يا أيها الرسول بلغ إنذاري فسوف يعلمون . قد خسر الذين كانوا عن آياتي وحكمي معرضون[2] مثل الذين يوفون بعهدك إني جزيتهم جنات النعيم[3] إن الله لذو مغفرة وأجر عظيم ، وإن علياً من المتقين ، وإنا لنوفيه حقه يوم الدين ، مانحن عن ظلمه بغافلين ، وكرمناه على أهلك أجمعين ،

---

(1) وهذا نص على انهم يعتقدون عليا رسولا مع الرسول أو هو الرسول .

(2) كذا بالواو والنون . (3) مثل هذه التراكيب الركيكة لا يقولها عربي ابداً فضلا عن أن يقولها الله تعالى عن ذلك . ولا شك ان هذا الكلام من تاليف الاعجام الجهلاء بلغة العرب . وهذا يقوى ما ذكرناه من ان مذهب الشيعة من وضع العجم دون العرب .

فانه وذريته لصابرون ، وإن عدوهم إمام (شكلت الميم بالنصب) المجرمين ، قال للذين كفروا بعد ما آمنوا : أطلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم ما وعدكم الله ورسوله ونقضتم العهود من بعد توكيدها . وقد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون . يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفاه مؤمنا ومن يتولاه من بعدك يظهرون . فأعرض عنهم إنهم معرضون (ما معنى هذا المراء ؟) إنا لهم محضرون (شكلوه بفتح الضاد) فى يوم لا يغنى عنهم شئ ولا هم يرحمون . إن لهم فى جهنم مقاماً عنه لا يعدلون . فسبح باسم ربك وكن من الساجدين . ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف فبغوا هارون (مامعنى هذا ؟) فصبر جميل ، فجعلنا منهم القردة والخنازير ولعناهم إلى يوم يبعثون . فاصبر فسوف يبصرون . ولقد آتينا بك الحكم (كذا) كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصياً لعلهم يرجعون . ومن يتولِّ (وضعوا كسرة تحت اللام) عن أمرى فإنى مَرْجَعَهُ (كذا شكلوه) . فليتمتعوه بكفرهم قليلا فلا تسأل عن الناكثين . يا أيها الرسول قد جعلنا لك فى أعناق الذين آمنوا عهداً فخذه وكن من الشاكرين . إن علياً قانتاً بالليل ساجداً (كذا) يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه . قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابى يعلمون (يستوون هم ومن أيها العلماء) سيجعل الاغلال فى أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون (كذا كسرت الدال) إنا بشرناك بذريته الصالحين وإنهم لأمرنا لا يَخْلِفُون (كذا ضبطوه) فعليهم منى صلوات ورحمة أحياء وأمواتا يوم يبعثون ، وعلى الذين يبغون عليهم من بعدك غضبى ، إنهم قوم سوء خاسرين (كذا بالياء والنون) وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم فى الغرفات آمنون . والحمد لله رب العالمين »

قال الرافضى بعد إيراده هذا الكلام على أنه سورة من القرآن : « قلت ظاهر كلامه أنه أخذها من كتب الشيعة ولم أجد لها أثراً فيها غير أن الشيخ محمد

ابن على بن شهراشوب المازندرانى ذكر فى كتاب المثالب على ما حكى عنه أنهم أسقطوا من القرآن تمام سورة الولاية ، ولعلها هذه السورة . والله العالم . . » .
انتهى كلام الرافضى .

وهذا الكلام الذى يزعمونه من كلام الله لا يصح أن يكون من كلام عوام العرب وجهلائهم فضلا عن أن يكون من كلام الله ومن كلام رسوله أو من كلام أحد الأئمة المعصومين عندهم من آل البيت النبوى . و إنما هو من كلام الأعجام الذين لا يعرفون أساليب اللغة العربية ، ولا يعرفون نحوها ، ولا صرفها ولا مفرداتها ولا قواعدها . وهذا القرآن يضارع قرآن غلام أحمد القاديانى ، بل ذاك انظف وأفضل قرآناً . و إذا قيل فى الشعر :

هل من الاحسن الاعراض عن هذه الافات الاعتقادية

وهاج نفسه من لم يميز * كلامى من كلامهم الهراء

كان أهجى لنفسه ولعقله وذوقه وفطرته واستعداده ذاك الذى لا يميز كلام الله من كلام هؤلاء الأعاجم . ويخطئ الذين يحسبون أن من الخير والأحسن الاعراض عن مثل هذا الكلام والاعراض عن نقله وعرضه على القراء لئلا تحوم حول القرآن حائمة من الشبهات والريب . وهذا الزعم خطأ ظاهر . وذلك أن من الانتصار للقرآن أن نضع هذا الهراء إزاءه ليتبين فضله و إعجازه ، ولتظهر خيبة المعارضين له المتكذبين عليه إذ (و بضدها تتبين الأشياء) . والحق يزداد جمالا و وضوحاً وقوة حينما يوضع إلى جانبه الباطل ، والعالم يتبين فضله بإزاء الجاهل ، والنجوم الثواقب لا يتبين اشراقها ولألاؤها وجمالها إلا فى وسط الدجنات الحوالك

وهذا الكتاب — أعنى كتاب (فصل الخطاب ، فى تحريف كتاب رب الأرباب) يقع فى ما يناهز أربعمائة صفحة كبيرة . وكله من هذا النوع الفاحش ، الذى يتبرأ إن شاء الله منه كل من يؤمن بالله و باليوم الآخر ، و يتبرأ

منه كل من يحب أمتــه وقومه ، بل يتبرأ منه كل عربى على وجه الأرض . إذ لا شك أن هذا كله من وضع المعادين للعرب وللاسلام والمسلمين ، الكائدين لله ولرسوله ولصحابته شنآنا من عند أنفسهم .

ويلاحظ مما نقلناه أن وضعة هذا الكفر والالحاد كانوا يقصدون بما يضعون أمرين اثنين : أحـدهما الامعان فى ثلب الصحابة والمسلمين و تنقصهم وإكفارهم ووضعهم فى زمر الملحدين والمنافقين الذين لم يؤمنوا بالله ولا برسوله ولا بدينه قط ، والذين مازالوا يكيدون للاسلام ولأهل الاسلام ونبى الاسلام . وهذا الغرض ظاهر بارز فى الجمل التى نقلناها من كلامهم . . . وثانى الأمرين الامعان فى تعظيم على بن أبى طالب وآله المعدودين عندهم إلى حد أن جعلوهم أنبياء ورسلاً ، بل فوق الأنبياء والرسل . فإنهم جعلوا الملائكة والروح يتنزلون عليهم ليلة القدر بكل أمر ، وجعلوهم مختلف الملائكة ، أى موضع اختلافهم ، أى مجيئهـم وذهابهم ، وجعلوهم « الـكتب الناطقة بكل غائب ومستور ، والزبر المحتوية لما يكون أو مضى فى سالفات الدهور . . . ومفاتيح خزانة العلم المسطور فى رق منشور ، خصوصاً على مختلف الملائكة فى الآصال والبكور[1] ، القطب الذى على مدار وجوده الأفلاك تدور[2] . . » كما تقدم فى خطبة الـكتاب . ولم يقفوا عند هذا الحد الأبعـد الفظيع بل تجاوزوه بمراحل وفراسخ حتى جعلوا عليا الهـدى ، وجعلوه المـالك للآخرة والأولى ، المالك لهم ولأمورهم كلها ، وجعلوا الرسول مالك أزمة النشور ، وجعـلوا الأمر كله له ، وزعموا قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شئ » محرفاً مبدلاً . ومن القبيـح أن صاحب هذا

---

(١) يعنون ان الملائكة تختلف الى على بن ابى طالب صباحا ومساء . والانبياء لا يزيدون عن هذا شيئا

(٢) وهذه هى المعضلة التى لا تفهم ، اذ ما معنى دوران الافلاك على مدار وجود على؟ لا معنى لهذا الا ان يراد انه هو مسير الافلاك ومسير العالم كله وجودا وفناء وتصريفا .

الـكتاب ـ أعنى كتاب« فصل الخطاب » ـ يقول فى أثناء مباحث الـكتاب هذه الجملة : « فأقول مستمداً من آل الرسول! » كما يقول المسلم : «فأقول مستمداً من الله أو مستعيناً بالله »

فوضعة هـذا الـكلام يقصـدون من وراء ما وضعوا ويضعون أمرين : تنقص أوائل المسلمين ، ووضعهم فى أرذل طبقات المنافقين ، والضالين المجرمين ثم الغلو بآل النبى الغلو الأبعد المنكر إلى حد العبادة والتأليه . أما الأمر الأول فالحامل لهم عليه خصومة العرب وشنآن الاسلام ، لأنهم ليسوا عرباً ، ولأنهم لم يدخلوا حقيقة فى الاسلام . وأخص بهذا نفس وضعة هذا الـكلام الذى نقلناه لاأتباعهم المقلدين لهم إذ قد يكونون مخدوعين بهم . وهذا عندنا ظاهر واضح. وأما الأمر الثانى فهو نتيجة للأمر الأول. فانهم عند ما امتلأت صدورهم بعداوة العرب و بشنآن الاسـلام حاولوا حرب هـذين العدوين الخصمين بلا خصومة منهما ، وحاولوا ضربهما الضربات القاتلة ، فكان السـلاح الذى حملوه للانتقام من هـذين الخصمين وللايقاع بهما هو الغـلو فى آل النبى . والغلو فى آل النبى له أثران ونتيجتان : أحـدهما إفساد الدين والتوحيد بعبادتهم وباعطائهـم حق الله الخالص له . وثانيهما إفساد الدولة بالثورات والاضطرابات . وبهـذين الأثرين أو النتيجتين يستطاع الانتقام من العـرب بازالة ملـكهم واكتساح سلطانهم ، ويسـتطاع الانتقام من الاسـلام ـ وهو عز العرب ـ بافساد أصوله وعقائده ، ومزجه بالشرك وعبادة المخلوقين . فاذا زال ملك العرب وتناثرت عروشهم الواحد تلو الواحد ، وفسدت عقائدالاسلام وأصوله ، وأصابها ما أصابها ولابسها مالابسها من الاشراك والضلال فقد تم الانتقام بأروع صوره ومظاهره .

وقد كنت سمعت من أحد الذين عرفوا بعض أغراض هذه الطائفة وألموا بشىء من أسرارها وأسرار دعوتها ودعاويها ـ لأنه كان معايشاً لهم مواطناً ـ انهم

يزعمون إيماء — وأحيانا تصريحاً — أن القرآن لم ينزل — كما يقول المسلمون جميعاً — لهداية الخلق ودعايتهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم . . . وإنما نزل لأجل التعريف بعلى وبآله ، ونزل للدلالة عليهم والحض على إكبارهم وتقديسهم ولهذا فان الشرائع عندهم تؤخذ مما يروونه بكتبهم عن على وعن الأئمة المعصومين لا من القرآن ولا من السنة النبوية ، بل الكتاب والسنة لا وزن لهما عندهم وقد تقدمت الدلائل على ذلك .

لماذا نزل القرآن عند الشيعة

وقد تبين لى اليوم صدق هذا القائل إلا أنى أزيد عليه شيئا ، فأقول : إنهم يرون أن القرآن لم ينزل إلا لأمرين اثنين : أحدهما امتداح على وآله ، هذا الامتداح الأحمق المجنون أو المخادع المنافق . وثانيهما هجاء الصحابة وهجاء المسلمين وإكفارهم وإفساقهم وقذفهم بكل الأدواء النفسية والاعتقادية ، ورشقهم بتهمة النفاق الحاذ المنكر . والدليل على ذلك زعمهم أن المحذوف من القرآن أكثر من النصف — وهذا مذكور فى هذا الكتاب وفى غيره . وقد زعموا أن المحذوف منه إما هجاء وإكفار للصحابة وللمسلمين ، وإما ثناء ومديح لعلى ولآله ، إلا الأقل النادر . وقد زعموا أيضاً أن الموجود من القرآن المبقى عليه يراد بالكثير منه امتداح على وآله وثلب الباقين من المسلمين . وقد زعموا كما تقدم أن القرآن قد نزل بمذمة ستين أو سبعين رجلا من رؤوس قريش مصرحاً بأسمائهم ، وبعلاماتهم الجلية الظاهرة ، وأن الصحابة المنافقين حذفوهم بعد رسول الله من القرآن رعاية لقريش المشركين . وإنما أبقوا على أبى لهب احتقاراً لرسول الله وإزدراء به لأنه عمه . . . فكأن القرآن ما نزل عندهم إلا لهذين الغرضين : هجاء المسلمين بادئا بالصحابة ، وامتداح على وأولاده والتعريف بحقوقهم . وأغراضهم الحقيقية من وراء ذلك هى ما ذكرناه .

نحن لا نناقش القوم بهذه الكلمة ، وإنما ذكرناها ذكرنا لنقول : ألا يخجل قوم

هذا نصيبهم من عناد الإسلام وحرب المسلمين من أن يؤلفوا كتاب « كشف الارتياب ، فى أتباع محمد بن عبد الوهاب » ليضمنوه غيرتهم على دماء المسلمين وعلى أعراضهم وعقائدهم ، ولكى نعرف ـ معاشر المسلمين ـ أعداءنا من أصدقائنا ، لنقف من الفريقين موقفا صريحاً واضحاً ، يدفعنا إليه الإخلاص للاسلام ، والحرص على جماعات المسلمين . فما ينفعنا أن يكون عدد المسلمين أربعمائة مليون من أمثال هؤلاء ، ومايضرنا أن يكون عددهم مائة ألف مسلم أمثال المسلمين الذين توفى عنهم رسول الله . بل ما يضرنا أن يكونوا مسلماً واحداً مثل الصديق أو الفاروق . إن فخر الشعوب والأمم وقوتها ليس بالعدد ، ولكن بالعمل . والشواهد على هذا منظورة فى الوقت الحاضر ، مقروءة فى الزمن الغابر. وقد كان الصحابة يوم أن توفى رسول الله ﷺ لا يزيدون على مائة ألف ، وقد استطاعوا أن يبعثوا من عددهم هذا الضئيل عدة جيوش مختلفة إلى جهات مختلفة فيقهروا بها أقوى دول الأرض إذ ذاك . وكان عددهم فى غزوة بدر الفاصلة ثلاثمائة ، وقد استطاعوا أن ينتصروا بتلك الفئة القليلة أول انتصار حاسم للاسلام . وقد كان عددهم أقل من ذلك وأكثر . وكانوا فى تلك الحالات كلها أعز منهم اليوم وعددهم كما يقولون أربعمائة مليون . فأين غناء هذا العدد الهائل ؟

المسلمون أمس واليوم

شعبان سنة ١٣٥٧ هـ　　عبد الله على القصيمى　　بالقاهرة


تم الجزء الثانى ويليه إن شاء الله الجزء الثالث

فهرست الجزء الثانى

﴿ من كتاب الصراع بين الاسلام والوثنية ﴾

صفحة

صفحة

صفحه

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

﴿ تم الفهرس ﴾

كتب المؤلف ـ وكلها مطبوعة

١ البروق النجدية فى اكتساح الظلمات الدجوية

٢ شيوخ الأزهر

٣ الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم

٤ مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها

٥ نقد كتاب « حياة محمد »

٦ الثورة الوهابية

٧ الجزء الأول من كتاب « الصراع بين الاسلام والوثنية »

٨ الجزء الثانى منه وهو هذا

عبد الله القصيمي
قلب معسكر الأصلاح فى الشرق

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ حسن القاياتى

معسكر الاصلاح في الشرق ، طليعته ابن خلدون ، باكورة الاجتماعيين ، وجناحاه السيد الأفغانى ، وتلميذاه محمد عبده والسيد الكواكبي ، أما قلبه فهو السيد القصيمى نزيل القاهرة اليوم ، نجدي فى جبته وقبائه ، وصمادته وعقاله ، اذا اكتحلت به عيناك لأول اللاحته ، قلت : زعيم من زعماء العشائر النجدية ، تخلف عن عشيرته ، لبعض طيته ، حتى اذا جلست اليه فأصغيت الى حديثه الطيب أصغيت الى عالم بحر يفهق بعلم ديني واجتماعي .

تعرفت الى العالم النجدى القصيمى ، فجلست الية مرة ومرة ، ثم شاهدته كرة ، فناهيك منه داعية اصلاح ، أكثر ما يلهج به الشرق وأدواؤه وجهله وذواؤه .

لم أقض العجب حين شهدت السيد القصيمى من عرق فى شمائله ، ملتف فى شملته ، يروعك منه عالم فى مدرسته ، كاذ يحيلنى شرقيا بغيرته الشرقية ، وقد بنيت مصريا .

حيا الله السيد القصيمى . ما أصدق نظرته الى الحياة . وأبعد مرماه فى الهداية . يقول الأستاذ القصيمى :

« شعبان هبطا هذا الكوكب الأرضي الواسع الأرجاء . فسار شعب تحت ضمان معرفته فى قوة لاتكبو ولاتضل . فاستغل واستقل . وشعب آخر هبط غريبا فى هذا الكوكب ، جاهلا نواميسه وقوانينه . فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع ، هذان شعبان ، فماذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما . ليس هنالك ادنى ريب فى أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان »

مجلة المقتطف . العدد الصادر فى ١٠